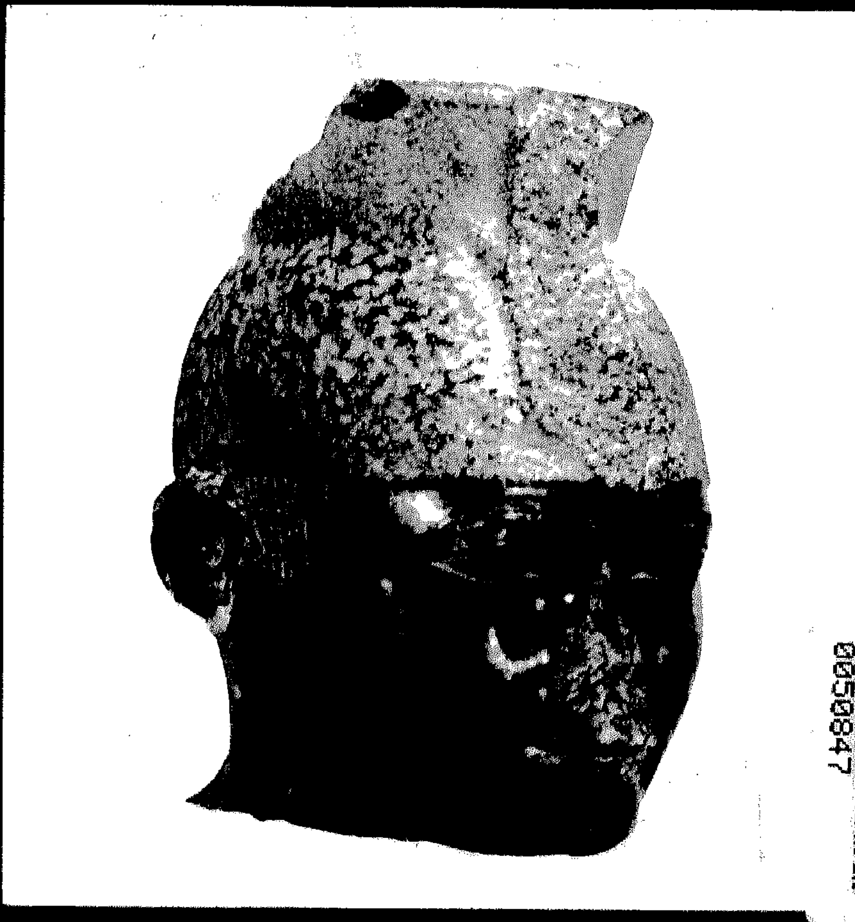
اللجنة العلمية الدولية لتحرير تاريخ افريقيا العام (اليونسكو)

تاريخ إفريقيا العام

المجلّد الثاني
حضارات افريقيا القديمة

المشرف على المجلد: د. جمال مختار



جين أفريك / اليونسكو

تاريخ
إفريقيا
العام

اللجنة العلمية الدولية لتحرير تاريخ افريقيا العام (اليونسكو)

تاريخ إفريقيا العام

المجلّد الثاني
حضارات افريقيا القديمة

المشرف على المجلد: د. جمال مختار

جين أفريك / اليونسكو

المحتويات

المجلد الثاني من
الطبعة العربية من تاريخ افريقيا العام

الترجمة : السيد أحمد عبد الرحيم مصطفى، السيد عباس سيد أحمد زروق، السيد أحمد محمد علي حاكم، السيد نور الدين ساتي، السيد محمد محمد أمين، السيد يوسف الياس الحسين

المراجعة : الاستاذ عبد اللطيف احمد علي وشعبة الترجمة العربية باليونسكو

نظرت لجنة القراءة العربية، المتفرعة من اللجنة العلمية الدولية، في جميع فصول المجلد ونقحتها. وتتألف لجنة القراءة من السادة: م. الفاسي (المغرب)، ي. ا. طالب (سنغافورة)، هـ. جعيط (تونس).

التأريخ

لقد تقرر تدوين التواريخ الخاصة بعصر ما قبل التاريخ على النحو التالي:
- إمّا بالاشارة الى الحاضر باعتبار سنة الأساس +١٩٥٠ وتكون جميع التواريخ سلبية بالنسبة الى +١٩٥٠.
- أو بالاشارة الى بداية التاريخ الميلادي وتوضع علامة + أو - أمام التواريخ المحددة بالنسبة للتاريخ الميلادي.

أمثلة :

(١) ٢٣٠٠ قبل الحاضر = -٣٥٠
(٢) ٢٩٠٠ قبل الميلاد =-٢٩٠٠
١٨٠٠ ميلادية =+١٨٠٠
(٣) القرن الخامس قبل الميلاد= القرن الخامس قبل العصر الحالي
القرن الثالث ميلادي= القرن الثالث من العصر الحالي.

مقدمة عامة

بقلم جمال مختار
بالاشتراك مع ج. فركوتير

يتناول هذا المجلد من التاريخ العام لافريقيا تلك الحقبة الطويلة من تاريخ القارة التي تمتد من نهاية العصر الحجري الحديث، أي منذ نحو ثمانية آلاف سنة قبل الميلاد، إلى بداية القرن السابع الميلادي.

وهذه الحقبة التي تستغرق حوالى تسعة آلاف سنة من تاريخ إفريقيا جرى تقسيمها، مع بعض التردد، إلى أربع مناطق جغرافية رئيسية:

- وادي النيل – مصر والنوبة (الفصول الأول إلى الثاني عشر)
- المرتفعات الأثيوبية (الفصول الثالث عشر الى السادس عشر)
- الجزء من إفريقيا الذي أطلق عليه غالباً فيا بعد اسم المغرب وما يتصل به من مناطق صحراوية في الداخل (الفصول السابع عشر الى العشرين)
- بقية افريقيا بالاضافة إلى الجزر الافريقية في المحيط الهندي (الفصول الحادي والعشرون إلى التاسع والعشرين).

وهذا التقسيم تفرضه طبيعة التصنيف الحالي للدراسات الخاصة بالتاريخ الافريقي. وقد يبدو أكثر تمشياً مع المنطق ان يصنف هذا المجلد وفقاً للتقسيمات البيئية الرئيسية للقارة، حيث تتهيأ نفس ظروف المعيشة للمجموعات البشرية التي تقطن بكل قسم منها دون ان تعوقها اي حواجز طبيعية من شأنها ان تعرقل الصلات الثقافية وغير الثقافية في داخل المنطقة الواحدة.

ولو أننا التزمنا بالتقسيمات البيئية لأمكننا الحصول على صورة مختلفة تماماً من الشمال إلى الجنوب وتشتمل على ما أطلق عليه منذ القرن الثامن الميلادي اسم جزيرة المغرب التي تتبع منطقة البحر المتوسط من حيث جيولوجيتها ومناخها وبيئتها العامة، بالاضافة الى الحزام الصحراوي الواسع شبه الاستوائي.وحدثه التكتوني المعروف باسم وادي النيل. وبالامكان بعد ذلك التعرض لمنطقة أحواض

الأنهار العظيمة شبه الاستوائية والاستوائية بما في ذلك الساحل الممتد على المحيط الأطلنطي. وإلى الشرق يمكننا افراد قسم خاص للمرتفعات الأثيوبية والقرن الافريقي الذي يطل على شبه الجزيرة العربية والمحيط الهندي. واخيراً كان بإمكان منطقة البحيرات الاستوائية العظمى أن تربط أحواض انهار النيل والنيجر والكونغو بجنوبي إفريقيا وتوابعها مدغشقر والجزر المحيطية الأخرى المجاورة لافريقيا.

ولسوء الحظ فقد ثبتت استحالة استخدام مثل هذا التقسيم الذي يبدو أسلم منطقياً من التقسيم الذي التزمنا باجرائه. ففي الواقع نجد ان الباحث الذي يرغب في دراسة تاريخ إفريقيا في العصور القديمة ينوء إلى حد كبير تحت عبء الماضي. فمجاراة التقسيم الاعتباطي الذي ينعكس في الخطة التي اتبعناها إنما يستقي قدراً كبيراً من دوافعه من الاستعمار خلال القرنين التاسع عشر والعشرين، ومن ثم أرغم المؤرخ – سواء أكان مستعمراً يهتم بالبلد الذي كان يعيش فيه أو أحد أبناء بلد مستعمَر ممن يهتمون بماضي شعبهم – على الالتزام بحدود إقليمية وضعت بصورة تعسفية، وبالتالي صعب عليه إن لم يكن قد استحال عليه، أن يبحث علاقات البلد الذي يعرض له بالبلدان المجاورة، برغم أن هذه العلاقات قد تكاملت في كثير من الأحيان من وجهة النظر التاريخية.

وعبء الماضي الثقيل هذا لم ينته تماماً. والقصور الذاتي، من ناحية، هو السبب في ذلك. فما ان يأخذ سلوك رتيب بتلابيب شخص ما، حتى يجد نفسه – على الرغم منه – ميالاً للاسترسال فيه. ومن ناحية أخرى فإن سجلات إفريقيا – التي تقوم على تقارير خاصة بالحفريات او على نصوص ومجموعات من الرسوم والتماثيل – قد جرى تصنيفها ونشرها فيما يتعلق ببعض المناطق طبقاً لنظام اعتباطي لا يمت بصلة للوضع الراهن في إفريقيا، وإن يكن من الصعب جداً أن يكون مثاراً للشك.

ولا بد لهذا المجلد من تاريخ إفريقيا أن يعتمد على افتراضات قد تتعدى تلك التي طرحت بصدد المجلد السابق. ذلك أن الفترة التي يتناولها يحيط بها الغموض نتيجة لندرة المصادر بوجه عام وبخاصة تلك المصادر المؤرخة تأريخاً يعتد به. وينطبق هذا على كل من المجموعات المتفاوتة من المصادر الأثرية والمصادر المكتوبة أو المصورة، باستثناء ما يتصل بمناطق معينة محظوظة نسبياً مثل وادي النيل والمغرب. وعدم وجود الوثائق التي يعتد بها يستلزم بالضرورة اللجوء إلى الفروض، وذلك نظراً لأن الحقائق اليقينية مستثناة.

ويجب أن نؤكد أمراً آخر هو أن المصادر الأثرية المتاحة للمؤرخ قاصرة إلى حد كبير. فالحفريات لا تتوزع على نحو متكافىء في القارة ككل: فلا توجد في كل مكان التنقيبات الكثيفة التي نجدها بوجه خاص على طول الساحل وفي ظهير الحافة الشمالية، وتزداد كثافتها لا سيما بوادي النيل في المنطقة الممتدة من البحر حتى الجندل الثاني.

ولسوء الحظ فإن قصور المادة الأثرية هذا لا يمكن استكماله بتقارير الرحالة الأجانب المعاصرين للأحداث أو الحقائق التي يضمها هذا المجلد. فطبيعة القارة الوعرة وحجمها ذاته لم يشجعا في العصور القديمة والعصور التي تلتها على تغلغل الوافدين من الخارج إلى أعماقها. وسنلاحظ أن إفريقيا، حسب المستوى الحالي لمعلوماتنا، هي القارة الوحيدة التي ألقت الرحلات حول ساحلها أضواء هامة على تاريخها (انظر الفصلين الثامن عشر والثاني والعشرين).

وهذه الاعتبارات توضح السبب في أن تاريخ إفريقيا منذ الألف السابع قبل الميلاد وحتى بداية القرن الثامن الميلادي لا يزال يقوم على الافتراضات إلى حد كبير. على أن هذه الافتراضات ليست خالية تماماً من أساس تستند إليه. فهي تقوم على معلومات نادرة وقاصرة دون جدال، ولكنها موجودة

على أي حال. وقد اهتم مؤلفو هذا المجلد بجمع وتمحيص هذه المصادر وتحديد أهميتها. وباعتبارهم متخصصين في تاريخ المناطق التي يتتبعون تاريخها، فإنهم يعرضون في هذا المجلد حصيلة ما يمكن استنتاجه استنتاجاً منطقياً من الوثائق التي في متناول أيديهم. ورغم أن الفروض التي يطرحونها عرضة لاعادة النظر حين تتوافر مصادر أخرى، فإن من شأنها دون جدال أن تشجع مؤرخي المستقبل بتزويدهم بما يسترشدون به في بحوثهم.

ومن النطاقات الكثيرة الغامضة التي لا تزال تحجب عنا تاريخ إفريقيا، ذلك الذي يكتنف سكان القارة القدامى، وهو من أشد النطاقات غموضاً - وحتى الآن لا يعرف عن هؤلاء السكان إلا أقل القليل. فمن الصعب فحص مختلف الآراء المتعارضة التي تقوم في كثير من الأحيان على عدد غير كاف من الملاحظات العلمية الصحيحة، في وقت تتعرض فيه الأنثروبولوجيا الطبيعية لتغيرات سريعة. فعلى سبيل المثال نجد أن وحدة الأصل «monogenetism» ذاتها (راجع الفصل الأول) لا تزال في حيز الافتراضات التي قد تساعد على التوصل إلى نتائج. وبالاضافة إلى ذلك فلا شك أن مرور وقت طويل جداً ما بين ظهور ما قبل أو ما قبيل الانسان الذي اكتشف في وادي نهر اومو في اثيوبيا، أو في اولدوفاي في تانزانيا (راجع المجلد الأول) وبين ظهور كائنات ذات نمط بشري محدد الملامح- وبخاصة في جنوبي إفريقيا - يحملنا للأسف على اعتبار الرأي الذي يقول بأنه كان يوجد استمرار مطرد وتطور في نفس الموقع مجرد وجهة نظر الى أن تعززها الأدلة أو اكتشاف حلقات وسيطة.

ومن الضروري جداً إجراء بعض التقويم لكثافة سكان إفريقيا خلال الفترة الحاسمة الممتدة ما بين عامي ٨٠٠٠ و٥٠٠٠ قبل الميلاد، إذ أنها في الواقع هي الفترة التي شهدت ظهور الحضارات التي تفرعت بعد ذلك. بالاضافة إلى ذلك فإن قلة أو زيادة كثافة السكان من شأنها أن تشجع تطور الكتابة أو تجعله أمراً غير ضروري. ولعل أصالة مصر القديمة التي تميزها من بقية إفريقيا في نفس الفترة تكمن في أن الكثافة الكبيرة للسكان في العصور القديمة على طول ضفاف النيل بين الجندل (الشلال) الأول والجزء الجنوبي من الدلتا قد فرضت على السكان تدريجياً استعمال الكتابة، وذلك لمجرد تنسيق نظام الري الحيوي بالنسبة إلى بقائهم. وعلى العكس من ذلك نجد أن استعمال الكتابة لم يكن ضرورياً في المنطقة الواقعة جنوب جندل أسوان التي تتميز بقلة كثافتها السكانية، خاصة وأن المجموعات القليلة ذات الصفات الجسدية المتشابهة التي كانت تسكنها ظلت منفصلة كل منها عن الأخرى. وسوف نرى للأسف الكبير أن كثافة السكان خلال هذه الفترة لا تزال مسألة افتراضية.

وأخيراً فإن البيئة التي تغيرت كثيراً من حيث الحيز والزمان تلعب دوراً هاماً. لقد انتهت الفترة الرّطبة الأخيرة التي تميز بها العصر الحجري الحديث حوالى عام ٢٤٠٠ قبل الميلاد في الوقت الذي كان فيه فراعنة الأسرة الخامسة يحكمون مصر. فالظروف المناخية، وبالتالي الزراعية، التي كانت قائمة إبان فجر الحضارات الافريقية العظيمة الأولى، ليست هي التي سادت بعد ذلك، وهو أمر لا بد أن نأخذه بعين الاعتبار حين نتناول علاقات هذه الحضارات بالشعوب المجاورة. فالبيئة في الفترة الممتدة ما بين عام ٧٠٠٠ قبل الميلاد وعام ٢٤٠٠ قبل الميلاد - وهي فترة استغرقت ٤٦٠٠ سنة وتشكل أكثر من نصف الفترة التي يتناولها هذا المجلد - كانت تختلف اختلافاً شديداً عن تلك التي وجدت بعد النصف الثاني من الألف الثاني. وهذه البيئة الأخيرة التي يبدو أنها شديدة الشبه ببيئتنا المعاصرة قد أثرت تأثيراً كبيراً في المجتمعات البشرية التي كانت تعيش فيها. فليست حياة الجماعة في المناطق الصحراوية الكبرى شبه الاستوائية سواء في الشمال أو في الجنوب مثل الحياة في الغابة الاستوائية العظيمة، كما أن الحياة في سلاسل الجبال ليست ولا يمكن أن تكون مثل الحياة في أحواض الأنهار العظيمة أو أن تكون في

المستنقعات مماثلة للحياة في مناطق البحيرات العظمى. وتأثير هذه المناطق البيئية الكبرى ذو أهمية قصوى، إذ أن تطور الطرق فيها قد أتاح التحرك من منطقة الى اخرى - على سبيل المثال: من المغرب أو من الحبشة الجبلية أو من وادي النيل صوب الأحواض الوسطى للكونغو والنيجر والسنغال، أو من ساحل المحيط الأطلنطي صوب البحر الأحمر والمحيط الهندي. على أن هذه الطرق لم يجر ارتيادها (أو اكتشافها) إلا في أقل القليل - فهي «تخمينية»، أو «افتراضية»، أكثر منها معروفة بالفعل. ومن شأن الدراسة الأثرية المنهجية لهذه الطرق أن تكشف لنا جانباً كبيراً من تاريخ إفريقيا، إذ أننا لن نستطيع في الواقع، قبل اكتشافها واستقصاء معالمها، أن نقوم بدراسة مجدية للهجرات التي تمت بين عامي ٨٠٠٠ و٢٥٠٠ ق.م أي في الفترة التي تلت التغيرات المناخية العظيمة الأخيرة وأدت إلى حدوث تغيير عميق في توزيع المجموعات البشرية في إفريقيا.

وحتى الآن ليست لدينا سوى معالم قليلة جداً لهذه الطرق - بل إن من المفهوم أن بعضها قد يكون غير معروف لنا تماماً. فدراسة الصور الفوتوغرافية التي تلتقطها الأقمار الصناعية لا بد أن تلقي أضواءً جديدة تماماً على المحاور الرئيسية القديمة للمواصلات عبر إفريقيا وعلى الطرق الثانوية التي لا تقل عنها أهمية. ولكن الدراسة المنهجية لهذه الصور لم تجر حتى الآن. ومن شأن القيام بها أن يمكننا كذلك من ضبط وتسهيل التحقق من صحة المعلومات الأثرية في مواقعها، وهو أمر ضروري لتقويم نواح عدة منها التأثيرات المتبادلة بين المناطق الحضارية الرئيسية في التاريخ القديم. وربما يمكن في هذا المجال ان نتوقع من البحث المزمع اجراؤه أوفر النتائج.

وهكذا نجد أن فصول المجلد الثاني من تاريخ إفريقيا تتضمن نقاط بدء للدراسة المستقبلية أكثر مما تتضمن تكراراً لحقائق مقررة. ولسوء الحظ فإن حقائق من هذا النوع نادرة جداً باستثناء ما يتعلق ببعض المناطق الممعنة في الصغر بالمقارنة بمساحة القارة الافريقية الضخمة.

ويتبوأ وادي النيل، من بحر الغزال جنوباً إلى البحر المتوسط شمالاً، مكانة خاصة في تاريخ إفريقيا القديم. وهذه المكانة الخاصة ترجع الى عدة عوامل هي: أولاً، موقعه الجغرافي، ثم طبيعة بيئته الخاصة بالنسبة الى باقي القارة. وأخيراً قبل كل شيء فهناك الوفرة وهي نسبية، وإن تكن فريدة لا نظير لها في افريقيا في المصادر الأصلية ذات التواريخ المضبوطة التي تمكننا من تتبع تاريخه منذ نهاية العصر الحجري الحديث (حوالى عام ٣٠٠٠ قبل الميلاد) حتى القرن السابع الميلادي.

الموقع الجغرافي

يقع وادي النيل إلى حد كبير موازياً لسواحل البحر الأحمر والمحيط الهندي التي يتصل بها عن طريق انخفاضات منحدرة نحو مجراه انحداراً شديداً. كما ينفتح من جنوب خط عرض ٨° شمالاً وحتى البحر المتوسط باتساع على الغرب وذلك بفضل الوديان التي تبدأ في منطقة تشاد والتيبستي والانيدي وتنتهي عند مجرى النيل. وأخيراً فإن الامتداد الواسع للدلتا وواحات الصحراء الليبية وبرزخ السويس يهيىء له منفذاً واسعاً إلى البحر المتوسط. ومن هنا فإن ممر النيل المنفتح على الشرق والغرب وعلى الشمال والجنوب يمثل منطقة ذات اتصالات ممتازة ليس فقط مع المناطق الافريقية المحيطة بها بل أيضاً مع مراكز الحضارة القديمة الأبعد منه والواقعة في شبه الجزيرة العربية والمحيط الهندي وعالم البحر المتوسط غرباً وشرقاً.



زحف الرمال على وادي النيل.

وقد اختلفت أهمية هذا الموقع الجغرافي باختلاف الأزمنة. ففي إفريقيا تميزت .
الحديث بفترة رطبة نهائية استمرت إلى حوالى عام ٢٣٠٠ قبل الميلاد في نصف
خلال هذه الفترة التي امتدت من الألف السابع حتى الألف الثالث قبل الميلاد تهر
إلى شرق وإلى غرب النيل ظروف مناخية مؤاتية للاستقرار البشري، وبالتا
والعلاقات بين شرقي القارة وغربيها كانت توازي في اهميتها تلك التي قامت بين

وعلى العكس من ذلك، فإن جفاف هذا الجزء من إفريقيا الواقع بين خط
شمالاً بعد عام ٢٤٠٠ قبل الميلاد قد جعل حوض النيل أهم طريق للمواصلا
الواقع على البحر المتوسط وما يسمى الآن بإفريقيا جنوب الصحراء. وعن طريق
المواد الخام والمواد المصنوعة، والأفكار دون جدال، من الشمال إلى الجنوب

ومن الواضح ان التغيرات المناخية قد جعلت الموقع الجغرافي لحوض النيل الأ
مصر لا يكتسب نفس الأهمية – أو بعبارة أدق نفس التأثير – خلال الفترة الممتدة
و٢٤٠٠ ق.م. الذي اكتسبه بعد هذا التاريخ. فبين هذه السنوات كان بإمكان
والثقافات أن تتحرك بحرية في نصف الكرة الشمالي ما بين الشرق والغرب وما بير
وهذه هي الفترة الأساسية التي تشكلت فيها الحضارات الافريقية وتميزت كل من
أنها أيضاً هي الفترة التي كانت فيها الصلات بين الشرق والغرب وبين وادي النيل
الأوسط، من ناحية، وبين غربي وشرقي إفريقيا، من ناحية اخرى، أسهل

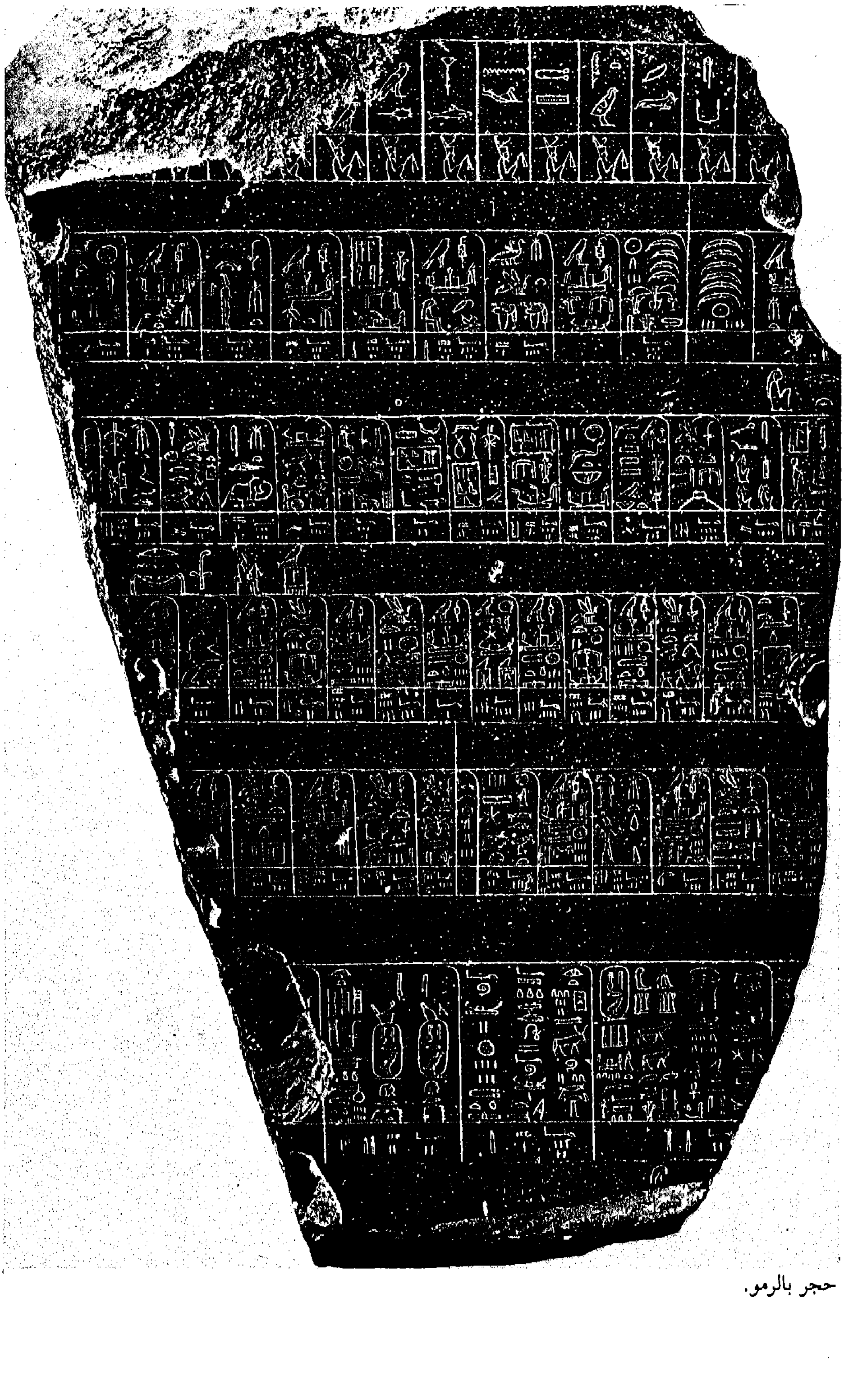
على أنه في الفترة الممتدة ما بين ٢٤٠٠ قبل الميلاد والقرن السابع الميلادي أ
الطريق المفضل بين شمالي القارة وجنوبها – وعن طريق هذا الوادي جرت التـ
إفريقيا السوداء والبحر المتوسط.

مصادر تاريخ وادي النيل في العصور القديمة

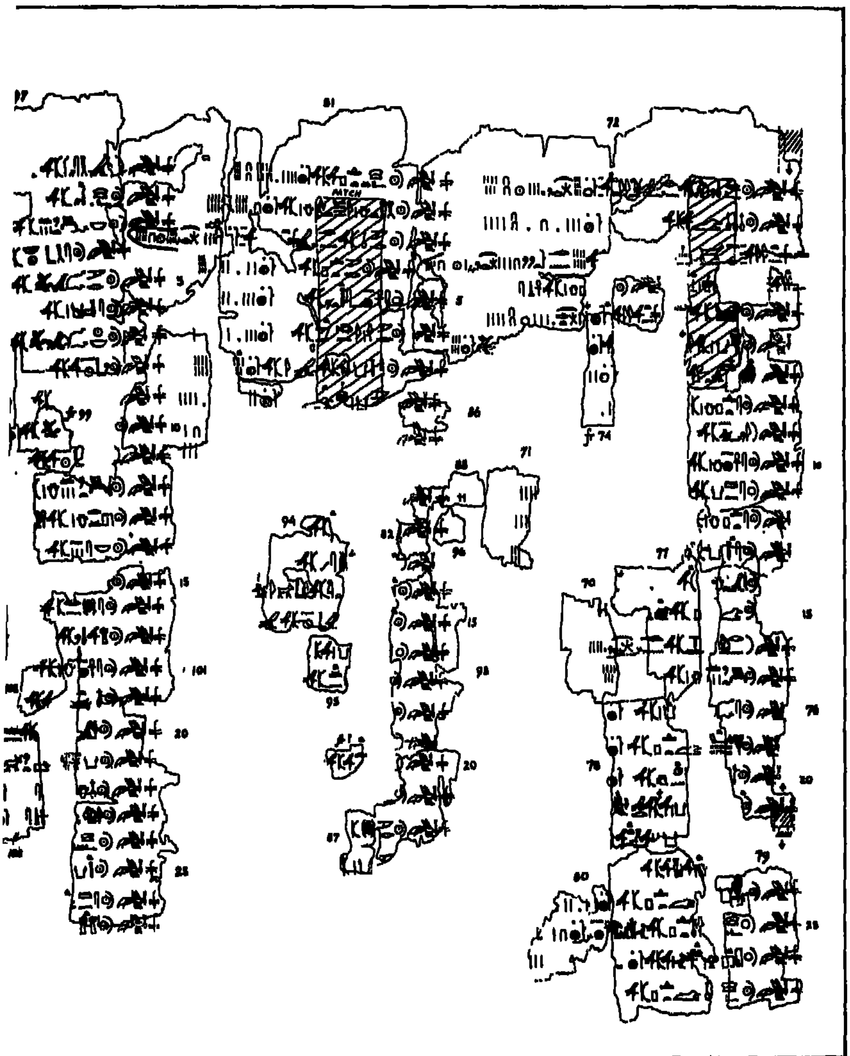
ترجع أهمية وادي النيل ومزاياه إلى وقوعه في الركن الشمالي الشرقي من القارة.
يبقى مجرد مبحث مثير للذهن، يصلح في أحسن الأحوال كمقدمة للبحث التاري
المنطقة من إفريقيا أغنى ما تكون من حيث المصادر التاريخية القديمة. فهذه المصـ
وتقويم دور العوامل الجغرافية في تاريخ إفريقيا ككل منذ حوالى ٥٠٠٠ قبل الميلا
الحصول ليس فقط على معلومات دقيقة نسبياً عن تاريخ الأحداث في مصر ذاتها
الأخص بفكرة محددة عن الحضارة المادية والحياة الفكرية والدينية في وادي النيل الا
مستنقعات بحر الغزال.

والمصادر التي في متناول أيدينا بعضها ذات طبيعة أثرية، ومن ثم فهي صاه
الناحية الظاهرية – وبعضها الآخر كتابية أي مؤلفات. والمصادر الأولى، وبـ
بالفترات الأقدم لم تكتشف ويجر تجميعها إلا منذ وقت قريب. وهي لا تزال ليس فقـ
بل إنها أيضاً لم يجر استعمالها إلا في أضيق نطاق. أما المصادر المكتوبة – من ناحية
راسخة.

فقبل شامبليون كانت مصر الغامضة مثاراً لحب الاستطلاع. فمنذ العصر الـ
القرن السادس قبل الميلاد نجد أن الاغريق خلفاء ما قبل الهيلينيين يوجهون الا



حجر بالرمو.



بردية تورين.

القائم بين عاداتهم ومعتقداتهم هم وبين عادات ومعتقدات وادي النيل. ويرجع الفضل إلى هيرودوت في وصول ملاحظاتهم إلينا. ولكي يتمكن ملوك البطالمة من التوصل إلى فهم أحسن لرعاياهم الجدد بعد أن أدهشتهم أصالة الحضارة المصرية أمروا في القرن الثالث قبل الميلاد بجمع تاريخ مصر الفرعونية بحيث يتناول الملامح السياسية والدينية والاجتماعية. وقد كلف مانيتون - المصري المولد - بكتابة هذا التاريخ العام لمصر، وسمح له بالاطلاع على السجلات القديمة التي كان بإمكانه قراءتها. ولو أن كل مؤلفه وصل إلى أيدينا لوفرنا على أنفسنا كثيراً من الشكوك، ولكنه اختفى لسوء الحظ حين احترقت مكتبة الاسكندرية. ورغم ذلك فإن ما تبقى من المقتطفات المحفوظة في مؤلفات مختلفة جرى تجميعها في أحيان كثيرة للاستشهاد بها في المجادلات العقائدية، يوفر لنا اطاراً متيناً للتاريخ المصري. وفي الواقع إن الأسرات الاحدى والثلاثين التي صنفها مانيتون لا تزال حتى اليوم هي الأساس الراسخ للتسلسل الزمني لتاريخ مصر.

ولقد أدى إغلاق آخر المعابد المصرية في عهد يستنيان (جستنيان) الأول في القرن السادس الميلادي إلى التخلي عن الأشكال الفرعونية للكتابة، سواء أكانت هيروغليفية أو هيراطيقية أو ديموطيقية، بحيث لم تبق إلا لغة الكلام، القبطية - وبالتدريج بطل استعمال المصادر الكتابية. ولم يحدث حتى عام ١٨٢٢ حين قام جان فرنسوا شامبليون (١٧٩٠ - ١٨٣٢) بفك طلاسم الكتابة أن أمكننا قراءة الوثائق القديمة التي كتبها المصريون أنفسهم.

ويجب تناول هذه المصادر المصرية القديمة المكتوبة بحذر لأنها ذات طبيعة خاصة. ففي كثير من الأحيان جرى وضعها تحقيقاً لهدف خاص: لتعديد أعمال فرعون ما إيضاحاً لكونه قد حقق بالكامل مهمته الأرضية الخاصة بالمحافظة على نظام الكون الذي أرادته الآلهة (مَعَات) والتصدي لقوى الفوضى التي ازداد تهديدها لذلك النظام أو لضمان العبادة الأبدية وتخليد ذكرى الفراعنة الذين استحقوا عرفان أجيال المستقبل. وفي إطار هذين النوعين من الوثائق تأتي النصوص الطويلة والصور التاريخية التي تزين بعض أجزاء المعابد المصرية وكذلك قوائم الأسلاف الموقرين - ومنها تلك التي نقشت على جدران معابد الكرنك في عهد الأسرة الثامنة عشرة وعلى جدران معبد أبيدوس في عهد الأسرة التاسعة عشرة.

ولجمع قوائم ملكية مثل تلك التي سبقت الاشارة إليها استعمل الكتبة وثائق كتبها الكهنة أو الموظفون الملكيون، مما يقتضي ضمناً وجود سجلات رسمية توخيت العناية في المحافظة عليها. ولسوء الحظ لم يصل إلينا منها الا وثيقتان هما:

حجر بالرمو

وقد سمي بهذا الاسم لأن الجزء الأكبر من النص محفوظ بمتحف مدينة بالرمو في جزيرة صقلية. وهو لوح من حجر الديوريت منقوش على جانبيه وفيه نجد أسماء كل الفراعنة الذين حكموا مصر منذ البداية حتى الأسرة الخامسة (حوالى ٢٤٥٠ق. م). فبدءاً بالأسرة الثالثة، يورد حجر بالرمو ليس فقط أسماء الملوك حسب تسلسل حكمهم، بل إنه يسجل سنة فسنة أهم أحداث كل عهد. وتشكل هذه القوائم حوليات حقيقية. ومن المؤسف جداً أن هذه الوثيقة التي ليس لها نظير، مهشمة، ومن ثم وصلت إلينا ناقصة.

بردية تورين

وهي محفوظة في متحف هذه المدينة ولا تقل عن حجر بالرمو أهمية مع انها تشتمل فقط على
للملوك بكامل ألقابهم وعدد السنوات والشهور والأيام التي حكموها مرتبة ترتيباً متسلسلاً
تزودنا بقائمة كاملة لكل الفراعنة منذ أقدم العصور حتى حوالى عام ١٢٠٠ ق.م. ولسوء الحظ
اكتشافها سليمة كما هي خلال القرن التاسع عشر لم تتخذ تدابير لصيانتها أثناء شحنها على ظهر
السفن بحيث تمزقت الى أجزاء وتطلب الأمر عملاً استغرق عدة سنوات لاعادتها إلى ما كانت
ورغم ذلك فلا تزال توجد بها ثغرات كثيرة جداً. ومما يميز بردية تورين أنها تصنف الفر
مجموعات. وفي نهاية كل قائمة أضاف الكاتب مجموع عدد السنوات التي حكمها فراعنة كل مج
ولا شك أن بردية تورين تزودنا بمصدر أسرات مانيتون.

التسلسل التاريخي لمصر

وتبدو أهمية حجر بالرمو وبردية تورين والقوائم الملكية المدونة على الآثار بالنسبة إلى التاريخ المص
ان المصريين لم يستعلموا أي فترات مستمرة أو دورية تشبه فتراتنا: مثل قبل أو بعد المسيح وا
الهجري أو دورات الألعاب الأولمبية. فحساباتهم تركز على شخص الفرعون ذاته، وكل تاريخ ي
يشير إلى الملك الذي كان يحكم وقت كتابة الوثيقة. فمثلاً يشير أحد النقوش إلى «العام ا
للفرعون، الشهر الثاني من آخت (أحد الفصول)، اليوم الثامن»، ولكن الحساب يبدأ من جد
حين يتولى الحاكم التالي العرش. هذا الأسلوب المعتاد يوضح - بالنسبة الى تحديد التسلسل الز
أهمية معرفة أسماء جميع الفراعنة الذين حكموا وطول مدة حكم كل منهم. فلو أن بردية تورين ا
بالرمو قد وصلتا إلينا في حالتها الأصلية لتوافرت لنا هذه المعلومات الضرورية. غير أن هذا لم
لسوء الحظ، كما أن الوثائق الأخرى التي تصلح لسد بعض الثغرات الموجودة في هذين المص
الرئيسيين لا تساعدنا في الحصول على قائمة كاملة ويقينية لكل فراعنة مصر. ولا يقتصر الأمر على
تسلسل نظام الحكم ذاته موضعاً للخلاف فيما يتعلق ببعض الفترات، حين لا تشير إليه كل من
تورين وحجر بالرمو، بل إن عدد سنوات حكم بعض الملوك لا يزال غير معروف. ففي أ
الأحوال لا يوجد لدينا سوى أقدم تاريخ معروف لفرعون ما، ولكن من المحتمل أن يكون حك
استمر طويلاً بعد تشييد الأثر الذي يحمل هذا التاريخ.

ورغم هذه الفجوات، فإن كل فترات الحكم المستمدة من جملة المصادر التي في متناول أيدين
مجموع سنواتها الكلي على ٤٠٠٠ سنة - وهو التسلسل الزمني الطويل الذي قبله علماء المصريات
حتى حوالى ١٩٠٠ حين تأكد أن هذا الحيز الزمني مستحيل، إذ قد أوضح مزيد من الدراسة للنص
والآثار: (أولاً) أن عدة فراعنة حكموا في وقت واحد في فترات معينة، بمعنى وجود أسرات ح
متزامنة؛ (ثانياً) أن الفرعون كان في أحيان كثيرة يشرك معه أحد أبنائه في الحكم. ولما كان كل -
يؤرخ آثاره طبقاً لحكمه هو، فقد حدث بعض التداخل. وبإضافة عهود الأسرات المتزامنة وا-
المشتركين في الحكم إلى عهود الملوك الرسميين نتوصل بالضرورة إلى رقم كلي مرتفع جداً.

وكان من المحتمل ان يتعذر حل هذه المشكلة لو لم توفر إحدى خواص التقويم الفرعوني القديم إطاراً وثيقاً للتسلسل الزمني، إذ أنهم كانوا يربطون التقويم بظاهرة فلكية دائمة من السهل تنظيم جداولها الزمنية. ونحن نشير هنا إلى ظهور النجم سوتِس (Sothis) - نجمنا المعروف باسم سيريوس (Sirius) أو الشعرى اليمانية، المتسق مع صعود الشمس على خط عرض هليوبوليس - ممفيس، وهو ما يعرف باسم الظهور الشمسي لسوتس الذي رصده المصريون ولاحظوه في العصر القديم. وقد وفرت هذه الملاحظات التواريخ السوتية التي يقوم عليها التسلسل الزمني المصري اليوم.

ويبدو أن المصريين - شأنهم في ذلك شأن معظم شعوب العصور القديمة - قد أخذوا بالتقويم القمري، وعلى الأخص لتحديد تواريخ الأعياد الدينية. غير أنهم استعملوا تقويماً آخر إلى جانب هذا التقويم الفلكي. فهم شعب من الفلاحين يتميز عمله اليومي الى حد كبير برتابة الحياة الزراعية: البذر والحصاد وتخزين المحصول وإعداد البذور. ومن ناحية اخرى فإن النيل قد حدد في مصر التواتر الزراعي للوادي في ذلك الوقت، إذ أن التغيرات التي كانت تطرأ عليه قد حددت تواريخ مختلف العمليات. ولهذا فليس من العجيب أن يستعمل سكان الوادي القدامى، إلى جانب التقويم القمري الديني، تقويماً طبيعياً يقوم على التكرار الدوري لحدث كان كبير الأهمية بالنسبة إلى وجودهم وهو فيضان النيل.

وفي هذا التقويم كان أول فصول السنة، الذي أطلق عليه المصريون اسم «آخت»، يشهد بداية الفيضان حين كانت مياه النهر ترتفع بالتدريج لتغطي النطاق الذي جففه الصيف القائظ ولمدة تقارب الأربعة شهور كانت الحقول تتشبع بالمياه. وفي الفصل التالي كانت الأرض التي تظهر من جديد من ثنايا الفيضان تصبح معدة للبذر. وكان هذا هو فصل «برت»، ومعناها الحرفي «البزوغ او الخروج» وهو اصطلاح يشير دون شك إلى «خروج» الأرض من المياه و«خروج» النبات. وحين ينتهي البذر ينتظر الفلاح النبت، ثم نضج الحب. وفي الفصل الثالث والأخير كان المصريون يجنون المحصول ثم يخزنونه. وبعد ذلك لم يكن أمامهم سوى انتظار الفيضان الجديد وإعداد الحقول لمجيئه. وهذا هو فصل «شمو».

ومن الجائز، بل من المحتمل جداً، أن المصريين قد اكتفوا بهذا التقويم لفترة طويلة جداً. وهكذا كان العالم يبدأ بالارتفاع الفعلي للمياه. وكان فصل آخت الذي يبدأ بهذا الشكل يستمر حتى تغيض المياه بالفعل وحينئذ يبدأ فصل برت الذي ينتهي بدوره حين تكون الحبوب الناضجة معدة للحصاد، مما يؤذن ببدء فصل شمو الذي كان لا ينتهي إلا بارتفاع المياه من جديد. ولم يكن الفلاح يهتم بكون أحد الفصول أطول من الآخر بقدر ما كان يهتم بتنظيم عمله الذي كان يختلف باختلاف الفصول الثلاثة.

والآن يصح لنا أن نتساءل: في أي وقت ولأي الأسباب ربط المصريون فيضان النيل بارتفاع الشمس وظهور النجم سوتس في الأفق في نفس الوقت؟ من المؤكد أن الاجابة على هذا السؤال صعبة. ولا شك أن هذا الربط كان وليد كل من الملاحظات المتكررة والمعتقدات الدينية العميقة. فالنجم سوتس (سيريوس) وبالمصرية «سبدت» - النجم الثاقب - قد شُبِّه فيما بعد بإيزيس التي كان يعتقد أن دموعها هي التي تسبب فيضان النيل. وربما يكمن في هذا المجال انعكاس لمعتقد قديم جداً يربط ظهور النجم المقدس بارتفاع المياه. وأياً كانت الأسباب الكامنة لدى المصريين، فإنهم بربطهم بداية الفيضان - وبالتالي أول يوم من أيام السنة الجديدة - بظاهرة فلكية قد زوّدونا بوسيلة لوضع نقاط ارتكاز ثابتة لتاريخهم الطويل.

وعند خط عرض ممفيس كانت البداية المعتدلة للفيضان تحدث حوالى منتصف يولية. ويبدو الملاحظة خلال سنوات قليلة كانت كافية لأن توضح للمصريين أن بداية الفيضان كانت تتكرر المتوسط كل ٣٦٥ يوماً، ولهذا قسموا سنتهم المشتملة على ثلاثة فصول - تقوم على التجربة العم وحدها لا العلم - إلى سنة تتكون من اثني عشر شهراً كل منها ٣٠ يوماً. وبالحاق خمسة أيام إضافية (المصرية الـ٥ حَرِيُو رنبت - الخمسة المضافة إلى السنة)، وهي التي أطلق عليها الاغريق اسم النسي (epagomenes) [1] حصل الكتبة على سنة طولها ٣٦٥ يوماً، وهي أفضل إلى حد كبير من ت السنوات المتبعة في التاريخ القديم. على أن هذه السنة، رغم كونها صحيحة جداً، لم تكن كاملة تمام إذ أن الأرض في الواقع تكمل دورتها حول الشمس لا في ٣٦٥ يوماً بل في ٣٦٥ يوماً وربع اليوم. و كل أربع سنوات كانت سنة المصريين الرسمية تتراجع بدايتها يوماً عن السنة الفلكية - ولم يحدث بعد ١٤٦٠ سنة، وهو ما يسمى «بالدورة السوتية» (نسبة الى سوتِس)، أن كانت تتصادف في ي واحد ظواهر صعود الشمس وشروق سوتس وبداية الفيضان. وهذا اليوم هو أول أيام السنة الرسمي

وقد تمخض هذا الفاصل التدريجي بين السنتين عن نتيجتين هامتين: فهو أولاً قد مكن الفلكي المحدثين من تحديد الوقت الذي توصل فيه المصريون إلى تقويمهم، وكان يجب لهذا التاريخ بالضرو أن يتزامن مع بداية السنة السوتية. فتزامن الظاهرتين - بداية ارتفاع الفيضان وظهور سوتِس قر الشمس - قد حدث ثلاث مرات خلال الخمسة آلاف سنة قبل الميلاد: في عام ١٣٢٥ إلى ٣٢٢ ق.م وفي ٢٧٨٥ إلى ٢٧٨٢ ق.م وفي ٤٢٤٥ - ٤٢٤٢ ق.م. ولفترة طويلة جرى الاعتقاد با المصريين قد اخذوا بتقويمهم فيما بين عامي ٤٢٥٤ و٤٢٤٢ قبل الميلاد. أما الآن فمن الثابت أن ذلك يحدث إلا في بداية الدورة السوتية التالية، أي فيما بين عامي ٢٧٨٥ و٢٧٨٢ قبل الميلاد.

أما النتيجة الثانية لأخذ المصريين بالتقويم الشمسي الثابت فهي أنه قد تمخض بالتدريج عن إيج فاصل بين «الفصول الطبيعية» التي يحددها إيقاع النهر ذاته وبين «الفصول الرسمية» التي تأخذ ب الحكومة وتقوم على سنة طولها ٣٦٥ يوماً. وقد ازداد هذا الفاصل، الذي لم يكد يلحظ في البداية لكو يوماً واحداً كل أربع سنوات، باطراد من أسبوع إلى شهر ثم إلى شهرين، إلى الوقت الذي كان ف التقويم الرسمي يقع خلال أوج الفصل الطبيعي برت. وقد استرعى هذا الانتقال انتباه الكت المصريين. ولدينا نصوص تلحظ، بصورة رسمية جداً، التفاوت بين طلوع سوتس الشمسي وبي بداية السنة الرسمية. وقد مكنتنا هذه الملحوظة - من التثبت - مع التجاوز في حدود اربع سنوات من التواريخ التالية:

- من المحتم أن عهد سوسرت الثالث يشمل السنوات ١٨٨٢ - ١٨٧٩.
- تقع السنة التاسعة من حكم أمنحتب الأول بين السنوات ١٥٥٠ - ١٥٤٧.
- يضم عهد تحتمس الثالث السنوات ١٤٧٤ - ١٤٧١.

وبضم هذه التواريخ إلى التواريخ النسبية المستمدة من المصادر التي في متناول أيدينا: بردية تورين حجر بالرمو، الآثار المؤرخة التي ترجع إلى فترات مختلفة، أمكننا التوصل إلى تسلسل زمني أساسي هو أوثق جداول الشرق القديم الزمنية كافة، وأن نبدأ هذا التاريخ بعام ٣٠٠٠ قبل الميلاد. ومر الممكن تأريخ تقسيمات مانيتون الرئيسية كالآتي:

- الأسرة الثالثة إلى السادسة (الدولة القديمة): حوالى ٢٧٥٠ - ٢٢٠٠.
- الأسرة السابعة إلى العاشرة (العصر المتوسط الأول): ٢٢٠٠ - ٢١٥٠.
- الأسرة الحادية عشرة إلى الثانية عشرة (الدولة الوسطى): ٢١٥٠ - ١٧٨٠.

- الأسرة الثالثة عشرة إلى السابعة عشرة (العصر المتوسط الثاني): ١٧٨٠ - ١٥٨٠.
- الأسرة الثامنة عشرة إلى العشرين (الامبراطورية الحديثة): ١٥٨٠ - ١٠٨٠.
- الأسرة الحادية والعشرون إلى الثالثة والعشرين (العصر المتوسط الثالث): ١٠٨٠ - ٧٣٠.
- الأسرة الرابعة والعشرون إلى الثلاثين (العصر المتأخر): ٧٣٠ - ٣٣٠.

ويسجل فتح الاسكندر المقدوني في عام ٣٣٢ق.م نهاية تاريخ مصر الفرعونية وبداية العصر الهلينستي (راجع الفصل السادس).

البيئة النيلية

ربما يكون من المفيد هنا أن نقتبس جملة كتبها هيرودوت (٢ : ٣٥) في نهاية وصفه لمصر: «لا يقتصر الأمر على كون مناخ مصر خاصاً بهذا البلد وحده، وأن النيل يختلف في سلوكه عن الأنهار الموجودة في أماكن أخرى، بل يبدو لنا أن عادات المصريين وخصالهم تسير في اتجاه مناقض لعادات الناس المألوفة». (انظر هيرودوت يتحدث عن مصر: د. محمد صقر خفاجة - القاهرة).

ومما لا شك فيه أن هيرودوت حين كتب ذلك كان لا يضع نصب عينيه إلا البلدان المطلة على البحر المتوسط. ورغم ذلك فإن مصر تنفرد بالفعل دون كل بلدان إفريقيا بأن لها بيئة متميزة جداً. وهي تدين بذلك إلى نظام النيل - فلولا النهر لما وجدت مصر. وقد قيل هذا مراراً وتكراراً منذ أيام هيرودوت، على اعتبار انه يعبر عن حقيقة أساسية.

وفي الواقع إن المتطلبات القاسية التي فرضها النهر على المجتمعات البشرية التي كانت تعيش على ضفتيه وتدين له بمقومات الحياة لم يدركها الناس إلا تدريجياً. ولم تصبح هذه المتطلبات أمراً لا مفر منه إلا حين أصبح عمر الحضارة المصرية يزيد على سبعمائة سنة. وهكذا أتيح للمجموعات البشرية التي بنت تلك الحضارة الوقت اللازم للتعود بالتدريج على المتطلبات التي فرضتها عليهم بيئة النيل رويداً رويداً.

فمنذ نهاية العصر الحجري الحديث، أي حوالى ٣٣٠٠ الى ٢٤٠٠ق.م، حظي شمال غربي إفريقيا - بما في ذلك الصحراء الكبرى - بنظام مناخي رطب نسبياً. وفي هذه الفترة لم تكن مصر تعتمد على النيل وحده في الحصول على موارد المعيشة. فلقد كانت الأعشاب لا تزال تمتد إلى الشرق والغرب من الوادي، وتوفر ستاراً للصيد الوفير وتساعد على تربية كثير من المواشي. وكانت الزراعة حينئذ لا تعدو أن تكون أحد العناصر الأساسية للحياة اليومية، وكانت تربية المواشي - بل الصيد - تلعب دوراً لا يقل عنها أهمية، وهو ما يشهد عليه حجر بالرمو الذي نستنتج منه أن الضريبة التي كان على أعيان البلاد أن يدفعوها للسلطة المركزية، كانت تتقرر لا على أساس الدخل الناتج عن الأراضي التي قد يمتلكونها، بل على رؤوس المواشي التي يعهدون بها إلى رعاتهم. وكان إحصاء هذه الثروة الأساسية يجري كل عامين. ونحن نستشف من المناظر التي تزين مصاطب الدولة القديمة فيما بين نهاية الأسرة الرابعة وحتى الأسرة السادسة (٢٥٠٠ - ٢٢٠٠ق.م) أن تربية المواشي كانت تلعب دوراً هاماً في الحياة المصرية في ذلك الوقت.

وعلى ذلك يمكن أن يخامرنا الشك بأن سعي الانسان إلى السيطرة على النهر - وهو أهم ما قامت به الحضارة المصرية مما أتاح لها الازدهار - ربما جاء في البداية لا استجابة للرغبة في استغلال الفيضان

بصورة أنجع للزراعة، بل بوجه خاص للحيلولة دون الأضرار التي تنجم عن ارتفاع مياهه. ونحن ننسى أحياناً أن ارتفاع النيل لا يقتصر فقط على نفعه، إذ بامكانه ان يتمخض عنه حدوث الكوارث. ولا شك أن سكان الوادي الأول - جرياً وراء مصلحتهم - قد تعلموا كيف يبنون السدود والجسور من أجل حماية قراهم وكيف يحفرون قنوات لصرف المياه عن حقولهم. وهكذا أتيح لهم الحصول ببطء على خبرة أصبحت حيوية بالنسبة إليهم حين تحول مناخ إفريقيا بالتدريج إلى جفافه المعروف اليوم (بين خطي عرض ٣٠° و١٥° شمالا)، وهو الجفاف الذي حول المناطق المجاورة مباشرة لوادي النيل، سواء في مصر أو في النوبة، إلى صحراء جرداء. وبعد ذلك اصبحت الحياة في الوادي بأسرها رهن ارتفاع منسوب النهر.

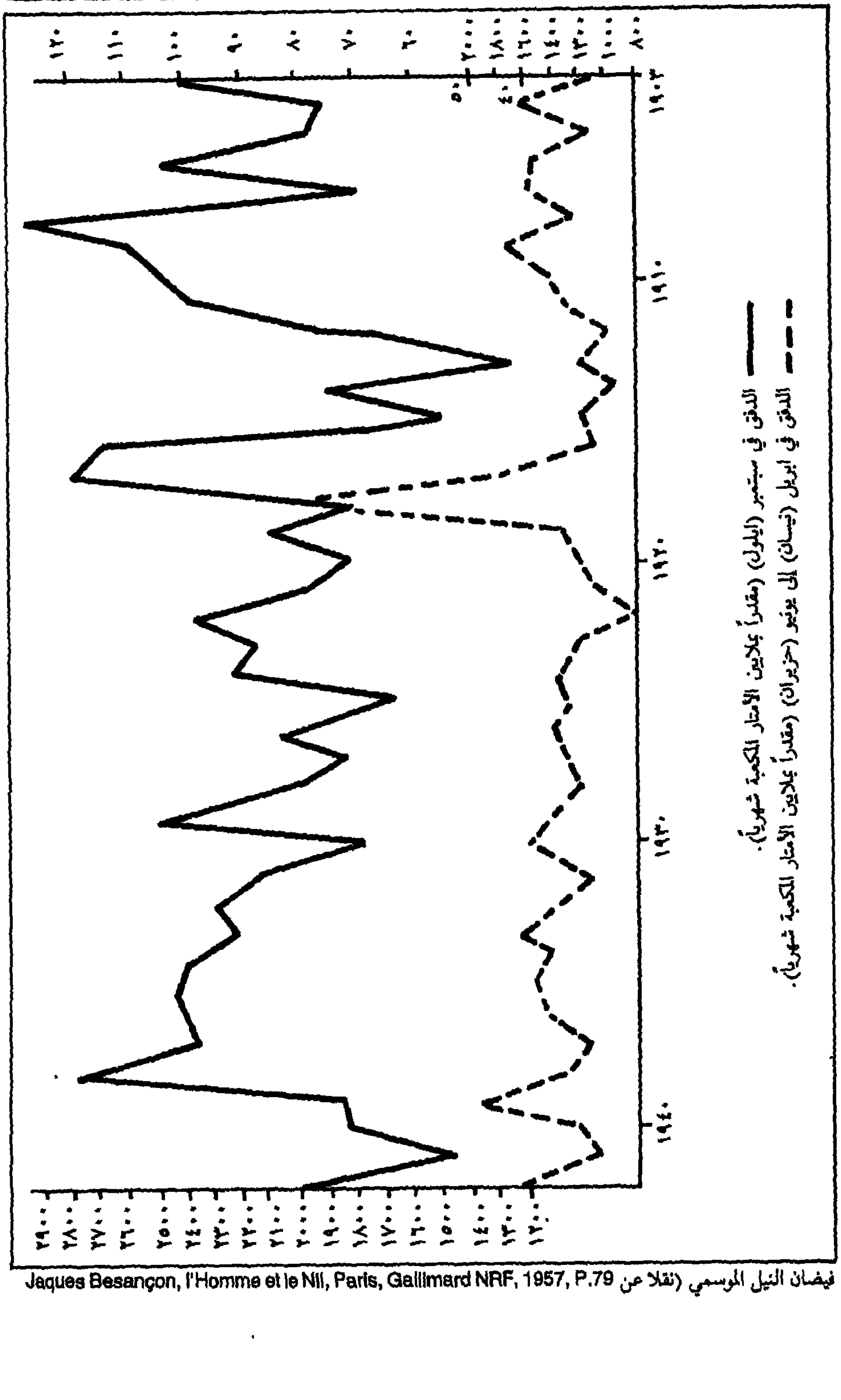
وباستعمال المصريين أساليب بناء السدود وحفر القنوات التي كانوا قد أجادوها عبر القرون، أمكنهم أن يطوروا بالتدريج نظم ري الحياض، وبذلك أمِنوا ليس فقط بقاءهم في مناخ يزداد تحوله إلى المناخ الصحراوي، بل أيضاً احتمال التوسع الزراعي (راجع الفصلين الرابع والثامن فيما يلي). ومن حيث المبدأ كان النظام بسيطاً وإن يكن معقداً من حيث التنفيذ، كما كان يستلزم التزامن. وقد استفاد من الحافتين الطبيعيتين المرتفعتين اللتين خلقهما النيل على طول ضفتيه عبر آلاف من الفيضانات السنوية. وقد جرى تعزيز هذه الاستحكامات الطبيعية التي قواها سكان الشاطىء بالتدريج حماية لأنفسهم من أخطار الفيضان المفاجىء عن طريق بناء الجسور، وهي لا شك سدود اصطناعية تدين بالتأكيد بأصولها إلى تلك الجسور التي بناها السكان الأول لحماية قراهم أثناء فيضان النيل.

وفي نفس الوقت بنيت جسور بمحاذاة النهر، ومن ثم قسمت مصر إلى سلسلة من الحياض التي اعطت اسمها للنظام. وقد سويت التربة في هذه الحياض حتى إذا ما ارتفع منسوب النهر أمكن غمر الحوض كله بالمياه حين يصل الفيضان. وفي الجسور شقت فتحات موازية للنهر للمساعدة في ملء الحياض. وبعد ان تغطي المياه الحقول بعض الوقت لتتيح لها التشبع، كان يجري العمل لاعادتها الى النيل. وبالاضافة الى ذلك فان نظاماً للقنوات يستفيد من الانحدار الطبيعي للوادي كان يسمح بنقل المياه ضد التيار الى مناطق اكثر انخفاضاً لأنها توجد في اتجاه مجرى النهر، وذلك لري الأراضي التي لم يكن الفيضان العالي ذاته ليصل اليها.

وكان من مزايا النظام الذي تعلمه المصريون بالتجربة شيئاً فشيئاً ضمان توزيع متوازن للمياه والطمي على كل الأراضي الصالحة للزراعة، وري تلك الأجزاء من الوادي التي كان من الممكن ان تبقى - لولا ذلك - قاحلة، واخيراً، وفوق كل شيء، إحكام الرقابة على النهر وفيضانه وعن طريق ملء الحياض وتحويل المياه في مصعد النهر (عكس التيار) عبر قنوات، الى مناطق تقع عند مهبطه، يتم ابطاء سرعة التيار، وهو ما كان يحول دون العواقب الوخيمة التي تنجم عن الانطلاق المفاجىء لملايين الأمتار المكعبة من المياه التي تقتلع كل شيء في طريقها. وتبعاً لذلك فان بطء تيار المياه التي تغمر الحقول يزيد من ترسيب الطمي الذي تحمله.

وليس من المبالغة القول بأن هذا النظام الفريد هو الأساس الذي قامت عليه الحضارة المصرية. فهو يوضح لنا كيف استطاع ان يتغلب ببطء على الصعوبات الضخمة وأن يتمكن من تغيير البيئة الطبيعية للوادي.

وقد تطلبت البيئة الجديدة الناتجة عن تدخل الانسان قدراً ضخماً من العمل. فبعد كل فيضان كان من اللازم اصلاح الجسور وتقوية السدود المتقاطعة وتطهير القنوات. وكانت تلك مهمة جماعية مستمرة، يحتمل انها في العصور البدائية كانت تتم على مستوى القرية.



فيضان النيل الموسمي (نقلا عن Jaques Besançon, l'Homme et le Nil, Paris, Gallimard NRF, 1957, P.79

وكانت الحكومة المركزية تقوم في العصور التاريخية بادارة هذه المهمة والاشراف عليها. فلو انها فشلت في ان تضمن في الوقت المناسب سلامة النظام وصيانته برمته، لأمكن للفيضان التالي ان يقضي عليه ويعود بالوادي الى وضعه السابق. ففي مصر يتحكم النظام السياسي الى حد كبير في النظام الطبيعي – ولضمان بقائه ككل لم يكن يكفي ان تستمر فعالية نظام الحياض بصورة منتظمة. فمن ملامح فيضان النيل ان حجمه يختلف من سنة الى اخرى – اذ الفيضانات قد تكون اما عالية جداً بحيث تكتسح كل ما يعترض طريقها او منخفضة جداً بحيث لا تفي بمطالب الري. فنحن نجد على سبيل المثال ان ما لا يزيد على نصف الفيضانات فيما بين عامي ١٨٧١ و١٩٠٠ كان كافياً للوفاء بحاجات مصر.

وسرعان ما علّمت التجربة المصريين الحيطة والحذر من تقلبات النهر. فلسد العجز الدوري كان من الضروري تخزين الحنطة لامداد السكان بالطعام، وأهم من ذلك بالنسبة إلى المستقبل كان لا بد من ضمان الحصول على البذور الكافية لعملية البذر القادمة أياً كانت الظروف. وكانت الحكومة المركزية توفر هذه الكميات الاحتياطية بفضل صومعة الغلال الملكية ذات الطابقين التي كانت توزع الحنطة على مخازن أنشئت في شتى أنحاء البلاد، فالحكومة بتحديدها الاستهلاك في أوقات الوفرة وبادخارها أقصى كمية للاحتياط ضد الفيضانات غير الكافية أو العالية جداً، كانت تتولى المسؤولية – إن صح القول – عوضاً عن النظام الطبيعي بحيث أصبحت تقوم بدور بالغ الأهمية.

وقد لعب الانسان دوراً اساسياً في ظهور الحضارة وانتشارها في وادي النيل، إذ استطاع أن يجري تغييراً شاملاً على الظروف التي فرضتها عليه الطبيعة. فمصر ليست فقط هبة النيل، وإنما هي – فوق ذلك – من صنع الانسان، ومن ثم تبدو اهمية المشكلات الأنثروبولوجية التي نصادفها في الوادي.

سكنى وادي النيل

منذ العصر الحجري القديم سكن الانسان، إن لم يكن الوادي الحالي، فعلى الأقل المناطق المجاورة له مباشرة، وبخاصة المناطق شبه المستوية القائمة في محاذاته والمطلة عليه. وكان لا بد للفترات المتتالية التي تميزت إما بالأمطار أو بالجفاف خلال العصرين الحجري القديم والحديث (راجع المجلد الأول) أن تغير كثافة السكان سواء بالزيادة أو بالنقص. إلا أن من الثابت أن «الانسان العاقل» (Homo Sapiens) قد وجد باستمرار في مصر منذ أقدم العصور.

إلى أي جنس كان ينتمي هذا الانسان؟ إن الاجابة على هذا السؤال تثير مشكلة أنثروبولوجية قد لا تعدلها مشكلة أخرى من حيث المناقشات الحادة التي دارت حولها. ولكن هذه المشكلة ليست جديدة: ففي عام ١٨٧٤ دار جدال حول ما إذا كان المصريون القدماء «بيضاً» أم «سوداً». وبعد قرن من هذا التاريخ أثبتت ندوة علمية تبنتها اليونسكو وعقدت بالقاهرة أن النقاش لم يحسم، وأنه لا يبدو أنه سيحسم في القريب. فليس من السهل إيجاد تعريف فيزيائي لكلمة «أسود» من شأنه أن يجد قبولاً عاماً – إذ أن أحد علماء الأنثروبولوجيا قد أثار منذ وقت قريب الشكوك حول احتمال العثور على وسائل قاطعة لتحديد الجنس الذي ينتمي إليه هيكل ما – على الأقل فيما يتعلق بالبقايا الانسانية التي ترجع إلى عصور سحيقة كتلك التي تنتمي إلى العصر الحجري القديم. فالمعايير التقليدية التي يأخذ بها علماء الأنثروبولوجيا: نسبة عرض الوجه إلى طوله وطول الأطراف وغير ذلك، لم تعد تلقى قبولاً عاماً في

الوقت الحاضر. ونحن نقتدي بالقدامى فنعود إلى تحديد «أسود» حسب طبيعة الشعر ولون البشرة، وهذا الأخير يمكن قياسه علمياً - كما هو معروف - وفقاً لنسبة «الميلانين». على أن البعض يشككون في قيمة هذه المقاييس. وعند هذه المرحلة أي بعد أن تخلينا عبر السنين عن نظرية الجنس «الأحمر»، سنتعرض في المستقبل لمخاطر التخلي عن مفهوم الجنسين «الأبيض» و«الأسود». ورغم ذلك فمن المشكوك فيه إلى حد كبير أن يكون السكان الذين أدخلوا الحضارة إلى وادي النيل منتمين إلى جنس واحد نقي، إذ أن تاريخ تعمير الوادي بالسكان يدحض مثل هذا الاحتمال.

فالانسان لم يتغلغل دفعة واحدة في واد غير مأهول او لا تسكنه إلا الحيوانات المفترسة. فلقد استقر الانسان في الوادي عبر آلاف السنين حين أرغمته كثافة المجموعات البشرية أو التغيرات المناخية على البحث عن موارد إضافية أو مزيد من الأمن. وبسبب موقعه عند الركن الشمالي الشرقي من القارة الافريقية، كان لا بد لوادي النيل ككل - ومصر بوجه خاص - أن يصبح نهاية المطاف بالنسبة إلى تحركات شعوب آتية ليس فقط من إفريقيا بل أيضاً من الشرق الأوسط وكذلك من أوروبا الأكثر بعداً. فلا غرابة اذن أن يعتقد علماء الأنثروبولوجيا أن بإمكانهم أن يميزوا من ثنايا الهياكل النيلية العديدة الموغلة في القدم التي حصلوا عليها ممثلين لجنس «كرومانيون»: شبيهين بالأرمن وشبيهين بالزنوج وذوي البشرة البيضاء، وغيرهم، برغم أن هذه المصطلحات تستلزم توخي الحذر في الأخذ بها. فلو أن جنساً مصرياً قد وجد - وهذا موضع شك - فإنه كان نتيجة اختلاطات اختلفت عناصرها الأساسية من حيث الزمان والمكان معاً. وكان يمكن التأكد من هذا فيما لو أمكن - وهذا أمر بعيد المنال - الحصول على عدد كاف من البقايا الانسانية التي ترجع إلى كل من العصور التاريخية ومختلف أجزاء الوادي.

على ان ثمة حقيقة ثابتة هي أنه كان يوجد في مصر، وكذلك في النوبة، بصورة مستمرة نمط جسدي معين من العَبث أن نطلق عليه اسم جنس لأنه يختلف اختلافاً بسيطاً في مصر السفلى عنه في مصر العليا. فهو أغمق في الجنوب منه في الشمال، كما أنه بوجه عام أغمق من سكان باقي حوض البحر المتوسط بما في ذلك شمالي إفريقيا. فالشعر أسود ومجعد والوجه أجرد يميل إلى الاستدارة وكان يزينه أحياناً شارب في عهد الدولة القديمة، وهو النمط البشري النحيف نسبياً بوجه عام الذي أصبح مألوفاً لنا بفضل التصوير الجصي (على الجدران) والنقوش ضئيلة البروز والتماثيل التي خلفها لنا الفراعنة. ولا يجب أن ننسى ان هذه كانت صوراً شخصية وهو ما كانت تتطلبه المعتقدات الجنائزية المصرية، حيث أن الشخص ذاته - لا صورته المجردة (غير المادية) - هو الذي كان يستمر بقاؤه وراء نطاق القبر.

وكان أدعى إلى السهولة بالنسبة إلينا دون جدال أن نربط النمط المصري بجنس معين فيما لو اخترنا صوراً معينة ولم ندخل في حسابنا مجموع الصور التي وصلت إلينا. ولكن ادعى إلى السهولة بالنسبة إلينا كذلك أن نختار أمثلة أخرى من شأنها أن تنسخ هذه النتائج. ففي الواقع إن الاشخاص الذين تعرفنا عليهم بفضل الفن المصري شديدو التنوع، «بصورهم الجانبية المستقيمة الوجه، وصورهم الجانبية الناتئة، أحياناً بروز عظام الوجنة كما هو الحال بالنسبة إلى (سنوسرت) الثالث، وشفاه مكتنزة وغالباً مقوسة، وأحياناً أنف مقوس قليلاً كهميومو وبيبي الأول، وجمال عبد الناصر) وفي كثير من الأحيان أنف كبير مستقيم كأنف خفرع، وفي الجنوب بوجه خاص، أنوف مفلطحة وشفاه أكثر اكتنازاً» (جان يويوت Jean Yoyotte) . وهذا التنوع يوضح لنا أننا في وادي النيل نجد أنفسنا إزاء نمط بشري، لا جنس، وهو نمط ظهر بالتدريج من ثنايا عادات الوادي وظروف الحياة الخاصة به والاختلاطات التي

تمخضت عنه. وهناك نموذج بارز لذلك نجده في تمثال «شيخ البلد» وهو صورة مليئة بالحياة لعمدة قرية سقارة في الوقت الذي اكتشف فيه التمثال الذي يبلغ من العمر اكثر من ٤٠٠٠ سنة. ومن المحتمل جداً أن السلالة الافريقية، سواء أكانت داكنة البشرة او فاتحة، غالبة في المصري القديم. ولكن يستحيل علينا، في ضوء معلوماتنا الحالية، أن نذهب إلى ما هو أبعد من ذلك.

الكتابة والبيئة

كانت مصر أول بلد إفريقي يستعمل الكتابة، هذا فيما لو بنينا حكمنا على أن النظام الهيروغليفي كان يستعمل كتابة تصورية (pictograms) ترمز الى أشياء بطل استعمالها منذ أمد بعيد. ومن الممكن أن نرجع اختراعها إلى فترة حضارة «العمرة» التي اطلق عليها اسم «نقادة الأولى» (انظر المجلد الأول) أي حوالى سنة ٤٠٠٠ ق.م - هذا إذا ما اخذنا بالتواريخ التي استنتجناها من التأريخ «بكربون - ١٤» في بداية العصر التاريخي. وبذلك يكون هذا النمط من أقدم نظم الكتابة المعروفة. وقد تطور بسرعة، إذ أنه يتبدى لنا بالفعل - وقد تم اكتماله - في لوحة نارمر التي هي أول أثر تاريخي مصري، وهو أثر يمكن إرجاعه إلى عام ٣٠٠٠ ق.م. ويمكن ان نضيف الى ذلك النباتات والحيوانات المستعملة في الرموز الافريقية بالضرورة.

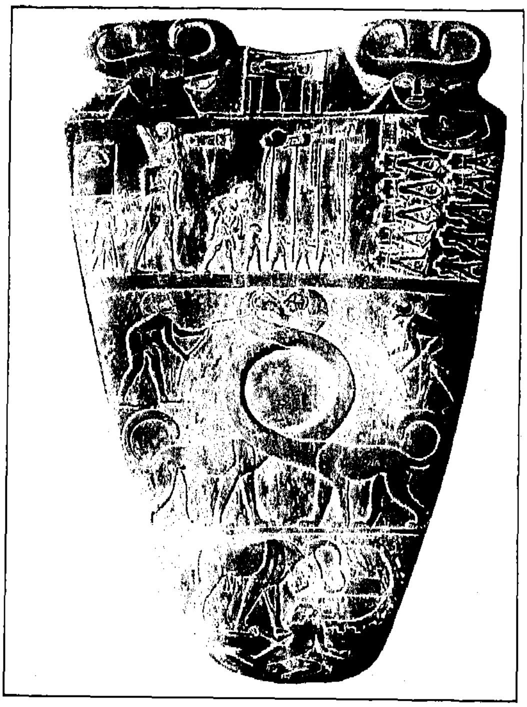
إن الكتابة المصرية بكتوجرافية (أي رمز للأشياء بالصور) في أساسها، مثلها في ذلك مثل كثير من أنماط الكتابة القديمة. ولكن على حين أن الرموز البكتوجرافية قد تطورت في الصين والعراق - على سبيل المثال - تطوراً سريعاً إلى اشكال ترمز للمعاني فإنها ظلت في مصر وفية لنمطها إلى آخر تاريخها.

فكل ما هو مدرك بالحواس أو أي شيء حي يمكن رسمه كان يستعمل كعلامة او حرف للدلالة على كلمة في الكتابة المصرية. فلكي يكتب الكاتب كلمة حربة (رمح لصيد السمك) او سمكة كان عليه ان يقتصر على رسم حربة او سمكة - وهذا ما يطلق عليه اسم العلامات الدالة على الكلمات. على اعتبار ان علامة واحدة تكفي لكتابة كلمة كاملة. واستمر اتباع هذه القاعدة طيلة عمر الحضارة الفرعونية، مما مكن الكتبة من ابتكار أي عدد من علامات الكلمات التي يحتاج اليها الأمر للاشارة الى كائنات او اشياء كانت غير معروفة في الوقت الذي ظهر فيه نظام الكتابة للمرة الأولى، وذلك مثل الحصان او المركبة الحربية ويمكن ايضاً في النظام البكتوجرافي البحت تمثيل الأعمال بالرسم. فاذا ما اراد الكاتب ان يكتب فعل «يجري» او «يسبح» كان عليه ان يقتصر على رسم شخص يجري او يسبح.

على ان النظام البكتوجرافي، رغم براعته، كان قاصراً عن التعبير كتابة عن افكار او معان مجردة مثل: يحب - يتذكر - يصبح. وللتغلب على هذه الصعوبة كان على المصريين ان يتجاوزوا مرحلة الكتابة بالصور وحدها. وقد حققوا ذلك حين لجأوا الى قاعدتين أخريين: هما الهوموفون من ناحية (اي الجناس = استعمال كلمة مطابقة لأخرى لفظاً ومختلفة عنها معنى). والايديوجراف (أي الرمز للأفكار بالصور) من ناحية اخرى.

واستعمال القواعد الثلاث في آن واحد - البكتوجراف الخالص (الرمز للأشياء بالصور)، والهوموفون (التجانس الصوتي) والايديوجراف (الرمز للأفكار بالصور) - هو الذي جعل فك طلاسم اللغة الهيروغليفية في العصور الحديثة امراً عسيراً. ففي الكتابة المصرية تقرأ بعض العلامات قراءة صوتية (لفظية)، اما بعضها الآخر فلا يقرأ بهذا الشكل: اذ هي لا تستخدم الا لتحديد كيفية نطق الصوت او تخصيص معنى الكلمة.





لوحة نارمر.

ومبدأ الهوموفون (الجناس) بسيط في حد ذاته : فعلى سبيل المثال نجد ان الكلمة المكتوبة ال
«رقعة الشطرنج» كانت تنطق في لغة الحديث «من» . وطبقاً لهذه القاعدة كان يمكن للرمز البك
الذي يمثل رقعة الشطرنج ان يستعمل اما للاشارة الى نفس الشيء المدرك بالحواس ، او لكتابة
المتجانسة لها : أي كل الكلمات التي تنطق «من» ، ومنها المعنى المجرد «أن يكون مستقراً ا
وبنفس الطريقة كانت العلامة الدالة على المعزقة تنطق «مر» ، وبالتالي كان يمكن استعماله
الفعل «يحب» الذي كان ينطق «مر» . وفي مثل هذه الأحوال كانت العلامات الأصلية الد
الأشياء تتحول الى علامات صوتية . ولما كان عدد الألفاظ البسيطة غير المركبة المتطابقة لفظاً على
المقطع «من» - (رقعة الشطرنج) بمعنى من (أن يكون مستقراً) أو «مر» (معزقة) بمعنى «مر» (ث
قليلة نسبياً ، فان الابتكار لم يكن مقيضاً له ان يوفر سوى مزايا محدودة لو لم يتوسع فيه لصياغة
مركبة . فمثلاً لكتابة الفعل المجرد «يؤسس» الذي كان ينطق «سمن» ولم تكن له لفظة مجانسة ب
استخدموا رمزي كلمتين منتفعين بقيمتهما الصوتية : قطعة مطوية من القماش ينطق رمزها س
و«من» «رقعة الشطرنج» . وبوضع هذين الرمزين كل منهما بجوار الآخر كانا يقرآن صوتياً «س .
سمن» وكان الناتج يعني «يؤسس او ينشىء» . وما ان يصل الكاتب المصري الى هذه المرحلة ح
يحصل على اداة قادرة على التعبير صوتياً ، عن طريق الصور ، عن اي كلمة في اللغة مهما كان تعـ
وكل ما كان عليه ان يفعله هو تقطيع الكلمة الى عدد من الأصوات التي بامكانه تمثيل كل مـ
كلمة مجانسة لها صوتياً او متقاربة معها في النطق . وكانت الكتابة الهيروغليفية قد وصلت بالف
هذه المرحلة ، في العهد الطيني . (نسبة الى مدينة طينة Thinis) ، حوالي عام ٣٠٠٠ ق . م ، مم
نستنتج انها كانت قد مرت قبل ذلك بمرحلة من التطور طويلة نسبياً .

على أن النظام حين اكتمل بهذا الشكل كانت له بعض العيوب . فلقد كان يستعمل بالضرور
كبيراً من الرموز - يعرف منها اكثر من ٤٠٠ رمز عادي مما كان يجعل القارىء يحار في كيفية قر
ولنأخذ مثالاً بسيطاً هو رسم «قارب» . فهل من الممكن قراءته : مركب شراعي - قارب - س
زورق صغير (فلوكه) - مركب كبير . . . . . الخ؟

وبالاضافة الى ذلك كان يستحيل للوهلة الأولى معرفة ما اذا كانت علامة ما ، هي مستعملة
على الشيء المرسوم ام هي مستعملة كعلامة صوتية .

وأمكن بسهولة التغلب على الصعوبة الأولى - فقد درج الكتبة على اضافة خط رأسي بعد ا
الدالة على الكلمة للاشارة الى الشيء المرسوم ذاته . وبالنسبة إلى الصعوبة الثانية وضع بالتدريج
مركب ، هو ما يطلق عليه علماء المصريات اسم المكملات الصوتية التي تتكون من ٢٤ علامة د
كلمات لكل منها صوت (حرف) ساكن واحد فقط . وبالتدريج أصبح الكتبة يستعملونها للاشـ
القراءة الصوتية للرموز . فعلى سبيل المثال : الرمز الذي يمثل حصيرة او مائدة يوضع فوقها الخ
«حتب» . وبالتدريج اصبح من المعتاد ان يأتي بعد رمز الكلمة المستعمل صوتياً رمزان آخران
وينطق «ت» ومقعد ينطق «ب» . وفي الحال كان هذان الرمزان يوحيان للقارىء بأن يقرأ هذ
حتب .

ومن الواضح ان هذه الرموز البسيطة الأربعة والعشرين تقوم في الواقع مقام حروفنا وأننا نـ
اختراع الحروف الأبجدية في اول اطوار نشأته ، إذ أن هذه الرموز تعبر عن كل الحروف ا
(الجامدة) في اللغة المصرية التي تشبه اللغتين العربية والعبرية في أنها لا تكتب حروف العلّة . وه
توجد كلمة في اللغة لا يمكن كتابتها بالرموز وحدها . ورغم ذلك فإن المصريين لم يتخذوا قط ا

الأخيرة في هذا الاتجاه. فبدلاً من الاقتصار على استعمال الرموز التي تكاد تكون ابجدية، نجدهم يمعنون في تعقيد نظامهم الكتابي، على الأقل من حيث الشكل، وذلك بأن زادوا عليه، الى جانب الرموز المستعملة صوتياً ومكملاتها الصوتية، رموزاً إيديوجرافية جديدة (اي رموز الافكار بالصور). وكانت هذه الرموز توضع في نهاية الكلمات مما جعل من الممكن تصنيفها في طائفة معينة للوهلة الأولى. وكان يلي الأفعال التي تشير الى عمل جسدي، مثل يضرب، يقتل، رمز ذراع بشرية تمسك بسلاح. أما الأفعال التي تشير الى مفهوم مجرد، مثل يفكر، يحب، فكان يليها رمز يمثل حزمة بردي. وكذلك الحال بالنسبة إلى الأسماء: فكلمة إناء كان يليها إيديوجرام عن الماء هي عبارة عن ثلاثة خطوط أفقية متموجة، على حين أن اسماء البلاد الأجنبية كان يليها رمز جبل، على عكس مصر التي هي مسطحة – وهكذا.

واذا كان المصريون لم يستعملوا قط شكلاً مبسطاً للكتابة – ولدينا نص واحد بالكتابة «الأبجدية» كتب في وقت متأخر جداً وربما يكون قد تأثر بنماذج الكتابات الأبجدية التي كان يستعملها جيران مصر – فإن هذا الاتجاه المحافظ لديهم من الممكن ان نعزوه بلا ريب إلى أهمية الصورة بالنسبة إليهم، وبالتالي أهمية الرمز الذي هو صورة، فالصورة كانت لها قوة سحرية كامنة. فحتى حوالى عام ١٧٠٠ق. م كان الكتبة في بعض الحالات يشوهون الرموز التي تمثل كائنات خطرة، أو على الأقل تلك التي توحي لهم بالخطر: فالثعابين كانت تقطع اذنابها، كما كانت تبتر ارجل بعض الطيور. وكانت هذه القوة السحرية الكامنة في الرمز تمتد إلى العالم كله – فمثلاً إذا ما اراد شخص ان يلحق الضرر بآخر كان يزيل اسمه او يمحوه حيثما كان مكتوباً. ولما كان الاسم يعتبر في الواقع جزءاً من الشخص ويمثل الى حد ما الشخص ذاته، فإن محو الاسم كان يعني محو الشخص من الوجود وهلاكه.

والكتابة الهيروغليفية بنظامها المعقد القائم على العلامات الدالة على الكلمات، والرموز الصوتية ذات المقاطع المتعددة، والمكملات الصوتية، والمخصصات الرمزية – وهذه الأخيرة خليط من الرموز التي ينطق بعضها على حين لا ينطق بعضها الآخر – انما هي كتابة معقدة بالتأكيد وإن تكن في نفس الوقت منشطة للذهن منعشة للذاكرة ومثيرة للذكريات. فالمخصصات تقسم الكلمات تقسيماً جيداً، والترتيب الدقيق للكلمات داخل الجمل – فعل، فاعل، مفعول به – يسهل الترجمة، ومبعث الصعوبات التي تعترض المترجم الحديث كامن في أننا لا نعرف أحياناً المعنى الصحيح لكثير من الكلمات. ورغم ذلك فإن المخصصات تمكننا من معرفة الطوائف الواجب تصنيفها فيها.

وقد قيل احياناً إن الكتابة الهيروغليفية المصرية إما ادخلها الى البلاد غزاة أتوا من الشرق او اقتبسها المصريون من العراق. وأقل ما يمكن قوله إننا لا نستطيع ان نجد دلائل مادية على مثل هذا الاقتباس في الكتابة المصرية القديمة كما كانت عليه في فجر التاريخ – حوالى ٣٠٠٠ق. م. بل على العكس بإمكاننا ان نتتبع تكوينها البطيء مرحلة مرحلة: من مجرد الكتابة بالصور إلى مرحلة الرموز الصوتية المعقدة الى مرحلة المكملات الصوتية واخيراً الى مرحلة المخصصات. وتمثل بعض الرموز المستعملة صوتياً أشياء لم تعد تستعمل حين ظهرت النصوص الأولى، مما يثبت ان الكتابة قد تشكلت في فترة ما قبل التاريخ حين كانت هذه الأشياء شائعة الاستعمال. واخيراً – وقد يكون هذا من اهم الأمور – نجد ان الرموز الهيروغليفية قد اخذت كلها عن نباتات وحيوانات حوض النيل مما يثبت ان الكتابة ذات اصل افريقي خالص. فإذا ما سلمنا بالتأثير الخارجي على ظهور الكتابة المصرية، فلعله لا يتجاوز – على الاكثر – تأثير فكرة الكتابة، وهو على أي حال أمر بعيد الاحتمال لو اخذنا بعين الاعتبار كيف نشأت في مصر كتابة قديمة جداً، في الألف الرابع قبل الميلاد.

ولا شك ان من العوامل الرئيسية التي ادت الى اختراع وتطور الكتابة الهيروغليفية في وادي النيل حاجة سكانه إلى العمل سنوياً بصورة منسقة لمواجهة الكوارث التي تهددهم بصفة دورية، ومنها فيضان النيل. فرغم ان اسرة او مجموعة من الأسر، او حتى قرية صغيرة، قد تعجز عن توفير الحماية الكافية حين ترتفع المياه بصورة غير متوقعة، فإن ذلك لم يكن لينطبق في حالة مجموعات بشرية كبيرة تعمل معاً. وتكوين مصر ذاته مما يشجع على قيام مثل هذه المجموعات - إذ أن اتساع الوادي ليس منتظماً، فهو يضيق احياناً حتى لا يتعدى مجرى النهر ذاته، ثم يأخذ في الاتساع مكوناً حياضاً صغيرة قد تتسع احياناً الى درجة كبيرة. وكل من هذه الحياض الطبيعية يشكل وحدة جغرافية ذات امكانيات زراعية معينة، ويبدو انها قد اتجهت بسرعة إلى تكوين وحدات سياسية صغيرة يهيمن عليها أكبر مركز بمنطقة الحوض المنزرعة التي أصبح إلهها الحارس إلهاً للمجتمع المحلي. وربما كان هذا أصل المديريات أو الأقاليم (nomes) التي تبدو وقد تشكلت بالفعل في فجر العصر التاريخي.

ولا شك في وجود اختلاف كبير جداً بين مصر العليا (الصعيد) الذي ينقسم إلى سلسلة من الحياض الطبيعية المحددة تحديداً جيداً جداً، ومصر السفلى - الدلتا - حيث يقسم النهر ذاته - تبعاً لانقسامه إلى فروع متعددة - التربة إلى وحدات ذات طابع يختلف تماماً عن طابع وحدات الصعيد وأقل منه وضوحاً.

ويجب ان نضع نصب اعيننا في هذا المجال ان اصطلاحي مصر، «العليا» و«السفلى» التقليديين إنما هما مصطلحان مضللان فيما لو طبقناهما على فترة تكوين الدولة الفرعونية. فطبقاً لما نعرفه الآن عن الحضارات السابقة على عصر الأسرات، لم يمتد ما نطلق عليه اسم مصر العليا جنوب منطقة الكاب وكان ينتهي في الشمال قرب الفيوم. وكان مركزه السياسي يوجد في نقادة في حوض طيبة ولكنه امتد الى الشمال إلى منطقة ابيدوس، وهي حوض طبيعي آخر قيض له أن يلعب دوراً كبيراً في تاريخ مصر. أما مصر السفلى فقد بدأت بدورها في الفيوم ولكنها انتهت إلى الشمال عند رأس الدلتا. ورغم ان معلوماتنا عن اتساعها في هذه الفترة السحيقة قليلة جداً، فمن المؤكد - على ما يبدو - انها لم تصل الى البحر. وكان مركزها يوجد في المنطقة التي تقوم فيها حالياً القاهرة - هليوبوليس.

وفي عهد مصر الفرعونية الباكر كانت الحياض الجنوبية تشكل قوة مساوية على الأقل لقوة الشمال. وكانت هذه القوة أحسن تنظيماً بفضل طبيعة الحياض المميزة التي تكونها. وهكذا يمكننا ان نستنبط بسهولة ان اتحاد الأقاليم الجنوبية هو الذي لا شك قد فرض في النهاية الوحدة الثقافية على الوادي وذلك بإخضاع اتحاد الأقاليم الشمالية التي كانت أصالتها أقل تميزاً.

وكانت الوحدات السياسية الصغيرة في الجنوب، التي تطابقت مع مناطق الحياض التي كانت تشغلها، تمتلك القوة البشرية اللازمة للقيام بالعمل الجماعي الذي لا غنى عنه لبقاء الاقليم: كتقوية ضفاف النهر التي تحولت إلى جسور فعلية (راجع ما تقدم) ثم بناء السدود لحماية المحلات السكنية. ولكي يكون هذا العمل فعالاً كان الأمر يستلزم التنظيم الذي لا شك قد سهل بدوره، إن لم يكن اختراع الكتابة، فعلى الأقل تطورها السريع. فلا بد من توصيل الأوامر الى عدد كبير من الرجال المنتشرين على مسافات كبيرة نسبياً، وذلك لانجاز مهام كانت بحكم الظروف تستلزم التنفيذ في فترة زمنية محدودة: بعد الحصاد قبل الفيضان الجديد. وكان توزيع العمل، وترتيب الأولويات، وتوفير الأدوات (حتى البدائي منها)، وتزويد العمال بالطعام وهم في مواقعهم - كان كل ذلك يتطلب وجود إدارة أياً كانت بساطتها. وكان لا يمكن لهذه الادارة أن تكون فعالة إلا إذا أمكنها التنبؤ بمختلف مراحل العمليات والتخطيط لها وذلك من مركز كان احياناً - بالضرورة - بعيداً عن الموقع الذي كان يجب



تمثال الكاتب الجالس.

القيام بالعمل فيه. ومن الصعب تصور هذا بدون أداة الكتابة التي لا يضاهيها شيء فيما يتعلق بتدوين البيانات الضرورية: عدد الرجال - حصص الطعام - ارتفاع الجسر الواجب بناؤه - وفوق ذلك سرعة توصيل الأوامر إلى شتى انحاء البلاد.

ومن المؤكد ان توحيد مصر السياسي على يد مينا حوالى عام ٣٠٠٠ق.م كان من شأنه تطوير الادارة وبالتالي الكتابة. وفي الواقع إن الزعيم لم يعد يهتم فقط بتنظيم الأعمال التي تستلزمها مصلحة المجموع في نطاق منطقة محددة، بل انه اهتم بكل البلاد التي من ملامحها الطول المفرط وبالتالي كون العاصمة التي تصدر الأوامر بعيدة جداً بصورة مستمرة عن قسم كبير من البلاد. وبالاضافة الى ذلك فإن شدة عدم انتظام الفيضان (راجع الشكل ص ٢٣) قد جعلت الحكومة المركزية مسؤولة عن تخزين اكبر قدر ممكن من الطعام في أوقات الوفرة، وعن سد العجز الذي قد يطرأ بصفة مستمرة بمجرد العلم به. ونتيجة لذلك كان على الزعماء - في هذه الحالة الفرعون - أن يلم بدقة بما يتوفر لدى البلاد لكي يستطيع - عند الحاجة - إما أن يقسم الموارد المتاحة حصصاً أو يوزعها على المناطق شديدة التأثر بالمجاعة. وكان هذا هو الأساس الذي قام عليه التنظيم الاقتصادي لمصر أو بالأحرى وجودها ذاته. فهو قد تطلب على المستوى المادي نظاماً محاسبياً معقداً للدخل والمنصرف فيما يتعلق بكل من السلع وهيئة الموظفين، مما يلقي اضواء على الدور الذي كان يضطلع به الكاتب في حضارة مصر القديمة.

وهكذا كان الكاتب قطب الرحى الحقيقي للنظام الفرعوني. فمنذ الأسرة الثالثة، اي حوالى ٢٨٠٠ ق.م - كان اكبر موظفي الدولة يسعون إلى ان يصوروا وحقيبة الكتابة على أكتافهم، كما كان أمراء الدولة القديمة يطلبون صنع تماثيل لهم تصورهم وهم في هيئة كتبة قاعدين القرفصاء (انظر الشكل الوارد فيما تقدم). وفي قصة مشهورة نجد الملك وقد امسك بيده القلم، إذا صح القول، ليسجل ما كان نبيٌ على وشك ان يمليه عليه. ولقد ازدادت اهمية الكاتب في المجتمع بفضل القوة السحرية المرتبطة دائماً بالكتابة. فمعرفة اسماء الأشياء كان معناها السيطرة عليها. وليس من المبالغة القول بأن الحضارة المصرية بأسرها كانت تقوم على الكاتب وأن الكتابة هي التي اتاحت لها فرصة التطور.

ويزودنا التباين بين مصر ووادي النيل النوبي بمزيد من الفهم لدور الكتابة ولأسباب وجودها بالنسبة إلى ظهور وتطور الحضارة المصرية. فإلى الجنوب من الشلال الأول نجد أنفسنا إزاء سكان لهم نفس ملامح سكان مصر العليا. ورغم ذلك كانت بلاد النوبة ترفض بصورة مستمرة قبول استعمال الكتابة، برغم ان صلاتها المستمرة مع وادي النيل لا بد قد أحاطتها علماً بهذا الاستعمال.

ويبدو أن سبب ذلك هو اختلاف أسلوب الحياة - فمن ناحية نجد لدينا كثافة في السكان الذين ربطتهم متطلبات الري والسيطرة على النهر الذي كان يعتمد عليه وجودهم ذاته ارتباطاً وثيقاً بحيث حولهم إلى مجتمع تتدرج فيه السلطة تدرجاً هرمياً ويلعب فيه كل فرد دوراً معيناً في تطور البلاد.

ومن ناحية اخرى نجد في بلاد النوبة سكاناً كانت لديهم في فجر التاريخ حضارة مادية تعدل حضارة مصر العليا إن لم تبزها، هذا برغم أن السكان كانوا منقسمين إلى مجموعات أصغر تعيش كل منها بعيداً عن الأخرى. وكانت هذه المجموعات أكثر استقلالاً وحركة، لأن تربية الماشية كانت تتطلب التنقل المستمر وتلعب دوراً في الاقتصاد لا يقل عن دور الزراعة التي كانت محدودة جداً في واد اضيق من ذلك الموجود بمصر. وهكذا لم تحس شعوب النوبة بالحاجة الى الكتابة، بحيث انحصرت باستمرار في نطاق العرف الشفاهي، ولم تلجأ الى الكتابة الا بين الفينة والفينة - وفي هذه الحالة يبدو

انها لم تستخدمها إلا في الأغراض الدينية وحدها أو حينها تخضع لنمط من الحكم الملكي ذي السلطة المركزية (انظر الفصلين العاشر والحادي عشر فيما يلي).

ويلقي الاختلاف السلوكي بين شعبين يشتركان في التركيب الاثنوجرافي ضوءاً هاماً على حقيقة تبدو شاذة: فقد اتخذ احدهما - بل لعله ابتكر - نظاماً للكتابة على حين استنكف الآخر من الكتابة التي كان ملماً بها. وكان مقيضاً لأسلوب الحياة الذي فرض على المجموعة التي كانت تقطن بالوادي الأسفل نتيجة لمقتضيات السيطرة على النيل أن يشجع على ظهور الكتابة وتطورها. وكان مقيضاً لهذا، بدوره، أن يجعل هذه المجموعة صانعة احدى كبرى حضارات العالم الأولى.

مصر الافريقية - وعاء التأثير

نلحظ حوالى عام ٣٧٠٠ ق.م توحيداً للحضارة المادية في المركزين الحضاريين في وادي النيل - او بمعنى ادق نجد ان المركز الجنوبي، في الوقت الذي كان يحافظ فيه على صفاته المميزة، قد أخذ ببعض حضارة المركز الشمالي. وكثيراً ما يربط تغلغل الحضارة الشمالية هذا صوب الجنوب، من ناحية، باختراع الكتابة، ومن ناحية اخرى بوفود غزاة إلى مصر كانوا أكثر تقدماً من السكان الأصليين. وفيما يتعلق بالكتابة فقد سبق أن رأينا أن الأمر لا يقتصر على عدم استبعاد الأصل النيلي، ومن ثم الافريقي، بل إنه قد يعبر عن الواقع. وبالاضافة إلى هذا فإن حدوث غزو قامت به عناصر جلبت الحضارة من الخارج، وبخاصة من منطقة العراق، لا يستند إلا إلى أدلة واهية جداً. على أن أصالة وقدم الحضارة المصرية لا يجب أن يحجبا عنا حقيقة مفادها انها كانت أيضاً وعاء لكثير من المؤثرات، كما أن موقعها الجغرافي قد هيأها مسبقاً للسير في هذا الاتجاه.

ولقد أدى المناخ الرطب نسبياً في نهاية العصر الحجري الحديث وفي خلال عصر ما قبل الأسرات، وهو المناخ الذي شهد تشكل الحضارة في مصر، إلى إمكان النفاذ إلى الصحراء العربية الممتدة ما بين البحر الأحمر ووادي النيل. ومما لا شك فيه أن تأثيرات العراق: التي يحتمل أنه قد بولغ في اهميتها، قد دخلت مصر من هذا الطريق. ورغم ذلك فإن قصور البحث قد جعلنا لا نعرف إلا القليل عن اتصالات مصر بحضارات شرقي الصحراء الكبرى في نهاية العصر الحجري الحديث. على أن رموزاً معينة منقوشة على اللوحات التي ترجع إلى عصر ما قبل الاسرات تجعلنا نفترض وجود ملامح مشتركة بين سكان الصحراء الليبية وسكان وادي النيل.

وإلى الشمال، لا يبدو أن الصلات في أوقات مبكرة جداً، عبر برزخ السويس، بين مصر والمعبر السوري - الفلسطيني، كانت وثيقة بالصورة التي اتخذتها بعد قيام الدولة القديمة، برغم أننا نلحظ من جديد شواهد موغلة في القدم على وجود صلات مع فلسطين. وربما كانت اسطورة اوزيريس قد نتجت من اتصالات بين المركز الحضاري في الدلتا وبين ساحل لبنان المليء بالأشجار وهي اتصالات يمكن ان ترجع بالتالي إلى عصور قديمة جداً.

وللوهلة الأولى يبدو لنا أن الصلات أوضح مع الجنوب، وإن يكن من الصعب تقدير اهميتها. فمنذ القرن الرابع قبل الميلاد كانت الشعوب القاطنة إلى الجنوب من الجندل الأول (راجع الفصل العاشر فيما يلي) على علاقة وثيقة مع وادي النيل الأسفل. ففي عصر ما قبل الأسرات وما سبقها مباشرة كانت مجالات التبادل بين مجموعات الشعبين متعددة: في أساليب صناعة الأواني وإنتاج الفخار المطلي بالمينا

اللامعة (الخزف المصري)، استعمال نفس الأشكال الخيالية، استخدام نفس الأسلحة، الاعتقاد في حياة اخرى بعد الموت، تشابه طقوس الدفن. ولا بد أن المصريين، أثناء هذه الاتصا قد أقاموا صلات مباشرة - أو من خلال وسطاء - مع شعوب افريقيا النائية، وهو ما يمكن استنتا عدد الأدوات العاجية والمصنوعة من الأبنوس التي جمعت من أقدم المقابر المصرية. وحتى لو سلم حدود بيئة الأبنوس كانت شمال الخط الذي هي عليه اليوم بمسافة كبيرة، فإنه كان لا يزال أبعد من النوبة السفلى، مما يوفر لنا دليلاً ثميناً على وجود صلات بين إفريقيا جنوب الصحراء وم فبالاضافة إلى العاج والأبنوس كان بإمكان المصريين أن يستوردوا البخور الذي يظهر في وقت جداً - والسبج (الأوبسيد) (حجر بركاني زجاجي اسود)، وهما مادتان غريبتان على وادي النيل. طريق هذه التجارة كان بإمكان المهارات الفنية والأفكار أن تنتقل بمزيد من السهولة من منطة اخرى، خاصة أننا قد سبق لنا أن لمسنا وجود دم إفريقي وفير في المصريين.

وهكذا فحيثما نتجه، سواء إلى الغرب أو الشرق أو إلى الشمال أو الجنوب، نجد مصر وقد ا مؤثرات خارجية، وإن تكن هذه المؤثرات لم تؤثر تأثيراً عميقاً في أصالة الحضارة التي كانت تت بالتدريج على ضفاف النيل، قبل أن تقوم بدورها بالتأثير في المناطق المجاورة.

نقاط غامضة في معلوماتنا

ولكي يتسنى لنا تقويم الدور الذي ربما تكون المؤثرات الخارجية قد لعبته في نشأة الحضارة في ا النيل، لا بد من الالمام جيداً بكل آثار البلاد في العصور القديمة. ويتطلب الأمر معلومات شاملة تتيح لنا إجراء مقارنة مفيدة بين المادة الأثرية التي جمعت في مصر وتلك التي توفرها الحضا المجاورة، وهي معلومات من شأنها ان تلقي الضوء على ما جرى استيراده او تقليده - وهي ا الملموسة الوحيدة على الصلات الواسعة.

ولكن برغم أن آثار الألف الرابع قبل الميلاد معروفة بما فيه الكفاية فيما يتعلق بكل من مصر ا والنوبة السفلى (بين الجندلين الأول والثاني) فإن هذا لا ينطبق على الأجزاء الأخرى من وادي الن فالدلتا بوجه خاص مجهولة بالنسبة إلينا فيما يتصل بعصري ما قبل الأسرات والأسرات الأولى، و باستثناء بعض الأماكن شديدة الندرة على حافتها الصحراوية. ومن ثم فكل الشواهد على احت وجود مؤثرات وافدة من آسيا خلال ذلك العصرين، سواء عن طريق برزخ السويس او ساحل ا المتوسط، إنما هي من قبيل الفروض.

ونحن نواجه نفس الصعاب فيما يتعلق بوادي النيل الأعلى الممتد ما بين الجندلين الثاني والساد وجهلنا بالآثار الباكرة لهذه المنطقة الواسعة أمر يؤسف له تماماً، إذ لا بد أن هذه المنطقة قد شهدت الاتصالات والتجارة بين القسم المصري من وادي النيل وبين إفريقيا جنوب الصحراء. وهذا ا يحول بيننا وبين مقارنة إنجازات الحضارة الفرعونية الناشئة وإنجازات الحضارات القائمة في ا الوقت ليس فقط في أعالي الوادي بل أيضاً في المناطق الممتدة إلى شرق وغرب وجنوب ال والاكتشافات التي تمت منذ وقت قريب بين الجندلين الخامس والسادس تجعلنا نرجح احتمال وج إن لم يكن اتصالات مباشرة فعلى الأقل تشابه مثير للارتباك في أشكال ونقوش الأثاث الجنائزي وا المنازل، في كل من مصر العليا في عصر ما قبل الأسرات والسودان جنوب خط عرض ١٧° شما

والنقص في معلوماتنا عن المكان – ان جاز التعبير – يعادله نقص في معلوماتنا عن الزمان. فالحضارة الفرعونية بمعنى الكلمة قدر لها أن تستمر لفترة تربو على ٣٠٠٠ سنة. وفيما يتعلق بحوالى ثلث هذه الفترة الطويلة لا نعرف شيئاً، أو لا نعرف إلا القليل عما حدث في مصر. فتاريخ الفراعنة يتوزع ما بين فترات قوة وفترات ضعف (راجع الفصل الثاني فيما يلي). وقد انتقل إلينا عن فترات تركيز السلطة الملكية بشكل واضح، عدد كبير من الوثائق والآثار التي تهيىء لنا إعادة تركيب الأحداث الهامة بصورة يقينية. وهذه الفترات تعرف عادة باسم «الدولة القديمة» (من ٢٧٠٠ الى ٢٢٠٠ ق.م) «والدولة الوسطى» (من ٢٠٠٠ إلى ١٨٠٠ق.م) «والامبراطورية الحديثة» (من ١٦٠٠ إلى ١١٠٠ق.م). ومن ناحية اخرى نجد أن مصادر معلوماتنا تضعف بل وتختفي فيما يتعلق بالفترات التي ضعفت فيها السلطة المركزية. وهكذا نجد أن التاريخ الفرعوني يشتمل على ثغرات يطلق عليها علماء المصريات اسم العصور او الفترات المتوسطة. وهناك ثلاث من هذه الفترات تمتد الأولى منها من ٢٢٠٠ – ٢٠٠٠ق.م، والثانية من ١٨٠٠ إلى ١٦٠٠ق.م، والثالثة من ١١٠٠ إلى ٧٥٠ق.م.

وإذا ما أضفنا إلى هذه الفترات فجر الملكية الفرعونية من ٣٠٠٠ إلى ٢٧٠٠ق.م الذي لا نعرف عنه ما فيه الكفاية، نجد أن ما يزيد على عشرة قرون من تاريخ مصر لا تزال مجهولة أو على الأقل غامضة بالنسبة إلينا.

الخلاصة

رغم عدم اكتمال معلوماتنا عن الحضارة الفرعونية بالصورة التي سبق أن عرضنا لها، فإن هذه الحضارة تشغل مكانة أساسية بالنسبة إلى تاريخ إفريقيا القديم. فبفضل آثارها ونصوصها والاهتمام الذي أثارته لدى الرحالة في العصور الخوالي، فإنها تزودنا بحصيلة كبيرة من المعلومات الخاصة بأساليب التفكير والمشاعر والحياة الافريقية في فترات يحتمل أننا لا يمكننا التصدي لها إلا من خلالها.

وبرغم كون هذه المكانة أساسية، فيحتمل أنها عديمة الجدوى حين نقارنها بالدور الذي يمكن للمعرفة بمصر القديمة والنوبة القديمة أن تلعبه بالنسبة إلى تاريخ القارة. فلو تم البحث عن آثار البلدان الواقعة بالقرب من وادي النيل بصورة أكثر فعالية، وبالتالي لو توفرت لدينا معلومات أفضل عنها، لزودت مصر والسودان المتصل بالنيل المؤرخ وعالم الآثار بوسائل للمقارنة والتأريخ لا غنى عنها لبعث الماضي ودراسة تيارات التأثير التي تتضمن – من الجنوب إلى الشمال ومن الشرق إلى الغرب – نسيج تاريخ إفريقيا ذاته.

الفصل الأول

أصل المصريين القدماء

بقلم شيخ أنتا ديوب

إن القبول العام – نتيجة لمؤلفات بروفسور ليكي (Leakey) – للرأي القائل بوجود أصل واحد – إفريقي – للبشرية لما يمكننا من تناول قضية استيطان مصر، بل العالم، حسب تطور جديد تماماً. فمنذ اكثر من ١٥٠٠٠٠ سنة، كانت كائنات شبيهة من الناحية المورفولوجية بإنسان الوقت الراهن تسكن منطقة البحيرات العظمى ومنابع النيل لا أي مكان آخر. هذا الرأي، وآراء أخرى يستلزم تلخيصها حيزاً كبيراً، تشكل فحوى التقرير الأخير، الجاري نشره الآن، الذي عرضه المرحوم الدكتور ليكي (Leakey) على المؤتمر الافريقي العام السابع الذي خصص لدراسة فترة ما قبل التاريخ في أديس آبابا في عام ١٩٧١[١]. ومعنى ذلك ان اصول الجنس البشري – تماماً كما خمن القدماء – قد نشأت على سفح جبال القمر. وعلى عكس كل التوقعات، وتحدياً للنظريات الحديثة، نجد أن الناس قد تحركوا من هذا المكان لسكنى بقية العالم. وهكذا يمكننا ان نستنتج حقيقتين على جانب كبير من الأهمية:

ـ كان أقدم الناس، بالضرورة، متماثلين جنسياً كزنوج؛ ذلك أن قانون كلوجر (Gloger)، الذي يمكن تطبيقه على الانسان، يذهب إلى أن الحيوانات ذات الدم الحار التي تتطور في مناخ دافىء رطب من شأنها أن تفرز في خلاياها مادة ملونة سوداء (يوميلانين)[٢]. ومن ثم فإذا كانت البشرية قد نشأت في المنطقة الاستوائية حول خط عرض البحيرات العظمى، فلا بد أن تكون خلاياها قد احتوت منذ البداية على مادة ملونة سمراء. وبعد ذلك أدت الاختلافات المناخية إلى انقسام النوع الأصلي إلى أجناس مختلفة.

---

(١) Proceedings of the Seventh Pan - African Congress of Pre-History and Quaternary Studies, December 1971.

(٢) M.F.A. Montagu, 1960, P. 390.

- لم يتوفر إلا طريقان يمكن لهؤلاء الناس الأوائل عن طريقهما أن يتحركوا لسكنى القارات الأخرى، هما الصحراء الكبرى ووادي النيل، وهذه المنطقة الأخيرة ستجري مناقشتها في هذا البحث.

ومنذ أواخر العصر الحجري القديم حتى عهد الأسرات انتشر هؤلاء الأقوام الزنوج بالتدريج في حوض النهر.

الشواهد الأنثروبولوجية الطبيعية على جنس قدماء المصريين

كان من الممكن الاعتقاد بأن النتائج التي توصل إليها علماء الأنثروبولوجيا من الشواهد الفسيولوجية من شأنها أن تضع حداً لكل الشكوك بتوفير حقائق يقينية يمكن الاعتداد بها. بيد أن الأمر ليس كذلك: فالطبيعة التعسفية للمعايير المستعملة، دون التوصل إلى ما هو أبعد من ذلك، وكذلك استبعاد أي تصور لاستنباط نتيجة يمكن قبولها دون تحفظ، من شأنها الانزلاق إلى قدر كبير من المماحكات العلمية بحيث نتساءل احياناً: أوَلَم يكن حل المشكلة أيسر لنا لو لم يوقعنا سوء الحظ في تناولها من هذه الزاوية.

ورغم أن ما توصلت إليه هذه الدراسات الأنثروبولوجية لا يصل إلى حد الحقيقة الكاملة فإنها لا تزال تجمع على وجود جنس زنجي منذ أقدم عصور ما قبل التاريخ حتى عهد الاسرات. ولا يمكننا في هذا البحث أن نشير إلى كل هذه الاستنتاجات التي يمكن الاطلاع عليها في الفصل العاشر من كتاب: (Dr. Emile Massoulard, Préhistoire et Protohistoire d'Egypte (Institut d'Ethnologie, Paris, 1949) وسنقتصر هنا على إيراد بعض فقراته: «ترى الآنسة فوست (Fawcett) أن جماجم نقادة تشكل مجموعة متجانسة تكفي لحملنا على الاعتقاد بوجود جنس اسمه جنس نقادة. فمن حيث مجموع ارتفاع الجمجمة وارتفاع الأذن وطول وعرض الوجه وطول الأنف ومقياس الرأس ومقياس الوجه، يبدو أن هذا الجنس قريب من الجنس الزنجي؛ ومن حيث عرض الأنف وارتفاع حجاج العين وطول مقياس الحنك والأنف يبدو أنه اقرب ما يكون إلى الشعوب الجرمانية، وهكذا فمن المحتمل أن يكون «النقاديون» الذين ظهروا في عصر ما قبل الأسرات شبيهين بالزنوج في بعض الصفات، وبالأجناس البيضاء في بعضها الآخر» (نفس المصدر، ص ٤٠٢ - ٤٠٣).

وجدير بالملاحظة أن مقاييس الأنف الخاصة بالأثيوبيين والدرافيديين تشير الى أنهم قريبو الشبه بالشعوب الجرمانية، وذلك رغم كونهما جنسين أسودين.

وهذه المقاييس التي تجعلنا في حل من اختيار أحد الطرفين المتعارضين اللذين يمثلهما الجنسان الزنجي والجرماني، تعطينا فكرة عن مرونة المعايير المستخدمة. وفيما يلي نموذج لذلك:

«بذل تومسون (Thomson) وراندال ماكيفر (Randall Mac Iver) محاولة لكي يحددا بمزيد من الدقة أهمية العنصر الزنجي في سلسلة الجماجم التي وجدت في العَمْرة وأبيدوس وهِوّ. وقد قسموها إلى ثلاث مجموعات: (١) جماجم زنجية (تلك التي لها مقياس وجه يقل عن ٥٤، ومقياس أنف يزيد على ٥٠ - أي وجه قصير عريض وأنف عريض)؛ (٢) جماجم غير زنجية (مقياس وجه يزيد على ٥٤، ومقياس أنف أقل من ٥٠، أي وجه طويل ضيق وأنف ضيق)؛ (٣) جماجم وسط بين هذا وذاك (من الممكن أن تنسب إلى إحدى المجموعتين السابقتين أي على أساس مقياس الوجه أو مقياس الأنف، بالاضافة إلى أشخاص هامشيين بالنسبة إلى أي من المجموعتين). ويبدو أن نسبة الزنوج كانت ٢٤٪

فيما يتعلق بالرجال و١٩٪ فيما يتعلق بالنساء في اوائل عصر ما قبل الأسرات و٢٥٪ و٢٨٪ على التوالي فيما يتعلق بأواخر عصر ما قبل الأسرات».

«وقد شكّك كيث (Keith) في قيمة المعايير التي طبقها تومسون وراندال ماكيفر لتمييز الجماجم الزنجية من غير الزنجية، وذلك على اعتبار أن تطبيق نفس المعايير على دراسة أي مجموعة من «الجماجم الانجليزية المعاصرة تتمخض عن نتيجة فحواها أن العينة تحتوي على ما يقرب من ٣٠٪ من النماذج الزنجية» (نفس المصدر، ص ٤٢٠ - ٤٢١).

وبإمكاننا أيضاً أن نؤكد عكس ما ذهب إليه كيث - أي لو أن المعيار طبق على الـ١٤٠ مليون زنجي الذين يعيشون الآن في إفريقيا السوداء، فسيكون لدينا ١٠٠ مليون زنجي على الأقل ممن يظهرون وقد طلوا بالطلاء الأبيض.

ويمكن أيضاً أن نلحظ أن التمييز بين الزنجي وغير الزنجي وما هو وسط بين هذا وذاك غير واضح: فغير الزنجي لا يعني جنساً أبيض وكذلك الحال بالنسبة إلى ما هو وسط بين هذا وذاك.

«وقد قام فالكنبورجر (Falkenburger) بإعادة دراسة أنثروبولوجيا الشعب المصري، وذلك في مؤلف حديث عرض فيه ١٧٨٧ جمجمة ذكور ترجع إلى فترات تاريخية مختلفة تمتد ما بين أقدم فترات عهد ما قبل الأسرات والوقت الحاضر. وهو يميز أربع مجموعات رئيسية» (نفس المصدر، ص ٤٢١).

وتصنيف جماجم عصر ما قبل الأسرات في أربع مجموعات يعطينا النتائج التالية فيما يتعلق بعصر ما قبل الأسرات:

«٣٦٪ زنوج، ٣٣٪ جنس بحر متوسط، ١١٪ إنسان كرومانيون، ٢٠٪ لأشخاص لا ينتمون لأي من هذه المجموعات وإن يكونوا أقرب إما لانسان كرومانيون أو للزنوج». ولا شك أن نسبة الزنوج أعلى من تلك التي توصل إليها تومسون وراندال ماكيفر، وان يكن كيث يعتبر هذه الأخيرة مرتفعة.

«هل تعكس أرقام فالكنبورجر الحقيقة؟ ليست مهمتنا أن نقرر ذلك. فلو كانت دقيقة لكان سكان عصر ما قبل الأسرات الذين لا ينتمون إلى جنس نقي السلالة - وهو ما ذهب إليه اليوت سميث - يمثلون على الأقل ثلاثة عناصر جنسية متميزة بدرجات متفاوتة - أكثر من الثلث زنوج، والثلث الآخر ينتمي إلى جنس البحر المتوسط، والعشر إلى إنسان كرومانيون، والخمس ينتمون إلى سلالة مختلطة». (نفس المصدر، ص ٤٢٢).

ورغم تناقض كل هذه الاستنتاجات، فإن درجة تقاربها تقطع بأن أصل سكان مصر في عصر ما قبل الأسرات كان زنجياً. ومن ثم فإنها جميعاً لا تتفق مع النظريات القائلة بأن العنصر الزنجي لم يتسرب إلى مصر إلا في مرحلة متأخرة. وعلى العكس من ذلك على طول الخط، فإننا نجد أن الحقائق تثبت أن هذا العنصر كان غالباً منذ بداية التاريخ المصري حتى نهايته، خصوصاً حين نضع نصب أعيننا من جديد أن «جنس البحر المتوسط ليس مرادفاً «لجنس - أبيض» اذ أن ما يسميه إليوت سميث بالجنس الأسمر أو جنس البحر المتوسط أقرب إلى الصحة».

«ويصنف إليوت سميث المصريين الأصليين هؤلاء باعتبارهم فرعاً مما يطلق عليه اسم الجنس الأسمر، وهو نفسه جنس البحر المتوسط أو الجنس الأوروبي - الافريقي، عند سيرجي (Sergi). واصطلاح «أسمر» هنا يشير إلى لون الجلد، وهو مجرد تعبير ملطف للدلالة على «زنجي»[٣].

(٣) يمكن المضي قدماً في دراسة المادة الملونة في أنسجة خلايا هذا الجنس بالطريقة التي سوف يشار إليها. وكثيراً ما عثر اليوت سميث على قطع صغيرة من الجلد على الأجسام علماً بان عمليات التحنيط التي تسبب تلف الجلد لم تكن قد استعملت بعد.

وهكذا يتضح لنا أن كل سكان مصر كانوا من الزنوج الذين حالوا دون تغلغل البدو البيض في عصر ما قبيل الأسرات.

وفي الدراسة التي قام بها بتري (Petrie) عن الجنس المصري نجد أنفسنا إزاء مادة قد تصلح للتصنيف ومتوفرة بكثرة لا يمكن إلا أن تدهش القارىء.

«نشر بتري دراسة عن أجناس مصر في عصر ما قبل الأسرات وقبيل عصر الأسرات بناها على صورهم وحدها. فإلى جانب الجنس المتضخم العجز نجده يميز ستة أنماط منفصلة: نمط ذو أنف معقوف يمثل جنساً ليبياً أبيض البشرة، نمط «مجدول اللحية» ينتمي إلى جنس غاز ربما أتى من شواطىء البحر الأحمر، نمط ذو أنف مدبب يكاد يكون من المؤكد أنه جاء من الصحراء العربية، نمط ذو أنف أعقف، من مصر الوسطى، نمط «ذو لحية ناتئة» من مصر السفلى، ونمط «ذو أنف ضيق» من مصر العليا. فطبقاً للصور تكون لدينا بهذا الشكل سبعة أنماط جنسية مختلفة في مصر خلال الفترات التي تعنينا. وفي الصفحات التالية سنجد أنه يبدو أن دراسة الهياكل لا تعزز هذه الاستنتاجات كثيراً» (نفس المصدر، ص ٣٩١).

ونحن نخلص من منهج التصنيف الذي سبقت الاشارة إليه إلى الطبيعة التعسفية للمعايير التي طبقت لتعريف الأجناس المصرية. وأياً كان الأمر فمن الواضح أن علم الأنثروبولوجيا لم يوفق في إثبات وجود جنس مصري أبيض، بل على العكس من ذلك نجده أميل إلى الاتجاه إلى الأخذ بما هو عكس ذلك.

ورغم ذلك فقد طمست هذه المسألة في الكتب المدرسية الجاري تداولها: ففي معظم الأحيان نجدها تؤكد صراحة أن المصريين كانوا مجرد بيض، بحيث يترك لدى الشخص العادي الأمين انطباع بأن مثل هذا التأكيد لا بد بالضرورة انه يستند إلى أساس مسبق يقوم على البحث الرصين. غير أن هذا الفصل أوضح انتفاء وجود هذا الأساس - وهكذا ضلل جيل بعد آخر. وتشير كثير من المراجع الآن إشارة عابرة إلى المشكلة حين تعرض لبيض لهم بشرة حمراء وسوداء دون أن تفطن بتاتاً الى ما في ذلك من فساد في المنطق.

«يطلق الاغريق على إفريقيا اسم «ليبيا» - وهذا خطأ في التسمية منذ البداية، بحكم أن افريقيا تضم شعوباً أخرى كثيرة إلى جانب من يطلق عليهم اسم الليبيين الذين ينتمون إلى البيض الموجودين في الحد الخارجي الشمالي أو حد البحر المتوسط، ومن ثم فهم أبعد ما يكونون عن البيض ذوي البشرة السمراء (او الحمراء) - أي المصريين»(٤).

وفي كتاب مدرسي خاص بأواسط المرحلة الثانوية نجد الجملة الآتية:

«يتميز الأسود لا بلون بشرته (إذ يوجد «بيض» سود البشرة)، بل بملامحه: الشفاه المكتنزة والأنف الأفطس...»(٥).

ولم يتم تبييض وجه الجنس المصري إلا بفعل هذه التحريفات التي طرأت على المصطلحات الأصلية.

ومن الأهمية بمكان تنبيه القارىء الى ما اتسمت به نظريات القرن الماضي وأوائل هذا القرن من مغالاة، في مجال علم الأنثروبولوجيا الاجتماعية حيث أدت التحليلات الدقيقة لملامح الجسم الخارجية

---

(٤) D.P. de Pedrals, p. 6.
(٥) Géographie, classe de 5°, 1950.



١



٢

١ : رسم يرجع الى ما قبيل التاريخ يمثل «ترانتر» أحد النبلاء الزنوج من جنس الآنو.

٢ : تمثالان صغيران من عصر ما قبل الأسرات.

إلى تصنيف الناس إلى أجناس حتى في أوروبا، وبخاصة في فرنسا، حين لم يكن هناك في الواقع سوى شعب واحد هو الآن شعب متجانس الشكل تقريباً[٦]. واليوم نجد أن الغربيين الذين يعتدّون بترابطهم القومي يحرصون على تجنب بحث مجتمعاتهم هم وفقاً لفروض مثيرة للخلاف كهذه، ولكنهم يسترسلون دون تفكير في تطبيق مناهج البحث القديمة على المجتمعات غير الأوروبية.

الأنماط البشرية فيما قبيل العصر التاريخي: قيمتها الانثروبولوجية

يتضح من دراسة الأنماط البشرية التي قام بها فلندرز بتري على مستوى آخر أن النمط العرقي كان أسود اللون: ويذهب بتري إلى أن هذا الشعب هو الآنو (Anu) ، الذين كان اسمهم المعروف لدينا منذ قبيل العصر التاريخي، يكتب في شكل ثلاثة اعمدة، على النقوش القليلة الموجودة التي ترجع إلى نهاية الألف الرابع قبل الميلاد. ويمثل سكان البلاد الأصليون باستمرار بشعارات رئاسة لا تخطئها العين، ولا نجدها في الصور القليلة للشعوب الأخرى التي جرى تصويرها باعتبارها عناصر أجنبية ذليلة وصلت إلى الوادي عن طريق التسلل (راجع ترانتر[٧] والملك العقرب اللذين يضعهما بتري في مجموعة واحدة): «كان الملك العقرب... ينتمي إلى جنس آنو السابق، وبالاضافة إلى ذلك فإنه كان يعبد مين وست[٨]».

وسنرى فيما بعد أن «مين»، شأنه في ذلك شأن آلهة مصر الكبرى، كان يطلق عليه - وفقاً لتقاليد مصر ذاتها - اسم «الزنجي العظيم».

وبعد إلقاء نظرة على مختلف الأنماط البشرية الأجنبية التي تنازعت الوادي مع سكان البلاد الأصليين السود، يصف بتري هؤلاء الأخيرين، الآنو، على الوجه التالي:

«إلى جانب هذه الأنماط التي تنتمي إلى الشمال والشرق، هناك جنس أنّو أو آنّو، وهم شعب (يرمز اليه بثلاثة أعمدة) أصبح جزءاً من سكان العصر التاريخي. ويتفرع الموضوع بصورة تثير كثيراً من

---

(٦) في كتابه Lutte des races (١٨٨٣) يؤكد جمبلوفيز (L. Gumplovicz) ان مختلف الطبقات التي تشكل شعباً تمثل باستمرار اجناساً مختلفة فرض أحدها سيطرته على الأجناس الأخرى عن طريق الفتح. وفي مقالة نشرها دلابوج (G. de Lapauge) في عام ١٨٩٧ عرض لما لا يقل عن اثني عشر «قانوناً أساسياً لعلم الاجتماع الأنثروبولوجي» - تشكل القوانين التالية نماذج منها «القانون الخاص بتوزيع الثروة» الذي يفترض ان الثروة في البلاد التي يوجد بها سكان يختلط فيهم العنصر الأوروبي - الألبي تزداد بنسبة عكسية لمقياس الرأس؛ «قانون المؤشرات الحضرية» الذي أعطاه آمّون Ammon الأولوية فيما يتعلق ببحث عن مجندي بادن مؤكداً ان سكان المدن تزداد فيهم نسبة طول الرأس عنها في سكان المنطقة الريفية المجاورة؛ «قانون التقسيم إلى طبقات اجتماعية» وقد صيغ على الوجه التالي؛ «يقل مقياس الرأس وتزداد نسبة الرؤوس الطويلة بارتفاع مستوى الطبقة الاجتماعية في كل ناحية». ولا يتردد الكاتب نفسه في كتابه «Séléctions Sociales» في تأكيد أن «الطبقة المسيطرة في عصر الاقطاع تكاد تنتمي كلية إلى مجموعة «الانسان الأوروبي» «Homo Europaeus» ، وبالتالي فليس من قبيل الصدفة وحدها أن يوضع الفقراء في أسفل السلم الاجتماعي، بل ذلك يرجع إلى نقص في تكوينهم الخلقي (منذ الولادة).

وهكذا نجد أن العنصرية الجرمانية لم تخترع شيئاً جديداً حين أكد الفرد روزنبرج أن من الواجب اعتبار الثورة الفرنسية ثورة ذوي الرؤوس العريضة المنتمين إلى الجنس الألبي على ذوي الرؤوس المستطيلة المنتمين إلى الجنس النوردي. «A. Cuvillier 1967 P. 155».

(٧) W.M.F. Petrie, 1939, Fig. 1.

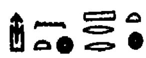
(٨) نفس المرجع، ص ٦٩.

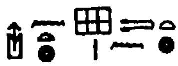
الشك فيما لو أدرجنا كل الأسماء ذات الأعمدة، ولكن إذا ما نظرنا إلى اسم الآنّو المكتوب بالأعمدة الثلاثة، نجد أنهم قد سكنوا مصر العليا والنوبة، ويستعمل الاسم أيضاً في سيناء وليبيا. أما فيما يتعلق بسكان مصر الجنوبية فنجد لدينا وثيقة هامة جداً هي صورة الزعيم ترانتر، الذي وجدت له صورة تقريبية في نقش بارز على قاشاني أخضر لامع، تم العثور عليه في المعبد القديم في أبيدوس. وقبل اسمه وضع عنوانه على بطاقة تعد من أقدم البطاقات: «مكان الآنو في مدينة حمن، ترانتر». وكان حمن هو اسم إله توفيوم. وكانت أرمنت، المقابلة لها، مكان أنّو الجنوب، أنّومنتي. والمكان التالي في الجنوب هو أونتي (بلدة الجبلين) يليه آونيت - سني (إسنا)[٩].

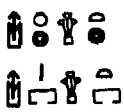
ويعدد أملينو (Amélineau) - حسب الترتيب الجغرافي المدن المحصنة التي بناها الأنّو السود على طول وادي النيل:

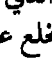
أنت = اسنا = 

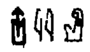
آنْ = أون الجنوبية (أرمنت)  

دندره، مسقط رأس ايزيس التقليدي. 

مدينة أطلق عليها أيضاً اسم = «أون» في إقليم طينة 

المدينة التي أطلق عليها اسم = «أون» الشمالية، مدينة هليوبوليس الشهيرة. 

وكان الجد المشترك للآنو الذين استقروا بضفاف النيل هو آني أو آن، وهو الاسم الذي يرمز له بالعلامة «خت»  : ويرجع الى أقدم نسخ كتاب الموتى وما تلاها من نصوص ويخلع على الاله أوزيريس.

وزوجة الاله آني  هي الآلهة آنيت ، وهي أيضاً أخته، تماماً كما كانت ايزيس أختاً لأوزيريس.

وقد أثبت (Pleyte)[١٠] أن الإله آن هو نفسه اوزيريس: ويجب أن نذكر أن أوزيريس قد لقبه الآنو باسم اوزيريس آني. ويمثل الإله آنو على التوالي بالرمز  والرمز . فهل تمتّ قبائل آنواك التي تقطن الآن في اعالي النيل بصلة إلى آنو القدامى؟ الأبحاث التي تجري في المستقبل من شأنها ان تجيب على هذا السؤال. ويرى بتري أن من الممكن التمييز بين شعب ما قبل الأسرات الذي يمثله ترانتر والملك العقرب (الذي هو فرعون حتى في ذلك التاريخ، كما يتضح من لباس رأسه) وبين شعب ذي علاقة بسلالة حاكمة يعبد الصقر، وربما يمثله الفرعون نَعرمر[١١] وخع سخم: وسانخت وزوسر[١٢]. وبالرجوع إلى الوجوه التي أعيد تصويرها في الشكل السابق من السهل ان نتبين أنه لا

(٩) نفس المرجع صفحة ٦٨.
(١٠) E. Amelineau. 1908, p. 174.
(١١) انظر الصورة صفحة ٦٠
(١٢) انظر الصورة صفحة ٦٠

يوجد اختلاف عرقي بين النوعين من الأشخاص، وأن كليهما ينتمي إلى الجنس الأسود.

وتوضح الصورة الجدارية في المقبرة SD. 63 (التاريخ التتابعي ٦٣) الموجودة في هَيَراكونبوليس المواطنين السود وهم يقهرون الأجانب الذين اقتحموا الوادي. هذا إذا ما قبلنا تفسير بتري: «في أسفل السفينة السوداء في هيراكونبوليس التابعة للرجال السود الذين يبدون متغلبين على الرجال الحمر»(١٣).

ويبرز لنا مقبض سكين جبل العرقي مناظر قتال مشابهة: «فهناك أيضاً قتال بين رجال سود يقهرون رجالاً حمراً»(١٤). على ان القيمة الأثرية لهذه الأداة، التي لم توجد في مكانها الأصلي، بل وجدت في حوزة أحد التجار، أقل من قيمة الشواهد السابقة.

ويتضح مما سبق أن صور رجال عصر ما قبل الأسرات، بل وعهد الأسرات، لا تتفق بأي حال مع الفكرة الشائعة عن الجنس المصري لدى علماء الأنثروبولوجيا الغربيين. فحيثما يصور النمط الجنسي للسكان الأصليين على أي درجة من الوضوح، يتضح لنا أنه كان زنجياً. ذلك اننا لا نجد في أي مكان عناصر هندو-أوروبية وسامية باعتبارها حتى اشخاصاً عاديين يخدمون رئيساً محلياً، بل نجدهم باستمرار ممثلين باعتبارهم أجانب مهزومين. وعلى الصور النادرة التي تم العثور عليها نجد باستمرار اشارات واضحة إلى الأسر: أيدي مربوطة وراء الظهر او مشدودة فوق الأكتاف(١٥). وهناك تمثال صغير يرجع إلى ما قبل عصر الأسرات يمثل أسيراً هندو-أوروبياً على ركبته جديلة ويداه مشدودتان إلى جسمه. ويتضح من مواصفات هذا التمثال ذاته أن المقصود منه أن يكون رجلا لقطعة أثاث وأنه كان يمثل جنساً مغلوباً(١٦). وأحياناً ما كانت الصورة مغايرة بشكل مقصود لكل ما هو طبيعي، كما هو الحال بالنسبة إلى أشكال ترجع الى ما قبيل عصر الأسرات ويبدو فيها أشخاص مضفرو الشعر بالصورة التي يطلق عليها بتري اسم ذيول الخنازير(١٧).

وفي مقبرة الملك قع (الأسرة الأولى) في أبيدوس وجد بتري لوحة عليها أسير هندو - أوروبي مكبل بالأغلال ويداه وراء ظهره. ويرى إليوت سميث أن الشخص المرسوم على اللوحة يمثل ساميًا.

كما وصلتنا من عهد الأسرات الوثائق الموضحة الواردة في الصفحة ٤٨ التي يظهر فيها أسرى هندو - أوروبيون وساميّون. وعلى العكس من ذلك يبدو من الملامح الزنجية النموذجية للفراعنة: نعرمر (الأسرة الأولى) المؤسس الفعلي لسلسلة الفراعنة، زوسر (الأسرة الثالثة) الذي كانت كل العناصر التقنية للحضارة المصريْة قد برزت بالفعل في عصره، خوفو، باني الهرم الأكبر (نمط كاميروني)(١٨)، منتوحتب، مؤسس الأسرة الحادية عشرة (شديد السواد)(١٩)، سيزوستريس، الملكة أحموزي نفرتاري وأمنوفس الأول. إن كل طبقات المجتمع المصري تنتمي إلى نفس الجنس الأسود.

وقد اخترنا عن قصد الشكلين الواردين في الصفحة ٥٦، اللذين يبرزان النمطين الهندو - اوروبي والسامي لايضاح الاختلاف بينهما وبين ملامح الفراعنة السود المختلفة تماماً، ولكي نكشف

(١٣) W.M.F. Petrie op. cit., p. 67.

(١٤) انظر الصورة صفحة ٤٧

(١٥) انظر الصورة صفحة ٥٩

(١٦) انظر الصورة صفحة ٥٩

(١٧) انظر الصورة صفحة ٥٩ وأنا أعلم أن اصطلاح «هندو - أوروبي» يستعمل عادة للدلالة على لغة وليس على جنس، ولكنني أفضل هذا الاصطلاح على لفظ «آري» حيثما لا يسبب استعماله اي لبس.

(١٨) انظر الصورة صفحة ٥١

(١٩) انظر الصورة صفحة ٥٢

عن عدم وجود ملامح لأي من النمطين الأولين في كل سلسلة الفراعنة، إذا ما استثنينا الأسرتين الأجنبيتين الليبية والبطلمية.

ومن المعتاد إبراز الفرق بين الزنجيات المرسومات على قبر حورمحب وبين النمط المصري. ولا شك ان هذا التباين لا يستند إلى أساس - إذ هو تباين اجتماعي لا عرقي، وهناك اختلاف كبير مشابه بين سيدة سنغالية ارستقراطية من دَكار وبين الفلاحات الافريقيات القدامى بأيديهن الخشنة واقدامهن المفلطحة، كما هو بين تلك الزنجيات وبين سيدة مصرية من احدى مدن العصور القديمة.

وهناك نوعان من الجنس الأسود:

- ذوو الشعر السبط (المسترسل) الذي يمثله في آسيا الدرافيديون وفي افريقيا النوبيون والتُّبُو أو التدّا، والثلاثة لهم بشرة سوداء فاحمة.
- السود ذوو الشعر المفلفل (شديد الجعودة) الذين يسكنون المناطق الاستوائية.

وكلا النوعين أثر في تكوين الشعب المصري.

قياس نسبة الميلانين

يمكن عملياً تحديد لون البشرة بصورة مباشرة، ومن ثم تتبع أصل المصريين القدماء العرقي، عن طريق التحليل الميكروسكوبي في المعمل، وأشك في أن تكون فطنة الباحثين الذين درسوا هذه المسألة قد غفلت عن هذا الاحتمال.

فالميلانين (يوميلانين) وهو المادة الكيمائية المسؤولة عن لون الجلد في الخلايا، لا تتحلل بوجه عام وتبقى لملايين السنين في جلود الحيوانات المتحجرة[٢٠]. وهكذا يرجح استخلاصها بسهولة من جلود المومياءات المصرية، وذلك بالرغم من وجود خرافة لا تزال راسخة في الأذهان تذهب إلى عدم إمكان إجراء أي تحليل لجلد المومياءات بعد أن تفسده مادة التحنيط[٢١]. ورغم ان البشرة هي الموضع الرئيسي الذي يتوفر فيه الميلانين، فإن الخلايا السوداء القائمة التي تخترق الجلد بينها وبين البشرة - حتى لو جرى تلف هذه الأخيرة بفعل مواد التحنيط - تحتوي على نسبة من الميلانين لا توجد في الأجناس بيضاء البشرة.

وقد جرى استخلاص العيّنات التي قمت بتحليلها في معمل الأنثروبولوجيا الطبيعية التابع لمتحف الانسان في باريس من المومياءات التي جرى العثور عليها بفضل تنقيبات ماريت (Mariette) في مصر[٢٢]. ويمكن تطبيق نفس الطريقة بفعالية كبيرة على مومياءات الملوك - تحتمس الثالث وستي الأول ورمسيس الثاني التي في حالة جيدة في متحف القاهرة. ومنذ سنتين حاولت عبثاً أن اطلب من أمين متحف القاهرة أن يقدم لي عينات مشابهة لكي أقوم بتحليلها. على أن اعداد عينة لا يتطلب ما هو أكثر من عدد قليل من الملليمترات المربعة من الجلد، على ان يكون المستحضر قليلاً من الميلانين المكثف مع تخفيفه ببنزوات الاثيل. ومن الممكن دراستها بالضوء العادي او بالأشعة فوق البنفسجية التي تجعل حبيبات الميلانين لامعة.

(٢٠) R.A. Nicolaus, p. 11.
(٢١) T.J. Pettigrew, 1834, pp. 70-71.
(٢٢) C.A. Diop, 1977.

وفي كلا الحالين يمكننا القول ببساطة أن تقدير منسوب الميلانين بالفحص الميكروسكوبي إنما ه طريقة مختبرية تمكننا من إدراج المصريين القدماء دون ادنى جدال في عداد الأجناس السوداء.

المقاييس العظمية

وربما كانت المقاييس العظمية – من بين المعايير المقبولة في مجال علم الأنثروبولوجيا الطبيعية لتصنيف الأجناس – اقل المقاييس عرضة للخطأ (بعكس علم قياس الجماجم) فيما يتعلق بتمييز الرجل الأسو من الرجل الأبيض. والمصريون، طبقاً لهذا المقياس أيضاً، يندرجون في عداد الأجناس السوداء. وق قام بهذه الدراسة في أواخر القرن الماضي العالم الألماني البارز ليبسيوس (Lepsius). ولا تزال استنتاجا ثابتة وصحيحة: فتطور مناهج البحث الذي تلا ذلك في مجال الأنثروبولوجيا الطبيعية لا يقلل بأي حا من شأن ما نطلق عليه اسم «قاعدة ليبسيوس»، الذي يقدم بالأرقام الصحيحة الكاملة النسب الجسدية للمصري النموذجي: ذراع قصيرة ونمط جسدي زنجي او ينتمي إلى الشعوب شبه الزنجي قصيرة القامة(٢٣).

مجموعات الدم

من الحقائق الملحوظة ان المصريين ينتمون حتى الوقت الحاضر، وبخاصة في الصعيد، إلى نفس الفصيلة ب، شأنهم في ذلك شأن شعوب غربي افريقيا المطلة على شاطىء الأطلنطي، لا إلى الفصيل أ٢ الخاصة بالجنس الأبيض قبل أن يتم أي تهجين(٢٤). وسوف تتمخض دراسة مدى توزيع الفصيل أ٢ في المومياءات المصرية، وهو ما تجعله تقنية الوقت الحاضر في حيز الامكان، عن نتائج مثيرة.

الجنس المصري في نظر الكتاب الكلاسيكيين القدماء

لم يثر التصنيف الجسدي للمصريين القدماء أي مشاكل لدى الكتاب الاغريق واللاتين المعاصرين لهم: فالمصريون كانوا زنوجاً مكتنزي الشفاه، لهم شعر مفلفل وأرجل رفيعة. وإجماع شواهد الكُتّاب على حقيقة جسدية بارزة – تتعلق بجنس شعب ما – أمر يصعب التقليل من شأنه او تجاهله. وفيما يل نورد بعض هذه الشواهد لنثبت هذا الحكم.

(٢٣) M. E. Fontane, pp. 44-45 (see reproduction: T)

(٢٤) M.F.A. Montagu, p. 337.



١





٢

١ : مقبض سكين جبل العرق.

٢ : أسرى ساميون من عهد الفراعنة، نقوش صخرية من سيناء.



١



٢

١ : أسرى هندو - أوروبيون.
٢ : أسير هندو - أوروبي.

فيما يتعلق بأصول الكولخيين (Colchians) (٢٥) يكتب هيرودوت أبو التاريخ (٤٨٠؟ - ٤٢٥ق.م) ما يلي:

«يتضح في الواقع أن الكولخيين مصريو الأصل. . . وقد ذكر لي مصريون كثيرون أنهم يعتقدون ان الكولخيين (شرقي البحر الأسود) هم من نسل جنود سيزوستريس. وقد استنتجت ذلك بنفسي من مؤشرين: اولهما أن لهم بشرة سوداء وشعراً مفلفلاً (وفي الحقيقة أن هذا لا يثبت شيئاً، حيث ان شعوباً اخرى تشترك في نفس الصفتين) - وثانيهما - وهذا دليل اقوى - هو ان المصريين والاثيوبيين قد مارسوا الختان منذ عصور سحيقة. ويقر الفينيقيون - والسوريون بفلسطين أنفسهم - انهم تعلموا هذه العادة من المصريين، على حين ان السوريين القاطنين عند ضفاف نهر ثرمودون (Thermodon) ونهر باثنيوس (Pathenios) وجيرانهم المكرونيين (Macrons)يذهبون الى انهم اقتبسوا هذه العادة من الكولخيين منذ عهد قريب. وهذه الأجناس هي الوحيدة التي تمارس عادة الختان. ومما يمكن ملاحظته أنهم يمارسونها بنفس الطريقة التي يمارسها بها المصريون. أما فيما يتعلق بالمصريين أنفسهم وبالاثيوبيين، فلم يمكنني القطع بمن منهما الذي لقن الآخر هذه العادة، اذ يتضح تماماً أن العادة لدى الشعبين ترجع الى عصور سحيقة. اما عن كون العادة قد انتقلت إليهم عن طريق الاختلاط بالمصريين، فمن الأدلة القوية الأخرى لديّ أن كل اولئك الفينيقيين الذين تربطهم علاقات تجارية مع بلاد اليونان لم يعودوا يتصرفون في الفرج بالطريقة المصرية وأنهم لا يفرضون الختان على نسلهم. . .»(٢٦).

ويشير هيرودوت مرات عدة إلى الطابع الزنجي للمصريين، وفي كل مرة يورده باعتباره حقيقة جديرة بالملاحظة يستند إليها لمناقشة مسائل اكثر تعقيداً.

ومن ثم فلكي يثبت أن وسيط الوحي في دودونا (Dodona) في إبيروس (Epirus)كان مصري الأصل، نجد أن من براهينه ما يلي: «..... وحين يضيفون أن الحمامة كانت سوداء، يحاولون إقناعنا بأن المرأة كانت مصرية»(٢٧).

أما الحمائم المعنية - ففي الواقع كانت توجد اثنتان طبقاً للنص - ترمز إلى امرأتين مصريتين يقال إنهما نقلتا من طيبة المصرية لانشاء هيكل الوحي في دودونا في بلاد اليونان وفي ليبيا (بواحة/ جوبيتر - آمون) على التوالي.

ولم يشارك هيرودوت انكساجوراس رأيه في أن انصهار الثلوج على جبال إثيوبيا كان سبباً في فيضان النيل(٢٨). وهو يعتمد في ذلك على الحقيقة الخاصة بأن أثيوبيا ليست بها امطار ولا ثلوج «والحرارة هناك تجعل الرجال سوداً»(٢٩).

---

(٢٥) في القرن الخامس قبل الميلاد حين زار هيرودوت مصر، كان شعب أسود البشرة، الكولخيون، لا يزالون يقطنون كولخيس على الشاطىء الأرمني للبحر الأسود الى الشرق من ميناء طرابيزون القديم تحيط بهم شعوب ذات بشرة بيضاء. وقد حار الباحثون في العصور القديمة في أصل هذا الشعب. ويحاول هيرودوت - في الكتاب الثاني من تاريخه الذي خصصه لمصر وأطلق عليه اسم أوثربي (أي ربة العزف على الناي) - أن يثبت أن الكولخيين كانوا مصريين، ومن ثم جاءت وجهات النظر التي نسجلها. ويؤكد هيرودوت، استناداً الى الشواهد الحجرية التي عليها نقوش تذكارية والتي بناها سيزوستريس في البلدان المفتوحة، ان هذا الملك قد وصل الى تراقيا وسكيثيا، اذ يبدو ان الشواهد كانت لا تزال قائمة في ايامه (الكتاب الثاني ١٠٣).

(٢٦) هيرودوت، (٢: ١٠٤)، وكما هو الحال بالنسبة إلى شعوب كثيرة في إفريقيا السوداء، كان النسوة المصريات يتعرضن لاستئصال البظر. راجع سترابون، الجغرافيا، الكتاب ١٧: ١.

(٢٧) هيرودوت: الكتاب ٢: ٥٧.

(٢٨) سينكا، مسائل الطبيعة، الكتاب ٤: ١٧.

(٢٩) هيرودوت، الكتاب ٢: ٢٢.

أرسطو (٣٨٩ إلى ٢٣٢ق.م) - عالم وفيلسوف ومعلم الاسكندر الأكبر. يحاول أرسطو، في احد مؤلفاته الأقل أهمية، بسذاجة غير متوقعة، أن يقيم علاقة بين الطبيعة المادية والسلوكية للكائنات الحية، ويترك دليلاً على الجنس المصري - الاثيوبي يؤكد فيه ما يذهب إليه هيرودوت. فهو يذهب إلى أن «اولئك الأشخاص شديدي السواد جبناء، ومن امثلتهم المصريون والأثيوبيون، إلا ان الأشخاص شديدي البياض جبناء كذلك، مما يمكن ان نلمسه في النساء - فبشرة الشجاعة وسط بين الاثنين»(٣٠).

لوكيانوس (Lucian) ، الكاتب اليوناني (١٢٥؟ إلى ١٩٠م). يشبه دليل لوكيانوس في وضوحه دليل الكاتبين السابقين. فهو يقدم لنا يونانيين، ليكينوس (Lycinus) وتيمولاوس (Timolaus) يجري بينهما الحديث التالي:

- «ليكينوس (يصف شاباً مصرياً): هذا الولد ليس فقط اسود، بل إن له شفتين مكتنزتين، وساقاه نحيلتان جداً... وشعره به ضفيرة خلفية، مما يشير إلى أنه ليس حراً».
- «تيمولاوس: ولكن هذه يا ليكينوس علامة على الأصل المتميز حقيقة في مصر - إذ ان الأطفال المولودين احراراً يضفرون شعورهم إلى ان يبلغوا سن الرجولة. وهذا على العكس تماماً من العادة التي درج عليها اجدادنا حين رأوا ان من حسن المظهر بالرجال كبار السن أن يثبتوا شعرهم ببروش لابقائه في مكانه»(٣١).

أبولودوروس (Apollodorus) ، القرن الأول قبل الميلاد. فيلسوف يوناني.
«استولى آيجيبتوس (Aegyptos) على بلد الأقوام ذوي الأقدام السوداء وسماها (Egypt)على اسمه»(٣٢).

آيسخيلوس (Aeschylus) ، (٥٢٥؟ - ٤٥٦ ق.م). شاعر تراجيدي وأبو التراجيديا الاغريقية.
في مسرحية «المتضرعات»، يفر داناؤس (Danaos) ، ببناته الدناويات (اليونانيات)، ويتعقبه اخوه آيجيبتوس ومعه أبناؤه الآيجيبتيون (المصريون)، الذين يرغبون في أن يتزوجوا بنات عمهم بالقوة، ويتسلق داناؤس تلاً وينظر إلى البحر ويصف أبناء أخيه وهم يشدون المجاذيف من بعيد بهذه الكلمات: «بإمكاني أن أرى البحارة بأطرافهم السوداء وقمصانهم البيضاء»(٣٣).
ويتكرر وصف مشابه لنمط الرجل المصري من جديد بعد أسطر قليلة في البيت الشعري المرقم ٧٤٥.

إخيليس تاتيوس (Achilles Tatius) الاسكندري (القرن الثاني م.) يقارن رعاة الدلتا بالاثيوبيين، ويشير إلى انهم ضاربون الى السواد يشبهون المولّدين.

---

(٣٠) أرسطو، علم الفراسة، ٦.
(٣١) لوكيانوس، الملاحة، الفقرتان ٢ - ٣.
(٣٢) ابولودوروس، الكتاب ٢، أسرة ايناكوس، الفقرتان ٣، ٤.
(٣٣) آيسخيلوس، المتضرعات ، البيتان ٧١٩ الى ٧٢٠. انظر أيضاً البيت رقم ٧٤٥.



الفرعون خوفو، من فراعنة الأسرة الرابعة.



الفرعون منتوحتب الأول.

سترابون (Strabo) (٥٨ ق.م - ٢٥م). زار سترابون مصر وكل بلدان الامبراطورية الرومانية تقريباً. وهو يأخذ بالنظرية القائلة بأن المصريين والكولخيين من نفس الجنس، ولكنه يذهب إلى ان الهجرات إلى اثيوبيا وكولخيس جاءت من مصر وحدها.

«سكن مصريون اثيوبيا وكولخيس»(٣٤). ولا يرقى اي شك إلى فكرة سترابون الشخصية في جنس المصريين، إذ انه يسعى في موضع آخر إلى إيضاح السبب في أن المصريين أغمق لوناً من الهنود، وهذا في حد ذاته مما يسمح - إذا ما احتاج الأمر - بدحض أي محاولة للخلط بين الجنسين الهندي والمصري.

ديودورس (Diodorus) الصقلي (٦٣ق.م - ١٤م). مؤرخ إغريقي معاصر للقيصر اغسطس.

«طبقاً لما يذهب إليه ديودورس يحتمل أن اثيوبيا هي التي استعمرت مصر (طبقاً للمفهوم الاغريقي للمصطلح، ومعناه انه حين يتضخم عدد السكان، يهاجر قسم منهم إلى أراض جديدة).

«**يقول الاثيوبيون إن المصريين إحدى جالياتهم**(٣٥) التي قادها أوزيريس الى مصر: وهم يذهبون إلى أن مصر كانت في بداية العالم مجرد بحر، ولكن النيل، بحمله كميات ضخمة من الغرين من اثيوبيا في مياه فيضانه، ملأها وجعلها جزءاً من القارة... وهم يضيفون أن المصريين قد نقلوا عنهم، بصفتهم مؤسسين وأسلافاً، الجزء الأكبر من قوانينهم»(٣٦).

ديوجينيس لائرتيوس (Diogenes Laërtius) كتب ما يلي عن زينون (Zenon)، مؤسس المدرسة الرواقية (٣٢٣ - ٢٦١ق.م):

«كان زينون بن مناسياس أو ديمياس من مواطني كيتيوم في قبرص، وهي مدينة اغريقية كانت بها بعض الجاليات الفينيقية».

ويصف تيموثيوس الأثيني زينون باعتباره ذا رقبة ملتوية. ويقول عن ابولونيوس الصوري انه كان نحيلاً، طويلاً جداً واسود - ومن ثم الحقيقة الخاصة، وفقاً لما يذهب إليه خريسيبوس في الكتاب الأول من «امثاله»، بان البعض قد اطلقوا عليه اسم نبات مصري معترش ذي ساق طويلة(٣٧).

أميانوس ماركلينوس (Ammianus Marcellinus) (٣٣٠م إلى ٤٠٠م) مؤرخ روماني وصديق للامبراطور يوليان وبه نصل إلى غروب الامبراطورية الرومانية ونهاية التاريخ القديم الكلاسيكي.

وتفصل حوالى تسعة قرون بين ميلاد آيسخيلوس وهيرودوت وبين وفاة اميانوس ماركلينوس، وهي تسعة قرون أصبح المصريون اثناءها، وسط بحر من الأجناس البيضاء، اخلاطاً بصورة متزايدة. ويمكن القول دون مبالغة ان من بين كل عشر أسر في مصر كانت هناك اسرة تضم عبداً أبيض آسيويا أو هندو - اوروبياً(٣٨).

---

(٣٤) سترابون، الجغرافيا، الكتاب الأول، الفصل ٣، الفقرة ١.

(٣٥) الخط الأسود من عندي.

(٣٦) ديودور، تاريخ العالم، الكتاب الثالث. يؤكد هوميروس، وهو أقدم الكتاب الاغريق وأجلهم قدراً، في كل من إلياذته وأوديسيته، قدم الحضارة الأثيوبية:

اليوم يتقبل جوبتر، يتبعه كل الآلهة، قرابين الاثيوبيين (الالياذة، الكتاب الأول ٤٢٢) أمس ذهب جوبتر الى شاطىء المحيط لكي يقوم بزيارة اثيوبيا المقدسة (الالياذة، الكتاب الأول، ٤٢٣).

(٣٧) ديوجينيس لائرتيوس، الكتاب السابع، ١

(٣٨) كان الأعيان المصريون ينزعون إلى ضم جارية سورية أو كريتية إلى حريمهم.

ومما له دلالته ان «التهجين» الخارجي، برغم كثافته، لم ينجح في تبديل هذه الصفات الجنسية الثابتة. وهكذا يكتب أميانوس ماركلينوس ما يلي: «. . . . معظم رجال مصر سمر أو سود، ويبدون نحفاء ضامرين»(٣٩). كما انه يؤكد الرأي الذي سبق أن اوردناه عن الكولخيين:

«وفيما وراء هذه البلاد يوجد قلب بلاد الكَمّاريين(٤٠) (Camaritae) ، ونهر فاسيس (Phasis) والذي يتدفق بسرعة عند حدود بلاد الكولخيين وهم جنس قديم مصري الأصل»(٤١).

وهكذا نكون قد استعرضنا في هذه العجالة آراء الكتّاب اليونان - الرومان القدماء عن جنس المصريين، ومنها يتضح لنا ان درجة الاتفاق بينهم مدهشة، وهي حقيقة موضوعية يصعب التقليل من شأنها او اخفاؤ ها بما في ذلك البديلان اللذان يتأرجح بينهما علم المصريات الحديث باستمرار.

والاستثناء هو ما يذهب إليه عالم أمين هو فولني (Volney) الذي زار مصر فيما بين عامي ١٧٨٣ و١٧٨٥، أي خلال الفترة التي ازدهرت فيها تجارة العبيد الزنوج، وكتب الملاحظات التالية عن الجنس المصري، الذي ينتمي إليه الفراعنة ذاتهم، أي الأقباط: «كلهم منتفخو الوجه ناعسو العيون ومكتنزو الشفاه، وبالاختصار فوجوههم سمراء ضاربة إلى الصفرة كلون الخلاسيين. وكنت أميل الى ان اعزو ذلك الى المناخ، حتى زرت أبا الهول، فزودتني نظرة إليه بحل للغز. فحين تأملت ذلك الرأس الزنجي الصفات في كل ملامحه تذكرت الفقرة المشهورة التالية التي اوردها هيرودوت: «ومن ناحيتي اعتبر الكولخيين جماعة من المهاجرين المصريين، لأنهم مثلهم سود البشرة وذوو شعر مفلفل». وبمعنى آخر كان قدماء المصريين زنوجاً حقيقيين من نفس السلالة التي تنتمي اليها كل الشعوب الافريقية الأصلية - ومن هذه الحقيقة يتضح للمرء كيف ان جنسهم، بعد مضي بعض القرون التي اختلط خلالها بدماء الاغريق والرومان، فقد لونه الأصلي تام السواد، وإن احتفظ بالعلامة المميزة لشكله الأصلي بل من الممكن ان نتوسع في هذه الملحوظة إلى حد كبير، ونفترض من حيث المبدأ ان المظهر الخارجي إنما هو نوع من السجل صالح للاستعمال في حالات عدة لدحض أو دعم ادلة التاريخ حول اصول الشعوب. . .».

وبعد ان اوضح فولني هذا الرأي بالاشارة الى وضع النورمان، الذين بعد مرور ٩٠٠ سنة على الفتح النورماندي، كانوا لا يزالون يشبهون الدانمركيين أضاف ما يلي:

«ولكن بالعودة من جديد إلى مصر، نجد أن انجازاتها الحضارية توفر موضوعات عدة للتأمل الفلسفي. ومن الموضوعات المثيرة للتأمل تأخر الأقباط وجهلهم في أيامنا هذه وهم من يعتقد أنهم ثمرة اقتران عبقرية المصريين بذكاء الاغريق. فجنس الزنوج الذين هم عبيد في الوقت الحاضر وموضع لاستخفافنا، هم أنفسهم الذين ندين لهم بفنوننا وعلومنا، بل واستعمالنا للغة الكلام، وأخيراً يجب ان نذكر ان الشعوب التي تدعي انها أكبر انصار الحرية والانسانية قد أقرت أكثر أنواع الاستعباد بشاعة وتساءلت عما إذا كانت للسود أدمغة من نفس نوع أدمغة البيض!»(٤٢).

ويرد شامبليون فيجياك (Champollion Figeac) أخو شامبليون الأصغر على رأي فولني هذا على النحو التالي:

---

(٣٩) أميانونس ماركلينوس، الكتاب الثاني والعشرون، رقم ١٦ (٢٣).

(٤٠) عصابات من القرصان كانوا يعملون على سفن صغيرة تسمى الواحدة منها في اللاتينية Camara .

(٤١) أميانوس ماركلينوس، الكتاب الثاني والعشرون رقم ٨ (٢٤).

(٤٢) M.C.F. Volney, *Voyages en Syrie et en Egypte*, Paris, 1787, Vol. 1, pp. 74-7.





١



٢

١ : رمسيس الثاني وباتوتسي معاصر.

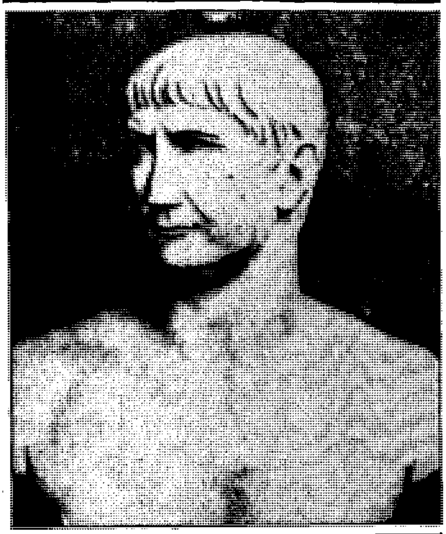
٢ : تمثال أبي الهول كما وجدته البعثة العلمية الفرنسية الأولى في القرن التاسع عشر. والمعتقد أن الملامح المميزة للزنوج التي يتسم بها هي ملامح الفرعون خفرع أو خفرن (حوالى عام ٢٦٠٠ ق.م. - الأسرة الرابعة) باني هرم الجيزة الثاني.



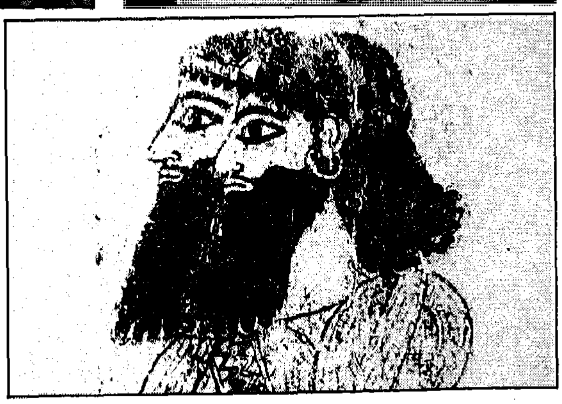


٢





٤



٥

١، ٢، ٣، ٤: أربعة أنم
هندو - أوروبية (زيوس
سرابيس، تراجان). قا
المجموعتين المصريتين ا

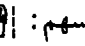
٥: ساميان.
كانت الطبقة الحاكمة ا
تماماً من المنتمين الى الـ
من ذوي النمط الهندو
يدخل الساميون مصر

«لا تكفي الصفتان الجسميتان، سواء الجلد أو الشعر المفلفل لدمغ جنس بأنه زنجي، ومن الواضح أن رأي فولني الخاص بالأصل الزنجي لسكان مصر القدماء، إنما هو رأي متعنت لا يمكننا قبوله»(٤٣).

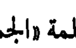
فأن يكون المرء أسود من قمة رأسه إلى أخمص قدميه، وأن يكون شعره شديد الجعودة لا يكفيان لجعله زنجياً! وهذا يبين لنا نوع الجدل المموه الذي لجأ اليه علم المصريات منذ ولادته كعلم. ويذهب بعض الباحثين الى أن فولني كان يسعى إلى تصعيد المناقشة إلى المستوى الفلسفي. ويكفي أن نعيد قراءة ما كتبه فولني لتبيّن أنه انما يبني استنتاجاته على حقائق مادية غير ناضجة وصريحة تفرض نفسها على عينيه وضميره باعتبارها براهين ثابتة.

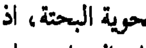
المصريون كما رأوا أنفسهم

ليس من قبيل إضاعة الوقت أن نستعرض وجهات نظر من يعنينا امرهم في المحل الأول. كيف نظر المصريون القدماء إلى أنفسهم؟ وفي أي فصيلة عرقية ادرجوا انفسهم؟ وما هو الاسم الذي اطلقوه على أنفسهم؟ إن اللغة والآداب التي خلفها لنا مصريو العهد الفرعوني تزودنا بإجابات صريحة على تلك التساؤلات التي لا يكف الباحثون عن التقليل من شأنها او تحريفها أو «تأويلها».

ولم يكن لدى المصريين سوى لفظ واحد يدلون به على أنفسهم:  Kmt = كمت = الزنوج (حرفياً)(٤٤) وهذا هو أقوى لفظ باق لدينا من اللغة الفرعونية يعبر عن السواد، وبالتالي فإنه يكتب بخط هيروغليفي يمثل قطعة من الخشب متفحمة في نهايتها حراشف التمساح(٤٥). وهذا اللفظ هو الأصل الذي اشتق منه الجذر المعروف حامي والذي كثر استعماله في المؤلفات الانثروبولوجية الحديثة. وربما كان الأصل المستمد من التوراة «حام» مشتقاً منه.

ولهذا لزم تحريف الحقائق حتى يتسنى لهذا اللفظ في الوقت الحاضر أن يعني «أبيض» في مصطلحات علم المصريات، على حين أنه في اللغة الفرعونية الأصلية التي أخرجته الى حيز الوجود كان يعني الأسود الفاحم.

وفي اللغة المصرية، تركب كلمة «الجماعة» أو «الجمع» من اسم أو صفة بوضعها في المفرد المؤنث. «كمت» من الصفة  = كم = أسود، ومن ثم فان معناها الحرفي: الزنوج، أو على الأقل الرجال السود. والكلمة اسم جمع يكون بهذه الصيغة قد استعمل لوصف شعب مصر الفرعونية باعتباره شعباً أسود.

وبمعنى آخر، من الناحية النحوية البحتة، اذا ما أردنا أن نشير الى الزنوج باللغة المصرية، لا يمكننا أن نستعمل كلمة اخرى غير تلك التي استعملها المصريون للاشارة الى أنفسهم: وبالاضافة الى ذلك فإن اللغة توفر لنا لفظاً آخر:  Kmtju = كميتو = الزنوج، الرجال السود (حرفياً) = المصريون على النقيض من الأجانب. وهي كلمة مشتقة من نفس الجذر «كم» الذي كان المصريون

---

(٤٣) J.J. Champollion - Figeac, 1839, pp. 26-27

(٤٤) قام بهذا الاكتشاف الهام، من الجانب الافريقي، سوسو نسوكان الذي كان عليه أن يؤلف هذا الجزء من الفصل. عن معنى الكلمة، انظر: Wörterbuch der äegyptischen Sprache, Vol 5, pp. 122 and 127. = معجم اللغة المصرية.

(٤٥) المرجع السابق، ص ١٢٢.

يستعملونه كذلك لوصف أنفسهم باعتبارهم شعباً متميزاً عن كل الشعوب الأجنبية(٤٦). وهاتان الصفتان الوحيدتان اللتان كان المصريون يستعملونها لتسمية أنفسهم، وكلتاهما تعني «زنجي» «أسود» في اللغة الفرعونية. ولا يكاد الدارسون يذكرونها، بل إنهم حين يفعلون ذلك يترجمونها قبيل لطف التعبير فيقولون «المصريون» على حين يسكتون تماماً عن معناهما الاشتقاقي(٤٧). ف يفضلون عبارة: = يتمكت = رجال بلاد الرجال السود أو رجال الب الأسود.

وفي اللغة المصرية نجد أن الكلمات يتلوها عادة مخصص يشير الى معناها الحرفي. وبالنسبة الى ه التعبير الخاص يقترح علماء المصريات أن = كم = أسود وأن اللون يصف المخصص الذ يأتي بعده والذي يعني «بلد» – وبالتالي يذهبون الى أن الترجمة يجب أن تكون «الأرض السوداء» من ل الطمي أو «البلد الأسود» وليس «بلد الرجال السود»، وهو ما نميل إلى نقله اليوم وفي ذهننا مصطل إفريقيا السوداء وإفريقيا البيضاء. وربما يكون الأمر كذلك، وإذا ما طبقنا هذه القاعدة بدقة ع = كمت، Kmit فنحن مضطرون الى التسليم بأن صفة «السواد» هنا تعين المخصص الذي يعني كل سكان مصر، وهو ما يوضحه الرمزان الى «رجل» و«امرأة». والخطوط الثلاثة التي تح تشير الى صيغة الجمع». وهكذا إن جاز التشكك في المصطلح Kme = كمي، فمن ذ الممكن تكرار ذلك فيما يتعلق بصفتي الجنسية (القومية) كمت وكمتيو، إلا إذا نتلقط ما يؤيد وجهات نظرنا عشوائياً وكيفما اتفق.

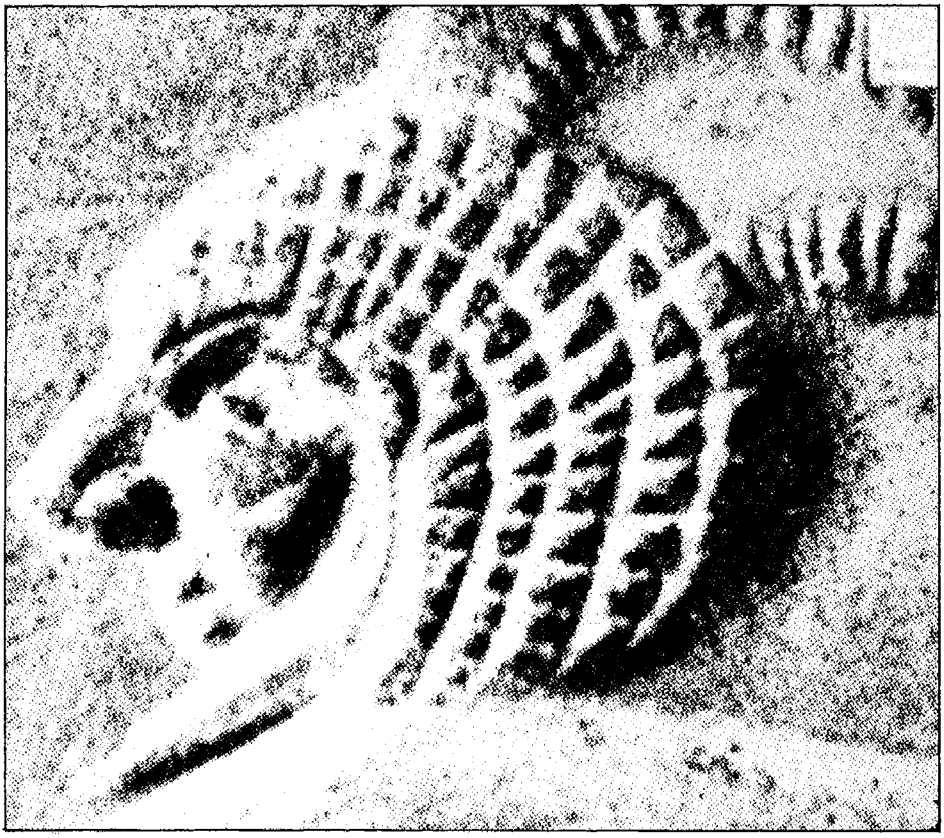
ومما يستلفت النظر أن قدماء المصريين لم يفكروا على الاطلاق في تطبيق هذه الصفات النوعية ع النوبيين وغيرهم من شعوب إفريقيا للتمييز بينهم هم وبين هذه الشعوب، تماماً كما لم يكن بإمك الروماني في فترة ازدهار الامبراطورية تطبيق صفة «اللون» لكي يميز نفسه عن الجرمان القاطنين بالض الشمالية لنهر الدانوب، وهم من نفس السلالة ولكنهم، من حيث التطور، كانوا ينتمون إلى عصر قبل التاريخ.

وفي كل من الحالتين كان كلا الشعبين ينتمي إلى نفس «عالم الانسان» بلغة علم الانثروبولوج الطبيعية، وبالتالي فإن الألفاظ المستعملة للتمييز كانت تتعلق بمستوى الحضارة او بالمعنى الأخلاقي فالرومان المتحضرون كانوا يعتبرون الجرمان – الذين هم من نفس السلالة – متبربرين. وكا المصريون يستعملون لفظ = Nahas = نَحَس للاشارة إلى النوبيين، والنَحَس(٤٨) هو اس شعب، ولا يتضمن شيئاً عن اللون في اللغة المصرية. فهو خطأ متعمد في الترجمة لجعل الكلمة تع زنجي، كما هو الحال في كل المؤلفات المنشورة في الوقت الحاضر.

الألقاب الإلهية

وأخيراً فإن أسود أو زنجي هو اللقب الإلهي الذي يستعمل بصورة ثابتة في وصف أكبر الآلهة المصر الخَيِّرة، على حين أن كل الأرواح الشريرة توصف بأنها دشرت = حمراء؛ ونحن نعلم أيضاً أنه في عرف

(٤٦) المرجع السابق، ص ١٢٨.
(٤٧) R.O. Faulkner, 1962, p. 286.
(٤٨) Wörter buch der äegyptischen Sprache, p. 128.



١



٢



٣

١ : أجنبي.

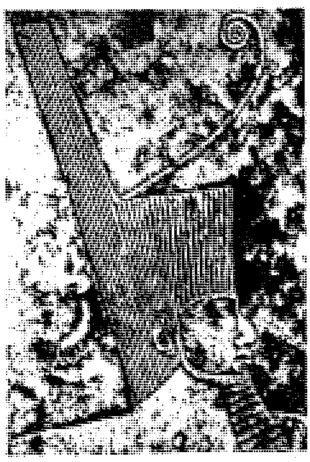
٢ : وقب باب من هيراكونبوليس، الأسرة الأولى.

٣ : أسير ليبي.



١

٢

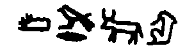


١ : أحد فراعنة الأسرة الأولى يرجح أنه نارمر.

٢ : الفرعون زوسر، من فراعنة الأسرة الثالثة، مثال الزنجي بخصائصه المميزة. وكان ذلك ايذاناً ببدء عصر عمارة النصب الحجرية الزاهر: الهرم المدرج والمجموعة الجنائزية في سقارة. وفي عهده كانت جميع المقومات التكنولوجية للحضارة المصرية قد خرجت الى حيّز الوجود.

الأفارقة يشير هذا التعبير إلى الشعوب البيضاء. ومن المؤكد من الناحية العملية أن ذلك كان يصدق على مصر، ولكنني أود في هذا البحث أن التزم بالحقائق التي تثير أقل قدر من الجدل.

وألقاب الآلهة كالآتي:

 (كم ور) = «الزنجي العظيم» كلقب لأوزيريس[٤٩]

 (كم) = الأسود + اسم الإله[٥٠]

 (كمت) = السوداء + اسم الآلهة[٥١]

 صفة كم (أسود) تسري على حتحور، ابيس، مِن، تحوت..... الخ[٥٢]

 ست كمت - المرأة السوداء = إيزيس[٥٣]

ومن ناحية اخرى توصف «سته»، أي الصحراء الجرداء، بالوصف دشرت = أحمر[٥٤] والحيوانات المفترسة التي حاربها حورس من أجل بناء الحضارة توصف بـ دشرت = أحمر، وبخاصة فرس البحر[٥٥]. كما أن الكائنات الشريرة التي قضى عليها تحوت هي:

 دشرتيو = الحمر، وهذا اللفظ هو المضاد اللغوي لـ كمتيو ويتبع في بنائه نفس قاعدة بناء النسبة.

شواهد الكتاب المقدس

يخبرنا العهد القديم بأن «... أبناء حام هم كُوش، مصرايم (أي مصر)، فوط وكنعان. وأبناء كوش هم سبًا، وحويلة، وسبته ورعمة وسبتكا»[٥٦].

وبوجه عام نجد أن كل التراث السامي (اليهودي والعربي) يضع مصر في قائمة واحدة مع بلاد السود.

وأهمية هذه الشواهد لا يمكن تجاهلها، إذ أن الساميين عاشوا مع المصريين القدماء، جنباً إلى جنب، وأحياناً ما كان (اليهود) متكافلين معهم، ولم يكونوا يستفيدون شيئاً من عرضهم في صورة عرقية زائفة كاذبة. كما أن النظرية المبنية على تفسير خاطىء للحقائق لم يعد بالامكان الدفاع عنها[٥٧].

(٤٩) المرجع السابق، ص ١٢٤.
(٥٠) المرجع السابق، ص ١٢٥.
(٥١) المرجع السابق، ص ١٢٣.
(٥٢) ومما تجدر ملاحظته أن ست - كم = الزوجة السوداء في لغة الوَلَف (Walaf).
(٥٣) Wörter buch der äegyptischen Sprrache, p. 492
(٥٤) المرجع السابق، ص ٤٩٣.
(٥٥) دشرت = دم في اللغة المصرية، درت = دم في لغة الوَلَف، انظر المرجع السابق ص ٤٩٤.
(٥٦) سفر التكوين، الاصحاح ١٠، الآيات ٦، ٧.
(٥٧) C.A. Diop, 1955, pp. 33ff.

المعطيات الثقافية

ومن الملامح الثقافية المشتركة العديدة بين مصر وإفريقيا السوداء اليوم، نود الاقتصار على الختان والطوطمية وحدهما. ووفقاً لما سبق أن اقتبسناه عن هيرودوت، نجد أن الختان يرجع إلى أصل إفريقي. وقد أكدت الآثار حكم أبي التاريخ، إذ استطاع إليوت سميث أن يجزم بعد فحص المومياءات التي حفظت بعناية أن الختان كان العادة السائدة لدى المصريين منذ قبيل العصر التاريخي[٥٨] - أي قبل ٤٠٠٠ق.م.

ولقد احتفظت الطوطمية المصرية بحيويتها حتى العصر الروماني[٥٩]، وهو ما يشير اليه بلوتارك. ولقد أكدت أبحاث أملينو[٦٠] (Amelineau) ولوريه (Loret)وموريه (Moret) وأدولف ريناك (Adolphe Reinach) بوضوح وجود نظام طوطمي مصري، مما يدحض ما ذهب إليه انصار نظرية عبادة الحيوان.

«فإذا ما هبطنا بمفهوم الطوطم إلى مستوى مفهوم «الفتش»، وهو عادة ما يمثل حيواناً من فصيلة تعتقد القبيلة أن لها بها علاقات خاصة تتجدد من الناحية الشكلية في فترات محددة، ويحُمَل إلى القتال باعتباره عَلَماً، فإذا ما قبلنا هذا التعريف المبسط للطوطم، وهو على بساطته يفي بالغرض، فمن الممكن القول بأنه لا يوجد بلد استحكمت فيه الطوطمية أكثر مما استحكمت في مصر - ولا جدال أنه لا يوجد بلد آخر يمكن دراستها فيه على وجه أفضل[٦١].

التشابه اللغوي

ربما تكون لغة الوَلّف[٦٢] وهي لغة سنغالية يجري الكلام بها في أقصى غربي إفريقيا على المحيط الأطلنطي، تشبه كثيراً اللغة المصرية، مثلها في ذلك مثل اللغة القبطية. وقد جرت أخيراً دراسة مستفيضة لهذه المسألة[٦٣]. وقد سبق أن ذكرنا في هذا الفصل ما فيه الكفاية لتوضيح أن الصلة بين اللغة المصرية القديمة ولغات إفريقيا ليست صلة افتراضية، بل هي حقيقة ملموسة يستحيل على العلم الحديث أن يتجاهلها. وسنرى أن الصلة بينها هي صلة نسب وقرابة.

(٥٨) F. Massoulard, 1949, p. 386.

(٥٩) Juvénal, Satire XV, vv. 1 - 14.

(٦٠) E. Amélineau, op. cit.

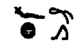
(٦١) A. Recnach, 1913, p. 17.

(٦٢) يتهجّاها الناس غالباً بالضم وُلُف (Wolof).

(٦٣) C.A. Diop. 1977(a).

	المصرية	القبطية	الوَلَف
 = كف	يمسك/يأخذ قطعة من شيء ما(٦٤)	(اللهجة الصعيدية كه: مستأنس(٦٥)	كف = يمسك بفريسة
	المضارع	**المضارع**	**المضارع**
	كف إي	كه	كف نأ
	كف ثك	كه ثك	كف نْكَا
	كف ثت	كه ثِري	كف نأ
	كف ثف	كه ثف	كف ثِف
	كف ثس	كه ثس	كف ثِس
	كف ن	كه ثن	كف نَنوُ
	كف تن	كه ثتتُو	كف نكن
	كف سن(٦٤)	كه ثي	كف نَنوُ
	الماضي	**الماضي**	**الماضي**
	كف ني	كه ني	كف (تن)نا
	كف(و) نك	كه نك	كف (تن) نكا
	كف (و) نت	كه نرى	كف (تن) نَا
	كف (و) نف	كه نف	كف (تن)ثِف
	كف (و) نس	كه نس	كف (تن)ثِس
	كف (و) نن	كه نن	كف (تن) نانو
	كف (و) نْ تن	كه نتسن	كف (تن) نكن
	كف (و) ن سِن(٦٧)	كه ني(٦٨)	كف (تن) نِنو

(٦٤) R. Lambert, 1925, p. 129.
(٦٥) A. Mallon, pp. 207-234.
(٦٦) A. de Buck, 1952.
(٦٧) المرجع السابق.
(٦٨) A. Mallon, pp. 207-234.

المصرية	الوَلَف
 = فه = اذهب بعيداً	فه = اندفع بعيداً

وفيما يلي أوجه التشابه بين صيغ الأفعال التي تتطابق أو تتشابه معانيها: وقد سجلت كل صيغ الأفعال المصرية، باستثناء اثنين، كذلك في لغة الوَلَف.

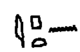
المصرية	الوَلَف
فه - ئِف فه - ئِس	فه - ئِف فه - ئِس
فه - ئِن - ئِف فه - ئِن - ئِس	فه - آن - نف فه - آن - ئِس
فه - و	فه - و
فه - وف فه - و - ئِس	فه - و - ئِف فه - و - ئِس
فه - و - ن - ئِف فه - و - ن - ئِس	فه - و - آن - ئِف فه - و - آن - ئِس
فه - ئن - ئِف فه - ئِن - ئِس	فه - يل - ئِف فه - يِل - ئِس
فه - ت - ئِف فه - ت - ئِس	فه - ت - ئِف فه - ت - ئِس
فه - تيفي فه - تيسي	فه - آتي - في فه - آت - ئِف فه - آت - ئِس
فه ـ تو - ئِف فه - تو - ئِس	مَر - تو - ئِف مَر - تو - ئِس
فه - كو (ي)	فَهي - كو
فه - ن - تو - ئِف فه - ن - تو - ئِس	فه - آن - تو - ئِف فه - آن - تو - ئِس
فه - ي - ئِف فه - ي - ئِس	فه - ي - ئِف فه - ي - ئِس

المصرية	الوَلَف
 مر = يحب	مَر - يلعق[٦٩]
مر - ثِف	مَر - ثِف
مر - ثِس	مَر - ثِس
مر - ن - ثِف	مَر - آن - ثِف
مر - ن - ثِس	مَر - آن - ثِس
مر - و	مَر - و
مر - و - ثِف	مَر - و - ثِف
مر - و - ثِس	مَر - و - ثِس
مر - و - ن - ف	مَر - و - آن - ثِف
مر - و - ن - ثِس	مَر - و - آن - ثِس
مر - ثِن - ثِف	مَر - ثيل - ثِف
مر - ثِن - ثِس	مَر - ثيل - ثِس
مر - ت - ثِف	مَر - ت - ثِف
مر - ت - ثِس	مَر - ت - ثِس
مر - تو - ثِف	تَر - تو - ثِف
مر - تو - ثِس	تَر - تو - ثِس
مر - تيفي	مَر - آت - ثِف
مر - تِ - تيسي	مَر - آت - ثِس
	مَر - آي - سي
	مَر - آي - سي
مر - كوي	مري - كو
مر - ي - ثِف	مَر - ي - ثِف
مر - ي - ثِس	مَر - ي - ثِس
مر - ن - تو - ثِف	مَر - آن - تو - ثِف
مر - ن - تو - ثِس	مَر - آن - تو - ثِس
	مَر - تو - آن - ثِف
	مَر - تو - آن - ثِس

(٦٩) وبتوسيع مدلول اللفظة: يحب حبا جماً (ومن ثم الفعل مَر - مَرّل) على غرار انثى الحيوان التي تلعق وليدها بعد ولادته مباشرة. ولا يتناقض هذا المعنى مع المفهوم الآخر الذي قد يعنيه المخصص فيما يتعلق برجل يرفع يده إلى فمه.

أسماء الاشارة في كل من اللغة المصرية ولغة الوَلَف

وفيما يلي التطابق الصوتي بين أسماء الاشارة في كل من اللغة المصرية ولغة الولف:

المصرية	الوَلَف	المصرية	الوَلَف
 = بو (إبو)	بو	ب و	ب و
 = بوي (إبو)	بوي	ب و ي	بء و ي
 = بن (إبن)	بَنثي بَلثي	ب ن ب ن	بء ن بء ل(٧٠)
 =بف (إيف)	بَفتي	ب ف	ب ف
 = بفع	بَفَا	ب ف ع	بء فِ أ
 = بفي (إبفي)	بَفي	ب ف ي	بء ف ى
 = بع	باً	ب ع	ب أ
 = ثِيتو	بطو	ب ط و	ب ت و
 = ثِيتن	بطنيء بَطَلِيء	ب ط ن ن	ب ت ن ل
 = ثِبتف	بَتَفيء	ب ت ف	بء ت ف

(٧٠) انظر ما يلي فيما يتعلق بإيضاح هذه القاعدة الهامة.

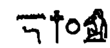
وأوجه التطابق الصوتية هذه لا يمكن أن نعزوها سواء الى صلة بسيطة أو الى القوانين العامة للعقل البشري – اذ أنها أوجه تطابق منتظمة حول نقاط واضحة تمتد الى داخل نظام بأكمله، وهو نظام أسماء الاشارة في اللغتين ونظام اللغات المنصرفة الأفعال وبتطبيق مثل هذه القوانين أمكن اثبات وجود عائلة اللغات الهندو- أوروبية.

ويمكن الاسترسال في المقارنة لايضاح أن معظم الفونيمات (الوحداتُ الصوتية المميزة) تبقى دون تغيير في كل من اللغتين. والتعديلات القليلة ذات الأهمية الكبرى هي كالآتي:

التطابق : ن ⟵ ل

في المصرية — في الوَلَف

ن — ل

 = نَدِ = يسأل — لَدِ = يسأل

 = نَه = يحمي — لَه = يحمي

 = بن بن = غير بعيد عن القمة — بل بل = غير بعيد عن القمة

 = نِي = تتقدم به السن — تليء = مهم

 = تفنوت = الآلهة التي ولدت من بصاق رَع — تفِنت = «تلفظ أو تتمخض عن وليد» / تفِلت = يبصق / تفلِي = بازق

 = نبت - ضفيرة — لتَ = ضفيرة / نَب = يضفر الشعر مؤقتاً

التطابق: ح ⟵ كـ

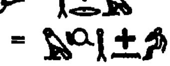
في المصرية — في الوَلَف

ح — كـ

 حن = الفالوس (عضو الذكورة) — كْن = الفالوس

 = حَون = شخص بالغ — كْوْ نيء = بالغ / كْثنيء

 حور = حَورُس — كْور = إنسان = (ذكر؟)

 = حور حون = حَورسُ — كْور كْوْ نيء = رجل الشاب (م.أ.م)

ورغم ذلك فمن السابق لأوانه أن نقطع بشيء عن حروف العله المكملة للفونيمات المصرية، ولكن الطريق مع هذا قد هيىء لاعادة اكتشاف نطق حروف العلة في اللغة المصرية القديمة عن طريق القيام بدراسات مقارنة مع لغات إفريقيا.

الخلاصة

إن نظام المَلكيّة الافريقية - الذي يتضمن قتل الملك إما بالفعل أو بصورة رمزية، بعد حكم يختلف مداه الزمني، ولكن كان لا يزيد عن ثماني سنوات - يعيد إلى الأذهان الاحتفال بتجديد شباب الفرعون خلال عيد سْد.

ومما يذكرنا بمصر أيضاً طقوس الختان التي سبق أن عرضنا لها، والطوطمية الافريقية ونظريات نشأة الكون والعمارة والآلات الموسيقية لافريقيا السوداء(٧١).

وتشبه علاقة مصر القديمة بالحضارة الافريقية، العلاقة بين الحضارة اليونانية - الرومانية والحضارة الغربية. ويجب أن يستند بناء مجموعة كاملة من العلوم الانسانية الافريقية إلى هذه الحقيقة.

ويجب أن يكون مفهوماً مدى صعوبة كتابة مثل هذا الفصل في عمل من هذا النوع بحكم أن المادة قد جرت على اللطف في التعبير والحلول الوسطى. وهكذا ففي محاولة منا لتجنب التضحية بالحقيقة العلمية، اقترحنا ثلاث خطوات تمهيدية للدعوة لكتابة هذا المجلد، وقد ووفق عليها كلها في الجلسة العامة التي عقدت عام ١٩٧١(٧٢)، وقد أدى الاقتراحان الأولان إلى عقد ندوة في القاهرة من ٢٨ يناير (كانون الثاني) إلى ٣ فبراير (شباط) ١٩٧٤(٧٣)، وأود في هذا المقام أن أشير إلى بعض فقرات تقرير هذه الندوة. فقد اعترف الاستاذ فركوتير (Vercoutter) - الذي كلفته اليونسكو بكتابة التقرير التمهيدي، بعد مناقشة مستفيضة - بخطل الفكرة المألوفة الخاصة بأن الشعب المصري كان يتوزع على قدم المساواة بين بيض وسود ومهجنين:

«وقد وافق الأستاذ فركوتير على عدم الحاجة إلى بذل محاولة لتقدير النسب المئوية التي لم تعن أي شيء إذ كان من المستحيل إجراؤ ها بدون بيانات إحصائية موثوق بها»

وحول موضوع الحضارة المصرية «لاحظ الأستاذ فركوتير أنه يعتقد أن مصر كانت إفريقية من حيث طريقة كتابتها وثقافتها واسلوب تفكيرها».

وقد اعترف الأستاذ لكلان (Leclant) من ناحيته «بنفس الطابع الافريقي للمزاج المصري واسلوب التفكير المصري».

وفيما يتعلق بعلوم اللغة أشار التقرير إلى أن «هذا البند، خلافاً للبنود التي سبقت مناقشتها، قد كشف عن قدر كبير من الاتفاق بين المشتركين. وقد اعتبر التقرير الموجز الذي وضعه الأستاذ ديوب (Diop) وتقرير الأستاذ أوبنجا (Obenga) بنّاءين للغاية».

كما رفضت الندوة الرأي القائل بأن اللغة المصرية الفرعونية كانت لغة ساميّة «وبانتقال الأستاذ سونيرون (Sauneron) إلى مسائل أوسع، أثار الالتفات إلى أهمية النهج الذي اقترحه الاستاذ أوبنجا بعد أن عرض الأستاذ ديوب رأيه. فاللغة المصرية ظلت ثابتة لمدة ٤٥٠٠ سنة على الأقل. فمصر تقع عند نقطة التقاء المؤثرات الخارجية وكان من المتوقع أن تكون قد اقتبست من اللغات الأجنبية، إلا أن الجذور السامية لم تزد على مئات قليلة فيما لو قورنت بمجموع عدة آلاف من الكلمات. فلم يكن

(٧١) See C.A. Diop, 1967.

(٧٢) انظر التقرير النهائي للجلسة العامة الأولى للجنة العلمية الدولية لتحرير تاريخ أفريقيا العام، اليونسكو، ٣٠ مارس (اذار) - ٨ أبريل (نيسان) ١٩٧٤.

(٧٣) الندوة الخاصة بـ«عمران مصر القديمة بالسكان وفك رموز الكتابة المروية» أنظر «دراسات ووثائق» تاريخ افريقيا العام، العدد ١، اليونسكو، ١٩٧٨.

بالاستطاعة عزل اللغة المصرية عن سياقها الافريقي، ولم يكن بالاستطاعة إيضاح أصلها إيضاحاً كاملاً بالقول بأنها ساميّة، ومن ثم كان من الطبيعي جداً أن نتوقع وجود لغات متصلة بها في إفريقيا».

وقد جرى الاعتراف بالعلاقة السُلاَلية، أي غير العرضية، بين اللغة المصرية واللغات الافريقية.

وقد لاحظ الأستاذ سونيرون أن المنهج الذي اتبع مثير للاهتمام الى حد كبير، حيث أنه لا يمكن أن يكون من قبيل الصدفة المحضة أن يوجد تشابه بين لواحق ضمير الغائب المفرد في اللغة المصرية القديمة ولغة الوَلَف، ولهذا اقترح بذل محاولة لاعادة تركيب لغة إفريقية قديمة باستعمال اللغات المعاصرة كنقطة للانطلاق».

وفي الخاتمة العامة للتقرير ورد ما يلي: «رغم ان ورقة العمل التمهيدية التي وزعتها اليونسكو حددت نقاط موضوع الندوة، فإن المشتركين لم يتقدموا كلهم بدراسات يمكن مقارنتها بالبحوث المتعمقة التي بذل كل من الاستاذين أنتا ديوب وأوبنجا جهداً كبيراً في اعدادها. ولهذا كانت المناقشات تفتقر الى التوازن». لقد جرت في القاهرة كتابة صفحة جديدة في تاريخ افريقيا، إذ أوصت الندوة باجراء مزيد من الدراسات عن مفهوم الجنس. ومنذ ذلك الوقت أجريت مثل هذه الدراسات، وإن لم تزود المناقشة التاريخية بشيء جديد خاصة وأنها تذهب الى أن علم البيولوجيا الجزيئية وعلم الوراثة يقران بوجود السكان وحدهم على اعتبار أن مفهوم الجنس لم يَعُدْ له أي معنى. ولكن حيثما أثيرت مسألة انتقال العيوب الوراثية يعود مفهوم الجنس باقدم معانيه الى فاعليته من جديد - اذ يخبرنا علم الوراثة أن «أنيميا الخلية المريضة لا تحدث الا لدى الزنوج» والحقيقة أن كل «علماء الأنثربولوجيا» هؤلاء قد توصلوا في عقولهم بالفعل الى الاستنتاجات المستقاة من انتصار نظرية أصل البشرية الواحد دون أن يجازفوا بصياغتها بلغة واضحة - فلو أن البشرية نشأت أول ما نشأت في افريقيا لكانت زنجية بالضرورة قبل أن تصبح بيضاء عن طريق التغيار الاحيائي والتكيف في نهاية العصر الجليدي الأخير في أوروبا الذي طرأ في أواخر العصر الحجري القديم. والآن نفهم أكثر مما سبق السبب في سكنى الزنوج الجريمالديين لأوروبا للمرة الأولى لمدة ١٠٠٠٠ سنة قبل ظهور انسان كرومانيون - النموذج الأول للجنس الأبيض - (حول ٢٠٠٠ ق.م).

وتتضح وجهة النظر الأيديولوجية كذلك في دراسات تبدو موضوعية.

ونحن نجد في التاريخ والعلاقات الاجتماعية أن الشخص أو الشعب كما نراه هو العامل الرئيسي، بعكس البنية الوراثية للشخص أو الشعب. فطبقاً لعلم الوراثة كما هو عليه اليوم لا يستحيل وجود شخص من الزولو له نفس بنية فورستر». فهل معنى هذا أن التاريخ الذي نشهده سيضع نفس الشخصين على قدم المساواة من حيث نشاطاتها القومية والاجتماعية؟ لا - بالتأكيد، إذ سيبقى التناقض عرقياً لا اجتماعياً.

وهذه الدراسة تستلزم إعادة كتابة تاريخ العالم من وجهة نظر أكثر تمشياً مع العلم، واضعين نصب أعيننا العنصر الزنجي - الافريقي الذي ظل غالباً لفترة طويلة.

ومعنى هذا أن بالامكان الآن تشكيل مجموعة كاملة من العلوم الانسانية الزنجية - الافريقية على أساس تاريخي سليم بدل كونها معلقة في الهواء.

وأخيراً فإذا كان صحيحاً أن الحقيقة هي وحدها الثورية، ففي وسعنا ان نضيف ان بناء العلاقات الودية من جديد على أساس الحقيقة وحده هو القادر على البقاء. ذلك ان قضية تقدم الانسانية لا يخدمها او ينفعها حجب الحقائق.

ان اعادة اكتشاف الماضي الحقيقي للشعوب الافريقية لا يجب ان يكون عامل شقاق، بل لا بد أن يساعد على توحيد هذه الشعوب، فيما بينها داخلياً وفيما بين بعضها أيضاً، مما يؤدي إلى خلق وحدة بينها من الشمال إلى الجنوب، حتى يمكنهما معاً أن يحملا رسالة تاريخية جديدة تستهدف تحقيق أكبر قدر من خير البشرية، وهو ما ينسجم مع المثل الأعلى لليونسكو[٧٤].

(٧٤) ملحوظة للمشرف على هذا المجلد: إن الآراء التي طرحها شيخ انّتا ديوب في هذا الفصل هي نفس الآراء التي قدمها وطورها في الندوة التي أجرتها اليونسكو حول «سكنى مصر القديمة» في القاهرة في عام ١٩٧٤، وستتضمن نهاية هذا المجلد ملخصاً لمحضر جلسة هذه الندوة. ولم يقبل كل المتخصصين المهتمين بالمشكلة وجهات النظر الواردة في هذا الفصل (راجع المقدمة السابقة) جمال مختار.

الفصل الثاني

مصر الفرعونية

بقلم عبد المنعم أبو بكر

أدت نهاية العصر الجليدي في أوروبا الى تغيرات مناخية كبرى في البلدان الواقعة الى جنوب البحر المتوسط. فلقد أدى انخفاض معدل الأمطار الى هجرة الشعوب المتنقلة القاطنة في افريقيا الصحراوية الى وادي النيل بحثاً عن موارد مائية دائمة. وهكذا يحتمل أن السكنى الأولى الفعلية لوادي النيل قد بدأت في اوائل العصر الحجري الحديث (نحو ٧٠٠٠ق.م). وبعد ذلك بدأ المصريون حياة الرعي والزراعة. وعلى حين أنهم طوروا أسلحتهم وأدواتهم الحجرية، فإنهم قاموا كذلك باختراع - أو اقتباس - الأواني الفخارية التي ساعدتنا إلى حد كبير على إعادة وضع قائمة كاملة بمختلف حضارات مصر في العصر الحجري الحديث.[١].

عصر ما قبل التاريخ

فقبل فجر التاريخ بوقت قصير تعلم المصريون استعمال المعادن[٢] فيما عرف باسم العصر الكلكوليثي (Chalcolithic) (أو الكُبروليثي Cuprolithic) الذي حل فيه المعدن بالتدريج محل حجر الصوان. وظهر الذهب والنحاس للمرة الأولى، برغم ان البرونز لم يستعمل حتى عهد الدولة الوسطى. ومن الواضح أن استعمال الحديد لم ينتشر حتى أواخر التاريخ الفرعوني.

---

(١) انظر : تاريخ افريقيا العام، اليونسكو، المجلد الأول، الفصل الخامس والعشرون : «وادي النيل قبل التاريخ».

(٢) المرجع السابق، الفصل الثامن والعشرون: «اختراع المعادن وانتشارها وتطور النظم الاجتماعية الى القرن الخامس قبل الميلاد».

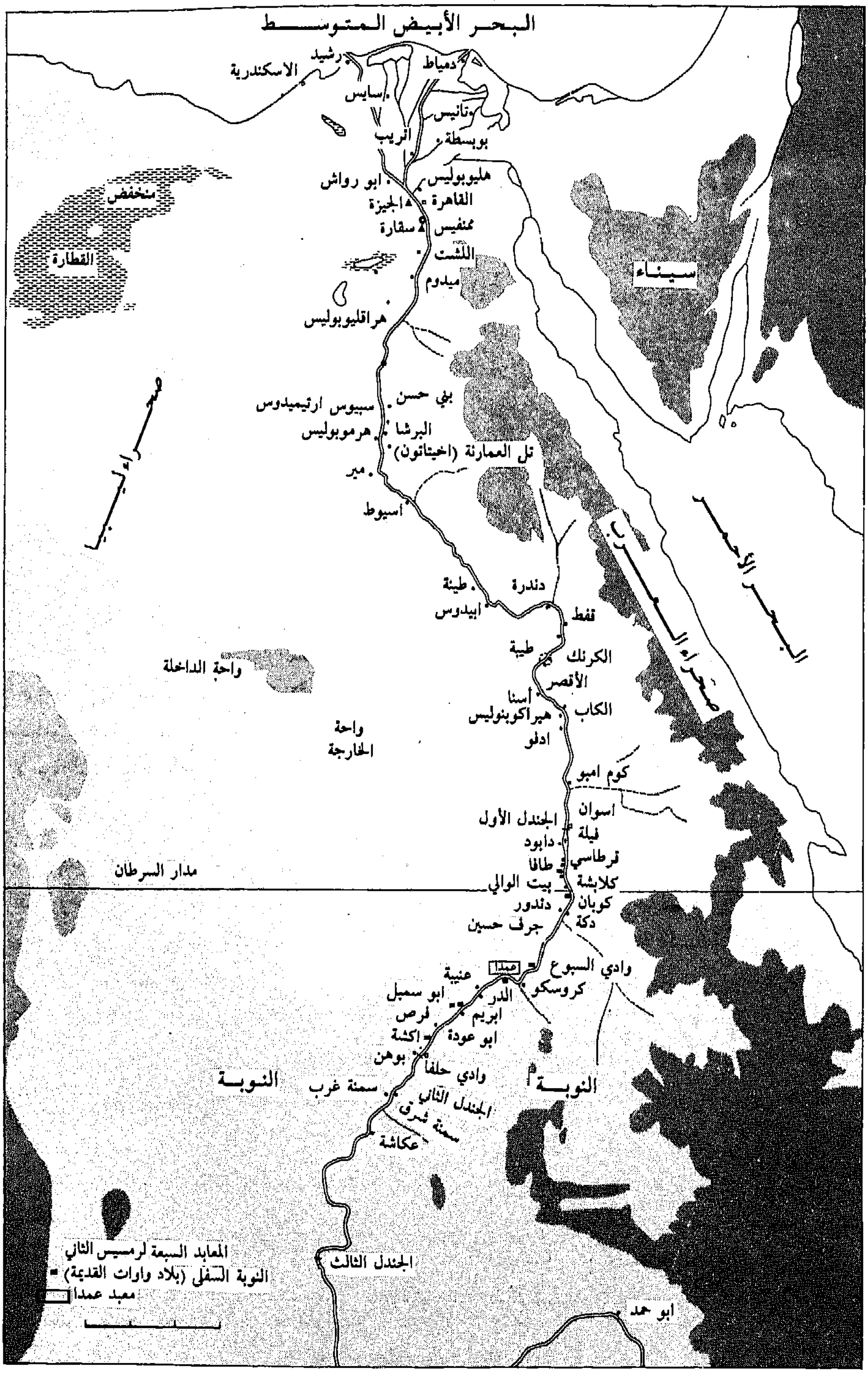
مصر - التي تقع في الركن الشمالي الشرقي لافريقيا - بلد صغير اذا ما قورنت بالقارة الضخمة التي تشكل جزءاً منها. ورغم ذلك فقد بنت احدى الحضارات العالمية العظمى. ولقد قسمت الطبيعة ذاتها البلاد إلى جزأين مختلفين: الشقة الضيقة من الأراضي الخصبة المجاورة للنهر والممتدة من أسوان حتى منطقة القاهرة الحديثة (وهي المنطقة التي نطلق عليها اسم (مصر العليا أو الصعيد) والمثلث الواسع الذي تكوّن خلال آلاف السنين من ترسيبات طمي النهر الذي يتدفق شمالاً حتى البحر المتوسط (وهي المنطقة التي نطلق عليها اسم مصر السفلى أو الدلتا).

لم يجد السكان الأول الحياة سهلة - ولا بد أنه قد جرت منافسة حادة بين مختلف المجموعات البشرية للحصول على الأراضي على طول حافة النيل وفي منطقة الدلتا المحدودة نسبياً. ولم يكن البقاء متاحاً إلا للأقوى والأقدر. ولا شك أن الأقوام الآتية من الغرب والشرق ومن الجنوب أيضاً كانوا ينتمون إلى مجموعات جسدية مختلفة. وليس من الغريب أن تفصل مختلف العقبات الطبيعية وتنوع الأصل، في البداية بين المجموعات التي سكنت مناطق مختلفة على طول الوادي. ونحن نستشف من هذه المجموعات منشأ الأقاليم او الوحدات المحلية التي وضعت أساس الكيان السياسي لمصر في العصور التاريخية. على أن النيل وفر للوحدات المختلفة الممتدة على طول مجراه وسيلة سهلة للمواصلات وسهل نمو وحدة اللغة والثقافة التي غلبت في النهاية على الصفات الاقليمية الخاصة بكل مجموعة.

كانت السيطرة على الأرض أهم إنجازات فترة ما قبل التاريخ (انظر المقدمة). فبعد أن سكن المصريون الأول الحوافّ الصخرية البارزة فوق مستوى السهل الغريني، أو الأرض العالية الممتدة على طول حافة الصحراء، أمكنهم تمهيد الأرض في المناطق المجاورة لهم مباشرة للزراعة وأن يجففوا المستنقعات ويبنوا السدود لمواجهة أخطار الفيضان. وبالتدريج أدركوا فائدة استعمال القنوات في الري. وكان مثل هذا العمل يتطلب جهداً على مستوى عال من التنظيم، مما أدى إلى قيام كيان سياسي محلي داخل كل اقليم.

وبإمكاننا استنتاج صورة ما عن نمو الوحدة السياسية في مصر من بعض أجزاء الشواهد الأدبية الأولى.(٣) ونحن نستشف من هذه الشواهد أن أقاليم الدلتا قد شكلت تحالفاً واضحاً خلال الماضي البعيد الغامض. وقد جرى اتحاد المقاطعات الغربية من هذه المنطقة بشكل تقليدي في ظل الإلّه حورُس، على حين أن أقاليم شرقي الدلتا قد توحدت في ظل الإلّه عيختي رب «دجيدو الذي شُبِّه فيما بعد بالإلّه أزويريس). وهناك رأي يذهب إلى أن الأقاليم الغربية سيطرت على الأقاليم الشرقية وكونت مملكة متحدة في شمالي مصر مما ترتب عليه سيطرة عبادة «حورس» - باعتباره الإلّه الأكبر - على كل الدلتا وانتشارها بالتدريج إلى مصر العليا حيث تغلبت على «ست» الإلّه الأكبر لتحالف أقاليم الصعيد(٤).

(٣) عن متون الأهرام، انظر الترجمة الانجليزية بقلم: R.O. Faulkner, 1969.
(٤) المرجع الأساسي لهذه النظرية التي يثور الآن حولها الجدل هو: K. Sethe



خريطة النيل من الجندل الثالث حتى البحر المتوسط

العصر العتيق (٣٢٠٠ ق.م - ٢٩٠٠ ق.م)

الحدث الأول ذو الأهمية التاريخية المعروف لدينا هو اتحاد هاتين المملكتين اللتين ظهرتا في عصر ما قبيل التاريخ، أو بالأحرى إخضاع مصر السفلى على يد حاكم مصر العليا الذي جرى العرف على الاشارة إليه باسم «مينا» على حين أن المصادر الأثرية تميل إلى أن تطلق عليه اسم «نارمر». ويبدأ عهد الأسرة الأولى من مجموع الأسرات أو العائلات الحاكمة - الثلاثين التي قسم إليها المؤرخ المصري مانيتون (٢٨٠ق.م) السلسلة الطويلة من الحكام الذين تعاقبوا على الحكم حتى عهد الاسكندر الأكبر. وكانت أسرة مينا تقطن في طينة في مصر العليا، وهي أهم مدينة في الاقليم الذي كان يضم المدينة المقدسة أبيدوس. وبالقرب من أبيدوس، وبها معبد الإله أوزوريس، اكتشف بتري مقابر ملوك الأسرتين الأوليين الضخمة. ومما لا شك فيه أن المملكة الجنوبية هي التي سيطرت على البلاد كلها - وبعد انتصارها الأول أقام نارمر عاصمة في ممفيس، بالقرب من التقاء الأرضين(٥).

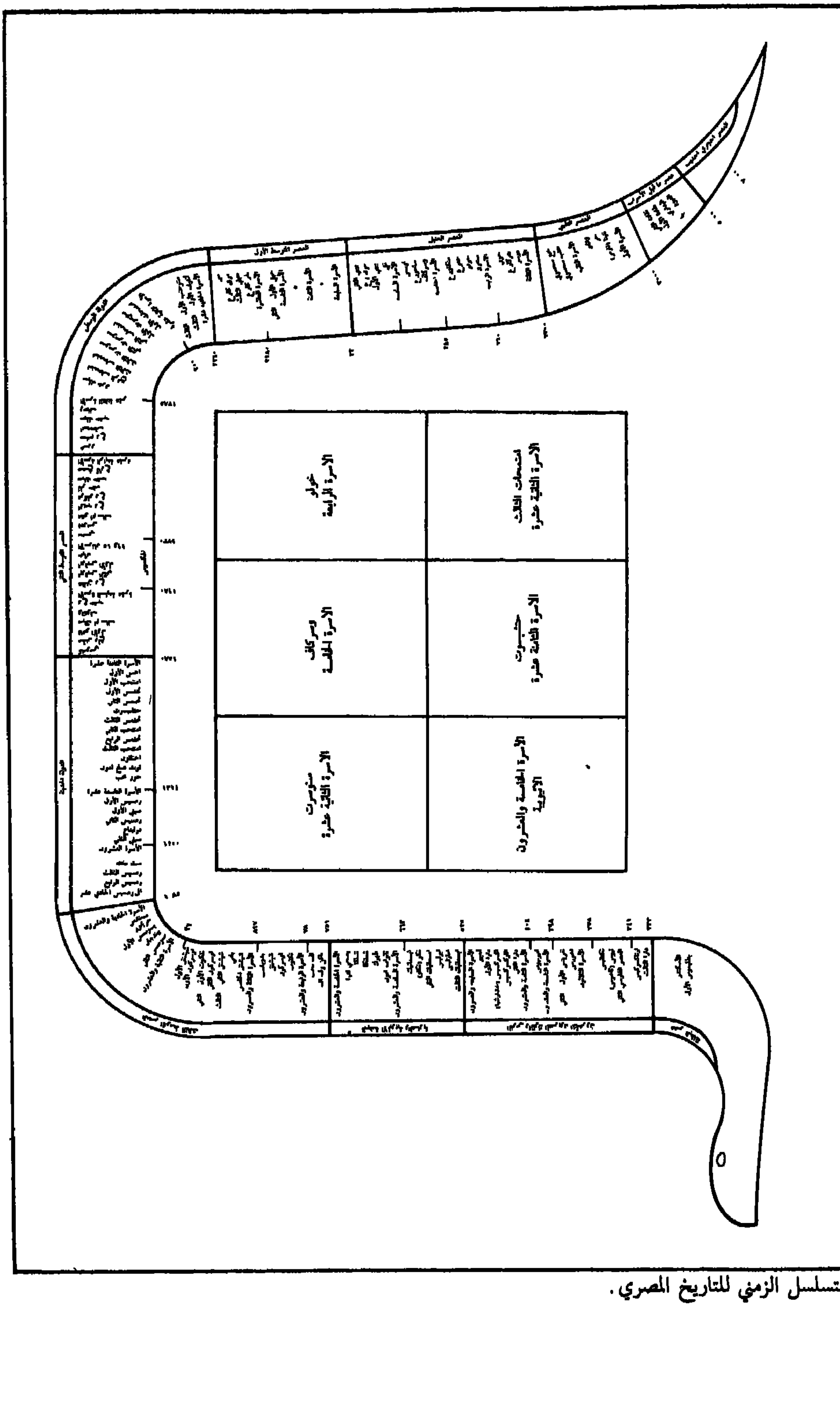
ولا يزال ملوك الأسرتين الأوليين، أو العصر العتيق (انظر الفصل الأول) أقرب إلى كونهم شخصيات غامضة بالنسبة إلينا، كما أننا لا يمكننا أن نعلم المزيد عن أحداث فترة حكم كل منهم. ولكن مما لا شك فيه أن هذه الفترة قد شهدت بذل جهد كبير لتدعيم المملكة. ففي خلال القرون الثلاثة التي تلت الأسرة الأولى استمرت حضارة السنوات الأخيرة السابقة لعصر ما قبل الأسرات، ولكن في عهد الأسرتين الثالثة والرابعة تحققت الوحدة السياسية، وكانت الدولة الجديدة من الاستقرار بحيث عبرت عن نفسها بطريقة مصرية متميزة تبلورت في عقيدة جديدة اعتبرت الملك المصري شيئاً آخر غير كونه إنساناً، فجعلته في الواقع إلٰهاً يحكم البشر. وربما كانت عقيدة تأليه الفرعون(٦) قد تشكلت خلال عهد الأسرات الأولى وذلك بهدف تعزيز قيام حكم واحد على الأرضين. ومنذ عهد الأسرة الثالثة يوجد ما يبرر القول بأن رئيس الدولة لم يكن من أبناء مصر العليا أو من أبناء مصر السفلى - بل إلٰهاً.

وطبقاً لنظرية الحكم الملكي المطلقة كان الفرعون هو الدولة، وكان مسؤولاً عن كل نشاط يتم في البلاد (انظر الفصل الثالث). كما كان الكاهن الأعلى لكل الآلهة وكان يقيم لها العبادة في كل معبد كل يوم. ومن الواضح انه لم يكن يستطيع من الوجهة العملية أن يقوم بكل ما كان مُكلفاً أن يقوم به - فقد استلزم الأمر أن يكون له نواب ينفذون أوامره الإلٰهية: وزراء، موظفون في الأقاليم، قادة للجيش وكهنة في المعابد. حقيقة إن سلطته - نظرياً - كانت مطلقة، إلا أنه في الواقع لم يكن ينفذ إرادته بحرية. لقد كان بمثابة تجسيد للمعتقدات والعادات التي سادت وقتاً طويلاً والتي كان يزداد تطورها بمضي السنين. ومن ثم فإن حياة الملوك كانت في الواقع من التقنين بحيث لم يكونوا يستطيعون أن يمشوا أو يستحموا إلا وفقاً لنمط وضع لهم تحكمه المراسم والواجبات.

ولكن خلف تيجان الفراعنة الفاخرة كان من الطبيعي أن تكون لهم قلوب وعقول بشرية تستجيب للحب والكراهية والطموح والشك والرغبة والغضب. ولقد وضعت الآداب والفنون مقياساً مثالياً لتصوير «ملك - إله» مصري بأسلوب تقليدي، وذلك منذ بداية تاريخ مصر القديمة حتى نهايته.

(٥) انظر: .W.C. Hayes, 1965, J.L. de Cénival

(٦) عن المفهوم الصحيح عن ألوهية الفرعون، انظر: .G. Posener, 1960



التسلسل الزمني للتاريخ المصري.

وجدير بالملاحظة أننا نتعرف - رغم ذلك - على أشخاص الملوك باعتبارهم شخصيات متميزة لها كياناتها المستقلة.

وكلنا نعلم مدى اهتمام الأمم القديمة العظيم بالمعتقدات المصرية، وكيف اتجه كل من فقدوا الاهتمام بعقيدة أجدادهم إلى حكماء مصر - فلقد ظل ثمة قدر من الاجلال لحكمة مصر حتى مجيء الوقت الذي اختفت فيه الأديان متعددة الآلهة.

ويشبه مصريو العصر الحجري الحديث الشعوب الأخرى المعاصرة لهم في أنهم كانوا يجدون آلهتهم في بيئتهم الطبيعية ويعتقدون أن الأرض والسماء مليئتان بأرواح لا حصر لها. وقد اعتقدوا أن هذه الأرواح اتخذت مستقرها الأرضي في الحيوانات أو النباتات أو في أي شيء ملفت للنظر من حيث حجمه أو شكله. وبمرور الوقت لم يعودوا يعتبرون الحيوانات والأشياء ذاتها آلهة - إذ انهم أصبحوا يعتقدون بالتدريج بدلاً من ذلك أنها المظهر المرئي أو المقر لقوة إلهية مجردة. وكان يمكن للحيوان أو الشيء الذي يجري اختياره باعتباره مظهراً للإله، أن يكون حيواناً أليفاً ونافعاً مثل البقرة والكبش والكلب والقط أو مخلوقاً متوحشاً مثيراً للفزع مثل فرس البحر والتمساح والكوبرا. وفي كل الأحوال كان على المصري أن يقدم فروض الطاعة والقرابين لنموذج واحد على الأرض. ولقد كان يعبد البقرة ولكنه كان يذبحها لأكل لحمها، كما كان يعبد التمساح ولكنه يقتله أحياناً حماية لنفسه.

وكل تلك كانت آلهة محلية، وكل منها كان في اقليمه الإله الأعلى والسيد غير المنازع للمنطقة مع استثناء واحد. فلقد كانت الصدارة للإله المحلي لمدينة اعتلى فيها رئيس إحدى الجماعات الحكم. فإذا ما اعتلى هذا الرئيس العرش ونجح في توحيد المملكتين الشمالية والجنوبية، ارتفع بالتالي قدر هذا الإله المحلي ليصبح الإله الرسمي لمصر كلها.

وبالاضافة الى ذلك، فقد استشف المصريون الأولون قوى إلهية كامنة في الشمس والقمر والنجوم والسماء والنيل. ولا بد أنهم خشوا هذه الظواهر وشعروا بتأثيرها - اذ أنهم عبدوها وجعلوا منها آلهة شديدة البأس - ونقصد الآلهة الكونية مثل رَع (الشمس) نوت (السماء) نون (المحيط) شو (الفضاء) وجِب (الأرض) وحابي (الفيضان)(٧).

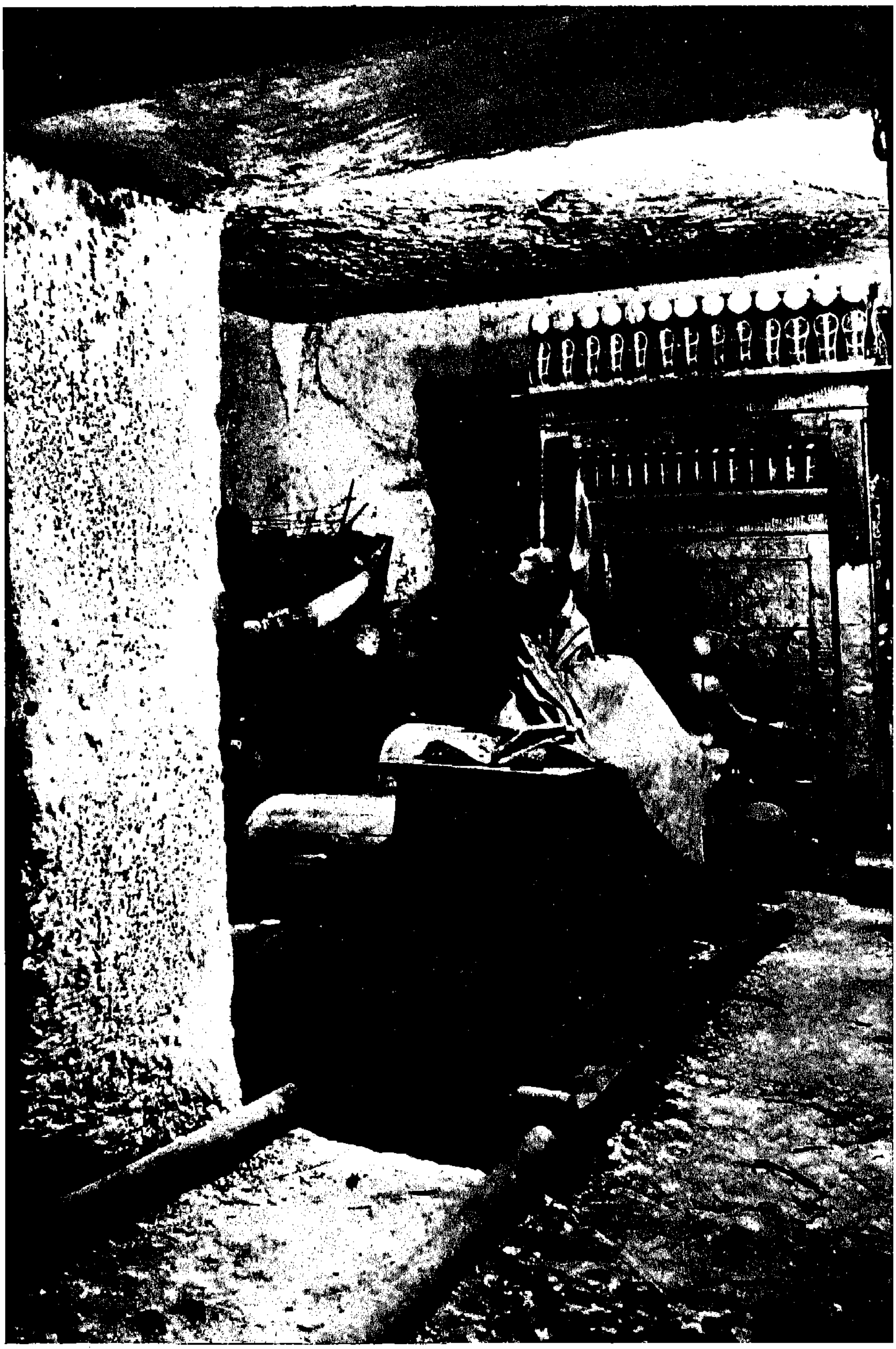
وكانت هذه الآلهة تتخذ اشكالاً بشرية أو حيوانية، ولم تقتصر عبادتها على منطقة بذاتها. كما لعبت الآلهات دوراً حاسماً في الديانة وكن يحظين بتقديس واسع النطاق. على أن عدد هذه الآلهات كان لا يمكن أن يزيد على ١٢، رغم أن بعضها مثل حَتحور وإيزيس ونيت وباستت قد لعبن ادواراً هامة في شتى أنحاء البلاد. وكانت حتحور تقرن عادة بحورس، وايزيس بازوريس، كما كانت نيت الآلهة الحامية لعاصمة الدلتا في عصر ما قبل التاريخ وحظيت باستت (القطة - الإلهة) بشعبية كبيرة بعد الأسرة الثانية في الاقليم الثامن عشر من مصر السفلى.

ولم تلعب فكرة الحياة بعد الموت لدى الشعوب الأخرى - قديمها وحديثها - نفس الدور الهام الذي لعبته في مصر القديمة، ولم تؤثر في المؤمنين نفس تأثيرها فيهم(٨). ولا شك أن ظروف مصر الطبيعية قد اثرت في الاعتقاد في حياة اخرى وشجعته - إذ أن جفاف التربة والمناخ الحار قد أديا إلى الاحتفاظ بأجسام الموتى بشكل ملحوظ. ولا بد أن ذلك قد شجع إلى حد كبير على الاعتقاد في استمرار الحياة بعد الموت.

---

(٧) هناك وصف مفصل للمعتقدات المصرية في: H. KEES, 1941.

(٨) المرجع الرئيسي الموسع للمعتقدات الجنائزية المصرية هو: H. Kees, 1926, 2nd ed. 1956.



الاله أنوبيس عند مدخل الكنز.

وقد أصبح المصريون خلال تاريخهم يعتقدون أن أجسامهم تحتوي على عناصر غير قابلة للموت. وتلك هي «البّا» التي كانت تشبَّه بطائر له رأس إنسان ويشبه الميت في ملامحه وله ذراعا إنسان. وكانت هذه «البّا» تتولى الأمر عند وفاة الشخص وكانت الصلوات والقرابين التي يقدمها الكاهن الذي يترأس المراسم الجنائزية تساعد على تحول الانسان الميت إلى «بأ» أو روح. وكان العنصر الثاني يعرف باسم «الكّا» التي كانت بمثابة روح حارسة تسكن كل شخص حين يولد. فحين قام الإله خنوم «الإله - الكبش» الأسواني الأصل خالق الناس بتشكيلهم من الطين، خلق نموذجين لكل شخص أحدهما لجسمه والثاني «للكّا» الخاصة به. وكانت «الكّا» تشبه الشخص تماماً وتبقى معه طيلة حياته، ولكنها تنتقل قبله إلى العالم الآخر. ولخدمة «الكّا» زود المصريون مقابرهم بتلك الأعداد الكبيرة مما نسميه الأثاث الجنائزي (صورة كاملة طبق الأصل من كل ما كان المالك يقتنيه في بيته الدنيوي). وبرغم ما كان يجري الاعتقاد به من أن «الكّا» كانت تقضي معظم الوقت في المقبرة، فقد كانت تستطيع مبارحتها. وهكذا كانت مدينة الموتى مستقراً للكاءات تماماً كما كانت المدينة مستقراً للأحياء. والعنصر الهام الثالث هو «الأيب»، أي القلب الذي كان يعتبر مركزاً لعواطف الشخص وضميره، إذ أنه هو المرشد لأعماله خلال حياته الأرضية. والعنصر الرابع هو «أخت» الذي كان المصريون يعتقدون أنه قوة إلهية أو علوية لا يمكن التوصل إليها إلا بعد الموت. وكانوا يعتقدون أن النجوم اللامعة في السماء هي «أخت» الموتى. وأخيراً كان يوجد الجسم ذاته خت أو المحارة الخارجية التي يمكن أن تفنى ولكن من الممكن تحنيطها لتمكينها من البقاء في حالة جيدة بحيث تشارك الكّا والبّا الحياة الأبدية في العالم الآخر.

وإلى جانب هذه الأفكار الخاصة بحياة آتية في القبر ومدينة الموتى، طوّر المصريون بالتدريج عدداً من المعتقدات الأخرى الخاصة بالعالم الآخر والمصير الذي ينتظر «البّا». وقد أصبحت اثنتان من هذه المعتقدات - العقيدة الشمسية وعقيدة اوزيريس - واسعتي الانتشار. وكان يعتقد في البداية أن الفرعون الميت - الذي كان يعتبر هو ذاته إلهاً - يعيش مع الآلهة وكان يتقمص كلا من إله الشمس (حورس أو رَع) واوزيريس. وبمرور الزمن انتقل نفس المعتقد إلى نبلاء من ذوي النفوذ في عهد الدولة الوسطى، وإلى كل المصريين أياً كان وضعهم الاجتماعي.

ويتمثل هذا في نصوص الموتى التي يعتبر ما يسمى بنصوص الأهرام أقدم نسخة محفوظة منها - وقد كتبت بالخط الهيروغليفي على جدران حجرات المدفن في هرم الملك «اوناس» آخر فراعنة الأسرة الخامسة وفي هرم أحد ملوك الأسرة السادسة. وحين خصصت نصوص الأهرام لرؤساء محليين أو لملوك صغار الشأن حكموا في «العصر الوسيط الأول» ثم لنبلاء في عهد الدولة الوسطى، حذف كثير من الرقى والطقوس أو بدلت او فسرت لكي تناسب اشخاصاً لا يحملون القاباً سامية. وكان معظم هذه النصوص المعروفة باسم نصوص التوابيت(٩) مكتوباً بخط هيروغليفي سيّال (مختصر) على الجدران الداخلية للتوابيت المستطيلة الشكل التي تميزت بها الدولة الوسطى - وكان نص التعاويذ يكتب بالحبر الأسود، على حين أن العناوين كانت تكتب بالحبر الأحمر. وفي عهد الدولة الحديثة كتبت معظم تعاويذ نصوص التوابيت بالاضافة الى عدد كبير من التعاويذ الجديدة، على لفائف البردي ووضعت على أجسام الموتى المحنطة. وقد أطلق على هذه النصوص التي تضم حوالى ٢٠٠ ترنيمة

(٩) عن نصوص التوابيت، هناك طبعة أساسية للنص وحده أصدرها: A. de Buck, 1935 - 1961. وهناك ترجمة انجليزية للنصوص في: R.O. Faulkner, 1973 - 1976.



ظهر العرش المكسو بصفائح الذهب: الملكة عنخ آسي ان آمون تضع اللمسات الأخيرة لزينة الملك.

شعرية اسم مضلل الى حد ما هو اسم كتاب الموتى[١٠]. ولم يوجد بالفعل مثل هذا الكتاب، إذ أن المختارات من الترانيم الشعرية المكتوبة على كل بردية كانت تختلف باختلاف حجم اللفافة وذوق من اشتراها وتقدير الكاهن الذي قام بكتابتها. وكان كتاب الموتى من الحجم المتوسط يحتوي على ٤٠ إلى ٥٠ ترنيمة شعرية. وبالاضافة إلى ذلك فقد طور كهنة الدولة الحديثة وروجوا عدداً آخر من الكتب الجنائزية المتصلة به من قريب أو بعيد، وقد كتبت على أوراق البردي أو نقشت على جدران المقابر. وتشتمل هذه الكتب على ما عرف باسم كتاب «من هو في العالم السفلي» (امي - دوات) و«كتاب البوابات»، وهي كتب سحرية هدفها الارشاد تصف رحلة الشمس عبر المناطق الواقعة تحت الأرض خلال ساعات الليل.

الدولة القديمة[١١] (٢٩٠٠ ق.م - ٢٢٨٠ ق.م)

الأسرة الثالثة

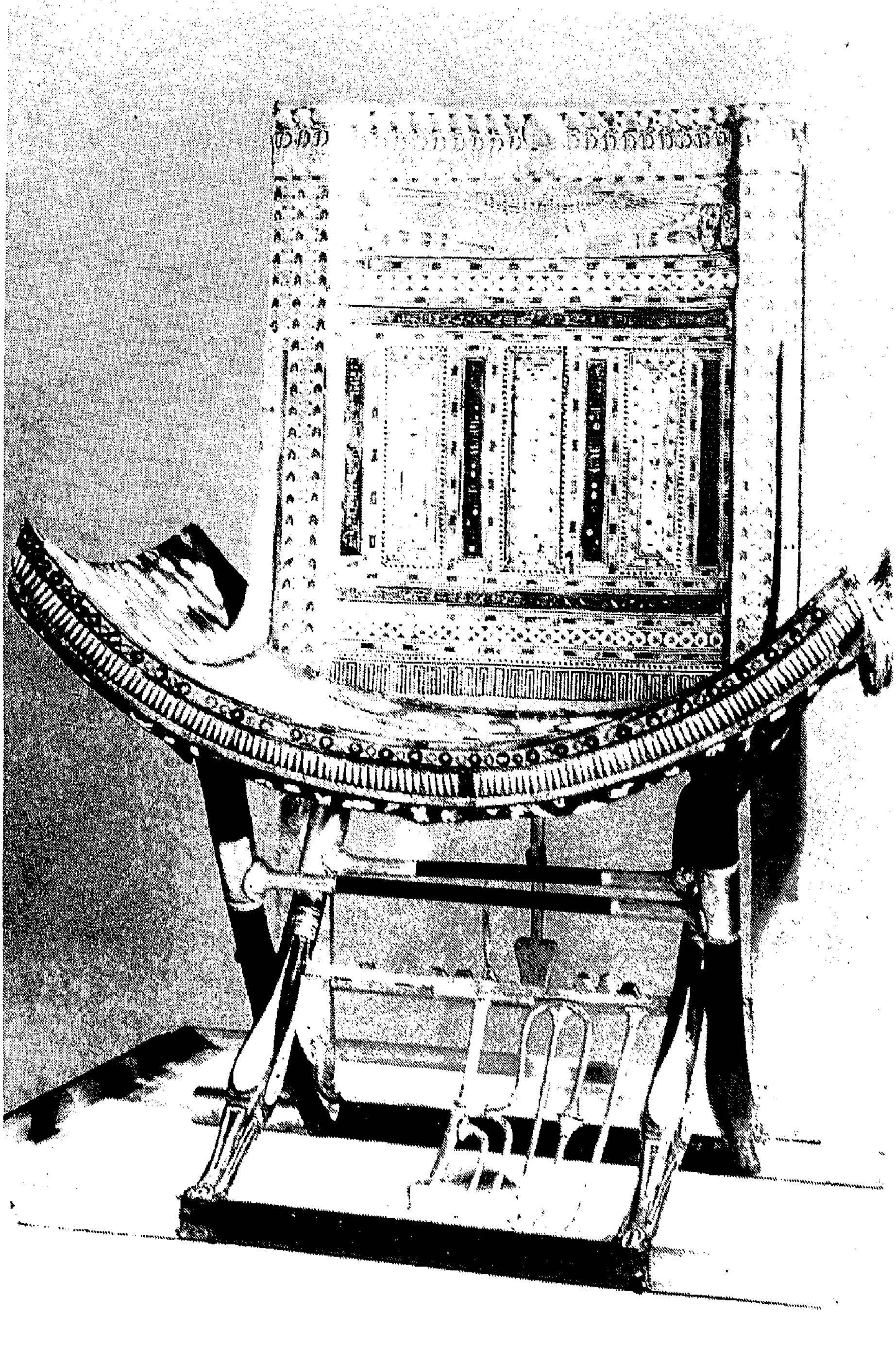
لاحظنا فيما سبق أنه يبدو أن ملوك الأسرتين الأولى والثانية (العصر العتيق) قد اهتموا أولاً وقبل كل شيء بالغزو وتوحيد شطري الوادي. ونحن نعتقد أن العقيدة الجديدة الخاصة بملكية إلهية قد بدأت بالفعل في عهد الأسرة الثالثة وأنه لم يحدث قبل ذلك أن أصبحت مصر أمة واحدة موحدة. ولقد أسس الأسرة الملك زوسر الذي يتضح لنا أنه كان حاكماً قوياً وقديراً، ولكن غطى على شهرته إلى حد كبير أحد رعاياه (ايم - حوتب) وهو الرجل الذي اشتهر منذ أيامه حتى الآن باعتباره مهندساً معمارياً وطبيباً وكاهناً وساحراً وكاتباً ومؤلفاً للأمثال.

وبعد وفاته بألفين وثلاثمائة عام أصبح إلهاً للطب ووجد فيه الاغريق (الذين اطلقوا عليه اسم إموثيس Imeuthes) إلههم اسكلبيوس (Askelepios). وأكبر انجازاته باعتباره مهندساً معمارياً الهرم المدرج، وهو مجموعة من المباني الجنائزية الشاسعة التي بناها لفرعونه في سقارة على مساحة مقدارها ١٥ هكتاراً داخل مستطيل طوله ٥٤٤ متراً وعرضه ٢٧٧ متراً. وقد بنى حول المباني حائطاً مسيجاً شبيهاً بالقلعة كما أدخل تجديداً مثيراً حين استعمل الحجر بدلاً من الطوب.

ويحيط الغموض بملوك الأسرة الثالثة الآخرين، شأنهم في ذلك شأن ملوك الأسرتين الأولى والثانية، وذلك رغم أن هرم الملك سخم - خت المدرج الناقص (وسخم - خت ربما كان ابن زوسر وخلفاً له) في سقارة والكشف عن مقبرة ناقصة في زاوية العريان، في الصحراء إلى جنوب الجيزة، كافيان للدلالة على أن مجمع هرم زوسر لم يكن فريداً في نوعه، والملك حوني: الذي به ينتهي عهد الأسرة الثالثة، هو السلف المباشر لسنفرو مؤسس الاسرة الرابعة. وقد بنى لنفسه هرماً في ميدوم على بعد حوالى سبعين

(١٠) هناك ترجمة فرنسية في: P. Barguet . وقد قام المعهد الشرقي في شيكاغو من ناحيته، بنشر ترجمة انجليزية كاملة تحتوي على تعليقات، وهي «كتاب موتى» كامل. انظر: T.J. Allen.

(١١) في الانجليزية انظر: W.S. Smith (كمبردج ١٩٧١- الطبعة الثالثة). في الفرنسية، انظر: J. Vandier, «L'Ancien Empire» and «La Fin de l'Ancien Empire et la Première Période Intermédiaire» in E. Drioton and J. Vandier, pp. 205-238 and 239 - 249.



عرش فرعون الكهنوتي: العناصر الزخرفية المتشابكة بين دعائم العرش تعبر عن الوحدة بين الوجهين.

كيلومتراً إلى الجنوب من القاهرة. وهذا البناء الذي شيد في الأصل ليكون هرماً مدرجاً، قد جرت عليه عدة توسعات وتغييرات في التصميم قبل أن ينتهي العمل فيه باعتباره هرماً حقيقياً (ربما على يد سنفرو).

الأسرة الرابعة

يمثل عهد الأسرة الرابعة إحدى الفترات المجيدة في التاريخ المصري - وقد بدأت بعهد سنفرو الطويل الحافل بالنشاط. وتخبرنا حوليات سنفرو، المحفوظ جزء منها في حجر بالرمو[١٢]، بمعارك حربية موفقة ضد النوبيين في الجنوب ورجال القبائل الليبيين في الغرب وباستمرار التجارة (وبخاصة الأخشاب) مع الساحل السوري وبعمليات بناء شاسعة جرى تنفيذها سنة بعد أخرى، منها بناء المعابد والقلاع والقصور في شتى انحاء مصر. وقد حكم سنفرو أربعاً وعشرين سنة، ومن المحتمل أنه ينتمي إلى فرع ثانوي من فروع الأسرة المالكة. ولكي يضفي الشرعية على وضعه تزوج حتب - حِرس[١٣] اكبر بنات حوني، وبذلك أكسب الأسرة الحاكمة الجديدة دماً ملكياً. وقد أمر ببناء هرمين في دهشور - والجنوبي منهما ذو شكل شبيه بالمعين، على حين أن الشمالي ذو شكل هرمي وفي حجم يقارب إلى حد كبير هرم خوفو الأكبر في الجزيرة.

وما زلنا نذكر خلفاء سنفرو: خوفو وخرع ومَنكاورَع: ونذكرهم على الأخص لبنائهم الأهرام العظيمة الثلاثة على هضبة الجيزة إلى الجنوب الغربي من القاهرة الحديثة. ويتميز هرم خوفو بأنه أكبر بناء مفرد شيده الانسان[١٤] وبصنعته الممتازة ودقة تصميمه وجمال نِسَبه - ولذا فلا يزال يتصدر عجائب الدنيا السبع. ورغم صغر هرمي ابن خوفو وحفيده فإنهما يشبهان هرم خوفو في البنيان وفي ترتيب المباني الملحقة بهما.

وقد تخللت عهد الأسرة الرابعة فترات اضطراب في وراثة العرش، وذلك بسبب الصراع بين الاخوة أبناء مختلف الملكات اللاتي تزوجهن خوفو. فقد حكم ابنه «د د ف رَ ع» مصر لمدة ثماني سنوات قبل خفرع، كما استولى ابن آخر على العرش لمدة قصيرة بعد انتهاء حكم خفرع. ويحتمل أن ثالثاً قد حكم بعد آخر ملك قدير في الأسرة وهو شبسكاف.

---

(١٢) انظر المقدمة.

(١٣) اكتشفت مقبرة الملكة حتب - حِرس في الجيزة. وقد وجد بها أثاث من نوع ممتاز تبدو فيه مهارة الصناع المصريين في عهد الدولة القديمة. أنظر G.A. Reisner, 1965.

(١٤) نحن نعرف أن الهرم بمعنى الكلمة الصحيح وهو رمز للشمس، يضم أو يعلو القبو (السرداب) الذي كانت ترقد فيه مومياء الملك ليس في الواقع سوى جزء من مجمع البنيان الذي يضم كل المقبرة الملكية وهذه الأخيرة تحتوي - الى جانب الهرم - على معبد منخفض على الوادي يشار اليه أحياناً باعتباره «معبد الوادي» وعلى طريق مكشوف يصعد من المعبد الى الجزء العلوي من مجمع البنيان القائم على الهضبة الرملية والذي يشتمل على الهرم نفسه والمعبد الجنائزي المشيد على ناحيته الشرقية - وكان يحيط بكل العناصر سور، انظر: I.E.S. Edwards,



الفرعون خفرع.

الأسرة الخامسة

تمخضت هذه الأسرة عن تزايد نفوذ كهنة هليوبوليس. وتذكر أسطورة في بردية وستكار[١٥] أن ملوك الأسرة الخامسة الثلاثة الأول كانوا من نسل الإله رع وسيدة تسمى رع جدد، كانت زوجة لكاهن في هليوبوليس. هؤلاء الأخوة الثلاثة هم: وسركاف وساحورَع ونفراير كارَع. ونحن نعرف ساحورَع بوجه خاص من اللوحات الرائعة التي تزين معبده الجنائزي في أبو صير إلى الشمال من سقارة. ومن المعروف جيداً أنه برغم أن الأهرامات الملكية الخاصة بالأسرة الخامسة كانت أصغر بكثير من المقابر الضخمة التي شيدتها الأسرة الرابعة وأن بنيانها كان أقل جودة، فإن المعابد الجنائزية الملحقة بالأهرامات كانت مباني متقنة مزينة بكثير من النقوش الملونة ضئيلة البروز، وبعضها له طابع شبه تاريخي. وإلى جوار مجموعة مباني الهرم بنى معظم ملوك هذه الأسرة معابد كبيرة لإله الشمس يسيطر على كل منها مسلة شامخة تجسد إله الشمس.

وعلى الرغم مما يسجله حجر بالرمو من بناء كثير من المعابد ووقف أموال كثيرة عليها فقد أبدى فراعنة الأسرة الخامسة نشاطاً في تأمين حدود مصر وتطوير العلاقات التجارية القائمة مع البلدان المجاورة. وقد سجلت على جدران معابدهم الجنائزية أنباء عن حملات تأديبية ضد ليبيي الصحراء الغربية وبدو سيناء والشعوب السامية في جنوبي فلسطين. وفي عهدي ساحورَع واسيس قامت سفن بحرية كبيرة بزيارة الساحل الفلسطيني. كما وصلت سفن مصرية إلى سواحل بلاد بُنت الواقعة على ساحل الصومال، وذلك لجلب شحنات لها قيمتها الكبيرة: كالمر والأبنوس والحيوانات. وظلت التجارة مزدهرة مع سوريا التي كان يجلب منها خشب الأرز، وشهد ثغر بيبلوس القديم المطل على الساحل القريب من منحدرات لبنان المغطاة بالأشجار، توافد السفن المصرية عليه بكثرة. ومن المعروف أن علاقات التجارة مع بيبلوس (جبيل)، قامت منذ أقدم الأسرات (انظر الفصل الثامن). وهناك بُني معبد مصري في عهد الأسرة الرابعة، ووجدت في منطقة الميناء القديم أدوات عليها نقوش أسماء كثير من فراعنة الدولة القديمة.

الأسرة السادسة

لا توجد شواهد على نشوب اضطرابات سياسية في البلاد خلال انتقال الحكم من الأسرة الخامسة إلى الأسرة السادسة. وقد أبدت الأسرة قوتها في عهد ببي الأول (الملك الثالث) المديد والحافل بالنشاط. وللمرة الأولى يطرح ملك مصري جانباً الأساليب الحربية الدفاعية وينقل ثقل جيشه إلى قلب بلاد الأعداء. وقد تمكن الجيش الكبير الذي كان يقوده القائد المصري «اوني» من طرد الأعداء إلى بلادهم شمالاً حتى جبل الكرمل. وفي خلال الحملات الخمس الأخيرة وقع العدو في كمين بفضل إنزال قوات من الأسطول المصري الذي وصل إلى أقصى شمال ساحل فلسطين.

(١٥) كتبت في عهد الدولة الوسطى. انظر: G. Lefebvre 1949, p. 79 ، وأخبار بردية وستكار خيالية. فملوك الأسرة الخامسة الأول كانوا من سلالة ملوك الأسرة الرابعة (انظر: L. Borchardt, 1938, pp. 209-215) . على أنه يبدو أن كهنة هليوبوليس لعبوا دوراً هاماً خلال انتقال الحكم من الأسرة الرابعة الى الأسرة الخامسة.

وهناك دلائل على احتمال إشراك ببي الأول لابنه مرنرع في الحكم - إذ من الواضح أنه لم يحكم وحده سوى خمس سنوات. على أنه قام خلال هذه الفترة بكثير من الجهود لتدعيم قوة مصر في بلاد النوبة وتوسيع مداها. وقبل وفاته بوقت قصير ذهب بنفسه الى الجندل الأول ليتقبل إمارات خضوع زعماء ولايات النوبة.

وبعد وفاة مرنرَع اعتلى العرش أخوه ببي الثاني، وكان طفلاً عمره ست سنوات، وحكم البلاد لمدة ٩٤ سنة إلى أن توفي خلال عامه المائة بعد أحد أطول العهود في التاريخ. وفي الوقت الذي كان فيه قاصراً تولت أمه وأخوها شؤون الحكم. وقد تميزت السنة الثانية من حكم ببي بعودة حرخوف - حاكم اقليم الفنتين - الذي كان يقوم بجولة في بلاد النوبة ووصل إلى ولاية يام التي أحضر منها حمولة ثمينة من الكنوز وقزماً راقصاً كهدية للملك. وبحماسة كبيرة أرسل الملك الذي كان عمره ثماني سنوات خطاب شكر لحرخوف يطلب منه أن يتخذ كل الاحتياطات لاحضار القزم إلى ممفيس في حالة جيدة(١٦).

وقد انتهى عهد ببي الثاني الطويل جداً إبان فوضى سياسية يمكن أن نرجعها إلى بداية الأسرة السادسة حين تمكن ملوك مصر العليا - الذين كانت تزداد قوتهم - من بناء مقابرهم في أقاليمهم لا إلى جانب هرم الملك في مدينة الموتى، في الوقت الذي ازداد فيه ضعف السلطة المركزية بصورة مطردة. وحين فقد الملك سيطرته على الأقاليم ازدادت سلطة حكام الأقاليم الأقوياء. ويتضح ضعف موارد الأسرة المالكة من عدم وجود آثار بعد تلك التي شيدها ببي الثاني. وازاء سرعة انتشار التفكك، تفشى هذا الفقر بين كل طبقات المجتمع. وليس من الواضح ما اذا كانت قوى التفكك قد استشرت بحيث لم يعد باستطاعة أي فرعون أن يقاومها، أو اذا كان طول عهد ببي الثاني وضعف مقاومته قد عجلا بالانهيار - ومن الواضح أن الدولة القديمة قد انتهت بعد وفاته مباشرة - ثم بدأت فترة فوضى نطلق عليها اسم العصر المتوسط الأول.

العصر المتوسط الأول

بوفاة ببي الثاني تفككت مصر حين انفجرت الفوضى الاقطاعية، وبدأت فترة تخللتها الفوضى والاضطرابات والحرب الأهلية. وعلى طول وادي النيل حارب أمراء محليون صغار بعضهم البعض - وفي غضون هذه الفوضى التي أشار اليها مانيتون في تأريخه لمصر حين ذكر أن الأسرة السابعة تضم ٧٠ ملكاً حكموا لمدة ٧٠ يوماً. وربما كان هذا نظام حكم أملته الضرورة وأقيم في ممفيس ليخلف بصفة مؤقتة الملكية التي اختفت بعد انهيار الأسرة السادسة(١٧).

ولا نعرف عن الأسرة السابعة الا النذر اليسير، بل اننا حين نتحصل على سجل لأسماء الملوك يحتدم الجدال حول ترتيب فترات حكمهم. على أنه سرعان ما ظهرت أسرة حاكمة جديدة في هيراكليوبوليس

---

(١٦) قام حرخوف - حاكم الاقليم - بنقش النص الأصلي للرسالة الملكية على جدران معبده في أسوان. وتوجد ترجمة للنص في: J.H. Breasted, 1906, pp. 159-161. وقد قام W.R. Davidson, 1938, pp. 185-199. بدراسة الملامح الأنثروبولوجية لمشكلة «قزم الإله الراقص».

(١٧) لا يزال العصر المتوسط الأول يثير عدداً كبيراً جداً من المشاكل. ويوجد عرض عام لهذه المشاكل في: J. Spiegel, and H. Stock, 1949. وهناك ملخصات جيدة جداً للمشاكل في: E. Drioton and J. Vandier, pp. 235-237 and 643-645.

(أهناسيا في مصر الوسطى) وبذلت بعض المحاولات لمتابعة حضارة ممفيس. ومن الواضح أن ملوك الأسرتين التاسعة والعاشرة قد فرضوا سيطرتهم على الدلتا التي كانت قد غدت نهباً للبدو المغيرين عليها من الصحراء. على أن مصر العليا قد عادت الى انقسام وحداتها القديمة، فأصبح كل اقليم يخضع لسيطرة حاكم محلي. وبعد ذلك تميز تاريخ مصر بازدياد قوة طيبة التي قيض لها في عهد الأسرة الحادية عشرة أن تسيطر على مصر العليا في البداية، ثم بعد ذلك بقليل على كل أنحاء البلاد.

ويوفر لنا الحكيم إبُو-وِرْ أحسن وصف لأحوال مصر بعد انهيار الدولة القديمة التي حققت أعلى قدر من إنجازات البلاد المادية والفكرية باستخدام أقصى طاقات الفرد. وقد حفظت كتاباته - التي يبدو أنها ترجع إلى العصر المتوسط الأول(١٨) - في بردية ترجع إلى عهد الدولة الحديثة وتوجد الآن في متحف ليدن. والفقرة التالية تصف الثورة الاجتماعية التي حدثت في اوائل العصر المتوسط الأول وفي غياب أي نوع من السلطة المركزية.

«كل شيء خراب. الرجل يقتل أخاه (ابن) أمه، الوباء ينتشر في شتى أنحاء البلاد. الدم في كل مكان. جرؤ عدد قليل من الرجال الخارجين على القانون على نهب الأرض الملكية. أتت إلى مصر من الخارج قبيلة أجنبية. فأصبح بدو الصحارى مصريين في كل مكان. الفنتين وطينة (تحت سيطرة) مصر العليا، دون أن تدفعا الضرائب وذلك بسبب الصراع الداخلي [...] قطّاع الطرق في كل مكان [...] البوابات والأعمدة والجدران تلتهمها النيران [...] لم يعد الرجال يبحرون شمالاً إلى [بيبلوس]. ما الذي يمكننا عمله بدون خشب الأرْز؟ يعوزنا الذهب. الحنطة إختفت في كل مكان [...] قوانين ساحة القضاء أهملت [...] الذي لم تكن له أي املاك أصبح الآن رجلاً ثرياً. وفقراء البلاد أصبحوا اغنياء، وأصبح مالك العقار لا يملك شيئاً [...]»(١٩).

ولكن نشأت في ثنايا الاضطرابات بعض القيم الايجابية: تأكيد جديد للفردية حافز للهمة ومن امثلتها المساواة الاجتماعية وكرامة الانسان العادي. وهكذا في إبان الفوضى طور المصريون مجموعة من القيم الأخلاقية التي تدعم حقوق الفرد. ويتضح هذا في البردية المعروفة باسم «شكاوى الفلاح الفصيح»(٢٠) التي ترجع إلى الأسرة العاشرة. وهي قصة فلاح فقير يصر على نيل حقوقه بعد أن سلبه مالك أرض غني متاعه:

«لا تسلب أملاك الرجل الفقير الضعيف كما تعرفه. أملاكه هي (أنفاس) رجل يعاني، والذي ينتزعها إنما هو شخص يكتم أنفاسه. لقد نصبت قاضياً للتحقيق والفصل في الدعوى بين رجلين ولمعاقبة اللص (ولكن) أنظرا ها أنت سوف تنحاز للص. إن الانسان ليثق بك، على حين أنك أصبحت آثماً. لقد نصبت قاضياً لتكون سنداً قوياً للمظلوم كالسد ليحميه من الغرق (ولكن) أنظر! ها أنت صرت كالبحيرة التي فاض ماؤها ليغمره». !(٢١)

ومن الواضح أن المصريين نظروا إلى الديمقراطية كمساواة بين كل الناس أمام الآلهة من ناحية وأمام الحكام من ناحية اخرى. لكن التغيير المثير يمكن ان نلحظه في اتسام الطقوس الجنائزية بالطابع

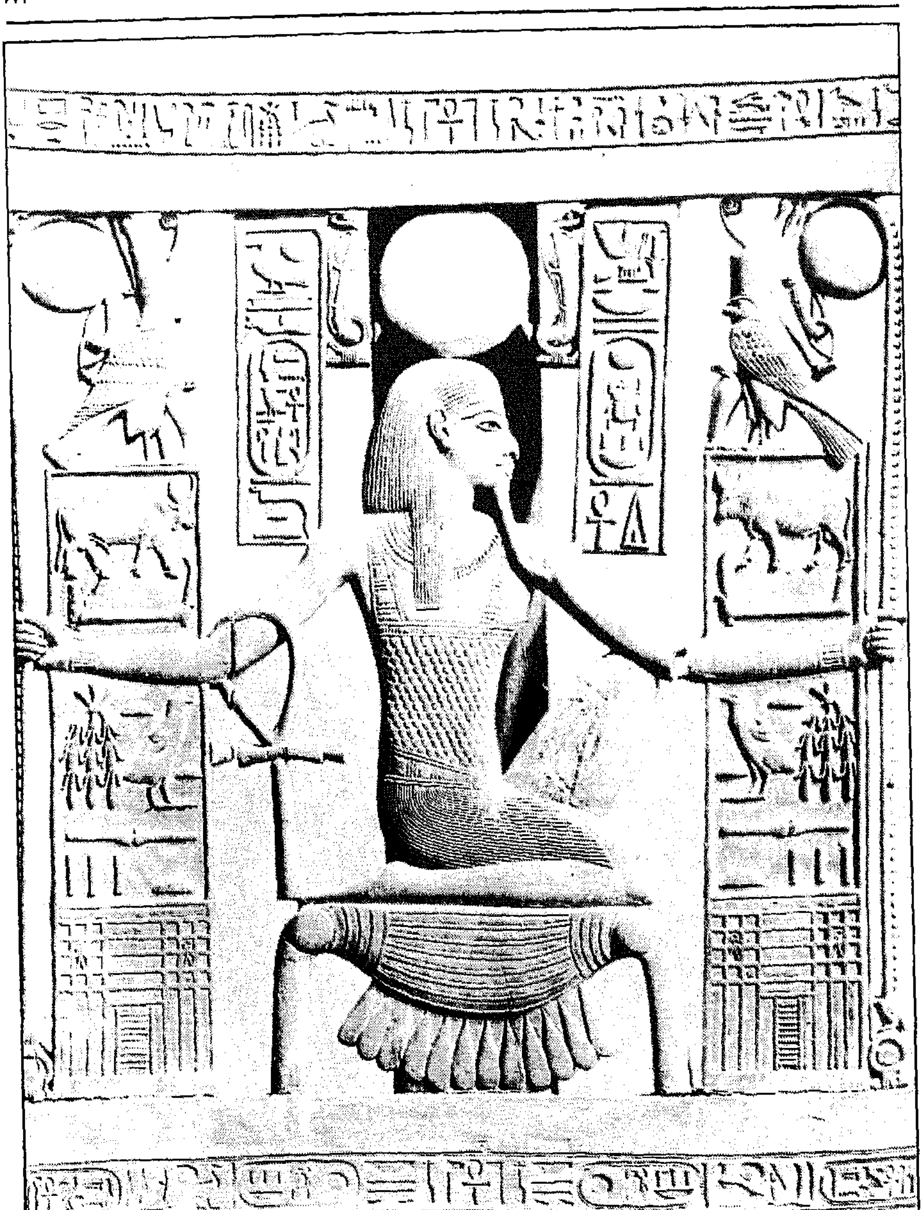
---

(١٨) تاريخ هذا النص مثار خلاف. وقد اقترح مبدئياً تأريخه بالعصر المتوسط الأول كما في J. Van Seters, 1964, pp. 13-23. غير أن هذا التاريخ الجديد لم يحظ بقبول من الباحثين.

(١٩) طبقاً لما يذهب اليه: A.H. Gardiner, 1909.

(٢٠) توجد ترجمة فرنسية للنص في: G. Lefebvre, 1949, pp. 47-69 وهناك ترجمة إنجليزية في: W.K. Simpson, London, 1972, pp. 31-49

(٢١) طبقاً لترجمة: J.A. Wilson, in J.B. Pritchard, p. 409.



ظهر مقعد مزخرف بالأسماء الملكية وبرموز أمنية تنشد للملك البقاء مليون عام.

الديمقراطي. ففي عهد الدولة القديمة كانت الشخصيات ذات المركز الملكي او تلك التي ميزها الفرعون هي وحدها الواثقة من اللحاق بالآلهة في العالم الآخر. على أن ضعف السلطة الملكية قد جعل الأقوياء في هذا العالم ينتحلون النصوص الجنائزية الملكية وينقشونها على توابيتهم. فكان أشخاص أغنياء من عامة الناس يدفنون بمراسم دينية سليمة وتقام لهم شواهد قبور تحمل نقوشاً. وهكذا تلاشت الفوارق الطبقية عند الموت - ويرجع الفضل الأكبر في ذلك إلى الآله أوزوريس.

كان أوزوريس أحد آلهة الدلتا المعروفين منذ أقدم العصور، وما لبثت عبادته أن انتشرت في شتى أنحاء البلاد. ولا يرجع نجاحه إلى الأهمية السياسية التي أحرزها أتباعه، بقدر ما ترجع إلى الطابع الجنائزي لصفاته. وما حل عهد الأسرة الحادية عشرة حتى كانت عبادته قد توطدت اقدامها في ابيدوس المدينة العظيمة التي ظلت، طيلة التاريخ المصري، مقراً لعبادة الملك الميت. وان عدم وجود أطماع سياسية لدى كهنة أبيدوس هو الذي أنقذ أوزوريس من مصير بعض الآلهة الآخرين الذين لم تتعد عبادتهم عهد الملوك الذين أدى ارتقاؤ هم العرش إلى علو شأنهم. وفي فترة متأخرة من التاريخ المصري أصبحت عبادة اوزوريس اوسع انتشاراً منها في أي وقت مضى: فقد امتدت إلى الجزر اليونانية وروما، بل وإلى غابات ألمانيا(٢٢). وفي مصر ذاتها لم يوجد معبد لأي إله لا يخصص فيه محراب لعبادة إله الموتى العظيم ولأداء بعض الطقوس الخاصة ببعثه التي تقام في أيام الأعياد.

الدولة الوسطى (٢٠٦٠ق.م - ١٧٨٥ ق.م)(٢٣)

ورغم ما شهده المصري من القيم الديمقراطية، فإنها لم تستمر - اذ انبثقت في اوقات الشدة، ولكنها سرعان ما احتجبت بعد عودة الرخاء والنظام في عهد الدولة الوسطى التي سجلت ثاني فترة عظيمة من فترات التطور القومي. فلقد تم توحيد مصر من جديد بقوة السلاح: اذ انهت طيبة - التي كانت من قبل اقليماً غير معروف وغير هام - حكم هيراكليوبوليس وطمعت في حكم كل الدولة المصرية، وحين كسبت الحرب اعادت توحيد الأرضين تحت حكم واحد.

ويبرز الملك منتوحتب الثاني باعتباره أهم شخصيات الأسرة الحادية عشرة. كان على رأس مهامه إعادة تنظيم إدارة البلاد - كانت كل مقاومة للبيت المالك قد سحقت، وان لم يستبعد قيام حركات تمرد غير خطيرة من وقت لآخر. ذلك أن الأوضاع السياسية في عهد الدولة الوسطى كانت تختلف عنها في الأوقات السابقة، من حيث أن الأمن والسلام اللذين نعمت بهما الدولة القديمة كانا قد أصبحا أثراً بعد عين. ولقد بنى منتوحتب الثاني - الذي استمر عهده طويلاً - المعبد الجنائزي في الدير البحري الذي يعتبر اعظم آثار هذه المملكة في طيبة. فهناك ابتكر مهندسه المعماري طرازاً معمارياً جديداً وفعالاً على شكل مبنى مدرج ذي اعمدة يعلوها هرم مشيد وسط بهو ذي اعمدة على المستوى العلوي(٢٤).

وأخذت الأسرة تضمحل بعد حكم منتوحتب الثاني. وفي عهد آخر ملوك الأسرة الحادية عشرة، نجد المدعو امنمحات، وزير الملك الذي ربما كان يحمل كذلك ألقاباً اخرى، هو نفسه مؤسس الأسرة الثانية عشرة، الملك أمنمحات - وكان أول سلسلة من الحكام الأقوياء.

(٢٢) يعتبر الوصف الذي جمعه ونشره بلوتارك في كتابه: De Iside et Osiride أكمل وصف لأسطورة أوزيريس، انظر بالانجليزية: J.G. Griffith وبالفرنسية: J. Hani.

(٢٣) انظر E. Drioton and J. Vandier, 1962, ch 7, pp. 239-281, W.C. Heyes, 1971, H.E. Winlock, 1947.

(٢٤) E. Naville.

وقد اتخذ أمنمحات الأول ثلاثة إجراءات هامة نفذها خلفاؤه حرفياً. فقد شيد عاصمة جديدة اسمها «ايثت تاوي» (القابضة على الأرضين) لا تبعد كثيراً عن ممفيس من ناحية الجنوب، ومنها كان بامكانه أن يسيطر بصورة أفضل على مصر السفلى. كما استن قاعدة إشراك ابنه معه في الحكم واجلاسه على العرش، ومن المحتمل أن هذا الاجراء كان ملائماً بعد الكشف عن مؤامرة في القصر شكلت خطراً كبيراً على حياته (وقد أشار اليها بمرارة في النصائح التي خلفها لتوجيه ابنه سنوسرت الأول)(٢٥). وأخيراً فقد وضع الخطط لاخضاع بلاد النوبة وأنشأ محطة تجارية في مكان يبعد كثيراً إلى جنوب ما وصل إليه سابقوه. وربما كان هو الذي انشأ المركز التجاري الحصين في كرما (بالقرب من الجندل الثالث) الذي يبدو أنه كان ركيزة للنفوذ المصري منذ عهد سنوسرت الأول.

ولقد سار سنوسرت الأول على خطى والده، وبفضل همته ومقدرته وبعد نظره امكنه وضع الخطط الخاصة باثراء مصر وتوسيع حدودها. فلقد ادت سلسلة من الحملات التي قادها الملك بنفسه أو تولى أمرها ضباطه الأكفاء، الى تشديد قبضة مصر على النوبة السفلى. وفي ذلك الوقت اقيمت قلعة بوهن(٢٦) ادنى الجندل الثاني. ويبدو أن نشاطات الملك في الغرب قد اقتصرت على تجريد حملات تأديبية ضد الليبيين التِحِنو والمحافظة على المواصلات مع الواحات. أما سياسته إزاء بلدان الشمال الشرقي فقد قامت على الدفاع عن حدوده ومواصلة التجارة مع بلدان غربي آسيا.

ومن الواضح أن الملكين التاليين، أمنمحات الثاني وسنوسرت الثاني، لم يهتما بتعزيز فتوح مصر الخارجية وتوسيع مجالها(٢٧). على أن سنوسرت قد اشتهر باعادة فتح النوبة السفلى التي هبط بها إلى مستوى أحد أقاليم مصر. وتميز عهد خلفه امنمحات الثالث - وهو عهد طويل ومزدهر - ببرنامج طموح للري أدى إلى التوسع الزراعي والاقتصادي الكبير في الفيوم، وهي واحة بها بحيرة كبيرة، تغذيها قناة تصلها من النيل. وكانت هذه القناة تمر خلال منفذ ضيق في تلال الصحراء المجاورة للوادي على بعد ثمانين كيلومتراً إلى الجنوب من القاهرة. وأدى بناء خزان على القناة إلى التحكم في تدفق المياه على البحيرة في أوقات الفيضان، كما أدى شق قنوات الري وبناء الجسور إلى استصلاح مساحات شاسعة من الأراضي.

وقد اتضح في عهد امنمحات الرابع أن الأسرة الحاكمة قد فقدت حيويتها. وكان حكمه القصير المغمور، الذي تلاه عهد الملكة سبك نفرو الأقصر منه، نذيراً بنهاية الأسرة.

العصر المتوسط الثاني(٢٨)

تعكس اسماء بعض فراعنة الأسرة الثالثة عشرة وجود جاليات آسيوية كبيرة في مصر السفلى. ولا شك أن أعداد هذا العنصر قد ازدادت نتيجة لتحركات سكانية واسعة النطاق في غربي آسيا. وقد أطلق

(٢٥) عن وصول هذه الأسرة الى الحكم انظر: G. Posener, 1956.

(٢٦) شنت اليونسكو حملة لانقاذ آثار النوبة تلتها تنقيبات وأعمال غيرها في بوهن. وهناك وصف لهذه التنقيبات والأعمال قيد النشر. أنظر: R.A. Caminos, 1975, and H.S. Smith, 1976.

(٢٧) مما تجدر ملاحظته ان قلعة مرجيسي الواقعة جنوب الجندل الثاني - وهي أكبر حصن في منطقة بطن الحجر النوبية، قد بنيت على يد سنوسرت الثاني (انظر فركوتير، J. Vercoutter, 1964, pp. 20-2) ، ومن ثم فإن النوبة كانت لا تزال في عهده تحت سيطرة مصر.

(٢٨) غطى J. Von Beckerath, 1965 كل هذه الفترة من التاريخ المصري التي تتميز بالغموض الشديد.

المصريون على قادة هذه المجموعات اسم حقا - حاسوت بمعنى رؤساء البلاد الأجنبية، ومنه اشتق مانيتون اسم الهكسوس الذي يطلق الآن بوجه عام على اولئك القوم.

ولم يبدأ الهكسوس في التحدي الجدي لسلطة الأسرة الثالثة عشرة السياسية الا حوالى عام ١٧٢٩ق.م إلا أنه بحلول عام ١٧٠٠ق.م كانوا قد برزوا كشعب جيد التنظيم والاعداد وميال للقتال. وقد سيطروا على القسم الشرقي من الدلتا بما في ذلك مدينة حات وعرت (آوَاريس) التي حصنوها وجعلوها عاصمة لهم. ومن المعروف بوجه عام أن سيطرة الهكسوس على مصر لم تكن نتيجة لغزو مفاجيء للبلاد على ايدي شعب آسيوي واحد. فلقد سبق أن أشرنا إلى أنها كانت نتيجة تغلغل سلمي تم خلال سنوات اضمحلال الأسرة الثالثة عشرة من جانب مجموعات من عدة شعوب من غربي آسيا أبرزها الشعوب السامية. وفي الواقع أن لمعظم ملوكهم أسماء سامية مثل عنت حر وسمقن عَمو، أو يعقوب - حر.

ولا شك أن احتلال الهكسوس قد أثر تأثيراً عميقاً في الأمة(٢٩). فلقد أدخلوا إلى مصر الحصان والعربة والدروع التي تحمي الجسم. وبمرور الزمن استعمل المصريون، الذين لم يسبق لهم اطلاقاً أن احتاجوا إلى مثل هذا التجهيز، هذه الأسلحة ضد الهكسوس وطردوهم من البلاد. وكانت هذه هي المرة الأولى في تاريخ المصريين التي يجدون فيها انفسهم تحت حكم أجنبي. ولقد هز الاذلال شعورهم القديم بالتفوق والأمن في كنف آلهتهم، وما لبثوا أن بدأوا حرب تحرير يقودها حكام اقليم طيبة. ويتصل معظم ما تبقى من السجلات القليلة الخاصة بهذه الفترة بالحرب التي خاضها ملوك اواخر الأسرة السابعة عشرة ضد المغتصبين الآسيويين بعد حوالى قرن ونصف من الاحتلال. وفي النهاية نجح أحمس في طرد الغزاة من الدلتا - فقد احتل عاصمتهم أوَاريس وتعقبهم إلى داخل فلسطين حيث حاصر موقع «شاروهين» الحصين، ثم تقدم شمالاً بعد ذلك وهاجم بلاد زاهي (الشاطىء الفينيقي). وهكذا أمكن تحطيم قوة الهكسوس في النهاية.

الدولة الحديثة (١٥٨٠ - ١٠٨٥ق.م)

الأسرة الثامنة عشرة(٣٠)

من الواضح أن الملك أحمس الذي هللت له الأجيال القادمة كلها باعتباره أباً للدولة الحديثة ومؤسساً للأسرة الثامنة عشرة، كان رجلاً ذا حيوية وقدرة خارقتين. وقد خلفه ابنه أمنحتب الأول الذي كان لا يقل كفاءة عن أبيه، فواصل سياسته الخارجية بهمة ونشاط. ورغم ان من المحتمل أنه كان أكثر اهتماماً بتنظيم المملكة منه بالغزو الخارجي، فإنه وجد من الوقت ما سمح له بتعزيز وتوسيع سيطرته على النوبة حتى الجندل الثالث. وظلت فلسطين وسوريا هادئتين خلال حكمه الذي امتد تسع سنوات.

ويبدو أن أمنحتب الأول قد استحق العظمة التي اشتهر بها، مما أدى إلى أن خلع عليه لقب إله في مدينة الموتى بطيبة(٣١) مثله في ذلك مثل والدته أحموسا - نفرتاري. وتلاه على العرش تحتمس الأول

---

(٢٩) عن الهكسوس والقضايا التي اثارها احتلالهم لمصر ونتائجه، انظر: J. Van Seters, 1966.

(٣٠) انظر E. Drioton and J. Vandier, 1962, ch. 9, pp. 335-342 and ch. 10, pp. 390-414, T.G.H James, W.C. Hayes, 1973

(٣١) انظر: J. Cerny, 1927, pp. 159-203



الملكة حتشبسوت جالسة.

والثاني والملكة (حتشبسوت)، التي تزوجت كلا من أخويها غير الشقيقين على التوالي: تحتمس الثاني والثالث. على أن حتشبسوت كانت في السنة الخامسة من حكمها من القوة بحيث أعلنت نفسها حاكماً للبلاد بغير منازع. ولكي تخلع على ادعاءاتها صفة الشرعية(٣٢)، أعلنت أن أباها هو إله الدولة آمون - رع الذي أتى والدتها متنكراً في شكل والدها تحتمس الأول. وكان العقدان السلميان اللذان حكمتها فترة رخاء في مصر. ولقد ركزت اهتمامها على شؤون البلاد الداخلية وعلى مشروعات بناء عظيمة. وكانت شديدة الاعتداد بعملين هما البعثة الى بلاد بُنت واقامة مسلتين ضخمتين في معبد الكرنك. وكان العملان يستهدفان الاحتفال بولائها «لوالدها» آمون - رع.

وبعد وفاة حتشبسوت أكّد تحتمس الثالث ذاته في آخر الأمر: كان رجلاً ناضجاً في اوائل الثلاثينات من عمره. ويخبرنا بنفسه أن تمثال آمون اختاره - خلال قيامه بدور كاهن شاب في احتفال ديني بالكرنك كان يرأسه والده - وعن طريق الوحي خلع عليه الملك. وكان أول عمل قام به بعد توليه الملك هو تحطيم تماثيل حتشبسوت ومحو اسمها وصورتها حيثما وجدا. وما إن انتقم لنفسه، حتى أسرع بتشكيل جيش وسار لملاقاة تحالف قام بين دويلات مدن منطقة فلسطين - سوريا - لبنان، وهو التحالف الذي التأمت قواته المشتركة في مدينة «مجدو» وكان يقوم باستعدادات لاشعال الثورة ضد السيطرة المصرية. وقد سار تحتمس بسرعة مذهلة وفاجأ الأعداء واضطرهم إلى التحصن داخل أسوار المدينة. وباستلام مجدو سيطرت مصر على كل البلاد حتى جنوبي لبنان. ويبلغ مجموع حملات تحتمس الثالث سبع عشرة حملة، وأصبحت القوات المصرية موضعاً للاحترام في سوريا وشمالي بلاد ما بين النهرين لعدة سنوات بعد ذلك. وتعزز مركز مصر بصفتها قوة عالمية ذات امبراطورية مترامية الأطراف. ولا يوجد عهد آخر تتوافر فيه سجلات كاملة كحوليات عهد تحتمس الثالث المنقوشة على جدران معبد الكرنك. وهناك تفاصيل اخرى سجلها قواده، بل إن الأحداث صيغت في قصص شعبية مثل مباغتة يافا على يد القائد جحوتي الذي اخفى رجاله في أكياس وسربهم إلى داخل المدينة المحاصرة، بالصورة الواردة في قصة «علي بابا والأربعين حرامي».

وتلا تحتمس الثالث على العرش فرعونان قديران ونشيطان هما أمنحتب الثاني وتحتمس الرابع - وقد وثق هذا الأخير علاقاته بمملكة الميتاني، إذ تزوج ابنة ملك الميتاني. وهذه السيدة، التي اطلق عليها في مصر اسم موت - إم - أويا - هي التي تظهر على الآثار، بصفتها الملكة الاثيرة لدى الفرعون وأم امنحتب الثالث.

ومن المحتمل أن امنحتب الثالث - حين خلف والده - كان قد تزوج بالفعل من «تيي» التي غدت قرينته الرئيسية. وجاء تولي الملك العرش في وقت كانت فيه البلاد قد قامت خلال قرنين بإنجازات ليس لها نظير سواء في الداخل او الخارج. وكانت البلاد في قمة مجدها السياسي، وكانت تنعم بالرخاء الاقتصادي كما كانت متقدمة من الوجهة الثقافية. وبالاضافة الى ذلك فإن العالم كان ينعم بالسلام بحيث كان بامكان الفرعون وشعبه ان يتمتعا بألوان البهجة والبذخ الكثيرة التي كانت الحياة تتيحها لهما. ويبدو ان امنحتب الثالث كان لا يكترث كثيراً بالمحافظة على سلطته في الخارج برغم محاولته الفعلية المحافظة على الدول الشمالية التابعة له وعلى حلفائه عن طريق الهدايا الوفيرة من ذهب النوبة.

(٣٢) كتب الكثير عن «مشكلة حتشبسوت» و«اضطهاد» تحتمس الثالث للملكة. وهناك عرض جيد للمشكلة وللحلول المقترحة في: E. Drioton and J. Vandier, 1962, pp. 381-383

وقرب نهاية عهده تبرز لنا رسائل تل العمارنة(٣٣) عدم وجود استعراض للقوة العسكرية مما شجع رجالاً اقوياء العزم على محاولة اقامة دول مستقلة والتمرد على السلطة المصرية. على أنه يبدو ان امنحتب الثالث لم يبد كثيراً من الاهتمام، فقد احرز شهرة كبيرة باعتباره مغرماً بالبناء وراعياً للفنون. ونحن ندين له بمعبد الأقصر الذي يعتبر أجمل مباني الدولة الحديثة، وبانشاءات اخرى ضخمة في الكرنك، وكثير غيرها سواء في مصر او في الخارج ومنها تلك التي توجد في صوليب في النوبة.

ورغم ان عبادة آتون قد بدأت في عهد امنحتب الثالث، فإنه يبدو ان نموها لم يؤثر كثيراً على عبادة الآلهة الأخرى إلا في وقت متأخر من حكمه، ويحتمل أنه لم يحدث حتى السنة الثلاثين من حكمه، وهو التاريخ المحتمل لاشتراك ابنه امنحتب الرابع (المعروف فيما بعد باسم اخناتون) معه في الحكم. وكان الملك الجديد ضعيف البنية وله جسم هزيل ضئيل يشبه جسم النساء، ولم يكن ثمة في تكوينه ما يجعله محارباً او سياسياً. كان اهم ما يشغله شؤون العقل والروح، أو بالأحرى عقله وروحه هو. وقد ابتهج للقب: «هو - الذي - يعيش على الحقيقة»، وسعى إلى توثيق علاقته بالطبيعة وتحقيق مزيد من الانسجام معها، وفي المجال الديني سعى إلى التوصل إلى علاقة أوثق مع إلهه وتحقيق مزيد من الاحتكام إلى العقل(٣٤).

وفي فورة شبابه، ادخل امنحتب الرابع تغييراً جذرياً على سياسته، مما استتبع شن هجوم مباشر على كهنة آمون. ويبدو أن دوافعه كانت سياسية ودينية معاً - فقد استحوذ كبار كهنة إله الدولة آمون - رَع في طيبة على ثروة وقوة جعلتاهم خطراً على العرش. وفي البداية ظل امنحتب الرابع يعيش في طيبة حيث بنى معبداً كبيراً لآتون إلى الشرق من معبد آمون في الكرنك. ويبدو من الواضح ان سخطه المترتب على رد الفعل المضاد لاصلاحاته في طيبة جعله يقرر بعد ذلك مبارحة المدينة، فبنى مقراً جديداً في تل العمارنة في مصر الوسطى. وما حل العام السادس من حكمه حتى انتقل هو وأسرته مع عدد كبير من الأتباع: من الموظفين والكهنة والجنود والعمال، إلى العاصمة الجديدة التي سماها آخت آتون (افق آتون) حيث عاش حتى وفاته بعد حوالى ١٤ سنة. وقد بدل اسمه فجعله آخن آتون بمعنى «هو - الذي - يعبد - آتون» وخلع على ملكته اسمها الرسمي «نفر - نفرو - آتون» ومعناه: جمال - الجمال - هو - آتون.

ولم يقنع آخناتون بإعلان آتون الإله الحق الأوحد، فهاجم الآلهة القديمة وأمر بمحو اسم آمون بوجه خاص من كل النقوش، حتى ولو كان وارداً في أسماء شخصية مثل اسم والده ثم اصدر أمراً بحل هيئة الكهنة وضياع المعابد. وحينئذ واجه أخناتون أعنف مقاومة إذ كان ينفق على المعابد من منح حكومية في مقابل مباركتها الرسمية لأعمال الدولة.

وبينما كانت الفتنة تحتدم حول أخناتون، كان يقيم في عاصمته عابداً إلهه الأوحد؛ قوة الشمس الخالقة تحت اسم آتون - وهي عبادة لا تتطلب صوراً للإله وكانت تجري في الهواء الطلق في بهو المعبد، في الوقت الذي كانت توضع فيه الزهور والفاكهة على المذبح. وكانت عبادة آتون اكثر بساطة من العبادة التقليدية - فقد اكدت على الحقيقة (الصدق) وعلى الحرية الشخصية، وصيغت في اطار حب الطبيعة على اعتبار أن قوى الشمس مانحة الحياة كانت تجد تعبيراً عاماً عنها في كل الكائنات. ويعبر

(٣٣) ٣٧٧ لوحاً مسمارياً، وجدت بين انقاض دور السجلات في العاصمة ويتضمن معظمها مراسلات بين أمنحتب الثالث واخناتون من جهة.وبين ملوك الحثيين وأرزاوام [في غرب الأناضول] والميتاني وآشور وبابل وقبرص وحكام مدن فلسطين وسوريا من جهة أخرى، انظر: W.F. Albright, 1957.

(٣٤) حظي أمنحتب الرابع - أخناتون - وعهده مؤخراً بدراسات متعددة بما في ذلك: C. Aldred, 1968.

النشيد الذي صاغه الملك(٣٥) أكثر من أي شيء آخر عن ابتهاج تلقائي بالحياة وحب لكل المخلوقات التي وجدت روح آتون فيها تجسيداً لها.
وقد انتقص أخناتون من قدر أشكال الفنون التقليدية، وتمسك برسوم طبيعية حرة يسعى فيها الفنان إلى تصوير المكان والزمان تصويراً واقعياً لا مثالياً. وهكذا نجده يسمح برسمه هو وأسرته وهم يقومون بنشاطات غير رسمية: فهم يتعانقون ويأكلون ويلعبون مع أطفالهم. ولم يبذل محاولة لحجب حياته العائلية عن أعين الشعب، وبذلك صدم المصريين المعاصرين الذين وجدوا في انعدام الرسمية هذا ما يقلل من شأن الملك - الإله.

ولم تستمر ثورة آتون بعد وفاة أخناتون، إذ بادر شريكه في الحكم وخلفه، سمنخ - كارع، منذ اوائل حكمه، باجراء مصالحة مع كهنة آمون، فتم التوصل إلى حل وسط اعاد الاعتراف بآمون. ولم يزد حكم سمنخ - كارع على ثلاث سنوات، وخلفه توت - عنخ - آتون الذي بدل اسمه بعد ذلك فجعله توت - عَنخ - آمون(٣٦). ولما كنا نعرف ان هذا الفرعون الشاب قد توفي في حوالى سن الثامنة عشرة، وأنه حكم على الأقل لمدة تسع سنوات فربما كان عمره حوالى ثماني سنوات حين اعتلى العرش. وهناك خلاف حول أصل هذين الملكين، وإن يكن كل منهما قد بنى أحقيته في العرش على زواج احدى بنات أخناتون. وفي عهد تون - عنخ - آمون، بل وبعد وفاته، جرى بعض التردد في إلغاء عبادة آتون الذي، برغم إعادة عبادة آمون، احتفظ بمكانته بين الآلهة التي استمرت عبادتها خلال الحكم القصير للملك آي الذي خلف توت - عَنخ - آمون. ولم يبدأ اضطهاد آتون إلا في عهد حورمحب وبنفس العنف الذي تعرض له آمون في الماضي.

الأسرة التاسعة عشرة(٣٧)

نشأ حورمحب في أسرة من نبلاء الأقاليم تنتمي إلى مدينة صغيرة في مصر الوسطى. وكان عمله الطويل باعتباره قائداً للجيش المصري وإدارياً قد أتاح له فرصة التعرف على الفساد السياسي الذي ازداد بصورة خطيرة منذ اوائل عهد أخناتون. فما ان اعتلى العرش حتى أسرع في القيام بسلسلة إصلاحات واسعة النطاق كانت مفيدة للبلاد. كما أصدر مرسوماً يقضي بالاسراع في تحصيل الموارد القومية والقضاء على الفساد الذي استشرى في صفوف الموظفين العسكريين والمدنيين.
وقد نال الحظوة عند حورمحب ضابط عسكري اسمه بَا - رمسيس فنصبه وزيراً واختاره ليخلفه على العرش. على أن بَا - رمسيس كان قد اصبح رجلاً مسناً ولم يحكم سوى سنتين وخلفه ابنه وشريكه في الحكم ستي الأول، وهو أول سلسلة من المحاربين الذين ركزوا كل نشاطهم على استرداد هيبة مصر في الخارج. وما إن تولى ستي العرش حتى واجه خطراً شديداً من جانب تحالف دويلات مدن سوريا الذي كان يشجعه الحثيون بل ويدعمونه. وقد استطاع أن يوقع الهزيمة بالتحالف وأن يتيح لمصر استعادة

(٣٥) توجد ترجمة قام بها J.A. Wilson ونجدها في: J.B. Britehard, pp. 369-371
(٣٦) أدّى الاكتشاف المثير في عام ١٩٢٣ لمقبرة الفرعون الشاب التي لم تمس في الواقع إلى ظهور عدد كبير جداً من المقالات والبحوث نخص بالذكر منها: H. Carter and A.C. Mace, 1923-1933; C. Desroches - Noblecourt
(٣٧) انظر: E. Drioton and J. Vandier, 1962, ch. 9, pp. 349-356, and ch. 10, pp. 418-422, R.O. Faulkner, 1975.



اخناتون أمام الشمس.

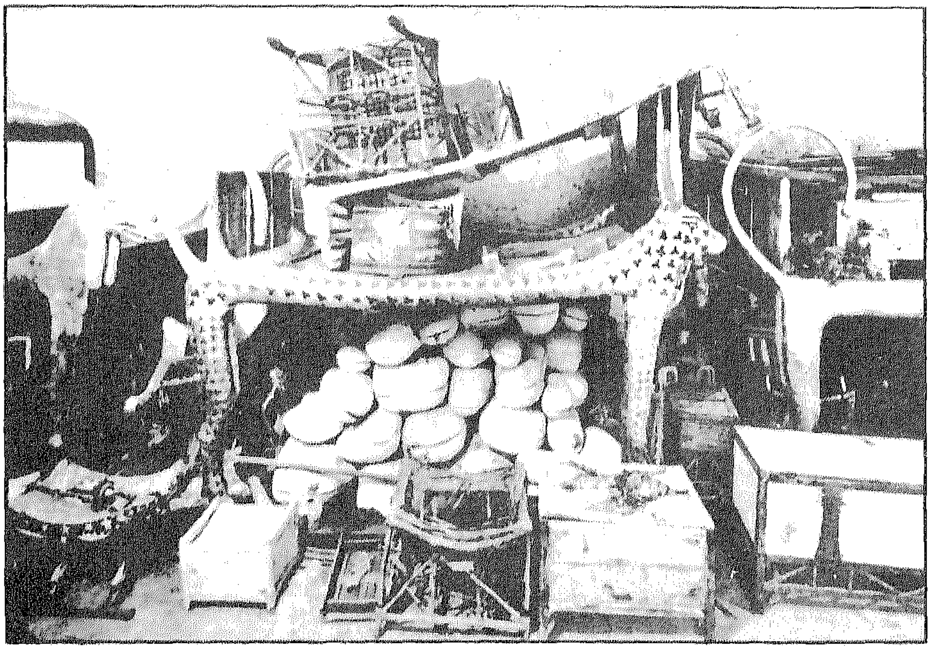
سيطرتها على فلسطين. وبعد أن صد ستي هجوماً لليبيين، عاد من جديد إلى سوريا حيث واجهت القوات المصرية الحثيين للمرة الأولى. وقد استولى على قادش. ورغم أن الحثيين اضطروا إلى الانسحاب مؤقتاً، فإنهم احتفظوا بنفوذهم في شمال سوريا. وواصل خلفه رمسيس الثاني الحرب.

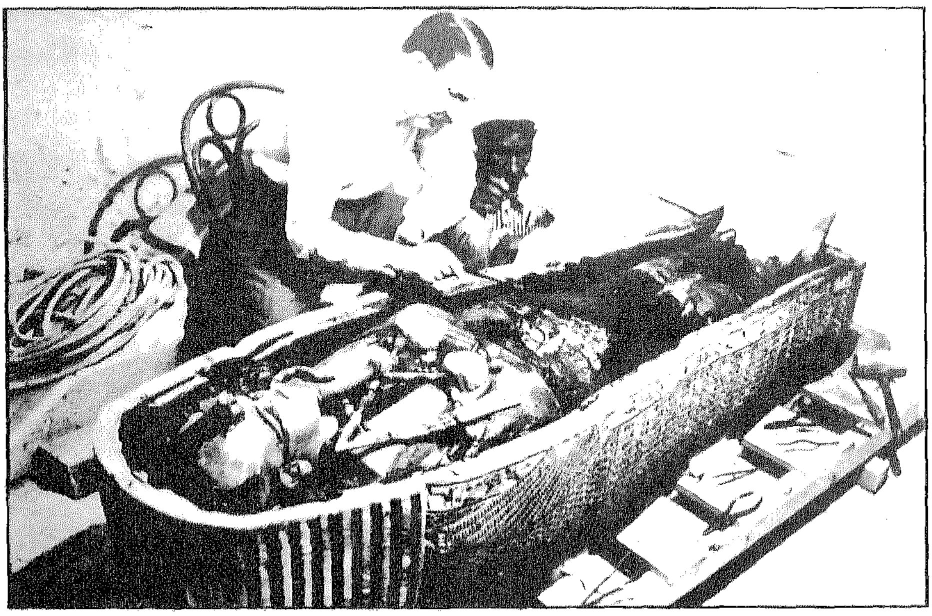
وفي عهد رمسيس الثاني انتقل المقر الملكي والمركز الاداري إلى مدينة تقع في الجزء الشمالي الشرقي من الدلتا اسمها بر – رمسيس التي اقيمت فيها قاعدة عسكرية تصلح لتنظيم اعداد كبيرة من المشاة والعربات الحربية. وفي السنة الخامسة من حكمه توجه رمسيس الثاني على رأس أربعة جيوش لمواجهة تحالف قوي بين الشعوب الآسيوية كان قد خطط له الملك الحثي متوالش الذي واصل محاولات أبيه ليسترد من مصر ما اجتازته في سوريا الشمالية. ورغم ان رمسيس، في الموقعة المشهورة بالقرب من قادش الواقعة على نهر الأورونت (العاصي)، دخل بطليعة قواته إلى كمين نصبه العدو، ورأى احد جيوشه ينهزم أمام المركبات الحثية، واضطر إلى الفرار من موقف ميؤ وس منه، إلا انه استطاع ان يجمع قواته وأن يحول ما قد كان يكون هزيمة إلى نصر مشكوك فيه إلى حد ما. وقد نقشت تفاصيل صور وقصص هذه المعركة، وبعض المعارك الأكثر توفيقاً التي سبقتها وتلتها في فلسطين وسوريا، على جدران معابد رمسيس المنحوتة في الصخر في أبو سنبل والدِرّ في النوبة السفلى وفي معبديه في أبيدوس والكرنك وعلى الصرح الضخم الذي اضافه الى معبد الأقصر وفي معبده الجنائزي المعروف باسم الرمسيوم. واستمرت الحرب بين البلدين عدة سنوات. ولم يحدث في الواقع الا في السنة الحادية والعشرين من حكمه أن وقع رمسيس الثاني في النهاية معاهدة صلح ملفتة للنظر مع ملك الحثيين حتوشيلش. وبعد ذلك استمرت علاقات الصداقة بين الدولتين وتزوج رمسيس ابنة حتوشيلش الكبرى في احتفال اعلن على نطاق واسع انه رمز للسلام والأخوة. ونتيجة لذلك الصلح امتد نفوذ مصر على طول الساحل حتى مدينة رأس شمرا (اوغاريت) في شمالي سوريا. ورغم ان الحثيين كانوا لا يزالون يحتفظون بنفوذهم في وادي نهر العاصي، فإن قوتهم كانت تقترب من نهايتها. وحين توفي حتوشيلش كان قد أطل خطر جديد نتيجة لتحركات «شعوب البحر»[٣٨]: فقد اتت هذه الهجرة الجماعية من منطقة البلقان والبحر الأسود لتهاجم كل منطقة شرقي المتوسط، ولم يمض وقت طويل حتى قضت على مملكة الحثيين، وقد غفل رمسيس الثاني – الذي كانت قد تقدمت به السن وحكم ٦٧ سنة بعد توقيع المعاهدة – عن البوادر المنذرة بالشر والآتية من الخارج، وخلفه مرنبتاح النشط الذي وجد نفسه يواجه موقفاً حرجاً حين اعتلى العرش.

فقد قامت اعداد كبيرة من «شعوب البحر» المولعة بالقتال بمهاجمة المنطقة الساحلية الواقعة إلى غرب الدلتا، ثم ما لبثت ان هددت مصر بعد أن تحالفت مع الليبيين. وقد تصدى مرنبتاح للغزاة وأوقع بهم هزيمة ساحقة في معركة كبيرة نشبت في غربي الدلتا خلال السنة الخامسة من حكمه. كما نجده يسجل في ألواحه نشاطاته الحربية في منطقة سوريا – فلسطين ويضع قائمة بعدد المدن والدول التي استولى عليها بما في ذلك كنعان وعسقلان وجزر وينوعام واسرائيل – وهنا يجيء ذكر هذه الأخيرة في السجلات المصرية للمرة الأولى.

---

(٣٨) عن «شعوب البحر»، انظر النظرية التي طرحتها: A. Nibbi.





١ : الحجرة الأمامية، من الداخل، الجهة الغربية - سرير حتحور.

٢ : الأثري هوارد كارتر الذي اكتشف مقبرة توت - عنخ - آمون . كان عليه أن يفتح تابوتاً حجرياً به ثلاثة توابيت وُضِعَت تابوتاً داخل تابوت حتى وصل الى المومياء.

الأسرة العشرون(٣٩)

تلا وفاة مرنبتاح صراع على الحكم، وتوالى على العرش خمسة من الحكام لا نعرف شيئاً عن تسلسلهم وعلاقة كل منهم بالآخر. وقد قام ستت نخته - الذي حكم لمدة سنتين - باعادة النظام، وهو اول ملوك الأسرة العشرين. وخلفه ابنه رمسيس الثالث الذي حكم لمدة ٣١ سنة قام خلالها بكل ما في وسعه لاحياء أمجاد الدولة الحديثة. وفي السنة الخامسة والسنة الحادية عشرة من حكمه اوقع هزيمة ساحقة بجموع الليبيين الغازية التي اتت من الغرب، وفي السنة الثامنة صد غزواً منظماً قامت به «شعوب البحر» براً وبحراً. ومما له مغزاه ان هذه الحروب الثلاث كانت دفاعية وأنها جرت على الأرض المصرية وداخل حدود مصر، وذلك باستثناء عملية برية واحدة ضد «شعوب البحر». وكان معنى الهزيمة في أي من هذه المعارك نهاية تاريخ مصر كأمة - إذ لم يقتصر هدف هذه الغزوات على التخريب أو السيطرة السياسية، بقدر ما كانت تستهدف احتلال الوادي والدلتا الغنيين على أيدي مجموعات من الشعوب المتعطشة للأرض والتي اصطحبت اسراتها وقطعانها وامتعتها بالاضافة الى مقاتليها.

ولم يصادف رمسيس الثالث في تصديه للخلل الداخلي الذي حل بالبلاد من النجاح ما صادفه في الدفاع عنها ضد الجيوش الأجنبية. فقد ضعفت البلاد نتيجة للقلاقل العمالية والاضطرابات التي قام بها عمال الحكومة والارتفاع التضخمي في اسعار القمح وانخفاض قيمة البرونز والنحاس. واشتد التدهور في عهود الملوك التالين، من رمسيس الرابع الى رمسيس التاسع. وازداد ضعف سلطة الأسرة الحاكمة نتيجة لازدياد نفوذ كهنة آمون، الذين أمكنهم في النهاية ان يولوا احد كبار الكهنة «حري - حور» العرش، فبدأ بذلك عهد اسرة حاكمة جديدة.

عصر الاضمحلال(٤٠)

الأسرات من الحادية والعشرين الى التاسعة والعشرين

قسمت السلطة في عهد الأسرة الحادية والعشرين باتفاق عام بين امراء تانيس في الدلتا(٤١) واسرة حري - حور الحاكمة في طيبة، وحين توفي هذا الأخير يبدو ان سمندس (حاكم الدلتا) قد سيطر على البلاد كلها. وقد شهدت هذه الفترة ازدياد قوة جديدة هي اسرة من اصل ليبي كانت تقيم في الفيوم، ولعلها في البداية قد قامت بأعمال الجند المرتزقة واستقرت هناك بعد تدهور مصر(٤٢). على ان احد أبناء هذه الأسرة، المدعو شيشنق، استولى على عرش مصر وأقام أسرة حاكمة استمر حكمها حوالى قرنين.

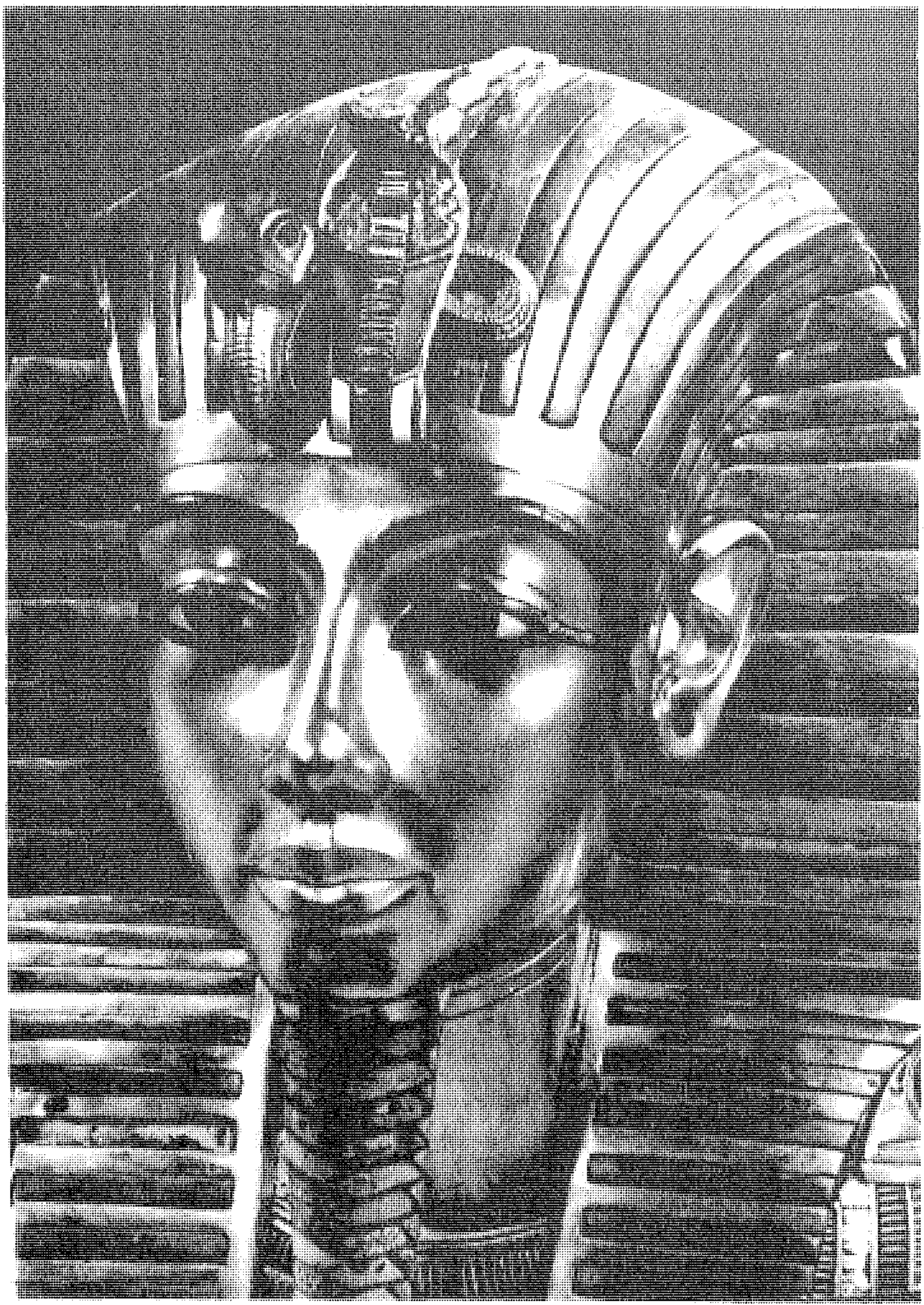
---

(٣٩) انظر: E. Drioton and J. Vandier, 1962, ch. 9, pp. 356-366 and ch. 10, pp. 432-439.

(٤٠) انظر: K.A. Kitchen, وقد بحث M. Bierbrier (لندن ١٩٧٥) سلسلة نسب وتسلسل الحكم خلال هذه الفترة المضطربة.

(٤١) انظر: J. Yoyotte, 1961, pp. 122-151

(٤٢) انظر: W. Holscher.



القناع الجنائزي لتوت - عنخ - آمون من الذهب الخالص.

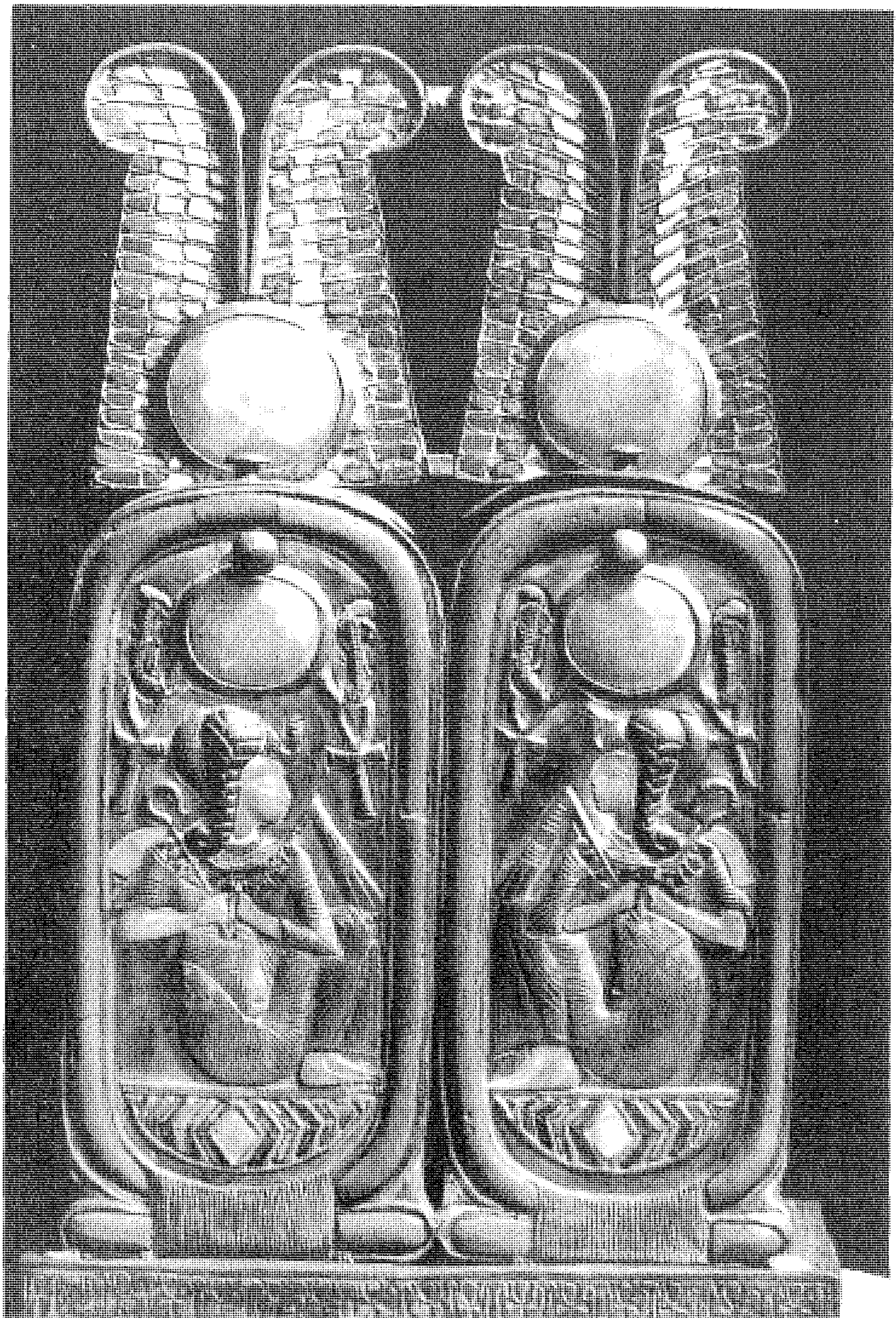
وقرب نهاية الأسرة الثانية والعشرين انقسمت مصر إلى ممالك صغيرة متنازعة وواجهت تهديد كل من آشور والسودان القوي والمستقل. ثم تلا ذلك قيام أسرة حاكمة منافسة على يد المدعو بدوباست. ورغم ان مانيتون يطلق على الأسرة الثالثة والعشرين اسم أسرة تانيس، الا أن ملوكها ظلوا يتخذون اسماء فراعنة الأسرة الثانية والعشرين: شيشنق، أوسركون، تَكِلوت وفي عهد هاتين الأسرتين اقامت مصر علاقات سلمية مع حاكم (أورشليم) القدس سليمان الحكيم الذي تزوج إحدى الأميرات المصريات. وفي السنة الخامسة من عهد خلف سليمان، هاجم شيشنق فلسطين، ورغم أن مصر لم تحاول الاحتفاظ بفلسطين، فإنها استعادت بعض نفوذها السابق واستفادت من ازدهار التجارة الخارجية.

ولم تشتمل الأسرة الرابعة والعشرون إلا على ملك واحد هو «باكن ريناف» الذي اطلق عليه الاغريق اسم بوخوريس بن تف نخت. وربما كان تف نخت هو الذي عقد معاهدة مع هوشع ملك السامرة ضد الآشوريين. وقد حاول بوخوريس مساعدة ملك إسرائيل ضد الملك الآشوري سرجون الثاني، ولكن جيشه مني بالهزيمة عند رفح في عام ٧٢٠ق.م. وقد انتهى حكمه حين غزا مصر الملك السوداني شباكا.

الأسرة السودانية الخامسة والعشرون(٤٣)

تعرضت مصر للغزو من جديد في عام ٧٢٠ ق.م، وان تكن الغزوة قد جاءت هذه المرة من الجنوب. وقد وجد بي - عنخي السوداني الذي كان يحكم السودان في المنطقة الممتدة بين الجندلين الأول والسادس وكانت عاصمته تقع عند الجندل الرابع، نفسه من القوة بحيث يمكنه أن يتطلع إلى عرش الفراعنة. وكان المدعو تف نخت حاكم سايس، قد نجح في توحيد الدلتا واستولى على ممفيس وحاصر هيراكلوبوليس. ولما علم بي - عَنخي بأن حاكم هرموبوليس في مصر الوسطى قد انضم الى تف نخت استغل الفرصة لارسال جيش الى مصر. ولا شك أنه كان حاكماً باسلاً: فشهامته في القتال وتعففه عن الأميرات المأسورات، وولعه بالخيول وتوخيه الدقة في ممارسة الطقوس الدينية ورفضه التعامل مع الأمراء المهزومين الذين كانت الطقوس الدينية تعتبرهم نجساً (كانوا غير مختونين ويأكلون السمك) مما يدل على شخصيته. واستمر حكم هذه الأسرة ستين سنة قبل أن ينجح الآشوريون بعد عدة معارك، في القضاء عليها.

(٤٣) يوجد وجهة نظر إجمالية في H. Von Zeissl, 1944. لمزيد من التفاصيل حول هذه الفترة، انظر الفصل العاشر، فيما يلي.



علبة دهان على هيئة خرطوشتين متلاحمتين يحتمل أنها كانت تستعمل في الطقوس.

العهد الصاوي(٤٤)

تحررت مصر من سيطرة الآشوريين على يد مصري يدعى ابسماتيك الذي استطاع في عام ٦٥٨ ق.م، بمساعدة جيجيس، ملك ليديا ومرتزقة إغريق أن ينفض كل مظاهر السيطرة الآشورية وأن يقيم أسرة جديدة هي السادسة والعشرون. وقد حاول ملوك هذه الأسرة بشجاعة استرجاع مركز مصر عن طريق تشجيع التوسع التجاري. وتحولت مصر العليا الى منطقة غنية زراعياً، وكانت تنتج محصولات تتولى مصر السفلى بيعها.

العصر الفارسي(٤٥)

قُيِّض لمصر في عهد ابسماتيك الثالث ان تتعرض للغزو الفارسي الذي قام به قمبيز - وبهذا الاحتلال انتهى في الواقع تاريخ البلاد باعتبارها دولة مستقلة. وقد رأس ملوك الفرس الأسرة السابعة والعشرين. أما الأسرة الثامنة والعشرون فكانت أسرة محلية عرفت باسم آميرتيويس وقامت بتنظيم الثورة في عهد دارا الثاني المضطرب. وقد اقام ملوك الأسرتين التاسعة والعشرين والثلاثين محالفات مع أثينا وإسبرطة، وخططوا للمحافظة على الاستقلال الذي تم تحقيقه بهذه الصورة وذلك لحوالى ستين سنة.

وفي عام ٣٤١ق.م بدأت السيطرة الفارسية الثانية على مصر في عهد أرتاجركسيس الثاني. غير أن الاسكندر الأكبر وضع حداً للسيطرة الفارسية بعد وقت قصير حين غزا مصر في عام ٣٣٢ ق.م. بعد أن هزم فارس في موقعة إسوس.

---

(٤٤) انظر: E. Drioton and J. Vandier, 1962, ch. 13, pp. 574-600 عن التدخل الصاوي في النوبة، وهو التدخل الذي له اهمية كبيرة بالنسبة إلى تاريخ إفريقيا، انظر: S. Sauneron, J. Yoyotte, 1952, pp. 157-207.

(٤٥) لا يزال المرجع الأساسي لهذه الفترة هو: G. Posener, 1936.

الفصل الثالث

مصر الفرعونية،
المجتمع والاقتصاد والثقافة

بقلم ج. يويوت

الاقتصاد والمجتمع

الحقول والمستنقعات

لا شك في أن قيام الدولة الفرعونية حوالى عام ٣٠٠٠ق. م والفترة التي تلت ذلك، والتي لا يعرف عنها الكثير، كان قد واكبها تطور اقتصادي كبير. ويمكننا أن نلمس دلائل على ذلك في المقابر الملكية والخاصة التي ترجع إلى العصر الطيني: فقد ازداد حجم المباني، كما أن كثيراً من الآثار الفنية تنم عن ازدياد الرفاهية وبراعة الحرفيين. وليست لدينا الوسيلة التي تمكننا من معرفة ما إذا كانت الحاجة إلى تنظيم الري هي السبب الرئيسي لقيام دولة موحدة أو ما إذا كان توحيد البلاد تحت زعامة ملوك طينة، بالاضافة إلى تطور الكتابة، قد جعل من الممكن تنسيق اقتصاديات الأقاليم بترشيد أعمال البناء الأساسية وضمان التوزيع المنتظم لموارد الطعام. والحق أن رخاء مصر وحيويتها حتى القرن التاسع عشر يرتبطان بزراعة الحبوب (القمح والشعير). وظل نظام حياض الفيضان، الذي كان يتحكم في توزيع مياه وطمي الفيضان داخل جسور ترابية، قائماً حتى تغلب الري الدائم في العصر الحديث، وهناك أدلة على أن هذا النظام قد وجد منذ عهد الدولة الوسطى، وفي وسعنا أن نفترض انه قد تشكل قبل ذلك[1]. ومن الواضح أن هذا النظام لم يكن ليسمح إلا بزراعة محصول واحد في السنة، ومن

(١) النصوص الخاصة بأساليب الري شديدة الندرة. وتوجد أقدم الاشارات الأكيدة الى ري الحياض في نصوص توابيت الدولة الوسطى: A.De Buck, 1935-61, p. 138,b-c.

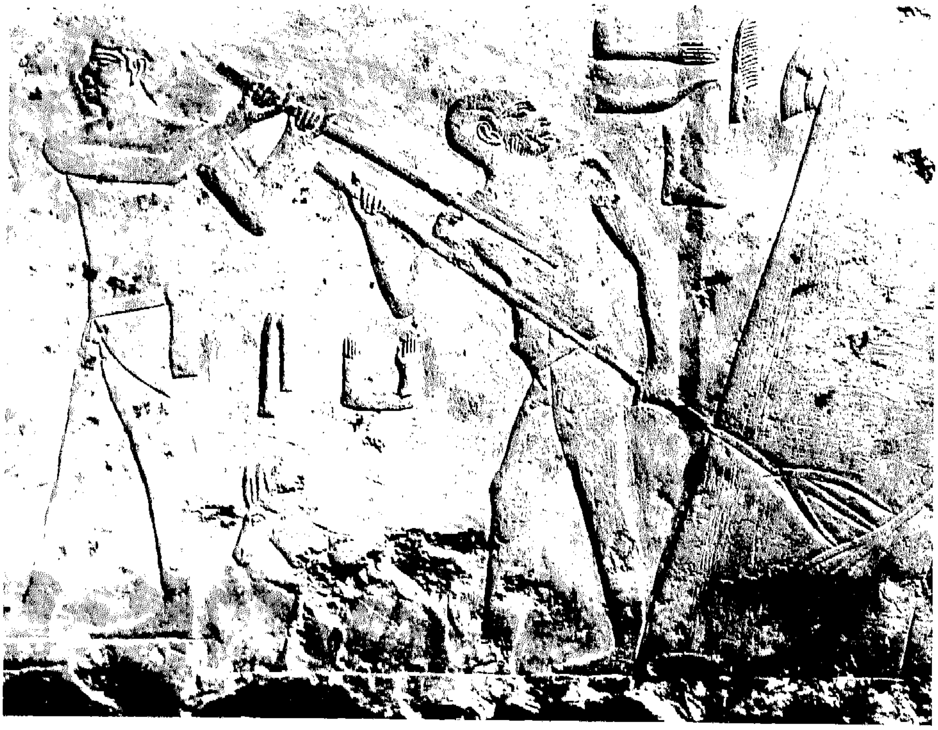
ناحية أخرى فإن عدم طول الدورة الزراعية قد وفر أعدادا كبيرة من الأيدي العاملة للقيام بالعمليات الكبرى في مجال تشييد المباني الدينية والملكية. كما مارس القدماء رياً على مدار السنة برفع المياه من القنوات أو من حفر كانت تحفر الى عمق مستوى الماء الجوفي. . . الا أن الأرجل والأكتاف البشرية التي تحمل النير ظلت لفترة طويلة هي «الآلة» الوحيدة المعروفة لرفع المياه، ولم يستعمل السقي عن طريق المساقي إلا لري الخضروات وأشجار الفاكهة والكروم (وان يكن من المحتمل أن اختراع الشادوف في عهد الدولة الحديثة قد جعل من الممكن زراعة محصولين من الحنطة سنوياً في بعض الأماكن[٢]). ولما كانوا يفتقرون إلى معرفة وسيلة لتخزين المياه، فإنهم لم يعرفوا كيف يواجهون نتائج الفيضانات شديدة الانخفاض التي كانت تسبب انعدام الخصوبة في عدة حياض، أو الفيضانات شديدة الارتفاع التي كانت تكتسح الأرض والمساكن. على أن تطور تخزين الغلال والنقل النهري قد مكنهم من ضمان الحصول على الطعام الذي كان ينقل من إقليم إلى آخر، ويحفظ في سنة لسد العجز في السنة التي تليها. وكان معدّل المحصول جيداً: إذ كان الفائض منه يقيم أود عدد كبير من موظفي الحكومة والعمال في أماكن العمل ذات الحيز المتوسط (الترسانة، مصانع السلاح، المغازل الملحقة ببعض المعابد - وغير ذلك). وعن طريق السيطرة على مصادر الطعام التي كانت تختلف باختلاف الظروف، كان كهنة المعابد وكبار الموظفين يمارسون سلطة حماية الضعفاء وايواء المستجيرين.

وكان الخبز والجعة المصنوعة من الحنطة المصدرين الرئيسيين للغذاء، وان يكن طعام قدماء المصريين متنوعاً بصورة تبعث على الدهشة. ولا يسعنا إلا أن ندهش لعدد انواع الكعك والخبز التي تشير إليها النصوص. وكما هو الحال الآن، كانت الحدائق توفر الفول الرومي والحمص وغيرهما من البقول، والبصل والكراث والخس والقثاء، كما كانت حدائق الفاكهة توفر البلح والتين والجميز والعنب. وقد أمكن بفضل الخبرة الواسعة بزراعة الكروم التي كان معظمها يجود في الدلتا والواحات إنتاج عدة أنواع من الأنبذة، كما كانت تربية النحل توفر العسل. وكان الزيت يستخرج من السمسم والنبق، وأما أشجار الزيتون التي ادخلت زراعتها في عهد الدولة الحديثة فظلت نادرة ولم تصب كثيراً من النجاح.

ولم تحول مصر الفرعونية الوادي كله إلى أرض منتجة وحدائق، ولكنها استغلت المستنقعات والبحيرات القريبة الواقعة على طول الأطراف الشمالية للدلتا وشطئان بحيرة مويريس والأراضي المنخفضة الواقعة على طرف الصحراء وعند منعرجات النيل. وفي هذا الـ«بحو» (Pehu) كانوا يصطادون أنواعاً متعددة من الطيور البرية. وكان يجري صيد الأسماك وثعابين الماء بالشباك الكبيرة وسلال الصيد والسنارات - وكل ذلك كان يجلب من النيل انواعاً متعددة من الأسماك، ورغم تحريم أكلها في بعض الأقاليم أو من جانب بعض الفئات الاجتماعية، فقد احتلت مكاناً واضحاً في طعام الناس الذي كان يضاف إليه أيضاً جمع جذور أشجار الحَلْفاء الصالحة للأكل او اللوز البري، ولباب البردي و- بعد العصر الفارسي - بذور البشنين. وأخيراً فإن اراضي المستنقعات كانت مراعي صالحة للأبقار والثيران.

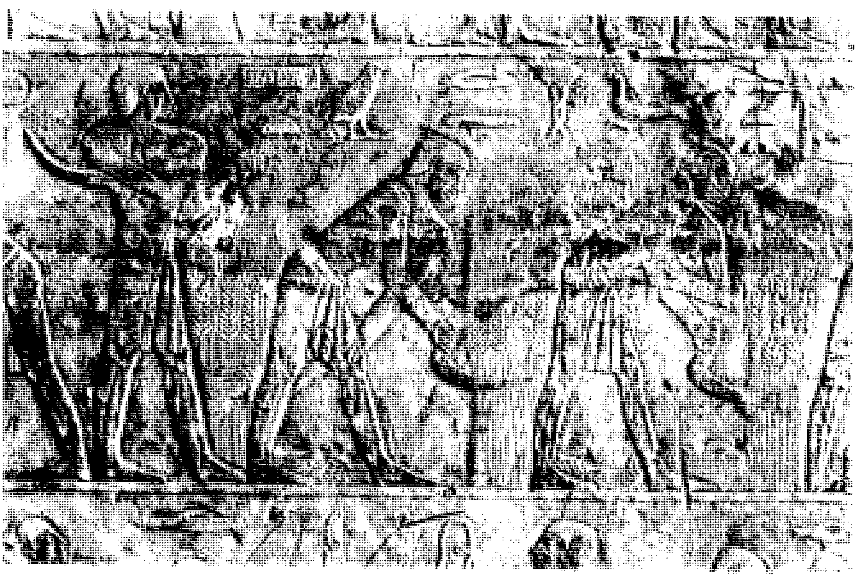
ورغم أن المناخ لم يكن مناسباً بوجه خاص لتربية المواشي وذلك بسبب شدة رطوبته - كان من الواجب تعويض القطعان التي تهلك نتيجة لهذه الأحوال بجلب بدائل عنها من النوبة وآسيا، خاصة أنها كانت ذات أهمية ضخمة بالنسبة الى حياة البلاد والمعتقدات الدينية. وكان من الضروري تزويد

(٢) انظر التفسير البارع الذي يقدمه و. هلك، إ. أوتو لفحوى بردية ولبور.



١

٢



١ : تكديس التبن
٢ : حصاد القمح.

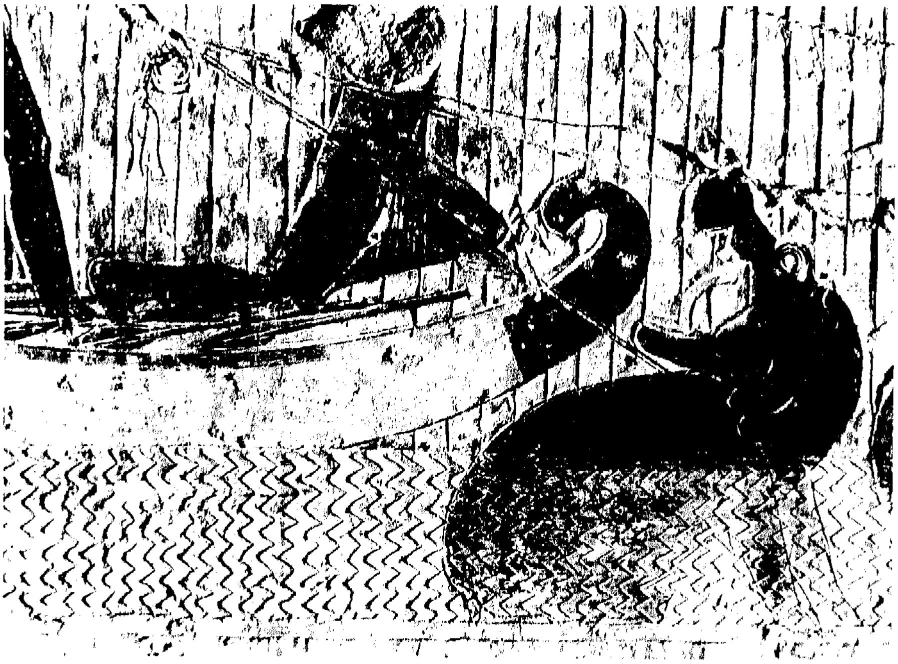
موائد الآلهة والعظماء جيداً بلحم البقر، كما كان تقطيع الذبيحة فناً رفيعاً، وكانت شحوم الحيوان تستعمل على نطاق واسع في صنع المراهم العطرية. ونحن نعلم أن مصريي عهد الدولة القديمة حاولوا تربية عدد من السلالات: الأبقار الوحشية الافريقية والظباء الوحشية والغزلان وغير ذلك، وكذلك الكراكيّ والضباع - ولكن ثبت أن ذلك يستلزم جهوداً طائلة، وحين جاءت النتائج مخيبة للآمال توقفت المحاولة، ومن ثم اصبحت حيوانات الصحراء المجترة فيما بعد، سواء في طقوس السحر أو في الأمثال، رمزاً للمخلوقات التي لا يمكن استئناسها[٣]. وعلى العكس من ذلك نجدهم يحرزون نجاحاً كبيراً في تربية الدواجن من الطيور وبخاصة الاوزة التيلية. أما لحم الماعز التي كانت تلحق أضراراً كبيرة بأشجار الوادي القليلة، والأغنام التي كانت تجري تربيتها في الأراضي المراحة وعلى أطراف الصحراء، وكذلك الخنازير (برغم بعض التحريم) فقد احتلت مكاناً هاماً في طعام الأهالي، ونلمس في العصور التاريخية تغيراً في نوع الأغنام التي كانت تجري تربيتها: فنوع الكبش القديم ذي القرنين الأفقيين الملويين الذي كان تجسيداً للآلهة خنوم وبيس وحرشاف وآلهة اخرى قديمة، حل محله بالتدريج حوالى عام ٢٠٠٠ ق.م الكبش ذو القرنين المعقوفين المكرس للاله آمون - وهناك خلاف حول ما إذا كان أصله إفريقياً أو آسيوياً. وهناك سلالتان إفريقيتان استأنسهما المصريون، وأحرزتا نجاحاً ملحوظاً، وهما ترتبطان ارتباطاً وثيقاً، في أذهاننا، بالماضي الفرعوني: الحمار الذي استعمل منذ «العصر العتيق» لا للركوب بل لحمل الأثقال (ومما يدعو إلى الدهشة أنه كان مكرساً لاله الشر ست) والقطة المستأنسة التي لا تظهر حتى نهاية الدولة القديمة وبداية الدولة الوسطى (وكانت تعبد باعتبارها شكلاً أكثر مسالمة من أشكال الآلهات الخطرات).

التعدين والصناعة

كان النبلاء والحراس يصطادون الأرنب البري والحيوانات الوحشية في الصحراء من قبيل الرياضة وباعتبار ذلك وسيلة لتنويع الطعام، إلا أن ذلك لم يكن له أهمية اقتصادية. وكانت الصحراء توفر أنواعاً متعددة من الخامات المعدنية: الأصباغ الخضراء والسوداء التي كان يتم الحصول عليها من الصحراء العربية وكانت تستعمل لعلاج وتكحيل العيون حتى في عصور ما قبل التاريخ، والحجر الصلب الجميل الذي كان البناؤون والنحاتون يستعملونه (الحجر الجيري الناعم من طرة وحجر السلسلة الرملي، جرانيت أسوان ورخام حتنوب وأحجار الكوارتز المجلوبة من الجبل الأحمر و«الجراواك»[٤] من وادي الحمامات، وأحجار شبه ثمينة مثل فيروز سيناء وعقيق النوبة الأحمر وياقوت النوبة). وقد تطورت صناعة أحجار الطلاء (حجر صابوني مزجج و«قاشاني مصري» له نواة من الكوارتز) تطوراً مبكراً مما عجل بإنتاج أدوات لها شكل الفيروز أو اللازورد. وقد حسنت مصر في عصر الدولة الحديثة أساليب صناعة الزجاج وذلك نتيجة لاتصالها بآسيا، وأصبحت متمكنة كل التمكن لا تبارى في هذه الصناعات.

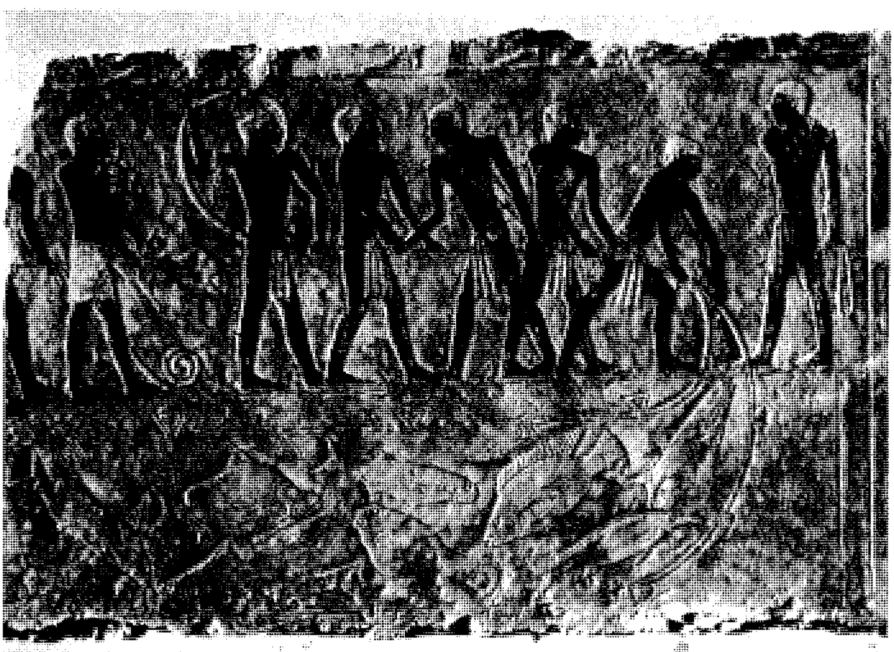
(٣) بردية زنزنج (Zanzing) ، ٣، ٨-٩ (.R.A. Caminos, 1954, p. 382)وعن المغزى الديني للبقر الوحشي الافريقي، انظر: ,ph.J. Derchain

(٤) Grauwacke أو Greywacke(وتخطىء بعض المصادر حين تشير اليه باسم الشست) هو «صخر من خام الكوارتز» دقيق مدمج الحبيبات وصلب بلوري شديد الشبه بالأردواز من حيث الشكل، وهو بوجه عام على درجات متعددة من اللون الرمادي»: .A. Lucas, pp. 419-420



١

٢



١ : صيد فرس النهر
٢ : صيد الأسماك

وقد حصلت البلاد من المناطق الجرداء المحيطة بها على الذهب الذي كان يستخرج من الصحراء العربية ومن النوبة. ولما كان رمزاً للخلود الكامل، فإنه لم يلعب حتى ذلك الوقت الدور الاقتصادي الهام الذي لعبه في الحضارات التالية، وإن يكن قد اعتبر من الدلائل الأساسية للثروة: وكان أثمن من الفضة رغم أن هذه الأخيرة، وهي معدن مستورد، كانت دائماً أندر من الذهب، وفي عهد الدولة القديمة كانت أثمن منه. وكانت الصحارى تحتوي على عدد من رواسب النحاس ولو أنه لم يكن من صنف جيد، باستثناء ما وجد منه في سيناء، وسرعان ما اعتمدت مصر على آسيا في استيراد النحاس. ومما تجدر ملاحظته أن التغيرات التي طرأت على أساليب صناعة المعادن في العصر الفرعوني كانت متخلفة باستمرار عن أساليب الشرق الأدنى. وقد نشأ عصر البرونز وعصر الحديد في مصر بعد نشأتها في أماكن اخرى. وكان المعدن نادراً وثميناً نسبياً: وصار للخشب وحجر الصوان أهمية في صنع الآلات الزراعية، وكذلك الحال بالنسبة الى الحجر الصلب فيما يتعلق بنحت الأدوات. وكانت الادارات الحكومية تخزن الأسلحة والأدوات المعدنية وتقوم بتوزيعها(٥).

واذا كانت مصر القديمة قد اضطرت إلى استيراد المعادن والأخشاب من جاراتها الآسيويات فإن قدرتها الصناعية كانت تفوق غيرها في مجالين. فالفراعنة كانوا يصدرون المنسوجات. وكان الكتان المصري في ذلك الوقت يتميز بنعومة ملمس لا تضاهى، كما كانوا يصدرون الورق. وكان نبات البردي مفيداً في عدة مجالات: في صنع الأشرعة والحبال والملابس والنعال، كما أنه جعل من الممكن، بالاضافة إلى ذلك، تجهيز ورق أملس سهل الطي يصلح للكتابة: وهو الذي كان مصدر قوة الكاتب. وقد ازداد عليه الطلب بكثرة من الخارج منذ الوقت الذي انتشرت فيه الحروف الأبجدية حول شرقي البحر المتوسط. ويحتمل أن التوسع في زراعة هذا النبات قد أدى الى حد كبير إلى اختفاء المستنقعات وأوكار الطيور والتماسيح وفرس البحر - ومن ثم شعور القدماء أنفسهم بأن ذلك قد أدى إلى جعل المنظر الطبيعي أكثر إشراقاً.

وقد لعب تطوير وسائل النقل دوراً حاسماً في ارتقاء النظام الفرعوني. فالثيران لم تكن تستخدم الا في جر المحراث أو المحفة الجنائزية، أما الحمار فكان الأشد قدرة على الاحتمال والأقل تكلفة، فقد كان دابة الحمل المثالية في الحقول وفي الطرق الصحراوية. ونحن نعلم أن الحصان الذي أدخل خلال الألف الثاني، ظل من وسائل ترف المحاربين. ولم تستغل الطاقة الاقتصادية الكبيرة للعجلة، بعد أن عرف المبدأ الذي تقوم عليه منذ عهد الدولة القديمة(٦). وكانت الجمال أقل قدرة بالتأكيد، رغم أن أسلوب استعمال جمل مقرون الى آخر لجر العربات، كان معروفاً. الا أن الحمار سبق الجمل وحل محله، وان يكن استخدام الجمل قد بدأ ببطء شديد في الريف بعد العصر الفارسي. واستعملت مصر نهرها وقنواتها لنقل الشحنات غير المعبأة الى مسافات بعيدة. وكان بالامكان الاعتماد على المراكب الصغيرة والسفن الكبيرة السريعة. وقد ساعدت مهارة مصر الملاحية المبكرة على مركزة الاقتصاد والانجازات المعمارية (أهرام واعداد ضخمة من المعابد والأعمدة والمسلات). يضاف الى ذلك أن السفن الشراعية كانت منذ تاريخ مبكر جداً تمخر عباب البحرين الأحمر والمتوسط (وليس هناك ما يدل على أن الفينيقيين هم الذين علموا المصريين في البداية طريقة ركوب البحر). ولكي يتم نقل كتل

---

(٥) في عهد الأسرة الثالثة عشرة كانت السهام ورؤوس الرماح المصنوعة من الصوان تصنع على شكل النماذج المعدنية، ولكن طريقة صنعها كانت عتيقة وتقليدية، مما يتضح من الأسلحة التي وجدت في قلعة مرجيسي: A. VIIa, pp. 171-199

(٦) وجدت في احدى مقابر الأسرة السادسة صورة لسلم حصار مرفوع على عجلات: W.S. Smith, 1949, p.212, fig. 85.

الاحجار الثقيلة اللازمة لبناء المعابد المقدسة بوجه خاص ابتكر المهندسون الفراعنة أساليب بارعة وبسيطة لدرجة مذهلة، مستغلين بوجه خاص، على سبيل المثال، لزوجة الطين في تحريك الزحافات البسيطة (التي ليست لها عجلات أو بكرات دحرجة) أو مستغلين ارتفاع مياه النيل لتعويم صنادل محملة بكتل ضخمة جداً، او مستعملين مراسي عائمة من حصير البوص(٧). وباعادة تشكيل أساليب مثل هذه مما لا يمكن ان يخطر بتاتاً على بال انسان العصر الحديث - وقد أذهلته التقنيات المعقدة ومفاهيم أخرى للكفاءة - يكون البحث في طريقه الى الكشف عن أسرار العلم الفرعوني(٨).

وبحلول الألف الثالث قبل الميلاد كانت معظم الأساليب الزراعية والصناعية قد تم ابتكارها. ويبدو أن مصر كانت بطيئة وهيابة وبالأحرى شديدة التحفظ فلم تأخذ بسرعة بالأساليب التقنية الجديدة الوافدة من الخارج ويبدو من الوضع الحالي للتوثيق والدراسات أن الانجازات البارزة في اوائل العهد الفرعوني قد وفرت حلولاً للمشاكل الحيوية التي كانت تواجه سكان الوادي وأدت إلى قيام نظام اجتماعي وسياسي ناجح: هو «حكم الاستبداد الفرعوني» الذي احتجبت عوامل ضعفه وراء ستار ديني كان من التماسك بحيث كان لا يزال قائماً في المعابد بعد مضي عدة قرون على استيلاء الأجانب على البلاد اتضح خلالها أن التقاليد والعادات الاجتماعية قد عجزت عن مواجهة تحدي الدول الأحدث عهداً.

النظام الاقتصادي والاجتماعي

من المستحسن تجنب المصطلحات المبهمة حين نعرض لأساليب الانتاج الفرعونية التي لا يمكننا أن نستعرضها الا بايجاز شديد، وذلك بسبب قصور السجلات(٩).

وهناك بعض المعلومات العامة التي نستقيها من الوثائق المتاحة. فالتجارة الخارجية واستخراج المعادن وقطع الاحجار كانا من النشاطات التي تقوم بها الدولة. وتتضمن معظم المعاملات التجارية، التي نتبينها من السجلات، كميات قليلة من السلع، وبعض عقود خاصة بين أفراد. ويتضح لنا أن تدخل الوسطاء المحترفين كان أمراً نادراً. ويبدو بوجه عام أنهم كانوا الوكلاء التجاريين للملك أو لأحد المعابد. ولا يوجد ما يحملنا على الاعتقاد بوجود «بورجوازية» المقاولين (أو الملتزمين) والتجار الأحرار. ورغم أن اصطلاح «اشتراكية الدولة» الذي يستعمل أحياناً يحيط به الغموض وينطوي على مفارقة تاريخية، فيبدو بوجه عام أن الانتاج والتوزيع كانا بيد الدولة. ونحن نستشف في الواقع من استعراض المادة المتاحة أن الملك كان مصدر كل شيء. فمن المؤكد، من حيث المبدأ، انه كان يمتلك كل صلاحيات اتخاذ القرار وكل الموارد المالية. فهو يلتزم بواجب ديني يقضي بأن يحافظ على نظام الكون وعلى أمن مصر وسعادة اهلها سواء في هذا العالم أو في العالم الآخر، ليس فقط بممارسة سلطته باعتباره ملكاً، بل بالمحافظة على عبادة الآلهة - والنتيجة هي مشاركته للمعابد في امتيازاتها. ومن ناحية اخرى فإن الفرعون، في توليه المراسم في هذه المعابد، وفي تصريفه لشؤون الأمة، كان من الناحية

(٧) G. Goyon, 1970, pp. 11-41
(٨) مؤخراً، : H. Chevrier, 1964, pp. 11-17; 1970, pp. 15-39; 1971, pp. 67-111.
(٩) الملاحظات النقدية وقائمة المصادر في: J.J. Janssen, pp. 127-185.

النظرية هو الكاهن الأوحد والقائد الأوحد والقاضي الأوحد والمنتج الأوحد. وكان يفوض صلاحياته لهيئة كاملة من الموظفين. وكان هؤلاء الموظفون يتقاضون مخصصاتهم بعدة طرق منها تخصيص أراض لهم بحيث يصبح ريعها ملكاً لهم. وفي كل فترات التاريخ لم يكن احتكار الملك لوسائل الانتاج يتعدى في الواقع كونه احتكاراً نظرياً لا فعلياً.

ولا شك أن البعثات التي أوفدت إلى بلاد بنت وبيبلوس والنوبة والصحراء لاحضار السلع والأحجار الغريبة كانت ترسل عادة من قبل الملك ويرأسها موظفون حكوميون. كما كان بناء المعابد من مهام الحكومة، على حين أن التاج - في عصر الامبراطورية - كان على سبيل المثال يستغل الأرض التي سيطرت عليها مصر في بلاد كوش والمحميات الفلسطينية والسورية. وعلى العكس من ذلك فإن استصلاح الأراضي في مصر ذاتها كان يعتمد كلية على التاج. فبالاضافة إلى الضياع الملكية كانت توجد أراضي الآلهة التي كانت تمتلك حقولاً وقطعاناً ومصانع وغير ذلك (ففي فترة ازدهار عبادة آمون كان بإمكان الاله ذاته أن يمتلك المناجم). كما كانت لهم هيئة كهنتهم البيروقراطية. وكانت الآلهة تمنح احياناً عقوداً ملكية تعفيها من بعض الضرائب والرسوم، فإن ذلك في الحقيقة دليل على أن المعابد كانت «تمتلك» أراضيها وموظفيها وادواتها. وبالاضافة إلى ذلك، فعلى الأقل منذ الأسرة الثامنة عشرة فصاعداً منح المحاربون حيازات أراض وراثية. وكان كبار الموظفين يمنحون هدايا على شكل أراض يديرونها بأنفسهم. ويتضح من مناظر الحياة المنزلية المنقوشة على مصاطب الدولة الوسطى أن «بيت العائلة» كان يشمل قطعانها وحرفييها واسطولاً من المراكب النهرية. ولم تتوفر لنا معلومات عن تكوين الثروات الخاصة القابلة للتوريث، ولكن من الواضح ان بعضها كان موجوداً، وأنه باستثناء المركز الرسمي الذي لم يكن المرء يستطيع إزاءه سوى أن يأمل في القدرة على توريثه لأبنائه، كانت توجد «ممتلكات عائلية» يمكن توريثها بحرية. ولكن حيازة الأراضي كانت في كل العهود مقصورة على مناطق محدودة ومبعثرة بحيث لم تتخذ الثروات الكبيرة شكل الضياع الواسعة التي كانت السلطات تبدي قلقها إزاءها. ومن المعروف أنه كانت توجد ملكيات صغيرة وبخاصة في عصر الدولة الحديثة، حين كان اصطلاح «حقول الفقراء» يعني في الواقع أراضي الفلاحين المستقلين الصغار تمييزاً لهم عن المستأجرين الذين يزرعون أراضي الملك أو الآلهة. وكان الأجانب المهجّرون الى مصر في عهد الفتوح العظيمة - وعددهم قليل نسبياً - متخصصين (مثل زارعي الكروم الفلسطينيين ورعاة الماشية الليبيين) أو مستوطنين عسكريين. أما العبيد المملوكون للأشخاص فكانوا لا يتعدون أحياناً كونهم خدم منازل، ورغم وجود ما يدل على قيام العبيد بأعمال معينة (وهو أحياناً نوع من العقوبة)، فمن المعتقد أن مثل هذه الأعمال لم تزود الزراعة الا بعدد قليل من الأيدي العاملة (وهذا برغم أن تشبيه تماثيل الأوشابتي (المجاويين) التي كانت توضع تحت تصرف الميت في أوقات متأخرة، بزمرة من العبيد المشترين[١٠]، قد يحملنا على الاعتقاد بأن الرق في عهد الرعامسة هو الذي جعل القيام بالأعمال الكبرى في مجال الري واستصلاح الأراضي امراً في حيز الامكان). ويبدو لنا في الواقع أن جمهرة من السكان العاملين قد ربطت فعلاً بالأرض التي لم تكن امامهم فرصة للفرار منها إلا في حالة العجز عن دفع الضرائب.

بإمكاننا أن نستنتج أن تدبير شؤون المنزل كان بمثابة النشاط الأساسي في القرى وأن الرجال كانوا يقومون بمعظم الأعمال الزراعية. وقد حقق التخصص مستوى عالياً في مدن الأسواق وفي الضياع

(١٠) J. Cerny, 1942, pp. 105-133

الملكية والمعابد. وكانت طوائف الحرف - ولها أحياناً هيئة متدرجة دقيقة - الخاصة بالخبازين وصانعي الأواني ومنسقي الزهور وسباكي المعادن والنحاتين والرسامين وصاغة الذهب والسقائين والحراس من كل نوع ومدربي الكلاب ورعاة الأغنام ورعاة الماعز ومربي الاوز وغير ذلك، تعمل للملك او للمعابد. وكانت الحرفة تنتقل من الأب إلى الابن. ونحن نعرف معرفة جيدة نسبياً كيف كانت جماعة من العمال المقيمين بقرية قريبة من وادي الملوك (الآن موضع دير المدينة) تعيش أثناء قيامها بحفر وتزيين مقابر الفراعنة وملكاتهم. وكان الفنانون والنحاتون موظفين عموميين يشرف عليهم كاتب ملكي واثنان من الملاحظين يعينهما الملك(١١). وكانوا يتلقون حصة منتظمة من الحنطة تستقطع أحياناً من ريع أحد المعابد، كما كانت توزع عليهم جرايات من السمك والخضروات وألوان اخرى من الطعام. وكانوا يتبادلون فيما بينهم بعض الخدمات والسلع القليلة، ويقيمون عدالتهم بأنفسهم (باستثناء الاستئناف للحصول على حكم وحي الاله المحلي) وكان وضعهم الاجتماعي من السمو ووضعهم الأدبي من القوة في نظر المجتمع بحيث كان بإمكانهم أن يقوموا بالاضراب في حالة تأخير توزيع جراياتهم.

سلك الخدمة المدنية

كانت مسؤولية تنظيم الانتاج وتوزيعه وإدارة الأمن العام والاشراف على كل النشاطات في أيدي موظفين عموميين يخضعون إما لسلطة الملك - الفرعون - أو لسلطة الزعماء المحليين في فترات التفكك أو لسلطة المعابد. وكان هؤلاء الموظفون ينتمون إلى طائفة الكتبة - ذلك أن معرفة الكتابة تعتبر نقطة البدء في كل عملية التعليم وكل المهارات العليا (وهو ما كان يحلو للمعنيين بالأمر ابرازه فيما وضعوه من «مقطوعات في هجاء أهل المهن» وفي مقالاتهم المكتوبة على شكل رسائل) ومن ثم فانها تمثل مصدراً محتكراً للسلطة والرفاهية. ولقد سيطر هؤلاء الكتبة، الذين كانوا أوصياء على الثقافتين الدينية والعلمانية، على كل النشاطات المهنية (وفي عهد الدولة الحديثة كان كبار قادة الجيش أنفسهم من الكتبة). كان بإمكانهم أن يكونوا مهندسين وخبراء زراعيين ومحاسبين وفقهاء طقوس، وكان كثير منهم يجمعون بين عدة وظائف في وقت واحد. كانوا يُلَقَّنون العلم بمنتهى الصرامة، ومن ثم يأتي التزامهم بقانون اخلاقي بالغ السمو أحياناً، يفيض بالمقاصد الخيرة وببعض الازدراء للعامة وباحترام النظام الاجتماعي باعتباره التعبير الكامل عن انسجام الكون. وحتى في حالة تجنبهم القيام بالأعمال المحظورة، وهو ما كانت المبادىء التي تحكم عملهم تحذرهم منه بصفة مستمرة، فإنهم كانوا يتمتعون بمكافآت تتناسب مع وضعهم في السلك الوظيفي (وكانت تلك المكافآت كثيرة متباينة، على الأقل في عهد الأسرة الثانية عشرة)(١٢): بمنح على شكل أراض ومرتبات على شكل جرايات طعام ومكاسب كهنوتية مستمدة من الدخل العادي للمعابد، وهبات ملكية وهدايا فخرية او هدايا جنائزية يتسلمونها من العاهل مباشرة. وكان كبارهم ينعمون بحياة رغدة في الدنيا وفي الآخرة، وكانت ثروتهم ونفوذهم يخولانهم سلطة اختيار المقربين اليهم للعمل معهم.

وتدل قوائم الألقاب وأنساب أصحابها على أنه لم توجد طبقة كتبة منفصلة عن طبقة المحاربين أو الكهنة. فطبقة الحكام كانت طبقة واحدة مندمجة في طبقة الموظفين. فقد كان بإمكان كل تلميذ نجيب

(١١) توجد قائمة المصادر في: D. Valbelle, 1974
(١٢) يوجد نص نموذجي في: G. Goyon, 1957

أن يجد في العادة وظيفة ويترقى في وظيفته إذا ما لفتت كفاءته وحماسته انتباه الملك إليه - إذ الملك، من الوجهة النظرية، هو الحكم الأوحد في شؤون الترقي الاجتماعي.

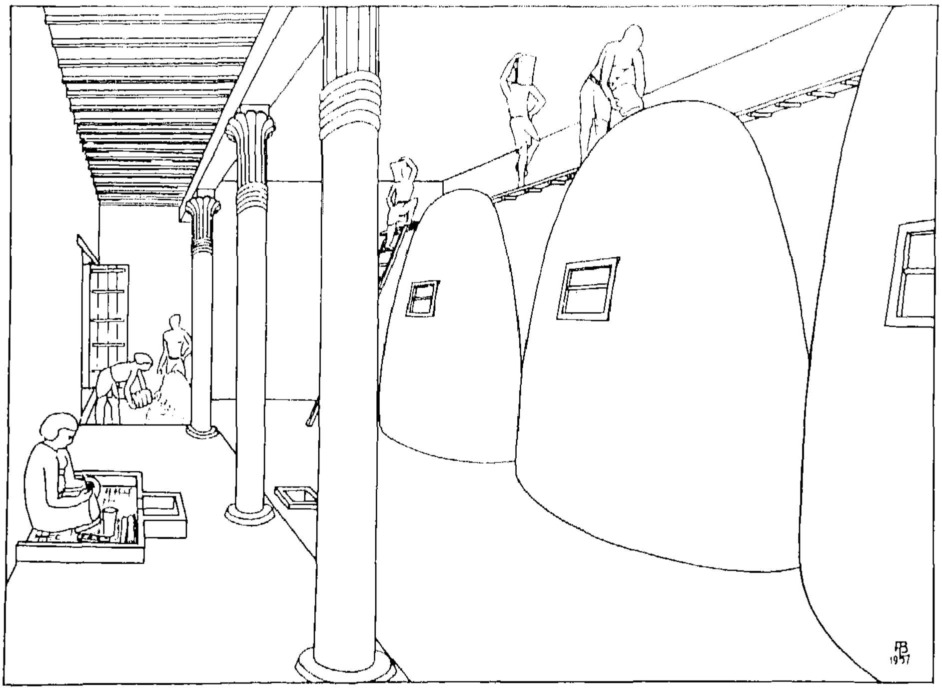
ولكن كان من الطبيعي أن يورث المرء أولاده جزءاً على الأقل من مهامه - ولا ينبغي أن نصدق كل ما في اللغة المنمقة التي تبالغ في اظهار كل موظف في صورة شخص رفعه الملك من العدم. فنحن نعلم بوجود أسر وراثية من كبار الموظفين، وفي طيبة نجد خلال الألف الأول قبل الميلاد عدة أسر تشارك في وظائف «بيت آمون» وكهانته في آن واحد وذلك بعد أن صار لحق التوريث أهمية كبيرة لا شك فيها.

ويبدو أن التاريخ الفرعوني كان يتشكل وفقاً للصراع بين طبقة كبار الموظفين الذين كانوا أميل إلى أن يجعلوا من أنفسهم سلطة وراثية مستقلة استقلالاً ذاتياً، وبين الملكية التي تمسكت بحق التحكم في التعيينات. وهكذا اختفت الملكية القديمة حين أصبحت الأسرات الوراثية من «كبار الحكام» أو الولاة على جانب من القوة في الأقاليم الجنوبية. وفي العصر المتوسط الثاني اصبحت الوظيفة الكبرى ملكاً شخصياً بالامكان بيعه وشراؤه. وقد اختفت الدولة الحديثة حين تحالفت كهانة طيبة مع القيادة العسكرية الجنوبية وأصبحتا من نصيب أسرة من كبار كهنة آمون، وشهدت فترة حكم الليبيين في الدلتا تكرار عملية التفتت التي شهدتها مصر في العصر المتوسط الأول. ولا يمكن التعرف بأي درجة من الثقة على الدلالات الاقتصادية لهذه التغيرات وعلى أسبابها ونتائجها. ولكن يمكن القول بأن النزاعات الداخلية كانت تعكر صفو الريف إبان كل فترة تضعف فيها السلطة الملكية ويتفكك فيها نظام الادارة نتيجة للانقسام الاقليمي. وحينئذ كان نفوذ مصر الدولي وأمن حدودها يتعرضان للخطر، وكانت المعابد تبنى بأعداد أقل وعلى مستوى أكثر تواضعاً، كما كان ينحدر مستوى الأعمال الفنية.

التنظيم السياسي

وهكذا كان المثل الأعلى المقرر لدى المجتمع المصري يستند إلى حكومة قوية تعتبر الوسيلة الوحيدة لتزويد البلاد بالقوة الدافعة اللازمة لرخائها. وكان العاهل تجسيداً للخدمة العامة، فاصطلاح «فرعون» مستمد من «بر - عو»، ومعناه في عهد الدولة القديمة «البيت العظيم» للأمير، بما في ذلك مسكنه ووزراؤه، ثم ما لبث في عهد الدولة الحديثة أن اصبح يعني شخص الملك الذي كان ذا طبيعة تختلف تماماً عن باقي البشر. ومما يؤكد هذا الاختلاف الأساطير التي تتناول قضاءه وقدره، والأسماء الدينية الأربعة والألقاب التي يضيفها إلى اسمه الشخصي، والبروتوكول الذي يحيط به والأبهة والاحتفال المصاحبان لظهوره وقراراته، وصوره التي تتكرر بشكل لانهائي، والخراطيش المشتملة على اسمه وقوائم القابه في المباني المقدسة والاحتفالات بيوبيله وطراز مقبرته (هرم ممفيس ومقبرة طيبة المنحوتة في الصخر). ومن أوضح الدلالات على الاضمحلال المطرد للسلطة وبعض الضغوط الاجتماعية اقتباس عدد متزايد من الأشخاص طرز المقبرة[١٣] والصور التقليدية والنصوص الجنائزية

(١٣) تتكرر مرات كثيرة ظاهرة التمييز في معاملة الملوك بعد وفاتهم ثم الاغتصاب التدريجي لامتيازات العاهل الجنائزية على أيدي اشخاص عاديين. وقد بدأت الظاهرة لأول مرة في عهد الدولة القديمة وعجّل بها ضعف السلطة الملكية في العصر المتوسط الأول، ولكن لم يعد بالامكان القول بأنه قد ظهر فجأة في ذلك العصر اتجاه نحو المساواة، وتذويب الفوارق الاجتماعية فيما يتعلق بالامتيازات الجنائزية.



١



٢

١ : ملء صوامع الحبوب
٢ : تقديم الحسابات

التي كانت في السابق وقفاً على الملك وحده - وبالاضافة الى ذلك كان الملك - الاله يتزوج عدة زوجات وأحياناً ما كان يتزوج اخته بل ابنته في الوقت الذي يبدو فيه أن اتخاذ زوجة واحدة كان القاعدة المعمول بها لدى الأشخاص العاديين.

ويحيط بعض الغموض بوراثة العرش. ومما لا شك فيه أن الابن عادة ما كان يخلف أباه على العرش وفقاً لنموذج اوزيريس وحورس الأسطوري، وهو النموذج القديم للابن الذي يدفن والده ويأخذ ثأره. واحياناً ما كان مبدأ الوراثة يؤدي إلى تتويج الوريث قبل أن يبلغ سن الرشد، كما حدث في عهد الأسرة الثانية عشرة. على أن ذلك لا يعني أن وراثة العرش كانت تتم لصالح أكبر الأبناء الذكور. ويؤكد الملوك القلائل الذين يتكلمون عن أسلافهم على حرية آبائهم في اختيارهم للقيادة العامة أو لوراثة العرش (ستي الأول، رمسيس الثاني، رمسيس الثالث، رمسيس الرابع). على ان الصيغ الاصطلاحية التي تشير إلى «شرعية» الملك بقيت كما هي لم تتغير سواء أكان الملك هو الابن الأكبر لسلفه أو عصامياً مغمور الاصل. فقد كان كل حاكم يرث «ملوكية» رع ووظيفة شو وعرش جب، وبذلك يصبح وريث الآلهة الذين خلقوا العالم ونظموه - وكل منهم «يختاره» إله مدينته. وكان مقدراً للملك أن يتولى منصبه بحكم انحداره عن قوة إله الشمس (الأسطورة الرمزية لزواج الآلهة)[١٤] وفي عهد الدولة الحديثة كان تعيين الملك الجديد أو الاعتراف به من جانب وحي آمون ضماناً لشرعية العاهل الجديد - وبالتالي فإن «الحق الالهي» المباشر كان أهم من الشرعية الأسرية. وكان كل حكم جديد في الواقع يمثل بداية جديدة. فالشعائر هي التي تصنع العاهل وتحافظ عليه. وفي كل مرة يقوم خلالها بمهام الكاهن او المشرع كانت نفس طقوس تطهيره ومسحه بالزيت ونفس ضروب الزينة هي التي تجدد «ظهوره بمظهر الملك». وهكذا فبعد أن يُشبَّه الفرعون بإله احياناً ما كان يعبد أثناء حياته باعتباره إلهاً حقيقياً - أمنحتب الثالث أو رمسيس الثاني - على سبيل المثال - اللذان تنبىء عن ذلك تماثيلهما ومبانيهما الضخمة العجيبة - كان يلعب دوراً خارقاً للطبيعة، ولكن دون أن يدّعي بالفعل أن له مواهب خارقة، بل على العكس كان يبقى قبل كل شيء مثالاً للرجل المتكل على الآلهة والذي يتوجب عليه القيام بالصلاة العامة[١٥] وهناك أربع نساء تولين الحكم. ومما يدعو إلى الدهشة أن الاثنتين الأوليين (نيتوكريس وسبك نفرو) هما خاتمة أسرة حاكمة، على حين أن الاثنتين الأخريين (حتشبسوت وتووسرة) اعتبرتهما الأجيال مغتصبتين. وقد خلع الكثير من آيات الاحترام على أمهات الملوك وزوجاتهم وبناتهم. وكانت بعض أميرات الدولة الوسطى، ثم بعد ذلك بوجه خاص تيي الزوجة الأولى لامنحتب الثالث ونفرتاري أولى زوجات رمسيس الثاني، موضعاً لاحترام غير عادي. ويبدو أن نجاح - حوتسه في عهد أحمس أو أحموسا - نفرتتاري في عهد امنحتب الأول كان لهما تأثير حاسم في الشؤون السياسية أو الدينية. وإسناد المهمة الشعائرية المسماة «الزوجة المقدسة لآمون» إلى اميرات أو ملكات انما يبرز الدور الأساسي للانثى في عبادة إله الكون. على أنه ليس ثمة دليل قاطع على وجود نظام رئاسة المرأة للأسرة في مفهوم الملكية عند المصريين[١٦] وبوجه خاص لا يوجد حتى الآن ما يثبت النظرية التي كانت الحقوق الأسرية طبقاً لها في عهد أحمس، تنتقل عن طريق الاناث.

ونحن نستقي من دراسة قوائم ألقاب الموظفين الصغار والكبار والنصوص التشريعية والادارية القليلة التي وصلت إلينا، صورة دقيقة نسبياً لتنظيم الحكومة: حكم الأقاليم والتدرج الهرمي لرجال

(١٤) H. Brunner, 1964

(١٥) G. Posener, 1960

(١٦) توجد معلومات مفيدة في: B. Gross

الدين وتوزيع واجبات الكهنة الدينية وتوزيع الملك او الكهنة للاراضي الصالحة للزراعة والقطعان ومخازن الغلال والخزائن والنقل النهري والعدالة . . . الخ. ويتضح من جداول تنظيم الوظائف التي تنم عن علم ومعرفة، وإن لم تكن محكمة - وكانت تختلف باختلاف العهد الذي وضعت فيه - أنها تدل على مهارات إدارية فائقة، كما تدلنا على وجود أساليب واضحة لعمل السكرتيرين والمحاسبين (رؤوس الموضوعات - الأقواس - الجدولة وغير ذلك). ورغم ذلك فقد كان هذا العمل الورقي ذا فاعلية - ومن المحتمل أن مصر كانت تدين بسيطرتها في الخارج إلى تنظيمها المتقدم أكثر مما تدين به لقوتها العسكرية. ولا شك أن آثارها التي قاومت الزمن تدين ببقائها لمهارة الكتبة في إدارة العمل والتصرف في المواد الثقيلة على نطاق واسع.

وعلى قمة النظام يجلس الـ تاتي أو «الوزير» فيما لو جاز لنا استعمال مصطلح متداول بين علماء المصريات. ويشبه رئيس الوزراء هذا، المسؤول عن النظام العام، بالاله تحوت «قلب ولسان إله الشمس رَع» فهو قبل كل شيء السلطة القانونية العليا في البلاد بعد الفرعون ووزير العدل. ولا بد أن بعض الوزراء الذين قاموا بأعمالهم خلال عهود متتالية قد سيطروا على حياة البلاد السياسية. وعلى أي حال فإن الـ تاتي (وكان هناك اثنان في عهد الدولة الحديثة) لم يكن المستشار الوحيد للملك، بل لم يكن بالضرورة المستشار الرئيسي. ويفخر كثير من أصحاب المقام الرفيع بأن الملك قد استشارهم خلف ابواب مغلقة او بأنه اختارهم للقيام بمهام خاصة. وفي عصر الامبراطورية كان حاكم النوبة «الابن الملكي» الفخري - على اتصال مباشر بالفرعون، وكان يتمتع بما يقرب من السيادة على الأرض التي يحكمها. ولا يبدو في الواقع أن تسلسل الوظائف الحكومية يوفر صورة حقيقية لسلطة الوزراء السياسية. ومما لا شك فيه أن بعض الشخصيات - ومنها امنحتب، كاتب المجندين الجدد وابن حابي الذي كان مهندساً معمارياً ارتفع مقامه بالتدريج إلى مصاف الآلهة نظراً لحكمته أو خع ام ويسه كبير كهنة بتاح وأحد أبناء رمسيس الثاني الكثيرين(١٧) - كانت تتمتع بنفس النفوذ الذي كان يتمتع به الوزراء في أيامهم. وقد ترتب على الاستبداد السياسي الذي مارسته الملكية الفرعونية أن صار مقر الملك مسؤولاً عن حسم المنازعات السياسية الكبرى. «فتصفية» مختلف كبار الموظفين بمحو اسمائهم، وهو الأمر الذي لم يقتصر على سنموت وغيره من المقربين إلى الملكة حتشبسوت، بل تعداه الى أشخاص كانوا قد خدموا ملوكاً أقل مثاراً للجدل أو الخلاف (أميران ملكيان واوسرساتت نائب الملك في النوبة في عهد امنحتب الثاني) هي الشاهد الصامت على أزمات الحكم.

التنظيم العسكري

كان الملك مسؤولاً عن الأمن القومي - فمن الناحية النظرية كان له كل الفضل في الانتصارات والفتوح. وقد استغل رمسيس الثاني من الناحية الدعائية إلى حد كبير بالكلمات والصور، كونه قد صمد وحده ومعه حرسه الخاص في معركة قادش مؤكداً من جديد زعامة الملك المنقذ الوحيد بفضل العناية الالهية، على جيش كانت أسرته المالكة قد انبثقت منه. ومن الطبيعي ان تكون للبلاد منذ عهد بناة الأهرام قيادة عليا متخصصة عسكرية وبحرية في نفس الوقت، تقود قوات تعودت بالفعل على القيام بالمناورات والاستعراض في صفوف منضبطة. على أن شعوب البلدان المجاورة لم تشكل تهديداً

(١٧) يجد القارىء دراسة حديثة لهذه الشخصية في أطروحة: Farouk Gomaa

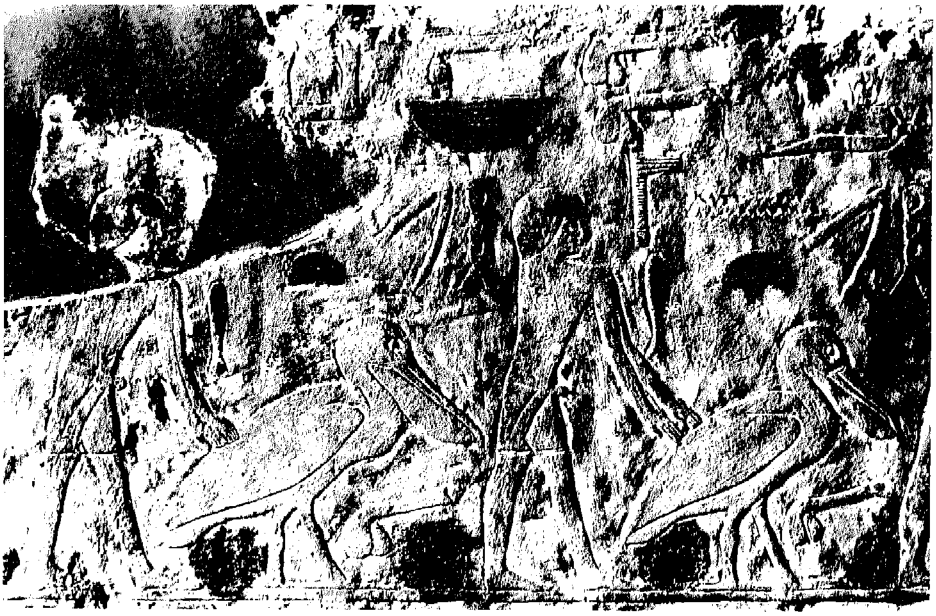
خطيراً خلال الألف الثالث. فالحملات التي جردت ضد بلاد النوبة سرعان ما أنهكت سكانها لصالح مصر، وكانت الحملات الموفقة التي فرضت التعبئة العامة من أجلها على سكان الريف كافية لتخويف وغنم الشعوب المستقرة على الحدود الليبية والآسيوية، على حين كانت «الكشافة الصحراوية» تراقب تحركات البدو الجائعين. وخير ما نعرفه عن قوات ممفيس يتصل باشتراكها في العمليات ذات الأهمية الاقتصادية وفي عمليات البناء الكبرى. وكانت «فرق المجندين الشبان المنتقين» الذين كانوا يشكلون حرساً خاصاً للملك تشرف على نقل الحجارة اللازمة لبناء الأهرام وعلى الحملات الكبرى الموفدة الى مناجم سيناء أو إلى محاجر الصحراء الشرقية. وكانت قوة خاصة شبه عسكرية - الـ سمنتي(١٨) - تقوم بالتنقيب عن مناجم الذهب في النوبة والصحراء وتستغلها، على حين أن «المترجمين» كانوا يسافرون إلى جهات نائية للتفاوض في أمر الحصول على السلع الافريقية أو الآسيوية او اغتصابها.

وفي العصر المتوسط الأول أدى تقسيم المملكة إلى إمارات متنافسة إلى إجراء تعديل على النظام الحربي. فقد كانت قوات الصاعقة المساعدة التي كانت تجند من النوبة او من الـ عامو الآسيويين تنضم إلى حاشية الأمير الشخصية والقوات التي توفرها الأقاليم. وثمة صفتان كانتا قد اتضحتا بالفعل خلال الألف الثالث، ولم تلبثا أن اصبحتا من الملامح الخاصة للجيوش الفرعونية، هما اشتراك القوات في المشروعات الاقتصادية أو في مشروعات البناء، إما للاشراف أو لتوفير القوة العاملة، واستعمال قوات جديدة ميالة للقتال جرى تجنيدها في الخارج. ولم تكن مصر تحب القتال لذاته، وإن يكن من الطبيعي ان تتكون لدى ابنائها نزعة عسكرية بسبب ادراكهم لمعنى النظام وولعهم بالسطوة والجاه.

ولا شك أن الدولة الحديثة التي نشبت في عهدها صراعات دولية كبرى قد شهدت توسعاً لم يسبق له مثيل في الجيش المحترف الذي انقسم إلى سلاحين رئيسيين هما العربات والمشاة، كما انقسم إلى فرق عسكرية كبيرة تقودها هيئة معقدة وتخدمها بيروقراطية كبيرة. وقد تصدى هذا الجيش الضخم لامبراطوريات ودويلات آسيا ويبدو أنه نجح في وضع حد للأزمة التي اثارتها بدعة آتون. وكان الجنود يحصلون على منح صغيرة من الأرض، كما جند في عهد الرعامسة كثير من الأسرى - نوبيين وسوريين وليبيين وقراصنة «شعوب البحر» - وحصلوا كذلك على منح مماثلة. ورغم اندماج الليبيين السريع نسبياً (ومن المحتمل أنه قد انخرط في صفوفهم غزاة من نفس السلالة)، فإنهم شكلوا قوة مستقلة وانتهى بهم الأمر إلى تنصيب زعيمهم فرعوناً. ورغم ذلك فإن مصر هذه، التي كان يقوم عليها محاربون ليبيون من المِشْوِش، لم تستطع التكيف للأساليب الحربية الجديدة في الوقت الذي كانت فيه آشور تنتظم في آلة حرب رهيبة. وبدلاً من أن يعتمد ملوك العصر الصاوي على هؤلاء المحاربين اثناء الصراع الجديد بين الامبراطوريات أصبح عليهم ان يعتمدوا على مستوطنين عسكريين جدد جرى تجنيدهم من الأيونيين والكاريين والفينيقيين واليهود، على حين أن الفراعنة الوطنيين الآخرين اثناء حروبهم الأخيرة ضد الامبراطورية الفارسية اقتدوا بخصومهم في استئجار اغريق مرتزقة كان يقوم بتجنيدهم مغامرون دوليون. وتمثلت نقطة ضعف مصر الناهضة التي لم يكن اقتصادها او ثقافتها قد تضعضعا في انهيار جهاز الدولة الدفاعي، وهو انهيار لم يستطع القضاء لا على اسطورة الفرعون القديمة باعتباره المنتصر الأوحد ولا على الحنين إلى الفتوح السابقة (ملحمة سيزوستريس) أو على الذكريات اللطيفة عن الحروب الأهلية (دورة بتوباستس)، او على الاقتصاد والثقافة اللذين انحدرا الى الحضيض.

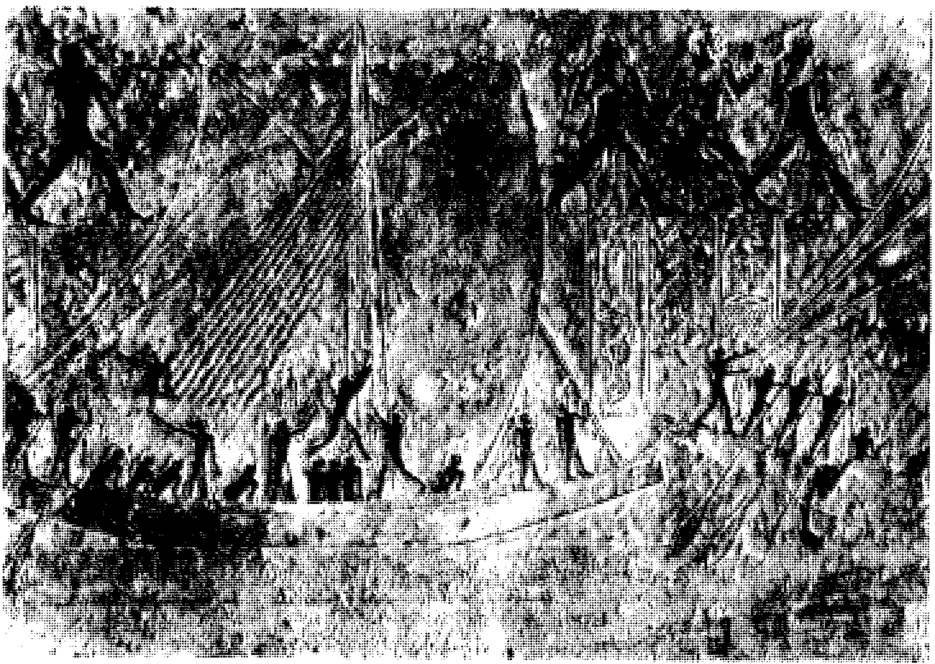
---

(١٨) عن هذه القوة التي لا يعرف عنها الكثير والتي كانت مهمتها البحث عن الذهب، انظر: J. Yoyotte, 1975, pp.44-55



١

٢



١ : البجع المستأنس
٢: عمليات بحرية

العقائد الدينية والمفاهيم الخلقية

الأساطير

قد يكون من الانجازات الضخمة للحضارة الفرعونية، وربما كان من نقاط ضعفها، صورتها المشرقة عن العالم والقوى التي تهيمن عليه، وهي صورة مترابطة تفصح عن نفسها في اساطيرها وطقوسها وفنونها وكتب الحكمة. ويجب أن نتذكر سمة من سمات هذه العقلية المصرية حتى نتبين كيف أن الملخص القصير الناقص للميثولوجيا الفرعونية الذي نورده فيما يلي لن يزودنا بتسلسل هرمي واضح او شجرة نسب لآلهة الشعب أو نظرية مترابطة فيما يتعلق بنشأة الكون ووصفه العام. وحتى يتسنى فهم قوى الطبيعة والظواهر الطبيعية قبلت الميثولوجيا كل الصور والأساطير التي نقلت رواية عن السلف. ربما كان ثمة عدد كبير من الآلهة «الوحيدة»: السماء هي سقف سائل وبطن بقرة وجسم امرأة او خنزيرة. . . الخ.

وهكذا نشأت عدة تصورات عن اصول الكون، اندمجت بطرق عدة، في توليفات مطوّلة صيغت على أساس محلي عبر العصور، وكان من الممكن تمثيل كل منها من جديد بتأدية طقس معين كان يضفي عليه بعداً كونياً. وهناك ملامح رئيسية مشتركة بين هذه النظم. فالعالم الموجود كانت تنظمه الشمس وتستديمه، وذلك بعد أن قامت الآلهة (نيث) التي كانت تسبح في الـ«نون» أو الفيضان البدائي، ومجمع من الآلهة الأوائل (الـ وادجات أو «الإلهة الميتة» في ادفو واسنا) أو الأرض الجافة الأولى (بتاح تنن) بتمهيد الطريق لظهور خالق الكون هذا الذي وجد كطاقة «هامدة» في قلب الفوضى ثم سبب بعد ذلك عملية التوالد بمساعدة يده الإلهة الأولى. ثم قسم نفسه الى كيانات على شكل أزواج متتالية: شو (الفضاء) وتفنوت (قوة النار) وكلاهما كائن شبيه بالأسد، وجب (الأرض) ونوت (السماء) ثم بعد ذلك كل أعضاء التاسوعات (Ennéades) وبمعنى أدق فان كل تجليات الألوهية قد انبثقت عنه. وقد اقيم البنيان الحالي للكون الذي شاءه الخالق الأول واستكمل بكلمته الالهية، اي باضفاء الشكل على الأصوات، بحيث – على سبيل المثال – ظهر الرجل رمت (Romé) من دموعه (رمي Ramé)كما ظهر السمك (رمو remou).

وقوة الإله الشمس، التي هي اشعاع حيوي قد يكون مدمراً، هي «عين رَع»، أي كيان أنثوي يلتحم أحياناً مع الآلهة التي جرى عن طريقها تولد الحيوانات حين انقسم الإله إلى اثنين، وكانت كزوجة وقرينة في آن واحد تتجلى في تسريحة الشعر والتيجان الملكية. وقد تتخذ شكل كوبرا، اسد، شعلة، والبخور الذي تلتهمه النار. ويتكرر بدء الخلق الذي لم يتعد إزاحة الظلام الأول، في كل يوم مع شروق الشمس. وكما حدث في البداية يجب على الإله أن يواجه كل يوم قوى معادية: التنين «أيوفيس» الذي يهدد بتجفيف النهر السماوي أو بأن يوقف تقدم الشمس بعينه الشريرة[١٩] – السلحفاة الغامضة و«الأعداء» الذين لا اسم لهم والذين يتفشون في الشرق. كما كان على الشمس قبل ظهور فجر كل يوم أن تغسل نفسها في الينابيع الواقعة على طرف العالم وأن تطهر نفسها من الليل والموت. فهي تتقدم بها السن خلال رحلتها اليومية، ثم تجدد شبابها بصورة غامضة خلال الليل حين

---

(١٩) جرى بحث هذا الموضوع الميثولوجي (الأسطوري) منذ وقت قريب على يد: J. F. Borghouts, pp. 140-150

تقوم برحلتها عبر عالم آخر على نهر آخر. وفي عهد الدولة الحديثة ألفت كتب من نسج الخيال الجامح - مثل كتاب «ام - دوات» أو «كتاب البوابات» - ترمز إلى مراحل هذا التجدد الجسدي «للحم» رَع، وتصف الشطئان التي تغشاها آلهة أدنى مرتبة ذات أشكال غامضة وقوى مبهمة منها المباركة ومنها الملعونة.

وعالمنا محفوف بالمخاطر إلى حد كبير. ففي الليل يأخذ القمر وهو عين مقدسة ثانية، مكان العين الأخرى، ولكنه يضمحل باستمرار - إذ تهاجمه سكين إله مخيف هو «تحوت» خونسو الذي شبِّه فيها بعد بصفة وقتية بالشمس ذاتها[٢٠] او «بست»، وهو خنزير أو واحد من بقر الوحش الافريقي... كما تحكي أساطير مختلفة أن العين اليمنى، الآلهة الخارقة، تطير بعيداً عن الشمس ومن الواجب اعادتها. وإحدى هذه الأساطير تربط بين هذا الهروب وبين محاولة للقضاء على الجنس البشري كانت تتآمر ضد رع المُسِن: فقد جرت «ثورة» في الأرض وفقد الناس مساواتهم الأولى[٢١]. وتغضب عين رَع بصورة دورية كذلك، فتقوم «سخمت» «القوية» بإصابة الناس بالمرض وينخفض فيضان النيل فتزداد «كوارث السنة».

ولقد غفر رَع للانسان تمرده وزوده بالسحر الذي يساعده على ضمان بقائه، ولكنه ابتعد عن الناس. وحكمت أسرة إلهية هذا العالم. وفي تلك الأيام قتل ست أوزوريس الذي اعادته الى الحياة رعاية ايزيس وأنوبيس إله التحنيط فأصبح أوزوريس نموذجاً لكل الملوك الأموات، ثم توسع ليصبح نموذجاً لكل الموتى. كما أنه صورة للشمس التي تموت كل مساء؛ والدم الذي تدفق من جسمه هو رمز الماء الذي يرتفع كل سنة (إحدى الصور الكثيرة التي تعبر عن فيضان النيل). كما ان سكر - أوزوريس هو الحبة التي توضع في الأرض وتنبت. وبعد أن طرد ست من مقابر ومعابد أوزوريس ظل يُعبَد مدة طويلة باعتباره إلها: القوة الوحشية للحياة، كائن متمرد، حليف رَع ضد أبوفيس، الفوضى اللازمة للنظام[٢٢]. ولم يحدث إلا حوالى القرن الثامن قبل الميلاد أن ادت حماسة جديدة إلى استخلاص أوزوريس وأيزيس من العبادة الجنائزية التي كانت أسطورتها فيها أساس فكرة البعث في الآخرة. وهبطت بست إلى مرتبة أبوفيس واعتبرته تجسيداً للشر وراعياً للغزاة.

والانسجام يستلزم الاتحاد سلفاً، أما الاتحاد، الذي يحاط بالمخاطر باستمرار، فيستلزم اعادة التوحيد وست منافس حورس بن أوزوريس هو نظيره الذي لا غنى عنه. وطبقاً للتقاليد الأصلية، كان كل ملك يجسد في شخصه تجسيداً الوفاق بين حورس وست، تماماً كما يجب إعادة توحيد سهلي الشمال والجنوب أو أرض الوادي السوداء وأرض الصحراء الحمراء. وقيِّض للأسطورة التي تذهب إلى أن ست مزق عين حورس وأن تحوت هو الذي عالجها، أن تكون مداراً لكثير من التفاسير الشعائرية التي شبهت بكل قربان وكل زيادة جديدة في حب القوت والقمر ذاته - رمز كل ما يجب أن يكون كاملاً ليضمن الخصب والوفرة - بشفاء العين (أودجات) بعد علاجها.

وانسجاماً مع النظام الإلهي لا يوجد فقط بنيان الكون المادي المتسق وانتظام مساره بل ثمة نظام معنوي يتمثل بالربة «معات» معيار الحق والعدالة التي تسفر عن وجهها حين ينتصر رَع على عدوه،

(٢٠) مختارات من النصوص في: S. Sauneron and J. Yoyotte, 1952 عن المظهر «العتيق» لآلهة القمر، انظر: G. Posener, 1960

(٢١) A. De Buck, 1935-61, pp. 462-4

(٢٢) H. De Velde

والتي، من أجل سعادة البشر، يجب أن تحكم الشرائع والنظم والسلوك الشخصي: «رَع يحيا بمعات». وتحوت، إله العلماء، «كاتب الحساب» عند رَع، قاضي الآلهة، «سعيد بمعات»(٢٣).

الآلهة

وجدت كل العقائد والتصورات التي فرغنا من استعراضها قبولاً في كل المعابد. وكانت الترانيم الدينية التي ترتل تسبيحاً بالصفات الكونية والعناية الالهية الرائعة التي تصدر عن الاله - الخالق، تتناول نفس الموضوعات سواء أكانت آلهةً أصلية مثل نيث أو إلهاً أرضياً مثل بتاح أو حتى آمون - رع وخنوم - رع وسبك - رع. وكانت كل الأساطير العظمى - عين رَع، وعين حورس آلام أوزوريس - وكذلك الممارسات الشعائرية الأصلية، معروفة لدى كل المراكز السكانية، الا أن الآلهة المختلفة - وكل له اسمه الخاص وصورته التقليدية والآلهة المرتبطة به هي «سيدة» مختلف المدن: «خنوم» في الفانتين وإسنا وغيرهما، و«مين» في قفط وأخميم، و«منتو» في أرمنت، «وآمون» في طيبة، و«سبك» في كوم امبو والفيوم وأماكن أخرى، «وبتاح - سكر» في ممفيس، و«رع - حراختي - آتوم» في هليوبوليس، و«نيث» في سايس و«باستت» في بوباستس (تل بسطة)، و«وادجت» في بوتو (تل الفراعين)، و«نخبت» في الكاب، وغيرها من الآلهة. وكانت توجد آلهة محلية كثيرة يطلق عليها اسم حورس - وآلهات كثيرة كل منها اسمها سخمت المخيفة أو حتحور الحنون. فهل الأشكال المرتبطة بأساطير ضرب عليها النسيان بصورة أو أخرى كانت في العصور القديمة متناثرة في طول البلاد وعرضها؟ هذا أمر ممكن - وعلى أي حال فإن وجود مختلف الديانات المحلية في عصور ما قبل التاريخ من شأنه أن يوضح كثيراً من الديانة القائمة على تعدد الآلهة التي تمخضت عن دين اتضحت وحدته. ويبدو أن هذا الدين كان ينزع - عن طريق تشبيه آلهة بأخرى - الى تركيز هذا التعدد في انماط قليلة: إله أعلى عادة إله - شمس، وغالباً ما يعتبر صِنوا لرع (آمون - رع، ومنتو - رع، وحرويريس - رع وغير ذلك)؛ إلهة زوجة هي «عين رَع» (مُوت = باستت = سخمت = حتحور، الى غير ذلك)، الإله - الابن المحارب من قبيل حورُس - إنحور، إله ميت من على شاكلة أوزوريس (سكر وسفت، وغير ذلك). وقد شبه علماء اللاهوت في عهد الدولة الحديثة كل مدينة «أصلية» بمكان توقف فيه خالق الكون خلال نشوئه وجولانه «وكانوا يعتبرون آلهة الدولة الرئيسية الثلاثة، آمون إله الهواء، ورَع إله الشمس وبتاح إله الظلم السفلي، ثلاثة مظاهر كونية وسياسية، لنفس الإله الواحد. وقد أدت متاهة المشاكل النظرية التي طرحها مجمع الآلهة ذات الأشكال المتعددة الى ظهور كثير من التأمل الديني، بل والفلسفي: بتاح مفكراً في داخل «قلبه الذي هو حورس» وخالقاً عن طريق «لسانه الذي هو تحوت» وسيا «المعرفة» وحو «النظام» من الصفات الرئيسية للشمس، والأرواح الأربع التي هي رَع (النار) شُو (الهواء)، جب (الأرض) وأوزوريس (الماء)؛ الإله الذي لا يُدرَك كنهه والذي لا نهاية له هو الذي «السماء، الأرض، النون، وكل ما يقع بينهما» - ... الخ. وقد ساد لدى المتعلمين، على الأقل منذ الدولة الحديثة فصاعداً، شعور بوحدة الألوهية، واقترن بعقيدة كانت تعبد الأساطير والأسماء - وأصنام كل آلهة البلاد، وذلك باعتبار كل هذه صوراً قريبة من ذلك الذي يفوق الوصف. وكان موقف اخناتون المشهور الذي لم يعترف إلا

(٢٣) تربط النصوص الفوضى الطبيعية بتعرض النظام السياسي والاجتماعي للقلاقل على ان معات مفهوم أخلاقي وقضائي، ورغم نظرية شائعة تماماً، فليس من الواضح ما اذا كان هذا المفهوم يتضمن النظام المادي للعالم.

بقرص الشمس الذي يمكن رؤيته باعتباره الإله الحقيقي الأوحد، لا يزال مترسباً في المجرى الرئيسي للفكر المصري ولكنه كان بمثابة هرطقة نتيجة للطريقة التي قلب بها التقاليد التي قبلت كل أشكال التدين والتفكير ووفقت بينها آخذة بعين الاعتبار ما هو مكتنف بالأسرار.

المعبد

كان كل إله يخلق مدينته ويرعى الاقليم الذي يخضع لسلطانه، وما وراءه - أي كل مصر. وكان الملك يعنى بكل الآلهة في الوقت ذاته: فهو وريث الشمس وخليفة حورس، ومن ثم تأتي مسؤوليته عن حفظ النظام الذي خلقته العناية الإلهية. ولكي يتسنى له القيام بذلك عليه أن يساعد الكائنات الإلهية ذاتها المهددة باحتمال وقوعها في براثن الفوضى، وأن يتقي غضب «سخمت» وأن يلجأ إلى التعاون المستمر مع الآلهة حتى يضمن استمرار دورة الفصول وفيضان النيل والنمو الطبيعي للنبات وتكاثر القطعان وقمع التمرد وأمن الحدود والرفاهية وحكم معات لرعاياها. ولكي يتحقق كل ذلك كان العلم المقدس يلجأ إلى سحر الكلمة والاشارة والكتابة والصور والأشكال المعمارية وكذلك كل الطرق المستخدمة لضمان حياة الموتى في العالم الآخر. وكانت المراسم التي يؤديها الكهنة المتمرسون تقرن شعائر العبادة بصيغ منطوقة تعزز قوة الزامها برقى تعيد الى الذهن سوابقها الميثولوجية. وكان تصوير هذه الطقوس وكتابة هذه النصوص على جدران المعابد يبقيان على فعاليتها. كما ان تماثيل الملك الكثيرة وصور الأشخاص العاديين في المناطق المقدسة كانت تمكّن الأشخاص المصورين من خدمة الإله إلى الأبد ومشاركته مثواه، وتلقّي قوة اضافية للحياة منه. وقد جعل المهندس المعماري من المعبد نموذجاً مصغراً للكون، وبذلك اضفى عليه صفة الدوام. فالبوابة الضخمة هي جبل الشمس المشرقة، وقدس الأقداس المظلم هو المكان الذي تنام فيه الشمس، والأعمدة تمثل المستنقع الأصلي الذي انبثق منه الخلق، وأساس جدرانه هو تربة مصر. وكان جدار عال مصنوع من الطوب يحميه هو وحدائقه وجدران اماكن العبادة من القاذورات التي قد تدنس حرم الإله. وكان الكهنة الذين يترأسون القداس وكذلك الاشخاص المميزون الذين يسمح لهم بدخول الساحة المقدسة مطالبين بطقوس طهارة مع اجتناب المحرمات المتصلة بالطعام والملبس والجماع. ولكي يظهر الفرعون ذاته بمظهر من يقوم بالفعل بأداء الطقوس، صوّرته مناظر محفورة في الجدران وهو يمارس مختلف الطقوس عارضاً في مواكب طويلة صور اقاليم مصر ومراحل الفيضان والآلهة الصغرى التي تترأس مختلف نشاطات الحياة الاقتصادية.

وفي اثناء النهار، كان الصنم، وبمعنى آخر الشكل الذي يستطيع المرء أن يتصل بالإله من خلاله، يجري تطهيره وتبخيره والباسه واطعامه. وفي النهاية كان يبتهل اليه بتراتيل تدعو الإله أن يستيقظ ويؤكد قوته الإلهية من جديد ويتوسل الى قدرته الخيرة. وفي خلال الاحتفالات الكبرى كان الإله يبزغ في الموكب لكي يشحن نفسه من جديد بالنشاط الذي يستمده من أشعة الشمس، ويزور مقابر الملوك الأموات والآلهة السابقة ويعيد تمثيل الأحداث الميثولوجية التي من خلالها ظهر الكون(٢٤).

وفوق كل شيء فان المعبد كان مكاناً للعمل يقوم فيه الملك، بمساعدة خبراء الكهنة، بعمل الدولة السحري على مستوى عال حتى يتأكد من انتظام مجرى الأحداث (وأن يضمن قبل كل شيء إطعام

(٢٤) يستند فهمنا لرمزية المعبد وشكله العام والطقوس على الآثار الضخمة التي بنيت وزينت في العهدين اليوناني والروماني (ادفو، كوم أمبو، دندره فيله. . . الخ). للحصول على معلومات عامة، أنظر: S. Sauneron, and H. Sterling

شعبه) ورغم بُعد الآلهة - اؤلئك المحركين الرئيسيين للكون، فمن الممكن الاتصال بهم باعتبارهم كائنات شخصية تقف الى جوار كل ميت. وفي عهد الدولة الحديثة كان الأشخاص العاديون يؤدون لهم الصلوات امام البوابات الجانبية للمعابد وفي المعابد الصغيرة في القرى أو في أطلال الآثار القديمة حيث يمكن الشعور بحضورهم (كان أبو الهول الكبير القائم في الجيزة، بوجه خاص، يعتبر صنماً لكل من الشمس و«حورون»، إله الشفاء الذي اقتبس من الكنعانيين). وقد نقشت تراتيل دينية على لوحات صغيرة تنم عن إيمان الناس العاديين بإله مدينتهم وبركات آمون العظيم ذاته «القاضي النزيه الذي يلبي دعاء من يناديه ويستمع إلى التوسلات» وكان الناس يتوسلون بهذه التراتيل للحفاظ على صحتهم والتوفيق في أعمالهم. ويتضح من الأسماء الشخصية عبر التاريخ أن كل طبقات الشعب كانت تسعى إلى الحصول على الرعاية المباشرة للآلهة. وبالاضافة إلى ذلك فإن الديانة المصرية، رغم كثرة تفاصيلها وهيئة كهنتها التي كانت شديدة الحفاظ على الأسرار التي تحكم حياة الأمة، كانت متفتحة بصورة لا نظير لها. ففي عهد الدولة الحديثة جرى الاعتراف بالآلهة السورية - الفلسطينية - واعتبرت بس الروح الحارسة للاناث والأطفال - أحد سكان السودان الشرقي، واعترفت بـ ددُون (Dedun) سيد النوبة ومصرِّته وتعرفت على آمون في الإله - الكبش الذي كان يعبده النوبيون وثبتت أقدام عبادة إله طيبة في بلاد كوش، وفيما بعد طابقت بين آلهتها ومجمع الآلهة اليوناني، وفي المناطق الريفية أخذت بقلوب الجاليات الاغريقية في العصر البطلمي.

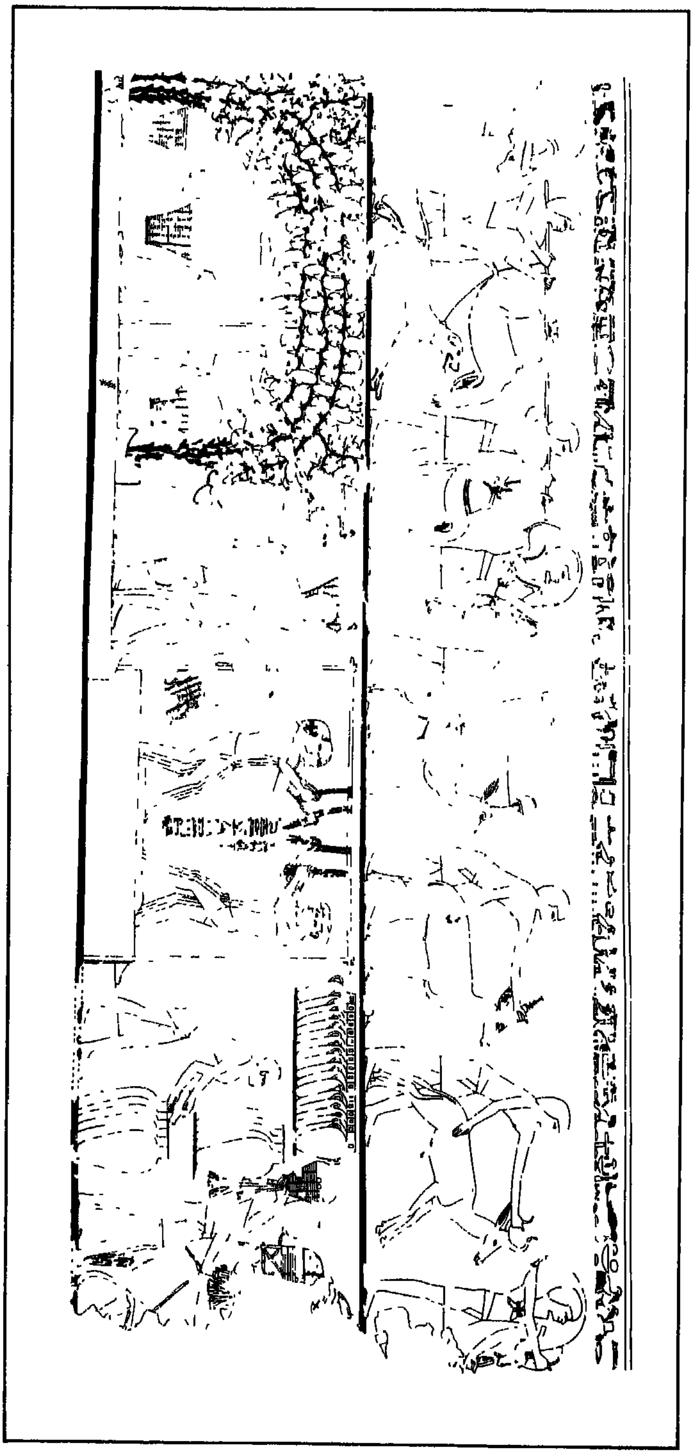
ورغم ذلك فإن تمثيل أرض مصر بالكون المنظم يلقي ضوءاً باهراً على أفكار رعايا الفرعون الخاصة بالعالم الخارجي. فالشعوب الافريقية والساميّة والمدن والممالك الأجنبية كانت بمثابة قوى الفوضى المستعدة دائماً لافساد الكون (وتصور الكتابة الفرعونية كل بلد أجنبي باعتباره صحراء جبلية). وعلى جانبي بوابات المعبد توجد لوحات مواجهة يبدو فيها الملك في الجنوب منتصراً على النوبيين وفي الشمال يبدو الملك منتصراً على الآسيويين(٢٥). هذه الصور المنقوشة على المداخل إلى العالم الصغير تقضي بقوة السحر على «العصاة» الذين يشكلون خطراً على النظام. وفي عهد الدولة الحديثة كانت النقوش الكثيرة المتتالية على الجدران الخارجية التي تبرز المعارك المظفرة والغنائم التي قدمت للآلهة توضح، بحكايات تاريخية، التعاون المستمر بين العاهل والإله من أجل المحافظة على توازن الكون. وهناك دليل طريف على وجهة النظر هذه، يتبين الى حد ما من النعرة القومية للعقيدة، نجده في توجيه أعمال السحر ضد امراء وشعوب آسيا والنوبة وليبيا لا من أجل تدميرهم بل لتخليصهم من النوايا العدوانية.

الأخلاق

لقد قام انسجام كامل وكان الملك موجوداً للمحافظة عليه. وهكذا فالفترة المثالية كانت أيام رَع، وقد وصل الأمر بالكهنة في الفترة المتأخرة إلى الاعتقاد بوجود عصر ذهبي كانت الثعابين فيه لا تلدغ والأشواك لا تدمي والجدران لا تنهار ومعات تحكم في الأرض(٢٦). فالنظام الكامل ليس مدينة فاضلة يحاول المرء تحقيقها بابتداع قواعد جديدة، فهذا النظام قد وجد في البداية ومن شأنه ان يصبح حقيقياً منذ اللحظة التي يتكيف فيها مع مَعَات. ومعنى هذا أن الأخلاق الحميدة المعترف بها في التعاليم التي

(٢٥) C. Desroches - Noblecourt and C. Kuentz, pp. 49-57 and notes 178-179 (pp.167-168)

(٢٦) E. Otto, pp. 93-108



جني العنب وعصره

كتبها كبار موظفي ممفيس (جدف حور وبتاح حتب) وكتبه آخرون في العصور التالية (آني وأمنموبي) وكذلك التعليمات الموجهة إلى الكهنة والمنقوشة على المعابد التي بنيت بعد ذلك هي في الأساس تلتزم بالعرف، وأن هذه التعاليم لم تكن لتساعد على نمو ملكة الأصالة. والنصوص التي يصف فيها شخص ما الاشياء الجديدة التي يجدها قليلة جداً في مقارنتها بالسير الذاتية التقليدية والصيغ المتمشية مع القانون والعرف. ومما يلفت النظر بوجه خاص مواهب النحاتين الكثيرين الذين استطاعوا اضفاء طابعهم الشخصي على أعمالهم مع التزامهم في نفس الوقت بالقيود التقليدية.

وكانت الأخلاق السائدة تسوي بين الفضائل بمعنى الكلمة وبين الصفات الذهنية: فالاستقامة تعدل اللياقة وعدم الطهارة الجسمية يعدل ضِعة السلوك. ولما كانت هذه الأخلاق تقوم على علم النفس الخالي من الأوهام، فقد مجدت الخضوع للرؤساء والعطف على المرؤوسين. وكان من المسلم به أن يكون النجاح الدنيوي هو العاقبة المتوقعة للفضيلة، ورغم أن فكرة حساب المرء على اعماله بعد الموت قد تطورت في فترة مبكرة جداً، فإن الذرائع التي كانت توفرها الصيغ الجنائزية لتهرب الانسان من العدالة الالهية كانت ترسم لها حدوداً. وكرست عناية كبيرة بتعليم السلوك السوي: ألا تسرف في الكلام، أن تبقى هادىء الحركات وأن تتوخى الاعتدال في ردود أفعالك – وكان ذلك بمثابة مثل أعلى تعبر عنه التماثيل المصرية إلى حد الكمال. وكل أنواع التطرف مؤذية: فمن تغلبه العواطف يناكد الآخرين ويستنزل على نفسه اللعنة الابدية. على أن بعض الحكماء اضفوا على افكارهم شعوراً دينياً شخصياً قوياً وعبروا عن تطلعاتهم إلى السمو الخلقي الذاتي فقلب سليم خير من الالتزام الشكلي بالطقوس، وفي الله يجد الشخص «صراط الحياة». ولا يجب أن نقلل من اهمية ما تدين به الحكمة الانجيلية للثقافة المصرية. فرغم اهتمامها عادة بالضرورات الاجتماعية أكثر من اهتمامها بالتعاطف والبر، فإنها تبدي قدراً كبيراً من المراعاة للآخرين. وقد خلف لنا الملوك والكتبة دروساً طيبة في الأخلاق الاجتماعية: لا بد من الاهتمام الجدي بمصالح الملك وشعبه، عدم محاباة القوي على حساب الضعيف، ألا يدع المرء نفسه طوع خراب الذمة، عدم غش المكاييل والموازين. كما طورت مصر فكرة الكرامة الانسانية «لا تكن عنيفاً مع الآخرين(. . . . .) فقد ولدوا من عيني رَع، وهم ذريته»؛ وفي القصص المشهورة الواردة في بردية وستكار: يرفض ساحر إجراء تجربة خطرة على سجين قائلاً: «حرام أن نعامل شعب الله هذه المعاملة».

وتتطابق صورة النظام المثالي التي تقدمها الأيديولوجية الرسمية – فيما لو وضعنا في الحسبان كل شيء – مع الصورة التي كانت عليها البلاد حين أمنت ملكية قوية وحكومة نزيهة، بعد إعادة توحيد الأرضين، والرخاء والسلام العام. وقد أثار القلق في العصر الوسيط الأول اندلاع الحروب الأهلية وتسلل المتبربرين وحدوث تغيرات مفاجئة في الأوضاع. «إن التغيرات تجرى، والأمور لم تعد كما كانت عليه في السنة الماضية». يجب العثور على «كلمات جديدة» – هذا ما قاله الكاتب «خع خيبر رع – سنب» المسمى عنخو في «رسائله»، كي يفهم المرء الأحداث التي لم يسبق لها مثيل. وهكذا ظهر أدب متشائم انبثقت منه بوجه خاص نبوءة نفرتي التي اثارت الأزمة التي انهت حكم الأسرة الحادية عشرة او نصائح وتحذيرات لقائد جوقة المرتلين «ابو – ور» قبيل عهد الهكسوس[٢٧]. وتصميم «نبوءة نفرتي» ثم «نبوءة صانع الفخار» ومختلف القصص المتصلة بطرد المدنسين، تصم بالعار دمار «معات» لكي يؤكد فقط في الأذهان معنى النصر النهائي للملك المنقذ وللنظام. وعلى العكس من ذلك نجد ان «مناجاة

(٢٧) راجع: J. Van Seters, 1964, pp. 13-23

الرجل اليائس لروحه» تشكّك في جدوى الشعائر الجنائزية، على حين ان «اغاني عازف القيثارة» هي بمثابة دعوة الى «الاستمتاع باليوم الحاضر». واحياناً ما تتسلل خواطر عابرة عن مذهب اللذة الى المؤلفات التقليدية - ولو قيض لكتب الأدب العلماني أن تصل الينا لكشفت لنا عن وفرة من الأفكار أكثر تنوعاً مما تزودنا به النقوش الملكية والكهنوتية على الحجر. وتكشف لنا بعض القصص وأغاني الحب والتفاصيل الهزلية التي تملأ بالحياة والبهجة المناظر المنزلية في المقاصير الجنائزية وكذلك الرسوم الفكاهية المرحة التي جرى رسمها على كسر الفخار (الشقف) بجانب الالتزام بالأعراف الفرعونية - عن شعب في جوهره سعيد وماهر وودود ومحب للدعابة وهي نفس الصفات التي لا يزال يتحلى بها حتى اليوم.

القانون

يتبين مما سبق ان الديانة والاخلاق تؤكدان على المحافظة على النظام الصارم الذي يفيد أفراد المجتمع كله، وعلى النشاط المقصور على شخص الملك فيما يتعلق بالحكم والدين. وكان الفن ذاته اكثر اهتماماً بالعمومية منه بالشخص وبالأنماط التقليدية الثابتة منه بالابتكارات الفردية وليدة عفو الخاطر. ولهذا فمن الغريب حقاً ان يظل القانون الفرعوني متسماً بالطابع الفردي. ومن حيث القرارات الملكية والاجراءات والعقوبات القانونية يبدو ان الرجال والنساء على اختلاف طبقاتهم كانوا متساوين أمام القانون. كانت الأسرة تقتصر على الأب والأم واطفالها الصغار، وكانت المرأة تتمتع بمساواتها في الحقوق فيما يتعلق بالتملك والتقاضي لرفع الظلم. وبوجه عام كانت المسؤولية فردية بحتة. ولم يكن للأسرة بمعناها الموسع اي كيان قانوني ولم يكن مركز الرجل من الناحية القانونية يتحدد حسب نسبه. وفي مجال القانون نجد ان مصر الفرعونية كانت تختلف عن افريقيا واعرافها القانونية اختلافاً بيناً ومن الغريب أنها استبقت المجتمعات الأوروبية الحديثة.

المعتقدات والعادات الجنائزية

وقد وجدت الفردية ذاتها فيما يتعلق بالمعتقدات والممارسات المتصلة بالحياة بعد الموت. كان كل شخص - على قدر ثروته - يعد العدة لما بعد وفاته ووفاة زوجته ووفاة اطفاله في حالة موتهم المبكر. وكان على الابن أن يشارك في مراسم جنازة والده وأن يضمن دفنه إذا ما احتاج الأمر. وقد اعتقد المصريون بأن الكائن الانساني (أو الالهي) يشتمل - بالاضافة إلى الجسد الفاني - على عناصر عدة: الكَا والبَا وكيانات أخرى تحتاج الى مزيد من المعرفة - لا يزال من الصعب تحديد طبيعتها ولا تزال العلاقات المتداخلة بينها يكتنفها الغموض. وكان الهدف من الطقوس الجنائزية ضمان بقاء هذه «الأرواح». ومن الملامح المعروفة جيداً عن الديانة المصرية أنها ربطت هذا البقاء بالمحافظة على الجسد ذاته عن طريق التحنيط، وأنها اتخذت ترتيبات محكمة لكي يتمكن الميت من التمتع بحياة اخرى في الآخرة تكون مشابهة على الأقل للحياة في هذه الدنيا من حيث النشاط والسعادة. وكانت المقبرة تضم بنياناً فوقياً يزوره الأقارب الأحياء، وسرداباً يوضع فيه الميت مصحوباً بأدواته السحرية او المنزلية.

وكان الأشخاص الأغنياء يدفعون راتباً منتظماً، منصوصاً عليه في عقد، للكهنة المنشدين في المواكب الذين يتولون المسؤولية، أباً عن جد، عن تقديم قرابين الطعام، وكاحتياط نهائي كانت تستعمل القوة القاهرة للكلمة المنطوقة والمكتوبة وسحر الصور المرسومة والمنقوشة. وفي المعبد الصغير - مصطبة أو سرداب (Hypogeum) - كانت الشعائر الفعالة الخاصة بالدفن وتقديم قرابين ذات صفة أبدية، وكان ثمة مناظر اخرى تصور تصويراً حياً اشغال ومسرات عالم مثالي، وكانت التماثيل الصغيرة توفر عدة بدائل للجسم. . وكانت توجد على ألواح الخشب الثقيلة التي يصنع منها التابوت وعلى أحجار السرداب وعلى «كتاب موتى» مودع مع المومياء، ونسخ من الأدعية التي تتلى وقت الدفن وتعاويذ تمكن الميت من التمتع بكل قواه البدنية والعقلية والهرب من مخاطر العالم الآخر وتحقيق قدره الالهي. وكما هو الحال بالنسبة إلى اللاهوت، كانت المعتقدات المصرية المتعلقة بالحياة بعد الموت تضع مفاهيم بجوار أخرى: البقاء كقرين للشمس، البقاء داخل المقبرة كالصحو اليومي عند الفجر، وخروج البّا إلى الهواء الطلق كالتمتع بأشياء مألوفة، والحياة في فردوس عجيب بصحبة أوزوريس. وعلى أي حال فالشخص الذي يتم دفنه بصورة جيدة يتغير وضعه - فهو صِنو للالهة ولأوزوريس ولكل الملوك الذين كل منهم صنو لأوزوريس.

الفصل الرابع

علاقات مصر بسائر أجزاء أفريقيا

بقلم عبد الحميد زايد
بالاشتراك مع ج. دافيس

من الثابت بوجه عام أن الكشوف الأثرية لم تسفر عن أي دليل قاطع على وجود صلات بين مصر وأفريقيا إلى الجنوب من مروى. ومن الطبيعي ألا يؤدي هذا الى الغاء نظريات تستند الى افتراضات، ولكن من الواجب أن نظل نعتبر هذه مجرد نظريات الى أن يتوفر الدليل الذي يعطيها وزنها المناسب.

ومنذ سنوات قليلة كان ثمة كلام عن اكتشاف أدوات مصرية بعيداً في قلب القارة. فقد تم العثور في زائير على ضفاف نهر لوالبا قرب مجمع كلينكنكو على تمثال صغير لأوزوريس يرجع تاريخه الى القرن السابع قبل الميلاد، كما عثر على تمثال عليه نقش لخرطوشة تحتمس الثالث (١٤٩٠ - ١٤٦٨ ق.م) الى جنوب نهر زمبيزي. على أن دراسة نقدية للظروف التي اكتشفت فيها هذه الأدوات تجعل من المستحيل في الوقت الحاضر التوصل الى كونها تدل على وجود صلات في القرن السابع قبل الميلاد أو في القرن الخامس عشر بين مصر والمناطق التي سبقت الاشارة اليها[١].

وقد توصل آركل (Arkell)، بناء على أدلة غير مقنعة تماماً، إلى أنه كانت توجد صلات بين مصر البيزنطية وغانا الحديثة.

ولكن ليس معنى هذا أن نقطع - على أساس عدم توفر الأدلة - بأنه لم تكن توجد علاقات في العصور القديمة بين مصر وباقي القارة الافريقية. وازاء قلة المعلومات في هذا المجال والنتائج التي يجرى التوصل اليها أحياناً عن طريق أدلة غير كافية يجب علينا أن نشق طريقنا متوخين أكبر قدر من الدقة العلمية وألا نعتمد إلا على الحقائق التي نثق بأنها تستند إلى أساس علمي.

فعلى سبيل المثال قد يرى البعض أن ثمة تأثيراً لبعض جوانب الحضارة المصرية على الحضارات الافريقية الأخرى - بل لو أمكن اثبات هذا الأثر فإنه لا يوفر دليلاً على علاقات قديمة. وتستمد

(١) انظر J. Leclant, 1956, pp. 31-32

إيفا ل. ر. مايروفتز (Eva L. R. Meyerowitz) من كون الـ«أكن» قد اتخذوا من الشمس رمزاً للخلق الذاتي، دليلاً على التأثير المصري(٢). كما انها تؤكد على العلاقات بين الإِلَه «بتاح وودومَنكوما (Odomankoma)» إِلَه الأكن (Akan) وكلاهما خنثى وكلاهما قام بخلق العالم بيديه بعد أن خلق نفسه».
ورغم ان هذا من قبيل تداعي الأفكار المثير للاهتمام(٣)، فإنه لا يدل بصورة قاطعة على وجود صلات بين مصر القديمة وبين «أكن» القديمة او منطقة خليج بنين.

وبنفس الطريقة ذهب البعض الى احتمال اقتباس عبادة الصَّلّ، التي جرت دراستها في كل الحضارات الافريقية على أيدي باحثين لامعين، عن أصل مصري منذ القدم. بيد أن وجهة النظر هذه تتجاهل أن الحضارات القديمة كانت تجاري بيئتها الى حد كبير وأنها كانت قادرة تماماً على استقاء عقائدها من ملاحظاتها الخاصة. وهناك فروض اخرى منها - على سبيل المثال - أن ج. لكلان(٤) (J. Leclant) يشير الى الرأي الذي يطرح أحياناً ومفاده أن عبادة الصَّل قد انتقلت من الهند الى مروى وربما الى أجزاء أخرى من أفريقيا. ونكتفي بهذا القدر فيما يتعلق بأهمية اتباع منهج يتوخى الحذر.

وقبل ان ننتقل إلى الأدلة، سواء أكانت أكيدة او فرضية أو غير محتملة، على وجود صلات بين مصر وبقية أنحاء القارة في العصور القديمة، يجب أن نلحظ أنه مهما كان الرأي الذي نتبناه في النهاية فيما يتعلق بسكان مصر القديمة(٥) فإن من الواضح وجود تباين كبير في التقويم الزمني والمهارة الفنية بين مصر وبين حضارات البلاد المتاخمة(٦).

فرغم ان مصر تشكل من وجهة النظر الفنية، جزءاً من إفريقيا، فإنها انفصلت عن بيئتها الغربية والجنوبية. ومن الواضح أن ثقة مصر في جيرانها في الشمال قد قلت حين اصبحوا يشكلون خطراً عليها. وكانت مصر الفرعونية من الوجهة الحضارية تشعر بأنها تختلف عن جيرانها. ومن المؤكد أنها سبقتهم وإن يكن من الصعب التوصل الى اسباب ذلك. ومنذ ذلك الوقت نجد أن الاختلافات العميقة في أسلوب حياة المصريين قد فصلتهم بالتدريج عن جيرانهم برغم استمرار التبادل التقني. وفوق كل ذلك، فلو أخذنا بعين الاعتبار التشابه العرقي بين المصريين وجيرانهم الجنوبيين فمن الأهمية بمكان ان نبحث عن أسباب ذلك - اذا وفقنا في العثور عليها، لأن من شأن هذا ان يلقي أضواء على مدى استعمال الكتابة كوسيلة للترابط الاجتماعي والثقافي في وادي النيل. ويجب أن يتركز البحث حول هذه المشكلة. فهل يرتبط اتخاذ الكتابة واستعمالها بالظواهر البيولوجية والطبيعية، وهي صدفة ضرورية ترتبط بمزاج شعب ما، أو انها نتاج حتمي لحضارة ما في مرحلة معينة من مراحل اندماجها السياسي والاجتماعي؟

. ولقد اكدت ندوة القاهرة (١٩٧٤) على استقرار مصر من الناحيتين العرقية والثقافية خلال ٣٠٠٠ سنة من الحكم الفرعوني.

---

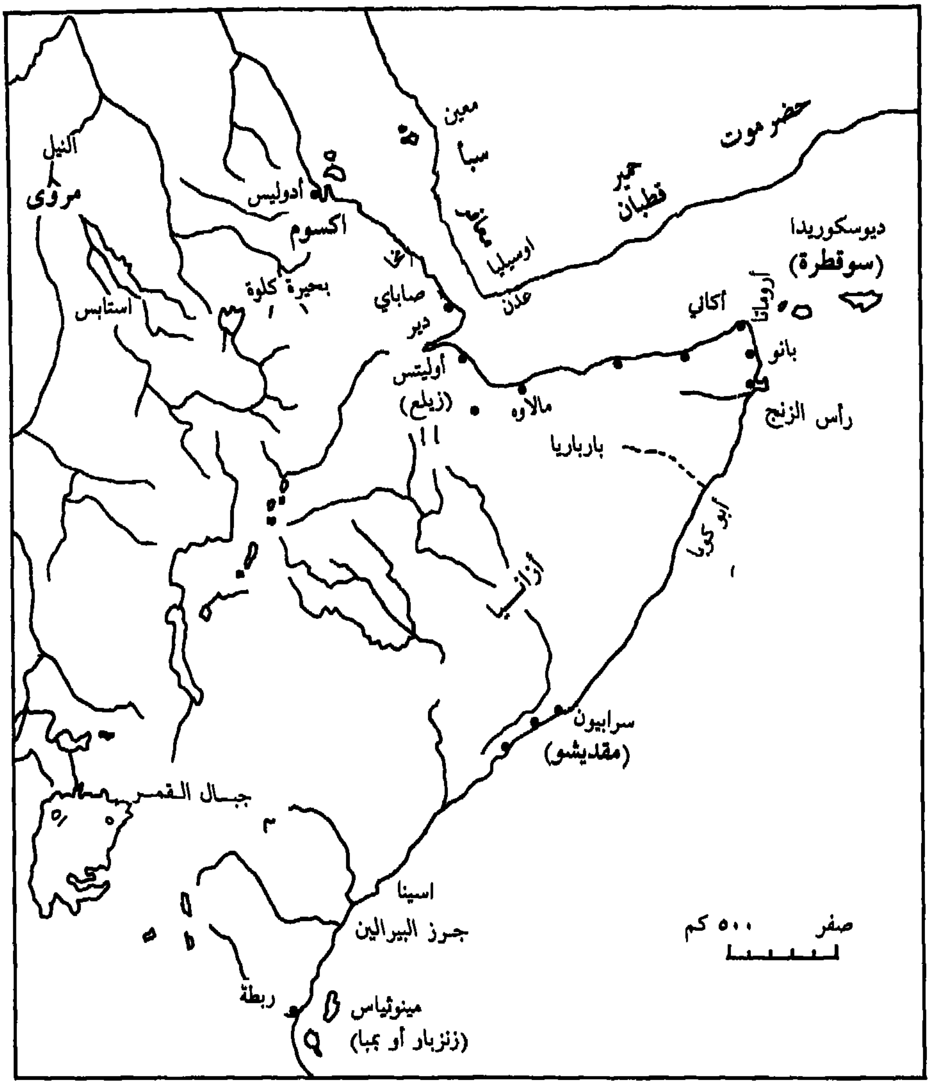
(٢) E.L.R. Meyer Owitz, pp. 31-32

(٣) لا بد أن نلحظ هنا أن مشكلة الخلق الذاتي لا تقتصر على بتاح (نصف اله ولكنه راعي كل الحرفيين) بل انها تنسحب أيضاً على رَع وآلهة اخرى. ومن الواضح انه كانت توجد اسطورة أساسية عامة في مصر لدى جماعات محلية مختلفة وربما في فترات مختلفة.

(٤) انظر: J. Leclant 1956 b, ch. 10

(٥) أنظر الفصل الأول وملخص ندوة القاهرة.

(٦) يشير هيجو (H.J. Hugot, 1976, p. 76) الى أنه في الوقت الذي توحدت فيه مصر، حوالي ٣٢٠٠ق.م، كان العصر الحجري الحديث في الصحراء في اوجه. وهو يرفض بصورة قاطعة الرأي الذي يذهب أحياناً الى ان من الممكن ان يكون رجل العصر الحجري الحديث في مصر من أصل صحراوي (ص ٧٣).



قرن افريقيا والمناطق المجاورة في العصور القديمة

فلقد كان وادي النيل الأدنى بمثابة الاسفنجة التي امتصت، طيلة ثلاثين قرناً، الأفواج المتسللة والمهاجرة من مختلف المناطق المجاورة باستثناء بعض الفترات الحرجة التي شهدت الضغط الشديد من جانب الشعوب الأجنبية. فإلى الغرب وإلى الجنوب كذلك، كانت الشعوب ذات العلاقة بعضها بالبعض الآخر بدرجات متفاوتة، إما ملزمة بالبقاء في مواطنها بفضل الحصون القائمة عند الحدود المصرية، أو تعتبر تحت تصرف الوادي، اذا ما احتاج الأمر الى توفر الطعام أو الرجال اللازمين للدفاع عنه. وباستثناء هذا الشعور بتميُّز المصريين الذي قد يكون من خواص طبقات المجتمع العليا وحدها، وهو الشعور الذي تطور بالتدريج، يصعب علينا معرفة موقف المصريين ازاء جيرانهم المباشرين الذين كان من الطبيعي ان يعتبروا – شأنهم شأن الشعوب الأخرى التي اتصل بها المصريون – ملزمين بتزويد الحضارة الفرعونية بالرجال والخيرات. وكانت الجزية منذ البداية من دلائل خضوع جيران مصر، وكان عدم دفعها مؤذناً بحملات تأديبية. على أن سلوك الجيران لم يكن استسلامياً وسلبياً في كل الأوقات – إذ لم يكن باستطاعة مصر باستمرار أن تفرض عليهم أوامرها. وكانت علاقاتها بافريقيا تختلف باختلاف الظروف.

الجيران الغربيون: الصحراويون والليبيون(٧)

من المتفق عليه ان التبادلات البشرية الكثيرة مع الصحراء قد ضعفت في عصر ما قبل الأسرات. وعن هذه التبادلات لا يعرف إلا القليل النادر، ويقال أحياناً إنها لم توجد(٨). ومن المؤكد ان مصر في عصر الأسرات كانت تتمتع بنفوذ في منطقة الصحراء، وإن تكن معلوماتنا بهذا الصدد قليلة ونادرة كذلك(٩).

وطبقاً لآخر الأبحاث نجد أن المصريين في الواقع يعنون بالصحراويين – خلال عهد الأسرات على الأغلب – الليبيين الذين تمركزوا بالتدريج في شمالي اكبر وأقحل صحراوات العالم. وقد اختلف الحال في العصر الحجري الحديث حين أدى الانتشار السريع للصحراء وهو الانتشار الذي ازداد في عهد الأسرات، إلى إرغام الليبيين، وهم رعاة اغنام وصيادون، على العودة إلى المناطق المحيطة بموطنهم الأصلي او دفعهم وهم يتضورون جوعاً، إلى طرق أبواب جنة وادي النيل التي كان من الواجب حمايتها منهم. وقد استمر ضغطهم دون هوادة، وان لم ينجح إلا نادراً، ربما باستثناء ما حدث في القسم الغربي من الدلتا حيث لا شك أن سكان الصحراء كانوا متجانسين وأنهم سكنوا هذه المنطقة منذ القدم. وفي الواحات الكبرى التي تطوق صحراءهم – الخارجة – الداخلة – الفرافرة – سيوه – كان النبلاء

(٧) من واجبي في هذا المقام أن أشكر البروفسور ت. جوستنسكي T. Gostynsky الذي ألف بحثاً عن ليبيا القديمة وقدمه إلى اليونسكو لتيسير كتابة بحثنا هذا. وقد استعنت به كثيراً.

(٨) في عدة فقرات من التقرير الختامي لندوة القاهرة (١٩٧٤). وتستند إحدى الدراسات الجارية التي تبشر بنتائج طيبة جداً إلى النقوش والرسوم الموجودة على الصخور «من الاطلنطي حتى البحر الأحمر». ورغم أنه من الواضح أن الدراسة تتعلق بفترة ما قبل التاريخ بوجه خاص، فإنها تحتوي على وفرة من المعلومات الدقيقة.

(٩) انظر: H. J. Hugot, 1976, p. 73. ولكن لاحظ التحذير (ص ٨٢) من التوصل الى نتائج متسرعة من جانب أولئك – مثلاً – الذين يتلمسون في بعض موضوعات الرسوم المنقوشة على صخور الصحراء (كبش له أقراص شمس، سحرة يلبسون أقنعة ذات شكل حيواني – الخ) أدلة على تأثير الأسرة الثامنة عشرة. وهو يصرح بما يلي «معنى هذا أن العمل قد سار بطريقة متسرعة جداً، وأنه يتجاهل بسهولة طريقة تطبيق الدليل العلمي اللازم لصحة الافتراض».

المصريون يمارسون القنص، أي أنهم كانوا يضطلعون بواجب كان في الأصل من واجبات الملك. وكان معنى محاربة وتحطيم سكان الصحراء (حتى الأرنب البري غير الضار) هو المحافظة على نظام الكون، حيث أن الصحراء كانت من اختصاص «ست» وتتعلق بالفوضى الأصلية التي كانت تنذر باستمرار بالعودة الى الأرض وتدمير النظام (معات) الذي أوجدته الآلهة والذي كان من مسؤولية الفرعون. ومن ثم لم يكن الصيد مجرد رياضة سارة تقضي فيها الطبقات الممتازة وقت فراغها، بل إنه كان ذا مغزى ديني عميق.

وكان من المحتم عبور هذه الواحات للاتجاه جنوباً صوب تشاد او شمالاً صوب فزّان والنيجر. على أننا لم نعثر على دليل على استعمال هذه الطرق بصورة منتظمة في عهد الأسرات.

ومن المؤكد وجوب القيام بدراسات على هذه الطرق بغض النظر عن اهميتها ذاتها. فبإمكان الآثار والطبونيميا (Toponymia) أن يسهلا علينا معرفة ما إذا كان المصريون، أو لم يكونوا، قد استعملوا طرق النقل الافريقية الكبرى هذه لكي يتجهوا الى تبستي ودارفور وبحر الغزال وتشاد أو إلى فزان وغدامس.

وعلى كل حال فقد وفر الليبيون لمصر احتياطياً بشرياً منذ الأسرة التاسعة عشرة فصاعداً. وكان للأسرى الليبيين، الذين يمكن التعرف عليهم من الريشة التي كانوا يرتدونها كغطاء للرأس، سمعة طيبة باعتبارهم جنوداً، وبوجه خاص باعتبارهم سائقي مركبات حربية. وأحياناً ما كانوا يوسمون بقطعة متوهجة من الحديد، وكانوا لا يستخدمون باعتبارهم عمّالاً في العمليات الجماعية الكبرى أو في الأعمال المنزلية(١٠)، وكانوا ينخرطون في الجيش حيث ازدادت نسبتهم بمرور الزمن وحيث التقوا بالمهاجرين الآخرين من النوبيين. وباعتبارهم مربين للمواشي، كانوا يوفرون الدواب لكي يستهلكها المصريون(١١)، إما باعتبارها جزية أو كانت تؤخذ منهم باعتبارها غنائم خلال الغارات. وهكذا نجدهم يلعبون دوراً اقتصادياً من الممكن مقارنته بالدور الذي كان يلعبه النوبيون.

ولا شك أن مؤرخي التاريخ المصريين قد قسوا في حكمهم إلى حد كبير على التحرشات الليبية حين كانت تحدث(١٢). وفي القرنين الثالث عشر والثاني عشر قبل الميلاد أرغم الليبيون بالضرورة، على غرار ما حدث في عهد الدولة القديمة، على محاولة التسرب إلى داخل مصر. فقد بنى كل من سيتي الأول ورمسيس الثاني شبكة من الحصون لاعتراض طريقهم وأسرَا أكثر الغزاة جسارة. وبعد أن قام الليبيون بمحاولتين فاشلتين للرجوع الى الجزء الغربي من الدلتا الذي سبق لهم أن طردوا منه، حصلوا من رمسيس الثالث في القرن الثاني عشر قبل الميلاد على إذن بالاستقرار هناك، وفي مقابل ذلك لعبوا دوراً أكبر في الدفاع عن مصر. وقد حكم الليبيون مصر في عهد الأسرتين الثانية والعشرين والثالثة والعشرين، وذلك في القرن العاشر قبل الميلاد ولمدة قرنين بعد ذلك. وقد أثار هذا الوضع الجديد ردود فعل قوية في مصر العليا حيث بذلت محاولات لطردهم بمساندة مملكة نباتا. وكان هذا التنافس بين المتحاربين والساسة البيض والسود بداية لوضع قُيِّض له أن يسود حياة مصر لفترة طويلة، وكان رد الفعل المباشر هو قيام الأسرة الحاكمة الاثيوبية التي أسسها بيسي (بعنخي).

(١٠) تباهى سنسي نرو بأنه قد أسر ١١٠٠٠ ليبي و١٣٠٠٠ رأس من الماشية.
(١١) تشير النقوش إلى استيراد بضعة عشر ألفاً من الماشية ذات القرون والغنم والماعز والحمير.
(١٢) استطاع المصريون خلال الفترة الممتدة من ٣٠٠٠ إلى ١٨٠٠ق.م - وفقاً لما ذكره مدونو أخبارهم - أن يصدوا الغزوات الليبية. وكانت كل الحملات التي جرت الاشارة اليها خلال هذه الفترة الطويلة توجه من مصر الى ليبيا. وبمجرد حدوث هذه الحملات يكشف عن مشكلة في العلاقات المصرية - الليبية. ولا تذكر المصادر المصرية من ١٨٠٠ إلى ١٣٠٠ ق.م شيئاً عن هذا الموضوع.

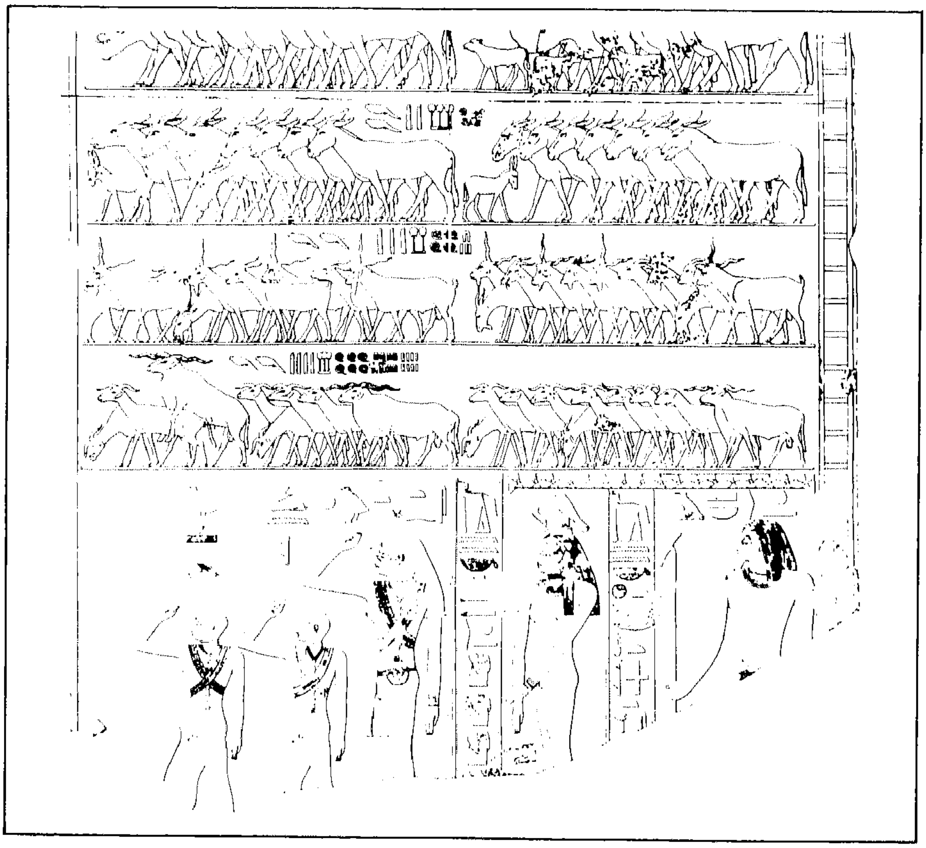
وحين نبحث عن العلاقات بين مصر والشعوب الأخرى، سواء أكانت افريقية أو غير إفريقية، لا ينبغي ان ننسى أبداً الدور الذي لعبته الدلتا، وهو دور لا يكاد يعرف عنه شيء. ولا تزال التنقيبات الأثرية التي جرت في هذه المنطقة من مصر غير كافية، بحيث أن كل ما نستطيع عمله هو طرحُ قليلٍ من الافتراضات.

وفي عصر الأسرات كانت تغير على الدلتا أحياناً كثيرة حشود من هجرات الشعوب المجاورة سواء من الغرب أو من الشمال والشمال الشرقي(١٣). وكان هذا يؤثر باستمرار في حياة مصر بصورة او باخرى. ويكفي ان نذكر علاقات مصر ببيبلوس (ذات الأهمية الحيوية بالنسبة إلى استيراد الأخشاب) وفترة الهكسوس وخروج العبرانيين وهجمات الليبيين وشعوب البحر، لكي نتبين أن الدلتا كانت باستمرار مثاراً للمتاعب طيلة التاريخ الفرعوني. وكان على مصر في الأوقات التي تسعى فيها الى تنمية التجارة الخارجية مع افريقيا وآسيا والبحر المتوسط بوجه خاص أن تحكم قبضتها على الدلتا. ومنذ بداية العصر الفرعوني كانت التزامات السياسة المصرية فيما يتعلق بالمسائل التجارية والعسكرية صوب الشمال والشمال الشرقي، تسير في اتجاه معاكس، بعض الشيء، للرغبة في اقامة علاقات مع داخل القارة الافريقية والتغلغل فيه. وحين نتناول تاريخ مصر عبر العصور يجب أن نضع نصب أعيننا هذا التناقض الهام. فمصر، باعتبارها دولة بحر متوسط، كان عليها أن تسيطر على مجال نافع ومفتوح على البحر المتوسط وعلى شمال البحر الأحمر. وكان بناء طرق برية جيدة جداً بين شمال البحر الأحمر والنيل شمال الجندل الأول يكفي لضمان حلقة الاتصال التي لا غنى عنها بين حوضيها الاقتصاديين الغربي والشرقي. على أن المصريين، باعتبارهم شعباً افريقياً قد يكونون قد أغروا بالتغلغل بعيداً عن طريق البر على طول النيل على الأقل حتى الجندل الرابع. وقد يكونون حينئذ قد واجهوا صعوبات من النوع الذي تتناوله فصول اخرى من هذا المجلد. وربما تكون قد اجتذبتهم تشاد واخترقوا الوديان القديمة المفضية إلى الضفة اليسرى للنيل، كما أن من المحتمل أن اثيوبيا قد اجتذبتهم بثروتها العاجية. وإلى الجنوب ربما كانت توجد عقبة كبرى هي مناطق المستنقعات الواسعة التي كان لا بد للمصريين أن يجدوا صعوبة في الوصول إليها وعبورها والتي حفظت سر وديان النيل العليا خلال كل العصور القديمة. ورغم امكاننا تتبع تاريخ علاقات مصر الشمالية وتاريخ الطرق الموصلة بين البحر الأحمر والنيل بسهولة نسبية، فإن المادة الأثرية الخاصة بعلاقات المصريين البرية مع الجنوب البعيد ناقصة بصورة تدعو إلى الأسف.

وهكذا نجد لزاماً علينا في الوقت الحاضر أن نلجأ الى فروض محتملة بشكل ما، ونستند الى النصوص واللغويات والاثنولوجيا، أو علينا مجرد أن نحكم على الأشياء بصورة صائبة وحصيفة.

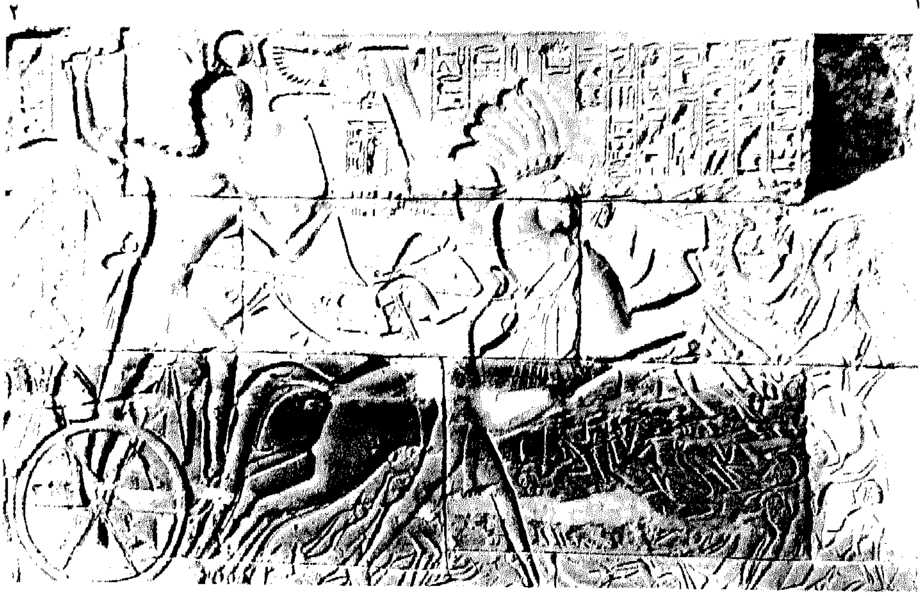
---

(١٣) طبقاً لما أكدت عليه ندوة القاهرة بقوة، لا يزال تاريخ الدلتا القديم بحاجة إلى استكشاف. وفي الواقع أن ما هو معروف عن مصر الشمالية في عصور ما قبل التاريخ وفي العصور التاريخية الأولى لا يبتعد بنا كثيراً عن . . . قاهرة اليوم. كما أن الدولة القديمة لم تتوفر لها معلومات أحسن مما لدينا. ومن المؤكد أن يكون القطاع الساحلي قد ظل فترة طويلة جداً، وعلى مدى شاسع، خارج نطاق مصر. وفي الواقع إن مصر السفلى كانت خلال الألف الرابع قبل الميلاد، حين تشكلت الدولة المصرية، تمتد من هليوبوليس إلى الفيوم (بما في ذلك المدينتان)، كما كانت مصر العليا تمتد من جنوب الفيوم الى الكاب. ولهذا فإن الدلتا لم تكد تستخدم على حين كانت مصر العليا التي قيل إنها اكثر «افريقية» تنتهي بظهور الحجر الرملي، الذي يوصف بحق بأنه نوبي معلناً الدخول في عالم آخر سواء من الناحية العرقية أو السياسية وهو عالم تاستي (Ta-Sti) «عالم القوس».



١

٢



١ : فدية عن أسرى ليبيين في عهد الدولة القديمة
٢ : الملك سيتي الأول يصرع قائداً ليبياً

ولكن علماء المصرولوجيا ظلوا فترة طويلة يعتبرون تاريخ مصر تابعاً للبحر المتوسط، وأنه أبيض، بحيث يستلزم الأمر الآن ان تتغير أساليب البحث التقنية، وبخاصة أسلوب تفكير الباحثين حتى يتسنى لنا أن نضع أرض الفراعنة من جديد في إطارها الافريقي.

الجيران الجنوبيون:

المصريون، أحواض النيل العليا، علاقاتهم بافريقيا

تؤكد الحفريات الأثرية التي جرت منذ وقت قريب والتي لم تنشر نتائجها بعد، اوجه التشابه بين منطقة الخرطوم وبين وادي النيل الأسفل خلال العصر الحجري الحديث، وهي أوجه تشابه لا يزال إيضاحها من الصعوبة بمكان.

على أن هذا التشابه الواضح كان قد ولى حين تولت الدولة القديمة الحكم. ففي عهد الأسرة الأولى كانت القلاع تقوم بالفعل بحماية جنوبي مصر من جيرانها الجنوبيين. وخلال التاريخ المشترك الطويل بين الأراضي الواقعة شمال الشلال الأول وتلك الواقعة إلى الجنوب من الشلال الرابع، أدت الخلافات السياسية والثقافية والمصالح المتعارضة إلى الامعان في فصل كل منهما عن الأخرى. ورغم ذلك فإن العلاقات المعقدة والمتنوعة لم تنقطع على الاطلاق بصورة تامة بين المصريين وبين جيرانهم الجنوبيين الذين اطلقوا هم عليهم اسم النحسي (Nehesi).

وعلى كل حال فقد كانت النوبة السفلى تسترعي اهتمام المصريين بسبب الذهب الذي كانت تنتجه، كما اجتذبتهم المناطق النيلية الجنوبية بسبب الطرق المؤدية إلى داخل افريقيا عن طريق النيل الأبيض ووديان الصحراء أو دارخور. وطيلة تاريخ مصر كان الوصول الى الجنوب مسألة على جانب كبير من الأهمية. ومن المحتمل أن هذا يوضح كذلك الأهمية التي علقت على السيطرة على الواحات الغربية التي كانت هي الأخرى توفر طريقاً آخر محاذياً للنيل.

ومنذ اوائل الدولة الحديثة كان المصريون يعتبرون السودان، شأنه شأن ليبيا، مصدراً للأيدي العاملة(١٤)، والماشية والمعادن(١٥). وكان النوبيون، الذين اشتهروا بالمهارة في رمي السهام، يحتلون مكانة في الجيش المصري، وكان يتم استجلابهم كذلك باعتبارهم عمالاً زراعيين، (في عهد الدولة الوسطى، على سبيل المثال، في الفيوم حيث تعرف القرى باسم قري النوبيين)، وإن كانوا قد اندمجوا في الحياة الاجتماعية والثقافية المصرية بسرعة نسبية. ويحتمل جداً أن تغيرات حدثت في النوبة في اواخر عهد الأسرة الأولى وأنها عكرت العلاقات مع مصر. وظهور المجموعة (ج) البطيء، التي لم تستكمل مقومات وجودها حتى الأسرة الخامسة، يخلف لنا فراغاً مقداره خمسة قرون في معلوماتنا عن هذه العلاقات.

---

(١٤) ذكر الفرعون سنفرو أنه أحضر: ٧٠٠٠ رجل من الجنوب من بلاد تدعى تا-ستي. ستي = نوع بدائي من الأقواس (A.H. Gardiner, 1950, p. 512) تا - ستي = أرض اولئك الذين يحملون قوس ستي. ومن الملفت للنظر أن كل القبائل السودانية حتى حوض الكونغو تحمل نفس هذا القوس.

(١٥) منذ عام ٢٥٠٠ ق.م أقام المصريون في بوهن جنوب وادي حلفا افراناً لصهر النحاس المحلي.

وفي أواخر عهد الأسرة الخامسة أخذ المصريون ينظمون علاقاتهم بالسودان. وفي خلال نفس الفترة أنشيء منصب سياسي واقتصادي جديد عرف باسم «حاكم الجنوب». وكان شاغل هذا المنصب مسؤولاً عن حراسة بوابة مصر الجنوبية وتنظيم التبادل التجاري وتسهيل انتقال البعثات التجارية. . . وكان هذا المنصب يتطلب مؤهلات معينة منها الالمام بالتجارة وبلغات سكان المنطقة. وكان أوناس، حاكم الجنوب في عهد الأسرة السادسة، يقود مجندين من شتى أجزاء النوبة: نحسي (نوبيون) من أرض «ارتت» و«مجا»، و«يام»، و«واوات»، و«كاوا».

وفي اواخر عهد الدولة القديمة اضطربت العلاقات التجارية بين مصر والسودان ومع هذا فإن أمير إدفو يسجل على جدران مقبرته في «المعلّة» ان الحبوب ارسلت إلى واوات لتلافي حدوث مجاعة – وهذا دليل على استمرار العلاقات بين مصر والنوبة في ذلك الوقت. يضاف الى ذلك أن الجنود النوبيين لعبوا دوراً هاماً في المعارك التي دارت رحاها في مصر الوسطى خلال العصر المتوسط الأول. ولدينا أشكال من الخشب مرسومة بالألوان لفصيلة من رماة السهام النوبيين، قوامها ٤٠ رجلاً، مما يوضح الأهمية التي علقها المصريون على الجندي السوداني.

على أنه من المحتمل أن تطور المجموعة (ج) في ذلك الوقت في النوبة السفلى كان مسؤولاً عن فتور العلاقات بين المصريين والسودانيين، مثله في ذلك مثل القلاقل التي نشبت في العصر المتوسط الأول.

ولا يعرف حتى الآن الشيء الكثير عن شعوب المجموعة (ج). ولمدة طويلة كان يعتقد أنهم تسللوا ببطء إلى داخل وادي النيل، ولكن يعتقد الآن انهم كانوا مجرد ورثة شعوب المجموعة(أ). وأياً كان السبب، فإن العلاقات بين هذه الشعوب وبين المصريين كانت حرجة بصفة مستمرة. وتوجد في متحف الخرطوم أجزاء أوانٍ تم العثور عليها قرب جبل ككَن القريب من خور بركة في أكُردَات (إريتريا)، وهي تشبه أواني المجموعة (ج) التي تم اكتشافها في النوبة السفلى. فهل اضطرت شعوب المجموعة (ج) هذه لسبب غير معلوم (الجفاف – دخول القوات المصرية إلى النوبة) إلى مغادرة النوبة السفلى، ربما في عهد الأسرة الثانية عشرة؟ ويحتمل أن هؤلاء الأقوام رحلت وقتئذ عن ديارها في وادي العلاقي واتجهت الى جبال البحر الأحمر حيث تسكن قبائل البجا في الوقت الحاضر، كما تعيش الآن في تلال النُوبّا جنوب كردفان بعض الأقوام التي تتكلم لغة نوبية. ومن ثم يمكننا استنتاج أن السودان شهد هجرة المجموعة (ج) من الشمال صوب الجنوب والغرب.

وفي الجنوب تأثرت امبراطورية كِرْمَا، التي لم تتأثر كثيراً بصورة مباشرة بالغزوات المصرية، بمصر في المجال الثقافي منذ عام ٢٠٠٠ق.م. ورغم ذلك فقد احتفظت بطابعها الخاص حتى انهيارها حوالى عام ١٥٨٠ ق.م. وبالتدريج اخذ المصريون يخلعون اسم «كوش» على هذه الحضارة التي عرفت منذ عام ٢٠٠٠ق.م، ولكنهم استعملوه للاشارة الى المملكة التي اقيمت جنوب الجندل الثاني بعد عام ١٧٠٠ق.م.

وفي أوائل عهد الدولة الوسطى يبدو أن ملوك مصر، وقد تهددهم بدو آسيا، قد طلبوا المساعدة من سكان السودان. ويحتمل أن منتوحتب الثالث، مؤسس الأسرة الحادية عشرة، كان أسود البشرة. وإذا كان الأمر كذلك، فربما كان هو السبب في طلبه المساعدة من السودان، وربما يثبت هذا استئناف العلاقات بين مصر والسودان، وهي العلاقات التي انقطعت خلال «العصر المتوسط الأول». ومن المحتمل جداً أن بعض المصريين قد عبروا إلى السودان. وتنبئنا اللوحات المنقوشة(١٦) التي تم العثور

(١٦) انظر: J. Vercoutter, 1957, pp. 61-69. وقد وجه النقد في الأوقات الأخيرة لنظام التاريخ الذي اتبعه جـ. فركوتير في هذه المقالة. ويعتقد فركوتير الآن أن هذه اللوحات المنقوشة ترجع بدلاً من ذلك إلى العصر المتوسط الثاني وأنها – تقريبا – معاصرة للهكسوس.

عليها في بُوهِن أن عدة أسرات مصرية قد استقرت في النوبة لمدة طويلة في عهد الدولة الوسطى. وقد اتخذت هذه الأسرات أسماء مصرية وكانت تعبد الآلهة المحلية(١٧). وقد بنى ملوك هذه الفترة أربع عشرة قلعة في النوبة لتأمين حدودهم وبعثاتهم التجارية.

وحين استولى الهكسوس على الأجزاء الشمالية والوسطى من مصر، تعزز استقلال كوش وتدعمت قوتها. وكانت مملكة كوش خطراً محتملاً بالنسبة إلى الفراعنة. ويتبين من نص مصري اكتشف حديثاً بأن كاموزة، آخر فراعنة الأسرة السابعة عشرة، أنبىء خلال الحرب التي دارت لطرد الهكسوس بأسر رسول من ملك الهكسوس الى ملك كوش يطلب منه أن يكون حليفه ضد المصريين. ومنذ عهد الأسرة الثامنة عشرة ازداد الضغط الشديد على السودان من جديد وتوسعت العلاقات بصورة لم يسبق لها مثيل(١٨)، كما ازداد تمصير الجهات الواقعة بين الجندلين الثاني والرابع. وفي عهد تحتمس الثالث تغير شكل المقابر في هذه المنطقة، فبدلاً من شكل الركمة الذي سبق أن اتخذته، بنيت مقابر على النمط المصري، وبدلاً من المقابر الصخرية بنيت أهرام صغيرة شبيهة بتلك التي وجدت في دير المدينة – ومن ثم الشبه بين مدينتي بوهن وعنيبة من جهة وبين المدن المصرية من جهة أخرى. كما وجدت تماثيل المجاوبين والجعارين في مقابر السودان. ونقشت الرسوم والأسماء على مقابر الأمراء بطريقة مصرية صميمة. وتشبه مقبرة حقا – نفر(١٩) أمير عنيبة في عهد توت عنخ آمون المقابر الصخرية في مصر. بل يذهب سمبسون الى أن هذه المقبرة كان يعلوها هرم شبيه بمقابر دير المدينة. وتشبه مقبرة جحوتي – حوتب، أمير دبيرة في عهد الملكة حتشبسوت مقابر طيبة.

ولم يسبق لمصر والنوبة أن كانتا وثيقتي العلاقات بهذا الشكل. وفي عام ١٤٠٠ق.م. بُني معبد صولب، وكان الدور العسكري، وأحياناً الدور الاداري الذي يلعبه السودانيون، أقوى مما كان عليه في أي وقت مضى، ووصل قمته حين سيطرت الأسرة الاثيوبية على مصر. على أن تمصير سكان الوديان العليا لم يؤد الى تحولهم إلى مصريين. وظلت حضارة متميزة لها شخصيتها، رغم اتخاذها صبغة مصرية، حتى في عهد الأسرة الخامسة والعشرين.

وهذه الأسرة اعادت إلى مصر عمقاً افريقياً سجل في التوراة، أولاً حين حمى الله العبرانيين من هجوم الأشوريين فأخبر ملكهم، عن طريق رؤيا رآها، بمؤامرة يحيكها ضده طهرقا ملك كوش (اثيوبيا)(٢٠)، وثانياً حين سعى حزقيا ملك العبرانيين الى اقامة حلف مع الفرعون وشعبه(٢١). وكانت هذه آخر اللحظات العظيمة للوحدة.

وقد تزامن استيلاء الآشوريين على طيبة مع قيام امبراطورية مروى في الجنوب. وأصبح الدفاع عن هذه المنطقة في وجه الهجمات الآتية من الشمال أكثر ضرورة مما كان عليه في الماضي، بحيث اصبحت

---

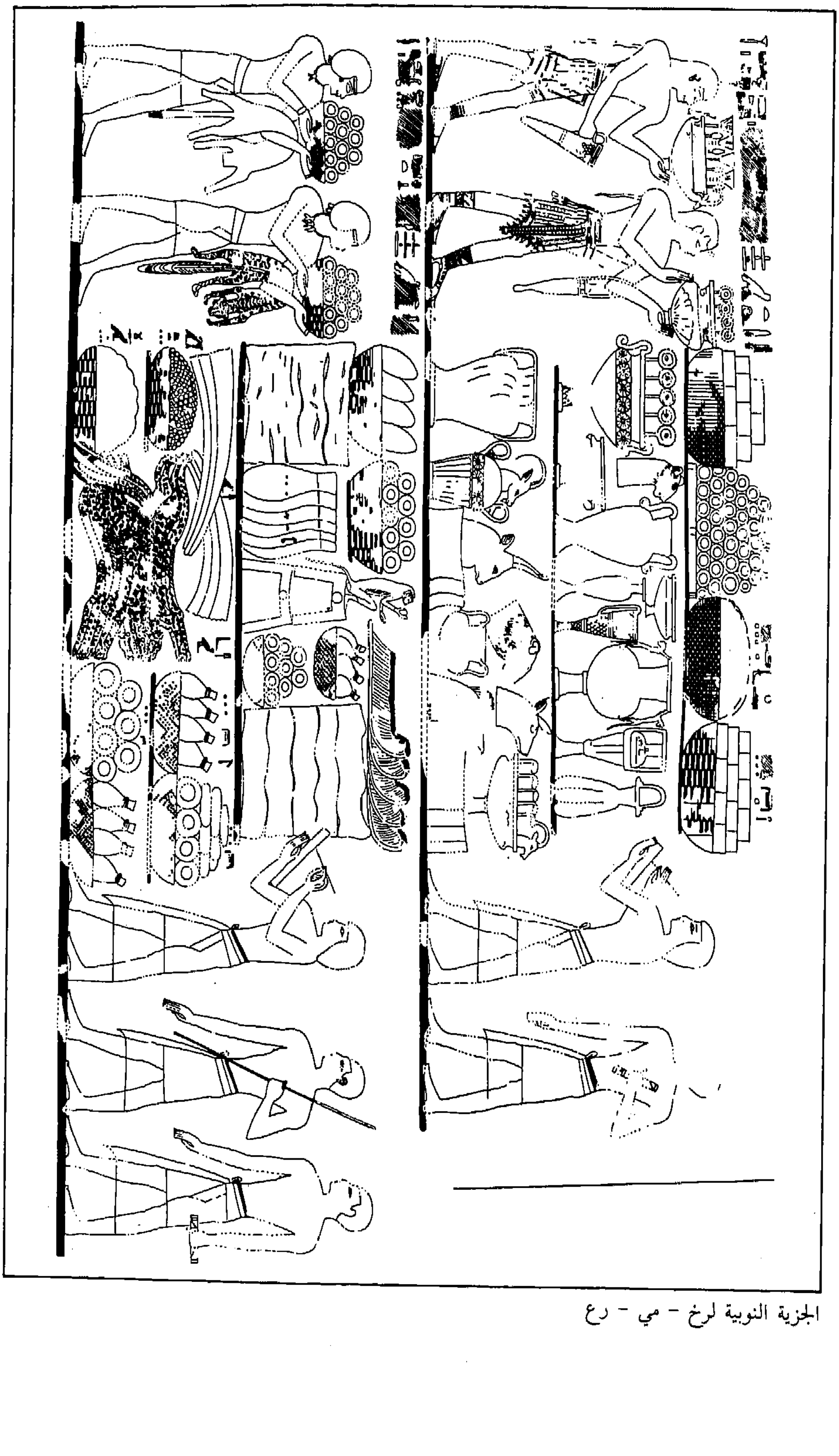
(١٧) انظر: G. Posener, 1958, p. 65. «استعمرت الدولة الفرعونية هذه البلاد (كوش) ولعدة قرون سيطرت عليها الحضارة المصرية وعادات مصر ولغتها ونظمها. ويحمل كل مجرى تاريخ النوبة طابع جارتها الشمالية».

(١٨) لأسباب غير واضحة حتى الوقت الحاضر طرأ تغيير كبير في هذه الفترة على الصور والتماثيل المصرية للأفارقة السود. وقد طرحت آراء مختلفة، منها رأي يذهب إلى أن الاتصالات مع باقي القارة قد اتسعت في ذلك الوقت.

(١٩) W.K. Simpson, 1963

(٢٠) سفر الملوك الثاني، الاصحاح: ١٩-٩، وسفر اشعيا: ٣٧ – ٩.

(٢١) انظر: W. Reichhold قدم المؤلف ترجمة مثيرة للالتفات من الاصحاح الثامن عشر من سفر إشعيا فيما يتعلق بإرسال مبعوث الى الفرعون الأسود: «اذهبوا ايها الرسل السريعون الى الشعب الطويل البرونزي، الى شعب يخشى بأسه باستمرار، الى أمة قوية ومنتصرة تقسم الأنهار أرضها».



الجزية النوبية لرخ - مي - رع

الجيوش المصرية منذ ذلك الوقت تشتمل على عدد كبير من المجندين العبرانيين والفينيقيين والمرتزقة الأغريق. ونظراً لعدم توفر الأبحاث اللازمة، لا يعرف الكثير عن العلاقات، الصعبة دون شك، التي قامت بين امبراطورية «مروى» الجديدة ومصر.

بُنت

وكما هو الحال بالنسبة الى المشاكل الأخرى الخاصة بالتاريخ الافريقي، فقد ظهرت مؤلفات كثيرة، والتي لم تكن دائماً من نوع ممتاز، لتحديد موقع بلاد بُنت الأسطورية التي أقام المصريون علاقات معها، على الأقل في عهد الدولة الحديثة، وهي العلاقات التي تكشف عنها صور الدير البحري. وقد جرت محاولات لاثبات أن هذه البلاد كانت توجد في مراكش وموريتانيا ومنطقة الزمبيزي وغير ذلك[٢٢]. أما الآن فقد تم التوصل الى ما يشبه الاتفاق على تحديد موقع بُنت في القرن الأفريقي، رغم عدم الاتفاق على حدودها الفعلية[٢٣]. وهناك نظرية جذابة تذهب الى أنها كانت تقع في ذلك القسم من الشاطىء الافريقي الذي يمتد من نهر بوتياله في شمالي الصومال الى رأس غردفوي وهي منطقة جبلية بها زراعات على مدرجات تشبه تلك التي جرى تصويرها في الدير البحري. وعلى هذه المدرجات تنمو أشجار كثيرة منها البلسم الذي يستقى منه البخور. في المنطقة المسماة كولين (Goluin) يوجد مرسى يحتمل ان سفن الملكة حتشبسوت رست فيه، وكان هناك نهر اليفاس (Elphas) القديم الذي كان يتدفق صوب المحيط. هذا المكان والاشارة الى أن سفن الملكة حتشبسوت اتجهت الى بلاد بُنت يرجح استعمال المصريين للطريق البحري للوصول إلى هذه البلاد الأجنبية.

وفي الماضي القريب حاول ر. هرتزوج (١٩٦٨) أن يوضح أن الأمر لم يكن كذلك وأن علاقات المصريين ببُنت كانت تتم عن طريق البر. وقد أثارت هذه النظرية ردود فعل قوية[٢٤].

وقد أدت الأبحاث التي تمت منذ وقت قريب جداً[٢٥] الى اكتشاف آثار لعلاقات مصر ببُنت على ساحل البحر الأحمر إلى الشمال من القصير عند مدخل وادي جاسوس. وقد ترجم المكتشف أحد النقوش التي وجدت على الوجه التالي: «ملك مصر العليا ومصر السفلى، خبر كَارَع[٢٦] محبوب الاله خنتي – ختي ابن رَع، سزوستريس محبوب حتحور سيدة بونت» (بُنت). ويحتوي نقش آخر على الفقرة الآتية: «... منجم بُنت لكي نصل اليه بسلام ونعود بسلام».

وتؤكد هذه النقوش، وتؤيدها نقوش اخرى، أن البعثات إلى بلاد بُنت كانت تتجه اليها بحراً. ولسوء الحظ فإن هذه النقوش لا توفر مؤشرات إلى الموقع الجغرافي للبلاد ذاتها، وذلك نظراً للموقع الذي وجدت فيه.

---

(٢٢) R. Herzog, 1968, pp. 42-46. يعرض قائمة كاملة للنظريات الخاصة بهذا الموضوع.
(٢٣) نفس المصدر السابق.
(٢٤) انظر على سبيل المثال: K.A. Kitchen, 1971. على أن الكشوف الأثرية التي تمت حديثاً في بلاد تقع بين بُنت ومصر لا تبرر رفض نظرية ر. هرتزوج دون دراسة شاملة.
(٢٥) عبد الحليم سيد (عبد المنعم) الاسكندرية، ١٩٧٦.
(٢٦) هذه اشارة الى سزوستريس الأول (حوالى ١٩٧٠ – ١٩٣٠ق.م). وتشير النصوص المصرية إلى البعثات التي ارسلت الى بلاد بُنت قبل هذا التاريخ بكثير، في عهد الدولة القديمة.

وهكذا يبدو أن ثمة اجماعاً بالفعل على أن السفن المصرية رحلت إلى بلاد بُنت لجلب البخور الثمين وكثير من المنتجات الأخرى التي كانت تتوافر في جنوبي شبه الجزيرة العربية، وقد جرت محاولة لتتبع الطريق الذي سارت فيه هذه السفن(٢٧).

ويذهب البعض إلى أن كثيراً من الفراعنة حاولوا الوصول الى مناطق أبعد. وتصف بردية هاريس بعثة إلى بلاد بنت جرى ارسالها في عهد رمسيس الثالث على الوجه الآتي: «عبر الأسطول. . . بحر مقاد». وقد وصلت سفن هذه البعثة إلى الجنوب من رأس غردفوي وربما الى رأس حفون على المحيط الهندي. غير أن هذا الطريق كان خطراً بعض الشيء وذلك بسبب العواصف التي تشتد في هذه المنطقة. ولهذا فمن المحتمل أن نتوصل الى ان رأس غردفوي كان أقصى نقطة الى الجنوب تصل اليها السفن المتجهة الى بُنت، وأن الحدود الجنوبية لهذه الأخيرة كانت بالقرب من هذا الرأس. أما عن حدودها الشمالية فيمكن القول بأنها اختلفت من قرن الى آخر.

ووفقاً لما يذهب إليه مونتيه (Montet) هناك طريقة اخرى لبحث المشكلة. فهو يكتب ما يلي(٢٨): «. . . من المؤكد أن بلاد بُنت كانت تقع على الأراضي الافريقية - اذ أن لوحة من العصر الصاوي تقول إن منطقة النيل كانت تتأثر إذا ما تساقط المطر على جبال بُنت. كما امتدت المنطقة إلى آسيا، لأن بُنت آسيا كانت اصطلاحاً جغرافياً. ويمكن العثور على المثال الوحيد لها (وحتى الآن لم ينشر) في صولب. وعلى ضوء هذين المؤشرين يمكننا أن نذهب الى أن أرض الإله هي ذاتها جانبا مضيق باب المندب. وهناك دليل آخر نستدل عليه من أن الشجرة التي تنتج البخور كانت توجد في كل من بلاد العرب السعيدة (اليمن) وافريقيا(٢٩).

وبإمكاننا تتبع مراحل متتالية في العلاقات بين مصر وبُنت، كانت اولاها سابقة على عهد الملكة حتشبسوت. في ذلك الوقت كانت معلومات المصريين عن بُنت قليلة جداً.

فهم قد حصلوا على البخور من وسطاء روجوا اساطير عن هذه البلاد حتى يرفعوا أثمان البخور. وكان المصريون القلائل الذين عرف أنهم أكملوا الرحلة إلى بُنت رجالاً يتميزون بالجسارة. ويقول رجل من أسوان في عهد الدولة القديمة ما يلي: «ذهبت مع سيدي النبيل والخازن، وسيدي النبيل خازن الاله خوى والاله تيي، الى بلاد كوش والى بيبلوس وبُنت احدى عشرة مرة»(٣٠). وقد بدأت الفترة الثانية في عهد حتشبسوت حين أرسل أسطول يتكون من خمس سفن، وفقاً للفنان الذي زين معبد الدير البحري، لاحضار اشجار البخور. ويظهر برحو وزوجته - المشوهة الجسم(٣١) - وابنته ومجموعة من سكان البلاد وهم يتلقون البعثة ويتبادلون التحيات والهدايا والمنتجات التي كان من المعروف أنها كانت تستحضر من بلاد بُنت والتي جرى تصويرها بوضوح: ثلاث شجرات كبيرة زرعت في حديقة الاله آمون، وكانت من الطول بحيث تستطيع المواشي أن تمشي تحتها. وتحت هذه الشجرة كانت تكدس الهدايا الأخرى، مثل العاج وأصداف السلاحف والماشية ذات القرون الطويلة

(٢٧) قام بذلك K.A. Kitchen. المصدر السابق (١٩٧١).
(٢٨) P. Montet, 1970, p. 132.
(٢٩) أشار ك. أ. كتشن، K.A. Kitchen, 1971 p. 185 إلى عدم إمكان قبول هذه النظرية، وذلك بسبب وجود الزرافة بين الحيوانات التي تشتهر بها بُنت.
(٣٠) J.H. Breasted. para, p. 361.
(٣١) السبب الرئيسي في ذلك هو تراكم الشحم.

والقصيرة و«أشجار المُرّ وقد لفت جذورها في تربتها الأصلية وهو ما يفعله البستاني الماهر في الوقت الراهن، والبخور الجاف والأبنوس وجلود الفهد والقرود (البابون والشمبانزي) والكلاب السلوقية والزرافة وما شابه ذلك. . .»(٣٢).

وفي حجرة بمعبد الدير البحري ذاته توجد صورة لمولد حتشبسوت الالهي تبدو فيها امها، أحموسا وهي تستيقظ على رائحة البخور الذي جُلب من بلاد بُنت. وهنا يوفر ربط اسم بنت بأصلها الإلّهي دليلاً على الصداقة بين ملكة مصر وبلاد بُنت التي كان سكانها يعبدون آمون.

وتزودنا صور هذه البعثة بفكرة عن الحياة في بلاد بُنت ونباتاتها وحيواناتها وسكانها وأكواخها ذات الشكل المخروطي التي بنيت على أكوام بين أشجار نخيل البلح والأبنوس والبلسم.

واذا ما أصدرنا حكمنا بناء على صور بُنت على المعابد، لا يوجد ثمة جديد نسجله بعد حكم حتشبسوت. ثم تشير النصوص إلى وصول البُنتيين إلى مصر. ومنذ ذلك الوقت تدخل بُنت في عداد الشعوب المغلوبة، وهو أمر غير محتمل نظراً لبعدها الشديد في ذلك الوقت. كان يطلب من زعماء بُنت أن يحضروا الهدايا إلى الفرعون الذي أمر أحد مرؤ وسيه باستقبالهم وتلقي هداياهم. وهناك أدلة تشير إلى التبادل التجاري في موانىء البحر الأحمر بين أهل بُنت والمصريين والى نقل المتاجر من بُنت عن طريق البر بين البحر الأحمر والنيل (مقبرة آمون مس في طيبة والمقبرة رقم ١٤٣).

وقد انتهت العلاقات مع بُنت في أواخر حكم رمسيس الرابع، وان تكن ذكرى بُنت بقيت ماثلة في ذاكرة المصريين.

وقد يكون من واجبنا أن نضيف إلى هذه الأدلة على هذه العلاقات في العصور القديمة أن مسند الرأس في الصومال الحديث يسمى بَرجهي أو بَركي، وهو اسم يشبه اسمه المصري القديم، كما يطلق الصوماليون على رأس سنتهم الجديدة اسم «عيد فرعون».

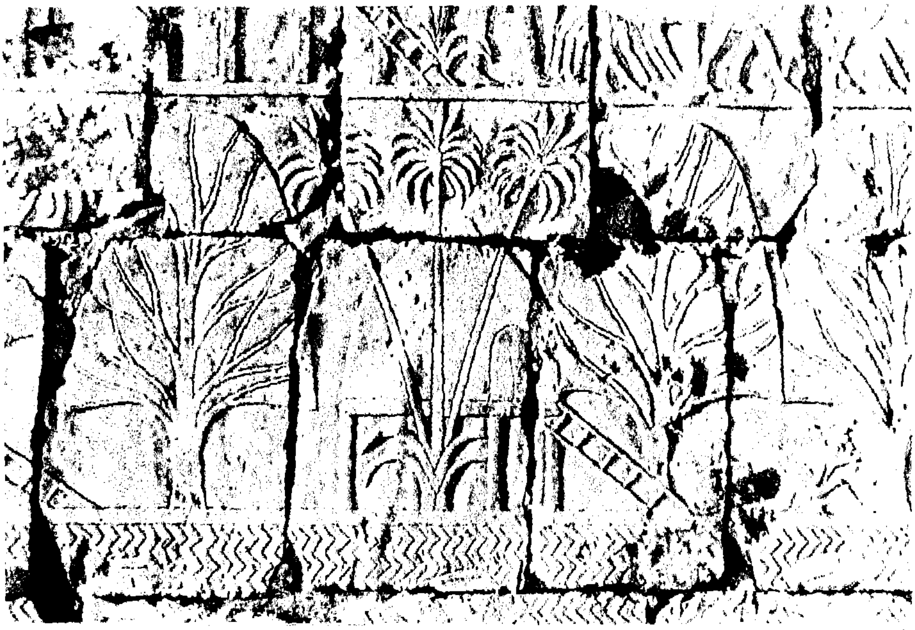
باقي إفريقيا

تنشأ محاولات الشعوب أو زعمائها لاقامة علاقات مع بلدان أخرى نتيجة لدوافع مختلفة يمكن في نهاية المطاف أن نهبط بها بوجه عام الى مستوى العلاقات المتبادلة البسيطة.

فالحاجات حافز قوي للاستكشاف وبذل الجهود لاقامة علاقات مستقرة. فمصر كانت بحاجة الى المنتجات الافريقية: العاج والبخور والأبنوس، وبوجه عام نجدها تحتاج إلى الأخشاب التي كان الشرق الأدنى يوفر – من أجل الحصول عليها – مصدراً بديلاً ثابتاً. وحتى نتأكد من ان الأخشاب المجلوبة من داخل افريقيا كانت تستعمل بالفعل نجد لزاماً علينا أن نقوِّم كل أنواع الشواهد المصرية.

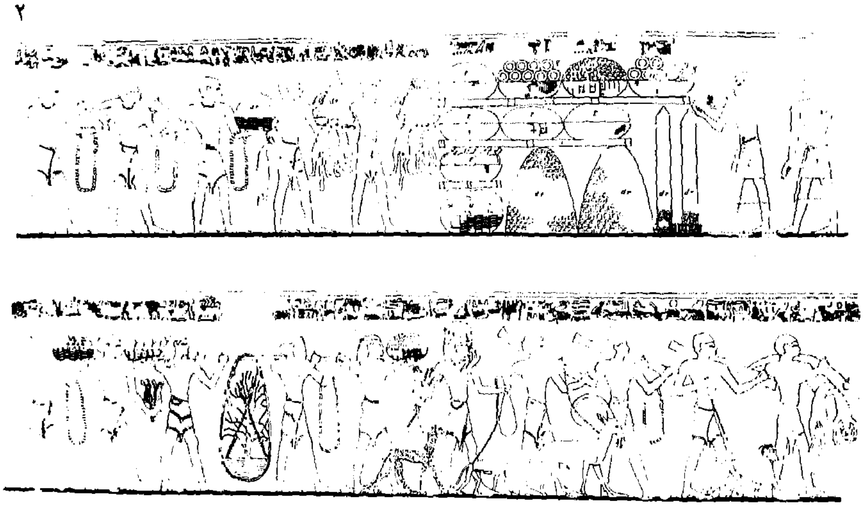
---

(٣٢) D.M. Dixon, 1969, p.55 يذهب إلى أن نجاح زراعة أشجار المُرّ، التي احضرتها بعثة حتشبسوت إلى معبدها لم يكن سوى نجاح وقتي. «ورغم النجاح الجزئي والمؤقت منيت تجارب نقل الغرسة إلى تربة أخرى بالفشل. ولن تتضح الأسباب الفعلية لهذا الفشل إلا حين تتقرر الصفة النباتية للشجرة (للأشجار) التي تنتج هذا البخور – وهذا ما لا يتسنى على أساس العرض التقليدي الذي قدمه المصريون. وفي نفس الوقت يفترض أن أهل بُنت، لأسباب تتعلق بمصلحتهم الذاتية التجارية، قد يكونون قد لعبوا دورهم في إفشال التجربة المصرية». فلو أن النجاح كان قصير المدى، لما واصل الملوك الذين تلوا حتشبسوت استيراد هذه الأشجار – على سبيل المثال امنحتب الثاني الذي قام بذلك (انظر المقبرة رقم ١٤٣ في طيبة) أو رمسيس الثاني ورمسيس الثالث اللذان أمّر كلاهما باستيرادها.



١

٢



١: مساكن بلاد بُنت

٢: جزية بلاد بُنت

ويجري تقويم علاقات مصر بإفريقيا في كثير من الأحيان باعتبارها تدفقاً من جانب واحد، مثلها في ذلك مثل انتشار ثقافتها في الخارج، ومعنى هذا تجاهل كونها تعتمد مادياً على بيع منتجات افريقية معينة - وبالتالي فربما كانت التأثيرات متبادلة. ولا يزال من الواجب في هذا المجال القيام بكل ما يمكن، كما لا يزال البحث أمراً شاقاً جداً. فقد تغيرت البيئة في الفترة ما بين اوائل عهد الملكية وظهور الاغريق في مصر - وبالتالي فإن الدراسة الطويلة المتسمة بالمثابرة في بذل الجهد والمبنية على الآثار واللغويات، مطلوبة لاعادة تصور التبادل القديم للسلع عن طريق النصوص والصور التي قد لا توفر في أحسن الفروض سوى شواهد غير مباشرة إلى حد كبير. والذي استقيناه في السنوات الأخيرة من الآثار، على سبيل المثال، حول المتاجرة في الماضي البعيد في السبج (الأوبسدان) الذي كان فيما قبل التاريخ مادة ثمينة، لا بد أن يدفعنا إلى توخي الصبر والحذر، ولكنه يزودنا كذلك بأمل في الحصول على نتائج لا يمكننا أن نحلم بها اليوم.

وقد جذب الاستكشاف البحري لشواطىء افريقيا في عهد الفرعون نخاو الثاني (٦١٠ - ٥٩٥ ق.م) انتباه الباحثين، ولكنهم لا يتفقون جميعاً على الدقة التاريخية للحقائق التي سجلها هيرودوت بعد ذلك بقرن:

«يبدو بوضوح ان ليبيا يحيط بها البحر باستثناء المنطقة التي تتصل عن طريقها بآسيا - وكان اول من اثبت ذلك (وفقاً لما وصل اليه علمنا) هو نكو (نخاو) ملك مصر. فبعد أن فرغ نخاو من حفر القناة التي تصل النيل بالخليج العربي، أرسل فينيقيين في سفن، وكلفهم بأن يجتازوا أعمدة هرقل أثناء رحلة عودتهم وصولاً الى البحر الشمالي ومن ثم إلى مصر. وهكذا اقلع الفينيقيون من البحر الأحمر واخترقوا البحر الجنوبي - وحين كان يحل الخريف كانوا يرسون بسفنهم في الميناء ويبذرون الأرض في أي جزء من ليبيا قد يصلون إليه، وهناك ينتظرون المحصول، وبعد أن يجنوه كانوا يستأنفون الابحار. وهكذا فبعد مرور سنتين اجتازوا في السنة الثالثة أعمدة هرقل وعادوا إلى مصر حيث قالوا (وهو ما قد يصدقه البعض رغم أنني لا اصدقه) انهم بطوافهم بحراً حول ليبيا كانت الشمس على يمينهم.

وهكذا أمكن الحصول على المعلومات الأولى عن ليبيا»(٣٣).

ولا شك ان ليبيا في هذا النص تعني كل القارة الافريقية وأن اعمدة هرقل تعني مضيق جبل طارق وأن الفينيقيين قد جاؤ وا من بلادهم الأصلية التي كان نخاو الثاني قد غزاها منذ وقت قصير. ولهذا تبقى المشكلة دون حل. ويعتقد جـ. يويوت(٣٤) بصحة هذه القصة والأحداث التي تصفها. وقد تكونت في الآونة الأخيرة في فرنسا هيئة أطلقت على نفسها اسم جمعية بُنت بهدف تكرار الرحلة حول إفريقيا التي يصفها هيرودوت على سفينة تبنى خصيصاً وفق الأساليب المصرية القديمة. ولكن يوجد عدد كبير من المتشككين الذين يفسرون مثل هذه الفقرات التي اوردها هيرودوت تفسيراً آخر لا يتصل بالدوران حول القارة بل ويصل بهم الأمر الى رفض صحة هذه المسألة من البداية إلى النهاية. وكما هو الحال بالنسبة إلى رحلة حَنّن (Hannon) فيحتمل أن المعركة بين الباحثين في هذه المسألة لم تنته بأي شكل من الأشكال.

وقد قام نخاو الثاني - الذي ينتمي إلى قائمة الفراعنة الأواخر - بأعمال كثيرة أخرى. وإليه يعزى اول عمل كبير خاص بحفر قناة على طول مجرى لا يزال مثاراً للشك لدى المؤ رخين. وقد يكون الهدف من هذا العمل وصل البحر المتوسط بالبحر الأحمر. ويبدو أكثر احتمالاً أنها القناة التي تصل النيل

(٣٣) هيرودوت، الكتاب الرابع، الفقرة ٤٢.
(٣٤) J. Yoyotte, 1958, p.370

بالبحر الأحمر التي كانت قد استعملت في الملاحة لعدة قرون، والتي كانت في العهد الاسلامي ذات اهمية كبرى بالنسبة الى العلاقات بين مصر وشبه الجزيرة العربية.

وهل ينبغي أيضاً أن نعزو الى حب الاستطلاع والولع بالشيء الغريب الحملة التي قام بها حرخوف بأمر من ببي الثاني والتي أثارت آراء متناقضة إلى جانب صعوبة تقبلها؟ وقد سبق أن ذكرنا[٣٥] ان حرخوف قد أحضر معه قزماً لببي الثاني من بلاد يام. ويستند الاستنتاج أحياناً على الافتراض الذي لا يستند إلى أساس والخاص بأن القزم كان من جنس الأقزام (الموجود في افريقيا الاستوائية)[٣٦]، وأن هذا المثال، الفريد في نوعه، يثبت وجود علاقات بين مصر وأعالي النيل وتشاد.

وعلى حين أن بعثة حرخوف، تدخل في نطاق التاريخ، فإن حملات أخرى كثيرة لا تزال بصورة او اخرى داخلة في مجال الأساطير او القصص الخيالية[٣٧]. (فأولا) لا يعرف إلا القليل جداً عن موطن «جنس الأقزام» ومن الخطورة بمكان أن نفترض وجود اعداد كبيرة منهم في المناطق العليا من أحواض النيل[٣٨]. (ثانياً) لا يوجد ما يثبت أن القزم المعني كان من «جنس الأقزام» (Pigmy) – وأخيراً فنحن لا زلنا نجهل الموقع الفعلي لبلاد يام (Yam)[٣٩].

وقد سبق أن رأينا أن الأدلة ليست أكيدة او متسقة فيما يتعلق بحب الاستطلاع العلمي او الولع بالأشياء الغريبة. فالملحوظة التي ترد كثيراً بصدد وجود الحيوانات الافريقية في الرسوم والتماثيل المصرية ليست دليلاً قاطعاً بأي شكل، في حدود معلوماتنا الراهنة، على وجود علاقات بين مصر وقلب افريقيا. فقد يكون القرد – الحيوان المقدس لتحوت – وجلود الفهود اللازمة لملابس الكهنة فيما يتعلق بطقوس عبادة أوزوريس التي يقوم بها حورُس، واللازمة أيضاً لملابس الفراعنة – قد تكون كل هذه قد أتت من البلدان المجاورة أو نتجت عن مبادلات عرضية قام بها التجار بمحض الصدفة. وقبل أن نتمكن من تكوين فكرة واضحة عن مدى معرفة المصريين بإفريقيا لا بد لنا من القيام بعدد كبير من الأبحاث للتحقق من تسلسل الاشارات المتعددة إلى الحيوانات التي ترد في النصوص والصور المصرية، كما لا بد لنا من سبر مغزاها الكمي والنوعي.

وسواء أكانت العلاقات مع إفريقيا وليدة الحاجة أو حب الاستطلاع، فإن الأدلة المتوفرة هشة إلى درجة كبيرة، وتفسيرها عسير ومثير للجدل بحيث لا يمكن التوصل إلى أي استنتاج منها في ضوء معلوماتنا الراهنة، ولكن توجد عدة أساليب للقيام ببحث مجد.

ولهذا فرغم وجود ما يبرر تماماً تسجيل بعض الافتراضات مع التأكيد على الحاجة إلى القيام بمزيد من الأبحاث، ينبغي أن لا ندع القارىء يخرج بانطباع بأن ما سنعرضه مسلم به او ثابت بالدليل.

ومن الجائز أن نتساءل – وقلما تساءل أحد حتى الآن – عما إذا كان المصريون قد استطاعوا استعمال القصدير النيجيري. ففي العصور القديمة كان ثمة مصدران معروفان ومتباعدان لانتاج القصدير:

---

(٣٥) انظر الفصول ٨ و٩ و١٠ و١١.

(٣٦) P. Montet, 1970, p. 129 – يورد إشارة أكثر حذراً إلى هذا الموضوع: «قبل حرخوف، جلب رحالة اسمه باوردد قزماً راقصاً من سكان بلاد بُنت».

(٣٧) جرجس متى، القاهرة ١٩٦٣.

(٣٨) عن مختلف الآراء الخاصة بموطن وجنس الأقزام، انظر: C. Préaux, 1957, pp. 284-312.

(٣٩) يرى ر. هرتزوج (١٩٦٨) أن حرخوف وصل إلى مستنقعات سودري او تلال دارفور. ويحدد T. Säve - Söderbergh, 1953, p. 177 بلاد يام على أنها تقع جنوب الجندل الثاني ويعتقد ان الواحات «الليبية» الواقعة جنوب النيل ربما استعملت باعتبارها محطات تجمع وانطلاق للبعثات المتجهة جنوباً، وهي التي سارت على خطاها قوافل دارفور في الأزمنة اللاحقة.

كورنوول وجزر الهند الشرقية. فهل من المستبعد تماماً أن نفترض ان يكون النوك (Nok) قد استمد اصلاً من مناجم القصدير القديمة في بوجي (Bauchi) ، وأنه كان يجري تداوله في وادي النيل(٤٠)؟ هذا افتراض نظري محض في الوقت الحاضر، وان يكن افتراضاً يستحق البحث، إذ انه في حالة كون النتائج ايجابية فإنها ستلقي أضواء كثيرة جداً على جوانب من العلاقات بين مصر القديمة وافريقيا إلى مسافات بعيدة صوب الجنوب يصعب فهمها اليوم. لهذا لا بد من فحص أي آثار قد تكون باقية في مناطق المرور والانتقال مثل دارفور وبحر الغزال، على أن يكون هذا الفحص دقيقاً جداً على كل المستويات وبالاستعانة بكل فروع المعرفة. وفي هذا المجال، كما هو الحال في مجالات كثيرة أخرى، لا يزال كل شيء تقريباً ينتظر جهود الباحثين. وبامكان علماء الأنثروبولوجيا، في حالة قيامهم بدراسات طويلة وشاقة، أن يضيفوا مزيداً من الأدلة الخاصة بهذا الموضوع الصعب.

وكثيراً ما يثار التساؤل عما إذا كان مسند الرأس المرتكز على عمود، وهو المسند الذي ابتدعه المصريون، لم ينتشر مع حضارتهم إلى جهات إفريقية أخرى(٤١). ومرة اخرى، لا بد من الحرص وتجنب الاسهاب تفادياً للزلل. فهل مساند الرأس هذه وغيرها من مساند الرأس إفريقية صرفة نشأت في مصر؟ وهل توجد حضارات اخرى غير افريقية؟ أوَلا تكون بدلاً من ذلك ذات طبيعية وظيفية، وبالتالي يحتمل أنها ابتدعت في مناطق مختلفة بعيدة جداً بعضها عن البعض الآخر؟

ومن ناحية أخرى، هل بإمكاننا أن نستنتج، كما يحتمل أن بعض الباحثين قد تسرعوا جداً في الاستنتاج، أن أي شكل من المَلَكية المقدسة في إفريقيا ذو أصل مصري وأنه نتيجة لعلاقة عنصرية وتاريخية بين مصر القديمة ومؤسسيها الأفارقة(٤٢)، أليس من واجبنا أن نبحث عن تطورات تلقائية طبيعية حدثت على فترات زمنية شبه منتظمة؟

وما هي الطرق التي سلكتها عبادة الكبش، حيوان آمون المقدس الذي كان يحظى بكثير من الاجلال في كوش وفي الصحراء الكبرى وعند اليوريبا (Yoruba) والفون (Fon) بالنسبة الى الوقت الحاضر كل أوجه الشبه هذه وكل هذه الموجودات يجب تحديدها دون التسرع في استخلاص النتائج(٤٣).

ومن الممكن في كثير من المجالات الاشارة إلى أوجه الشبه بين أساليب مصر القديمة وعاداتها ومعتقداتها وبين نظائرها الافريقية التي ترجع إلى أصول حديثة نسبياً. ومن النماذج الأكثر جذباً للالتفات للوهلة الأولى ما يتصل منها بأقران أو أشباه الشخص ذاته (المعروفة باسم الكاءات في مصر القديمة) التي يعلق عليها المصريون وكثير من المجتمعات الافريقية المعاصرة أهمية. وأشكال هذه الأشباه بعد الموت لدى البانتو «الولي» (Ule) أو الأكن (Akan) – على سبيل المثال – تغرينا الى حد كبير بربطها بالمعتقدات المصرية في العهود الفرعونية(٤٤).

(٤٠) يفند شيفر Shaeffer هذا الافتراض في مقالته الأخيرة في J.E.A. وفي رأيه أن القصدير الذي استعمله المصريون كان يستورد من سوريا.

(٤١) عن المادة الخاصة بمساند الرأس المرتكزة على أعمدة والتي صنعها المصريون القدماء، والروابط العرقية التي كشف عنها استعمالها، انظر: (E.T. Hammy in G. Parrinder's book, p. 61) حيث نجد نموذجاً جيداً لمسند رأس إفريقي. وهو معروض في المتحف البريطاني وقد اكتشف مسند آخر في فزّان، انظر: (C.M. Daniels, 1968,b)

(٤٢) انظر: .G.W.B. Huntingford in R. Oliver and G. Mathew pp. 88-89 and B. Davidson, 1962, p. 44

(٤٣) .G.A. Wainwright, 1951

(٤٤) أشار: S. Sauneron, Paris, 1959, p.113 إلى أهمية هذا الارتباط وإن يكن قد حث على توخي الحذر.

وقد أشير منذ وقت طويل إلى أن الدكن (Dagon) يدفنون مع الميت أواني فخارية ذات مفعول سحري وأنهم ليسوا الوحيدين في هذا المضمار بأي حال من الأحوال. وقد قورنت هذه المادة بشبيهتها لدى المصريين الذين كانوا يضعون قطعاً من الفخار (الشقف) تحمل أسماء اعدائهم في جرار كانوا يدفنونها في اماكن معينة. كما عقدت مقارنة بين طقوس الدفن المصرية وتلك التي وصفها البكري حين تكلم عن ملوك غانا في القرن الحادي عشر الميلادي.

ولن تنتهي القائمة التي يمكن وضعها بالنسبة الى عادات مشابهة جمعت لعشرات من السنين في دراسات ذات طبيعة علمية بصورة أو بأخرى، كما توفر اللغويات مجالاً واسعاً للبحث حيث الاحتمالات الآن تفوق الحقائق المؤكدة.

كل هذا يفضي بنا إلى القول بأن من المحتمل جداً أن الحضارة المصرية قد أثرت في الحضارات الافريقية الأقرب عهداً، وإن تكن درجة هذا التأثير لا تزال غير معلومة. وفي محاولتنا تقويم هذه الناحية الأخيرة يكون من المعقول أيضاً أن نبحث إلى أي مدى كان التأثير يجري في الاتجاه المضاد، أي على مصر. فتأثير يمتد إلى ما يزيد على ٥٠٠٠ سنة ليس دليلاً على صلات متزامنة تماماً، كما أن آثار الصلات ليست دليلاً على الاستمرار. هذا تساؤل مثير، وهو تساؤل لا يزال في بدايته.

وبوجه عام نجد أن العلاقات بين مصر والقارة الافريقية في العهود الفرعونية من أهم المسائل التي تواجه المؤرخين الأفارقة اليوم. وهي تثير تساؤلات حول عدد كبير من المسلمات العلمية أو الفلسفية – على سبيل المثال: قبول أو رفض الافتراض الخاص بأن سكان مصر في العصور القديمة جداً كانوا سود البشرة، دون استثناء، وقبول أو رفض نظرية الامتزاج السلالي. كما أنها تتناول منهج البحث – على سبيل المثال: حول تداول المخترعات: النحاس أو الحديد أو الأقمشة التي كان يكتب عليها عادة. وتثير الشك حول الاحتمال الذي يؤخذ به دون جدال حتى الآن، ومفاده أن باستطاعة باحث منعزل في برجه العاجي تحقيق النجاح في مثل هذا الميدان الواسع دون الاستعانة بفروع المعرفة المرتبطة به.

وهذه المشكلة من شتى زواياها، تمثل اختباراً كبيراً للضمير العلمي والدقة واتساع الأفق لدى الأفارقة الذين سيحاولون حلها مستعينين بالباحثين الأجانب على نحو أكثر استنارة مما كان عليه الحال من قبل.

الفصل الخامس

تراث مصر الفرعونية

بقلم
رشيد الناضوري
بالاشتراك مع
ج. فركوتير

بالامكان تتبع الخدمات القيمة التي قدمتها مصر القديمة للعالم في كثير من المجالات بما في ذلك التاريخ والاقتصاد والعلوم والفن والفلسفة. وقد ادرك المتخصصون في هذه المجالات وفي مجالات أخرى متعددة، لفترة طويلة، أهمية هذا التراث، وإن يكن يستحيل علينا أحياناً أن نحدد الطريقة التي انتقل بها إلى الحضارات المجاورة او التالية.

وفي الواقع إن قسطاً كبير من هذا التراث، او على الاقل الشواهد التي لدينا عليه، وهو ذو اهمية كبرى بالنسبة الى تاريخ البشرية، قد انتقل عن طريق الحضارات الكلاسيكية (أولاً عن طريق اليونان ثم بعد ذلك عن طريق الرومان) قبل أن يصل إلى العرب. ولم يتصل أسلاف الهلينيين، والاغريق بمصر قبل عام ١٦٠٠ق.م أو حوالى ذلك الوقت، ولم تتوثق علاقات الطرفين قبل القرن السابع وذلك حين انتشر الاغريق: المغامرون والرحالة ثم المستعمرون، في حوض البحر المتوسط وبخاصة في مصر. وفي نفس الوقت كان الاغريق وأسلافهم خلال الألفين الثاني والأول قبل الميلاد على صلة بحضارات آسيا الصغرى وعن طريقها بعالم بلاد الرافدين الذي كانوا استمراراً له. ويترتب على ذلك أنه يصعب علينا كثيراً في بعض الأحيان أن نحدد بصفة يقينية المناخ الحضاري الفعلي، سواء أكان آسيوياً أو مصرياً، وكلاهما يرتبط بالآخر ارتباطاً وثيقاً، الذي ظهر فيه هذا الاختراع أو تلك البراعة الفنية للمرة الأولى.

وبالاضافة الى هذا فإن صعوبة تحديد التسلسل الزمني للفترات البعيدة في التاريخ القديم مما يجعل القطع بأصل الأفكار أمراً منطوياً على مجازفة كبيرة. وتحديد التاريخ باستعمال «كربون ١٤» من الغموض بحيث لا يمكننا عن طريقه أن نحدد بفارق قرن أو قرنين، في محيط كانت المعرفة تنتقل فيه باستمرار بسرعة، ما إذا كان العالم الآسيوي أو الافريقي هو الأصل. وأخيراً فإن احتمال وجود اوجه

تقارب وتشابه لا يمكن أن نمر عليه مرور الكرام. ونكتفي بذكر مثال على ذلك: هناك من الأسباب الوجيهة ما يدعونا إلى الاعتقاد (انظر ص ٢٧ - ٢٨ من المقدمة) بأن الكتابة قد اكتشفت في حوالى نفس الوقت في كل من مصر والعراق دون أن تتأثر إحدى الحضارتين بالأخرى بالضرورة في هذا المجال.

لكل هذه الأسباب يجب علينا ألا نقلل من شأن التراث الذي خلفته مصر للحضارات التي تلتها ولحضارات إفريقيا القديمة بوجه خاص.

عَطاء مصر في عصر ما قبل التاريخ

حققت مصر أقدم وأبرز نواحي التقدم في مجال الاقتصاد. ففي أواخر العصر الحجري الحديث، أي حوالى عام ٥٠٠٠ق.م، طور المصريون القدماء وادي النيل بالتدريج (انظر الفصل الأول) مما جعل سكانه ينتقلون من اقتصاد يقوم على جمع الطعام إلى اقتصاد يقوم على إنتاج الطعام - وكانت لهذا التطور في النشاط البشري في الوادي نتائج كبرى مادية ومعنوية معاً. فنمو الزراعة قد مكن المصري القديم من الأخذ بحياة قروية مستقرة متكاملة - وقد أثر هذا في تطوره الاجتماعي والأخلاقي ليس فقط في عصور ما قبل التاريخ بل في عصر الأسرات.

وليس من المؤكد أن آسيا قد لعبت الدور الرئيسي والفريد في ثورة العصر الحجري الحديث التي عزيت إليها في السابق (انظر التاريخ العام لافريقيا، يونسكو، المجلد الأول، الفصل ٢٧). وعلى أي حال فإن من النتائج الأولى لثورة العصر الحجري الحديث هذه التي جرت في الوادي أن المصري القديم أخذ يفكر في القوى الطبيعية المحيطة به - فقد اعتبر هذه القوى، وبخاصة الشمس والنهر، آلهة لها رموز تتخذ عدة أشكال اهمها الحيوانات والطيور التي كانت مألوفة لديه. وحين طور الزراعة أرسى كذلك مبدأ التعاون في نطاق الجماعة، إذ لولا مثل هذا التعاون بين سكان القرية لكان الانتاج الزراعي محدوداً. وقد أدى هذا إلى تطور هام آخر: إدخال نظام اجتماعي جديد في نطاق الجماعة هو التخصص في العمل. فقد ظهر العمال المتخصصون في مجالات الفلاحة والري والصناعات الزراعية وصناعة الأواني وفي مجالات اخرى كثيرة متصلة بما سبق ذكره. ويشهد العدد الكبير من المخلفات الأثرية بتقاليدها الراسخة.

وقد تميزت الحضارة الفرعونية باستمرار تطورها. فما إن يتم تحقيق شيء حتى كان ينتقل إلى الأجيال التالية مضافاً إليه ما يدخل عليه من تحسينات، وذلك منذ فجر التاريخ المصري حتى نهايته. وبهذه الطريقة انتقلت المهارة الفنية الخاصة بالعصر الحجري الحديث وازدهرت في عهد ما قبل الأسرات (٣٥٠٠ - ٣٠٠٠ق.م) ثم استقرت بعد ذلك حين كانت الفترة التاريخية في أوج ازدهارها. وفن قطع الأحجار خير شاهد على ذلك.

ومنذ عام ٣٥٠٠ق.م استعمل المصريون، ورثة العصر الحجري الحديث في الوادي، رواسب حجر الصوان الموجودة هناك، وبخاصة في طيبة، في نحت أدوات ذات ميزات لا نظير لها، وسكينة جبل العرق احد مئات الأمثلة الدالة على ذلك وكانت الحزوز المنتظمة في الحجر، بعد القيام بها عن طريق الضغط، تعطي السكين وجهاً لا يتسنى تقليده، كان متموجاً في ملاسة ومصقولاً باتقان. وكان إنتاج مثل هذه الأسلحة يتطلب مهارة يدوية غير عادية. وقد بقي هذا الفن حياً في مصر. وهناك منظر

منقوش في مقبرة في بني حسن يصور حرفيين في عهد الدولة الوسطى (حوالى ١٩٠٠ق.م) وهم لا يزالون يصنعون نفس هذه السكاكين بأنصالها الملوية إلى الداخل.

كما تبدو هذه المهارة الحرفية في نحت الأواني الحجرية. وفي هذا المجال كذلك استمرت مهارات العصر الحجري الحديث الفنية في فترة ما قبل الأسرات والدولة القديمة، بل ظلت باقية حتى نهاية تاريخ مصر القديم. وكان نحات الحجر المصري يستعمل كل أنواع الحجارة، حتى أصلب انواعها، فكان يستعمل حجر البازلت والبريشة والديوريت والجرانيت والحجر السماقي، بنفس المهارة التي يستعمل بها الحجارة الأقل صلابة مثل المرمر الجيري والشست والسربنتين (حجر اخضر مرقط) والأحجار الصابونية.

ومن مصر انتقلت أساليب نحت الحجر بعد ذلك إلى عالم البحر المتوسط. ولا بد أن نحاتي الأواني الكريتية قد تعلموا هذه المهارات بالتأكيد، إن لم يكن من مصر فعلى الأقل في وسط منغمس في الحضارة المصرية تماماً كالممر السوري - الفلسطيني. بل إن اشكال الأواني التي نحتت من الحجر في مينوءا (Minoa) القديمة تنم عن اصولها المصرية.

وقد انتقلت براعة قاطعي الأحجار الصلبة إلى النحاتين. ويمكن أن نلمس هذا في منحوتات المصريين الضخمة المنحوتة من الصخر الصلب: من تمثال خفرع المصنوع من الديوريت والموجود في القاهرة إلى التوابيت السوداء الكبيرة المصنوعة من البازلت المخصصة لدفن العجول أبيس. ثم انتقلت المهارة إلى نحاتي العهد البطلمي ووجدت بعد ذلك تعبيراً عنها في تماثيل الامبراطورية الرومانية:

وتنعكس هذه التغييرات التي جدت في العصر الحجري الحديث على نحو مميز في تقدم تخطيط المدن في مصر. ويمكن ان نجد مثالاً واضحاً لهذا في واحدة من أقدم قرى وادي النيل: مَرْمدَة بني سلامة على الطرف الغربي للدلتا.

وقد اقترنت بالاعتقاد المصري القديم ذاته في البعث والخلود مجموعة من التطورات الثقافية والاجتماعية الهامة التي يمكن تتبعها عبر فترات العصر الحجري الحديث وعصر النحاس منذ عهد ما قبل الأسرات إلى بواكير عهد الأسرات. وقد أدت هذه التطوّرات إلى قيام وتطور التقاليد الفنية المصرية الفرعونية.

العصور التاريخية

يمكن تمييز تيارين رئيسيين في الحضارة الفرعونية المصرية في العصور التاريخية. وأول هذين التيارين التراث المادي وثانيهما التراث الثقافي الأكثر تجريداً الذي ينتمي إلى أقدم العصور. والتياران مرتبطان ويشكلان معاً الظواهر الثقافية لمصر. ويضم التراث المادي الحِرَف (وبخاصة ما يتطلب منها براعة يدوية فنية) والعلوم (الهندسة - الفلك - الكيمياء) والرياضيات التطبيقية والطب والجراحة والمبتكرات الفنية. أما الجانب الثقافي فيشمل الدين والأدب والنظريات الفلسفية.

المساهمات الحرفية

يمكن تتبع الاسهام الحرفي لقدماء المصريين في مجال الحجر الذي نوهنا به من قبل، وكذلك في مجال المعدن والخشب والزجاج والعاج والعظام وفي مواد أخرى كثيرة. فهم قد استكشفوا واستغلوا مختلف

موارد البلاد الطبيعية. وبالتدريج أدخلوا التحسينات على الأساليب الفنية اللازمة لصنع الأدوات الحجرية والنحاسية مثل الفؤوس والأزاميل والمطارق ذات الرؤوس الخشبية والقدوم التي صممت بمهارة كبيرة لكي تستعمل في البناء والصناعة تحقيقاً لأهداف خاصة كثقب الثقوب أو تشكيل الكتل الخشبية أو الحجرية. كما صنعوا الأقواس والسهام والخناجر والدروع وهراوات القتال والصيد.

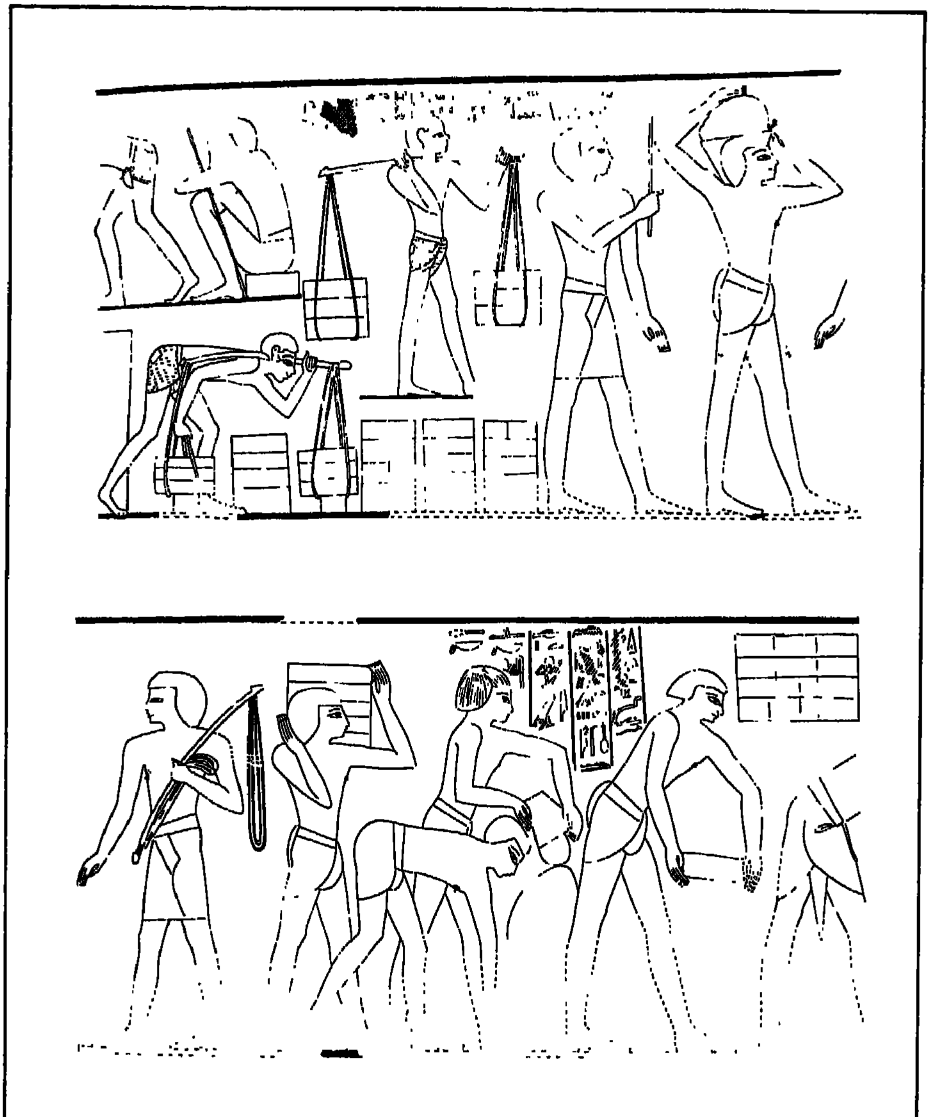
ولفترة طويلة، بما في ذلك العصور التاريخية، ظلت الأدوات والأسلحة التي انتقلت من العصر الحجري الحديث تصنع من الحجر. فالمنحدرات الصخرية الشاهقة الطباشيرية المحاذية للنيل غنية بأحجار كبيرة من الصوان من النوع الممتاز وقد ظل المصريون يستعملونها لمدة طويلة بعد اكتشاف النحاس والبرونز واستعمالها، وبالاضافة إلى ذلك فإن الطقوس الدينية كانت تستلزم أحياناً استعمال الأدوات الحجرية مما أدى إلى حد كبير إلى استمرار أساليب قطع الأحجار ومنها بوجه خاص تشظية الصوان.

وحتى أواخر العصر الفرعوني لم يستعمل إلا القليل جداً من الحديد لعمل أوان معدنية، ولهذا فإن الأساليب الفنية الخاصة بصناعة المعادن المصرية اقتصرت على استعمال الذهب والفضة والنحاس وخليط النحاس كالبرونز والنحاس الأصفر. وقد تم العثور على آثار التنقيب عن خام النحاس ومعالجته بسلسلة من العمليات المتعاقبة على أيدي المصريين في سيناء والنوبة وبوهن حيث كان فراعنة الدولة القديمة يمتلكون مصانع لتنقية النحاس بالصهر.

وفي سيناء والنوبة كان المصريون يعملون جنباً إلى جنب مع السكان المحليين - ولهذا كان من الممكن أن تنتقل الأساليب المستعملة في معالجة المعدن بسلسلة من العمليات المتعاقبة بسهولة من حضارة إلى اخرى. وربما كان هذا هو الوقت الذي لعب فيه الخط الفرعوني، بوساطة بدايات الخط السينائي الذي أثر هو فيه، دوراً هاماً في اختراع حروف الكتابة. وربما كان هذا مرتبطاً بانتشار صناعة النحاس أولاً في حوض النيل ثم فيما وراءه.

ومنذ اوائل عهد الأسرات (حوالى عام ٣٠٠٠ق.م) عرف المصريون واستعملوا في صناعة أدواتهم النحاسية، كل الأساليب الفنية الأساسية الخاصة بصناعة المعادن مثل السبك والطرق والصب والرض واللحام والتثبيت ببرشام، وهي الأساليب التي اتقنوها بسرعة كبيرة. وإلى جانب الأدوات وجدت تماثيل نحاسية مصرية كبيرة ترجع إلى عام ٢٣٠٠ق.م. ونلحظ في نصوص ترجع إلى تاريخ سابق - عام ٢٩٠٠ق.م - وجود تماثيل من نفس النوع تصور مناظر وجدت في مصاطب ترجع إلى اقدم العصور مصانع كان يشكل فيها الالكتروم، وهو مزيج من الذهب والفضة بحيث تصنع منه الحلي. ورغم أن صناعة الذهب والنحاس لم تبدأ أصلاً في مصر، فمما لا شك فيه أنها اسهمت بقدر كبير في تحسينها واتساع نطاقها.

وقد سبق لنا في بداية هذا الفصل أن أكدنا أنه يصعب علينا أحياناً أن نقطع بكون اسلوب فني معين قد بدأ اولاً في الحضارة الآسيوية أو الافريقية. ولكن بفضل الصور والتماثيل التي وجدت في المقابر، فإن مصر تزودنا على الأقل بثروة من المعلومات الخاصة بالأساليب الفنية التي كان الحرفيون يستعملونها. ففي وسع المرء ان يرى في المصانع التي تصورها الرسوم او النقوش ضئيلة البروز الموجودة على جدران المقبرة سواء فوق الأرض او تحتها، على سبيل المثال، نجارين وصناعاً مهرة يقومون بصنع الأثاث والأسلحة والسفن والأدوات التي كانوا يستعملونها مثل الكماشة (الزردية) والشاكوش والمنشار والمثقاب والقدوم والازميل والمطرقة ذات الرأس الخشبي البرميلي الشكل - وكل ذلك قد صوِّر بدقة وبتفاصيل لا نهاية لها، وكذلك الحال بالنسبة إلى طرق استعمالها. وبفضل ذلك نعرف أن المنشار



صناعة الطوب

المصري كان منشاراً يُشَدّ ولا يدفع مثل المنشار الحديث. وهناك فيض من المعلومات التي تفيد دارسي تاريخ المهارات الفنية وكيفية وصولها إلينا، وهو موضوع لا تزال تعوزه الدراسة الشاملة.

وبالاضافة إلى هذه المصورات ترك المصريون القدماء في مقابرهم نماذج للمصانع التي تضم حرفيين نموذجيين يقومون بصنع مختلف الأدوات. وهذه النماذج بدورها ذات أهمية كبيرة بالنسبة إلى المؤرخ الذي يسعى إلى تفسير الأساليب الفنية وكيفية تطورها. كما أن تعدد أدوات الحرفيين التي تم العثور عليها إما مصنوعة باليد أو بالاستعانة بآلات مما يشهد بتنوع الصناعات في مصر القديمة. فمثلاً نجدهم يستعينون في صنع الحلى بأحجار ثمينة وشبه ثمينة مثل الذهب والفضة والفلسبار واللازورد والفيروز والياقوت والعقيق الأحمر – ومن كل ذلك صنعوا بدقة تامة تيجاناً وعقوداً وغير ذلك من أدوات الزينة.

وقد أدت زراعة الكتان بعد مضي وقت قصير إلى التمرس في الغزل اليدوي وصناعة الملابس الكتانية – وهذه الأخيرة عرفت منذ بداية العصر الحجري الحديث (حوالى عام ٥٠٠٠ق.م) وتزامنت بدايتها مع ظهور الحضارة في وادي النيل. فالنساء كن يغزلن خيوط الكتان، وكن يقمن بذلك بمهارة كبيرة حيث أنهن كن كثيراً ما يغزلن بمغزلين في نفس الوقت. ومن مميزات الغزل المصري طول الفتلة، الأمر الذي كان يتطلب أسلوباً يقتضي وضع المغزل بضعة أقدام بعيداً عن الألياف الخام. ولجعل المسافة اكبر من ذلك كانت النسوة يجلسن على كراسٍ عالية بلا ظهر أو ذراعين. وكانت الأنوال افقية في البداية، ثم اصبحت رأسية منذ عهد الدولة الوسطى مما أفسح المجال لانتاج الأقمشة ذات المقاييس الطويلة اللازمة للملابس اليومية الفضفاضة وللفائف وأكفان طقوس المومياءات الجنائزية.

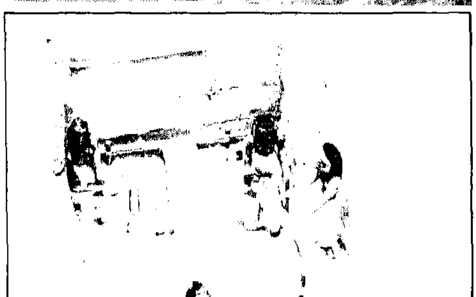
وكانت المنسوجات توفر للفراعنة سلعة تحظى دون غيرها بإعجاب كبير في الخارج. وكان أرق أنواع القماش، القماش الناعم، ينسج في المعابد وقد أحرز شهرة خاصة. وكان البطالمة يراقبون مصانع النسيج ويتحكمون في نوعيته: وكانت إداراتهم المركزية، التي لا شك انها كانت تترسم خطى النمط الذي وضعه الفراعنة، تنظم المبيعات الخارجية التي حققت للملك ايرادات ضخمة بسبب النوعية الممتازة للبضائع التي كان ينتجها النساجون المصريون. وفي هذا المجال يتوفر لدينا مثل حي على إحدى وسائل انتقال التراث المصري. كما أحرزت صناعات الخشب والجلد والمعدن درجة كبيرة من الاتقان وصلت إلى حد الكمال، وظلت هذه الصناعات بحالة جيدة حتى الوقت الحاضر.

وكانت المنتجات الأخرى التي حققها الصانع المصري تشمل الزهريات الفضية والتوابيت الخشبية والأمشاط والمقابض العاجية المزينة كما كان المصريون القدماء موهوبين بوجه خاص في نسج البوص البري وتحويله إلى حصر وكانت ألياف النخيل تجعل من الممكن صنع شباك وحبال قوية. وقد تطورت صناعة الأواني الفخارية التي بدأت في عصور ما قبل التاريخ بحيث كانت غير مصقولة، فأفسحت المجال للأواني الممتازة ذات الحواف الحمراء والسوداء ثم الأواني المصقولة اللامعة والمنقوشة. وكانت هذه الأواني تستخدم لتخزين مختلف المواد، وإن استعمل بعضها لأغراض الزينة. وقد استلزمت بعض معتقدات المصريين، وبخاصة فيما يتعلق بالحياة الأبدية، إنتاج عدد كبير من الأشياء المزينة للموتى في بعض الأحيان، وبالتالي أدى إلى مستوى عال من الاتقان والابتكار الفني.

وقد أسهمت مصر، إن لم يكن في اختراع الأساليب الفنية لصناعة الزجاج، فعلى الأقل في توزيعه على الحضارة العالمية. حقيقة إن حضارات ما بين النهرين والسند كانت هي الأخرى تعرف الطلي والصقل في وقت مبكر جداً، وهو الأساس الذي قامت عليه صناعة الزجاج، فليس لدينا دليل على أنها نشرته في الخارج. وبالتالي فأقصى ما يمكننا استنتاجه تكرار ظاهرة التقارب والالتقاء وأن صناعة الزجاج قد اكتشفت بصورة مستقلة في كل من آسيا ووادي النيل.



١



٢

١ : صناعة الجعة، الدولة القديمة

٢ : نموذج لورشة نسّاج، الأسرة الثانية عشرة، حوالى عام ٢٠٠٠ قبل الميلاد

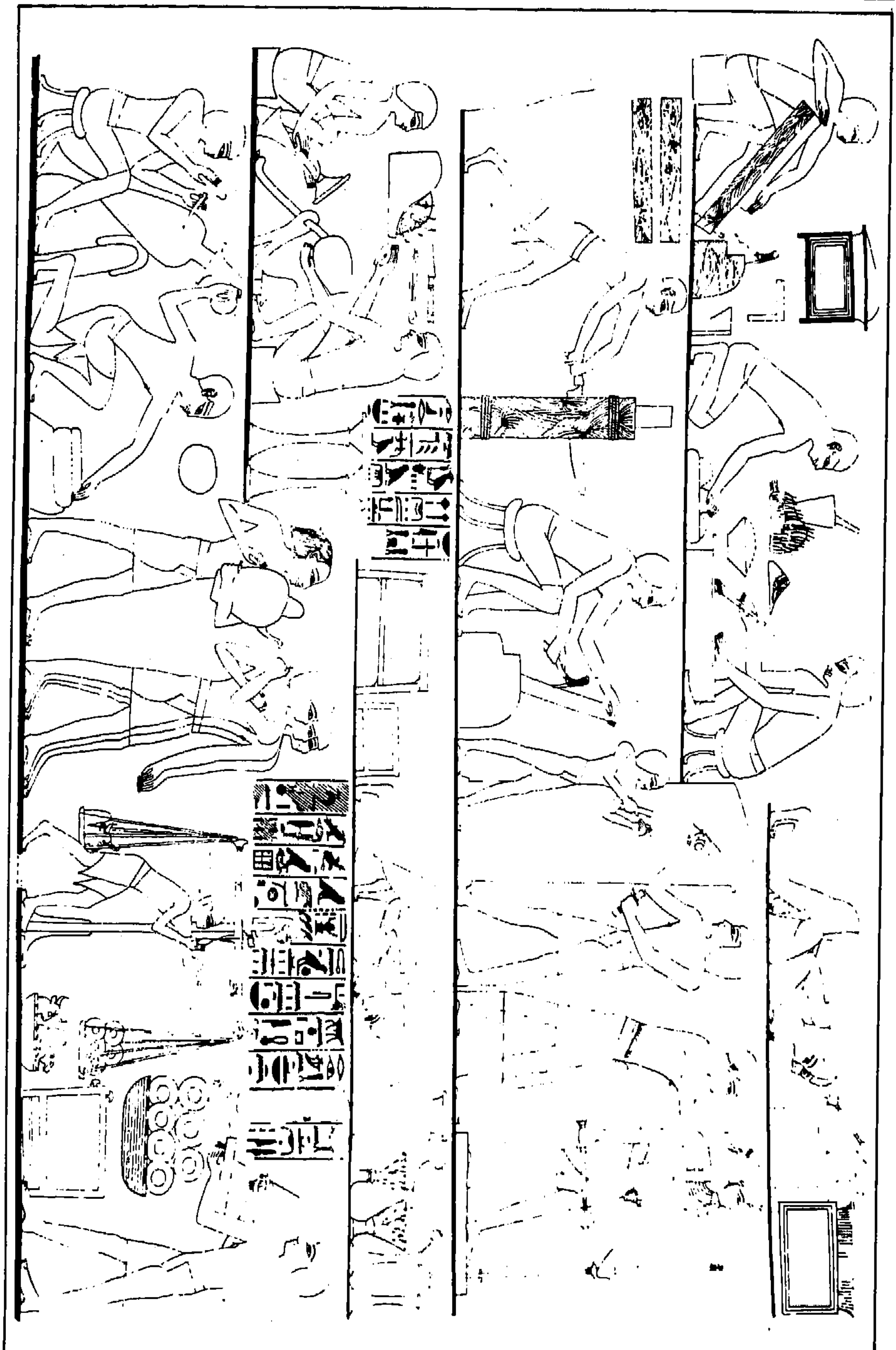
ومن المؤكد ان المصريين قد تكشفت مهارتهم في فن صناعة الزجاج في وقت قصير نسبياً. ويبدو ان وجود الخرز الزجاجي يصدق على عصر ما قبل الأسرات (حوالى عام ٣٥٠٠ ق. م)، وإن لم يكن من المؤكد أن الصناع قد صنعوه عن قصد. وقد عرف الزجاج في حد ذاته في عهد الأسرة الخامسة (حوالى عام ٢٥٠٠ق. م) وبدأ في الانتشار منذ عهد الدولة الحديثة (حوالى عام ١٦٠٠ق. م). وحينئذ لم يكن يستعمل فقط في صنع الخرز، بل كانت تصنع منه كذلك الزهريات ذات الأشكال كثيرة التنوع: من الكأس الجميل ذي الساق إلى الزهريات المصبوبة في شكل أسماك. وكانت هذه الأشكال في العادة متعددة الألوان ودائماً غير شفافة. وقد ظهر الزجاج الشفاف في عهد توت عنخ آمون (حوالى عام ١٣٠٠ ق. م) وقد انتشرت الزهريات الزجاجية المصرية متعددة الألوان، التي بدأت تظهر حوالى عام ٧٠٠ق. م، في الشكل المعروف باسم الألبستر (المرمر المعرق)، في شتى انحاء منطقة البحر المتوسط. وقد قلدها الفينيقيون الذين طوروا إنتاجها وجعلوا منه صناعة.

وفي الفترة المتأخرة أدخلت الرموز الهيروغليفية - التي صبت في زجاج ملون - في الخشب أو الحجر لعمل النقوش. وقد انتقلت أساليب صناعة الزجاج في العصر الفرعوني إلى حرفيي العصر الهلنيستي الذين اخترعوا الزجاج المصنوع عن طريق النفخ. وحينئذ اصبحت الاسكندرية المركز الرئيسي لانتاج الأواني الزجاجية، وكانت تصدر منتجاتها إلى أماكن بعيدة مثل الصين. وقد فرض أوريليوس (Aurelius) ضريبة على الأواني الزجاجية المستوردة إلى روما. وبعد ذلك استوردت «امبراطورية مروى» بعض الأواني الزجاجية من الاسكندرية، ولكنها فوق ذلك اقتبست أساليب صناعتها الفنية ونشرتها في وادي النيل الأعلى.

وكانت صناعة البردي التي اخترعها المصريون القدماء من أهم الصناعات. ولا يوجد نبات لعب دوراً أبرز من ذلك الذي لعبه البردي في مصر: فقد كانت أليافه تستعمل في صناعة السفن وفي الجلفطة وفي صناعة ذبالة مسارج الزيت والحصر والسلال والحبال والهوسر (حبل ضخم تشد به السفينة إلى البر). وقد صنعت المرسات (الحبال) التي استعملت في إرساء الجسور العائمة التي حاول اكسركسيس (Xerxes) أن يقيمها عبر الدردنيل في مصر من ألياف البردي. وحين كانت سيقان البردي تربط في حزم كانت تستعمل كأعمدة في العمارة المبكرة الى أن جعل منها المعماريون اليونان والرومان نموذجاً لأعمدتهم البسيطة او المعنقدة التي كانت تصنع تيجانها على شكل أزهار مقفلة أو مفتوحة. ولكن فوق ذلك كان نبات البردي يستعمل في صناعة «ورق البردي» (Papyrus) الذي اشتقت منه كلمة (Paper) وهي لا شك نابعة من نفس الأصل الذي اشتقت منه الكلمة المصرية القديمة «يا-يرعا» التي تعنى «هو - من - بالمقر العظيم» أي صاحب «القصر الملكي» والتي انتقلت إلينا من العصور القديمة اليونانية - الرومانية.

وكان ورق البردي يصنع بوضع طبقات تقاطعية متتالية من الشرائح الطويلة الرقيقة التي تؤخذ من ساق النبات، وبعد أن تكبس وتجفف تصبح صحيفة او فرخاً كبيراً من الورق.

وكان عشرون فرخاً من البردي الذي ربط بعضه ببعض حين يكون لا يزال رطباً، تكون لفافة طولها ٣ إلى ٦ أمتار. وكان بالامكان ضم عدد كبير من اللفائف بعضها إلى بعض بحيث يبلغ طولها ٣٠ إلى ٤٠ متراً. وهذه اللفائف هي التي تمثل الكتب المصرية، وكان يمسك بها في اليد اليسرى وتبسط أثناء القراءة. وكانت اللفائف البردية (Volumen) التي عرفها العصر اليوناني - الروماني هي الوريث المباشر لهذه اللفافة.



صانعو الأثاث أثناء العمل

ولا شك أن أوراق البردي كانت تفوق كل مواد الكتابة التي كانت تستعمل في العصور القديمة في الفائدة العملية. فلقد كانت لينة وخفيفة، وعيبها الوحيد أنها كانت هشة. فبعد مرور وقت طويل لم يكن بإمكانها أن تبدي مقاومة كبيرة للرطوبة، وكانت تحترق بمنتهى السهولة. وقد قدر أن القيام بعملية جرد لمعبد مصري صغير كان يتطلب ١٠ أمتار من ورق البردي كل شهر. وكان الموثقون العموميون في الأقاليم، في عهد البطالمة يستعملون ما بين ٦ إلى ١٣ لفافة أي ٢٥ - ٥٧ متراً كل يوم. وكانت لكل ضيعة كبيرة ولكل قصر ملكي وكل معبد سجلات ومخازن ومكتبات، مما يدل على أن مئات من الكيلو مترات من البردي كانت موجودة حتماً في ذلك الوقت، على حين أن ما لا يزيد على مئات من الأمتار هي كل ما اكتشف حتى الآن.

وقد انتقل البردي الذي استعمل في مصر منذ عصر الأسرة الأولى (حوالى عام ٣٠٠٠ق.م) حتى نهاية العصر الفرعوني، بعد ذلك إلى اليونان والرومان والأقباط والبيزنطيين والآراميين والعرب. وقد انتقل إلينا جزء كبير من الأدب الاغريقي واللاتيني على أوراق البردي. وكانت لفائف البردي من الصادرات المصرية الرئيسية. ولا جدال في أن البردي كان من أهم ما خلفته مصر الفرعونية من تراث للحضارة.

وكانت كل هذه الصناعات تعتمد على أساليب ومهارات وأدت إلى قيام طائفة من الحرفيين والأساليب المتطورة. وتضم المتاحف والمجموعات الخاصة في العالم مئات، بل آلافاً، من النماذج الأثرية لمختلف إنجازات مصر القديمة.

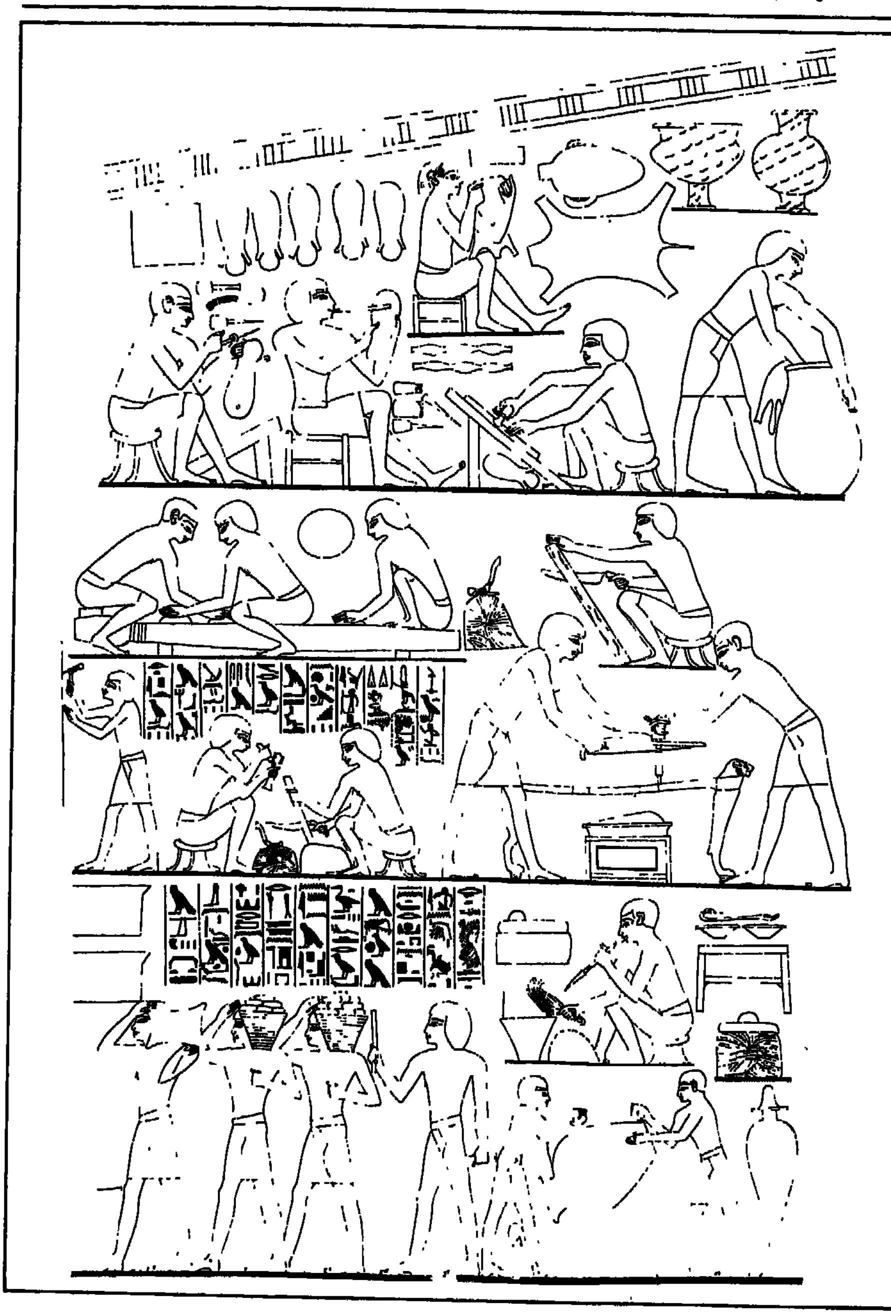
ومن أهم الاسهامات التقنية التي قدموها للعالم تقاليدهم الخاصة بالبناء بالحجر ومهارتهم في هذا المجال. ولم يكن أمراً سهلاً أن تحول كتلة ضخمة من الجرانيت والحجر الجيري والبازلت والديوريت من مادة خام إلى أبنية حجرية حسنة الشكل ومصقولة كانت تتطلبها مختلف التصميمات المعمارية.

وبالاضافة الى ذلك، فإن بحث المصريين عن الأحجار لبناء آثاراهم وتنقيبهم عن الخامات المعدنية والجهود التي بذلوها لكشف الألياف والأحجار شبه الكريمة والأصبغة الملونة - كل ذلك مما أدى إلى انتقال الأساليب الفنية المصرية إلى آسيا وإفريقيا.

ولم يتردد المصريون في جلب احجارهم من الصحراء المكشوفة، وأحياناً ما كانوا ينتقلون في سبيل ذلك إلى مسافة تبعد ١٠٠ كيلومتر عن النيل. ويقع المحجر الذي كان يستخرج منه الديوريت اللازم لتمثال خفرع المشهور الموجود في متحف القاهرة في صحراء النوبة على بعد حوالى ٦٥ كيلومتراً إلى الشمال الغربي من أبوسمبل. وكانت المحاجر تستغل منذ فجر التاريخ المصري (حوالى عام ٢٨٠٠ق.م).

وكانت أساليب قطع الأحجار تتوقف على نوع الحجر المستخرج. ففيما يتعلق بالحجر الجيري نجدهم يجوفون أسراباً في الحزام العريض من الجروف الأيوسينية المطلة على النيل ويستخرجون الكتل الضخمة من الحجر الممتاز الذي استعمل في بناء الأهرامات الكبرى التي غطيت بعد ذلك بطبقة من الجرانيت. وكان يتم الحصول على رواسب الحجر الرملي في منطقة الكاب في مصر العليا وفي النوبة بأساليب تبدو بدائية ساذجة.

أما بالنسبة إلى الحجر الصلد، فكان الحجارون يقومون في البداية بشق حَز (ثلمة) حول الكتلة المراد استخراجها، ثم كانوا يقومون بعد ذلك بعمل حزوز في نقاط مختلفة على طول الحز الرئيسي، ثم يحشرون فيها أوتاداً خشبية تسقى بالمياه. وكان انتفاخ الخشب كافياً لفصل الكتلة الواقعة على طول الحزّ. ولا تزال هذه الطريقة تستعمل حتى اليوم في محاجر الجرانيت. فهل هذا من تراث مصر؟.



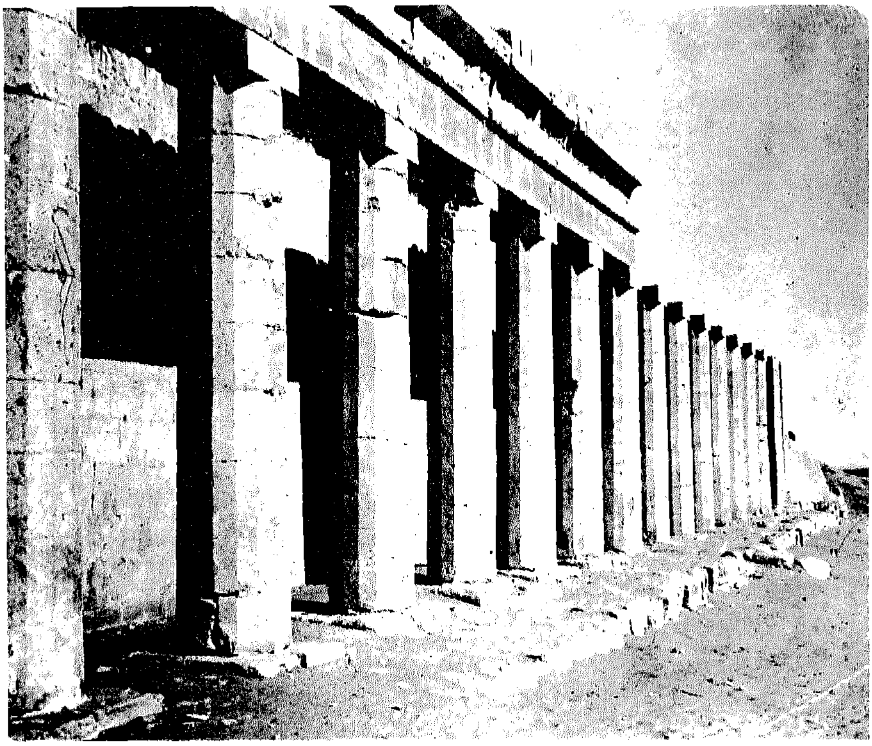
صناعة الزهريات المعدنية

والأدوات الوحيدة التي كان يستعملها الحجار المصري هي المدق الخشبي والازميل النحاسي وذلك فيما يتعلق بالأحجار الرخوة مثل الحجر الجيري والحجر الرملي، والمعول والازميل والمطرقة المصنوعة من الحجر الصلب فيما يتعلق بالصخور الصلبة كالجرانيت والجنيس (النيس) والديوريت والبازلت. وفي حالة وجود الحجر بعيداً عن النيل كانت الحملة تنطلق بعدد يصل إلى ١٤٠٠٠ رجل بما في ذلك الضباط والجنود والحمالون والحجارون والكتبة والأطباء. وكانت مثل هذه الحملات تجهز لكي تبقى مدداً طويلة خارج مصر. ولا بد أنها أسهمت في انتشار الحضارة المصرية وبخاصة في إفريقيا.

وقد أدت المهارات التي اكتسبها الحجارون في أوائل عصر الأسرات إلى جعل المصريين، بحلول عصر الدولة القديمة (حوالى ٢٤٠٠ق.م)، ينحتون مقابرهم حيث مثواهم الأخير من الحجر الصلب. وقبل ذلك التاريخ بمدة طويلة (من ٣٠٠٠ - ٢٤٠٠) كان بناء المقابر المعدة لتكون مساكن للموتى، قد جعلهم يبنون بنياناً فوقياً مهيباً، مما ادى بمرور الزمن، مع التغيرات التي طرأت على الفن المعماري، إلى قيام الهرم المدرج ثم الهرم بمعنى الكلمة الصحيح.

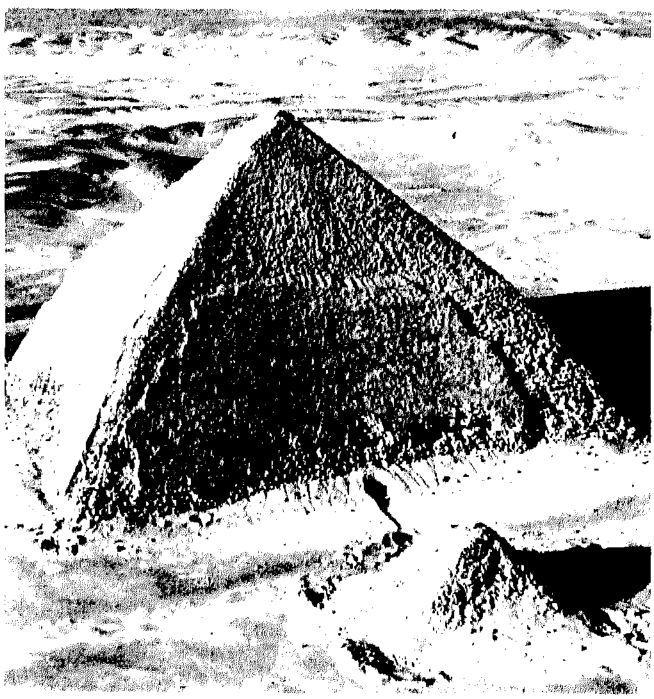
وتبدو خبرة المصريين في أعمال الخشب بصورة بارعة في بنائهم للسفن. وقد ادت متطلبات الحياة اليومية في وادي النيل، حيث النهر هو الطريق المريح الوحيد، إلى ظهور ملاحين مصريين متمرسين منذ أقدم العصور. وكانت المراكب تشغل مكانة بارزة في أقدم أعمالهم الفنية منذ عصور ما قبل التاريخ. ولما كانوا يعتقدون أن الحياة بعد الموت شبيهة بالحياة على الأرض، فليس من العجيب أن يصنعوا نماذج للمراكب في المقابر أو يرسموا مناظر لبناء السفن ومناظر نهرية على جدران المقابر. بل إنهم أحياناً كانوا يدفنون سفناً حقيقية بجوار المقابر لتكون على استعداد لكي يستعملها الموتى، وهو ما حدث في حلوان في جبانة الأسرتين الأولى والثانية وفي دهشور بجوار هرم سيزوستريس الثالث. إلا أن كشفاً حديثاً يشذ عن المألوف: ففي عام ١٩٥٢ اكتشفت حفرتان كبيرتان نحتتا في الصخر وغطيتا بألواح ضخمة من الحجر الجيري على طول الجانب الجنوبي من الهرم الأكبر. وقد عثر في الحفرتين على المركبين اللذين كان يستعملهما خوفو مفككين جزئياً، ولكنهما كاملان، بما في ذلك مجاذيفهما وقمرتاهما ودفتاهما. وقد نقل احد هذين المركبين من حفرته وأعيد تجميعه، أما الثاني فانه ما زال ينتظر اخراجه من «قبره».

هذا وان مركب خوفو الذي أُعيد تجميعه يوجد الآن في متحف خاص. وحين تم العثور عليه كان يتكون من ١٢٢٤ قطعة من الخشب فككت جزئياً وكدست في حفرة في ثلاث عشرة طبقة متتالية. وقياس المركب هو ٤٣,٤ مترا من حيث الطول، و٥,٩ أمتار من حيث العرض، وحمولته ٤٠ طناً. وسمك ألواح الخشب الجانبية ما بين ١٣ و١٤ سنتيمتراً. ومن الصعب تقدير عمق غاطسها بدقة. ولكن من الواضح أنه كان ضئيلاً إذا ما وضعنا في الاعتبار حجم السفينة. ورغم أن لمركب خوفو هيكلاً غير متطور من الأخشاب فليست له عارضة رئيسية تمتد على طول قعره، وقاعه مستو وضيق. ومما يثير الانتباه أن المركب بني بدون مسامير: فقد كانت القطع الخشبية لا يرتبط بعضها ببعض إلا بطريقة «تعشيق» اللسان والنقر. وكانت تربط أهم الأجزاء: الألواح الخشبية الثقيلة والقطع الخشبية الكبيرة (أضلاع المركب) والأجزاء المتقاطعة بعضها ببعض باستعمال الحبال، مما يسهل اعادة تجميعها. وكان المركب يضم قمرة وسطية كبيرة واسعة كما كان يضم في مقدمته ملتجأ مغطى. ولا يوجد شراع، ولهذا كان المركب يدفع اما بالمجاذيف أو كان يسحب، وذلك رغم أن الشراع كان يستعمل في مصر قبل عهد خوفو بوقت طويل. وكان من الممكن القيام بالحملات العسكرية البرمائية البعيدة عن مصر: على البحر الأحمر أو على الفرات بفضل هذه الطريقة التي تقوم على بناء وتجميع



١

٢



١ : أعمدة من الطراز الدوري المبكر في معبد الدير البحري

٢ : هرما سنفرو في دهشور

أجزاء منفصلة كانت تربط بعضها إلى بعض بعد ذلك. وكان الجيش المصري في الواقع يحمل معه أجزاء السفن التي قد يحتاج إليها.

ونحن نستنتج من نسبة عرض هذه المراكب المصرية إلى طولها ومن قلة عمق غاطسها أنها صممت للاستعمال على النهر. وكان الهدف الأول منها هو تحقيق أقصى حمولة مع تجنب ارتطامها بالأرض. ورغم ذلك فمنذ الأسرة الخامسة، ويحتمل أنه قبل ذلك، عرف المصريون كيف يطورون سفنهم بحيث تقوم برحلات في المحيطات. ويتضح من مراكب سحورع ان اعدادها للاستعمال في البحر قد ادى إلى الامعان في التقليل من علو مقدم المركب وكذلك الحال بالنسبة إلى السطح المرتفع الواقع عند مؤخرته. اما بالنسبة الى مركب خوفو فقد عُلِّي المقدم وسطح المؤخر لكي يكونا فوق مستوى خط العوم. وهذا مما جعل من الصعب السيطرة على السفينة وسط امواج البحر الأبيض او البحر الأحمر.

وبالاضافة الى هذا فإن المهندسين البحريين المصريين قد اضفوا تماسكاً كبيراً على البنيان كله وذلك بتجهيز السفينة بحبل اللّي الغليظ الذي يمر فوق منصة الربان وربط مؤخر السفينة بمقدمتها بإحكام. كما كان هذا الحبل يوفر عارضة رئيسية ويضمن تماسك البنيان كله ويقلل من مخاطر كسره في الوسط.

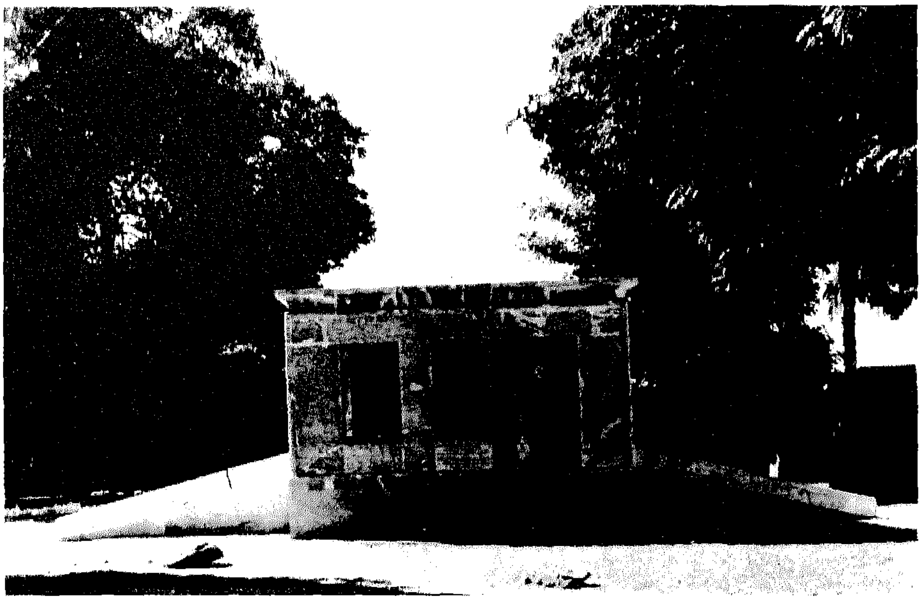
وبعد إجراء هذه التعديلات كان بإمكان السفينة المصرية أن تذرع الطرق البحرية التي استعملها الفراعنة سواء في البحر المتوسط في اتجاه فلسطين وسوريا وقبرص وكريت أو في البحر الأحمر باتجاه بلاد بُنت البعيدة. ولا يوجد ما يحملنا على الاعتقاد بان المصريين قد تأثروا بالفينيقيين في هذا المجال، بل على العكس من ذلك فإن من المحتمل جداً - وإن كان هذا لا يمكن إثباته في ضوء معلوماتنا الراهنة - أن المصريين هم الذين مهدوا الطريق لاستعمال الأشرعة في الرحلات البحرية (وكانت عوارض الصواري التي تحمل وتنشر والاشرعة المصرية قابلة للانضباط، مما كان يسمح باختلاف درجات السرعة). واخترعوا السُّكّان. ولا شك أن مجاذيف التوجيه الكبيرة الموضوعة في مؤخرة السفينة كانت منذ عهد الامبراطورية القديمة مزودة بقضبان عمودية كانت تحولها بالفعل إلى دفات.

الاسهامات العلمية

خلفت إسهامات الفراعنة في العلوم والرياضيات التطبيقية تراثاً قيّماً في حقول الطبيعة والكيمياء وعلم الحيوان والجيولوجيا والطب والصيدلة والهندسة والرياضيات التطبيقية. ولا شك أنهم زودوا البشرية بحصيلة كبيرة من الخبرة في كل من هذه المجالات التي كان بعضها يقرن بالبعض الآخر لتنفيذ مشروع معين.

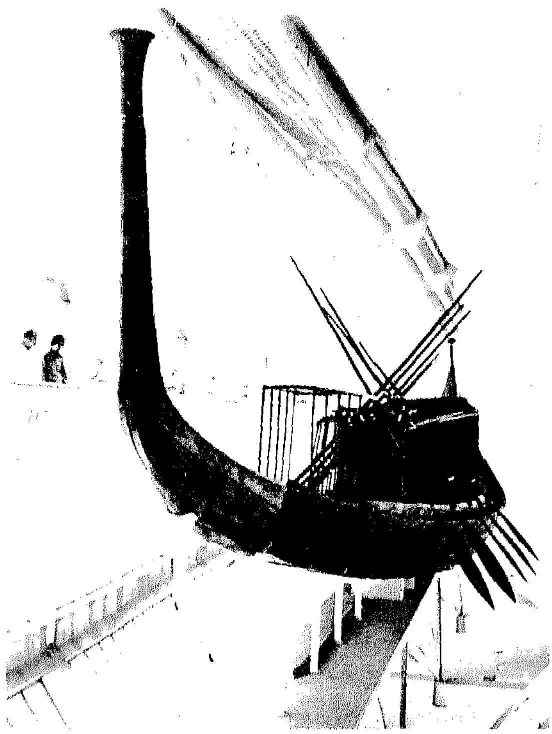
التحنيط

والتحنيط من الأمثلة البارزة لعبقرية قدماء المصريين. فهو يوضح تمكنهم في عدد من العلوم ومنها الكيمياء والطبيعة والطب والجراحة. وكانت براعتهم في كل فرع ناتجة عن خبرة طويلة. فمثلاً نجدهم يستغلون اكتشافهم للخاصية الكيمائية للنطرون الذي وجد في أماكن معينة من مصر - وخاصة في وادي النطرون - للافادة من الخواص الكيمائية لهذه المادة في الوفاء عملياً بمستلزمات معتقداتهم الخاصة بعالم ما بعد الموت. فقد اعتقد المصري القديم في استمرار الحياة بعد الموت وأكد



١

٢



١ : الكرنك : «مثوى - مرسى» مركب آمون

٢ : الجيزة : «مثوى - مرسى» مركب خوفو

اعتقاده بصورة عملية بالحفاظ على الجسم الانساني. وقد جرى في العصور الحديثة تحليل مركبات النطرون فوجد أنها تحتوي على خليط من كربونات الصوديوم وبيكربونات الصوديوم والملح وسلفات الصوديوم - وهكذا كان المصري القديم على علم بالخواص الكيميائية لهذه المركبات. وكانت عملية التحنيط تستلزم نقع الجسم في النطرون لمدة سبعين يوماً. وكان المخ يستخرج عن طريق الأنف، كما كانت تستأصل الأمعاء من خلال فتحة تشق في احد جانبي الجسم. ومثل هذه العمليات كانت تستلزم معرفة وثيقة بعلم التشريح، ومما يدل على هذه المعرفة الوثيقة أن المومياءات قد أمكن الحفاظ عليها إلى حد كبير.

الجراحة

لا شك أن المعلومات التي استقاها المصريون من التحنيط قد مكنتهم من تطوير أساليب الجراحة في فترة مبكرة جداً من تاريخهم. ولدينا معلومات طيبة عن الجراحة المصرية، وذلك بفضل بردية سميث، وهي نسخة من الأصل الذي كتب في عهد الدولة القديمة فيما بين عامي ٢٦٠٠ و٢٤٠٠ق.م وهذه البردية هي في الواقع بحث في جراحة العظام وعلم الأمراض السطحية يشمل فحص ٤٨ حالة فحصاً تصنيفياً وفي كل حالة منها يستهل مؤلف البحث وصفه تحت عنوان عام: تعليمات خاصة (بحالة معينة) ويلي ذلك وصف إكلينيكي: «إذا ما لاحظت (مثل هذه الأعراض)». والأوصاف دقيقة باستمرار وواضحة المعالم. ثم يتلو ذلك التشخيص: «ستقول فيما يتصل بذلك» حالة (هذا الجرح او ذاك)، ووفقاً لدرجة (الاصابة) «حالة يمكنني علاجها» أو «الحالة ليس لها علاج». وإذا ما أمكن للجراح أن يعالج المصاب فإنه يصف علاجه بالتفصيل - على سبيل المثال: في اليوم الأول تستعمل ضمادة ومعها قطعة من اللحم وبعد ذلك تضع قطعتين من القماش بطريقة تسمح بضم طرفي الجرح معاً...».

ولا تزال كثير من الوصفات المشار إليها في بردية سميث تستعمل حتى الآن. ولقد عرف الجراحون المصريون كيف يعملون غرزاً لرتق الجروح وكيف يجبرون كسر العظام وذلك باستعمال جبائر خشبية او مصنوعة من الورق المقوى. ونحن نجد بردية سميث تأمر المريض في مناسبتين بالاستمرار في تناول طعامه العادي.

وأغلب الحالات التي درستها بردية سميث تتصل بالتمزقات السطحية في الجمجمة أو الوجه. وتتصل الحالات الأخرى بالاصابات الملحقة بالعظام أو المفاصل: مثل كدمات فقرات العنق أو العمود الفقري أو الخلع أو انثقاب الجمجمة أو عظم القَصّ والكسور المتنوعة التي تؤثر في الأنف والفك والترقوة وعظم العضد والضلوع والجمجمة والعمود الفقري. وقد كشف فحص المومياءات عن آثار جراحة في الفك - على سبيل المثال - ترجع الى عصر الدولة القديمة، وبها ثقبان ثُقِبا لتجفيف خُرّاج، وكذلك جمجمة كسرت بضربة من بلطة أو سيف وأعيدت بنجاح إلى حالتها الأصلية. وهناك أيضاً أدلة على علاج الأسنان، مثل أعمال حشو الأسنان باستعمال ملاط معدني، ووجد في إحدى المومياءات جسر مصنوع من سلك الذهب كان يربط سنتين آيلتين للسقوط.

إن بردية سميث، بعرضها المنهجي، لتنهض دليلاً على براعة جراحي مصر القديمة، وهي البراعة التي من دواعي الانصاف أن نفترض أنها انتقلت بالتدريج إلى إفريقيا وآسيا والعالم القديم الكلاسيكي، وذلك عن طريق الأطباء الذين كانوا يلحقون دائماً بالحملات المصرية الموجهة إلى



مومياء رمسيس الثاني (تقنية الموائع)

البلدان الأجنبية. بالاضافة إلى ذلك فمن المعروف أن الملوك الأجانب، مثل أمير بختان الآسيوي في بكتريا (قرب نهر جيجون بآسيا الوسطى) أو قمبيز ذاته قد استقدموا أطباء مصريين وأن أبوقراط قد أطلع على مكتبة معبد امحوتب في ممفيس وأن أطباء إغريق آخرين قد نسجوا على منواله بعد ذلك.

الطب

يمكن اعتبار المعلومات الطبية من أهم الخدمات العلمية المبكرة التي قدمتها مصر القديمة للتاريخ الانساني. وتوضح الوثائق بالتفصيل ألقاب الأطباء المصريين ومختلف مجالات تخصصهم. وفي الحق ان حضارات الشرق الأدنى القديم والعالم الكلاسيكي قد اعترفت بمهارة المصريين القدماء وسمعتهم في مجالات الطب والصيدلة. ومن أبرز الشخصيات في تاريخ الطب امحوتب الوزير والمهندس المعماري وطبيب الملك زوسر أحد ملوك الأسرة الثالثة. وقد ظلت شهرته باقية في شتى عصور التاريخ المصري القديم حتى عهد الاغريق. وقد ألهه المصريون تحت اسم امحوتب وقرنه الاغريق بأسكلبيوس إله الطب. وفي الواقع يمكننا التعرف بسهولة على تأثير المصريين في العالم الاغريقي في مجالات الطب والصيدلة من خلال طرق العلاج والوصفات الطبية. وقد تم أثناء التنقيبات الأثرية اكتشاف بعض الأدوات الطبية التي كانت تستعمل في العمليات الجراحية.

وترد الشواهد المكتوبة الخاصة بالطب المصري القديم في الوثائق الطبية مثل بردية ايبرز وبردية برلين وبردية إدوين سميث الجراحية وكثير من البرديات الأخرى التي توضح أساليب العمليات وتفصل في وصف طرق العلاج التي كان يصفها الأطباء.

وهذه النصوص هي صور من أصول يرجع تاريخها الى عهد الدولة القديمة (حوالى ٢٥٠٠ق.م). وعلى نقيض بردية ادوين سميث الجراحية ذات الطابع العلمي الواضح، كانت النصوص الطبية الخالصة تقوم على أساس السحر. فقد اعتبر المصريون المرض عملاً من صنع الآلهة أو الأرواح الشريرة، وهو ما كان يبرر الاستعانة بالسحر، ويفسر السبب في أن بعض طرق العلاج الموصوفة في بردية ايبرز - على سبيل المثال - هي أشبه برقية سحرية منه بوصفة طبية.

ورغم هذا الجانب الذي تشترك فيه الحضارات القديمة الأخرى على قدم المساواة لم يكن الطب المصري علماً قليل الشأن اذ كان يحوي بدايات الفحص المنهجي، وبخاصة في ملاحظة الأعراض. ولا شك أن هذه الطريقة قد انتقلت الى الأجيال بسبب أهميتها. فلقد كان الطبيب المصري يفحص مريضه ويحدد أعراض شكواه، ثم يقوم بتشخيص المرض والعلاج. وتصف كل النصوص الموجودة بالفعل هذا التسلسل الذي يمكن أن نستخلص منه أنه كان اجراء متعارفاً عليه. وكان الفحص يجري على مرحلتين تفصل بينهما أيام عدة اذا لم تكن الحالة واحدة. ومن الأمراض التي أمكن التعرف عليها ووصفها وصفاً كاملاً وشرح علاجها على أيدي الأطباء المصريين: اضطرابات المعدة وانتفاخاتها وسرطان الجلد والزكام والتهاب الحنجرة والذبحة الصدرية والبول السكري والامساك والبواسير والنزلة الشعبية واحتباس البول وسلس البول والبلهارسيا والرمد - وغير ذلك.

وقد عالج الطبيب المصري مريضه باستعمال اللبوس والمراهم والجرعات والأشربة والزيوت والتدليك والحقن الشرجية والمسهلات والكمادات، بل والنشوق الذي علم المصريون الاغريق كيف يستعملونه. وكانت مستحضراتهم تضم طائفة متنوعة من الأعشاب الطبية التي لا يمكننا ترجمة اسمائها لسوء الحظ. ولقد احرزت المهارات الطبية والأدوية المصرية سمعة ممتازة في التاريخ القديم عرّفنا بها

هيرودوت. وقد انتقلت إلينا أسماء حوالى مائة طبيب مصري عن طريق هذه النصوص - ومنهم أطباء عيون وأطباء أسنان من أقدمهم حسي - رَع عاش حوالى عام ٢٦٠٠ ق.م في عهد الأسرة الرابعة.

وقد وجد من المتخصصين كذلك أطباء بيطريون. وكان الأطباء يستعملون في عملهم مجموعة من مختلف الأدوات.

الرياضيات (الحساب والجبر والهندسة)

الرياضيات مجال هام من مجالات العلم التي اهتم بها قدماء المصريين. ومن الأدلة الواضحة على اهتمامهم بالدقة تلك القياسات الدقيقة التي تتميز بها آثارهم المعمارية والنحتية الكثيرة. وما كان بإمكانهم أن يصلوا على الاطلاق إلى هذا الأوج من الاتقان دون حد أدنى من المدارك الرياضية.

وقد انتقلت إلينا برديتان رياضيتان ترجعان الى عهد الدولة الوسطى (٢٠٠٠ ق.م الى ١٧٥٠ق.م)، هما برديتا موسكو ورند (Rhind)) . وكانت طريقة الحساب عند المصريين، التي كانت تأخذ بالعد العشري، تقوم على تكرار رموز الأعداد (الآحاد، العشرات، المئات، الآلاف) عدة مرات وفقاً لما يتطلبه الأمر للحصول على الرقم المطلوب. ولم يكن لديهم صفر. ومما يسترعي الانتباه لطرافته أن الرموز المصرية للكسور ١/٢، ١/٣، ١/٤، وما إلى ذلك، ترجع في أصلها إلى أسطورة حورس وست التي يرد فيها أن ست مزق إحدى عيني حورس الصقر وقطعها إلى عدة أجزاء هي التي ترمز إلى كسور معينة ويمكن تناول الرياضيات المصرية بتقسيمها إلى ثلاثة أقسام: الحساب والجبر والهندسة.

كان التنظيم الاداري المصري يتطلب معرفة بالحساب - فلقد كانت كفاءة الادارة الشديدة المركزية تستند إلى المعرفة اليقينية لما كان يحدث في كل اقليم في شتى مجالات النشاط. وليس من الغريب والأمر كذلك أن ينفق الكتبة شطراً كبيراً من الوقت في عمل سجلات لمساحة الأراضي المزروعة وكميات الانتاج المتوفرة وتوزيعها وحجم ونوعية الهيئة الادارية - وما إلى ذلك.

وكانت طريقة المصريين في اجراء الحساب بسيطة - فقد هبطوا بكل العمليات إلى سلسلة من أعمال الضرب والقسمة على اثنين (المضاعفة)، وهي عملية بطيئة تتطلب قليلاً من الحفظ وتجعل جداول الضرب غير لازمة. وفي عمليات القسمة حين يكون المقسوم غير قابل للقسمة، كان الكاتب يدخل الكسور، وإن يكن نظامهم لم يستعمل إلا الكسور التي كان بسطها العدد واحد. وكانت العمليات الرياضية الخاصة بالكسور تقوم كذلك على المضاعفة - وتحتوي النصوص على نماذج عدة من حصص نسبية أمكن الحصول عليها بهذه الطريقة، مع إضافة الكاتب إلى نهاية أعماله الحسابية عبارة «الناتج المضبوط» التي تقابل صيغة «وهو المطلوب إثباته» التي نستعملها اليوم.

وكل المسائل التي كانت تطرأ ويجري حلها في النصوص المصرية الخاصة بالحساب لها صفة مشتركة: فهي كلها مسائل عملية من النوع الذي كان على الكاتب أن يحله يومياً وهو معزول في قرى نائية، مثل توزيع أنصبة من سبعة أرغفة من الخبز على عشرة رجال بحسب منزلتهم في السلك الاداري، أو حساب عدد قوالب الطوب اللازمة لبناء سطح مائل. ومن هنا فقد كان الحساب من حيث الأساس نظاماً تجريبياً ليس فيه الا القليل من الطابع النظري التجريدي. ومن الصعب أن نتبين عناصر هذا النظام التي يحتمل أن تكون قد انتقلت الى الحضارات المجاورة.

وليس من الواضح بالضبط ما اذا كان المرء يمكنه أن يتحدث عن جبر مصري. والمتخصصون في تاريخ العلوم لهم آراء متباينة حول هذا الموضوع. وتوجد مسائل معينة موصوفة على بردية رند ويعبر

عنها كما يلي: كمية (يعبر عن كمية في المصرية القديمة بلفظ أحا) مجهولة أضيف اليها أو طرح منها جزء يساوي ن/١ من هذه الكمية وينتج عن ذلك كمية معلومة «م». ما هي قيمة الكمية المجهولة؟ وبلغة الجبر يمكن التعبير عن هذه المسألة بحل المعادلة س ± ن/س = م.

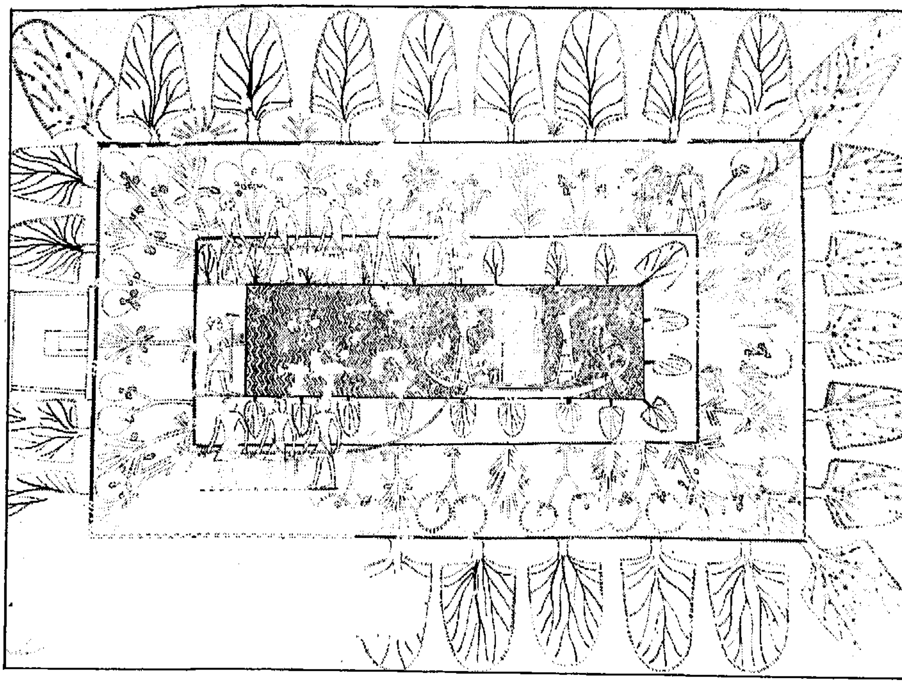
وهذا مما قاد بعض مؤرخي العلوم الى الاعتقاد بأن المصريين استعملوا الحسابات الجبرية. ومع هذا فإن الحلول المقترحة على ورق البردي لمثل هذا النوع من المسائل يمكن التوصل اليها بحساب بسيط والحالة الوحيدة التي يحتمل ان يكون الجبر قد استعمل فيها هي مسألة قسمة تؤدي الى وجود معادلة من الدرجة الثانية. وقد حلت هذه المسألة بطريقة مماثلة للطريقة التي يحلها بها متخصص حديث في علم الجبر. ولكن بدلاً من استعمال رمز مجرد مثل س كأساس للحساب استعمل العدد ١. والسؤال عن وجود الجبر المصري أو عدم وجوده يتوقف عما اذا كان المرء يقبل أو يرفض احتمال القيام بعمليات جبرية بدون استعمال رموز مجردة.

ويتفق الكاتبان الاغريقيان هيرودوت وسترابون على أن المصريين هم الذين اخترعوا الهندسة. ومن الواضح أن حساب مساحة الأرض التي كانت تنقص أو تزداد كل سنة نتيجة لفيضان النيل هو الذي دعاهم إلى اكتشافها. والحق أن الهندسة المصرية كانت تجريبية مثلها في ذلك مثل الرياضيات. وفي الشروح القديمة كان الهدف أولاً وقبل كل شيء هو تزويد الكاتب بصيغة من شأنها أن تمكنه من التوصل بسرعة إلى مساحة حقل أو كمية الحبوب الموجودة في الشونة أو عدد قوالب الآجر اللازمة لمشروع بناء. ولم يستعمل الكاتب الاستنتاج المجرد قط لحل مشكلة معينة ولكنه كان يكتفي بتوفير الوسيلة العملية على شكل أرقام. ورغم ذلك فقد كان المصريون يعرفون تماماً كيف يحسبون مساحة مثلث أو دائرة وحجم أسطوانة وهرم أو هرم ناقص، وربما نصف الكرة. وكان أكبر نجاح احرزوه هو حساب مساحة الدائرة، وذلك بتقليل القطر بمقدار التسع وتربيع الناتج الذي كان يكافىء اعطاء القيمة العددية ٣,١٦٠٥ لـ«ط». (أي النسبة التقريبية بين طول محيط الدائرة وقطرها). وهذا أدق بكثير من القيمة ٣ التي كانت الشعوب القديمة الأخرى تعطيها لـ«ط».

وقد ثبت أن الالمام بالهندسة كانت له قيمة عملية كبيرة في مسح الأراضي الذي كان يلعب دوراً بارزاً في مصر. فهناك كثير من المقابر التي تحتوي على نقوش تبدو فيها فرق من المساحين المنهمكين في التأكد من أن حجارة الحدود في الحقول لم تزحزح عن أماكنها، ثم يقومون بعد ذلك بقياس مساحة الحقل المزروع بحبل به عقدة وهو سابق على السلسلة التي يستعملها مساحونا في الوقت الحاضر. ويرد حبل المسّاح أو «نوح» (Nouh) في أقدم النصوص (حوالى عام ٢٨٠٠ق.م). وكان لدى الحكومة المركزية مكتب للمساحة التفصيلية (للأملاك والعقارات) وهو المكتب الذي نهبت سجلاته أثناء ثورة ممفيس (حوالى عام ٢١٥٠ق.م) ولكن أعيدت إلى ما كانت عليه في عهد الدولة الوسطى (حوالى عام ١٩٩٠ق.م).

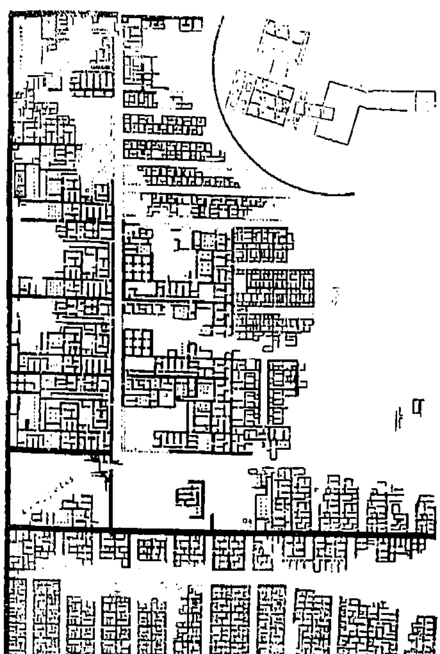
علم الفلك

لا يمكن بأي حال مضاهاة ما لدينا من المادة الوثائقية الخاصة بعلم الفلك المصري بالمادة المتوفرة عن الرياضيات (برديتا رند وموسكو) أو الجراحة والطب (برديتا إدوارد سميث وأيبرز). على أن لدينا من الأسباب ما يدعونا إلى الاعتقاد بوجود أبحاث خاصة بالفلك. ورغم أن بردية كارلسبرج (رقم ٩) التي



١

٢



١ : حديقة مصرية

٢ : تخطيط المدن : مخطط مدينة اللاهون (كاهون) وفقاً لبترى. وهو يبين ازدحام الأحياء الفقيرة. (أدرج داخل دائرة مخطط مقبرة ماكت، الأسرتان التاسعة عشرة والعشرون)

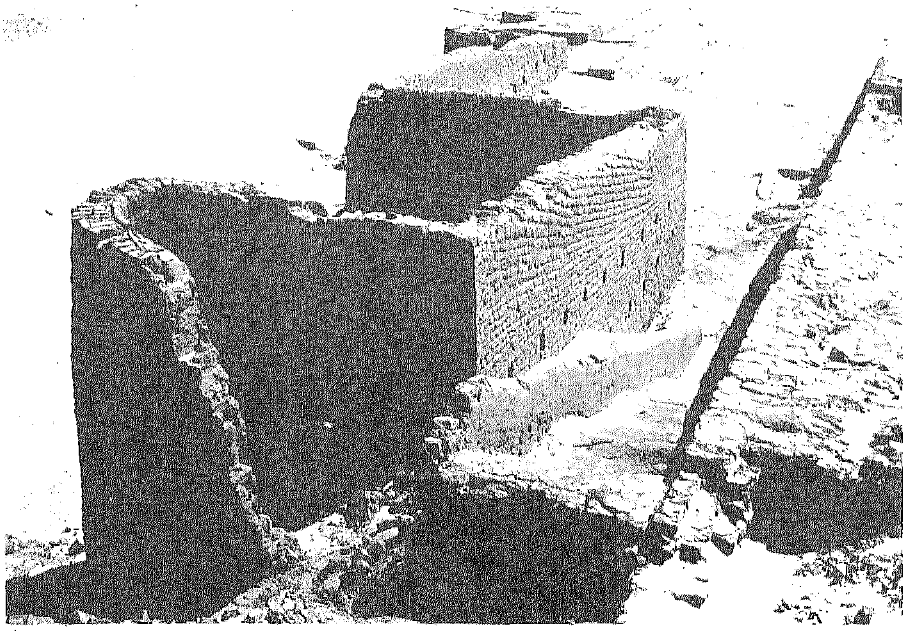
تصف طريقة تحديد مراحل القمر قد كتبت دون شك في العصر الروماني، فإنها استقيت من مصادر أقدم بكثير ولا تتضمن أي تأثير هلينستي، ويصدق هذا على بردية كارلسبرج (رقم ١). ومن المؤسف أننا لم نعثر على مصادر أقدم من ذلك، ولهذا فلا بد من استنتاج عطاء المصريين في الفلك من التطبيقات العملية المستندة إلى الملاحظات. ورغم ذلك فلم يكن هذا العطاء قليلاً.

وقد سبق أن رأينا (انظر المقدمة) أن التقويم المصري كان ينقسم الى ٣ فصول كل منها طوله ٤ شهور، وطول كل شهر ٣٠ يوماً - وقد أضيفت إلى هذه الأيام الثلاثمائة والستين خمسة أيام في آخر السنة. والتقويم السنوي الذي يحتوي على ٣٦٥ يوماً، وهو أدق تقويم معروف في التاريخ القديم، هو الأساس الذي قام عليه تقويمنا السنوي، لأنه الأساس الذي قام عليه إصلاح يوليوس قيصر (٤٧ق.م) والاصلاح الجريجوري في عام ١٥٨٢م.

ومنذ حملة نابليون على مصر دهش الأوروبيون لدقة تخطيط المباني التي بنيت في عهد الفراعنة وخاصة الأهرام التي تواجه جوانبها الأربعة الجهات الأصلية الأربع. وتنحرف الأهرام الكبرى عن الشمال الحقيقي بأقل من درجة وكان لا يمكن التوصل إلى مثل هذه الدقة إلا بالملاحظة الفلكية إما لاتجاه النجم القطبي في ذلك الوقت أو لتكبد نجم ثابت السماء أو لنصف الزاوية التي يكونها اتجاه نجم في فترات طولها ١٢ ساعة، او لخط تنصيف زاوية شروق وغروب نجم ثابت او بملاحظة أقصى انحرافات نجم ثابت (التي لا بد أن تكون ٧ درجات من الدب الأكبر طبقاً لما يذهب إليه ز. زوربا .Z Zorba). وفي كل هذه الحالات تلزم الملاحظة الفلكية الدقيقة لحساب التخطيط. وكان المصريون قادرين تماماً على القيام بمثل هذه الملاحظات، إذ كانت لديهم هيئة من الفلكيين الذين كانوا يعملون تحت إشراف الوزير الذي كانت مهمته ملاحظة سماء الليل وشروق النجوم وبخاصة الشِّعْرَى اليمانية (سوتيس) وفوق كل ذلك تحديد مرور ساعات الظلام التي كان طولها، لدى المصريين، يختلف باختلاف الفصول: فالليل الذي كان يفترض أنه يتكون من ١٢ ساعة كان يبدأ دائماً بالغروب وينتهي بالشروق. وقد وصلت إلينا نصوص توضح أن كل ساعة ليل كانت تتميز، شهراً بعد آخر، على فترات طول كل منها عشرة أيام، بظهور برج أو نجم كبير الحجم. وقد ميزت هذه القوائم ٣٦ من أمثال هذه الأبراج أو النجوم التي كانت تشكل صوراً بروجية عشرية كل منها كان يستهل فترة عشرة أيام.

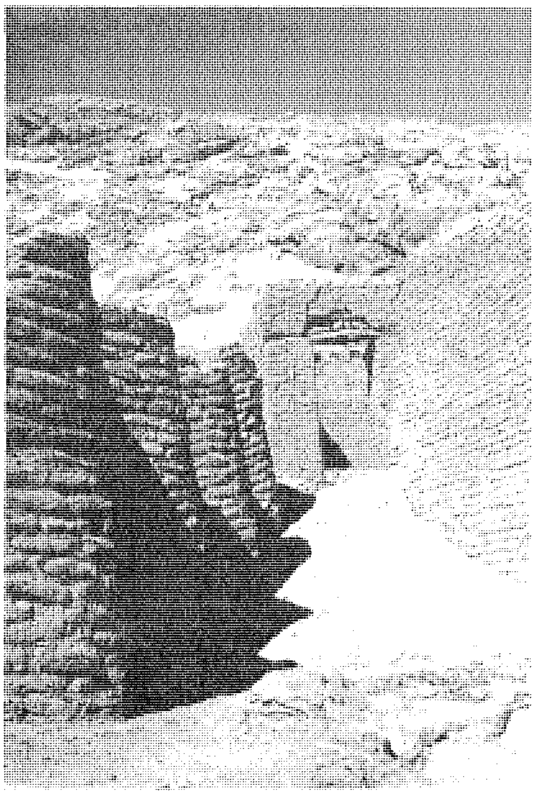
وهذا النظام يرجع على الأقل الى الأسرة الثالثة (حوالى عام ٢٦٠٠ق.م). وإلى جانب الجداول كانت لدى الفلكي - الكاهن أدوات ملاحظة بسيطة: قصبة الرؤية وزاوية معلق بها فادن (ميزان استقامة الجدار) كان يحتاج إلى اثنين من الراصدين. ورغم الطبيعة البدائية لهذه الطريقة، فإن الملاحظات كانت دقيقة، كما يبدو في دقة اتجاهات الأهرام. وتحتوي بعض المقابر على نقوش تمثل السماء. وترسم النجوم على شكل صور مما سهل التعرف على بعض الأبراج التي عرفها المصريون. كان «الدب الأكبر» يسمى «رِجْل الثور» كما كانت النجوم المحيطة «بالسّماك الرامح» تمثل «بتمساح» و«فرس نهر» مربوطين معاً. وكانت «كوكبة الدجاجة» تمثل برجل باسط ذراعيه، و«الكلب الجبار» بشخص يجري ورأسه مستدير إلى الخلف، «وذات الكرسي» بشكل بشري ممدود الذراعين وكوكبة التنين وكوكبة الثريا وبرج العقرب وبرج الحمل بأشكال بشرية أخرى.

ولتحديد ساعات اليوم، التي كانت تتغير تبعاً للفصول، استعمل المصريون المزولة او الساعة الشمسية، وهي عصا بسيطة مزورعة رأسياً على لوح خشبي مدرج مربوط به عمودياً. وكانت هذه الأداة تستعمل في قياس الوقت الذي ينفق في ري الحقول، إذ كان من الواجب توزيع المياه دون تحيز.



١

٢



١و٢ـ اكتشافات لبعثة
الآثار الفرنسية في السودان

وإلى جانب المزولة كانت لدى المصريين ساعات مائية كانوا يضعونها في معابدهم، وقد اقتبسها اليونانيون وأدخلوا عليها بعض التحسينات. تلك هي الساعات المائية في العصور القديمة، وقد جرى صنعها في مصر منذ عام ١٥٨٠ق.م.

العمارة

سخر المصريون معلوماتهم الرياضية في استخراج ونقل الكتل الحجرية الضخمة التي استعملوها في مشروعاتهم المعمارية ووضعها في مكان معين. ومنذ أقدم العصور كانوا على خبرة طويلة باستعمال اللّبن ومختلف أنواع الأحجار. وقد جرى استعمالهم للجرانيت الثقيل للمرة الأولى خلال اوائل الألف الثالث قبل الميلاد، وقد بلطوا به أرضية بعض مقابر الأسرة الأولى الموجودة في أبيدوس. وفي عهد الأسرة الثانية استعملوا الحجر الجيري في بناء جدران المقابر.

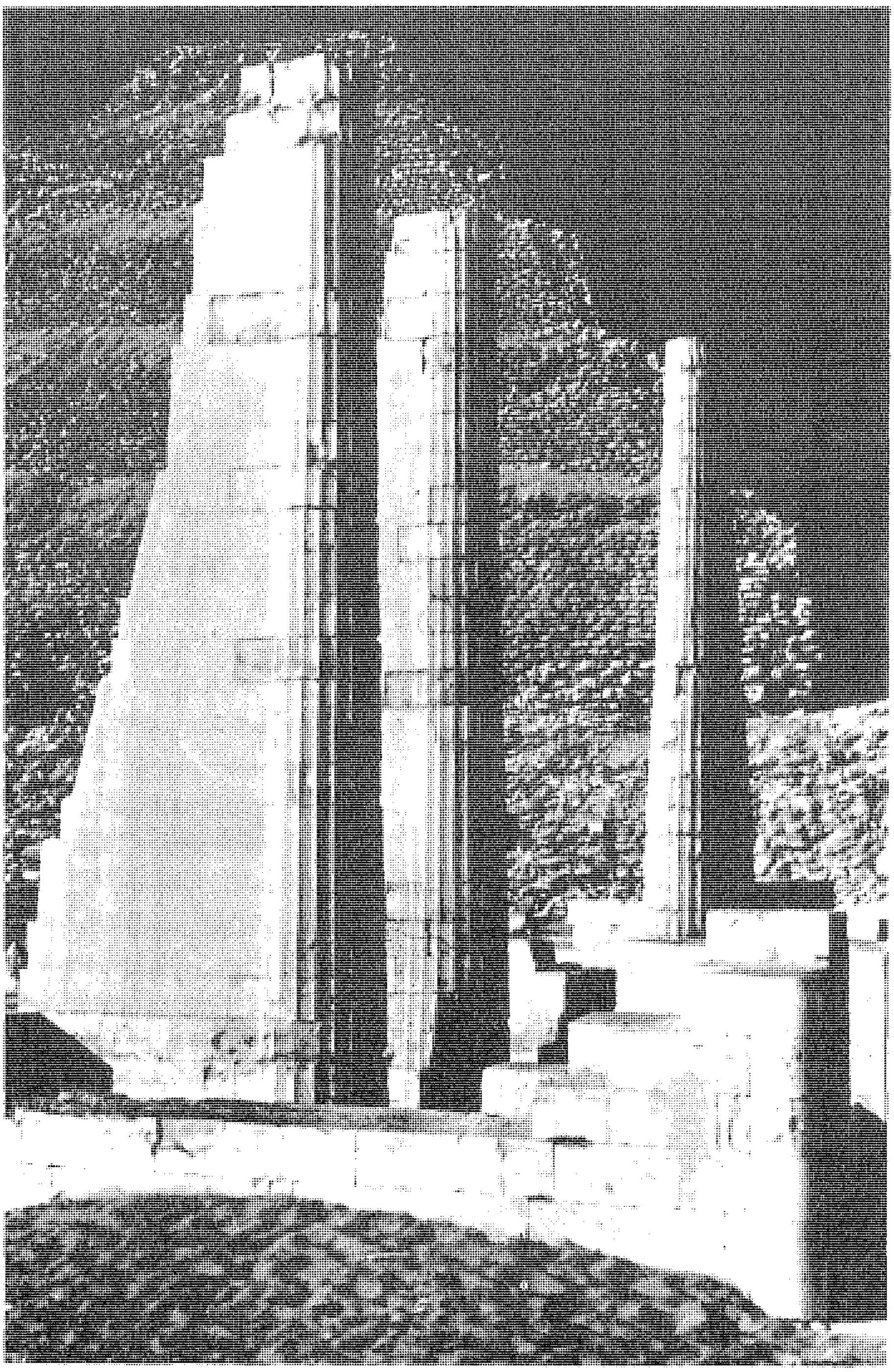
وقد بدأت مرحلة جديدة في عهد الأسرة الثالثة كانت بمثابة تطور حيوي في تاريخ المعمار المصري، وذلك حين بُنِيَ أول مبنى كامل بالحجر هو هرم سقارة المدرّج الذي يشكل جزءاً من المجمع الجنائزي الضخم الذيّ بناه الملك زوسر.

وكان امحوتب – الذي يحتمل أنه كان وزيراً للملك زوسر (حوالى عام ٢٥٨٠ق.م) هو المهندس المعماري الذي بنى المجمع الذي يضم الهرم المدرج الذي استعمل في بنائه الحجر المنحوت للمرة الأولى. وكانت الكتل صغيرة وتشبه إلى حدّ كبير شكل الطوب النيء الذي استعمل في العمارة الجنائزية السابقة ولكن من الحجر الجيري. كما أن الأعمدة المطمورة وعروق السقف كانت نسخاً حجرية من حزم النباتات والدعامات التي استعملت في أبنية سابقة. ومن ثم فهناك كل الدلائل على أن المعماري المصري كان من أسبق المهندسين في استعمال الحجر المنحوت في مبنى ذي عرقات (مداميك).

ولقد طورت مصر طائفة متنوعة من الأشكال المعمارية التي لا شك أن الهرم كان أبرزها. وكانت الأهرام الأولى اهراماً مدرجة ولم يحدث حتى عهد الأسرة الرابعة (حوالى عام ٢٣٠٠ق.م) أن اصبحت بالتدريج ذات شكل مثلث. ومنذ هذه الفترة تخلى المهندسون المعماريون عن استعمال الحجارة الصغيرة التي كانت تستعملها الأسرة الثالثة وفضلوا عليها كتل الحجر الجيري الكبيرة والجرانيت.

وحتى الفتح الروماني ظلت العمارة المدنية تستعمل اللبن حتى في بناء القصور الملكية. وتوفر لنا مباني رمسيس الاضافية المنعزلة في طيبة والقلاع النوبية الكبرى صورة طيبة جداً عن تعدد استعمال هذه المادة التي كان يمكن استعمالها بمنتهى النقاء: وهو ما يمكننا أن نلمسه في قصر امنحتب الرابع في تل العمارنة الذي زينت أرضياته وأسقفه بالرسوم. ومن انجازات المصريين الأخرى في مجال العمارة ابتداع العمود الذي كان في البداية ملتصقاً بالجدار، وإن تكن الأعمدة قد أصبحت بعد ذلك قائمة بذاتها منفصلة.

وقد تأثر المصري القديم في تطوير هذه المهارات المعمارية بالبيئة المحلية الى حد كبير. فمثلاً فيما يتعلق بتوصله إلى فكرة العمود نجده يستقي إلهامه من النباتات البرية مثل القصب والبردي. وقد صمم رؤوس الأعمدة على شكل زهرة اللوتس والبردي وغيرهما من النباتات وكان هذا إضافة معمارية أخرى. وقد جرى اقتباس أشكال اغصان البردي، وحزم اللوتس، وسعف النخيل والأعمدة المضلعة على يد مهندسي العمارة في حضارات اخرى.



أعمدة معبد سقارة

ومن المحتمل أن المصريين القدماء قد ابتكروا العقد (القبو) في عهد الأسرة الثانية (حوالى عام ٢٩٠٠ ق.م)، وكان في البداية سقفاً معقوداً مصنوعاً من الطوب ولكن ما وافى عهد الأسرة السادسة حتى كان المصريون يبنون سقفاً معقوداً من الحجارة.

وكان هرم الجيزة الأكبر إحدى عجائب الدنيا السبع. ويدل مبنى بمثل هذه الضخامة على مهارة المصريين القدماء في مجالي العمارة والادارة ومن الأمثلة الجيدة على براعتهم بناء الدهاليز الصاعدة المفضية إلى حجرة الملك الجرانيتية ووجود فتحتين على كل من الجانبين الشمالي والجنوبي لحجرة الملك ممتدتين إلى الخارج لتوفير التهوية.

وتدل نسب الغرف والدهاليز وقياساتها واتجاهاتها الدقيقة، بالاضافة إلى قطع ونصب المسلات الضخمة من الحجر الصلب، على مهارات المصريين الفنية العظيمة منذ أقدم العصور.

وكان المصريون يستعملون في نقل ونصب كتل الحجارة الروافع والاسطوانات (البكرات) والقضبان الخشبية المستعرضة. ولقد قاموا بإنجازاتهم المعمارية، برغم أحجامها الضخمة، باستغلال قوة ذراع الانسان وحدها دون اللجوء إلى وسائل ميكانيكية باستثناء مبدأ الرافعة بأشكالها المختلفة.

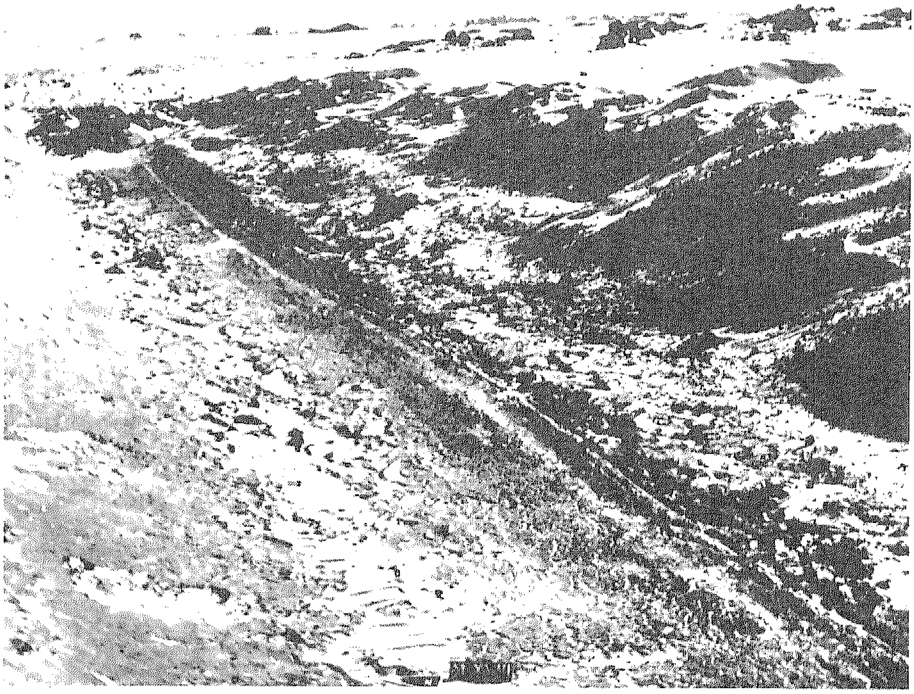
ولقد تبدت المعرفة التقنية التي حصل عليها المصريون في مجالات البناء والري نتيجة لحفر القنوات وبناء الجسور أو السدود في مجالات أخرى مرتبطة بالعمارة.

ولم يأت عام ٢٥٥٠ق.م حتى كان المصريون قد اكتسبوا المهارة الكافية لبناء خزان من الحجر المنحوت في واد قريب من القاهرة وبعد ذلك ببعض الوقت شق المهندسون المصريون طرقاً صالحة للملاحة في صخور الجندل الأول عند أسوان. وتدل كل الشواهد على أنه يبدو أنهم نجحوا حوالى عام ١٧٤٠ ق.م في بناء قنطرة على النيل ذاته في سُمّنه في النوبة لتسهيل الملاحة صوب الجنوب. وأخيراً فانهم بنوا خلال نفس الفترة طريقاً منحدراً موازياً للجندل الثاني كانوا يزحلقون عليه سفنهم على الطين النيلي المائع. وقد امتد الطريق المنحدر على عدة كيلومترات، وهو سابق على منزلق السفن (Diolkos) الاغريقي الذي أقيم على بَرْزخ كورنث وبهذا ضمن المصريون أن منحدرات النهر عند الجندل الثاني لا تشكل مطلقاً عقبة في طريق الملاحة.

ومن الملامح الأخرى للعمارة المصرية تصميم الحدائق وتخطيط المدن. فلقد كان المصريون شديدي الشغف بالحدائق، بل إن الفقراء أمكنهم زراعة شجرة أو شجرتين في فناء منازلهم الضيق. أما الأغنياء فكانت حدائقهم تنافس مساكنهم في الحجم والأبهة. وفي عهد الأسرة الثالثة (حوالى عام ٢٨٠٠ق.م) كان الموظف الكبير يتوقع أن يمتلك حديقة تزيد مساحتها على ١٠٠٠٠م٢ كانت تضم باستمرار بركة أو بركاً، إذ كان يمكن وجود عدد كبير منها. فلقد كانت توفر بركاً للأسماك ومستودعات للمياه ومصدراً للهواء الرطب النقي بالنسبة إلى المنزل المجاور. وفي كثير من الأحيان كانت لدى سيد المنزل مقصورة خشبية خفيفة مقامة إلى جوار البركة، وكان بإمكانه أن يتجه إليها لاستنشاق الهواء النقي في المساء واستقبال الأصدقاء لتناول المشروبات المرطبة.

وكانت هذه البركة الصناعية كبيرة جداً في كثير من الأحيان. فلقد كانت بحيرة قصر سنفرو من الاتساع بحيث كان يمكنه أن يتنزه فيها بصحبة فتيات يرتدين ملابس خفيفة ويدفعن المركب بالمجاذيف، كما كانت لأمنحتب الثالث بركة كبيرة في قصره في طيبة. وقد انتقل هذا التذوق المصري للمتنزهات والحدائق إلى روما بعد ذلك.

وهناك نماذج مبكرة لتخطيط المدن أقدم من تلك التي عزيت إلى العبقرية اليونانية. ففي عام ١٨٩٥ق.م – أي في عهد سيزوستريس الثاني – بنيت مدينة اللاهون داخل سور مستطيل. وكانت



١

٢



١ و٢ : اكتشافات لبعثة
الآثار الفرنسية في السودان

المدينة تضم كلا من المباني الادارية والسكنية. ولقد بنيت منازل العمال، التي اكتشفت حوالى ٢٥٠ منها، في صفوف متلاصقة على طول شوارع اتساعها أربعة أمتار كانت تصب في طريق عام مركزي اتساعه ٨ أمتار. وكان كل منزل يشغل مساحة قدرها ١٠٠ - ١٢٥ متراً مربعاً وكان يضم ١٢ حجرة على مستوى واحد. وفي حي آخر في المدينة كانت توجد منازل كبار المواطنين، وهي منازل المدينة التي كانت تضم أحياناً ٧٠ غرفة أو منازل أكثر تواضعاً كانت برغم ذلك أكبر بكثير من منازل العمال. كما كانت هذه المنازل تبنى على طول طرق مستقيمة عريضة ومشجرة كانت تمتد بموازاة أسوار المدينة. وكان لهذه الطرق مصرف في وسطها لتصريف المياه.

وكانت قلاع النوبة الكبيرة تخطط على نفس النمط، وفي عهد الدولة الحديثة اتبع نفس تخطيط المدينة في تل العمارنة وغيرها من المدن، حيث كانت الشوارع تتقاطع في زوايا قائمة، وذلك رغم أن المدينة ذاتها لم تشهد التخطيط الهندسي المحكم الذي شهدته اللاهون (المسماة خطأً كاهون).

ومن المجازفة دون شك أن نذهب إلى أن كل المدن المصرية بنيت على نمط اللاهون وتل العمارنة، فقد بنيت هاتان المدينتان دفعة واحدة تلبية لأوامر الملك. ولا بد ان المدن التي نمت عبر فترة زمنية طويلة كانت ذات مظهر عشوائي. على أن التخطيط الهندسي للمدينة والنمط القائم على تطابق شكل المنازل التي بنيت مما يلقي ضوءاً على اتجاهات تخطيط المدن المصرية. فهل كانت رائدة لتخطيط المدن الهلّينية؟ إن هذا السؤال يستحق أن نطرحه.

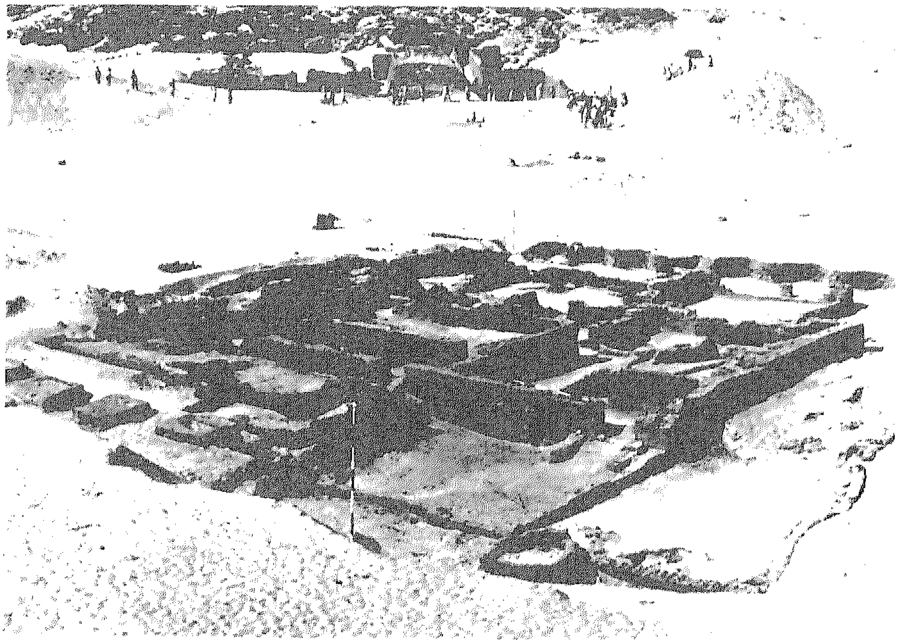
ورغم أن مصر أسهمت كثيراً في مجال العمارة، فإنه يصعب علينا أن نحكم على تأثيرها ككل في العالم في هذا المجال. ولا شك أن المهندسين المعماريين في كثير من الحضارات قد استعملوا، ولا يزالون يستعملون، صفوف الأعمدة والأهرامات والمسلات التي لا ينكر أصلها المصري. ولكن ألا يوجد، بالاضافة إلى ذلك، أثر يرجع إلى أبعد من ذلك ويأتي إلينا عن طريق الاغريق؟ إن من الصعب علينا ألّا نتبين في الأعمدة المتراصة في سقارة والأعمدة الدورية الباكرة (Proto - Doric) في بني حسن الأصول القديمة الأولى لأعمدة الفن اليوناني ثم بعد ذلك الفن الكلاسيكي الروماني. ويبدو أن ثمة حقيقة مقررة على الأقل: فلقد شقت تقاليد الفراعنة المعمارية طريقها الى إفريقيا أولاً عن طريق «مروى» ثم عن طريق «نباتا» التي نقلت أشكالاً مثل الأهرامات والبوابات الضخمة وغير ذلك، كما نقلت أساليب فنية مثل البناء بخامات بناء صغيرة منحوتة حسنة الشكل.

الاسهامات الثقافية

يتصف هذا الجانب من التراث الفرعوني المصري بأنه نظري تجريدي. فهو يشمل إسهاماتهم في مجالات الكتابة والآداب والفن والدين.

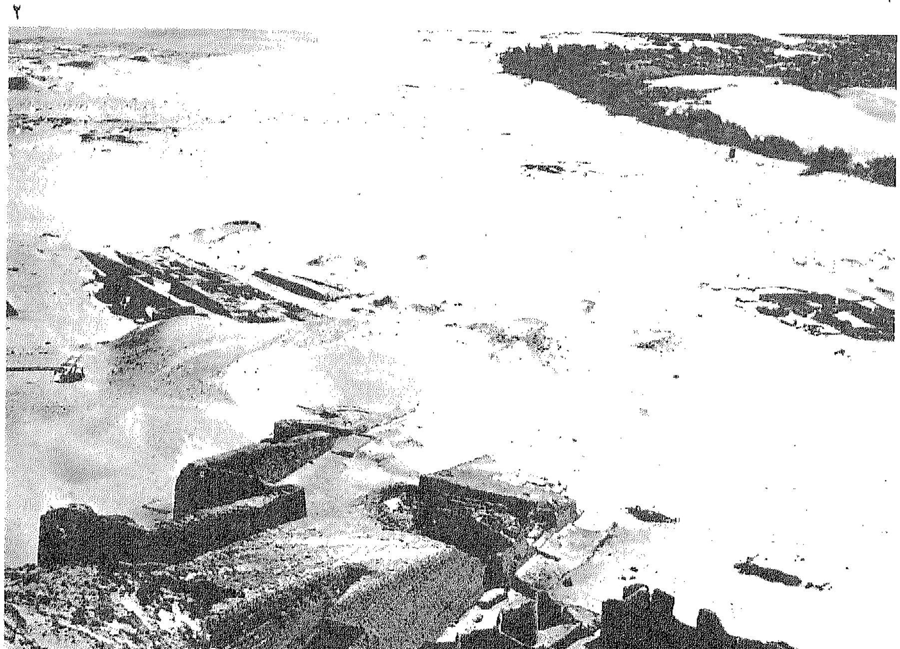
الأدب

طور المصريون نظاماً للكتابة الهيروغليفية احتوى على كثير من الرموز التي اخذوها عن بيئتهم الافريقية. ومن ثم ففي وسعنا أن نستنتج انهم هم الذين ابتكروا هذه الكتابة ولم يقتبسوها (انظر المقدمة).



١

٢



١ و٢ : اكتشافات لبعثة الآثار الفرنسية في السودان

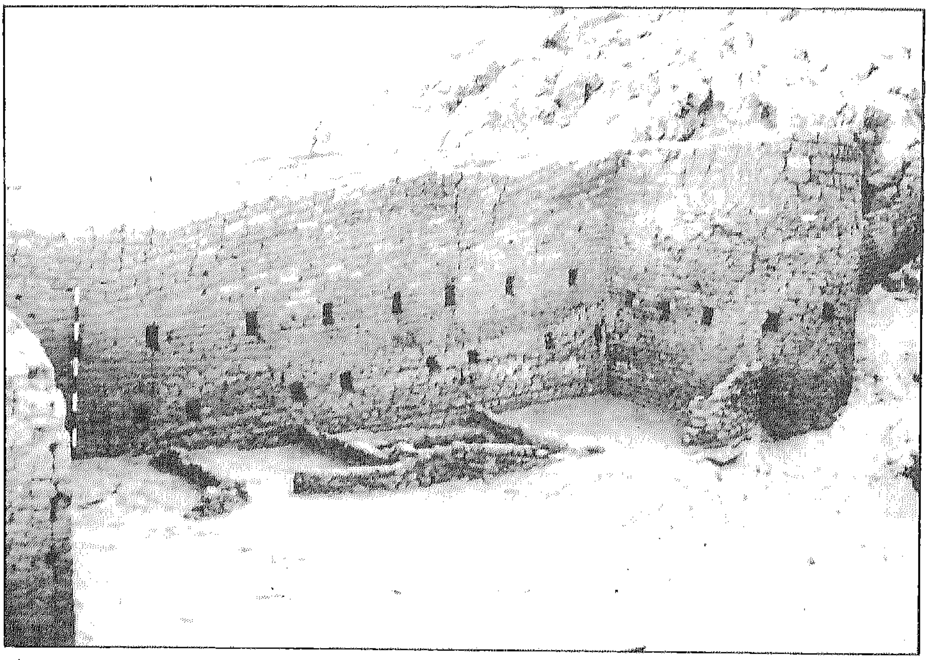
وفي البداية عبر المصري القديم عن نفسه بصور أو رموز استعملها في نظام كتابي ما، (وتمثل شيئاً أو فكرة لا كلمة خاصة بهذا الشيء أو تلك الفكرة). وقد تحولت هذه الصور أو الرموز بعد وقت قصير الى رموز تعكس الأصوات المنطوقة التي يمكن اعتبار شكلها المختصر الذي ظهر بعد ذلك خطوة نحو كتابة أبجدية.

وفي سيناء تطورت الاتصالات الثقافية بالكتابات الساميّة، وظهرت أشكال مميزة من الكتابة استعارت أشكالاً قريبة من الحروف الهيروغليفية. ويحتمل أن هذه الاتصالات قد أسهمت في اختراع الحروف الأبجدية الحقيقية التي استعارها الاغريق وأثرت في أوروبا. وبالاضافة الى ذلك فقد اخترع المصريون القدماء أدوات الكتابة (التي سبق وصفها في الفصل الخاص بالحرف). ولا شك أن اكتشافهم البردي الذي انتقل إلى الحضارات القديمة الكلاسيكية، وذلك بفضل وزنه الخفيف وسهولة طيه واحجامه التي تكاد تكون غير محددة والتي ساعدت على تحويله إلى «لفائف»، قد لعب دوراً في انتشار الثقافة والمعرفة. وهناك أدب غزير يرجع إلى العصور الفرعونية ويشمل كل مظاهر الحياة من النظريات الدينية إلى الأدب: ومن ذلك القصص والتمثيليات والشعر والمحاورات الروائية والنقد. ويمكن اعتبار هذا الأدب من أكثر آثار مصر القديمة حيوية. ورغم ذلك يستحيل علينا تحديد ما أخذته منه الحضارات الافريقية المجاورة. وقد استطاع عالم أجناس حديث أن يتعرف على أسطورة مصرية الأصل، وجدت كذلك في احد نصوص هيرودوت، لدى سكان ضفاف النيل بمديرية خط الاستواء في السودان.

ومن أكثر النماذج إثارة للعاطفة في الأدب المصري تلك التي كتبت خلال العصر المتوسط الأول وفي أوائل عهد الدولة الوسطى. وقد اعتبر أحد كبار الباحثين في علم المصريات، جيمس هنري برستد (James Henry Breasted) ، هذا الأدب دليلاً مبكراً على النضج الذهني والاجتماعي. وقد وصف هذه الفترة بأنها فجر الضمير حين كان باستطاعة الانسان أن يحاور روحه ذاتها فيما يتعلق بمسائل ميتافيزيقية. ومن نماذج الأدب الخاصة بهذه الفترة النص الذي كتبه الفلاح الفصيح الذي يعبر فيه عن عدم رضاه عن المجتمع وعن أحوال البلاد. ويمكن اعتبار ذلك خطوة مبكرة صوب ثورة اجتماعية وديمقراطية.

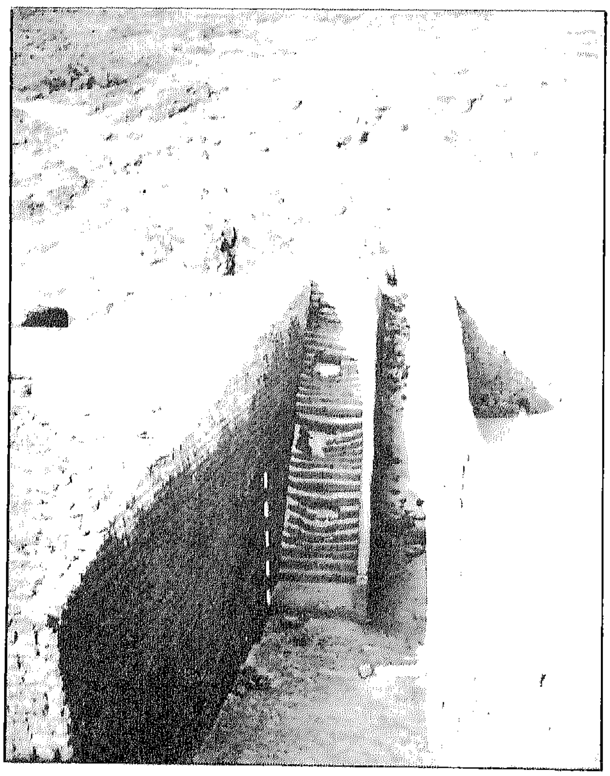
وباستطاعتنا أن نتبين نموذجاً جيداً للمشاعر التي عبر عنها الأدب المصري في النقش على توابيت خشبية أربعة وجدت في البرشة في مصر الوسطى: «لقد خلقت الرياح الأربع لكي يتنفس كل إنسان... لقد سببت الفيضان لكي يستطيع الفقير أن يحصل على نفس الفائدة التي يحصل عليها الغني... لقد خلقت كل رجل مساوياً لجاره...».

وأخيراً ففي وسعنا أن نتصور أن نماذج معينة من الأدب المصري قد عاشت حتى أيامنا هذه، وذلك بفضل القصص المدهشة الواردة في الأدب العربي. ويبدو لنا في الواقع أن أصل هذه القصص الأخيرة قد يرجع في بعض الأوقات الى الروايات المصرية المنقولة شفاهاً. فمثلاً أمكن العثور على الشبه بين قصة علي بابا والأربعين حرامي الواردة في «ألف ليلة وليلة» وقصة «الاستيلاء على يافا» الفرعونية وكذلك بين «السندباد البحري» و«الملاح الغريق» وهي أيضاً قصة فرعونية ترجع إلى عهد الدولة الوسطى.



١

٢



١ و٢ : اكتشافات لبعثة
الآثار الفرنسية في السودان

الفن

وفي مجال الفن عبر المصريون القدماء عن أفكارهم بأساليب متعددة جداً بما في ذلك النحت والنقش البارز والمعمار. وقد جمعوا بين الشؤون والنشاطات الدنيوية وبين آمال ما بعد الحياة فنهم معبراً بوجه خاص لأنه كان يعكس معتقداتهم التي رسخت في قلوبهم. فهم كانوا يعتقدو وجود ما يشبه الموت حين تتوقف كل مظاهر الحياة على اعتبار أن الانسان كان لا يزال يواص بكل الطرق. وحتى يكتب للانسان البقاء كان لا بد من مساعدة الجسم، عن طريق التحنيط طريق الصورة إذا لم يتوفر ذلك. وقد صنعوا التماثيل الصغيرة والنقوش ضئيلة البروز ونقوش بهدف استمرار حياة الشخص في العالم الآخر. وهذا هو السبب في أن تفاصيل الجسم الان شكلت بمثل هذه الدقة. ولزيادة حدة نظرته كانت عيون التماثيل تزخرف وترصع بل إن ا كانت تصنع من النحاس أو الفضة. وكانت مقلات العيون تصنع من الكوارتز الأبيض، وكا العين يصنع من الراتنج. وأحياناً ما كان الفنانون المصريون يصنعون تماثيل ذهبية أو يشكلو نحاسية على قاعدة خشبية. وكان هذا يتطلب مهارة وخبرة في تشكيل المعادن. ويمكننا أن نلم المهارة في عدد كبير من التماثيل التي يرجع تاريخها إلى كل فترة تاريخية والتي وجدت في مختلف الأثرية.

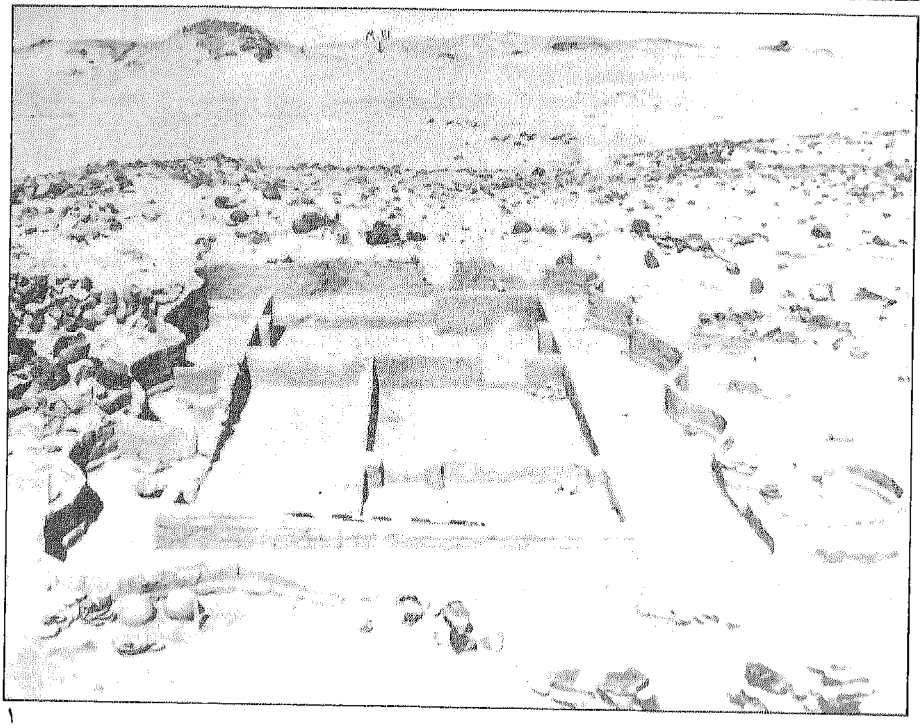
وفي مجال الفنون الصغرى صنع المصري القديم عدداً كبيراً من التمائم والجعارين والأختام أدوات الزينة والحلى التي لا تقل جمالاً بسبب حجمها الصغير. ولا شك أن هذه الأشياء الصغي أكثر انتشاراً في إفريقيا والشرق الأدنى بل وفي أوروبا حيث كانت تحظى بالتقدير. والانتشار لهذه المخلفات هو الذي يمكننا احياناً من اكتشاف الروابط التي قامت بين مصر والبلاد الأ العصور القديمة.

ولم يكن القصد من صناعة هذه التحف الفنية تحقيق مبدأ الفن للفن، بل إنها كانت فوق تعبيراً عن اعتقاد المصري بأن الحياة في هذه الدنيا ستتكرر بعد الموت.

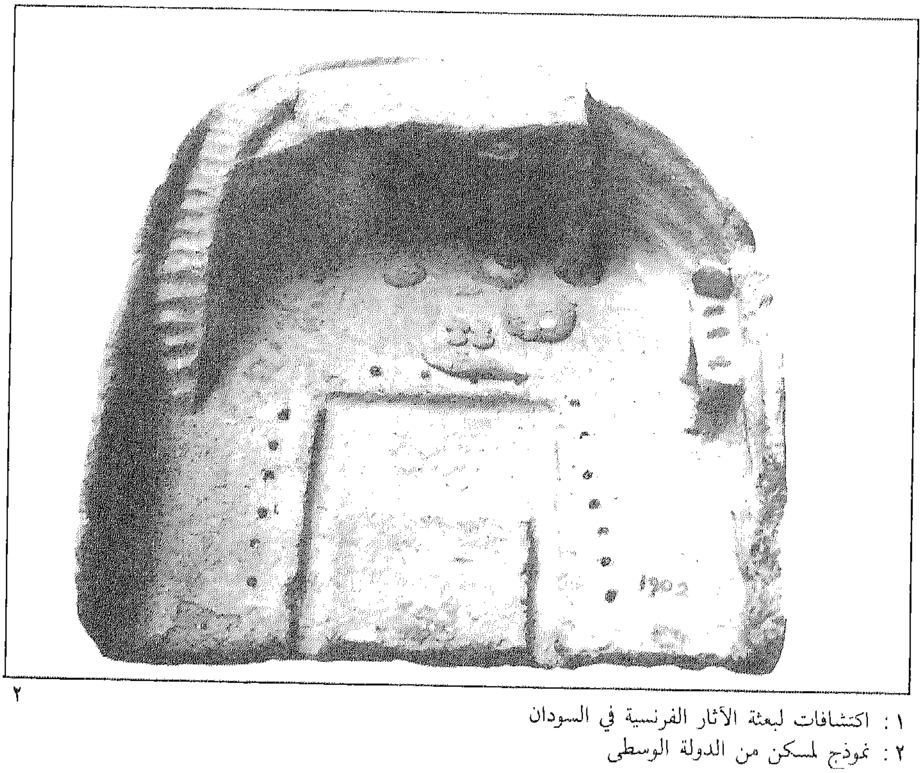
الدين

يمكن اعتبار الدين من إسهامات مصر الفلسفية - فلقد طور المصريون القدماء عدداً من ال الخاصة بخلق الحياة ودور القوى الطبيعية واستجابة المجتمع الانساني لها، هذا بالاضافة الى ع وأثرها في الفكر الانساني والمظهر الالهي للملكية ودور الكهنة في المجتمع والاعتقاد في الخلود و العالم السفلي.

وتمرس المصريين العميق بهذا الفكر المجرد هو الذي أثر في المجتمع المصري للدرجة التي يترك أثراً باقياً في العالم الخارجي. ويلمس المؤرخ بوجه خاص التأثير الديني المصري في الموضوعات الدينية اليونانية الرومانية وهو ما نلمسه في شعبية الالهة إيزيس وعبادتها في العال الكلاسيكي.



١



٢

١ : اكتشافات لبعثة الآثار الفرنسية في السودان
٢ : نموذج لمسكن من الدولة الوسطى

انتقال التراث الفرعوني:
دور الممر السوري - الفلسطيني

لعبت فينيقيا دوراً خاصاً وهاماً في نقل التراث الفرعوني إلى باقي أنحاء العالم. ويمكننا تتبع تأثير مصر في فينيقيا في الصلات الاقتصادية والثقافية بين المنطقتين. وقد أصبحت مثل هذه العلاقة واضحة حين بدأ توسع التجارة والاستكشاف في عصري ما قبل الأسرات وما قبيل قيامه مباشرة من أجل الوفاء بالحاجات العديدة لهذه الحقبة. بل إن اختراع الكتابة كوسيلة ضرورية للاتصال قد تطور بصفة جزئية نتيجة لعوامل اقتصادية ودينية. ومعنى هذا أنه كان لا غنى عن إقامة صلات مع فينيقيا من أجل استيراد مواد خام حيوية مثل الخشب، كانت لازمة لبناء وإقامة المحاريب والنصب الدينية.

ولقد أقام التجار المصريون معبداً صغيراً خاصاً بهم في بيبلوس (جبيل)، وهي مدينة كانت لهم بها صلات تجارية. وقد قام الفينيقيون بنشر الثقافة والأفكار المصرية في شتى ربوع حوض البحر المتوسط.

وأثر الثقافة المصرية في الحكمة الانجيلية، من بين أشياء أخرى، أمر يستحق الالتفات. وفيما يتعلق بالمشرق نجد أن العلاقات التجارية والثقافية قد قامت خلال الألفين الثاني والأول قبل الميلاد، بما في ذلك الدولة الوسطى والدولة الحديثة وكذلك عهد الأسرات الأخيرة. ومن الطبيعي ان تتسع العلاقات في أعقاب التوسع المصري سياسياً وعسكرياً، وتظهر الأنماط الفنية المصرية في أماكن عدة في سوريا وفلسطين مثل رأس شمرا وقطنة ومجدو، وهو ما نلمسه في التماثيل وآباء الهول والأنماط الزخرفية. وقد ساعد تبادل الهدايا على اتساع العلاقات الثقافية والتجارية.

ويمكن القول بأن الفن المصري قد أثر في الفن السوري المحلي - وكان ذلك نتيجة مباشرة للاتصالات بين مصر والمشرق. ويمكننا أيضاً أن نلمس العناصر الفنية المصرية في بلاد الميتاني في شمال شرقي سوريا - ومن أمثلة ذلك أن الالهة حتحور كانت موضوعاً لرسوم على الجدران. ويبدو أن التأثير الفني المصري قد انتشر من سوريا إلى الشعوب المجاورة، ويتضح هذا في عدد المقابض العاجية الرقيقة المستعملة في زخرفة بعض الأوعية البرونزية (السلطانيات)، وبوجه خاص في محاولة تقليد اللباس المصري والجعارين ذات الأجنحة وآباء الهول التي لها رؤوس الصقور.

وقد امتزج فعلاً التأثير الفني المصري، الذي لاحظناه في الفن الفينيقي والسوري، بالموضوعات الفنية المحلية وبعناصر أجنبية أخرى، سواء في أعمال النقش البارز أو الحفر. ويمكننا أن نلمس هذه الظاهرة ليس فقط في سوريا بل أيضاً في المخلفات الفينيقية التي وجدت في قبرص وبلاد اليونان - فالفينيقيون قد لعبوا دوراً ثقافياً وتجارياً هاماً في عالم البحر المتوسط ونقلوا عناصر من الثقافة المصرية إلى مناطق أخرى.

وقد أمكن تتبع الكتابة الهيروغليفية المصرية في حروف الكتابات الساميّة في المشرق. ويمكن ملاحظة ذلك حين نقارن بعض الكتابات الهيروغليفية المصرية النموذجية ببعض أصول الرموز السينائية والحروف الهجائية الفينيقية. ولقد تأثرت بدايات الكتابة السينائية برموز المعاني الهيروغليفية الفرعونية، وبسّطت هذه الصور الأخيرة الايديوجرامات بطريقة يمكن اعتبارها خطوة نحو الحروف الأبجدية. ويمكن اعتبار الكتابة السينائية الأولى خطوة نحو الأبجدية الفينيقية وبالتالي نحو الأبجدية الأوروبية.



الالهة حتحور

وقد امتزج هذا التراث الفرعوني الضخم بحضارات الشرق الأدنى القديمة وانتقل بدوره إلى الحضارات الأوروبية الحديثة عبر العالم اليوناني - الروماني.

ولقد أدت الصلات الاقتصادية والسياسية، بين مصر وعالم شرقي المتوسط في العصور التاريخية إلى انتشار تراث الحضارة الفرعونية حتى الأناضول وعالم بحر إيجه السابق على العصر الهلّيني. وهكذا وجد في جزيرة كيثيرا (Cythera) كأس يحمل اسم معبد الشمس الذي بناه أُسْركَاف أول فراعين الأسرة الخامسة - بينما اكتشفت في دوراك (Dorak) في الأناضول اجزاء من كرسي ذي ذراعين مطعم بالذهب يحمل ألقاب سحورع.

وإلى جانب هذه الصلات بين مصر الفرعونية وعالم البحر المتوسط وجدت أيضاً الصلات الثقافية التي ربطت مصر بجوف إفريقيا. وقد نشأت هذه العلاقات خلال المراحل الأولى من عصور ما قبل التاريخ وفي العصور التاريخية أيضاً. وقد غزت الحضارة المصرية في عهد الفراعنة الحضارات الافريقية المجاورة - وتثبت الدراسات المقارنة وجود عناصر ثقافية مشتركة بين إفريقيا السوداء ومصر، ومثال ذلك العلاقة بين السلطة الملكية والقوى الطبيعية. ويتضح هذا في الاكتشافات الأثرية في الأراضي التي كانت تتكون منها قديماً بلاد كوش: الأهرامات الملكية التي بنيت في الكورو ونوري وجبل برقل ومروى، وهل كلها تحمل شواهد على قوة تأثير مصر في إفريقيا.

ولسوء الحظ فإن جهلنا بلغة مروى ومدى امتداد إمبراطوريتها مما يحول بيننا وبين الحكم على أثرها في حضارات إفريقيا القديمة ككل، إلى الشرق والغرب والجنوب من إمبراطورية مروى.

الفصل السادس

مصر في العصر الهلنيستي

بقلم
هنري رياض
بالاشتراك مع ج. دفيس

حين توفي الأسكندر الأكبر كانت إمبراطوريته تشمل مقدونيا وقسماً كبيراً من آسيا الصغرى والشواطىء الشرقية للبحر المتوسط ومصر، وتمتد في آسيا شرقاً حتى البنجاب. وبعد وفاته في عام ٣٢٣ق.م كانت ثلاث أسر حاكمة أقامها ثلاثة من قادته قد استقرت بالفعل على أسس راسخة بحيث هيمنت على الامبراطورية. وهذه الأسر هي: الانتيجونيون في مقدونيا والسلوقيون في آسيا (في الأراضي التي كانت تشملها الامبراطورية الفارسية) والبطالمة في مصر.

وقد حكم البطالمة مصر لمدة ثلاثة قرون مستهلين فترة كانت تختلف كثيراً عن الفترات السابقة في تاريخ البلاد، على الأقل من حيث الملامح الخارجية لحياتها وجغرافيتها السياسية. ثم قُيِّض لمصر أن تخضع بعد ذلك للسيطرة الرومانية[١].

دولة ذات نمط جديد في مصر

كانت مصر منذ البداية، تحت حكم أكثر من ١٢ ملكاً بطلمياً، شديدة التأثر بطابع الحكام الأجانب ومتطلبات السياسة الجديدة، مع التكيف البطيء بعد ذلك مع السادة الجدد[٢] للدلتا[٣]، كما كان الحال في السابق.

---

(١) تلك هي الحدود الزمنية التقليدية. انظر Tarn, W. London, 1930, p. 1 et seq وتحدد M. Bieber, pp. 1 ff.، عصر البطالمة ما بين عام ٣٣٠ق.م وعام ٣٠ق.م. وهي تذكر مؤلفين آخرين مثل (Droysen) (من ٢٨٠ق.م إلى عهد اغسطس)، و (R. Lagueur) الذي يحدد بداية الفترة بعام ٤٠٠ق.م.

(٢) يصدق هذا بوجه خاص في عهد مؤسس الأسرة بطليموس سوتير الأول (٣٠٥ - ٢٨٣ق.م) وابنه بطلميوس الثاني فيلادلفوس (٢٨٣ق.م - ٢٤٦ق.م) وبطلميوس الثالث يوئرجتيس (٢٤٦ق.م - ٢٢١ق.م). وهؤلاء كانوا أبرز محاربي - وربما كذلك أبرز ساسة - ملوك الأسرة جميعاً.

(٣) C. Preaux, 1950, p.11 1 وتصيب بريو حين تلفت النظر إلى أهمية الدلتا بصورة لم يسبق لها مثيل بالنسبة إلى علاقات مصر الخارجية.

وكان الدفاع الأمامي عن العاصمة - الاسكندرية - التي، ربما منذ عهد بطليموس الثاني فصاعداً، كانت تقع على ساحل البحر لأول مرة في تاريخ مصر، يتطلب تفوقاً عسكرياً وبحرياً في شرقي البحر المتوسط. وقد اضطر البطالمة، إزاء الخطر المزدوج الذي كان يتهددهم من جانب خصومهم السوريين ومن النوبيين، إلى اتباع سياسة عسكرية أرهقتهم إلى أقصى حد. فمن ناحية كان عليهم ليس فقط أن يوزعوا الأراضي على الجنود المرتزقة، بل كان عليهم أيضاً أن يواجهوا النفقات النقدية الباهظة. ومن ناحية أخرى كان عليهم أن يجلبوا المواد الأساسية اللازمة للقوة العسكرية التي يتطلبها الوضع من أماكن شديدة البعد عن مصر. فلضمان الحصول على كميات كافية من الأخشاب، كان من اللازم تحديد أعمال البناء في مصر، وتطوير الضياع الملكية في وادي النيل واستيراد الأخشاب من جزر بحر إيجه. كما استلزم الأمر استيراد ما تحتاج إليه أحواض السفن من القار والزفت والحديد(٤). وهكذا وجد ما قيض له أن يكون ملمحاً دائماً من ملامح حياة مصر الاقتصادية لمدة تزيد على ألف سنة. ومن أهم ملامح هذا التطور البحري إقامة قواعد لصيد الفيلة على طول ساحل إفريقيا حتى الصومال(٥)، وبناء سفن صممت لنقل هذه الحيوانات وتكلفت نفقات باهظة. وكان البطالمة بحاجة إلى الفيلة لمحاربة السلوقيين الذين اعتادوا الحصول على فيلتهم من آسيا(٦)، كما كانوا بحاجة إلى استقدام سائقي الفيلة من الهند لكي يقوموا بتدريب الفيلة التي يتم اصطيادها. ويمكن أن نلمس الأثر الوحيد الباقي من هذا الجهد في نتائجه الثقافية: فقد اكتشف هبّالوس في عهد بطليموس الثالث طبيعة الرياح الموسمية، مما أدى إلى قصر أمد الرحلة إلى الهند وجعلها أقل خطورة ونفقات. ومن الطبيعي أن تزداد العلاقات التجارية مع آسيا نمواً(٧)، إذ لم يأل البطالمة جهداً لتسهيل الاتصال بين البحر الأحمر والدلتا. ففي عهد بطليموس فيلادلفوس جرى تعميق القناة التي حفرها دارا الأول بين فرع النيل الشرقي والبحيرات المُرّة، مما سهل مرور السفن الكبيرة فيها. كما شق بطليموس فيلادلفوس طريقاً بين قِفط في منطقة طيبة وبرنيقة على البحر الأحمر.

وقد أدت سياسة البطالمة الخارجية إلى تكبدهم نفقات باهظة كان يجب تعويضها بايرادات ضخمة تملأ الخزائن الملكية. وقد توفر حل جزئي للمشكلة عن طريق السيطرة الصارمة على الاقتصاد والاشراف على الصادرات التي ازداد بعضها بانتظام في نطاق الاحتكار الملكي. وكانت الحنطة تخزن في مخازن ضخمة للغلال في الاسكندرية مما كان يوفر للملك منتجات يمكن تصديرها إلى الشمال في مقابل المواد الخام الاستراتيجية. كما كان ذلك يوفر له وسائل لارضاء سكان الاسكندرية هائلي العدد بتوزيع الحبوب من وقت إلى آخر، وبخاصة تعويضهم حين يطرأ عجز في المحصول. ولقد ادى الانتاج المتزايد للسلع القابلة للتصدير إلى سياسة منتظمة تقوم على زراعة الأرض البكر على نفقة الملك، وإن يكن الحاكم قد ظل عديم الاكتراث برفاهية الفلاحين المصريين. ففي بداية عهد البطالمة على الأقل، لم يعد

(٤) C. Preaux, 1939 وتؤكد بريو ضخامة المشروع: ففي عام ٣٠٦ق.م كان بطلميوس الأول يمتلك ٢٠٠ سفينة، على حين كان لدى بطلميوس فيلادلفوس أكثر من ٤٠٠ سفينة موزعة على شتى أنحاء إمبراطوريته.

(٥) J. Leclant, 1976, Vol.I p. 230. ولقد أنشأ بطلميوس فيلادلفوس موانىء في آرسينوي وميوس هرموس وبرنيقة. كما شق طرقاً بين النيل والبحر الأحمر.

(٦) C. Preaux, 1939.

(٧) «حاول بطلميوس فيلادلفوس أن يحوّل عن طريق القوافل العربية البضائع التي كانت تنقل عليه من الحبشة وبلاد العرب ذاتها، ومن الهند بوساطة العرب، ومرة أخرى استفادت الاسكندرية من هذه السياسة» - وَرَدَ في A. Bernand, pp. 258-259.

الانتاج ينسق كما كان الحال في عهد الفراعنة، بل كان الملك البطلمي يكتفي، بالاستيلاء على المنتجات اللازمة لملء خزانته(٨).

وكانت توجد وسيلة أخرى لمواجهة النفقات الباهظة التي كان يستلزمها التسلح والواردات وهي تصدير المنتجات الافريقية إلى البحر المتوسط: العاج والذهب والريش وبيض النعام - وكلها كان يتم شراؤها في أماكن تقع جنوب مصر وفي القرن الافريقي لكي يعاد بيعها في حوض البحر المتوسط. وكان يتم استيراد سلع تجارية أخرى من المحيط الهندي: الأخشاب النادرة والأصبغة والحرير والأحجار الكريمة التي كان يعاد تصديرها (أحياناً بعد أن يقوم سكان الاسكندرية بتصنيعها) إلى اليونان والمستعمرات اليونانية وإيطاليا وكل شرقي البحر المتوسط، بل وحتى البحر الأسود. وسنرى من جديد أن هذا النشاط التجاري كانت له انعكاسات ثقافية ضخمة.

ومن المحتمل جداً أن البطالمة كانوا يبيعون العبيد أيضاً، رغم أن من المؤكد أن ذلك كان على نطاق أضيق مما كان عليه في قرطاجة خلال نفس الفترة(٩).

كما بذلت محاولة لخفض المبالغ التي كانت تنفق في شراء سلع خاصة كانت تحتاجها الجالية اليونانية الكبيرة التي تعيش في مصر. وهكذا حاول البطالمة أن يدخلوا قسراً زراعة أصناف جديدة - مثل البلسم - في مصر، وذلك تمشياً مع عادات الاغريق وأذواقهم وإن يكن الفلاحون المصريون قد قاوموا هذه المستحدثات.

ولم تؤت هذه السياسات ثمارها إلا على حساب الاستعداد الحربي المستمر والسيطرة المستمرة على شرقي البحر المتوسط والبحر الأحمر والمحيط الهندي. ولم يستطع البطالمة على الاطلاق أن يقبضوا على زمام الأمور لمدة طويلة، ومنذ الملك البطلمي الرابع فصاعداً ارتخت قبضتهم بالتدريج وارتدت مصر ببطء من جديد الى نمطها الاقتصادي التقليدي.

والحقيقة أن البطالمة قد أعطوا الاقتصاد المصري دفعة قوية، رغم احتمال كونها مصطنعة إلى حد كبير، مما أفاد الدولة والطبقة اليونانية الحاكمة.

وكانت صناعة تحويل المواد الخام إلى مصنوعات متطورة جداً في الدلتا وفي منطقة الاسكندرية. وقد بذل جهد خاص للحصول على الصوف وادخال الأغنام العربية وأغنام مدينة ميليتوس (على الساحل الأيوني). واكتسبت مصانع النسيج خبرة بتصنيع هذه المادة الخام الجديدة وكذلك الكتان، وأصبح بالامكان إنتاج أربعة عشر نوعاً مختلفاً من القماش. واحتكرت الاسكندرية إنتاج البردي، وهو نبات تنفرد به مصر، كان ينمو في مستنقعات الدلتا غير بعيد عن العاصمة. وبلغ فن صناعة الزجاج، التي كانت معروفة بالفعل في عهد الفراعنة، درجة عالية جداً من الصفاء، وذلك بعد أن جرى إتقان أساليب جديدة في عهد البطالمة. وقد اشتهرت الاسكندرية لعدة قرون بأنها مركز لصناعة الآنية الزجاجية. وأبدى صناع الاسكندرية مهارة كبيرة في صناعة المعادن: مثل الذهب والفضة والبرونز، وكانت زهرياتها المطعمة بالزخارف ذات قيمة كبيرة.

ولم تقتصر الاسكندرية على تصدير البضائع التي كانت تنتجها (الأقمشة والبردي والزجاج والحلى) بل كانت تعيد تصدير البضائع التي تصلها من بلاد العرب وشرقي إفريقيا والهند.

---

(٨) لا شك أن البردي كان من بين هذه المنتجات.

(٩) J. Lecland, 1976, p. 230

وكان نمو تجارة العبيد بالضرورة جزءاً من الثمن المدفوع لتطوير هذا النوع من الانتاج الصناعي في الدلتا(١٠).

ولمواجهة كل هذه المشكلات المالية، استلزم الأمر وجود عملة قوية(١١). ولتوسعة حجم التجارة مع بقية العالم الهلينستي كان من الواجب ربط العملة بالقواعد النقدية العالمية التي كانت غريبة على مصر. لهذا وضع نظام مالي كامل وجديد. ولعبت البنوك دوراً هاماً في حياة البلاد الاقتصادية: فقد انشىء بنك مركزي للدولة في الاسكندرية وكانت له فروع في عواصم الأقاليم وفروع ثانوية في القرى الرئيسية. وكانت هذه البنوك الملكية تقوم بكل انواع العمليات المصرفية. كما كانت توجد بنوك خاصة قامت بدور ثانوي في حياة البلاد الاقتصادية. ولقد ألقت ادارة الاحتكارات الملكية والادارة المالية المتعنتة عبئاً ثقيلاً جداً على السكان(١٢). فهذا الاقتصاد دقيق التنظيم لم يفد المصريين أنفسهم بأي شكل من الوجهة المالية.

وشهد مجال الزراعة نشوب كثير من المنازعات بين السكان الأصليين والأجانب. وترتب على بعض هذه المصادمات احتماء الفلاحين بالمعابد أو فرارهم بعيداً عن منازلهم.

وكان البطالمة يعتبرون أغنى ملوك عصرهم، ومما لا شك فيه أن عدداً كبيراً من اولئك الاغريق الذين انتموا إلى الطبقة الحاكمة كانوا يشاركونهم ثراءهم، وكان الجميع يحيون حياة رغدة. فمثلاً كان بإمكان البطالمة وإغريق الاسكندرية أن يحصلوا بسهولة على طائفة من مختلف الزهور والفاكهة كلما هفت نفوسهم إليها حتى وإن كانوا خارج العاصمة(١٣).

وكان بطليموس فيلادلفوس أول من أيقن ان عبء هذا النظام قد يكون من الثقل بحيث لا يستطيع المصريون تحمله. فلقد كان يرغب في أن يصبح عاهلاً مصرياً حقيقياً ووريثاً للفراعنة: فنحن نعرف مثلاً أنه كان يزور مشروعات استصلاح الأراضي في الفيوم. وقد ازداد هذا الاتجاه من جانب خلفائه على أثر تكرار فشلهم في الخارج.

ورغم ذلك لم ينجح البطالمة قط في استئصال جذور التفرقة التي سادت المجتمع الذي كانوا يحكمونه.

فمن الناحية الاجتماعية والسياسية والاقتصادية كان الأجانب يتمتعون بوضع يختلف تماماً عن وضع السكان الأصليين، خاصة أنهم حصلوا على مزايا عظيمة جداً على حسابهم. كان كبار موظفي القصر وأعضاء الحكومة من الأجانب، وكذلك الحال بالنسبة إلى الضباط والجنود. وفي مجال الزراعة كانت تسنح للأجانب فرص تفوق فرص المصريين لكي يصبحوا ملاكاً للأراضي. وفي الصناعة كانوا يقومون بدور المقاولين لا العمال، كما كانوا يديرون معظم البنوك الملكية والخاصة. وبصريح العبارة كانوا هم الأغنياء على حين أن المصريين كانوا هم الفقراء. فإذا ما أراد المصري أن يقترض نقوداً او حنطة كان عليه بوجه عام أن يقترضها من أجنبي، وحين كان يستأجر قطعة من الأرض كانت عادة أرضاً يمتلكها الأجانب - وقس على ذلك كل الأمور. وإلى جانب قيام أبناء البلاد من المصريين بأعمالهم العادية، كان عليهم أن يفوا بالتزامات عدة. فلقد كان عليهم أن يقوموا بالعمل الالزامي

---

(١٠) C. Préaux, 1939.

(١١) في عهد البطالمة ازداد البحث عن الذهب في اودية فروع النيل في اتجاه اثيوبيا وقد وصف سترابون أحوال المناجم بأنها مروعة. ولم تكف كمية الذهب المستخرج لسد حاجة السوق وازداد سعره باستمرار (انظر نفس المرجع).

(١٢) وكما يحدث دائماً في معظم الأحوال، ازداد عبء الضرائب هذا حين حلّت الهزائم محل الانتصارات المبدئية (انظر نفس المرجع).

(١٣) عن الاقتصاد البطلمي عامة راجع كتاباً صدر حديثاً: E. Will, pp. 133ff

على القنوات والجسور، وفي المناجم والمحاجر من وقت إلى آخر. وباعتبار الأجانب فئة محظوظة، يحتمل أنهم كانوا يعفون من العمل الالزامي، كما كانت بعض طبقات الأجانب تتمتع بمزايا ضريبية خاصة. على أننا لا يجب أن نبالغ في هذه الناحية - فهناك بعض المصريين من أبناء البلد الاصليين، ومنهم مانيثون على سبيل المثال، الذين أصبحوا اغنياء واستطاعوا بتعاونهم مع الاغريق أن يحتلوا مكانة في أوساط الطبقة الحاكمة.

وأحياناً ما يسفر علم الآثار عن كشوف تتعلق بهذا المجتمع نجد صعوبة في تفسيرها: فقد نشر برنان (E. Bernand) نقشاً رثائياً وجد على قبر عبد أسود كتبه شاعر محلي متعلم تعليماً اغريقياً(١٤).

ومن النتائج التي كان لا يمكن توقعها إلى أبعد حد والمترتبة على وصول عدد كبير من الاغريق إلى مصر انتشار بعض العبادات المصرية في شتى أنحاء العالم الاغريقي.

فحين أتى الاغريق للمرة الأولى كانت لهم آلهتهم الخاصة ومعتقداتهم الدينية الخاصة التي كانت تختلف كثيراً عن آلهة ومعتقدات المصريين الدينية. على أنه سرعان ما نما اتجاه إلى دمج بعض الآلهة الاغريقية ببعض الآلهة المصرية، مما أدى إلى قيام ثالوث جديد يتكون من سرابيس الاله - الأب، وايزيس الالهة - الأم، وهربكراتيس الاله - الابن. وكان سرابيس بالنسبة إلى المصريين هو إلههم القديم «أوزوريس - حَابِس» او «اوزوريس - أبيس» (ومن ثم اشتقاق اسم سرابيس). أما بالنسبة إلى الاغريق فكان سرابيس - الذي صور على شكل رجل عجوز له لحية - يشبه إلههم زيوس. وهكذا عبده كل من الفريقين على طريقته. ومنذ ذلك الوقت كانت إيزيس، وهي إلهة مصرية بحتة، تصوّر مرتدية اللباس اليوناني الذي تميزه عقدة على الصدر. اما هربكراتيس (حربقراط) فهو حورُس الطفل ابن ايزيس الذي كان يصور على شكل طفل يضع اصبعه في فمه.

وكان السرابيوم (معبد سرابيس) الذي بني في غربي الاسكندرية هو نقطة الارتكاز بالنسبة إلى هذه الديانة الجديدة. والمعلومات الخاصة بظهور هذا المعبد قليلة جداً، وان كنا نستقي من مؤرخين رومان أنه كان يقوم على ربوة يتم الوصول اليها بسلم يتكون من ١٠٠ درجة. ومنذ القرن الثالث قبل الميلاد كانت عبادة سرابيس تنتشر بسرعة في جزر بحر إيجه. وما حل القرن الأول حتى كان الناس في كل مكان يتوسلون إلى سرابيس وايزيس باعتبارهما منقذين. وقد انتشرت عبادتهما فوصلت إلى أماكن بعيدة - إذ وصلت عبادة إيزيس إلى الوركاء (Uruk) في بابل ووصلت عبادة سرابيس إلى الهند. ويحتمل أن ايزيس ذات الأسماء التي لا تحصى (أو ذات العشرة آلاف اسم) كانت أعظم آلهة العالم الهلينستي. وهناك نشيد موجه إلى ايزيس تم العثور عليه في زوس (Zos) كلماته كالآتي: «أنا التي يسميها النساء الالهة. لقد أمرت بأن تحظى النساء بحب الرجال، وجمعت المرأة والرجل معاً وابتدعت الزواج. وأمرت بأن تحمل النساء أطفالاً وأن على الأطفال ان يحبوا آباءهم»(١٥). وحين انتصرت المسيحية لم تبق إلا ايزيس، واتخذت من تماثيلها صور لمريم العذراء.

ويلحظ جان لكلان - في كتاب صدر حديثاً - في سياق تأكيده اهمية دور الأفارقة السود في نشر عبادة إيزيس(١٦) - أن الرأس المنحوت لأحد كهنة ايزيس الذي وجد في أثينا ويرجع تاريخه إلى القرن الأول، ربما يكون رأساً لأحد المولّدين مختلطي النسب(١٧).

---

(١٤) E. Bernand, pp. 143-147

(١٥) W. Tarn, 1930, p. 324

(١٦) J. Leclant, 1976(b), p. 282. أنظر أيضاً F.M. Snowden, 1976, pp. 112-116

(١٧) J. Leclant, 1976(b), note 80

عاصمة شهيرة على الساحل «بجوار مصر»

تم انشاء الاسكندرية في عهد البطالمة، وهي مدينة كانت من الرخاء بحيث أصبحت ليس فقط عاصمة لمصر، بل أيضاً أهم مدينة في العالم الهلينستي. ويجب أن نؤكد أن مصر التي منيت بهزيمة عسكرية وأصبحت من الوجهة السياسية جزءاً من الامبراطورية المقدونية قد اخذت بلب الاسكندر أكثر من أي شيء آخر، خاصة وأنه كان يود أن يجعل منها أحد أشهر مشروعاته الحضرية، وربما فكر في أن يتخذها عاصمة لامبراطوريته. وبالاضافة الى ذلك فإن المعارف المصرية نالت من التقدير ما جعل علماء الامبراطورية يسارعون بالحضور للاقامة فيها. ومن الممكن اعتبار الاسكندرية في عصر البطالمة العاصمة الفكرية لعالم البحر المتوسط. وكان يشار إليها كما لو كانت توجد لا في مصر ولكن بالقرب من مصر (Alexandria ad Aegyptum) . وقد وصفها سترابون على الوجه التالي: «الميزة الرئيسية للمدينة هي أنها البقعة الوحيدة في كل مصر التي يصلح موقعها الجيد للتجارة البحرية بفضل ثغورها الممتازة، وللتجارة البرية حيث أن النهر يسهل نقل كل البضائع إليها وتجميعها كلها في ذلك المكان الذي أصبح أعظم سوق للعالم المأهول»(١٨). لكن سترابون يبالغ في هذه الأسطر القليلة في وصف ميزات الموقع الذي تم اختياره ولا يوفق في رسم صورة كاملة للاسكندرية.

والواقع أن تشييد المدينة وموانيها قد تطلب قدراً كبيراً من العمل الذي استغرق فترة طويلة(١٩).

وقد اختار الاسكندر الأكبر موقع المدينة الجديدة وهو في طريقه من ممفيس إلى واحة آمون (سيوه) حيث كان يود استشارة وحي معبد زيوس - آمون في عام ٣٣١ق.م. فلقد أعجب بالموقع الممتاز الذي يتمتع به قطاع الأرض الواقع بين البحر المتوسط شمالاً وبحيرة مريوط جنوباً - فعلى حين أنه بعيد عن مستنقعات الدلتا فهو قريب من فرع النيل الكانوبي. وكان الموقع - الذي كانت تشغله قرية صغيرة تسمى راقوده - بمنجاة من الأمواج والعواصف بسبب وجود جزيرة فاروس. وقد وضع المهندس دينوقراطيس تخطيط مدينة المستقبل التي قدر لها أن تخلد اسم الاسكندر، وبدأ العمل على الفور. وحين توفي الاسكندر لم يكن العمل قد تقدم كثيراً، ولا يبدو أن المدينة قد اكتملت حتى عهد بطليموس الثاني (٢٨٥ق.م - ٢٤٦ق.م).

وقد وضع المهندس خطة لربط جزيرة فاروس بالشاطىء بواسطة جسر حاجز واسع اطلق عليه اسم هبتاستاديون (Heptastadion) ، لأن طوله كان ٧ ستاديون (أي حوالى ١٢٠٠ متر). وقد اختفى الآن هذا الجسر الحاجز تحت الرواسب الغرينية التي تجمعت في جانبيه.

وقد تمخض بناء الهبتاستاديون عن قيام ميناءين: أحدهما في الشرق وهو «الميناء الكبير» (Portus Magnus) الذي هو أكبر من الميناء الواقع على الجانب الغربي واسمه «ميناء العودة السالمة» (Portus Eunostos) . كما أنشىء ميناء ثالث على بحيرة مريوط لخدمة التجارة الداخلية.

وقد جرى تخطيط المدينة على نمط أحدث المدن الاغريقية في ذلك الوقت. ومن أبرز صفاتها غلبة الخطوط المستقيمة - فقد كانت معظم الشوارع مستقيمة ومتقاطعة بزوايا قائمة.

---

(١٨) مذكوراً في: E. Bernand, p. 92

(١٩) نكتفي بمثل واحد: كانت توجد أحواض (صهاريج) ضخمة لتخزين المياه العذبة الضرورية للسكان. وفي بداية القرن التاسع عشر كان لا يزال من الممكن مشاهدة ٣٠٠ من هذه الأحواض (الصهاريج) المصدر السابق، ص ٤٢.



الالهة ايزيس وخلفها ابنها هاربوكراتيس

وفي عهد بطليموس الأول سوتير كانت ممفيس لا تزال المركز الرئيسي للنشاط السياسي ولكن بعد نقل جثمان الاسكندر (كما يقال) إلى العاصمة الجديدة[٢٠]، جعل بطليموس الثاني الاسكندرية العاصمة الدائمة لحكم الأسرة.

وقد قسمت المدينة إلى أحياء. ويذكر فيلون الاسكندري (٣٠ق.م - ٤٥م) أنه قد وجدت فيها خمسة أحياء جرت تسميتها طبقاً للحروف الهجائية الأولى في الأبجدية الاغريقية. ولسوء الحظ أننا لا نعرف إلا القليل جداً عن هذه الأحياء. وكان الحي الملكي يشغل ما يقرب من ثلث المدينة المجاور للميناء الشرقي، وكان أكثر أجزاء المدينة جاذبية، حيث كانت تحيط بالقصور الملكية حدائق بها نافورات رائعة وأقفاص بها حيوانات جيء بها من كل أرجاء العالم المعروف. كما كان هذا الحي يضم دار العلم الشهيرة «Museum» والمكتبة والمقبرة الملكية.

وكان سكان المدينة ينقسمون إلى طوائف. فلقد كان الاغريق والأجانب يتجمعون في القسم الشرقي، على حين كان يهود الدلتا يقطنون الحي المجاور للحي الملكي. كما كان أبناء البلاد من المصريين يقيمون في حي راقوده الواقع في الغرب. وقد اشتهر السكان في مجموعهم بالشغب، هذا برغم الاختلاف الكبير القائم بين مختلف الطوائف العرقية والاجتماعية.

وكان تركيب المدينة الاجتماعي متفاوتاً إلى حد كبير. فهناك الملك وبلاطه وكبار الموظفين والجيش. وإلى جانب هؤلاء كان يوجد أيضاً باحثون وعلماء وأدباء ورجال أعمال وأغنياء وتجار متواضعون وحرفيون وعمال ميناء وبحارة وعبيد. إلا أن المصريين من أهل البلاد كانوا يشكلون أكبر عناصر سكان الاسكندرية وكانوا يشتملون على فلاحين وحرفيين وبقالين ورعاة أغنام وبحارة... وغيرهم...

وفي شوارع المدينة كان يجري التخاطب بعدة لغات. ولا شك أن اللغة اليونانية، بمختلف لهجاتها، كانت أكثر اللغات انتشاراً. أما اللغة المصرية فكانت لغة سكان الأحياء الوطنية، على حين أن الآرامية والعبرية كانتا غالبتين في الحي اليهودي حيث كان يمكن سماع لغات ساميّة اخرى.

وكانت الاسكندرية تشتهر بوجه خاص بآثار معينة يصعب الآن العثور على موقعها. فبعض أهم اجزاء المدينة الهلينستية توجد الآن تحت مستوى البحر، على حين أن ما تبقى منها مدفون في اعماق المدينة الحديثة. ولهذا فحين نتكلم عن آثار المدينة القديمة نعتمد احياناً على اوصاف المؤلفين القدامى وكذلك على ما قد اكتشفه الأثريون.

وفي الجزء الجنوبي الشرقي من جزيرة فاروس - عند مدخل الميناء الشرقي - كانت تقوم المنارة الشهيرة (Pharos) التي كانت تعتبر إحدى عجائب الدنيا السبع، وقد أعطت منارة الاسكندرية اسمها وشكلها الأساسي لكل منارات العالم القديم.

وقد دمرت هذه المنارة تماماً، بحيث أن معرفتنا بشكلها وأنظمتها مستقاة من إشارات كلاسيكية قليلة وبعض أوصاف في مؤلفات المؤرخين العرب[٢١].

---

(٢٠) المرجع السابق، ص ٢٩٩ - لم يتم العثور على المقبرة بأي حال، هذا اذا كانت قد وجدت بالفعل.

(٢١) في عام ١١٦٦م توجه أبو الحجي يوسف بن محمد البلوي المغربي إلى الاسكندرية باعتباره سائحاً. وقد زودنا بوصف دقيق لأبعاد المنارة. فطبقاً لتصميمها كانت القاعدة مربعة وطول أضلاعها ٨,٣٥ أمتار. وكان ارتفاع الطابق الأول ٥٦,٧٣ متراً، وكان الطابق الثاني - الذي كان مقطعه ذا ثمانية زوايا وأضلاع - يعلو الأول بـ٢٧,٤٥ متراً، على حين كان الثالث على شكل اسطوانة ارتفاعها ٧,٣٢ أمتار (انظر المرجع السابق، ١٩٦٦ - ص ١٠٦). ولا تتطابق المقاييس التي ذكرها هذا الكاتب العربي والمقاييس التي ارتبطت وفقاً للتقاليد بمنارة الاسكندرية.



رأس الاسكندر الأكبر

وباستطاعتنا تكوين فكرة عن شكلها بفضل العملات القديمة وبعض النقوش على الفسيفساء. وقد وضع تصميمها سوستراتوس من كنيدوس (Cnidus) حوالى عام ٢٨٠ق.م في عهد بطليموس فيلادلفوس. وكان ارتفاعها حوالى ١٣٥ متراً، وقد بني معظمها بالحجر الجيري. وكان قسم من أفاريزها وزخارفها منحوتاً من الرخام على حين أن القسم الآخر قد صنع من البرونز.

وقد ظلت المنارة تقوم بعملها حتى زمن الفتح العربي في عام ٦٤٢م. وتعاقبت بعد ذلك سلسلة من الكوارث التي بلغت اوجها في القرن التاسع عشر. ففي عام ١٤٨٠م استخدم السلطان المملوكي قايتباي الأحجار التي أخذها من أنقاض المنارة لبناء قلعة كانت جزءاً من حصونه الساحلية ضد الأتراك الذين كانوا يهددون مصر في ذلك الوقت. ولا تزال هذه القلعة قائمة تحمل اسم ذلك السلطان.

والكلمة العربية «المنارة» تعني كلا من منارة بمعنى الكلمة ومئذنة، ويعتقد أحياناً أن منارة الاسكندرية قد اعتبرت النموذج الأصلي لمآذن المساجد. ورغم أن هذه الحقيقة لم تتأكد بصورة بعيدة عن الشك، فهناك أوجه شبه مثيرة للالتفات بين نِسب المنارة ونسب بعض المآذن.

وكانت دار العلم، بمكتبتها الضخمة، أهم الانجازات التي حققها البطالمة في الاسكندرية. وقد بدأ بطليموس الأول سوتير العمل فيها بناء على نصيحة لاجىء إغريقي هو ديميتريوس من فاليروم (Demetrius of Phalerum).) وقد اشتق اسم (Museum)(دار العلم) من اسم الـ (Muses)ربات الفنون اللاتي كانت عبادتهن ترمز الى التأمل والتفكير العلمي. وقد وصف سترابون المباني على الوجه التالي: «تضم القصور الملكية هي الأخرى «دار العلم» التي تشتمل على ممشى وقاعة للمناقشات وفناء واسع كان علماء فقه اللغة يتناولون فيه طعامهم معاً. كما توجد مخصصات عامة للانفاق على هيئة العلماء وكاهن يعينه الملك للاشراف على دار العلم، وهذا الكاهن يعينه الملوك «القيصر» في الوقت الحاضر(٢٢). وهكذا كانت هذه المؤسسة موئلاً لرجال العلم والأدب. اذ كانت توفر لهم المسكن والطعام بحيث يمكنهم التفرغ تماماً لأبحاثهم ودراساتهم دون أن يضطروا الى القيام بأي عمل يدوي. وكان تنظيمها شبيهاً بتنظيم الجامعات الحديثة، باستثناء أن الباحثين المقيمين لم يكن يطلب منهم أن يلقوا محاضرات(٢٣).

وفي القرن الثاني الميلادي كانت المنح بدار علم الاسكندرية لا تزال طلبة للكثيرين. وقد نصح ديمتريوس الفاليري بطليموس سوتير بانشاء مكتبة بامكانها ضم كل الثقافة المعاصرة عن طريق الشراء والنسخ المنتظم للمخطوطات، وسرعان ما أمكن جمع أكثر من ٢٠٠٠٠٠ مجلد. وقد عهد بادارة هذه الخزانة الثقافية الى متخصصين لامعين في العالم الاغريقي في ذلك الوقت(٢٤).

وقد وجدت في السرابيوم مكتبة أصغر حجماً تضم ٤٥٠٠٠ لفافة.

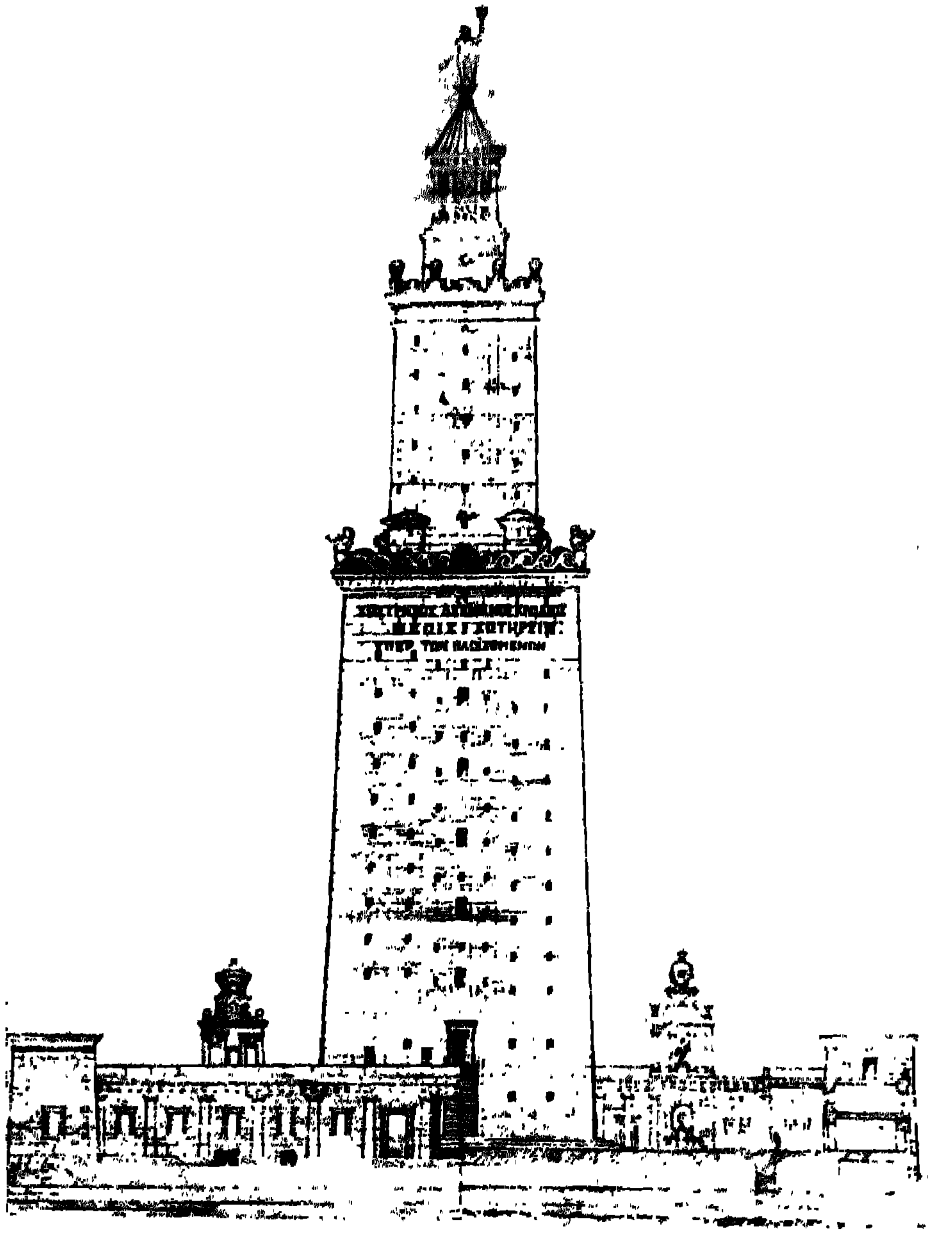
ولم توجد في أي مكان آخر في العالم الهلينستي مؤسسة شبيهة بدار علم الاسكندرية. وكانت مكتبة برجامون (Pergamon) هي المكتبة الوحيدة التي بإمكانها أن تنافس مكتبة الاسكندرية. ونحن ندين كثيراً لمكتبة الاسكندرية بالحفاظ على تراجيديات ايسخيلوس (Aeschylus) وكوميديات أرسطوفانيس

---

(٢٢) Strabon. 17.1.8.

(٢٣) كانت دار العلم تتعرض أحياناً للنقد، مثلها في ذلك مثل جامعاتنا. وقد اشتكى اسكندري من أن «الكتبة في مصر المزدحمة بالسكان، شديدو الشغف بكتب السحر، وهم يزدادون ترهلاً ويواصلون نزاعاتهم (حول أمور تافهة) التي لا تنتهي في قفص ربات الفنون... الخ. اقتبسها E. Bernand, 1966.

(٢٤) أعد أحد هؤلاء، كالليماخوس من قورينة (٣١٠ق.م - ٢٤٠ق.م) فهرساً يضم ١٢٠ مجلداً لكل محتويات المكتبة.



منارة الاسكندرية

(Aristphanes) وقصائد بنداروس (Pindaros)وباكخيلديس (Bacchylides)الغنائية وتواريخ هيرودوت (Herdotus) وثوكيديديس (Thucydides).

وتسهيلات ثقافية مثل هذه هي التي اجتذبت باحثي العالم الاغريقي. فقد أتى كثيرون منهم في الواقع إلى الاسكندرية وحققوا في دار العلم بعض أهم مكتشفات العالم القديم.

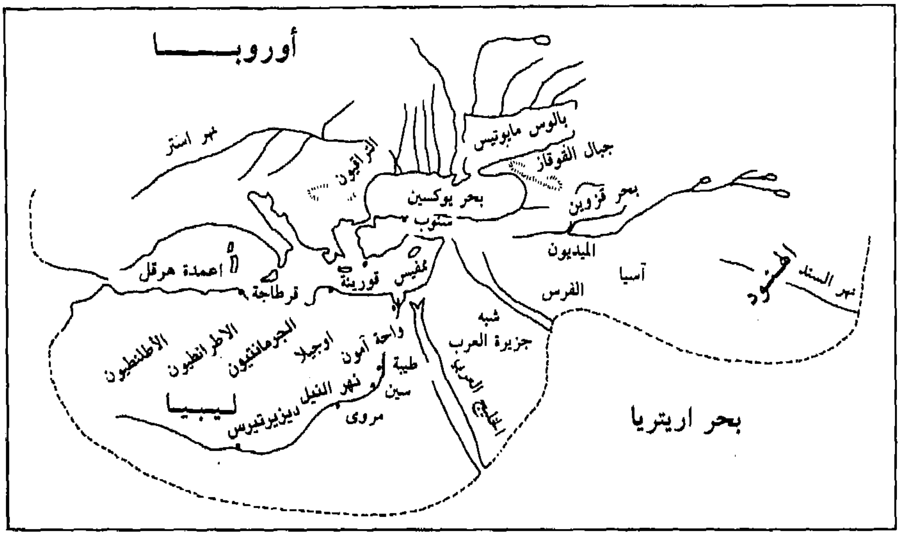
وقد عمل بعض الشعراء بصفتهم أمناء للمكتبة ورجال بلاط في نفس الوقت. وهناك ألّف كالليماخوس (Callimachus) قصيدته التأملية «خُصلة برنيكي»، إلى جانب قصائد اخرى كثيرة. فلقد أقسمت برنيكي زوجة بطليموس الثالث يوئرجتيس أن تهب الآلهة خصلة من شعرها إذا ما عاد سالماً من حربه في سوريا. وقد برت الملكة بقسمها حين عاد، وفي اليوم التالي اختفت الخصلة الملكية من المعبد. وكان «كونون» (Conon) الفلكي قد اكتشف منذ وقت قصير كوكبة جديدة أطلق عليه اسم «شعر برنيكي» واختلق أسطورة مفادها أن الآلهة ذاتها هي التي نقلت الخصلة من المعبد ووضعتها في السماوات. ولا تزال الكوكبة تحمل اسم «ذؤابة برنيكي» (Coma Berenices) حتى الوقت الحاضر. وقد خلد كالليماخوس هذه التحية اللطيفة من جانب الفلكي بقصيدته التأملية التي لا نعثر عليها إلا في الترجمة اللاتينية التي قام بها الشاعر الروماني كاتوللوس (حوالى عام ٨٤ق.م الى ٥٤ق.م).

وقد لعب الجغرافيون وعالمو الكون والفلكيون دوراً كبيراً في التطور العلمي للاسكندرية، على أننا سنرى أنهم يدينون لمصر ببعض مكتشفاتهم لا للمكتبة الاسكندرية وحدها.

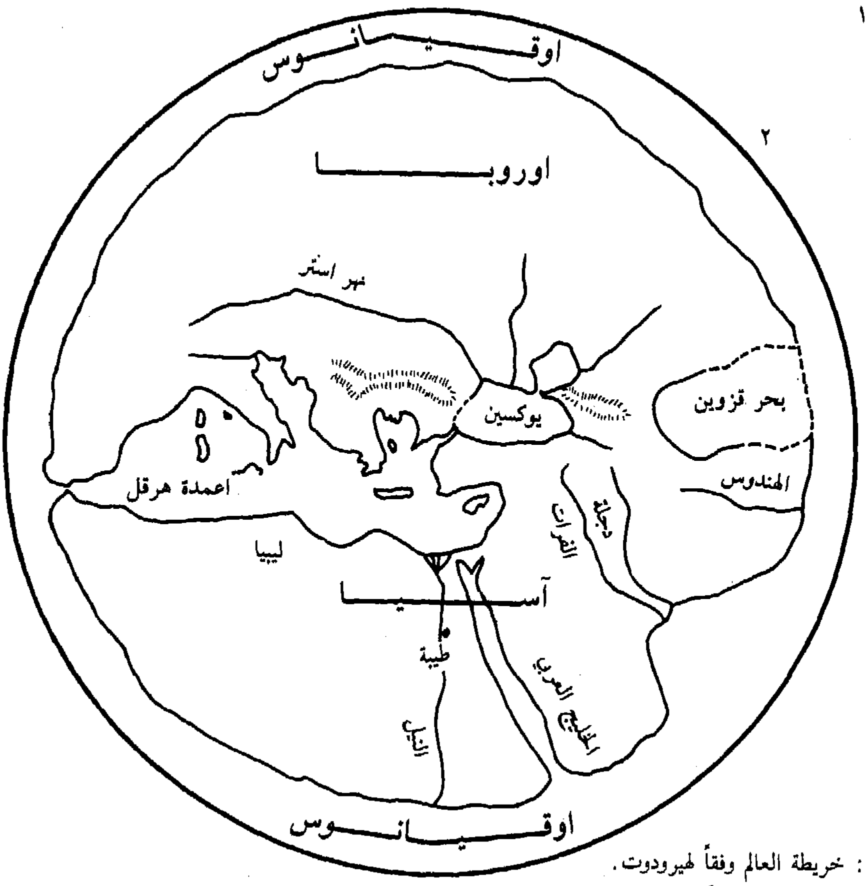
وقد ولد اراتوستنيس (Eratosthenes) ، أبو الجغرافيا العلمية، في قورينة (Cyrene) (بلدة الشحات الحالية بالجماهيرية الليبية) سنة ٢٨٥ق.م. وقد عرض عليه بطليموس في سنة ٢٤٥ ق.م. وظيفة أمين للمكتبة وهي الوظيفة التي شغلها حتى وفاته. وأهم انجازاته محاولته قياس محيط الأرض، وقد بنى حساباته على علاقة الظل الذي يسقط خلال الانقلاب الصيفي على مزولة الاسكندرية وعدم وجود ظل في سيين (أسوان) وتوصل إلى أن المحيط الكلي للأرض هو ٢٥٢٠٠٠ ستاديون (أي ٤٦٦٩٥ كيلومتراً) وهو طول يزيد على المحيط الفعلي (٤٠٠٠٨ كيلومترات) بأكثر من السبع. وإراتوستنيس هو أيضاً الذي وضع قائمة بأسماء ٦٧٥ نجماً.

وقد ولد الجغرافي سترابون (Strabon) (حوالى ٦٣ق.م - ٢٤م) - الذي ندين له بأقدم وصف منتظم لجغرافية مصر - في كبادوكيا (Cappadocia) وأمضى معظم حياته في روما وآسيا الصغرى، وأخيراً استقر في الاسكندرية. ورغم أن سترابون ينتمي للعصر الروماني، فإن جوهر بحثه هلينستي الطابع. ويحتوي مؤلفه الخاص بالجغرافيا على ١٧ كتاباً، ويشغل وصفه لمصر حوالى ثلثي الكتاب الأخير.

وتستلزم الجغرافيا والفلك معلومات رياضية متقدمة جداً. ومن أبرز رجال دار العلم إقليدس (Euclides) الرياضي (٣٣٠ق.م - ٢٧٥ق.م) الذي كان أول من عهد إليه بقسم الرياضيات وألف كتاباً هاماً في الفلك بعنوان «الظواهر» (Phaenomena) وكذلك بحثه الشهير في الهندسة بعنوان «المبادىء» (Stoicheia) الذي ظل أهم مصادر هذا الموضوع وترجم إلى اللاتينية والعربية. ويعد أرشميدس (Archimides) من سراقوسة (٢٨٧ق.م - ٢١٢ق.م) أحد اعظم رياضيي مدرسة إقليدس. وقد اكتشف العلاقة بين قطر الدائرة والمحيط ونظرية الحلزون (اللولب) وقانون الجاذبية. على أن أهم اسهاماته في حقل الرياضيات والميكانيكا هو اختراعه المعروف باسم «لولب طنبور أرشميدس»، وهو جهاز لا يزال يستعمل في مصر لرفع المياه.



١



١ : خريطة العالم وفقاً لهيرودوت.

٢ : خريطة العالم وفقاً لهيكاتيوس.

وقد جاء أبوللونيوس (Apollonius) ، عالم الهندسة العظيم، من موطنه برجه (Pergé)بآسيا الصغرى – إلى الاسكندرية من بالميرا (تَدْمُر) حوالى عام ٢٤٠ق.م للعمل في مدرسة الهندسة وترجع شهرته إلى بحثه المشهور في القطاعات المخروطية. وهو مؤسس علم حساب المثلثات.

وفي البداية كانت مدرسة الرياضيات في الاسكندرية تعتمد اعتماداً كبيراً على تلامذة يودوكسوس (Eudoxus) وفيثاغورس (Pythagoras)، ولكنها منذ القرن الثالث فصاعداً أصبحت لها خصائصها المميزة وغدت المركز الرئيسي للرياضيات الاغريقية.

ويعتبر ثيوفراسطوس (Theophrastus) – الذي عاش في عصر بطليموس الأول من مؤسسي علم النبات وذلك نتيجة لمؤلفه الخاص بتاريخ وفسيولوجيا النباتات.

وقد زار ديودور الصقلي (Diodorus Siculus) المؤرخ مصر في عام ٥٩ق.م. وقد خصص الكتاب الأول – من مؤلفه التاريخي «مكتبة التاريخ» الذي وضع باللغة اليونانية لسرد اساطير مصر وملوكها وعاداتها. ويذكر ديودور أن الانسان قد ظهر في مصر للمرة الأولى على الأرض – وفي ذلك يقول (١: ١٠): «في بداية العالم وجد الانسان للمرة الأولى في مصر، وذلك نتيجة لاعتدال مناخ البلاد وطبيعة النيل».

وكان الأطباء هم الآخرون يقصدون دار العلم والمكتبة للعمل، اذ أن الحرية الفكرية التي تمتعوا بها هناك قد مكنتهم من إحراز التقدم في دراسة علم وظائف الأعضاء عن طريق تشريح الجثث. وكان هيروفيلوس (Herophilus) الذي وفد من آسيا الصغرى إلى مصر في النصف الأول من القرن الثالث قبل الميلاد، هو أول من اكتشف الصلة بين دقات القلب والنبض وأول من ميز بين الشرايين والأوردة. ولا تزال بعض الأسماء التي أطلقها على اجزاء الجسم تستعمل حتى الوقت الحاضر – ومنها على سبيل المثال الاثنا عشر و«معصرة» هيروفيوليوس (Torcular Herophili أي ملتقى أوردة الدماغ).

وقد ألقى إراستراتوس (Erasistratus) ، وهو جراح آخر مشهور ولد أيضاً في آسيا الصغرى، ضوءاً جديداً على تشريح القلب حين كان يعمل في الاسكندرية.

وهنا أيضاً قُيِّض لشهرة مدرسة الطب في الاسكندرية أن تدوم طويلاً، وهناك بيت شعري في الرثاء مدون على أثر محفوظ في ميلانو يقول فيه ناظمه مؤبناً أحد الأطباء: «كانت مصر الشامخة وطناً له».

وبمرور الزمن ازداد تأكيد العنصر الوطني لوجوده. فلقد كان مانيتون، وهو مصري من سمنود في الدلتا، أحد الكهنة – الباحثين المشهورين في بداية القرن الثالث قبل الميلاد. وكان من الجائز أن يكون مؤلفه الرئيسي: تاريخ مصر «Aegyptiaca» أفضل مصادر معلوماتنا عن تاريخ مصر القديمة فيما لو وصل إلينا كاملاً. وتحتوي بقاياه التي وصلت إلى أيدينا على قوائم للملوك مقسمة إلى أسرات وتذكر مدة حكم كل ملك، وهو منهج يتبعه المؤرخون المحدثون.

على أن الستار قد أسدل على دار العلم والمكتبة بصورة محزنة. ومن المعتقد أن النكبة الأولى جرت خلال حرب يوليوس قيصر في الاسكندرية حين قام بحرق السفن الراسية في الميناء لمنع وقوعها في أيدي اعدائه. واشتدت النيران بحيث وصلت إلى مخازن الكتب، هذا برغم اعتقاد البعض بأن النار لم تلحق المكتبة ذاتها، بل لم تتعد تدمير حوانيت بائعي الكتب.

ولا بد أن الاضمحلال والخراب قد استمرا بعد الفتح الروماني لمصر، فلقد عانت كل من دار العلم والمكتبة من قلاقل ذلك العصر. ونزح كثير من الباحثين عن البلاد ووجدت الكتب طريقها الى روما. وفي عام ٢٧٠م دمر الامبراطور أورليان جانباً كبيراً من البروخيون (Bruchion) ، وهو الحي الاسكندري الذي كان توجد فيه دار العلم والمكتبة. وبالاضافة إلى ذلك فإن انتشار المسيحية

وانتصارها قد وجها إليهما ضربة قاضية. وبالتأكيد لا يوجد ما يعزز الاعتقاد بأنهما بقيتا بعد القرن الخامس الميلادي، ومن ثم فلا يوجد أساس للاتهام الذي وجهه المؤرخ السوري المسيحي الذي عاش في القرن الثالث عشر: أبو الفرج ابن العبري (المعروف في أوروبا باسم Barhebraeus) الذي ذهب إلى أن عمرو بن العاص قد أحرق مكتبة الاسكندرية.

فضل مصر على الحضارة الهلنيستية

سبق ان رأينا أن البطالمة حاولوا تطوير العلاقات بين مصر والمحيط الهندي. وفيما يتعلق بالقيام بكشوف أرضية لا تزال ثمة مناقشات كثيرة حول ما إذا كانت لهم سياسة مرسومة تهدف إلى تتبع مجرى النيل واستعمال النهر، إلى أبعد مكان في الجنوب، باعتباره طريقاً للتغلغل والتجارة. وأياً ما كان الأمر، فمن المؤكد أن ارتياد المناطق الواقعة إلى جنوب مصر قد تم. فلقد زار تيموستنيس (Timosthenes)، قبطان فيلادلفيا، بلاد النوبة، وارتاد أرستون (Ariston) سواحل شبه الجزيرة العربية، وتتبع ساتيروس (Satyrus) الشاطىء الافريقي إلى نقطة تقع إلى جنوب رأس غردفوي. وقد سجلت قصص رحلات الاستكشاف هذه ووفرت المادة اللازمة لأعمال باحثين من أمثال أجاثارخيديس (Agatharchides)(٢٥).

وبالاضافة إلى ذلك فإن هؤلاء المستكشفين كانوا يتبعون خطى رواد ذائعي الصيت فحوالى عام ٥٠٠ق.م. كتب هيكاتيوس، احد مواطني ميليتوس (Hecataeus of Miletus) وأول جغرافي يزور مصر – أول وصف منتظم للعالم. وللأسف لم تبق إلا شذرات من بحثه الجغرافي. وفي مصر وصل في تجواله إلى طيبة ويبدو من المحتمل جداً انه ضمن بحثه وصفاً مفصلاً لمصر. وقد ذهب هيكاتيوس إلى أن الأرض قرص مسطح مركزه بلاد اليونان، وقسم العالم إلى قارتين: أوروبا وآسيا – والأخيرة تشمل مصر وسائر افريقيا التي عرفت في ذلك الوقت باسم ليبيا. وقد تخيل أن النيل يتصل في الجنوب بنهر أوقيانوس (Oceanus) الذي يلتف حول العالم بأسره. وقد زار هيرودوت وهو من هاليكارناسوس (آسيا الصغرى)، مصر حوالى عام ٤٥٠ق.م. ووصل في تجواله صوب الجنوب إلى ألفانتين التي وصفها باعتبارها الحد الفاصل بين مصر واثيوبيا. وقد خصص هيرودوت لتاريخ مصر الكتاب الثاني من كتبه التسعة. وكان أول مؤرخ رحّالة يذكر مروى باسمها، وذلك بعد أن كان قد صادف بالفعل بعض أبناء مروى في أسوان.

كما اعتقد هيرودوت أن الأرض مسطحة ولكنه اختلف عن هيكاتيوس في أنه لم يعتبرها مستديرة، كما لم يعتقد بأن نهر الأوقيانوس يحيط بها من كل الجهات. وقد قسم العالم إلى ثلاث قارات: أوروبا وآسيا وليبيا (أي إفريقيا)، وذكر أن القارة الأخيرة يحيط بها البحر من كل جانب باستثناء المنطقة التي تتصل فيها بآسيا.

وبعد ذلك بوقت طويل، في عام ٥٩ق.م – زار ديودور مصر ووصف مجرى النيل في الكتاب الأول من مؤلفه. وكان من رأيه ان النيل ينبع من اثيوبيا وأنه يحتوي على عدد كبير من الجزر بما فيها الجزيرة

(٢٥) انظر C. Préaux, 1939, p. 356، في ذلك الوقت كانت أوصاف الشعوب التي جرت زيارتها تتركز على ما جرت ملاحظته من عاداتهم. وكانت الأسماء التي استعملت لوصفهم تعكس عاداتهم في الأكل، وقد شقت هذه الصفات طريقها فيما بعد إلى النصوص اللاتينية القديمة والوسيطة وإلى حد ما إلى المصادر العربية.

المسماة مروى. وقد خصص ديودور كل كتابه الثالث لاثيوبيا، أي المنطقة التي يطلق عليها اسم السودان في الوقت الحاضر. ويشبهه سترابون في اشارته إلى منطقة مروى باعتبارها جزيرة وفي اشارته التفصيلية إلى سكانها.

وعلى حين أن الاغريق بوجه عام اعتبروا زيارة الجندل الأول، والمغامرة بزيارة المناطق الواقعة الى جنوبه مباشرة، إنجازاً هاماً، وخلدوا ذكراه بنقش أسمائهم على الآثار المصرية(٢٦)، فإن الباحثين أبدوا اهتماماً كبيراً بوادي النيل الواقع إلى الجنوب من أسوان (المعروفة حينئذ باسم سيين). وكان خط عرض مروى الحقيقي قد عرف بالفعل في عهد بطليموس فيلادلفوس(٢٧). وقد قام إراتوستنيس الذي عمل في سيين كما رأينا، بتقرير المسافة ما بين مروى وخط الاستواء. كما قام بوصف أحوال الملاحة على النيل بمزيد من التفاصيل الهامة، وكانت لديه على الأقل معلومات غير مباشرة عن النيل الأزرق ونهر عطبرة. وقد شقت كشوفه وكشوف كثيرين غيره من الباحثين طريقها إلى المؤلفات التي ظهرت بعد ذلك، وأولها مؤلفات سترابون ثم مؤلفات بلينيوس (Plinius) الذي كان شغوفاً بالتفاصيل الحية الخاصة بجوف إفريقيا ووادي النيل، وأخيراً أعمال عالم الكون العظيم بطليموس الذي قام بعد ذلك بوضع سجل منظم للمادة التي تتضمن التراث المصري الهلينستي. وهؤلاء المؤلفون بدورهم انتقلت معلوماتهم، التي كانت تثريها احياناً تفاصيل أو ملحوظات اسطورية جزئياً او كلياً، الى الحضارات البيزنطية أو الغربية أو الاسلامية. وهكذا اعدت المعلومات الأساسية عن اواسط حوض النيل، وهي المعلومات التي قيض لها أن تستغل بعد وقت طويل في عصر البطالمة. ويصدق القول بأن هذا الوادي الأوسط كان «قطب الجذب بالنسبة إلى علماء الفلك والأجناس» وأن الحملات العسكرية كانت تصحبها بانتظام بعثات علمية(٢٨).

واكثر إثارة للدهشة من ذلك أن الطابع المصري قد امتص الطابع الاغريقي. ويبدو ان المصريين لم يستسلموا للضغط الحضاري. فلقد حافظوا على اتجاههم المستقل ازاء البطالمة على عكس الاغريق الذين كانوا يداهنون العاهل مداهنة صارخة(٢٩).

ولكن اللغة الاغريقية في ذلك الوقت كانت تحظى بأهمية دولية وكانت كتابتها أسهل من كتابة اللغة المصرية. ففي المجال الرسمي كان كل شخص يتكلم اللغة الاغريقية. على أن الأثريين لاحظوا وجود أوراق بردي ديموطيقية تكاد تعدل في أعدادها أوراق البردي اليونانية(٣٠). فالقانون الاغريقي لم يتغلغل في الاجراءات القانونية المصرية إلا ببطء شديد، على حين أن التقويم المصري تغلب بالتدريج على التقويم الاغريقي. وأهم من ذلك أن اللغة الاغريقية قد قدمت تراثاً مصرياً كاملاً للعالم الذي ما كان ليصل إليه بدون الوسيط اللغوي الجديد الذي استطاع أن ينقله.

ويمكن القول بأن الفن هو المجال الذي انتقلت عن طريقه الحضارة الهلينستية الى مصر وإفريقيا السوداء بصورة مدهشة جداً وبراقة. فالاغريق الذين عشقوا المسرح كما كانوا يعشقونه في أثينا بنوا آثاراً في مصر كانت تعكس ذوقهم. على أن الاحتكاك بالمعابد المصرية قد أثار فيهم نزعة الى الضخامة.

(٢٦) C. Préaux, 1957, pp. 310ff

(٢٧) المرجع السابق.

(٢٨) المرجع السابق.

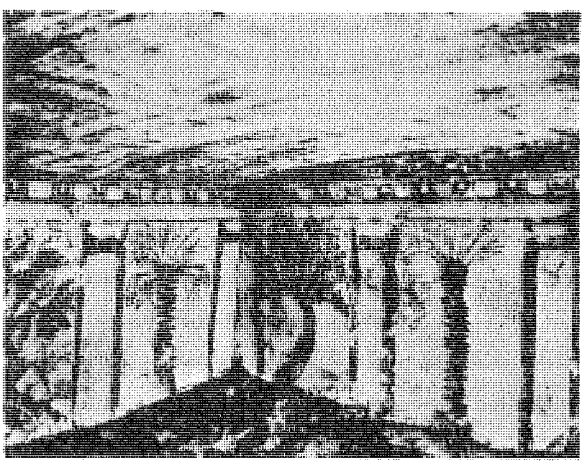
(٢٩) المرجع السابق.

(٣٠) أهم اختلاف بينها يتعلق بالموضوعات التي تتناولها: فالبرديات اليونانية تتناول طائفة ضخمة من الموضوعات المتنوعة، على حين أن الأخرى تتناول موضوعات قليلة جداً ومع هذا فمن الممكن اعتبارها مصدراً غنياً بالمعلومات الخاصة بإدارة المعابد وحياة الأسرة المصرية.



١

٢



١ : «أوديسيوس - أوليس» فاراً من بوليفيموس

٢ : رسم من احدى مقابر الانفوشي، الاسكندرية

وزحف نفس الاتجاه كذلك على أعمال نحتهم. فقد وجد رأس لسرابيس طوله ٥١ سم، وهناك تماثيل ضخمة عدة في المتحف اليوناني - الروماني بالاسكندرية.

ومن الطبيعي أن تكون الأساليب والأذواق الفنية لدى الجالية الاغريقية في مصر شبيهة في البداية بمثيلتها لدى الجاليات الاغريقية في الامبراطورية المترامية الاطراف. وفي الحق أيضاً أن منتجات مصانع الاسكندرية كانت تشبه منتجات بلاد الاغريق إلى حد ما، وتبدو فيها مؤثرات انماط غريبة عن إفريقيا. وهناك أمثلة كثيرة جداً على هذا الفن المستورد في متحف الاسكندرية، أبرزها رأس الاسكندر التي تنتمي إلى تقاليد مدرسة ليسبوس (Lysippus). بيد أن التجديد هو الآخر كان يشق طريقه في الاسكندرية، وكان الأسلوب الجديد الهام هو ذلك الذي يشير اليه علماء الآثار بالمصطلح الايطالي (Sfumato)، وهو مزج الضوء والظل على الخطوط الكفافية لملامح الوجه، دون كبير اهتمام بتجسيم الشعر أو الخدود. وهذه الأخيرة كانت عادة ما توضع نماذجها بالجص الذي كان يناسب النماذج اللينة التي كان يفضلها فنانو الاسكندرية. وحين كانت تضاف هذه الأجزاء كانت تلون عادة. وكان النحاتون والنقاشون يستلهمون النماذج المصرية على كل المستويات، وهو ما يبدو في تجسيد الآلهة. فايزيس ترتدي لباساً ضيقاً به العقدة التقليدية بين النهدين وفوق رأسها تلبس تاجاً مصرياً، إلا أن نموذج الجسم إغريقي بحت. وكانت أفروديت هي الالهة المفضلة من دون الآلهات الاغريقيات. فالتماثيل الصغيرة أحياناً ما تمثلها عارية في أوضاع مختلفة: منبثقة من البحر، أو عاقصة شعرها، أو منحنية لخلع صندلها من قدم مرفوعة أو طاوية رداءها حول ردفيها بكلتا يديها.

ومن بين الأبطال الاغريق كان هرقل كثيراً ما يجري تجسيده. فالأواني والمسارج التي وجدت في الاسكندرية تصور «اعماله الخارقة»، وتمثله وهو يحارب الأسد والثور و«الأمازونات» (النساء المسترجلات المقاتلات وحيدات الثدي).

وقد صور النيل في مصر الفرعونية على شكل رجل بدين له ثديان يحملان نبات اللوتس او البردي، وهما النباتان اللذان ينموان في وادي النيل. أما الاغريق فقد صوروه على شكل رجل ملتح إما جالساً أو مستلقياً في وسط افراس البحر والتماسيح أو أبي الهول، وهي كلها رموز مصر. وكانت مصورات الشخصيات الملكية تسير على نفس النمط. والرسم الذي ظل وفياً جداً للنماذج الاغريقية طيلة القرنين الرابع والثالث (قبل الميلاد)، أخذ في القرن الثاني يشتمل على مناظر ذات طابع مصري جنباً إلى جنب مع المناظر ذات الطابع الاغريقي، ومن ذلك على سبيل المثال ما وجد في احدى مقابر الأنفوشي بالاسكندرية. فقد زينت غرفة الدفن الرئيسية بدءاً بمدخلها ذاته بخليط من النماذج المصرية والاغريقية سواء في معماره او في زخارفه الملونة. وكروكي رسم اشجار النخيل الذي نقش في مقبرة اخرى في الأنفوشي يمثل الطابع السائد في القرن الأول. وتحتوي اعادة تزيين مقبرة الأنفوشي الثانية على مزيد من العناصر المصرية، بما في ذلك مناظر جديدة على النمط المصري.

وقد ظهرت الفسيفساء أولاً في شرقي البحر المتوسط ومن المحتمل أنها ظهرت في الاسكندرية ذاتها. فقد تم في الاسكندرية وحولها اكتشاف كثير من المسطحات المرصوفة بالفسيفساء وذات الرسوم المصورة. وقد نقش في أهمها اسم «سوفيلوس» (Sophilos)، وفي داخل المستطيل المركزي يبدو رأس امرأة معها سارية سفينة وطرف عارضة لشراع. ويتوج هذا الرأس بغطاء رأس على شكل مقدم سفينة، ويحتمل أنه كان تجسيداً لمدينة الاسكندرية. وحول المستطيل المركزي توجد سلسلة من الحواف المزينة بزخارف كثيرة. وقد وجدت في شرقي الدلتا ويرجع تاريخها الى القرن الثاني.

على أن مما لا شك فيه أن اكثر ملامح إنتاج مصر الهلينستي إثارة للدهشة، فيما يتعلق بتنوع ابتكاره وأذواقه، هو كثرة التماثيل الصغيرة الواقعية أو المرحة او المضحكة(٣١) التي تمثل مناظر من الحياة اليومية وتصور مصريين أو افارقة سوداً. فالتماثيل الصغيرة المصنوعة من البرونز والرخام والتراكوتا (الطين النضيج) او الجص قد صنعت للعامة من الناس، إلا ان وجود قطع أكثر قيمة لما يشهد برواجها بين كل الطبقات.

وقد خلع على بيس (Bes)، وهو أكثر الآلهة التي اقتبسها الاغريق تمثيلاً للروح المصرية، مظهر مضحك. وما لبث أن جعلت له زوجة قبيحة مثيرة للضحك كشخصه ذاته هي بيسا أو بيسة (Beset). وشغف الاغريق المستوطنين في مصر بكل ما هو غير إغريقي هو الذي حثهم على طلب أشياء تصلح للاستعمال اليومي، وأدوات الترف أو حلى تمثل الزنوج. وقد بلغ صدق التصوير أحياناً درجة رفيعة من الاتقان الفني، إلا أنه في أحيان كثيرة كانت تبدو فيه قدرات النحات على الملاحظة أكثر مما يبدو فيه ذوقه. وفي بعض الأحيان كان الموضوع أحد مناظر الشارع، مثل التمثال الصغير لزنجي شاب نائم إلى جانب قارورة ذات عروتين. وكان الزنوج يرسمون على كل انواع أدوات الاستعمال اليومي مثل جرار الماء. والطريقة التي كانوا يصورون بها لا يبدو فيها أي شعور بالخوف أو بأنهم عنصر دخيل غير مرغوب فيه، واحياناً ما كان يصور الزنوج مع الفيلة أو وهم يقاتلون التماسيح، على حين ان تصوير الأقزام هو ترديد خافت للموضوعات الأدبية القديمة الخاصة بجنس الأقزام. وصور المصارعين السود والبنات الراقصات والمشعوذين والخطباء والموسيقيين لا تشهد فقط بأن النحاتين كانوا يستقون المناظر من الحياة، بل تشهد أيضاً بأن مثل هذه المناظر كانت رائجة لدى الجماهير. وتنهض بعض الرؤوس وصور الوجه شديدة الدقة للزنوج دليلاً على أن شخصيات ذات مستوى اجتماعي عال من إفريقيا السوداء كانت تعيش في اسكندرية البطالمة أو مرت بها(٣٢). وربما كان الاهتمام بالزنوج الذي أبداه اهل الاسكندرية راجعاً جزئياً إلى اهتمام البطالمة بالواحات الصحراوية الكبرى التي كانت مدخلاً لعالم إفريقيا السوداء.

وعن طريق فن مصر الهلينستي انتشرت صورة الافريقي في عالم البحر المتوسط على نطاق أوسع مما كان عليه في السابق.

مصر في العصر الهلنيستي: علاقاتها مع ليبيا

شقت بعض ملامح الحضارة الهلينستية طريقها من مصر إلى شمالي إفريقيا عبر برقة (Cyrenaica) (٣٣). ولم تكن هذه هي المرة الأولى التي ظهرت فيها الحضارة الاغريقية في برقة، اذ أننا نعلم أن الاغريق من جزيرة ثيرا (Thera) الدورية هاجروا إلى إقليم برقة حيث أسسوا قورينة (Cyrene) أولى مستوطناتهم في عام ٦٣١ق.م. وتلا ذلك انشاء أربع مستوطنات أخرى: ميناء قورينة (أبوللونيا بعد ذلك) وتاوخيرا (Tauchira) وبلدة برقا (Barca) (المرج الحالية) ويوئسبريديس (Euhesperides).

(٣١) A. Badawy, 1965, pp. 189-198

(٣٢) عن هذا الموضوع، انظر: F.M. Snowden, 1976, pp. 187-212

(٣٣) قام الدكتور مصطفى كمال عبد العليم بمعاونة مؤلف هذا الفصل فيما يتعلق بموضوع ليبيا.

وهذه المستوطنات وبخاصة قورينة كانت نتاجاً للحضارة الاغريقية، وتعرضت للتغيرات السياسية العادية التي طرأت على كل مدينة اغريقية. وبتأسيس قورينة بدأ حكم أسرة باتوس (Battus) التي سقطت نتيجة للنزاعات الداخلية التي نشبت حوالى عام ٤٤٠ق.م. ثم تلا ذلك الصراع المعتاد بين الأرستقراطية والديموقراطية وأصبحت برقة منطقة تعمها الفوضى والصراع.

وكان كل العالم القديم في ذلك الوقت على شفا تحول ضخم بظهور الاسكندر الأكبر الذي غزا مصر في خريف عام ٣٣٢ق.م وتقدم غرباً حتى برايتونيوم (Paraetonoium) (مرسى مطروح الحالية) في طريقه إلى واحة سيوة لكي يستشير وحي زيوس - آمون. وقد حاولت قورينة، ويحتمل المدن الأخرى كذلك (التي اساءت فهم مقاصد الاسكندر في الواقع وحاولت الحيلولة دون غزوه لبرقة) المحافظة على استقلالها بإرسال سفراء لمقابلته في برايتونيوم وتوكيد ولائها له. ولكنها لم تستطع المحافظة على استقلالها الى الأبد، ففي عام ٣٢٣ق.م - بعد وفاة الاسكندر، انتهز بطليموس، في الوقت الذي كان فيه والياً على مصر، فرصة نشوب الصراعات الداخلية في قورينة وضم برقة بادئاً بذلك العصر الهلينستي في تلك البلاد. وباستثناء فترة قصيرة تمتعت فيها برقة بالاستقلال (حوالى عام ٢٥٨ - ٢٤٦ق.م) استمرت سيطرة البطالمة عليها من ٣٢٢ق.م إلى ٩٦ق.م، حين قام بطليموس أبيون (Apion) (ابن بطليموس يوئرجتيس الثاني) - الذي كان يحكم اقليم برقة - بتوريثها للشعب الروماني، فضمت إلى كريت وأصبحتا معاً تكونان ولاية رومانية.

وفي بداية العصر الهلينستي كانت برقة اقليماً يتكون من قرى صغيرة وليست به سوى مدن قليلة جداً. وفي عهد البطالمة خلعت على المدن أسماء جديدة، بعضها أسماء ملوك البطالمة. وحافظت قورينة على اسمها، ولكن تبدل اسم تاوخيرا فأصبح ارسينوي (توكرة الحالية) وخلع اسم بطولميّس (Ptolemaïs) على ميناء برقة (طلميثة الحالية) التي حلت محل بلدة برقا باعتبارها المركز الرسمي للمدينة. وحلت محل يوثسبريديس مدينة جديدة أطلق عليها اسم برنيقة (Berenice) (بنغازي الحالية) تكريماً لبرنيكي، أميرة برقة وزوجة بطليموس الثالث. وارتفع مقام ميناء قورينة إلى مستوى المدينة وخلع عليه اسم أبولونيا (Apollonia) (سوسة الحالية).

وكان يقطن اقليم برقة خليط من الأجناس. ففي المدن كان يوجد إلى جانب الاغريق (الذين كانوا إما مواطنين يتمتعون بكل حقوق المواطنة أو يتمتعون ببعض الحقوق المحدودة) سكان غير إغريق يتكونون في معظمهم من اليهود وكثير من الأجانب الآخرين. وفي خارج المدن كان سكان الريف (Georgoi) يتكونون من أهل البلاد الأصليين من الليبيين والجند المرتزقة الذين كانوا قد سكنوا هناك باعتبارهم أرباباً للاقطاعيات العسكرية.

وكان سكان الريف هؤلاء يقومون بفلاحة الأراضي الصالحة للزراعة في برقة التي كانت تتكون من الأراضي الملكية (Gê Basilikê) وأراضي المدن (Gê Politikê) والأراضي التي تركت لسكان البلاد الأصليين من الليبيين. وهذا البنيان الاجتماعي ترتب عليه نشوب النزاع بين الليبيين والمستوطنين الاغريق.

وكانت برقة في العصر الهلينستي على أهمية اقتصادية كبيرة، إذ اعتبرت إحدى صوامع الحبوب في العالم القديم. وقد قيل إن قورينة أرسلت هدية مقدارها ٨٠٠٠٠٠ ميدمنوس (المدمنوس حوالى ٣ ت) من الحبوب للمدن الاغريقية في بلاد اليونان الأم أثناء مجاعة ٣٣٠ - ٣٢٦ق.م. وقد قيل عن صوف برقة وتربية سكانها للخيول ونباتها الطبي (Silphium) الشهير الذي كان يحتكره ملوك باتوس ويحتمل أنه ظل احتكاراً لملوك البطالمة.



١



٢

٣



١ : جزء من آنية برونزية للبلسم
٢ : رأس شائهة
٣ : تمثال صغير لموقد مصابيح الشوارع

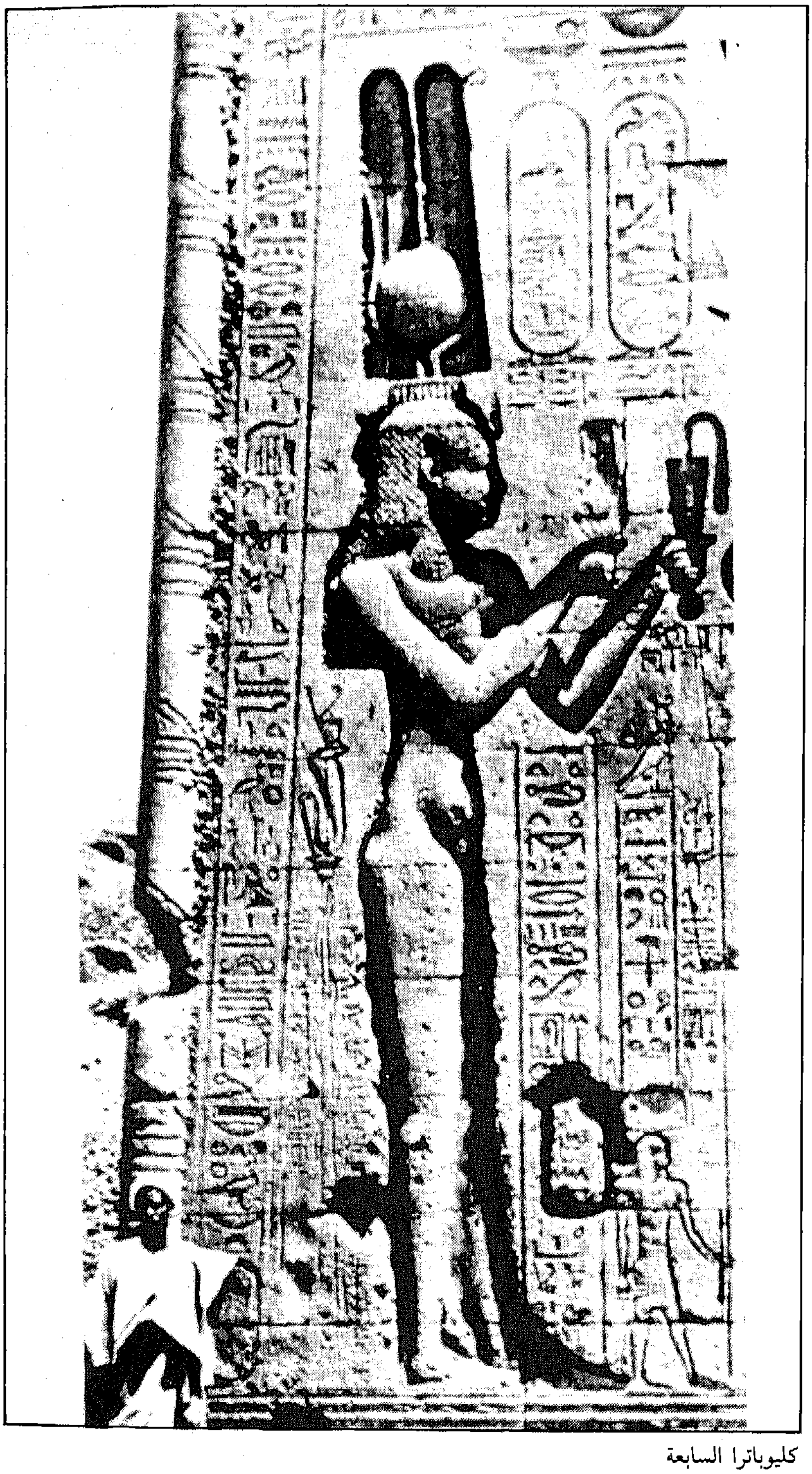
وهدية الحبوب هذه ليست الدليل الوحيد على العلاقات الوثيقة التي قامت بين إغريق برقة واغريق بلاد اليونان ذاتها. فمن المعروف جيداً أن قورينة أسهمت إسهاماً كبيراً في الحياة الفكرية الاغريقية، وبخاصة خلال القرن الرابع، وذلك عن طريق فلاسفتها ورياضييها. فنتيجة للعلاقات الثقافية الوثيقة بينها وبين أثينا جعلت قورينة من الممكن بالنسبة إلى الفلسفة وفروع أخرى كثيرة من المعارف أن تزدهر على هضبة برقة. وهنا نشأت المدرسة الفلسفية التي عرفت باسم «القُرنائيون» (Cyrenaics) وهي مدرسة سقراطية صغرى أسسها أرستبوس (Aristippus) (حوالى ٤٠٠ إلى ٣٦٥ق.م) حفيد أرستبوس الذي كان صديقاً لسقراط وزميلاً له. وهذا النشاط العقلي والخصب الفكريان كانا لا يزالان واضحين في العصر الهلينستي. ولا نحتاج إلا لذكر شاهد من اسمي كالليماخوس (Callimachus) (٣٠٥ق.م - ٢٤٠ق.م) وإراتوستنيس (Eratosthenes) (٢٧٥ق.م - ١٩٤ق.م) اللذين كانا بين اولئك الذين نزحوا من برقة إلى الاسكندرية لاثراء نشاطات هذه الأخيرة في تطوير العلوم والآداب. وفي «الأكاديمية» ودار العلم والمكتبة أسهما في إثراء الفكر الخلاق في الاسكندرية وأتاحا للمدينة أن تصبح مركزاً لاستقطاب العقول المفكرة في العصر الهلينستي. فحتى في أثينا ذاتها كان كرنياديس (Carneades) البرقاوي (٣٠٥ق.م - ٢٤٠ق.م) - أحد زعماء مدرسة الفلاسفة الشكاكين (Sceptics) - هو الذي أسس «الأكاديمية الجديدة». وفي قورينة كما هو الحال في مدن إغريقية أخرى، تم الحفاظ على النظام الاغريقي للتعليم. وهناك عدد كبير من النصوص التي تشير إلى المدارس أو المعاهد الثقافية والرياضية (Gymnasia) ومنظمة الشباب (Ephebeia).

وقد تم اكتشاف كثير من تماثيل الفلاسفة والشعراء وربات الفنون. ومما له دلالته الكبيرة اكتشاف تمثال نصفي لديموستنيس (Demosthenes) ، رغم كونه نسخة رومانية، إذ أن هذا يبين لنا التقدير الكبير الذي حظي به هذا الخطيب الاغريقي الكبير من جانب سكان برقة من الاغريق.

وقد وجدت بين تماثيل الرخام العديدة التي جرى الكشف عنها في برقة بعض الأمثلة البديعة للنحت السكندري. ويتضح من التماثيل الأصلية القليلة التي تنتمي للعصر الهلينستي أوجه شبه وثيقة جداً بما يعرف باسم فن الاسكندرية الهلينستي. وليس من الغريب أن يجري تقليد الأسلوب الفني المتبع في الاسكندرية إلى حد ما في برقة. وهناك أوجه شبه أخرى بين فن النحت الاغريقي وفن النحت السكندري بإمكاننا أن نلمسها في التماثيل النصفية البرقاوية. وإن مقارنة بين التماثيل النصفية الجنائزية البرقاوية وبين الصور على المومياءات المصرية لتكشف لنا بوضوح عن أوجه الشبه الوثيقة بين الطرفين. وحتى في حالة كون القطع المعنية تنتمي الى العصر الروماني، فليس بالامكان إنكار أصلها البطلمي.

ومن برقة جاءت الأواني الهلينستية الملونة والتماثيل الصغيرة المصنوعة من الطين النضيج. وكان يجري إنتاج هذه التماثيل الصغيرة في مصانع محلية بدأت بإعادة نسخ وتقليد التماثيل الصلصالية الاغريقية إلا أنها لم تلبث أن أصبح لها بالتدريج أسلوبها الخاص. ودراسة هذه التماثيل الصغيرة مفيدة لأنها تعكس حياة سكان برقة اليومية، وبخاصة في المدن.

وفي مجال الدين شقت عبادة الملوك البطالمة طريقها إلى برقة، وهو ما نلمسه في العدد الكبير من النقوش المهداة للملوك وملكات البطالمة. كما أخذت مدن برقة بعبادة سرابيس، وقد وجدت تماثيل لايزيس وأوزوريس في قورينة وبطولميس.



كليوباترا السابعة

ومن برقة يحتمل أن هذه العبادة الاغريقية - المصرية قد وصلت إلى اقليم طرابلس الذي لم يحكمه البطالمة بتاتاً قبل العصر الروماني. وقد جرى اكتشاف معبد لسرابيس وايزيس في لبتيس ماجنا (Leptis Magna) (لبدة الحالية)، ومن الملفت للنظر والانتباه أن عبادة ايزيس في سبْراتا (Sabrata)قد اقترنت بطقوس هذه العبادة. ولا بد أن عبادة ايزيس وسرابيس قد امتدت بعيداً صوب الغرب حين أصبحت عبادة ايزيس أكثر انتشاراً وحين بدأت عبادة سرابيس تعطي العالم القديم أملاً جديداً في حياة أفضل في الآخرة.

والكثير مما قيل عن برقة الهلينستية لا يمس سوى الاغريق، إذ أن المعلومات الخاصة بسكان البلاد الليبيين ومدى تأثرهم بالحضارة الهلينستية نادرة ومن الصعب العثور عليها. ونحن نعلم أن سكان البلاد الأصليين من الليبيين لم يرحبوا بوجود الاغريق بعد أن جرى طردهم من الأراضي الساحلية الخصبة واحتواؤهم في الداخل. ورغم ذلك فإن الحضارة الهلينستية تدين بالكثير لهذه المنطقة الواقعة في شمالي إفريقيا التي مكنتها من النمو والازدهار لمدة ثلاثة قرون.

ويدين رخاء مروى (Meroe) الكبير، وبخاصة في عهد إركمنيس (Ergamenes) وخلفائه، بالضرورة لعلاقة الصداقة التي ربطتها بمصر. ولم توجد في معابد وأهرامات مروى حتى اليوم سوى آثار قليلة للمؤثرات الهلينستية[٣٤]. والمعبد الذي بناه إركمنيس في الدكة ببلاد النوبة السفلى مصري بحت في تصميمه المعماري. وحين توفي دفنت مومياؤه في هرم بالقرب من مروى زيِّن بمناظر أخذت من كتاب الموتى. وقد بنى خلفه أزْكَرمون (أزْخر - آمون) معبداً على النمط المصري بالقرب من دبود غير بعيد عن جزيرة فيلة.

وكانت حياة أهالي مروى تشبه حياة المصريين إلى حد كبير. ومعلوماتنا عن حياة ومجتمع ذلك العصر يجب استقاؤها من دراسة المكتشفات الأثرية لأننا لم نستطع بعد أن نقرأ لغة مروى[٣٥]، وليس لدينا المصدر الغني بالمعلومات الخاصة بالحياة اليومية الذي توفره مقابر مصر القديمة.

وكما هو الحال في مصر كان الملك يعتبر إلهاً. وقد لعبت الملكات دوراً هاماً في حياة البلاد ونهضن أحياناً بالحكم طبقاً لحقهن الشخصي وتمتع الكهنة بنفوذ كبير، وكانت لدى المعابد أملاك قيمة. ورغم أن أهل مروى قد اقتبسوا من مصر معظم أفكارهم الدينية الرسمية فقد كانت لهم آلهتهم الخاصة.

ويبدو من عادات الدفن في مروى أنها خليط من التقاليد المحلية والمصرية. ونحن نعلم من الأثاث الذي جرى العثور عليه أن الأسِرَّة كانت من نوع «العنجريب» الذي يشبه أسِرَّة مصر القديمة التي لا تزال تستعمل حتى الآن في وادي النيل.

وكانت الزراعة هي النشاط الرئيسي لدى معظم شعوب مروى. فلكي يرووا أراضيهم استعملوا الشادوف والساقية، وهما الأداتان اللتان لا تزالان تستعملان في كلا البلدين لرفع المياه من الأراضي المنخفضة إلى الأراضي المرتفعة.

وقد وجدت في كلا البلدين أدوات وأسلحة مشابهة مثل القدوم وأنصال المعزقة والفؤوس والأزاميل، وأدوات صغيرة كثيرة منها الملقاط الصغير. وكل هذه الأدوات كانت تصنع من البرونز. على أنه قد وجدت في مروى كذلك أدوات كبيرة مصنوعة من الحديد. ووجود ركامات كبيرة من

(٣٤) انظر: F.F. and U. Hintze, 1966, pp. 23-28

(٣٥) انظر الفصل العاشر.

مخلفات صهر الحديد بالقرب من المدينة مما يدل على ان إنتاج الحديد واستعماله كانا شائعين جداً. وكان خام الحديد يصهر في أفران بسيطة توقد بالفحم النباتي الذي يستقى من أشجار السنط التي تنمو على طول النيل.

وقد لوحظت أوجه الشبه بين الأدوات التي وجدت في كل من مصر والسودان. على أن بعضها، مثل مساند الرأس، والآلات الموسيقية ذات مظهر مصري بارز، ويحتمل أن أصلها يرجع إلى مروى.

الفصل السابع

مصر تحت الحكم الروماني

بقلم
س. دنادوني

روما: من التحالف مع مصر الى السيطرة عليها

انتقلت مصر من حكم البطالمة الى حكم روما بصورة تدريجية غير ملموسة تقريباً. وكانت العلاقات بين الاسكندرية وروما وثيقة لمدة طويلة منذ عصر بطلميوس فيلادلفوس الذي كان أول من وقع من ملوك البطالمة معاهدة صداقة مع روما وأرسل إليها سفارة في عام ٢٧٣ق.م. وبعد ذلك بنصف قرن كان بطلميوس فيلوباتور لا يزال يحتفظ بعلاقة صداقة مع روما أثناء حربها مع هانيبال (٢١٨ق.م - ٢٠١ق.م)، وردت روما المعاملة بالمثل بانقاذها استقلال مصر حين غزاها أنطيوخوس الرابع في عام ١٦٨ق.م. ورغم ذلك فإن الجمهورية وقد وطدت نفوذها، قد أمكنها - بل لقد مارست فعلاً - السيطرة على شؤون مصر بطريقة أصبحت واضحة جداً في أواخر عصر البطالمة. وربما كان هدف مؤامرات كليوباترا السابعة مع القادة الرومان فيما بين عامي ٥١ ق.م و٣٠ق.م هو جعلهم يساندون مصالح مملكتها ولو ان مساندتها غير المشروطة لصديقها ماركوس انطونيوس أدت إلى فقدها العرش إلى الأبد بمجرد أن انتصر أكتافيوس عليه في عام ٣١ق.م.

وكان اتجاه سيد مصر الجديد إزاءها مما يدل بوضوح على الأهمية التي علقتها روما على هذه الولاية الجديدة التي ضمت إلى إمبراطوريتها. وقد وضعت فيها ثلاث فرق أي حوالى ١٥٠٠٠ مقاتل كانت مهمتهم إعادة السيطرة على البلاد التي كانت قد حلت بها الفوضى في أواخر عصر البطالمة مما أدّى إلى تدمير طيبة في عام ٨٨ق.م. وقد قاد أول الولاة الرومان، كورنيليوس جاللوس (Cornelius Gallus) القوات الرومانية إلى مصر العليا إلى مسافة تبعد جنوباً عن الجندل الأول. وبعده استطاع الوالي بترونيوس (Petrinius) أن يستولي من جديد على النوبة السفلى المسماة دوديكاسخوينوس (Dodecaschene)

(لأن مساحتها كانت تبلغ ١٢ سخوينوس) والواقعة على مسافة ١٢٠ كيلومتراً من سيين (أسوان) حتى هيراسيكامينوس (المحرقة) وكانت قبل ذلك تتبع البطالمة، ولو أن حكام مروى (الواقعة الآن في السودان) كانوا لفترة طويلة قد ضموها إلى مملكتهم. وقد أدى تزايد ثقة الوالي جاللوس - موضع ثقة الامبراطور الروماني - بانتصاراته إلى جعله يدفع حياته ثمناً لذلك، وهو حدث أثبت الأهمية الخاصة جداً التي علقها أكتافيوس الذي أطلق عليه حينئذ لقب أغسطس - على الاستيلاء عليها. فقد حرص بشدة على إبقاء ولاية مصر تحت إدارته المباشرة ولم يعط السناتو (مجلس الشيوخ) أي إشراف عليها. وكان ثمة تحريم واضح في الواقع على أعضاء هذا المجلس حتى لا يطئوا أرضها، وهي قاعدة طبقت بمنتهى الصرامة. وهكذا خلف الامبراطور الروماني البطالمة في مصر، وحاول أن يحتل مكانتهم في بنيانها. فقد تولى الاشراف على شؤون ديانتها وسرعان ما عرف باعتباره باني عدد كبير من المعابد التي اكثرها محافظة على حالته معابد النوبة في دبود و تالميس ودندور وبسلكِس. كما تولى مسؤولية رفاهيتها اليومية، واستعمل الجيش ليس فقط للمحافظة على الأمن العام بل أيضاً لاصلاح نظام القنوات الذي أصابه كثير من العطب خلال القلاقل التي نشبت في أواخر حكم البطالمة. وهذا الاستثناء أصبح القاعدة، فقد استعملت القوات المسلحة أيضاً بهذا الشكل في عهود نيرون (٥٤م - ٦٨م) وتراجان (٩٨م - ١١٧م) وبروبوس (٢٧٦م - ٢٨٢م).

الادارة الرومانية

على أن الامبراطور الروماني اقتدى بالبطالمة في ادارة مصر باعتبارها ضيعة شخصية شاسعة كان التاج يتولى الاشراف على دخلها كله. وهذا الاستغلال من جانب أغسطس سرعان ما أصبح نقطة البدء لكل سياسته التي وضعها لمصر، هذا برغم أن خلفه أنب الوالي لفرضه ضرائب باهظة، مذكراً إياه، بأن من الواجب جز الشاة لا سلخها.

وقد ظهرت سلطة الامبراطور المباشرة للعيان من خلال تعيينه للوالي الذي كان باستمرار فارساً - من طبقة رجال الأعمال - (لا عضواً بمجلس السناتو) لشغل أعلى منصب في البلاد، وتعيينه لمديري الادارات (Procuratores) [1] الآخرين الذين كانوا يمارسون سلطاتهم باسمه. وهناك نبذة ادارية صغيرة يبدو منها طابع مصر الخاص: فقد كانت البلد الوحيد في الامبراطورية بأسرها الذي تحسب فيه السنوات طبقاً لحكم الامبراطور لا طبقاً لشغل القناصل للمنصب. وقد أدى هذا إلى استدامة العادة القديمة التي جرت في عهدي البطالمة والفراعنة وخلع هالة ملكية على رئيس الدولة الروماني لم يعترف بها في أي مكان آخر فيما يتعلق بتنظيم الامبراطورية.

على أن هذا الاستغلال الامبراطوري كان من ورائه باعث جديد لم يوجد زمن البطالمة. فعلى حين ان منتجات مزارع مصر وصناعاتها في عهدهم قد أثرت أسرة حاكمة كانت كل مصالحها المتنوعة تكمن داخل مصر. فإن الاباطرة اعتبروا مصر مستودعاً للقمح الذي اعتادوا توزيعه على دهماء روما كسباً لتأييدهم. فمهمة مصر الخاصة بكونها مزرعة حبوب الامبراطورية أدت الى انتزاع انتاج الأرض منها دون أن تحصل على أي تعويض له وزنه فيما يتعلق بالتجارة المنتظمة.

(١) أو «الوكلاء». وكلمة (Procurolol) مركبة من الحرف pro بمعنى «بدلاً من»، والفعل Curare بمعنى يهتم.



رأس أمير محلي «تترارخس»

وقد أدى تغير وضعها من دولة مستقلة الى ولاية تابعة في الواقع الى اختلافات اخرى اكثر اهمية بالنسبة الى بنيانها.

وفي وسعنا ان نتعرض لهذه التغييرات بقدر كبير من التفصيل لأننا حصلنا على قدر كبير من المعلومات الخاصة بكل ملامح الحياة اليومية المصرية وذلك من خلال بعض الوثائق القيمة الخاصة بها، أي أوراق البردي. فهذه تحتوي على وثائق عامة وخاصة حافظت عليها أرضها الجافة لعدة آلاف من السنين حتى وصلت الى أيدي الباحثين الذين توفروا طيلة قرن ونصف على دراسة ما تحتويه من معلومات لغوية وتاريخية. ومن ثم فإن معلوماتنا ترتكز على نصوص أصلية من شأنها أنْ تلقي ضوءاً على روايات المؤرخين مع دقة في التفاصيل يندر أن نحصل عليها في أي حقل من حقول الدراسات القديمة الأخرى.

وكانت الوحدة الجغرافية لدى الحكومة هي الأقليم(والمعروفة الآن باسم مديرية أو محافظة) التي قسمت بدورها الى مركزين (Toparchial) كل منهما يحتوي على عدد من القرى (Kome). وكانت نومات (أي أقاليم) مصر العليا تشكل معاً وحدة أكبر هي منطقة طيبة (Thebaïde) كانت تشبه الهيبتانوميس (Heptanomis) (أقاليم مصر الوسطى السبعة) ونومات الدلتا. وكان كل اقليم يحكمه قائد الاقليم (Strategaf) (اللقب العسكري البطلمي القديم) الذي كان يوجد بجواره كاتب ملكي (وهو أيضاً لقب بلطمي) باعتباره فنياً ادارياً. وكان موظفون أقل أهمية يديرون وحدات أصغر وفقاً لتقاليد موغلة في القدم.

على أن الحكومة المركزية كانت جديدة. وقد أقيمت نواتها في الاسكندرية، المدينة الملكية القديمة، التي انتقلت اليها العاصمة، حينئذ بدلاً من ممفيس وكانت هيئة أركان الحكومة تتألف كلها من مواطنين رومان يعينهم الامبراطور نفسه. وأول هؤلاء والي مصر رئيس كل الادارات، بما في ذلك الخزانة والجيش والمحاكم. ولم يكن يحد من سلطته سوى حق التظلم من قراراته للامبراطور شخصياً. ولمساعدة الوالي على الاضطلاع بمسؤولياته كان لديه مجلس يتكون أيضاً من فرسان رومان (أي طبقة رجال المال والأعمال). وكانت الهيئة القضائية المركزية وعلى رأسها الـ (Juridicus) والـ (Dikaidotes) والـ (Archidikastes) تساعده في إدارة القضاء، وكان ناظر ضياع الامبراطور Procurator) Usiacus)[٢] يساعد في الادارة المالية للدخول التي كانت ترد إلى الامبراطور شخصياً، وكان أحد الفرسان مسؤولاً عن المعابد. وكانت مجموعات النومات هي الأخرى تخضع لسلطة ثلاثة مديرين عامين (Epistrategoi) كانوا فرساناً برتبة وكيل الامبراطور المالي (Procurator). وطبقاً لتقاليد التنظيم الروماني، كان من الواجب أن يكون الشخص الذي يضطلع بالقيادة العسكرية رئيساً كذلك للادارة بوجه عام وللقضاء بوجه خاص. وهذه الفكرة أثرت تأثيراً عميقاً في الجهاز القضائي القديم الذي كان - طبقاً للقانون المصري المحلي - يخوِّل القضاة سلطة الفصل في القضايا التي تكون فيها الوثائق مكتوبة بلغة البلاد، وفي القضايا الأخرى كانت تخلعها على قضاة من الاغريق. وفي تلك الأثناء كان والي مصر هو القاضي الأوحد، ومن الواضح انه كان يستطيع تفويض سلطته لآخرين وبخاصة قائد - أي مدير - الاقليم (Strategos) وإن يكن وحده هو الذي يضطلع بالمسؤولية. وكان يقوم سنوياً بجولة دورية في البلاد للفصل في القضايا الصعبة، وكانت هذه الدورة تسمى المجلس القضائي الدوري (Conventus)، وكانت تعقد في بلوزيوم قرب (الاسكندرية) وفي ممفيس وفي آرسينوي بالفيوم. وكان

---

(٢) من (Ousia) بمعنى ضيعة.

القانون الروماني يطبق على المواطنين الرومان، وقانون الأجانب على الآخرين، وهذا القانون الأخير كان يضع في الاعتبار عادات البلاد وطباعها ولكن مع بعض الاستثناءات.

وهذه الأمثلة وحدها كافية لايضاح أن الوجود الروماني كان بإمكانه تغيير جهاز ادارة مصر البطلمية. على أنه منذ بداية عهد أغسطس كان لا يزال بإمكان عوامل أخرى أن تؤدي إلى مزيد من التغيير. فالادارة البطلمية كانت شديدة المركزية وكانت في معظمها تقوم على موظفين يتقاضون اجوراً، كانت رواتبهم تستمد من ريع ادارة مزارع تختلف مساحتها باختلاف اهمية مسؤولياتهم. كما كان الجيش منظمة وراثية تتضمن الحق - وهو أيضاً وراثي - في زراعة قطع من الأرض تحدد مساحتها وفقاً لمعايير معينة (كأن يكون الموظف اغريقياً او مصرياً أوكان لديه حصان ينفق عليه أم لا، وهكذا). وفي العهد البطلمي كان النظام قد عانى بالفعل من الاستغلال الذي لم يمكن تجنبه. وفي العصر الروماني تعرض لتغيير كامل: فقد استبدل بالموظف الذي يتقاضى اجراً المهيمن الشرقي (غير المأجور) وفي نفس الوقت كانت تتكون مجالس من الاشخاص الذين يضطلعون جميعاً بنفس المهام وكانوا يتولون جميعاً مسؤولية جماعية. فالى جانب قائد - أي مدير - الاقليم كان يوجد اعضاء المجالس البلدية (Archontes) وقادة الوحدات العسكرية. والى جانب كاتب القرية (Komogrammateus) (=العمدة) كان يوجد شيوخ القرية (Presbyteroi).

ورغم أن الدولة (روما) لم تعد تعين الحكومة او تدفع نفقاتها فإن الضيعة الخاصة الصغيرة وذات الحجم المتوسط قد جرى تكبيرها عن طريق توزيع الأراضي التي كانت حتى ذلك الوقت مَلَكية أو انتفاعية (وكانت الاقطاعات (Kleroi) تتكفل بأجور الموظفين العموميين). وهكذا نشأت طبقة من حائزي الأملاك الذين ينتخب منهم أعضاء المجالس البلدية غير المأجورين الذين كانوا يضطلعون بمهامهم باعتبارها واجباً (Munus) أعطوا أجورهم عنه مقدماً عن طريق حقوق الملكية التي منحت لهم. وقد عهدت الامبراطورية الى هذه الطبقة من الملاك والاداريين المحتملين بالدفاع عن مصالحها، عامدة الى محاباة احدى الفئات الاجتماعية لكي تضرب بها الفئات الأخرى. وفي عهد البطالمة الأول كان الإغريق يشغلون في الواقع مركزاً ممتازاً تضعضع كثيراً بعد موقعة رفح التي جرت في عام ٢١٧ق.م وانتصرت فيها قوات مصر الوطنية انتصاراً باهراً، وبوجه خاص خلال المصاعب التي واجهها ملوك الأسرة الأواخر.

ولحاجة المحتلين الرومان الى ضرب الفئات بعضها ببعض لجأوا الى العادة القديمة فأعادوا الى الاغريق وضعهم الممتاز، وفي هذه المرة لم يتم ذلك فقط بصفة فعلية بل أيضاً بصفة قانونية. وهكذا فرضت على المصريين ضريبة رأس (Laographia) (كان الفرد عرضة لدفعها لمجرد بقائه على قيد الحياة) أعفي منها الاغريق. وكان مواطنو عواصم الأقاليم (Metroples) يدفعون ضرائب تقل عن تلك التي يدفعها سكان الريف ولم يكن بإمكان الفلاحين ان يتركوا الأراضي التي يزروعونها أي مقر عملهم (Idia). وهكذا كان من المهم أن ينتمي الفرد إلى أسرة ذات تعليم إغريقي. ولم يكن بإمكان الشخص أن يدَّعي ذلك إلا إذا قدم مستندات تثبت أن جديه كليهما قد التحقا بمدرسة اغريقية (Gymnasion). وفي عهد البطالمة كانت هذه المدارس مؤسسات حرة، وبعد انتهاء عهدهم أصبحت مقصورة على أبناء العاصمة وكانت تشرف عليها الدولة. ولم يكن باستطاعة الفرد أن يطلق على نفسه اسم خريج الجمنازيوم (Apo Tou Gymnasiou) إلا بعد فحص (Epikrisis)دعوى نسبه. فإذا ما أثبت ادعاءه كان يمكن اعتباره أحد أفراد البورجوازية الحضرية التي تتكلم الاغريقية تمييزاً لها عن أبناء الريف الذين كان معظمهم من الفلاحين ومصريين أيضاً. وقد ضاعت حقوق المصريين في حد ذاتها في

نطاق هذا الاطار الاجتماعي الجديد الذي كان أهم اهدافه تنظيم طبقة وسطى قوية لها مصلحة في مستقبل الامبراطورية.

ومن المفيد في هذا المجال أن نعرض للوضع الخاص الذي كانت تحظى به المدن الحرة المتمتعة بالاستقلال الذاتي (Poleis) في عهد البطالمة، مثل بطوليس في مصر العليا ونقراطيس[٣] القديمة الرائعة في الدلتا. وكانت المدينة الثالثة المتمتعة بالاستقلال الذاتي - الاسكندرية - لا تزال أكبر ثغر على البحر المتوسط، وكانت تنافس روما في عدد سكانها وأهميتها. ورغم ذلك فقد فقدت «مجلس الشورى» وأصبحت قاعدة لوحدة بحرية عرفت باسم الأسطول الأغسطي الاسكندري Classis Augusta) Alexandrina) على حين أن الجيش الروماني كان يعسكر في نيقوبوليس (Nicopolis)قريباً جداً من المدينة. ولم يكن الاسكندريون الذين اشتهروا بسلاطة لسانهم وسخريتهم اللاذعة، في وقت ما على وفاق مع سادتهم الجدد ولم يدعوا أي فرصة لم يستغلوها للتعبير عن ذلك.

مصر تحت السيطرة الرومانية

وقد تركت هذه الأسس التي قامت عليها السيطرة الرومانية وشأنها لمدة طويلة. وساد حياة الولاية سلام روماني (Pax Romana) جرى دفع ثمنه على شكل ضرائب تقدر على أساس جزية القمح المقرّرة جبايتها سنوياً (Annona) وهي التي كانت مصدراً للتمرد والاحتجاج المتكرر. وقد استطاع تيبريوس (Tiberius) (١٤م - ٣٧م) - الذي تولى الحكم بعد أغسطس أن ينقص عدد الفرق الرومانية المعسكرة في مصر الى فرقتين. وفي عهد خلفه نشبت القلاقل للمرة الأولى بين اغريق الاسكندرية واليهود العديدين الذين يسكنون المدينة. وهكذا احتدم نزاع كان يتراوح ما بين سفك الدماء الغزير والشكاوى الرسمية المبعوثة الى الامبراطور في روما. وقد روت مجموعة أدبية أطلق عليها اسم «أعمال الشهداء الاسكندريين» بلهجة دفاعية - محاكمات اليهود. وقد جرت في روما محاولات لفرض التسويات الا انها لم ترض أياً من الطرفين اللذين اعتبر كل منهما نفسه وقد جرت التضحية به

وقد توترت العلاقات بين الحكومة ويهود مصر اثناء نشوب الثورة في يهودا، إذ قام فسبسيان (٦٩-٧٩م) الذي بايعه الجيش امبراطوراً في سوريا ثم نودي به امبراطوراً في الاسكندرية، باستدعاء القوات الرومانية المعسكرة في نيقوبوليس (ضاحية الرمل حالياً بالاسكندية) لمحاصرة القدس. وبعد ان جرى تدميرها في عهد تراجان (٩٨-١١٧) قام يهود مصر بالثورة وحاصروا الاسكندرية خلال اضطرابات عرفت لفترة طويلة «بحرب اليهود». وحين هزم القائد ماركيوس توربو (Marcius Turbo) المتمردين زال كل أثر للجالية اليهودية في الاسكندرية.

على أنه برغم هذه الأحداث الخاصة كان القرن الأول في تاريخ الامبراطورية والسنوات الأولى من القرن الثاني فترة من الهدوء والرخاء النسبيين. وقد أرسل الامبراطور نيرون (٥٤-٦٨م) مستكشفين الى مملكة مروى التي أقامت معها روما علاقات تجارية سلمية واستقبل فسبسيان (Vespasian) بحفاوة بالغة في الاسكندرية حيث اكتسب شعبية لدى اهلها الذين عزوا اليه كرامات والاتيان بمعجزات. وانقص تراجان (٩٨-١١٧م) عدد الفرق المعسكرة في مصر الى فرقة واحدة فقط مما يدل على أن الوضع

(٣) مستعمرة اغريقية ترجع الى العصر الصاوي.



رأس تمثال الامبراطور الروماني فسبسيان

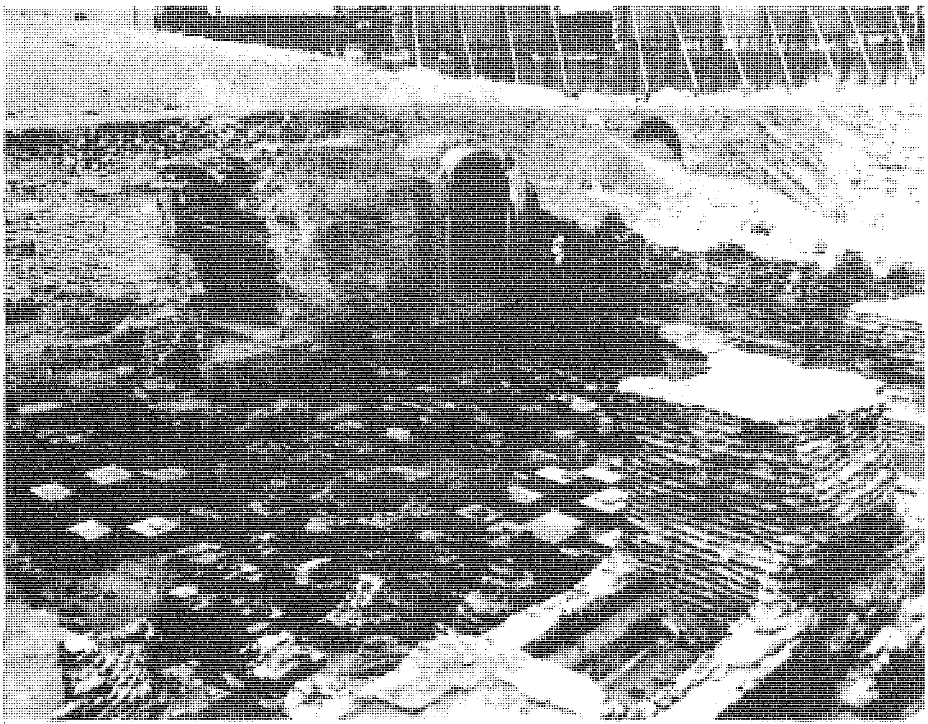
كان هادئاً. كما قام بشق قناة بين النيل والبحر الأحمر بهدف زيادة حجم التجارة مع الشرق ومنافسة طرق القوافل التي كانت تتجه إلى سوريا عبر أرض لا تخضع للسيطرة الرومانية. وكل هذه الاجراءات أفادت الاسكندرية التي كانت لا تزال أهم ميناء على كل سواحل البحر المتوسط. وبالاضافة إلى ذلك فحين حلت المجاعة بالبلاد أرسل إليها تراجان القمح الذي ازدادت الحاجة إليه، وبذلك خرق المبدأ الذي كان يقتضي أن تدفع مصر لروما ضريبة محصول القمح السنوي (Annona).

وقد أبدى هادريان (Hadrian) (١١٧ - ١٣٨م)، خليفة تراجان، اهتماماً متزايداً بالبلاد. وفي عامي ١٣٠ و١٣٥ قام إليها بزيارة طويلة اصطحبته فيها زوجته. وتدين مصر له بإصلاح ما خربته «حرب اليهود» في الاسكندرية وبتأسيسه مدينة أنتينوبوليس (Antinoopolis) في مصر الوسطى لتخليد ذكرى صفيّه المفضل أنتينوس (Antinous) الذي أغرق نفسه طوعاً واختياراً لانقاذ سيده - على ما يقال - من خطر غامض أشارت إليه النبوءات. وقد جرى تأليه الشهيد الشاب الذي شبه بأوزوريس طبقاً للاعتقاد المصري الخاص بالتأليه عن طريق الغرق. على أنه كانت توجد أسباب عملية دعت إلى تأسيس هذه المدينة التي خلع عليها مرتبة المدينة الحرة (Polis)، وأصبحت مركزاً على علاقة طيبة بروما في داخل مصر وبداية لطريق للقوافل بين البحر الأحمر ووادي النيل.

ورغم ذلك فإن الوضع الاقتصادي للفلاحين وصغار الملاك، وهو ما يتضح بالتفصيل في أوراق البردي، قد أوضح أن التفرقة لصالح الطبقة الوسطى وفقاً لمبادىء السياسة الرومانية، سوف تتمخض عن نتائج سيئة. فالشعب العادي أصبح فقيراً، مما آذن بنشوب القلاقل. ومن الدلالات على ذلك مقتل الوالي في الاسكندرية في عهد خلف هادريان - انطونينوس بيوس (Antoninus Pius) (١٣٨م - ١٦١م) الذي وجد من واجبه أن يتوجه إلى مصر لاعادة النظام. وقد واجه ابنه ماركوس أوريليوس (Marcus Aurelius) الفيلسوف ذو النزعة الانسانية الخيرة (١٦١-١٨٠م) موقفاً أكثر خطورة حين قام رعاة المواشي في الدلتا - الـ (Boukoloi) - بثورة عنيفة تزعمها كاهن مصري اسمه إزيدوْر. وقد وحدت الثوار حماسة صوفية عزاها البعض إلى ممارسة طقوس أكل لحوم البشر، ولكنهم حاربوا ببطولة دفاعاً عن حقهم في حياة أقل بؤساً وفي الاعتراف بهم كعنصر له كيانه وفي هذه المرة كان مواطنو الاسكندرية في جانب الرومان لأنهم كانوا قد حصلوا على مزايا لم يتمتع بها المصريون. وقد صمدت الثورة في وجه قوات الحامية، وكان على القائد أفيديوس كاسيوس (Avidius Cassius) أن يحضر فِرقَة من سوريا ولكنها لم تستطع التغلب على رعاة المواشي في ميدان القتال إلا بعد أن ضربهم بعضهم ببعض. وكان هو ذاته أفيديوس كاسيوس الذي جعل قواته تعلنه إمبراطوراً في عام ١٧٥م حين سرت الاشاعات بموت الامبراطور. وكانت هذه أول محاولة من نوعها في مصر، وإن انتهت دون إثارة مشاكل كبيرة، إذ أن ماركوس أوريليوس عفا عن القائد المتهور.

وقد ازداد التوتر بين روما ومصر برغم إصلاحات سبتيميوس سيفيروس (Septyimus Severus) (١٩٣ - ٢١١) الذي أعاد للاسكندريين مجلس الشورى (Boulê) الذي كان يعني استقلالهم الذاتي وكان أغسطس قد حله وحين زار خلفه كَرَّاكلّا (Caracalla) (٢١١ - ٢١٧) الاسكندرية اغضبته ملاحظات مواطنيها الساخرة بحيث بادر بإصدار أوامر بإجراء مذبحة عامة لشبابها بعد أن جمعهم بحجة رغبته في تجنيدهم. وبعد المذبحة بارحت القوات ثكناتها في نيقوبوليس وبقيت في المدينة لاجبارها على الاستسلام.

وسلسلة الأحداث هذه التي امتلأت بالدماء والعنف قد حجبت إلى حد ما أهمية أشهر أعمال الامبراطور: منح الدستور الأنطونيني (Antoninian Constitution) في عام ٢١٢. وقد جعلت هذه


١

٢


١ : حمامات رومانية وأفران التدفئة الأرضية
٢ : الرواق المحيط بالمسرح الروماني

الوثيقة البالغة الأهمية من كل سكان الامبراطورية الاحرار مواطنين وأزالت الحواجز التي كانت تفصل حتى ذلك الوقت بين المواطنين الرومان وأبناء الولايات. وحتى ذلك الوقت كان لا يوجد الا عدد قليل جداً من المواطنين الرومان في مصر وذلك باستثناء الموظفين المبعوثين من روما وكان هؤلاء القلة في معظمهم من المصريين الذين خدموا في الجيش الروماني وحصلوا على الجنسية بعد تقاعدهم على اثر القيام بالخدمة لمدة عشرين أو خمس وعشرين سنة ثم عادوا إلى مواطنهم الأصلية في مصر باعتبارهم أعياناً ينتمون إلى فئة «مواطني عواصم الأقاليم» قليلة العدد.

وقد أنهى الدستور المذكور من حيث المبدأ، المركز المزدوج لسكان الامبراطورية. وأصبح قانون روما هو القانون العادي وبالتالي تعرض البنيان العام للمجتمع لتغيير كامل. ورغم ذلك فإن مصر كانت أقل البلدان إحساساً بهذه الثورة الاجتماعية. فلقد ورد نص في هذا الدستور يحرم منح الجنسية للمستسلمين (Dediticii) اولئك الذين سلموا بعد حلول الهزيمة العسكرية بهم، وهو ما يظن أن المصريين قد قاموا به. ومن جديد حابى الأباطرة الطبقة الوسطى الحضرية المتأغرقة على حساب الفلاحين من ابناء البلاد. وقد أصدر الامبراطور كراكلا مرسوماً حرم بالفعل على المصريين أن يدخلوا الاسكندرية إلا لاحضار الوقود اللازم للحمامات العامة أو الماشية اللازمة للمجازر، على أنه اعفى من ذلك اولئك الذين كانوا يرغبون في - ويستطيعون - الحياة هناك للحصول على تعليم من شأنه أن يدمجهم في الاغريق. ولا يوجد ما يوضح اكثر من ذلك الأساس الاقتصادي للتفرقة.

وكما هو الحال بالنسبة إلى الدستور فإن النظام الاداري العام أصابه التغيير هو الآخر. فحين استعادت الاسكندرية مجلس الشورى ادى إصلاح عام إلى تغيير وضع المدن. فعواصم الأقاليم أصبحت مدناً حرة (Poleis) وتولت الادارة المباشرة في الأقاليم. ولم تعد الوظيفة العامة تسند الى أشخاص موسرين ولائقين (Euporoi Kai Epitedeioi) يختارهم المدير العام (Epistrateg)بالقرعة بل إلى أعضاء مجلس الشورى (Boulê) وهو المجلس الذي كانت تتمتع به كل مدينة حينئذ. وفي مقابل ذلك كان كل عضو في المجلس ملزماً بقضاء فترته الادارية وأن يساهم في نفقات المنصب. وتحتوي بعض أوراق البردى على تقارير كاملة عن اجتماعات المجالس العليا التي كان رؤساء المجالس البلدية (Prytaneis) يقررون فيها مَن مِن الأشخاص يجب أن يتولوا المناصب العامة. وقد حاول بعض المرشحين تجنّبها. وفي الواقع إن هذه المناصب التشريفية أصبحت مرهقة بصورة غير محتملة في ظل اقتصاد أرهقته كثيراً ثورة رعاة الماشية وما ترتب على ذلك من اضمحلال النظام الذي فقد بهذا الشكل كثيراً من فخامته السابقة.

ولم تعد مصر مزرعة الامبراطورية - إذ أن هذه المهمة كانت تقوم بها إفريقيا (بلاد المغرب الحالية) منذ اواخر القرن الثاني. ولم يكن معنى هذا سوى أن مصر اصبحت مرهقة. فقد بدأت حركة قيض لها أن تنتشر وتزداد خطورتها هي فرار (Anachorêsis) الزراع من حقولهم إلى الصحراء لأنهم لم يعودوا يستطيعون دفع الضرائب التي كانت الدولة تطالبهم بها.

وحوالى أواسط القرن الثالث جرت سلسلة من الأحداث المثيرة جداً. فقد أعلن أحد سكان مصر، ماركوس يوليوس أيمليانوس (Marcus Julius Aemilianus) نفسه إمبراطوراً عام ٢٦٢م ولكن أوقع به جالينوس (Gallienus) هزيمة كبيرة بعد أن حكم لعدة شهور. وظهرت شعوب أجنبية على الحدود وأغارت على البلاد، بل واحتلت بعض أجزائها لبعض الوقت. ولم يكن من قبيل الصدفة أن يقوم أحد المصريين واسمه ثيماجنيس في عهد كلوديوس الثاني (٢٦٨ - ٢٧٠) باستدعاء أهل «تَدْمُر» (بالميرا) لدخول البلاد. وكان أهل «تدمر» يعيشون في مدينتهم الغنية التي تقع على طريق القوافل والمتحالفة مع

الامبراطورية مع استقلالها عنها. وقد أرسلت ملكتهم «زنوبيا» – دون قطع العلاقات الودية صراحة مع الامبراطورية – جيشاً قوامه ٧٠٠٠٠ مقاتل اقلق الفرق الرومانية كثيراً لأن الانتصارات كانت عديمة الجدوى حين كان الناس ينضمون إلى الغزاة. وحتى حين أمسك أورليان بزمام الموقف وطرد أهل تدمر انضمت بعض قطاعات السكان المعادية للرومان والتي كان يقودها المدعو فيرموس إلى وحدات من الغزاة كانت لا تزال مرابطة في مصر. وقد قاموا أيضاً بربط أنفسهم بعنصر كان قد بدأ الكلام عنه مشوباً بالرعب، وهو البلمّيين (Blemmye) . وهؤلاء كانوا من البدو الذين كانوا يتغلغلون في بلاد النوبة السفلى وكانوا يظهرون أحياناً في مصر العليا قادمين من الصحراء التي سيطروا عليها ويرعبون الزراع.

وكان بروبوس (Proubus) (٢٧٦-٢٨٢) – الذي خلف أورليان بعد ان قاد قواته – هو القائد الذي استطاع التغلب على أهل «تدمر» والبلميين وحلفائهم من رجال العصابات المصريين. وقد قام بجهود جادة لتحسين أوضاع البلاد التي كانت في طريقها إلى الدمار ولم تعد تستجيب لحياة اجتماعية تتمركز حول إدارة تقليدية. وقد أوضح الترحيب بالبلميين، الذين كانوا يسلكون مسلك البدو الغزاة أن من الواجب تقوية المجتمع من الداخل باضفاء ثقة جديدة على أفراده. ولا شك أن هذا كان هدف بروبوس حين جعل جيشه يحفر القنوات وينهض بالزراعة بعد أن هزم البرابرة الغزاة وأصبح إمبراطوراً.

ولم تفعل أزمة مصر سوى أن عكست الأزمة الكبرى التي كانت تعانيها الامبراطورية ذاتها ولكن في إطار محدد بوضوح. وكان دقلديانوس (Diocletianus) (٢٨٤-٣٠٥) هو الرجل الذي أوتي الشجاعة اللازمة لمواجهة هذه المشكلة الكبرى فأعاد تشكيل نظام الدولة بأسره. وهذا الموضوع من الاتساع بحيث لا يمكننا ان نتناوله هنا إلا فيا يتعلق بمصر. فقد ادرك الامبراطور الجديد أبعاد الموقف بوضوح وتخلى عن النوبة التي كانت عرضة للغزو من جانب البلميين والنوباديين الذين كانوا شعباً أفريقياً يمت لهم بصلة القرابة، بشرط ان يقوموا بحراسة الحدود الجنوبية للامبراطورية. وفي مقابل هذه الخدمة دفعت لهم مبالغ كان ملوكهم الصغار (Reguli, Basiliskoi) يستمرئون الاشارة إليها باعتبارها جزية.

وحينئذ جرى تقسيم مصر ذاتها إلى ثلاثة أقسام كان كل منها يشكل في السابق منصباً للادارة العامة (Epistrategia) . وهكذا أطلق على القسمين الشماليين الدلتا والهبتانوميا (الأقاليم السبعة في مصر الوسطى) اسم «مصر المنسوبة الى جوبتير» (Aegyptus Jovia) ، ومصر المنسوبة الى هرقل (Aegyptus Herculia) على التوالي. وكان يدير شؤون كل منها حاكم مدني (Praeses)لم تكن له أي سلطة على القوات المسلحة. اما القسم الجنوبي – منطقة طيبة – الذي كان أكثر عرضة للغزو، فقد وضع تحت إمرة قائد (Dux) كان يتولى صلاحيات مدنية وعسكرية. وفقدت مصر وضعها الخاص باعتبارها ولاية منفصلة. وقامت بسك نفس العملة التي كانت تسكها أجزاء الامبراطورية الأخرى. وجعلت إدارتها مماثلة لادارة الولايات الاخرى وذلك بتعيين موظف خاص بضرائب بلدية (الاقليم) (Curator Civitatis) كان مسؤولاً عن المشاكل المالية. وفي نفس الوقت طبق نظام ضريبي جديد كان يقوم على اساس تقدير دوري للضرائب (Indectio) يجري مرة كل خمس عشرة سنة. وكان هذا بمثابة خطوة تقدمية بالنسبة إلى فوضى الضرائب التعسفية وغير المتوقعة، ولكن كان يتطلب إيجاد توازن بين فرض الضرائب ونظام إنتاج الثروة بأسره حتى يتصف بالفعالية. واتجه المجتمع، ببطء في البداية، ثم بعد ذلك بصورة أوضح، إلى التحول إلى أنماط محددة كانت توفر ملجأ لدافع الضرائب حين يزداد عبئها. ونتيجة لذلك فرضت الدولة القيود: فلم يسمح لأحد بترك وظيفته. وهكذا كان على الفلاحين أن

يظلوا فلاحين وأن يبقوا على نفس الأرض بحيث أصبحوا أقناناً للأرض. كما ربط المواطنون الوجهاء (Honestiores) ربطاً شديداً بوظائفهم باعتبارهم ممولي ضرائب وإداريين. وسرعان ما أصبح الهرب (Anachoresis) أمراً ضرورياً بالنسبة إلى كل المستويات الاجتماعية. ولم يكن يستطيع الدفاع عن أوضاعهم سوى الأشخاص ذوي السلطة السياسية المحددة. ومن الطبيعي أن يتجه الأقل حظاً إلى الانضمام إلى «بطانات» تحيط بذوي السطوة هؤلاء، فكانوا يعتمدون على حمايتهم في وجه محصل الضرائب ويعطونهم املاكهم لكي يعنوا بها. وقد لجأت الحكومة إلى كل الوسائل القانونية لمقاومة هبوط المجتمع الى وضع يسيطر عليه وينظمه كبار ملاك الأراضي، ولكن القانون كان عاجزاً لأنه لم يهتم بالأسباب الكامنة وراء الاتجاه الذي كان يحاول إيقافه. وحين أصبح كبار ملاك الأراضي مؤهلين لاعتبار انفسهم محصلي الضرائب التي كان من واجبهم أن يدفعوها للدولة (Autopragia) أصبح نظام الملكية مختلفاً تماماً. واختفت الملكيات الصغيرة التي كانت في اوائل عهد الامبراطورية مصدر قوة الطبقة الوسطى حين ظهرت ضيعة النبيل - وسلطة النبيل - التي فتتت الوحدات الادارية المحلية القديمة وجعلت منها وحدات اقتصادية اخرى.

أثر المسيحية على المجتمع المصري

ومن الواضح أن هذا التطور قد استغرق وقتاً طويلاً وأنه سار موازياً لتطور آخر: قيام المسيحية في مصر. ولو نظرنا إلى هذا التطور من زاوية تاريخية واسعة بقدر كاف، لأمكن اعتباره إحدى حركات التبادل الديني بين مصر وباقي العالم القديم. ومن المعروف جيداً مدى انتشار وأهمية عقائد وادي النيل بالنسبة إلى الامبراطورية الرومانية. فقد اصبحت إيزيس وأوزوريس أو سرابيس، وهو شكل آخر من أشكال نفس العقيدة، آلهة تجري عبادتها في كل مكان، وزودت شعوباً شديدة الانفصال كل منها عن الأخرى بنفس الآمال الصوفية في الخلاص، ونفس مشاعر الايمان القوي.

ومثل هذه المعتقدات التي وجدت السلطات السياسية صعوبة في السيطرة على تأثيرها على ضمير ومشاعر الجماهير، كانت أحياناً عرضة للهجوم. ورغم أن اغسطس بنى معابد في مصر، فإنه لم يخف عدم ثقته في آلهتها التي ساندت عدوه أنطونيوس الذي أدت علاقته بكليوباترا وفق ما سرت به الاشاعة إلى الوصول إلى حد تهديد الوضع الامبراطوري في روما. وكانت هزيمة أنطونيوس في موقعة اكتيوم من الناحية الرسمية هزيمة للآلهة المصرية في نفس الوقت. وقد غير كاليجولا (Caligula) (٣٧ - ٤١) موقفه من الآلهة الأجنبية، وكرّس تيتوس (Titus) (٧٩-٨١) نفسه كاهناً للعجل أبيس وكان خلفه دوميتيان (Domitianus) (٨١-٩٦) متحمساً لعبادة آلهة مصر التي كان ملزماً إزاءها بعرفان متوهم للجميل منذ أن نجا من الخطر بتنكره في صورة كاهن لايزيس. ومنذ ذلك الوقت كانت آلام وموت أوزوريس وحزن ايزيس وبعث زوجها قد أصبحت آمالاً للمكابدين الذين وجدوا فيها انسجاماً عميقاً مع الطبيعة الانسانية والصفات التي تسمو عليها.

وبهذه الطريقة ربما كانت تجربة مصر الدينية قد ساعدت على نشر دين آخر يدعو إلى الخلاص، وهو ما قامت به المسيحية في بعض جوانبها وبخاصة في بلد كان فيه الاهتمام بالعالم الآخر باستمرار عاملاً قوياً في التأمل الديني. وبالاضافة إلى ذلك فقد وجدت بمصر لعدة قرون جالية يهودية كان وجودها منذ عهد بطلميوس فيلادلفوس حافزاً للترجمة اليونانية للانجيل المسمى ترجمة التوراة «السبعينية» (ترجمة





١

٢

٣



١ : تمثال صغير لمجالد أسود واقفاً، وقد ارتدى سترة وزرداً وخوذة وتسلح بدرع وخنجر

٢ : تمثال صغير لمحارب أسود يحمل بلطة مزدوجة

٣ : قرميدة نقش عليها عازف أسود راكعاً ينفخ في آلة موسيقية

يونانية «للعهد القديم» قام بها ٧٢ عالماً يهودياً في ٧٢ يوماً). وهكذا كانت معرفة الأسس التوراتية للمسيحية امراً محتملاً في مصر منذ فترة مبكرة ولدى مجتمعات مختلفة وربما ساعدت على نشر الديانة الجديدة في بدايتها.

ولا نعرف الشيء الكثير عن كل هذا. والأمر الذي يبدو هاماً هو أن انتشار المسيحية كان شبيهاً بانتشار المذاهب الدينية الاخرى مثل الغنوصية والمانوية التي حافظت مصر على نصوصها الأصلية في اوراق البردي أو الرقوق التي وجدت في تربتها. وكل هذا مما يشير إلى أزمة حلت بالعالم الوثني الذي لم تعد ديانته التقليدية تغْنِي بالحاجات الروحية للناس. وفي مصر كانت التعاليم الأخلاقية الدينية تتطلب استعمال لغة البلاد باعتبارها لغة للشعائر. وقد استعملت المسيحية والغنوصية والمانوية اللغة القبطية في واحدة او اخرى من لهجاتها الاقليمية. ولم يعن هذا فقط أن الوعاظ المبشرين كانوا يخاطبون أحط طبقات السكان، الذين حجبت عنهم ثقافة الطبقات الحاكمة الاغريقية، ولكن أيضاً أن المكان الأول في الدين أعطي لابناء البلاد وللثقافة القومية التي حرمت في الواقع من مزايا دستور انطونينوس وعزلت عن الطبقات الجديدة من مواطني الامبراطورية. وعلى حين أن وجهة النظر الرسمية كانت تعتبر المصري مستسلماً (Dediticius) لا يستحق عناء إدماجه، فإن المسيحيين كانوا يفسرون كلمة هليني بأنها تعني وثنياً وبالتالي جعلوها موضعاً لاحتقارهم.

وقد اتضحت كثرة وأهمية المسيحيين من خلال نقيض غريب، لكنه مألوف، وهو كثرة اضطهادهم على أيدي الأباطرة. فلقد خلف اضطهاد دكيوس (Decius) (٢٤٩-٢٥١) سلسلة من السجلات الغريبة في مصر. اذ صدرت شهادات للأشخاص الذين قدموا تضحية وثنية أمام السلطات وذلك بحرق عدة حبات من البخور تحية للامبراطور. وكان الذين يرفضون القيام بذلك يفترض أنهم مسيحيون وكانوا عرضة للعقاب باعتبارهم رعايا خونة. غير أن الاضطهاد الذي فاق اعمال الاضطهاد الاخرى في ذاكرة الجماهير وبدأ التقويم القبطي او عهد الشهداء، هو ذلك الذي قام به دقلديانوس (٣٠٣) بكل الهمة والصرامة التي كانت في وسع هذا الحاكم. وكانت هذه هي المحاولة الأخيرة التي اظهرت عدم جدوى مقاومة حركة كانت قد استقرت بالفعل استقراراً نهائياً. وبعد سنوات قليلة أقر قسطنطين في ميلان (٣١٣) حق الشخص في ان يكون مسيحياً وبدأ المهمة التي استلزمت وقتاً طويلاً الخاصة باستيعاب المجتمع المسيحي بحيث يتمشى مع متطلبات الامبراطورية. ومنذ ذلك الوقت ارتبط تاريخ المسيحية في مصر ارتباطاً وثيقاً بعلاقات الاسكندرية بالقسطنطينية، العاصمة الجديدة للامبراطورية.

دور مصر المتميز في نطاق الامبراطورية المسيحية

ومنذ الوقت الذي أصبحت فيه المسيحية الدين الرسمي للامبراطورية في عهد ثيودوسيوس (Theodosius) تأثر تاريخ مصر بصورة مباشرة بالاتجاه الرسمي للأباطرة الذين ازداد ادعاؤهم بحقهم في أن يقرروا في القسطنطينية المذهب الواجب تعلمه وقبوله في شتى أرجاء الامبراطورية. وما لبثت الرغبة في تحقيق الوحدة القانونية ان ارتبطت بالاصرار على الاتساق الديني المعروف باسم الأرثوذكسية (المعتقد القويم او التقليدي). وتقوم المسيحية، باعتبارها ديناً، على بعض المبادىء العقائدية، ومنذ

القرون الأولى في تاريخها أدت مختلف وجهات النظر والتفسيرات لهذه المبادىء إلى نشوب الخلافات العنيفة بين المسيحيين.

وطالما كانت الكنيسة لا تستطيع الخروج إلى حيز العلن لم يكن للنزاعات بين المسيحيين أي مغزى سياسي، ولكن ما إن اصبحت الجماعة المسيحية في النهاية ممثلة لأغلبية رعايا الامبراطورية حتى أصبحت نزاعاتها جزءاً من شؤون الدولة. وحتى قسطنطين ذاته كان عليه أن يتدخل مرات كثيرة لحسم المنازعات التي كانت تسمم العلاقات بين جماعات المسيحيين والتي تحت ستار اللاهوت كانت تهدد الأمن العام في بعض الأحيان. وكان قسطنطين، ذو العقلية العملية والمتسلطة، يرى وجوب اختفاء الجدل الديني - الهرطقة - وأن يفسح المجال لمفهوم مفروض ومعترف به بصفة نهائية لما هو حقيقي وبالتالي قانوني. وقد سار خلفاؤه على خطاه وكان هذا الاتجاه من وراء التوتر المستمر الذي نشب بين بلاط القسطنطينية وأسقفية الاسكندرية وكلتاهما كانت تعتبر نفسها مسؤولة عن المحافظة على العقيدة الحقة أي على الأرثوذكسية.

وكثيراً ما أدت هذه المجادلات الدينية إلى الاصطدام بين التقاليد المحلية المتغلغلة بعمق والمحترمة والتي جرت المحافظة عليها بعناية، وبين القرارات المبهمة والغريبة الصادرة عن السلطات. وفي كل من الاسكندرية وأنطاكية تعززت مكانة أقدم اسقفيات المسيحية بفضل الصفات الشخصية التي تحلى بها الأساقفة الذين تولوا أمرهما. وربما كان أهم من ذلك كله أن عاصمتي الفكر في العالم اليوناني - الروماني أضفتا على المجادلات الدينية التي ثارت فيهما روحاً من التعصب كان من الصعب التوفيق بينها وبين الآراء الامبراطورية، وأحياناً حتى مع آراء أسقف روما.

وفي الاسكندرية اكتسبت المسيحية، في وقت مبكر جداً عن طريق المسيرة العادية للنمو، طابعاً يختلف كثيراً عن طابع المسيحية في بقية أنحاء البلاد. فقد كانت الثقافة الاغريقية التي اشربت بها المدينة واضحة حتى في الطريقة التي استقبلت بها الديانة الجديدة. فالتحول إلى المسيحية لم يتخذ شكل قرار ديني ثوري، بل اتخذ شكل محاولة لتبرير بعض المفاهيم الجديدة وإدخالها في الاطار الواسع للفلسفة وفقه اللغة التاريخي والمقارن الخاصين بالعالم القديم. وكان أمام الاسكندريين نموذج بما حققه فيلون اليهودي في مدينتهم خلال القرن الأول الميلادي حين حاول أن يضفي على الكتاب المقدس معنى اغريقياً وعالمياً، ولهذا نظموا مدرسة (Didaskaleion) يعتقد أن مؤسسها رجل يدعى بانثينوس (Panthenus) وهو رواقي تحول إلى المسيحية ومن ثم جاء تعمقه في الفلسفة اليونانية. وقد أدى اضطهاد سبتميوس سيفيروس إلى إرغام المدرسة على غلق أبوابها بعض الوقت، إلا أنها ما لبثت أن فتحت أبوابها من جديد تحت زعامة شخصيات من أمثال كليمانس (Clemens) الاسكندري (حوالى ١٤٥ - ٢١٠)، وهو رجل على معرفة واسعة غير عادية وتلميذه اوريجانس (Origenes) (١٨٥ - ٢٥٢) الذي اوصل التأمل الفلسفي والتفرغ على فقه اللغة الى قمتهما. وقد استطاع أوريجانس أن يوفق بين كونه مسيحياً وبين اتباعه تعاليم مؤسس الأفلاطونية المحدثة آمونيوس سكا(Ammonius Sacca). ومثل هذه الشخصيات البارزة هي التي قامت بالكثير لصياغة المسيحية التي كانت في طور التشكيل وفق التقاليد الكلاسيكية ومكنتها من وراثة الحضارة اليونانية - الرومانية التي كانت تبدو من حيث الأساس غير متمشية معها. وكان ذلك أهم عطاء قدمته مصر للمسيحية الناشئة. على أن هذا الاتجاه لم يجد استجابة كبيرة من جانب سكان البلاد من غير الاغريق الذين كان نمط تجاربهم الدينية يفوق ذلك من حيث كونه غريزياً. أما فيما يتعلق بأسقف الاسكندرية؛ فإن وضعه بالنسبة لقسسه (Presbyterol) كان وضعاً خاصاً جداً، لأنهم شكلوا مجمعاً قوياً جداً، وهو امر عادي بالنسبة إلى الكنيسة الأولى. ومن

ثم فلكي يبقي على سلطته كان عليه أن يعتمد على أساقفة الأقاليم (الـ Chorepiskopoi = أساقفة الخورا أي ريف مصر خارج الاسكندرية) الذين كانوا يعتمدون عليه في رسمهم كهنة.

وأثناء هذا التضارب في المصالح والاتجاهات نشبت مجادلات شديدة الخطورة. وقد بدأت اولى هذه المجادلات حين ساند الأسقف ميلتيوس الأسيوطي (Meletius of Lycopolis) دعاة التشدد برفض ان يقبل في صميم الكنيسة اولئك الذين ثبت عدم صمودهم خلال أوقات الاضطهاد.

وقد نشب خلاف آخر، كانت له نتائج اشد خطورة، نتيجة لاختلاف وجهات النظر بين العلماء وبين المدارس الفلسفية فيما يتعلق بطبيعة المسيح المزدوجة: الانسانية والالهية. فهل كانت له طبيعتان لا تنفصمان، طبيعة إلهية واحدة بحيث أن انسانيته لا تعدو كونها مظهراً خارجياً، او طبيعتان منفصلتان؟ وقد انحاز الكاهن آريوس (Arius) في سوريا إلى الرأي الأخير مما استفز الكنيسة وجعلها تصدر رداً رسمياً يتضمن إدانة له. وكان أقوى المدافعين عن الأرثوذكسية القديس أثناسيوس (Athanasius) (٢٩٣ - ٣٧٣) بطريرك الاسكندرية الذي أمكنه خلال هذه العاصفة ان يقف صامداً حتى في وجه اولئك الأباطرة الذين ساندوا رأي آريوس والذي جعل منه الاغريق والرومان بطلاً للكنيسة. وبعد نصف قرن غارض كيرلس (Cyrilius) (٤١٢ - ٤٤٤) وهو بطريرك آخر للاسكندرية، تعاليم نسطوريوس (Nestorius) بطريرك القسطنطينية وأمكنه أن يتحدى الامبراطور ثيودوسيوس الثاني بنجاح. وبهذه المناسبة صحح كيرلس توكيدات علماء اللاهوت السابقة حين أكد أن في المسيح شخصاً واحداً وطبيعتين. وبعد وفاته خطا الراهب اوطيخوس (Eutychies) بمساندة من ديوسقوروس (Dioscurus) خليفة كيرلس، خطوة اخرى حين ذهب إلى أنه ليست للمسيح سوى طبيعة واحدة. وفي عام ٤٥١ أدان مجمع خلقدونية هذا التفسير الذي لم يلبث أن اصبح حقيقة واضحة بالنسبة إلى الاسكندريين الذين كانوا يعتزون بمعارفهم وقداسة بطاركتهم. وقد عرفت هذه الحركة الفلسفية - اللاهوتية فيما بعد باسم المونوفيزيتية (Monophysitism) (مذهب الطبيعة الواحدة).

وقد أدت قرارات مجمع خلقدونية (٤٥١م) التي حسمت المسألة بصورة نهائية حين أعلنت أن الاعتقاد بالاتحاد الجوهري للطبيعتين في شخص المسيح جزء لا يتجزأ من العقيدة، إلى تفجير أزمة في الاسكندرية ظلت تحتدم حتى الفتح الاسلامي. ومنذ الوقت الذي انعقد فيه المجمع وجد بطريركان في الاسكندرية - فقد كان يوجد البطريرك الملكاني (من الكلمة العربية مَلِك) الذي كانت تعينه القسطنطينية وكان مسؤولاً امام الملك ويضطلع بصلاحيات ادارية وقضائية وأخرى خاصة بتنفيذ القوانين. والى جانبه كان يوجد بطريرك مونوفيزيتي منافس كان في نظر المصريين المدافع عن الحقيقة اللاهوتية الوحيدة المقبولة: أحادية طبيعة المسيح. وكانت سلطة البطريرك الملكاني المستندة إلى الشرعية والقوة الامبراطورية تعدلها سلطة البطريرك المونوفيزيتي الذي كان يستند إلى الشعور القومي الذي كانت تزداد معاداته لبيزنطة.

وقد جرت معظم المنازعات الحادة، والدموية أحياناً، بين المؤمنين في مدينة الاسكندرية. ووصلت إلى الأقاليم أصداء الأحداث المخزية أحياناً التي جرت في هذه المدينة إلا أن مسيحية وادي النيل نجحت في الواقع في ابراز طابعها العملي بالمقارنة مع تأملات أبناء الاسكندرية، في تجربة قيّض لها أن تكون أساسية بالنسبة إلى تطور الكنيسة. فقد اعتبر مسيحيو مصر الحياة الدنيا مصدراً ومجالاً للخطيئة، ومن ثم تعمّدهم بانتظام الانسحاب من الحياة، وتشكيلهم جماعات دينية ربما كانت لها سوابق سواء في مصر الوثنية أو بين اليهود الموجودين في مصر (مثل طائفة «المتنطسين» الدينية الشبيهة بالمتصوفة = Therapeutes) التي وصف فيلون (Philon) آداب سلوكها الفاضل، وان تكن قد أصبحت حينئذ



١

٢



١ : رسم من باويط
٢ : المقر القديم لدير مارمينا

ركائز للديانة الجديدة. ويمكننا أن نميز مراحل جديدة في تاريخ هذه الحركة المعروفة باسم «الرهبانية» وأول ممثليها البارزين هو بولس الطيبي (٢٣٤ - ٣٤٧)، وهو راهب اعتزل الدنيا مع تلميذه انطونيوس (٢٥١ - ٣٥٦) وأسس جماعة من النساك. واخيراً وليس آخر هناك باخوميوس (Pachomius) (٢٧٦ - ٣٤٩) الذي اصطنع بما أوتيه من نزعة عملية قوية أسس جماعات كانت تشترك في بعض المهام والمسؤوليات وتخضع لقانون نظامي وعاش افرادها سوياً حياة جماعية بالغة الكمال (Koinobia) . وهذا يوصلنا الى شنودة الاتريبي (٣٤٨ - ٤٦٦) الذي قام في الدير الأبيض باخضاع الرجال والنساء لنظام صارم وأكمل في مصر النظام الذي أدخل عليه مزيد من التعديلات في أوروبا في العصور الوسطى.

ومن الواضح أن هذا الانسحاب من العالم وهذا التجمع سوياً في مجموعات كبيرة لم يكونا مجرد أعمال متصلة بالعقيدة، بل إنهما كانا لاضفاء طابع ديني على بواعث، كانت - كما رأينا - موجودة في مصر البيزنطية. ذلك ان كلمة (Anachoresis) لها معنى ديني وضريبي (Anachoretesتعني راهباً وشخصاً يهرب من الضرائب التي لم يعد يستطيع دفعها)، وحماس الناس للذهاب للعيش في الصحراء كان جأراً بالشكوى من متاعب الحياة اليومية. وبالاضافة إلى ذلك فإن كثيراً من الوثائق المتصلة بالحياة في الأديرة توضح انها كانت منظمات ضخمة تمتلك أراضي ومواشي ومصانع ومخازن وتجهيزات متعلقة بالحقول. وهكذا بالامكان أن يكون الدير غنياً مليئاً بالنشاط في الوقت الذي يكون فيه رهبانه فقراء مكرسين أنفسهم لحياة التأمل. ويمكننا بسهولة أن نتبين أن هذا الحل كان مشابهاً لذلك الذي أدى إلى اختفاء الملكيات الصغيرة وافساحها المجال للضياع الفسيحة. ولم يجد الرهبان الذين كانوا يعيشون في الأديرة تحقيقاً لأمانيهم الدينية وحدها، بل وجدوا كذلك تحقيقاً لرغبة عميقة في تلك الأوقات في الهرب من متاعب الحياة اليومية وحماية من سلطة متجبرة. وهذا مما يفسر الأعداد الكبيرة جداً التي وجدت في الأديرة ووصلت إلى عشرات الآلاف، وهو ما تشير إليه السجلات المعاصرة. وقد أدى تأثير استعمال الأديرة كمهرب من الدولة، أو على الأقل باعتبارها تخفيفاً لشدة عجزها عن الاضطلاع بمسئولياتها إزاء مواطنيها إلى حلول السلطات الكَنَسِيّة محل السلطات المدنية بصورة متزايدة. وفي ظل هذه الظروف كانت لدى الأباطرة أسباب وجيهة تدعوهم إلى محاولة منع رجال الادارة من أن يصبحوا رهباناً.

ومن السهل إدراك أن مثل هذا المجتمع كان أقل اتجاهاً عما كان عليه الحال في الماضي إلى الأخذ بتقاليد الهلّينية، سواء في شكلها التقليدي أو بأشكالها الجديدة الواضحة في القسطنطينية. وقد تطورت تقاليد الفن التشكيلي التي تميز بها العصر الروماني في إطارها المحلي إلى ما يمكن أن نطلق عليه بصورة مبهمة اسم الفن القبطي. وقد استعملت الآداب الوطنية، التي اصبحت حينئذ مقصورة على الموضوعات الدينية، لغة البلاد الدارجة. ويشهد تكاثر النصوص الدينية وغزارتها برواج مأثورات ربما لم يوفها المؤرخون في الماضي حقها من التقويم العادل.

على أن روح مقاومة الاسكندرية، التي كانت لاهوتية في الأصل، قد تلاقت في النهاية خلال القرن السادس مع روح الزهاد. فقد كان يتزايد باستمرار ضغط القسطنطينية لكي تفرض على مصر المتمنعة قرارات مجمع خلقدونية وقرارات أخرى صدرت في القسطنطينية بعد ذلك. وقد تضافرت الظروف التي أدت في مصر إلى التشكيك في الكنيسة الرسمية الغنية والمتسلطة التي كانت مسئولة عن حفظ النظام والى اضفاء الشعبية على انصار مذهب الطبيعية الواحدة المضطهدين الذين حصلوا في القرن الخامس على مساندة مذهبية ضخمة من سوريا وانضم إليهم في القرن السادس سوريون مضطهدون آخرون. وسيطر على المصريين من جميع الفئات الاجتماعية شعور عام بالكلال. وقد عززت من

الاعتقاد الراسخ بأن موقف المصريين هو الصحيح والعادل تلك الأحداث الكثيرة الواردة في العدد المتزايد من النصوص غير المعتمدة المتصلة بوقائع حياة المسيح في مصر، فلقد أصبح البيزنطيون أجانب غير مرغوب فيهم يمثلون احتلالاً سياسياً بغيضاً.

وقد احتفظت أوراق البردي بمعلومات دقيقة جداً عن الحالة النفسية للسكان على اختلاف مستوياتهم. وكان نفس الشعور بالخوف والحرمان والاجهاد يسود كل مكان. وليس من الغريب أن البلاد، وقد أرهقتها إدارة جشعة وغير فعالة، وعصفت بها الانقسامات الداخلية الناجمة عن المنازعات وفصلت بينها وبين القسطنطينية الشكوك المتبادلة، قد تبددت قوتها الاقتصادية.

ولم تمر سنوات كثيرة حتى اتضح ضعف الحكم البيزنطي في هزيمتين عسكريتين.

فقد أراد الملك الساساني كسرى الثاني أن يضعف قوة بيزنطة - وكان الساسانيون يسيطرون بالفعل على جنوبي شبه الجزيرة العربية ويعرقلون التجارة البيزنطية في البحر الأحمر. وقد وجهوا ضرباتهم في ثلاثة اتجاهات: صوب الاناضول وبيزنطة، وصوب حلب وانطاكية وصوب العقبة ومصر، فوصلوا الى دلتا النيل في عام ٦١٥، وقد تميز الاحتلال الفارسي بثورة اليهود الذين تحرروا نهائياً من الظلم الروماني الذي رزحوا تحته دهراً طويلاً، وظهور الكنيسة المونوفيزيتية من جديد إلى حيز العلن، فأصبحت لبعض السنوات الكنيسة الرسمية الوحيدة.

ولم يؤد استرجاع مصر على يد هرقل في عام ٦٢٩ إلا إلى منح البيزنطيين فترة راحة قصيرة اضطروا خلالها إلى مباشرة إشراف وثيق على مستعمرة كانت في ذلك الوقت قد أصبحت بالفعل صعبة المراس. وقد سيطر الرعب على البلاد في عام ٦٣٢ في ظل البطريرك الملكاني حين قررت بيزنطة فرض عقيدة جديدة لا تمت بصلة إلى العقيدة التي قررها مجمع خلقدونية ولا إلى عقيدة روما أو المونوفيزيتية ذاتها. ومنذ عام ٦٣٩ كان خطر المسلمين يزداد، وفي عام ٦٤٢ استسلم المصريون للفاتحين الجدد الذين وعدوهم بوضع أنظمة أكثر عدالة من الوجهتين الاقتصادية والضريبية. وآذن الفتح العربي ببداية حقبة جديدة في تاريخ مصر.

الفصل الثامن

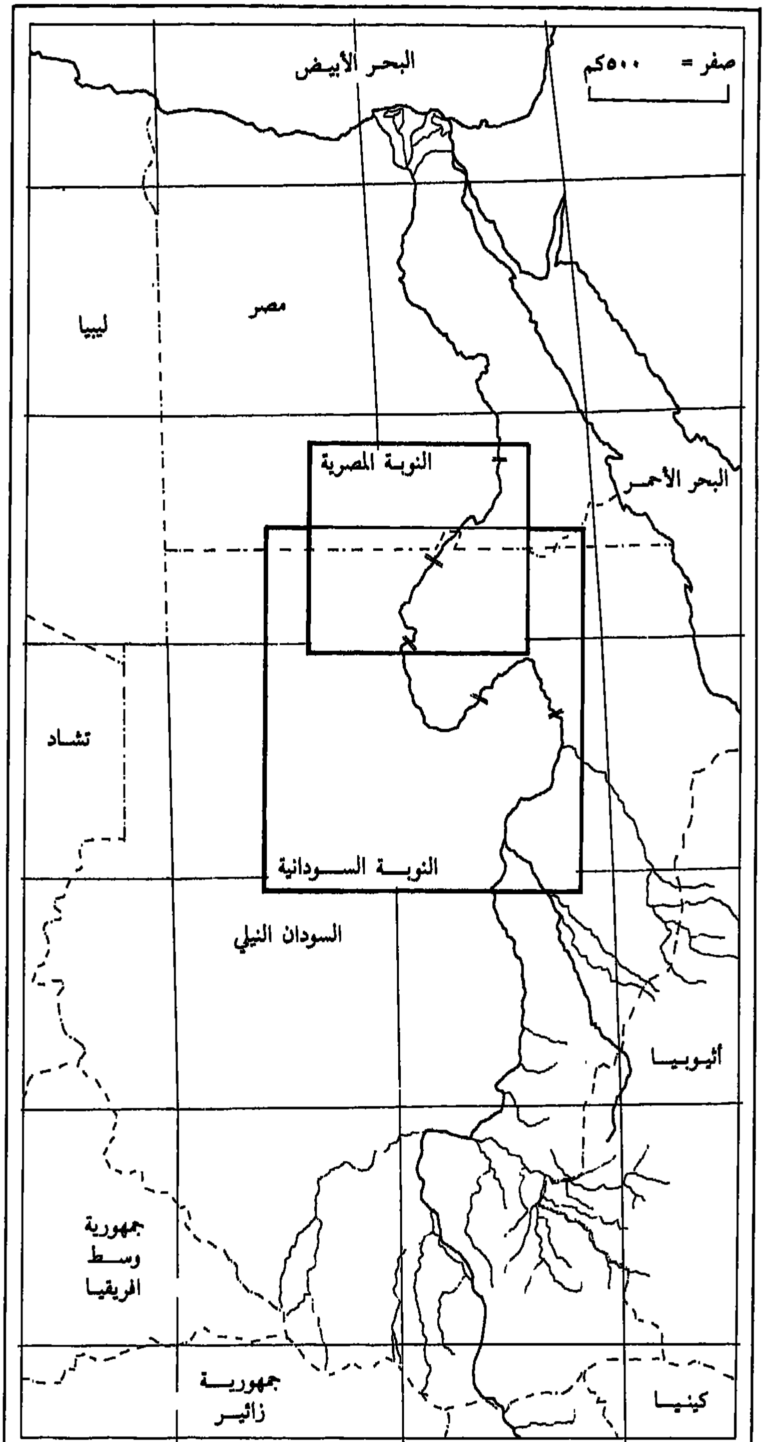
أهمية النوبة
حلقة اتصال بين افريقيا الوسطى والبحر المتوسط

بقلم
شحاته آدم
بالتعاون مع ج. فركوتير

إن نظرة واحدة الى خريطة افريقيا الطبيعية تكفي لابراز أهمية النوبة كحلقة وصل بين منطقة البحيرات الكبرى وحوض نهر الكونغو في وسط افريقيا من جهة والبحر المتوسط من جهة أخرى. فقد تم الاتصال المباشر بين حضارات البحر المتوسط القديمة وبين أفريقيا السوداء عبر وادي النيل، الذي يجري قسم كبير منه موازياً للبحر الأحمر في «الممر» النوبي، تحفه الصحراء الكبرى من الغرب والصحراء العربية أو النوبية من الشرق. فلا مجال اذن للدهشة من اكتشاف رأس برونزي بديع لاغسطس في مروى، التي لا تفصلها عن الخرطوم الا مسافة تقل عن ٢٠٠ كيلومتر.

ولئن كان النيل وسيلة يعتمد عليها لاجتياز هذه المناطق الصحراوية، فإن الرحلة ليست بالسهولة التي تبدو عليها لأول وهلة، لأن الجنادل المتتابعة من أسوان حتى مشارف ام درمان تجعل رحلة الصعود في النهر من الشمال الى الجنوب صعبة الى درجة تستحيل معها الملاحة تماماً في بعض الأحيان. وفضلاً عن ذلك، فإن انحناءتي النهر الهائلتين في تلك المنطقة تزيدان من طول المسافة زيادة كبيرة، وقد تمثلان في حد ذاتها أحياناً صعوبة كبرى. وعلى سبيل المثال، فإن النيل بين أبو حمد ووادي الملك يجري نحو الجنوب الغربي بدلاً من الشمال، بحيث تضطر حركة الملاحة الصاعدة في النهر الى مجاهدة الرياح والتيار معاً قسطاً كبيراً من العام، وان كانت رحلة الهبوط في النهر أيسر كثيراً بطبيعة الحال. واذا ما تجاوزنا منطقة الانحناءتين الكبيرتين ومضينا بعيداً الى الجنوب، وجدنا منطقة السدود الشاسعة التي قد لا يكون عبورها مستحيلاً، ولكنها تمثل مع ذلك عائقاً يجعل التبادل الثقافي والاقتصادي عسيراً.

بيد أن النوبة رغم كل الاعتبارات هي احدى مناطق افريقيا التي تتيسر فيها الاتصالات الى درجة كبيرة، لا بين الشمال والجنوب وحسب، بل وبين الشرق والغرب أيضاً. ففي الجزء الجنوبي من النوبة، نجد أن النيل الأزرق ونهر العطبرة وروافدهما، وسهول مشارف مرتفعات اثيوبيا، وحافة



وادي النيل
و«الممر» النوبي

المنخفض الذي يبدأ انحداره عند ساحل البحر الأحمر، كلها توفر منافذ ملائمة الى المرتفعات الاثيوبية والى البحر الأحمر والمحيط الهندي أيضاً. والى الغرب يمتد وادي الملك ووادي هور – وهما الآن جافان ولم يكونا كذلك في الماضي – فيصلان النيل بين الجندلين الثالث والرابع بسهول كردفان ودارفور، مما يفتح طريقاً سهلاً، من النوبة الى منخفض تشاد، ومنه الى وادي النيجر فغرب افريقيا.

فالنوبة اذن تقع على مفترق طرق أفريقي بالغ الأهمية، مما يجعلها ملتقى للحضارات القائمة في الشرق والغرب والشمال والجنوب من افريقيا، فضلاً عن حضارات الشرق الأدنى وحضارات آسيا البعيدة وأوروبا المطلة على البحر المتوسط.

وقد ظهر في السنوات القليلة الماضية اتجاه الى استخدام كلمة «النوبة» لتعني الجزء الشمالي فقط من البلاد – أي المنطقة ما بين الجندلين الأول والثاني. وقد عززت حملة اليونسكو «لانقاذ النوبة» هذا الاتجاه وإن لم تكن هي التي بدأته. غير ان النوبة لا تنتهي عند منطقة «بطن الحجر» الصخرية القاحلة، وانما هي تمتد جنوباً الى ما وراء ذلك بكثير. فمنذ ١٨٢٠، حددها كوستاس في مؤلفه «وصف مصر» بأنها «ذلك الجزء من وادي النيل الذي يمتد بين الجندل الأول ومملكة سنار»، التي كانت عاصمتها تقع جنوب الخرطوم بما يربو على ٢٨٠ كيلومتراً. وبرغم ذلك فإنه حتى هذه النظرة الأكثر توسعاً لا تغطي كامل الامتداد الحقيقي للنوبة.

ومن الناحية التاريخية، تشهد أقدم النصوص المصرية على أن الرحالة القادمين من الشمال كانوا يدخلون النوبة جنوب الكاب بقليل. وقد ظل الاقليم المصري الواقع بين طيبة وأسوان يسمى لأمد طويل «تا–سيتي»، أي «أرض القوس» باللغة المصرية القديمة، وكانت الوثائق الهيروغليفية تطلق هذا المصطلح بصفة تقليدية على ما يطلق عليه الآن اسم النوبة. وعلى ذلك فقد كانت النوبة الكبرى في أقدم العصور تبدأ بالمناطق الرملية من وادي النيل، حيث تبدأ منطقة «الصخور النوبية» بعد منطقة الصخور الجيرية الواقعة الى الشمال منها. وكانت هذه النوبة في الأصل تشمل الجندل الأول، اما حدها الجنوبي فهو أصعب تحديداً، وان كانت البحوث الأثرية قد أظهرت أنه ابتداء من الألف الرابعة قبل الميلاد، كانت المنطقة كلها – من حافة المرتفعات الاثيوبية في الجنوب حتى الجزء المصري من النيل في الشمال – تسودها نفس الثقافات أو تنتشر فيها ثقافات متقاربة ومترابطة. وعلى ذلك، فإن في وسعنا أن نضفي قدراً أكبر من الدقة على عبارة كوستاس، بأن نعرّف النوبة التاريخية بإنها ذلك الجزء من حوض النيل الواقع بين غرب الحدود الشمالية الغربية لاثيوبيا الحالية وبين مصر، والذي يضم وادي النيل نفسه، وأجزاء من النيلين الأبيض والأزرق بجميع روافدهما فوق خط العرض ١٢ درجة شمالاً، كالعطبرة والرهد والدندر (انظر الخرائط).

ومن المهم ايضاح الحدود الجغرافية للنوبة حتى نتمكن من استعراض ما هو معروف عن هذه البلاد والتوصل الى فهم أفضل لدورها التاريخي في ربط افريقيا الوسطى بعالم البحر المتوسط.

ولكن معرفتنا بمختلف اجزاء النوبة تتفاوت تفاوتاً كبيراً؛ فقد أمدتنا الاستقصاءات الأثرية التي أجريت قبل عمليات بناء وتعلية السدين في أسوان بقدر من المعلومات الأثرية عن النوبة السفلى – أي المنطقة ما بين أسوان وبطن الحجر (الجندل الثاني) – يفوق بكثير ما لدينا عن أي جزء آخر من وادي النيل. ومع ذلك فانه يجدر بنا أن نلاحظ أنه لم يحدث أن جرت أية حفريات قبل بناء السد الأول في أسوان عام ١٨٩٦؛ ومن ثم فان جميع المواقع الأثرية القريبة من النهر والواقعة في نطاق الخزان المائي الأول قد دمرت قبل أن يمكن الحصول على أدنى فكرة عن عددها أو طبيعتها أو مدى أهميتها. ولم يحدث أي استقصاء للمخلفات الأثرية الا عند تعلية هذا السد للمرة الأولى في ١٩٠٢، ثم أصبح ذلك هو

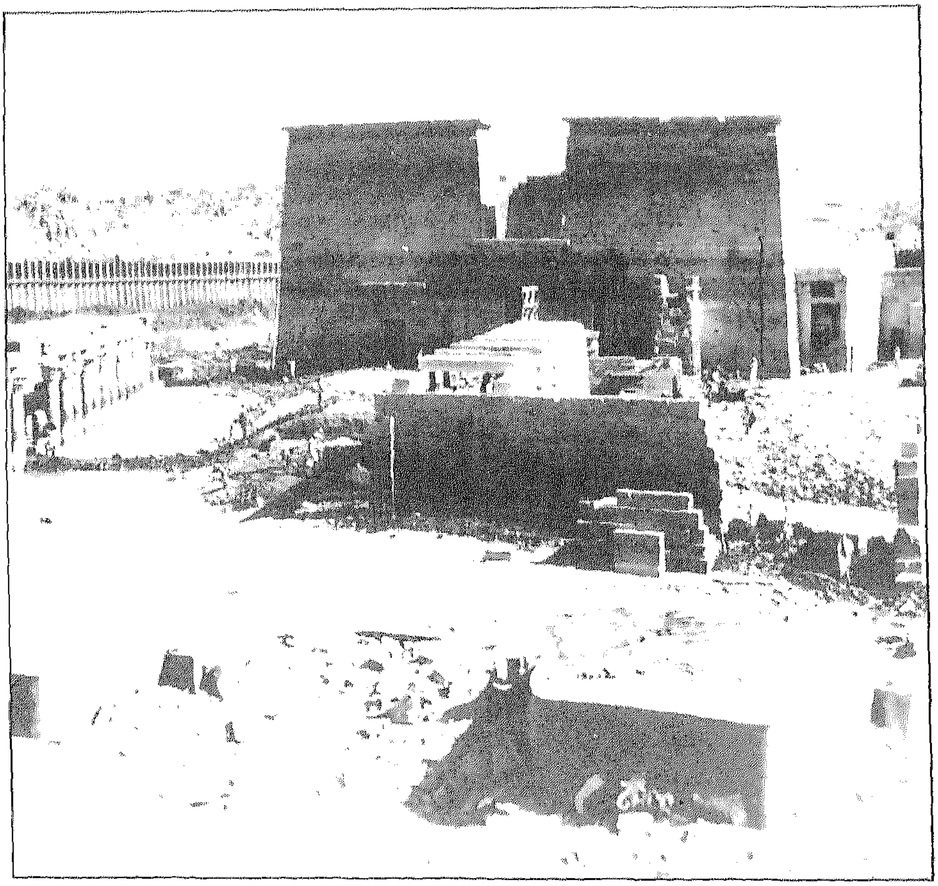
الاجراء الذي يتبع قبل كل تعلية لاحقة. ولدى آخر تعلية للخزان، بين ١٩٢٨ و١٩٣٨، أدرجت نتائج الاستقصاءات في اكثر من خمسين مجلداً، لا يزال الكثير منها على شكل صحائف مرقمة، تتناول الآثار والدراسات الاثرية الخاصة بالنوبة «المصرية». وقبل ملء الخزان الجديد - السد العالي - عند منطقة الشلال، أجريت سلسلة استقصاءات أخرى حتى بطن الحجر، ولم تبدأ تقاريرها الكاملة في الظهور إلا أخيراً.

فيمكن القول اذن بأن لدينا قدراً لا بأس به من الدراسة بتاريخ النوبة السفلى وآثارها. وعندما تنشر جميع الدراسات التاريخية والأثرية والأنثروبولوجية الجارية الآن، سيكون بوسعنا تكوين صورة دقيقة للدور الذي لعبه هذا الجزء من النوبة ذات يوم في الوصل بين الشمال والجنوب. ولكن الوضع المتعلق بالنوبة جنوبي بطن الحجر يختلف عن ذلك تماماً وأقل منه ارضاء بكثير. فإذا استثنينا مناطق قليلة وصغيرة جداً، لا يزال الجانب الأكبر من المنطقة أرضاً مجهولة من وجهة النظر الأثرية، ومن ثم التاريخية. حقيقة ان المواقع «الفرعونية» الهامة بين الجندلين الثاني والرابع قد نقبت أو هي بسبيل ذلك، وان نفس القول يمكن أن ينطبق على عدد من المواقع التي تعتبر «سودانية» بشكل أكثر تحديداً، مثل (من الجنوب الى الشمال) جبل مويا، وبعض المستوطنات من العصر الحجري الحديث عند الخرطوم وبالقرب منها، مثل النقعة ومصورات الصفرة ووادي بناقة، ومروى، وغزالي ونباتا ودنقلة وكرمة، ولكن يد الاستكشاف الدقيق لم تمتد الى أي من هذه المواقع بعد، كما أن بعض المواقع الكبرى لم تكد تستكشف بعد، مثل كرمة ومروى اللتين كانتا مركزين سياسيين هامين ولهما قيمة حيوية في دراسة التأثير النوبي على أفريقيا.

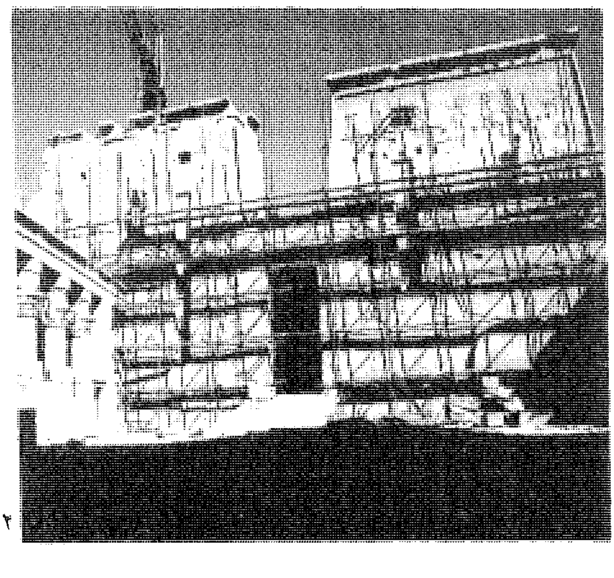
والى جانب البحوث الأثرية، فإن النصوص الفرعونية القديمة وبعض النصوص الاغريقية واللاتينية تقدم لنا بعض المعلومات القليلة عن التاريخ الباكر للحضارة في النوبة، وتمدنا بفكرة عامة عن دورها في تطور أفريقيا. ولكن هذه المصادر لا يمكنها تعويض النقص في المعلومات الأثرية والأدبية المتعلقة بالجزء الأكبر من النوبة. ويصدق هذا على الأودية الكبرى - وادي النيل نفسه جنوب الجندل الثاني وأودية النيلين الأزرق والأبيض ونهر العطبرة - وعلى المناطق القصية مثل درافور وكردفان، وعلى المسالك الشرقية نحو البحر الأحمر واثيوبيا.

وموجز القول أن النوبة تتمتع بموقع كان ينبغي أن يتيح معلومات أكثر دقة في تحديدها الزمني من أي قطر افريقي آخر فيما يتعلق بالصلات التاريخية بين افريقيا الوسطى والشمالية، وبين شرقي القارة وغربيّها. ولكننا لا نجد في متناولنا سوى النزر اليسير، باستثناء ما يخص الجزء الشمالي من المنطقة، ومن ثم فإن معلوماتنا عن طبيعة تلك الصلات وأهميتها ومدتها تقصر بالضرورة الى حد كبير عما يفي بالحاجة.

وهناك حقيقة لفتت نظر جميع المراقبين من عالم البحر المتوسط القديم، هي أن النوبة كانت ولا تزال ديار شعب أسود. وكان المصريون يصورون سكانها دائماً ببشرة أشد دكنة منهم بكثير؛ واسماهم الاغريق - ومن بعدهم الرومان أيضاً - «بالاثيوبيين» أي ذوي «البشرة المحروقة»؛ وكان الرحالة العرب الأوائل يشيرون الى النوبة بـ«بلد السودان» أي «ديار الشعب الأسود». وفي نصوص القرون الوسطى، كان لقب «حاكم النوبة» يكتب «بريفيكتوس ناجريتاروم»، أي «والي أرض الزنج»، وكان السكان يسمون «الزنج». وأخيراً، نجد أن اللوحات الجدارية في «فرس» تبرز سواد بشرة النوبيين ازاء البشرة البيضاء للكائنات السماوية، كالمسيح ومريم العذراء والقديسين.



١



٢

١ و٢ : الآثار النوبية في فيلة بعد إقامتها ثانية على جزيرة أجيلكيا المجاورة.

غير أننا لا نود - حتى اذا كان ذلك في وسعنا - أن نخوض في الجدل الانثروبولوجي الخالص حول ما اذا كان النوبيون من أصل «زنجي» أو «حامي». فالرسوم المصرية التي تعود الى ما قبل ١٥٨٠ق.م. تظهر تمايزاً جلياً بين النمط البدني للـ «نحسيو» من النوبة السفلى، الذين لا يختلفون عن المصريين الا في لون البشرة، ونمط «الكوشيين» الذين يظهرون في وادي النيل في ذلك الوقت اما لأنهم غزاة أو - وهو الأكثر احتمالاً - لأن المصريين والنوبيين النحسيو قد أقاموا معهم آنئذ صلات في أراضيهم الأكثر بعداً الى الجنوب. ولم يكن هؤلاء «الكوشيون» الجدد ذوي بشرة فاحمة وحسب، وانما كانت لهم أيضاً ملامح لا تزال تلاحظ على سكان وسط افريقيا وغربها؛ وهي ملامح تختلف كثيراً عن ملامح النوبيين القدماء والمعاصرين على السواء.

وكان سكان النوبة، الافريقيون بلغتهم وحضارتهم، يحتلون خير مكان يتيح لهم أن يؤدوا دوراً عظيم النفع في الوساطة بين الثقافات المجاورة المتقاربة. وبما أن تاريخ النوبة الطويل من حوالى عام ٧٠٠٠ق.م. الى عام ٧٠٠م. مسرود بالتفصيل في الفصول التالية (من ٩ الى ١٢)، فسنكتفي هنا بعرض موجز لجوانب معينة من تاريخها، تلقي ضوءاً على صلات النوبة بالحضارات المجاورة.

منذ حوالى عام ٧٠٠٠ق.م.، ولا سيما خلال الفترة الرطبة التي سادت قرب نهاية العصر الحجري الحديث، يبدو أنه كانت توجد ثقافة مادية مشتركة تنتظم كل أنحاء النوبة، من حافة المرتفعات الاثيوبية الى منطقة الكاب، بل والى ما يجاوزها شمالاً حتى مصر الوسطى. ولا يظهر التباين الواضح بين حضارة الجزء المصري الأدنى من وادي النيل وحضارة جزئه النوبي الأعلى الا قرب عام ٣٠٠٠ق.م. أما قبل ذلك، فإن هناك تشابهاً شديداً - إن لم يبلغ حد التطابق - في العادات الجنائزية والأواني الفخارية والأدوات الحجرية ثم المعدنية فيما بعد، يسود المنطقة الممتدة من الخرطوم جنوباً حتى المطمر، على مقربة من أسيوط شمالاً. ويتضح من ذلك بجلاء مدى التشابه بين مختلف هذه المناطق من حيث التنظيم الاجتماعي والمعتقدات الدينية والطقوس الجنائزية، وكذلك من حيث الأسلوب العام للحياة، التي يرتبط فيها القنص وصيد الأسماك وتربية الحيوان بنوع لا يزال بدائياً من أنواع الزراعة.

ونحو عام ٣٢٠٠ ق.م.، ظهر فن الكتابة في مصر، بينما ظلت النوبة جنوب الجندل الأول مرتبطة بنظمها الاجتماعية الخاصة وثقافتها الشفهية. وحوالى عام ٢٨٠٠ق.م.، كانت الكتابة قد غدت شائعة الاستعمال في مصر، ربما نتيجة للمقتضيات التي فرضها تنظيم سياسي على درجة كبيرة من المركزية، فأسهم ذلك في تطور الري ومن ثم في ظهور نوع من الزراعة المشتركة حل محل القنص وصيد الاسماك وتربية الماشية، وأدى بالتدريج الى تعزيز الفوارق بين حضارة النوبة الكبرى من ناحية وحضارة مصر من ناحية أخرى.

ففي الجنوب، احتفظ سكان النوبة الزنوج ذوو الثقافة الشفهية بتنظيم اجتماعي وسياسي قائم على الوحدات الصغيرة، فلم تلح عليهم الحاجة الى الكتابة؛ غير أنهم لا بد قد علموا بوجودها، لأن الاتصالات - التي اتخذت شكل الصدام العنيف في بعض الأحيان - استمرت قائمة بينهم وبين العالم الفرعوني. اما مصر فقد دفعها الجفاف متطلبات الري الى أن تطور بالتدريج نظاماً ملكياً على درجة عالية من المركزية، لأن وجود سلطة مركزية قوية كان هو الوسيلة الوحيدة لارغام السكان عند الضرورة على اداء المهام الجماعية التي لم يكن من ادائها بد لجعل وادي النيل الأدنى برمته قابلاً للزراعة، مثل بناء الجسور الموازية للنهر وصيانتها، وتسوية «الحياض» وشق القنوات، وتشييد السدود حتى يمكن الانتفاع على أفضل وجه ممكن بمياه الفيضان ذات المنسوب الدائم التغير (انظر اعلاه). وعلى

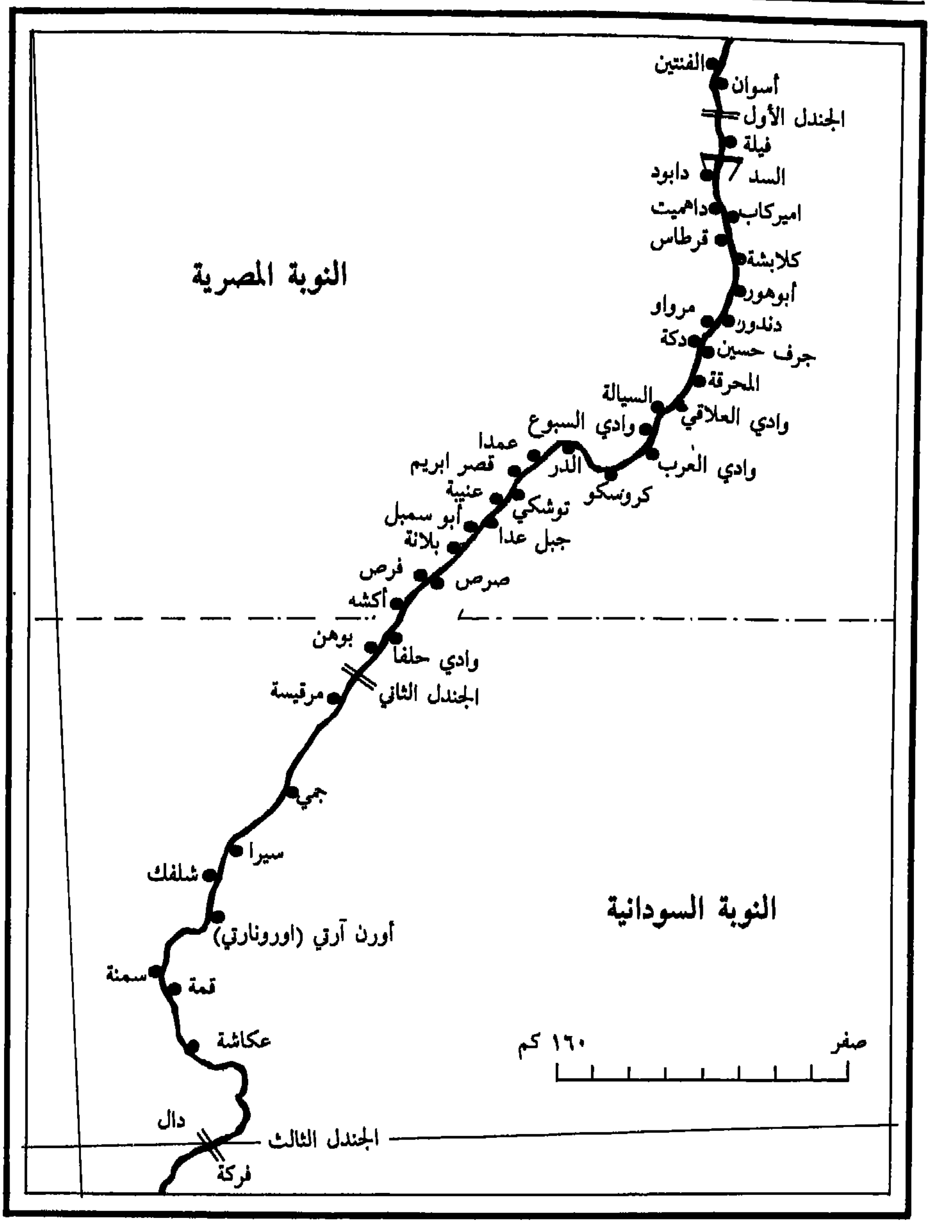
ذلك فقد كان من الطبيعي ان يظهر الى الوجود ويتعايش في وادي النيل مجتمعان متمايزان تمايزاً كبيراً، أحدهما في النوبة رعوي، بل ولعله لا يزال شبه بدوي وان لم تعوزه المهارات الزراعية، والآخر زراعي في جوهره، عاكف على الزراعة المكثفة للأرض، ومنظم من الناحية السياسية تنظيماً مركزياً. وبذلك فإن هاتين الحضارتين «المتخصصتين» - اللتين كانتا متشابهتين وكل منهما مستقلة بذاتها حتى عام ٣٠٠٠ق.م. - تقريباً - اتجهتا بالتدريج الى أن تصبح كل منهما مكملة للأخرى من الناحية الاقتصادية، فأدى هذا التطور الى تسهيل التبادل بينهما.

ومما يؤسف له أن من المتعذر اكتشاف تفاصيل الروابط التي تمت بين هذين المجتمعين. فمعرفتنا لما بينهما من علاقات منذ نهاية الألف الثالثة ق.م. فصاعداً تعتمد على المصادر المصرية، اعتماداً كلياً. وفضلاً عن ذلك، فإن النصوص الأدبية تعطي انطباعاً زائفاً بسبب جنوحها الى الاقتصار على تناول الحملات العسكرية وحدها. أما الشواهد الأثرية فإنها - باستثناء النوبة السفلى - غير كافية بالمرة اذ انها تقتصر على الادوات النوبية التي وجدت في مصر، أو في أحسن الأحوال على الأشياء المصرية التي اكتشفت في المواقع النوبية بين أسوان والجندل الثاني.

ويستفاد من هذه المعلومات بحالتها الراهنة أن الجزأين الأدنى والأعلى من وادي النيل كانا على اتصال جد وثيق. ويجب في هذا الصدد عدم اغفال أصلهما الثقافي المشترك، الذي كان رصيداً مشجعاً على هذه الصلات. فالأوعية الفخارية من عصر ما قبل الأسرات والعصر الطيني (عصر الأسرتين الأولى والثانية - نسبة الى العاصمة «طينة») توجد في مناطق تمتد جنوباً الى شلال دال وما وراءه، وهو ما يبين أن تبادل المصنوعات بين الشمال والجنوب كان جارياً، جيث نجد انه بينما اكتشفت في النوبة كثير من المصنوعات المصرية، كالأواني والأحجار الكريمة والتمائم، فقد استخدم في الأثاث الجنائزي المصري في تلك الفترة قدر كبير من واردات الجنوب من الأبنوس والعاج والبخور، وربما من الأوبسيدان أيضاً. ولعل هذه التجارة أن تكون قد ساعدت على انتشار الأفكار والتقنيات من منطقة لأخرى، وان كانت الشذرات التي نعرفها عن ذلك لا تسمح لنا بقياس أهمية هذه التأثيرات أو حتى اتجاهها. ولنسق على ذلك مثالين فحسب: هل ظهرت تقنية الطلاء بالميناء، كما استخدمت في الخرز والتمائم مثلاً، في الشمال أم في الجنوب؟ لأن هذه التقنية تظهر في كلا المجتمعين في نفس الوقت تقريباً.

ويصدق نفس الشيء على الفخار الأحمر ذي الحواف السوداء الذي يتميز به فن صناعة الفخار في جميع أنحاء العالم النيلي القديم. ويبدو أنه ظهر أولاً في وادي النيل الأعلى بين الجندلين الرابع والسادس قبل ان يتاح لنا شاهد عليه في وادي النيل الأدنى بمصر. ولكننا نجد مرة اخرى هنا أن من المتعذر تحديد الزمن تحديداً يقينياً.

ومن ناحية اخرى، فإن الفخار المصنوع من الصلصال الحفري ذي اللون الأصفر الفاتح، والمعروف لأهل الاختصاص باسم «القناوي» هو مصري بلا جدال، لا تترك مادته الخام ولا طريقة صنعه مجالاً للشك في مصريته. وقد استوردت كمية كبيرة منه الى النوبة السفلى (الشمالية) على الأقل منذ نهاية الألف الرابع حتى مستهل الألف الثالث قبل الميلاد. وهو كثيراً ما يوجد في المواقع النوبية جنوب الجندل الأول، مما يشير الى وجود تجارة نشطة بين اقليم طيبة والنوبة السفلى. وقد كان الصلصال القناوي ملائماً لعمل الأوعية الكبيرة التي تصلح لاحتواء السوائل او المواد الصلبة على السواء، ولكننا للأسف ليست لدينا فكرة عما كانت تحتويه تلك الأوعية - سواء أكان ذلك زيتاً أم دهناً أم جبناً. ومع ذلك فإن وجودها يدل دلالة واضحة على أن المبادلات بين مصر والممر النوبي كانت



النوبة القديمة (ميخالوفسكي ١٩٦٧ «ب» ، صفحة ٢٩).

كثيرة، ولعل اهميتها التاريخية كانت أكبر من تلك الغزوات التي اعتاد الفراعنة منذ حوالى ٣٠٠٠ق. م. فصاعداً أن يشنوها من حين لآخر على «تا-سيتي» - بلاد القوس - بين الجندلين الأول والثاني.

على ان هذه الغزوات التي يرد ذكرها في أقدم النصوص المصرية (انظر الفصل التاسع) تقدم أول اشارة الى السمة المزدوجة - العسكرية والاقتصادية - للصلات التي قامت بين الجنوب والشمال على طول وادي النيل. فعلى الرغم مما يكتنف هذه الصلات من افتقار الى التحديد، الا أنها تكشف عن أهمية «الممر النوبي» في اقامة حلقة الاتصال بين أفريقيا والبحر المتوسط.

ومنذ عام ٣٢٠٠ق. م. تقريبا، كان قد توفر لدى المصريين في ظل الأسرة الأولى قدر من المعرفة بالبلاد يكفي لأن يجازفوا بارسال قوة عسكرية حتى ابتداء الجندل الثاني. ولنا أن نغامر بتخمين الأسباب التي دعت الى تلك الحملة. فقد كانت هناك أولاً حاجة الى مواد خام معينة تفتقر اليها مصر أو يندر وجودها بها، ولا سيما الخشب. فلا بد أن حزام الغابات الذي كان يحف بضفاف النهر في الأزمنة الغابرة قد اخذت كثافته تخف، تمهيداً لاختفائه بالتدريج مع تزايد السيطرة على مجرى النيل الأدنى واطراد التوسع في نظام الري بما ينطوي عليه من اقامة شبكات «الحياض».

والسبب الهام الثاني لتدخل الجيش المصري في النوبة هو الرغبة في إبقاء طريق الجنوب مفتوحاً: فالبخور والصمغ والعاج والأبنوس والفهود لم تكن تأتي من المنطقة بين الجندلين الأول والثاني، بل من وراء ذلك بكثير نحو الجنوب؛ وقد كانت النوبة السفلى في ذلك الوقت كثيفة السكان، كما يتبين من عدد مقابر المجموعة (أ) وأحجامها. (انظر الفصل التاسع).

وعلى عكس الاعتقاد الذي كان سائداً الى سنوات قليلة مضت، فإن اولئك السكان لم يأتوا من الشمال، وانما كانوا أحفاد مجموعات يرجع عهدها الى العصر الحجري الحديث، استقرت آنئذ بالوادي بين الجندلين الأول والثالث، مع احتمال ارتباطهم بوشائج قرابة مع تلك المجموعات الأخرى التي اقامت بالوادي الأعلى بين الجندلين الرابع والسادس، حيث تشير الى ذلك الأواني المنزلية التي اكتشفها الأثريون في كلتا المنطقتين. وكان بعض هؤلاء القوم لا يزالون قناصي حيوان وصيادي أسماك، ولو أن الذين استقروا على مقربة من النهر قد اشتغلوا بالزراعة بصفة رئيسية، على حين مارس سكان السافانا المتطرفة بعيداً على جانبي النيل حياة رعوية في جوهرها، ولعلها كانت شبه بدوية ايضاً. فقد كان المناخ لا يزال في مرحلة الرطوبة التي اختتم بها العصر الحجري الحديث في إفريقيا، ولم يكن «الممر النوبي» محصوراً في وادي النهر الضيق، بل كان على الأرجح يمتد مسافة كبيرة على جانب كل ضفة، بحيث كان بوسع سكانه - اذا رغبوا - أن يعترضوا القوافل المصرية المتجهة صوب الجنوب عبر البر أو بحذاء النهر على السواء.

وعلى أية حال فإن الأدلة على اهتمام المصريين بالنوبة السفلى متوفرة في العديد من المصطلحات الأثنية وأسماء الأماكن التي تشير الى هذه المنطقة مما حفظته أقدم النصوص الفرعونية. ولكن هذه المصطلحات والأسماء تتعلق بما لا يزيد على قرابة ٣٢٥ كيلومتراً من الوادي، تمتد من جزيرة فيلة في الشمال حتى مشارف الجندل الثاني عند بوهن (وقد أضحت هذه المواقع الآن غارقة تحت مياه السد العالي)، التي بلغها المصريون بالتأكيد على عهد الملك «جر» من الأسرة الأولى، ان لم يكونوا قد بلغوها قبل ذلك في زمن الملك «عقرب» نفسه، قرب نهاية عصر ما قبل الأسرات.

وعندما تبلغ الحفريات في مقابر «المجموعة أ» مستوى عام ٢٧٠٠ق. م. تقريباً، تنضب فجأة كل المعلومات الخاصة بالاتصالات بين الشمال والجنوب، على الأقل في النوبة السفلى، فلا يعود يوجد غير

النزر اليسير من المقابر والمستوطنات النوبية، وكأن السكان قد هجروا ديارهم فجأة. ولم يتيسر حتى الآن ايجاد تفسير كامل لاختفاء السكان على هذا النحو بعد كثرتهم بين الجندلين الأول والثاني. هل كان ذلك لأن الفراعنة قد جردوا البلاد من منتجاتها، أم لأن النوبيين انسحبوا من تلقاء أنفسهم – اما نحو السافانا على جانبي الوادي أو الى أبعد من ذلك جنوباً؟ ان هذه الأسئلة تستعصي على الاجابة نظراً لعدم وجود أية استقصاءات أثرية للمنطقة جنوب الشلال الثاني او لمشارف الوادي على جانبي النيل.

وعلى ذلك فانه لا مناص لنا لمعرفة هذه الفترة – بين ٢٧٠٠ و٢٢٠٠ق.م. – من أن نعتمد على الايماءات القليلة المتناثرة في المصادر الأدبية المصرية. وهذه المصادر تحكي عن حملات عسكرية في منطقة «تا – سيتي» في النوبة – وهو ما قد يوضح سبب اخلاء البلاد – فتنبؤنا بأن قوات فرعون في عهد سنفرو (حوالى ٢٦٨٠ق.م.) قد قبضت على ١١٠٠٠٠ أسير وغنمت ٢٠٠٠٠٠ رأس من الماشية؛ وهي أرقام تؤكد كلا من حجم السكان في أخريات حقبة المجموعة (أ)، قبل اخلاء البلاد، واتساع نطاق تربية الحيوان في مجتمعهم، على نحو يقارن احياناً «بعقدة الماشية» الحالية في شمال شرق إفريقيا. غير أننا لا نستطيع تفسير وجود مثل هذه الكميات الهائلة من الماشية الا اذا كان أولئك السكان قد استغلوا مساحات كبيرة من السهوب او السافانا التي كانت تمتد آنئذ لمسافات بعيدة على كل من جانبي النهر، فضلاً عن استغلالهم لوادي النيل نفسه.

وقد ساعد في القاء قدر جديد من الضوء على خلفية تاريخ الممر النوبي خلال هذه الحقبة الغامضة كشف أثري هام تم في ١٩٦١ – ١٩٦٢؛ فقد عثر في بوهن على مستوطنة يرجع عهدها الى الدولة المصرية القديمة، فيها أختام فرعونية يعود تاريخ بعضها الى نهاية الأسرة الرابعة، وان كان تاريخ معظمها يعود الى الأسرة الخامسة. وكان يلحق بالمستوطنة مجموعة أفران تستخدم لصهر النحاس.

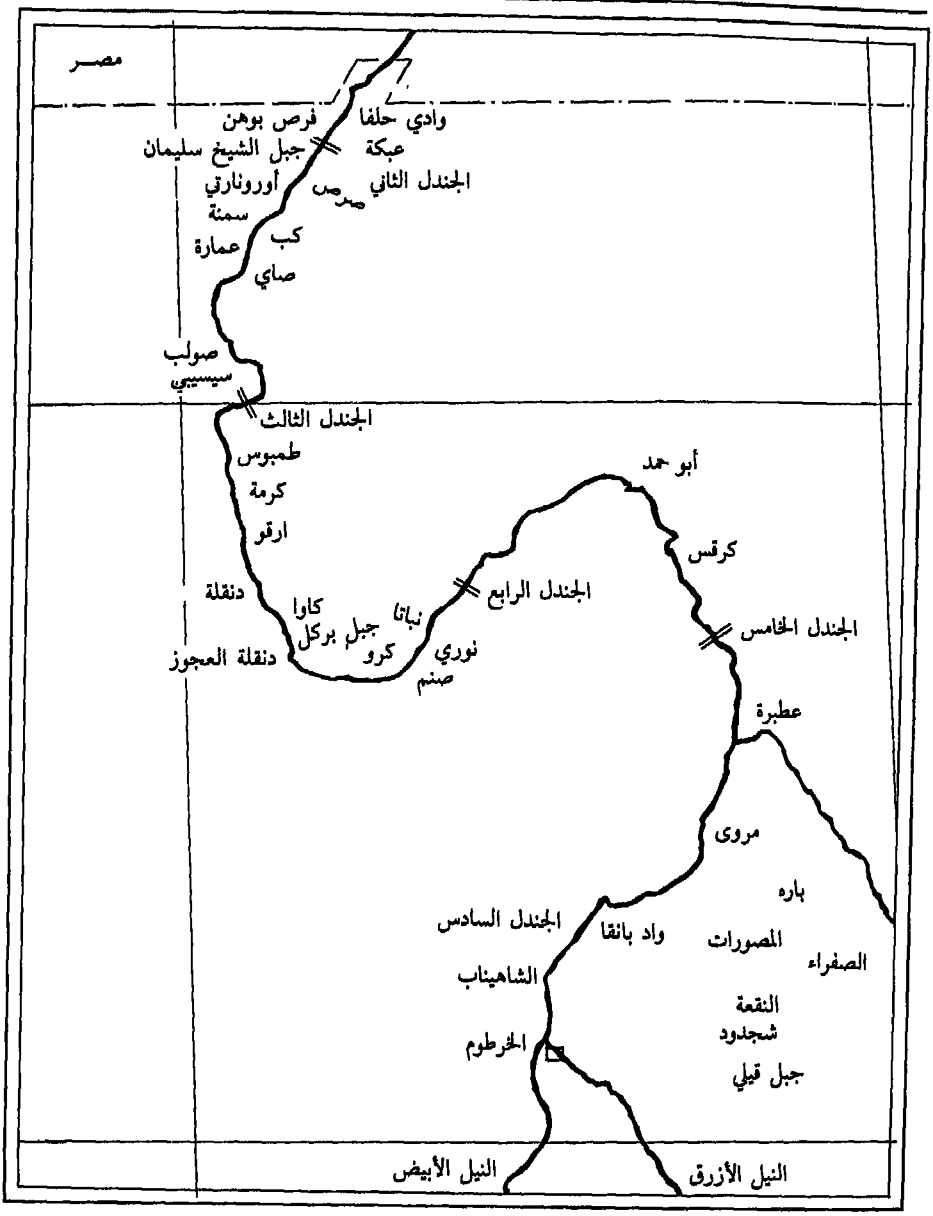
ويبين هذا الكشف اولاً أن المصريين لم يعتمدوا على النحاس الآسيوي وحده – من سيناء بصفة خاصة، وأنهم كانوا قد نقبوا بالفعل تنقيباً دقيقاً عن المعادن في النوبة الافريقية. كما يبرز الكشف ثانياً أمراً بالغ الأهمية، هو أن المصريين قد استطاعوا أو اضطروا الى ادخال تقنيات الصهر الى وادي النيل الأعلى. ويثبت كشف بوهن أن النحاس الافريقي كان ينتج بالفعل في ذلك التاريخ. غير أن انتاج النحاس يستلزم اكتشاف العرق اولاً، ثم تعدينه، ثم بناء أفران خاصة وتزويدها بالوقود المناسب، وصنع جفنات الصهر، وسبك المعدن وتنقيته الى درجة معينة على الأقل قبل تحويله في النهاية الى سبائك. ومن غير المعقول أن يكون النوبيون قد راقبوا حدوث ذلك كله – حتى وان لم يشاركوا فيه مشاركة ايجابية – دون ان يكتسبوا على أقل تقدير دراية اولية بصناعة المعادن. ولعل هذا التعريف المبكر بصناعة المعادن في منتصف الألف الثالثة قبل الميلاد ان يكون هو افضل تعليل للمهارة التي اظهرها النوبيون بعد زهاء ٥٠٠ سنة (حوالى ٢٠٠٠ق.م.) في صنع الأشياء النحاسية وصياغة الذهب.

وقد شارفت هذه الحقبة الغامضة ختامها قبيل عام ٢٢٠٠ق.م. حيث تعود المعلومات الى الظهور، سواء من المصادر الأثرية او من المصادر الأدبية. فالوثائق المصرية من عهد الأسرة السادسة – آخر أسرة في الدولة القديمة – تتضمن عدة روايات عن حملات ذهبت الى أعالي النوبة (انظر الفصل التاسع). ومن الواضح ان الحملات في بداية عهد هذه الأسرة كانت ذات طبيعة تجارية وسلمية: اذ كان المصريون يسعون الى الحصول من النوبة على الأنواع النادرة من الأحجار التي تحتاج اليها المباني الملكية، أو – ببساطة – على الخشب. وكانوا يتبعون أسلوباً تقنياً قدر له ان يعاد استخدامه فيما بعد،

وهو انهم كانوا يبحثون عن السلع النادرة أو الضخمة الحجم، ويبحثون عن الأخشاب في نفس الوقت. وكان الخشب الذي يحصلون عليه من أعلى الوادي يستخدم في بناء سفن تتولى بدورها نقل السلع الثقيلة الى مصر؛ وهناك يفكك الاسطول الناقل ويعاد استخدام أخشابه في أغراض اخرى. ومن الواضح ان هذه التجارة قد عززت أيضاً انتشار الأفكار والتقنيات في كلا الاتجاهين الى درجة أن مجمع الآلهة المصري اكتسبت معبوداً افريقياً جديداً، هو «ديدون» واهب البخور. وسعياً وراء تحسين مواصلاتهم مع الجنوب، شق المصريون قنوات صالحة للملاحة في صخور الجندل الأول قرب أسوان؛ وسار فراعنة الدولة الوسطى ثم فراعنة الدولة الحديثة من بعدهم على نفس هذه السياسة التي كان قد بدأ اتباعها منذ الألف الثالثة قبل الميلاد.

وكانت الحملات المصرية تسلك الطرق الممتدة عبر البر والطرق الممتدة على طول وادي النهر على السواء. ولا شك في أن تلك الطرق لم تكن آنذاك دروباً صحراوية، لأن مرحلة العصر الحجري الحديث الرطبة لم تكن قد انتهت بعد. ولا بد أن الرحلة جنوباً - رغم افتقارها الى الظل الظليل - كانت تمر بعدد وفير من الآبار والينابيع، لأننا نعرف انه كان من المعتاد استخدام دواب للحمل - مثل الحمير - تحتاج الى امداد منتظم بالمياه. وكان احد هذه الطرق بالذات يسمى طريق الواحات، وهو الذي كانت تقطعه الحمير الى مصر ناقلة عليه البخور والأبنوس وأنواعاً خاصة من الزيوت وجلود الفهود والعاج وما الى ذلك. وتشير الكشوف الحديثة الى أن طريقاً واحداً على الأقل من هذا النوع كان يبدأ من الواحات الداخلة، حيث كانت الواحات الخارجية لا تزال بحيرة. ومما يؤسف له ان النصوص المصرية لا تنبؤنا بما كان المصريون يقدمونه مقابل السلع التي يرجعون بها، كما أنها لا تذكر بالضبط أين كانوا يحصلون على مؤنهم وامداداتهم، وهو ما يؤسف له أكثر. وقد ورد في تلك النصوص عدد من أسماء الأماكن الافريقية، ولكن الأخصائيين لا يزالون غير واثقين من مواقعها. وهنا أيضاً يمكن أن يتكشف الكثير عن طريق الاستقصاء الأثري المنظم، لا للجزء النوبي من وادي النيل جنوب الجندل الثاني فقط، وانما أيضاً - وهو ما قد يكون أكثر أهمية - للطرق البرية الواقعة غربي الوادي، والتي تربط سلسلة الواحات «الليبية» بواحة «سليمة» والأودية أو المنخفضات المؤدية الى اينيدي وتبستي وكردفان ودارفور وبحيرة تشاد.

وسواء أكان المصريون يتبعون طريق الوادي في رحلتهم الى النوبة أو يقومون بها عبر البر، فإن من المحتمل جداً أنهم كانوا بالفعل، منذ تلك الأزمنة الباكرة، على اتصال بأفريقيا جنوبي الصحراء الكبرى، وأن «الممر النوبي» قد لعب دوراً هاماً في هذا الاتصال. ففي عهد الملك بيبي الثاني، حوالى عام ٢٢٠٠ق.م. جلبت حملة مصرية من الجنوب القصي «قزماً للرقص المقدس» (انظر الفصل التاسع). كانت الكلمة التي وصف بها هذا الشخص هي «دينيج»، على حين أن الكلمة العادية التي تعني «ضئيل الحجم» في النصوص الهيروغليفية هي «نيمو». ولنا أن نتساءل - وقد يكون الرد على هذا التساؤل بالايجاب - عما اذا كانت كلمة «دينيج» تعني في الحقيقة فرداً من جنس أقزام أفريقيا. فاذا صح هذا، لا سيما وقد صارت الترجمة المقبولة عموماً الآن لكلمة «دينيج» هي «واحد من جنس الأقزام»، فلا بد أن مصريي الدولة القديمة كانوا على اتصال مباشر أو غير مباشر مع هذا الجنس البشري الذي يعيش في الغابات الاستوائية. وحتى اذا كان موطن هؤلاء الأقزام يمتد آنئذ نحو الشمال الى أبعد بكثير مما هو عليه الآن - وهو أمر ممكن بل ومحتمل بسبب اختلاف المناخ خلال الألف الثالثة قبل الميلاد - فإن هذا الموطن يظل مع ذلك بعيداً جداً الى الجنوب من النوبة، ومن ثم يمكننا أن نستنتج



النوبة العليا السودانية (ف. وي. هينتزه، ١٩٦٧، صفحة ٢٦)

أن مصريي الدولة القديمة كانت لهم صلات بإفريقيا الوسطى، وأن النوبة وسكانها قد أسهموا اسهاماً كبيراً حتى تصبح تلك الصلات أمراً ممكناً.

وعلى أي حال، فالمرجح أن هذه الصلات بين مصر وإفريقيا الوسطى تعود الى عهد بعيد جداً، لأن كلمة «دينيج» ترد في نصوص الأهرام. حقيقة ان هناك خلافاً كبيراً حول تاريخ كتابة هذه النصوص، ولكن حتى إذا توخينا أكثر هذه التقديرات تحفظاً، فان هذا التاريخ لا يمكن أن يعدو عهد الأسرة الخامسة، وان كان الأرجح أن هذه النصوص أقدم من ذلك بكثير.

وعلى ذلك فقد عرف المصريون القدماء بوجود جنس الأقزام في تاريخ لا يمكن أن يتجاوز عهد الأسرة السادسة بأي حال، ويؤكد ذلك نص من الأسرة السادسة يحكي عن وصول «دينيج» الى مصر من قبل، في عهد الفرعون «ددكارع – اسيسي»، الملك قبل الأخير في الأسرة الخامسة. وقد جيء بذلك القزم من بلاد «بنت»، مما يوحي بأن موطنه الأصلي كان نائياً جداً الى الجنوب من النوبة، لأن موقع بلاد «بنت» لا بد أنه كان في موضع ما من ساحل افريقيا الشرقي الممتد من أريتريا الى الصومال حالياً. ولا بد أن هذا «الراقص الضئيل» قد جلبه للمصريين طرف ثالث. وأياً كانت الحال، فإن احتمال وجود الأقزام في مصر يعني ضمناً وجود صلات بين وادي النيل الأدنى وإفريقيا شبه الاستوائية.

وقرب نهاية حكم الأسرة السادسة، على عهد بيبي الثاني، يبدو ان التدهور قد أخذ يشوب العلاقات السلمية بين مصر والنوبة، وهي العلاقات التي قامت على المصلحة المتبادلة وعلى حاجة الفراعنة الى طريق مفتوح الى موارد المناطق الافريقية النائية. وتومىء النصوص المكتوبة في اخريات عهد بيبي الثاني الى حدوث نزاعات بين الحملات المصرية وسكان الممر النوبي. ومثال ذلك أن مصرياً كان يقود احدى البعثات قتل أثناء رحلته نحو الجنوب، اضطر ابنه الى شن هجوم لاسترداد جثمان أبيه واعادته الى مصر لدفنه طبقاً للطقوس الصحيحة.

ومن العسير تجاهل الرابطة بين هذا التوتر وبين التغيرات التي بدأت تؤثر على المناخ حوالى عام ٢٤٠٠ق.م.، مما أدى بالتأكيد الى تحركات سكانية. فحتى عام ٢٤٠٠ق.م.، كانت كل المنطقة الواقعة بين خطي عرض ١٥ و٣٠ درجة شمالاً أكثر رطوبة مما هي عليه اليوم، ومن ثم قابلة للسكنى. وحتى اذا لم تكن كثيفة السكان بالنظر الى حجمها، فلا بد انها كانت تمد عدداً كبيراً من السكان بأسباب الحياة.

بيد أن المناخ أخذ في الجفاف تدريجياً، ودفع بهؤلاء القوم الى البحث عن مأوى في مناطق أكثر رغداً: في الجنوب، وفي وادي النيل أيضاً بطبيعة الحال. وقد خلد فن التصوير التسجيلي المصري ذكرى تلك الهجرات فيما يبدو. فحوالى عام ٢٣٥٠ق.م.، على عهد الأسرة الخامسة، أخذ موضوع الرعاة الذين يبدو عليهم السغب والحرمان يظهر للمرة الأولى في مشاهد الحياة اليومية المرسومة على المصاطب. ومن المغري – بل والأكثر من المغري، أن يرى المرء في تلك الشخوص الهزيلة الجائعة رعاة من الرحّل أو أشباه الرحّل الذين هربوا من الصحراء المطبقة سعياً وراء القوت والعمل في مصر.

ومن هذا يبدو أنه لا طائل من الجهود التي يبذلها البعض بحثاً عن أصول بعيدة لما يسمى بشعوب المجموعة «جـ» (انظر الفصل التاسع) التي تظهر حوالى عام ٢٣٠٠ق.م. في الممر النوبي. فلقد كان هؤلاء القوم يقيمون في الحقيقة في مواضع قريبة، ولم يدفعهم الى الاستقرار في الوادي سوى تغير الظروف المناخية. غير أن هؤلاء المهاجرين من وجه الصحراء الزاحفة لا بد أنهم قد اضطروا الى

التنازع مع اولئك الذين كانوا يعيشون من قبل على ضفاف النهر - ولعل ما ورد بالنصوص التي ترجع إلى اواخر عهد الأسرة السادسة، أن يكون صدى لذلك العداء.

وأياً كانت الحال، فإن المصادر الأثرية تبين بوضوح أن هؤلاء القوم الجدد قد انحدروا مباشرة من المجموعة (أ)، فقد واصلوا العمل بتقاليد التبادل الثنائي مع وادي النيل الأدنى، ثم قاموا فيما بعد بدور الوسطاء بين افريقيا وحضارتي مصر والبحر المتوسط.

وفي حدود ما يستطيع علم الآثار أن ينبئنا به، يتبين أن سكان الممر النوبي قد انقسموا منذ ٢٣٠٠ ق.م. الى عدة «عائلات». وعلى الرغم مما كان بين هذه «العائلات» من روابط وثيقة، فقد كانت لكل منها ثقافتها المادية الخاصة - من المصنوعات الفخارية وأنواع الادوات والعدة والسلاح، وطقوس الدفن الخاصة من حيث نوع المقبرة وترتيبها والأثاث الذي في داخل الرمس وخارجه، إلى آخر ذلك. على أن أوجه الاختلاف كانت أقل كثيراً من أوجه التشابه بين هذه العائلات، مثل أهمية تربية الأنعام، ورواج استخدام الفخار الأحمر ذي الحواف السوداء، والقبور من نوع «الجثوة» وما الى ذلك.

ومنذ ٢٢٠٠ق.م. الى ١٥٨٠ق.م. ظل أقوام المجموعة «جـ» بين أسوان وبطن الحجر (انظر الخريطة) على اتصال وثيق بمصر، اما لأنها كانت تشرف على ادارة المنطقة مباشرة (من حوالى ٢٠٠٠ق.م. الى حوالى ١٧٠٠ق.م.) أو لأن كثيراً من المصريين (من حوالى ١٦٥٠ق.م. الى حوالى ١٥٨٠ق.م.) قد أصبحوا مقيمين دائمين في البلاد؛ ومن المحتمل جداً أنهم كانوا في خدمة مملكة حوش الجديدة (أنظر أدناه وانظر أيضاً الفصل التاسع). وبما انهم قد استمروا على صلة بموطنهم الأصلي في طيبة، فقد ساعدوا على انتشار الأفكار والأساليب المصرية.

وإلى أبعد من ذلك جنوباً، بدءاً من بطن الحجر فصاعداً، كانت تقوم مملكة كرمة التي سميت باسم أهم مراكزها التي اكتشفت حتى الآن (انظر الفصل التاسع)، والتي لا تختلف حضارتها عن حضارة المجموعة «جـ» الا في التفاصيل. ويتبين من الاكتشافات الأثرية - في المواقع القليلة جداً التي أجريت فيها الحفريات حتى الآن - أن هذه المملكة كانت لها صلات لا مع مصر فقط، وانما أيضاً - منذ ١٦٠٠ق.م. وما بعدها - مع الهكسوس الآسيويين، الذين يبدو أنهم كانوا على اتصال مباشر بتلك المملكة.

ومن السهل جداً معرفة الحد الشمالي للمنطقة التي كانت خاضعة لادارة «كرمة»، فهو بطن الحجر. أما الحدود الجنوبية فأمرها مختلف تماماً. وتوحي الاكتشافات الحديثة (١٩٧٣) من فخار كرمة بين النيلين الأبيض والأزرق جنوب الخرطوم بأنه حتى اذا لم تكن مملكة كرمة نفسها قد امتدت الى المنطقة التي يطلق عليها اليوم اسم «الجزيرة»، فإن نفوذها قد بلغ تلك المنطقة بالفعل ووضعها في موضع الاتصال الوثيق مع عالم القبائل النيلية في منطقة السدود (انظر الخريطة).

ومما يؤسف له بصفة خاصة أننا لا نستطيع التحقق من المدى الذي بلغه امتداد مملكة كرمة في اتجاه افريقيا الاستوائية، لأن هذه المملكة - التي ربما كانت أول «امبراطورية» افريقية عرفها التاريخ - قد بلغت درجة عالية من الحضارة اتاحت لها أحداث تأثير عميق في البلدان الواقعة جنوبها، سواء على امتداد وادي النيل الأعلى وافريقيا الوسطى أو الى الشرق والغرب من أراضيها. واذا تقبلنا الافتراض القائل بأن مملكة كرمة قد امتدت من الجندل الثالث حتى النيل الأبيض، فإنها تكون بذلك سيطرت لا على الشريان الكبير الممتد بين الشمال والجنوب الذي يشكله وادي النيل وحسب، بل وأيضاً على الطرق الشرقية - الغربية الممتدة من ساحل افريقيا على المحيط الأطلسي الى البحر الأحمر والمحيط

الهندي. وعلى ذلك فقد كانت مملكة كرمة في وضع جيد يتيح لها تمرير التقنيات والأفكار من مصر أو من الهكسوس الذين رأينا أنهم كانوا على صلات بها - الى الثقافات الافريقية في تلك المناطق.

وليس هذا مكان مناقشة ما اذا كانت المباني الضخمة التي لا تزال تهيمن على موقع كرمة الأثري من أصل مصري أو نوبي (انظر الفصل التاسع)؛ واذا كانت قوالب الطوب مصنوعة وفق طريقة فرعونية، فإن خطة المباني تختلف اختلافاً كبيراً عن المنشآت المعاصرة لها في أدنى الوادي. وحتى يتسنى لنا معرفة المزيد، فمن الأوفق اعتبارها عملاً «كوشياً» اعتوره تأثير مصري. ويبدو أن كرمة كانت أهم مركز حضري في مملكة كوش، التي يظهر اسمها في النصوص الفرعونية ابتداء من عام ٢٠٠٠ق.م.

ويكفينا هنا أن نؤكد أن هذه المملكة قد تكون أثرت تأثيراً كبيراً على الثقافات المجاورة عن طريق تقنياتها، ولا سيما في صناعة المعادن، وأن قوتها السياسية التي يشهد عليها حجم عاصمتها قد تكون أتاحت لها بسط نفوذها الى مناطق بعيدة. ومما يؤسف له أن الاستكشافات الأثرية للمناطق المتطرفة من المملكة قليلة، ان لم تكن منعدمة، ومن ثم فإن الوضع لا يسمح لنا حتى الآن بأكثر من التصور الافتراضي لدور مملكة كرمة في بث الأفكار أو التقنيات أو اللغات.

وقد نوهنا آنفاً بنقطة واحدة تبدو مؤكدة، وهي القوة المادية لمملكة كوش، التي تبرهن عليها الاحتياطات التي اتخذها نحوها فراعنة الأسرة الثانية عشرة، من سيزوستريس الأول حتى امنمحات الثالث. ويتضح التهديد المحتمل الذي كانت تمثله كرمة بالنسبة لمصر من سلسلة القلاع التي أقيمت من سمنة شمالاً حتى دبيرة (انظر الخريطة) لحماية الحدود المصرية الجنوبية من الجيوش الكوشية. وهذه القلاع الاحدى عشرة يتراوح سمك جدرانها من ستة الى ثمانية امتار، بارتفاع يتراوح بين عشرة أمتار واثني عشر متراً، ولها أبراج مستديرة بارزة الى الخارج ومنافذ على النهر محمية حماية كاملة. ولم يقتصر دور هذه الحصون على تأمين النيل فحسب، بل انها كانت كذلك قواعد عسكرية تخرج منها الحملات المتجهة الى الصحراء أو الى الجنوب وكانت تلك الحملات أموراً عادية خلال عهود الفراعين الستة الأول من الأسرة الثانية عشرة، وهي تشهد بجلاء على الحيوية الجياشة لدى أقوام كرمة، الذين يحتمل أنهم كانوا هم انفسهم واقعين تحت ضغط جماعات اثنية آتية من مناطق أبعد كثيراً في الجنوب. ولعل احدى النتائج المحزنة لتشييد سد أسوان الجديد أن تكون هي الاختفاء الحتمي لهذه الروائع في فن التحصين.

وتعتبر التحسينات التي أدخلها المصريون بين عامي ٢٠٠٠ق.م. و١٧٨٠ق.م. على الطريق الموصل بين الشمال والجنوب برهاناً قاطعاً على أن الممر النوبي قد ظل هو الشريان الأكبر بين افريقيا ووادي النيل الأدنى من جهة وعالم البحر المتوسط من جهة أخرى. فقد روعيت المحافظة على صلاحية المجاري القابلة للملاحة التي تخترق الجندل الأول، وأقيم مزلقان (Doilkos) - وهو مسار تسحب عليه السفن فوق البر بمحاذاة الصخور الكأداء في الجندل الثاني، واقيم سد عند سمنة لتسهيل الملاحة عبر الجنادل الصغيرة في بطن الحجر. كل هذه يبين أن فراعنة الأسرة الثانية عشرة كانوا يوجهون كامل اهتمامهم الى النهوض بحالة الطريق الى الجنوب على أفضل وجه ممكن.

وعندما قام سيزوستريس الثالث بتثبيت الحدود المصرية عند سمنه، زاد من تعزيز الدفاعات العسكرية ضد احتمالات الهجوم من جانب معتد قوي من الجنوب. على أن هناك نصاً شهيراً يسجل أمراً منه بألا تعوق هذه التحصينات حركة التجارة التي تحقق مكاسب جمة للمصريين والنوبيين معاً.

ولا يعرف الا القليل عن الفترة المضطربة بين عامي ١٧٨٠ق.م. و١٥٨٠ق.م.، التي يطلق عليها علماء الآثار المصرية العصر الوسيط الثاني، وان بدا انها كانت عصراً ذهبياً لمملكة كوش التي

يلوح أن عاصمتها كرمة قد انتهزت فرصة تراخي قبضة الحكام المصريين لزيادة حجم التجارة التي كانت تعود عليها بالنفع بين وادي النيل الأعلى والأدنى.

ولا ينبغي التقليل من شأن هذه التجارة. فهناك آثار لا تحصى من طين الأختام المستخدم في ختم الرسائل وعدد من مختلف الأدوات الأخرى المجلوبة من الشمال قد عثر عليها في كرمة وفي الحصون المصرية التي لم تهجر خلال العصر الوسيط الثاني، على عكس الاعتقاد الذي كان شائعاً، أو أنها هجرت في مرحلة متأخرة نسبياً ولفترة لم تطل. وبينما كانت الحاميات في عهد الدولة الوسطى تستبدل على فترات منتظمة، صار اولئك الذين يحتلونها خلال العصر الوسيط الثاني قاطنين مستديمين في النوبة، تستقر معهم أسرهم ويدفنون هناك. بل ان من المحتمل أنهم اتجهوا بالتدريج الى الاعتراف بسيادة ملك كوش. ولما كان هؤلاء من أصل مصري، فلا بد أنهم قد قاموا بالكثير لنشر ثقافتهم في سائر أرجاء المجتمع الذي أصبحوا أعضاء فيه.

ويلوح أن الصلات بين مملكة كوش الافريقية ومصر كانت على أوثقها خلال فترة حكم الهكسوس (من ١٦٥٠ الى ١٥٨٠ق. م.). فقد وجدت على طول الممر النوبي جعارين وأختام تحمل اسماء الملوك الآسيويين الذين كانوا يحكمون مصر آنذاك؛ وهي في كرمة نفسها من الكثرة بحيث دار في الحسبان فترة من الزمن أن النوبة قد اجتاحها الهكسوس بعد أن اخضعوا مصر العليا؛ ولكننا نعرف الآن أن هذا لم يحدث، وانما كان لأفارقة النيل الأوسط صلات وثيقة جداً مع آسيويي الدلتا، بحيث أنه عندما بدأ فراعنة الأسرة السابعة عشرة الطيبيون في استرداد مصر الوسطى والسفلى، تحول ملك الهكسوس بصورة طبيعية يطلب العون من حليفه الافريقي، مقترحاً عليه القيام بعمل عسكري مشترك ضد عدوهما المشترك فرعون مصر (انظر الفصل التاسع).

وعلى أي حال، فقد كانت العلاقات بين مصر العليا الطيبية وكوشيّي كرمة يشوبها العداء ويميزها التكامل في نفس الوقت. فمنذ ١٦٥٠ الى ١٥٨٠ ق. م. والطيبيون الذين في خدمة ملك كوش يحملون خبراتهم الفنية الى النوبة الوسطى؛ كما أن وجود الكثير من المصريين المرابطين في قلاع النوبة السفلى قد كفل ابقاء كوش على اتصال بالحكام الهكسوس في الشمال. يضاف الى ذلك أن آخر فراعنة الأسرة السابعة عشرة قد استخدموا المرتزقة الميجاو في جيوشهم، سواء في كفاحهم الداخلي من أجل توحيد مصر العليا أو في حربهم لطرد الهكسوس. وكان هؤلاء الجنود الأفارقة الذين جاؤوا من الصحراء النوبية ينتمون الى نفس العرق وعملياً الى نفس الثقافة التي ينتمي اليها النحسيو المستقرون على ضفاف النهر.

ومن ذلك يتبين أن النوبيين وجدوا في مصر وأن المصريين وجدوا في النوبة طوال العصر الوسيط الثاني، مما ساعد بالتأكيد على نشاط المبادلات التجارية والثقافية. وبالتدريج، تحول الممر النوبي الى بوتقة امتزجت فيها العناصر الافريقية وعناصر البحر المتوسط وانتجت ثقافة مختلطة. ولكن هذه الصلات الشديدة التوثق أسفرت عن نتائج خطيرة بالنسبة لتطور مملكة كوش الأولى في كرمة.

ذلك أن التحامسة فراعنة الأسرة الثامنة عشرة، ورثة وأحفاد اولئك الذين أعادوا توحيد مصر وطردوا منها الهكسوس الغزاة، قد أدركوا أن وجود مملكة افريقية موحدة على الجانب الآخر من حدود مصر الجنوبية أمر يمكن أن يمثل خطراً على مصر: فقد أوشك تحالف هكسوسي كوشي ان يقضي على مطامح طيبة قضاء مبرما. وفضلاً عن ذلك فقد كان الخطر الآسيوي لا يزال ماثلا، حتى بعد تقهقر الهكسوس الى فلسطين. ومن ثم فقد لجأت مصر من أجل حماية نفسها الى اتباع سياسة تدخل منهجي منظم في الشرق الأدنى.

وكانت موارد مصر الذاتية من المواد الخام ومن القوى البشرية دون ما في آسيا الصغرى من قوة كامنة، كما كشف عن ذلك التاريخ اللاحق. وكان فراعنة طيبة يدركون أن افريقيا جنوب سمنة تمتلك وفرة من المواد الخام والقوى البشرية اللتين تفتقر اليهما مصر، فآلوا على انفسهم ان يفرضوا سيطرتهم الكاملة على الممر النوبي باعتباره الوسيلة الوحيدة للوصول الى ذلك الجزء من إفريقيا الذي لا غنى لسياستهم الآسيوية عن موارده.

وكثيراً ما تردد أن الجيوش المصرية لم تتجشم كبير عناء في الهيمنة على الممر النوبي. ولكن هذا مخالف للواقع. فقد تعاقبت الحملات واحدة تلو الأخرى في عهد كل فرعون من فراعنة الدولة الحديثة، من أحمس الى سيتي الأول ورمسيس الثاني، قبل أن يكتب لهم النجاح.

ويبدو أن المقاومة النوبية اتخذت شكلين: أولهما الانتقاض المتكرر على سيطرة المصريين على البلاد، والثاني نوع من الاخلاء العام للأراضي، يهجر فيه السكان ديارهم فارين نحو الجنوب، مما أدى بالتدريج الى أن تقفر البلاد من أهلها، كما يتضح من تناقص عدد المدافن في كل من النوبة السفلى والعليا. وقد أدت هذه الحال الى اضطرار الفراعنة الى زيادة التوغل جنوباً على نحو مطرد من أجل الحصول على الموارد الافريقية التي كانت حيوية لسياستهم الرامية الى السيطرة على الشرق الأدنى.

وابان عهد تحتمس الأول كانت المنطقة بأسرها ما بين الجندلين الثاني والرابع قد فتحت، وأصبحت للمصريين وقتئذ سيطرة مباشرة على الدروب الصحراوية الى دارفور وكردفان وتشاد، إمّا من جزيرة صامي عن طريق واحة سليمة ووادي هور، أو من الدبة الحالية عن طريق وادي الملك. غير انه كان في استطاعتهم أيضاً أن يتقدموا نحو منطقة البحيرات الكبرى في إفريقيا اما بمجرد اتباع النيل من أبو حمد - اذ وجدت في هذه المنطقة نقوش حجرية تحتوي على خراطيش لتحتمس الأول وتحتمس الثالث - أو باجتياز صحراء البيوضة من كورتي للوصول ثانية الى المجرى الرئيسي للنيل عند الجندل الخامس عن طريق وادي المقدم ووادي أبو دوم. ويتميز هذا الطريق أولاً بقصره، وثانياً بأنه يتفادى مشاق رحلة الصعود في النيل من الجنوب الغربي الى الشمال الشرقي بين كورتي وأبو حمد، بالاضافة الى تفاديه لمصاعب عبور الجندلين الرابع والخامس.

فهل استفاد فراعنة الدولة الحديثة حقيقة من هذه الفرص النادرة للتوغل عميقاً داخل إفريقيا؟ الواقع أننا لا نستطيع التحقق من أنهم قد فعلوا ذلك. ولا بد لنا من أن نؤكد مرة اخرى انه لم يحدث مسح اثري دقيق لهذه المسالك التي تشمل الأودية الغربية (واديي هور والملك)، والنيل ما بين الجندلين الرابع والخامس، وصحراء البيوضة. ومع ذلك فإن ما يلاحظ من تغيير ملفت للنظر في تشخيص الزنوج المرسومين في اللوحات الجدارية في المقابر والمباني الأثرية ابتداء من عهد تحتمس الرابع (حوالى ١٤٥٠ق.م.) يوحي بأن هذه الدروب قد سلكتها بالفعل إما حملات مصرية أو وسطاء كانوا ينوبون عن المصريين أو يعملون لحسابهم.

فالأشكال الزنجية المرسومة في المدافن والآثار التاريخية الفرعونية تصور نمطاً بدنياً جديداً تماماً، يحمل أحياناً بعض شبه بأفراد القبائل النيلوتية الحالية من الشلوك والدنكا (مقبرة سبك - حتب)، أو بسكان كردفان وجبال نوبا في السودان الحديث.

ويلاحظ أن الدراسات الأنثروبولوجية القليلة الدقيقة للأقوام الذين واصلوا الاقامة في وادي النيل بين الجندلين الثاني والرابع على الرغم من الاحتلال الفرعوني لا تقدم أي دليل على حدوث تغييرات عرقية هامة في النوبة في ذلك الوقت. بل انها - على العكس من ذلك - تنبىء بأن النمط البدني للشعب القاطن في المنطقة ظل يبدي تواصلاً ملفتاً للنظر. ومعنى هذا أنه - الى أن نتوصل لمعرفة المزيد

- فإن في امكاننا أن نتقبل افتراض ان الزنوج الذين يظهرون في الرسوم الجدارية في الدولة الحديثة قد التقوا بالمصريين في بلادهم ؛ ويمكننا أن نستنتج من ذلك وجود صلات مباشرة، حتى ولو كان ذلك خلال حملات عسكرية قصيرة الأمد فحسب، ربطت بين المصريين والزنوج في قلب إفريقيا بين عامي ١٤٥٠ و١٢٠٠ق.م.

ان هذا العرض القصير قد اوضح أن دور الوساطة الخاص - وغير الارادي احياناً - الذي قامت به النوبة بحكم موقعها الجغرافي بين افريقيا الوسطى والبحر المتوسط كان قد تبلور واستقر بالفعل حوالى عام ١٨٠٠ق.م. كما يبرز هذا العرض أيضاً عدداً من السمات الثابتة - منها أنه كان من المهم لمصر أن تتمتع بمنفذ يوصلها الى الموارد الافريقية، وكذا اهتمام النوبة بالثقافات الشمالية - حيث أدت هذه العوامل الى نشأة تبادل متصل استمر بدرجات متفاوتة من الكثافة على مدى الحقب المتعاقبة بين عامي ١٢٠٠ق.م. و٧٠٠م.

أما مملكة نباتا (٨٠٠ الى ٣٠٠ق.م.) وامبراطورية مروى (٣٠٠ق.م. الى ٦٠٠م)، وحضارتا البلانة والقسطل (المجموعة س) (٣٠٠ق.م. الى ٦٠٠م) والممالك المسيحية التي نشأت بعد عام ٦٠٠م، فقد كانت كلها تعتبر النوبة حلقة وصل حيوية بين حضارات افريقيا الوسطى والبحر المتوسط. وقد اكتشف الفرس والاغريق والرومان والمسيحيون والمسلمون جميعاً - كما فعل الهكسوس من قبلهم - عالم افريقيا السوداء في النوبة، فتلاقت في مفترق الطرق هذا ثقافات شتى وتمازجت، مثلما فعلت منذ عام ٧٠٠٠ق.م. حتى عام ١٢٠٠ق.م.، حين اخذت تظهر الى الوجود شيئاً فشيئاً حضارة ذات ملامح نوبية في صميمها مشوبة بتأثيرات مصرية لا تخطئها العين.

وعن طريق النوبة، وجدت المصنوعات والتقنيات والأفكار طريقها من الشمال الى الجنوب، ومن الجنوب الى الشمال أيضاً دون شك. ومما يؤسف له - وهذا أمر لا بد من تأكيده مرة أخرى - أن رواية هذا التعامل المتبادل لن يتسنى سد ما بها من ثغرات قبل تمام الاستكشاف الدقيق لآثار الجنوب الافريقي الى خط عرض ٢٠ درجة شمالاً، حيث ان الرواية في الظروف الراهنة ناقصة الى حد كبير بل ومضللة، لأن دور الشمال كما هو واضح مبالغ فيه، لمجرد أننا لا نعرف عن الجنوب الا النزر اليسير.
وقد طرحت نظريات كثيرة حول انتشار اللغات والثقافات بين جانبي وادي النيل وبين شماله وجنوبه، ولكنها ستظل مجرد نظريات تفتقر الى الاثبات حتى تتوافر لدينا معرفة أكثر تفصيلاً بالثقافات «السوداء» التي وجدت منذ عام ٧٠٠٠ق.م. حتى عام ٧٠٠م في مناطق السدود النيلية وكردفان ودارفور وتشاد والمشارف الشرقية لاثيوبيا والمنطقة ما بين النيل والبحر الأحمر.

الفصل التاسع

النوبة قبل نباتا (٣١٠٠ الى ٧٥٠ق.م.)

بقلم
نجم الدين محمد شريف

فترة المجموعة (أ)

ازدهرت في حوالى أخريات الألف الرابعة قبل الميلاد ثقافة متميزة في النوبة، تعرف لدى علماء الآثار بثقافة المجموعة (أ)(١). وتبين الأدوات النحاسية (وهي أقدم أدوات معدنية اكتشفت في السودان حتى الآن) والفخار المصري الأصل التي عثر عليها في مقابر المجموعة (أ) أن ازدهار ثقافة هذه المجموعة كان معاصراً لعهد الأسرة الأولى في مصر (٣١٠٠ق.م.). أما الاشارة الى هذه الثقافة والى بعض الثقافات النوبية الأخرى بحرف هجائي فمرجعه الى أنها لم تعرف الكتابة، ولم يعثر على أي اشارات محددة اليها عند الشعوب التي عرفت الكتابة، كما لا يمكن الربط بينها وبين أي مكان اكتشاف محدد أو مركز هام قامت فيه. بيد أن الفترة كانت فترة رخاء يتميز بزيادة لا يستهان بها في عدد السكان.

وقد تم حتى الآن اكتشاف بقايا أثرية مؤكدة للمجموعة (أ) في النوبة بين الجندل الأول شمالاً وبطن الحجر جنوباً، وان كان قد عثر أيضاً على فخار مشابه لفخار المجموعة (أ) على السطح في مواقع شتى الى الجنوب من ذلك في شمال السودان. كما حوى قبر عثر عليه بالقرب من جسر أم درمان(٢) جرة لا تختلف في شيء عن جرة اخرى وجدت في قبر ينتمي للمجموعة (أ) عثر عليه عند فرس(٣).

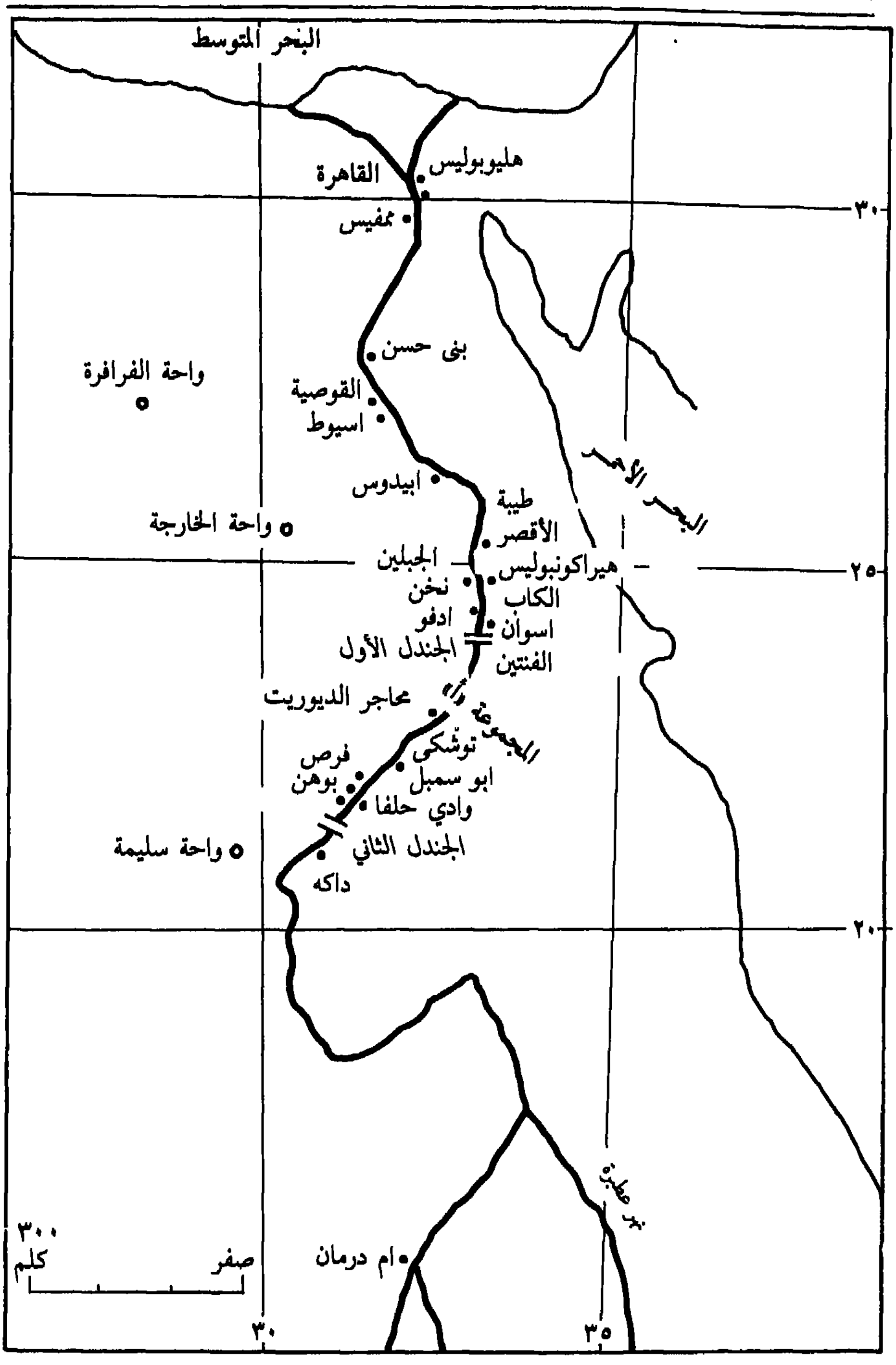
أما من الناحية الأثنية (التصنيف العرقي)، فإن أفراد المجموعة (أ) يتشابهون الى حد كبير في صفاتهم البدنية مع المصريين من عهد ما قبل الأسرات(٤). وكانوا شعباً شبه بدوي، ربما كان يرعى

(١) G.A. Reisner, 1910-1927.

(٢) A.J. Arkell, 1949, pp.99, 106 and plates 91-100.

(٣) F.L. Griffith, 1921, n. 8, pp. 1-13.

(٤) W.B. Emery, 1965. p. 124.


البحر المتوسط
هليوبوليس
القاهرة
ممفيس
بنى حسن
واحة الفرافرة
القوصية
اسيوط
ابيدوس
طيبة
الأقصر
واحة الخارجة
الجبلين
هيراكونبوليس
نخن
الكاب
ادفو
اسوان
الجندل الأول
الفنتين
البحر الأحمر
محاجر الديوريت
الجميعة
توشكى
فرص
بوهن
ابو سمبل
وادي حلفا
واحة سليمة
الجندل الثاني
داكه
٣٠
٢٥
٢٠
٣٠٠
كلم
صفر
ام درمان
نهر عطبرة
٣٠
٣٥
النوبة ومصر

الأغنام والماعز وبعض الماشية. وكانوا يعيشون عادة في مضارب صغيرة تنتقل من مكان الى مكان انتجاعاً للكلأ.

وتنتمي المجموعة (أ) الى ثقافة «العصر الحجري الحديث - النحاسي»، بمعنى أن هذه الثقافة تنتمي أساساً الى العصر الحجري الحديث، ولكن مع استخدام محدود للأدوات النحاسية المستوردة جميعها من مصر. ومن أهم السمات المميزة لثقافة المجموعة (أ) الأواني الفخارية التي عثر عليها في مقابر الأفراد الذين ينتمون اليها. ويمكن تمييز عدة أنماط من هذه الأواني، غير أن «السمة الملازمة لفخار المجموعة (أ) هو مهارة الصنعة وفنية التصميم والزخرفة، مما يضع هذا الفن الخزفي في مكانة لا تدانيها معظم الثقافات المعاصرة لها»[٥]. فمن مميزات ثقافة المجموعة (أ) فخارها الرقيق الناعم ذو الباطن المغلف بالسواد، بينما يحمل ظاهره زخرفة حمراء الطلاء على هيئة نسيج السلال المضفورة. والى جانب هذا النوع من الفخار توجد أيضاً جرار بصلية الشكل بقعر مدبب[٦] وحمالة ومقابض ذات «حواف متموجة»، وجرار مخروطية ذات لون وردي غامق مصرية الأصل[٧].

أما عن تقاليد الدفن لدى المجموعة (أ)، فثمة نمطان من القبور معروفان لدينا. النمط الأول حفرة بيضاوية بسيطة عمقها زهاء ٠,٨٠ - من المتر، والثاني حُفرة بيضاوية بعمق ١,٣٠ متر، بها قسم منخفض في جانب منها. وكان الجثمان يدرج في كفن من الجلد ويوضع في وضع منكمش على اليمين ورأسه متجه في العادة نحو الغرب. ويشمل القبر - بالاضافة الى الأواني الفخارية - أطباقاً حجرية على شكل صحاف بيضاوية أو ذات أضلاع متوازية ومراوح من ريش النعام، ومساحق رحى من المرمر، وفؤوساً ومثاقب نحاسية، والعصي المعقوفة (البومورانج)، وأساور من العظم، وأوثاناً أنثوية مصنوعة من الصلصال، وخرزات من الصدف والعقيق الأحمر وحجر الشيتيت.

نهاية المجموعة (أ)

يتجه الرأي الى أن المجموعة (أ) قد استمرت في النوبة حتى نهاية عهد الأسرة الثانية في مصر (٢٧٨٠ق. م.)، ثم أعقبتها فترة انحطاط وفقر ثقافي ملحوظ، دامت منذ بداية عهد الأسرة الفرعونية الثالثة (٢٧٨٠ق. م.) حتى الأسرة السادسة (٢٢٥٨ق. م.)، مما يعني انها كانت معاصرة لما يعرف في مصر بفترة الدولة القديمة[٨]. وقد أطلق علماء الآثار الأوائل الذين عملوا بالمنطقة على الثقافة الكائنة بالنوبة خلال تلك الفترة مصطلح «المجموعة ب»، وقالوا ان النوبة السفلى خلال فترة الدولة المصرية القديمة كانت تقطنها جماعة محلية متميزة تختلف عن المجموعة (أ)[٩] التي سبقتها. وعلى الرغم من أن بعض الباحثين[١٠] لا يزال يعتبر هذا الافتراض سلبياً[١١]، الا أن الباحثين الآخرين يرفضونه[١٢]. وأياً كانت الحال، فإن وجود المجموعة «ب» في حد ذاتها هو الآن أمر مشكوك فيه بصفة عامة[١٣].

---

(٥) B. Schönbäk, p. 43.
(٦) W.B. Emery, 1965, p. 125.
(٧) المرجع السابق، ص ١٢٥.
(٨) المرجع السابق، ص ١٢٤-١٢٧.
(٩) G.A. Reisner, 1910-27, pp.319-348.
(١٠) W.B. Emery, 1965. 127-129
(١١) B.G. Trigger, 1965. p.78.
(١٢) H.S. Smith, 1966. p. 118.
(١٣) F. Hintze, 1968.

فاستمرار سمات المجموعة (أ) في مقابر ما يسمى الآن بثقافة المجموعة «ب» يجعل من المحتمل أن تكون هذه ببساطة قبوراً لقوم من المجموعة (أ) أصابهم الفقر عندما اخذت ثقافتهم في الاضمحلال. وأما السمات الجديدة التي تلاحظ في المجموعة «ب» وتميزها من بعض النواحي عن سابقتها، فقد تكون نتيجة الاضمحلال العام والفقر. ويمكن تفسير سبب هذا الاضمحلال بالأنشطة العدائية المتكررة ضد النوبة من جانب مصر منذ توحيدها وتكوين دولة مركزية قوية فيها تحت عاهل واحد.

مصر في النوبة

بهرت النوبة قدماء المصريين منذ عصور باكرة لما فيها من ثروات الذهب والبخور والأبنوس والعاج والزيوت والحجارة شبه الكريمة وغيرها من سلع الرفاهية، فاستمروا يحاولون على الدوام فرض سيطرتهم على تجارة تلك البلاد ومواردها الاقتصادية[١٤]. من ذلك نرى أن تاريخ النوبة لا يكاد ينفصل عن تاريخ مصر. وهناك لوح أبنوس من أيام الملك حور-عحا، أول ملوك الأسرة المصرية الأولى، يبدو انه يشيد بنصر على النوبة[١٥]، وان كانت طبيعة ما قام به الملك ضد النوبيين على وجه الدقة لم تعرف بعد. ولعل الأمر كان مجرد تحرك عسكري قصد منه الملك تأمين حدوده الجنوبية عند الجندل الأول[١٦]. وهناك الآثار المصرية التي عثر عليها في فرس[١٧] في قبور المجموعة (أ) الراجعة الى عهدي «جر» و«وازيت (وادجي)»، الملكين الثالث والرابع في الأسرة الأولى، والتي تشير الى وجود اتصال بين البلدين حتى في ذلك العهد البعيد.

على أن أقدم تسجيل للفتوح المصرية في النوبة هو تلك الوثيقة البالغة الأهمية المعروضة حالياً في حديقة الآثار بمتحف السودان الوطني بالخرطوم. وهي تمثل منظراً كان محفوراً في الأصل على لوحة من الحجر الرملي على قمة مرتفع صغير يسمى جبل الشيخ سليمان، يقع على مسافة سبعة أميال تقريباً جنوب مدينة وادي حلفا على الضفة الغربية للنيل[١٨]. وترجع اللوحة الى عهد الملك «جر»، ثالث ملوك الأسرة الأولى المذكور آنفاً، ويسجل مشهدها معركة جرت في النيل، شنها الملك «جر» على النوبيين.

ويوجد في أقصى يمين المشهد المرسوم على اللوحة سفينة من طراز الأسرة الأولى، بمؤخرتها العمودية ومقدمتها العالية، تطفو تحتها كثير من الجثث، بينما يتدلى شخص (لعله زعيم نوبي) معلقاً من مقدمة السفينة. والى يسار هذا رسمان أشبه بالعجلتين، وهما الرمزان الهيروغليفيان اللذان يمثل كل منهما قرية تقسمها طرق، دلالة على مدينة. والى يسار رمزي المدينة نرى علامة التموجات التي ترمز الى المياه (وهو ما قد يعني أن منطقة الجندل كانت هي ميدان القتال). ثم نرى شكل رجل بذراعين مقيدتين خلف ظهره ممسكاً بقوس تسمى باللغة المصرية «سيتي» ويجسد «تا-سيتي»، أي أرض القوس، وهي النوبة. وخلف هذا الرجل يبدو اسم الملك «جر» على ما يحتمل أن يكون واجهة قصر[١٩].

(١٤) B.G. Trigger, 1965, p. 79.

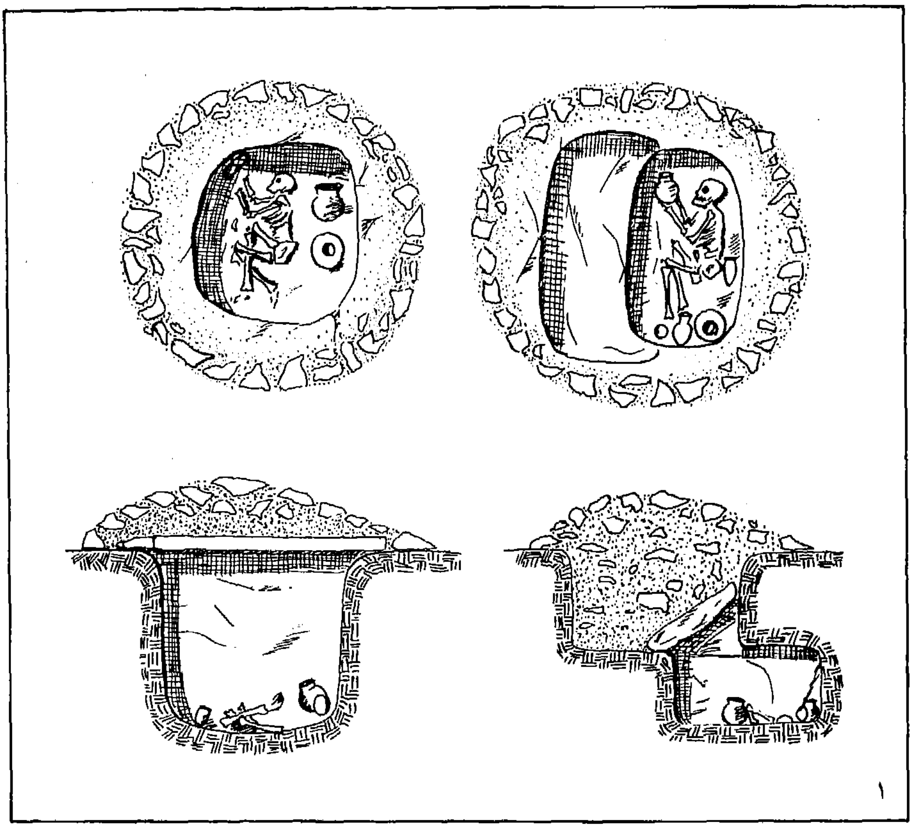
(١٥) W.M.F. Petrie, 1901, p. 20 and plates 1 and 2.

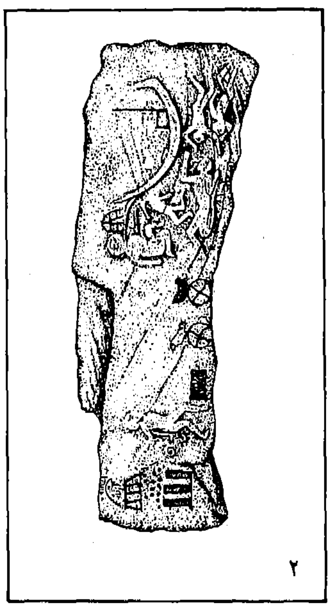
(١٦) T. Säve-Söderbergh, 1941.

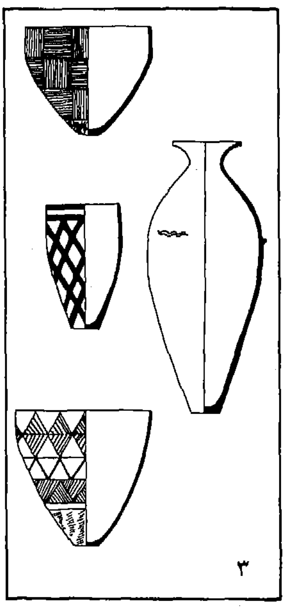
(١٧) F.L. Griffith, 1921. pp.1-18.

(١٨) A.J. Arkell, 1950. pp. 27-30.

(١٩) N.M. Sherif, 1971. pp. 17-18.







١ : أنماط الدفن لدى المجموعة «أ».

٢ : لوحة نقوش الملك «جر» (زر) بجبل الشيخ سليمان.

٣ : أنماط الأواني الفخارية للمجموعة «أ».

وهناك سجل آخر للأعمال العدائية المصرية في النوبة تمثله قطعة من الحجر المنقوش من بلدة هيراكونبوليس (الكوم الأحمر على الضفة اليسرى للنيل شمال ادفو) تظهر الملك خع - سخم من الأسرة الثانية راكعاً فوق أسير يمثل النوبة. على أن الاخضاع الفعلي للنوبة يبدو أنه حدث على عهد الملك سنفرو مؤسس الأسرة الرابعة. ويخبرنا حجر باليرمو(٢٠) بأن الملك سنفرو قد دمر «تا-نحسيو»، أي أرض النوبة(٢١)، وسبى ٧٠٠٠ أسير وغنم ٢٠٠٠٠٠ رأس من الماشية والأغنام.

ويبدو أن النوبيين تقبلوا السيادة المصرية على أثر العمليات العسكرية التي قام بها خع-سخم وسنفرو، لأن من الجلي ان المصريين لم يلاقوا صعوبة في استغلال ثروات النوبة المعدنية الكبيرة. فقد استغلت محاجر الديوريت الواقعة غرب توشكي لصنع التماثيل الملكية، وقامت بعثات متعاقبة بحفر نقوش الملك خوفو صاحب الهرم الأكبر بالجيزة، والملكين «ددف - رع» و«ساحورع» من الأسرة الخامسة (٢٥٦٣ق.م. الى ٢٤٢٣ق.م.)، على الصخور هناك. وقد لجأ المصريون الى استعمار النوبة لكي يتمكنوا من استغلال الثروات المعدنية في تلك البلاد التي فتحوها استغلالاً ناجعاً. وتبين الاكتشافات الأثرية الحديثة في «بوهن» - شمال الجندل الثاني مباشرة - وجود مستعمرة مصرية خالصة في بوهن خلال عهد الأسرتين الرابعة والخامسة. وكان من صناعات هذه المستعمرة المصرية تشغيل النحاس، كما تدل عليه أفران الصهر وبقايا خام النحاس فيها، مما يشير الى وجود خامات النحاس في مكان ما من المنطقة. وقد وجدت اسماء عدة ملوك من الأسرتين الرابعة والخامسة هناك على صحائف البردي وأختام الجرار(٢٢).

وبالاضافة الى ذلك فإن من المحتمل جداً ان المصريين قد بسطوا نفوذهم حتى على البلاد جنوب الجندل الثاني، على الأقل الى «داكة» زهاء ١٣٣ كيلومتراً جنوب بوهن. فهناك نقش يرجع الى الدولة القديمة اكتشف في «داكة» يبين أن المصريين كانوا يبحثون عن المعادن في ذلك المكان من النوبة(٢٣).

ويوجد تسجيلان للملك «مرنرع» اكتشفا عند الشلال الأول(٢٤) يمكن اعتبارهما مؤشراً على أن حدود مصر الجنوبية كانت عند أسوان خلال عهد الأسرة السادسة (٢٤٣٤ق.م. الى ٢٢٤٢ ق.م.)؛ الا أنه يبدو أن المصريين - حتى في ذلك الوقت - كان لهم نوع من النفوذ السياسي على القبائل النوبية، لأن هذين الأثرين يظهران أن الملك مرنرع جاء الى منطقة الجندل الأول لتلقي فروض الولاء من زعماء «المجاي» و«ارتيت» و«واوات»، وهي أماكن يفترض أنها كانت مناطق قبلية نوبية جنوب الجندل الأول.

وقد ساد السلام النوبة خلال عهد الأسرة السادسة، واتضحت للمصريين الأهمية الكبرى للامكانيات التجارية لتلك البلاد وقيمتها الكبيرة لرخاء بلادهم الاقتصادي، فكانت التجارة تسير على نظام حسن تحت اشراف الحاكم القدير لمنطقة أسوان، التي زادت أهميتها زيادة ضخمة، سواء كمركز تجاري بين الشمال والجنوب أو كنقطة رقابة على الحدود. وتسجل النقوش التي تحتويها مدافن حكام منطقة أسوان الواقعة على الضفة الغربية للنيل تجاه مدينة أسوان كثيراً من المعلومات الهامة التي تتيح للباحثين معرفة الأحوال السائدة في النوبة آنذاك، وهي تبين ان النوبة كانت على ما يبدو مقسمة الى عدد من المناطق التي يحكم كلا منها حاكم مستقل.

---

(٢٠) J.H. Breasted, 1906, Vol I. p. 146.

(٢١) A. Gardiner, 1961.

(٢٢) W.B. Emery, 1963, pp. 116-120.

(٢٣) F. Hintze, 1956, p. 14.

(٢٤) J.H. Breasted, 1906, Vol. I, pp. 317-318.

وأكثر نقوش هؤلاء النبلاء الأسوانيين ثراء بالمعلومات هي تلك التي تروي حياة حرخوف، قائد القوافل الشهير على عهدي الملكين مرنرع، وبيبي الثاني. فقد قاد أربع بعثات الى بلاد «يام»، وهي منطقة لم تكن قد حددت بعد، وان كانت تقع بالتأكيد جنوب الجندل الثاني. وقد تمت ثلاث(٢٥) من هذه البعثات خلال عهد الملك مرنرع، بينما تمت الرابعة في عهد الملك بيبي الثاني. وفي الرحلة الأولى اسندت الى حرخوف وأبيه مهمة «اكتشاف طريق الى يام»، حيث استغرق انجاز ذلك سبعة أشهر. أما الرحلة الثانية فقد قام بها حرخوف وحده واستمرت ثمانية أشهر، واتخذ فيها طريق الفنتين (الطريق الصحراوي الذي يبدأ على الضفة الغربية للنيل عند أسوان) ورجع عن طريق «ارتيت» و«ميخير» و«تيريريس». ويقرر حرخوف هنا بوضوح أن ديار «ارتيت» و«ستو» كانتا تحت هيمنة حاكم واحد. أما رحلته الثالثة فقد اتخذ فيها طريق الواحات، وعلم في أثنائها بأن زعيم «يام» قد سار الى ليبيا لفتحها، فتبعه الى تلك البلاد وتمكن من تهدئته. وقد عاد حرخوف من هذه الرحلة «بثلاثمائة حمار محملة بالبخور والأبنوس والزيت وجلود الفهود وسن الفيل وجذوع الأشجار وطرائف كثيرة اخرى». وعندما سار شمالاً عبر ديار «ارتيت» و«ستو» و«واوات» التي كانت قد توحدت في ذلك الوقت تحت زعيم واحد، كان في معيته حرس عسكري من بلاد «يام». وفي الرحلة الرابعة والأخيرة جلب حرخوف معه في العودة من بلاد «يام» قزماً راقصاً للملك اليافع بيبي الثاني، الذي سر به سروراً عظيماً.

غير أننا نعرف من مدفن «بيبي – نخت» – وهو حاكم آخر للفنتين تبوأ منصبه في عهد الملك بيبي الثاني – انه على الرغم من حسن العلاقات بصورة عامة بين المصريين والنوبيين (وهو أمر كان مربحاً لكليهما بالتأكيد) خلال عهد الأسرة السادسة، الا أن صفو السلام في النوبة كان يتعرض أحياناً للكدر تعرضاً خطيراً. ويبدو انه كانت هناك فترات قلاقل اضطرت فيها مصر أن تلجأ الى قوة السلاح. فقد أوفد «بيبي – نخت» ذات مرة «لتمزيق أوصال واوات وارتيت». ويمكن اعتبار أن مهمته قد نجحت، لأنه قتل عدداً كبيراً من النوبيين كما سبى الكثيرين منهم، ثم قام بحملة ثانية الى الجنوب بهدف «اشاعة السلام في تلك البلدان»، وتمكن في هذه المرة من الاتيان بزعيمين نوبيين الى البلاط المصري.

فترة المجموعة «ج»

قرب نهاية عهد الدولة المصرية القديمة(٢٦)، أو في زمن ما خلال تلك الفترة من التاريخ المصري التي يطلق عليها علماء الآثار المصرية اسم الفترة الوسيطة الأولى (من ٢٢٤٠ق.م. الى ٢١٥٠ق.م.)(٢٧)، ظهرت في النوبة السفلى ثقافة جديدة مستقلة (بأشياء متميزة مغايرة، وتقاليد دفن مختلفة عما قبلها) تعرف لدى علماء الآثار باسم ثقافة المجموعة (ج). وكانت هذه الثقافة تنتمي – مثل ثقافة المجموعة (أ) السابقة عليها – الى «ثقافة العصر الحجري الحديث – النحاسي». وقد استمرت في ذلك الجزء من وادي النيل حتى الوقت الذي تم فيه تمصير النوبة تمصيراً كاملاً في القرن السادس عشر قبل الميلاد. وكان الحد الشمالي لثقافة المجموعة «ج» عند قرية الكوبانية بحري في مصر(٢٨)،

(٢٥) المرجع السابق، المجلد الأول، الصفحات ٣٣٣ – ٣٣٥.
(٢٦) B.G. Trigger, 1965, p. 67.
(٢٧) A.J. Arkell, 1961, p. 46.
(٢٨) H. Junker, 1919-22, p. 35.

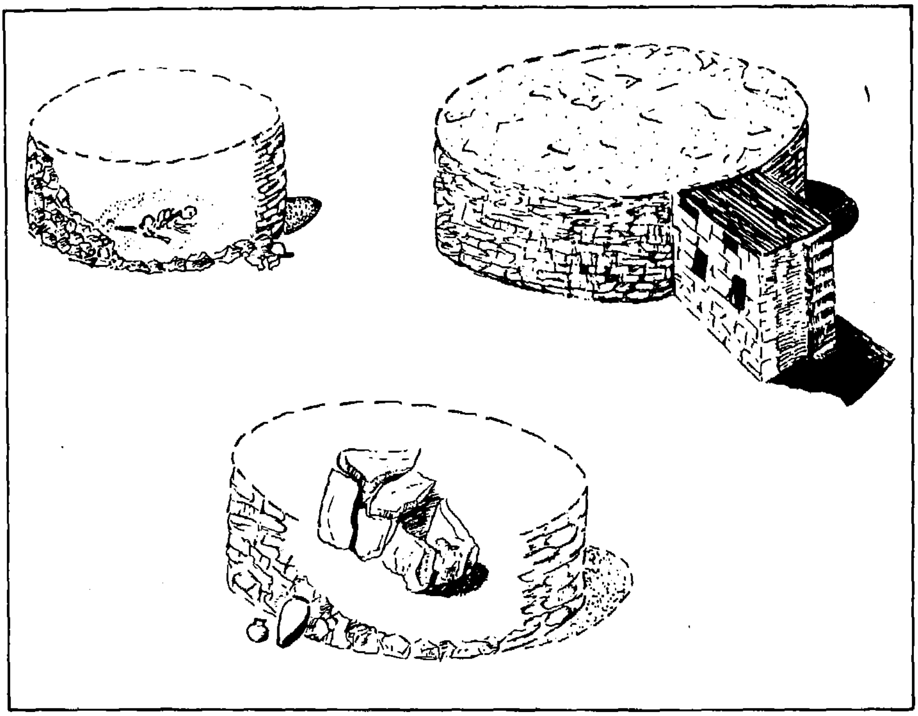
ولكن الحد الجنوبي لا يزال بلا تحديد على وجه الدقة، وان وجدت بعض بقايا من هذه الثقافة حتى بلدة عكاشة في الطرف الجنوبي لمنطقة الجندل الثاني، وهو ما يجعل من المحتمل أن يكون الحد الجنوبي لثقافة المجموعة «ج» في مكان ما من منطقة بطن الحجر.

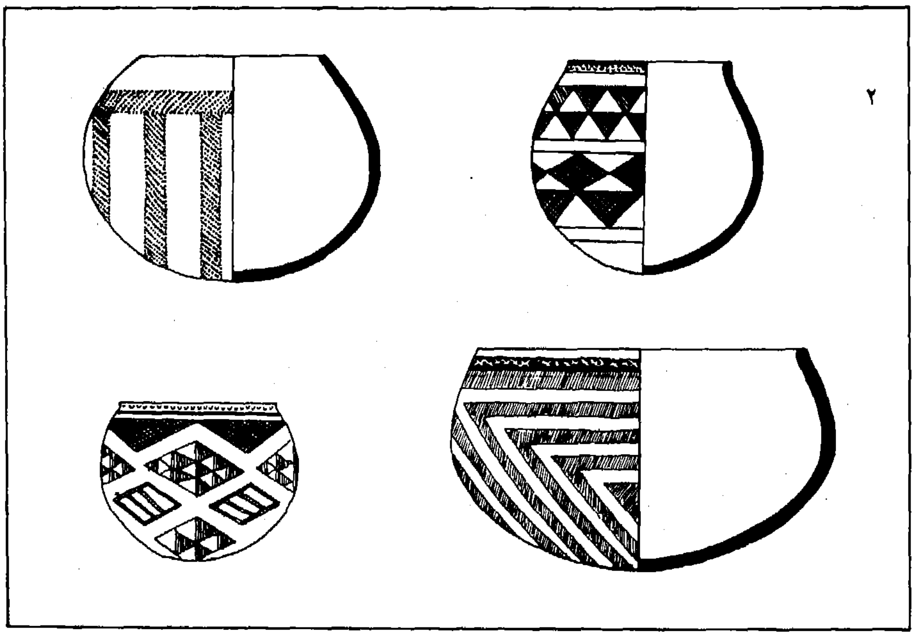
ولا يعرف شيء بالتحديد حتى الآن عن منشأ ثقافة المجموعة «ج» ولا عن الجماعة الاثنية التي كانت تنتمي اليها، مما حدا بعلماء الآثار الى تقديم افتراضات نظرية متعددة بسبب انعدام أية أدلة جوهرية في هذا الصدد(٢٩). وتشير احدى هذه النظريات الى أن هذه الثقافة قد تكون استمراراً لسابقتها ثقافة المجموعة «أ»، نظراً لما كان بينهما من ارتباط(٣٠). وترى نظرية أخرى ان هذه الثقافة وليدة مؤثرات دخلت الى النوبة مع وفود قوم جدد. ويختلف مؤيدو هذه النظرية فيما بينهم حول قضية تحديد الموطن الذي جاء منه هؤلاء الوافدون الجدد. وقد استعين بالبيانات الثقافية والتشريحية لدعم مختلف الحجج. فالبعض يرى أن هؤلاء الوافدين هاجروا الى النوبة السفلى من الصحراء الشرقية أو منطقة نهر العطبرة(٣١). وآخرون يعتقدون انهم نزحوا من الغرب، وخاصة من ليبيا(٣٢). وترفض نظرية حديثة افتراض الهجرة، وترى أن ثقافة المجموعة «ج» هي حصيلة تطور ثقافي. وعلى أية حال فإن هناك الكثير مما يجب استكشافه أثرياً في المناطق المعنية، وما لم يجر بحث علمي واسع النطاق هناك، فستظل هذه النظريات مجرد افتراضات وحسب.

ويبدو واضحاً ان المجموعة «ج» كانت قوماً من رعاة الماشية أساساً، عاشوا في مضارب صغيرة أو استقروا أحياناً في قرى. وقد كانت المساكن التي اكتشفت في منطقة وادي حلفا على طرازين: أولهما ذو غرف مستديرة، جدرانها مبنية بحجارة مطلية بالطين؛ اما الطراز الثاني فله غرف مربعة مبنية باللبن(٣٣). وتستنبط الصفات الأساسية المميزة لأعضاء المجموعة «ج» من العدد الكبير من رسوم الماشية التي تركوها على صفحة الصخور ومن موضع الصدارة الذي كانت تحتله الماشية في مراسم الدفن لديهم.

وتتميز أقدم المدافن عهداً في ثقافة المجموعة «ج» بأنها هياكل فوقية صغيرة من الحجارة الصغيرة تعلو حفراً مستديرة أو بيضاوية الشكل. وكان الجثمان يوضع نصف مضموم على جانبه الأيمن وقد اتجه رأسه الى الشرق ووضعت تحته في كثير من الأحيان وسادة من القش. وكان الجسم يلف غالباً في رداء من الجلد. ثم أعقب هذا النمط من المدافن نمط آخر يتألف من هيكل فوقي كبير من الحجر يعلو حفرة مستطيلة، زواياها مستديرة في الغالب ومبطنة في بعض الأحيان بشرائح من الحجر. وهناك نمط ثالث أحدث عهداً يوجد أيضاً في مدافن المجموعة «ج»، يحتوي على مكان للعبادة من القرميد يبنى غالباً لصق الجانب الشمالي او الشرقي من الهيكل الفوقي. وكان الاتجاه الشائع للدفن من الشمال الى الجنوب، كما كانت تدفن في المقبرة بعض الحيوانات، وأحياناً توضع جماجم الثيران أو الماعز المزخرفة باللونين الأسود والأحمر حول الهيكل العلوي للمقبرة. وتتكون محتويات المقبرة من أشكال مختلفة من الأواني الفخارية، وأساور من الحجر والعظم والعاج، وأقراط من المحار، وخرز من العظم او

(٢٩) M. Bietak, 1961-65, pp. 1-82.
(٣٠) G.A. Reisner, 1910-27, p. 333.
(٣١) C.M. Frith, pp. 11-12.
(٣٢) W.B. Emery and L.P. Kirwan, 1935, p. 4.
(٣٣) T. Säve-Söderbergh, 1965, p. 48.





١ : مدافن من النمط المميز للمجموعة «ج»
٢ : أنماط الأواني الفخارية للمجموعة «ج»

القيشاني، ونعال جلدية، وأقراص صدفية مما يعلق حول الزند، وجعارين مصرية. كما توجد أحياناً في مقابر المجموعة «ج» مرايا برونزية وأسلحة (خناجر وسيوف قصيرة وبلط قتال)[٣٤].

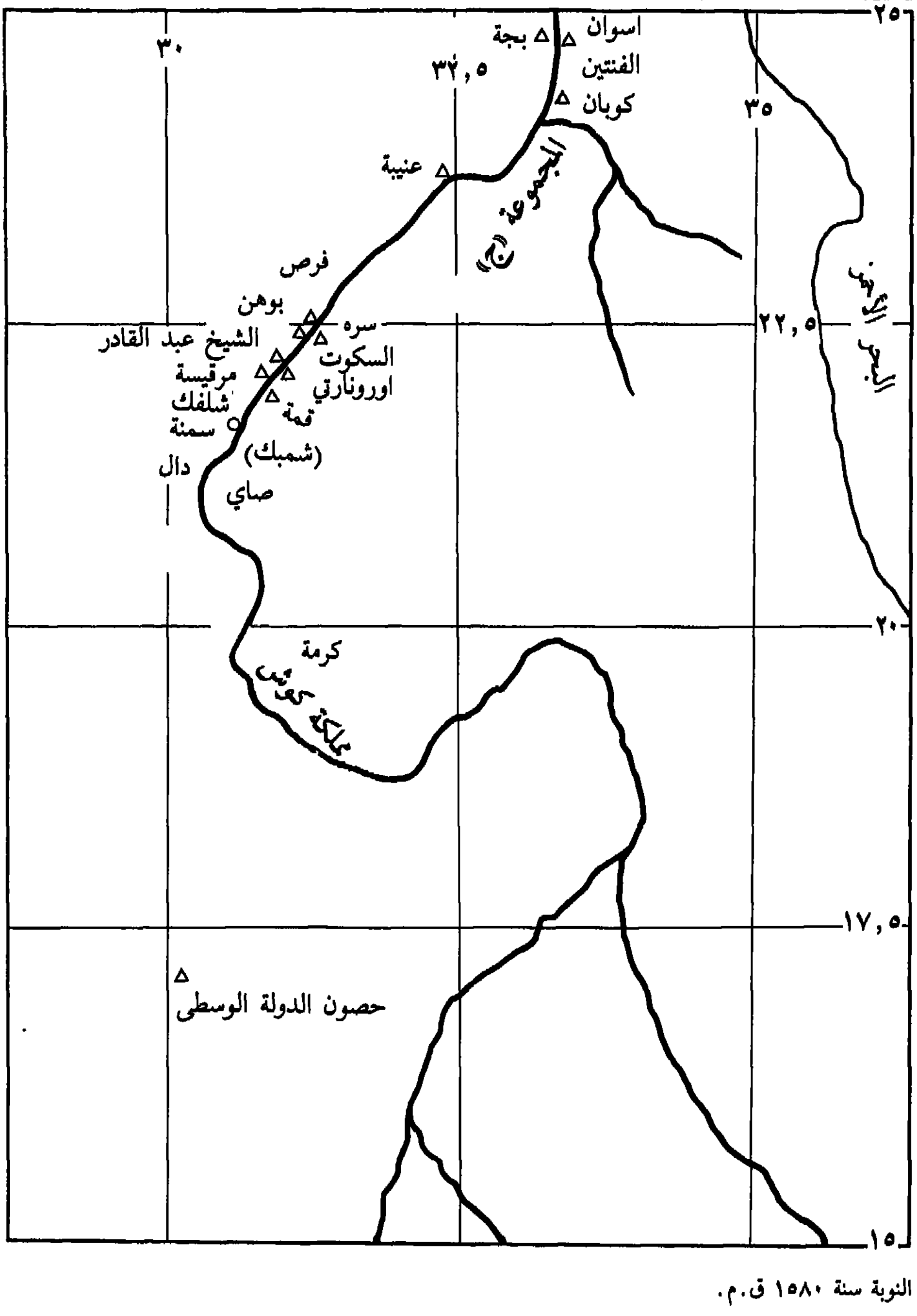
وعلى الرغم من تزايد الصلات مع مصر، فقد استمرت ثقافة المجموعة «ج» تتطور في اتجاهها الخاص دون ان تأخذ عن مصر لا تكنولوجيتها ولا عقائدها الدينية ولا الكتابة. وتعتبر الأواني الفخارية التي انتجتها هذه الثقافة من أهم سماتها، وهي مصنوعة باليد وعادة ما تكون في شكل أوعية يغلب أن تكون مزخرفة بأشكال هندسية مضغوطة او محفورة، وغالباً ما تكون مملوءة بصبغة بيضاء. ومن الأدوات الحجرية النمطية للمجموعة «ج» الأداة القاطعة المصقولة المصنوعة من الحجر الأخضر (النفريت).

الدولة الوسطى

وضع حكام الدولة الوسطى في مصر حداً للفتن الداخلية في بلادهم ووحدوها تحت سطوتهم، ثم وجهوا اهتمامهم الى البلاد الواقعة في جنوب مصر، أي النوبة. وقد بدأ هذا التحرك في عهد ملوك الأسرة الحادية عشرة الطيبية. فعلى شظية من لوحة في معبد جبلين في مصر العليا يبدو الملك منتوحتب الثاني وهو يضرب أعداءه، الذين نلاحظ من بينهم نوبيين. ويشير نقش صخري لمنتوحتب الثالث عند الجندل الأول الى حملة «بالسفن الى واوات»، التي تصلها عن طريق النيل من شلال وادي حلفا. وتوجد بالاضافة الى هذا اشارات تجعل من المحتمل أن يكون مصريو الأسرة الحادية عشرة قد احتلوا النوبة جنوباً حتى وادي حلفا. فهناك على سبيل المثال عدة كتابات على تلين في غرب وشمال قرية عبد القادر على الضفة الغربية للنيل جنوب الجندل الثاني مباشرة، تذكر فيها أسماء «أنتف» و«منتوحتب» و«سبك-حتب» (وهي أسماء شائعة في الأسرة الحادية عشرة)، وتتعلق بقطع الأحجار والصيد والعمل الكتابي[٣٥]. على أنه أياً كان الوضع في النوبة خلال عهد الأسرة الحادية عشرة، فإن الأسرة الثانية عشرة (١٩٩١ق.م. - ١٧٨٦ق.م.) هي التي جرى في عهدها الاحتلال الفعلي للنوبة حتى سمنة، حيث تم هناك تثبيت الحدود الجنوبية بحزم. وفي ذلك الموضع أقام سنوسرت الثالث - خامس ملوك الأسرة - لوحته الشهيرة لكي تكون علامة لا تحتمل الخطأ على موضع الحدود. وتحظر اللوحة على أي نوبي أن يجتاز الى الشمال «أسفل المجرى أو براً أو بزورق، كما تحظر اللوحة ذلك أيضاً على أي قطعان للنوبيين، ما عدا الذين يأتون للمتاجرة في ايكن أو لأي تعامل نافع يمكن أن يجري معهم»[٣٦]. ومن المعروف الآن أن «ايكن» هي حصن «مرقيسة» الذي يقع على مسافة أربعين كيلومتراً تقريباً شمال حصن «سمنة»[٣٧].

وتشير عدة قرائن الى ان الاحتلال الدائم لهذا الجزء من النوبة قد بدأه أمنمحات الأول، مؤسس الأسرة الثانية عشرة، الذي يعتقد أنه ينتمي جزئياً الى أصل نوبي. ويستنتج هذا الأصل النوبي للملك امنمحات من بردية محفوظة الآن بمتحف لينينجراد، مرماها الأوحد هو اضفاء الشرعية على تبوئه عرش

(٣٤) المرجع السابق.
(٣٥) A.J. Arkell, 1961, pp. 56 and 58-59.
(٣٦) A. Gardiner, 1961, p. 135.
(٣٧) J. Vercoutter, 1964, p. 62.



النوبة سنة ١٥٨٠ ق.م.

مصر. فطبقاً لما تذكره هذه البردية، دعا الملك سنفرو مؤسس الأسرة الرابعة كاهناً ليروح عنه. وحين سأله الملك عن المستقبل، تنبأ الكاهن بحقبة شظف وبؤس تصيب مصر، وتنتهي عندما «يأتي ملك ينتمي للجنوب أسمه أميني، وهو ابن امرأة من تا-سيتي (النوبة)» واسم أميني هو اختصار لاسم امنمحات(٣٨). وهناك نقش صخري وجد بالقرب من كروسكو في النوبة السفلى ويرجع الى السنة التاسعة والعشرين من حكم أمنمحات، يذكر أن قواته وصلت كروسكو «للاطاحة بواوات». وفي التعاليم التي خلفها أمنمحات لابنه نسمعه يقول: «لقد استوليت على شعب واوات واستأسرت شعب المجاو»(٣٩). وهناك أيضاً نقوش لنفس هذا الملك في غرب أبو سمبل تبين أعمال قطع الأحجار في النوبة السفلى خلال الجزء الأخير من عهده.

وقد تم احتلال النوبة - الذي بدأ في عهد امنمحات الأول - على يد ابنه وخلفه سنوسرت الأول(٤٠). وهناك حجر ضخم منقوش أقامه في بوهن في السنة الثامنة عشرة من عهد سنوسرت الأول ضابط اسمه منتوحتب، يبين إله الحرب الطيبي منتو وهو يقدم للملك صفاً من أسرى الحرب المقيدين، الذين ينتمون الى عشرة مواضع من النوبة، وقد ذكر اسم كل موضع داخل اطار بيضاوي تحت رأس وكتفي الأسير الذي يمثل أهل ذلك الموضع ومن بين الأراضي المفتوحة المذكورة على هذا اللوح من الحجر الرملي: «كوش» و«شعات» و«شميك». وشعات هي جزيرة صاي الحالية(٤١)، التي تقع على مسافة ١٩٠ كيلومتراً تقريباً الى الجنوب من بوهن، أما «شميك» فإن هناك نقشاً اكتشف حديثاً يشير الى أنها هي منطقة شلال دال، الحالة، التي تقع على مسافة اربعين كيلومتراً أسفل النهر (الى الشمال) من جزيرة صاي.

أما «كوش»، التي لم يلبث المصريون أن استخدموا اسمها للدلالة على بلاد جنوبية واسعة، فقد كانت في الأصل منطقة نوبية محدودة ورد ذكرها لأول مرة في عهد الدولة الوسطى(٤٢) واذا كانت لوحة بوهن تعدد اسماء الأماكن من الشمال الى الجنوب جرياً على ما اتبعته وثائق معروفة اخرى من نفس الفترة(٤٣)، فإن موقع كوش عندئذ لا يكون شمال شعات وحسب، بل وشمال شميك أيضاً. ونحن نعرف الآن ان الأخيرة هي جزيرة دال او منطقة شلال دال الواقعة شمال جزيرة صاي؛ وعلى ذلك فبإمكاننا أن نطمئن الى تحديد موضع كوش في مكان ما يقع الى الشمال من دال والى الجنوب من الجندل الثاني أوسمنة(٤٤).

والاشارة الثانية الى الانتصار الذي أحرزه سنوسرت الأول على النوبة، والذي اتاح لفراعنة الأسرة الثانية عشرة السيطرة التامة على البلاد شمال سمنة، يقدمها نقش عثر عليه في مقبرة أميني، حاكم بني حسن في مصر. ويخبرنا هذا النقش بأن أميني أبحر جنوباً في معية الملك نفسه «واجتاز الى ما وراء كوش ووصل الى آخر الأرض»(٤٥).

---

(٣٨) A. Gardiner, 1961, p. 126.
(٣٩) J.H. Breasted, 1906, Vol.I, p. 483.
(٤٠) A.J. Arkell, 1961, pp. 59-60.
(٤١) J. Vercoutter, 1958, pp. 147-148.
(٤٢) G. Posener, 1958, p. 47.
(٤٣) المرجع السابق، ص ٦٠.
(٤٤) المرجع السابق، ص ٥٠.
(٤٥) A.H. Gardiner, 1961, p.134.

أما الأسباب التي حفزت المصريين الى احتلال جزء من النوبة فقد كانت اقتصادية ودفاعية معاً. فمن الناحية الاقتصادية كانوا يريدون من جهة تأمين الجلود والعاج والأبنوس، ومن جهة اخرى استغلال ثروات النوبة المعدنية[٤٦]. ثم كانت سلامة بلادهم تستوجب الدفاع عن حدودها الجنوبية ضد النوبيين وسكان الصحراء الى الشرق منهم؛ وكانت الاستراتيجية التي اتبعت هي الاحتفاظ بمنطقة عازلة بين حدود مصر ذاتها في منطقة الجندل الأول والبلاد الواقعة جنوب سمنة، والتي كانت تمثل مصدر الخطر الحقيقي لهم، وذلك بهدف السيطرة على حركة المرور فوق النيل واجتثاث أي خطر يهدد بلادهم من كوش.

وتتجلى الطبيعة الدفاعية للاحتلال المصري للنوبة خلال فترة الدولة الوسطى بوضوح من عدد الحصون التي اضطر ملوك الأسرة الثانية عشرة الى بنائها في المنطقة المحتلة ومن قوتها.

وهناك بردية من أواخر عهد الدولة الوسطى - اكتشفت في مدفن بالقرب من الرمسيوم في الأقصر[٤٧] تذكر أسماء ١٧ حصناً في النوبة بين سمنة في الجنوب ومنطقة الشلال في الشمال. وتنقسم تلك الحصون الى قسمين، تلك التي تقع شمال الجندل الثاني، وكان يقصد منها احكام القبضة على السكان المحليين[٤٨]، أي شعب المجموعة «جـ» وتلك التي بنيت على مواقع مرتفعة بين الجندل الثاني وسمنة لحماية السفن التي تجنح في المياه الضحلة والدفاع عن الحدود[٤٩]. أما من حيث أن تلك الحصون قد بنيت لأغراض دفاعية، فإن ذلك يتضح جلياً من الأسماء التي اطلقت عليها، مثل «صد القبائل» و«قمع . . .» و«الجام الصحراء» و«صدّ الاينو» و«رد المزايو»[٥٠].

وتتبين قوة هذه الحصون ومدى الجهد الذي بذل لجعلها منيعة من نموذج حصن بوهن، وهو من أفضل الحصون التي قاومت البلى وصمدت للزمن في النوبة قبل أن تغمرها مياه السد العالي الجديد بأسوان. فقد كانت تلك القلعة الجبارة من قلاع الدولة الوسطى تتألف من سلسلة معقدة من تحصينات داخل تحصينات، مبنية على شكل مستطيل طول أضلاعه ١٧٢ متراً في ١٦٠ متراً[٥١]. ويتكون نظامها الدفاعي من سور من الآجر سمكه ٤,٨ أمتار وارتفاعه ١٠ أمتار على الأقل، وله أبراج، على مسافات منتظمة. وفي أسفل هذا السور الرئيسي متراس مرصوف بالآجر تحميه سلسلة معاقل مستديرة بها صفوف مزدوجة من فتحات الرمي (المزاغل). ويحيط بالقلعة كلها خندق جاف محفور في الأرض الصخرية الصلدة بعمق ٦,٥ أمتار. وكان عرض هذا الخندق ٨,٤٠ أمتار وقد أعليت حافته البعيدة عن القلعة بسور من الآجر. وهناك بوابتان في الجانب الشرقي المواجه للنيل وبوابة ثالثة منيعة التحصين في الجانب الغربي المواجه للصحراء.

وبعد انهيار الدولة الوسطى وغزو الهكسوس (القبائل الآسيوية) فقد المصريون سيطرتهم على النوبة، فنهب الأهالي الحصون وأحرقوها، اذ أنهم انتهزوا فيما يبدو فرصة انهيار الحكومة المركزية في مصر لاسترداد استقلالهم.

(٤٦) B.G. Trigger, 1965, p. 94.
(٤٧) W.B. Emery, 1965, p. 143.
(٤٨) A.H. Gardiner, 1961, p. 135.
(٤٩) A.J. Arkell, 1961, p. 61.
(٥٠) A.H. Gardiner, 1961, p. 135.
(٥١) W.B. Emery, 1960, pp. 7-8

كرمة (١٧٣٠ق.م. الى ١٥٨٠ق.م.)

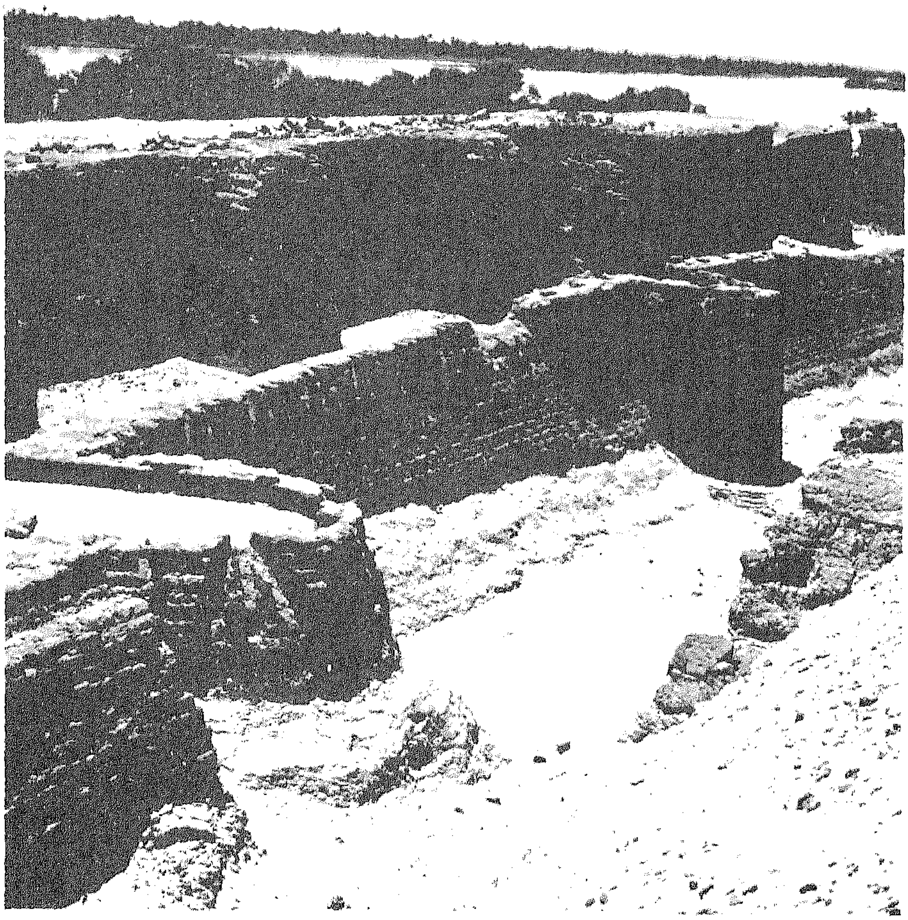
لاحظنا آنفاً أن الحد الجنوبي للدولة الوسطى المصرية قد ثبّته سنوسرت الثالث عند سمنة بما لا خلاف حوله. بيد أن الحفريات الهامة التي قام بها عالم الآثار الأمريكي ج. أ. ريزنر بين عامي ١٩١٣ و١٩١٦ في كرمة، التي تقع فوق الجندل الثالث - أي جنوبه - بمسافة قصيرة، وعلى بعد ٢٤٠ كيلومتراً - في خط مستقيم - الى الجنوب من سمنة - هذه الحفريات قد كشفت عما أصبح يعرف باسم «ثقافة كرمة»، التي ظلت منذ ذلك الحين موضعاً للتفسيرات المتضاربة من جانب الباحثين.

ويحتوي موقع كرمة القديم على صرحين متميزين يعرفان محلياً باسمي «الدفوفة الغربية» و«الدفوفة الشرقية». وأول هذين الصرحين عبارة عن كتلة متماسكة من الطوب اللبني، على حين أن الثاني معبد جنائزي، من الطوب اللبني أيضاً، ومحاط بجبانة واسعة من القبور المقببة. وكلا البناءين نموذج مميز لمنشآت الدولة الوسطى. وقد وجد ريزنر في الدفوفة الغربية شظايا من زهريات مرمرية مهشمة عليها خراطيش الملكين بيبي الأول وبيبي الثاني من الأسرة السادسة، وخراطيش الملكين امنمحات الأول وسنوسرت الأول من الأسرة الثانية عشرة. وبجانب الدفوفة الشرقية ازيح التراب عن حجر منقوش يروي أن «أنتف» - الرفيق الوحيد للملك، قد اوفد لاصلاح مبنى في «اينيبو». ويستخدم النقش كلمة «امنمحات ماع خيرو»، التي تعني «جدران امنمحات المحق». وفي تل للدفن قريب من هذا المعبد الجنائزي وجد الجزء الأسفل من تمثال للحاكم «حابي - زيفا» (أمير أسيوط بمصر الذي عثر على مدفنه هناك)، وتمثال لزوجته «سنيوى»، وشظايا من تماثيل أخرى لموظفين وملوك. وعلى ضوء هذه المكتشفات استنتج ريزنر[٥٢] ما يلي: (أ) أن الجدران التي تحت الدفوفة الغربية تخص محطة تجارية من عهد الدولة الوسطى؛ (ب) أن الدفوفة الغربية كانت في عهد الدولة الوسطى آخر المعاقل الجنوبية في سلسلة الحصون التي بناها المصريون بين أسوان وكرمة لتأمين مصالحهم في النوبة؛ (جـ) أن كرمة كانت مقر الحكام العامين المصريين، الذين ربما كان أولهم هو «حابي - زيفا»؛ (د) أن الحكام العامين المصريين كانوا يدفنون في المقبرة بالقرب من الدفوفة الشرقية بطريقة غير مصرية؛ (هـ) أنه حين غزا الهكسوس مصر حطم النوبيون المعقل الحصين في كرمة.

وكان «يونكر»[٥٣] هو أول من اعترض على تفسير ريزنر للقرائن الأثرية المكتشفة في كرمة. فالدفوفة الغربية أصغر من أن تكون حصناً، كما أنها معزولة على نحو خطر، نظراً لوقوعها على بعد ٤٠٠ كيلومتر من أقرب حصن مصري في سمنة. وعلاوة على ذلك، فإن المواد الخام التي عثر عليها في الغرف المختلفة، مثل الجرافيت وأكسيد النحاس وحجر الدم (الهيمتيت) والميكا والراتنج والبلور الصخري والعقيق الأحمر وبيض النعام، ترجح أن الدفوفة الغربية كانت محطة تجارية محصنة وليست مركزاً ادارياً.

اما الجبانة، فإن رأي ريزنر القائل بأنها كانت مدفن الحكام المصريين لا يقوم الا على سند واحد فحسب، هو اكتشاف تمثالي حابي-زيفا وزوجته في احد التلال الكبيرة المستخدمة للدفن بتلك المدافن. غير أن نمط الدفن في تلك القبور الكبيرة في كرمة كانت نوبية تماماً، اذ ان الجثث لم تكن تحنط وكان الميت يدفن على سرير مع زوجاته واطفاله وخدمه في نفس القبر. واذا وضعنا في اعتبارنا أن هذه

(٥٢) G.A. Reisner, 1923, 1923a.
(٥٣) H. Junker, 1921.



التحصينات الغربية في حصن بوهن من عهد الدولة الوسطى

القبور ليست مصرية لا في طريقة بنائها ولا في طريقة الدفن، وان المصريين كانوا يفزعون من دفنهم في الخارج أساساً لكيلا تفوتهم طقوس الدفن السليمة، فإن من العسير بصفة خاصة أن نصدق أن شخصاً في مثل مكانة حابي-زيفا الاجتماعية والسياسية يمكن أن يدفن في أرض أجنبية بطريقة مجافية كلياً للمعتقدات الدينية المصرية. وفضلاً عن ذلك فقد عثر بين الأشياء التي وجدت في رمس حابي - زيفا المزعوم على عديد من محتويات القبر التي ترجع بلا جدال الى الفترة الوسيطة الثانية او فترة الهكسوس(٥٤). ومن هذا استنتج سيف - سودربيرج وآركيل(٥٥) أن التماثيل التي وجدت في هذا القبر قد قايضها التجار المصريون بسلع نوبية من الامراء المحليين في كرمة خلال الفترة الوسيطة الثانية.

وعلى ذلك فقد رفضت بصورة عامة نظرية ريزنر عن الدفوفة الغربية والمقبرة التي حول الدفوفة الشرقية. واتجه معظم الباحثين بدلاً من ذلك الى اعتناق الرأي القائل بأن الدفوفة الغربية لم تكن سوى محطة تجارية مصرية، وأن الجبانة هي مدفن للأمراء المحليين.

على أن هنتزا في تمحيصه لمختلف النظريات المطروحة حول معضل كرمة، يرى أنها «حوت تناقضات داخلية تجعل صحتها أمراً مشكوكاً فيه»(٥٦). فهو يلاحظ أولاً ان حجج يونكر التي يستند اليها في رفض تفسير ريزنر تصلح أيضاً لدحض افتراض يونكر نفسه القائل بأن الدفوفة الغربية كانت محطة تجارية محصنة. ويرى هنتزا أيضاً أن من غير المحتمل أن توجد محطة تجارية مصرية محصنة في هذا الجزء من النوبة في ذلك الوقت، ولا سيما اذا اعتبرت كرمة المقر السياسي لكوش (كما يرى بعض معارضي ريزنر)(٥٧) التي كانت العدو التقليدي لمصر خلال عهد الدولة الوسطى. وبما أن جميع الباحثين الذين محص هنتزا آراءهم يتفقون على أن الجبانة نوبية وأن الدفوفة الشرقية هي معبد جنائزي ملحق بها، فإنه يبرز أن من غير المحتمل أن يوفد الفرعون موظفاً مصرياً الى «كوش الشريرة» لترميم معبد خاص بجبانة نوبية. وأخيراً فإن هنتزا يؤكد ما سبق أن أبرزه سيف - سودربيرج، وهو أن تاريخ الجبانة يرجع الى الفترة الوسيطة الثانية، أي أنها أحدث عهداً من الدفوفة الغربية، ومن ثم فإن الحكام الذين كانوا يقيمون في الدفوفة الغربية - حسبما هو مفترض - في عهد الدولة الوسطى لا يمكن أن يكونوا قد دفنوا في الدفوفة الشرقية.

كل هذه الاعتبارات جعلت هنتزا يتخلى نهائياً عن «فكرة المحطة التجارية المصرية» في كرمة. وهو يرى أن كرمة هي، ببساطة «مركز ثقافة نوبية وطنية ومقر أسرة حاكمة محلية». فالدفوفة الغربية كانت مقر الحاكم الوطني لكوش، وقد دمرتها القوات المصرية في مستهل عهد الدولة الحديثة.

وهذه نظرية بسيطة تبدو أقرب الى الحقيقة، ولا سيما فيما يخص الأدلة المستمدة من الجبانة. فتاريخ الاشياء المكتشفة في القبور، وطريقة تشييد تلك القبور، وطقوس الدفن، كلها توضح بجلاء أن القبور لم تشيد لدفن الحكام العامين المصريين في عهد الدولة الوسطى. غير أن الحاجة لا تزال قائمة الى أدلة جوهرية تثبت أن الدفوفة الغربية كانت مقر الحاكم الوطني لكوش. فوجود محطة تجارية مصرية عادية في كرمة خلال عهد الدولة الوسطى أمر لا يمكن استبعاده بالسهولة التي يقول بها هنتزا. فالموقع الذي حفره ريزنر هو الموقع الوحيد الذي تم فحصه حتى الآن في منطقة دنقلة؛ بل انه حتى هذا الموقع الوحيد

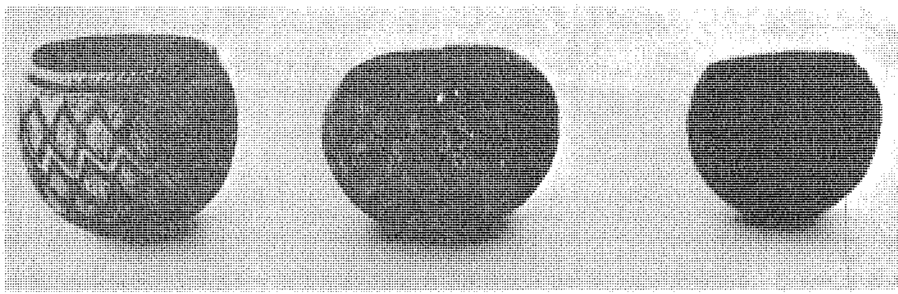
---

(٥٤) T. Säve-Söderbergh, 1941.

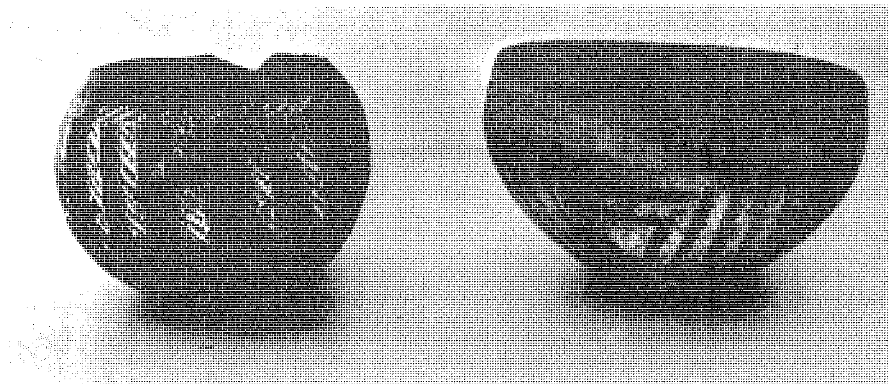
(٥٥) A.J. Arkell, 1961, p. 71.

(٥٦) F. Hintze, 1964.

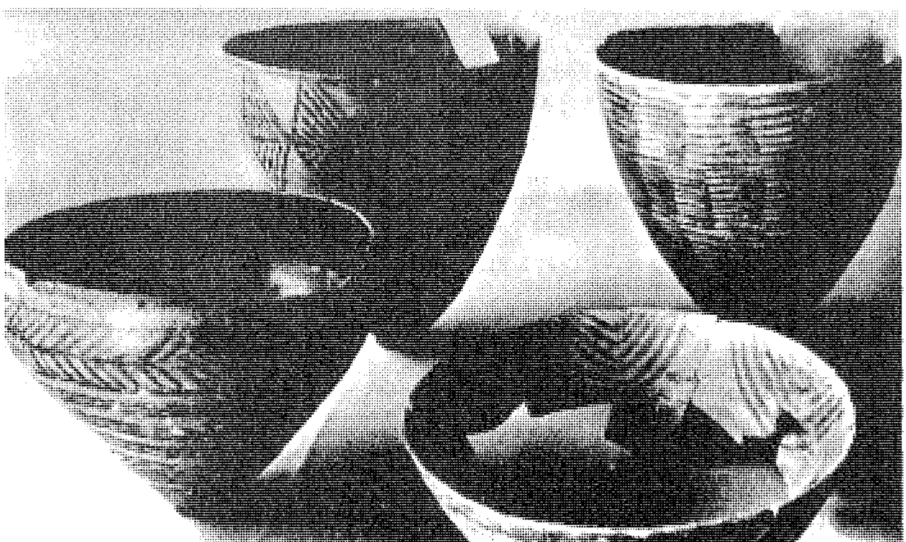
(٥٧) A.J. Arkell, 1961, p. 72.



١



٢



٣

١و٢و٣ أوان فخارية مختارة من كرمة.

نفسه لم يفحص فحصاً كاملاً بعد. ومنطقة دنقلة غنية بمواقع كرمة التاريخية، واذا لم يجر بحث أثري منهجي ومنتظم هناك فسيظل قسط كبير من ثقافة كرمة مجهولاً.

مملكة كوش

نظراً لأن الاسم الجغرافي «كوش» يرتبط بكرمة(٥٨)، ولأن الرموس التي في كرمة تظهر بوضوح أنها مدافن حكام وطنيين اقوياء كانت لهم علاقات تجارية ودبلوماسية مع ملوك الهكسوس في مصر، فانه يبدو مرجحاً ان كرمة كانت عاصمة مملكة كوش. وقد ازدهرت هذه المملكة خلال ما يعرف في التاريخ المصري الآن بالفترة الوسيطة الثانية (١٧٣٠ق.م. الى ١٥٨٠ق.م.) وقد أصبح وجود هذه المملكة - التي كان حاكمها يسمى امير كوش - معروفاً الآن من عدة أدلة وثائقية. فاللوح الأول لكاموسي(٥٩)، آخر ملوك الأسرة السابعة عشرة المصرية، وأول ملك على الأرجح رفع راية الكفاح المنظم ضد الهكسوس، يصور الوضع السياسي في وادي النيل آنذاك. فاللوح يبين وجود مملكة مستقلة في كوش حدودها الشمالية مثبتة عند جزيرة الفنتين، ثم دولة مصرية في مصر العليا تقع بين جزيرة الفنتين في الجنوب والقوصية في الشمال، وأخيراً مملكة الهكسوس في مصر السفلى. ويخبرنا لوح آخر(٦٠) أن كاموسي استولى في طريق الواحات على رسالة بعث بها «أبو فيس» ملك الهكسوس الى حاكم كوش طالباً منه العون ضد الملك المصري. وهناك بالاضافة الى ذلك لوحان اكتشفا في بوهن يظهران أن اثنين من الموظفين، هما «سبد - حر»(٦١) و«كا»(٦٢) كانا في خدمة حاكم كوش. وقد كانت مملكة كوش تهيمن على النوبة بأسرها جنوب الفنتين بعد انهيار الدولة الوسطى في مصر على أثر غزو الهكسوس، ثم انتهى أمرها عندما فتح تحتمس الأول النوبة الى ما وراء الجندل الرابع.

ثقافة كرمة

لم تكتشف مواقع تحتوي على نماذج من ثقافة كرمة في النوبة الا في مواضع ينتهي امتدادها شمالاً عند مرقيسة(٦٣)، مما يشير الى أن منطقة الجندل الثاني كانت هي الحد الفاصل بين ثقافتي كرمة والمجموعة «ج». وكانت السمات المميزة لثقافة كرمة هي اوعية فخارية رقيقة على درجة رفيعة من الصقل، لونها أحمر وحوافها العليا سوداء، ومشكلة على عجلة صانع الفخار، وأوان على شكل حيوانات، وأخرى محلاة بتزاويق حيوانية؛ وخناجر نحاسية خاصة، ومصنوعات خشبية مطعمة بالعاج والميكا في أشكال زخرفية، وحُلى مخيطة على قلانس جلدية. ومع ان الكثير من الأوعية الفخارية المكتشفة في كرمة تشير دون شك الى تراث ثقافي محلي، الا أن تأثير التقنيات الصناعية والتصاميم المصرية واضح لا يمكن

(٥٨) G. Posener, 1958, p. 39; A. Arkell, 1961, p. 72.
(٥٩) L. Habachi, 1955, p. 195.
(٦٠) T. Säve-Söderbergh, 1956, pp. 54-61.
(٦١) Philadelphia, 10984
(٦٢) Khartoum, No. 18
(٦٣) J. Vercoutter, 1964, , p. 59.





أوان فخارية من كرمة

اغفاله(٦٤). وقد طرحت فكرة أن قسطاً كبيراً من هذه الأشياء من انتاج صناع مصريين بالفعل(٦٥)، ولكن بالامكان القول أيضاً أنها قد صنعت استجابة للذوق المحلي بيد صناع وطنيين اكتسبوا دراية بالتقنيات المصرية.

أما عن الناحية الدينية، فإن السمة المميزة لثقافة كرمة هي شعائر الدفن. فالقبر في كرمة يتسم برمس ترابي مقبب تحيط به حلقة من الحجارة السوداء منثور عليها حصى أبيض. ويتكون أحد الرموس الكبيرة في مقبرة كرمة (ك٣) من جدران دائرية من الآجر قطرها تسعون متراً(٦٦)، وهناك جداران متوازيان يمتدان عبر القبة من الشرق الى الغرب ويؤلفان ممراً أوسط يشطر القبر شطرين، بينما تمتد الى الخارج جدران اخرى متوازية ومتعامدة على جانبي هذا الممر متجهة الى محيط الدائرة شمالاً وجنوباً. وفي منتصف الجدار الجنوبي للممر باب يفضي الى بهو يؤدي الى غرفة الدفن الرئيسية في الجانب الشرقي منه. وفي كرمة كان جثمان صاحب الرمس يسجى على سرير على الجانب الأيمن، توضع فوقه وسادة رأس خشبية ومروحة من ريش النعام ونعلان، كما كان يوضع بجانب السرير وحول جدران الغرفة عدد كبير من الأوعية الفخارية. وكانت أكثر عادات الدفن لفتا للنظر في كرمة هي استخدام الضحايا البشرية، اذ أن صاحب الرمس كان يرافقه في قبره ما بين ٢٠٠ الى ٣٠٠ شخص، معظمهم نساء وأطفال يدفنون أحياء في الممر الأوسط.

الدولة الحديثة (١٥٨٠ق.م. الى ١٠٥٠ق.م.)

حين وطد المصريون أقدامهم ثانية بعد تحرير بلادهم من الهكسوس، بدأوا يوجهون انتباههم مرة اخرى الى حدودهم الجنوبية، مما أدى الى اكبر غزو للنوبة قامت به مصر عبر تاريخها القديم.

فلوح كاموس الأول، الذي سبق ذكره، يصف كيف كان وضعه بين ملك في مصر السفلى وآخر في كوش. ويسجل اللوح أيضاً أن رجال بلاطه كانوا راضين عن الأحوال على حدود مصر الجنوبية، حيث كانت الفنتين محصنة ومنيعة. ولكن هناك فقرة في اللوح الثاني(٦٧) تبين أن كاموس قد شن حرباً على النوبيين قبل مهاجمته الهكسوس. ونظراً لما قرره رجال البلاط من أن الحدود عند الفنتين كانت آمنة وقوية، فمن المحتمل أن كل ما قام به كاموس كان حملة تأديبية ضد النوبيين، وهو ما قد يفسر وجود أسماء كاموس الملكية بالقرب من توشكا في النوبة السفلى.

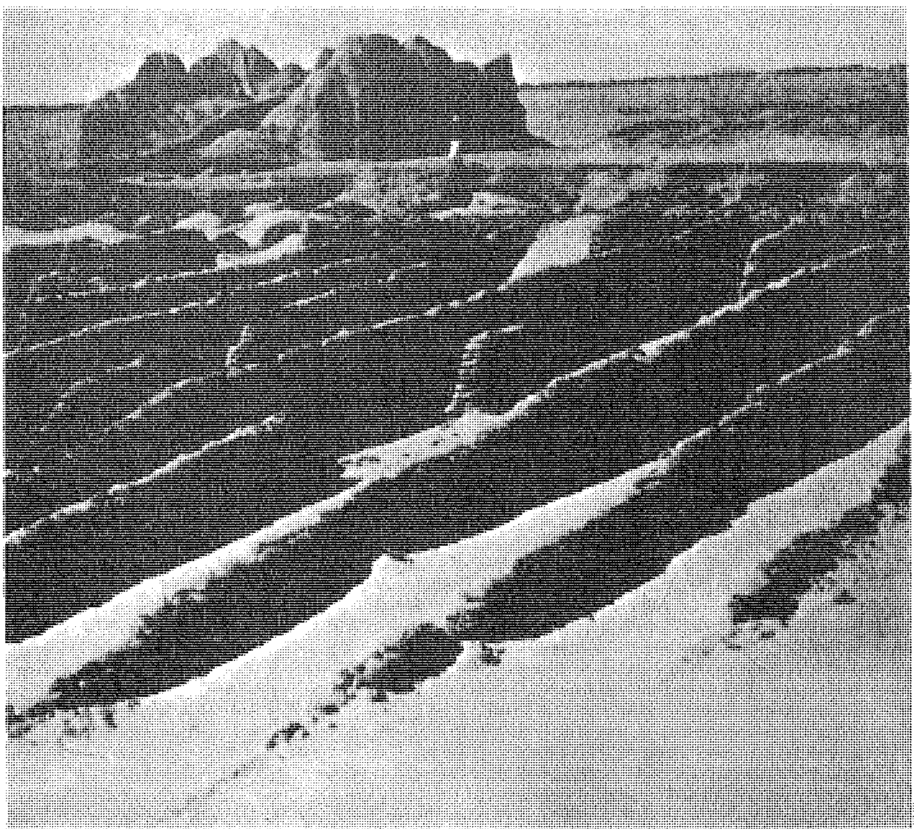
وقد تم احتلال النوبة على يد (أحمس) خليفة كاموس ومؤسس الأسرة المصرية الثامنة عشرة. ومصدر معلوماتنا الأساسي عن أعماله وأعمال خلفائه المباشرين الحربية في النوبة، هو السيرة الذاتية لأمير البحر أحمس بن ابانا، الذي نقشت سيرته على جدران قبره في الكاب بمصر. وتنبؤنا هذه السيرة بأن «جلالته سار حتى «خنت حن - نفر» (وهي منطقة لم يتم تحديدها في النوبة) للاطاحة بالنوبيين بعد أن حطم الآسيويين». وقد تمكن أحمس من اعادة بناء قلعة بوهن وتوسيعها واقامة معبد هناك. ومن

(٦٤) B.G. Trigger, 1965, p. 103.

(٦٥) A.J. Arkell, 1961, p. 74.

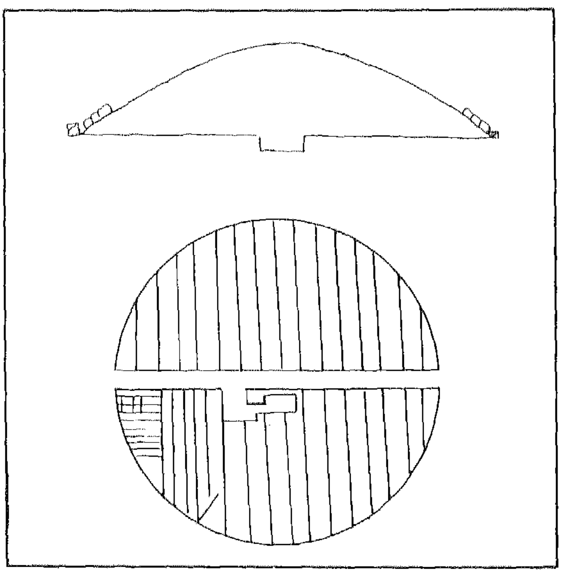
(٦٦) G.A. Reisner, 1923a, p. 135.

(٦٧) T. Säve-Söderbergh, 1956, p. 57.



١

٢



١ : الدفوفة الشرقية في كرمة، وظهرت في المقدمة إحدى المقابر

٢ : مدافن كرمة

المحتمل انه تقدم حتى جزيرة صاي، على مسافة ١٩٠ كيلومتراً صعوداً في النهر من بوهن، اذ عثر على تمثال له هناك عليه نقوش تتعلق به وبزوجته(٦٨).

وكان تحتمس الأول (١٥٣٠ق.م. الى ١٥٢٠ق.م.) هو الذي أكمل غزو شمال السودان؛ فقضى بذلك على استقلال كوش. ولدى وصوله الى جزيرة طمبوس - الحد الجنوبي للجندل الثالث - أقام هناك نقشه الكبير، ثم واصل مسيرته من ذلك الموضع نحو الجنوب فاحتل عملياً كل المنطقة ما بين كرمة وكرقس التي تقع على مسافة ٥٠ ميلاً جنوب أبي حمد، حيث خلف نقشاً وربما بنى قلعة(٦٩). وبذلك آلت النوبة الى سيطرة مصر الكاملة وبدأت حقبة جديدة متميزة من تاريخها تركت آثاراً باقية على حياتها الثقافية عبر العصور التالية.

النوبة تحت حكم الأسرة الثامنة عشرة

هناك نقش صخري بين أسوان وفيلة يرجع للسنة الأولى من عهد تحتمس الثاني(٧٠) ينبؤنا بأن تمرداً قد حدث في النوبة بعد وفاة تحتمس الأول. وطبقاً لما يقرره النقش، وصل رسول يحمل الى اسماع جلالته ان كوش قد بدأت تتمرد وأن زعيم كوش وغيره من الأمراء في شمال أرضه يتآمرون معاً. ويخبرنا النقش أيضاً بأن حملة قد أرسلت وقمعت المتمردين. وعلى اثر هذه الحملة التأديبية أعيد السلام واستتب في النوبة بحزم لعدة سنوات.

وقد ساد السلام طوال حكم الملكة حتشبسوت التي خلفت تحتمس الثاني. وأهم آثار عهدها في النوبة المعبد الفخم الذي بنته داخل جدران قلعة الدولة الوسطى في بوهن(٧١) تقرباً للإله حورس، سيد بوهن، الذي له رأس صقر. وتكمن أهمية هذا المعبد في قيمته التاريخية والفنية. ففيه يجد المرء نقوشاً بارزة من أروع ما أبدعه الفن والصنعة في عهد الأسرة الثامنة عشرة تصميماً وتنفيذاً؛ حيث لا تزال الألوان تبدو على الجدران في حال جيدة. وحدث بعد ذلك أن اغتصب تحتمس الثالث هذا المعبد، فشوه التصميمات الأصلية ومحا بانتظام وقسوة جميع صور الملكة حتشبسوت وخراطيشها.

والمعبد مشيد من الحجر الرملي النوبي، ويتكون من جزأين رئيسيين: ساحة أمامية وبناء مستطيل له صف من الأعمدة في كل من جوانبه الشمالية والجنوبية والشرقية. وقد شيدت الملكة حتشبسوت كذلك معبداً كرسته للإلهة حتحور في «فرس»، على الضفة الغربية للنيل، على الحدود السياسية الحالية بين مصر والسودان مباشرة(٧٢).

وفي حوليات تحتمس الثالث المنقوشة على جدران معبد آمون الأكبر في الكرنك، نرى «واوات» تدفع الجزية عن ثمانية أعوام، وكوش تدفعها عن خمسة أعوام، وهو ما يشير بجلاء الى ان جزية النوبة كانت ترد بانتظام الى خزائن الفراعين(٧٣)، وان السلام ظل مستتباً في عهد تحتمس الثالث، الذي

(٦٨) J. Vercoutter, 1956 et 1958, N° 6.
(٦٩) A.J. Arkell, 1961, p. 84.
(٧٠) J.H. Breasted, 1906, pp. 119-122.
(٧١) D.R. MacIver and C. Woolley,.
(٧٢) F.L. Griffith, 1921, p. 83.
(٧٣) A.J. Arkell, 1961, p. 88.



١

٢



١و٢ : أوانٍ فخارية من كرمة

أعاد في العام الثاني من عهده بناء المعبد المهدم الذي كان سنوسرت الثالث قد شيده من الطوب اللبن في سمنة الغربية، فأقامه تحتمس الثالث مرة اخرى وبناه بالحجر، وكرسه للاله النوبي «ديدون - خنوم» ولسنوسرت الثالث المؤله. ويعتبر هذا المعبد من أكثر المعابد القائمة وحدها صموداً أمام البلى منذ فترة ما قبل العهد البطلمي في وادي النيل بأسره. وجدرانه مغطاة بمناظر من النحت البارز ونقوش هيروغليفية ورسوم ملونة، تبدو فيها جميعاً مهارة حرفيين من الطراز الأول بلا جدال(٧٤). كما بنى تحتمس الثالث معابد صغيرة في قلاع «سمنة الشرقية» و«أورن - آرتي» و«فرس» وربما في جزيرة صاي أيضاً.

وكان خليفة تحتمس الثالث هو امنوفيس الثاني، الذي ركنت النوبة خلال عهده الى السلم، وأنهى بناء معبد «عمدة» (وهي بلدة هامة في النوبة السفلى) الذي كان قد بدأه أبوه تحتمس الثالث. وقد أقام امنوفيس الثاني في ذلك المعبد لوحاً يرجع الى العام الثالث من توليه الملك، سجل عليه عودته المظفرة من حملته في آسيا ومعه أجساد سبعة امراء «أوردهم حتفهم بهراوته». وقد صدر الأمر بتعليق جثث ستة من اولئك الأمراء على أسوار عاصمته طيبة. ويخبرنا اللوح بأن جثمان الأمير السابع «أرسل في سفينة الى النوبة وعلق على السور المحيط بمدينة نباتا حتى تتجلى للعيان سطوة جلالته المظفرة الى أبد الآبدين»(٧٥).

ولدينا من عهد تحتمس الرابع - الذي خلف أمنوفيس الثاني - سجل قائم في جزيرة «كونوصو» بالقرب من فيلة، يروي قصة حملة موفقة قام بها لاخماد تمرد في النوبة. ويرجع تاريخ هذا السجل الى العام الثامن من عهد تحتمس الرابع.

وخلف تحتمس الرابع ابنه امنوفيس الثالث، الذي قاد حملة ضد النوبة حتى «كرى» في العام الخامس من حكمه. وفي صولب على الضفة الغربية للنيل على مسافة ٢٢٠ كيلومتراً جنوب وادي حلفا شيد أمنوفيس الثالث أفخم معبد في النوبة قاطبة، كرسه لنفسه وصورته الحية، كما بنى أيضاً معبداً لزوجته الملكة «تي» في «صادنقة» على بعد ثلاثة عشر ميلاً (٢٠ كيلومتراً تقريباً) شمال صولب على نفس الجانب الغربي من النيل.

ولم تعكر صفو السلام في النوبة تلك الاضطرابات السياسية التي احدثتها في مصر الثورة الدينية التي قام بها أمنوفيس الرابع (١٣٧٠ق. م. الى ١٣٥٠ق. م.)، فاستمرت أعمال التشييد كذى قبل. ففي سيسيبي جنوب صولب، تجاه دلقو، بنى أمنوفيس الرابع قبل أن يغير اسمه الى اخناتون مجموعة من ثلاثة معابد تقوم على أساس مشترك(٧٦)، وتقع داخل مدينة صغيرة مسورة تحتوي على مزار ديني صغير مكرس للاله الجديد أتون. ويبدو انه أسس كذلك مدينة جيم - أتون التي كانت تقع عند كاوا تلقاء دنقلة الحديثة. وفي كاوا نفسها أقيم معبد صغير كذلك شيده خليفته توت عنخ أمون(٧٧). وعند «فرس»، بنى «حوى» نائب الملك في اقليم النوبة على عهد توت عنخ أمون معبداً ومستوطنة مسورة(٧٨).

---

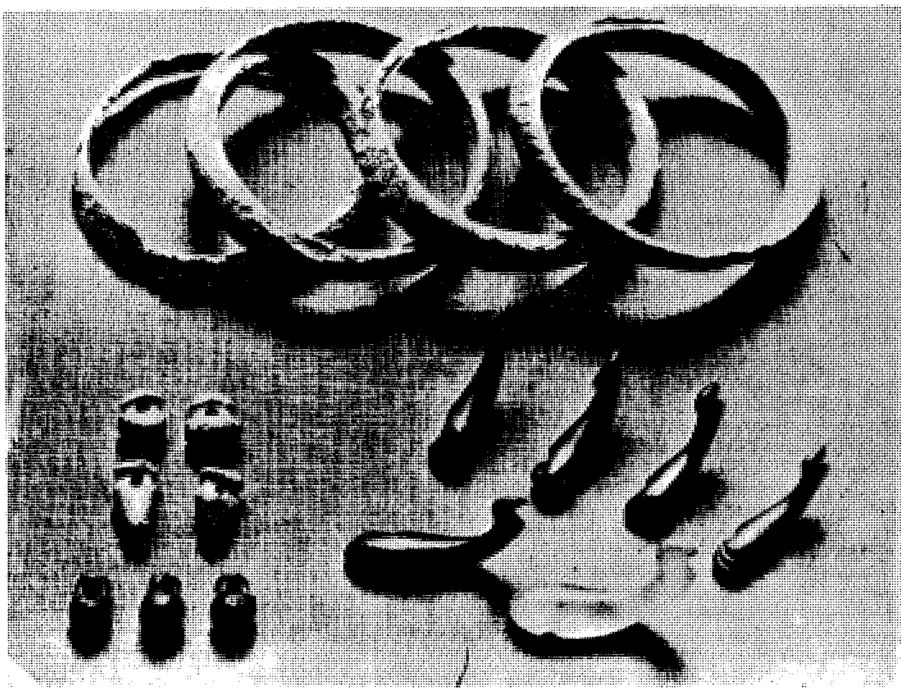
(٧٤) R.A. Caminos, 1964. p. 85.

(٧٥) A. Gardiner, 1961, p. 200.

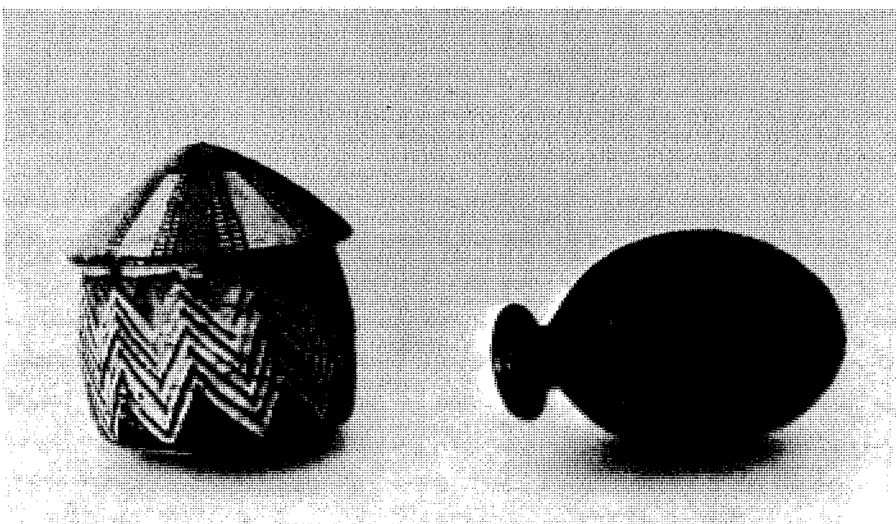
(٧٦) H.W. Fairman, 1938, pp. 151-156.

(٧٧) M.F.L. Macadam, 1949, p. 12.

(٧٨) F.L. Griffith, 1921, p. 83.



١



٢

١ : حلى شخصية
٢ : أوان فخارية من كرمة

ولئن كانت نهاية الأسرة الثامنة عشرة قد حملت معها القلاقل الى مصر، فإنها فيما يبدو لم تؤثر على الأمن والاستقرار في النوبة. ويمكن القول على الاجمال بأن النوبة قد سارت في طريق النمو والتطور السلمي خلال عهد الأسرة الثامنة عشرة بأكمله.

النوبة في عهد الأسرة التاسعة عشرة

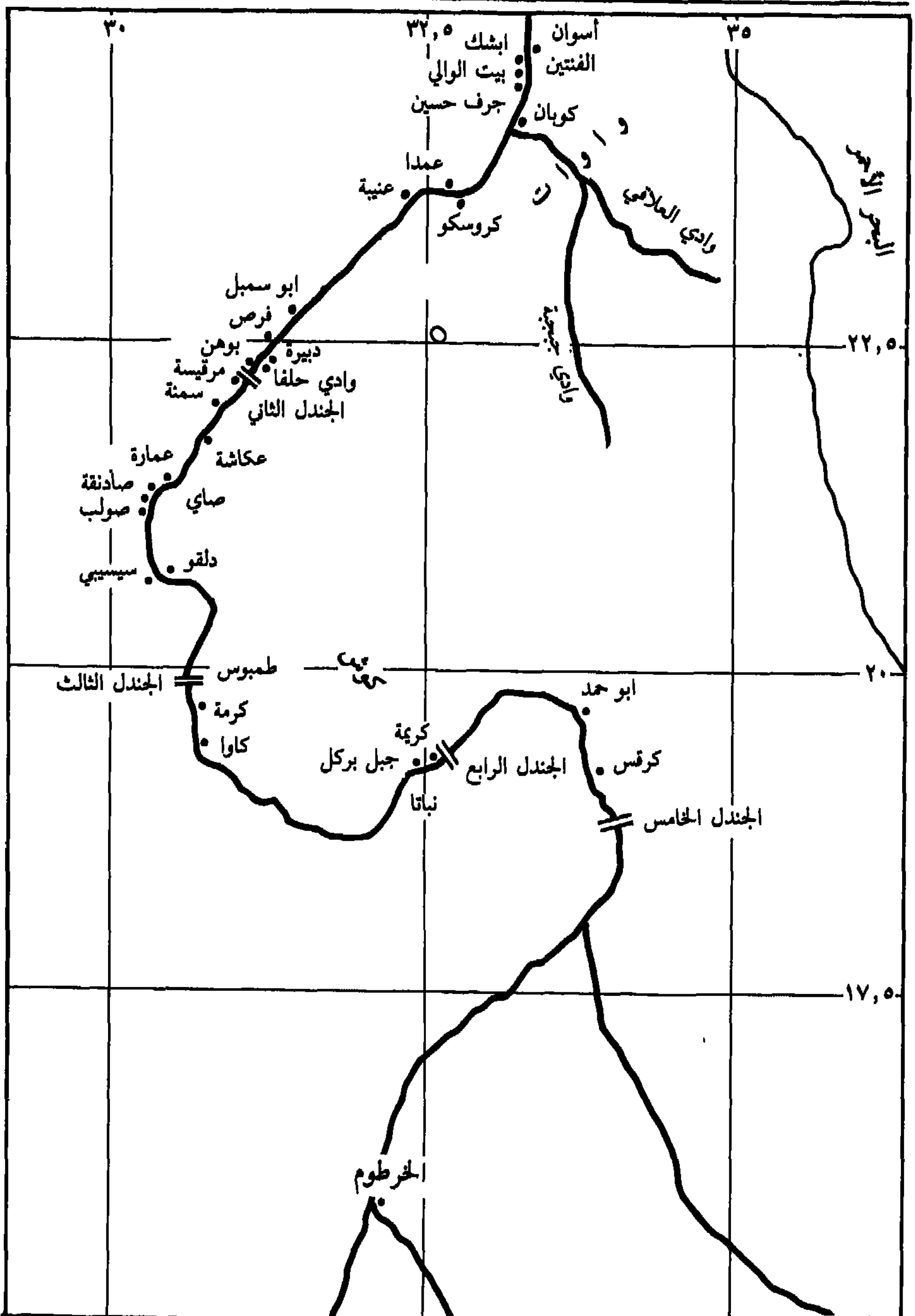
اخذت مصر منذ عهد أخناتون تسير باستمرار في طريق الضعف المطرد داخلياً وخارجياً. فقد كان أخناتون رجلاً حالماً، جلبت حركته الدينية كثيراً من الضرر للامبراطورية. وفضلاً عن ذلك فقد خلفه على العرش فراعنة ضعاف عجزوا تماماً عن ايجاد حل للمشاكل القائمة آنذاك. فقد كانت البلاد في حالة اضطراب، تنتشر فيها كل الظروف التي تنذر باندلاع الحرب الأهلية والفوضى الشاملة. وكان من حسن حظ مصر في تلك اللحظة الحرجة أن وجدت منقذاً في شخص قائد محنك قدير أسمه «حور-محب». وكان حور محب قد طاف بالنوبة في عهد توت عنخ آمون بعد اعادة النظام القديم(٧٩). وعندما اغتصب عرش مصر بعد ذلك ظهر ثانية في النوبة. وعلى الرغم من أن هذا الحدث موصوف على جدران معبده الصخري التذكاري في منطقة جبل السلسلة بمصر العليا باعتباره حملة عسكرية، فإنه فيما يبدو كان أقرب الى زيارة يقوم بها مغتصب للعرش كي يوطد مركزه في منطقة ذات اهمية قصوى لديه. وعلى أية حال فقد كسب حور - محب ولاء الادارة المصرية بالنوبة؛ وهو امر تؤكده حقيقة أن الحاكم «باسر» - نائب الملك في النوبة في العهد السابق - قد استمر يشغل نفس منصبه في عهد حور - محب.

واعتلى العرش بعد حور - محب رمسيس الأول (١٣٢٠ق.م. الى ١٣١٨ق.م.)، المؤسس الحقيقي للأسرة التاسعة عشرة. وفي السنة الثانية من حكمه أقام لوحاً تذكارياً في معبد حتشبسوت في بوهن يخبرنا فيه بأنه زاد عدد كهنة ذلك المعبد ورقيقه، وأنه اضاف اليه مباني جديدة.

وبعد وفاة رمسيس الأول تبوأ العرش ابنه سيتي الأول (١٣١٨ق.م. الى ١٢٩٨ق.م.) فاستغل مناجم الذهب النوبية كي يجلب الى خزائنه المال الذي يكفي للانفاق على مشروعاته البنائية الهائلة. ولكي يزيد من انتاج مناجم وادي العلاقي، حفر بئراً على الطريق المتجه من كوبان في النوبة السفلى الى الجنوب الشرقي، ولكنه فشل في الوصول الى الماء، ولم تنجح محاولته لزيادة كمية الذهب المستخرجة من تلك المنطقة. وفي النوبة العليا بنى سيتي الأول مدينة عند «العمارة غرب»، على مسافة ١٨٠ كيلومتراً تقريباً جنوب وادي حلفا. ويحتمل أن يكون قد بنى أيضاً معبد آمون الكبير في جبل بركل (ويسمى بالمصرية القديمة «دو - وعب» اي الجبل المقدس) بالقرب من كريمة. ولا يكاد يوجد دليل على حدوث عمليات عسكرية في النوبة في عهد سيتي الأول، ويبدو انه لم يحدث هناك ما يستوجب ارسال حملات عسكرية هامة، وان كان ذلك لا يستبعد ارسال بعثات تأديبية صغيرة الى النوبة.

وخلف سيتي الأول ابنه رمسيس الثاني (١٢٩٨ق.م. - ١٢٣٢ق.م.) ولدينا مصادر كثيرة للمعلومات عن النشاط العسكري في النوبة خلال عهد هذا الفرعون الذي حكم لمدة طويلة ولكن هذه المصادر لا تحدد التواريخ ولا اسماء الأمكنة، ولذا فانها قليلة الفائدة(٨٠). ويبدو بصفة عامة ان

(٧٩) A.J. Arkell, 1961, p. 94.
(٨٠) W.B. Emery, 1965, p. 193.



النوبة في عهد الدولة الحديثة

السلام كان سائداً في النوبة خلال عهد رمسيس الثاني، وهذا ما تؤيده اعمال البناء الهائلة التي قام بها في جميع انحاء النوبة.

وفي السنة الثالثة من عهد رمسيس الثاني نجده في ممفيس يتشاور مع موظفيه حول امكانية فتح منطقة وادي العلاقي لاستغلال مناجم الذهب هناك، التي لم ينجح ابوه في محاولة استغلالها. وكان نائب الملك في كوش حاضراً، فأوضح للملك الصعوبات التي تكتنف ذلك، وروى له محاولة ابيه التي لم تنجح في توفير المياه على الطريق. غير ان الملك امر بمحاولة جديدة نجحت بالفعل، حيث تم الوصول الى المياه على عمق اثنتي عشرة ذراعاً تحت المستوى الذي حفر على عهد ابيه سيتي الأول. وفي كوبان، حيث كان الطريق المؤدي الى مناجم وادي العلاقي ينفصل عن ضفة النيل، اقيم لوح تذكاري تخليداً لهذا الانجاز.

وقد قام رمسيس الثاني بحركة بناء هائلة في النوبة، فشيد معابد في «بيت الوالي» و«جرف حسين» و«وادي السبوع» و«الدر» و«ابو سمبل» و«عكاشة» في النوبة السفلى، وفي «عمارة» و«البركل» في النوبة العليا.

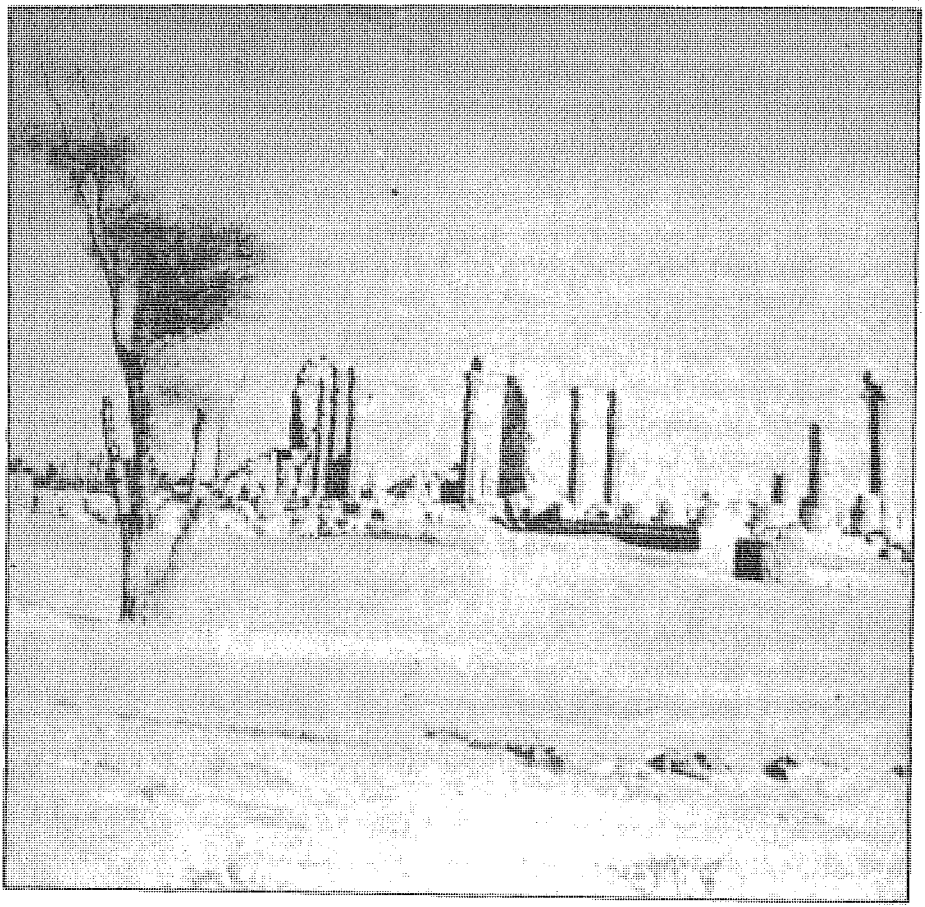
وفيما يتعلق بعمارة، أظهرت(٨١) الحفريات التي اجريت هناك ان المدينة أسسها سيتي الأول، بينما شيد المعبد رمسيس الثاني. وكانت هذه المدينة مسكونة باستمرار في عهد الأسرتين التاسعة عشرة والعشرين. والمعتقد أن عمارة كانت مقر نائب الملك في اقليم كوش(٨٢) ومعبد أبو سمبل من أكبر المباني المنحوتة في الصخر في العالم بأسره، ولا ريب في انه عمل معماري فريد(٨٣)، فهو منحوت في نتوء صخري ضخم من الحجر الرملي على ضفة النيل اليسرى. وربما كان اختيار مواقع هذا المعبد الكبير راجعاً الى أن المكان كان يعتبر مقدساً منذ ما قبل نحت المعبد هناك بزمن طويل. والمعبد مكرس للإله رع - حارختي، إله الشمس الطالعة، الذي يمثل على هيئة رجل برأس صقر يلبس قرص الشمس.

وتقوم على واجهة معبد ابو سمبل اربعة تماثيل جالسة ضخمة منحوتة في الصخر الحي، اثنان منها على كل من جانبي المدخل، وكلها تمثل رمسيس الثاني وعلى هامته تاج مصر المزدوج. ويفضي المدخل مباشرة الى القاعة الكبرى حيث يوجد صفان من الأعمدة المربعة، في كل صف أربعة أعمدة. وتقوم أمام هذه الأعمدة تماثيل واقفة ضخمة للملك وعلى هامته التاج المزدوج ايضاً. وعلى جدران القاعة الكبرى، التي يبلغ ارتفاعها ثلاثين قدماً (حوالى عشرة امتار)، توجد مناظر ونقوش خاصة بالمراسم الدينية وبأعمال فرعون الحربية ضد الحثيين في سوريا وضد النوبيين في الجنوب. وتوجد في الجدارين الشمالي والغربي لنفس القاعة أبواب تفضي الى عديد من المخازن التي لا توجد على جدرانها سوى نقوش دينية بالنحت البارز. ويفضي الباب الأوسط في الجدار الغربي للقاعة الكبرى الى قاعة أخرى صغيرة، سقفها محمل على أربعة أعمدة مربعة وجدرانها تحمل نقوشاً بالنحت البارز ذات صفة دينية أيضاً. وهناك غرفة أخرى تسبق الحرم مباشرة، ولها ثلاثة أبواب في جدارها الغربي، منها بابان على الجانبين يفضيان الى غرفتين أصغر حجماً جدرانهما عارية من أية نقوش؛ أما الباب الذي في الوسط فيؤدي الى قدس الاقداس الذي يجلس فيه رمسيس الثاني على العرش إلهاً بجانب اقوى ثلاثة آلهة في

(٨١) H.W. Fairman, 1938; 1939, pp. 139-144; 1948, pp. 1-11.

(٨٢) A.J. Arkell, 1961, p. 94.

(٨٣) W.B. Emery, 1965, p. 194.



معبد أمنوفيس الثالث في صولب

مصر، وهم أمون رع إله طيبة، ورع - حارختي إله هليوبوليس، مدينة الشمس، وبتاح إله العاصمة التليدة ممفيس.

ادارة النوبة

كان على رأس الجهاز الاداري المصري في النوبة خلال عهد الدولة الحديثة «نائب الملك في النوبة» وكان هذا الموظف منذ البداية يحمل لقب «حاكم الديار الجنوبية» جنباً الى جنب مع لقبه «ابن الملك». على ان اللقب الأول هو الذي كان يحدد وظيفته حقاً. وكان لنائب الملك في النوبة على عهد تحتمس الرابع نفس اسم ولي العهد الذي كان يسمى «امنوفيس». وللتمييز بين الاثنين، كان نائب الملك في النوبة يدعى «ابن الملك لكوش». وأصبح هذا اللقب الجديد بعد ذلك يطلق على كل الحكام الذين خلفوا أمنوفيس. وقد لا يعني هذا اللقب أن نواب الملك في النوبة كانوا من العائلة الملكية؛ ولكنه قد يكون دليلاً على أهمية هذا المنصب وعلى السلطة الرفيعة التي كان يتمتع بها نائب الملك. وكان هؤلاء الموظفون يختارون من الرجال الموثوق بهم الذين يتجلى ولاؤهم للفرعون، الذي كانوا مسؤولين أمامه مباشرة؛ وكان أولئك الرجال أيضاً اداريين اكفاء.

وكانت النوبة مقسمة الى منطقتين شاسعتين، المنطقة الواقعة بين نخن (في مصر العليا) والجندل الثاني، التي كانت تعرف باسم «واوات»، ثم جميع المنطقة الواقعة جنوباً بين الجندلين الثاني والرابع، وتسمى «كوش». وكان نائب الملك يرأس عديداً من الأقسام الادارية المنظمة على شاكلة مثيلاتها في مصر، ويساعده موظفون مسؤولون عن شتى الأقسام الادارية التي يستوجبها حكم النوبة. وكان يحكم المدن النوبية محافظون مسؤولون أمام نائب الملك. وتشمل هيئة الموظفين المرؤوسين لنائب الملك قائداً لرماة كوش ونائبين، أحدهما لواوات والآخر لكوش. وكانت تحت رئاسة نائب الملك أيضاً قوات شرطة للأمن الداخلي، وحاميات مختلف المدن، وجيش صغير لحماية البعثات التي ترسل الى مناجم الذهب. وكان من أهم مسؤوليات نائب الملك في النوبة تسليم جزية النوبة في مواعيدها شخصياً الى الوزير في طيبة(٨٤). ويضاف الى كل ما تقدم أن نائب الملك في النوبة كان هو أيضاً الرئيس الديني للبلاد.

وكان يشارك في ادارة النوبة زعماء القبائل الوطنيون اذ كانت السياسة المصرية آنذاك تعمل على كسب ولاء الأمراء المحليين(٨٥) بالسماح لهم بالاحتفاظ بالسيادة كل في منطقته.

تمصير النوبة

ووجهت المراحل الأولى من الاحتلال المصري للنوبة في عهد الدولة الحديثة بالمقاومة، ولكن النوبيين لم يلبثوا أن سكنوا واستقروا في ظل الادارة المصرية الجديدة لتطور سلمي لم تشهده بلادهم قط من قبل. فقد رأينا فيما تقدم أن المعابد شيدت في جميع انحاء النوبة على أيدي ملوك الأسرتين الثامنة عشرة

(٨٤) A.J. Arkell, 1961, p. 98.

(٨٥) B.G. Trigger, 1965, p. 107.

والتاسعة عشرة، ثم نمت المدن حول هذه المعابد لتصبح مراكز دينية وتجارية وادارية هامة، وأعيد تنظيم النوبة بأسرها على أسس مصرية بحتة، وانشىء نظام اداري مصري تماماً، استتبع وجود عدد كبير من الكتبة والكهنة والجند والحرفيين المصريين، وأدى ذلك كله في النهاية الى تمصير كلي للنوبة، فاعتنق الأهالي الديانة المصرية وعبدوا الآلهة المصرية، وأخلت عادات الدفن العتيقة مكانها للطقوس المصرية، فلم يعد الجسد يسجى على جانبه وركبتاه نصف مضمومتين الى صدره، وإنما أصبحنا نرى المتوفي ممدداً على ظهره أو موضوعاً في تابوت خشبي. وكانت قبور تلك الفترة على أنماط ثلاثة(٨٦): حفرة مستطيلة بسيطة، أو جب مشقوق في الصخر بغرفة دفن في القاع، او حفرة مستطيلة بها تجويف جانبي محفور في احد الجانبين الطويلين. أما الأشياء التي تودع في القبر فقد أصبحت لا تختلف عن النمط المصري لتلك الفترة في شيء. كذلك تبنى النوبيون التقنيات التي كانت يستخدمها المصريون في الفنون والعمارة.

وكانت عملية التمصير قد بدأت في النوبة بالفعل خلال الفترة الوسيطة الثانية، ثم تسارعت في عهد الدولة الحديثة لتصل الى أوجها. ومن بين العوامل الهامة التي ساعدت على التعجيل بتمثل النوبة الثقافي لطريقة الحياة المصرية تلك السياسة التي اتبعتها الادارة الفرعونية في النوبة خلال عهد الدولة الحديثة. فقد كانت السياسة الرسمية - كما سبق البيان - هي اكتساب ولاء الزعماء الوطنيين وتأييدهم. فكان ابناؤهم يتلقون تعليمهم في البلاط الملكي بمصر، حيث كانوا «يسمعون كلام المصريين المنتمين الى الحاشية الملكية، فينسون لغتهم»(٨٧)، وعلى ذلك فقد تم تمصيرهم الى درجة كبيرة، الأمر الذي ساعد بطبيعة الحال على ضمان موالاة الأمراء النوبيين لمصر وللثقافة المصرية. وكان من الطبيعي أنه عندما يعتنق أحد الزعماء ديانة أجنبية ويلتزم في حياته اليومية قواعد ثقافة معينة، فإن اتباعه يحذون حذوه. لهذا استهدف التمصير الطبقة العليا المحلية أولاً، وما لبث ذلك أن مهد السبيل الى التمصير السريع لسكان النوبة البسطاء.

وكان «جحوتي - حتب» أمير «سيرا» (تح - خت القديمة) الواقعة شمال وادي حلفا هو أحد اولئك الأمراء المحليين الذين كانوا يعيشون على نفس شاكلة الطبقة الراقية المصرية آنذاك. وقد عاش في عهد الملكة حتشبسوت، وورث الامارة عن أبيه، ثم خلفه فيها بعد ذلك أخوه أمنمحات. ونعرف من تمثال صغير لأمنمحات (بمتحف السودان الوطني حالياً) أنه عمل كاتباً في مدينة بوهن قبل أن يغدو أميراً على «تح-خت»، مما يدل على أن الطبقة المتعلمة الوطنية كانت خلال عهد الدولة الحديثة تسهم في ادارة النوبة الى جانب المصريين.

وقد اكتشفت مقبرة جحوتي - حتب على بعد ميل (كيلومتر ونصف تقريباً) شرق النيل في قرية دبيرة، التي تبعد زهاء عشرين كيلومتراً شمال مدينة وادي حلفا(٨٨). والمقبرة منحوتة في تل من الحجر الرملي، وقد تم تخطيطها وزخرفتها بطريقة مصرية تماماً. وتصور مناظرها الأمير جحوتي - حتب وهو يتفقد العمل في مزرعته، او يتلقى فروض الطاعة من اقنانه على الطريقة المصرية، أو يمارس القنص بالقوس والسهم من مركبة يجرها حصان، أو وهو يستمتع بمأدبة بين ضيوفه. ولو لم يكن قد نقش اسمه النوبي بالاضافة الى اسمه المصري، لاستحال تمييزه عن أي نبيل مصري من نبلاء الدولة الحديثة.

(٨٦) W.B. Emery, 1965, p. 178.

(٨٧) T. Säve-Söderbergh, 1941, p. 185.

(٨٨) H.T. Thabit, pp. 81-86.

وتوجد على ضلفتي باب مدخل المقبرة نقوش تمثل الاله حورس وربما الالهة هاتور سيدة فرس: ابشك القديمة[٨٩]، وأنوبيس إله مدينة الموتى ذو رأس ابن آوى.

اقتصاديات النوبة

تستنتج أهمية النوبة الاقتصادية خلال عهد الدولة الوسطى من قوائم الجزية المنقوشة على جدران المعابد وأيضاً من التمثيل التصويري للسلع النوبية في مقابر الموظفين المصريين المسؤولين عن جلبها للفرعون. وكان المصريون في ذلك الوقت قد كثفوا نشاطهم لاستخراج المعادن من النوبة بطريقة تفوق كل استغلال سابق مستهدفين الحصول على العقيق الأحمر وحجر الدم الأماسون والفيروز والملاخيت والصوان والأمثيست. على أن النتاج الرئيسي للنوبة كان هو الذهب. وفي عهد الملك تحتمس الثالث بلغت الجزية السنوية لواوات وحدها ٥٥٠ رطلاً[٩٠]. وكان ذهب النوبة يأتي من مناجم منطقة حافلة بالمعادن النفيسة حول وادي العلاقي ووادي قبقبة في الصحراء الشرقية، وأيضاً من تلك المناجم المتناثرة على طول وادي النيل حتى أبو حمد جنوباً[٩١].

وكانت الواردات المصرية الأخرى من النوبة تشمل العاج والأبنوس والبخور والزيوت والماشية والفهود وبيض النعام وريشه وجلود الفهود والزراف والمذبات المصنوعة من ذنب الزراف وكلاب الصيد والقرود والحبوب. وقرب نهاية عهد الأسرة الثامنة عشرة، نرى سلعاً مصنعة تمثل جزءاً من الجزية النوبية. ففي مدفن «حوى» نائب الملك في النوبة خلال عهد توت عنخ آمون نجد جزية الجنوب تشمل الدروع والمقاعد والسرر وكراسي الجلوس[٩٢].

نهاية الدولة الحديثة

أخذت النوبة، بما لها من ثروات وأيضاً بسبب قيمة جنودها، تلعب في نهاية عهد الدولة الحديثة دوراً هاماً في الشؤون السياسية الداخلية لمصر نفسها. فقد كانت الاضطرابات والضعف والفساد وصراعات السلطة هي السمات الرئيسية آنذاك في مصر. وكانت الفرق المتناحرة، وهي تدرك تماماً أهمية النوبة في مساعيها، تحاول الحصول على تأييد الادارة هناك. فقد ذهب الملك رمسيس - سبتاح من ملوك الأسرة التاسعة عشرة بنفسه الى النوبة في السنة الأولى من حكمه لتعيين سيتي نائب ملك في النوبة[٩٣]. وحمل مبعوثه هدايا وجوائز من الملك الى كبار الموظفين في النوبة واضطر الملك مرنبتاح - سبتاح، آخر ملوك الأسرة التاسعة عشرة، لارسال احد موظفيه لجلب الجزية[٩٤]، على الرغم من أن ارسال الجزية كان من واجب نائب الملك في النوبة عندما كان الفرعون يمارس سلطة حقيقية ولديه هيمنة فعلية على امبراطوريته.

---

(٨٩) T. Säve-Söderbergh, 1960, p. 30

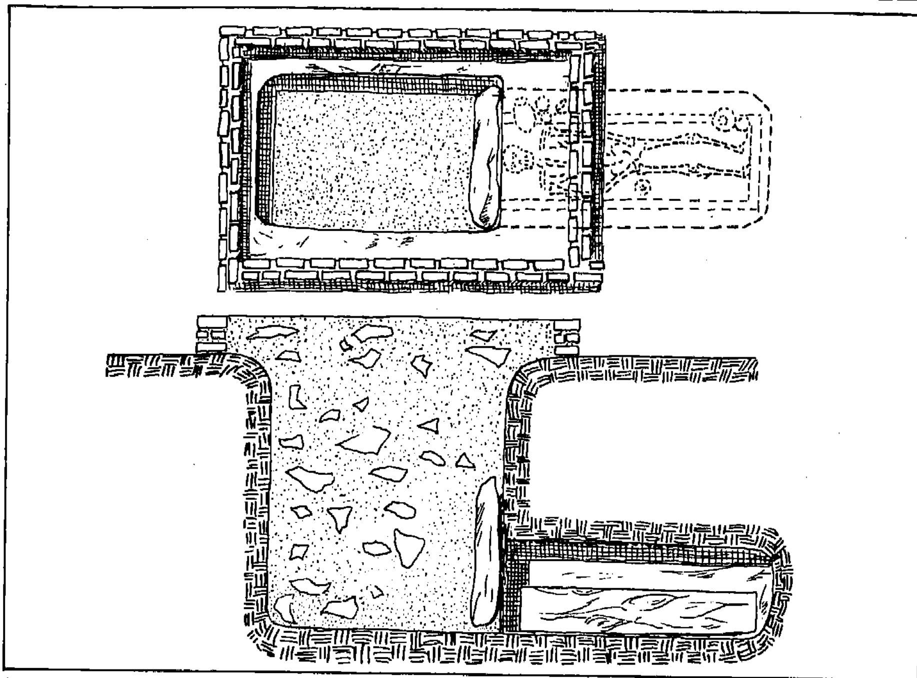
(٩٠) F. Hintze, 1968, p. 17.

(٩١) J. Vercoutter, 1959, p. 128.

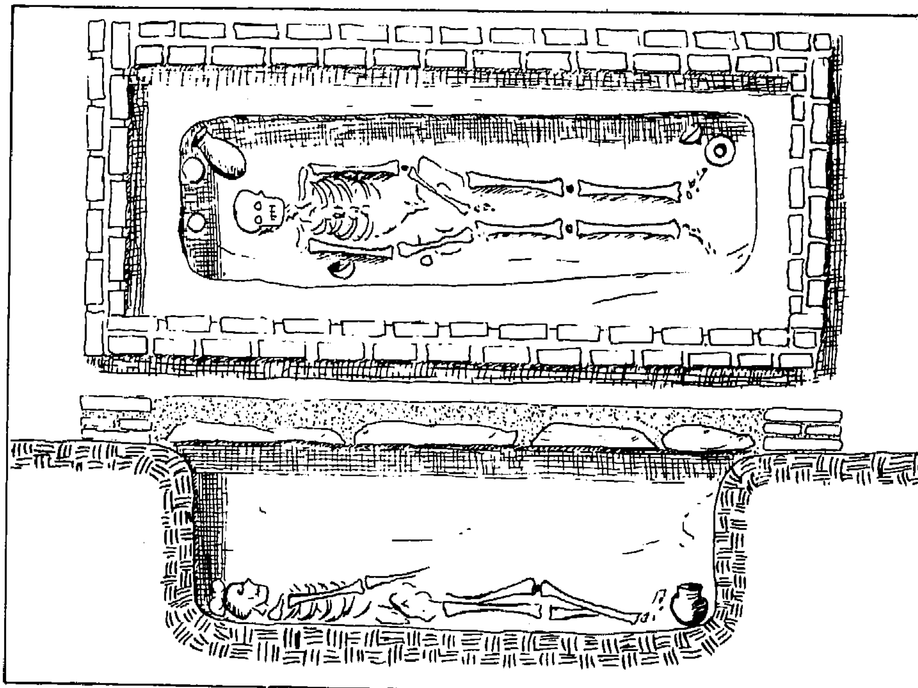
(٩٢) N. Davies and A.H. Gardiner, p. 22.

(٩٣) J.H. Breasted, 1906, Vol. III.

(٩٤) D.R. MacIver and C.L. Woolley, p. 26, plate, 12.



١



٢

١ و٢: نمط للدفن في عهد الدولة الحديثة

وفي عهد الأسرة العشرين تدهورت الأحوال في مصر تدهوراً شديداً فحدثت مؤامرة داخل الحريم في عهد رمسيس الثالث (١١٩٨ق.م. الى ١١٦٦ق.م.) استهدفت الاطاحة بالملك الحاكم؛ اذ حرضت احدى المتآمرات - وهي شقيقة قائد الرماة في النوبة - أخاها كي يساعد في تنفيذ المؤامرة. ولكن من الواضح أن نائب الملك في النوبة ظلّ على ولائه للفرعون. كما نشبت في أيام رمسيس الحادي عشر - آخر ملوك الأسرة العشرين - ثورة في منطقة أسيوط. على أن الملك استطاع بمساعدة با-نحيسي نائب الملك في كوش وقواته أن يقمع التمرد ويعيد النظام الى مصر العليا. وعلى أثر هذا التمرد أصبح المدعو حري - حور هو الكاهن الأكبر لآمون في طيبة. ويبدو أن الذي نصبه كاهناً أكبر هو با-نحيسي وجنوده النوبيون، اذ المفروض أنه كان أحد أشياعه. وفي السنة التاسعة عشرة من حكم رمسيس الحادي عشر، عقب وفاة با-نحيسي، عين حري - حور نائباً للملك في النوبة ووزيراً لطيبة، فأصبح بذلك السيد الفعلي لمصر العليا والنوبة. وبعد وفاة رمسيس الحادي عشر صار ملكاً (١٠٨٥ق.م.) وبدأت بعهده أسرة جديدة من الحكام في مصر. وانتشرت الفوضى في مصر وبدأ عصر مظلم في النوبة استمر حتى القرن الثامن قبل الميلاد حين برزت كوش فجأة كقوة كبرى.

الفصل العاشر

إمبراطورية كوش: نباتا ومروى

بقلم
ج. لكلان

على الرغم من أن هذا الاقليم يعاني اليوم من عزلة تامة خلف حاجز من الصحارى وعوائق الجنادل الثاني والثالث والرابع على النيل، الا ان دنقلة والمناطق المجاورة لها من أواسط حوض النيل كانت في الماضي مركزاً غنياً وكياناً سياسياً قوياً. ففي النصف الأول من الألف الثاني قبل الميلاد أدت حضارة كرمة الى قيام مملكة غنية عرفت في السجلات المصرية باسم «كوش» ولا تكفي المعلومات الأثرية المتناثرة عن هذه المنطقة شبه المجهولة لصياغة تاريخ هذه الفترة بعد العهد الزاهر والقصير نسبياً الذي عاشته تحت السيطرة المصرية في عهد الدولة المصرية الحديثة (١٥٨٠-١٠٨٥ق.م.)، فلفترة امتدت الى حوالى الثلاثة قرون انقطعت الصلة بين افريقيا وعالم البحر الأبيض المتوسط، وخيم على بلاد النوبة صمت شامل بسبب ندرة المعلومات. لكن قبل نهاية القرن التاسع قبل الميلاد نلحظ صحوة حضارية: حيث أوضحت حفريات رايزنر في كورو[1] قرب نباتا الى الشمال من الجندل الرابع وجود مقبرة ملكية بدأت بقبور عادية ثم تطورت في بنائها الى مصاطب.

السيطرة السودانية على مصر: الأسرة الخامسة والعشرون أو الأسرة «الاثيوبية»

هذه هي الأسرة التي انحدرت منها سلسلة الملوك الذين وحّدوا مصر والسودان، وعُرفوا في التاريخ بالأسرة الخامسة والعشرين أو الأسرة الاثيوبية[2]. وكان من المعتقد أن هذه الأسرة قد انحدرت من بعض اللاجئين المصريين الذين قدموا من طيبة. وقد بني هذا الزعم على وجود بعض التشابه في

---

(١) D. Dunham and O. Bates.
(٢) J Leclant, 1965, pp. 354-359.

الأسماء، ومكانة الاله آمون في البلاط «الأثيوبي». حتى كان العثور على مجموعة من رؤ وس السهام من نوع معروف في الصحراء والذي أدى بدوره الى الاعتقاد بأن هذه الأسرة ذات أصل ليبي. غير أن اصلهم في الحقيقة محلي وربما كانوا خلفاء لملوك «كرمة» القدامى.

إن اسماء الحكام الأوائل ليست معروفة لدينا حتى مجيء ألارا الذي خلفه كاشتا، والذي يشتق اسمه فيما يبدو من كوش، ويظهر اسمه ضمن «خراطيش» مصرية الطراز منقوشة على لوحة اكتشفت في الفنتين ويرجع تاريخها الى ٧٥٠ق.م. وهو الوقت الذي احتل فيه النوبيون على الأقل جزءاً من مصر العليا.

لوحة بي (بعنخي)

وفي تعرضنا لتتابع الملوك يجيء بعنخي الشهير الذي ينبغي ان يكتب اسمه من الآن وصاعداً في صورة: بي(٣)، وهنا ندخل في تاريخ هذه الأسرة. لقد ترك هذا الملك لوحة في نباتا اكتشفت في منتصف القرن الماضي وهي الآن بمتحف القاهرة ومعروفة «بلوحة النصر»(٤). وتحمل هذه اللوحة واحداً من أطول النصوص وأكثرها تفصيلاً، اذ يحتوي على ١٥٩ سطراً من الخط الهيروغليفي يصف احتفالات الملك واستعداداته ومراحل حروبه مع الليبيين الذين يسيطرون على وسط وشمال مصر.

لقد عرف بي كيف يكون رحيماً: كان محباً للخيول، وقد غضب حين وجد الخيول ميتة في اصطبلاتها في هرموبوليس (الأشمونين) ولكنه صفح عن المهملين. ومن ناحية أخرى يتحدث عن رفضه مقابلة أمراء الدلتا «الأنجاس» من أكلة لحوم الأسماك. ثم يفاجئنا، وهو في قمة الابتهاج بانتصاراته، بالانسحاب من مصر والعودة جنوباً الى السودان. ومن ناحية اخرى نلاحظ تنصيب الأميرة أمنيردِس الأولى، ابنة كاشتا نفسه(٥) كاهنة منقطعة لعبادة آمون في طيبة. وهنالك لوحة كبيرة اخرى للملك بي(٦)، عثر عليها في عام ١٩٢٠ تصف النظام الفيدرالي لامبراطورية كوش مع اعلان سيادة الإِلّه آمون: «لقد منحني آمون «نباتا» السيادة على كل الناس، فمن أقول له «أنت ملك» يصبح ملكاً، ومن أقول له «أنت لست بملك» لا يصبح ملكاً. لقد منحني آمون طيبة السيادة على مصر. فمن أقول له «تُتوج ملكاً» يتوَّج ملكاً، ومن أقول له «لا تتوج ملكاً» لا يتوج ملكاً. إن الآلهة تتوج الملوك، كما أن الناس يتوجون الملوك. أما أنا فقد توجني آمون».

---

(٣) الاسم الذي كان يرسم من قبل في صيغة «بعنخي» يشتمل في الكتابة الهيروغليفية على علامة «الصليب المدلى من أنشوطة» والتي كانت تنطق «عنخ» في اللغة المصرية. لكن هذه العلامة كانت على ما يبدو - تعتبر عند المرويين مجرد رمز يدل على «الحياة»، ويطابق في المعنى جذر كلمة p(e)y(e) في لغة أهل مروى، والذي يؤدي الى الصيغة «Peye»، التي تستعمل عادة في الوقت الحاضر. راجع G.Vittmann, pp. 12-16; .A. Heyler and J. Leclant, p. 552, K.H. Priese, 1966, pp. 165-191

(٤) .J.H. Breasted, 1906; K.B. Priese, 1970, pp. 16-32; J. Leclant, 1974, pp. 122-123

(٥) .J. Leclant, 1973 b.

(٦) متحف الخرطوم رقم ١٨٥١ : G.A. Reisner, 1931, pp. 89-100 and Plate V.

الملك شباكا

اعتلى شباكا، أخو الملك بي العرش في سنة ٧١٣ق.م. على وجه التقريب. وفي عهده أصبحت امبراطورية كوش تضم كل وادي النيل[٧]، ويقال إنه أحرق بوخورس الملك الصاوي الذي تصدى له وقاومه، ويعتبر «شباكا» مؤسس الأسرة الخامسة والعشرين. ولقد جرّت بعض العوامل الكوشيين الى آسيا حيث كان الآشوريون يشكلون ضغطاً على سوريا، التي طلب أمراؤ ها الى جانب أمراء فلسطين والقدس[٨] عون الكوشيين. وكان «شباكا» لا يزال فيما يبدو يحتفظ بعلاقات طيبة مع الأشوريين.

أما في السودان ومصر فقد بدأ نهضة عمرانية قام بتوسيعها بعده خلفاؤ ه أبناء بي - وهما - «شاباتكا» (٧٠٠ - ٦٩٠ق.م.) وطهرقا العظيم (٦٩٠-٦٦٤ق.م.)[٩].

الملك طهرقا: الصراع ضد الآشوريين

لقد وجد اسم «طهرقا» على عدد كبير من المباني الأثرية على امتداد وادي النيل. فقد شاد المعابد عند أسفل جبل برقل المطل على سهول «نباتا» الخصبة. كما وجد اسمه كذلك في عدة مواقع أخرى في النوبة مثل «كاوا». أما في منطقة طيبة فقد شيد أبهاء أعمدة حول معبد الكرنك من واجهاته الرئيسية الأربعة وبنى داخلها عدداً كبيراً من المعابد، حيث اقترنت عبادة الإله آمون بعبادة الإله اوزوريس. وهناك دليل على وجود اسمه في ممفيس والدلتا. وبعد أن تخلى عن المقبرة التقليدية في الكورو بنى ما يبدو كأنه مقبرة وهمية في نوري شبيهة بمقبرة أوزوريس في أبيدوس[١٠].

بيد أن مقبرة تحوي بعض ألقابه قد وجدت في صدنقا[١١]. وقد أوضح عدد من التماثيل التي تخصه مظهره، وهي محفورة من الجرانيت حفراً بديعاً ومزينة بحلى ذهبية. وكان وجهه ضخماً بأنف عريض وفم واسع ذي شفتين مكتنزتين وفك قوي يزيد من صرامة وجهه. وهناك نصوص أخرى، بالأخص تلك التي وجدها جريفث في «كاوا» تلقي مزيداً من الضوء على سياسة هذا الملك في اقامة المعابد وتزويدها بالموظفين والسدنة وتقديم القرابين النفيسة ومنح أثمن العطايا تقرباً للآلهة. ولقد شهد العام السادس من حكمه احتفالاً بفيضان النيل اشارة الى الرخاء الذي عم المملكة[١٢]. كما أن قدوم الملكة الأم أبالي (Abale)[١٣] يتيح للملك فرصة للاسهاب في وصف المناسبة السعيدة..

---

(٧) لقد اطلق المصريون والنوبيون على هذا الكيان السياسي اسم «كوش» وهو الاسم الذي كان يطلق على منطقة النيل الأوسط منذ عهد الدولة الوسطى. ولقد ورد الاسم في الكتاب المقدس. ومن ثم يسمي المؤلفون الانجليز هذه الأسرة بالأسرة «الكوشية». وسنتجنب هنا استعمال صفة «الاثيوبية» التي تعرف بها الأسرة الخامسة والعشرون عند الفرنسيين تحاشياً لأي خلط مع دولة اثيوبيا (الحبشة) المعاصرة.

(٨) H. Von Zeissl, pp. 21-26.

(٩) J. Leclant 1965 b, Index, p. 407.

(١٠) D. Dunham and, O. Bates, 1955, Vol. II, pp. 6-16.

(١١) Tomb WT I, Sedeinga: M.S Giorgini, pp. 116-123.

(١٢) لقد نتج هذا الفيضان عن أمطار غزيرة أهلكت الماشية وغمرت البلاد كافة، ولكن عناية آمون قد حالت دون المزيد من الكوارث، وقضت على القوارض والأفاعي وأبعدت خطر أسراب الجراد وحالت دون هبوب رياح الجنوب بشدة.

(١٣) M.F.L. Macadam, 1949, Inscrip. IV, pp. 18-21.

لقد قبل «طهرقا» التحدي الذي فرضه الآشوريون. ويجيء ذكر اسمه في الكتاب المقدس حين «يثير المحاربون السود الذين قدموا من أرض كوش الهلع»(١٤). لقد اخفق أسّرحَدّون (٦٨١-٦٦٩ق.م.) في غزو مصر، لكن خلفه آشور بانيبال استطاع على رأس جيش عظيم أن يحتل طيبة في ٦٦٣ق.م.

الملك تانوات آمون ونهاية السيطرة السودانية

في ذلك الوقت كان تانوات أمون بن شباتاكا شقيق طهرقا، قد اعتلى العرش. ويشير ما يسمى «بلوحة الرؤ يا» الى وجود ثعبانين وهي اشارة واضحة الى الصلين رمز سيادة ملوك كوش. وتمضي اللوحة في وصف تتويج تانوات أمون في نباتا وزحفه شمالاً، واحتلاله لمفيس ثم تشييد بعض الأبنية في نباتا، وإنفاذ حملته الى الصحراء، وفرض السيطرة على الأمراء المحليين. غير أن هزيمة الكوشيين على يد الآشوريين قد أدت الى انسحاب الكوشيين وأنهت حكم الأسرة الخامسة والعشرين لمصر. ومنذ ذلك الحين اتجهت مصر صوب البحر الأبيض المتوسط حيث استطاع ابسماتيك الأول أحد أمراء الدلتا اعادة توحيدها وتحريرها من الآشوريين. وفي السنة التاسعة من حكمه (٦٥٤ق.م.) تمكن من تحقيق اختيار ابنته نيتوكريس كاهنة أولى منذورة لاله طيبة(١٥).

المملكة التوأم

على امتداد الخمسين سنة التالية استمرت مملكة كوش توأماً للمملكة المصرية. كان رمز السلطة في المملكتين واحدا: الصل المزدوج أو الثعبانين اللذين يعلوان جبهة الفرعون ويحرسانه. وكانت ألبسة ملوك كوش مماثلة لتلك التي عرفها فراعنة مصر، كما كان طراز الأبنية فرعونياً. وقد نقشت النصوص التي تركوها بلغة مصرية تقليدية خالصة. غير أن ملامحهم البشرية كانت أقرب الى ملامح الرعاة الحاميين المنحدرين من سلالة سوداء تتميز ببروز عظام الوجنتين، وسمك الذقون وغلظة الشفاة، كذلك كانت أدوات الزينة التي استعملوها سودانية الأصل. وقد تميزوا بغطاء للرأس يحكم وضعه على الرأس وينسدل على الرقبة بأحكام، مع قطعة جانبية لوقاية الصدغ، وعصابة رأس معقودة لتثبيت الغطاء في موضعه تاركين شريطين يتدليان من الكتفين. كذلك كانوا كالسودانيين يلبسون الأقراط والقلائد المزينة بتماثيل صغيرة لرؤ وس كباش. فالكبش هو الحيوان المقدس للإلّه آمون. وفي الواقع أن آمون كان الإلّه الأعظم لهذه الأسرة، وقد عبد في أربعة معابد رئيسية في: نباتا، توره (هي في الأغلب صنم، كاوا، وبنوبس (=تبو) في جزيرة اركو. ولقد كانت بعض الأميرات يكرسن للخدمة كعازفات للإلّه آمون. ومن الملاحظ أن أمهات وزوجات وأخوات وقريبات الملوك كثيراً ما كن يقمن بخدمة الآلهة في الجانب السوداني من الامبراطورية. ولم يكن الحال كذلك في مصر على الرغم من ان الفراعنة الكوشيين قد استعانوا ببعض الكاهنات المتبتلات لخدمة الآلهة في طيبة، وهن أميرات نذرن أنفسهن للعذرية، حيث أن الإلّه آمون هو بعلهن الوحيد.

---

(١٤) سفر الملوك الثاني، ١٩، ٩ - سفر اشعيا، ٣٧، ٩.

(١٥) R.A. Caminos, 1964 b, pp. 71-101.

واذ كانت أسرة أمينيردس وأسرة شبنوبت قد منحت امتيازات شبه ملكية، فقد توارثت الكهانة بين أفرادها، فكانت ابنة الأخ أو الأخت تخلف العمة او الخالة، ولكن السنوات لم تؤرخ باسم أي من الأسرتين، ولم يكن لهما شأن فيما يتعلق بفيضان النيل. وعلى الرغم من أنهما كانتا على رأس مؤسسة كبيرة الا ان سلطتهما كانت محدودة وذلك بوجود «حاكم للمدينة» مقيم في طيبة ذاتها كممثل للفرعون.

إن عظمة الأسرة الخامسة والعشرين جد كبيرة، وقد تناقل الكتاب اليونان والرومان سيرة هذه الأسرة على نحو كامل. ويتسم فن هذه الحقبة في الواقع بقوة التعبير، فقد استوعبوا أفضل ما في الفن السابق من أساليب واعطوا للفن دفعة قوية ونفثوا فيه روحاً جديدة.

نباتا العاصمة الأولى لامبراطورية كوش

بعد الانسحاب الكوشي من مصر تحت ضغط الآشوريين، يدخل تاريخ كوش مرحلة صعبة ويصبح تتبع سيرة الملوك مسألة شاقة. لقد استمرت المملكة حوالى ألف عام أخرى، زادت فيها الصبغة الافريقية وظلت محتفظة باسمها كوش، وهو الاسم الاصلي القديم للبلاد. وفي نظر علم المصريات الاصطلاحي فإن هذا العهد يمثل فترة طويلة من الانهيار التدريجي. وعلى الرغم من تأثر هذه الحضارة بالحضارة المصرية فهي في الحقيقة حضارة افريقية: كانت تتقوقع على نفسها تارة وتارة اخرى تحاول الارتباط بالحضارة المصرية. وكانت تصلها بين الفينة والفينة تيارات ثقافية من البحر المتوسط، وعلى الأخص بعد تأسيس الاسكندرية.

وفي البدء ظلت العاصمة في نباتا عند سفح جبل برقل. وفي وقت لاحق، حوالى القرن السادس قبل الميلاد، انتقلت العاصمة جنوباً الى مروى. ولا نعرف على وجه التحديد مدى اتساع مملكة كوش ولا تزال المكونات الاقليمية لهذه المملكة تحتاج الى المزيد من الايضاح. ففي أقصى الشمال، حيث النوبة السفلى، ظلت المنطقة مثار منازعات بين المرويين من جهة وحكام مصر من جهة أخرى (ملوك العصر الصاوي، الفرس، البطالمة، ثم الرومان). فبعد نهاية الدولة الحديثة (حوالى ١٠٨٥ق.م.) تدخل هذه المنطقة فترة تنعدم فيها المعلومات، ويبدو أنها ظلت تعاني من نقص سكاني حتى بداية العصر المسيحي. وربما كان سبب ازدهارها هو دخول الساقية (انظر الفصل الحادي عشر).

وتمتد النوبة الأصلية، قلب الامبراطورية، على طول النيل عبر أودية نباتا، ودنقلة، وكرمة، وهي تبدو مختلفة تماماً عن «جزيرة مروى». أما إلى الشرق حيث البطانة فيوجد العديد من المواقع التي لم يجر فيها التنقيب، كما أن طرق القوافل وساحل البحر الأحمر لا تزال تنتظر البحث الأثري. ولم تمتد معاول الأثريين جنوباً في أرض «الجزيرة» الخصبة ومنطقة الأستبس (السهوب) الى المدى الذي يمكننا من تصور الحدود الجنوبية للمملكة. لكن من المسلم به أنها قد شملت منطقة أواسط السودان وامتدت جنوباً حتى سنار على النيل الأزرق وكوستي على النيل الأبيض على أقل تقدير. ولا بد أن نأخذ في الاعتبار المخلفات التي عثر عليها في جبل مويه والى الغرب لا بد أن يكون أثرها قد وصل – على الأقل – الى كردفان، ونأمل أن تأتينا الحفريات الجارية عبر حزام السافانا للاقليم النيلي التشادي بالمزيد من المعلومات.

وتزوّدنا قبور جبانة نوري[١٦] في منطقة نباتا، على الرغم من ان معلوماتنا عنها لا تزال طفيفة بما هو ضروري لتحديد معالم تاريخ ملوك الأسرة النباتية. لقد بقيت الصبغة المصرية غالبة على الملوك الأوائل الذين دفنوا في نوري. وكما هو الحال بالنسبة لملوك الاسرة الخامسة والعشرين، فقد دفن هؤلاء في مقابر تعلوها اهرامات ذات طراز مصري كتلك التي عرفها كبار شخصيات الفترة الأخيرة من الدولة الحديثة، وليست كالأهرامات الملكية للأسرة الرابعة. كما أن الزخرف في حجرات الدفن والتوابيت المنحوتة من الجرانيت تتمشى مع الأسلوب المصري في كل التفاصيل: فالنقوش الدينية التي تغطي جوانبها تتبع تقليداً يرجع الى أهرامات مصر، كما أن بعض أدوات الأثاث الجنائزي التي افلتت من نابشي القبور كجرار سكب القرابين وتماثيل الأوشابتي والتماثيل الصغيرة تماثل تماماً تلك التي وجدت في مصر.

نكاد لا نعرف شيئاً عن الملكين اللذين خلفا تانوات آمون وهما اتلنيرسا (Atlanersa) (٦٥٣ - ٦٤٣ق.م) بن طهرقا ثم سانكمانسكن (Senkamanisken) (٦٤٣ - ٦٢٣ق.م.) بن اتلنيرسا. لقد وجدت لهما أجزاء تماثيل جميلة في جبل برقل. أما ابنا سانكمانسكن، وهما انلماني (Anlamani) (٦٢٣ - ٥٩٣ق.م.) ثم أسبلتا (Aspalta) (٥٩٣ - ٥٦٨) واللذان خلفاه في الحكم على التعاقب فإن المعلومات متوفرة نسبياً عنهما. وتتحدث لوحة الملك انلماني[١٧] التي عثر عليها في «كاوا» (Kawa) عن جولة قام بها في أقاليم المملكة وكيف أنه أدخل بعض الاصلاحات على المعابد، ثم قاد حملة على قبيلة لعلها «البليمين»، ويتحدث عن قدوم الملكة الأم نسالسا وتكريس أخوات الملك عازفات للصلال في معابد آمون الأربعة.

أما أخو الملك وخليفته اسبلتا (Aspalta) (٥٩٣-٥٦٨ق.م.) فقد عثر له على نقشين منذ عدة سنوات يتحدث احدهما - وهو «لوحة التتويج» - الذي يرجع تاريخه الى العام الأول من حكم الملك[١٨] عن تجميع الجيش عند جبل برقل حيث رأى القادة الاحتكام الى آمون نباتا. لقد قررت الآلهة اختيار أسبلتا الذي يرجع نسبه الى «الأخوات الملكيات» أو «الأميرات». وتقلد اسبلتا شارات الملك وشكر الآلهة وتضرع اليها، واستقبله الجيش بحفاوة، وقدم الهدايا للمعبد. وحسبنا هذا القدر عن الدعامات الدينية والعسكرية للملكية الكوشية.

أما «لوحة توزيع الاقطاعات» (Stele of the Appanaging) المؤرخة بالعام الثالث من حكم الملك أسبلتا، والمودعة الآن بمتحف اللوفر، فهي تتحدث عن تنصيب احدى الأميرات كاهنة. وهنالك نقش آخر عثر عليه «رايزنر» في جبل برقل يتحدث عن وقف الملك أموالا لاقامة الكهنة صلوات على روح خاليوت (Khaliut) بن بي وذلك بعد موته بمدة طويلة. ومن ناحية أخرى فإن الشك يدور حول نسبة «لوحة الحرمان» للملك أسبلتا، حيث أن أسماء الملك قد وجدت مطموسة.

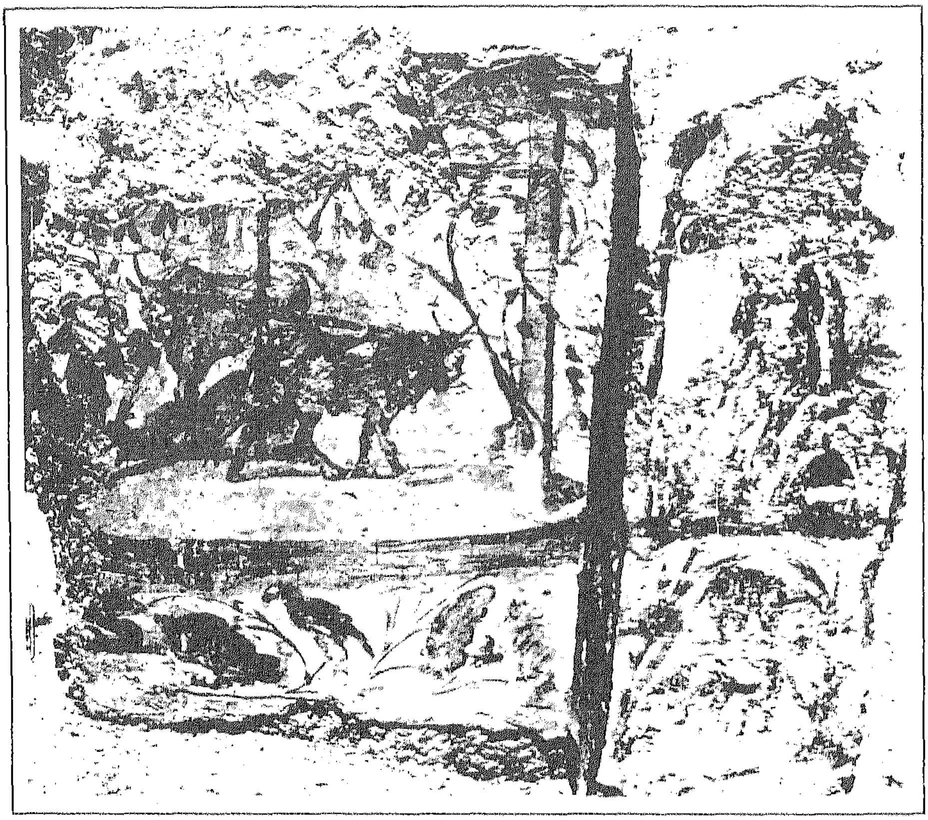
ويحكي هذا النص المبهم خبر مؤامرة دبرها بعض أفراد أسرة لاغتيال شخص ما، وكيف ان هذه الزمرة قد حرمت من حق الاستجارة بمعبد آمون نباتا اذ ادانهم الإله وقضى بحرقهم. وقد طلب الملك من الكهنة ان يقسموا على ادانة مثل هذه الجرائم.

---

(١٦) D. Dunham and O. Bates.

(١٧) M.F.L. Macadam, 1949, pp. 44-50, Plates 15-16.

(١٨) I. Hofmann, 1971 a.



ساقية (عن مجلة «أركيولوجي»، خريف ١٩٧٧، المجلد ١٧، العدد ٣)

حملة أبسماتيك الثاني وسقوط نباتا

لقد عاصر الملك اسبلتا الملك ابسماتيك في مصر. وهنا نجد إشارة معاصرة نادرة، ربما كانت الوحيدة في فترة امتدت لألف عام. ففي سنة ٥٩١ق.م. التي تصادف السنة الثانية من حكمه غزت جيوش مصرية، - تضم بعض المرتزقة الاغريق تحت امرة القائدين امازيس وبوتاسيمتو[١٩] - مملكة كوش واستولت على نباتا.

نقل العاصمة الى مروى

بعد ذلك عمل الكوشيون على توسيع الشقة بينهم وبين جيرانهم الأقوياء في الشمال. ومما لا شك فيه ان السبب في نقل العاصمة من نباتا إلى مروى يرجع لهذه الحملة التي لم تعط، ولفترة طويلة، نصيبها من الأهمية. وتقع مروى الى الجنوب على مسافة غير بعيدة من الجندل السادس وكان أسبلتا أول ملك يتخذ منها عاصمة. غير أن نباتا بقيت العاصمة الدينية للمملكة، وظل الملوك يدفنون في مقبرة «نوري» حتى نهاية القرن الرابع ق.م.

في عام ٥٢٥ق.م. ظهر الخطر الفارسي. ونحن نعرف جواب الملك النوبي على رسل قمبيز[٢٠] (هيرودوت ك.٣, ٢١) حيث يقول «إن كان بامكان الفرس الانحناء بسهولة كما افعل، ويرمون بقوس كبير كما اعمل، فعليهم الزحف على الأثيوبيين بقوات متفوقة العدد». غير أن قمبيز لم يأخذ بهذه النصيحة ولم يستطع جيشه اختراق منطقة «بطن الحجر»، وعاد بخسائر فادحة. ورغم ذلك فقد اعتبر الفرس أهل كوش في عداد الشعوب الخاضعة لهم. وقد افردت لوحة للاشارة اليهم ضمن شعوب الامبراطورية المسجلة على قاعدة التمثال الفخم للملك دارا الذي عثر عليه منذ فترة وجيزة في سوسا[٢١]. ومن المرجح ان جزءاً صغيراً من المملكة قد خضع فعلاً للفرس، كما ان بعض فصائل كوشية قد انخرطت في جيوش دارا واجزركسيس. وهنالك اشارات لهدايا من الذهب والأبنوس وسن الفيل وحتى من الاطفال احياناً، وهذه كلها كانت ترسل - على ما يبدو - ضمن الجزى التي كانت تفرضها مصر من قبل - على برسبوليس وسوسا.

وثمة تفسير آخر لنقل العاصمة يستند الى عوامل مناخية واقتصادية. فالسهوب حول مروى أفسح منها حول نباتا التي تحاصرها الصحراء، فإلى جانب تربية المواشي، قامت الزراعة، حيث أن الأخيرة كانت ممكنة في هذه المنطقة التي يسقط فيها المطر صيفاً. وقد حفرت أحواض ضخمة للري حول المواقع الرئيسية. ومن المؤكد ان التجارة كانت نشطة لأن «مروى» كانت تتمتع بموقع ممتاز على الطريق بين البحر الأحمر وأعالي النيل وتشاد. وفوق ذلك توافرت الأشجار التي يمكن الاستفادة منها في صهر الحديد الموجود في الصخور الرملية المحيطة بالمنطقة. وتشير أكوام نفايات الحديد حول المدينة الى ضخامة انتاجه. لكن أهل الرأي المحدثين لا يقرّون وصف مروى بأنها «برمنجهام افريقيا» لأنه ينطوي على المبالغة[٢٢].

---

(١٩) S. Sauneron and J. Yoyotte, 1952, pp. 157-207. وقد نشرت ترجمة جديدة لهذا النص في: H.S. Bakry, pp. 225ff., Plates 56-59.

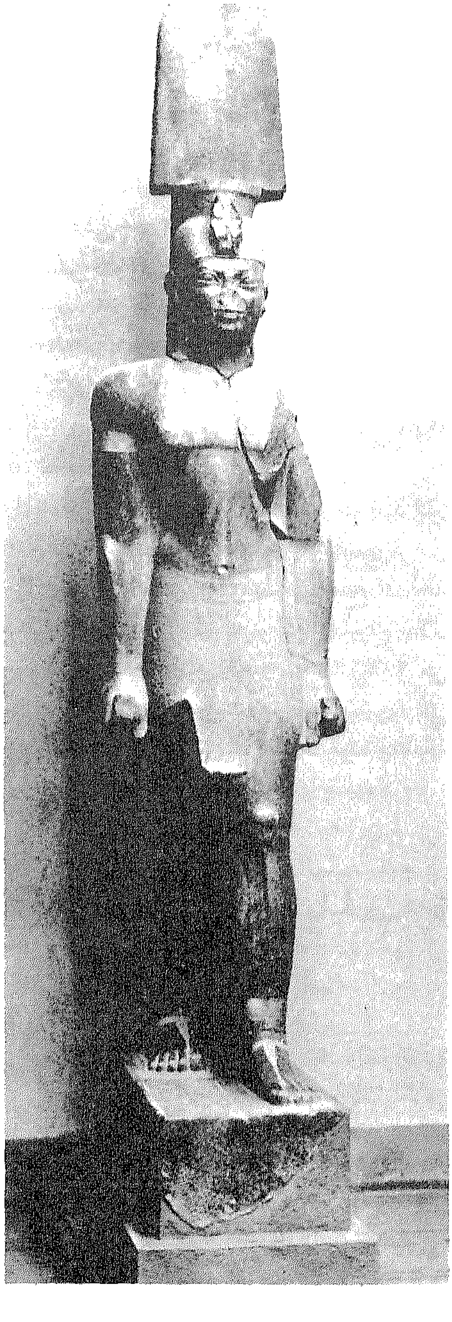
(٢٠) Herodotus III, 21.

(٢١) J. Perrot et al, pp. 235-266.

(٢٢) انظر قائمة المراجع، وعلى الأخص: B.G. Trigger, 1969, pp. 23-50, and H. Amborn, pp. 74-95.



٢



١

١ : تمثال الملك أسبلتا من الجرانيت الأثيوبي الأسود
٢ : رأس التمثال مفصّلاً

ويبقى المؤرخون عاجزين عن تقديم أية معلومات عن هذه المملكة طوال عدة قرون من تاريخها سوى تلك المستمدة من المقابر الملكية. فيمدنا «رايزنر» بقائمة من أسماء الملوك التي عثر عليها في هذه المقابر. ولقد تعرضت هذه القائمة لكثير من التعديل ولا يزال احتمال اجراء المزيد من التعديلات قائماً. لقد كان نستاسن آخر ملك يدفن في نوري (قبل عام ٣٠٠ق. م. بسنوات قليلة) ومن ثم انحصر دفن الملوك والأمراء في جبانات مروى. غير أن بعضهم قد دفن في جبل برقل وهو ما دفع بعض المؤرخين الى الاعتقاد بقيام أسرتين حاكمتين في النوبة الشمالية مناظرتين للأسرتين في مروى، احداهما قامت بعد موت نستاسن مباشرة والثانية في القرن الأول ق. م.(٢٣) وليس هناك سوى نقوش رئيسية قليلة تلقي بعض أضواء متناثرة على هذه الفترة.

وربما يكون من الأصوب القول بأننا في حاجة الى أن نبحث وراء الرموز الهيروغليفية التي استخدمها المصريون والتي قد تتخذ أشكالاً غريبة بل بالغة الغرابة، عن «حواش» أو عن استعمالات اللغة المعاصرة - والتي هي في واقع الأمر الديموطيقية - وكذلك عن آثار لغة مروى، التي هي لغة الكوشيين أنفسهم.

ولدينا عدة نقوش تتحدث عن الملك امانوتيركي (Amannoteyeriké) الذي حكم قبل ٤٠٠ق. م. بفترة وجيزة. يتحدث أحدهما عن تتويج الملك «الرجل القوي ذي الواحد والأربعين ربيعاً» وتتحدث نقوش أخرى عن عمليات عسكرية واحتفالات دينية وعن موكب تحمل فيه المشاعل، وزيارة الملكة الأم وترميم بعض المباني وتقديم بعض الهبات لمعابد الآلهة.

جاء هارسيوتف (Harsiotef) الذي ترك نقشاً معروفاً يتحدث فيه عن احتفالات وغزوات ضد كثير من العناصر المعادية. وهذا النقش يماثل في مضمونه لوحة نستاسن، التي نقلت على يد لبسيوس الى متحف برلين. وبالمصادفة تزودنا هذه اللوحة عرضاً بتوافق زمني للحوادث، هذا إن صح أن أحد النقشين يحمل حقاً اسم خبباش (Khababash)، الملك الصغير الذي حكم مصر فترة قصيرة (خلال النصف الثاني من القرن الرابع ق. م.). لقد عاد نستاسن من احدى غزواته ومعه ٢٠٢١٢٠ من رؤوس البقر و٥٠٥٢٠٠ من صغار الماشية. وهنالك اشارات لعدد كبير من المجموعات البشرية التي ربما سكنت في منطقة السافانا بين النيل وتشاد. ويتميز النقش الذي على اللوحة بالجودة والأناقة وينهض دليلاً على استمرار التأثير المصري المباشر أو عودة ذلك التأثير.

اركمنيس (ارجامون) (Ergamenos) : المتأثر بالحضارة الهلينية

ان الكتابات اليونانية عن الملك اركمنيس تتحدث عن النهضة التي اتسمت بها تلك الفترة. وثمة اشارة الى السطوة التي كان يتمتع بها الكهنة في ذلك العهد، والتي بلغت حداً كان يمكنهم من اصدار الأمر للملك بالانتحار. يتحدث ديودور الصقلي(٢٤) عن الملك اركمنيس الذي استطاع أن يصارع هؤلاء

(٢٣) عن التسلسل الزمني لتاريخ «مروى»، انظر قائمة المراجع.

(٢٤) Diadorus Siculus III, 6 ليس هناك ما يؤيد قوله بأن الكهنة كان باستطاعتهم فعلاً اعدام الملك أو حمله على الانتحار.

الكهنة ويعدم عدداً منهم في النهاية. غير ان الشك يثور حول مَن مِن الملوك المرويين الثلاثة المعروفين يكون اركمنيس هذا. هل هو أركاكماني (Arkakamani) ، أم هو أرنيخماني (Arnekhamani)أم هو أرقواماني (Arquamani) ؟ إن أرنيخماني هو الذي بنى «معبد الأسد» في المصورات الصفر (Mussawwarat es-Sufra) (٢٥) حيث يمكن قراءة تراتيل نظمت باللغة المصرية السائدة في العصر البطلمي، الشيء الذي يؤكد وجود فنانين وكتبة مصريين في مروى. وفي الوقت ذاته نجد رسوماً بارزة ذات طابع مروي بحت: غطاء الرأس والزينة، وشارات الملك هي ذات طابع محلي، ولا يلتزم رسم الوجوه بقواعد الفن المصري.

والى جانب الآلهة الفرعونية، كانت العبادة تتمركز حول الإلهين المرويين الصميمين أبيدماك (Apedemak) (٢٦) الإله الأسد، والإله سبوميكر (Sbomeker). وليس ثمة شك في استمرار العلاقات مع مصر، كما يتضح من الاهداءات النوبية - المصرية المشتركة في معابد فيلة والدكة.

ومع هذا فإن الثورات التي شهدها جنوب مصر البطلمية في نهاية القرن الثالث ق.م. ربما قامت بفضل الدعم النوبي. وقد اضطر بطلميوس الخامس الى ارسال حملة الى النوبة، كما أسس بطلميوس السادس مستوطنات في منطقة «ترياكنتاسخوينوس (Triacontaschone) (٢٧)».

اللغة المروية وطريقة الكتابة

مع مجيء الملكة شاناكدختي (Shanakdakhete) (حوالى ١٧٠ - ١٦٠ق.م.) يبدأ - على ما يبدو - نظام سيطرة الأم أو رئاسة الأم للأسرة(٢٨). وقد عثر في بناء فخم باسم هذه الملكة في «النقعة» على نقوش مكتوبة بالهيروغليفية المروية، وهي من ضمن أقدم ما عرف.

والمعروف أن هذه الهيروغليفية مقتبسة من نظيرتها المصرية ولكنها ذات مدلولات لفظية مختلفة. وتكتب وتقرأ بطريقة عكسية للهيروغليفية المصرية. وقد يدل هذا على رغبة متعمدة في الاختلاف. ومع الكتابة الهيروغليفية توجد أخرى بخط سيال أي بأحرف متصلة (كخط الرقعة)، وهي في الغالب مختزلة ويبدو أن علاماتها مقتبسة جزئياً من الكتابة الديموطيقية (الدارجة) التي كانت مستعملة في مصر وقتئذ في الحياة اليومية لتدوين الوثائق الرسمية والعقود الخاصة. وأياً كان الأمر، فإن اللغة المروية التي لا يزال أصلها غير معروف، وكذا نظام كتابتها، كلاهما يختلف عن اللغة المصرية ونظام كتابتها اختلافاً تاماً: وتمثل الثلاث والعشرون علامة المستخدمة الحروف الساكنة (الجامدة) وبعض حروف العلة (اللينة) والمقاطع. وكثيراً ما تفصل «علامات الوقف الاستدراكي» بين كلمات وأخرى. وقد وجد الباحث الانجليزي ف. ل. جريفث في عام ١٩٠٩ المفتاح لكتابة حروفها بالأحرف الانجليزية. ومنذ

(٢٥) F. Hintze, 1976.

(٢٦) L.V. Zabkar.

(٢٧) أطلق الاغريق اسم Dodecaschoinos على المنطقة الواقعة الى جنوب فيلة، وطولها حوالى ١٢ سخوينوس (Sholnos)، أي حوالى ١٢٠ كيلومتراً. وقد ثار جدل حول ما اذا كانت الـ٣٢٠كم (المعادلة تقريباً للثلاثين سخوينوس) (triakontaschoins) ينبغي أن تحسب أيضاً بدءاً من فيلة أو - بالعكس - من الطرف الجنوبي الأقصى للمنطقة المحددة أعلاه.

(٢٨) أنظر: B.G. Haycock, pp. 461-480; I.S. Katznelson, 1966, pp. 35-40 باللغة الروسية؛ M.F. L. Macadam, 1966, pp. 46-77; J. Desanges, 1968, pp. 89-104; July 1971, pp. 2-5

ذلك الحين صنفت النصوص الى أنواع مختلفة مع وضع العبارات المتناظرة - على سبيل المقابلة - جنباً الى جنب خاصة تلك المأخوذة من النصوص الجنائزية. فالنصوص المستهلة بابتهال الى ايزيس وأوزوريس تحتوي على اسم الميت واسم والدته (وهذا في العادة يتصدر القائمة) واسم والده واسماء اخرى لذوي القربى بالعصب أو المصاهرة والتي تزخر بالقاب ومراتب سامية ثم أسماء بعض الأماكن والمعبودات. على كل حال فمن الصعب الافاضة أكثر من ذلك. وبفضل الدراسة - وعلى الأخص دراسة طريقة استعمال أداة التعريف أمكن تجزئة النص الى وحدات تعرف باسم (Stichs)، أي الى جمل أو فقرات غير طويلة ويمكن اعرابها بسهولة. كما بذل مجهود لفهم الأفعال حيث اكتشف نظام البوادىء واللواحق التي تضاف الى صدرها أو عجزها.

وصار من الممكن في السنين الأخيرة - بفضل تقنية الكمبيوتر - تسجيل هذه النصوص بطريقة منتظمة مما ساعد على ترجمتها حرفياً بالاضافة الى تحليلها(٢٩). وعلى كل فمن الصعب في الوقت الحالي ترجمة هذه النصوص التي وصل عددها الى نيف و٨٠٠ نص.

وأول نصوص مروية مطولة تظهر في مسلة الملك تانيدماني (Taniydamani) الذي يرجع تاريخه الى حوالى نهاية القرن الثاني قبل الميلاد. وبالضرورة فإن عدم التيقن من التسلسل الزمني لتاريخ مروى - وعلى الأخص بالنسبة لهذه الفترة - حدا بعض العلماء على الأخذ بوجهة النظر التي تقول بوجود دولة مستقلة بنباتا، التي يشك كثيراً في صحتها. ومن بعد ذلك، تتبوأ الملكتان أمانريناس (Amanirenas) وأمانيشختو (Amanishakheto) مركزاً سامياً له وزنه وخطورته. ويبقى زوجاهما في طي النسيان. ليس هذا فحسب، بل ان اسم زوج امانيشختو ليس معروفاً. وقد اعتلى العرش ايضاً لعدة سنوات، الأمير السابق اكينيداد (Akinidad) ابن الملكة أمانريناس والملك تريتقاس (Teriteqas).وعليه فمن المهم معرفة أي من الملكتين كانت الأولى واضعين في الاعتبار أن كلتيهما كانت تحمل نفس الاسم كنداكه (Candace) وهو صورة للقب المروى كدكه (Kdke)(٣٠)

روما ومروى

وكان لأحدى هاتين الملكتين شأن مع الامبراطور أغسطس في حادثة مشهورة، وتعد هذه واحدة من المناسبات النادرة التي تظهر فيها مروى على مسرح التاريخ العالمي. فعلى أثر نهب المرويين لأسوان (حين سلبوا - على ما يرجح - تمثال أغسطس الذي وجد رأسه مدفوناً تحت عتبة أحد قصور مروى) جرد والي مصر الرومانية آنذاك - بترونيوس (Petronius) - حملة تأديبية واستولى على نباتا عام ٢٣ق.م. ووضع الرومان حامية مستديمة في بريميس (Primis) (قصر ابريم) والتي كان لها اثرها في صد المرويين(٣١). وفي عام ٢١ أو ٢٠ق.م. ابرمت اتفاقية سلام بين الطرفين في ساموس (Samos) حيث تصادف أن كان أغسطس يقوم آنئذ بزيارة لهذه الجزيرة.

(٢٩) لقد بدأ «فريق الدراسات المروية في باريس» تسجيلاً بالكمبيوتر للنصوص المروية التي جمعت كلها في «سجل النقوش المروية» (Répertoire d'Epigraphie Méroïtique) انظر المراجع فيما يلي، وعلى الأخص المقالات المنشورة في: Khartoum, 1974, pp. 17-40.

(٣٠) انظر هامش ٢٨ فيما تقدم.

(٣١) J. Desanges 1949, pp. 139-147 and M.J. Plumley, 1971, pp. 7-24, I. map , II illustrations.



الملكة امانيشختو: نقش بارز من هرم في مروى

وعلى اثر هذه الاتفاقية انسحبت القوة الرومانية، وألغيت الجزية التي فرضت على النوبيين، وجعلت هيراسكامنوس(Hierat Sycaminos) (المحرّقة) كنطقة ثابتة للحدود بين الامبراطوريتين الرومانية والمروية. هل يمكننا معرفة ما اذا كانت أمانريناس (Amanirenas) أو أمنيشختو (Amanishakheto) هي العوراء رجولية المظهر كنداكه (Candace)التي أجرت - كما يعتقد سترابون (Strabon) وبلينيوس (Pliny)وديون كاسيوس (Dion Cassius) - مفاوضات السلام مع الغزاة الرومان؟

الامبراطورية المروية في قمتها

شهدت هذه الفترة الموافقة لظهور المسيحية احدى قمم الحضارة المروية، وينهض شاهداً على ذلك عدد كبير من المباني. فقد ذكر اسم أكينيداد والملكة امنيشختو بالمعبد ت (T) في كاوا، بالاضافة الى اكتشاف قصر بتاريخ أحدث اكتشف في واد بنقعة بالقرب من النهر وقد نسب للملكة [٣٢]. كما لا يزال يوجد قبرها الجميل بالجبانة بالشمالية بمروى[٣٣]. ويعتبر الهرم ذو الممر الشرقي التقليدي المؤدي الى صرح المعبد من أكثر مباني المدينة القديمة تأثيراً في النفس. وفي عام ١٨٣٤، عثر المغامر الايطالي فيرليني (Ferlini) على مجوهرات فاخرة تعد اليوم من نفائس متحف ميونخ ومتحف برلين. وقد وجدت حليٌ مشابهة في المنحوتات البارزة للملكات وأمراء تنم عن ترف زاه باهر، وهو ترف يشابه- الى حد ما- ترف حضارة أخرى تميزت بغنى تجارها على تخوم العالم الهلينستي ونعني حضارة بالميرا (Palmyra – تدمر). والى هذه الكماليات أضيفت لمسات تمثل القوة والعنف ومناظر وحشية يرى فيها الأسرى تمزقهم الأسود إرباً إرباً أو يوخزون بالخوازيق أو تنهشهم الطيور الجارحة.

ويعد نتكامني (Natakamani) ، صهر وخليفة الملكة امانيشختو، وزوجته الملكة امنيتري (Amanitere) ، (١٢ق.م. الى ١٢م.) هما الآخران من أعظم مشيدي المباني. وكثيراً جداً ما يظهر اسماهما في البقايا الأثرية الكوشية. وفي كل أنحاء المدن الكبرى لهذه الامبراطورية، تتحدث هذه الآثار عن مدى قوة أسرة الملكة وهي في أوج سلطانها. ففي الشمال عند موقع أثري جنوب الجندل الثاني، بنى الملك والملكة معبداً في عمارة حيث تتميز النقوش بطابع مصري، ولا يوجد عنصر غير مصري سوى غطاء الرأس الملكي ذي الأصل المروي، وهو عبارة عن قلنسوة ضيقة مزينة بعصابة تتدلى من الخلف. ولم يشك أحد في نسبة التمثالين الضخمين الموجودين بجزيرة ارجو شمالي الشلال الثالث الى نتكامني وزوجته[٣٤]. كما اضطلع الزوجان الملكيان بمهمة اعادة بناء نباتا التي خربتها حملة بترونيوس، على الأخص معبد آمون. ويظهر اسما نتكامني وزوجته في معبد آمون الكبير مقرونين باسم الأمير أريكانخرور (Arikankharor) . والمعبد الجنوبي في واد بنقعة من عملهما. وقد أولى الزوجان اهتماماً خاصاً بالنقعة، وهو المركز العمراني الكبير في منطقة الاستبس الواقعة الى جنوب مروى: فقد اصبحت الواجهة الأمامية لمعبد آمون صرحاً تجمع زخرفته بين التأثيرات المصرية والسمات المروية

(٣٢) J. Vercoutter 1962, pp. 263-299.

(٣٣) D. Dunham and O. Bates, IV, pp. 106-110.

(٣٤) يرى س. فنج (S. Wenig) أنه لا بد الآن من التسليم بأن الملك وزوجته انما هما تجسيد للإلهين أرسينوفيس (Arsenuphis) وسبيومكر (Sebiumeker) - ١٩٦٧، ص ١٤٣ - ١٤٤.

البحتة في حين أن اشهر مبنى هو معبد الأسد بالنقعة. الذي تعد نقوشه البارزة مثالاً نموذجياً للفن المروي. وقد تعرف الأثريون على اهرامات الملك والملكة والأمراء في مروى. وكان يروق للملك وقرينته أن يرسما برفقة أحد أمراء الأسرة، أريكا نخرور (Arikankharor) أو أريكاختياني (Arikakhatiani) أو شركرور (Sherkaror)وفقاً لشكل المبنى، ولربما كان هؤلاء الأمراء نوّاباً للملك على المقاطعات التي ظهر كل منهم في معابدها الرئيسية، ويبدو أن شركرور قد اعتلى العرش بعد والديه في السنوات الأولى من مستهل العصر المسيحي. ويصور النحت الصخري من جبل قيلي جنوب البطانة انتصاره على عدد كبير من أعدائه، وهو في حمى أحد آلهة الشمس.

مروى والأقاليم المجاورة

وعن السنوات القليلة التالية توفرت لنا معلومات عن الحادثة الشهيرة المسجلة في «أعمال الرسل» (الأصحاح الثامن، ٢٦ الى ٣٩) عن هداية الشمّاسي فيليب، وهو في الطريق من القدس الى غزة «لرجل حبشي خصيّ وزير لكنداكه ملكة الحبشة كان على جميع خزائنها...»[٣٥] ومهما كانت قيمة وأهمية هذا البرهان فهو يشير الى أن مروى قد عرفت في أصقاع بعيدة.

وهناك أسلوب آخر حاول الباحثون عن طريقه اثبات قيام علاقات مع العالم الخارجي: هناك تمثال لأبيدماك، الاله الأسد، يظهر فيه بقناع أسد ذي ثلاثة رؤوس، وأربع أذرع[٣٦]، ويشير هذا الى أثر من الهند مثلما يظهر في النحت الحجري في النقعة حيث مثلت زهرة لوتس تبرز منها حية. ويصير عنق الحية جسم انسان بذراع واحدة، وهي قناع أبيدماك لابساً تاجاً ثلاثياً. وفي أنقاض المصورات الصفر تلاحظ أعداد هائلة لصور أفيال ومن بينها صورة فيل غريبة الشكل مستعملة لتغطية حائط عريض. وتتجه أحدث البحوث الى التخلي عن فكرة الأصل الهندي والبحث عن أصول محلية بحتة لمملكة كوش، وهي الأكثر اثارة للاهتمام[٣٧]. وقد ظل هذا البلد النائي يثير فضول الرومان. وحوالى سنة ٦٠م أرسل الامبراطور نيرون بعثة عسكرية الى أعالي النيل. وفي طريق العودة صرح رجال البعثة بأن هذه البلاد فقيرة الى درجة لا تستحق حتى غزوها[٣٨]. وهناك نقش مدون باللغة اللاتينية على أحد جدران «المصورات الصفر» بينما نجد أن العملة المعدنية الرومانية، وإن تكن قليلة جداً، قد وصلت الى أجزاء من النوبة والسودان. وقد عثر على قطعة عملة لكلوديوس (Claudius) بمروى وأخرى لنيرون (Nero) بكرانوج (Karanog)وثالثة لدقلديانوس (Diocletian)بأقصى كردفان (الأبيض) وقطعة يرجع تاريخها الى منتصف القرن الرابع الميلادي في سنار. وقد عثر على هذه النقود القليلة جنباً الى جنب مع اكتشاف حمامات مروى، ومئات الأدوات البرونزية بالمقابر او المجموعة الفاخرة من الأواني الزجاجية التي في صدنقا[٣٩].

---

(٣٥) في الترجمة الفرنسية للكتاب المقدس «نسخة أورشليم» يرد في الهوامش أن المنطقة المشار اليها هي فوق الجندل الأول: النوبة أو السودان المصري، أي بلاد كوش التي حددناها فيما تقدم، انظر الهامش رقم ٧.

(٣٦) انظر هامش (٢٦) فيما تقدم.

(٣٧) انظر قائمة المراجع وعن الصلات المحتملة مع الهند، انظر: .A.J. Arkell, 1951; I. Hofmann, 1976

(٣٨) عن مصادر هامة عن حملة نيرون، انظر: .F. Hintze, 1959a

(٣٩) .J. Leclant, 1973a, pp. 52-68, 16 figs; J. Leclant, in K. Michalowski, 1975, pp. 65-87, 19Figs. CF. orientalia, 40, 1971, PP. 252-255, plates XLIII-XLVII.

وقد حرصت مروى على توطيد علاقات دائمة مع معبد ايزيس في جزيرة فيلة: فكانت ترسل السفراء بانتظام محملين بالهدايا النفيسة لمعبد الربة، حيث وجدت محفورة على جدرانه طائفة كبيرة من المخربشات (Graffiti) بالديموطيقية، واليونانية، والمروية. وقد مكنتنا من التوصل الى الترتيب الزمني الوحيد لأحد عهود الحكم الأخيرة في مروى، ألا وهو عهد تقوريدماني (Teqorideamani) (٢٤٦م الى ٢٦٦م) الذي أرسل السفراء الى جزيرة فيلة في عام ٢٥٣م. ومعرفتنا محدودة جداً بالقرون المروية الأخيرة – حين صارت العناصر المحلية في الحضارة أكثر أهمية. وأصبح التحكم في طرق القوافل بين وادي النيل – والبحر الأحمر وطريق النيل – تشاد، وهو حجر الزاوية لهذه الامبراطورية، من العسير الاحتفاظ به. وأصبحت الاهرامات الملكية باطراد أصغر حجماً وأفقر أثاثاً. وتدل ندرة القطع المستوردة من مصر أو من منطقة البحر الأبيض المتوسط على انقطاع التأثير الخارجي كسبب او نتيجة لتدهور الحضارة.

تدهور وسقوط مروى

كان المرويون في كفاح مستمر ضد غارات القبائل البدوية وأصبحوا بعد ذلك فريسة لجيرانهم، الأكسوميين (Axumites) في الجنوب، والبلميين البدو (Blemmyes)من الشرق، والنوباويين (Nubas) من الغرب. ويكاد يكون من المؤكد ان هذه الجماعة الأخيرة التي يرد ذكرها عند اراتوسثنيس لأول مرة عام ٢٠٠ق.م. هي التي اطاحت بامبراطورية مروى.

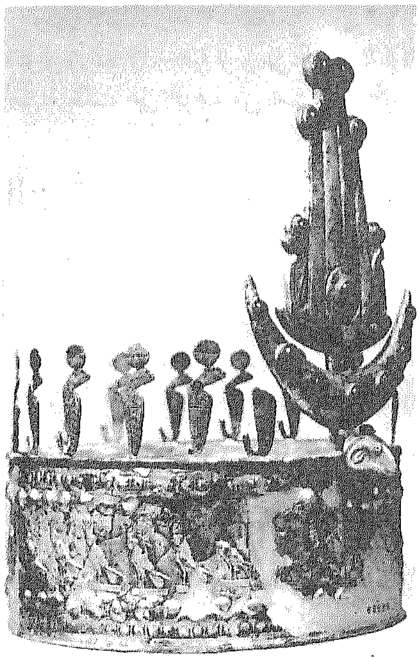
وليس لدينا سوى دليل غير مباشر على ذلك. فحوالى ٣٣٠م استطاعت مملكة أكسوم (Axum) – التي نشأت في مرتفعات القطر الذي نسميه الآن بالحبشة – ان تصل الى اوج قوتها. وقد وصل عيزانا (Ezana) [٤٠] – أول من اعتنق المسيحية من ملوكها – الى ملتقى عطبرة بالنيل ويتباهى بانفاذ حملة «ضد النوباويين» عادت بغنائم كثيرة. من هذا يمكننا أن نستشف ان مملكة مروى قد سقطت من قبل حملة عيزانا. ومنذ ذلك الحين تنقطع النقوش المروية ويبدو أن اللغة المروية قد بدأت تفسح المجال للغة التي تنحدر عنها النوبية الحديثة. وحتى الفخار فعلى الرغم من أنه احتفظ بتقليد صناعته الموغل في القدم فقد اكتسب خصائص فنية جديدة.

وقد افترض بعض الثقاة أن الأسرة الملكية الكوشية قد فرت الى الغرب واستقرت في دارفور حيث توجد على ما يبدو شواهد على احتفاظهم بالتقاليد المروية[٤١]. وعلى كل حال فنحن بحاجة الى مزيد من التقصي والبحث في هذه المناطق وفي السودان الجنوبي حتى يتسنى لنا معرفة المزيد عن التأثير المصري وانتقاله الى قلب افريقيا بواسطة مروى. ومن المؤكد ان امجاد العهد الكوشي تنعكس على مرآة بعض اساطير افريقيا الوسطى والغربية. وللساو (Sao) أساطير تشير الى جلب المعرفة على يد رجال من الشرق. فقد انتشرت الأساليب التقنية، وعرفت بعض الجماعات صب البرونز بطريقة «الشمع المسال أو المذاب» (Cire Perdue) والتي كانت متبعة بالمملكة الكوشية. وأهم من ذلك كله أن الفضل انما يعزى لمروى في انتشار صناعة الحديد في القارة الافريقية[٤٢].

(٤٠) L.P. Kirwan, 1960, pp. 163-173; I. Hofmann, 1971b, pp. 342-352.

(٤١) أنظر على الأخص: A.J. Arkell, 1961, pp. 174ff. الذي طرح هذا الرأي استناداً الى وجود أطلال أثرية وأدلة مستمدة من أسماء الأعلام لكن رأيه لا يعدو أن يكون مجرد افتراض محض.

(٤٢) أنظر حاشية (١) فيما تقدم والمراجع المشار اليها فيما يلي.


٢


١

١ : آنية زجاجية زرقاء مزينة بالرسوم
اكتشفت في صادنقة - محفوظة في الخرطوم

٢ : تاج بلاّنة

ومهما كانت درجة أهمية تغلغل التأثيرات المروية في سائر افريقيا، فينبغي الا نبخس من قيمة دور «كوش»: فخلال حقبة تربو على ألف سنة اولاً في نباتا وبعدئذ في مروى حيث ازدهرت حضارة محلية أصيلة ظلت على الرغم من استمرار التأثير المصري السطحي ذات جذور افريقية عميقة.

النوبة بعد سقوط مروى: «المجموعة س»

يمكن القول إن النوباويين (Nubas) الآتين من الغرب أو الجنوب الغربي هم «حملة» اللغة النوبية حيث لا تزال فروعها أو آثارها تحيا في بعض من الألسن في الأقاليم الجبلية في دارفور وفي أصقاع مختلفة من النوبة العليا والسفلى.

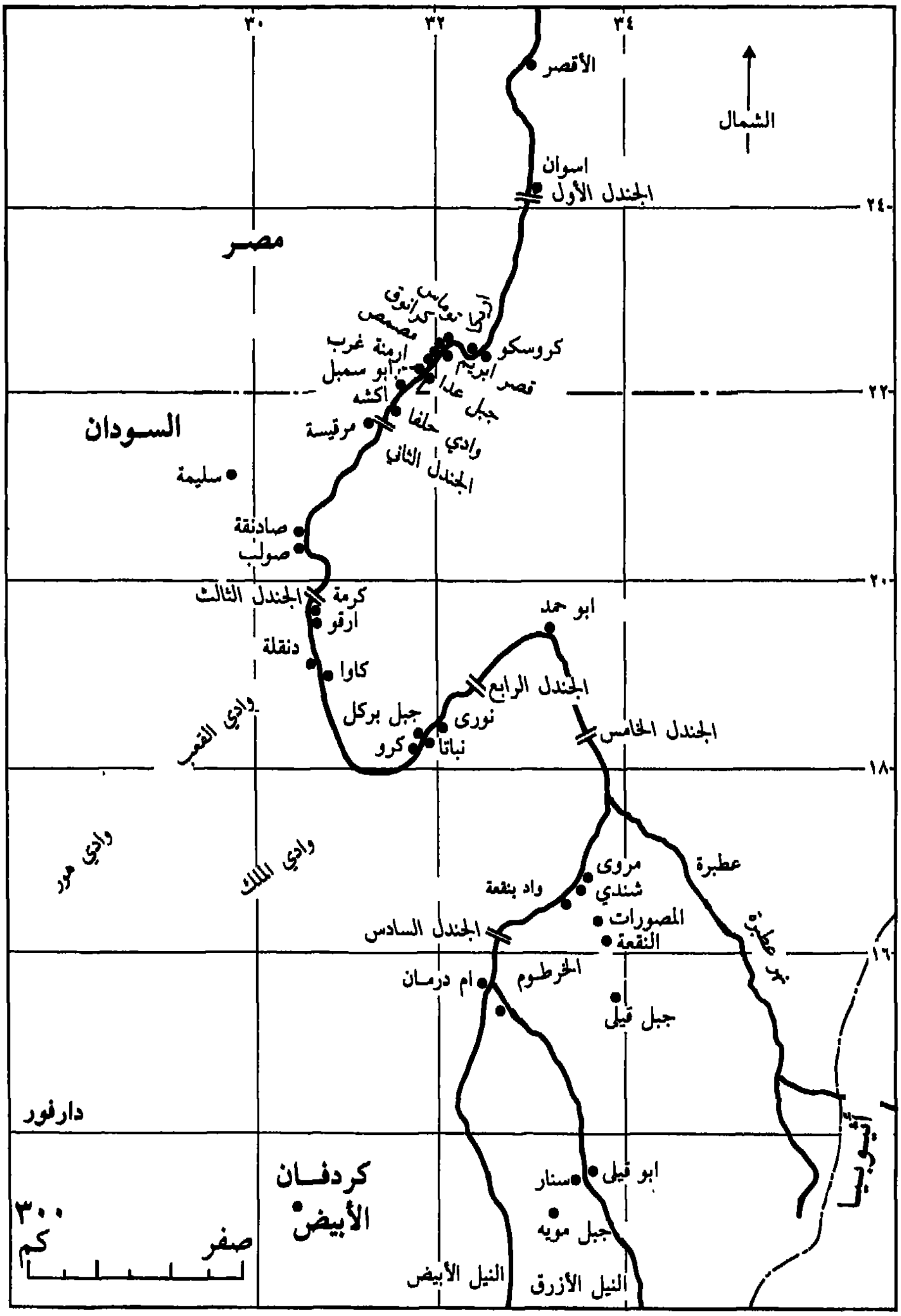
وكما رأينا فإن جزءاً من مجموعات النوبا (Nuba) قد دخل الجزء الجنوبي من مملكة مروى. ومن الناحية الأثرية فإن التعرف على هؤلاء يتم من خلال فخار ذي طابع افريقي. ومقابرهم في شكل ركامات من تراب وقد تم التنقيب عن جزء منها في تنقاسي[٤٣] بالقرب من جبل برقل وعن جزء آخر في عُشرا كما بقي جزء لم يكشف عنه النقاب بعد خصوصاً على امتداد الضفة الغربية للنيل. ويبدو أن هؤلاء «النوباويين» قد اعتنقوا المسيحية في حوالى سنة ٥٧٠م على يد الأسقف لونجينوس (Longinus). وفي الشمال يبدو أن تاريخ الآثار المتبقية من المملكة المروية كان مختلفاً بعض الاختلاف. ومنذ عملية المسح التي قام بها ج. ا. رايزنر في عام ١٩٠٧، فإن الحقبة الحضارية التي أعقبت سقوط مروى قد رمز لها «بالمجموعة س» (Group x) وهذا اعتراف صريح بجهلنا بها. وقد انتشرت هذه الحضارة في كل النوبة السفلى حتى صاي و واوا الى الجنوب في أتجاه الجندل الثالث. وفي هذا الجزء توالى التقدم الحضاري في تسلسل زمني من صدر القرن الرابع الميلادي الى القرن السادس، أي حتى دخول المسيحية وقيام الممالك المسيحية النوبية.

وقد كشف النقاب عن حياة الترف البربرية لملوك «المجموعة س» الصغار في الفترة بين عامي ١٩٣١ و١٩٣٣م، عندما اكتشف عالما الآثار الانجليزيان إيمري وكِروان عدة مقابر ركامية في بلّانة وقسطل[٤٤] على بعد عدة أميال جنوب أبو سمبل. وقد أشار اليها من قبل الرحّالة ج. ل. بوركهارت في مذكراته في بداية القرن السابق. وقد كشف التنقيب الأثري عن طريقة الدفن حيث كان الموتى يستجوبون على محافّ وهم محاطون بزوجاتهم وخدمهم وجيادهم ذات الأسرج المزركشة كما كان الحال في الأيام الغابرة في كرمة (Kerma). وتكشف تيجانهم الثقيلة واساورهم الفضية المطعمة بالاحجار الكريمة الملونة عن ثراء مشابه من بعض الوجوه لثراء الحضارة المصرية أو المروية مثل رأس الكبش للإله آمون، لابساً تاج الأتف الضخم والأطراف الزخرفية للصلين أو تماثيل نصفية للربة ايزيس. ويظهر تأثير الفن الاسكندري (الهلينستي) في كنوز الأواني الفضية المتناثرة فوق أرض المقبرة. ومن بين الأباريق والأقداح والصحون، هناك صحيفة مرسوم عليها الإله هرمس (Hermes) جالساً على كرة وبجانبه الحيوان الخرافي (الغريفين = Griffin) كما توجد أيضاً مصابيح برونزية ضخمة وصناديق من الخشب مطعمة بصور محفورة من العاج. لكن الفخار لا يزال من الطراز المروي التقليدي، وعلى ذلك تكون خصائص الفن النوبي الأصيل قد بقيت حية عبر آلاف السنين.

---

(٤٣) P.L. Shinnie 1954b; L.P. Kirwan 1957, pp. 37-41.

(٤٤) انظر قائمة المراجع، وعلى الأخص: W.B. Emery, and L.P. Kirwan, 1938.



مواقع من مروى

نوباديون أم بلميون

من هم شعوب المجموعة س (Group x) المجهولة أنوباديون هم أم بلميون؟ كان البليميين(٤٥) بدوا محبين للقتال جرت العادة على تعريفهم بقبائل البجة القاطنين في الصّحراء الشرقية. أما بالنسبة للنوباديين أو النوباتيين فقد اتفق - بعد حوار طويل - على أنهم النوباويون. ويميل كاتب هذا المقال الى الاعتقاد بأنهم هم أمراء وسادة بلّانة وقسطل. وعلى أي حال، فإن البليميين والنوباويين هم ليسوا بأكثر من مسميات بالنسبة لنا ومن ثم من الأفضل استعمال مصطلح «المجموعة س» (المجهولة) أو حضارة بلّانة.

وقد استطعنا بمساعدة المؤلفات القديمة والوثائق المدونة على الحجر ربط الخيوط التاريخية الأساسية. ويدّعي المؤرخ بروكوبيوس (Procopius) انه قرب أواخر القرن الثالث عندما سحب الامبراطور الروماني دقلديانوس (Diocletianus) الحدود الى الجندل الأول، شجع النوباديين على ترك اقليم الواحات والاستقرار على ضفاف النيل على أمل أن يستخدمهم كسياج لمصر واق ضد غارات البليميين. وبالفعل هاجم البلميون والنوباديون جزيرة فيلة أثناء حكم ثيودوسيوس الثاني (Theodo-sius II) حوالى ٤٥٠م. وقد أجبرتهم على التقهقر في النهاية قوات تحت إمرة القائد مكسمينوس (Maximinus). ومن بعده بقيادة فلوروس (Florus)، والي مصر.

وقد سمح لهم بعد مجيء المسيحية بزيارة معبد ايزيس في جزيرة فيلة واستعارة تمثال الربة للتبرك به في بعض أعيادهم الدينية الكبيرة. ومن المحتمل أن قصر ابريم كان من المحطات الرئيسية على طريق رحلة الحج هذه، حيث وجد تمثال لايزيس مماثل لذلك الموجود بجزيرة فيلة. واستمر الحال كذلك حتى حكم الامبراطور جُستنيان (Justinianus) بين ٥٣٥ و٥٣٧م حين أغلق قائده، نارسيس (Narses) معبد جزيرة فيلة وطرد آخر الكهنة.

وشهدت نفس الفترة التبشير بالمسيحية في النوبة. واذا كان لنا أن نصدق يوحنا الافسوسي (John of Ephesus) فإن رسل المذهب الأرثوذوكسي الملكاني المبعوثين من قبل الامبراطور قد سبقهم الى هناك القس يوليان، المبشر بمذهب الطبيعة الواحدة مستنداً الى تعضيد الامبراطورة تيودورا. وقد نجح بالفعل في عام ٥٤٣م. في تحويل ملك النوباديين الى المسيحية. وفي نقش يوناني محرف (ومن سوء الطالع غير مؤرخ) وجد بمعبد كلابشة، يفتخر الملك سيلكو (Silko)، ملك النوباديين، بأنه قهر - بعون الله - البليميين الذين يختفون بالتالي عن أنظار التاريخ.

---

(٤٥) L. Castiglione, 1970, pp. 90-103.

الفصل الحادي عشر

حضارة نباتا ومروى

بقلم أحمد محمد علي الحاكم
وبمساعدة أ. هربك
وج. فركوتير

النظام السياسي

يعتبر الاستقرار والاستمرار من أبرز سمات النظام السياسي الذي ساد النوبة وشمال السودان ابان الفترة الواقعة ما بين القرن الثامن قبل الميلاد والرابع الميلادي. فخلافاً لممالك قديمة كثيرة تجنبت البلاد الاضطرابات التي تصاحب عادة تغيير الأسر الحاكمة. وفي وسعنا أن نقول إن الحكم استمر في نفس الأسرة الحاكمة بلا انقطاع وبدأت التقاليد الملكية.

طبيعة المَلَكية

حتى وقت قريب كان الرأي السائد هو أن الأسرة الحاكمة كانت ذات أصل ليبي(١) أو مصري وتنتسب الى كهنة أمون بطيبة(٢). وقد ظهر ضعف الأسس التي بنيت عليها هذه الآراء. ويتجه الدارسون الآن الى اعتبار أن الأسرة الحاكمة ذات أصل محلي(٣). فبجانب المميزات الجسمانية التي تبدت للعيان في اشكال تماثيل الملوك(٤) هناك سمات اخرى مثل طريقة اختيار الملوك ودور أمهات الملوك والعادات

---

(١) G.A. Reisner, 1918-19, pp. 41-44, Idem 1923b, pp. 61-64. كما عرض في نفس هذا الرأي في كثير من مقالاته الأخرى. انظر كذلك: F.L. Griffith, 1917, p. 27
(٢) G. Maspero, p. 169, E. Meyer, p. 52; S. Curto , 1965.
(٣) استعرض ديكسون هذه المناقشة في مقاله: D.M.M. Dixon, 1964, pp. 121-132
(٤) CF. J. Leclant, 1976b.

الجنائزية وبعض الممارسات الأخرى، كلها تشير الى حضارة أصيلة ونشأة محلية، خالصتين من أي تأثير أجنبي. وبعض هذه السمات سوف تساعدنا في وصف طابع وطبيعة الهيكل الاجتماعي والنظام السياسي لامبراطورية كوش.

فطريقة اختيار الملك الجديد كانت من الملامح الغريبة التي يتميز بها النظام السياسي المروي. وقد عبر الكتاب اليونان والرومان منذ أيام هيرودوت في القرن الخامس وديودور الصقلي في القرن الأول قبل الميلاد عن تعجبهم من هذه الطريقة التي تختلف تماماً عما هو متبع في الممالك القديمة الأخرى - وذلك فيما كتبوه عن الاثيوبيين كما كان يطلق على سكان امبراطورية كوش وقتذاك. اذ كانوا يصرون على أن يكون اختيار الملوك بواسطة هاتف رباني أو وحي يوحى الى الكهنة. وقد أكد ديودور الصقلي ذلك بقوله: «يقوم الكهنة في البداية باختيار خير المرشحين، ومن بين هؤلاء يتقبل الناس من يختاره الرب حيث يطاف فيه في موكب... ومن ثم يعامل ويخاطب بكل تجلة واحترام كأنه رب لذاته، حيث وكلت إليه أمور المملكة من خلال مشيئة ربانية»[٥]. ومن الواضح أن ديودور الصقلي هنا يصف سماعياً المراسم الشكلية فقط التي تجري عند تنصيب ملك جديد والتي تتضمن رموزاً دينية، أما الاجراءات الفعلية لعملية الاختيار الحقيقي فبقيت خافية عنه وعمن زودوه بالأخبار.

ومن حسن الطالع أننا الآن يمكننا إعادة ترتيب إجراءات خلافة العرش من خلال النقوش النبتية والتي تصف الاختيار وما يصاحبه من مراسم التتويج في كثير من الدقة والتفصيل. وترجع أولاها الى عهد الملك بعنخي (٧٥١-٧١٦ق.م.) وآخرها إلى عهد الملك نستاسن (٣٣٥-٣١٠ق.م.). وقد توجد نقوش تتناول مراسم التتويج كتبت بعد ذلك التاريخ ولكن نظراً لأنها كتبت بالخط المروي واللغة المروية التي لم تحل طلاسمها بعد فاننا لا نستطيع ان ندلي برأي قاطع. والنقوش النبتية الخاصة بالتتويج هي خير مصادرنا لفهم التنظيمات السياسية لا سيما خصائص الحكم الملكي والمؤسسات الأخرى المرتبطة به[٦]. ورغم أنها كتبت باسلوب الهيروغليفية المصرية فانها تكشف عن أوجه اختلاف كبيرة في صياغتها العادية عن نقوش «الدولة الحديثة». وعليه فلا بد من اعتبارها نتاجاً لحضارتها الخاصة.

ومن أشهر هذه النقوش النبتية الثلاثة الأخيرة التي ترجع كلها الى اواخر هذه الفترة لوحة أمني نتي يريك (٤٣١-٤٠٥ق.م.) ولوحة حارسيوتف (٤٠٤-٣٦٩ق.م.) ولوحة نستاسن (٣٣٥-٣١٠ق.م.) حيث تعرض لنا صورة الملوك وهم يعبرون عن تمسكهم الشديد بالممارسات التقليدية ويعلنون تشبثهم بسنن وعادات اسلافهم. وفي نفس الوقت فإن هذه الوثائق تمدنا بتفاصيل أكثر مما تورده وثائق الفترة المبكرة رغم صعوبة فهم لغتها. وتعكس لنا تماسكاً فائقاً في موضوعها وطريقة تعبيرها. وهكذا في الحالات الثلاث نجد أن الملك قبل تنصيبه، يوصف بأنه يعيش بين بقية اخوانه الأمراء بمروى. فهو يرث العرش أولاً بمروى ومن ثم يسير شمالاً إلى نباتا للقيام بالطقوس والمراسم، بل ويجزم الملك «أمني نتي يريك» بأنه اختير بواسطة قواد جيشه ليكون ملكاً وعمره إحدى وأربعون سنة وأنه خاض غمار حرب قبل ان يتمكن من التوجه الى نباتا للتتويج. وحتى إذا ما وصل نباتا توجه الى القصر الملكي حيث تسلم تاج تاستي كتوكيد آخر لاضطلاعه بمهمة الملك. وبعد ذلك

(٥) Diodorus Siculus, III, 5; J. Desanges, 1968, p. 90.

(٦) عن لوحة الفتح لبعنخي ولوحة حلم تانوات آمون، انظر J.H. Breasted, 1906, pp. 406-473. وقد ترجمت لوحة طهرقا ولوحة الملك انلاماني والنقش الكبير للملك أمني - نتي يريك، انظر M.F.L. Macadam, 1949, vol, I,pp.4-80. وعن لوحة اختيار الملك أسبلتا ولوحة تكريس الملكة ماديقن ولوحة حوليات الملك أسبلتا وحوليات حرسيوتف وحوليات الملك نستاسن أنظر: F.A.T. Wallis Budge, 1912

يدخل المعبد للقيام بالشعائر حيث يطلب من ربه (مخاطباً طبعاً الصنم أو محرابه) أن يهب له سلطان ملكه حيث يستجيب الرب لطلبه باعتباره أمراً شكلياً.

وقد أثبتت النقوش، التي جاءت من الفترة السابقة لهذه ما توصلنا إليه من أن ولاية العرش انما تقرر قبل دخول الملك إلى المعبد. وهكذا كانت خلافة طهرقا (٦٨٩-٦٦٤ق.م.) للعرش قد قررها شباتكا (٧٠١-٦٨٩ق.م.) الذي عاش بمفيس وقتئذ بمصر. فقد استدعى طهرقا من بين اخوته الأمراء وسار شمالاً، زائراً في طريقه نباتا، حيث قدم تضرعاته وطاعته للرب في جماتون (كاوا الحالية)، قبل توجهه الى طيبة[٧].

وأبرز المراسم الدينية كما أوضحها لنا تانوات آمون (٦٦٤ - ٦٥٣ق.م.) في لوحة هي انه عاش في مكان ما خارج نباتا، ربما كان وسط بقية اخوته الأمراء مع أمه قلهاته (Qalhata)، حيث أعلن هناك عن توليه العرش ومن ثم بدأ مسيرته شمالاً في موكب حافل نحو نباتا وما بعدها الى جزيرة ألفنتين (جزيرة أسوان) والكرنك. وهكذا على ما يبدو فإن المكان الذي كان به قبل مسيرة الموكب الديني كان يقع جنوبي نباتا أي عند مروى. وعلى ذلك جرى اتخاذ قرار توليه العرش خارج نباتا حسب ما جرت عليه العادة والعرف. ويصف الملك أنلامني (٦٢٣-٥٩٣ق.م.) وقائع احتفالاته بجماتون حيث وجدت لوحته، بنفس الأسلوب، ويضيف أنه أحضر أمه لتشهد هذه الاحتفالات مثلما فعل طهرقا من قبله[٨].

ويضيف اسبلتا (٥٩٣-٥٦٨ق.م.) في لوحته الشهيرة تفاصيل اكثر حول هذا الاحتفال. فهو يؤكد أنه خلف أخاه أنلامني وأنه اختير من بين إخوته الأمراء بواسطة مجموعة مكونة من أربعة وعشرين من رجالات المملكة وكبار قوادها. ولكي يثبت حقه في خلافة العرش يستشهد اسبلتا بارادة الرب آمون - رع وبنسبه العريق الذي يؤكد حقه الوراثي في الخلافة من خلال أسلافه الاناث أي من خلال نسب الأم. وبالرغم من اعتزازه المطول بالرب آمون - رع، فمن الواضح أن دور الكهنة كان محدوداً. ويضيف اسبلتا كذلك تفاصيل حول الدخول الى قدس أقداس المعبد حيث وجد تيجان وصولجان اسلافه وحيث سلم له تاج أخيه أنلامني. وهذا يطابق ما رواه الملك «أمني نتي يريك» والملك نستاسن.

ومن خلال قراءتنا لهذه النصوص توصلنا الى نتائج هامة، أولاها أن الرحلة شمالاً للقيام بزيارة معابد مختلفة كانت جزءاً هاماً من مراسم التتويج التي حرص عليها كل ملك عند اعتلائه العرش، وثانيها أن معبد آمون بنباتا كان له دور خاص في هذه الشعائر وأن هذا الدور كان لا ينازعه فيه معبد آخر. ولكل هذا ارتباط مباشر بنظرية رايزنر التي تقول بوجود مملكتين مستقلتين بنباتا والتي أعاد هينتزا صياغتها مؤخراً[٩].

طرح رايزنر هذه النظرية ليفسر بها توزيع المقابر الملكية. ويقوم افتراضه الأساسي على أن المدافن الملكية تتصل اتصالاً وثيقاً بالعاصمة بحيث أن الملك لم يكن يدفن بعيداً من مقر ملكه وعليه فجبّانة الكورو أولى الجبانات الملكية، وجبانة نوري التي تلتها، كانتا مدافن ملكية حتى عهد نستاسن عندما كانت العاصمة هي نباتا. وفيما بعد اصبحت الجبانتان الجنوبية والشمالية بالبجراوية مدافن ملكية عندما انتقلت العاصمة الى مروى حوالى ٣٠٠ق.م. بعد عهد نستاسن مباشرة. مع ذلك توجد مجموعتان من الاهرامات بجبل برقل بنباتا. وقد اقنعت الاعتبارات الأثرية والمعمارية رايزنر بأن

---

(٧) M.F.L. Macadam, 1949, vol. I

(٨) نفس المرجع، ص ٤٦.

(٩) F. Hintze, 1971 b

المجموعة الأولى ترجع الى ما بعد الملك نستاسن مباشرة وأن المجموعة الثانية ترجع الى القرن الأول قبل الميلاد وتنتهي بالغارة الرومانية على نباتا في عام ٢٣ق. م. أوبعده مباشرة. وقد نسبت كل منهما الى فرع من الأسرة المالكة مارس الحكم مستقلاً بنباتا عن الأسرة الأصلية الحاكمة بمروى(١٠).

لكن أغلب الباحثين قد عدلوا الآن عن الرأي القائل بتقسيم المملكة(١١). اذ يتضح من الدراسة المفصلة لاجراءات خلافة العرش ومراسم التتويج أن رأي رايزنر هذا لا يمكن الدفاع عنه. ليس من المعقول أن نتصور حاكماً يعلن ملكاً في عاصمته ويتوجه الى عاصمة مملكة مستقلة عنه ليتوج بها خاصة إذا كانت هذه عاصمة مملكة صغيرة جداً وضعيفة جداً حسب تصور رايزنر لها. ومن ناحية اخرى، ليس هناك دليل يؤ يد التوقف عن المراسم التي يؤكد الكتاب الاغريق أنها كانت لا تزال تمارس إبان القرنين الثالث والثاني قبل الميلاد، كما أشار بذلك بيون (Bion) (١٢)، وإبان القرن الأول قبل الميلاد حسبما أورده ديودورس الصقلي. ومع ذلك فمن المؤكد أن نباتا لعبت دوراً هاماً في مملكة مروى، اذ كان الملوك يذهبون اليها ليتسلموا شعارات الحكم والسلطان حسب ما تمليه تقاليد ثابتة راسخة، وأحياناً كانوا يدفنون أيضاً هناك.

ويكشف التحليل لكل النصوص المتعلقة بهذا الأمر أن العرش كان وراثياً داخل السلالة المالكة بخلاف النظام المتبع في العرش الفرعوني او بقية الأنظمة في الشرق الأدنى القديم حيث كانت الخلافة تسير في العادة على نظام وراثة الابن لأبيه. وفي مروى كان يختار الملك من بين إخوته الأمراء. وتأتي المبادرة لاختيار الملك الجديد من قواد الجيش وكبار الموظفين وزعماء العشائر. وأي مطالب لا تثبت مقدرته على الحكم ولا يحوز رضا الناخبين يصرف النظر عنه. ولم يكن التثبيت الالهي عن طريق الوحي أو النبوءة الا تصديقاً شكلياً لقرار سابق، وكان ذا طابع رمزي بحت، القصد منه إيهام العامة بأن الرب قد اختار الحاكم الجديد. وفوق ذلك، فمن الواضح أن التاج كان نظرياً يؤ ول أولاً إلى إخوة الملك قبل أن يصل إلى الجيل الثاني: فمن بين سبعة وعشرين ملكاً حكموا قبل نستاسن أربعة عشر منهم كانوا أخوة اسلافهم الملوك. ولا شك في انه قد حدثت تجاوزات عندما كان أحد منهم يغتصب العرش، لكنه في هذه الحالة كان يحاول تبرير مسلكه واضفاء صفة الشرعية على مركزه. ولدينا أدلة تشير الى أن حق ولاية العرش ربما استند الى نسب الأم أكثر من عصب الأب، وقد تبدّى للعيان دور الملكة الأم في اختيار الحاكم الجديد من خلال نصوص متعددة. وإنا لنجد في كثير من جهات افريقيا سمات مشابهة لهذه الممارسات في بعض الممالك والامارات المشيخات(١٣).

وتشير كل مراسم التتويج إلى مَلَكية مقدسة في نباتا ومروى. فالملك كان يعتبر ابناً بالتبني لمختلف المعبودات ولكننا لا ندري إن كان الملك نفسه يعتبر إلهاً او تجسيداً لأحد الآلهة، لكن بما أن الآلهة هي التي اختارته، فهي التي تتحكم في أفعاله كلها من خلال فرائض القانون العرفي (المتعارف عليه). وهكذا، فإننا بصدد مفهوم متقدم جداً: الملك، مختاراً من الآلهة، يقضي بين الناس ويقيم العدل حسب مشيئة رب معين أو عدة أرباب. وهذا المفهوم هو قوام كل أشكال الحكم الملكي المطلق في الماضي والحاضر. ومع أن سلطة الملك كانت من الناحية النظرية مطلقة لا يشاركه فيها أحد فقد كان

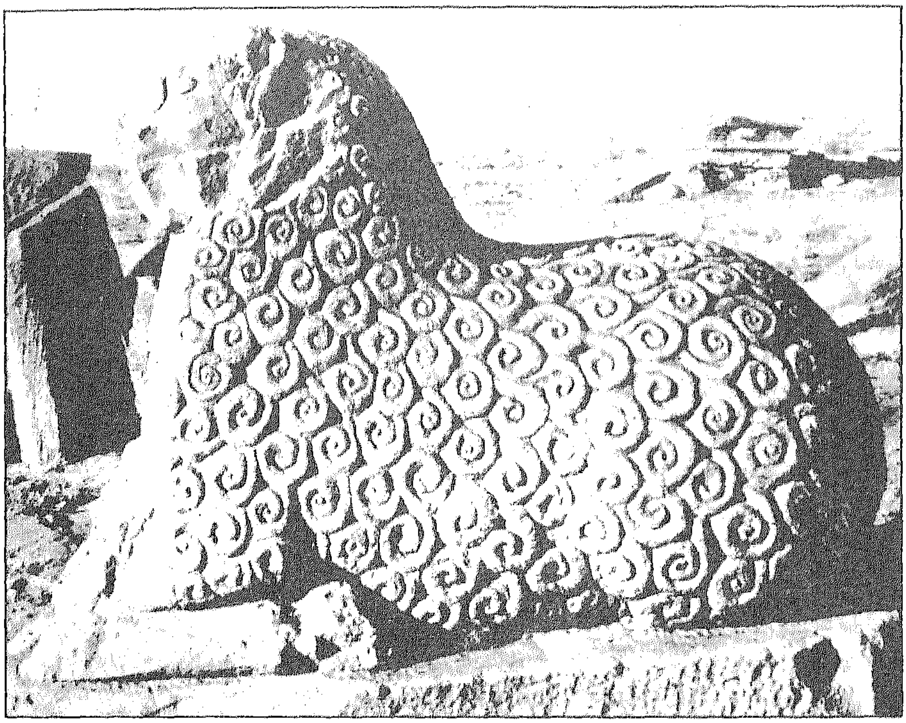
---

(١٠) G.A. Reisner 1923b, pp. 34-77.

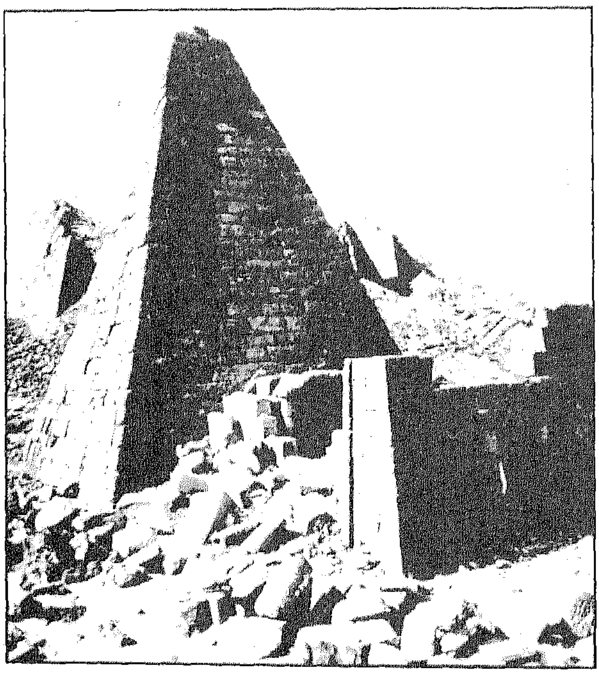
(١١) S. Weing 1967, pp. 9-27.

(١٢) بيون (Bion) مؤلف عدة رسائل في الجغرافيا والتاريخ الطبيعي لم يصلنا منها إلا نتف أوردها الكتاب الأقدمون. وذكر بلينيوس الكبير خاصة في كتابه التاريخ الطبيعي (ك-٦) قائمة بالمدن على النيل نقلاً عن بلين الأكبر (Pliny the Elder).

(١٣) مثلاً، في كافا (Kaffa) وبوغنده (Buganda) وأنكولا (Ankola) وقبائل الشُلُك (Shilluk)، وفي مونوموتابا (Monomo-tapa) وغيرها.



١



٢

١ : كبش جرانيتي في النقعة
٢ : هرم الملك نتكامني في مروى
وقد ظهرت أمامه بقايا معبده والصرح

يتحتم عليه أن يحكم طبقاً للقانون العرفي ولا يسمح له بتجاوزه أو انتهاكه. وكان، فوق ذلك مقيداً بكثير من المحرمات. فقد أشار سترابون وديودورس الصقلي الى حالات طلب فيها الكهنة من الملك أن ينتحر، قائلين جهاراً بأنهم أنما يفعلون ذلك استجابة لأوامر إلهية(١٤). وقد ذكر هذان الكاتبان أن هذه العادة استمرت حتى عهد ارجمنيس (Ergamenes) (حوالى ٢٥٠-٢١٥ق. م.) وهو ملك كان قد نال حظاً من الثقافة الاغريقية مما مكنه من التحرر من الخرافات وقام باعدام كبار كهنته لجسارتهم على هذا الطلب. ويقال أنه منذ ذلك الوقت اختفت عادة انتحار الملوك(١٥).

واتخذ ملوك مروى ألقاباً فرعونية تقليدية في نقوشهم ومع ذلك لا نجد أثراً لمرادف مروى لكلمة ملك. واللقب كور (Kwr) والذي يقرأ بالمروية قرى (Qére)وقير (Qér)وقرين (Qèren)ظهر فقط في لوحة للملك المصري ابسماتيك الثاني تصف حملته ضد كوش وتذكر اسم الملك المروي اسبلتا(١٦). وربما كان هذا هو اللقب المتداول عند مخاطبة ملوك كوش، ومع ذلك فلم يسمح بظهوره بين آثار كوش الرسمية.

الكنداكة: دور الملكة الأم

لم يتضح لنا تماماً حتى الآن الدور الذي لعبته سيدات الأسرة المالكة في الفترات المبكرة. ولكن هناك اشارات كثيرة الى أنهن احتللن مراكز بارزة ووظائف هامة في المملكة. فإبان سيطرة الكوشيين على مصر شغلت ابنة الملك الكوشي منصب الكاهنة الكبرى (ولقبها دوات نتر) للرب آمون بطيبة. وقد هيأ لها نفوذاً سياسياً واقتصادياً كبيراً. وحتى بعد فقدانهم مصر، وبالتالي ذلك المنصب، ظلت سيدات الأسرة المالكة يتولين مناصب بارزة مع ما يقترن بها من نفوذ قوي بين كهنة معبد آمون بنباتا وغيرها من المدن.

والدور الهام الذي لعبته الملكة الأم في اثناء أداء شعائر الاختيار وما يتبعه من مراسم التتويج قد أوضحه طهرقا وأنلامني بشكل لا يترك مجالاً للشك بنفوذها الحاسم ومنزلتها المميزة. كما كانت تمارس نفوذها من خلال نظام معقد للتبني حيث جرت العادة أن تتبنى الملكة الأم، التي يشار اليها دائماً بلقب «سيدة كوش»، زوجة ابنها. وهكذا تبنت الملكة الأم نسلسا (Nasalsa) ماديقن (Madiqen)زوجة أنلامني الذي سرعان ما توفي حيث خلفه أخوه اسبلتا فتبنت زوجته هنوت أخبيت (Henut Akhabit) كلاً من نسلسا وماديقن. وتبدو لنا في المنظر العلوي لمسلة نستاسن (٣٣٥ - ٣١٠) أمه بليخس (Pelekhs) وزوجته سخماخ (Sakhmakh)وكلتاهما تحمل صلاصل وكانت على ما يبدو شعار هذا المنصب. وتقول لوحة أنلامني إنه كرس كل واحدة من أخواته الأربع لأحد معابد آمون الأربعة لضرب الصلاصل والصلاة من أجله بين يدي الرب.

---

(١٤) Strabo XVII, 2,3; Diodorus Siculus III,6.

(١٥) هناك أمثلة متفرقة للقتل الطقسي للملوك بأوامر من الكهنة أو شيوخ العشيرة في إفريقيا. انظر كتاب: (L. Frobenius).

(١٦) وقد تعرف العالمان الفرنسيان سونرون ويويوت (S. Sauneron and J. Yoyotte 1952, 157-207) على كلمة كور (Kwr) على انها لقب مروي تعني ملك. وعند قبيلة ألور (Alur) الحالية فإن كلمة كير (Ker)بمعنى «صفة الزعامة» ربما كانت لها صلة اشتقاقية بالكلمة المروية. انظر B.G. Haycock, p. 471 nº 34.

وتؤكد الرسوم المنزلة الرفيعة للملكة الأم فهي تحتل مكانة بارزة في المناظر الدينية المرسومة على جدران المعابد تلي مباشرة الملك نفسه؛ وأما في محاريب الاهرامات فتظهر الملكة خلف الملك المتوفى وتشاركه النذور المقدمة له.

وفي الفترة المتأخرة بدأت هذه الملكات - أمهات كنّ أو زوجات - يتولين سلطة سياسية ويعلنّ أنفسهن ملكات حاكمات يتبوأن دست الحكم بل ويتخذن ألقاباً ملكية مثل «ابن رع سيد الأرضين» (سا رع، نب تاوي) أو «ابن رع وملك» (سا رع نسو بت)[١٧]. وقد اشتهر كثير منهن وفي العصر اليوناني - الروماني عرفت مروى بأنها كانت تحكمها سلسلة من (الكنداسات أو الكنداكات) (Candaces Kandake) أي الملكات الحاكمات.

وينحدر هذا اللقب من كلمة مروية هي كتاكه (Ktke) او كدكه (Kdke)[١٨] وتعني الملكة الأم. واللقب الآخر قري (Qere) ويعني الحاكم أو السلطان لم يستعمل إلا عندما ظهر الخط المروي. حقيقة لدينا أربع ملكات فقط حملن هذا اللقب هن أمني ريناس (Amani Renas) وأمني شخته (Amani Shekhete) وناويدمك (Nawidemak)ومال قري أبر (Male qere Abar)وكلهن كنداكات[١٩] ومما تجدر الاشارة اليه أنه لا توجد بمقابر نوري الملكية منذ أيام طهرقا (المتوفي ٦٦٤ق.م.) وحتى نستاسن (المتوفي ٣١٠ق.م.) أدلة لملكة لها مدفن كامل كذلك الذي يخصص في حالة ملك حاكم. وفي خلال هذه الفترة لا نعرف ملكة حكمت فعلياً. وأقدم ملكة حكمت مثبتة لدينا هي الملكة شنكدخته (Shanakdekhete) في بداية القرن الثاني قبل الميلاد. وقد دفنت كما يدفن الملوك في المقبرة الملكية الشمالية بالبجراوية. ومن المحتمل أنه في البداية لم يعنِ المنصب ولا اللقب أكثر من الملكة الأم. فقد عهد لها بتربية أطفال الملك وتنشئتهم إذ يذكر طهرقا في لوحته أنه كان في حضانة أمه الملكة أبر (Ebar) حتى بلغ عمره احدى وعشرين سنة وكان يعيش بين إخوته الأمراء الشبان الصالحين الذين كان من بينهم يختار وريث العرش. وهكذا كانت في مركز تستطيع فيه أن تمارس سلطة قوية ونفوذاً واضحاً جلياً من خلال دورها الخاص في مراسم التتويج وتبنيها زوجة ابنها. وفي مرحلة ما تتفوق هؤلاء الملكات على ابنائهن أو أزواجهن ويغتنمن الفرصة المناسبة للانفراد بالحكم. ومنذ عهد شنكدخته وما بعده لدينا سلسلة من الملكات الحاكمات. ولكن مع بداية حكم الملكة أمني ريناس (Amani' renas) في القرن الأول قبل الميلاد ظهر تطور آخر تمثل في المشاركة الوثيقة بين الملك وزوجته الأولى وربما ابنها الأكبر في كثير من الآثار والمباني الهامة. وقد يشير هذا إلى نوع ما من المشاركة في الحكم نظراً لأن الزوجة التي تعيش بعد موت زوجها تصبح تلقائياً الكنداكة الحاكمة. مع ذلك فهذا النظام لم يدم أكثر من ثلاثة أجيال وانتهى بعد نتك أمني (Natekamani) أمني تيري (Amani' tere) وشركارير (Sherekarer) في النصف الأول من القرن الأول الميلادي. كل هذا يشير الى تطور داخلي لنظام محلي لم يكن مقتبساً من تقاليد نظام أجنبي كنظام البطالمة في مصر على نحو ما يتمثل بحكم كليوباترة بل في وسعنا أن نتبين كيف زادت هذه النظم السياسية المروية تعقيداً عبر القرون.

ولنظام الملكية الذي تطور بكوش ميزاته على نظام جامد لخلافة الابن لأبيه على التعاقب إذ أنه يقلل من فرص وريث غير مناسب للعرش كطفل أو شخصية غير مقبولة. وكان نظام التبني يضمن تطعيم الأسرة الحاكمة بدماء جديدة. ثم إن تدابير المراجعة والرقابة والضوابط المضمّنة في صلب هذا النظام،

---

(١٧) Hintze, 1959a, pp. 36-39.

(١٨) كثيراً ما يسقط الحرف «ن» في الأسماء المروية، انظر: F.L. Griffith, 1911-12, p. 55.

(١٩) M.F.L. Macadam, 1966.

والدور البارز الذي أعطي للملكة الأم والاصرار على خلف بملك الحق الشرعي في الولاية ضمن استمرار الحكم في نفس الأسرة الحاكمة ولعل كل هذا قد ساعد على الاستمرار والاستقرار اللذين تمتعت بهما نباتا ومروى قروناً طويلة.

الادارة المركزية والاقليمية

ولا تزال معلوماتنا عن نظام الادارة المركزية والاقليمية ناقصة. فثمة افتقار واضح الى وثائق تتناول سيرة الأشخاص الاداريين كي نستطيع أن نستقي منها معلومات عن الألقاب، والمناصب، التي تقلدوها، ودلالتها، ومهامها.

يقف على قمة الادارة المركزية الملك وهو حاكم مطلق السلطة وكلمته هي القانون. لا يفوض سلطته لشخص آخر ولا يتقاسمها معه أحد. بل انا لنفتقر تماماً الى سيرة اداري واحد مثل كبير كهنة كل المعابد أو وزير على رأس الادارة، تتمركز في يديه بعض السلطة الادارية. ومركز النظام الاداري كله هو القصر الملكي حيث يقيم الملك. وحسبما تبين من دراسة أجريت أخيراً[٢٠] كانت مروى على ما يبدو هي المدينة الوحيدة التي يمكن اعتبارها محل اقامة الملك الدائمة ومقر الادارة المركزية. فبعنخي لم يوضح لنا اين كان محل اقامته. بينما كانت ممفيس مقر العاصمة لخلفائه المباشرين من ملوك الأسرة الخامسة والعشرين التي حكمت مصر. مع ذلك فإن طهرقا يشير بوضوح إلى أنه كان يعيش بين إخوته الأمراء مع أمه، ومن نصوص اخرى نعرف أن هؤلاء الأمراء عاشوا بمروى حسب ما جرت العادة. ومما يستلفت الانتباه، في هذا الصدد، أن نجد بمروى وحدها، وخاصة بالجبانة الغربية بالبجراوية، قبور صبية أو اطفال مزودة بأدوات جنائزية تشهد بمكانتهم الملكية كأبناء ملوك ماتوا صغاراً. ولا توجد مثل هذه القبور بالمدافن الملكية في الكورو او نوري. ومن ثم يمكن للمرء ان يستخلص أن الأسرة المالكة عاشت بمروى وإن هذه كانت لا شك المقر الدائم للملك.

ويقوم بحمل أعباء الادارة المركزية عدد من كبار الموظفين يحملون ألقاباً مصرية حفظتها لنا مسلتا الملك اسبلتا. من بينهم نجد، غير قواد الجيوش، رؤساء الخزانة وحملة الأختام الملكية، رؤساء دار المحفوظات الملكية ومديري مخازن المؤن والغلال ورؤساء كتبة كوش وكتبة آخرين[٢١]. ومن الصعوبة بمكان أن نقرر ما اذا كانت هذه الألقاب تطابق المهام التي يقوم بها حملتها كما يفهم منها أم انها تعكس فقط صوراً من ألقاب مصرية. ومهما يكن جوابنا فإن هؤلاء الموظفين كانوا يلعبون دوراً هاماً في اختيار الملك الجديد، وكذلك في ادارة شؤون المملكة. ولعل اللغة المروية بعد حل طلاسمها، تلقي ضوءاً على هذا الموضوع الهام.

ونلتقي بقواد الجيش مرات كثيرة في النقوش أثناء قيامهم بادوار حاسمة. فهم الذين يعلنون مبايعة الملك الجديد ويقومون بأداء مراسم التتويج التقليدية. بل ربما كان لهم دور هام في اختيار الملك نفسه. ومن هذا قد يستطيع المرء ان يستخلص أنهم كانوا في اغلب الظن اعضاء في الأسرة المالكة بل ربما كانوا من زعماء الأسرة وكبارها[٢٢]. وجرت العادة أن لا يغادر الملك قصره للحرب أو يشترك فيها بل يوكل

---

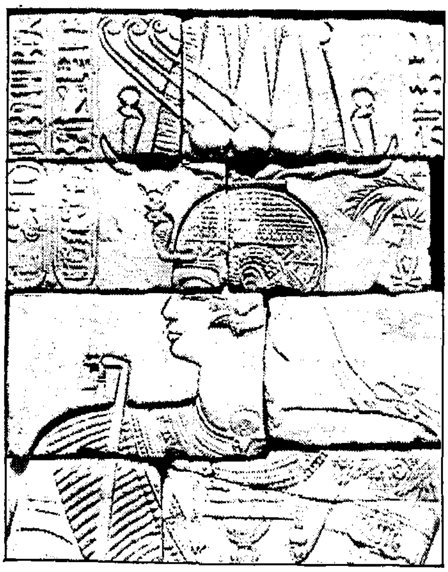
(٢٠) A.M.Ali Hakem, 1972a, pp. 30ff.

(٢١) نشرهما: G. Von Steindorff, Vol. III; H, Schäfer, 1905, pp. 86,103,104.

(٢٢) E.A.T. Wallis Budge, 1912, pp. 105ff.



١



٢

١: لوحة من الحجر الرملي تمثل الأمير أريخا نكرر يقضي على اعدائه (من المحتمل أن تكون هذه اللوحة من القرن الثاني الميلادي)

٢: الملك أرنيخماني: من معبد الأسد في المصورات الصفراء

امر تسييرها لأحد قادته. وقد كان هذا هو الحال في حملة بعنخي ضد مصر، وحروب أمني نتي يريك ضد الرحرحس (Rehrehes) بالبطانة وحملة نستاسن. ولا نعرف ما حدث لهؤلاء القواد بعد انتهاء هذه المهام الحربية فبعد انتصاراتهم التي سجلوها نجدهم يتوارون تماماً عن مسرح الأحداث ويترك الملك وحده لينعم بالانتصارات وشرفها.

وبالنسبة لادارة الأقاليم فإننا نلاحظ وجود بقايا القصور الملكية في كثير من الأماكن. وكل قصر كان بمثابة وحدة ادارية صغيرة يرأسها كبير حملة الاختام الملكية الذي يشرف على مخازن وحسابات القصر(٢٣).

ومع هذا، فإن الفترة الأخيرة التي تبتدىء - فيما يحتمل - حوالى نهاية القرن الأول قبل الميلاد توافرت لدينا منها وثائق عن إداريين اقليميين تتيح لنا إعادة بناء الهيكل الاداري على الأقل للاقليم الشمالي من المملكة. والذي يبدو أنه تطور سريعاً تجاوباً مع الأحوال غير المستقرة التي تبعت احتلال الرومان لمصر ومحاولتهم الفاشلة للتقدم جنوباً بالنوبة. ولمواجهة هذا الوضع عند الحدود استحدث نظام إدارة خاص بالنوبة السفلى. على رأسها كان البقار (Paqar) وهو من الشخصيات الهامة في البلاط ربما كان أحد الأمراء أبناء الملك اذا اعتبرنا أن اول من حمل هذا اللقب هو الذي قام بتوطيد دعائم النظام. وكان أكينداد (Akinidad) أول من حمل هذا اللقب، وهو ابن تريتقاس (Teritiqas) وامني ريناس (Amanirenas) اللذين قاوما غزو الرومان للنوبة. ونفس اللقب حمله أركانخا (Arikankharor) وأريكاختاني (Arikakhatani) وشركارير (Sherekarer) وهو الملك الذي ظهر في تصاوير على صخور جبل «قبلي»(٢٤)، والأبناء الثلاثة للملك نتك أمني (Netek amani) والملكة أمني تري (Amanitore) (١٢ق.م. - ١٢م). وقد وجدت اسماؤهم مقرونة باللقب بقار (Pqr) ضمن وثائق من نباتا ومروى والنقعة(٢٥). رغم هذا فليس لأحد من ثلاثتهم أي ارتباط بالنوبة السفلى، وعليه ربما كانت هذه الكلمة تخص لقباً عاماً لكل أمير وليس خاصاً بوالي الاقليم الشمالي فقط.

ويظهر اللقب بقار مرات عديدة مرتبطاً بمناصب أخرى أصغر، مثل تراهيب (Taraheb) وأنهراراب (Anhararab) في مدينة تاكتر (Taketer) الصغيرة أو حرابن (Harapen) زعيم منطقة فَرَس(٢٦). ونستخلص من ذلك أن حامل هذا اللقب كان والي اقليم النوبة السفلى المروية. وتحته يأتي البشت (Peshte)(٢٧) وهو الموظف المسؤول عن الادارة، قد ظهر هذا اللقب أولاً في القرن الأول قبل الميلاد وازدادت أهميته خلال القرن الثالث الميلادي.

وتشكل أكين (Akin) نطاق ادارة البشت وتطابق كل النوبة السفلى المروية وجنوباً حتى نباتا نفسها. ولا ندري كيف كان الشخص يصل الى منصب البشت، فهل كان وراثياً أم باصدار مرسوم ملكي او بتعيين من «البقار»؟ رغم ذلك تشير أعدادهم الكثيرة إلى قصر الفترات التي يحمل فيها هذا اللقب. ويصاحب هذا اللقب كذلك ألقاب اخرى كثيرة، أحياناً ذات مرتبة دينية عظيمة، لا بين الهيئة الكهنوتية المحلية فقط بل حتى في نباتا ومروى. وهناك منصبان آخران تحت إمرة «البشت» وهما بلمس

---

(٢٣) M.F.L. Macadam, London 1949, Vol. I, p. 58

(٢٤) F Hintze, 1959a, pp. 189-192

(٢٥) A.J.Arkell, 1964, p. 183

(٢٦) F.L. Griffith, Philadelphia, 1911, p. 62

(٢٧) نفس المصدر السابق صفحة ١٢٠ وكذلك الفهرست. وهي ترادف الكلمة المصرية ب-س-نسو بسنتس (P.S. Nsu, Psentes) .M.F.L. Macadam, 1950, pp. 45-46 .

- أتي (Pelmes - ate) قائد البحر، وبلمس أداب (Pelmes-adab)قائد البر. وعلى ما يبدو كانا مسؤولين عن الاشراف على المواصلات المحدودة والهامة في النوبة البرية منها والنهرية، لضمان سير التجارة مع مصر وحراسة الحدود ولضبط التحركات الخطرة للبدو شرق وغرب النيل. ويعاون هؤلاء الاداريين صغار الموظفين الآخرين والكتبة والكهنة والاداريون المحليون. ولا ندري ان كان لنظام الادارة الاقليمية هذا ما يشابهه في المقاطعات الاخرى. مع ذلك فمن المؤكد ان البيئة المختلفة والنمط العمراني والسكاني بالبطانة كانا يتطلبان نوعاً من الادارة مختلفاً عما الفته النوبة السفلى الواقعة على ضفاف وادي النيل. ومن المؤسف حقاً أن لا توجد لدينا شواهد سوى المعابد المهيبة التي لا بد انها كانت نواة صالحة للوحدات الادارية بجانب وظيفتها كمؤسسات دينية.

وتوسعت مملكة مروى في أوجها توسعاً عظيماً، وبلغت طرق مواصلاتها من السوء مبلغاً أرغم حكام مقاطعاتها على تطبيق نظام اللامركزية في ادارة شؤون المملكة. وكانت الصلة بين السلطة المركزية وبين زعماء وشيوخ الاقليات المختلفة الواقعة على اطراف المملكة ضعيفة وفضفاضة في نفس الوقت. وقد ضمت المملكة في فتراتها الأخيرة عدة امارات. ويذكر بليني انه كان هناك ٤٥ ملكاً اثيوبياً آخرون يحكمون «بجزيرة مروى»[٢٨] بجانب الكنداكات. وتحدث كتاب قدامى آخرون عن حكام المشيخات (Tyrannoi) وكانوا يدينون بالطاعة لملوك مروى[٢٩].

وكان السيمبريتيون (Simbriti) يقطنون بجنوب مروى ويقال إنهم لاجئون مصريون كانت تحكمهم ملكة تخضع لسيادة مروى. وغربي النيل (بكردفان) كانت تعيش مجموعات مختلفة من النوباديين في امارات كثيرة مستقلة عن مروى[٣٠]. وعلى ما يبدو فإن نفس الوضع كان ينطبق على الصحراء الشرقية حيث كانت تعيش مجموعات بدوية تختلف في حضاراتها وفي لغتها عن المرويين.

وتشير كثير من النقوش إلى أنه كثيراً ما قاد ملوك مروى حملات ضد هذه المجموعات العرقية المستقلة وشبه المستقلة لاخضاعها أحياناً ولتأديبها أحياناً أخرى أو للحصول على غنائم من الماشية والرقيق. والمجموعتان اللتان يتردد ذكرهما كثيراً هما الرحراح والماجاي وكانتا تعيشان غالباً في المنطقة الواقعة ما بين النيل والبحر الأحمر وربما كانت كلتاهما اسلاف البجة الحاليين.

ويشير كل ذلك إلى أن كوش لم تكن دولة مركزية، وفي أطوارها النهائية شملت المملكة عدة امارات تدين بنوع من التبعية لملوك مروى[٣١].

الحياة الاجتماعية والاقتصادية

أثر البيئة

اعتمدت مملكة كوش على قاعدة عريضة للنشاط الاقتصادي، تتعدد وتختلف أجزاؤها باختلاف التكوين الجغرافي للمنطقة الممتدة من النوبة السفلى حتى جنوب سنار ومنطقة «جبل مويا» في سهل «الجزيرة» الجنوبي كما تشمل مناطق واسعة ما بين النيل والبحر الأحمر، وبالمثل خضعت مناطق واسعة

(٢٨) Pliny 186.

(٢٩) cf. Dion and Nicolas of Damascus, in C. Muller, Vol. 3, vol. 4, p. 351, p. 463; Seneca, VI, 8,3.

(٣٠) (نقلاً عن اراتوستثنيس) Strabon XVII, 1,2.

(٣١) وحتى في الفترة المبكرة الأولى كانت الامبراطورية الكوشية لها صفة فدرالية، انظر الفصل العاشر.

على غرب النيل لنفوذ المرويين ولكن مداها لم يعرف بعد. وتختلف هذه المنطقة الواسعة ما بين جفاف وأمطار صيفية غزيرة. ويعتمد النشاط الاقتصادي بالنوبة على نوع الزراعة المعتادة في وادي النيل حيث يصير النهر المصدر الوحيد للماء. ومع ذلك ففي بعض المناطق قد تنعدم الأرض الزراعية او تنحصر في شريط ضيق. وفي مناطق اخرى من النوبة العليا خاصة قد تتسع في شكل أحواض زراعية ويمتد هذا النوع من الزراعة النيلية جنوباً على ضفاف النيل وروافده. وللبيئة الجغرافية هذه في النوبة السفلى أثر مباشر على الحياة الاجتماعية والاقتصادية. وتشير الأبحاث الأثرية الأخيرة إلى أن مناسيب مياه فيضان النيل كانت منخفضة، وطالما أن النوبة تقع خارج منطقة الامطار، فإن الأحوال البيئية لا تتناسب وزراعة قصد بها ان تقيم أود كثافة سكانية عالية. وعلى العكس فقد ذهب البعض الى أن النوبة السفلى إبان «فترة الحكم النبتي» المبكرة ولمدة طويلة كانت خالية تقريباً من السكان وأنها لم تعمر الا خلال القرنين الثالث أو الثاني قبل الميلاد، على أثر ادخال الساقية(٣٢).

أما في النوبة العليا فإن السهل الفيضي، مثل حوض كرمة وحوض لتي وحوض نوري جعل الزراعة ممكنة سواء بواسطة فيضان النيل أو بآلات رفع المياه، مما ساعد في نمو مراكز حضرية لها اهمية تاريخية كبيرة مثل جبل برقل وكاوا وتبو وصولب وعمارة. وفي هذه المنطقة لعب الاقتصاد الزراعي دوراً عظيماً، إذ وردت اشارات عديدة لمزارع النخيل والكروم خاصة في مدونات طهرقا وحارسيوتف ونستاسن.

مع ذلك وابتداء من منتصف القرن الخامس قبل الميلاد اخذت هذه المنطقة تعاني من الجفاف والقحط والزحف الصحراوي والرمال مما يشير الى تغيير في البيئة أدى إلى انكماش مناطق المراعي في الداخل. وربما شجعت مثل هذه الأحوال بدو الصحراء الشرقية على الارتحال الى وادي النيل وبذا تصادموا مع سكانه. ربما كان هذا سبباً في قيام الحروب التي امتدت وشملت الأجزاء الشمالية من مروى زمن الملك أمني - نتي - يريك (٤٣١-٤٠٤ق.م.) ومن خلفه من الملوك، وكان هذا عاملاً مساعداً لتفقد النوبة العليا اهميتها السابقة في الفترات المتأخرة من مملكة مروى.

هذا ما كان من أمر المنطقة الشمالية، أما جنوباً ابتداء من ملتقى نهر العطبرة بالنيل الرئيسي فنجد أن النيل لم يعد مجرى وحيداً فاصلاً يشق أرضاً صحراوية. فروافد النيل (مثل نهر العطبرة والنيل الأبيض والنيل الأزرق ثم الدندر والرهد وغيرها) كلها تتساوى في الأهمية وفي توفير نفس الامكانات الزراعية والاقتصادية الاخرى. ولكن مع اتساع كبير في الرقعة الزراعية. وفوق ذلك تسقط الأمطار الصيفية على الأراضي الواقعة بين هذه الروافد النهرية بكميات وافرة مما ينتج عنها مراع واسعة وأراضٍ صالحة للزراعة المطرية كذلك. وفي الحقيقة فإن أرض البطانة، وتعرف بجزيرة مروى، الواقعة ما بين نهر العطبرة والنيل الأزرق والنيل الرئيسي، كانت قلب مملكة مروى النابض، وتمركز النشاط الاقتصادي فيها حول المراعي وحياة البداوة أو شبه البداوة.

الزراعة وتربية الحيوان

عند قيام مملكة كوش كان ادخال تربية الحيوان في المنطقة قد مضى عليه ثلاثة آلاف سنة، فكونت مع الزراعة المصدر الرئيسي لمعيشة السكان. وبجانب الماشية ذات القرون الطويلة والماشية ذات القرون

(٣٢) B. Trigger, 1965, p. 123

القصيرة فقد ربى السكان الضأن والماعز والى حد أقل كذلك ربوا الخيول والحمير لحمل الاثقال(٣٣). ولم تدخل الجمال الا في وقت متأخر نسبياً عند أواخر القرن الأول قبل الميلاد(٣٤).

وكان الدور الذي لعبته تربية الماشية من الأهمية حتى ليعزو اليه البعض انتقال مقر الملوك من نباتا الى مروى كي يكونوا أكثر قرباً لمناطق الرعي الرئيسية نظراً لأن منطقة سقوط الأمطار تبتدىء جنوب العاصمة مروى. وربما كان الرعي المكثف أحد العوامل التي أدت تدريجياً الى تحات (تآكل) التربة في الأجزاء الشمالية على ضفتي النيل. وعلى أي حال فقد هيأ نقل العاصمة في حوالى القرن الرابع قبل الميلاد ظروفاً جديدة ساعدت على تطوير تربية الماشية. وبعد فترة نجد أن التاريخ يعيد نفسه فقد قضت قطعان الماشية على الشجيرات الصغيرة والأشجار الكبيرة محدثة بذلك دورة جفاف. ومع بداية القرن الأول الميلادي لم تعد أرض المراعي جنوب مروى تستطيع أن تتحمل كثافة سكانية عالية للرعاة كما كان الأمر في الماضي، واضطروا بذلك للهجرة جنوباً أو غرباً. وعلى المدى البعيد ربما كان هذا التطور أحد الأسباب الرئيسية لتدهور مملكة مروى وسقوطها في النهاية.

وقد انعكست الأهمية القصوى لتربية الماشية بالامبراطورية الكوشية على شتى المجالات: فقد ظهرت في فن النحت والتصوير وفي الطقوس الجنائزية وفي الأمثال مثل تشبيه الجيش بلا قائده بقطيع بلا راع(٣٥). وكانت القرابين والهدايا تقدم للمعابد محتوية عادة على الحيوانات الحية، كما يبدو أن ثروة الملك والطبقة الأرستقراطية وكهنة المعابد كانت تقاس بعدد قطعان الماشية. ولا يترك الوصف الوارد عند الكاتبين سترابون وديودور الصقلي مجالاً للشك في طبيعة المجتمع المروي الرعوية التي تشبه في كثير من الوجوه المجتمعات الافريقية المتأخرة التي تربي الماشية.

وخلال تاريخ مملكة مروى الكبرى، تأثر تطور الزراعة في الأجزاء الشمالية بالمناخ وندرة الأرض الخصبة في وادي النيل الضيق.

لقد كان الافتقار الى الأرض أحد الأسباب التي جعلت سكان هذه المنطقة لا يشعرون بالحاجة لايجاد نظام ري موحد - بعكس جيرانهم المصريين في الشمال - مع ما يترتب عليه من تبعات اجتماعية وسياسية. إن هذا لا يعني ان نظام الري كان غير معروف في هذا الجزء من النوبة، فقد عثر على بقايا آلات ريّ ربما قديمة في سهل كرمة يرجع تاريخها الى القرن الخامس عشر قبل الميلاد. وكانت آلة الري الرئيسية في ذلك الوقت هي الشادوف الذي حلت محله الساقية فيما بعد، وظهرت الأخيرة في النوبة السفلى، واسمها كولي (Kolè) في اللغة النوبية(٣٦)، زمن الفترة المروية فقط ولا يعرف لها تاريخ أكثر دقة من ذلك. وعلى ما يبدو فالمواقع الأثرية بالدكة وقمة، والتي تؤرخ بالقرن الثالث قبل الميلاد، هي أقدم المواضع التي وجدت بها بقايا آلة الساقية(٣٧). ان ادخال آلة الري هذه كان له تأثير مباشر على الزراعة خاصة في منطقة دنقلة حيث أمكن رفع المياه بواسطة هذا الدولاب ما بين ٣ الى ٨ امتار بمجهود

---

(٣٣) عثر على مدفن للخيول في الكورو؛ انظر: D. Dunham, and O. Bates, pp. 110-117

(٣٤) عثر على تمثال نحاسي لجمل في قبر الملك أريكانخور (Hankhorer) ٢٥ - ١٥ق.م.، انظر: D. Dunham and O. Bates, table XLIX

(٣٥) M.F.L. Macadam, 1949, Inscr. IX

(٣٦) كثير من أسماء الأماكن ما بين الجندل ووادي السبوع تتكون من مركبات هذه الكلمة مثل كوليدول (Koledul) ولوليسيق (Loleyseq) وأريسمان كولي (Arisman-Kole) وسلوي كولي (Sulwi - Kole) وغيرها أنظر: U. Monneret de Villard, 1941, pp. 46ff

(٣٧) O. Bates and D. Dunham, p. 105; R. Herzog, 1957, p. 136

أقل وفي وقت أقصر مما يستغرقه الشادوف الذي يدار بيد الانسان بينها تدار الساقية بالجاموس أو الحيوانات الأخرى.

وحتى في الأنحاء الجنوبية من المملكة، على الأقل قرب نهاية القرن السادس قبل الميلاد، كانت حرفة الرعي هي الحرفة السائدة اذا جاز لنا ان نصدق كلام هيرودوت الذي يصف البطانة (جزيرة مروى) بأن أغلبها كان مأهولاً بمربي الماشية (البقّارة) وأن الزراعة فيها كانت متخلفة بعض الشيء[٣٨]. وعلى ما يبدو فقد عززت الآثار هذا الرأي حيث لوحظ أن الطبقة السكنية بجبل مويا، والتي ترجع الى فترة نباتا وما بعدها، أي حوالى القرن السادس أو الخامس قبل الميلاد، لا توجد بها أي دلائل تشير إلى ممارسة الزراعة[٣٩].

ويتحول مركز ثقل الامبراطورية تدريجياً نحو الجنوب ومع ما صاحبه من زيادة في مساحة الرقعة المنزرعة، تغير الوضع. ففي أوج مملكة مروى كانت الزراعة مكثفة بجزيرة مروى وتشهد القنوات والحفائر (أحواض الري) بذلك. بل أن أحد شعارات ملوك مروى وكهنته في هذا الوقت كان صولجاناً على شكل محراث أو ربما مجرفة شبيهة بالمعزقة الواسعة الانتشار بمصر.

والمحاصيل الرئيسية المزروعة هي الشعير والقمح وخاصة الدخن أو الذرة من أصل محلي، ثم العدس والقثاء والخيار والبطيخ والقرع العسلي.

وكان للقُطن مكان الصدارة بين المحاصيل المتعلقة بصناعة المنسوجات ولكنه غير معروف بمصر القديمة وهناك إشارة الى أن زراعته بوادي النيل بدأت بامبراطورية كوش قبل بداية العصر المسيحي. وتندر الأدلة من الفترات المبكرة ولكن بحلول القرن الرابع الميلادي يلاحظ أن زراعة القطن والدراية بغزله ونسجه بلغتا مستوى رفيعاً، بل قيل إن تصدير المنسوجات كان أحد مصادر الثروة بمروى[٤٠]. ويفتخر الملك «عيزانا» الأكسومي في نصه بأنه دمر مزارع القطن الواسعة بمروى[٤١].

ومصادرنا صامتة عن أشكال ملكية الأرض واستغلالها. لكن طالما أن مجتمع القرية استمر على حاله محتفظاً بتقاليده القديمة حتى القرن التاسع عشر فربما أمكننا أن نفترض أنه كان يتخذ نفس الشكل في ازمنة مملكتي نباتا ومروى. فالملك هو المالك الوحيد لكل الأرض وهذه صفة عامة بين كل المجتمعات القديمة أدت لظهور أنظمة مختلفة لتمليك الأرض. ولذلك لا يفيدنا كثيراً نظام تمليك الأرض حول موضوع الصلة بين الملك كمالك وفلاحة الأرض. وكانت زراعة الفاكهة والكروم في بساتين وحدائق فرعاً هاماً من فروع الزراعة وكان اغلبها ملكاً للمعابد يفلحها الرقيق.

ويمكن القول بوجه عام إن نفس فروع الزراعة السائدة بمصر قديماً كانت مألوفة في مروى ولكن على نحو غير متناسب. فكانت تربية الحيوانات تطغى على الزراعة وكانت فلاحة الحدائق والبساتين أقل تطوراً. وأدخلت زراعة القطن في مروى في وقت سابق بكثير على دخولها مصر. وحسبما هو معلوم الآن فإنه لم تصدر المنتجات الزراعية نظراً لأنها لم تكن تكفي الاستهلاك المحلي إلا بصعوبة.

---

(٣٨) Herodotus III, 22-23.

(٣٩) F.S.A. Addison, p. 104.

(٤٠) J.W. Crowfoot, 1911, p. 37, Memoir N°. 19.

(٤١) E. Littmann, 1950, p. 116.



أوعية برونزية مختلفة من مروى

الثروة المعدنية

عرفت امبراطورية كوش في الأزمنة القديمة بأنها من بين أغنى بقاع العالم المعروف وقتذاك. وتعزى هذه الشهرة اكثر ما تعزى إلى الثروة المعدنية الموجودة في مناطق الحدود شرق النيل لا الى قلب المملكة نفسها. فكانت كوش إحدى مناطق انتاج الذهب الرئيسية في العالم القديم. وتقع مناجم الذهب فيها بين النيل والبحر الأحمر وأغلبها في الجزء الواقع شمالي خط العرض ١٨ حيث توجد آثار المناجم القديمة. ولا بد ان انتاج الذهب كان من أهم الحرف في الامبراطورية المروية، وكانت المعابد تملك كميات هائلة منه، فقد وهب الملك طهرقا أحد معابده العديدة ما زنته ١١٠ كيلوجرامات من الذهب خلال تسع سنوات(٤٢). والحفريات الأخيرة بمروى والمصورات الصفرة أوضحت أن جدران بعض المعابد وتماثيلها كانت مكسوة بصفائح الذهب. ولم يكن الذهب وتصديره أحد مصادر الثروة الرئيسية ومظهر عظمة المملكة فقط بل أكثر كثيراً في علاقاتها مع مصر وروما. وقد قدرت الكمية التي انتجتها بلاد كوش في العصور القديمة بـ ١٦٠٠٠٠٠ كيلوجرام من الذهب الخالص(٤٣). وكانت القبائل البدوية تقدر قيمة الذهب كذلك حسب ما جاء في شتى الروايات، فقد اغتصب الملك نستاسن حوالى ٣٠٠ كيلوجرام من الذهب من أقوام عديدة حاربها قرب مروى(٤٤).

ورغم العثور على العديد من الأشياء المصنوعة من النحاس والفضة بالمقابر ورغم ما ذكر من أن النذور والهبات كانت تقدم للمعابد محتوية مصنوعات فضية، أحياناً ذات مستوى فني راق، فيبدو، أنه لم يجر تعدين أي من الفضة أو النحاس محلياً ولا بد أنهما كانا يستوردان من خارج البلاد.

من ناحية اخرى كانت الصحراء الشرقية غنية بالأحجار الكريمة وشبه الكريمة مثل حجر الجمشت البنفسجي (Amethyst) والعقيق الأحمر (Carbuncle)والياقوت الأزرق (Hyacinth)والزبرجد الأصفر (Chrysolith) والزمرد المصرى (Beryl)وغيرها من الأحجار النفيسة وإن لم تستطع مملكة مروى السيطرة والتحكم في كل هذه المناجم ففي النهاية كانت أغلب منتجات المناجم هذه تمر خلال قنوات التجارة المروية وبذلك تزيد من شهرة مروى كأحد اغنى بلاد العالم القديم.

مشكلة تصنيع الحديد

كانت أكوام نفايات الحديد التي عثر عليها بالقرب من مدينة مروى القديمة، وغيرها بالبطانة، مصدراً لكثير من الحدس والتخمين حول أهمية الحديد في الحضارة المروية. فقد زعم بعض الكتاب مؤكدين أن المعرفة بصهر الحديد وتصنيعه في كثير من جهات إفريقيا جنوب الصحراء الكبرى قد جاءت من مروى، اذ أعلن أ. هـ. سايس عام ١٩١١ أن مروى كانت بمثابة «برمنجهام افريقيا»(٤٥). وكان هذا

(٤٢) J. Vercoutter, 1959, p. 137.

(٤٣) H. Quiring, p. 56.

(٤٤) H. Schafer, 1901, p. 20-21.

(٤٥) A.H. Sayce, p. 55.

هو الرأي السائد حتى وقت قريب جداً بين الدارسين، وغدا نظرية مسلماً بها في أغلب الكتابات التي تتناول تاريخ افريقيا أو السودان(٤٦).

وفي السنوات الأخيرة انتقد بعض الكتاب هذا الرأي السائد مثيرين اعتراضات جدية عليه(٤٧). وأشار هؤلاء الى ان ما وجد من أدوات حديدية بالقبور قليل جداً من الناحية العددية. لقد أدرك وينرايت انه لا توجد سوى آثار قليلة للحديد خلال القرون الأربعة قبل الميلاد. وأن الحديد لم يكن مألوفاً تماماً حتى وقت سقوط مملكة مروىٰ عام ٣٢٠ بعد الميلاد. ومن ناحية اخرى، كتب تايلكوت مؤكداً وجود بقايا صهر الحديد قبل عام ٢٠٠ قبل الميلاد بينما أوضح أمبورن، أثناء تحليل دقيق لكل الأدوات المعدنية التي عثر عليها في المقابر، غلبة الأدوات البرونزية على الحديدية حتى في الفترة الأخيرة. ثم خلص إلى أن الأرجح هو أن كل ما عثر عليه من حديد استورد من الخارج وتم تصنيع ادوات منه في النوبة على يد حدادين محليين بالرغم من أن وجودهم لم يتأكد إلا في حضارة المجموعة (س) (group-X) والتي تقع في فترة ما بعد المروية. على أي حال، لا يمكن لأحد أن يستدل على معرفة قوم بصهر الحديد من مجرد نماذج لأدوات مصنعة منه.

وفي رأي أمبورن أن أكوام النفايات الضخمة بمروى انما هي لصناعات اخرى غير الحديد. ويدعم رأيه قائلاً: اذا كانت هذه الأكوام هي فضلات لصهر الحديد حقيقة، فإن المنطقة حول مروى لا بد ان تكون مليئة بأفران صهر الحديد المبعثرة. وفي الواقع أنه حتى وقت قريب لم يعثر على آثار لمثل هذه الأفران(٤٨).

وما زال الجدال محتدماً. وهناك حاجة الى مزيد من التنقيبات الأثرية حتى نصل الى دليل قاطع على قيام صناعة صهر الحديد بمروى. فلا تشير ندرة الأدوات والأشياء الحديدية في مواقع القبور الى صناعة الحديد بشكل واسع بل تلقي ظلالاً من الشك حول الرأي القائل بأن مروى هي «برمنجهام افريقيا». ومن جهة اخرى فهذا لا يعني أن صهر الحديد لم يكن معروفاً في هذه المنطقة أو أنه لم يكن ممارساً في المناطق المجاورة في افريقيا. ان مشكلة الحديد بمروى هي احدى أعوص المشاكل الفاصلة في التاريخ الافريقي الجديرة بالفحص والتقصي بواسطة آلات التقنية الفنية الحديثة المتوفرة لدى علماء الآثار والمؤرخين. حينذاك فقط يمكننا تقدير الدور الذي لعبته مروى في عصر الحديد الأفريقي.

المدن، والحرف اليدوية، والتجارة

شجعت طبيعة وادي النيل وفيضانه السنوي الذي لا ينضب، على نمو حركة الاستقرار الدائم ونشأة المدن في آخر الأمر. وقد ادت هذه بدورها إلى قيام وتقدم الحرف والصناعات. وتهيأت الفرص لبعض المراكز الحضرية هذه لتصبح منافذ للتجارة مع المراكز الداخلية في الظهير ومع غيرها من المجتمعات التجارية الأخرى. ولقد لعبت بعضها أيضاً دوراً كمراكز إدارية ودينية(٤٩).

---

(٤٦) G.A. Wainuright, 1945, pp. 5-36 وكذا A.J. Arkell في كثير من كتاباته، اخيراً في سنة ١٩٦٦ ص ٤٥ وما بعدها. وآخرون: P.L. Shinnie, 1967, pp. 160ff, I.S. Katznelson, pp. 289ff.

(٤٧) انظر: B.G. Trigger, 1969, pp. 23-50; R.F. Tylecote, pp. 67-72, H. Amborns, pp. 71-95

(٤٨) Amborn, op cit, pp. 83-87 and 92 وقد نشر شيني (P.L. Shinie) وكنس (F.Y. Kense) مؤخراً بحثاً ألقي خلال المؤتمر المروي العالمي الثالث في تورنتو (Toronto) عام ١٩٧٧، وفيه يفنّدان رأي أمبورن (Amborn) مؤكدين وجود الحديد. في الحقيقة أن افران صهر الحديد قد اكتشفت في مروى (البجراوية) أثناء الحفريات الأخيرة.

(٤٩) A.M.Ali Hakem, 1972b, pp. 639-646.

لقد قيل إن التطور الحضاري بالنوبة السفلى نتج عن التطور السياسي واهتمام المرويين المتزايد بحدودهم الشمالية مع مصر. فقد أرسلت الجيوش المروية اليها مراراً وتعود الجند على الاستقرار بالنوبة السفلى لتنمية اقتصاد الكفاية الذاتية، كما استفادوا من العلاقات التجارية مع مصر ونتيجة لذلك، فقد نشأت بالنوبة السفلى مدن كبيرة وقرى منتعشة في مواقع استراتيجية مثل قصر ابريم وجبل عدا. وتمركزت الحياة الدينية والسياسية حول زعيم أو أسرة محلية تمارس وظائف وراثية ادارية أو عسكرية. وعاشت في قلاع مثل القصر الذي في كرانوج أو في قصور مثل قصر الحكام في المصورات الصفرة.

هذا وقد خلف لنا الكاتب بليني قائمة نقلها عن بيون (Bion) وجوبا (Juba)، بأسماء مدن مروية كثيرة تقع على ضفتي النيل ما بين الجندل الأول ومدينة مروى العاصمة(٥٠).

إن أقصى مبنى أثري مروي في اتجاه الشمال هو محراب أو مقصورة للملك أرقمني (ارجامون) (Arqamani) ببلدة الدكة (وهي بسلخيس القديمة (Pselchis) واقرب مدينة للحدود تقع على ما يبدو جنوب وادي السبوع حيث عثر على آثار محلة سكنية كبيرة ومقبرة. أما أماكن الاستيطان الحضرية الاخرى في هذه المنطقة فتشمل كرانوج قرب مدينة عنيبة الحالية وقلعة قصر ابريم الكبيرة على الضفة المقابلة لها من النيل رغم ان اغلب المباني الباقية الآن ترجع إلى فترة ما بعد المروية.

وكانت بلدة فَرَس (بخوراس Pakhoras) العاصمة الادارية الرئيسية لمقاطعة اسمها أكين (Akin) وهي ما يقابل اليوم النوبة السفلى. وقد أظهرت الحفريات بعض المباني الرسمية منها ما يعرف «بالقصر الغربي»، ويرجع إلى القرن الأول الميلادي، وهو مبني من الطوب النيء، وحصن شيد على ضفة النهر.

وتندر المساكن جنوب فرس، فالمنطقة طاردة للسكان غير مضيافة والوادي ضيق جداً لا يفي بمتطلبات عدد كثيف من السكان ولا تتسع الأرض وتزداد آثار الاستيطان القديم الا في المنطقة المتاخمة لدنقلة. فعلى الضفة المقابلة لدنقلة تقع الكوة (= كوا Kawa) وهي مدينة قديمة كبيرة بها معابد كثيرة تشير الى تاريخ طويل حيث أماطت الحفريات الأثرية اللثام عن مبان ونقوش مروية هامة.

ولا توجد جنوب كاوا مواقع هامة حتى نباتا، وقد سبق تبيان دورها في الاحتفالات الملكية والطقوس الدينية. وتنبع أهمية هذه المدينة من أنها تقع في الطرف الشمالي لطريق القوافل الذي يلف حول جنادل النيل الثلاثة متفادياً وعورة الملاحة. فكانت كل حاصلات جنوب وأواسط المملكة بالاضافة لحاصلات أواسط إفريقيا تمر خلال نباتا. ورغم إن موقع مدينة نباتا لم يستكشف كلية فقد تم التنقيب في المقابر الملكية بكورو ونوري وجبل برقل. هذا بالاضافة إلى معابد جبل برقل وصنم. وبذا يمكننا تقدير أهمية نباتا كمركز ملكي وديني ابان الفترة المبكرة من تاريخ كوش. وحتى زمن الملك نستاسن جرى دفن الملوك في المقابر الملكية حول نباتا. وحتى بعد ذلك عندما كانت تنقل مدافن الملوك عادة الى مروى، بعضهم فضل الدفن بجبل برقل.

ويقع المركز الحضري التالي الهام في وادي النيل في الضنقيل على بعد خمسة أميال شمالي مدينة بربر الحالية، حيث اكتشفت بقايا مبان وجدران من الآجر. ويوجد الموقع نفسه على ما يبدو على طريق هام يسير من مروى نحو الشمال.

وفي جزيرة مروى، التي تطابق تقريباً سهل البطانة الحالي والذي يقع بين نهر العطبرة والنيل الأزرق، تم العثور على كثير من آثار الاستيطان المروي(٥١).

---

(٥٠) Hist. Nat VI, 178, 179

(٥١) A.M. Ali Hakem, 1972b, pp. 639-646

ورغم ان مدينة مروى ذكرت لأول مرة في الربع الأخير من القرن الخامس قبل الميلاد في نقش الملك أمني نتي يريك بمعبد كاوا تحت اسم بروت (B.rw.t) فقد تبين من التنقيبات في اسفل طبقة أثرية ان مستوطنة ضخمة قامت في هذا الموقع منذ القرن الثامن قبل الميلاد. ويصفها هيرودوت (ك٢، ٢٩) بإنها مدينة كبيرة. وقد أكدت التنقيبات أنها كانت تحتل مساحة واسعة وتكتنف جزأها الأوسط ضواح عديدة وربما يحيط بها أيضاً سور. وبجانب كونها العاصمة ومحل سكنى الملك لقرون عديدة كانت أحد المراكز الرئيسية للاقتصاد والتجارة، وتقع على مفترق طرق القوافل وتقوم بدور ميناء نهري أيضاً. والجزء الأعظم من مساحة المدينة مكون من تلال كثيرة تغطيها قطع الآجر الأحمر، وما زال في انتظار المنقبين(٥٢). أما الجزء الذي نقب فيه حتى الآن وتم فحصه فيكفي لاثبات أن مروى في أوجها كانت مدينة ضخمة بها كل خصائص الحياة الحضرية، وبذا تعد مروى حقاً من بين أهم مدن الحضارة المبكرة في القارة الافريقية. والعناصر الرئيسية في أنحاء المدينة التي تم التنقيب فيها تشمل الحي الملكي بقصوره وحماماً ملكياً ودوراً أخرى كثيرة ثم معبد آمون. وبالقرب من ذلك عثر على معبد إيزيس، ومعبد الأسد، ومعبد الشمس ثم الأهرامات العديدة ومقابر غير ملكية.

وعلى مسافة غير بعيدة من مروى يوجد موقع «وادي بناقة» الذي يحوي أطلال معبدين على الأقل. وقد أظهرت التنقيبات الأخيرة مبنى ضخماً ربما كان قصراً، وآخر في شكل خلية النحل ربما كان صومعة غلال كبيرة. ويشير كل هذا بالاضافة الى الأكوام المنتشرة بالقرب منها الى أهمية هذه المدينة التي كانت مقر سكنى الكنداكات (الملكات الحاكمات) وميناء نهرياً(٥٣).

ومن بين المواقع الهامة الأخرى لا بد أن نذكر موقع البعصة (Basa) وتقع في وادي الهواد ولها معبد وحفير كبير محاط بتماثيل أسود حجرية. ومن أبرز الملامح الملفتة للنظر أن هذه المدينة لم تتسع عشوائياً بل خططت بدقة وإحكام شديد يتلاءم وتضاريس الأرض التي كانت مغطاة وقتئذ بالأعشاب والأشجار(٥٤).

وكانت «للمصورات الصفرة» أهمية خاصة من عدة زوايا فهي تقع في وادي البنات والذي يبعد مسافة طويلة من النيل. وأهم ما يميزها «السور الكبير» الذي يضم مباني كثيرة وأفنية فسيحة تحيط بمعبد بني في القرن الأول قبل الميلاد أو قبل ذلك بقليل. وتشير رسوم تماثيل الأفيال إلى أنها كانت مهمة – على نحو ما – بالنسبة لهذا المجتمع. وتوجد كذلك عدة معابد أهمها «معبد الأسد» الشهير الذي أوقف لعبادة الاله أبدمك. وقد ألقت تنقيبات ف. هينتزا(٥٥) الأخيرة أضواء جديدة على نواح كثيرة من التاريخ والفن والدين المروي لكن نواحي كثيرة اخرى ما تزال مستعصية وخافية علينا.

وبجانب وظائفها الادارية والدينية، كانت المدن المروية مراكز هامة للتجارة والحرف الصناعية. وحتى الآن لم توجه الدراسات الى هذه الناحية من تاريخ الاقتصاد المروي رغم أن الأدلة التي لدينا تشير الى مستوى رفيع تقنياً وفنياً للحرف الصناعية. فكانت صناعة البناء المتخصصة ضرورية لبناء وزخرفة المباني الكثيرة من قصور ومعابد وأهرامات وأمثالها. ورغم وضوح الأثر المصري في الفترات المبكرة، فقد ظهرت منذ القرن الثالث قبل الميلاد الكثير من العناصر المحلية الأصيلة مشيرة الى أن الحرفيين

---

(٥٢) الحفريات الأخيرة (١٩٧٢–١٩٧٥) التي أجرتها جامعة الخرطوم وجامعة كالجاري (Calgary) كشفت عن العديد من المعابد الجديدة.

(٥٣) J. Vercoutter, 1962

(٥٤) J.W. Crowfoot, 1911, pp. 11-20

(٥٥) F. Hintze, 1962, 1971a

والفنانين المرويين تحرروا من تقليد النماذج الأجنبية وابتكروا أساليب فنية جد أصيلة ومستقلة.

وصناعة الفخار أشهر صناعات الحضارة المروية قاطبة. وقد اكتسب هذه الشهرة من طبيعة خامته وزخرفته. ويوجد تقليدان فنيان تختلفان أولهما فخار مصنوع باليد تقوم بصناعته النساء ويكشف عن ثبات واستمرار مدهش في شكله ونمطه ويعكس التقاليد الافريقية المتأصلة العريقة(٥٦). وثانيهما فخار مُشكَّل على عجلة أو دولاب الفخاري يقوم بصناعته الرجال دون النساء وهو أكثر تنوعاً واستجابة للمتغيرات في الأساليب الزخرفية. وتقودنا هذه الفروق الى استنتاج مفاده انه منذ القدم تطورت صناعة الفخار المصنوع على عجلة الفخاري كحرفة منفصلة تنتج الفخار للسوق ولذا خضعت لامزجة متقلبة ومطالب الطبقات الراقية والوسطى للمجتمع المروي بينما استمر عامة الناس يستعملون الفخار التقليدي الذي كانت النساء تصنعه بالمنازل تلبية للاحتياجات اليومية العادية.

وكانت صناعة الحلى والمجوهرات من الحرف المتطورة. حيث وجدت كميات كبيرة منها أغلبها في المقابر الملكية. وكما في حالة المنتجات الصناعية الأخرى، فقد صيغت الحلى المبكرة على غرار الأشكال المصرية، وفي الفترات المتأخرة فقط ظهرت أمثلة لها طابع مروي مميز في الشكل وفي الزخرفة. وكانت المواد الخام لهذه الصناعة تشمل الذهب والفضة والأحجار الكريمة وتتعدد أنواعها وتختلف ما بين لوحات معدنية زخرفية الى عقود وأساور وأقراط وأختام أصابع. وتعكس اشكال الحلى والمجوهرات تنوعاً كبيراً فبعضها مصري الروح والآخر تظهر فيه بوضوح تقاليد ومميزات الحرفيين والصناع والفنانين المرويين. ومن الحرف الدقيقة المماثلة حفر العاج. ونظراً لوفرة هذه المادة وسهولة الحصول عليها بمروى فليس مستغرباً أن طور الصناع أساليبهم الفنية وتقاليدهم بأفكار وموضوعات مستوحاة أساساً من أشكال حيوانات كالزراف وأفراس البحر والنعام.

وصنع النجارون أنواعاً متعددة من أثاث المنازل خاصة الأسرَّة بجانب علب الحلى الخشبية والخزائن وحتى الآلات الموسيقية. ونسج النساجون الأقمشة من القطن والكتان. ودبغ الدباغون جلود الحيوانات. وقد وجدت بقايا كل هذه المصنوعات الفنية في شتى المقابر.

ويشير كل ذلك الى وجود طبقة كبيرة بعض الشيء من الحرفيين والصناع وتضم كذلك فنانين ومعماريين ونحاتين ولا يزال تنظيم هذه الحرف خافياً علينا. لأن أسماء الحرف غير معروفة في الخط المروي المجهول. وربما الحقت بعض المصانع بالمعابد لتلبية احتياجاتها الخاصة كما كان الحال بمصر(٥٧) وربما اقيمت بعض المصانع الصغيرة (Ergasteries) داخل ساحة القصر الملكي.

وتقع امبراطورية كوش على مفترق طرق القوافل التجارية التي تسير ما بين البحر الأحمر وأعالي النيل والمنطقة شبه الصحراوية الواقعة ما بين وادي النيل وتشاد. ومن ثم فلا غرابة أن تلعب التجارة الخارجية دوراً هاماً في الاقتصاد المروي وفي السياسة المروية على السواء. وتتوافر أدلة العلاقات التجارية مع مصر بدرجة تمكننا من تقدير حجم التجارة وأنواع السلع وطرق انتقالها. وأما عن التجارة مع أنحاء أخرى من افريقيا فلا يسعنا الا افتراض قيامها اذ لا تزال هناك مشاكل كثيرة نبحث عن حل لها. ومنذ العصور القديمة كانت الصادرات الرئيسية من النوبة تشمل الذهب والبخور والعاج والأبنوس والزيوت والأحجار الكريمة وريش النعام وجلود الفهود. ورغم أن مصادر هذه البضائع قد

---

(٥٦) P.L. Shinnie, 1967, p. 116. ويشير شيني في كتابه إلى أن هذا الفخار لا يزال يصنع بنفس الأسلوب لا في السودان فحسب بل في أنحاء كثيرة من إفريقيا.

(٥٧) وجد مثل هذه المصانع بالمعبد (T) في «كاوا» المؤرخ بالقرن السابع قبل الميلاد، راجع: M.F.L. Macadam, 1949, pp. 211-232.



قطع مختلفة من الأواني الفخارية المروية: أعلى اليسار وأعلى اليمين: أوان ملونة عليها رسوم «كاريكاتورية»؛ الوسط: اناء ملون عليه صورة أسد يفترس انساناً؛ أدنى اليسار: اناء ملون عليه رسوم مختلفة لرأس الاله الأسد أبيديماك؛ أدنى اليمين: اناء من الفخار الأحمر مزخرف بشريط به ضفادع جالسة تفصلها نباتات.

تكون داخل الأراضي المروية فمن الواضح أن السلع الأخرى كانت مجلوبة من مناطق بعيدة في الجنوب.

ووجهت التجارة الخارجية نحو مصر وعالم البحر الأبيض، وفي الفترات الأخيرة نحو جنوب الجزيرة العربية. وكان طريق التجارة الرئيسي يسير بمحاذاة النيل. وفي بعض أجزائه كان يسير عبر مناطق عشبية شبه صحراوية كما في المنطقة ما بين مروى ونباتا وبين نباتا والنوبة السفلى. ولا بد أنه كانت تقطع أرض البطانة شبكة من طرق القوافل كما كانت نقطة انطلاق القوافل المتجهة نحو منطقة البحر الأحمر وشمال اثيوبيا وكردفان ودارفور. وكانت السيطرة على هذه الطرق تسبب قلقاً مستمراً للملوك المرويين من جراء الغارات المتكررة التي كانت تشنها قبائل البدو على القوافل. وقد بنى الحكام القلاع في المواقع الاستراتيجية في سهول «البيوضة» ما بين مروى ونباتا لحماية الطرق التجارية كما حفروا الآبار على طول هذه الطرق.

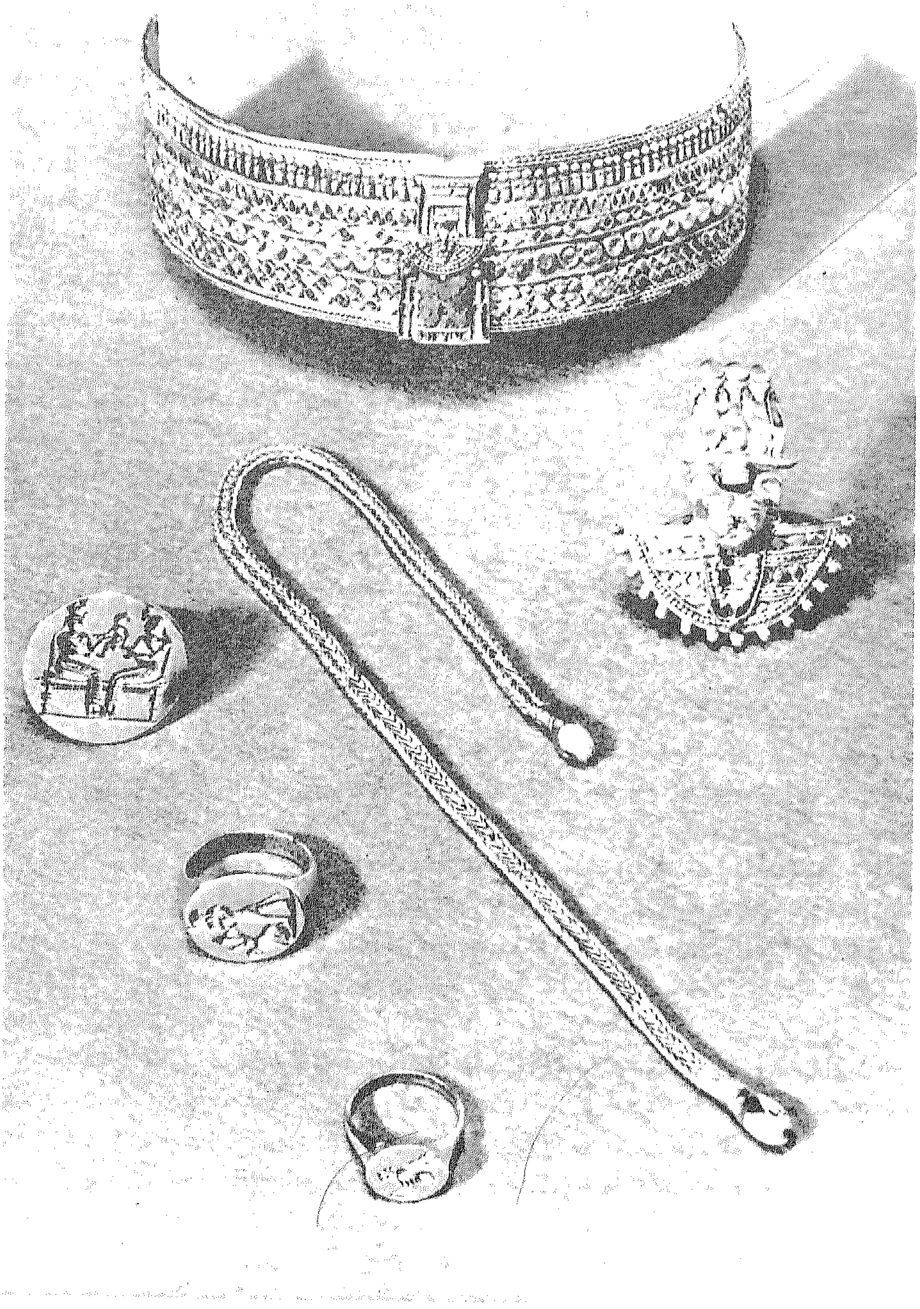
والأدلة شحيحة على نحو لا يمكننا من التطرق باسهاب الى موضوع تطور تجارة مروى الخارجية خلال تاريخها كله. ولا يسعنا الاّ أن نفترض أن هذه التجارة بلغت ذروة انتعاشها مع بداية الفترة الهلينستية مع زيادة طلبات الأسرة البطلمية لسلع الرفاهة والترف من إفريقيا. وفي الأوقات المتأخرة مع بداية القرن الأول قبل الميلاد تحول الطريق الرئيسي من محور النيل الى محور البحر الأحمر. ونجم عن ذلك أن انكمش حجم البضائع المصدرة رأساً من مروى نظراً لأن كثيراً منها صار في الامكان الحصول عليه من شمال اثيوبيا حيث كان نجم مملكة إكسوم قد بدأ في الصعود. وقد تزامنت آخر قرون مملكة مروى مع محنة الامبراطورية الرومانية والتي أدت أولاً الى التدهور الشديد وفي النهاية الى التوقف الكلي تقريباً للصلات التجارية بين مروى ومصر. وحل الخراب بمدن كثيرة في النوبة السفلى كانت تعتمد على هذه التجارة. زد على ذلك أن مروى أو روما لم تكن في حالة تمكنّها من حماية الطرق التجارية من غارات بدو البليميين والنوباديين(٥٨).

النظام الاجتماعي

نظراً لعدم وجود أي معلومات مباشرة فمن العسير، إن لم يكن من المستحيل، عرض صورة مترابطة للنظام الاجتماعي في مروى. وما نعرفه حتى الآن هو انه كانت هناك طبقة عليا او حاكمة تشمل الملك وأقرباءه ورجال البلاط وارستقراطية محلية تشغل المناصب الادارية والعسكرية المختلفة ثم طبقة كهنة المعابد ذات النفوذ القوي. وعلى الطرف الآخر من السلم الاجتماعي تتحدث مصادرنا باستمرار عن وجود رقيق هم من أسرى الحروب. ويمكننا أن نفترض، في ضوء الأدلة غير المباشرة، أنه بجانب المزارعين و«البقّارة» الذين يربون الماشية والذين كانوا يشكلون الأغلبية العظمى من السكان المرويين، كانت توجد طبقة وسطى من الصناع وأصحاب الحرف والتجار وصغار الموظفين والخدم ولكن لا نعرف شيئاً عن وضعهم الاجتماعي. والى أن تتاح لدينا معلومات اوفر فإن أي محاولة لتوصيف انماط العلاقات الاجتماعية والنشاطات الانتاجية تكون سابقة لأوانها.

وتشير النقوش وبعض الوثائق الأخرى الى أن النشاط الحربي العسكري لعب دوراً هاماً في حياة المملكة، ولكننا لا نعرف كيف كان يتم تعبئة الجيوش وتنظيمها. وعلى ما يبدو فإنه بغض النظر عن

(٥٨) لتحليل أسباب التدهور، انظر: L.S. Katznelson, pp. 249ff.



الحلّى الذهبية للملكة امانيشختي (٤١-١٢ق.م.)

الحرس الملكي الدائم فإن كل الرجال القادرين على حمل السلاح كانوا يجندون ساعة الحاجة لهم. وأقوال الكتاب من الفترة الرومانية تشير إلى أن الجيش كان ينقسم الى مشاة وفرسان ولكن لم يكن الجنود المرويون مدربين بالمقارنة مع الفيالق الرومانية. وكانت الحروب تشن على الجماعات البدوية التي تقطن الصحراء الشرقية ولم يتم اخضاعها تماماً، وكانت دوماً على استعداد للاغارة على الأراضي المزروعة عندما تواتيها الفرص المناسبة. وفي نفس الوقت شنت حروب عدوانية بقصد التوسع الاقليمي وسبي الغنائم (من الماشية والرقيق) والتي كانت مصدراً هاماً للثروة للطبقات الحاكمة وللكهنة.

وكان الملوك يمنحون بانتظام المعابد أعداداً كبيرة من أسرى الحرب بل وأحياناً أراضي محتلة جديدة، ولا بد أن أعداد الرقيق تزايدت زيادة كبيرة نسبياً وفي العهود الرومانية صدر كثير من العبيد السود الى مصر وبلدان البحر الأبيض المتوسط. وسخر الأرقاء لبناء الأهرامات والمعابد والقصور والمباني الهامة الاخرى بجانب فلاحة بساتين وحدائق المعابد. وربما سخروا لحفر وصيانة قنوات الري وخزانات المياه (الحفائر). ونما الرق بمروى كما في الممالك الشرقية ولكن ببطء شديد ولم يكن الدعامة الرئيسية للانتاج لأن عمالة الرقيق كانت محصورة في مجالات محدودة نسبياً. ونلتقي في النقوش بأعداد للنساء المسترقات اكبر من الرجال مما يشير الى أن عبيد المنازل كانوا هم الفئة الغالبة.

الديانة

المعالم العامة

استقى المرويون اغلب تعاليمهم الدينية الرسمية من مصر، فالآلهة التي تعبد في المعابد المروية يطابق أغلبها الآلهة المصرية، وقد اعتبر المرويون الأوائل آمون ربهم الأعلى ومنه استمدوا حقهم في العرش والملك. وقد مارس كهنة معابد آمون نفوذاً عظيماً على الأقل حتى زمن الملك ارجامون الذي يظهر انه كسر من شوكتهم وتسلطهم المطلق. ولكن حتى الملوك الأواخر نراهم يظهرون – على الأقل في مدوناتهم – التبجيل والاحترام لآمون وكهنته الذين كرموا بشتى الطرق من خلال هبات من الذهب والرقيق والماشية والاقطاعات الزراعية.

وبجانب الآلهة الفرعونية أمثال إيزيس وحُورس وتحوت وأرسنوفيس وساتيس وشعاراتها المختلفة، فقد عبدت آلهة مروية صميمة مثل الإلّه الأسد، ابدمك أو سبوي مكر = -Sbomeker) .(Sebewy-emeker وجاءت العبادة الرسمية لهذه الآلهة مؤخراً حوالى القرن الثالث قبل الميلاد. وعلى ما يبدو كانت في الماضي معبودات محلية في الأنحاء الجنوبية للامبراطورية وما اشتهرت الا عندما بدأ النفوذ المصري في الأفول والاضمحلال وحلت محله السمات الحضارية المروية الخالصة. ويجب ان نعيد الى الأذهان انه في نفس هذا الوقت بدأ استعمال الخط المروي واللغة المروية في النقوش والوثائق.

وكان ابدمك، إلّه الحرب، معبوداً هاماً بالنسبة للمرويين. فقد رسم برأس أسد؛ وكان للأسود دور خاص في شعائر المعابد، وخاصة في «المصورات الصفراء»[٥٩]. وفي ذات المكان نجد معبوداً

(٥٩) L.V. Zabkar.

مروياً آخر مجهولاً من المصريين وهو سبوي مكر الذي كان المعبود المحلي الرئيسي، فقد اتخذ كإله خالق. كما ظهرت أيضاً بالنقعة صور ربات أخريات، ولكن لا تزال أسماؤ هن ومكانتهن بين مجموعة الآلهة المروية مجهولة.

إن وجود مجموعتين من المعبودات، الأولى مصرية والأخرى ذات اصل محلي، قد انعكس أيضاً على عمارة المعابد وهندستها.

معابد آمون

لعبت الرمزية الدينية دوراً هاماً في تصميم المعابد المصرية القديمة. فقد عبر عن ممارسة العبادة بطقوس مطولة معقدة، وكل جزء من أجزاء المعبد غدا له دور محدد في سير الطقوس وترتيبها. وقد خططت هذه الأجزاء المختلفة من أفنية وقاعات وغرف ومحاريب الخ... تخطيطاً محورياً بحيث ينشأ عنه ممر طويل للمواكب الطقسية. وقد بنى هذه المعابد في منطقة دنقلة الملك بعنخي (بي) وطهرقا وخلفاؤ هما. وأهم هذه المعابد وُقف على عبادة الإله آمون - رَع في نباتا وبني بجبل برقل. ومن ناحية اخرى، لم يرد في وثائق التتويج المبكرة بأن مروى كان بها معبد لآمون. مع ذلك ومع نهاية القرن الأول قبل الميلاد حظيت مدينة مروى ببناء أحد هذه المعابد وأقيمت لوحة أمامه عليها نقش طويل بالخط المروي. إن اقدم الأسماء التي وردت بهذا المعبد ترجع الى الملك أمني خبلي (Amanikhabale) (٦٥ - ٤١ق.م.) والملكة أمني شختي (Amanishakhete) (٤١ - ١٢ق.م.) وربما أصبح هذا المعبد في الفترة الأخيرة المعبد الرئيسي بالمملكة. ومما يلفت النظر أنه ابتداء من هذه الفترة وما بعدها قد بنيت معابد لآمون مشابهة، لكنها صغيرة الحجم، بكل من مروى والمصورات الصفراء والنقعة ووادي بنقعة. ولعب معبد آمون بمروى دوراً مشابهاً لدور معبد آمون بنباتا في جبل برقل ومن المؤكد انه أصبح منافساً قوياً لنباتا ينازعها الصدارة في هذا المضمار. بل انه في النهاية بزها واحتل مكانتها. وحتى في الفترات المبكرة قبل بناء معبد آمون بمروى لم تستطع نباتا أن تحتكر تماماً المركز الديني للمملكة كلها فقد كانت هناك طرز أخرى من المعابد سادت وتحكمت في الحياة الدينية بكل أنحاء أرض البطانة وانتشرت منها شمالاً، ألا وهي معابد الأسد التي سنتطرق اليها الآن.

معابد الأسد

سميت هذه بمعابد الأسد بسبب الكثرة الواضحة في وجود أشكال الأسود سواء مرسومة رسماً أو منحوتة تماثيل تقف حارسة مداخل المعابد ومنافذها، أو منقوشة على الجدران في مواضع بارزة. ورسم الأسد يمثل كذلك المعبود المروي الرئيسي أبدمك وهذا لا يعني أن أي معبد من هذا الطراز كان موقوفاً على عبادة أبدمك وحده. وقد لاحظ وجود هذا الطراز من المعابد كثير من الكتاب(٦٠)، ولكن عند وصف المعابد منفردة أطلقت عليها أسماء كثيرة مختلفة(٦١). وهكذا سمعنا بمعبد أبيس ومعبد إيزيس ومعبد

(٦٠) J. Garstang et al, p. 57; M.F.L. Macadam, 1949, Vol. I, p. 114; F. Hintze, and R. Moss, 1962, 1971a.

(٦١) B. Porter, pp. 264ff.

الشمس ومعبد رأس اغسطس (Augustus) وقاعة الفرسكو (Fresco Chamber)وما إلى ذلك. وقد أدى استعمال مثل هذه المسميات في بعض الحالات الى الخلط وعدم الفهم والاستنتاج الخاطىء[٦٢]. ورؤ ي هنا ان استعمال تعبير «معبد الأسد» قد يساعد في تبديد هذا اللبس خاصة أن صورة الأسد هي أبرز ما يميزها. وارتبطت تماثيل الكباش بمعابد آمون عند جبل برقل والكوة (كاوا) ومروى والنقعة حيث لا توجد تماثيل الأسود بتاتاً حتى عندما كان الاله الأسد، إيدمك أحد الآلهة التي تعبد وعندما تظهر صورته ضمن الآلهة الاخرى. وقد تظهر مراراً معبودات مصورة برؤ وس الكباش، كما في حالة الاله آمون رع والاله خنوم، بين رسوم ونقوش معابد الأسد هذه، ومع ذلك فلا توجد حالة واحدة لتمثال كبش وجد مرتبطاً بأي من معابد الأسد.

أنماط معابد الأسد وتوزيعها

علاوة على اثنين وثلاثين معبداً مسجلة لدينا هناك أربعة عشر موقعاً يكاد وجود معابد الأسد بها يكون مؤكداً. فإذا أضفنا الى هذا وجود ألقاب كهنوتية مرتبطة بمعابد في مواقع مثل ناليت (Nalete) وتي (Tiye) الخ. فإن عدد هذه المعابد لا بد وان يكون كبيراً جداً. ويظهر أنها كانت موزعة في طول مملكة مروى وعرضها. وتظهر حقيقتان من هذا التوزيع: الأولى هو أنه توجد أربعة مواقع عثر بها على معابد عديدة، فالنقعة بها ثمانية معابد والمصورات الصفراء ومروى بكل منهما ستة معابد وبجبل برقل ثلاثة.

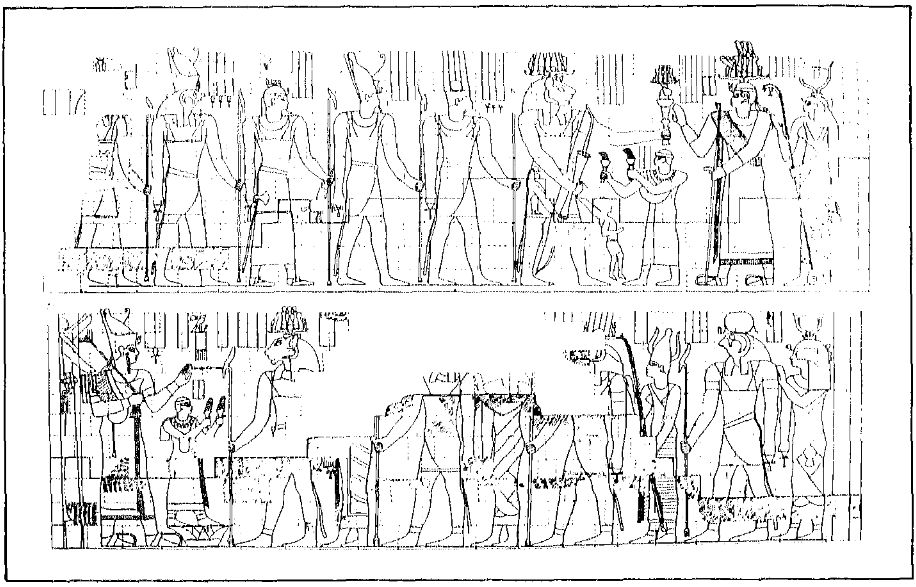
ويشير تعدد المعابد في موقع واحد إلى الأهمية الدينية لذلك الموقع. إن أكثر المعابد تطوراً واتقاناً، وربما أهم المعابد بالمملكة قاطبة، هي معابد المصورات الصفرة ومعبد الشمس في مروى (رقم م ٢٥٠). ومن ناحية أخرى ففي النقعة معابد أكثر من أي موقع آخر بينما يمدنا جبل برقل بأقدم الأمثلة المؤرخة لمعابد الأسد. فأولها (رقم ب ٩٠٠) بناه بعنخي (٧٥٠-٧١٦ق.م.) به حجرتان أصلاً حولتا فيما بعد إلى معبد ذي حجرة واحدة يتقدمها صرح. أما الثاني (رقم ب ٧٠٠) فقد بناه الملك أتلانرسا (Atlanersa) (٦٥٣ - ٦٤٣ق.م.) وأكمله الملك سنكا مني سكن (Senkamanisken)(٦٤٣ - ٦٢٣ق.م.). أما الحقيقة الثانية فتتمثل في عدم وجود تطابق بين المناطق التي انتشر فيها هذان الطرازان من المعابد. وفي وسعنا أن نؤكد بوجه عام أن معابد أمون توجد في منطقة نباتا بينما تنتشر معابد الأسد بجزيرة مروى حيث شيدت معابد لآمون هناك منذ القرن الأول قبل الميلاد فقط وما بعده.

ويمكن تقسيم كل معابد الأسد الى طرازين معماريين رئيسيين، الأول معبد به حجرتان، وأقدم أمثلة لهذا الطراز شيد من الطوب النيىء بلا صرح امامي، والثاني به حجرة واحدة فقط وأغلبها له صرح أمامي ضخم رغم أن الأمثلة المبكرة تفتقر الى مثل هذا الصرح. وقد اقترح سببان محليان لتعليل وجود الطراز الثاني من معابد الأسد. انها تطور طبيعي تلقائي نشأ عن الأول كما يتضح من أن معبد رقم ب ٩٠٠ قد أعيد بناؤه في وقت لاحق على نسق معابد الطراز الثاني. ومن ناحية اخرى توجد مبان كثيرة ذات قاعة واحدة بموقعي برقل[٦٣] وكرمة[٦٤] ربما استمد منها الطراز الثاني أصله. وأقدم امثلة

(٦٢) مثلاً أطلق سايس (Sayce) اسم معبد الشمس اعتماداً على هيرودوت الذي يشير الى وجود «لوحة الشمس» وقد أدى ذلك إلى اعتقاد بعض الباحثين بوجود عبادة خاصة للشمس بمروى. ومسميات مثل معبد إيزيس ومعبد أبيس قد تقود إلى استنتاجات خاطئة مماثلة.

(٦٣) G.A. Reisner, 1918, p. 224.

(٦٤) G.A. Reisner, 1923, p. 423.



١



٢

١ : الاله ابيديماك يقود آلهة مروية أخرى
٢ : الاله المروي سبوي مكر، من معبد الأسد في المصورات الصفراء

لهذا الطراز من الممكن وجودها ربما تحت معبد مروى رقم م٢٥٠ (معبد الشمس) وقد يؤرخ بعصر اسبلتا، وتحت معبد رقم ١٠٠ بالمصورات الصفرة الذي يرجع الى ما قبل ٥٠٠ق.م.(٦٥).

وربما كانت مصر هي المؤثر الآخر في التصميم المعماري لمعبد الأسد. وتوجد محاريب بنيت خلال فترات مختلفة سواء داخل حُرم المعابد المسورة أو على حافة الصحراء. وكانت هذه أماكن استراحة للمركب المقدس أو صنم الإله أثناء المواكب المختلفة، وكان أغلبها متقن البناء متعدد الحجرات(٦٦)، هذا على الرغم من انه من مميزات الأسرة الخامسة والعشرين في طيبة بناء أو اضافة محاريب صغيرة مختلفة في معبد الكرنك وغيره(٦٧). ولا تعكس هذه في العادة أي اثر لتصميم عمارة معابد الأسود ومن ثم فالاحتمال الأقوى هو الأصل المحلي أي انها أصيلة في تخطيطها فهي في بساطتها مناسبة لمناطق كالبطانة حيث تنعدم الخبرة ومواد البناء مما يجعل بناء مبنى معقد وفسيح كمعبد آمون بعيد الاحتمال على الأقل في الفترات المبكرة. وربما تنم بساطة المعبد عن شكل مبسط من العبادة كالتي يتوقعها المرء من مجتمعات البطانة والمناطق البدوية الأخرى.

ورغم أن طرازي المعابد - معبد آمون ومعبد الأسد - يوحيان من أول وهلة بوجود ديانتين، فإنه إذا ما أمعنا النظر جيداً يتكشف لنا انه كانت توجد بمروى ديانة واحدة. فوجود ديانتين في نفس الوقت يفترض سلفاً إما وجود تسامح ديني بدرجة كبيرة وهذا غير متوقع في ذلك الوقت، أو صراع ومنافسة شديدة وحروب دينية مستمرة، وهذا ما لا تعكسه لنا أي وثائق ولا تدل عليه أي آثار. على العكس من ذلك يبدو أن مجموعة الآلهة التي عبدت بمعابد آمون كانت كذلك تعبد بمعابد الأسد. والفرق الوحيد يتمثل في أن بعض الآلهة قد تأخذ مكان الصدارة وتحظى بتقديس في معبد أكثر مما تحظى به في معبد آخر. وفوق ذلك فالآلهة ما هي الا خليط من الآلهة المصرية كآمون - رع أو الثالوث الأوزيري (Osirian Triad) أو آلهة محلية أصيلة مثل ابدمك وماندوليس وسبوي مكر(٦٨). ويشير الاختلاف في خطط بناء المعبد الى اختلاف في اقامة الشعائر والطقوس لا الى اختلاف في الدين والعقيدة، إذ تحتاج الطقوس المتصلة بمراسم التتويج الدينية الى معبد من طراز معابد آمون حتى يتسنى تنظيم المواكب والأعياد والاحتفالات. وهذه الصورة من الممارسات الدينية قد جعلت التآلف بين الآلهة والمعتقدات المحلية المتضاربة أمراً ممكناً وبذا ساعدت في إضفاء طابع الترابط والتلاحم على مملكة مكونة من عناصر متباينة لحقبة طويلة من الزمن.

---

(٦٥) F. and U. Hintze, 1970.

(٦٦) A. Badawy, 1968, p. 282.

(٦٧) J.F. Ledlant, 1965b, p. 18.

(٦٨) J. Leclant, 1970b, pp. 141-153.

الفصل الثاني عشر

انتشار المسيحية في النوبة

بقلم
ك. ميخالوفيسكي

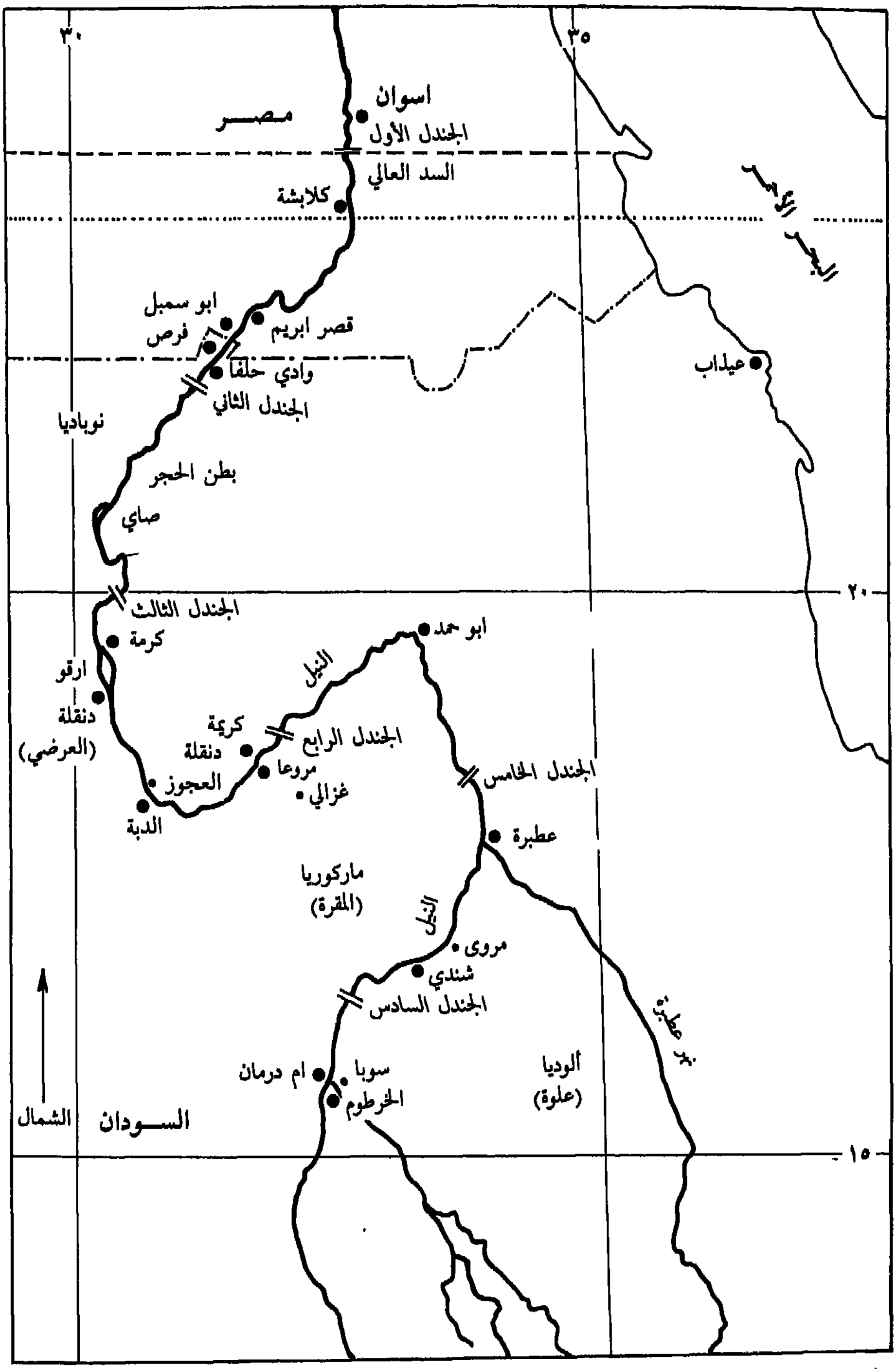
عاملان لعبا دوراً هاماً في التركيب الاجتماعي وفي تاريخ النوبة في بداية الفترة المسيحية. أولهما تدهور مملكة مروى التي احتلت النوبة لفترة تمتد من القرن الثالث قبل الميلاد الى القرن الثالث بعده. وثانيهما أثر روما العظيم على مصر جارة النوبة من جهة الشمال التي تم تنصيرها في وقت لاحق. وتلا سقوط مملكة مروى قيام مملكة نوبادية في منطقة النوبة الشمالية التي تعرف «بالدال» وتشمل الرقعة الواقعة بين الجندلين الثاني والثالث، وقد برزت هذه المملكة الي حيز الوجود بعد سلسلة من الصراعات بين البليميين والنوباديين ورجحت آخر الأمر كفة النوباديين الذين دفعوا البليميين (البجة أو البُجا) الى الاتجاه نحو الشطر الشرقي من الصحراء.

وقد تمخضت الحفريات التي انجزتها بعض بعثات الآثار العالمية في ابان الحملة التي نظمت لانقاذ آثار النوبة عن معلومات جديدة تخص هذه الحقبة من التاريخ النوبي. فحفريات البعثة البولندية في فرس أكدت ان هذه المدينة، واسمها القديم بخوراس (Pachoras) كانت عاصمة لمملكة النوبة في أخريات أيامها، كما أشارت هذه الحفريات الى أن قصر حكام النوبة تم تحويله الى كاتدرائية تعد من اولى الكاتدرائيات في النوبة[١].

وتشير آثار حضارة النوبة المادية الى فوارق جمة في مستويات المعيشة في مجتمع كان السواد الأعظم من سكانه يعانون من فقر نسبي. وقد أوحت مدافن النوبيين المتواضعة لعالم الآثار ج. أ. ريزنر[٢] وكان له فضل اكتشاف حضارتهم باطلاق اسم «حضارة المجموعة س» (X-group culture) على حضارتهم

(١) K. Michalowski, 1967b, pp. 49-52.

(٢) G.A. Reisner, 1910 - 27, p. 345.



النيل من الجندل الأول الى الجندل السادس

عوضاً عن تعريف تاريخي أكثر دقة. أما الطبقات الحاكمة والامراء والحاشية فقد شملوا برعايتهم تقاليد الثقافة والفن المرويين. ويعد الأثاث الفاخر في قبور بلّانة المعروفة ذات الركام والذي كشف النقاب عنه و. ب. امري(٣) عام ١٩٣٨ «وقصر الحكام» في النوبة الذي أسلفنا الاشارة اليه من أهم الآثار المادية الملموسة التي خلفتها تلكم الطبقة الاجتماعية العليا.

ولم يكشف النقاب عن التكامل بين حضارة بلانة وحضارة «المجموعة س» الا منذ وقت ليس بالبعيد(٤) اذ ظلت هذه المسألة مثار نقاش العلماء المختصين الذين عد بعضهم المجموعة س هذه معضلة التاريخ النوبي(٥) ونسبوا قبور بلانة ذات الركام الترابي لشيوخ البليميين(٦) كما نسبوا بعض المخلفات لحضارة مروى وفنها في الفترات المتأخرة(٧) ومن ناحية اخرى فضل بعض العلماء اطلاق اسم حضارة بلانة(٨) على تلك الفترة بأكملها.

وقد كشفت الحفريات التي قامت بها البعثة البولندية في فرس تحت قصر الحكام النوباديين عن وجود كنيسة شيدت من الطوب النييء يعود تاريخها قطعاً الى ما قبل القرن الخامس. ومع أن هذا التاريخ قد أثار مؤخراً بعض التساؤلات(٩) إلا أن الأدلة تشير الى وجود مدافن مسيحية(١٠) بين مدافن «المجموعة س» فضلاً عن وجود قناديل زيتية وآنية فخارية تزينها علامة الصليب في الأماكن التي قطنت بها «المجموعة س» في جزيرة مينارتي (Meinarti) (١١) وهذه الشواهد تدل بوضوح على أن المسيحية دخلت النوبة وأن بعض السكان من بين الفقراء اعتنقوا هذه الديانة في وقت مبكر قبل أن يتمّ تنصير النوبة بصورة رسمية على يد القس يوليانوس (Julianos) مبعوث الامبراطورة ثيودورا (Theodora) امبراطورة بيزنطة. كما أن وجود بعض الاديرة وصوامع التنسك - ينهض دليلاً آخر على تغلغل المسيحية المبكر في منطقة النوبة في أخريات القرن الخامس(١٢). وعليه يمكن القول بكل ثقة أن الديانة المسيحية أخذت تتغلغل رويداً رويداً في النوبة قبل أن يتم تنصير المنطقة الرسمي الذي يؤ رخ له يوحنا الافسوسي (John of Ephesus) بعام ٥٤٣ بعد الميلاد(١٣).

ولتنصير النوبة المبكر أسباب عديدة. ذلك أن الامبراطورية الرومانية وكانت ما تزال تعادي المسيحية في القرن الثالث والامبراطورية المسيحية في القرون الرابع والخامس والسادس اضطهدتا كل من خالف الأوامر الرسمية في كل ما يمت الى الدين بصلة. وربما نقل بعض المصريين والنوبيين الذين فروا من مصر معتقداتهم الى النوبيين في المنطقة الواقعة جنوب أسوان. وحملت القوافل التجارية المتجهة صوب الجنوب من أسوان المعتقدات الدينية فيما حملته الى سكان تلك المناطق. وقد لعبت الدبلوماسية البيزنطية وكان يهمها المحافظة على علاقاتها الحسنة مع أكسوم لمواجهة الخطر الفارسي في

(٣) W.B. Emery and L.P. Kirwan, 1938.

(٤) K. Michalowski, 1967a, pp. 194-211.

(٥) L.P. Kirwan, 1963, pp. 55-78.

(٦) W.B. Emery, 1965, pp. 57-90.

(٧) F.L. Griffith, 1926, pp. 21ff.

(٨) B.G. Trigger, 1965, p. 127.

(٩) P. Grosmann, pp. 330-350.

(١٠) T. Säve-Söderbergh, 1963, p. 67.

(١١) W.Y. Adams, 1965a, p. 155, 1965b, p. 172.

(١٢) S. Jakobielski, 1972, p. 21.

(١٣) L.P. Kirwan, 1939, PP. 49-51.

البحر الأحمر دوراً لا يستهان به في هذا الصدد في القرنين الخامس والسادس الميلاديين. وقامت أكسوم بفضل معاهدة رسمية عقدت عام ٥٢٤ بارسال بعض الجنود البليميين والنوباديين للمساهمة في الحملة المزمعة في بلاد اليمن. ومن المؤكد أن القساوسة لم يقفوا مكتوفي الأيدي ازاء مجريات الأمور في تلك الفترة.

قصر القس يوليانوس التعميد المونوفيزي (وفقاً للمذهب القائل بأن للمسيح طبيعة واحدة) على الطبقة الحاكمة في البلاد تنفيذاً لأوامر الامبراطورة ثيودورا. وقد استهوت العقيدة الجديدة قلوب معظم السكان، بتأثير مصر المسيحية واعتنقوا المسيحية منذ وقت مبكر. وتقوم شاهداً على ذلك كنيسة متواضعة يعود تاريخها الى القرن الرابع الميلادي. وكان اعتناق النصرانية قراراً سياسياً هاماً اتخذه حكام النوباديين اذ كان يعوزهم قبل ذلك ايديولوجية دينية واضحة المعالم تساعدهم في كسب ولاء الاهلين لحكمهم وأتاحت لهم المسيحية وقتئذ سبيلاً للاتصال بمصر حيث تشير الدلائل الى أن بعض الاساقفة كانوا يقيمون في جزيرة فيلة(١٤) منذ القرن الرابع. كما تيسر لهؤلاء الحكام عن طريق مصر الاتصال بالبحر الأحمر وبيزنطة مركز الحضارة في تلك الحقبة.

امتدت مملكة النوباديين (النوبة في العربية) والتي عرفت بنوباديا (Nobadia) من جزيرة فيلة حتى الجندل الثاني واتخذت من فرس عاصمة لها. والى الجنوب من مملكة النوبة قامت في القرن السادس مملكة اخرى امتدت رقعتها حتى مروى القديمة وكانت دنقلة القديمة عاصمة لها. وقد أطلق على هذه المملكة في تاريخ لاحق اسم مكوريا (Makuria) (المُقُرّة في العربية). وعلى النقيض من النوبة الشمالية التي اعتنقت المذهب المونوفيزي اختارت المُقُرّة المذهب الملكاني (الملكي) الاورثوذكسي على يد بعثة تبشيرية بعث بها الامبراطور جستنيان الثاني (Justinus II) بين عامي ٥٦٧ - ٥٧٠م(١٥).

قادت الحفائر التي قامت بها بعثة الآثار البولندية في دنقلة العجوز منذ عام ١٩٦٤ الى اكتشاف أربع كنائس بالاضافة الى القصر الملكي المسيحي(١٦). ويعود تاريخ احد هذه المباني الى أواخر القرن السابع أو اوائل القرن الثامن. وقد تم الكشف تحت انقاضه عن كنيسة أقدم منه بنيت من الطوب النيىء. وبهذه الكنيسة وهي غير الكاتدرائية خمسة صحون وهي ترتكز على ستين عموداً من الجرانيت ارتفاع كل منها ٢٠ , ٥أمتار. وتشير ضخامة بقايا هذه الكنيسة الى أن الوصف المقرون بالاعجاب الذي تركه أحد الرحالة العرب في القرن الحادي عشر كان صحيحاً من الوجهة التاريخية. ويقول هذا الرحالة ان دنقلة عاصمة هامة فيها تشير اليه آثارها.

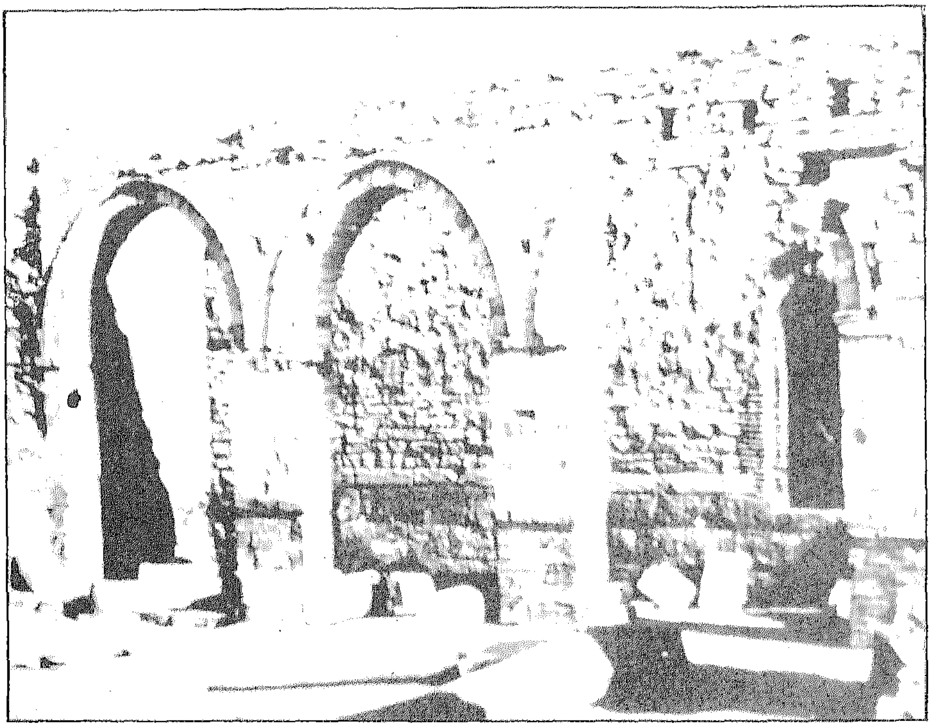
وفي الفترة من عام ٦٦٠ الى عام ٧٠٠م اعتنق سكان المُقُرّة المذهب المونوفيزي وكان لهذا التحول المذهبي نتائج هامة. وفي حوالى عام ٥٨٠ وصلت بعثة بيزنطية الى علوة أبوديا (Alodia) بمساندة النوباديين. وقد لاحظ رئيس هذه البعثة الاسقف لونجينوس (Longinus) ان البلاد قد تم تنصيرها جزئياً بواسطة الاكسوميين. وعليه فإن النوبة قد صارت في أواخر القرن السادس قطراً مسيحياً يشمل ممالك ثلاثاً هي مملكة النوبة في الشمال، ومملكة المُقُرّة في الوسط، ومملكة علوة في الجنوب. وتاريخ العلاقات بين هذه الممالك لم يكشف عنه بصورة تامة على الأقل في الفترة الأولى من عصر الاستقلال(١٧).

(١٤) U. Monneret de Villard, 1938; H. Munier, 1943, pp. 8ff.

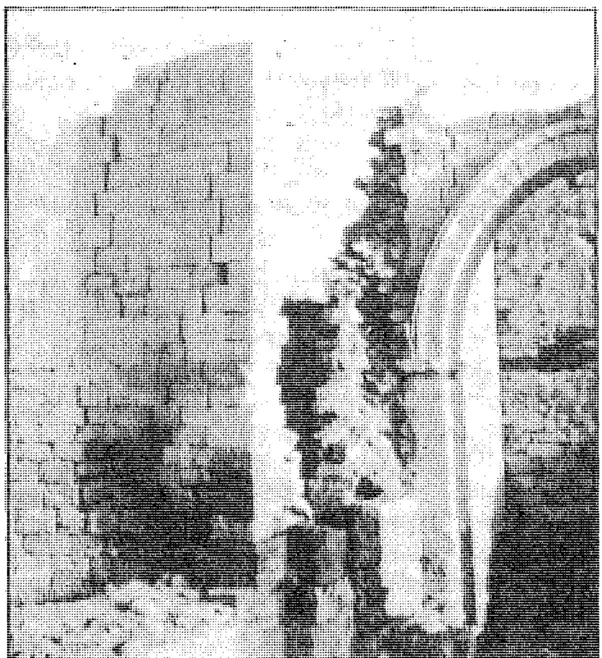
(١٥) U. Monneret de Villard, 1938, p. 64: L.P. Kirwan, 1966, p. 127.

(١٦) K. Michalowski, 1966, pp. 189-299, 1969, pp. 30-3; S. Jakobielski and A. Ostrasz; S. Jakobielski and L. Krzyzaniak; K. Michalowski, pp. 163-166; S. Jakobielski, 1970, pp. 167ff, pp. 70-75; M. Martens, 1973, pp. 263-271; S. Jakobielski, 1975b, pp. 349-360.

(١٧) W.Y. Adams, 1965, p. 170.



١



٢

١ : الجدار الشرقي من كنيسة قصر ابريم : الأقواس
٢ : كاتدرائية فرس

ولقد ظل تاريخ النوبة المسيحية حتى عهد قريب جزءاً من علم المصريات ومن التاريخ القديم وتاريخ المسيحية القديمة وفي أحايين كثيرة جزءاً من تاريخ مصر القبطية. ويحتوي مؤلف اوجو مونريه دي فيلار(١٨)، وهو من أمهات الكتب في هذا المجال كل ما عرف عن النوبة المسيحية حتى عام ١٩٣٨. فمجلداته الأربعة عن النوبة في العصر الوسيط(١٩) كشفت النقاب عن كنز من المعلومات التوضيحية عند نشرها وما زالت عوناً للكثير من الباحثين عند دراستهم لبعض المسائل الفرعية. والكاتب لم يتناول في مجلداته هذه نتائج الحفريات الأثرية فحسب بل قام بتمحيص المصادر العربية وهي ما زالت حتى يومنا هذا في أحايين كثيرة المصادر الوحيدة لبعض جوانب التاريخ النوبي ومن بينها جدول ملوك النوبة. ومن أهم هذه المصادر العربية عن تاريخ النوبة كتابات اليعقوبي (٨٧٤)، والمسعودي (٩٥٦)، وابن حوقل (حوالى ٩٦٠)، وسليم الأسواني (حوالى ٩٧٠)، وابو صالح (حوالى ١٢٠٠)، والمكين (١٢٧٢)، وابن خلدون (١٣٤٢ - ١٤٠٦) والمقريزي بصفة خاصة (١٣٦٤ - ١٤٤٢)(٢٠).

وتجمعت الكشوف الاثرية بعد بحوث مونريه دي فيلار وخاصة بفضل «حملة انقاذ آثار النوبة» التي اشرفت عليها منظمة اليونسكو في الفترة من عام ١٩٦٠ الى عام ١٩٦٥ بغرض المسح الأثري للمنطقة التي ستغمرها مياه السد العالي. وفي بعض المناطق في النوبة الشمالية استمرت الحفائر حتى عام ١٩٧١ بفضل قلة منسوب المياه في حوض التخزين ولا زالت مستمرة حتى يومنا هذا في موقع قصر ابريم الذي لم تغمره المياه بعد.

وقد تمخضت الكشوف في السنوات الأخيرة عن نتائج هامة جددت الاهتمام ببعض جوانب تاريخ النوبة المسيحية. وقد نشرت التقارير الأولى عن الحفريات في مجلة كوش (Kush) فيما يتعلق بالنوبة السودانية وفي حوليات الآثار المصرية (Annales du Service des Antiquités de l'Egypte) فيما يخص النوبة المصرية. وقد تم نشر بعض التقارير في دوريات أخرى(٢١) كما ظهرت بعض التقارير في صورة مختصرة. وتحولت الحفائر جنوب المنطقة التي تهددها مياه السد العالي.

في كتابات و. ي. ادامز (W.Y. Adams) نهج جديد لفهم تاريخ المسيحية في النوبة (على الأخص من زاوية تصنيف الخزف)(٢٢) وكذلك في كتابات ب. تريجر ول. ب. كيروان وب. ل. شني، وج. م. بلملي، وك. ميخالوفسكي، وس. جآبيلسكي، وو. هـ. س. فرند(٢٣). وأخبار الكشوف الأخيرة في النوبة والتي تنشر كل عام في مجلة «اورينتاليا» (Orientalia) التي يصدرها ج. لكلان ذات أهمية خاصة(٢٤).

(١٨) U. Monneret de Villard, 1938.

(١٩) المصدر السابق، ١٩٣٥-١٩٥٧.

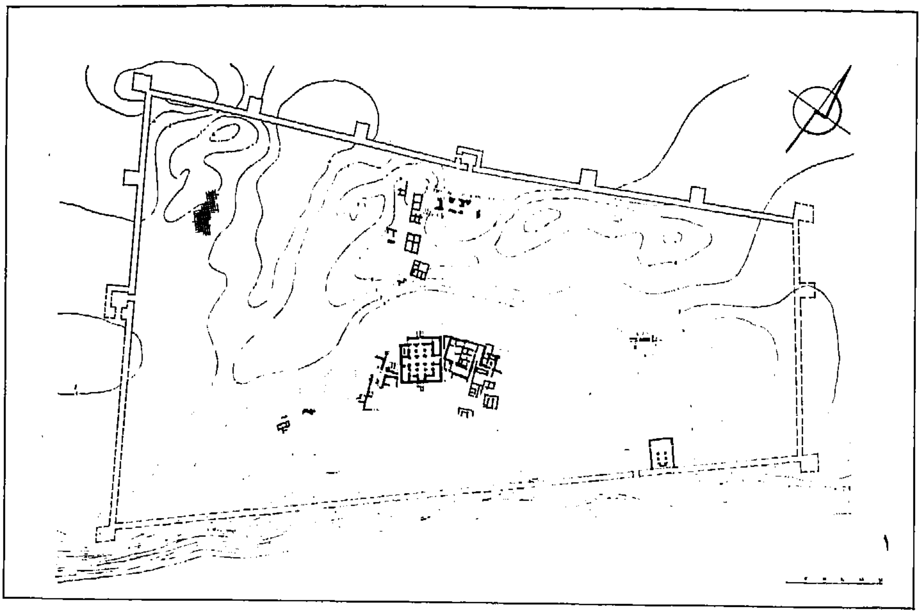
(٢٠) أعد ج. فانتيني (G. Vantini) قبل وقت قريب (١٩٧٠) قائمة بأهم المصادر العربية لتاريخ النوبة المسيحية.

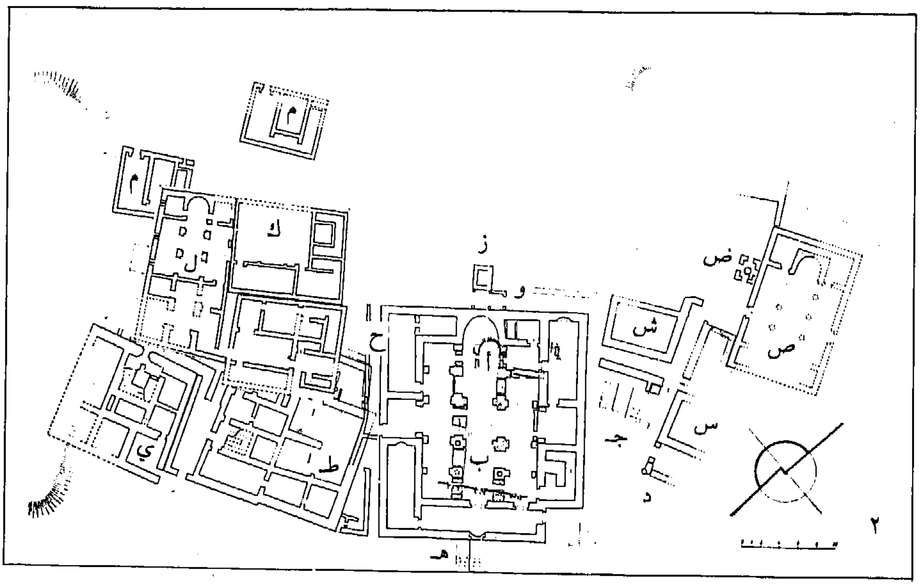
(٢١) T. Säve-Söderbergh, 1970; M. Almagro, 1963 - 50; K. Michalowski, 1965.

(٢٢) W.Y. Adams, 1961, pp. 7-43; 1962a, pp. 62-75; 1962b, pp. 245-288; W.Y. Adams and H.A. Nordström,pp. 1-10; W.Y. Adams, 1964a, pp. 227-247; 1965a, pp. 148-176; 1965b, pp. 87-139; 1966a, pp.13-30; 1968, pp. 194-215; 1967, pp. 11-19; T. Säve - Söderbergh, 1970, pp. 224, 225, 227, 232, 235; 1972, pp. 11-17.

(٢٣) B.G. Trigger, 1965, pp. 347-387; L.P. Kirwan, 1966, pp. 121-128; P.L. Shinnie, 1965, pp. 87-139 et 1971, pp. 42-50; J.M. Plumley, 1970, pp. 129-134 et 1971. pp. 8-24; K. Michalowski, 1965, pp. 9-25; Id, 1967 (b), pp.194-211: Id, 1967 (a), pp. 104-211; Id, 1967 (c); S. Jakobielski, 1972; W.H.C. Frend, 1968, p. 319; Id, 1972 (a). pp. 224-229; Id, 1972 (b). pp. 297-308.

(٢٤) J. Leclant, Orientalia, 1968-1974.





١ - فرس. الخريطة العامة للموقع الكائن داخل الأسوار
في الوسط - الكوم الكبير، في الركن الأعلى الأيسر - بقايا الكنيسة الكبيرة، في الركن الأسفل الأيمن.
٢ - فرس - مبان مسيحية كشفت عنها البعثة البولندية (١٩٦١ - ١٩٦٤)
(أ) كنيسة من الطوب النّيِّىء (ب) الكاتدرائية (ج) مقابر الأساقفة من القرنين الثامن والتاسع (د) الدعامة الحاملة للصليب (هـ) مقابر الأساقفة في القرن العاشر (و) كنائس يؤانس التذكارية (ز) مقابر يؤانس (ح) الممر الشمالي (ط، ي) الدير القديم والقصر (ك) الدير الشمالي (ل) كنيسة الدير (م) مساكن (س) مقر الأساقفة (قد يكون ديراً) (ش) مبنى لم يتعرف عليه (ص) الكنيسة الواقعة على المنحدر الجنوبي للكوم (ض) مقبرة الأسقف بطرس.

ومن ناحية اخرى توافرت الآن معلومات - وبعضها افتراضي - عن النوبة في الحلقة الدراسية حول النوبة المسيحية والتي عقدت عام ١٩٦٩ في فيلا هوجل (Villa Hugel) بمدينة اسن. وقد نشرت هذه المعلومات في مجلد منفصل تحت اشراف ي. دنكلر (E. Dinkler) [٢٥]. كما صدرت في عام ١٩٧٥ نتائج الحلقة الدراسية الثانية التي عقدت في عام ١٩٧٢ بمدينة وارسو[٢٦].

ومع أن النوبة على النقيض من مصر لم تكن جزءاً من الامبراطورية البيزنطية فمن المؤكد ان الصلات التي أقامتها بعثتا القسّين يوليانوس ولونجينوس قد ربطت النوبة ببيزنطة. فنظام الحكومة في النوبة كان صورة طبق الأصل من البيروقراطية البيزنطية وهو ما تشير اليه بوضوح المصطلحات والأسماء التي استعملها النوبيون. وتشير بعض الدلائل الى أن بعض الكتائب الساسانية المرابطة جنوب الجندل غزت الجزء الشمالي من مملكة النوبة رغم أن الحملة الفارسية على مصر عام ٦١٦ توقفت عند حدود النوبة الشمالية. وعلى أية حال فقد قضت حملة كسرى الثاني على الصلات المباشرة بين النوبة ومصر التي كانت قد تنصرت - وبخاصة العلاقات بين رجال الدين في النوبة وبطريركية الاسكندرية التي كانت تشرف رسمياً على الكنيسة النوبية.

وفي عام ٦٤١ خضعت مصر للحكم العربي وانقطعت بذلك الصلة بين النوبة المسيحية وبين حضارة البحر المتوسط خلال القرون التالية.

ولم يعتبر العرب فتح النوبة أمراً حيوياً أول الأمر واكتفوا ببعض الغارات على شمال النوبة. وقد وقعوا مع مملكة النوبة عقب سقوط مصر معاهدة عرفت بمعاهدة البقط (Baqt) تدفع النوبة بمقتضاها جزية سنوية من العبيد وبعض السلع، ويلتزم العرب بمد النوبة بقدر مناسب من الأغذية والملابس. وقد ظلت هذه المعاهدة سارية المفعول مرعيّة من الطرفين خلال القرون السبعة التي نعمت فيها النوبة المسيحية بالاستقلال رغم وقوع بعض الصدامات المسلحة بين الفريقين. فمثلاً بعد توقيع معاهدة البقط مباشرة أغار الأمير عبدالله بن أبي السرح على دنقلة في عامي ٦٥١ - ٦٥٢ غير أن تلك الغارة لم تؤد الى وقف تبادل التجارة المستمر بين النوبة ومصر الاسلامية[٢٧].

وقد اتحدت النوبة الشمالية والوسطى وكونتا دولة واحدة على أثر المناوشات بين العرب والنوبيين. ويشير المقريزي نقلاً عن المصادر العربية القديمة الى ان الملك قليدوروت (Qualidurut) قد حكم النوبة الشمالية والوسطى حتى حدود «علوة» في منتصف القرن السابع[٢٨]. بينما تشير المصادر المسيحية الى أن النوبة توحدت على يد الملك مرقوريوس (Merkurios) الذي اعتلى العرش في عام ٦٩٧ ويقال إنه أدخل المذهب المونوفيزي الى المقرة واتخذ من دنقلة عاصمة لمملكة النوبة الموحدة.

ومسألة المذهب المونوفيزي في النوبة ما زال يكتنفها بعض الغموض حتى يومنا هذا وبخاصة فيما يتصل بعلاقات ملوك النوبة مع الكنيسة الملكانية الاورثوذكسية. وربما ظل المذهب الملكاني منتشراً في بعض أنحاء المملكة الداخلية. ومن المسلم به أن مقاطعة مريس (Maris) التي كانت قبل ذلك مملكة النوبة الشمالية، ظلت حتى القرن الرابع عشر تحت امرة أسقف ملكاني كان يقيم في طافة ويهيمن على أمور أسقفية تضم منطقة النوبة جميعها. وكان بالاسكندرية - اذا استثنينا القرن الثامن - على مر القرون بطريركان، احدهما مونوفيزي والآخر ملكاني[٢٩].

(٢٥) K. Michalowski, 1975.

(٢٦) K. Michalowski, 1975, op. cit.

(٢٧) W.Y. Adams, 1965c, p. 173.

(٢٨) K. Michalowski, 1967b.

(٢٩) U. Monneret de Villard, 1938, pp. 61, 158-159; P.L. Shinnie, 1954a, p. 5.



١



٢

١ : رأس القديسة آن: صورة جدارية من الجناح الشمالي من كاتدرائية فرس (القرن الثامن)
٢ : اسكفة باب مزخرفة، من بداية العهد المسيحي - من فرس (النصف الثاني من القرن السادس أو أوائل القرن السابع)

وقد أدى اتحاد مملكتي النوبة الى تطور عظيم في مجالي السياسة والاقتصاد. وكان يطلق على الملك قيرياقوس (Kyriakos) الذي أعقب الملك مرقوريوس، لقب الملك «العظيم» وقد حكم البلاد بمعاونة ثلاثة عشر والياً. وكان ملوك النوبة شأنهم في ذلك شأن الفراعنة في مصر القديمة من كبار القساوسة. وكان يحق لهم بالاضافة الى معالجة المسائل الدينية القيام ببعض المهام الدينية بشرط الا تكون أيديهم قد لوثها دم الانسان(٣٠).

وقد أغار الملك قيرياقوس على مصر عندما بلغه خبر اعتقال والي مصر الأموي لبطريرك الاسكندرية ووصل حتى مدينة الفسطاط(٣١)، وعاد الى النوبة فور اطلاق سراح البطريرك المعتقل. وتقوم حملة الملك قيرياقوس هذه شاهداً على أن النوبة لم تكن تلتزم دائماً جانب الدفاع وانما قامت أيضاً بالهجوم على مصر الاسلامية.

وقد تم الكشف مؤخراً في قصر ابريم عن مجموعة من أوراق البردي التي القت المزيد من الضوء على العلاقات بين مصر والنوبة ابان تلك الفترة. وقد حوت هذه الأوراق مراسلات بين ملوك النوبة وحاكم مصر. ويعود تاريخ أطول هذه الأوراق الى عام ٧٥٨م وفيها شكوى كتبت بالعربية من قبل موسى كعة بن عيينة (Musa K'ah Ibn Uyayna) يشتكي فيها من عدم احترام النوبة لمعاهدة (البقط)(٣٢).

ولا تشكل الحملات الحربية الدليل الوحيد على قوة النوبة وحيويتها منذ بداية القرن الثامن، فقد أكدت الكشوف الأثرية التطور المدهش في الثقافة والفنون والهندسة المعمارية في النوبة إبان تلك الفترة، ففي عام ٧٠٧ اعاد الأسقف بولس (Paulos) بناء كاتدرائية فرس وزينها بصور حائطية بديعة(٣٣)؛ ويعود تاريخ بعض المباني الدينية في دنقلة الى تلك الفترة(٣٤). وزينت كنائس نوبية غير التي ذكرنا بالصور الحائطية ومن بين هذه الكنائس كنيسة عبدالله نركي (Abdalla Nirqi) (٣٥) وكنيسة السبوع (Al-Sabu'a) (٣٦) وقد أصبحت الصور الحائطية إحدى السمات الثابتة في فن الزخرفة الشعائري.

ومن ناحية أخرى فقد كشفت الحفريات في بعض المواقع المعروفة أو التي اكتشفت مؤخراً عن انتشار المسيحية الواسع بين سكان القرى منذ القرن الثامن الميلادي(٣٧).

ومن المرجح أن الملك يؤانس (يوحنا Yoannes) ملك النوبة ضم الاقليم الجنوبي من علوة الى مملكة النوبة المتحدة بنهاية القرن الثامن وبداية القرن التاسع(٣٨).

---

(٣٠) U. Monneret de Villard, 1938, p. 99

(٣١) المصدر السابق، ص ٩٨.

(٣٢) J.P. Plumley and W.Y. Adams, pp. 237-238; P. Van Moorsel; J. Jacquet, and H. Schneider.

(٣٣) K. Michalowski, 1964, pp. 79-91; J. Leclant and J. Leroy, pp. 361-362; F. and U. Hentze, 1968, pp. 31-33, Figs 140-147, K. Weitzmann, pp. 325-346; T. Golgowski, pp. 293-312; M. martens, 1972, pp. 207-250; 1973; K. Michalowski, 1974.

(٣٤) انظر الحاشية رقم (٢) ص ٥.

(٣٥) A. Klasens, 1964, pp. 147, 156; P. Van Moorsel, 1967, pp. 388-392; Id 1966, pp. 297-316, idem, Acts del VIII Congreso International de Arqueologia Cristiana, Barcelona, 1972, pp. 349-395; idem, 1970, pp. 103-110.

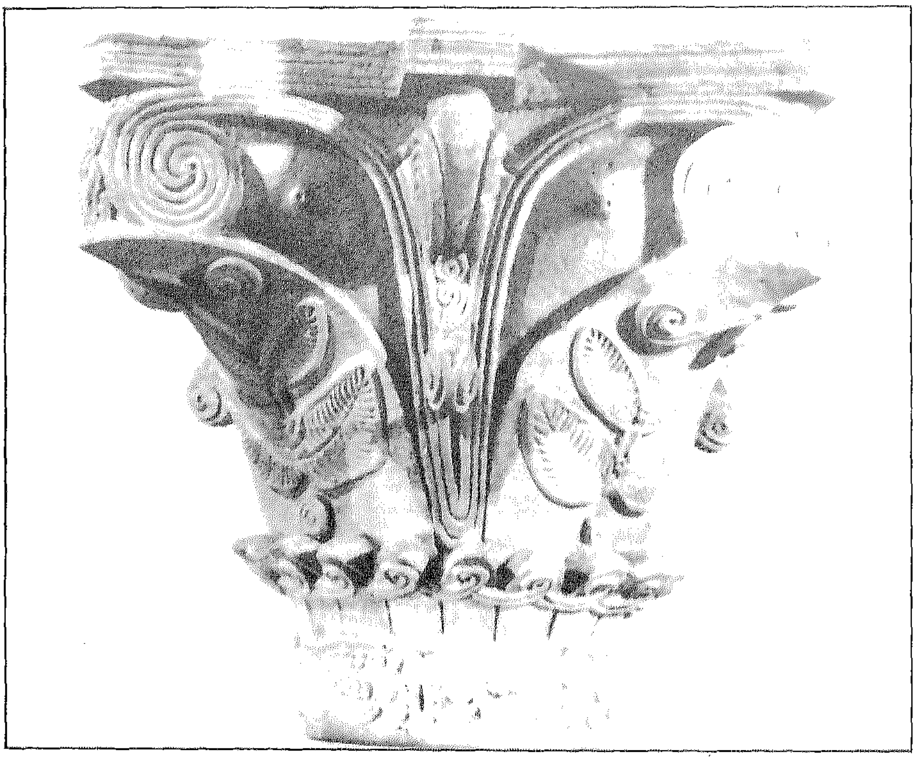
(٣٦) F. Daumas, Cairo, 1967, pp. 40ff; 1965, pp. 41-50.

(٣٧) J. Vercoutter, 1970, pp. 155-160

(٣٨) U. Monneret de Villard, 1938, p. 102; K. Michalowski, 1965, p. 17



١



٢

١ : جزء من طنف زخرفي من الحجر الرملي من هيكل كاتدرائية فرس (النصف الأول من القرن السابع)
٢ : تاج عمود من الحجر الرملي من فرس (النصف الأول من القرن السابع)

وقد تميز العصر المسيحي في النوبة بالتطور الاقتصادي السريع. وبلغ تعداد سكان النوبة الشمالية وحدها نحو ٥٠ ألف نسمة[٣٩]. وأدى ادخال الساقية في عصر البطالمة والعصر الروماني الى زيادة الرقعة المزروعة[٤٠] التي كانت تنتج القمح والشعير، والدخن، والعنب. وساهم محصول البلح الوفير في الارتقاء بمستوى المعيشة في البلاد.

ونشطت حركة التجارة مع البلدان المجاورة وتجاوزتها الى ما هو أبعد منها. وباع سكان المقرة العاج لبيزنطة، والنحاس والذهب للحبشة، وبلغت قوافلهم التجارية قلب افريقيا الى المناطق المعروفة اليوم بنيجيريا وغانا. واستخدمت القوافل التجارية في رحلاتها هذه الزوارق والجمال.

وكان افراد الطبقات الميسورة الحال يفضلون الملابس البيزنطية على ما سواها، في حين كانت النساء يرتدين جلاليب طويلة ومطرزة ومزركشة بخيوط ملونة[٤١].

وكان نظام الحكم في النوبة المسيحية كما اسلفنا صورة من النظم البيزنطية. وكان حاكم الاقليم المدني هو الوالي (Eparchos)، ويرمز التاج المقرون الذي كان يعتمره فوق خوذة مزينة بهلال الى السلطة التي كان يتمتع بها[٤٢] وكان يلبس في أغلب الأحيان قفطاناً مضموماً الى الجسم بلفاع. وكانت أطراف الروب (البطرشيل) الذي يلبسه القساوسة فوق ملابسهم الكهنوتية الفاخرة المتكلفة، تزين بأجراس صغيرة.

وقد شهد الكتّاب العرب القدامى ببراعة النوبيين في استعمال القوس فضلاً عن تفوقهم في استعمال السيف والمزراق.

وشيدت المنازل الخاصة من الطوب النيىء وكان بها غرف عديدة، وسقوفها مقبّبة حيناً ومسطحة حيناً آخر ومصنوعة من الخشب والقش المخلوط بالطين. وكانت حيطان هذه المنازل في عهد الازدهار النوبي أضخم سمكاً وصارت تدهن بطلاء أبيض. وربما شيدت المنازل المتعددة الطوابق لاغراض دفاعية وكانت بعض الاحياء مزودة بأنابيب وقد عثر في الجزر الواقعة عند الجندل الثاني على منازل شيدت جدرانها من الحجر المنحوت نحتا مستوياً. وفي النوبة الشمالية شيدت الأسوار حول القرى بغرض حمايتها من الغارات العربية. وفي بعض القرى بنى الأهالي مخازن جماعية لاستعمالها في حالات الحصار. أما الكنيسة فكانت تحتل قلب القرية.

وشيدت المباني ذات الطابع الديني - عدا قلة قليلة - من اللبن باستثناء كاتدرائيات قصر ابريم، وفرس ودنقلة التي بنيت حيطانها من الحجر أو القرميد (الآجر). وقد شيدت معظم الكنائس على الطراز البازيليكي وان وجدت بعض الكنائس على شكل الصليب وكنائس أخرى مستطيلة الشكل في فن المعمار النوبي. وأما عن فن الزخرفة في الفترة الأولى من تاريخ النوبة المسيحية والتي تمتد حتى نهاية القرن السابع فمن الممكن استجلاء ملامحه فقط من الكنائس الفخمة التي تقدمت الاشارة اليها.

وفيما عدا بعض المباني الوثنية التي استخدمت لاغراض تتعلق بالديانة المسيحية كما هو الحال في «فرس» فقد كانت الزخرفة من الحجر الرملي وتحاكي الحلية التقليدية ذات الشكل اللولبي التي اقتبسها الفن المروي من الفن الهلينستي السائد في الشرق الروماني.

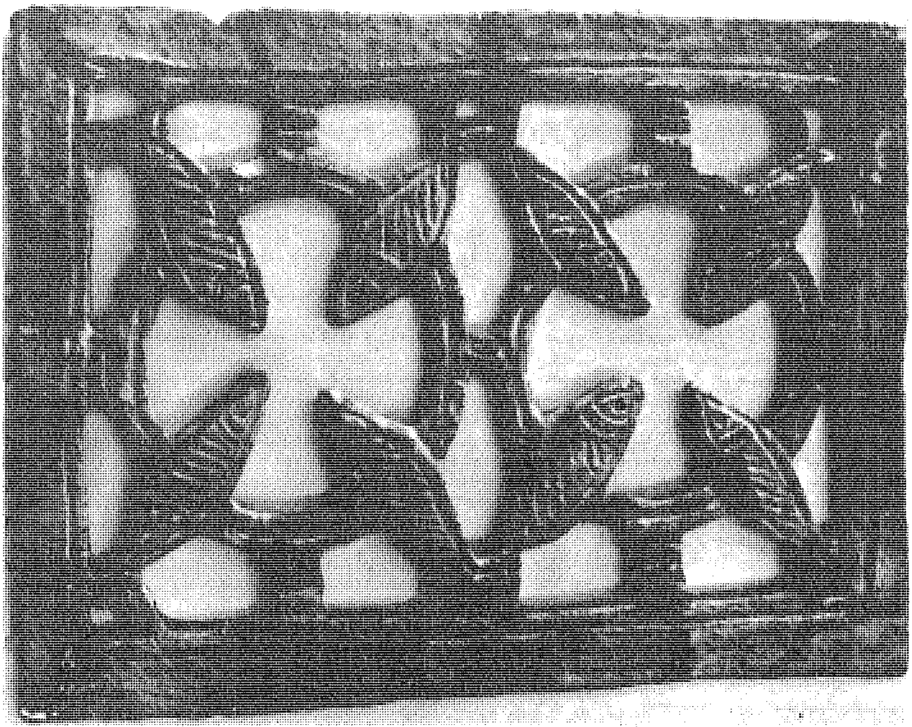
---

(٣٩) B.G. Trigger, 1965, p. 168.

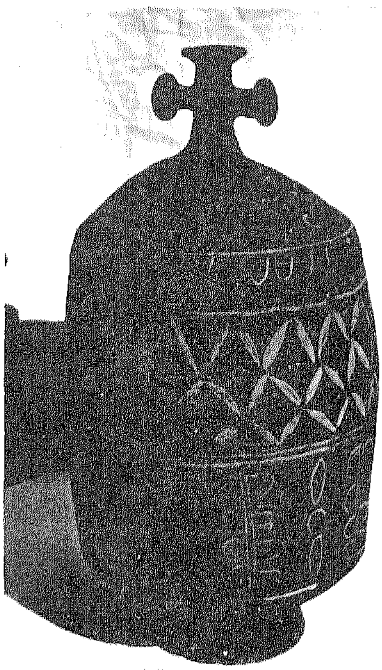
(٤٠) نفس المرجع، ص ١٦٦.

(٤١) I. Hofmann, 1967, pp. 522-592.

(٤٢) K. Michalowski, 1974, pp. 44-45.



١



٢

١ : نافذة من الطين المحروق من كنيسة الأعمدة الجرانيتية في دنقلة القديمة (العجوز)، بالسودان (أواخر القرن السابع)

٢ : خزف من النوبة في عهدها المسيحي

وتجدر الاشارة أيضاً الى تلك الحلى المعمارية الحلزونية البديعة التي توجد على تيجان الأعمدة المزخرفة بنقوش ورقية الشكل. وربما استخدمت صور المسيح التي رسمت على الأعمدة الخشبية لاغراض تتعلق بالطقوس الدينية.

ويبدو أثر مصر القبطية واضحاً جلياً في أقدم المخلفات الأثرية للفن المسيحي(٤٣) وتدل على ذلك موضوعات الفن النوبي نفسه فمثلاً طنف (إفريز) الحمائم أو النسور يعيد الى الذاكرة الصور الشبيهة الموجودة على المسلات القبطية(٤٤).

وابتداء من القرن الثامن بدأ تزيين الكنائس النوبية بلوحات مرسومة على الجص الجاف. وقد أمكن بفضل الكشوف التي تمت في فرس في الفترة من عام ١٩٦١ الى عام ١٩٦٤ والتي عثر اثناءها على ما يزيد على المائة والعشرين لوحة حائطية في حالة جيدة تضم صور الاساقفة الذين يمكن تحديد تاريخ نشاطهم الديني بالرجوع الى قائمة الأساقفة، وتتبع مراحل تطور شامل في فن الرسم النوبي(٤٥) وهو أمر تؤيده أيضاً بقايا الرسوم الحائطية التي وجدت في عدد آخر من الكنائس النوبية.

ومن المؤكد أن «فَرَس» كانت في تلك الفترة مركز النشاط الفني بالنسبة للنوبة الشمالية على أقل تقدير(٤٦). والنمط الذي تتبعه الرسوم التي عثر عليها في عبدالله نركي(٤٧) وتميت(٤٨) شمال فرس وفي سُنكي تينو(٤٩) الى الجنوب منها لا يعدو أن يكون نمطاً ريفياً اذا ما قارناه بالأعمال الفنية البارعة في فرس.

ومنذ بداية القرن الثامن وحتى منتصف القرن التاسع أظهر رسامو النوبة ميلاً واضحاً لاستعمال الألوان البنفسجية في رسومهم. وقد تأثر الفن النوبي في تلك الفترة تأثراً قوياً بالفن القبطي الذي استمد تقاليده من النمط التعبيري لرسوم الفيوم. ويعد رأس القدّيسة آن قديسة فرس (St Anne of Faras) – وهو موجود الآن بمتحف وارسو – خير مثال لرسوم تلك الفترة(٥٠) كما يمكن ملاحظة أثر الفن البيزنطي وموضوعاته على الفن النوبي في نفس الفترة(٥١). وفيما بعد تطورت أنماط الفن النوبي وسيطر اللون الأبيض على الرسوم في منتصف القرن العاشر. وربما يعود ذلك الى أثر الفن السوري – الفلسطيني والذي عرف بطريقته في تصوير طيات الملابس وببعض مظاهر فن صنع الأيقونات(٥٢). ولعل هذا التطور الذي طرأ على الفن النوبي المعاصر يفسره أن القدس كانت مقصد الحجاج من كل الاقطار المسيحية الشرقية.

---

(٤٣) P. Du Bourguet, 1964, pp. 221ff; K. Wessel, 1964, pp. 223ff; P. Du Bourguet, 1964a, pp. 25-48.

(٤٤) J.M. Plumley, 1970, pp. 132-133, Figs 109-119; N. Jansma and M. Grooth, pp. 2-9; L. Török, 1971.

(٤٥) انظر أيضاً حاشية (٢) ص ١١ .K. Michalowski, 1964, pp. 79-94

(٤٦) K. Michalowski, 1966.

(٤٧) A. Klasens, 1967, pp. 85ff; L. Castiglione 1967, pp. 14-19; P. Van Moorsel, 1966, pp. 297-316; 1967, pp. 388-392; 1970, pp. 103-110; idem, Actas del VIII congreso International de Arequeologia Christiana, Barcelona, 1972, pp. 349-395; P. Van Moorsel; J. Jaqauet and H. Schneider.

(٤٨) Archaeological Mission to Egypt of the University of Rome, Rome, 1967.

(٤٩) S. Donadoni, Vantini, pp. 247-273; S. Donadoni, and S. Curto, 1968, pp. 123ff, S. Donadoni, 1970, pp. 209-218.

(٥٠) K. Michalowski, 1965b, p. 188, pl. XLIb, 1966, p. 11,2; 1967a, p. 109, pp. 27 and 32; T. Zawadzki, p. 289; K. Michalowski, 1970, Fig. 16; M. Martens, 1972, p. 216, Fig. 5.

(٥١) K. Michalowski, 1967b, p. 74; S. Jakobielski, 1972, pp. 67-69; M. Martens, 1972, pp. 234 and 249.

(٥٢) K. Weitzmann, p. 337.

ومن المعروف أن مملكة النوبة «المونوفيزية» ربطتها علاقات وطيدة في تلك الفترة بطائفة اليعاقبة في أنطاكية. ويشير كل من يوحنا الشماس (Deacon John) (٥٣) وأبو صالح(٥٤)، الى ان بطريرك الاسكندرية المونوفيزي (اليعقوبي) كان يرأس الكنيسة النوبية في عهد الملك زياوس. وظهرت في تلك الفترة نزعة قوية نحو الواقعية لأول مرة في تاريخ فن الرسم النوبي. وأفضل مثال على ذلك صورة الأسقف كيروس (Kyros) أسقف فرس (وهي مودعة حالياً بمتحف الخرطوم)(٥٥).

وقد كشفت الحفائر عن مجموعة ضخمة من المصنوعات اليدوية، وأهمها بداهة الأواني الفخارية والتي قام و. ي. آدمز بدراستها دراسة منهجية فاحصة(٥٦). وخلص آدمز من دراسته تلك الى أن هذه المجموعة تكشف عن تحسينات تقنية وفنية واقتصادية واجتماعية مثيرة للاهتمام.

وبعد المستوى الرفيع الذي عرفته فترة المجموعة س (X-Group) قل الابتكار في تشكيل الخزف المحلي وهو أمر تدل عليه بعض الأشكال القليلة والأنماط الزخرفية في الفترة المبكرة التي نحن بصددها في هذا الفصل. كذلك حدث تطور في الأواني الخزفية المصنوعة بعجلة الفخاري: اذ تناقص - على ما يبدو - بسبب انقطاع الصلات مع منطقة البحر الأبيض المتوسط عدد الدنان والجرار التي كانت تصنع لتخمير النبيذ وللشرب، ومن ناحية اخرى، طرأت تحسينات جديدة فصارت للأواني أعناق لتسهيل استعمالها.

وقد أمدت أسوان حتى قبل عام ٧٥٠ الجنوب بقدر لا يستهان به من الخزف وظلت هذه التجارة قائمة بعد أن استقر المسلمون في مصر.

خلاصة القول أن النوبة شهدت حتى مستهلّ القرن التاسع ازدهاراً لم يعكر صفوه جيران النوبة من المسلمين الذين كانوا مسالمين في العادة. ومن العسير ان نتبين الوحدة الثقافية للنوبة المسيحية في تلك الفترة المتقدمة. ففي فرس كان افراد الطبقة الارستقراطية والاداريون وكبار رجال الكنيسة يتكلمون اللغة اليونانية. وكان رجال الدين ملمين أيضاً باللغة القبطية التي يعتقد انها كانت لغة العديد من اللاجئين. وفيما يتعلق باللغة النوبية التي كان يتحدثها معظم السكان فيعود تاريخ الآثار الوحيدة المكتوبة المتبقية منها وهي قليلة الى فترة لاحقة ربما لا تتعدى منتصف القرن التاسع.

وكان العصر الذهبي للنوبة المسيحية وقتئذ - حوالى عام ٨٠٠ - لا يزال جنيناً في أحشاء التاريخ لم ير النور بعد.

---

(٥٣) Patrologia Orientalis, pp. 140 - 143.

(٥٤) B.T.A. Evetts and A.J. Butler, 1895, U. Monneret de Villard, 1938, pp. 135-136; F.L. Griffith, 1925, p. 265.

(٥٥) K. Michalowski, 1966c, p. 14, pl. VI. 2,; 1967b, p. 117, pl. 37; S. Jakobielski, 1966, pp. 159-160, Fig. 2(abbr Liste); K. Michaowski, 1970, pl. 9; M. Martens, 1972, pp. 240-241, 248ff, S. Jakobielski, 1972, pp. 86-66, Fig. 13.

(٥٦) في بحث صدر مؤخراً: W.Y. Adams, 1970, pp. III-123.

الفصل الثالث عشر

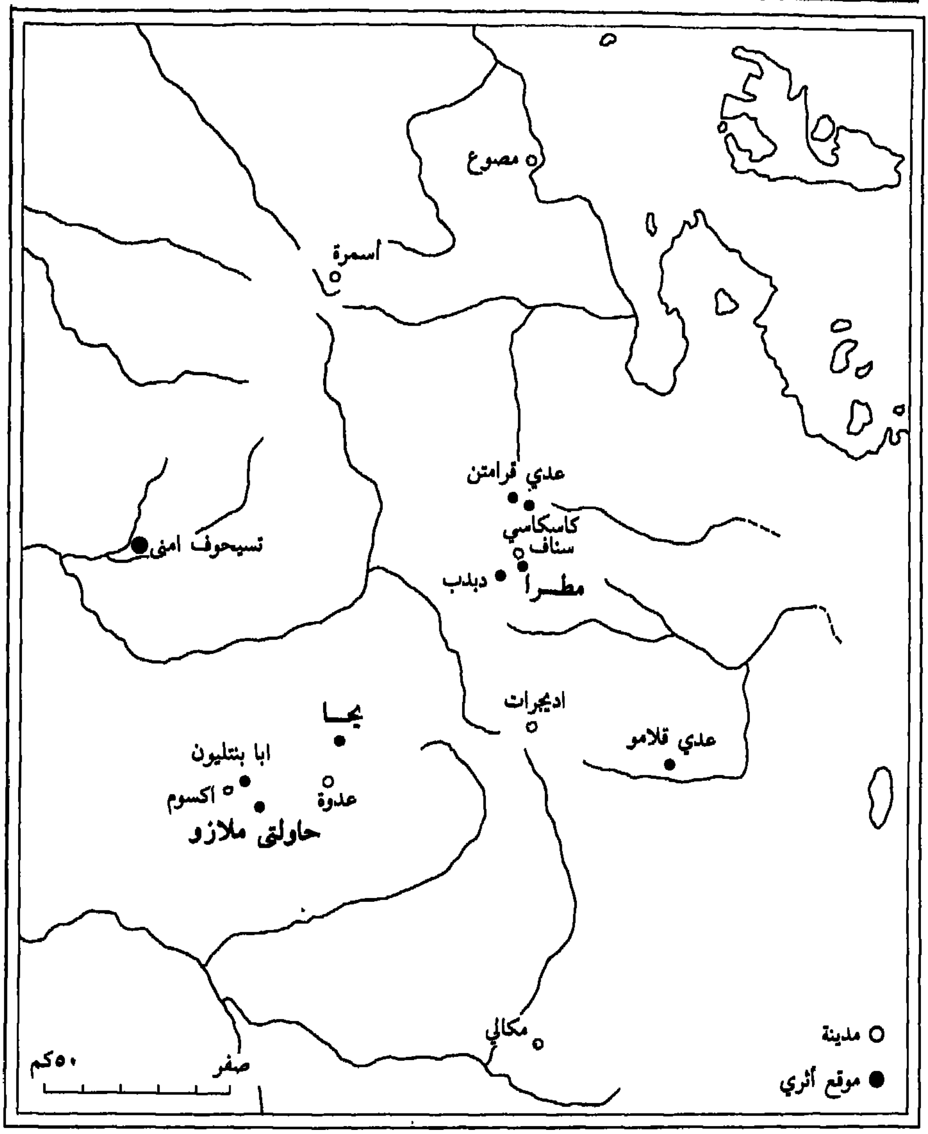
حضارة فترة ما قبل أكسوم

بقلم هـ. دي كُنتنسون

إن المناطق الشمالية من اثيوبيا والتي خرجت من فترة ما قبل التاريخ حوالى القرن الخامس قبل الميلاد لا تبدو مأهولة بعدد كبير من السكان في عصر مبكر، ولا نعرف سوى النزر اليسير عن السكان الأصليين. والمعلومات الطفيفة التي لدينا تشير الى أن المجموعات البشرية تطورت هناك تطوراً مماثلاً لما جرى في بقية القرن الافريقي.

وتشابه الآلات الحجرية التي وجدت في العشرة آلاف سنة الأخيرة قبل الميلاد مجموعة الأدوات المصنوعة والتي ترجع الى العصر الحجري المتأخر لجنوب افريقيا. وفي هذه الفترة يبدو أن الرعاة قد عاشوا في هذه المنطقة وقاموا بعمل رسوم لأبقارهم ذات القرون الطويلة وليست لها أسنمة. ووجدت هذه الرسوم على الصخور الشاهقة الممتدة من شمال إريتريا الى أرض الحريري. وقطعانهم تشابه تلك التي كانت موجودة في نفس الفترة في الصحراء وفي حوض النيل. وكان هؤلاء على صلة بالعالم المصري منذ تاريخ مبكر.

والعنصر الكوشي له اهمية لغوياً، وأصله محلي وأصبح محسوساً في جهات أخرى. والاكتشافات الأخيرة التي أجريت في قبدرة (Gobedra) بالقرب من أكسوم (Aksum)(فيليبسون ١٩٧٧) أوضحت أن تجارب زراعة الدخن واستعمال الفخار قد بدأت في الألف الثالث أو الرابع. لذلك هنالك سبب للاعتقاد بأن بجانب النشاط الرعوي قد بدأ نوع اثيوبي من الزراعة في التطور. ومن هذا الوقت نجد أن الأساليب التقنية الجديدة كانت على ما يرجح مرتبطة بالحياة المستقرة التي خلقت ظروفاً ملائمة لتطور حضاري أرقى.



أثيوبيا ابان مرحلة جنوب الجزيرة العربية

وبينما يمكن ارجاع تأسيس مدينة اكسوم وظهور أسرة ملكية في أكسوم الى القرن الثاني قبل الميلاد استناداً الى أقوال العالم الجغرافي كلوديوس بطليموس(١) والتي تأيدت بعد مضي حوالى مائة عام بما يعرف باسم «دليل الملاحة في البحر الأحمر» (Periplus Maris Erythrae) (٢) بالاضافة الى الاكتشافات الأثرية(٣)، فإن الكتاب اليونان والرومان القدامى لم يذكروا شيئاً تقريباً عن هذه الحقبة الطويلة التي مهدت لهذه الأحداث.

وكل ما ذكروه هو أنه، عند منتصف القرن الثالث قبل الميلاد، أسس بطلميوس الثاني فيلادلفوس ميناء ادوليس والذي وسعه خليفته بطلميوس الثالث يوئرجتيس. وذكر بلين حوالى عام ٧٥ ميلادية أنه من أهم موانىء عروج السفن في البحر الأحمر. وأيضاً أشار لقبائل الأسخيين (Asachae) المتعددة التي تعيش على صيد الأفيال في الجبال التي تقع على مسيرة خمسة أيام بعيداً من البحر(٤). والارتباط المقترح بين الاسم العرقي لهذه القبائل واسم اكسوم لا يعدو أن يكون محض افتراض.

والمصادر المكتوبة عن هذه الفترة خاصة النصوص التي كتبت باللغة العربية الجنوبية، لا تشير بتاتاً - حسبما يتراءى للمرء - الى الأحداث في الجانب الافريقي من البحر الأحمر في هذه الفترة.

وبغض النظر عن الحكايات الأسطورية التي لن نتطرق اليها في هذا الفصل، فلا بد من البحث عن المعلومات في سلسلة الكشوف الأثرية والتي جرت منذ بداية القرن العشرين. وهذه المعلومات تساعدنا في اعادة بناء تاريخ فترة ما قبل أكسوم والتي نعرف من دراسات ف. أنفري أنها تشمل فترة جنوب الجزيرة العربية، وفترة انتقالية(٥).

فترة جنوب الجزيرة العربية

هذه هي الفترة التي «كان فيها نفوذ جنوب الجزيرة العربية قوياً في شمال اثيوبيا» وأهم دليل على هذا النفوذ هو وجود مبان أثرية ونقوش في اريتريا وتجري (تقري) مماثلة لما كان شائعاً في جنوب الجزيرة العربية في عهد سيادة مملكة سبأ (Saba) وبفضل دراسات ج. بيرين في الأساليب والخطوط القديمة، فإن الأمثلة المشابهة، التي وجدت في جنوب الجزيرة العربية، يمكن أن تؤرخ بالقرنين الخامس والرابع قبل الميلاد. وهذا التسلسل التاريخي قد حظي بالقبول من كل المتخصصين في هذا الحقل من الدراسات(٦) ومن المتفق عليه عادة ان هذه التواريخ يمكن أن تنطبق على الوثائق التي اكتشفت في اثيوبيا على الرغم من أن الافتراض الذي طرحه ك. كونتي - روسيني عن وجود فترة زمنية فاصلة بين شاطىء البحر الأحمر لا يمكن تجاهله او استبعاده(٧). وكما يقول ف. أنفري «هناك ما يدعو للاعتقاد بأنه سيصبح من الضروري، في حالة تقديم تواريخ منطقة جنوب الجزيرة العربية، تقصير مدى الفاصل الزمني».

(١) Claudius Ptolemy, 1932; H. de Contenson, 1960, pp. 77,79, Fig. 2
(٢) H. De. Contenson, 1960, pp. 75-80; Pirenne, J., 1961, pp. 441, 459
(٣) H. De Contenson, 1960, pp. 80-95
(٤) Pliny; H. De Contenson, 1960, pp. 77-78, Fig. I
(٥) F. Anfray, 1967, PP. 48-50; 1968, PP. 353-356
(٦) J. Pirenne, 1955; 1956
(٧) C. Conti-Rossini, 1928, pp. 110-111

وإن الأثر المعماري الوحيد المتبقي في هذه الفترة هو معبد «يحا» (Yeha) والذي حول في وقت لاحق الى كنيسة مسيحية. والمعبد مبني من كتل حجرية كبيرة ضمت بعناية مع بعضها البعض بحلى معمارية ناتئة وأحجار ركنية، ويحتوي على حجرة داخلية (مقدس Cella) مستطيلة الشكل حوالى ١٨,٦٠ متراً طولاً و١٥ متراً عرضاً مرتكزة على قاعدة ذات شكل هرمي ثماني الدرجات. وكما أشارت ج. بيرين فإن الواجهة، والتي ترتفع الآن الى حوالى ٩ أمتار قد صممت تصميماً مشابهاً للمباني التي اكتشفت في مأرب عاصمة مملكة سبأ بما فيها المعبد الرئيسي والذي يرتكز كذلك على قاعدة هرمية، لكن تخطيط «يحا» لا يشابه أياً من المعابد التي وجدت في جنوب الجزيرة العربية.(٨) وهناك مبنى آخر متهدم في «يحا» يشتمل على أعمدة مستطيلة من أحجار ضخمة ويقوم على مدرج منحدر عال ويقع في ناحية قرات بيل قوبري (Grat-Beal - Gubri) حيث يجري الحفر فيه الآن. وهذا المبنى من المرجح أنه يؤرخ بنفس الفترة(٩). وتوجد أعمدة مشابهة في موقعين آخرين ويشاهد بعضٌ منها على قمة جبل حاولتي (Haoulti) جنوب أكسوم حيث نصبت في غير نظام واضح ولعلها لا تقوم الآن في مواقعها الأصلية(١٠). وفي كاسكاسي (Kaskase) على الطريق الممتد من «يحا» الى ادوليس هنالك ستة أعمدة لم يفهم ترتيبها حيث أن الموقع لم تجر فيه الى الآن أي حفريات(١١)..وهذه الأعمدة تذكرنا بصفوف الأعمدة الضخمة ذات الأربعة أركان التي تزين معابد مأرب (أووام - برعان Awwam-Bar'an) وتمنع (Timna) (معبد عشترت).

وتشير كذلك المنحوتات التي عثر عليها في «يحا» «الى مأرب، ومن أمثلتها افريز الوعول واللوحات المسننة والمحززة التي توجد أيضاً في اقليم ملازو (Melazo) بحاولتي واندقرقس (Enda Cergos)والتي من الجائز أنها استخدمت بدلاً من طلاء الجدران. وقد تبين أن اقليم ملازو، الذي يبعد حوالى ثمانية أميال من أكسوم، غني بالمنحوتات التي ترجع الى فترة جنوب الجزيرة العربية. وبالاضافة الى لوحة حاولتي واللوحات المزخرفة والمذكورة أعلاه، هنالك مجموعة من الأعمال الفنية التي استعملت مرة ثانية في فترة لاحقة بعد تحوير اشكالها ومن الأمثلة البارزة «الناووس» والتماثيل التي اكتشفت في حاولتي.

والأثر الذي اطلق عليه اسم الناووس (Naos) بناء على اقتراح ج. بيرين - وهو لفظ انسب من لفظ «العرش» المقترح سابقاً - منحوت من كتلة واحدة من الحجر الجيري المستخرج محلياً ويبلغ ارتفاعه ١٤٠ سنتمتراً(١٢). وله أربع أقدام مشكلة على هيئة أظلاف ثور اثنتان تتجهان الى الأمام واثنتان الى الخلف، وتحمل قاعدة مزينة بشريطين زخرفيين تعلوهما كوة مغشاة بالزخارف ما عدا الظهر فهو أملس تماماً والكوة تعلوها منصة على شكل قوس مقعر عرضه ٦٧ سنتيمتراً وعمقه ٥٧ سنتمتراً. وعلى طول الحافة، والتي ترتفع الى ٧ سنتمترات، صفان من الوعول الرابضة والتي تتجه نحو شجرة واقفة على قمة ناووس وتتجه وعول مشابهة الى الداخل نحو الكوة وتغطي حواف الجانبين فضاءات زخرفية (Metopes) متراكبة يبلغ عرضها حوالى ١٣ سنتمتراً.

---

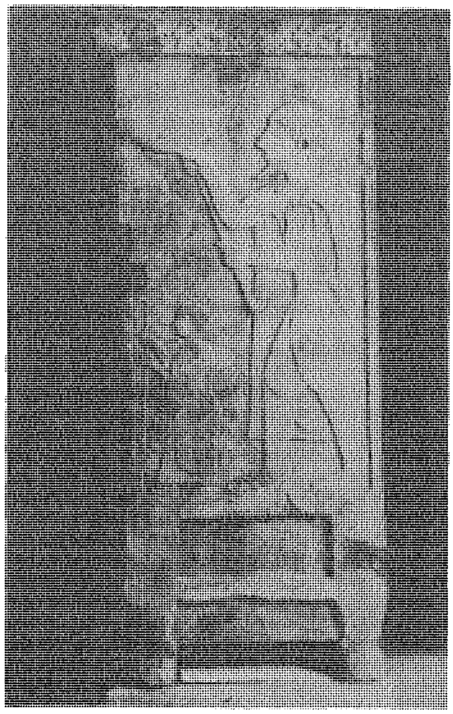
(٨) D. Krencker, pp. 79-84, Fig 5, 164-179, J. Pirenne, 1965, pp. 1044-1048

(٩) D. Krencker, 1913, pp. 67-79, Figs 195-199; .F. Anfray, 1963, pp. 45-64; 1972a, pp. 57-64r; Fattovitch, pp. 65-86.

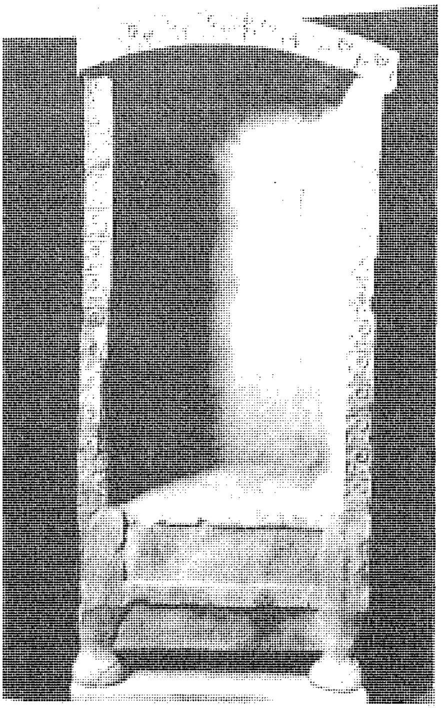
(١٠) H. De Contenson, 1963, pp. 41-86; J. Pirenne, 1970a, p. 121-122

(١١) D. KrenoKer, PP. 143-144, Figs 296-301

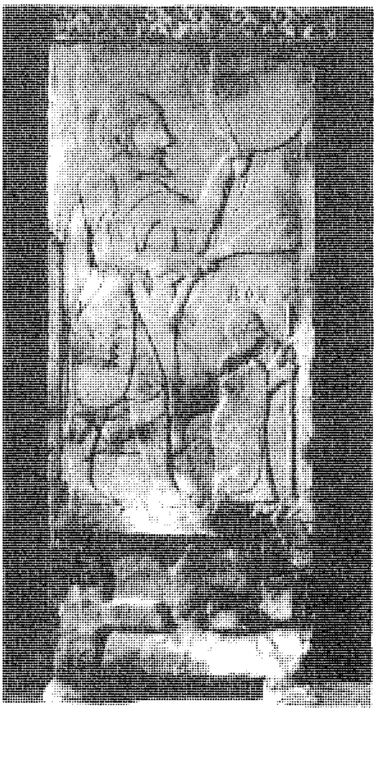
(١٢) H. De Contenson, 1962, pp. 68-83; J. Piranne, 1967, pp. 125-133



١



٢



٣

عرش أو «ناووس» حاولتي:
١ الجانب الأيمن
٢ الواجهة
٣ الجانب الأيسر

والوجه الخارجي لكلا الجانبين مزدان بنفس المنظر من النقوش الضئيلة البروز: شخص صغير بلا لحية يحمل عكازاً خلفه رجل كبير ذو لحية يحمل مروحة في يده، ويبدو الاثنان كأنهما يسيران، وأنفاهما معقوفان قليلاً يضفيان عليهما مظهر الساميين، وشعرهما مصفف في شكل معينات ويلبس الشخص الصغير جلباباً يتهدل الى أخمص القدمين، وعباءة تغطي كتفيه. وعلى الجانب الأيمن من الناووس كتب اسم علم مذكر بخط سبئي (رفش Rafash). ويرتدي الشخص الكبير مئزراً فضفاضاً له أهداب تتدلى من الخلف، مشدوداً الى الوسط بحزام يبدو معقوداً من الخلف وأحد طرفيه يتدلى سائباً، وعباءة مطروحة فوق كتفيه ومثبتة بربط طرفين منها بعقدة كبيرة مستوية على الصدر. وفي النقش البارز من ناحية اليد اليسرى يحمل الشخص بكلتا يديه ذلك الشيء الذي يوصف بأنه مروحة. ولكن في النقش البارز على الجهة اليمنى يلبس سواراً رباعياً في معصمه الأيسر ويحمل شيئاً يشبه الهراوة في يده اليمنى. وهذه الاختلافات الطفيفة بين النقشين ليست بذات أهمية ولا تدعو للشك في انهما يصوران نفس المنظر وسوف نتناول تفسيره فيما بعد.

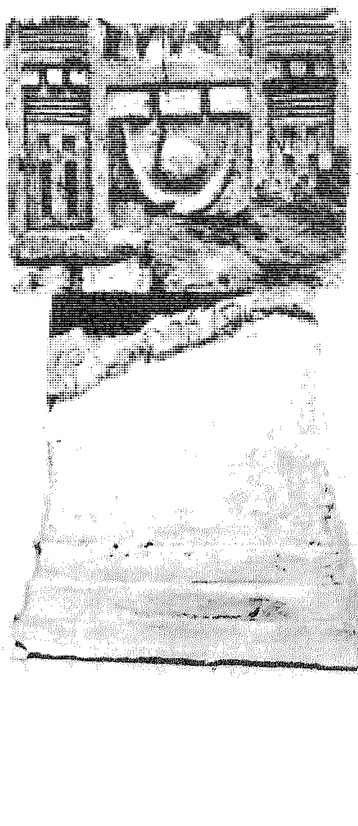
وبنفس الموقع في «حاولتي» كشف النقاب عن عدة تماثيل ذات أنواع متشابهة واحد منها فقط سليم تقريباً. وكان مكسوراً ساعة العثور عليه، وأجزاؤه متناثرة بين قطع الناووس. وهذا التمثال مصنوع من حجر جيري أبيض ناعم ذي عروق بنفسجية، وارتفاعه حوالى ٨٢ سنتمتراً. ويمثل شكل امرأة جالسة واضعة يدها على ركبتيها وتلبس ثوباً طويلاً به ثنايا طولية ممثلة بحزوز تبرز مقاسم جسمها. وتقترب فتحة الرقبة من الأمام من شكل الرقم ٧ ويحفها شريط زينة (بريم). ويستدير حول أهداب الثوب كفاف ضيق من قماش ينتهي بشريط (بريم) آخر. وفوق الثوب تلبس عقداً عريضاً يتكون من ثلاثة صفوف مجدولة سميكة يتدلى منها على الصدر حلية في شكل الترس وتتوازن هذه بين كتفيها بحلية على شكل منشور له ستة أفرع رأسية. وحول كل معصم سوار رباعي مبروم. وكفاها مبسوطتان على ركبتيها، وقدماها الحافيتان ترتكزان على قاعدة صغيرة مستطيلة. ورأسها العاري في حالة سليمة ما عدا أنفها وأذنها اليمنى. وشعرها مصفوف على شكل معيّنات. والعينان مكحولتان بخط بارز، وذقنها لحيم ووجنتاها مكتنزتان بهما غمازتان حول الفم، مما يكسبه شكلاً شبيهاً بالمنقار فيفتر عن ابتسامة ربما غير متعمدة. ويبدو أن التمثال صنع ليركب على كرسي لأن «بطني» الساقين قد سطحا وفي وسطهما عروة (ماسكة) رأسية، هي الآن مهشمة جداً.

وبغض النظر عن الأجزاء المتبقية من تمثالين على الأقل متشابهين هنالك تمثال ليس له رأس، وأقل اتقاناً من التمثال الذي مر بنا وصفه، ويختلف عنه في أن زينته الوحيدة هي العقد الثلاثي الصفوف. وهو يجلس على مقعد صغير مزين بحزام، وتذكرنا جلسة تماثيل حاولتي بتمثال صغير اكتشف بالصدفة، مع مجموعة آثار اخرى، في عدي قلامو (Addi Galamo) عند الحافة الغربية لهضبة تقري، وهو موقع كان يعرف فيها قبل بأزبي دره (Azbi Dera) أو حاولي سراو (Haouilé Assaraou)(١٣) ويبلغ ارتفاع التمثال حوالى ٤٠ سنتمتراً وتتكىء اليدان على الركبتين ولكنهما تحملان كأسين أسطوانيتين ربما كانا لاستلام الهدايا القربانية. والشعر على شكل معينات. وهناك حزوز تتضح فيها آثار عقد وما يوازنه من حلية مماثلة عند الكتفين، وأساور يحتمل أنها كانت مصنوعة من معدن نفيس. وليس بالرداء طيات ولكنه موشى بأشكال زهور تبدو كأنها مطرزة، وتنتهي بهداب مزركش. أما المقعد فهو عبارة عن مقعد صغير مزين بحزام.

(١٣) A. Shiferaou, pp. 13-15; A.Caquot and A.J.Drewes; Leiden, pp. 18-26, plates V-VIII; J. Doresse, 1957, pp. 64-65.


١


٢


٣

١ : تمثال حاولتي
٢ : تفصيل الوجه والكتفين
٣ : مذبح البخور من عدي قلامو

وعندما أجرى ف. أنفري حفائر في مطرا (Matara) وهو موقع مهم جداً بالقرب من كاسكاسي (Kaskase)، كشف النقاب عن جزء من رأس من طراز فني مماثل لرأس «حاولتي» في طبقة أثرية من التل (ب) تعود الى ما قبل الأكسومية، ولكن الصناعة أكثر بدائية، والزخرفة بالنقش البارز النافر(١٤).

وتمثال آخر معروض الآن في متحف روما الوطني (MNR 12113) ويشابه من عدة وجوه، تماثيل حاولتي. وهذا التمثال يمثل امرأة جالسة ومصنوع من حجر جيري أصفر، وقد انكسر الرأس وكذلك اليدان، وارتفاعه في الوقت الحالي ٢٣,٧ سنتيمتراً. وتلبس المرأة ثوباً طويلاً ذا ثنايا محززة وعقداً ذا ثلاثة صفوف من الحلقات ومنه يتدلى صف من الخرز، وحلية على الصدر وما يوازنها من حلية مقابلة، والجزء الأسفل على شكل قاعدة مكتوب عليها الاسم العربي الجنوبي كنعان. وحسب ما تراه ج. بيرين فالخط يرجع تاريخه الى نهاية القرن الرابع قبل الميلاد(١٥). فهذا التمثال غير المتقن من المحتمل أن يكون قد أحضر من جنوب الجزيرة العربية. لكن مكانه الأصلي لا يمكن تحديده بدقة أكبر، ومن الجائز أن نفترض أن صنعه قد تم في أثيوبيا خلال فترة جنوب الجزيرة العربية.

ولقد أمدنا جنوب الجزيرة العربية حتى الآن بأشياء نتبين منها أوجه شبه عامة كالوضع الجالس وهو ليس سمة مميزة فهناك التماثيل التي تعرف باسم تماثيل الأجداد منها الأنثوي. وهناك صور لنساء جالسات في النقوش الضحلة الجنائزية في مأرب وحاز (Hâz) وفي متحف عدن، وتمثال السيدة برعات (Bar'at) في تمنّع والذي ترى فيه ج. بيرين، الربة الكبرى لجنوب الجزيرة العربية(١٦).

ومنذ القرنين التاسع والثامن قبل الميلاد يصبح شكل المرأة أو الربة الجالسة وهي تحمل كأساً، هو الشكل الشائع في المنطقة التي ساد فيها الحكم والنفوذ السوري الحثي مثل تل حلاف وزنجيرلي - وهي سمأل القديمة - ومرعش والنيرب (Tell Halaf, Zingerli, Marash and Neirab) وتبدو هنالك علاقة حقيقية بين التماثيل الأثيوبية وتماثيل آسيا الصغرى في أواخر القرن السابع وأوائل القرن السادس قبل الميلاد (كتماثيل الكهنة بمعبد أبوللون Branchidac والصور الجنائزية في ميليتوس Miletus) والتي تمثل شخوصاً بدينة جالسة وأياديها فوق ركبها وترتدي ثياباً طويلة. ووجدنا في تلك المنطقة وجوهاً من نفس الفترة لها عيون جاحظة، وخدود مستديرة وأفواه على شكل قوس مقلوب مشابهة جداً لوجه تمثال حاولتي. هذه الملامح تبدو على ربة فريجية (Phrygian) من بوغاز كوي (Boghaz Keuy) - والتي لفت نظرنا اليها هـ. سيريج ورأس من ميليتوس (Miletus) وتماثيل منحوتة من أيونيا. والتعبير يصبح بسمة حقيقية في تماثيل أتيكا من النصف الأول من القرن السادس(١٧).

وقد أشارت ج. بيرين الى بعض الصلات بين الفن الاغريقي المستشرق في القرن السادس أو الأساليب المستنبطة في القرن الخامس وبين الفن في جنوب الجزيرة العربية.

كذلك يوضح رأس عثر عليه في الأكروبول بأثينا نوعاً من تصفيف الشعر يذكرنا بتمثال حاولتي. ونفس المعالجة للشعر نلحظها في رأس اغريقي - فارسي من عمريت وفي عبدان من أعمال بيرسبوليس (Persepolis) حيث يستعمل بدون تمييز لتصوير الشعر المجعد للزنوج الكوشيين

(١٤) F. Anfray and G. Amnequin, pp. 60-61

(١٥) A. Jamme, 1956, p. 67; H. De Contenson, 1962, pp. 74-75, Fig.9; J. Pirenne, 1965, pp. 1046-1047.

(١٦) H. De Conenson, 1962, p. 76; J. Pirenne, 1967, p. 131

(١٧) H. De Contenson, 1962, p. 77

(Kushites) وخصل الشعر المموج والمعقوص بعناية للحاجب الميدي (الفارسي) الذي يقودهم[١٨]. لذلك من الصعب أن نقرر ما اذا كان الشعر اللوزنجي هو أسلوب تقليدي للشعر المجعد أم هو تصوير صادق للشعر المفلفل. كما أنه لا يمكننا أن نستدل على شيء من هذه السمة ينم عن السلالة العرقية.

وعلى الرغم من أن متشابهات للتماثيل الجالسة قد وجدت في الأغلب في الشرق الأدنى السامي وفي العالم الهليني المستشرق فهنالك دليل على وجود تأثير مصري وعلى وجه التخصيص تأثير مروي في العقود الموازنة مستوحى من المنخيت (Mankhit) وفي الرداء ذي الثنايا الذي - كما لاحظت ج. بيرين - يذكرنا بجلباب ملكات مروى والبدانة التي ورثنها عن أتي (Ati) ملكة بُنت التي كانت معاصرة للملكة حتشبسوت[١٩].

تلقي مثل هذه المقارنات ضوءاً باهراً على تنوع المؤثرات الذي تعكسه تماثيل نساء تقري (تجري) الجالسات هذه، لكن لا تمدنا باجابة قاطعة عن السؤال: عما يعبرن وماذا يمثلن؟ كذلك لا يمكننا أن نستخلص حجة مقنعة من القاعدة المنقوشة بالكتابة التي اكتشفت في عدي قلامو (Addi Galamo) والتي يبدو أنها مرتبطة بالتمثال الصغير. ولا يمكننا أن نعرف ما اذا كان النص يعني «حتى يهب طفلاً الى يمنت (Ymnt)»، كما يعتقد أ. ج. دروز أو «... يواليدوم (Walidum) التي تمد يد العون ليمانات (Yamanat)»، كما يعتقد ج. ركمانز، أو حتى «... يواليدوم، الإلهة الراعية لليمن (Yemen)»، كما ترى ج. بيرين. وقد يعتبرهن المرء ملكات أو شخصيات من الأعيان، أو كما تـرى ج. بيرين أيضاً، صوراً تمثل الربة الكبرى. وعلى الرغم من الصعوبة الناجمة عن وجود عدة أصنام متماثلة في آن واحد فإن العثور على حطام التمثال المكتمل مختلطاً بحطام الناووس يحملنا على ترجيح التفسير الأخير، مثلما تقضي به حقيقة تطابق حجميهما. ويعد اكتشاف هذين الاثرين، جعلتنا هذه الحقائق نفترض أنهما صنعا ليكونا معاً.

ومن ثم فنحن نميل الى رفض الرأي القائل بأنه عرش فارغ من قبيل ما وجد في فينيقيا وأدوليس أو تكازي (Tacazzé) والرجوع الى فكرتنا الأولى، آخذين في الاعتبار، كما أخذت ج. بيرين، أن الشكل هو «صورة حجرية طبق الأصل من الناووس الذي يحمل اثناء المواكب» والذي يحتوي تمثال المعبود. وبصرف النظر عن بعض الكِسَر التي وجدت في حاولتي والتي يمكن أن تكون من نصب مماثل، فهذا الناووس فريد في نوعه. وعلى الرغم من أنه لم يمط اللثام عن شيء مشابه في جنوب الجزيرة العربية - وهو ما قد يرجع فقط الى الوضع الراهن للبحث الأثري في اليمن - فإن بعض ملامحه قد وجدت هناك وصورت بذات الطريقة تصويراً بالغ الدقة.

وتشاهد نفس حوافر الثيران على حجارة مستعملة كأثاث تعرف عليها ج. فان بيك كما وجدت على تمثال صغير من مأرب[٢٠]. وثمة وعول متكئة متراصة في فضاءات (Metopes) متراكبة على حافة لوحة منبسطة - وقد تم الكشف مؤخراً عن مثال لها في بلدة مطرا - تتكرر باستمرار في الاقليم السبئي بمدينتي مأرب وحاز[٢١]. كما وجدنا أيضاً وعولاً مع شجرة مرسومة بطريقة تقليدية تبدو كأنها تأكل من ثمار تلك الشجرة على محراب من مأرب. والدلالة الدينية لهذه الوعول، وهل هي مرتبطة أو غير

---

(١٨) المرجع السابق، ص ٨٢.
(١٩) المرجع السابق، ص ٧٨ وكذلك: J. Pirenne, 1967, p. 132
(٢٠) H. De Contenson, 1962, p. 79
(٢١) المرجع السابق، ص ٨٠ وأيضاً: F. Anfray, 1965, p. 59, pl. LXIII, 2

مرتبطة «بشجرة الحياة»، لا تزال أموراً غامضة ومثار شك، وعلى ما يبدو فإن جروهمان قد أثبت أن هذه الوعول تمثل إله القمر المقاه والذي كان الثور قرباناً له أيضاً(٢٢).

وبينما يبدو النحت الجانبي أوثق صلة بالأسلوب الفارسي الأخيميني (Achaemenid) منه بمنحوتات جنوب الجزيرة العربية المعروفة لنا في الوقت الحاضر، والتي من الواضح أنها ذات تاريخ متأخر، فهنالك أوجه شبه بين الأشكال الممثلة والنحت البرونزي المنظور من كل الجهات أو المكتمل الملامح من مأرب: الشعر، والعينان، والأذنان، والمئزر، والصندلان(٢٣). ولا يختلف تصفيف الشعر، ورسم العينين والفم عن تمثال «حاولتي»، ويبرز الأنف - وهو مفقود في التمثال الأخير - الأسلوب السامي للتمثال الكبير، وهو أسلوب فني لا يزال شائعاً في تقري وهو يشبه صورة ملك بُنت في الدير البحري شبهاً شديداً في وقفته الرشيقة، وشعره القصير، ولحيته المدببة، وأنفه الأعقف، والحزام المربوط على الظهر، والمئزر الذي تتدلى منه حاشية في الخلف(٢٤).

وتفسير معنى المنظر لا يزال مثار نقاش بين الباحثين: وقد طرح من نشره لأول مرة، اقتراحين: أحدهما أن المنظر انما هو منظر واقعي يصور خادماً يحمل مروحة أو علماً، وفي يده اليمنى هراوة او منشة ذباب وأمامه طفل - يتضح جنسه من الاسم المذكر «رفش» (R.F.S) . أما الاقتراح الثاني فهو أكثر انسجاماً مع القواعد التقليدية القديمة، ويقول بأن المنظر يمثل شخصاً هاماً: إلهاً أو شخصاً له سلطان قوي يبسط حمايته على شخص ضعيف(٢٥). وقد تبنى أ. جامي وجهة النظر الأخيرة ونسب الاسم «رفش» الى الشكل الكبير الذي حسبما يعتقد، يمثل إلهاً يحمل مروحة وهراوة، باسطاً ذراعيه لوقاية إمرأة حبلى وما هي الا تلك المرأة الجالسة والمرتبطة ارتباطاً وثيقاً «بالعرش»(٢٦). وخلصت ج. بيرين من ناحيتها الى أن الشكل يمثل شخصية هامة - ربما كانت «مكارب (Mukarrib) أو زعيم» يحمل الاسم «رفش» وهو يتقرب الى ربة يقبع تمثالها داخل الناووس بتقديم شارات السلطان: مروحة أو مظلة، وهراوة وتقف خلفه امرأة بدينة يفترض أنها زوجته وهي تقدم عصا أو صوبلجاناً(٢٧). ومع أن هذا التفسير يبدو الآن هو الأقرب الى الصواب فإنه من الصعب أن نسلم بالحاق الاسم «رفش» بالشكل الكبير، آخذين في الاعتبار موضعه. وفوق ذلك، فلا بد من تفسير الارتباط بين الربة الأم وشعارات إله القمر المذكر.

ويتمثل أيضاً فن النحت في فترة جنوب الجزيرة العربية بتماثيل أبي الهول، رغم أنها حتى الآن وجدت فقط في أريتريا، ما عدا قطعة صغيرة عثر عليها في ملازو (Melazo) (٢٨). وأسلم تمثال لابي الهول جاء من عدي قرامتن (Addi Gramaten) شمال شرق كاسكاسي. فشعره مضفور، كما في الرؤوس الاكسومية المصنوعة من الفخار والتي تنتمي الى فترة متأخرة، وكما تصفه اليوم نساء تقري. وخلف الرقبة قلادة ذات ثلاثة صفوف(٢٩). وتوجد القلادة أيضاً على مقدمة تمثالين لأبي الهول نحت

---

(٢٢) A. Grohmann, 1914b, pp. 40,50-67

(٢٣) F.P. Albright, 1958

(٢٤) H. De Contenson, 1902, pp. 82-83

(٢٥) المرجع السابق، ص ٧٣.

(٢٦) A. Jenne, 1963, pp. 324-327 (والأسس التي بنى عليها الكاتب افتراضه بأن المرأة على الجهة اليمنى حبلى والأخرى على الشمال لم تكن حبلى غير واضحة تماماً خاصة وأن الشكلين متطابقان).

(٢٧) J. Pirenne, 1967, p. 132

(٢٨) V. Leclant, 1959b, p. 51, pl. XLII,a

(٢٩) A. Davice, pp. 1-6

وجهاهما نحتاً خشناً. وهما يبرزان من سطح اوجه حجرية وجدت بمطرا (Matara) (٣٠) وعثر كذلك على تمثال لأبي الهول مهشم في دبدب (Dibdib) جنوب مطرا(٣١). وأشارت بيرين الى أن هذه الأسود ذات الرؤوس الآدمية لا تشابه الحيوانات الخرافية (الغريفينا) بجسم الأسد وأجنحة النسر وآباء الهول المجنحة التي ترجع الى التراث الفني الفينيقي والتي صنعت بجنوب الجزيرة العربية في فترة لاحقة(٣٢). وربما يكون من الأصوب أن نبحث عن أصول مصرية أو مروية، خاصة وقد سبق واقترحنا نفس الأصول لرأس من جنوب الجزيرة العربية عليه شعر مضفور ومزين بعقد(٣٣).

ومحاريب البخور هي من القطع المنحوتة من الحجر والتي تنتشر على الأخص في شمال اثيوبيا. وأغلبها يتبع نمطاً معروفاً في جنوب الجزيرة العربية: محراب مكعب به زخارف معمارية يقف غالباً على قاعدة هرمية. وأبدع نموذج، والذي يفوق، حسب رأي ج. بيرين، كل الأمثلة المتشابهة من جنوب الجزيرة العربية، هو محراب عدي قلامو، ولكن تم العثور على سلسلة من المحاريب في درجات متفاوتة من الحفظ والصيانة بقبوكلا (Gobochela) في ملازو ووجدت قطع عديدة في يحا وكسر متعددة وجدت أيضاً في مطرا أو أماكن غير محددة(٣٤). وتمثل مجموعة من أربعة محاريب وجدت بقبوكلا شكلاً غير معروف حتى الآن وهو محراب البخور الاسطواني المركب على قاعدة في شكل مخروط أو هرم ناقص(٣٥). وتقتصر الزخرفة هنا على رمز الجزيرة العربية المقدسة الممثلة في هلال يعلوه قرص وافريز من المثلثات. أما محراب جنوب الجزيرة العربية الصغيرة المكعب فلدينا منه نموذجان، ورغم الخشونة البادية في صناعتها فيبدو انهما يرجعان الى فترة جنوب الجزيرة العربية، أحدهما - وقد عثر عليه بمطرا - هو الأول في اثيوبيا الذي يستشهد به على وجه التخصيص كمحراب لحرق العطور (مَقْطر)(٣٦). والثاني وجد بالقرب من الموقع السابق في محلة تسمى «زالة كسد ماي» (Zela Kesedmai) ويختلف بوجود النقش الطفيف البروز الذي يزين جوانبه. وعلى أحد الجوانب يوجد الرمز المقدس المكون من القرص والهلال؛ وعلى الجانب المقابل رسم تقليدي «لشجرة الحياة» الذي يعيد الى الأذهان «شجرة الحياة» في حاولتي. ويتجه الوعلان على الجانبين الباقيين نحو هذه الشجرة(٣٧).

وكما في جنوب الجزيرة العربية، نجد بجانب محاريب حرق البخور، محاريب القرابين والتي يمكن التعرف عليها بوجود مجرى غائر لتصريف القربان السائل. ووجدت في يحا منصات شبيهة بمنصات منطقة حريضة (Hureida) أو مأرب وبها مجرى للصرف على هيئة رأس ثور. ومما لا شك فيه أن على احداها كان يوجد رسم رأس حيوان ولكنه اندرس بشكل يصعب التعرف عليه(٣٨). وعلى الاخريات

---

(٣٠) F. Anfray, 1965, p. 59, pl. LXIII, 4

(٣١) C. Conti-Rossini, 1928, p. 225, pl. XLIII N° 128-129; .V. Franchini, pp. 5-16, Fig 7-8, 11-14.

(٣٢) J. Pirenne, 1965, pp. 1046-1047

(٣٣) A. Grohmann, 1927, Fig. 55.

(٣٤) Addi Galamo; A. Caquot and A.J. Drewes, pp. 26-32, plates IX-XI; Gobochela; J. Leclant, 1959b, pp. 47,-53; A.J. Drewes, 1959, pp. 90-97, plates XXX, XXXI, XXXIV, XXXVIII; J. Pirenne, 1970, p. 119, pl. XXIV, b; Yeha; A.J. Drewes and R. Schneider, 1970, pp. 58-59, pl. XVI, p. 62, pl. XIX; Matara: F, Anfray and G. Annequin, pp. 59,75,89-91, plates LXIII, 3, LXXI unidentified Sites: R. Schneider, 1961, p 84, pl. XXXVIII,b.

(٣٥) J, Leclant, 1959b, pp. 48-49; A. Drewes, 1959, pp. 88,89,91,94

(٣٦) A.J. Drewes and R. Schneider, 1967, pp. 89-91, pl. XLIII,l-1-2

(٣٧) F. Anfray, and G. Annequin, p. 76, pl. LXXIV

(٣٨) A. J. Drewes and R. schneider, 1970, p. 59-60 pl. XVI, b-e

توجد نقوش بديعة بارزة، وأفاريز كدعامات عند أطرافها شبيهة بتلك التي بمحاريب حرق العطور(٣٩). والمثال الأول المذكور، واحد من المجموعة الثانية، وأيضاً محراب لسكب القرابين السائلة فريد بمطرا وكلها تحمل الاسم المحلي لهذه الطائفة من الآثار: «مترين» (Mtryn)، وهو اسم لم يثبت وجوده في جنوب الجزيرة العربية. وقد اكتشفت في موقع مطرا كذلك ألواح قرابين سميكة شبيهة بالأولى من يحا(٤٠). ويحمل محراب قرابين عدي قرامتن (Addi Gramaten) شبهاً أقرب للطراز الأكثر اتقاناً الذي به افريز عند طرفه كدعامة، وقاعدة مدرجة(٤١). ومحراب فكية (Fikya) قرب كاسكاسي (Kaskasé) الذي على شكل سلطانية عليها رسم ثالوث من آباء الهول أو الأسود، هو أقرب شبهاً، حسب رأي ج. بيرين، بأشكال شائعة في الفن المروي(٤٢).

وكل ما أمدتنا به التنقيبات الأثرية من مواد بخلاف هذه المنحوتات هو نوع من الفخار لم يعرف عنه الا القليل. وينسب ف. انفري الى هذه الفترة مزهريات في شكل زهرة الزنبق وجراراً كبيرة بمقابض وروافد أفقية كلها جاءت من مطرا ويحا. وقد قارن هذه الأشياء بما وجد في السوبه على بعد بضعة أميال شمالي عدن والتي يبدو أنها ترجع الى القرن السادس قبل الميلاد(٤٣).

والوثائق المنقوشة على الحجر والتي يمكن أن ننسبها الى أقدم الفترات من خلال دراسة شكل الخطوط مكتوبة بخط جنوب الجزيرة العربية. ولكن وفقاً لرأي أ. ج. دروز يمكن تقسيمها الى مجموعتين. وتشتمل المجموعة الأولى على نقوش مدونة على آثار باللغة السبئية الأصيلة، بها بعض الفروق المحلية. أما الثانية فتشتمل على نقوش صخرية مدونة بخط شبيه جداً بخط المجموعة الأولى في حروفه لكن لغته سامية يعتقد أنها ذات صلة فقط بالسبئية(٤٤). وفي ضوء الأبحاث الراهنة ينحصر المدى الجغرافي للمجموعة الثانية في المقاطعة الأرتيرية «اكلي جوزاي» (Acchele Guzai) في الجزء الشمالي من الهضبة المرتفعة، بينما تزودنا النقوش عامة بمعلومات أغلبها عن أسماء الأماكن الجغرافية، ومنها نتبين غلبة أسماء الأعلام من جنوب الجزيرة العربية. وتمدنا المجموعة الأولى أيضاً بلمحات عن المعتقدات الدينية والنظام الاجتماعي في هذه الفترة.

ولا تذكر النصوص فقط الألفاظ المستعملة للدلالة على مستلزمات العبادة كمباخر العطور وموائد القرابين كما رأينا من قبل، بل أيضاً أسماء عدد من المعبودات والتي تؤلف في جملتها مجمع آلهة مطابقاً تماماً للذي في سبأ. وتظهر اكمل قائمة معروفة لدينا حتى الآن على قطعة حجر أعيد استعمالها في بناء كنيسة اند قرقس (Enda Qrqos) في ملازو: «عشتر وهوبس والمقة وذات حميم وذات بَعْدن. . .»(٤٥).

وتظهر عشتر في نقشين آخرين، أحدهما من يحا، والآخر غير معروف الأصل(٤٦). وهو ببساطة الشكل الاثيوبي لاسم إله النجم «عشتر» الذي أشرك مع المقة في ثلاثة نصوص نذرية أحدها من «يحا»

---

(٣٩) المرجع السابق، ص ٦٠-٦٢، لوحة ١٨ a-b.

(٤٠) F. Anfray, and G. Annequin, pp. 59,75,90, pl LXXII,I-3

(٤١) A. Davico, pp. I-3.

(٤٢) A.J. Drewes, 1956, pp. 179-182. pl. I.; F. Anfray, 1965, pp. 6-7, pl. III.

(٤٣) F. Anfray, 1966, pp. I-74; fasc. I, 1970,p.56

(٤٤) A.J. Drewes, 1962.

(٤٥) A.J. Drewes, 1959, p. 99; R. Schneider, 1961, p. 61-62

(٤٦) R. Schneider, pp. 64-65 (JE 671, script B I-B 2); A.J. Drewes and R. Schneider, 1970, p. 60-61.

والاثنان الآخران من «مطرا»(٤٧). ويوجد في الموقع الأخير محراب مكرس لعبادة شري - شارن (Shargn) وهو لقب لهذا الإله والذي يشبه بكوكب الزهرة(٤٨).

ويغض النظر عن نقش من اند قرقس يبدو أن هوبس (Hawbas) إله القمر، ذكر فقط في اثيوبيا على تمثال لأبي الهول ومحراب من دبدب (Dibdlb) (٤٩).

وكان إله القمر، والذي يبدو أنه الأكثر توقيراً في اثيوبيا وفي سبأ، هو المقاه (Almaqah) (أو المقة (Ilumguh) حسبما يرى أ. جام. فبالاضافة الى نقوش مطرا ويحا واند قرقس الآنفة الذكر فكل النصوص التي عثر عليها في قبوكلا (Gobochela) بملازو فضلاً على محراب عدي قلامو ومذبح قرابين بيحا مكرسة له وحده(٥٠). وربما كان معبد يحا موقوفاً عليه أيضاً مثلما كانت المعابد العظيمة الأوام وبرعات بمأرب. وأخيراً فالمقة هو الذي يرمز اليه بوعول مطرا ويحا وحاولتي، وأظلاف الثور المنحوتة على ناووس حاولتي والثور المنحوت من المرمر في قبوكلا(٥١).

وتتمثل عبادة الشمس في ربتين «ذات حميم» و «ذات بعذن» اللتين تقابلان - على ما يبدو - شمس الصيف وشمس الشتاء. والأولى ذكرت أيضاً على محراب قرابين من عدي قرامتن بالاضافة الى يحا وفكية. وتظهر الثانية في نقش غير كامل بمطرا وأبابنتليون (Abba Pantalewon) قرب أكسوم(٥٢).

ويبدو أن المعبودات الأخرى المذكورة على محاريب القرابين من يحا قد لعبت دوراً أقل أهمية بكثير. فالإله نرو (Nrw) الذي قرن في أحد النصوص مع عثتر يذكر مرتين ويقابل الإله نوراو (Nawraw)من جنوب الجزيرة العربية وهو إله سماوي أيضاً(٥٣). والمحراب عينه الذي يذكر هذين المعبودين يضيف أيضاً يفعم (Yf'm) وهو، حسبما يقول ليتمان اسم إله. ويكرس محراب آخر لعبادة سدجن ونسبثو (Sdgon and Nsbthw) (٥٤). وأخيراً يرى أ. جام في الاسم رفش المنقوش على ناووس حاولتي اسماً لإله. ويدل هذا النظام الديني المحكم على بنيان اجتماعي مركب.

وبينما تزودنا نصوص التكريس عادة بنسب الشخصيات البارزة ذات المكانة فإن نصوص قبوكلا يتبين منها ان السكان كانوا مقسمين في عشائر، فتذكر أربعة نصوص من هذا الموقع وآخر من يحا اسم لحي (Lhy) من عشيرة جرب (Grb)من أسرة (أو ابن) يقدمال فقم (Ygdm'l Fgmm)من مأرب. ويشترك هذا الشخص مع أخيه صبحهم (Sbhhmm) في بعض نصوص التكريس. وفي يحا أوقف كل ما يملك من متاع الدنيا وابنه حيرمه (Hyrmh) على خدمة عثتر والمقة(٥٥). ومن المحتمل ان اللفظين «يقدم ايل» و«فقمم» يدلان على مجموعتين عرقيتين، ولكننا على الأقل واثقون أن «جرب» تدل على ذلك. والتعبيران «من مأرب» و«من حدقان» (Hadaqan) في نصيّ مطرا يشيران الى اسمي موقعين(٥٦)، لا الى قبيلتين وقد يعنيان بلدتين أسستا في شمال اثيوبيا على يد مستوطنين من جنوب

---

(٤٧) A.J. Drewes, 1959, pp. 89-91; A.J. Drewes and R. Schneider, 1970, p. 58-59.

(٤٨) A.J. Drewes and R. Schneider, 1967, pp. 89-90.

(٤٩) C. Conti-Rossini, 1928, p. 225, pl. XLIII, N° 128-129; .V. Franchini, pp. 5-16, figs 7-8 ,11-14 A.J. Drewes, 1954, pp. 185-186.

(٥٠) A. J. Drewes, 1959, pp. 89-94, 97-99; .A.J. Drewes and R. Schneider, 1970, pp. 61-62.

(٥١) G. Hailemarian, p. 50, pl. XV; J. Leclant, 1959b, p. 51, pl. LI.

(٥٢) R. Schneider, 1965, p. 90

(٥٣) A.J. Drewes and R. Schneider, 1970, pp. 61 and 62.

(٥٤) المرجع السابق ص ٥٩ - ٦٠.

(٥٥) A.J. Drewes, 1959, pp. 89,91,97-99; A.J. Drewes and R. Schneider, 1970, pp. 58-59.

(٥٦) R. Schneider, 1965a, pp. 89-91

الجزيرة العربية، ولكن حسب رأي ل. رتشي يبدو أن هذين الاسمين يشيران الى أن هاتين المجموعتين جاءتا اصلاً من الجزيرة العربية(٥٧).

والتنظيم السياسي بشمال اثيوبيا ابان فترة جنوب الجزيرة العربية معروف لدينا من خلال نقوش قليلة خاصة تلك التي وجدت على محراب عدي قلامو وكتلة صخر من اند قرقس في ملازو(٥٨). ويبدو انه كان ملكية وراثية حمل اثنان من ملوكها، ربح وابنه لمم، ذات اللقب: «ملك شري من قبيلة يجعد، مكارب، دئيمة (D'lamat) وسبأ» وأولهما أضاف على محراب عدي قلامو «سليل قبيلة وأرن في ريدان» وذكر الثاني كذلك على محراب مجهول المصدر مكرس لعثتر. ويرد ذكر «لمم» هذا أو ملك آخر حمل نفس الاسم في نصين من مطرا يشترك في أحدهما مع شخص يدعى «سمهوعليا»، وهو اسم حمله أحد مكاربة سبأ(٥٩). وإشارتهم الصريحة الى صلتهم بقبيلة وأرن في ريدان انما توضح الأهمية التي كان يوليها هؤلاء الملوك لنسبهم وانحدارهم أصلاً من جنوب الجزيرة العربية. وقد يفسر لقب «مكارب دئيمة وسبأ» بطرق مختلفة فربما تشير الى مناطق بجنوب الجزيرة العربية بسط حكامها سلطانهم على شمال اثيوبيا، وقد تعني مناطق افريقية، أطلق عليها مستوطنون من جنوب الجزيرة العربية أسماء أقاليمهم الأصلية، وقد يكون لها مغزى سياسي خالص لا إقليمي. والاقتراح الأول أقلها احتمالاً بين بقية الاقتراحات وتجب موافقة أ. ج. دروز على أن هؤلاء الحكام مارسوا سلطات مكاربة سبأ على رعاياهم من جنوب الجزيرة العربية أو ممن ينتسبون اليها؛ ولقب «ملك شرعن» (Sr'n) من قبيلة «يجعد» يحتمل قراءته كذلك «ملك ثاران» (Tsar'ane) من قبيلة اجعزيان (Ig'azyan). ومن ثم يتبين أنهم فرضوا سيطرتهم أيضاً على السكان الأصليين وأنهم كانوا ينحدرون من القبيلة المحلية يجعد «أو اجعز» والتي يرى فيها أ. ج. دروز أسلاف «جعز».

وتشير ثلاثة نقوش مبتورة من «أبابنتليون» ومحراب «عدي قلامو» ومجموعة الآلهة من «اند قرقس»، الى حادثة تاريخية وقعت على ما يبدو زمن حكم ربح، وهي سقوط دئيمة (D'lamat) ونهبها «شرقها وغربها وأحمرها وأسودها». ولكن مما يؤسف له أن هوية هذه المنطقة وهوية المعتدي عليها ما زالت مجهولة.

إن فن المعمار والأعمال الفنية، والنقوش والمعلومات التي امدتنا بها النصوص حول العقائد الدينية والتنظيمات الاجتماعية في شمال اثيوبيا كلها تنهض دليلاً على ما كان لجنوب الجزيرة العربية من تأثير قوي اثناء القرنين الخامس والرابع قبل الميلاد. ويذكرنا ف. أنفري بأنه قد سبقت ظهور هذه الحضارة السامية الغالبة عدة قرون من التغلغل الخفي الصامت (لهذه العناصر الساميّة) إذ «طافت مجموعات صغيرة من المهاجرين حاملة معها حضارة جنوب الجزيرة العربية»، نتيجة - ولا شك - لضغوط اقتصادية وظروف سكانية لا نعلمها بعد(٦٠). ومن المحتمل، كما يقترح نفس الباحث، أن هؤلاء المستوطنين قاموا بادخال أساليب زراعية جديدة، خاصة استعمال المحراث المتحرك (الدوار) وبنوا أول قرى حجرية في اثيوبيا.

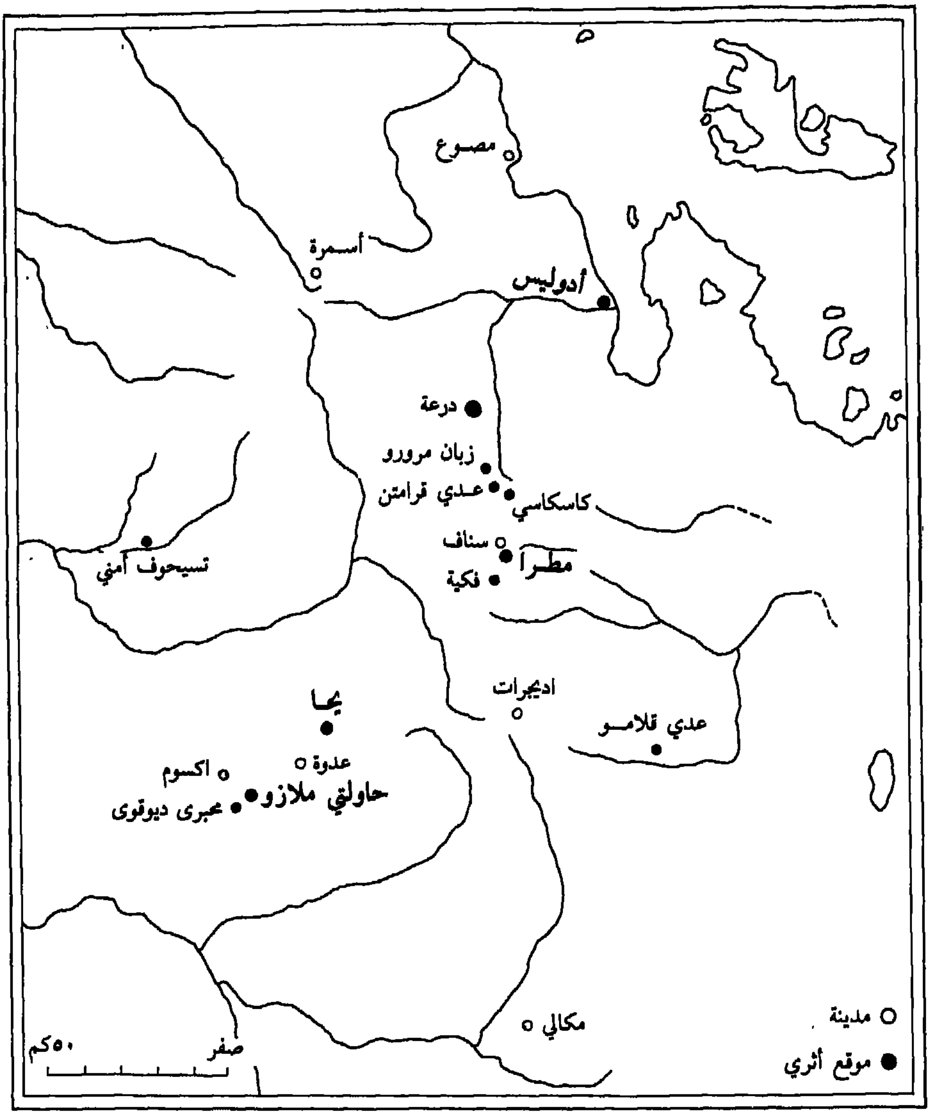
ومن خلال بحوث ل. رتشي وأ. ج. دروز نخرج بانطباع أن العناصر العربية قد سادت في مراكز معينة، حيث نبتت بذور الحياة الحضرية حول المعبد كما في يحا مثلاً بمقاطعة ملازو، وربما أيضاً في عدي

(٥٧) L. Ricci, 1961, p. 133; A.J. Drewes and R. Schneider, 1970, p. 59

(٥٨) A. Caquot and A.J. Drewes, p. 26-33, R. Schneider, 1965b, pp. 221-222.

(٥٩) R. Schneider, 1961, pp. 64-65; R. Schneider 1965, p. 90; A.J. Drewes and R. Schneider, 1967, pp. 89-91.

(٦٠) F. Anfray, 1967, pp. 49-50, 1988, pp. 353,356.



أثيوبيا في فترة ما قبل أكسوم الوسيطة

قلامو ومطرا، بينما كانت الحضارة المحلية الأساسية، مضافاً اليها عناصر نيلية معينة تتمثل على وجه أكمل في المنطقة الاريترية في مواقع أكلي جوزاي وعدي قرمتن ودبدب.

ومهما يكن من أمر فإن ظهور وحدة حضارية ذات تماسك وتلاحم داخلي واضح في عامة الجزء الشمالي من الهضبة الاثيوبية، لا بد وأن يكون قد توافق وتولّي إحدى الجماعات زمام الحكم، وبقاءها كطبقة مسيطرة. ومع ذلك فمن المحتمل اننا لن نستطيع معرفة ما اذا كانت هذه المجموعة تتألف من سلالة المستوطنين من الجزيرة العربية ام من سكان محليين تشبعوا بهذه الحضارة الراقية بحيث اتخذوها حضارة خاصة بهم. وقد سلط س. كونتي روسيني الأضواء وركز الاهتمام على غلبة خصائص حضارة جنوب الجزيرة العربية في الحضارة الاثيوبية الأولى. وكرد فعل لهذا الاتجاه، فقد اكدت ج. بيرين، وف. أنفري الجوانب الأصيلة لهذه الحضارة والتي تمثل مزيجاً مركباً من مؤثرات متباينة، والتي عندما تستوحي الأشكال من جنوب الجزيرة العربية، يتضح أنها تتفوق على النماذج المحتذاة، ولعل تسمية الفترة «بالاثيوبية السبئية» يكون أوقع في التعبير عن «الطبيعة الخاصة المحدودة لهذه الحضارة». ومع ذلك، وكما يُقرُّ ف. أنفري فربما لا يعدو التفوق البادي للأعمال الفنية الافريقية أن يكون انطباعاً ناجماً عن عدم المتابعة، وهي ظاهرة تشوب حتى الآن وتعرقل الأبحاث الاثرية في اليمن. إن الاكتشافات خارج نطاق البحر الأحمر، وفي اثيوبيا، بالاضافة الى مملكة مروى ربما اعطتنا تصوراً أوضح لعملية التكيف الحضاري الذي حدث ابان النصف الثاني من الألف الأخير قبل الميلاد. ومما لا شك فيه أن اثيوبيا غدت منذ ذلك الوقت ملتقى طرق تجارية ومؤثرات حضارية.

الفترة الوسيطة

ولكن نخرج بانطباع أقوى عن الحضارة المحلية بعد أن هضمت التأثيرات الأجنبية؛ ونتيجة للصورة الواضحة المستمدة من آثار ترجع الى الفترة الثانية لما قبل الأكسومية والتي أطلق عليها الفترة الوسيطة.

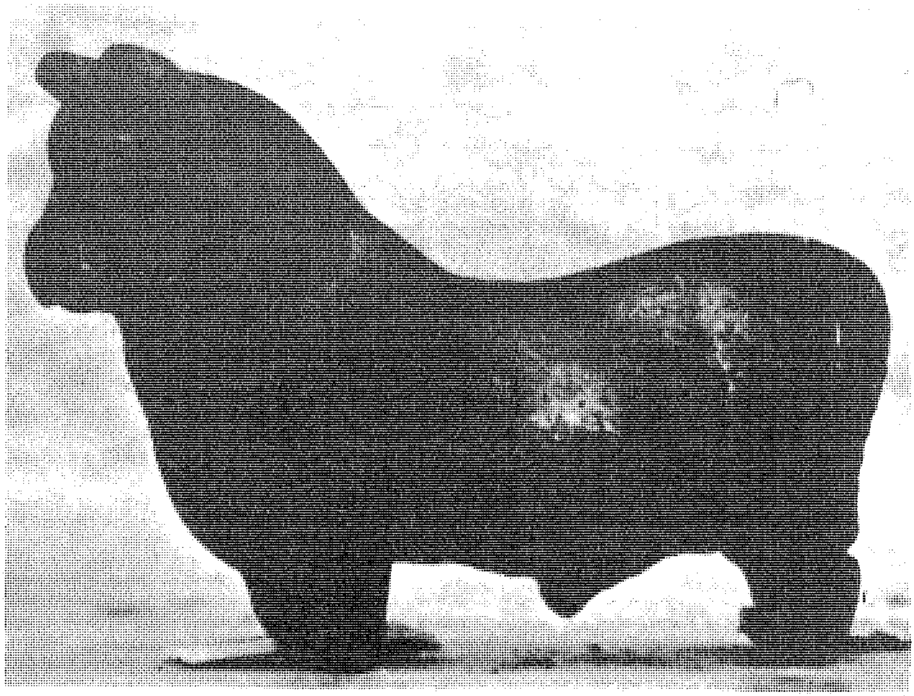
ومع هذا فلا يزال بالامكان ملاحظة بعض الخصائص ذات الأصل العربي، لكن كما أوضح ف. انفري لم تعد القضية قضية تأثيرات مباشرة، بل تطورات داخلية نشأت عن مساهمات سابقة. فقد استعملت نقوش، مدونة بخط رديء، لكتابة لغة قليلة الشبه باللهجة الأصلية لجنوب الجزيرة العربية[٦١]. وما عاد المكاربة يُذكرون، بل نجد أن نصاً عثر عليه في بلدة كاسكاسي يشير الى ملك يحمل اسماً من جنوب الجزيرة العربية، وهو وأرن حينات (W'Rn Hynt) من سلالة سلامت (Salamat)[٦٢]. وكانت عشيرة جرب (Grb)، التي تشهد وثائق كثيرة بقيامها في قبوكلا بمقاطعة ملازو ابان مرحلة جنوب الجزيرة العربية لا تزال موجودة - رغم ان شيئاً عن صلاتها مع مأرب لم يعد يذكر - لأن احد افرادها كرس محراباً بخور مكعباً به قاعدة هرمية للإله المقة[٦٣]. وكرس أيضاً تمثال صغير فج الصنع من الصلصال الرخو في شكل ثور لنفس الإله[٦٤]. وفي عدي قرمتن أضيف فيما بعد الى المحراب نقش تكريسي ثان للمعبودة «ذات حميم»، والى أبي الهول اسم «وهب ودد». وتكتمل الوثائق

(٦١) L. Ricci, 1959, pp. 55-95; 1960, pp. 77-119; .A.J. Drewes, 1962, passim.

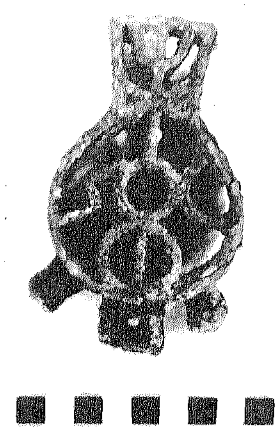
(٦٢) .D.A.E. pp. 62-63

(٦٣) J. Leclant, 1959b, p. 47; A.J. Drewes, 1959, p. 92, pl. XXXII - XXXIII.

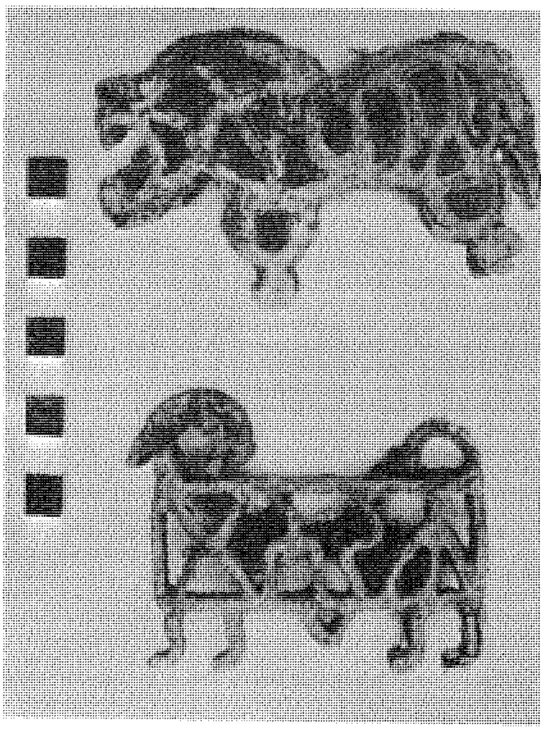
(٦٤) A.J. Drewes, 1959, pp. 95-97, pl. XXXIX - XL.



١



٢



٣

٤

١ : ثور من البرونز من مخبري ديوقوري

٢ و٣ و٤ : علامات برونزية
مميزة من يحا: طائر؛ أسد؛ وعل.

المدونة على الحجر بنقوش أخرى تحتوي على حروف سيالة متصلة (كالرقعة) من جنوب الجزيرة العربية مثل نقوش درعة (Der'a) وزبان مرورو (Zeban Mororo) واللقب المكتوب «تسحوف أمني» (Tesehuf Emni) والذي يبدو أنه لم يكتب بلغة جنوب الجزيرة العربية أو بلغة أثيوبية(٦٥).

ولا نجد أمثلة للعمارة في الفترة الوسيطة الّا الأبنية الدينية التي كشف عنها في منطقة ملازو. وقد عثر ج. لكلان على كل العناصر في قبوكلا، اما في الموقع أو أعيد استعمالها لأغراض أخرى، في مبنى مُستطيل يتجه محوره اتجاهاً شرقياً غربياً ويضم سوراً طوله ١٨,١٠ متراً وعرضه ٧,٣٠ أمتار يحيط بساحة تفضي الى مَقْدَس (Cella) وهي حجرة أبعادها ٨,٩٠ و٦,٧٥ أمتار. والأخيرة تنفتح بواسطة باب في وسط جانبها الغربي، أما الجانب الشرقي فتشغله منضدة أو منصة كانت توضع عليها الأشياء المقدسة(٦٦).

وقد عثر على تمثال وناووس حاولتي في ممر ضيق بين بناءين متهدمين ويتجه محوراهما كذلك اتجاهاً شرقياً غربياً(٦٧). والأبعاد شرق – غرب هي فقط المؤكدة وهي ١١ متراً للمبنى الشمالي و١٠,٥٠ أمتار للمبنى الجنوبي. وكلاهما له سلم في جانبه الشرقي، وربما كان في الوسط، والذي قد يعني أنه من الشمال الى الجنوب يكون مقياس المبنى الشمالي ١٣ متراً والجنوبي ١١ متراً. وكل سلم يؤدي الى شرفة. ومن العسير معرفة ما اذا كانت هاتان الشرفتان مسقوفتين أم غير مسقوفتين. وكلتاهما محاطة بمنضدة أو منصة تنتهي عند السلم وعليها كانت توضع النذور القربانية من الفخار والمعادن. وكانت أغلب هذه النذور الفخارية تماثيل حيوانات صنعت بطريقة تقليدية بحتة لكنها في بعض الأحيان طبيعية واقعية: ماشية على عنقي كل زوجين منها نير مصغر، ودواب حمل، وذوات أربع غريبة تتدلى ألسنتها من افواهها، ونساء جالسات، وعند حافة السلم تماثيل لأبي الهول مصنوعة من الفخار أيضاً(٦٨). وبخلاف اتجاهها الشرقي – الغربي فالسمة الأخرى التي تشترك فيها مباني هذه الفترة هي أنها ليست مشيدة من الحجر الجيري كما كان الحال من قبل، بل من الجرانيت الأزرق أو الطفل الرخو المحلي، وتتكرر هذه السمة في المعمار الأكسومي وتظهر في أريتريا في فترة مطرا الثانية وفي أطلال فكية (Fikya) والتي لم تمس بعد وربما تنتمي الى المرحلة الوسيطة أيضاً(٦٩).

وسمة أخرى لهذه الفترة هي تكدس المخلفات الأثرية في مخازن تحت الأرض كالقبور البشرية في يحا ومطرا أو حفر سبأ وحاولتي(٧٠). وينبغي الانتباه الى أنه في سبأ، واسمها يذكرنا بجنوب الجزيرة العربية، تظهر من بين كل ثلاث حفر جرى تنقيبها اثنتان منها لها نفس شكل القبر البشري المعاصر. والعدد الكبير للأدوات المعدنية التي وجدت في هذه المخازن، بالاضافة الى أن ما وجد في تل حاولتي حول المعابد ملفت للنظر وجدير بالاعتبار ويوحي بأن صناعة المعادن قد توسعت توسعاً كبيراً منذ القرن الثالث قبل الميلاد وما بعده.

---

(٦٥) C. Conti-Rossini, 1947, p. 12, pl. II-III; A.J. Drewes and R. Schneider, 1970, pp. 66-67.

(٦٦) J. Leclant, 1959, pp. 44,45, pl. XXIII-XXVI.

(٦٧) H. De Contenson, 1963, pp. 41-42, pl. XXVI-XXIX.

(٦٨) المرجع السابق، الصفحات ٤٣-٤٤، اللوحات ٣٥-٤٠.

(٦٩) F. Anfray, 1965, pp. 6-7. pl. III and pp. 59, 61, 72, 74.

(٧٠) Yeha: F. Anfray, 1963; pp. 171-192, plates, CXIV-CLVI; Matara: F. Anfray, 1967, pp. 33-42, plates, IX-XVII, XXX, XXXIV, XLII; H. De Contenson, 1969, pp. 162-163; Sabea: J. Leclant and A. Miquel, pp. 109-114, plates LI-LXIII; Haoulti: H. De Contenson, 1963b, pp. 48-51, plates XLIX-LX.

وغالباً ما تتمثل الأدوات الحديدية التي أدخلت صناعتها - على ما يرجح - خلال هذه المرحلة، في يحا بحلقات ومقصات وسيوف وخناجر. ووجد كذلك سيف وبعض الحلقات في مطرا، كما تم جمع كسر عديدة من أدوات حديدية من حول معابد حاولتي.

ومع ذلك فالبرونز غالب على الحديد وأوسع منه انتشاراً، ربما بسبب مقاومته الشديدة للصدأ فقد وجدت في سبأ أعداد كبيرة من حلقات سميكة مفتوحة لها قطاع مستطيل، كما وجدت حلقة برونزية من نفس النوع موضوعة في احد معابد حاولتي على منضدة. ومن الجائز أن هذه الحلقات كانت تلبس كأساور أو خلاخل حسب الطريقة المروية، ولكن قد يتساءل المرء عما اذا كانت هذه قد استعملت أيضاً كنقود[٧١]. ووجدت في يحا ومطرا حلقات أخف قد تؤخذ على أنها إما أساور او أقراط للأذن. وربما استعملت أعداد من أدوات لها حواف عريضة في نجارة الخشب مثل: فؤوس من حاولتي ويحا، وقدائم معقوفة مسننة الرأس من يحا وسبأ التي يمكن أن يضاف إليهـا أدوات وجـدت في ماي مفلـو (Mai Mafalu) باريتريا[٧٢]. ومقصات مستقيمة من يحا وأخرى مقوسة من نفس الموقع والغرض من استعمالها غير معروف بعد. وفيما يتعلق بالآلات الزراعية فهناك المناجل المبرشمة من يحا وحاولتي ومن قبوكلا. وتتمثل الأسلحة بمطرد وبلطة هلالية الشكل وخنجرين مبرشمين من حاولتي بالاضافة الى سكينين من مطرا، الأولى مبرشمة والثانية بها رمانة هلالية الشكل. وأخرجت فوق ذلك من مقابر يحا أدوات طبخ، وكفف ميزان وجرس صغير، وقد تم جمع كسر من الأواني أيضاً من فوق التل بحاولتي. وعثر على ابر ودبابيس في حاولتي ويحا ومطرا. كما أعلن عن وجود خرز النحاس في سبأ وحاولتي ويحا.

وثمة طائفة أخيرة من الأدوات البرونزية تعكس أحد تقاليد جنوب الجزيرة العربية وهي قطع مثقوبة تعرف ببطاقات الهوية[٧٣]. وقد استطاع أ. ج. دروز و ث. شنايدر أن يميزا بين نوعين يشمل الأول بطاقات صغيرة رقيقة ذات أشكال هندسية ومزودة بحلقات، ومزينة برسوم متناسقة ويمكن التعرف فيها أحياناً على مونوغرامات (Monograms) أو حروف متفرقة. ويحتوي هذا النوع على تلك البطاقات التي عثر عليها في سبأ وحاولتي وأغلب تلك التي جاءت من يحا. ويتألف النوع الثاني والذي وجد في موقع يحا فقط، من بطاقات أكبر وأكثر سمكاً مثبتة بها مقابض، ومشكّلة نوعاً ما بطريقة تقليدية على هيئة حيوانات، كثور ووعل وأسد أو طائر. والبطاقات من هذا النوع تحتوي على أعلام مكتوبة بخط جنوب الجزيرة العربية السيال (كالرقعة). ويبدو هنا مرة اخرى أن اللغة تقع وسطاً ما بين السبئية والجعزية والاسم الذي قرىء بكل وضوح هو وأرن هينات (W'rn Hyint) وهو يطابق اسم الملك الذي ذكر في كسكاسي. وجدير بالملاحظة أن نفس الطريقة وجدت كذلك في النقوش الصخرية وفي قطع فخار من حاولتي ولكن بدلاً من كونها طوابع أختام فإنها هنا مشكلة بحفر بارز. وأما خارج أثيوبيا، فلا نعلم الا عن عدد قليل من الأدوات البرونزية المماثلة من جنوب الجزيرة العربية.

وعندما نمعن في المستوى الفني العالي الذي تتميز به هذه الأدوات يبدو أنه من الأصوب أن نعزو الى عمال البرونز الاثيوبيين في هذه الفترة الوسيطة - كما يقترح ف. أنفري - صنع أدوات أخرى كزوج مصغّر من حوافر الثور عثر عليه بالقرب من معابد حاولتي والتمثال الصغير النابض بالقوة من محبري ديوقوي (Mahabere Dyogwe)[٧٤] والتي على ما يظهر تمدنا بدليل آخر على عبادة المقة. وقد استدل

---

(٧١) O. Tufnell, pp. 37-54.
(٧٢) C. Conti-Rossini, 1928.
(٧٣) A.J. Drewes and R. Schneider, 1967, pp. 92-96, pl. XLIV.
(٧٤) H. De Contenson, 1961, pp. 21-22, pl. XXII; F. Anfray; 1967, pp. 44-46.

ف . أنفري بفطنة على أن تماثيل الماشية ذات السنام التي وجدت في عدي قلامو وفي مطرا وزبان كتور (Zeban Kutur) لم تسبق الفترة الأكسومية، وفي عدي قلامو ربما كانت معاصرة للمذابح الدينية الثلاثية الأرجل والمصنوعة من المرمر، والصولجان البرونزي من قدار (Gadar).

وقد استعمل الذهب للزينة كأختام الأصابع من يحا وحاولتي وأقراط الأذن والخرز والأسلاك الملفوفة من حاولتي. وكذا قطع صغيرة لا تحصى من عقود بشتى الألوان مصنوعة من عجينة الزجاج قد عثر عليها في كل مواقع هذه الفترة كما وجد بسبأ ومطرا قطع مصنوعة من الحجر.

وتشتمل الأدوات الأخرى المصنوعة من الحجر على هواوين (مهاريس) صغيرة من الحجر الرملي ومباخر عطور قرصية أو مستطيلة الشكل اكتشفت بيحا ومطرا وحاولتي. ووجد بسبأ ختم اناء زينة من المرمر كما عثر على حلقة محززة مصنوعة من السربنتين (حجر الحية الأخضر المرقط) في يحا.

وأخيراً فإن خزانة حاولتي الأثرية تضم تعويذتين من الفخار تمثلان رأس الإله بتاح ورأس حتحور، بينما تم العثور في الطبقات الأثرية الدنيا في مطرا على تعويذة من العقيق الأحمر تمثل حورس الطفل (حربوقرات Harpocrat) ووجدت بين اللقيات في عدي قلامو أربعة أوانٍ برونزية بما فيها سلطانية محلاة بزهور اللوتس والضفادع المحفورة وقطعة من مزهرية مزينة بصف من الماشية برسم بارز. إن هذه المجموعة من المادة الأثرية ذات أهمية خاصة نظراً لأن مصدرها مروي وتمدنا بأدلة على قيام العلاقات بين اثيوبيا القديمة ووادي النيل[٧٥].

ويمكننا أن نرى بعض الأثر المروي في فخار هذه الفترة والذي يتسم بطابع خاص متميز للغاية[٧٦] إذ فيه رشاقة وتنوع في الأشكال لا نلتقي بهما مرة اخرى في أثيوبيا. والطين الخزفي عادة مخلوط بمادة الميكا (شبه الزجاجية) ولونه أسود أو أحمر وسطحه مصقول ولامع في كثير من الأحيان. والأشكال الهندسية الزخرفية محفورة عادة وأحياناً أخرى مرسومة باللون الأحمر أو الأبيض. وتوجد كذلك زخرفة محززة محشوة بطين أبيض في العادة لكن في بعض الأحيان أزرق أو أحمر. وبجانب المادة التي وجدت في الحُفر، توجد وفرة من الأدلة الأثرية - وأغلبها لم ينشر بعد - على قمة تل حاولتي وفي الطبقات الدنيا من تلال يحا ومطرا، وربما أيضاً في أقدم فخار من أدوليس.

وبينما تشير النذور من حاولتي الى أن الأساس الذي قام عليه الاقتصاد كان زراعياً ورعوياً فإن التقدم السريع الذي حدث في صناعة المعادن من برونز وحديد وذهب، وكمية الانتاج في مواد الحجر وعجينة الزجاج، وفي صناعة الفخار تثبت أن طبقة من الصناع المهرة قد ظهرت وقتئذ. وحقيقة يبدو أن حركة التمدن كانت تمضي قدماً في عدة مراكز أسست إبان فترة جنوب الجزيرة العربية كملازو ويحا ومطرا أو في مستوطنات أحدث تاريخاً مثل أدوليس. وبينما كانت ذكرى تقاليد جنوب الجزيرة العربية لم تمت بعد فيبدو أن الحافز الجديد جاء على ما يبدو - من مملكة مروى التي لعبت دوراً رئيسياً في نشر الأساليب الفنية في صناعة المعادن في شتى أنحاء افريقيا.

ومن المحتمل أن تدهور مروى من جانب وتقلص قوة ممالك جنوب الجزيرة العربية من جانب آخر قد أتاحا للأثيوبيين السيطرة على كل التجارة في الذهب والبخور والعاج والمنتجات المستوردة من المحيط الهندي.

(٧٥) H. De Contenson, 1963, p. 48, pl. XLIX, b, c,; L. P. Kirwan, 1960, p. 172; J. Leclant, 1961, p. 392; J. Leclant, 1962, pp. 295-298, plates IX-X.

(٧٦) R. Paribeni, pp. 446-451; J. Leclant and A. Miquel, 1959, pp. 109,114, plates LI-LXIII; H. De Contenson, 1963, pp. 44-49-50, plates XLI, LIII,b, LX; A. Anfray, 1963, pp. 190—191, plates CXXVIII - CXLV; F. Anfray, 1966, pp. 13-15, plates XLVII - L, Figs I,2,II; F. Anfray, 1967, p. 42, plates XXX - XXXIX, XLII.

الفصل الرابع عشر

حضارة أكسوم من القرن الأول الى القرن السابع

بقلم: فرانسيس أنفري

تقول المصادر الأولية، إن تاريخ مملكة أكسوم يمتد من القرن الأول بعد الميلاد على فترة تصل الى الألف عام. وهو يشتمل على حملتين عسكريتين الى داخل جنوب الجزيرة العربية في القرون الثالث والرابع والسادس، وحملة الى مروى في القرن الرابع، وخلال النصف الأول من ذلك القرن شهدت أكسوم دخول المسيحية اليها.

وقد تعاقب على عرش أكسوم قرابة العشرين ملكاً، تعرف غالبيتهم من عملتهم فحسب. وبين هؤلاء الملوك تبرز أسماء «عيزانا» و«كالب». وقد تناقلت الروايات اسماء عدد آخر من الملوك، الا أن تلك الروايات لسوء الحظ لا يمكن أن يعتمد عليها كثيراً. وأول ملك ورد ذكره هو «زوسكاليس» الذي ورد اسمه في نص اغريقي يرجع الى نهاية القرن الأول؛ بيد أننا لا نعلم على وجه التحديد ما اذا كان هو ذاته «ذاهكله» الذي أدرج اسمه في القوائم التقليدية للملوك، وعلى اية حال فإن هذه المسألة ما زالت قيد البحث ولم يبت فيها بعد.

ونعتمد في معرفتنا للحضارة الأكسومية على مصادر متعددة، من كتّاب الأزمنة القديمة مثل بلين الذي يتحدث عن أدوليس (عدولي) وإلى المؤرخين العرب كابن هشام وابن حوقل؛ غير أن تلك النصوص غامضة نوعاً ما في مجملها. ويأتي القدر الأكبر من الأدلة من النقوش المحلية والاكتشافات الأثرية المتزايدة. ومن الناحية الأخرى، فقد بدأ تجميع النقوش في القرن التاسع عشر. ومن اهم تلك النقوش نصوص الملك «عيزانا» المنحوتة على الصخر. كما ان اكتشاف بعض النقوش الأخرى للملكين «عيزانا» و«كالب» وأحد ابناء هذا الأخير ويدعى «وازيبا» باللغة الاغريقية، واللغة الجعزية واللغة السبئية قد أعطى الكثير من المعلومات؛ بالاضافة إلى المزيد من الأدلة المماثلة التي جمعت خلال



صورة فوتوغرافية جوية لأكسوم

العشرين سنة الأخيرة والتي تشتمل على نقوش مدونة على جدران الكهوف ونصوص على صفائح من الشست تم العثور عليها في اريتريا. هذه المعلومات من القرن الثاني هي اقدم كتابات يعثر عليها من العهد الأكسومي.

ولا ريب في أن الملاحظات الأثرية والحفريات هي المصادر الرئيسية للحضارة الأكسومية. وفي القرن التاسع عشر بدأ الرحالة يسجلون وجود مواقع ومبانٍ ونقوش. وتمّ نشر العديد من الدراسات، وبعضها مثير للاهتمام؛ على سبيل المثال، الأبحاث الموثقة توثيقاً كاملاً والتي قامت بها البعثة الأثرية الألمانية لأكسوم في عام ١٩٠٦. وقد أسس «المعهد الأثيوبي للآثار» عام ١٩٥٢ وبدأ منذ ذلك الحين العمل المنظم؛ وبدأ فحص بعض المواقع فحصاً دقيقاً بما فيها «أكسوم» و«ملازو» و«حاولتي» و«يحا» و«مطرا». وفي ذات الوقت تم توسيع خريطة المستوطنات القديمة. ونحن الآن نعلم بوجود أربعين موقعاً رئيسياً، وسوف يكشف المزيد من التنقيب عن المزيد من المواقع. غير ان البحث ما يزال غير كاف مما يجعل معلوماتنا جزئية متقطعة وغير متكافئة. ولم يمكن بعد تحديد تواريخ المخلفات التي تم العثور عليها بدقة. والدليل الوحيد على التسلسل الزمني الحقيقي هو النقوش، وحتى هذه ليست قاطعة ومن ثم لا يمكننا أن نعطي أكثر من مجمل عام لحضارة اكسوم حيث ما زلنا نفتقر الى الكثير من المعلومات.

الموقع

يحدد علم الآثار مملكة أكسوم بانها مستطيل طويل، يبلغ طوله حوالى ٣٠٠كم، وعرضه ١٦٠كم، ويقع بين خطي العرض ١٣ و١٧ شمالاً، وخطي الطول ٣٠ و٤٠ شرقاً. وهي تمتد من الاقليم الذي يقع الى الشمال من كرن وألاقي في الجنوب؛ ومن أدوليس على الساحل الى مشارف تكازي الى الغرب. وأدي - داهنو هي آخر موقع معروف في ذلك الجزء وتقوم على بعد حوالى ٣٠كم من أكسوم.

فجر العهد الأكسومي

ورد اسم أكسوم أول ما ورد في كتاب «الطواف في بحر اريتريا» (Periplus of the Eritrean Sea) وهو دليل ملاحي وتجاري جمعه تاجر من مصر؛ ويرجع تاريخه الى نهاية القرن الأول الميلادي. كما ذكر الجغرافي «بطلميوس» (Ptolemy) ذلك المكان أيضاً في القرن الثاني.

ويعطينا كتاب «الطواف في بحر اريتريا» «دليل الملاحة» معلومات عن «أدوليس» كذلك، وهي مغطاة بالرمل وتقع على بعد خمسين كيلومتراً الى الجنوب من مصوع. وهو يصف أدوليس بأنها «قرية كبيرة تبعد مسيرة ثلاثة أيام من كولوي، وهذه الأخيرة مدينة داخلية، وهي السوق الرئيسية للعاج. ومن ذلك المكان الى مدينة أولئك القوم الذين يطلق عليهم اسم «الأكسوميين» خمسة أيام أخرى. وكان يجلب الى هنا العاج من البلاد التي تقع فيما وراء نهر النيل عبر الاقليم الذي يسمى كوينم (Cyenum) ومن هناك الى «أدوليس» اذن فإن تلك القرية كانت بمثابة منفذ لأكسوم خاصة للعاج. ويقول النص كذلك أن سن الكركدن (وحيد القرن)، وذبل السلاحف وصخر السبج الزجاجي (الابسيدان) كانت

تباع هناك هي الأخرى. وتلك الأشياء من بين الصادرات التي ذكرها «بلينيوس» قبل أن يذكرها كتاب «دليل الملاحة» وعليه فإن اسم أدوليس قد ذكر قبل اسم أكسوم. وطبقاً للكاتب بلينيوس فإن أدوليس تقع في بلاد «التروجلوديتيين» ويصفها بأنها «أعظم سوق تجارية لهؤلاء القوم، وكذلك للأثيوبيين». وقد عرف الرومان واليونان، منذ القرن الأول بوجود الأكسوميين ومدنهم التي تقع في الأرض الواقعة الى الداخل في ظهير أدوليس.

ولا يعطينا علم الآثار سوى معلومات قليلة عن القرون الأولى لتلك الفترة. والدليل الوحيد الذي يتوفر لنا عن تلك الفترة ويمكن تأريخه هو بعض النقوش من القرنين الثاني والثالث. ولكن على الرغم من أنها قليلة ومقتضبة فإن لها بعض السمات اللافتة للنظر. فهي تزودنا بأقدم أشكال الحروف الأبجدية الأثيوبية، التي ما زالت تستخدم حتى يومنا هذا. وحتى مع هذا فإنها ليست أقدم النقوش التي عثر عليها في منطقة «أكسوم»، اذ أن هنالك نقوشاً عديدة أخرى ترجع الى النصف الثاني من الألف الأخير قبل الميلاد؛ وهذه من النمط الذي ينتمي الى جنوب الجزيرة العربية. وكان الخط الجنوبي العربي هو بمثابة النموذج للخط الأثيوبي. وقد تغير شكل الحروف بدرجة كبيرة في القرن الثاني الميلادي، مبتعداً عن الخط الجنوبي العربي.

ومن المؤكد أنه توجد بعض المخلفات الأخرى من تلك القرون المبكرة، بالاضافة الى الكتابة، كبقايا مبان، أو فخار وبعض الأشياء الأخرى. غير أنه في الوقت الحالي لم تتمكن الأبحاث من التعرف عليها. وتدل بعض الآثار التي ترجع الى القرن الثالث أو بداية القرن الرابع، «كمسلات» (لوحات) (مطرا) و(انزا)، على أن الحضارة الأكسومية لم تقطع صلاتها بثقافة العهود التي سبقتها. فنجد على تلك الآثار نحوتا تمثل الرمز القمري الذي هو على شكل قرص فوق هلال؛ وهو مشابه للرمز الذي نجده على المجامر التي ترجع الى القرن الخامس قبل الميلاد. ونجد هذا الرمز أيضاً مرسوماً على قطع العملة. كما أن الكتابة القريبة الشبه من كتابة جنوب الجزيرة العربية يمكن مشاهدتها على نقوش عيزانا وكالب العظيمة. غير أن هناك بعض التغيرات الهامة، اذ يتضح من النقوش أن الدين قد تبدل. ولم تعد الابتهالات تقدم الى الآلهة القديمة، كما أن الشعارات القديمة كالوعل والأسد وأبي الهول قد تركت، باستثناء الرمز القمري. ذلك أنه نمط جديد من الحضارة قد أخذ في الظهور في ذلك الوقت، وهي حضارة مميزة تماماً عن حضارة العهد السابق، لذا فإن ذلك العهد يعرف «بالعهد السابق لأكسوم». وبالاضافة الى أن المواقع الأثرية تدل على ذلك التغيير، فإن هذه الظاهرة يمكن أن تلاحظ في بعض مظاهر الحياة الثقافية الأخرى.

المواقع الأكسومية

إن أهم تلك المواقع هما أدوليس وأكسوم، اللذان يقول عنهما كتاب «دليل الملاحة في البحر الأحمر» إنهما كانا في نهايتي الطريق الذي كان يستعمل في العهود القديمة. كما أن أدوليس وأكسوم هما الموقعان الوحيدان اللذان احتفظا باسميهما القديمين الواردين في النصوص والنقوش. و«أدوليس» الحالية موقع مهجور، وان كان سكان القرى المجاورة لا يزالون يطلقون عليها اسم عزولي «أو عدولي». أما كل المواقع القديمة الأخرى، أو أغلبيتها العظمى، فقد تغيرت اسماؤها التي كانت تطلق عليها في عهد

أكسوم القديم. وهي تتركز في الجزء الشرقي من المنطقة، من «أراتو» في الشمال حتى «نازريت» في الجنوب؛ وهي تضم «توكوندا»، و«مطرا» و«اتش ماري»، ومواقع «كوهايتو» العظيمة، التي تنسب الى كولوي (انظر الخريطة الملحقة بالفصل السادس عشر).

أكسوم

كانت مدينة «أكسوم» والمملكة التي تحمل نفس ذلك الاسم تتمتعان بصيت ذائع في القرن الثالث الميلادي طبقاً لنص من تلك الفترة يعزى الى «ماني»، الذي يصف تلك المملكة بأنها «الثالثة في العالم». كما أن المباني الضخمة وبعض الدلائل المادية الأخرى في المدينة نفسها ما زالت تحتفظ بذكرى عهد تاريخي مجيد. وتحكي «المسلات» الضخمة (احداها أطول حجر مفرد منحوت معروف حتى الآن)، ومائدة حجرية ضخمة، وقواعد العروش الضخمة، وقطع من الأعمدة، والمدافن الملكية - وهي مخلفات كثيرة عثر عليها تحت بازليقا من القرن الثامن عشر - كل هذه الآثار، بالاضافة الى الأساطير والمأثورات، تحكي عن تاريخ مجيد.

وفي بداية هذا القرن، أجرت بعثة ألمانية رسوماً وصوراً فوتوغرافية لكل الآثار المعروفة. وفي الجزء الغربي من المدينة كشفوا عن مخلفات ثلاثة مجمعات معمارية عرّفوها كبقايا قصر. وتمكنت بعض أعمال الحفر الأثرية اللاحقة خاصة تلك التي أجراها «معهد الآثار» من أن تكشف المزيد من المباني، مضيفة بذلك ثروة من المعلومات عن المدينة الملكية القديمة.

ولم يتبق من المباني الثلاثة المعروفة باسم «إندَ سمعون» (Enda-Semon) و«إندَ ميكائيل» (Enda-Mikael) و«تعخا ماريام» (Takha-Maryam)، سوى بعض القواعد، ولكنها يمكن أن تشاهد اليوم في رسوم وصور البعثة الألمانية فحسب، وأكبر تلك القصور أو القلاع، وهو «إندَ سمعون»، تبلغ مساحته ٣٥ متراً مربعاً؛ أما «إندَ ميكائيل» فمساحته تبلغ ٢٧ متراً مربعاً؛ ومساحة تعخا ماريام تبلغ ٢٤ متراً مربعاً. وكانت القصور محاطة بأفنية ومبان ثانوية تشكل مجمعات مستطيلة الشكل، تبلغ مساحتها، في تعخا ماريام على سبيل المثال، مائة وعشرين في خمسة وثمانين متراً.

وتم العثور تحت كنيسة ماريام - تسيون (Mariam - Tsion)، على مبنى آخر كبير الحجم، والى شرقه، تحت مستوى الشرفة، ما زالت بقايا قاعدة يتراوح عرضها بين ثلاثين واثنين وأربعين متراً موجودة حتى الآن.

وفي غرب المدينة، اكتشفت بعثة المعهد الأثيوبي للآثار مجمعاً معمارياً آخر في الفترة من عام ١٩٦٦ الى عام ١٩٦٨. وهذه المخلفات، التي وجدت بالقرب من «دُنقور» الى الشمال من طريق «قندار» هي مخلفات قلعة أخرى ترجع الى حوالى القرن السابع.

وانزاحت التربة عن سفح تلّ ذي قمة مسطحة. ووفقاً للروايات المحلية، فإن مقبرة ملكة سبأ (بلقيس) تربض تحت هذا التل المكون من التراب والأحجار. وتغطي مخلفات القلعة المدفونة مساحة تبلغ حوالى ثلاثة آلاف متر مربع. وتكوّن الجدران شكلاً رباعياً غير منتظم، يبلغ طول أحد جوانبه سبعة وخمسين متراً، ويقلّ طول الجانب الآخر عنه بمقدار نصف متر. ولا زالت الجدران في وسط الأبنية المتهدمة تقف على طول خمسة أمتار.

وهنالك أربع مجموعات غير منتظمة من المباني تحتوي على حوالى اربعين حجرة، وهي مصفوفة بحيث تشكل صحناً مربعاً حول الجزء الرئيسي من القلعة، ويقف الجزء الرئيسي من القلاع على قاعدة متعددة الطوابق ارتفاعها ١,٨٠ متر، ويتكون من سبع حجرات يمكن الصعود اليها عن طريق ثلاثة أدراج (سلالم) خارجية. وتفصل هذا المبنى عن المباني الخارجية الثانوية ثلاثة صحون. وتحتوي الجدران الخارجية على أجزاء بارزة وأجزاء غائرة. وقد عثر على دعامات (أكتاف) صلبة وقوية في مجموعات ثنائية ورباعية، مدفونة في عدة حجرات في المبنى الرئيسي وفي المساكن الاضافية الملحقة به. ولا شك في أن تلك كانت تستخدم كقواعد لأعمدة حجرية، أو ربما لأعمدة خشبية - وهذا احتمال أقوى - تحمل بناء ما. وفي دهاليز المبنى الرئيسي، تؤدي هذا الغرض قواعد حجرية عريضة مغطاة بحجر تبليط هندسي الشكل. وتدل ملامح تخطيط الأجزاء الشمالية الشرقية والجنوبية الغربية من الموقع على أنه كانت هنالك في تلك الأمكنة أدراج تقود الى مكان الاقامة الرئيسي في الطابق الأعلى.

كما تم اكتشاف ثلاثة أفران من الطوب المحروق في الجانب الغربي من ذلك الموقع. وفي احدى حجرات المباني الاضافية الواقعة الى الجنوب عثر على مبنى من الطوب وعليه آثار احتراق، ويبدو أنه قد كان يستخدم للتسخين أو الاحماء.

وموقع «دنقور» هو أحسن مثال للعمارة الأكسومية تم اكتشافه حتى يومنا هذا، ونظراً لوقوعه خارج المدينة وحجمه الصغير نسبياً، فإن موقع «دنقور» لا يبدو أنه كان مقراً ملكياً؛ وأغلب الظن أنه كان مسكناً لأحد المواطنين البارزين.

وهنالك مبنى آخر، نسبته الروايات المحلية الى «كالب» وابنه «قبرا مصقل» (Guebra - Masqal)، كان يقوم في يوم من الأيام على تلّ الى الشمال من أكسوم. وكان هنالك بناءان يمكن أن يوصفا بأنهما كنيستان صغيرتان مشيدتان على سراديب مكوّنة من عدة أقبية مبنية ومغطاة بحجر لوحي كالبلاط. ويحتوي سرداب «قبرا مصقل» الذي يقع الى الجنوب على خمسة أقبية، ويحتوي سرداب «كالب» الذي يقع الى الشمال على ثلاثة أقبية والجزء العلوي من المبنى حديث نسبياً. وثمة دلائل على أنه كثيراً ما تعرض للتغيير والتعديل ولدينا ما يجعلنا نعتقد أن السراديب أقدم، وإن الأقبية قد أعيد استخدامها في القرن السابع أو الثامن. وتتكون عتبات الدرج الذي يقود الى قبر «كالب» من كتل حجرية مضلعة تذكرنا ببعض المباني في شمال سوريا في القرن الثاني أو الثالث. وكان المبنى محاطاً بمقبرة كبيرة أو جبّانة وقد اكتشفت مؤخراً عدة قبور عمودية «كالآبار» بالقرب من ذلك المكان.

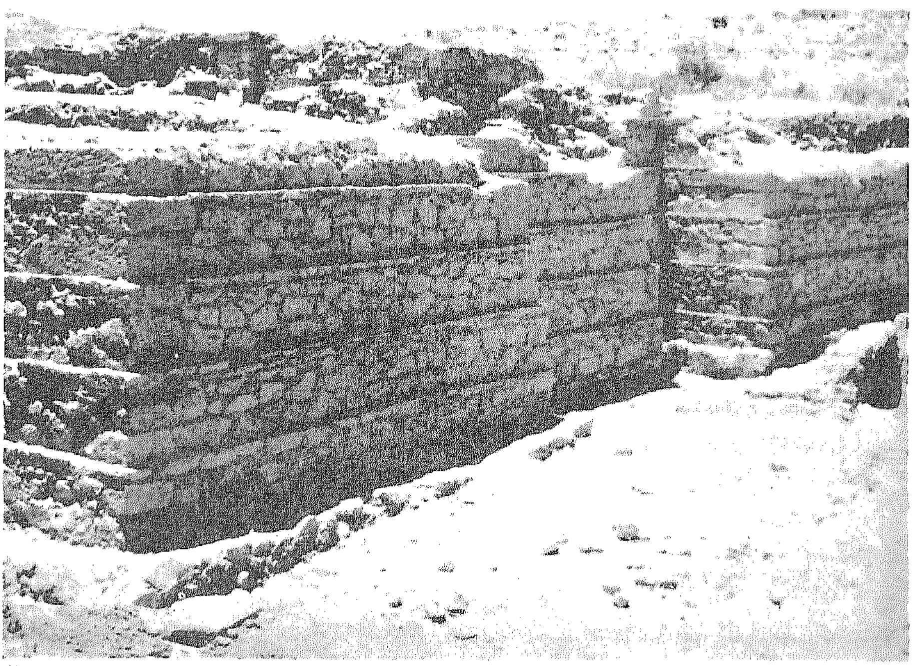
وهنالك بعض القبور الأخرى الى الشرق من ذلك الموقع.

والى شرق المدينة، عند «بازن» (Basen) نحتت بعض المقابر التي تشبه الأفران في الصخور. وبعض هذه المقابر له عمود وأقبية في أسفله على كل جانب. ويشتمل نفس القطاع على مقبرة مزدوجة مزودة بسلم ذي سبع عشرة درجة، منحوت من الصخر هو الآخر، وتطل من فوقه مسلة لم تكن تقف بمفردها في العصور القديمة، اذ أن رحالة انجليزياً في بداية القرن التاسع عشر يقول انه قد رأى في ذلك المكان أربع عشرة «مسلة» ملقاة على الأرض.

وكانت المدينة القديمة تغطي المساحة الواقعة ما بين المسلة الضخمة وموقع «دنقور»، وتوجد الانقاض الأثرية متناثرة تحت السطح. وعندما يتم اجراء الحفريات الأثرية في الأمكنة المسماة تقليدياً باسم «أدي كيلتي» (Addi - Kilte) و«تشانا دوق» (Tchaanadoug) فإنه سوف يتم حينئذ القاء المزيد من الضوء على حقبة طويلة من تاريخ «أكسوم».



١



٢

١ : لبوءة منحوتة على جانب صخرة، العهد الأكسومي
٢ : مطرا: قاعدة مبنى أكسومي

أدوليس

توجد بعض المخلفات فوق سطح هذا الموقع وهو ليس على الساحل بل على بعد أربعة كيلومترات الى الداخل. وتغطي الصخور والرمال والأشجار جزءاً كبيراً من تلك المخلفات. وما يمكن استخلاصه من الدلائل الموجودة فوق السطح هو انها تقع في مستطيل طوله خمسمائة متر وعرضه أربعمائة متر على وجه التقريب. وفي بعض الأماكن هنالك أكوام من الأنقاض تدل على المواقع التي كانت تباشر فيها بعض البعثات الأثرية عملها. والى الشمال الشرقي توجد بعض أجزاء الأعمدة المبعثرة وكميات كبيرة من القواقع. وفي عام ١٨٦٨ نقبت حملة عسكرية بريطانية نزلت بالقرب من ذلك المكان في أطلال المباني، غير أن العمل الذي أنجز من ذلك الحين قليل جداً اذا استثنينا الحيطان التي كشفتها بعثة «باريبيني» (Paribeni) في عام ١٩٠٦، وتلك التي عثرت عليها بعثة المعهد الأثيوبي للآثار في عامي ١٩٦١ - ١٩٦٢.

وفي مستهيل عام ١٩٠٦، اكتشف «سوندشتروم» (Sundstrom) السويدي الجنسية مبنى كبيراً في القطاع الشمالي، وبعد ذلك بقليل كشف «باريبيني» طَلّين صغيرين في ناحيتي الشرق والغرب. وتتكون كل تلك المباني من مصاطب متعددة الطبقات مدرجة، وهي مستطيلة الشكل، وتحيط بها مبان ثانوية. وقد سمى «سوندشتروم» ذلك الطلل الذي اكتشفه «قصراً». وهو مجمع شاسع يبلغ طوله ثمانية وثلاثين متراً، وعرضه اثنين وعشرين متراً؛ وبذا يغطي مساحة أكبر من تلك التي تغطيها قلعة «اندسمعون» في أكسوم، حيث تبلغ مساحة المسكن المركزي خمسة وثلاثين متراً. وفي المبنى الذي يعلو المصطبة، يقسم صفان من الأعمدة المبنى الى ثلاثة أجزاء على امتداد طوله، ويقسم صفان آخران عرض المبنى الى قسمين على ذات المنوال. ويجعلنا هذا التخطيط البازليقي (الكنسي) نعتقد أن المبنى لم يكن قصراً بل كان معبداً مسيحياً.

وتنمّ المصطبة التي كشفها «باريبيني» الى الغرب من ذلك المجمّع عن سمات معمارية شبيهة. ويبلغ طولها ثمانية عشر متراً ونصف المتر. وكان الجزء الأعلى مغطى ويشتمل على بقايا أعمدة صحن (كنيسة). وفي الطرف الشرقي، كان وجود قبا (جزء ناتىء) نصف دائري بين حجرتين دليلاً كافياً على أن الأطلال هي بقايا بازيليقا. وكان الجزء الأسفل من المبنى ينتمي الى بناء أكثر قِدماً، أسماه عالم الآثار الايطالي «مذبح أومحراب أو هيكل الشمس». واستناداً الى أدلة أخرى، يمكننا أن نعتبره بقايا من مبنى أغلب الظن انه ديني، ينتمي الى فترة سابقة للفترة التي بنيت فيها البازيليقا(الكنيسة) من فوقه.

والى الشرق من اكتشاف «سوند شتروم» عثر «باريبيني» على مصطبة كنيسة أخرى طولها خمسة وعشرون متراً، وبعض الآثار الدالة على قبا شبه دائري. وهنالك سمتان ملفتتان للأنظار: احداهما وجود حوض للتعميد في الحجرة الواقعة جنوب القبا شبه الدائري والأخرى وجود بقايا ثمانية أعمدة مربعة مصفوفة في وسط المبنى.

مطرا

وعلى الهضبة الاريترية وعلى بعد ١٣٥ كيلومتراً جنوب أسمرا (Asmara)، بالقرب من «سينافيه» (Sénafé)، يوجد واحد من أقدم المواقع الأثرية في أثيوبيا، تنتمي أجزاؤه السفلى الى بناء كبير من العصر العربي الجنوبي.

وقام «معهد الآثار» باجراء حفريات منظمة في موقع «مطرا» بين عامي ١٩٥٩ و١٩٧٠، وإن كان لا يزال هناك الكثير الذي لم يكتشف بعد. ولم تجر سوى بعض المجسّات (عمليات سبر الغور) في الطبقات الأثرية التي ترجع الى العصور السابقة لأكسوم؛ وذلك بالدرجة الأولى لوجود العديد من الآثار ذات القيمة المعمارية من فوقها. وقد استكشف ما يقرب من نصف الطبقة الأكسومية. وقد كشفت تلك الحفريات عن وجود أربع «فيللات» كبيرة، وثلاث كنائس مسيحية، وحيّ سكني يضم ثلاثين بيتاً على وجه التقريب. و«الفيللات» الأربع من النوع المألوف، فهي تتألف من مسكن رئيسي مبني فوق قاعدة تحتية مدرجة، ومحاط بمرافق اضافية. وكما في المواقع الأخرى، توجد أكتاف حجرية مدفونة تحت حجرات المبنى الرئيسي، وكانت تستخدم كأساسات للأعمدة التي تستند عليها الدهاليز. ولا بد من أن الأدراج التي تقود الى المداخل الرئيسية كانت محمية بسقيفات اذ أنه توجد فجوات في أركان كل مجموعة من الادراج، ربما كانت تحمل عمداً خشبية.

وتتألف المساكن العادية من حجرتين أو ثلاث. ويبلغ سُمك الحيطان سبعين سنتمتراً في المتوسط. وقد مكّن العثور على بقايا مدافىء وأفران من الطوب وأوان عديدة من تحديد موقع حجرات السكن.

وهنالك نمط آخر من المنازل يعتبر وسطاً من ناحية الحجم بين الفيللات والمساكن العادية. ويشترك هذا النوع في بعض السمات المعمارية الرئيسية للفيللات - لا سيما في تصميمه وحيطانه المدرّجة. ولعلنا لا نخطىء عندما نقول إن ذلك التفاوت في العمارة يعكس تفاوتاً في الأوضاع الاجتماعية.

في شرق وجنوب المدينة توجد بعض المباني الدينية التي تشبه في سماتها الخارجية المباني الأخرى، اذ أن لها بناء رئيسياً تحيط به الأفنية والمرافق الاضافية، واسلوب البناء واحد لا يتغير. وأحد هذه المباني معبد جنائزي صغير يشبه مقبرة «كالب» في «أكسوم»، وإن كان أصغر منها حجماً. ويبلغ طوله ١٥ متراً وعرضه ١٠ أمتار، ويقف فوق حافة يمكن الصعود اليها بواسطة سلم يتكون من أربع عشرة درجة.

والى الشرق هنالك كنيسة أخرى - وهي تقع في الطبقة الأثرية الثالثة من أربع طبقات سفلية متميزة من الأنقاض - ولها صحن في الوسط وممّاش جانبية تفصلها عن الصحن أربعة أعمدة ما زالت قواعدها موجودة حتى الآن. وهنالك قبا (جزء ناتىء شبه دائري) تحفه غرفة من كل جانب، ويقع على نفس محور الصحن، الذي يتجه ذات الوجهة في كل الأبنية من هذا النوع. ويبلغ طول الحيطان الخارجية ٢٢,٤٠ متراً، وعرضها ١٣,٥٠ متراً. وتم العثور على حوض تعميد في احدى الغرف في الجانب الشرقي من الكنيسة، خلف القبا. ويصل الماء الى الحوض عن طريق سلسلة من قوارير الفخار المتصلة بعضها ببعض، كيما تشكل قناة تجري على سطح الحائط الخارجي.

وكانت هنالك كنيسة أخرى على تل «قوال سايم» (Goual-Saim)، جنوب الموقع، الّا أن الحيطان قد تهدمت واندثرت معالم تخطيط المبنى. ومع هذا فلا تزال تشاهد بعض آثار متبقية من أرضية مبلطة بحجر الشست ومن قواعد أعمدة، وهي آثار من مبنى كان صغيراً نسبياً.

«كوهايتو»

في هذا الموقع الذي يقع الى شمال «مطرا» على ارتفاع ٢٦٠٠ متر، يوجد العديد من الأطلال ذات الأهمية المعمارية. وهنالك عشرة تلال منتشرة في مساحة كبيرة وتحتوي على بقايا مبان كبيرة تنتمي الى نهاية العهد الأكسومي؛ وهي في أغلب الظن أجزاء متناثرة من أبنية قديمة. ولا يزال عدة أعمدة قائمة

فوق التلال. ويتجه الرأي الى أن معظم تلك المباني تنتمي الى كنائس تضاهي في حجمها تلك التي اكتشفت في «مطرا». وكل الجدران التي وجدت على التلال لها سمات المعمار الأكسومي، وهي مصفوفة على ذات النسق المستطيل الذي نجده في المواقع الأخرى التي تنتمي الى الفترة ذاتها. ويمكن بسهولة التعرف على سبع من تلك المجموعات المعمارية. والى جانب الأبنية المتهدمة، يوجد الى الشمال الشرقي سد يتكون من كتل حجرية مصفوفة في انتظام. وكان يستعمل لحجز المياه في الجزء الجنوبي الشرقي لحوض طبيعي يعرف بحوض «سافرا» (Safra). ويبلغ طول السد ٧٦ متراً، وارتفاع الجزء الأوسط حوالى ٣ أمتار، حيث يشكل صفان من الحجارة الناتئة درجاً يبدأ من أعلى السد ويؤدي الى سطح الماء.

والى الشرق يوجد قبر عمودي (بئري) منحوت في الصخر يتكون من حجرتين أو سردابين للدفن. ويزين «أحد طرفي القبر صليب منحوت في الصخر من الطراز الأكسومي».

وفي اخدود بالقرب من الموقع توجد أحجار ذات رسوم ملونة ومنحوت عليها أشكال تمثل ثيراناً وجمالاً وبعض الحيوانات الأخرى.

المدن والأسواق

كانت المستوطنات الكبيرة - وهذا ينطبق على تلك الأماكن التي سبق ذكرها بالاضافة الى أماكن اخرى - هي بمثابة مجتمعات متلاحمة ومكتظة بالسكان، ومساكنها قريبة من بعضها البعض، تتجمع حول المباني الكبيرة التي أقيمت لمختلف الأغراض. وقد أثبتت الحفريات التي أجريت في «أكسوم» و«ادوليس» «مطرا» أن تلك الأماكن كانت مراكز مدنية حقيقية. وفي حي «مطرا»، حيث كان يسكن عامة الناس، كان هناك زقاق ضيق متعرج بين البيوت. وكل هذا يدل على أن عدد السكان كان كبيراً، وأن نشاطهم لم يكن مقصوراً على الزراعة. ويلقي استخدام العملة المعدنية ضوءاً على تطور الاقتصاد. وتزودنا طبيعة الأدوات التي تم العثور عليها بالمزيد من المعلومات: فقد تم العثور على مصنوعات زجاجية، وقوارير من منطقة البحر الأبيض المتوسط. وتدل بعض الأعمال الفنية (كمصباح من البرونز وأشياء عديدة مصنوعة من الذهب) على أن اولئك السكان قد عرفوا حياة الترف والبذخ.

وعلينا هنا أن نشير الى نقطة هامة: هي أن غالبية المساكن والمباني التي يمكن مشاهدتها فوق سطح الأرض أو التي كشفت عنها الحفريات الأثرية تنتمي الى العهد الأكسومي المتأخر. غير أنه توجد بعض أنقاض مبان تنتمي الى فترة سابقة، وبنيت فوقها مباني الفترة اللاحقة، وان يكن من غير الميسور تحديد عمر تلك المباني على نحو دقيق. وهذا يدل على أنه حتى في الفترة التي تنتمي اليها هذه الآثار، لم يكن الوضع مختلفاً كثيراً. يقول مؤلف «دليل الملاحة» في القرن الأول عن «كولوي» (Koloè)، انها بلدة تقع الى الداخل وأنها «المركز الرئيسي للعاج» ويصف «أدوليس» بأنها سوق، وأنها تجلب العاج من «مدينة اولئك الناس الذين يطلق عليهم اسم الأكسوميين»، حيث يتم جمع العاج. وعليه فإن «أدوليس» تكون سوقاً هي الأخرى. ويجب اعتبار المراكز الحضرية الأخرى كأسواق وأماكن للتجارة: «أراتو»، «توكوندا»، «اتش ماري»، «ديقونم»، «هجرو - ديراقواه»، «هنزات».... الخ. وليس من المؤكد ان البيع والشراء كانا يتمان داخل المدينة نفسها؛ ولعل الاحتمال الأكبر هو أن الأعمال

التجارية كانت تتم في أطراف المدينة؛ اذ اننا نعلم أن تلك المدن القديمة لم يكن حولها أسوار. ولكننا لا نملك حتى الآن دليلاً قاطعاً على صحة هذا الرأي.

المعمار الأكسومي

ان المميزات الرئيسية للمعمار الأكسومي هي استخدام الحجارة، والتخطيط، المربع أو المستطيل، وتعاقب الأجزاء البارزة والأجزاء الغائرة بانتظام، والقواعد السفلية المدرجة التي تقام من فوقها المباني الضخمة، وأسلوب في البناء لا يستخدم فيه أي بلاط غير الطين. ومما يلفت النظر حقاً هو أننا نجد هذه السمات المميزة في كل مكان تقريباً، وقد سبق أن أشرنا الى أن هذه القواعد المعمارية مطبقة في جميع المباني سواء أكانت دينية أو غير دينية. وهي تقف جميعها فوق قاعدة مدرجة ذات شكل واحد، ويمكن الصعود اليها بواسطة سلالم ضخمة، تتكون عادة من سبع درجات. وتحيط بها مرافق اضافية تفصلها عنها أفنية صغيرة.

ونكاد نجزم أن القصور والفيللات كانت تشتمل على طابق فوق الطابق الأرضي على الأقل، والذي ينبغي أن يسمى الطابق الأول، نسبة لارتفاعه. ونظراً لصغر حجم الحجرات ولأنها تحتوي على عدد كبير من الأعمدة فإن الاحتمال الأقوى هو أن الأجزاء المخصصة للسكن تقع في الطابق العلوي. ولا يزال السؤال قائماً عما اذا كانت قصور «أكسوم» الكبيرة تحتوي على عدة طوابق عليا. وفي بداية هذا القرن، حاول المهندس المعماري للبعثة الألمانية اعداد رسم تخطيطي يستعيد فيه شكل مبنى قصر «اند ميكائيل» (Enda-Mickael). وقد أظهر ذلك الرسم أبراجاً تتكون من أربعة طوابق في الأركان الأربعة للمبنى الرئيسي. ونظراً لأن المبنى لم يبق له أثر تقريباً فمن الصعب أن نقرر ما اذا كان ذلك الرسم مطابقاً للحقيقة أم لا؛ لكن اذا اخذنا في الاعتبار اعمال البناء كما تظهرها الرسوم والصور الفوتوغرافية، وكما تظهرها بعض المباني الأخرى المماثلة، فإننا نخلص الى أن الجدران الرقيقة نسبياً، المبنية من أحجار لا يربط بعضها الى بعض سوى طبقة من الملاط غير سميكة ومن ثم فنحن نشك في أن يكون «اند – ميكائيل» أو أي قصر آخر كان يتألف من أكثر من طابقين. وربما كانت بعض القصور القوية البناء تتكون من ثلاثة طوابق، غير ان هذا أيضاً بعيد الاحتمال؛ أما أن نتخيل أن بعضها كان يتكون من أكثر من ثلاثة طوابق فإن هذا ضرب من الشطط والاسراف. وفي القرن السادس، يقول «كوزماس انديكوبلويستيس» (Xosmas Indicopleustes) ، في «الطبوغرافيا المسيحية» (Christian Topography) أنه رأى في أثيوبيا (وهو لا يقول «أكسوم» ولكن من المحتمل أنه قد ذهب الى هنالك) «مسكناً ملكياً يتألف من أربعة أبراج». ومع أن هذه الملاحظة المقتضبة لا تحدد مواقع الأبراج، فإنها تشير الى أبنية عالية، وهذا هو الشيء المهم.

ويستخدم الأكسوميون الأخشاب في البناء. فأطر الأبواب والنوافذ مصنوعة من الخشب؛ وفي أمكنة معينة في الحائط، خاصة في أركان الغرف، كانت تولج بعض المفصلات في البناء لتقويته. وكانت الروافد (العروق) التي تستند عليها أرضيات الغرف في الطوابق العليا، أو السقوف التي يرجح انها كانت مسطحة، كلها من الخشب الخشن. وتعطي المسلات التي ترى فيها أطراف الروافد البارزة فكرة واضحة عن الممارسات المعمارية في ذلك العهد.

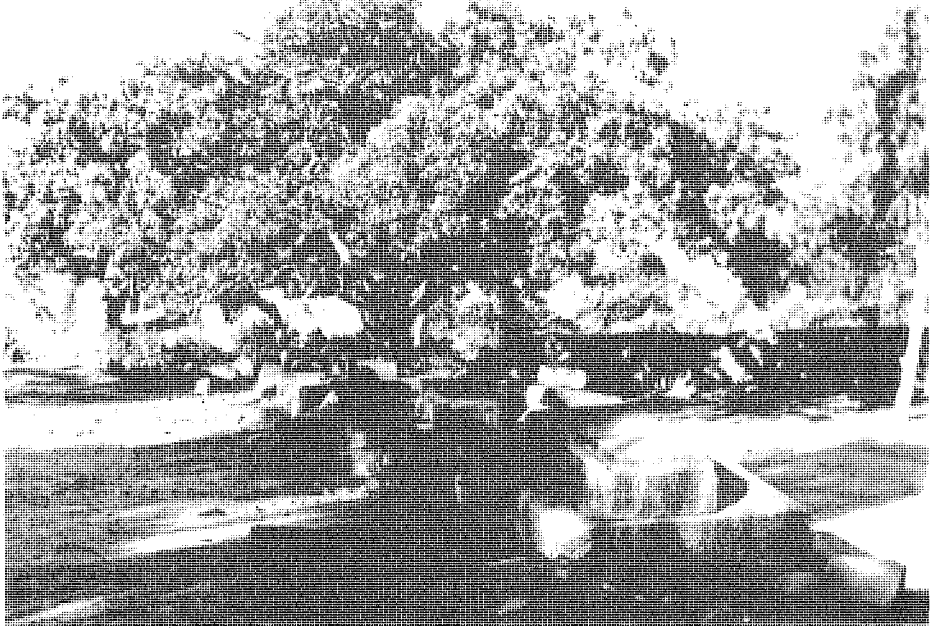
وجرت العادة كذلك على جعل الدعامات السفلية التي تبنى فوقها المباني الضخمة كأقوى ما يمكن، وذلك بوضع كتل ضخمة من الحجارة المصقولة في الأركان، أو على السطح في صفوف طويلة. ويمكن مشاهدة كثير من هذه الكتل في مباني العهد الأكسومي المتأخر، وكان بعضها قد استعمل من قبل في بعض أعمال البناء السابقة. وليس ثمة شك في أن بنائي العهد الأكسومي الأول، خاصة في القرن الثالث والقرن الرابع، كانا مولعين بالكتل الحجرية الضخمة. تدل على ذلك المسلات والألواح الحجرية الضخمة المنصوبة قبالتها.

المباني الحجرية

مسلات أكسوم متعددة الأنواع. والعديد منها لا يعدو أن يكون أحجاراً كبيرة مشذبة الأطراف، كما في «قوديت» (Goudit) في القطاع الجنوبي من موقع «دنقور». وهي منتشرة في ساحة فسيحة، وليس ثمة شك في أنها كانت في العصور القديمة تستخدم كشواهد للقبور. ولبعض المسلات الأخرى جوانب ملساء ورأس محدّب. وبعضها الآخر يزيد ارتفاعه عن العشرين متراً. ويوجد هذا النوع من المسلات في أماكن عديدة، لكنها تكثر في الموقع الذي توجد به المسلات الضخمة. وتتكون هذه المجموعة من سبع مسلات تكسوها رسومات منحوتة. ولم يتبق منها سوى واحدة؛ اذ أن خمساً منها قد تهشم، وهي الآن ملقاة على الأرض، والسابعة أخذت الى «روما» عام ١٩٣٧ حيث نصبت بالقرب من مسرح الامبراطور كراكلا حيث ما زالت قائمة.

وتحاكي منحوتات المسلات شكل المباني متعددة الطوابق. وأطول هذه المسلات، التي يبلغ ارتفاعها ٣٣ متراً، تبرز على أحد جوانبها صور لمبنى مكون من تسعة طوابق يعلو بعضها بعضاً: وقد نحتت بابه والنوافذ وأطراف الروافد البارزة كلها من الحجر الصلد. ولم يعرف حتى الآن معنى تلك العمارة التصورية. وليس هناك مجال للمقارنة بينها وبين أي شيء آخر موجود في أي مكان آخر! وفي احدى هذه المسلات رماح منحوتة في أعلى واجهتها. وفي مسلة أخرى عادية (غير معمارية الشكل) يظهر درع - إن صح أنه درع - تحت سقف مزدوج الانحدار - اذا كان ذلك سقفاً حقاً. وقد استخدمت الثقوب او «المسامير» لتثبيت الشعارات في مكانها، وإن كانت الشعارات قد نزعت من مكانها ولا ندري الآن ما هي تلك الشعارات، وما اذا كانت قد اضيفت في وقت لاحق. وأغلب الظن أن تلك الآثار كانت نصباً جنائزية وشواهد أضرحة (Cippi.) ولا ندري ما اذا كانت مقراً لروح إلهية، أو أنها نصبت لتخليد ذكرى واحد من بني البشر! إن رمزية الزخرفة المعمارية تجعل الأمر كله بالغ الغموض. أما فيما يتعلق بالاختلاف في حجم المسلات، فإنه يمكننا القول بإنها تختلف باختلاف المركز الاجتماعي لأصحابها.

ويكتنف الغموض كذلك دلالة اللوح الحجري الضخم الذي كان ينصب أمام المسلة الكبيرة، والتي كانت توضع في البداية على الأقل على عمد قصيرة سميكة. وأبعاد اللوحة محيرة للعقول (اذ أن طولها يبلغ ١٧ متراً تقريباً، وعرضها ٦,٥٠ أمتار وارتفاعها ١,٣٠ متر خاصة اذا نحن تفكرنا في القدر الكبير من الطاقة الذي يستلزمه سحب تلك اللوحة الى مسافة لا تقل عن مئات الأمتار. ولا نعلم على وجه التحديد المكان الذي كانت تجلب منه كتل الصخر تلك. ويوجد محل عتيق لقطع الاحجار على مقربة من تلّ مرتفع الى الغرب من أكسوم، حيث توجد كتلة ضخمة من الحجر طولها ٢٧ متراً كانت تجري عليها بعض أعمال النحت والتشذيب. ولكننا لا نستطيع أن نجزم بأن اللوحة الضخمة أو



١



٢

١ : قاعدة عرش
٢ : مطرا: نقش من القرن الثالث الميلادي

المسلة المنحوتة قد جاءت من ذلك المحل الذي يقع على بعد أكثر من كيلومترين من موقعهما. واذا تركنا جانباً مشكلة النقل، فإن مجرد نصب تلك الأحجار يدل على وجود تنظيم جماعي قوي.

وتوجد في «مطرا» و«انزا» على الهضبة الشرقية، مسلتان مستديرتا الرأس، ارتفاعهما خمسة أمتار. ولهذين المسلتين خاصتان: عليهما الهلال، وهو رمز دين جنوب الجزيرة العربية، ونقوش باللغة الجعزية، ولهذه النقوش معان تذكارية، وقد أمكن التأكد من ذلك بصفة قاطعة، على الأقل في «مطرا» ويتبين من شكل الخط انها ترجع الى القرن الثالث أو مطلع القرن الرابع. وتشبه طريقة صنع هذه اللوحات المكون كل منها من حجر كبير واحد طريقة صنع المسلات المصقولة الملساء في «أكسوم».

وفي «أكسوم» نوع آخر من النصب المشكلة من كتلة حجرية واحدة: ونجد منه نماذج مبعثرة في شتى الأنحاء. وهي منصات أو مصاطب، يمكن رؤ ية حوالى اثنتي عشرة منها مصطفة في منطقة المسلات الضخمة بالقرب من كنيسة «ماريام تسيون». وأغلب الظن أن تلك كانت قواعد للعروش؛ يبلغ طول بعضها ٢,٥٠ متر، ويبلغ سمكها ما يقرب من أربعين أو خمسين سنتمتراً. ويوجد نتوء في الجزء الأوسط منها، وبه ثقوب كانت تستعمل لتثبيت قوائم مقعد للجلوس. وكانت هنالك واحدة من تلك القواعد في «مطرا» وقد أمكن حصر ٢٧ واحدة منها.

وكانت هذه العروش معالم بارزة في حضارة «أكسوم» فهي مذكورة في نقشين من نقوش الملك «عيزانا». وفي القرن السادس، لاحظ «كوزماس» وجود عرش بالقرب من مسلّة «بأدوليس» فوصفه قائلاً: «للعرش قاعدة مربعة. وهي مصنوعة من الرخام الأبيض الفاخر، ومنحوتة من كتلة واحدة من الحجر». وكان العرش والمسلّة منقوشين بالحروف الاغريقية. وقد كتب تلك النقوش ملك أكسومي عاش في حوالى القرن الثالث. ولا يزال معنى تلك الآثار غامضاً: أهي عروش تخلد ذكرى انتصارات؟ أم أنها شيدت للوفاء بنذور؟ أم هي رموز للسلطة الملكية؟ وتبقى هذه العروش مشكلة مبهمة عويصة مثلها في ذلك مثل المسلات الضخمة.

وتتجه كافة العروش بالقرب من «ماريام تسيون» ناحية الشرق، مثلها في ذلك مثل الجانب المنقوش من المسلات. واذا كان ذلك هو موضعها الأصلي الذي نصبت فيه، فمن الجائز انها كانت موضوعة قبالة معبد كان يقوم في موضع الكنيسة الحالية، حيث يوجد العديد من الأطلال. والنقوش ذاتها محفورة في الحجر الصلب، وهو نوع من الجرانيت. وأحد نصوص «عيزانا» المكتوب بثلاث لغات: الأثيوبية والعربية الجنوبية والاغريقية - محفور على جانبي حجر يبلغ ارتفاعه أكثر من مترين.

ويبدو أن هذا الولع بالآثار الضخمة قد تفشى حتى لقد شمل التماثيل أيضاً. ففي بداية القرن اكتشف حجر مسطح في «أكسوم» به آثار لأقدام محفورة في الصخر يبلغ طولها ٩٢ سنتمتراً. وقد استخدم الحجر كقاعدة مربعة لتمثال، ربما كان مصنوعاً من الحديد. وتخبرنا نقوش «عيزانا» أنه قد نصب تماثيل تمجيداً للإله. يقول أحد هذه النقوش: «رمزاً للعرفان لهذا الذي خلقنا: «آريس» (Ares) الذي لا يقهر، أقمنا الأصنام، أحدها من الذهب، وآخر من الفضة، وثلاثة من البرونز، تمجيداً له». ولم يعثر بعد على صنم من أصنام الأكسوميين، الا أن البحوث الأثرية أبعد ما تكون عن الكمال. وقد اكتشفت بعض تماثيل الحيوانات، وهي إما من الحجر أو المعدن. ويخبرنا كوزماس أنه قد رأى «أربعة تماثيل برونزية» لوحيد القرن (يقصد الكركدن) «في القصر الملكي».

الفخار

أمكن الحصول على كميات كبيرة من الأواني المصنوعة من الطين النضيج في المواقع الأكسومية. وبعض تلك الأوعية مكسور وبعضها الآخر سليم.

وتلك الأواني الفخارية كانت تستعمل غالباً في الأغراض المنزلية، وهي مصنوعة من الطين النضيج الأسود أو الأحمر، والنوع الأخير هو الغالب. وفي العديد من الأواني يصقل السطح الخارجي بطلاء طافىء غير لامع، وفي أحيان كثيرة يتم صقله بالحجر؛ وبعضها الآخر نجده مطلياً بمادة حمراء، وليس هنالك ما يدل على استخدام العجلة (الدولاب) في صنع الفخار.

تختلف أحجام تلك الأواني، من الأكواب الصغيرة الى الدنان التي يبلغ ارتفاعها ثمانين سنتمتراً. وقد تكون الجرار والقصاع والأباريق، والمقالي والأحواض، والأكواب خالية من الزخرف في بعض الأحيان. وعندما تزخرف فإن الزخرف غالباً ما يتكون من رسوم هندسية، سواء محفورة أو مطلية أو مصبوبة أو مختومة. والرسوم بسيطة، وهي في الغالب الأعم تتكون من زخارف في شكل حبال متدلية او خطوط متعرجة أو أقراص مضمومة أو مربعات أو خطوط حلزونية أو أشرطة قصيرة. . . الخ. .

ومن النادر أن تستوحى الرسوم من الطبيعة؛ فهنالك بعض أشكال تمثل سنابل القمح، والطيور أو الثعابين. ولبعض الزخارف معان رمزية واضحة كما في أشكال الأذرع المُقَوْلَبة والمضافة الى حواف الأحواض. ويظهر الصليب المسيحي مرات ومرات على جوانب وحواف وقيعان الأوعية.

هنالك فرق بين الخزف الذي يأتي من شرق الهضبة والخزف الذي يأتي من الغرب، ففي منطقة «أكسوم» نجد نوعاً من الخزف تحليه حزوز خطية على جوانبه؛ وهذا النوع نادر على الهضبة الشرقية. وهنالك قصعة من «مطرا» لها زرّ زيني (حلية ناتئة) وأضلع (مساند) تحت حافتها، لم يكتشف لها مثيل حتى الآن في منطقة «أكسوم»؛ وعلى النقيض من ذلك، نجد هنا جرة لها صنبور على شكل رأس انسان، لم يكتشف لها مثيل في أي مكان آخر هي الأخرى.

ويمكننا بفضل المعلومات التي وفرتها لنا الأبحاث حتى الآن تصنيف مجموعات الفخار التي تم العثور عليها وفقاً لفتراتها الزمنية؛ لكن يتحتم القيام بالمزيد من الحفريات حتى يمكن التوصل الى التواريخ الصحيحة لكل مجموعة.

وقد تم العثور في الطبقة الأكسومّية لكل المواقع الأثرية على بعض الخزف المستورد، وأغلبه يتألف من الجرار ذات المقابض والجوانب ذات الأضلع. ويرجع أصل هذه القوارير، التي توجد منها أعداد كبيرة في «أدوليس»، الى منطقة البحر المتوسط. وكانت تستخدم في وقت من الأوقات لدفن الأطفال كما ثبت بالدليل في «أدوليس»، «مطرا» و«أكسوم». وقد تم العثور في الطبقة الأكسومية كذلك على كِسر كثيرة من القوارير الزجاجية، والزجاجات والأكواب والأواني المطلية بطلاء أزرق لامع ترجع الى نهاية الفترة الأكسومية، وأغلبها مستورد من المحيط الهندي. (وهي غالباً ما توجد مكسورة). وهنالك كذلك أكواب صغيرة تبدو كأنها مصنوعة من خزف العصر الروماني (Terra Sigillata) (المطبوع أو المختوم ذي الطلاء الزجاجي اللامع) ومن المحتمل أن تكون مستوردة من مصر.

ويدل توافر الخزف في المواقع الأثرية على استهلاك كميات كبيرة من الأخشاب. ولا بد أن تلك المنطقة كانت تمتلىء بأشجار أكثر من تلك التي توجد بها الآن.

بعض الأدوات الخاصة الأخرى

أدت الأبحاث الأثرية الى الكشف عن أشياء أخرى عديدة، مثل الأختام المصنوعة من الحجر أو من الطين النضيج والمحفور عليها رسوم هندسية أو رسوم جانبية لرؤوس بعض الحيوانات؛ والأدوات الصغيرة المصنوعة من أنواع مختلفة من المعادن؛ ونَرْد مصنوع من الصلصال، وشفرات متكسرة، وتماثيل صغيرة لبعض الحيوانات، وتماثيل أنثوية تشبه تماثيل الاخصاب الصغيرة التي ترجع الى عصور ما قبل التاريخ . . . الخ. ومن الأشياء التي تستحق الاهتمام بشكل خاص مصباح من البرونز وكنز خبيء من حليّ أميط اللثام عنهما في «مطرا».

يتألف أولهما من طاس مستطيل الشكل يرتكز على جذع مصنوع على هيئة صف من أشجار النخيل. وفوق الطاس يوجد زر ناتىء أو سرّة مزينة بشكل يمثل كلباً مطوقاً وهو يصطاد وعلا. وعلى الجانب الآخر من الطاس يوجد رسم بارز لرأس عجل (Bucrane). ويبلغ ارتفاع المصباح ٤١ سنتمتراً، وطول الطّاس ٣١ سنتمتراً. ويمكننا ان نستخلص من الرمزية التي يعبر عنها المصباح – التي يبدو انها تتعلق بالقنص الشعائري، ووجود العجل يعزز ذلك – أن المصباح ربما جلب من جنوب الجزيرة العربية، حيث تم اكتشاف أشياء مماثلة.

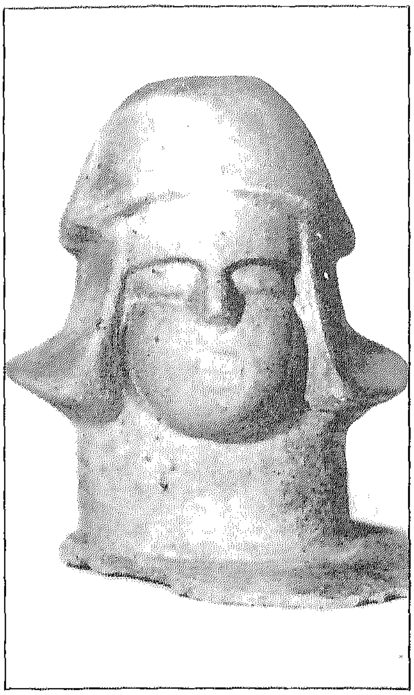
أما الكنز فقد عثر عليه في وعاء من البرونز يبلغ ارتفاعه ١٨ سنتمتراً. وهو يتألف من صليبين وثلاث سلاسل ومشبك صدر (إبروش) وثمانية وستين قرطاً، وأربع وستين حبة عقد، وأربع عشرة قطعة نقدية من عملة الأباطرة الرومانيين من القرنين الثاني والثالث، خاصة أباطرة أسرة أنطونينوس، وقنابتين أو ورقتين زهريتين (Bracteates). وكلّ تلك الأشياء من الذهب، ومحفوظة في حالة جيدة للغاية. ويمكن أن نستخلص من المكان الذي وجدت فيه أنها قد جمعت في القرن السابع. (ولا يمكن أن تكون قطع العملة في هذه الحالة مؤشراً للتاريخ، اذ أنها جميعاً، باستثناء واحدة منها، قد ثبتت بها حلقة، مما يدل على أنها كانت تستخدم للزينة).

في بعض الأحيان يتم العثور في الطبقات الأكسومية على نقوش وأجزاء من محارق العطور الجنوبية العربية من القرن الخامس قبل الميلاد. والحجارة عادة ما تكون متكسرة وقد أعيد استخدامها على يد البنائين الأكسوميين. وتوجد في هذه الطبقات كذلك بعض السلع والأدوات المستوردة من مصر وبلاد النوبة او، كما في «حاولتي»، تماثيل من الطين المحروق التي، كما قال هنري دي كونتينسون (Henri de Contenson)، مكتشف الموقع، «يبدو أنها تمت بصلة الى التماثيل التي تم العثور عليها في الهند في عهدي «ماتوره» و«جوبتا»». ويقول كذلك في هذا الصدد أن «القرنين الأولين بعد الميلاد كانا حقيقة العصر الذهبي للتجار الذين وطدوا دعائم العلاقات بين الهند والبحر الأبيض المتوسط عن طريق البحر الأحمر».

المسكوكات

لقطع العملة الأكسومية أهمية خاصة، اذ أنه من خلالها وحدها أمكن التعرف على أسماء ثمانية عشر ملكاً من ملوك أكسوم.


٢


١


٣

١ : عنق زجاجة
٢ : آنية عطر من الطراز الاسكندري
٣ : ناب فيل

وتمّ العثور على بضعة آلاف من هذه النقود، فالحقول التي تحيط بأكسوم تكشف اثناء حرثها عن العديد منها، لا سيما خلال فصل الامطار حين تجرف المياه التربة. وأغلب تلك القطع مصنوع من البرونز، ويتراوح حجمها من ثمانية الى اثنين وعشرين مليمتراً، ومرسوم عليها صور ملوك، وفي أغلب الأحيان تصور الرؤوس والأكتاف، والأولى متوّجة أو حاسرة وعاهل واحد فقط رسم وهو جالس على عرشه، من جانب واحد. وتحمل النقود رموزاً شتى. فالعملة التي تنتمي الى الملوك الأوائل (انديبيس Endybis) ، و«أفيلاس» (Aphilas)، و«أوساناس الأول» (Ousanas I)، و«وازيبا»، و«عيزانا» تحمل قرصاً أو هلالاً. وكل النقود التي ضربت بعد اعتناق «عيزانا» المسيحية تحمل علامة الصليب، سواء في الوسط أو على الجانب، أو وسط حروف الشعار المكتوب على الحافة. وفي بعض الأحوال، تحيط سنبلتان من القمح بصورة الملك، أو تمثّل سنبلة من القمح منفردة في الوسط؛ كما في عملة «أفيلاس» و«عيزانا» وربما كانت سنابل القمح رمزاً لقوة تضمن خصب الأرض.

والشعارات مكتوبة باللغة الاغريقية أو الاثيوبية، ولا تكتب باللغة الجنوبية العربية أبداً. وتظهر الاغريقية على القطع المبكرة؛ ولا تبدأ الاثيوبية إلا مع عملة «وازيبا». وتختلف صيغة الشعار: «بفضل الله»، «الصحة والسعادة للشعب»، «السلام للشعب»، «سوف ينتصر بإذن المسيح» وهكذا. وبطبيعة الحال، يكتب اسم الملك مصحوباً بلقب «ملك الأكسوميين»، أو «ملك أكسوم».

ولا تحمل النقود تاريخاً، مما يفسح المجال لكثير من الحدس والتخمين فيما يتعلق بتصنيفها. ولا يرجع أقدم انماطها - ربما الذي سكّ في عهد «أنديبيس» (Endybis) - إلى ما قبل القرن الثالث. وأحدثها، وهو ما يحمل اسم «هاتازا» (Hataza) ، يرجع الى القرن الثامن.

الكتابة واللغة

كانت أول الحروف الأبجدية التي استعملت بأثيوبيا، والتي ترجع الى القرن الخامس قبل الميلاد، من أصل جنوبي عربي. وهي لغة تشبه اللهجات الساميّة بجنوب الجزيرة العربية.

وتختلف اللغة الأكسومية عن هذه اللغة الجنوبية العربية وإن تكن مشتقة منها.

وترجع النماذج الأولى للخط الأثيوبي الذي تصح تسميته بهذا الاسم، الى القرن الأول الميلادي. وتتألف الأبجدية من حروف ساكنة (جامدة). والحروف تشبه شكل اللغة العربية الجنوبية، لكنها أخذت تطور أشكالها الخاصة رويداً رويداً. وأصبحت اللغة تكتب من اليسار الى اليمين بعد أن كانت تكتب في اتجاهات متغيرة. وكانت تلك النقوش الأولى تحفر على ألواح من حجر الشست. وهي قليلة العدد وتتضمن عدداً قليلاً من الكلمات. وقد اكتشف اقدمها في «مطرا» بأريتريا. كما عثر على نقش مدون على جسم معدني يرجع الى القرن الثالث. ويتحدث عن الملك «قادارا» (Gadara) ، وهو أول نقش باللغة الاثيوبية معروف لنا، يرد فيه ذكر «أكسوم». وترجع نقوش الملك «عيزانا» العظيمة الى القرن الرابع. وقد ظهرت فيها المقاطع الهجائية لأول مرة والتي اصبحت بعد ذلك بقليل القاعدة المتبعة في الكتابة الاثيوبية. واضيفت علامات حروف العلة (اللينة) تكملة للحروف الساكنة (الجامدة) لتعبر عن نبرات الصوت المختلفة للغة المنطوقة.

ويطلق على تلك اللغة اسم «الجعزية (Geez) كما تكشف عن ذلك النقوش. وهي جزء من المجموعة الجنوبية لأسرة اللغات الساميّة. وهي لغة الأكسوميين.

خلال العهد الأكسومي، كان يستخدم خط كتابة جنوب الجزيرة العربية وخط كتابة الاغريق بقدر محدود. ويوجد الخط العربي الجنوبي حتى في نقوش «كالب» وأحد أبنائه «وازيبا» في القرن السادس. وفي القرن الخامس على وجه التقريب، ترجم الكتاب المقدس الى اللغة «الجعزية».

نشأة الحضارة الأكسومية

قبل خمسة قرون من ميلاد المسيح، قامت حضارة ذات طابع خاص تكشف عن تأثيرات من جنوب الجزيرة على الهضبة الأثيوبية الشمالية. وهي حضارة زراعية في الأساس، ازدهرت خلال القرنين الخامس والرابع قبل الميلاد واضمحلت خلال القرون اللاحقة؛ هذا هو الاستنتاج الذي نصل اليه اذا نحن اخذنا في الاعتبار عدم وجود آثار تدل عليها في الوقت الحالي. بيد أن الثقافة لم تمت، وتم الحفاظ على بعض خصائصها في حضارة أكسوم. ويتبين من بعض ملامح الكتابة واللغة، وشعار ديني، واسم إله (هو عستر Astar الذي ظل يذكر في بعض نقوش «عيزانا») ومن بعض التقاليد المعمارية والزراعية (كاستعمال المحراث المتحرك او الدوار، على سبيل المثال لا الحصر) يتبين أنه في القرون الأولى بعد الميلاد كان هنالك تراث قديم ما يزال حياً. ويجدر بالملاحظة كذلك. وعلى الأخص في الهضبة الشرقية، ان معظم المباني الأكسومية قد أقيمت في عين المواقع التي كانت تشغلها مباني العصر ما قبل الأكسومي. وهذا يدل على طابع الاستمرار والثبات.

ومهما يكن من أمر، فإن الكشوف الأثرية التي ترجع الى القرون الأولى بعد الميلاد تبرز عدة مظاهر جديدة. ومع أن الكتابة المستخدمة كانت مشتقة من كتابة جنوب الجزيرة العربية، فقد طرأت عليها تغييرات كثيرة. والدين هو الآخر قد اعتوره التغيير. فقد اختفت أسماء جميع الآلهة القديمة سوى اسم الاله «عستر» (Astar) . وقد حلت مكانها في نقوش «عيزانا» أسماء الثالوث: «محرم» (Mahrem)، «بحير» (Beher) ، و«مدر» (Meder). وفيما يختص بالعمارة، فبينما تستمر في الحفاظ على خصائصها التي تتلخص في استخدام الحجارة والأخشاب والقواعد السفلية المدرجة، فإنها قد اكتسبت بعض الخصائص الجديدة الأخرى. أما الفخار فقد اختلفت طريقة صنعه وشكله وزخرفته؛ وقد تم العثور كذلك على بعض الخزف المستورد، بينما يوجد الزجاج في جميع المواقع. ونجد الآن مدناً مكان القرى التي كانت قائمة. ويظهر اسم «أكسوم» (لأول مرة في السجلات التاريخية لتلك الفترة)؛ ومما هو أكثر دلالة أن الموقع لم يكن له على ما يبدو تاريخ يذكر قبل القرن الأول.

العوامل الاقتصادية

خلال العهد الأكسومي، كما في القرون السابقة، كانت الزراعة وتربية الماشية هما عماد الحياة الاقتصادية. بيد انه في العهد الأكسومي تطور هذا الوضع في اتجاهين متميزين، ولا ريب أن ذلك كان بسبب عاملين على وجه التخصيص.

تشير كل المصادر القديمة الى أن التجارة البحرية ازدهرت في البحر الأحمر خلال القرنين الأوّلين. وهذا يعزى الى الانتشار الروماني في المنطقة الذي مهد له تطور الملاحة. ونحن نعلم أن وسائل الملاحة تحسنت في بداية القرن الأول. وقد بيّن الربان «هيبالوس» (Hippalus) كيف أن البحارة كان يمكنهم استخدام الرياح على أحسن وجه، وهذا بلا شك قد أعطى قوة دفع للنقل البحري. ويسجل

«سترابون» أنه «في كل سنة، في زمن أغسطس، كانت مائة وعشرون سفينة تبحر من ميوس هورموس (Myos Hormos) ».

وازدادت العلاقات التجارية. وكانت السفن تجلب البضائع وتجعل من الممكن الاتجار مع بلدان البحر الأبيض والهند. وكانت «أدوليس» (Adulis) نقطة الالتقاء للتجارة البحرية - كما كانت، وهذا هو العامل الثاني - ملتقى للتجارة الداخلية. وفي داخل القارة كانت هناك تجارة آخذة في النمو، هي تجارة العاج. بل أن بلينيوس (Plinius)، ومؤلف كتاب «دليل الملاحة» يضعانه على رأس قائمة صادرات «أدوليس». وكانت «أكسوم» هي نقطة التجمع الكبرى للعاج الذي يأتي من اقاليم عديدة. وقد كان سلعة لا غنى عنها للرومان المحبين للبذخ. وكانت الأفيال الأثيوبية ذات قيمة كبيرة منذ عهد «البطالمة»، اذ كانت الجيوش تستخدمها كنوع من الدبابات. وبعد ذلك كانت تصطاد من أجل انيابها. وعندما يتحدث الكتاب القدامى عن «أدوليس» أو «أكسوم»، أو «اثيوبيا» (افريقيا الشرقية) كانوا دائماً ما يولون اهتمامهم للأفيال وسن الفيل. ويذكرون كذلك بعض السلع الأخرى مثل جلود فرس البحر وقرن الكركدن، وذَبْل (دروع) السلاحف والذهب والرقيق والتوابل - الآ أنهم يهتمون اهتماماً خاصاً بالفيلة. وطبقاً لكتاب «دليل الملاحة»، كانت الفيلة تعيش في الداخل، مثل الكركدن، ولكنها كانت في بعض الأحيان «تصطاد على الساحل، بالقرب من أدوليس». وفي عهد «جستنيان» زار «نونوسوس» (Nonnosus) «أكسوم»، ورأى في طريقه قطيعاً يتألف من خمسة آلاف فيل. وسجّل «كوزماس» أن هنالك عدداً وفيراً من الأفيال ذات الأنياب الكبيرة؛ ومن أثيوبيا كانت تلك الأنياب ترسل بالبحر الى الهند، وبلاد فارس وأرض الحميريين وبلاد الروم (الطبوغرافيا أو الخطط المسيحية، ك١١، ف ٣٣). وفي عام ١٩٦٣ عثرت بعثة المعهد الأثيوبي للآثار على سن فيل في الخرائب الأكسومية «بأدوليس». وفي عام ١٩٦٧، اكتشفت أجزاء من تمثال صغير من الطين المحروق يمثل فيلاً في جدران أحد قصور «دنقور».

الجذور الافريقية

نمت حضارة أكسوم في القرن الأول الميلادي؛ وان تكن جذورها ترجع الى عصور ما قبل التاريخ. وتوجد عناصرها الأولى في القرون الخمسة السابقة للميلاد. ويسعى علم الآثار الى تعريف خصائصها المميزة، ولكنه لم يتم حتى الآن سوى التحقق من بعض الجوانب القليلة لهذه المسألة. كما أن تصنيف وترتيب المعلومات أبعد ما يكون عن الاكتمال. والمهمة الأساسية التي يجب الاضطلاع بها في المستقبل هي تحديد العناصر التي تأتي من المؤثرات الخارجية، والعناصر المحلية الأصيلة: اذ أن حضارة أكسوم - كما هو الحال بالنسبة لجميع الحضارات الأخرى - هي نتاج لعملية نمو وتطور ساعدتها الأحوال الجغرافية والظروف التاريخية. ولا شك في أن الاسهام المحلي كان عظيم القدر، اذ لا شك في أن الحضارة الأكسومية هي قبل كل شيء حصيلة جهود شعب ما زالت هويته العرقية تتكشف رويداً رويداً من خلال دراسة النقوش واللغة والتقاليد. وما زال علم الآثار يزيح النقاب قليلاً قليلاً عن الطابع الفريد لانجازات أكسوم المادية. وما زال الكثير يتطلب البحث. وسوف نركز البحث في المستقبل على تفسير معنى الأدلة الأثرية التي تم اخراجها من الأرض. ولكننا نعلم مسبقاً أن حضارة أكسوم تدين بمميزاتها الخاصة لأصولها الافريقية.

الفصل الخامس عشر

أكسوم: النظام السياسي والاقتصاد والثقافة، القرن الأول حتى القرن الرابع

بقلم: يوري م. كوبيسكانوف

تسجل المصادر التاريخية للقرنين الثاني والثالث الازدهار السريع لدولة افريقية جديدة هي «أكسوم» وكان «كلوديوس بطليموس» (في حوالى منتصف القرن الثاني) أول من أورد ذكر الأكسوميين كأحد شعوب أثيوبيا، يعرف مدينتي مروى وأدوليس ولكنه لا يعرف مدينة أكسوم. ويشبه الوضع السائد في شمال شرق افريقيا ذلك الوضع الذي وصفه هيليودوروس (Heliodoros) الكاتب الاغريقي - الفينيقي الذي عاش في القرن الثالث، في روايته «أثيوبيكا» (Aethiopica)، حيث يصف وصول السفراء الأكسوميين لا كرعايا خاضعين للجزية، بل كأصدقاء وحلفاء لملك مروى. وفي كتاب «الطواف في البحر الأحمر» «دليل الملاحة» حيث يمكن للمرء أن يجد معلومات عن الحقب المختلفة منذ عام ١٠٥ حتى بداية القرن الثالث الميلادي، يرد ذكر «عاصمة من يطلق عليهم اسم الأكسوميين» كمدينة قليلة الشهرة، ومملكة حاكمها زوسكاليس (Zoscales) (من الواضح أن المقصود هو «زا-هيكالي» (Za-Hekale) الذي نلتقي باسمه في قائمة أسماء ملوك أكسوم) كدولة حديثة النشوء. كان زوسكاليس يسيطر على كل الساحل الأريتري للبحر الأحمر، أما صحراء البجة فقد كانت واقعة تحت سيطرة مروى. ويذكرنا التوازن بين هاتين القوتين - عاصمة المرويين القديمة، وعاصمة الأكسوميين الحديثة النشأة - برواية هيليودوروس المشار اليها. ولا يشير كتاب «دليل الملاحة» الى توسع الأكسوميين في جنوب الجزيرة العربية. وكانت أول المصادر التي تحدثت عن ذلك هي الكتابات السبئية في أواخر القرن الثاني واوائل القرن الثالث التي تتحدث عن الاحباش او الأكسوميين الذين شنوا حرباً على اليمن واحتلوا بعض أراضيها. ويبدو أن الملكين الأكسوميين «قدارا» وابنه كانا أقوى الحكام في جنوب الجزيرة العربية والقائدين الحقيقيين للحلف المضاد للسبئيين، وذلك ما بين عامي

١٨٣ و٢١٣ . وفي نهاية القرن الثالث والسنوات الأولى للقرن الرابع غزا ملك آخر من أكسوم، هو «عزبه» جنوب الجزيرة العربية(١).

تبعاً لذلك، وحّد الحِمْيريّون بلادهم. لكن الملوك الأكسوميين فرضوا سلطانهم عليها كما يتبين من ألقابهم.

وقد سجلت وثيقتان يونانيتان حروباً أخرى في جنوب الجزيرة العربية اشترك فيها ملوك أكسوميون لم ترد أسماؤهم أو تواريخ حكمهم. وقد نسخ أطول هاتين الوثيقتين كوزماس انديكوبليوستيس (Cosmas Indicopleustes) في منتصف القرن السادس. وقد احتل صاحبها البقاع الساحلية من اليمن «حتى أرض السبئيين»، ومناطق شاسعة في افريقيا «من حدود مصر» حتى أرض البخور في الصومال(٢).

وبحلول عام ٢٧٠ بلغت شهرة الدولة الجديدة أرض الفرس. اذ ورد في كتاب النبي الفارسي «ماني» (Mani) (٢١٦ - ٢٧٦) المعروف باسم «كيفالايا» (Kephalaia)- أي كتاب «العقائد» - أن أكسوم هي احدى أقوى أربع امبراطوريات في العالم.

ولكن ما هي الموارد والنظم الادارية التي مكنت أكسوم من احراز مثل ذلك النجاح؟

الحرف والمهن

من الناحية العامة، كان أغلب الأكسوميين يمارسون الزراعة وتربية الماشية - وهي ذات المهن التي يزاولها فلاحو تقرى - تجرا الآن. وكانوا يقيمون المصاطب على منحدرات الجبال ويقومون بريّها بمياه النهيرات المتدفقة من الجبال والتي يقومون بتوجيهها صوب الحقول. وعند سفوح الجبال وفي السهول كانوا يشيدون الخزانات والحياض لحفظ ماء المطر، ويحفرون قنوات الري. وتبين الوثائق أن القمح(٣) وبعض الحبوب الأخرى كانت تزرع، كما أن زراعة الكروم كانت تمارس هي الأخرى. كما كانت تستخدم المحاريث التي تجرها الثيران، وكانوا يربون قطعاناً كبيرة من الأبقار والضأن والأغنام. وكانت الحيوانات المستأنسة الأخرى هي الحمير والبغال. وكالمرويين تماماً، تعلّم الأكسوميون صيد الأفيال وترويضها، الاّ أنها كانت تستخدم فقط في البلاط الملكي(٤). ويتبين من النقوش كذلك أن طعامهم كان يتكون من فطائر القمح الرقيقة، وشراب من نوع الجعة، والنبيذ، وشراب من ماء وعسل، والعسل، واللحم، والزبد والزيوت النباتية(٥).

(١) النقوش الأساسية في Corpus Inscriptionum semiticarum ab Academiae Inscriptionum... Pars quarta. Parisiis, 1889 - 1929, Jamme A., Baltimore, , 1962. Ryckmans, G. Le Museon (Louvain) 1955, t. LXIX, 1956. لبعض التعليقات على النقوش انظر ريكمانز، ج، جام، أ. (ليدن) ١٩٦٤. ولسرد الأحداث، انظر أيضاً هـ. فون فيسمان (H.Von Wissmann) جمير، ١٩٦٤. وللتواريخ، انظر لوندين، أ (A. Loundine) وريكمانز، ج (G. Ryckmans) لوفان، ١٩٦٤.

(٢) E.O. Winstedt, Cambridge, 1909, pp. 74-77

(٣) D.A.E.4, 21; D.A.E.6. 10; D.A.E.7, 12 E. Littmann, Enno. Berlin, 1913. Drewes (Drewes A.J. Leiden, 1962, p. 30 et suiv).

(٤) L.A. Dindorff, Bonnae, 1831, pp. 457-458; Winstedt E.O. Cambridge, 1909, p. 324.

(٥) D.A.E.4, 13-21, D.A.E.6, 7-11; D.A.E.7, 9-13; J. Drewes 1962, p. 73.

وقد وصلت مهن الحدادة وأعمال الحديد والفخار والبناء بالحجارة والنحت الخ. . . الى مستوى رفيع من المهارة والاتقان. وكان آخر ابتكار تقني هو استخدام الأدوات الحديدية التي انتشرت أكثر مما كانت عليه في الألف الأول قبل الميلاد. وقد أثر ذلك بالضرورة في تطوير الزراعة والصناعات والعلوم العسكرية وكان الابتكار الآخر هو استخدام خليط لاصق (كالاسمنت) في أعمال البناء، مما أدى الى تطوير ضرب من المباني الحجرية والخشبية.

النظام السياسي

ربما كانت أكسوم في البداية امارة صارت بمرور الزمن الاقليم الرئيسي في مملكة اقطاعية. وقد نسب التاريخ الى حكامها انجازات عديدة وكان اكثرها الحاحاً بسط سيطرتهم على دويلات شمال أثيوبيا المفككة ودمجها في مملكة واحدة. وكان النجاح في ذلك يعتمد على قوة الحاكم الأكسومي والدرجة التي يتفوق بها على أمراء اثيوبيا القديمة. وكان يحدث أحياناً عندما يأتي حاكم جديد الى العرش أن يجد لزاماً عليه أن يفتتح حكمه بحملة عسكرية على كافة أقاليم بلاده كيما يفرض على الأقل سلطانه الاسمى على الامارات. ومع أن هذا الاجراء قد اتخذه ملك من ملوك أكسوم مجهول الاسم وهو من شيد الأثر المسمى «نصب ادوليس» (Monumentum Adulitanum) فإن «عيزانا» قد اضطر الى أن يؤكد سلطته من جديد في بداية عهده(٦).

وكان تأسيس المملكة نواة لتأسيس امبراطورية. ومنذ نهاية القرن الثاني وحتى بداية القرن الرابع، اشتركت «أكسوم» في الصراعات الحربية والدبلوماسية التي دارت بين دويلات جنوب الجزيرة العربية. وعقب ذلك، استولت أكسوم على الأقاليم الواقعة بين هضبة تقرى (Tigre) ووادي النيل. وفي القرن الرابع، احتلوا مملكة مروى التي كانت قد اضمحلت في ذلك الوقت.
وهكذا تمّ تشييد مملكة تشمل الأراضي الزراعية الخصبة في شمال اثيوبيا والسودان وجنوب الجزيرة العربية، وتضم كل المجموعات البشرية التي كانت تقطن بالبلاد الواقعة فيما وراء الحدود الجنوبية للامبراطورية الرومانية، ما بين الصحراء الكبرى الى الغرب وصحراء الربع الخالي العربية الداخلية الى الشرق.

كانت الدولة تنقسم الى «أكسوم» الأصلية، والدويلات التي تخضع لها والتي كان حكامها خاضعين لملك ملوك «أكسوم» ويدفعون لهم الجزية. وكان الاغريق يطلقون على عاهل «أكسوم» لقب «ملك» (Basileus) (وكان أثناسيوس الأكبر (Athanasius the Great) وفيلوستورجيوس (Philostorgius) هما الوحيدين اللذين أطلقا عليه لقب طاغية (Tyrannus)، وكان الملوك الذين يدورون في فلك ملوك «أكسوم» يطلق عليهم لقب «حكام» (Archontes) أو طغاة (Tyranni) أو زعماء قبائل (Ethnarchs). وقد أسبغ الكتاب السوريون مثل يوحنا الافيسوسي (John of Ephesus) وسيمون البيت – أرسامي (Simon of Beth-Arsam)، ومؤلف «كتاب الحِميْريين» (Book of the Himyarites) لقب ملك (Mlk') على «ملك ملوك» أكسوم، وكذلك على ملكي حِميَر وعلوه اللذين كانا خاضعين له. أما اللقب

(٦) E.O. Winstedt, Cambridge, 1909 pp. 72-77; D.A.E.8; D.A.E.,9.

الأكسومي لكلّ اولئك فقد كان «نجاشي» (Negus). ولم تكن تستخدم الألفاظ المميزة إلا في أحوال خاصة عندما كان الكاتب يخاطب قارئاً أجنبياً(٧).

وكان لكل «شعب» ومملكة، وامارة، ومدينة، وقبيلة «نجاشيها»(٨) الخاص بها. وقد ورد ذكر نجاشيين خاصين للجيش (نجست سراويت) (Nägästa Säräwit) (D.A.E.9, 13) وبالاضافة الى قيادة الجيوش في وقت الحرب، كان هؤلاء النجاشيون يقومون بالاشراف على عمليات البناء(٩). ومن بين اولئك النجاشيين تذكر النقوش أسماء ملوك اربع قبائل من البجة، يحكم كل منهم حوالى ألف ومائة من الرعايا (D.A.4., 19-20; D.A.E., 7-17; D.A.7., 6-18)، وحاكم امارة أقابو (Agabo)، الذي لا يزيد عدد رعاياه عن مائتين او مائتين وخمسة وسبعين رجلاً راشداً أو عدد اجمالي يتراوح بين ألف والف وخمسمائة نسمة.

وكان الملوك التابعون يعيشون في منطقة هضبة «تقري» وفي اقليم خليج «زولا» («أقاقو» و«ميتين» و«أقامي»... الخ)، وما وراء نهر «تكازي» و«لقاعت» و«سيمين» و«آقو» في الأقاليم الجافة حول مرتفعات أقرذات الاثيوبية وكذلك في شبه الجزيرة العربية. وبعد انتصار «عيزانا»، امتدت تلك الدويلات الى أرض النوبة العليا، ما بين الشلال الرابع وسنار، وكان لبعض الملوك التابعين (مثل ملوك جنوب الجزيرة العربية وأرض النوبة العليا) ملوك آخرون تابعون لهم أيضاً، وكان أولئك من الحكام الوراثيين ذوي المرتبة الدنيا. وقد تم على ذلك المنوال خلق هيئة حاكمة هرمية السلطة، ابتداء من ملك ملوك «أكسوم» ونزولاً الى زعماء المجتمعات الصغيرة المتفرقة.

وقد كانت هنالك طريقتان لجمع الجزية، فإما أن يرسل الملوك التابعون (مثل أبرهة ملك حِمْيَر) جزية سنوية الى «أكسوم»، أو أن يجول ملك «أكسوم» مصحوباً بحاشية كبيرة في انحاء مملكته ليجمع الجزية والزاد لمرافقيه أثناء تجواله. وكان الملوك الأتباع يجمعون الجزية على ذات المنوال. وكان التوفيق بين هاتين الطريقتين يتم بأن يسلم الملوك التابعون الجزية للملك «أكسوم» عند أماكن معينة على طريقه.

ولا تشتمل المصادر على أية معلومات عن نظام «أكسوم» الاداري، الذي يبدو أنه كان نظاماً غير متطور. وكان أقرباء الملك يلعبون دوراً كبيراً في ادارة دفة الأمور. وعليه فإنه من المفهوم أن يرسل الامبراطور الروماني قسطنطين الثاني خطاباته، ليس للملك «عيزانا» فحسب، بل لأخيه شعيزانا (Séazana) كذلك(١٠). وكانت قيادة الحملات العسكرية توكل الى الملك نفسه، أو لأخيه(١١) أو لأحد أقاربه(١٢). وكانت قيادة الجيوش الأقل أهمية توكل الى ملوك الجيوش، وكانت هذه تؤلف من

(٧) على سبيل المثال، في النص الأغريقي لنقوش «عيزانا» (Ezana) الثنائية اللغة (D.A.E. 4 +6 +7)يطلق على حاكم «أكسوم» لقب «ملك الملوك» بالاضافة الى لقب «ملك الأكسوميين» وبعض الألقاب الأخرى، بينما يلقب حكام البجة «بالملوك الصغار». وفي النص السبئي المنحول، يشار الى ملك أكسوم باللفظ السبئي الأصيل «ملك» (mlk) – بينما يطلق على حكام البجة اللقب الأثيوبي «نجاشي» (Nägäst) وفي النقوش الاغريقية التي تحكي غزواته يلقب «عيزانا» (Ezana) نفسه «ملك» وليس «ملك الملوك»، ربما لأسباب تتعلق بسياسته الخارجية، انظر: Caquot, André and Nautin, Pierre, «Une nouvelle inscription grecque d'Ezana, roi d'Axoum; Description et étude de l'inscription grecque.» Le Journal des Savants, (Paris), 1970, pp. 270-271. ولكن حتى هذا اللقب يدل في حد ذاته على مرتبة بالغة العلو، تسبغ حتى على أباطرة الرومان أنفسهم: D.A.E. 9, 13. Nägastat Sarawit.

(٨) D.A.E.8, 7-12, 27,29; D.A.E. 9.9-12, (c) D.A.E.11.36; A.J. Drewes 1962, p.30 ff 65-67; R. Schneider, 1974, pp. 771, 775.

(٩) Drewes, A.J., Leiden, 1962, p.65. Vasilyev, A.A., 1907, P. 63-64.

(١٠) J.P. Migne, Paris, 1884, p. 635

(١١) D.A.E. 4; 9; D.A.E.6;3; D.A.E.7,5.

(١٢) Procopius. 1976, p. 275

محاربين من الجماعات أو القبائل المختلفة، وكانت عبارة «شعبي» تعني لدى ملوك أكسوم «جيشي»(١٣).

وكان حكام أكسوم يضعون القبائل المحاربة على طول حدود دولتهم: الأحباش في جنوب الجزيرة العربية(١٤). وأربع قبائل من البجة في اقليم ماتليا أو في أرض بيرن التي ربما كانت تقع في اقليم بيقيدير (D.A.E. 4 +6 + 7.). وبالاضافة الى ذلك فإن ملك الملوك كان يحيط نفسه بحاشية مسلحة، تتكون في وقت السلم من بلاطه، أما في وقت الحرب فقد كانت تتكون من حرسه (كما في القرن الرابع عشر بأثيوبيا). ويبدو أن الموظفين بالقصر كانوا يقومون بمهام الدولة الرسمية، كأن يحملوا الرسائل الى الملوك الآخرين على سبيل المثال. وعلى سبيل المثال تمت ترقية السوريين - المتأغرقين «آيديسيوس» (Aedesius) وفرومنتيوس (Frumentius)، اللذين كانا عبدين ملكيين، الى وظيفتي ساقي، وكاتب وأمين خزائن للملك «أكسوم»، على التوالي(١٥).

والقليل الذي نعرفه عن تاريخ هذه المملكة لا يمكننا من معرفة تطور نظامها السياسي. ومع ذلك ففي وسعنا أن نفترض أنه بازدهار نظام الملكية في «أكسوم» حدث في نظامها الاداري نوع من المركزية. وفي القرن الرابع انحصر نشاط «عيزانا» في اخضاع وأسر الملوك التابعين المتمردين الذين كانوا قد ورثوا الحكم في امارات مختلفة... لكن بحلول القرن السادس، كان ملك «أكسوم» يقوم بتعيين ملوك جنوب الجزيرة العربية كما كان الحال في الماضي، مثل: «معدي كرب» و«سام يفع أشوع» (Sumyafa' Aswa') بحمير، وابن حارث (ابن القديس أريثا) بنجران. كما أن ملك الملوك قام بتأسيس مستوطنات للجنود في الممالك التابعة له، مؤمناً بذلك خضوع قادتهم المباشر «لأكسوم».

ومن الممكن دراسة القوانين العامة التي كانت سارية في المملكة من السجلات القضائية الأولى لأكسوم: في القوانين الأربعة من السفرا Safra (Drewes 73).

التجارة والسياسة التجارية

كان الدور الذي تلعبه «أكسوم» في التجارة الدولية هو دور دولة تجارية من الطراز الأول، كما تدل على ذلك العملة الذهبية والفضية والنحاسية التي كانت تضرب فيها لذلك الغرض. وكانت أكسوم أول دولة افريقية مدارية تقوم بضرب عملة خاصة بها، اذ أنّه لم تكن توجد أية عملة في أية دولة من الدول التابعة لها، بما فيها حِمير وعلوه. ولم يكن ضرب العملة، خاصة الذهبية منها، نشاطاً تجارياً بل سياسياً كذلك، يعلن للعالم كله استقلال ورفاهية «أكسوم»، وأسماء ملوكها وشعارات حكمهم. وكان أول ملك أكسومي روّج عملته الخاصة به وبدأ التداول بها هو اندييس (Endybis) (في النصف الثاني من القرن الثالث). وكان النظام النقدي الأكسومي شبيهاً بالنظام النقدي البيزنطي، إذ أن العملة الأكسومية كانت مشابهة للعملة البيزنطية المعاصرة لها من حيث الوزن والقاعدة النقدية والشكل.

(١٣) D.A.E.9, 12-34, D.A.E.10, 9-10 and 23; D.A.E.11, 18, 30-35, 37-8; Caquot, André, 1965, pp. 223-225; Schneider Roger, pp. 771-774, 778, 781, 783-784, 785, op. cit. D.A.E.4, D.A.E.6, D.A.E.7.

(١٤) Procopius, pp. 274, Moberg, Axel Lund, 1924, p. 27, Bruxelles, 1881, p.7, Ry 507,4, Ryckmans, Conzague, 1953, Louvoin.

(١٥) Mommsen, Theodor. Eusebrius, Leipzig, 1908, p. 972-973.

وعلى الرغم من أن الانتاج المنزلي كان هو الأغلب، فإنه كانت هنالك صلة بين الأهمية الانتاجية والتجارية لأكسوم. وكانت تلك الصلة تميل الى أن تكون غير مباشرة أكثر منها مباشرة، وكان يتم الحفاظ عليها بواسطة البناء الفوقي السياسي (انظر فيما يلي). ويمكن أن نحصل على فكرة عن السلع التي كانت تصدرها «أكسوم» بالاطلاع على روايات الكتاب الرومان - البيزنطيين. يشير «بلينيوس» الى شحنات من موانىء أثيوبيا على البحر الأحمر تشمل السبج (Obsidian) والعاج وقرون الخرتيت وجلود فرس البحر والقرود، وكذلك الرقيق. ويحتوي كتاب «دليل الملاحة في البحر الأحمر». على قائمة السلع التي كانت تصدر من أدوليس وتشتمل على السلاحف والسبج (الزجاج البركاني الأسود)، والعاج، وقرون الخرتيت. ويشير «نونوسيوس» (Nonnosius) الى أن التبر كان أحد تلك الصادرات الأكسومية. أما «كوزماس انديكوبليوستيس» (Cosmas Indicopleustes) فيقول إن العطور والذهب والعاج والحيوانات كانت تصدر الى خارج أثيوبيا، وأن الأكسوميين كانوا يحصلون على الزمرد من البليميين (Blemmyes) في صحراء النوبة ويصدرونه إلى شمال الهند لتسويقه هناك. ويقول كذلك إنه قد اشترى قرن خرتيت من اثيوبيا[١٦].

والبضائع التي تم حصرها، باستثناء الذهب والزمرد، كلها من الأشياء التي يتم الحصول عليها عن طريق الصيد والقنص والجمع. ولا ترد الاشارة الى المنتجات الزراعية ومنتجات الألبان، والأدوات التي يقوم بانتاجها الصنّاع والحرفيون. واذا كانت مثل هذه السلع قد جرى تصديرها، فلا بد أن ذلك كان يتم بكميات محدودة، ولجهات تقع داخل حدود الامبراطورية الرومانية - البيزنطية. ومن الجائز أن القمح الأثيوبي الشهير كان يصدر الى البلدان المجاورة، ولو أن اول معلومات في هذا الصدد يكتنفها الغموض، وترجع الى القرن العاشر. وخلافاً لذلك، وطبقاً لما جاء في كتاب «دليل الملاحة في البحر الأحمر» فإن «أدوليس» كانت تستورد بعض المواد الغذائية مثل كميات قليلة من النبيذ وزيت زيتون اللاذقية (السوري) والايطالي، أما موانىء القرن الافريقي فإنها كانت تستورد الحبوب والنبيذ وعصير أعناب «ديوسبوليس الصغرى» (هوّ في مصر الوسطى) (Diospolis Parva) من مصر، وتستورد من الهند القمح والأرز والبوسمور (البسماتي نوع من الارز) وزيت السمسم، وقصب السكر. ويبدو أن بعض تلك المنتجات، كقصب السكر مثلاً، كانت ترسل الى أدوليس كذلك[١٧].

وفي تلك الأزمان، لم يكن ليخطر على البال شحن الأبقار الى مناطق نائية. ويخبرنا «كوزماس انديكوبليوستيس» أن الأكسوميين كانوا يتجرون بالثيران والملح والحديد مع ساسو (Sasu)، حيث توجد مناجم الذهب (من الواضح انها تقع في جنوب غرب اثيوبيا). ومن المحتمل أن تكون واقعة مقايضة قطعة من اللحم بسبائك من الذهب قد وجدت طريقها الى كتاب «كوزماس» من احدى الحكايات الواسعة الانتشار[١٨]. وهنالك روايات متفرقة عن الحصول على عينات من المصنوعات الحديدية الأكسومية في الجزيرة العربية: منها مصباح من المرمر[١٩]، وقطع من العملة ورمح «سمهري» مشار اليه في معلقة الشاعر الجاهلي لبيد[٢٠].

(١٦) Cosmas: Periplus mari Erythreae 3-6. Dindorff. L.A. The Christian Topography of Cosmas..., pp.69, 320, 322, 324, 325; Dindorff, L.A. Lipsiae, 1870, p. 474.

(١٧) Periplus... 6, 7, 17.

(١٨) Windstedt. The Christian Topography of Cosmas..., pp. 71-72.

(١٩) Grohmann, A. pp. 410-422

(٢٠) Huber, A. Leiden, 1891, p.74.



١



٢

١ : عملة ذهبية من عهد الملك اندبيس
(القرن الثالث الميلادي)
٢ : عملة ذهبية من عهد الملك أوساناس

بيد أنه في الامكان معرفة الكثير عن السلع التي كانت تستوردها «أكسوم» من خارج حدودها والتي كان يقوم بصنعها حرفيون أجانب. في معرض حديثه عن ممتلكات الملك زوسكاليس (Zoscales)، يقول كتاب «دليل الملاحة في البحر الأحمر»:

وكانوا يجلبون الى تلك الأنحاء شملة من قماش خشن غير ممشط يصنع في مصر للبرابرة، وعباءة (Abolla) مقلدة مصبوغة ومنشفة (Lention)مقصوصة الطرفين والعديد منّ الأدوات المصنوعة من الزجاج الشفاف، وأوانيّ من حجر فاخر (Murrha) (وهو مشكل من معجون زجاجي لامع)، وهذه كانت تصنع في ديوسبوليس الصغرى (بلدة هِوّ)، بالاضافة الى النحاس الأصفر والنحاس والحديد. ومن الأدوات التي كانت تجلب الى هنالك نجد الفؤوس، والمدى، والأوعية النحاسية المستديرة الضخمة، وبعض الدنانير (Denarii) لاستعمال بعض الأجانب المقيمين هناك، ومقادير قليلة من النبيذ وزيت الزيتون اللاذقي والايطالي. وهم يجلبون كذلك أواني فضية وذهبية مصنوعة على الطريقة المحلية لاستعمال الملك نفسه. وليست الملابس الخارجية التي يجلبونها مثل العباءات (Abollae) والبرانس (Kanakes) باهظة الثمن. أما من الهند الوسطى فيجلبون الحديد والصلب الهندي والمنسوجات القطنية (خاصة الأصناف الفضفاضة الخشنة التي تعرف باسم مولوخينا (Molokhina) وسميقماتوغينا (Smygmatoghena) والأحزمة والمعاطف وبعض المولوخينات السيندونية (أثواب وأقمشة ذات الوان زاهية).

وربما تكون تلك القائمة قد أغفلت بعض البضائع التي كانت تجلب الى أثيوبيا الأكسومية. فعلى سبيل المثال، فإن كتاب «دليل الملاحة» يشير الى ان «كميات صغيرة من الصفيح» وبعض المصنوعات الزجاجية، وبعض القمصان، والشملات الصوفية المختلفة التي ترضي ذوق البرابرة، والعباءات الصوفية من منتجات أرسينوي (بالفيوم)، كانت تصل الى موانىء القرن الافريقي. كما كانت المواد المعدنية والزجاجية المصنوعة في المخا في جنوب الجزيرة العربية[٢١] تجلب الى أزانيا.

وبمرور الزمن، طرأ تغيّر على الاتجاه العام للواردات. ففي أواخر القرن الخامس وأوائل القرن السادس، يبدو أن الحظر المفروض من قبل الأباطرة الرومانيين على تصدير المعادن النفيسة والحديد والمنتجات الغذائية «الى بلاد الحميريين والأكسوميين»[٢٢] قد تسبب في تغيير محسوس في قائمة الواردات الرومانية البيزنطية الى «أدوليس» ولو أن ذلك الحظر قد خفف خلال التحالف البيزنطي – الأكسومي في عهد «جستنيان». وكان الأكسوميون يتحصلون على البضائع التي حظر خروجها من حدود الأمبراطورية البيزنطية من مصادر أخرى.

وبوجه عام، فإن الاكتشافات الأثرية تؤكد وتكمل المعلومات التي وردت في كتاب «دليل الملاحة»، إذ أمكن العثور في الحفريات التي تمت في الطبقات التي ترجع الى تلك الفترة في «أكسوم» و«أدوليس» و«مطرا» وفي حاويلا أسيرو (في اقليم «أسبي ديرا» و«دبري دامو») على مخلفات من تلك الفترة تعود الى أصل غير اثيوبي، وربما كان بعضها قد جاء الى هناك عن طريق التجارة. وكانت معظم المصنوعات الأجنبية تجيء من الامبراطورية الرومانية – البيزنطية، خاصة من مصر، وكانت تشتمل على المصنوعات الخزفية التي لا بد وأنها كانت تستخدم كقوارير للنبيذ او الزيت (Amphorae)، وقطع

(٢١) Periplus... 6, 7, 17.

(٢٢) Codex Theodosianus, XII, 2, 12.

الزجاج، وحلية ذهبية، وعقود قطع العملة الفضية الرومية (مطرا)، وماسة جميلة (أدوليس)، ومصابيح من البرونز وميزان وأوزان من نفس المعدن (أدوليس وأكسوم)[٢٣].

كما تمّ العثور على بعض الأشياء ذات الأصل الهندي: ختم في «أدوليس»[٢٤]. وتماثيل من الطين النضيج في أكسوم[٢٥] ومائة وأربع قطع عملة ذهبية ترجع الى عهد الملوك الكوشانيين (Kushana) قبل سنة ٢٠٠ في دبري دامو[٢٦]. وقطع عملة فضية وبرونزية من بلاد العرب قبل الاسلامية وجدت عن طريق الصدفة في اريتريا وأثناء الحفريات في أكسوم[٢٧] ومصباح من البرونز في مطرا [٢٦]. أما الأشياء ذات الصنع المروي فهي عديدة: كِسَر من الأواني الخزفية التي تم العثور عليها في أمكنة متفرقة، في شكل تماثيل صغيرة من القاشاني للاله «حتحور» والاله «بتاح» في أكسوم ومن عقيق أحمر للاله «حورس» في مطرا[٢٩]. والمسلات المنحوت عليها شكل «حورس» وهو على ظهر تمساح (رآها في أكسوم ووصفها جيمس بروس (James Bruce) في القرن الثامن عشر[٣٠]) وأوعية من البرونز وجدت في حاويلا أسّيرو[٣١]. وبعض تلك الأشياء ربما تكون قد وصلت الى اثيوبيا من السودان عن طريق التجارة، ولكن ربما يكون معظمها من غنيمة الحروب او الجزية. وأغلب الظن أن الأكسوميين كانوا يجلبون قدراً كبيراً من المنتجات القطنية والحديد الذي يحتاجون اليه من منطقة مروى. وكانت بعض الأقطار الافريقية الأخرى ترسل الذهب الى أكسوم من ساسو وربما من أرض البجة، والعطور والتوابل من شمال الصومال.

وقد ساهم توحيد الأكسوميين لجزء كبير من شمال شرقي افريقيا في اثراء سادتهم، ووجد التجار الروم والعرب والهنود في هؤلاء السادة الأثرياء عملاء لسلعهم الكمالية، التي كانت تدر ربحاً أكثر من سواها.

وكانت بعض البضائع الوارد بيانها في كتاب «دليل الملاحة» المنسوب لأريانوس الزائف (Pseudo - Arrianus) مقصورة، كما أشرنا من قبل، على استعمال ملك «أكسوم». وفي بداية القرن الثالث، يبدو أن التجار الأجانب كانوا ملزمين بإرسال هدايا تتناسب مع مقدار ثروتهم الى ملك «أكسوم» وحاكم «أدوليس»، وفي أيام «اريانوس الزائف»، كانت تلك الهدايا تتكون من الأواني الذهبية والفضية غير باهظة الثمن، والعباءات والقمصان الخشنة الملمس. ولعل من المثير للاهتمام أنه في حوالى عام ٥٢٤ أرسل بطريرك الاسكندرية وعاء فضياً كهدية إلى ملك «أكسوم»[٣٢]. ولا شك في أن ازدياد الثراء وانتشار الترف والرخاء في بلاط «أكسوم» (طبقاً لروايات «كوزماس» (Cosmas) و«يوحنا مالالاس»

(٢٣) Anfray, F, Annequin, G. Matara. 1965, p. 68. Contenson, Henri de ... 1963.

(٢٤) Paribeni, R. Roma, 1908, fig. 49.

(٢٥) Contenson , Henri de..., 1965, p. 45-46, pl. XLVII - XLVIII.

(٢٦) Mordini, A. roma, 1959.

(٢٧) Gaudio, A. (Asmara), 1953, p. 4—5. Contenson, Henri, de ... Les Fouilles à Axoum, en 1958, p.8, pl. XIVe; p.12, pl. XIVe.

(٢٨) Anfray, F. Matara. t. VII, 1967, p. 46. s.

(٢٩) Contenson, Henri de..., Les Fouilles à Haoulti en 1959, p. 43; Leclant, J. 1965, p. 86-87, pl. LXVII.

(٣٠) Walle, B. Van de ... 1953, p. 238-247.

(٣١) Doresse, J. Roma, 1959, Academia Nazionale dei Lincei, p. 253.

(٣٢) Martyrium Sancti Arethae et Sociorun in civitate Negram, Acta sanctorum,X, Octobris; C.X Bruxelles, 1861, p. 243.

(John Malalas) و«نونوسيوس» (Nonnosius))كانت تعني ان البلاط كان يتوقع هدايا اجود نوعاً وأغلى قيمة، ومن المحتمل أن يكون قد وضع في ذلك العهد نظام للجمارك.

ولم تؤد المكاسب الناتجة عن انشاء مملكة «أكسوم» القوية الى اثراء طبقة النبلاء فحسب، بل كذلك كل الجماعة العرقية المتميزة من المواطنين الأكسوميين الذين كانوا يشكلون مجتمع العاصمة. وكان الكثير من البضائع المشار اليها في كتاب «دليل الملاحة» يستورد لطبقات من السكان أعرض وأكثر شمولاً. وكانت الأساور التي يصنعها الصاغة المحليون من النحاس الأصفر المستورد، والرماح المصنوعة من الحديد المستورد والأدوات المعدنية الأخرى التي تستعمل محلياً، بالاضافة الى الثياب المصنوعة من الأقمشة الأجنبية، كلّ هذه كانت تحوّل الى مصنوعات يمكن بيعها في الأسواق المحلية، وتصبح بذلك في متناول أهل الحضر وأهل الريف. وأخيراً، فقد استقر التجار الأجانب والجاليات الأجنبية الأخرى في أدوليس واكسوم وغيرهما من المدن الأثيوبية، وكانوا يجلبون كميات من البضائع المستوردة وكان النبيذ وزيت الزيتون يجدان رواجاً خاصة بين تلك الجاليات. ومن الجليّ أن الأدوات التي عثر عليها في الحفريات الأثرية مثل الميزان والأوزان والأختام وقطع العملة الكوشانية والرومية هي من مخلفات التجار الرومانيين - البيزنطيين والهنود الذين كانوا يعيشون في أدوليس وأكسوم. ويقول كتاب «دليل الملاحة» بوضوح إن الدنانير كانت تجلب الى أدوليس من أجل الأجانب الذين كانوا يعيشون هناك، أي اولئك الذين لم يكونوا رعايا افريقيين أو رومانيين. وكما هو معروف فإن نزوح العملة الرومانية الى جنوب الجزيرة العربية والهند وسيلان وبعض البلدان الشرقية الأخرى، قد اتخذ ابعاداً مأسوية. وربما كان الأجانب الذين يجلبون الدنانير من طبقة التجار الهنود أو السيلانيين او العرب. وتذكر الروايات العربية ان من بين اولئك الذين كانوا يتاجرون مع مملكة «أكسوم» بني قريش الذين كانوا يأتون من مكّة، ويتحدث «كوزماس انديكوبليوستيس» عن بعض الذين كانوا يأتون من جزيرة «سوقطرة» (Socotra) كما يتحدث كالليستنيس الزائف (Pseudo - Callisthenes)عن بعض الهنود. وأكثر ما يدل على أهمية التجارة مع المدن والبلدان الأجنبية بالنسبة للتجارة الأثيوبية في اوائل القرن السادس، عدد السفن التي وصلت الى ميناء قابازا (Gabaza) في صيف عام ٥٢٥. ويمكن الاطلاع على تلك القائمة في كتاب «استشهاد أريثا» (Martyrdom of Aretha) (٣٣)، وقد أجرى ن. ف. بيوليفسكايا(٣٤) تحليلاً مفصلاً لها. ووصفت تسع من تلك السفن بأنها هندية - وهو لفظ يسمح بالعديد من التفسيرات، وسبع منها وصلت من جزر «الفاراسان الكبير»، التي تقطنها قبيلة «الفاراسان» العربية الجنوبية المسيحية التي لعبت دوراً قيادياً في تجارة البحر الأحمر. ووصلت خمس عشرة من تلك السفن من ميناء ايلات الفلسطيني، الميناء الرئيسي لاقليم سوريا وفلسطين، واثنتان وعشرون سفينة من تلك السفن جاءت من موانىء مصرية: عشرون منها من «القلزم»، واثنتان فقط من «بيرينثي» (Berenice) ، وجاءت سبع سفن أخرى من جزيرة «ايوتابا» وهي «تيران» كما أن كل المواطنين الرومانيين الذين تم التأكد بصفة وثيقة من زيارتهم لأدوليس الأكسومية قد ولدوا إما في مصر أو سوريا.

وقد كان ملوك أكسوم والولاة التابعون بالمقاطعات المختلفة في مملكة أكسوم، خاصة أدوليس وجنوب الجزيرة العربية، هم المتعهدين الرئيسيين الذين كانوا يتعاملون مع التجار الأجانب. وكان هؤلاء الملوك هم الذين يملكون كميات كافية من البضائع للتصدير. وربما يكون نظام الاحتكار

(٣٣) Martyrium Sancti Arethae, p. 747.

(٣٤) Pigulevskaya, N.V. Leningrad, 1951, pp. 300-301.

التجاري موجوداً في ذلك العهد في تلك المملكة وفي جنوب الجزيرة العربية وفي بيزنطة. ومن الجائز أن صيد الأفيال والاتجار بالعاج والذهب كانا - الى حد كبير - حكراً للحاكم. كما أن الملك والحكام (Archontes) والملوك التابعين لأكسوم كانوا وحدهم الذين يملكون المال الكافي لشراء البضائع الأجنبية.

وكان الحكام يملكون قطعاناً ضخمة من المواشي. تشير نقوش «عيزانا» الى الأسلاب التي غنمها الأكسوميون في حملتين في أفان (Afan) والنوبة والتي بلغت في مجموعها أكثر من ٣٢٠٠٠ رأس من الأبقار، وما يربو على ٥١٠٠٠ رأس من الضأن، بالاضافة الى المئات من الحيوانات. ولا ندري ما اذا كانت تلك الغنائم تشكل نصيب الجيش كله أم نصيب الملك وحده، غير أن الاحتمال الأخير أكثر وروداً. وفي النقوش التي تتحدث عن اعادة توطين أربع من قبائل البجة، يقول عيزانا إنه قد أغدق عليهم بخمسة وعشرين ألف رأس من الأبقار(٣٥) وهذا الرقم يمكننا من أن نتصور أعداد القطعان الغفيرة المحشودة في حظائر الملك. ومما تجدر ملاحظته أن كل عدد مدون في تلك النقوش كان يكتب أولاً بالحروف ثم بعد ذلك بالأرقام - تماماً كما في الأزمنة الحديثة. ومن الممكن أنه خلال الفترة الأكسومية قد تم استحداث وظيفة في البلاط عرفت «بكاتب المواشي» (Sahafeham)، وظلت كلقب تشريفي لحكام بعض الأقاليم حتى القرن الرابع عشر.

وفي «أكسوم»، كما في الممالك الأفريقية القديمة الأخرى، كانت المواشي تمثل ثروة كبيرة، بيد أنه كان من الصعب تحويلها الى بضائع رائجة يمكن تسويقها. وما كان ليخطر على البال في ذلك الزمان نقل المواشي عن طريق البحر، ولو أن الأكسوميين كانوا يرسلون بعض الحيوانات منفردة، وحتى بعض الأفيال التي كانت جزءاً من جيش «أبرهة»، وكان من الممكن بداهة اقتياد المواشي الى داخل القارة الافريقية لبيعها هناك - وفي هذا الصدد يقول «كوزماس انديكوبليوستيس»: إن القوافل الأكسومية كانت تسوق المواشي حتى اقليم «ساسو» ولا بد أن جزءاً من تلك المواشي كان يحتاج اليه لقوت القوافل ذاتها.

وهناك نوع آخر من التجارة لم تفتر الحاجة اليه على مدى القرون، ونعني به التجارة في الرقيق. وتشير نقوش ومصادر «عيزانا» التي تتحدث عن حروب أكسوم في حمير الى أسرى الحرب الذين كانوا يعتبرون سلعة مرغوبة من جانب تجار الرقيق الأجانب. وكان الذهب والفضة اللذان يتم الحصول عليهما كأسلاب وغنائم في الحرب او عن طريق الجزية من بلاد النوبة او البجة او أقاو او حِمْيَر أو بعض البلدان الأخرى، تجلب عن طريق القوافل من «ساسو»، ويتم ضربها كعملة تشترى بها البضائع الأجنبية التي يحتاج اليها الملك ونبلاؤه.

ومع أن الصناعة في أكسوم لم تصل الى انتاج سلع يمكن التجارة فيها بأحجام كبيرة، فإن وفرة المنتجات الزراعية والحيوانية كانت تمكن الأكسوميين من شحن سفنهم وقوافلهم بتلك المنتجات. وعلى ذلك المنوال، أمكنهم توفير حاجتهم من الغذاء والبضائع التي يحتاجون اليها للاستهلاك المحلي، بالاضافة الى قدر من التجارة مع البلدان الأخرى.

ويعطينا «كوزماس انديكوبليوستيس» فكرة عن الطريقة التي كانوا ينظمون بها تجارتهم، وذلك في معرض حديثه عن الوسيلة التي اتبعتها «ساسو» في تزويد «أكسوم» بالذهب من مناجم ذهبها العديدة. «ففي كل عام»، او ربما ينبغي أن نقرأ: «مرة كل عامين»، كان ملك أكسوم يرسل بواسطة حاكم

(٣٥) D.A.E.10, 17-22; D.A.E.11, 43-44; D.A.E.4, 13-15; D.A.E.6, 7-8(I); D.A.E.7, 9-10.

«أقاو» التابع رسلاً كيما يجلبوا إليه الذهب. وكان كثير من الناس يسافرون مع هؤلاء، فيبلغ بذلك عددهم قرابة الخمسمائة شخص. ويشير «كوزماس» بعد ذلك الى أن جميع أفراد القافلة كانوا يحملون السلاح ويبذلون قصارى جهدهم ليبلغوا وجهتهم قبل الأمطار الغزيرة. ويعطي الزمن المحدد الذي كانت تتوقع فيه تلك الأمطار. وكان الذهب الذي يتم الحصول عليه في «ساسو» في شكل كتل في حجم حبات الفول البلدي تعرف باسم «تنكاراس» (Tankaras) (٣٦).

ويبدو أن نواة القافلة كانت تتكون من وكلاء الملك يصحبهم بعض الأشخاص الآخرين، الذين ربما يكونون وكلاء النبلاء أو اغنياء أكسوم، ولم يكن يسمح للأجانب باصطحابهم. ففي ذلك الزمن لم يكن الحكام الأثيوبيون ليجهلوا المصالح التجارية. ويصف كتاب «دليل الملاحة» الملك «زوسكاليس» بأنه «بخيل ومرتزق». وكانت التجارة في ذلك العهد تعتبر من مهام الدولة، وكان والي «أقاو» التابع، الذي كانت مهمته اعداد القافلة الأكسومية وارسالها الى «ساسو»، يعتبر مسؤ ولاً عنها مسؤ ولية كاملة. وتصف نقوش «عيزانا» التي تسرد وقائع حملة «أفان» (Afan)، هزيمة أربع قبائل أفانية وأسر الحاكم، مصير من اعتدوا على القوافل الأكسومية، وكان أهل «أفان» (Afan) قد أوقعوا بقافلة أكسوم وقتلوا أفرادها(٣٧).

ولم تكن سيطرة أكسوم السياسية على طرق التجارة الدولية بأقل فائدة من الاشتراك المباشر في التجارة.

فعندما أخضع ملك «أكسوم» بلاد النوبة العليا وجنوب الجزيرة العربية واقليم بحيرة تانا، وقبائل الصحاري المحيطة باثيوبيا، آلت اليه السيطرة على الطرق التي تصل مصر وسوريا بأقطار المحيط الهندي، وكذلك بداخل شمال شرق افريقيا. وكما أصبح مضيق باب المندب، الذي كان كمضائق ملقة وجبل طارق، واحداً من الطرق المائية الرئيسية الثلاث في العالم القديم، واقعاً تحت سيطرة مملكة «أكسوم». وكان باب المندب في ذلك الزمان القديم طريقاً مائياً نابضاً بالحركة، يربط بين البحر الأحمر والخليج الفارسي والهند وسيلان ومضائق «ملقة»، وبلدان آسيا الجنوبية الشرقية والشرقية. وكان يتفرع منه عند خليج «عدن» طريق آخر يسير بمحاذاة ساحل الصومال الى افريقيا الشرقية (أزانيا) التي تحدث عنها «كلوديوس بطليموس» و«أريانوس الزائف» (Pseudo - Arrianus) وكان ذلك الطريق قد استكشف واستخدم بواسطة الملاحين القادمين من جنوب الجزيرة العربية في القرون الأولى بعد الميلاد، وبواسطة الملاحين القادمين من الهند والامبراطورية الرومانية كذلك.

وقد ازدهرت تجارة البحر الأحمر في ذلك العهد رغماً عن ان قصص القرصنة كانت رائجة حوالى ذلك الوقت. وقد قام بهذه القرصنة قبائل من الشواطىء الافريقية والعربية من البحر الأحمر الجنوبي ومضيق عدن وعزا الكتاب الرومان اعتداءات القراصنة ونشاطهم في تلك المنطقة الى التغييرات في العلاقات السياسية بين «أكسوم» ودول البحر الأحمر الأخرى من ناحية والرومان من الناحية الأخرى(٣٨).

وكان للتجار الرومانيين مصلحة حيوية في استتباب الأمن والاستقرار على طول طرق التجارة الواقعة تحت سيطرة أكسوم، وبالتالي في سياستها التي ترمي الى توحيد تلك المناطق. لذا فإنهم قد ساندوا دعوة الاتحاد بين الامبراطورية الرومانية – البيزنطية ومملكة «أكسوم». لكن من الخطأ الاعتقاد

(٣٦) Winstedt, The Christian Topography of Cosmas. pp. 70-71.
(٣٧) D.A.E. 10.
(٣٨) Periplus. 4, Mommsen, Eusebius, p. 272.

بأن ملوك «أكسوم» كانوا مجرد مروجين لسياسة الامبراطورية الرومانية - البيزنطية بما في ذلك جوانبها الدينية والتجارية. فقد كان لديهم خطهم السياسي المستقل الذي كان مطابقاً للسياسة البيزنطية خاصة عندما توافقت مصالح الدولتين الاقتصادية. ويمكن أن نسوق مثالاً لذلك أنه في القرن السادس عندما كان البيزنطيون يقومون برحلات مكثفة الى الهند، كانوا رغماً عن ذلك يرون أنه كانت للأثيوبيين علاقات تجارية أكثر استقراراً ورسوخاً مع ذلك البلد(٣٩).

أما تجارة الأكسوميين مع «ساسو» فكانت علاقة تكتّموا عليها وحرصوا على اخفائها عن البيزنطيين. وفي الحق أن «كوزماس انديكوبليوستيس» قد سمع عن ذلك البلد شفاهة من الأثيوبيين ونجد أن الشماسين الأثيوبيين (الأكسوميين) كانوا يشرفون على جالية التجار الأثيوبيين بليبيا(٤٠) ونجران(٤١) منذ بداية القرن الخامس حتى بداية القرن السادس. وعندما أبحر موسى أسقف «أدوليس» الى الهند(٤٢) في مطلع القرن الخامس فلعله كان يقوم بزيارة لرعيته الروحيين الذين كانوا قد كونوا جاليات تجارية في ذلك الزمن في موانىء الهند وسيلان. وقد سجل «كالليستينيس الزائف» و«كوزماس انديكوبليوستيس» الرحلات التجارية التي كان يقوم بها بعض تجار «أدوليس» خاصة، والأثيوبيون عامة الى سيلان وجنوب وشمال الهند(٤٣). ويعكس نمو مدينة «أدوليس» وعلو مكانتها وتوطد مركزها في التجارة العالمية، اتساع المملكة وسطوتها. وفي رأي «بلينيوس» (حوالى ٦٠م) و«كلوديوس بطليموس» (حوالى ١٥٠م)(٤٤) أن أدوليس لم تكن سوى أحد المراكز التجارية الصغيرة في افريقيا، أما «أريانوس الزائف» (Pseudo - Arrianus) فقد سماها «قرية».

وفي القرن الرابع وبداية القرن الخامس، لم تجذب موانىء «أدوليس» والقرن الافريقي انتباه الجغرافيين الرومانيين. وبحلول القرنين الخامس والسادس أضحت «أدوليس» الميناء الرئيسي بين القلزم (Clysma) وموانىء الهند، واختفت اسماء الموانىء الافريقية الأخرى من المصادر المكتوبة(٤٥).

ولم تبلغ «أدوليس» وقتئذ ذروة الرخاء التي لم تبلغها قط من قبل أو من بعد، بفضل نجاحها في الصمود أمام كل ضروب المنافسة، وانما بفضل الرعاية الفعّالة وحدها التي كفلتها لها مملكة «أكسوم» الاقطاعية الأولى. وكان من الطبيعي اذن أن يسميها كتاب «دليل الملاحة في البحر الأحمر» «السوق الرسمية» للدولة (أكسوم).

الثقافة

انعكس تطور الامبراطورية الاقطاعية الأولى على ايديولوجية وثقافة «أكسوم» خلال فترة تمتد من القرن الثاني الى القرن الرابع. فقد تغيرت النقوش المقتضبة التي كانت تكرس للآلهة تدريجياً الى وصف تفصيلي للانتصارات التي حققها ملك الملوك. ومن النقوش الأكثر اثارة للانتباه في ذلك الصدد تلك

(٣٩) Procopius, De Bello Persino, pp. 275-277.
(٤٠) Caquot, A., Leclant, J. 1959, p. 174.
(٤١) Moberg. p. 14b, cx. Irfan Shahid, Bruxelles, 1971. p. 74.
(٤٢) Priaux, B. London, 1863.
(٤٣) Ibid.; Winstedt. The Christian Topography of Cosmas. p. 324.
(٤٤) Plinius Secundus, Naturalis Historia, VI, 172; Claudius Ptolemaeus, Geographia, IV, 7,10.
(٤٥) Priaux. On the Indian Embassies to Rome. p. 277; Desagnes, Jehan, 1967, (I) pp. 141-158.



نقوش اغريقية من عهد عيزانا (القرن الرابع)

النقوش الاثيوبية والاغريقية التي تصور «عيزانا» الذي بلغ قمة الابداع التعبيري في نقش يتضمن وصفاً كاملاً لحملته النوبية(٤٦). ويكشف النقش عن قوة بيان حقيقية، وشعور ديني واستعمال بلا قيود لمفاهيم معقدة. وتتمثل الأفكار الأساسية في تمجيد عاهل قوي منتصر أبداً، تعد اثارة غضبه ضرباً من الجنون، وحمد للإله الذي يحظى الملك بحمايته الخاصة والدائمة. وتساق حجج منطقية تبريراً للحملات الأكسومية على بلاد النوبة وبعض الحملات التأديبية الأخرى. ويصور الملك «عيزانا» في صورة حاكم عادل ذي مروءة وشهامة. ويمكن القول بأن ذلك المخطوط الحجري انجاز أدبي. وهنالك نقاط مشتركة عديدة بينها وبين الشعر الشعبي والأدب الأثيوبي في فترة لاحقة.

وقد صاحب ذلك تطور مواز في الشعارات المكتوبة على العملة، اذ كانت القطع النقدية التي ترجع الى الفترة التي تمتد من القرن الثالث الى منتصف القرن الرابع تحمل شعاراً خاصاً بكل عاهل، وهي تحتوي على كلمة «بعيسي» (Be'esi) (رجل) واسم صفة عرقي يخص أحد «الجيوش» الأكسومية. وقد كان لذلك ارتباط بالبنية القبلية والعسكرية لدولة «أكسوم»، وأغلب الظن أنه نشأ من الديموقراطية العسكرية الأثيوبية التي كانت سائدة في العصور القديمة. وقد كانت العملة التي تضرب في عهد «عيزانا» وخلفائه تحمل شعاراً اغريقياً يقول: «فلتهنأ البلاد بالكفاية والرضا». ومن الجلي ان هذا الشعار الغوغائي (أي الموحي بشبع) انما يعكس المذهب السياسي الرسمي، الذي ظهرت أول آثاره في نقوش «عيزانا»(٤٧). ومن الواضح كذلك أن الملك كان يهدف الى ان تكون له شعبية واسعة في مملكته، الأمر الذي يتفق تماماً مع طبيعة سلطانه ونفوذه في ذلك الوقت الذي كانت فيه الدولة تتحول الى ملكية. وفي الأزمنة اللاحقة، حلت صيغ مسيحية ورعة باللغتين الاغريقية والاثيوبية محل ذلك الشعار.

ويمكن ملاحظة اتجاهين متضاربين بل متصارعين من ناحية ايديولوجية الحكم الرسمي في التغييرات التي اخذت تطرأ على الشعارات المرسومة على العملة وفي النقوش الملكية الأكسومية: فقد كانت فكرة الحكم الملكي مرتبطة بالوحدة المسيحية، أما المفهوم الغوغائي فكان ينبع من التقاليد المحلية.

وقد واكب فكرة الامبراطورية ظهور الاتجاه الى الضخامة في العمارة والنحت، كالمسلة الحجرية البالغة الضخامة التي يبلغ ارتفاعها ٣٣,٥ متراً وتقف على مصطبة طولها ١١٤ متراً، واللوحة البازلتية المكونة من حجر واحد التي يبلغ طولها ١٧,٣متراً، وعرضها ٦,٧ أمتار، وسمكها ١,١٢متراً، والتماثيل المعدنية الضخمة (التي ما زالت قاعدة واحد منها موجودة، بينما أمكن معرفة أبعاد الأخرى من النقوش) ثم القصور الملكية الضخمة التي بناها ملكا «أكسوم» «إندَ ميكائيل» (Enda - Mikael) و«إندَ سمعون» (Enda - Simeon) وخاصة مجموعة القصور المسماة «تعخا ماريام» (Taaka - Maryam) والتي تنتشر على مساحة طولها مائة وعشرون متراً وعرضها ثمانون متراً، وكل هذه ليس لها ما يماثلها في افريقيا المدارية. ويعكس هذا الولع الشديد بالضخامة ذوق الملكية الأكسومية، وكانت تلك المباني التذكارية بمثابة التجسيد الملموس لذلك الهدف الأيديولوجي الذي كان يرمي الى احداث نوع من الاعجاب الممزوج بالرهبة لعظمة وقوة العاهل الأكسومي الذي اقيمت من اجله تلك الانصاب. ولقد صحب ذلك الولع بالضخامة ميل نحو الزخرف وعلى الأخص في العمارة. وقد ساهم الجمع بين استخدام الحجر والخشب في البناء على نحو متبادل، والكتل الحجرية المنحوتة نحتاً

---

(٤٦) D.A.E.11.

(٤٧) D.A.E.7, 24; D.A.E.11,48.

مستوياً او شبه مستوى في مختلف المواضع من المبنى، والروافد الخشبية وحشوات كسارة الحجارة (الدبش) المثبتة بخليط لاصق، ساهم كل ذلك في تسهيل وتبسيط مهمة البنائين، وجعل من الممكن احداث تأثير زخرفي بالغ. وقد أمكن كذلك اضفاء طابع من الفخامة التشكيلية الطبيعية والتنسيق الباهر بين مختلف مواد البناء بالجمع بين الحجارة الخشنة المربعة المستخدمة في بناء أوجه الجدران وبراطيم السقف المستعرضة التي يعلوها رأس القرد الشهير. ومما ساهم في زيادة التأثير الزخرفي تعاقب النتوءات والتجاويف والمداخل المرتدة ذات الأبواب الخشبية السميكة التي تفضي اليها درجات احد السلالم، وميازيب المطر التي تنتهي بأشكال على هيئة رأس أسد. وقد أصبحوا يولون اهتماماً أكبر للأجزاء الداخلية من المباني. ولا شك في أن الميل الملحوظ نحو الزخرف في المباني كان يتفق مع الميل المتزايد الى الدعة والترف لدى الطبقات الحاكمة في «أكسوم» التي أثرت نتيجة لتأسيس الامبراطورية. وكانت العمارة والنحت في اثيوبيا في تلك الفترة يتسمان بأصالة ملحوظة، وإن لم يستبعد تكيف كلا الفنين بالمؤثرات الثقافية المختلفة القادمة من الامبراطورية الرومانية وجنوب الجزيرة العربية والهند ومروى. ولقد كانت المؤثرات الأكثر اهمية في هذا الصدد هي المؤثرات السورية التي نجمت عن انتشار المسيحية.

وقد تحدث «كوزماس انديكوبليوستيس» عن قصر ملوك «أكسوم» ذي الابراج الأربعة(٤٨). ووفقاً للشكل الذي اعاد تكوينه الدكتور «كرينكر» (Krenker) فإن ذلك المبنى كان قلعة وهو مشيد بطريقة تجعل الوصول اليه أصعب من الوصول الى كافة المباني الأخرى التي تقع من حوله. وطبقاً للحفريات التي اجراها «هـ. دي كونتنسون» فإن هذا الجزء من المدينة ظل محصناً حتى العصر المسيحي(٤٩).

كانت وثنية الأكسوميين تشبه الى حد بعيد ما كان يدين به أهل جنوب الجزيرة العربية. وكانت ديانة متعددة الأرباب لها خصائص العبادات الزراعية والرعوية. وكان الأرباب الذين تمارس عبادتهم هم «عشتر» (Astar) الذي هو بمثابة تجسيد لكوكب فينوس (الزهرة) والالهين السفليين «بحير» (Behér) و«مدر» (Medr) اللذين كانا يمثلان الأرض*. وكانت عبادة «عشتر» تتمتع بشعبية كبيرة في العهود السابقة لأكسوم، واستمرت تلك الشعبية في عهد مملكة أكسوم الوثنية(٥٠) وقد بقيت بعض آثارها حتى العصور اللاحقة.

ويأتي ذكر «بحير» و«مدر» (كمعبود عادي) في النقوش من بعد «عشتر»(٥١). ومن مخلفات ذلك الشكل من أشكال العبادة اللفظ الاثيوبي المسيحي «اقزيا بحير» (Egzi' abhër) (الله، أو حرفياً: «الإله بحير» أو إله الأرض»(٥٢). وكان إله القمر «هوبس» (Hawbas) يعبد في جنوب الجزيرة العربية وفي اثيوبيا في العهود السابقة لأكسوم. وقد قدم «ك. كونتي - روسيني» من الأدلة ما يثبت ان الإله «جد» (Gad) وشعائره التي كان يحاربها القديسون في القرون الوسطى، لم يكن سوى إله القمر(٥٣). وقد ربط «كونتي - روسيني» بين عبادة القمر وبين تقديس بقر الوحش الشبيه بالثور (Taurine

(٤٨) Winstedt, The Christian Topography of Cosmas, p. 72.

(٤٩) Krenker, Daniel, Berlin, 1913, p.107ff, Contenson, Henri de..., Les Fouilles en Axoum en 1958, p.9 pl. IX.

* راجع مع هذا، سبتينو موسكاتي، الحضارات الساميّة القديمة (ترجمة د. السيد يعقوب بكر)، القاهرة (بدون تاريخ)، ص ٢١٧ (المراجع).

(٥٠) D.A.E.6, 20; D.A.E.7; D.A.E.10, 25; D.A.E.27,I; Drewes, p. 26-27, pl. VI, XXI, Leiden, 1962.

(٥١) D.A.E.6, 21; D.A.E.7, 21; D.A.E.10, 25-26.

(٥٢) Vychichl, Wener. Egziabhër, 1957, pp. 249,250.

(٥٣) Conti - Rossini, Carlo. Rome, 1947-1948, p. 53.

(Antelope في اريتريا في الأزمنة الحديثة. وقد كشفت الدراسات التي أجريت عن المعتقدات القبلية في ذلك البلد في القرن العشرين عن أن شعائر شمال اثيوبيا القديمة ما زالت قائمة وأن بعض أهله ما زالوا يعبدون القمر(٥٤). ومن الممكن أن يكون الأكسوميون قد ربطوا بين ملامح الإآله - القمر وصورة الإآله «محرم».

وتوجد رموز للشمس والقمر على مسلات من «أكسوم» و«مطرا» و«انزا» وعلى عملة الملوك الأكسوميين في العهود التي سبقت المسيحية. وهي ربما تشير الى «محرم»، الإآله الملكي والقبلي لملوك «أكسوم». وفي نقوش الملك «عيزانا» الوثنية المدونة بلغتين يطلق على الإآله الاثيوبي «محرم»(٥٥) الاسم الاغريقي «آريس» (Ares) (٥٦). وتستخدم كل نقوش ملوك أكسوم(٥٧) الوثنية الاغريقية اسم آريس ما عدا نقوش سمبروتيس (Sembrythes) التي لا تشتمل على اسم الإآله. وكما هو معروف فإن الإآله آريس (Ares) الأثيني كان يعتبر إلهاً للحرب. وتبعاً لذلك فإن صنوه «محرم»، كان يعتبر إلهاً للحرب هو الآخر. وتصف النقوش الأكسومية «أريس - محرم» كإآله للحرب بأنه «لا يقهر» وأنه «لا يقوى أعداؤه على هزيمته»، وأنه «يحقق النصر»(٥٨). ونظراً لاعتبار «آريس» حامي حمى القبيلة فإنه يطلق عليه اسم «إآله الأكسوميين»(٥٩) في نقوش جبل «أبا - بنتاليون» (Abba - Pantalewon). وباعتباره إآله الأسرة الملكية، كان الملوك يسمون «محرم - أريس» «الإآله الأعظم» وجد الملوك(٦٠). وكان «محرم» يعتبر اولاً حامي حمى الأكسوميين، وثانياً، إآله الحرب الذي لا يقهر، وثالثاً، أبا الملوك وجدهم الأعلى، ورابعاً، يبدو أنه كان يعتبر ملك الآلهة. وقد كان الملوك الأكسوميون يهبون اليه تيجانهم المظفرة المنتصرة في «أكسوم» ذاتها، أو في الأقاليم التي يخضعونها لسيطرتهم.

ومن الجليّ أن «محرم»، إآله الحرب والعرش، كان يسيطر على الآلهة السماوية والأرضية، كما يسيطر العاهل المعترف به على رعيته، وفي ذات الوقت كانت الحرب، التي يعتبر «محرم» تجسيداً لها، تطغى على النشاط السلمي، وكان ينظر اليها على أنها عمل مقدس، وأكثر شرفاً من كد الفلاحين، ولو أن ذلك الأخير كان يحظى هو الآخر بالتمجيد في تعاليم السلف. ومما يمكن ملاحظته بجلاء في دين أكسوم السمات المميزة للأيديولوجية الطبقية المبكرة، وهي إيديولوجية مجتمع إقطاعي في مرحلة تكوينه الأولى.

وقد كان الأكسوميون يقدمون القرابين لآلهتهم. وكانت الحيوانات المستأنسة تمثل غالبية تلك القرابين. ويرد في أحد نقوش الملك «عيزانا»(٦١) أن اثني عشر ثوراً نحرت لـ«محرم» في قربان واحد. ووفقاً لبحث أجراه أ. ج. دروز (A.J. Drewes) (٦٢) عن نقش «سفرا» (Safra)فإن الأبقار والنعاج العقيمة كانت هي القرابين الأكثر انتشاراً، ويحتوي هذا النقش - كما لاحظ هذا الباحث - على ألفاظ

---

(٥٤) Littman, Enno, Leyden, 1910, p. 65 (No. 50) 69 (No. 52).

(٥٥) D.A.E.6, 2, 18, 26; D.A.E.7, 3, 19, 21, 25.

(٥٦) D.A.E.4, 6, 29.

(٥٧) D.A.E.2, 8; Monumentum Adulitanum (Winstedt,, The Christian Topography of Cosmas, p. 77); Sayce, A.H. London, 1909, pp. 189, 190.

(٥٨) D.A.E.2,8; D.A.E.4, 8, 29; D.A.E.6, 2-3; D.A.E.7, 3-4; D.A.E.8, 4-5; D.A.E.9, 4; D.A.E.10, 5-6.

(٥٩) D.A.E.2, 8.

(٦٠) E.O. Winstedt, p. 77; D.A.E.10:5, 29-30; D.A.E. 8:4; D.A.E. 9:3-4; D.A.E.6:2; D.A.E.7:3.

(٦١) D.A.E.10, 29-30.

(٦٢) Drewes, Inscriptions de L'Ethiopie anthique, pp. 50-54.

معينة كانت تستخدم أثناء الشعائر، التي كان يتولاها كاهن مكلف ايضاً بنحر القرابين. ونجد في بعض النصوص الأخرى اشارات الى ذبح البهائم التي كانت تقدم كقرابين محروقة لعشتر. وطبقاً للعادة السامية القديمة فإن بعض انواع الهبات المقدمة كقرابين كانت تحضر وهي مغطاة بأردية مطهرة، وكان البعض يرى ان ذلك ليس ملزماً. وقد اتخذت عادة ابدال القرابين الحية بالرموز والتماثيل منذ العهود التي سبقت مملكة أكسوم. فقد تم العثور على تماثيل برونزية وحجرية لثيران وجداء وحيوانات اخرى، تحمل العديد منها بعض الكتابات.

وقد احتلت عبادة الأسلاف - خاصة الملوك الراحلين - مكاناً هاماً في دين الأكسوميين. وكان من المألوف تشييد المسلات (Stelae) لهم، فكلمة «حاولت» وهي مشتقة من الأصل الثلاثي (حـ و ل)، تعني «يدور حول» أو «يتعبد» وهي شبيهة بشعائر الطواف حول الكعبة. وكانت القرابين تجلب الى المذابح والى قواعد المسلات المنحوتة في شكل مذابح، ثم يصب دم القرابين في فجوات تشبه القصاع. وكانت قبور الملوك الأكسوميين تعتبر الأماكن المقدسة في المدينة. وتدل الأوعية والأشياء الأخرى التي تم العثور عليها في المدافن انهم كانوا يعتقدون في الحياة بعد الممات. ويستدل من بعض الاشارات غير المباشرة على وجود عبادة «أرباب الجبال» التي تذكرنا بالعبادات المشابهة لها في الجزيرة العربية.

ومع أن المعلومات عن دين الأكسوميين ما زالت شحيحة ومقتضبة، ففي الامكان القول بأنه دين متطور نسبياً، ومرتبط بشعائر معقدة ونظام كهنوتي معقد هو الآخر.

وخلال العهد الأكسومي المبكر، وفدت الأفكار الدينية من البلدان القريبة والبعيدة الى أكسوم. فقد ورد في «نصب أدوليس» (Monumantum Adulitanum) ذكر إله البحر الاغريقي «بوسيدون»، الذي يرجح انه كان يعبد في «أدوليس» وعلى طول الجزء الجنوبي لساحل البحر الأحمر[٦٣]. وقد كان المكانان المقدسان «للمقة»، إله السبئيين «القومي»، والذي كان يعبده «جدرت» (Gadara) ملك «أكسوم»[٦٤]، يوجدان «بميلازو» (Melazo) وربما بحاويلا أسرو. ويشير اكتشاف مسلة مؤخراً في أكسوم ومعها رمز الحياة المصري «عنخ»[٦٥]، وبعض الأشياء التي تنتمي الى عبادة حتحور وبتاح وحورس، بالاضافة الى خنفسة، الى أن بعض من كانوا يدينون بالدين المصري - المروي قد كانوا يعيشون في أكسوم وأدوليس ومطرا في وقت من الأوقات. وربما جلبت تماثيل «بوذا» الصغيرة التي وجدت في أكسوم[٦٦] بواسطة التجار البوذيين من الهند. وكان كثير من الجماعات التي تدين بالدين اليهودي يقيم في جنوب الجزيرة العربية، وربما جاء بعضها ليقيم بأثيوبيا قبل القرن السادس. وأصبح للمسيحية شأن كبير (انظر الفصل ١٤ فيما تقدم، والفصل ١٦ فيما بعد).

ونتيجة للأثر الذي احدثته المسيحية والأديان التوحيدية الأخرى في أثيوبيا والجزيرة العربية، استحدث أهل تلك البلاد نظرة توحيدية خاصة بهم، انعكست في النصوص باللغة الجعزية (Ge'ez) : فعلى سبيل المثال نقوش «عيزانا» التي تسرد أخبار الحملة النوبية، (D.A.E.11)، ونقوش «أبرهة تكلا أكسوم» من وادي منيح (Wadi Menih) [٦٧] (وهو شخص يجب الا يخلط بينه وبين الملك أبرهة)، وهذا صحيح أيضاً عن النقوش السبئية المتأخرة من جنوب الجزيرة العربية.

(٦٣) Winstedt, The CHristian Topography of Cosmas, p. 77.

(٦٤) Jamme, A. Ethiopia. t. I. (Leiden). 1957, p. 79.

Contenson, Henri de ... Les Fouilles à Haoulti. en



نقوش اغريقية من عهد وعزاب (القرن السادس)

ولم يكن هنالك تناقض أساسي بين المسيحية وذلك الشكل الآخر من التوحيد، اذ أن «عيزانا» في الوثائق السالفة الذكر، و«وعزاب» في نقش له اكتشف مؤخراً، وأبرهة ملك حمير في مدوناته، كانوا ثلاثتهم يدعون للمسيحية مستخدمين ألفاظاً ومفاهيم «توحيدية غير واضحة المعالم».

نتيجة للمؤثرات الثقافية الأجنبية كانت الثقافة الأكسومية ذات صبغة عالمية. فقد كانت اللغة الاغريقية تستعمل جنباً الى جنب اللغة الجعزية كلغة دولة وكلغة عالمية. ويبدو أن الملوك من أمثال «زا-هيكالي» و«عيزانا» كانوا يتكلمون اليونانية.

يذكر كتاب «دليل الملاحة في البحر الأحمر» ان الملك «زو سكاليس» (Zoscales) كان يقرأ ويكتب اليونانية، وأن مستشار «عيزانا» «الاغريقي – الفينيقي» فرومنتيوس (Frumentius) قد أصبح فيما بعد أسقفاً لأكسيوم. وكان معظم ملوك أكسوم في القرنين الثالث والرابع يسكّون شعارات اغريقية على قطع العملة. ولقد وصلتنا ستة نقوش اكسومية باللغة اليونانية.

ليس لدينا ما يجعلنا نعتقد أن اللغة السبئية كانت احدى اللغات الرسمية في مملكة أكسوم المبكرة. وقد كتب احد نصوص «عيزانا» الثلاثة المتوهم أنها مدونة بثلاث لغات (في واقع الأمر كتبت بلغتين هما الجعزية واليونانية) بخط حميري متأخر، وبها بعض خصائص الهجاء (التهجي) السبئي – الحميري المستغرب. وقد استخدم الخط ذاته في ثلاثة نقوش ملكية اخرى من أكسوم دوّنها «عيزانا» و«كالب» و«وعزاب»(٦٨). وهكذا، اذا نحن أضفنا نصاً آخر عثر عليه في «تسيعوف امني» (Tsehuf - Emni) بأريتريا(٦٩)، يكون لدينا خمسة نصوص «شبه حميرية» من اثيوبيا. ولغتها التي كتبت بها هي لغة «جعز» تتخللها بعض المفردات السبئية القليلة.

ولا ندري سبب استخدام ملوك أكسوم للنصوص المكتوبة «بالحميرية المنحولة» جنباً الى جنب مع النصوص الأثيوبية العادية في مدوناتهم ذات الصفة الرسمية.

وربما كان استخدام الأبجدية الحميرية بالاضافة الى حروف العلة (اللينة) في الاثيوبية والأشكال التي ادخلت مؤخراً، قد استحدثت كلها في عهد «عيزانا»، وأن كل المستحدثات كانت ذات صلة بعضها ببعض.

وليس للقواعد الاساسية للحروف الاثيوبية اللينة نظيرها في كل العالم السامي – الحامي، لكنها تماثل قواعد حروف الهجاء الهندية. وقد لاحظ «ب. جوهنز» (B. Johns) و«ر. ليبسيوس» (R. Lepsius) و«إ. جلازر» (E. Glaser) في القرن التاسع عشر الصلة بين الحروف الأثيوبية والهندية. وفي ١٩١٥ لفت «أ. جرومان» (A. Grohmann) النظر الى اوجه الشبه الرئيسية بين فكرة الحروف الأثيوبية اللينة وحروف اللغة البراهمية (Brahmi) أو الخاراوشتي (Karaoshti)، بالاضافة الى بعض الخصائص المشتركة كالعلامات المتشابهة التي تستخدم لحرف «U» والحروف اللينة القصيرة(٧٠). ومن المحتمل أن تكون النظرية القائلة بوجود تأثير هندي على من قاموا بمعالجة قصور الأبجدية الأثيوبية القديمة ذات الحروف الجامدة (الساكنة)، نظرية صحيحة.

---

(٦٨) D.A.E.8 (pp.18-19); Schneider R. Trois nouvelles Inscriptions Royales d'Axoum, IV Congresso Internazionale di Studi Etiopici, pp. 767-770.

(٦٩) Conti - Rossini, Carlo, Roma 1903.

(٧٠) Grohmann A. Leipzig, 1915, pp. 57-67.

ولم يتم بعد اثبات النظرية القائلة بوجود تأثير اغريقي على الأبجدية الاثيوبية، وإن كان من المؤكد أن نظام الأعداد الأثيوبية ورموزها الرئيسية كما ظهرت لأول مرة في نقوش «عيزانا» لا بد وأن تكون من أصل اغريقي.

وتعكس الحروف الأثيوبية اللينة النظام الفونيمي(*) للغة الجعزية على نحو دقيق لدرجة تجعلنا نعتقد أن مبتكر هذه الحروف لا يمكن ان يكون الا شخصاً اثيوبياً. ولا زالت تلك الحروف، مع اضافة بعض العلامات الجديدة، تستخدم في اثيوبيا حتى يومنا هذا، وهي تعتبر من الناحية العامة احد انجازات الحضارة الأكسومية البارزة.

وقد بدأت الحروف الأثيوبية اللينة بعد ابتكارها بقليل في التأثير على الكتابة فيما وراء القوقاز. ويقترح «د. أ. أولدريج» (D.A. Olderogge) أن ميسروب ماشتوتز (Mesrop Mashtotz) استخدم الحروف الاثيوبية اللينة عند اختراعه للأبجدية الأرمنية. وربما تكون الأبجدية الاثيوبية قد ادخلت الى أرمينيا لأول مرة في نهاية القرن الخامس وذلك على يد الأسقف السوري دانيال(٧١).

كان الاتصال الثقافي بين أكسوم وأرمينيا يتم عبر شمال سوريا في ذلك الوقت. ولدينا الآن بعض الأدلة عن السوريين في «أكسوم» وعن الأثر السوري في العمارة الأكسومية(٧٢) خاصة في المسلات المفردة الحجر الضخمة المتعددة الطوابق. ويمكن كذلك ملاحظة بعض الشبه بينها وبين عمارة جنوب الجزيرة العربية والهند في ذلك الحين. ويمكننا أن نقول ان التأثير المروي كان غالباً خلال القرنين الثاني والثالث. وترجع كل المصنوعات اليدوية المروية التي تم العثور عليها بأثيوبيا الى تلك الفترة. ويذكرنا تمثال لحارس من البرونز عليه رمز الملك «جدرة» (Gadara)، أحد ملوك أكسوم، بتماثيل مشابهة لدى ملوك مروى(٧٣) ويمكن أن تكون الأفيال قد أدخلت الى الشعائر الملكية الأكسومية تحت تأثير الهند، وتحت تأثير مروى كذلك.

لم تكن مملكة أكسوم دولة تجارية مهمة، على الطرق بين العالم الروماني والهند، وبين الجزيرة العربية وشمال شرق افريقيا فحسب، بل كانت أيضاً مركزاً عظيماً للثقافة التي كانت تنتقل عبر تلك الطرق. ومن الناحية الأخرى، فإن العديد من البلاد المتحضرة بشمال شرق افريقيا وجنوب الجزيرة العربية قد حددت كثيراً من سمات الحضارة الأكسومية التي كانت هذه البلاد تعيش تحت سيطرتها.

(*) الفونيمة (Phoneme) هي احدى الوحدات الصوتية التي تساعد على تمييز نطق لفظ ما عن نطق لفظ آخر في لغة او لهجة (المراجع).

(٧١) Olderogge, D.A. pp. 195-203.

(٧٢) Anfray, F. pp. 761-765.

(٧٣) Caquot, A. Drewes, A.J., 1955; J. Doresse. Roma, 1960.

الفصل السادس عشر

أكسوم المسيحية

بقلم: تكلي صادق ميكوريا

العقائد التقليدية قبل المسيحية في أكسوم

ظل الدين، أياً كان شكله، يلعب حتى القرن الثامن عشر دوراً هاماً في كل مجتمع بشري. وكان الشرك بوجه عام سابقاً على التوحيد، اذ أن المراكز المسيحية القائمة اليوم كانت فيما مضى مهوداً للوثنية. وما من أمة اعتنقت المسيحية الا وقد مرت قبل ذلك بحقبة وثنية.

وليست اثيوبيا استثناء من هذه القاعدة. فهي لم تتمتع بامتياز الاهتداء الى التوحيد مباشرة دون ان تمارس أولاً اكثر أشكال العبادة تنوعاً. وقد كان طبيعياً، بالنسبة لبلد مثل اثيوبيا لم يمر قط بفترات طويلة من الحكم الأجنبي، أن توجد فيه عقائد متعددة تتوارثها الأجيال.

ومن بين سكان اثيوبيا القديمة، نلاحظ أن المجموعة الكوشية (البجة والأجاو) - على نقيض الطبقات الحاكمة - قد بقيت خارج نطاق تمثل الثقافة السامية، وظلت تعبد أشياء طبيعية مختلفة، مثل الأشجار الضخمة أو الأنهار أو البحيرات أو الجبال العالية أو الحيوانات، اذ كان يعتقد أن هذه الأشياء تؤوي ارواحاً خيّرة او شريرة لا بد من أن تقدم لها شتى القرابين والأضاحي السنوية أو الموسمية.

وكانت القبائل السامية الأصل التي لم ترث العقائد الكوشية، وكذلك الكوشيون الذين اصطبغوا بصبغة سامية، على قدر لا بأس به من التقدم اذا قورنوا بالمجموعات السابقة، اذ كانوا يعبدون الطبيعة في اشكالها السماوية والأرضية (من شمس وقمر ونجوم وأرض وتراب) تحت أسماء ثالوث «محرم» و«بهر» و«ميدر» التي كانت تنافس الآلهة الأجنبية او شبه الوطنية لجنوب الجزيرة العربية أو بابل وآشور، مثل المقاة، وعوباس، وعشتار، التي استوعبت بدورها في الآلهة الاغريقية: زيوس واريس وبوزيدون[1].

(١) E. Littmann, Krencker. (Berlin, 1913) pp. 4-35. c. Conti Rossini, 1928, pp. 141-144. E.A. Drouin, Paris, 1882. Longperrier 1868, p. 28.

وكان بعض ملوك أكسوم ذوو الثقافة الاغريقية يسمون بهذا التمثل أو الاستيعاب أو الادماج لبعض الآلهة في بعضها الآخر، الذي كان يجري على نحو تحكمي بعض الشيء وكانت تعززه جهود بعض الرحالة ذوي النفوذ ممن عملوا على التبشير بآلهتهم الخاصة. على أن ذلك لم يهز دعائم ربوبية «محرم» الذي كان يعتبر الاله الوطني. فمحرم الأكسوميين كان يمكن للاغريقي أن يسميه زيوس، وللنوبي ذي الثقافة المصرية ان يسميه آمون، حيث ان كل امرىء كان يتحدث بلغته الخاصة. ويذكر التاريخ أن الاسكندر الأكبر - الذي كان يسمي نفسه ابن زيوس - عندما دخل مصر عام ٣٣٢ق.م. دخول الفاتحين استقبله الكهنة بحسبانه ابن آمون.

وتنبىء النصوص الاثيوبية القديمة المستمدة من التراث المنقول والأخبار المستقاة، والتي تعود الى عهد الملك أمدي تصيون (١٣٤٢ق.م. - ١٣١٣ق.م.)، تنبىء عن وجود عبادة الثعبان «آروي» جنباً الى جنب مع ممارسة شريعة موسى(٢). وكان هذا الثعبان يعتبر احياناً إلهاً تنيناً، ويعتبر في أحيان اخرى أول من حكم من الملوك، وهو الملك «أروي - نجوس» والد ملكة سبأ، بلقيس، وهو زعم لا يمكن لأي قارىء حديث أن يحمله على محمل الجد.

ولا شك في أن هذا الاعتقاد الشعبي مستمد من التاريخ الأسطوري لأثيوبيا القديمة، قبل انبثاق فجر تاريخها الحقيقي. وما من أمة الا ولها اسطورة من هذا النوع تسبق تاريخها في العصر القديم والوسيط. ولعل اسطورة الذئبة التي ارضعت أول ملكين لروما أن تكون مثالاً يغني عن عديد غيره. بل ان التاريخ الحقيقي نفسه لم ينج من زخرفته بالمعجزات حتى اصبح التمييز بين الحقيقي والأسطوري فيه أمراً صعباً.

ويقال ان الساميين الذين قدموا من جنوب الجزيرة العربية - وكانوا اسلاف التيجري والأمهرة (الأمارا) الذين يسكنون الهضبة العالية - قد جلبوا معهم عدة عقائد عربية جنوبية. وهناك وثائق منقوشة ومسكوكة تؤيد بالفعل وجود هذه العقائد التي تشير اليها كتابات الرحالة اشارات مختلطة غير واضحة.

وفي اعقاب البحوث التي قام بها بروس وصولت وأ. ديلمان وغيرهم، جاء العمل الضخم الذي قامت به بعثة ١٩٠٦ الالمانية (وطبع في ١٩١٣)، والكشوف المتعاقبة التي توصل اليها الأثريون التابعون لمعهد الآثار الاثيوبي - الذي انشىء عام ١٩٥٢ في أديس أبابا - فأصبحت تشكل أساس معرفتنا المتعمقة للعقائد الأكسومية قبل المسيحية. ويقوم شاهداً على ممارسة هذه العقائد في بلاط اكسوم قبل التحول الى اعتناق المسيحية، معبد ييحا (الذي لا يزال قائماً) واللوحات الأثرية المتناثرة ومواقع الحصون وبقايا النذور.

على أن ثمة نقطة حرية بالتوضيح، وهي ما اذا كانت تلك الديانة المتطورة نسبياً امتيازاً ملكياً وارستقراطياً أم أنها كانت مشاعة يمارسها الكافة أيضاً. أما عن وجود اليهودية في أثيوبيا فهناك عدة عوامل تثبت وجود جماعة تعتنق الدين اليهودي ويشير اليها تاريخ الملوك «تاريكه - نجست» في ايجاز. ومن المحتمل أن تلك الجماعة قد حكمت أيضاً لفترة معينة.

وحتى اذا صرفنا النظر عن قصة «كبره - نجست» (أمجاد الملوك) الخرافية التي يعتبرها رجال الكنيسة الاثيوبيون مرجعاً اساسياً في التاريخ والأدب، والتي يزعم فيها وهماً أن جميع ملوك اكسوم يتصل نسبهم بسليمان وموسى، فإن بعض روايات التراث المتواترة عبر القرون تشير الى وجود مؤمنين يعتنقون

(٢) Deglazmetch Haylon Collection, Tarike Neguest, Deposited in Paris N°143, pp. 23-35; Tadesse Tamrat - 1270-1527 - Oxford, 1971, pp. 21-30.

الدين اليهودي. ويدلل على هذا ممارسة الختان والخفاض في سن مبكرة، بينها يلاحظ أن الاحترام النسبي للسبت والترانيم المقدسة والرقصات الطقسية التي يصاحبها دق الطبول والمزاهر وصفق اليدين كلها تستدعي الى الذهن رقص اليهود والملك داود امام تابوت العهد.

الا أنه مع دخول المسيحية، الذي سبقه أو لحقه انتقال السلطة الى أيدي جماعات اخرى (سبئيين وأحباشاً)، صار اليهود، كما كانوا في كل مكان ضحايا للتحيز والعنف، فانسحبوا الى مناطق أكثر امتناعاً. ويبدو أن مذبحة مسيحيي نجران في جنوب الجزيرة العربية في القرن السادس وثورة الفلاشة في القرن العاشر لها صلة بسوء معاملة اليهود في امبراطورية اكسوم المتشددة في مسيحيتها، أو أنهما رد فعل للهيمنة السياسية والاقتصادية لهذه الامبراطورية في الجزيرة العربية.

مقدم المسيحية لأكسوم

ان الديانة الجديدة، التي اسسها المسيح في فلسطين وبثها انصاره المتفانون عبر جميع امبراطوريات الشرق والغرب، وصلت بدورها الى بلاط اكسوم وسط عقيدة تتعدد فيها الآلهة يعتنقها الكوشيون وديانة عربية جنوبية يمارسها الساميون والكوشيون الذي داخلتهم الدماء السامية.

ووفق النصوص المنحولة لأعمال الحواريين التي دبجها شخص يدعى «عبدية»، يؤمن قسم من السكان خطأ بأن القديس متى كان أول من جلب المسيحية لاثيوبيا. غير ان هذا الاعتقاد لا يستند الى أية وثيقة قمينة بالتصديق.

ويعزو تاريخ الملوك «تاريكه - نجست» لفرومنتيوس الشهير شرف ادخال المسيحية الى البلاد، وقد صار فرومنتيوس يدعى فيها بعد باسم المنير (كساته - برهان) أو «ابا سلامة» اي «ابو السلام». وقد تولى كل من «أوزيب» و«روفينوس» وصف وصول فرومنتيوس الى اثيوبيا ورحيله الى الاسكندرية ثم عودته الى اكسوم وصفا تفصيلياً. وقد ترجم فيها بعد الى لغة «الجعيز» ثم الى اللغة الأمهرية كتاب «روفينوس»، الذي يتناول بصفة خاصة وصول المسيحية الى اثيوبيا.

وطبقاً لكتاب «روفينوس»، انتابت شخصاً اسمه ميروبيوس الصوري رغبة في زيارة الديار الهندية (أسوة بالفيلسوف ميترودوروس) ومعه شابان من ذوي قرباه، هما الشقيقان فرومنتيوس وأيديسيوس. وفي طريق عودتهم هاجم سفينتهم سكان أحد الثغور (على البحر الأحمر؟) فمات ميروبيوس وأخذ الشقيقان الشابان الى ملك اكسوم، فصار اصغرهما ايديسيوس ساقي الملك بينما صار فرومنتيوس، نظراً لثقافته الاغريقية، مستشار الملك وخازنه، ومربياً للأمراء. وطبقاً لتاريخ وصول الشابين، يبدو ان هذا الملك كان هو «ايلا - أميدا» والد الملك «عيزانا». وحين مات «إيلي - عمده» صارت زوجته وصية على العرش، فطلبت من الشابين البقاء بجانبها لتصريف شؤون البلاد ريثما يبلغ ابنها سن اعتلاء العرش.

وربى فرومنتيوس الأمير الحدث على حب الديانة المسيحية الجديدة. وبعد ان مهد بذلك الطريق، ارتحل هو واخوه ايديسيوس. وبينما عاد ايديسيوس الى صور لرعاية أبويه المسنين، اتجه فرومنتيوس الى الاسكندرية لزيارة البطريرك اثناسيوس وحدثه عما تكنه العائلة الملكية في أكسوم من ود للمسيحية، مهيباً باثناسيوس أن يرسل مطراناً الى هناك. ولما كان البطريرك عازفاً عن ارسال مطران ليست لديه معرفة لا بلغة البلاد ولا بعاداتها، فقد رسم فرومنتيوس نفسه مطراناً لكنيسة اكسوم واعاده الى اثيوبيا،

حيث قام فرومنتيوس بتعميد الملك وجميع العائلة الملكية(٣). ومنذئذ انتشرت المسيحية في أكسوم. ويلوح ان أول ملك مسيحي قام بتعليمه وتعميده فرومنتيوس كان «عيزانا» ابن «إيلي – عمده». وثمة سبب قوي للاعتقاد بأن المثل الذي ضربه الملك والعائلة الملكية قد لقي اقتداء واسعاً. ومع ذلك فإن من الصعب تفهم كيف أن رجلاً لم يكن سوى أمين سر للملك وأمين لماله ثم مساعد للملكة الوالدة (صوفيه؟) يمكن أن يعلم الأمراء الدين المسيحي الجديد – الذي لم يكن دين البلاط ولا دين الدولة – على نحو ينال من مكانة «محرم» الذي لا يقهر، أعظم الأرباب والسلف الأعظم للملك. وربما كان فرومنتيوس أمين سر قديراً وادارياً موهوباً، ومن ثم استطاع، كما يزعم روفينوس، أن يؤثر بطريقة غير مباشرة على الأمراء الصغار الذين كانوا تحت رعايته لكي يعتنقوا الديانة المسيحية. غير انه لم يكن بامكان هذا التأثير ان يبلغ من القوة مبلغاً يتيح له أن يحل محل ديانة ظلت راسخة الجذور لزمن طويل دون أن يثير ضجة.

ومع الاقرار بالدور الذي لعبه فرومنتيوس، فإن ذلك التغيير الديني ينبغي اسناده الى سبب آخر. ونحن نعلم – بفضل الوثائق المنقوشة والمسكوكة وتقارير الرحالة – أن بلاط اكسوم كان على صلات ودية مع القسطنطينية، وأن مبادلات تجارية وثقافية كبيرة كانت تجري بين البلدين. ويشير اوزيب في كتابه «فيتا كونستانتيني» (حياة قسطنطين) الى وجود أثيوبيين في القسطنطينية على عهد قسطنطين، كما أن استخدام الكتابة الاغريقية واللغة الاغريقية في بلاط أكسوم أمر له مغزاه أيضاً، اذ كان الملك «زوسكاليس» في القرن الأول الميلادي يتكلم الاغريقية ويكتبها، وهو ما ينطبق على الملك عيزانا نفسه أيضاً. وكل هذا يشير بجلاء الى تفوق الثقافة الاغريقية في مملكة أكسوم(٤).

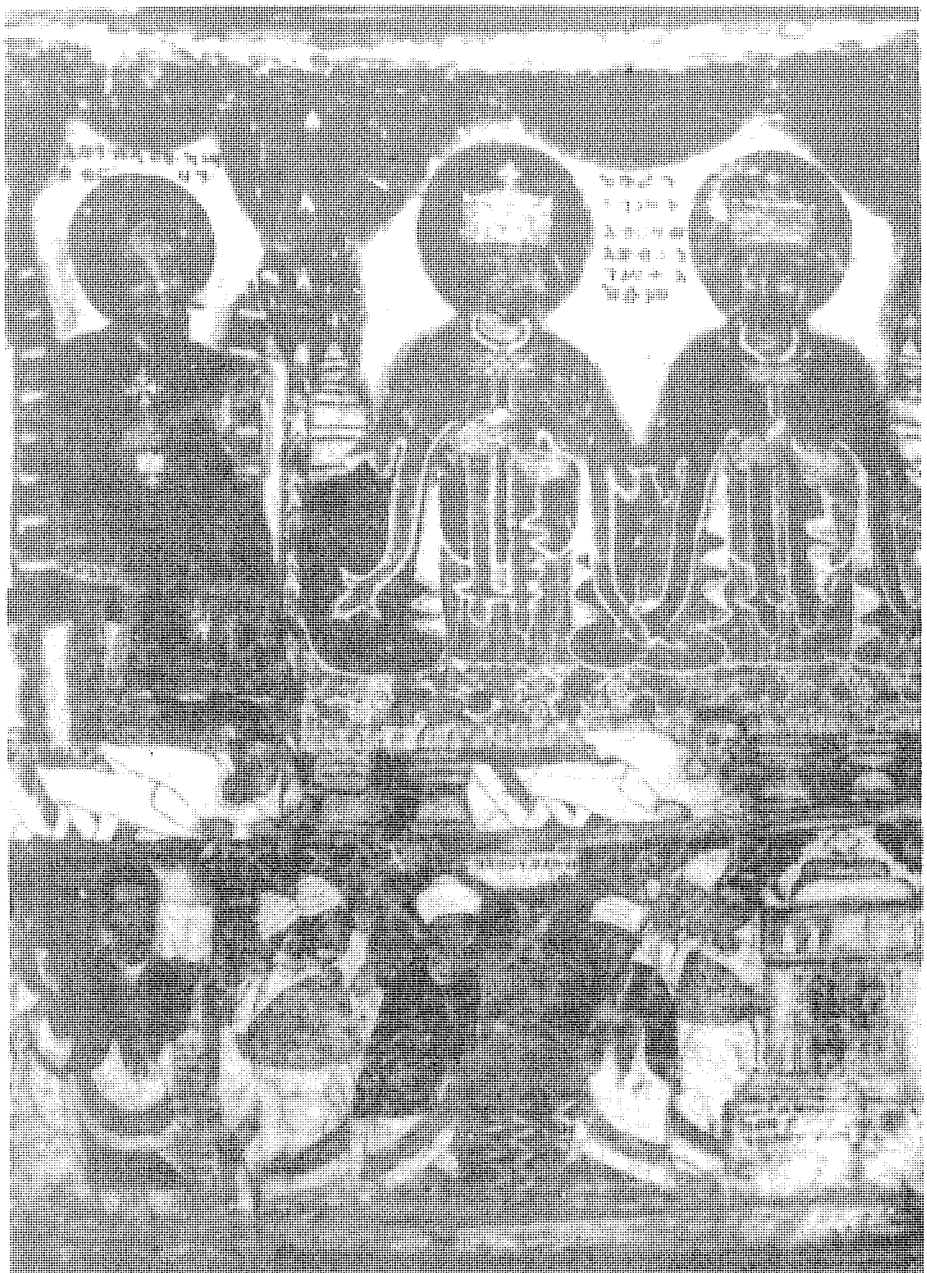
ونذكر أن قسطنطين الأكبر، امبراطور القسطنطينية الذي هزم ماكسينتيوس عام ٣١٢م، وترأس مجمع نيقية عام ٣٢٥م، كان معاصراً للملكين «ايلي – عمده» و«عيزانا». ولا ريب في أن فخامة بلاط قسطنطين وانعطافه نحو المسيحية كان موضوع حكايات ومبالغات رواها رحالة آخرون غير فرومنتيوس لم يرد ذكرهم في الاخبار. ولا بد أن هذا كله قد ترك أثراً عميقاً في بلاط اكسوم وفي فرومنتيوس نفسه، الذي كان اغريقياً فينيقياً بالمولد ونتاجاً لهذه الثقافة والديانة، والذي وجد في نهاية الأمر ان الملك وعائلته على استعداد لاعتناق المسيحية الجديدة التي كانت قد انتشرت بالفعل انتشاراً واسعاً في بلاط القسطنطينية.

غير أنه يحتمل أن بلاط أكسوم لم يقدم على هذه الخطوة دون شيء من التحرج ويبدو أن رحيل فرومنتيوس الى الاسكندرية وعودته الى أكسوم مطراناً قد حدثا في جو من الحيرة والاستعداد استفاد منه المطران استفادة كاملة. وعلى أية حال فإن محرم الذي كان يوصف بأنه لا يقهر أمام أعدائه قد انهزم حين خذله ابنه امام المسيح. فانتصار علامة الصليب على الهلال أمر تشهد عليه النقوش والمسكوكات النقدية معاً.

وبطبيعة الحال، فإن الانتقال من ديانة لأخرى ليس أمراً يسيراً في أية ظروف، ولا بد أنه كان أكثر عسراً لأولئك الملوك الذين كانوا يحبون الههم باعتباره أباهم. وقد كان شرف أي ملك يقرن دائماً بمعبوده وكانت مصالح البلاط الملكي ومصالح كبار رجال الدين تكاد أن تكون متطابقة في كل مكان

(٣) Cosmas Indicopleustes - Les Edit. du Cerf. Paris, pp. 77-78. Wallis Budge - The Netherlands - 1966, pp. 142-150, Conti Rossini, pp. 145-160.

(٤) Wilfred H. Schoff - New-York, London, Bombay and Calcutta, 1912, pp. 60-67.



الملك فرومنتيوس أبرهة (عيزانا) وأخوه أصبحة من كنيسة أبرهة وأصبحة (القرن السابع عشر)

تقريباً. وعندما كان ملك مثل «عيزانا» يصف ربه بأنه «لا يقهر»، فإنه كان في الحقيقة يصف نفسه فقط، ساعياً من خلال ذلك الى اضفاء هذه الصفة على ذاته.

من ذلك يمكننا أن نتصور المصاعب التي كان على «عيزانا» أن يواجهها، مثلما حدث لمعاصره قسطنطين الأكبر. فعلى الرغم من أن امبراطور القسطنطينية كان يترأس المجامع المسيحية ويفصل في الخلافات الدينية بين البطاركة، الا أنه لم يُعمَّد الا على فراش موته، لأنه كان يخشى ان يخونه المؤمنون بالدين القديم من عباد زيوس وآريس(٥).

وبالمثل، كما أوضح «جويدي» و«كونتي روسيني»، نجد أن الخوف أو الكبرياء قد دفع الملك عيزانا وعائلته الى عدم التخلي فجأة عن معبودهم القديم واعتناق المسيحية ما بين يوم وليلة. وان النقش الشهير الذي سجلته بعثة أكسوم الألمانية (ب.أ.أ. - D.A.E) في المجلد الثاني من أعمالها، والذي يبدأ بهذه الكلمات «بعون اله السموات والأرض...» ويعتبره جميع الأثيوبيين أول اشارة من جانب عيزانا الى اعتناقه المسيحية - هذا النقش يوضح بجلاء رغبة الملك في ادماج الدين الجديد مع الايمان القديم بالمعبودين «بهر» و«ميدر»، عن طريق تجنب أي ذكر لاسم المسيح أو لوحدة المسيح مع الله أو للثالوث الذي يشكله مع الآب والروح القدس(٦). فعبارة «رب السماوات والأرض» - «اجزيئا وسماي ومدر» - التي نطق بها لأول مرة في القرن الرابع أول ملك مسيحي - قد ظلت تستخدم على الدوام الى يومنا هذا.

ويلاحظ أنه لا الكتب الأجنبية ولا الروايات المحلية التي نشرت حتى الآن تبين تاريخاً محدداً لدخول المسيحية أكسوم. فكتاب تاريخ الملوك، «تاريكه - نجست»، وكتاب «جدله - تكله - هيماموت» ايضاً يقرران أن الأخوين فرومنتيوس وأيديسيوس وصلا عام ٢٥٧م.، وأن فرومنتيوس عاد الى أكسوم مطراناً في عام ٣١٥م.(٧)، على حين أن مصادر أخرى من ذات النوع تذكر التواريخ ٣٣٣م. و٣٤٣م. و٣٥٠م. وغيرها. الا أن جميع هذه التواريخ تبدو معتسفة. وتقرر بعض الأعمال الأجنبية أن الملك «إيلي - عمده» والد الملك «عيزانا» قد توفي حوالى ٣٢٠ - ٣٢٥م؛ فاذا اعتبرنا أن سن الخامسة عشرة هي سن الرشد آنئذ، ووضعنا في الاعتبار فترة مناسبة لرحيل فرومنتيوس وعودته، نجد أن تعميد «عيزانا» لا بد وأنه قد حدث ما بين ٣٥٠م. و٣٦٠م(٨).

ونظراً لانعدام الوثائق الأصلية التي يمكن الاعتماد عليها، فإن المؤلفين المعاصرين يقررون ببساطة، وعلى سبيل التزام الحيطة، أن المسيحية دخلت اثيوبيا في القرن الرابع الميلادي.

والواقع أنه يوجد نقش بالحروف الاغريقية اكتشف في فيلة، يذكر زيارة قام بها في عام ٣٦٠م. نائب ملك من أكسوم، وهو مسيحي اسمه «أبراتثيوس»، لقيصر الروم الذي تلقاه بالتكريم اللائق بمن في مكانته(٩). ولا بد ان هذا الامبراطور كان كونستانس الثاني (٣٤١ - ٣٦٨) ابن قسطنطين الأكبر الذي كان على الرغم من كونه مسيحياً قد تبنى مذهب آريوس الذي أنكر وحدة اقانيم الثالوث الأقدس وتوحد جوهرها وتجاسدها، وأنكر بالتالي كمال تساوي يسوع المسيح مع الآب. وكان مجمع

---

(٥) Euseblus of Pamphylia - Paris, pp. 366-368; 418-422.

(٦) E. Cerulli, Roma, 1956, pp. 16-21.

(٧) W. Budge - 146-150. I. Guidi, Roma, pp. 427-430. Tekle Haymanot. London, II. Vol. 1906.

(٨) C. Conti Rossini, pp. 148-149.

(٩) IV Congresso Internazionale di Studi Etiopici, Accademia dei Lincei 1974, Vol. I, p. 174.

نيقية الذي انعقد عام ٣٢٥ برئاسة قسطنطين الأكبر والد كونستانس الثاني قد أدان هذا المذهب ووسمه بالهرطقة.

وكان من ألدّ اعداء آريوس البطريرك اثناسيوس بالذات الذي رسَّم فرومنتيوس مطراناً لأكسوم. وقد تعرض هذا البطريرك نفسه للعزل بأمر من الامبراطور شبه المرتد، الذي عين مكانه شخصاً يسمى جورجيوس ويظاهر المذهب الآريوسي.

ولم يكن منتظراً أن يسر امبراطور القسطنطينية هذا بنبأ مقدم فرومنتيوس - وهو المناصر الغيور للبطريرك اثناسيوس - الى اكسوم. وعلى ذلك فقد أرسل الامبراطور من فوره رسالة الى الملك «أيزانز» (عيزانا) وأخيه (سيزانا)، مضفياً عليهما بسخاء لقب «أخوي المفخمين»، وطالبا منها بلهجة ودية ارجاع فرومنتيوس الى الاسكندرية حتى يبت في موضوعه البطريرك الجديد جورجيوس وزملاؤه، لأنهم الوحيدون الذين لهم سلطة تقرير مدى جدارة فرومنتيوس برئاسة مطرانية اكسوم.

ولا توجد لدينا للأسف الوثيقة التي كان يمكن ان تكشف عن رد فعل الأخوين أثر تسلم هذه الرسالة. ورغم أن المصالح الوطنية كانت تضطرهما الى الحفاظ على العلاقات الودية مع امبراطور القسطنطينية القوي، الا أنهما فيما يبدو لم يستجيبا للطلب. وتؤكد كل المصادر المحلية ان فرومنتيوس استمر ينهض بمهامه الاسقفية في سلام حتى نهاية حياته، اذ ان نص «سيناكساريوم Synaxarium» - (وهو نوع من سير القديسين) الذي يصف عهد اسقفيته ينتهي بالعبارة التالية: «. . . حل (أي فرومنتيوس) ببلاد الاجعازي (أي اثيوبيا) خلال عهدي «أبرهة» و«أصبحة» (عيزانا وأخوه أصبحة) وبشر بسلام سيدنا يسوع المسيح في جميع أنحاء البلاد؛ ولهذا يسمى «أبّا سلامة» (أبو السلام). وبعد ان قاد شعب اثيوبيا الى الايمان (المسيحي) مات في سلام الرب»(١٠).

انتشار المسيحية

هناك اعتراف عام بأن المسيحية قد دخلت وانتشرت في أثيوبيا على يد المطران فرومنتيوس والملكين الأخوين (أبرهة وأصبحة)، وهو ما تؤكده أيضاً جميع المصادر المحلية. ومن الحقائق الغريبة في الأمر عدم وجود أي اثر في مختلف النصوص التي ترجع لهذه الفترة والمكتوبة قبل نهاية القرن التاسع لاسم «عيزانا» الذي يبدو انه كان الاسم الوثني للملك. كما أنه لا يوجد - في حدود علمي - أي مكتوب نقشي أو مسكوك يحمل اسم أبرهة، الذي يفترض أنه اسم التعميد للملك. وبذلك فإن لدينا اسمين مختلفين لنفس الشخص الذي كان - لحسن الحظ أو لسوئه - شبيهاً بقسطنطين الأكبر من حيث كونه نصف وثني ونصف مسيحي خلال توليه العرش. وكثيراً ما نجد أن النصوص تناقض بعضها مناقضة صارخة؛ كما أن أسماء العديد من الملوك المحفورة بوضوح على لوحات أكسوم وعملتها النقدية لا تظهر في القوائم التي وضعها المؤلفون المحليون. وعلى ذلك فإن الرجل الذي كان في نظر بعض المؤلفين وثنياً كان في نظر مؤلفين آخرين مؤمناً حسب شريعة موسى.

وبينما يعتبر البعض ان «أبرهة» هو اسم التعميد للملك «عيزانا»، فإن النقش الشهير بلغة الجعيز التي تبين حركات النطق، والمسجل تحت رقم N.11 في سجلات البعثة الأثرية الألمانية (ب. أ. أ. D.A.E)،

---

(١٠) Tekle Tsadik Mekouria, 1966-pp. 203-217.

الذي يعتبر جميع الباحثين الأثيوبيين أنه نقش يعود لأيام انتقال هذا الملك للمسيحية - هذا النقش لا يذكر سوى اسم «عيزانا». وفي هذه الحالة لا يمكن ان يكون «أبرهة» هو اسم التعميد للملك. غير أننا لا نعرف على وجه التحقيق نظام أسماء الأعلام الذي كان سائداً في مملكة أكسوم في القرن الرابع، ولا ندري ما اذا كانت لملوك أكسوم أيضاً اسماء أعلام في طفولتهم تختلف عن أسماء التعميد والأسماء الملكية، كما كانت الحال بالنسبة لملوك الأسر الامحرية المنحدرة مما يسمى بالأصل السليماني (في القرنين الثالث عشر والعشرين). وقد كان تأثير الأخوين في البلاد تأثيراً ضخماً، ولا سيما أبرهة الذي بنى مدينة أكسوم وشيد كاتدرائيتها الأولى. وهناك كنائس وأديرة كثيرة تدّعي أنه منشئها، وان كان ينبغي الا ننسى المساعدة الضخمة التي قدمها له في هذا الصدد اخوه «أصبحة» والمطران فرومنتيوس، وغيرهم من القادة الدينيين الذين اغفلتهم المصادر.

ويبدو ان مملكة أكسوم المسيحية كان يحكمها ثالوث ثيوقراطي من «أبرهة وأصبحة وسلامة»؛ والأخير هو الاسم الذي يطلقه رجال الكنيسة على فرومنتيوس. كما يبدو أن أول تبشير جرى بالدين الجديد لقي ترحاباً من قسم من السكان يمت للبلاط بوشائج اثنية وثقافية. وكان هذا القسم يشمل سبئيين وأحباشاً وحميريين من أصل سامي، وهم اسلاف التيجري والأمهريين الذين تقبلوا دين ملوكهم بلا صعوبة.

وبعد دخول المسيحية، وبازدياد عدد معتنقي الديانة الجديدة، تكاثرت الرحلات الى الأراضي المقدسة. وفي خطاب مرسل من القدس عام ٣٨٦م. كتبت واحدة اسمها باولا الى صديقتها مارسيلا التي كانت تقطن روما: «وماذا نقول عن الأرمن . . عن الهنود والاثيوبيين الذين يهرعون الى هذا المكان (بيت المقدس)، حيث يسفرون عن فضائل مثالية». كما يذكر القديس جيروم حبر الكنيسة اللاتينية استمرار تدفق الاثيوبيين الى الأراضي المقدسة(١١).

وكان انتشار المسيحية في مملكة أكسوم خلال القرنين الخامس والسادس نتيجة جهد رجال كنيسة تصفهم النصوص التقليدية بأنهم «صآد قان» (عادلون) أو «تصاتّو - كدّوسان» (تسعة قديسين). ولكن مقدمهم لمملكة أكسوم زج بها في الخلافات الدينية التي كانت مستعرّة آنذاك في المدن الكبرى بالامبراطورية البيزنطية.

فعلى الرغم من أن المسيحية ولدت في قرية صغيرة بفلسطين وبدا أنها ديانة الفقير والمضطهد، الا انها منذ أن أعلن الامبراطور قسطنطين مرسوم ميلانو عام ٣١٣م. أصبحت ديانة دولة، فنظمت الكنائس نفسها بمساعدة الأباطرة المسيحيين، وتقاسم البابوات والبطاركة مناطق الامبراطورية المسيحية شرقاً وغرباً، وانتهت الى غير رجعة اضطهادات وملاحقات عهد الامبراطور ديوكليتيان. (اقلا ديونوس)، فساد السلام روما والاسكندرية ودمشق وانطاكية وكل الأماكن التي شهدت أعنف صنوف الاضهاد(١٢).

وصار البطاركة وأحبار الكنيسة يعيشون حياة رغدة نسبياً، يقضون جل أوقاتهم في قراءة الكتب المقدسة وتأمل فقرات معينة يؤمل أن تلقي ضوءاً على طبيعة مؤسس الديانة المسيحية. وأدى التبحر في الاطلاع والتأمل الى افكار من نوع ادى الى بث بذور التنافر بين المسيحيين. وعلى هذا النحو أصبح الدين الذي يقوم على المحبة والسلام والتآخي وقد تحول الى حلبة تناحر، الى درجة بلغ فيها خلفاء

(١١) E. Cerulli, Roma, 1943, pp. 1-2.

(١٢) ينبغي ألا ننسى أن القرون الخامس والسادس والسابع كانت تتميز بخلافات دينية بالغة العنف - تصاحبها اضطهادات جديدة لجماعات الأقليات التي أدينت في هذه الخلافات.



رسم من كنيسة جوه: الحواريون (القرن الخامس عشر)

الحواريون والشهداء حد التضارب بالأيدي أحياناً، وصار التأمل العميق في طبيعة المسيح الالهية - البشرية وفي الثالوث منبعاً كبيراً لنزاع لا ينضب، كما سنرى.

فبعد إدانة آريوس عام ٣٢٥م.، جاء دور بطريرك القسطنطينية نسطوريوس لاثارة مجادلة كبرى عندما نادى جهراً بانسانية المسيح، معارضاً بذلك العقيدة التي أقرها مجمع نيقية عن طبيعة المسيح الالهية(١٣). وطبقاً لما يقول به نسطوريوس، فإن طبيعتي المسيح (الانسانية والالهية) متمايزتان ومنفصلتان تماماً. ومريم العذراء هي ام المسيح كبشر وليس كاله، ومن ثم لا ينبغي ان يطلق عليها أم الرب (ثيوتوكوس)، بل أم المسيح (كريستوكوس) فحسب.

وقد لقيت هذه الدعوى معارضة عنيفة من كيرلس بطريرك الاسكندرية ومن البابا سيلستين بابا روما. وأدين نسطوريوس في افسوس (عام ٤٣١م) بالهرطقة وألقي به في السجن.

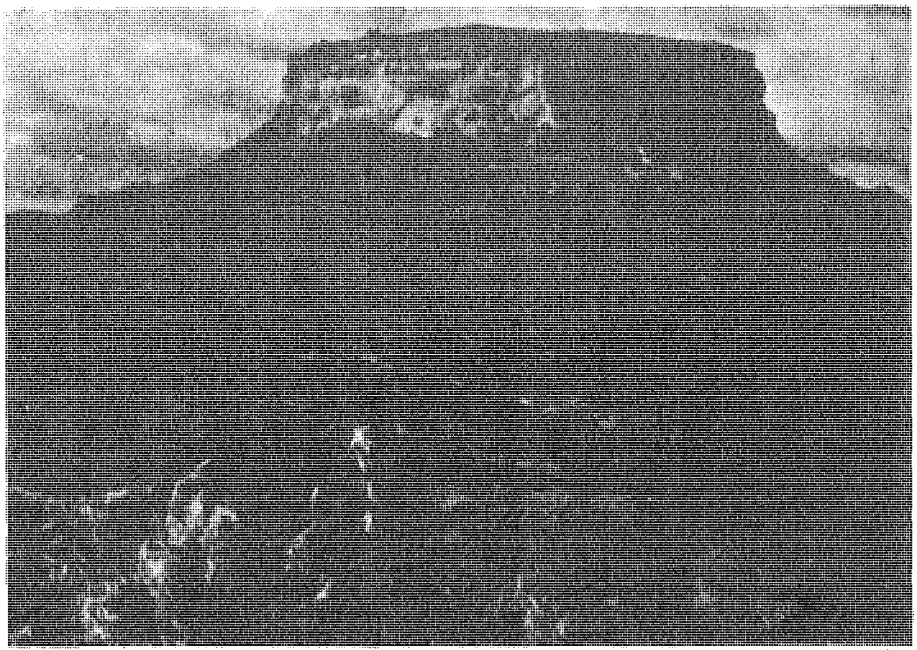
وجاء خليفته فلافيان، بطريرك القسطنطينية، فطرح فكرة أخرى حول طبيعتي المسيح (البشرية والالهية)، ولكن دون أن ينكر أن المسيح انسان حق واله حق. ففي رأي فلافيان أن كلا من طبيعتي المسيح كاملة ومتميزة، وهما متحدتان فقط في شخص المسيح. غير أن ديوسكوروس بطريرك الاسكندرية عارض وجهة النظر هذه على الفور، قائلاً أن المسيح له طبيعة واحدة فحسب، هي طبيعة بشرية والهية في نفس الوقت. وقد كان هذا هو مذهب الطبيعة الواحدة الذي كان أكبر المدافعين عنه هو الحبر أوتوخيس (Eutyches) ولم تلبث المناظرة الدقيقة أن تدهورت الى شجار زاعق خلال المجمع الذي عقد في افسوس عام ٤٤٢م. وقد خرج ديوسكورس وأوتوخيس ظافرين من هذه المقارعة العاصفة؛ أما الخاسر فقد ضربه خصومه ضرباً مبرحاً، ولم يلبث أن مات بعد ذلك بفترة وجيزة، على حين رجع ديوسكوروس مظفراً الى الاسكندرية.

على ان هذا النصر الباهظ الثمن الذي أحرزه القائلون بالطبيعة الواحدة كان قصير الأجل. فلدى وفاة حليفهم الامبراطور ثيو دوسيوس الثاني، استولى على السلطة قائد جيوشه مارسيان، ولم يلبث الموضوع الملتهب المتعلق بطبيعة المسيح أن أثير من جديد، فعقد مجمع مؤلف من ٦٣٦ اسقفا وحبراً عام ٤٥١م. في خلقدونية برئاسة الامبراطور مارسيان. وبلغت المناقشة من الاختلاط والتشابك حداً استحال معه تمييز الغالب من المغلوب، وتحتم وضع المسألة بين يدي بابا روما الذي كان يعتبر الرأس الأعلى لجميع الكنائس. وعندما أعلن البابا ليو الأكبر في رسالة أنه يؤيد عقيدة الطبيعتين المنفصلتين للمسيح، أدان المجلس ديوسكوروس، وأصبح خصومه مسلحين في يد بحكم الرأس الأعلى للكنيسة العالمية وفي اليد الأخرى بتأييد الامبراطور مارسيان، فلم يتورعوا عن الاعتداء الجسدي عليه وضربه انتقاما للمعاملة السيئة التي لقيها البطريرك فلافيان من قبل. ثم نفي ديوسكوروس بعد ذلك الى جزيرة في غلاطية (جالاتيا).

ونحن نعلم أن مملكة أكسوم كانت منذ أيام فرومنتيوس تقع في دائرة الاختصاص الديني لبطريركية الاسكندرية التي ظلت تمد المملكة بمطرانها وشريعتها. فمن الطبيعي اذن أن كان ملوك اكسوم ومطارنتها من معتنقي مذهب الطبيعة الواحدة، الذي صار يعرف في اثيوبيا بعد ذلك باسم «توحدو». ونتيجة لذلك، فإن أنباء سوء المعاملة التي لقيها بطريركهم قد أثارت لديهم كراهية عظمى لانصار عقيدة الطبيعتين. وقد أصبحت حياة معتنقي مذهب الطبيعة الواحدة لا تطاق في جميع انحاء امبراطورية القسطنطينية، اذ اخذ المنتصرون في خلقدونية يتهددونهم ويهينونهم بلا انقطاع. ولكي

---

(١٣) ان ما نورده هنا هو بالضرورة ملخص بالغ الايجاز لتاريخ الكنيسة خلال تلك الفترة.



١

٢



١ : دبري دامو عن بعد
٢ : السبيل الى كنيسة الدير في دبري دامو

ينجو القائلون بالطبيعة الواحدة من هذه الحياة التي لا تحتمل، اخذوا يفرون الى مصر والجزيرة العربية، وكانت تلك هي الفترة التي وصل فيها القديسون التسعة المشهورون الى مملكة اكسوم بحثاً عن الأمان لدى اولئك الذين يشاطرونهم نفس الاعتقاد.

ويشير تاريخ «تاريكه - نجست» بايجاز الى وصول القديسين التسعة فيقول: «ولدت سلعدوبة ايلا أميدا، وخلال عهده وفد من رومية (القسطنطينية) القديسون التسعة، فبنوا (استراتئو) الدين وقواعد الرهبنة»[١٤]. وطبقاً لبعض المصادر المحلية، فقد حكم ايلي - عمده بين عامي ٤٦٠ و٤٧٠م.، أو بين عامي ٤٨٧ و٤٩٧م. طبقاً لمصادر أخرى؛ وعلى ذلك فإن تاريخ وصول القديسين ينبغي وضعه بين هذين التاريخين. ويعتقد بعض الكتاب أنهم وصلوا في مستهل القرن السادس (على عهدي كالب وجبره - مسقل)، وان بدا هذا أقل احتمالاً.

وقد تناول بعض الرهبان في سير مفصلة فيها بعد وصف وصول وبشارة بعض هؤلاء القديسين - وهم أرحاوي - بنطليون - جيرما - أفصى؛ غير أن هذه السير تغص لسوء الحظ بالخوارق ومظاهر التقشف والزهد الى الحد الذي يجعل قارىء اليوم يقف منها موقف الارتياب.

وقد حمل هؤلاء بشارتهم الى شتى الأماكن، فذهب «أبا أرجاوي» الى دبري دامو، حيث يبدو أن عبادة الصل كانت متأصلة بين السكان المحليين؛ وأقام «أبا جيريما» في مطهرة (مديره) بالقرب من سنعافي؛ و«أبا آفتصة» في ييحا، حيث لا يزال بوسع المرء أن يرى المعبد العتيق المكرس للإله «المقاة» (القرن الخامس) قائماً حتى اليوم. وبقي بنطليون وليقانوس في مدينة اكسوم، بينما ذهب «ألف» و«صيهما» الى بهزان وصديا - صيدينيا، واستقر بمآتا وجوبا في منطقة جير علته.

ولا تزال الأديرة والكنائس التي كرست لهؤلاء القديسين التسعة قائمة حتى اليوم في الأماكن التي عاشوا فيها، وبعضها منحوت في جلاميد هائلة ولا يمكن الوصول اليها الا بتسلق. وفي دير أبا يمآتا المشيد أيضاً على صخرة في «جيرعلته»، ثمة رسم دائري ملون يمثل القديسين التسعة.

وطد هؤلاء القديسون اذن اقدام المسيحية كما ادخلها فرومنتيوس في القرن الرابع، وساعدهم في ذلك بطبيعة الحال خلفاء الملك «عيزانا» على العرش، مثل كالب وجبره - مسقل اللذين كانا مسيحيين غيورين. وقد تمسك القديسون التسعة في تعليم الانجيل بعقيدة الطبيعة الواحدة للمسيح، التي عانى في سبيلها كثير من المسيحيين الاضطهاد والنفي.

على أن الفضل في انتشار المسيحية لم يكن راجعاً الى هؤلاء الرهبان التسعة وحدهم الذين وفدوا من الامبراطورية البيزنطية؛ فلا ريب في أن مئات من الرهبان الوطنيين والأجانب قد ساعدوا على نشر العقيدة المسيحية تحت ارشاد العديد من المطارنة، مثل «ابا مطاعي» الشهير، وان لم تحظ اسماؤهم بذكر في الحوليات التاريخية مثلما حدث مع القديسين التسعة[١٥]. وقد بدأت المسيحية من المناطق الشمالية ثم تغلغلت في مقاطعات أخرى، مثل بجمدر وجوجام وشوا، بين جماعات السكان من البجة والأمهرة، وأفادت في انتشارها من الدعم المتفاني من الملوك والملكات والأمراء والحكام وكبار رجال الكنيسة، الذين دأبوا على بناء الكثير من الكنائس والأديرة في اماكن ازدهار العقائد التقاليدية.

وكانت معابد الآلهة في أكسوم قبل المسيحية وفي الفترة السابقة على قيام مملكة أكسوم تبنى في أغلب الأحيان في مواقع مرتفعة حيث توجد أشجار عالية ومجار مائية، وهو ما تشهد به «دبري - دامو» و«أبا

(١٤) Emin Bey-Studii - Storico - Dogmatici Sulla Chiesa Giacobina. Roma Tip. Caluneta Tarique Neguest....

(١٥) I. Guidi. Guedle Aregawi: Vita Ze-Mikael Aregawi, Roma 1896, pp. 19-30.

بنتليون» و«أبا مطاعى الشمزاني» و«ييحا» وغيرها من المعابد التي حولت كلها الى كنائس بعد اعتناق ملوك أكسوم للمسيحية.

ونأتي الآن الى موضوع اللغة التي كان يستخدمها في تعليم الانجيل هؤلاء الرهبان الذين قدموا من جميع أركان الامبراطورية البيزنطية. لقد كان المنتمون الى الطبقات العليا القريبة الى البلاط على درجات متفاوتة من الالمام بعدة لغات، ومن القدرة على التفاهم بالاغريقية او السريانية او العربية، ومن ثم فلم تكن توجد في حالتهم أية مشكلة لغوية. ولكن الرهبان الأجانب اضطروا الى دراسة لغة البلاد قبل أن يتاح لهم التفاهم مع عامة السكان. ومن المحتمل أن بعض الحجاج الذين زاروا الأماكن المقدسة في بيت المقدس والقسطنطينية والاسكندرية كانوا يعرفون الاغريقية أو السريانية، مما أتاح لهم القيام بدور المترجمين أو النهوض بتعليم الشعب مباشرة بأنفسهم.

ولعل هذا هو الذي يفسر لنا سبب وجود أسماء على النمط الاغريقي وكلمات سريانية في عديد من النصوص الدينية، مثل أرامي (وثني) وعرب (يوم الجمعة) وهايمانوت (ايمان) وخطي (خطيئة) ومهيمن (مؤمن) وملاك (ملاك) وملكوت (ألوهية)، الخ...

مملكة أكسوم وجنوب الجزيرة العربية

من المعروف منذ عهد طويل أن جماعات من أصل ساميّ عبرت البحر الأحمر واستقرت في شمال اثيوبيا، ربما بحثاً عن أراض أخصب وأغنى من بلادهم الصحراوية. وكانت حضارة النازحين الجدد أرقى من حضارة سكان البلاد الأصليين (ومعظمهم من أحاو البجة ومن اليهم من ذوي الأصل الكوشي)، فانتهوا الى الاستيلاء على السلطة المركزية وتأسيس مدن ييحا ومطهرة وأكسوم وغيرها من الأماكن.

وقد بقيت جماعات أخرى من نفس الأصل (سبئيين وحميريين) في وطنها الأصلي، على حين أن الذين عبروا البحر الأحمر تزايدت قوتهم باطراد الى الحد الذي بدا به للبعض أن حكومة أكسوم المركزية قد بلغت من القوة درجة تبرر اعتبارها ثالث قوة عالمية. ويلاحظ أن القلاع الملكية والمعابد والدوائر والأهِلّة التي ترمز للالهين «محرم» و«المقاه» كلها تؤكد شخصية هذين الشعبين اللذين عاشا على كلا جانبي البحر الأحمر(١٦).

ان هذه القرابة الاثنية والثقافية تفسر الى حد كبير الغزو الأكسومي لجنوب الجزيرة العربية التي كان الأكسوميون يعتبرونها موطن أجدادهم، كما تفسر لماذا كان الملك «عيزانا» يؤكد في ألقابه الرسمية على لقب «ملوك أكسوم وحمير وسبأ»، تمييزاً له عن اولئك الذين كانوا يسمون أنفسهم كاسو وصيامو وبجة، والذين قدموا من المناطق الغربية أو كانوا ببساطة من مواطني ديار كوش.

وحتى مستهل القرن الرابع، ظل الساميون المقيمون على ساحل البحر الأحمر المقابل يمارسون نفس الديانات التقليدية، وهي عبادة القمر الذي يرمز اليه الهلال ولا تزال تجله الدول العربية الاسلامية حتى اليوم. ولعل النبي محمدا لم يطلب ممن اعتنقوا الاسلام أن يتخلوا عن ذلك الرمز، على حين أن أساقفة أكسوم مارسوا الضغط على الملوك المسيحيين كي يستعيضوا عنه بالرمز المسيحي وهو الصليب.

---

(١٦) Storia di Ethiopia, C. Conti Rossini, Cap. IV.

الصراع بين المسيحيين واليهود في جنوب الجزيرة العربية

كانت هناك جماعات أخرى تعتنق الديانة اليهودية وتعيش منذ زمن طويل في نفس هذه المنطقة من جنوب الجزيرة العربية، حيث يحتمل أن تكون قد وفدت عليها منذ تخريب أورشليم على يد «نبوخذنصر» (بختنصر) وجيوشه عام ٥٨٧ق.م.ثم احتلال البطالسة لها بعد ذلك. غير أن أعداد هذه الجماعات تزايدت تزايداً كبيراً بعد تدمير أورشليم للمرة الثالثة على يد الامبراطور تيتوس عام ٧٠م، عندما لقي اليهود الذين اضطهدهم الرومان حفاوة مواطنيهم المستقرين في جنوب الجزيرة العربية.

وفضلاً عن ذلك فإن كثيرين من معتنقي مذهب الطبيعة الواحدة للمسيح غادروا الامبراطورية الرومانية لاجئين الى الجزيرة العربية بعد مجمع نيقية؛ وزاد عددهم بعد مجمع خلقدونية، عندما أدين الآريوسيون (أتباع الأسقف آريوس) وصاروا عرضة للاضطهاد. وهناك في الجزيرة العربية تمكنوا بمساعدة ملوك أكسوم ومسيحييها من تشكيل طائفة قوية. وتحت حكم الامبراطور جوستين الأول (٥١٨ - ٥٢٧م)، طرد كثير من السوريين معتنقي مذهب الطبيعة الواحدة بأمر من الامبراطور، فانتقلوا الى الحيرة (وهي مدينة النجف القائمة اليوم في العراق)، ومن هناك ارتحلوا الى جنوب الجزيرة العربية حيث استقروا في نجران(١٧).

وبين هاتين الطائفتين من اليهود والمسيحيين كانت توجد المجموعة العربية بأسرها، ومن بينها اليمنيون والكتبان والحضارمة، تواصل التشبث بعبادتها التقليدية للقمر وتنجذب بطبيعة الحال نحو حمى الكعبة المزدهر. ولم يكن الرسول محمد صلى الله عليه وسلم، نبي الاسلام ومحطم الأصنام قد ولد بعد. كان على هذه الأديان الثلاثة بالضرورة أن تتعايش جنباً الى جنب. غير أن المسيحيين - بفضل مساعدة الأكسوميين التي لم تنقطع - تزايد عددهم ونمت طائفتهم على خير نظام، فبنوا العديد من الكنائس، وصارت نجران وظفر مركزين كبيرين للثقافة المسيحية(١٨) وموقعين تجاريين رئيسيين(١٩).

كما أن اليهود، بما لديهم من مواهب في جميع المجالات، شكلوا لهم طائفة في سبأ وحمير، وسعوا للسيطرة على التجارة هناك. وبذلك استعرت منافسة حادة بين المسيحيين واليهود. وكان المسيحيون يعتبرون اليهود قتلة للرب مصيرهم أن يصلوا نار الجحيم بينما كان اليهود يثيرون حفيظة المسيحيين بتسميتهم «غوييم» (أغيارا) وغير يهود ووثنيين عبدة انسان.

وأدت نجاحات المسيحيين المرتبطين بأكسوم وبيزنطة وسوء المعاملة التي حاقت بمعتنقي الديانة اليهودية في بيزنطة والعالم الأكسومي، الى اذكاء الرغبة في الانتقام الفظيع بين المجتمعات اليهودية في جنوب الجزيرة العربية، كما تعرض العرب الذين كانوا على دين اسلافهم للتهديد باحتكار المسيحيين للعلاقات التجارية(٢٠)، وانتهوا الى الانحياز الى جانب اليهود. وربما كان للتبشير الذي قام به المسيحيون أثره أيضاً في تحزب الديانتين الأخريين معاً بسبب ما تعرضتا له من خطر مصدره الامبريالية الثقافية والدينية التي بدا أن المسيحية تمارسها.

---

(١٧) A History of Ethiopia. Vol. I, pp. 261-269.

(١٨) W. Budge. Brussels, 1861, pp. 743-747.

(١٩) هناك دراسة بالغة الأهمية عن هذه النقطة صدرت بالروسية وترجمت الى الألمانية، هي: N. Pigulewskaia, Byzanz auf den Wegen nach Indien, Akademie Verlag, Berlin (DDR), 1969(Deutsche Akademie der Wissenschaften zu Berlin, Berliner Byzantinische Arbeiten, Bd 36).

مذبحة المسيحيين في نجران على أيدي اليهود

أثناء حكم الامبراطور جوستين الأول في بيزنطة (٥١٨ - ٥٢٧م)، كان كالب ملكاً لأكسوم. وكانت تلك هي الفترة التي أقدم فيها اليهود بمعاونة الحميريين على ذبح المسيحيين في ظفر ونجران ويرد ذكر هذه الواقعة بصفة رئيسية في أعمال المؤلفين الدينيين لتلك الفترة، وهما بروكوبيوس وسرجيوس(٢١). ويلاحظ أنهما في كتاباتهما يطلقان الاسم اليوناني «هيليستايوس» على الملك الذي يطلق عليه نصنا المدون بلغة الجعيز اسم «كالب». وفي بعض الأحيان يصبح هذا الاسم «ايلي آصبعة»، الذي يحتمل ان يكون صيغة معربة. ويرد ذكر هذا الملك أيضاً باسم آخر هو «هيليسبايوس». وبالمثل نجد أن ملك حمير اليهودي الذي كان يعرف باسم «زوراح» او «ماسروك» قد اتخذ لنفسه الاسم اليهودي «يوسف» حين ارتقى الى السلطان، على حين ان المؤلفين العرب يطلقون عليه اسماء «ذو نواس» أو «دوناس» أو «ديمنوس» أو «ديميون» أو «دميانوس»(٢٢). وهو في النص الاثيوبي الذي يروي قصة مذبحة نجران يحمل اسم «فنجاس». وتفادياً للارتباك في ذهن القارىء، سأطلق في هذا الفصل على ملك أكسوم اسم «كالب» وعلى الملك اليهودي اسم «ذو نواس».

ان سرجيوس، الذي يزعم أنه جمع معلوماته من شهود عيان، يقدم الرواية التالية لما حدث، وهي رواية ترجمها «كونتي - روسيني» الى الايطالية في كتابه تاريخ اثيوبيا (Storia di Etiopia) . ان «ذو نواس» أو «ماسروق» ملك الحميريين قد اضطهد المسيحيين، مستعيناً في ذلك باليهود والوثنيين. ولذلك فقد ذهب المطران «توما» الى الحبشة طالباً العون فوجده، وعبر الاحباش، بقيادة المدعو «هيوانا»، البحر الأحمر واستعدوا لمهاجمة «ذو نواس». ولما كان ذو نواس أضعف من أن يصمد لمثل ذلك الجيش القوي، فقد أبرم معاهدة سلام مع القائد الحبشي «هيوانا»، الذي قفل راجعاً الى بلاده تاركاً وراءه قسماً من جيشه. ولم يكد القسم الأكبر من الجيش الاثيوبي يرجع الى الحبشة حتى قام ذو نواس بذبح مسيحيي ظفر غدراً وحرق جميع كنائسهم ومعهم الثلاثمائة جندي مسيحي الذين تركوا كحامية.

بيد أن أسوأ مذبحة وصفها المؤلفان عن هذه الفترة هي تلك التي حدثت عام ٥٢٣م. في نجران، أعلى المراكز المسيحية شأواً في التقدم. وكان بين شهدائها رجل مسن من النبلاء جليل المكانة اسمه الحارث (اريتاس)، يذكره النص الجعيزي باسم حيروث(٢٣).

حملة الملك كالب البحرية

كان «كالب» أو «ايلي - آصبحة» بن «عيزانا» أشهر أباطرة زمانه، يكاد صيته أن يتساوى مع صيت «عيزانا». وكان من أسباب شهرته حملته البحرية التي يرد ذكرها فيما يلي.

---

(٢٠) N. Pigulewskaia, 1969, p. 211sq.

(٢١) N. Pigulewskaia (1964) , relies on Other Sources.

(٢٢) C. Conti - Rossini, pp. 171-173.

(٢٣) المرجع السابق، ص ١٧٢.

بعد مذبحة عام ٥٢٣م. تمكن رجل اسمه «أميّة» من العودة الى أكسوم ونقل ما حدث للمسيحيين الى أسماع الملك كالب والمطران. كما هرب مسيحيون آخرون الى القسطنطينية لنقل الخبر للامبراطور جوستين، فبعث هذا بخطاب - عن طريق تيموثاوس بطريرك الاسكندرية - الى كالب يحثه على الثأر لسفك دماء المسيحيين.

ولنا أن نتصور أثر أنباء مذبحة المسيحيين على الامبراطورين. على أننا نعرف أن ارتباط بلاد سبأ وحمير اثنياً وثقافياً بامبراطورية أكسوم كان أكثر توثقاً بكثير من ارتباطها بامبراطورية بيزنطة. لذلك سارع الملك كالب بحشد جيش يمكن أن يكفل له النصر. ويقال انه قد حصل على ١٢٠٠٠٠ رجل و٦٠ سفينة حربية[٢٤] من الامبراطور جوستين[٢٥]، ولكن مؤلفين آخرين يقررون انه أبحر على سفنه الخاصة التي كانت راسية في ميناء «أدوليس»، وأن تعداد جيشه لم يتجاوز ٣٠٠٠٠ جندي[٢٦].

وتروي المصادر التقليدية أن الملك، بعد اتمام استعداداته العسكرية، ذهب الى دير ابا بنتليون - وهو واحد من القديسين التسعة كان آنئذ على قيد الحياة - ليطلب البركة من القديس لنفسه ولنجاحه في المعركة المزمعة، فوعده القديس الراهب العجوز بالنصر، وارتحل الملك الى سواحل جابازاس بالقرب من أدوليس، حيث كانت تجري الاستعدادات المكثفة للحرب.

وفي أواخر مايو عام ٥٢٥م.، أبحر كالب بسفنه جميعاً الى جنوب الجزيرة العربية، حيث كان الملك الحميري في انتظاره. ولكن الملك كالب وجيشه وصلوا في الواقع ليجدوا ميناء العدو محصناً بالسلاسل، ويحرسه جند متأهبون للذود عن أنفسهم.

ولم ينتظر الملك كالب نهاية المعركة، بل مضى يبحث عن مكان أنجع لانزال عسكره الى البر. وواتته الفرصة عندما دله احد أفراد عائلة ذي نواس ممن أسروا في المعركة على المكان المنشود، فنجح الملك بصحبة عشرين سفينة في الوصول الى البر، فأتيح له بذلك ارغام بقية الجنود الحميريين على الفرار. وخلال احتدام المعركة سقط ذو نواس أسيراً في يد الملك كالب ومعه سبعة من صحبه، فلم يتردد الملك كالب في قتله على الفور انتقاماً لسفك دماء المسيحيين.

وعندما انتهت المعركة، غزا الجيش المسيحي مدينة ظفر أولاً ثم مدينة نجران، وخرب الجنود المسيحيون بدورهم البلاد وذبحوا اعداء ديانتهم. وخلال هذه المجزرة، كان المسيحيون الذين لا يتحدثون لغة الجنود يرسمون علامة الصليب على أيديهم حتى يعرف الجنود أنهم من أبناء ملتهم فيبقون على حياتهم.[٢٧].

وفي نجران حضر الملك احتفالاً يمجد ذكرى الشهداء المسيحيين الذين فقدوا حياتهم في المذبحة. وقبل أن يعود الى أكسوم، أمر ببناء نصب في مأرب تذكاراً لهذا النصر[٢٨]. كما أقام كالب أيضاً نصباً في مأرب تخليداً لاسمه في أعين الأجيال اللاحقة[٢٩].

وقبل أن يرجع الملك الى أكسوم ترك رجلاً اسمه «سهيفاع اشواع» وراءه في ظفر، تحت امرة أبرهة الذي كان أشهر قائد مسيحي في بلاط أكسوم وفي جنوب الجزيرة العربية على السواء.

---

(٢٤) ترى ن. بيجوليفسكايا - بحق - في كتابها الذي سبقت الاشارة اليه (ص ٢٤٣) أن هذه الأرقام غير دقيقة.

(٢٥) توجد وجهات نظر أخرى بشأن أصل هذا الأسطول، أوردتها بيجوليفسكايا في كتابها المشار اليه آنفاً، ص ٢٤٣.

(٢٦) A. Caquot, 1965. pp. 223-225.

(٢٧) Irfan Shahid. Brussels. pp. 242-276.

(٢٨) Conti - Rossini, pp. 167-201.

(٢٩) W. Budge, pp. 261-264.

وبقيت في جنوب الجزيرة العربية حامية تعدادها ١٠٠٠٠ رجل، واستقبل كالب في بلاده بعد حملته المظفرة استقبال الفاتحين، كما هو منتظر. غير أنه بدلاً من أن يستمتع بحلاوة ثمار النصر، آثر هذا الملك – الذي كان متديناً ومحارباً في آن واحد – آثر أن يلوذ بدير ابا بنتليون ليحيا حياة الرهبنة، مقسماً ألا يغادره ابداً، وأرسل تاجه الى أورشليم طالباً من المطران يوحنا أن يعلقه أمام باب كنيسة القيامة وفاء بنذر كان قد نذره قبل حملته.

وتتعدد المصادر القديمة التي تتحدث عن هذه المعركة، فمنها ما هو يوناني ومنها ما هو عربي الأصل، بالاضافة الى مجموعة ثالثة كتبت محلياً منذ القرن السادس عشر فصاعداً. ولكن الملاحظ أن هذه المصادر تختلف فيما بينها حول ما حدث خلال الحملة العسكرية وحول أسماء اولئك الذين شاركوا في هذه الحملة البحرية الانتقامية. يضاف الى ذلك أنه بينما تقرر بعض النصوص حدوث حملة واحدة فقط، تروي نصوص أخرى ان كالب رجع الى الجزيرة العربية ثانية ولم يكتب له النصر النهائي الا بعد حملة ثانية. غير ان هذا كله ليست له اهمية كبيرة بالنسبة للقارىء المعاصر.

ولا شك في أن قرار الملك بالتنازل عن العرش بعد مثل هذا الانتصار جدير بالاعجاب في حد ذاته، اذا كانت الوقائع المذكورة في النصوص التقليدية حقيقية. ولكن هناك نصاً آخراً يقرر أن كالب بقي على عرشه حتى عام ٥٤٢م. فاذا كانت حروبه ضد ذي نواس قد وقعت في الجزيرة العربية في عام ٥٢٥م؛ فمن الممكن جداً أن يكون قد حكم مدة سبعة عشر عاماً أخرى بعد عودته الى أكسوم، ما لم يكن هناك خطأ في تحديد التواريخ(٣٠).

الأدب

كانت لأكسوم عدة أبجديات يستخدمها المثقفون كما يستخدمها رجال البلاط في تصريف شؤون الدولة. ومن بين اللوحات التذكارية في أكسوم لوحات تحمل نقوشاً بلغة واحدة فحسب، سواء أكانت سبئية او جعيزية او يونانية أحياناً، ولكن يندر أن تكون النقوش باللغات الثلاث مجتمعة وكانت السبئية هي أبجدية القبائل السبئية، التي يظن أنها من أسلاف الأكسوميين، والتي تصفها النصوص التقليدية بأنها نجويدي يوكتان (قبيلة قحطان)(٣١). وقد انحدرت من هذه القبائل أقوام اليوم من الأمهرة والتيجري والجوراغي والأرجوبا والهرري (الأديريس).

وكانت اللغة اليونانية – مثلها في ذلك مثل الانكليزية اليوم هي لغة التعامل لذلك العصر، ولساناً اجنبياً دخل الى أكسوم نتيجة لعلاقات المملكة الثقافية والاقتصادية والسياسية مع الامبراطورية البيزنطية، وخاصة في ظل عدد من الملوك الذين كانت لهم فيما يبدو أسماء يونانية، مثل زوسكاليس وأفيلاس وأنديبيس وسومبروتس وغيرهم. وكانت هناك أخيراً لغة الجعيز، التي بدأت دون تشكيل للحركات ثم أدخل عليها التشكيل بعد ذلك، وأصبحت هذه اللغة منذ القرنين السادس والسابع فصاعداً هي اللغة الوطنية الرسمية للأكسوميين، لغة الاجعازيان، وهو اسم آخر اطلقه عليهم الأهلون، ومعناه «المحررون»(٣٢).

(٣٠) Tekle Tsadik Mekouria, pp. 2-7. Conti - Rossini, pp. 108-109.

(٣١) Cerulli, pp. 18-21.

(٣٢) W. Budge Op. cit. pp. 136-137. Conti - Rossini, Op. cit. Monete Axoumite Tabola LX.

واللغة بصفة عامة تمد الباحثين بمؤشرات مفيدة، ولكنها في حد ذاتها لا تتيح تحديد الجماعة الأثنية. فقد يكون مواطن ما من أصل سامي ويحمل الجنسية الأكسومية ولكن ثقافته يونانية، بينما يكون آخر من أصل بجاوي أو بليمي، أو نوبيا بالمولد أو الجنسية ولكن ثقافته مصرية. وعلى ذلك فليس من الحتمي أن يكون الشخص الذي يتكلم الجعيزية او يكتبها أكسوميا بالضرورة.

وبعد الفتح العربي للشرق الأوسط وشمال افريقيا خلال القرن السابع، تخلت اليونانية والسبئية عن مكانها للجعيزية، التي بدأ استخدامها في جميع الدوائر المدنية والحربية والدينية. ولم تحتفظ اليونانية بنفوذها الا عبر ترجمة الانجيل من اليونانية الى الجعيزية، ومن خلال بعض مؤلفات آباء الكنيسة، مثل كيرلس الاسكندري أو القديس يوحنا (جون) خريسوسطوموس (لسان الذهب). وكما يحدث دائماً، كان المترجمون حين تعوزهم دقة الكلمة في الجعيزية يلجأون الى استخدام الكلمات اليونانية. وعلى هذا النحو تطورت اليونانية التي تستخدم في أثيوبيا الى يومنا هذا.

ونظراً للافتقار التام الى المخطوطات الرقّية السابقة على القرن الثالث عشر، فإن الأدب الأكسومي الحقيقي الأصيل الذي يعرف حالياً قاصر على المكتوبات النقشية والمسكوكات. واحياناً تعجز بعض النقوش نصف المطموسة او الرديئة الحفر عن اعطاء معنى أدبي يتيح اعادة تركيب نص أدبي حقيقي على نحو متصل.

وأول نقش يحدد بداية الأدب الأكسومي المسيحي هو ذلك الذي سجلته بعثة أكسوم الألمانية تحت رقم ٢ (N°II)، وفيه يصف الملك عيزانا - الذي اعتنق المسيحية حديثاً - انتصاره على شعب النوبة الذين كانوا قد تجاسروا على تحدي سلطانه فيما وراء نهر تاكازي وقتلوا رسله. وبامكان المرء أن يعتقد في الحس الاخلاقي لدى هذا الامبراطور الغازي عندما يطلع على اتهامه للنوبيين بفظاظة قهرهم لشعب المينجورتو والحاسا والباريا ذوي اللونين الأسود والأحمر (سبآ - صليم، سبآ - قيح)، وبأنهم «قد حنثوا مرتين بالقسم الذي أقسموه...» ترى هل كان هذا الحس الأخلاقي نتيجة اعتناقه للدين الجديد؟

على أن عيزانا يتباهى بأنه قتل ٦٠٢ رجلاً و٤١٥ امرأة وعدداً من الأطفال بفضل قوة ربه الجديد الذي يدعوه «رب السماوات والأرض القهار»، ولكن دون ان يرتكب هو نفسه ظلماً. ويلوح انه يقصد بهذا أن أهل النوبة المخادعين هم الذين أثاروا الحرب بتحرشهم فاستحقوا العقاب[٣٣].

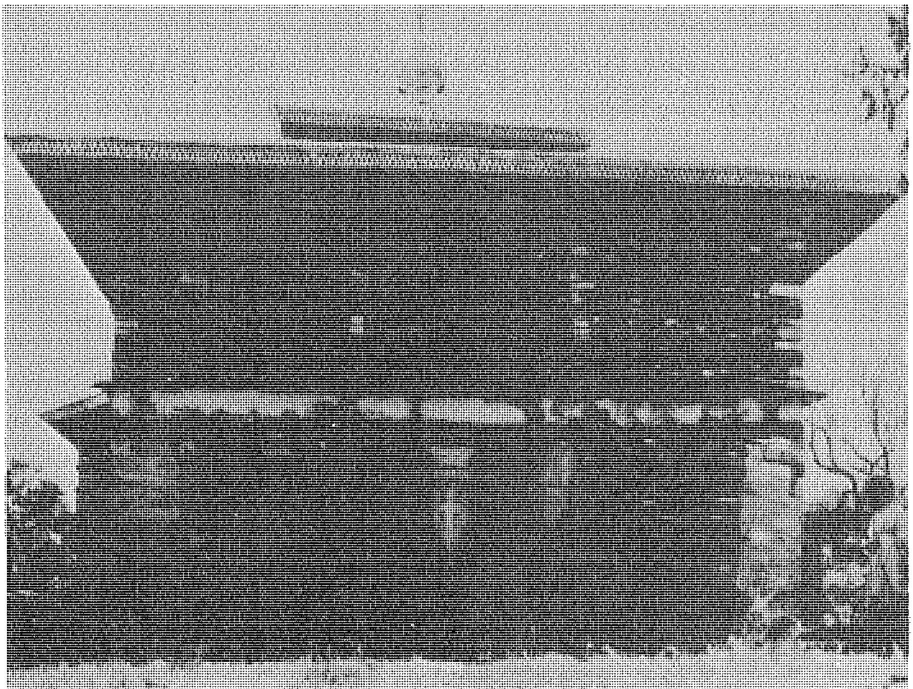
ويتضح تأثير المسيحية أيضاً في القطع النقدية العديدة لملوك أكسوم، حيث يحل رمز الصليب المسيحي محل الهلال، رمز الديانة القديمة. وقد نقش بعض الملوك الأكسوميين أساطير غريبة على عملاتهم قصد الدعاية لأنفسهم أو اجتذاباً لقلوب رعاياهم. فعملة الملك «وازيد» أو «وازيبا» (ابن الملك كالب - القرن السادس) تحمل رسمه على جانب وعلى الجانب الآخر نقش «ليبتهج الناس». ومن أكثر العملات لفتاً للنظر عملات الملك «ايوئيل» التي تحمل صورة رأسه المتوج على جانب (والى ميمنة التاج صليب صغير) وصليباً على الجانب الآخر؛ ويبدو ان المقصود بهذا هو بيان أن الملك مسيحي متفان. وعلى عملة أخرى لنفس الملك نقش «المسيح معنا»[٣٤] مكتوباً باللغة الجعيزية دون علامات صوتية. وهذه أول مرة يذكر فيها اسم المسيح.

وقد ترجم العهد القديم من الكتاب المقدس بالتدريج من اليونانية الى الجعيزية خلال القرنين الخامس والسادس، وأصبح الكتاب المقدس يستخدم في اثيوبيا واتخذت تعاليمه أهمية قصوى في

---

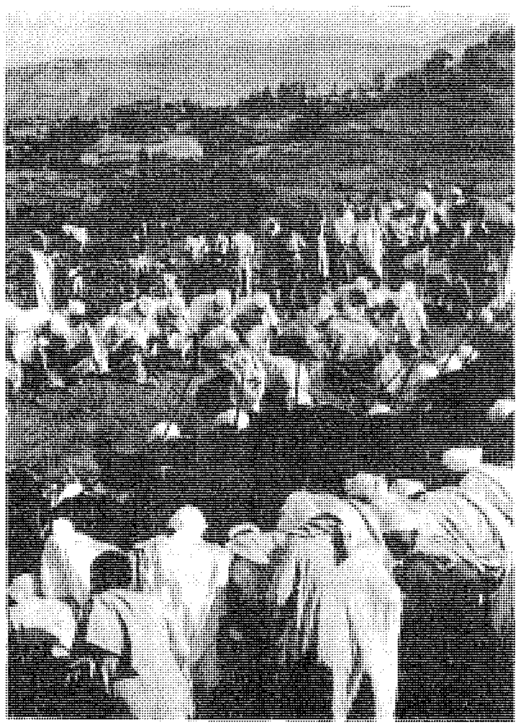
(٣٣) Cerulli, pp. 222-223.

(٣٤) J.B. Coulbeaux, pp. 59-60- Tekle - Tsadik Mekouria - Paris. 1967.



١

٢



١ : كنيسة أبّا أرجاوي في دبري دامو
٢ : المنشدون ينحنون في ورع

البلاط والدوائر الكنائسية، حتى صارت في النهاية هي الأساس الوحيد للعلم والفلسفة، ولكن دون أن تحجب الضوء عن مؤلفات بعينها لآباء الكنيسة.

وبعد مجمع خلقدونية في ٤٥١م. ، جاء القديسون التسعة وحواريوهم الى اثيوبيا وعززوا من نفوذ عقيدة الطبيعة الواحدة بين رجال الكهنوت الاثيوبيين وهذا ما جعل الكنيسة الاثيوبية تنأى بنفسها بانتظام عن جميع المؤلفات الأخرى الوافدة من الغرب، أياً كانت قيمتها. ومما يذكر في هذا الصدد ذلك الاتفاق الذي عقد بين الصحابي عمر بن العاص من ناحية وبين البطريرك بنيامين وشنودة من ناحية أخرى لدى حصار هليوبوليس (بابليون) عام ٦٤٠م. أثناء فتح مصر. فقد انحاز المصريون المؤمنون بعقيدة الطبيعة الواحدة للمسيح الى جانب المسلمين الفاتحين، مدفوعين بكراهيتهم للبطريرك المقوقس ولجميع أولئك الذين نادوا بالطبيعة الثنائية للمسيح.

وكما ذكرنا سلفاً، أصبح الكتاب المقدس هو منبع كل معرفة، فمنذ أن وطدت المسيحية أقدامها حتى مستهل القرن العشرين، لم يكن العلامة الاثيوبي الجدير بهذا النعت هو ذلك المتبحر في العلوم اليونانية الرومانية أو في الفلسفة، بل كان هو العارف بالكتاب المقدس وبمؤلفات البطريرك كيرلس والقديس يوحنا خريسوسطوموس وغيرهما من مؤسسي الكنيسة، والذي يستطيع أن يعلق على مختلف النصوص ويفسر على نحو مقبول وملائم أسرار التجسد والثالوث الأقدس.

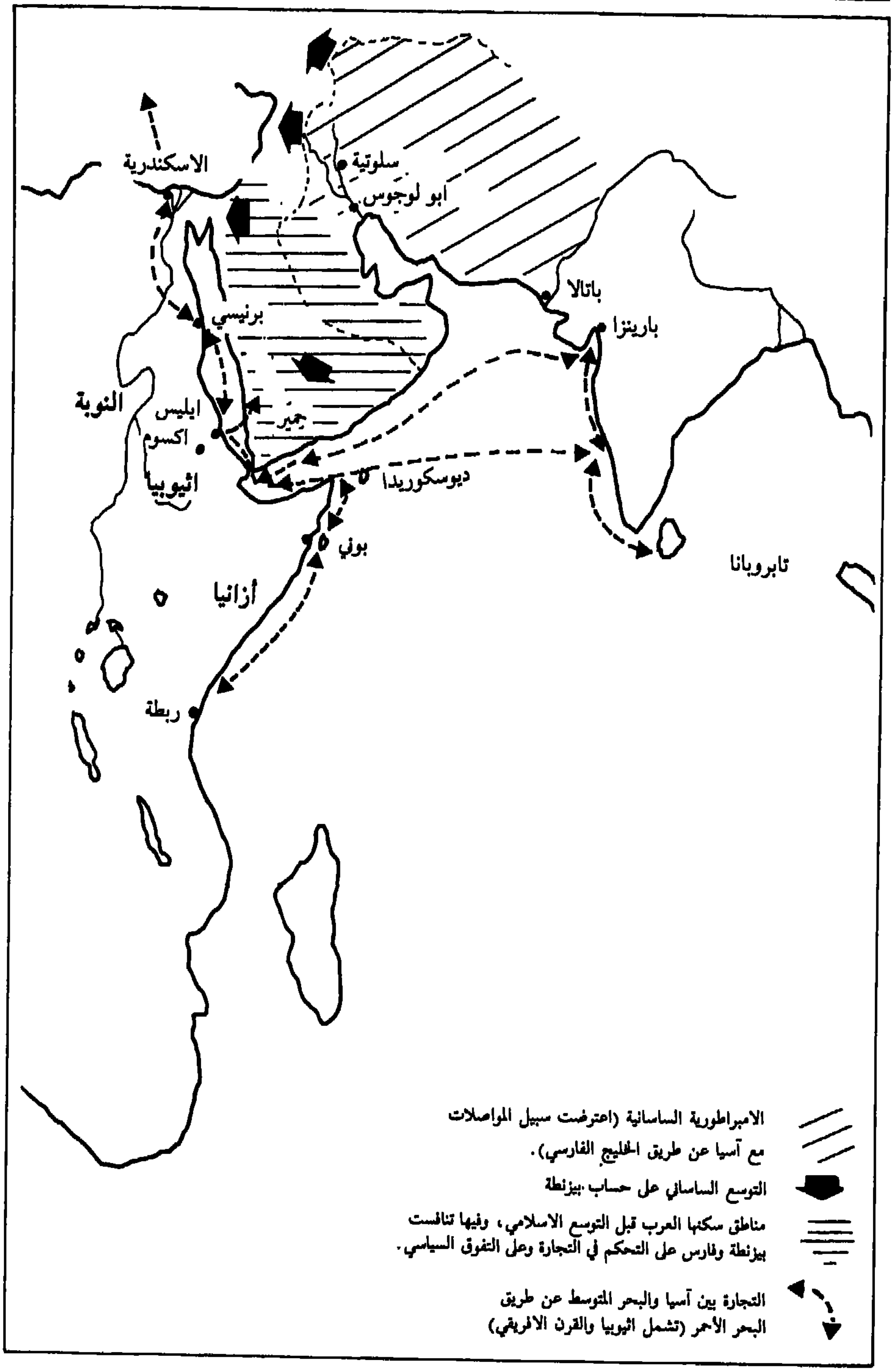
وبالنسبة للأسرة الملكية الأمهرية التي يقال انها سليلة سليمان والوارثة الشرعية لملوك أكسوم، كان أكثر الملوك تبجيلاً لديهم هما داود وابنه سليمان، ويأتي بعدهما الاسكندر الأكبر وقسطنطين الأكبر وثيودوسيوس الثاني، حيث يعود تبجيل هذين الأخيرين لما قدماه للمسيحية من عون. ولكن العلامة الاثيوبي لم يكن يعرف شيئاً عن شارلمان أو شارل مارتل أو شارل البدين. وكان أشهر شخصيات الكتاب المقدس لدى الرهبان الاثيوبيين هم يشوع وشمشون وجدعون. وكانت أسفار نشيد الانشاد، والأمثال، وحكمة سليمان، والجامعة، ويشوع بن سيراخ، الخ. تعتبر اعمالاً فلسفية حقيقية أكثر من كتابات افلاطون وأرسطو. أما فرجيل وسينيكا وشيشرون وأهل المعرفة في القرون الوسطى في الغرب فكانوا مجهولين تماماً من رجال الكنيسة الأثيوبية.

والمجتمع المسيحي الاثيوبي مغرم ومعجب بداود أكثر من أي شخص آخر، حيث يعتبره سلفاً لمريم العذراء ولما يسمى ببيت سليمان. ولدى المتدينين الاثيوبيين شغف بالمزامير، وهم يؤمنون بأن تلاوة مزمور اليوم كل صباح تجعلهم في مأمن من كل شر، ويعتقدون - مثل داود - أن قراءة المزامير هي السبيل الى أن يصبح الله القدير حليفاً لهم دون سواهم.

ويلعب سفر المزامير دوراً بارزاً في المجتمع الاثيوبي المسيحي. فالمزامير تتلى في أكثر المناسبات تبايناً. ففي المآتم مثلاً يأتي الديبتيروتشيس أو المنشدون فيقتسمون المزامير فيما بينهم ويأخذون في انشادها بجانب التابوت، بينما يركز كهنة سواهم على القراءة من كتاب الدفن (الجنزاتي)، الذي يشبه كثيراً كتاب الموتى عند قدماء المصريين.

وبينما يستخدم بعض المتدينين المزامير كصلوات، يستخدمها آخرون لأغراض السحر الديني. والعلامة يعرف عن ظهر قلب المزامير الملائمة لكل مناسبة، من أجل نيل السعادة او تجنب المكاره او درء وباء او الحماية من رصاص البنادق وهم يستعينون عموماً بالمزامير ٦ و٧ و١٠ و٥٧ وغيرها.

ولايضاح اللجوء الدائم للمزامير اسوق هنا مثالين: فالفلاح الذي يفقد بقرته أو نعجته او حماره ولا يستطيع أن يجده يكون عليه أن يتلو أو أن يكلف شخصاً آخر لينوب عنه في تلاوة المزامير ١-١٦ و١٨ و١١-١٢.



خريطة توضح توسع اكسوم

وفي ١٩٢٧، اعتبر وصول أول طائرة الى اديس أبابا حدثاً عظيماً. وأقيم في اليوم التالي احتفال في حضرة الامبراطورة زوديتو والرأس تفاري، الذي صار فيما بعد هيلاسلاسي؛ وكان جميع القسس والمنشدين قد حضروا في أبهى حللهم المحفلية. وعندما سئل أحد الرؤساء الدينيين عما ينبغي تلاوته في هذه المناسبة، اقترح على الفور الآيات التالية (من المزمورين ١٠٤ و١٨).

«أيها الرب الباسط السماء كسجف.... الجاعل السحاب مركبته ... السائر على أجنحة الريح ... طأطأ السماوات ونزل... ركب على كروب وطار وهف على أجنحة الرياح. جعل الظلمة سترة له...».

وكان بعض التراث الذي تلقته اثيوبيا من أكسوم المسيحية هو الترانيم الطقسية المجموعة في عمل يسمى «ديجوه». وطبقاً لما أوردته المصادر المحلية من القرن الرابع عشر، كان مؤلف تلك الترانيم رجلاً من أهل أكسوم يسمى «ياريد» وكان معاصراً للملك «حبر - مصقل» و«ابا أرجاوي»، أحد القديسين التسعة.

ومن قراءة كتاب الترانيم الدينية هذا بكل تفاصيله يدرك المرء ان النصوص مستمدة من الكتاب المقدس، ومن أعمال البطاركة الأول ومن الأحبار المشهورين بدءاً من القرن الثالث الى القرن الثامن، من الأسفار المنحولة. والترانيم مرتبة في تنضيد شعري ومكتوبة بايجاز وتشكل مجموعة ضخمة مقسمة الى عدة كتب وفصول وأبيات. ثم ان الأبيات مفصول بعضها عن بعض (والبيت الأول مكتوب عادة بالأحمر)، وهناك بيت من الشعر لكل احتفال سنوي أو شهري. والأشعار كلها في مدح الملائكة والقديسين والشهداء ومريم العذراء والرب، وهي تستخدم في الصلوات الصباحية والمسائية.

وتنقسم الترنيمة الطقسية الى أربعة أقسام بنغمات ختامية، ترمز للوحوش الأربعة التي تقف حول عرش الرب (سفر نبوءة حزقيال، والاصحاح ١). وهذا التقسيم، مهيأ بحيث أن نفس النص، الذي يمكن استخدامه لأي احتفال معين، يمكن غناؤه والرقص عليه بعدة طرق مختلفة. وسأحاول اعطاء فكرة عن هذه الأقسام الأربعة.

(١) قوم زما: وهي الترنيمة الأساسية في أبسط أشكالها.

(٢) زمام - نغمة تذبذب وتأرجح: وهي أطول ترنيمة، حيث يستخدم المنشدون عصيهم الطويلة، ممسكين بها في اليد اليمنى، ويلوحون بها وهم يديرون أجسامهم في جميع الاتجاهات حسب الايقاع والانشاد.

(٣) مرجد - نغمة تواثب: هذه الترنيمة اسرع من سابقتيها قليلاً. وفيها يمسك الراهب - المنشد عصاه في يسراه، واحياناً يستند عليها، بينما يمسك في يده اليمنى بمزهره - المصنوع من الحديد أو الفضة أو الذهب حسب مرتبته، ويحرك المزهر الى أعلى والى اسفل ويأخذ شابان جالسان على مقربة في قرع طبليهما لمصاحبة الراهب، مع الحرص على تتبع الايقاع المنتظم للترنيمة. وكل من يهمل وتند عنه نغمة ناشزة يستبعد ويحل محله غيره على الفور.

(٤) صفعات (تصفيق): وهي اسرع النغمات، ويمكن مواصلتها لفترة معينة بمصاحبة المزاهر. وقرب النهاية، يعقب الصفعات لحن ورب، وهو نوع من التنغيم المتنوع الأخاذ الذي يقوم بغنائه منشد واحد صداح الصوت كبير الموهبة، يصغي اليه الآخرون بانتباه قبل أن يصاحبوه في جوقة متحدة الأصوات، منتقلين رويداً رويداً من النغمة المعتدلة السرعة (لزب) الى النغمة النشطة (دمقت)، ومن النغمة السريعة الى النغمة الفائقة السرعة (جيبجيبا). وفي هذه المرة ينهض الشابان على

أقدامهما ويعلقان حمائل طبليهما حول رقبتيهما وهما يقرعان بشدة، فيبعثان الحرارة والبهجة في هذه الترنيمة المقدسة.

أما المنشدون - الذين يلبسون على رؤوسهم أغطية من الحرير الموصلي (الموسلين) ويرتدون ملابس الاحتفالات - فيمسكون بعصيهم على أكتافهم اليسرى وبمزاهرهم في أياديهم اليمنى كي يتمكنوا من الغناء والرقص بايقاع أكثر سرعة.

وهذا الجزء هو أكثر أجزاء الانشاد حيوية، حيث يقوم المنشد الرئيسي بحركات استعراضية، بينما تنطلق من حين لآخر من النسوة المبتهجات - من حيث مجلسهن في المحفل - زغاريد الفرح (ايليلطا) «اليلتا».

ويحدث هذا كله اما داخل الكنيسة أو خارجها أثناء الأعياد الدينية، أو احتفالاً بالعرض التقليدي للتابوت أو اللوح المقدس الشهير، الذي يمثل القديس الذي كرست له الكنيسة، احتذاءً لمثال تابوت العهد الموسوي. ويحدث ذلك في حضرة الامبراطور والمطران والسلطات المدنية والعسكرية والكنسية.

وحين يقرر رئيس الكنيسة - باتفاق مع المشرف على الترتيبات المحفلية الذي هو في نفس الوقت كبير الكهنة (ليكه - كاهنات) - أن الحاضرين قد رضوا واكتفوا، فإنه يصدر اشارة لايقاف الانشاد. وعندئذ يحل سكون عميق محل العجيج الديني، وينهض المطران ليمنح بركاته الختامية. وتحيّي عودة التابوت الى موضعه نفس الترانيم والزغاريد، كما حدث عند احضاره؛ وعندئذ يخر كل شخص جاثياً.

ولأدب الكتاب المقدس والترانيم الطقسية تاريخ تقليدي مديد، بعضه حقيقي والآخر خرافي، واكتفيت هنا بعرض موجز له. ويشكل هذا الأدب وهذه الترانيم جزءاً من التراث الذي اغدقته أكسوم المسيحية على الاثيوبيين عبر القرون.

الفصل السابع عشر

البربر الأصليون

بقلم: جيهان ديزانج

البربر في إفريقيا الصغرى: أصل الشعب، جفاف الصحراء، وتأثيرات البحر المبكرة: «الأثيوبيون في إفريقيا الصغرى، العنصر العرقي المتبقي»

كانت العناصر المكونة لأصل الشعب الليبي ثابتة الى حد ما قبل وصول الفينيقيين الى السواحل الافريقية عند بداية الألف الأولى قبل الميلاد، ولم يكونوا ليتغيروا في أي وقت خلال العصور القديمة كلها، لأنه لا يبدو أن القادمين الجدد من السكان الفينيقيين والرومان كانوا يشكلون زيادة ذات تأثير يذكر. وفي الحقيقة ان الزيادة السكانية للفينيقيين في افريقيا الصغرى لا يمكن تقديرها على وجه الدقة. وعلى أي حال فالاحتمال بعيد أن يلجأ القرطاجيون للمرتزقة باستمرار في ميدان القتال اذا كان أصحاب الأصل الفينيقي أكثر عدداً، وكذلك من الصعب تقدير الزيادة السكانية للرومان. وقد قدر عدد الايطاليين الذين استوطنوا في إفريقيا في عهد أغسطس، عندما كان الاستعمار في ذروته، بخمسة عشر ألفاً[1]، ويمكن أن يضاف الى هذا العدد عدة آلاف من الايطاليين الذين استوطنوا في إفريقيا بمحض ارادتهم. وفي رأينا ان نحو عشرين ألف مستوطن يمثل الحد الأقصى لفترة أغسطس، لأن إفريقيا الرومانية لم تكن - على أي نحو - منطقة استيطان جماعي. وكانت الزيادة الديموجرافية للوندال والبيزنطيين بلا شك أكثر تواضعاً بكثير.

وقبل الميلاد بثلاثة عشر ألف عام[2]، كانت توجد ثقافة تعرف خطأ بالأيبيرية - الموريتانية (رغم ان الملاحة عبر مضيق جبل طارق لم تكن قد بدأت حتى تسعة آلاف سنة بعد ذلك)، وكان أصحابها من سلالة مشتا العَربي، طوال القامة (١,٧٢ متر في المتوسط)، ومستطيلي الرؤوس، لهم جبهة ضيقة، وشفاه طويلة وربما كانوا أوّل سلالة منحدرة من نوع «الانسان العاقل» تتخذ لها موطناً في المغرب[3]،

(١) Romanelli, p. Rome, 1959, p. 207.

(٢) Camps, G. 1974, p. 262-8.

(٣) Balout, L. Paris, 1955, pp. 375-577. cf. also Camps, G. Paris, 1974, pp. 61-66.

وكانوا يمارسون عادة خلع الأسنان القاطعة، ويبدأ يظهر تحول نحو قصر الرأس ونحافة الجسم في أماكن معينة أظهرها في كولومناتا (Columnata) في غرب الجزائر[٤] وذلك حوالى سنة ٦٠٠٠ق.م. وبدأت الثقافة الأيبيرية - الموريتانية - بالمعنى الدقيق للكلمة - في الاختفاء في نهاية الألف التاسعة، ولم يحدث هذا فجأة في كل مكان، ومع ذلك فقد حلت محلها الثقافة القفصية في قورينائية (Cyrenacia) (إقليم برقة)، ولكن استسلامها أمام الثقافات المحلية في الجزائر الغربية ومراكش كان مشوباً بالتردد. ولا يوجد دليل على وجودها في السواحل الشمالية الشرقية لتونس، ولا في الجزر الساحلية الصغيرة[٥]، وتركت آثاراً قليلة في منطقة طنجة. وانه لأمر بعيد الاحتمال جداً أن تكون قد وصلت الى جزر الكناري كما هو شائع، لأن الجوانشيين (Guanches) رغم أنهم مشابهون انثروبولوجياً لرجال مشتا العَرْبي - فإنهم لا يماثلون هؤلاء الأخيرين في الحرف الصناعية والعادات. ولم تأت هذه الثقافة من أوروبا حيث أنها قامت قبل بداية الملاحة عبر المضايق، ومن والى صقلية. وهناك ما يحمل على الظن بأن اصولها كانت شرقية، لكن المحتمل أنها أتت من شمال سودان وادي النيل، كما ينادي تكسيير (J. Tixier)، ومن ثم فيا داموا قد أتوا تحت ضغط من الشعوب المهاجرة، فلا شك أن الأيبيريين - الموريتانيين اتخذوا ملاجىء في التلال، ويمكن أن يعتبروا أحد العناصر الانثروبولوجية لسكان الجبال.

وحوالى سنة سبعة آلاف قبل الميلاد[٦] ظهر هناك قوم لهم قوام طويل رشيق، من جنس البحر المتوسط، ولكنهم لم يخلوا من الصفات شبه الزنجية[٧]. وهؤلاء يعرفون بالقفصيين نسبة الى موقع قفصة (Capsa) (جفصة)، وقد ازدهروا في منطقة غير محددة تماماً ولكنها بالتأكيد تقع في الجزء الداخلي دون الامتداد - على ما يظهر - الى أقصى الحدود الغربية لشمال إفريقيا، ولا الى الصحراء الجنوبية. وقد استوطنوا - عادة - روابي أو منحدرات قرب مصدر مائي، ولكنهم استوطنوا أحياناً السهول التي تنتشر فيها البحيرات أو المستنقعات، وكان غذاؤهم يشمل القواقع. وجاءت هذه الثقافة أيضاً من الشرق، ولم تستطع الانتشار عن طريق البحر، وفي تقديرنا أنها انتهت حوالى عام ٤٥٠٠ ق.م. ورغم أن الجمجمة القفصية مشابهة للأنواع المعاصرة. فمن المعتقد أنه لم يكن هناك دليل على وجود البربر البدائيين الأصليين حتى العصر الحجري الحديث، حيث يبدو أن شعائر الدفن القفصية لم تنتشر في عالم ليبيا البربرية[٨]. ومع هذا فيجب أن يلاحظ ان عادة استخدام وتزيين بيض النعام التي كانت احدى خصائص الحياة القفصية - حسب تعبير كامبس - فابريه[٩] (Camps - Fabrer) الواضح - استمرت خلال العصر الحجري الحديث حتى الوقت الذي ذكرت فيه الشعوب الليبية في السجلات التاريخية، مثل الجرمانتيين، وهؤلاء، طبقاً للوكيانوس (Lucianus) [١٠]، قد استخدموا البيض لأغراض لا تحصى، وقد تأكد هذا بالحفائر التي أجريت في أبو نجيم (في المناطق الداخلية لتريبوليتانيا - إقليم طرابلس)، ومع هذا فإن رجال العصر الحجري الحديث في إفريقيا الصغرى يمكن اعتبارهم - بلا شك - أبناء عمومة للقفصيين. ومهما يكن من أمر فإن التعمير التاريخي للمغرب هو بالتأكيد نتيجة

(٤) Chamla M. Cl. Paris, 1970, pp. 113-114.
(٥) Balout, L. 1967, p. 23.
(٦) Camps, G. p. 265, cf. note (2) 1974.
(٧) وعن تحفظات «كامبس» انظر: Camps's Reservations, cf. note (3) p. 159. 1974.
(٨) Balout, L. Paris, 1955, pp. 435-437.
(٩) Camps - Fabrer H. Paris, 1966, p. 7.
(١٠) Rebuffat, R. 1969-1970, p. 12.

اندماج - بنسب غير محددة بعد - بين ثلاثة عناصر: الأيبيريين - الموريتانيين، والقفصيين، وسلالة العصر الحجري الحديث.

ومن المتفق عليه بصفة عامة أن العصر الحجري الحديث يبدأ بظهور صناعة الفخار، وتشير التقديرات الحديثة القائمة على كربون ١٤ أن استخدام الفخار انتشر من الصحراء الوسطى والشرقية، وداخل هذه المنطقة التي تعد أقدم مثال على العصر الحجري الحديث يظهر التأثير السوداني. ويمكن أن تؤرخ بدايات صناعة الفخار بالألف السابع قبل الميلاد في المنطقة الممتدة من اندي (Ennedi) الى الهوجار (Hoggar)(١١). ومن المحتمل أن الصناع كانوا سوداً أو أشباه زنوج ينتمون الى سوداني الخرطوم المبكرة. ومن المؤكد أن الثور تم استئناسه بحلول سنة ٤٠٠٠ق.م. على الأقل. وليس مستحيلاً أن تكون الماشية قد استئنست قبل ذلك في أكاكاس (Acacus) (١٢)، ويوجد دليل على وجود ثقافة العصر الحجري الحديث في التقاليد القفصية والتي تؤرخ من فترة متأخرة قليلاً في حوالى ٥٣٥٠ ق.م. وقلعة فلاترز(١٣) (Fort Flatters) ، بل وحتى في فترة مبكرة قليلاً في وادي السَّوْرة (Saoura) ، ولم ترسخ في الجزء الشمالي من المنطقة القفصية قبل سنة ٤٥٠٠ق.م. وفي الاقليم الواقع بين هاتين المنطقتين السابقتين اللتين أثرتا في «الأراضي المرتفعة من المغرب والصحراء الشمالية»، فإن مميزات العصر الحجري الحديث لا تظهر الا فيها بعد بمدة طويلة. والتأثير الأوروبي احتمال مستبعد ما عدا في ثقافة العصر الحجري الحديث الثالثة التي تألقت على سواحل مراكش ووهران في الألف السادسة قبل الميلاد(١٤)، وإن كنا نتردد في إرجاع بدايات الملاحة عبر مضيق جبل طارق إلى هذه الفترة المبكرة. ويوافق بالو (L. Balout) (ص ٢٨ من المقال المشار إليه في هامش ٣، من هذا الفصل) على وضع بدايات الملاحة عبر مضيق جبل طارق فى الألف الرابع قبل الميلاد.

وقد انتهت الفترة المطيرة من العصر الحجري الحديث في حوالى منتصف الألف الثالثة كما يبدو من تأريخ السماد المتبقي من زبل الطير في تايزا (Taessa) في (الهوجار)(١٥)، ويقدم كتاب أركل (Arkell) عن بقايا الحيوانات والنباتات المتحجرة التي تنتمي الى المواقع التي ترجع الى العصرين الحجريين الأوسط والحديث في منطقة الخرطوم بعض التأييد لهذا الاستنتاج بخصوص وادي النيل الأعلى.

ومنذ هذا الوقت فصاعداً فصلت الصحراء شمال إفريقيا كلية عن القارة كلها، فوجدت هذه نفسها فعلياً كجزيرة يمكنها فقط أن تتصل بسهولة مع أغلب إفريقيا عن طريق ممر طرابلس الضيق، ومع ذلك فقد تم تعويض هذا النقص الشديد في الوحدة السابقة لافريقيا عن طريق العلاقات التي قامت في ذلك الوقت - على وجه التحديد بين جناحي المغرب، أولاً مع جنوب شبه الجزيرة الايبيرية وثانياً مع صقلية وسردينيا ومالطة وجنوبي ايطاليا(١٦).

---

(١١) .Hugot, H.J. 1950-1957, p. 134. CF. Ibid. p. 138 and note 3p. 185. وعن التأريخ الحديث بكربون ١٤ المشع، انظر .Camps, p. 269.

(١٢) .Resch, W. 1967, p. 52 cf. also Beck p. and Gal. Huard, Paris, 1969. Cf. Norl, F. Chicago, 1964, pp. 233-241, .Maitre J.P. paris, 1971, pp. 57-58 وأكاكس هي جبال تقع في أقصى الجنوب الغربي للجماهيرية الليبية قرب حدود الجزائر (المراجع).

(١٣) .Camps, G. Delibrias G. and Thommeret, J. 1968, p.23.

(١٤) .Balout, L. op. cit. p. 28 and Camps, G. 1974, p. 272.

(١٥) .Pons, A. and Quézel, p. vol. 16, 1957, pp. 34-35, Delibrias, G. Hugot, H. J. and Quézel, p. 1957, pp.267-270.

(١٦) .Camps. G. Vol. 104, 1960, pp. 31-35. Paris, 1961.

ومنذ وقت مبكر قرب نهاية الألف الثالثة قبل الميلاد، كان الفخار المزخرف في غار كحل بمنطقة سبتة يحمل رسوماً ونقوشاً مماثلة لفخار العصر الحجري النحاسي في لوس هيلارس (Los Hillares). وعلى هذا يجب أن نفترض قيام صلات بالطريق البحري[١٧]، والتي ربما تعود بنا الى الألف الرابعة. ومنذ سنة ٢٠٠٠ق.م. صدر العاج وبيض النعام الى أسبانيا، بينما ظهرت الآنية التي تأخذ شكل الجرس ذات الأصل الايبيري في منطقتي سبتة وتطوان.

وفي حوالى ١٥٠٠ ق.م. ظهرت الأسهم ذات الرؤوس النحاسية والبرونزية في غرب إفريقيا الصغرى ولا شك أن الصيادين الايبيريين كانوا أول من استوردها، لكن لا يبدو أنها انتشرت غرباً وراء اقليم الجزائر، وبسبب نقص القصدير، يكاد لا يوجد أثر لاستخدام البرونز في شمال افريقيا. وعند الطرف الآخر من إفريقيا الصغرى، من جربة الى بنزرت فإن وجود رقائق من السبج (الزجاج البركاني الأسود) المجلوب اصلاً من جزر ليباري والتي شُكّلت في صقلية وبانتيلاريا (Pantellaria) لينهض دليلاً على بدايات الملاحة في مضايق مسينا (Messina)، وقد وجه كامبس[١٨] الانتباه الى الأشياء العديدة التي اقتبسها سكان شرق افريقيا الصغرى، منذ ذلك الوقت فصاعداً، من جيرانهم الأوروبيين مثل: المقابر المستطيلة الشكل ذات الممرات القصيرة، والنوافذ البارزة ذات الزوايا القائمة، والمحفورة في الجروف الصخرية، وتعرف باسم هاوتيت وكانت موجودة في صقلية منذ وقت مبكر حوالى ١٣٠٠ق.م. ومقابر «الدولمن» الجزائرية والتونسية من طراز مشابه لتلك التي وجدت بكثرة في سردينيا وايطاليا، والفخار المصقول اللامع (Castellucio) الذي شاع في صقلية حوالى ١٥٠٠ق.م.، وكان مزيناً برسوم هندسية مطلية بلون أسمر أو أسود على أرضية باهتة أو صفراء، ويعتبر رائداً لفخار قبلي (Kabyle) البربري اللاحق، وغير ذلك من الأشياء. وجاءت تأثيرات أكثر من قبرص أو آسيا الصغرى عن طريق مالطة وبنتيلاريا وصقلية بمجرد بدء وصول البحارة الايجيين ثم الفينيقيين الى هذه الجزر، وبمثل هذه الوسائل فإن هذه المنطقة من شمال إفريقيا، قبل تأسيس قرطاجة بكثير، استغلت موقعها في تركيب البحر المتوسط، باعتبارها شبه جزيرة ضخمة تتلقى – مع هذا – من خلال ممر طرابلس أشكالاً ثقافية أخرى مثل الانصاب التذكارية الجنائزية ذات التجاويف والمحاريب الكثيرة، التي كانت شائعة في المنحدرات الجنوبية لسلسلة أطلس في الماضي السحيق، والتي قد نجد فيها أصل شعيرة النوم في ترحاب المعابد (Incubatie) أما مقبرة تين حينان (Tin Hinan) فهي شكل آخر لهذا الطراز من المقابر[١٩].

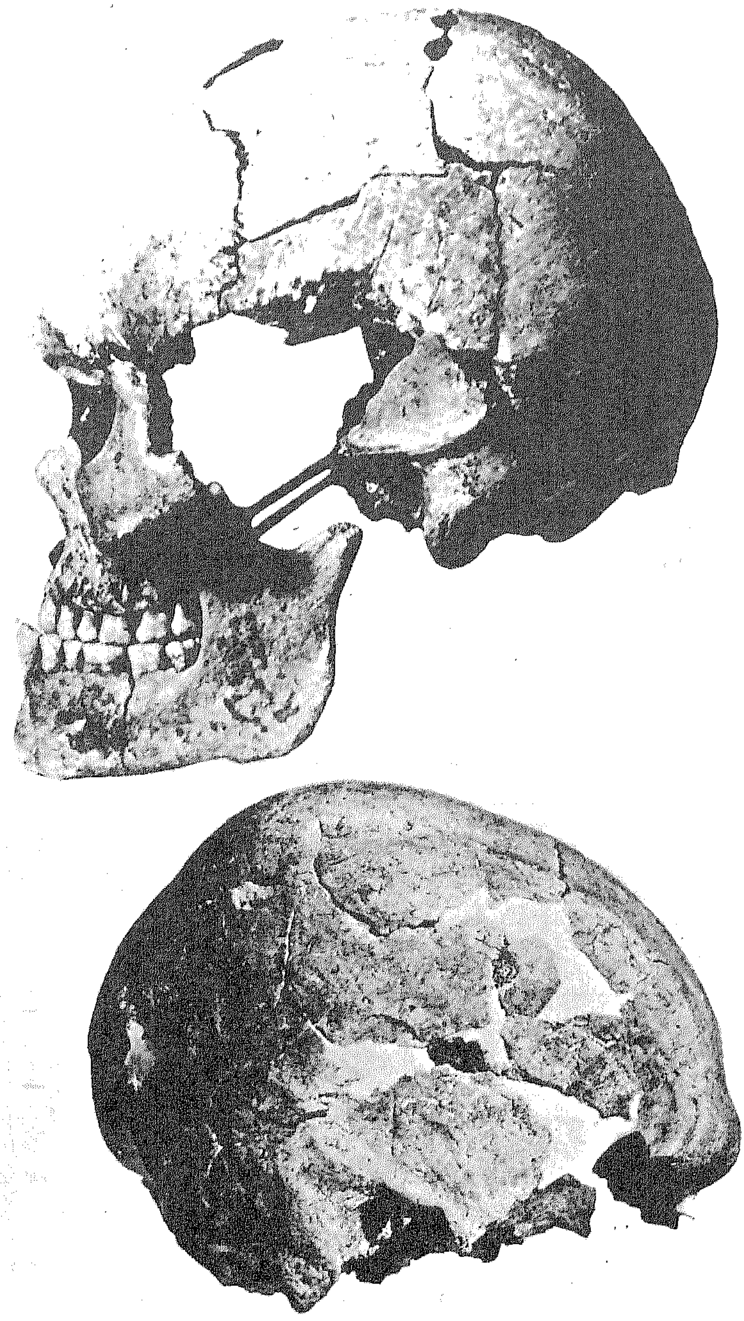
إن الأصالة البالغة لافريقيا الصغرى التي تقع على حدود القارة، وهي نتيجة لكل من جفاف الصحراء وظهور الملاحة، تحتاج الى التركيز والعناية. ومع هذا فلم تنفصم كل الروابط مع العمق الافريقي. وبينما كان مناخ شمال إفريقيا في الأزمنة القديمة هو نفسه مناخ اليوم الى حد كبير، فقد ظل نطاق حافة الصحراء لوقت طويل أفضل تموّناً بالماء وأكثر شجراً في تلاله الفسيحة[٢٠]، مع توفر الطبقات الحاملة للماء والقريبة جداً من السطح لدرجة يمكن معها الحصول على الماء بسهولة أكثر، وعلى هذا كان يمكن استخدام الحصان في أسفار الصحراء. وفي فزان بصفة خاصة استمر تجمع المياه

(١٧) Souville, G. Vol. III, 1958-1959, pp. 315-344.

(١٨) Camps, G. p. 206.

(١٩) Camps, G. pp. 207 and 468., 1965, pp. 65-83.

(٢٠) Butzer, K.W. Unesco, Paris, 1961, p. 46. يعتقد هذا الكاتب أنه كان هناك تحسن طفيف في المناخ خلال الألف الأول ق.م. وهناك رأي مخالف يقول بأن الجفاف استمر منذ ٢٧٠٠ق.م. وما بعدها انظر: Quézel, p. and Martinez, C. Vol. 6-7, 1958, p. 224.



جمجمة انسان كولومناتا: في الجزء الأعلى، منظر جانبي للجمجمة. في الجزء الأسفل، الجانب الأيسر من اليافوخ

قرب السطح في الطبقات الحاملة لها لوقت طويل طبقاً لما ذكره بلينيوس الأكبر (التاريخ الطبيعي جـ٣١ ص ٢٢) الذي يذكر البحيرة المالحة بالقرب من غدامس وكذا البكري (وصف إفريقيا الشمالية - ترجمة سلين Slane (ص ١١٦) الذي يذكر مساحات المستنقعات من نفزاوه الى غدامس. ويمكن أن نأخذ في الاعتبار - كدليل حي على الوحدة الافريقية الأصلية - حقيقة مفادها أنه في الأزمنة القديمة كان الرجال ذوو البشرة السوداء الذين أسماهم الاغريق فيما بعد بالاثيوبيين - وهذه تعني «الوجوه المحروقة» - على اتصال بالعالم البربري الليبي، في معظم واحات الصحراء في فزان وفي كل المنحدرات الصحراوية في سلسلة أطلس[٢١]، وقد عاشوا مسالمين، واشتغلوا ليس فقط بجمع الطعام والصيد بل كذلك بالزراعة التي قامت على طرق الري القديمة[٢٢].

ومن الخطأ قطعاً أن نتصور وجود صحراء اثيوبية كاملة في العصرين الحجري الحديث وما قبل التاريخ، حتى اذا حرصنا على اعطاء لفظ «اثيوبي» معناه الواضح وهو «رجل ملون»، وعدلنا عن تفسيره «بالزنجي» ويعتقد شاملا (M. CL. Chamla) أنه من الجائز الآن القول[٢٣] بأن ربع الهياكل العظمية في هذه الفترة فقط هو ما يمكن أن يتماثل مع هياكل الرجال السود، بينما لا تبين أكثر من ٤٠٪ أية صفات زنجية. ومن ناحية أخرى، فإن رفات طفل اكتشف في رواسب صخرية حفظت في جبال أكاكس[٢٤]، وتؤرخ بالتقريب بين ٣٤٦ و١٨٠ق.م. هي لطفل زنجي. وفي المدافن البونية لم تكن المخلفات الزنجية نادرة، وكان هناك احتياطي من السود في الجيش القرطاجي[٢٥]، الذين لم يكونوا بالتأكيد نيليين. وزيادة على ذلك، فاذا ما صدقنا ديودور (XX, 57. 5) فإن قائداً عسكرياً تابعاً لاجاثوكليس (Agathocles) في شمالي تونس، عند أواخر القرن الرابع قبل الميلاد، هزم شعباً، كانت بشرتهم مماثلة لبشرة الاثيوبيين. ان هناك أدلة كثيرة على وجود الاثيوبيين على الحدود الجنوبية لافريقيا الصغرى. وخلال العصر القديم ذكرت أيضاً شعوب تنتمي للسلالات المتوسطة: الجيتوليون السود - (Melano Getulas) والاثيوبيون البيض (Leuco Ethioplans)، بصفة خاصة عند بطليموس (الجغرافيا (5-6 ,1 .1. نشرة مولر ص ٧٤٣، ٧٤٥). وقد وصف الجرمانتيون أنفسهم أحياناً بأنهم سود نوعاً ما أو حتى شديدو السواد. ويوصفون بأنهم قليلو السواد (بطليموس 1.9.7.P.25) ، وأنهم «على الأرجح أثيوبيون» طبقاً لنفس الكاتب (1.8.5.P.31). ويوصف عبد جرمانتي بأن جسمه في «لون القار» (Antologia Latina ed. Bücheler, f. Riese, Leibzig, 1948, I. No 183, pp. 155-156). ويؤكد مسح أنثروبولوجي أجرى في مدافنهم أن صفاتهم الجنسية ذات طبيعة خليطة[٢٦]. وانه لتحامل واضح واحتمال بعيد أن نزعم أن الهياكل العظمية شبه الزنجية هي هياكل عبيد لأن القول بأن

(٢١) بخصوص الاثيوبيين في شمال افريقيا أنظر: Gsell pp. 293 - 304. وعن الاشارة «للأثيوبيين» (يعتقد أن الاسم ظهر من قبل في ألواح بيلوس Pylos في صورة آي - تي - جو - كو al-ti-jo-qo، انظر: Snowden Jr. F. M. Cambridge, Mass. 1970, p. 1-17 and 15-16. Desangens, J. Vol. 48, 1970, pp. 88-89.

(٢٢) بخصوص الري والزراعة في واحات تونس الجنوبية حيث كان السكان أثيوبيين جزئياً، انظر بلينيوس الأكبر (١٨٨) والبكري (١١٦)، وعن أهمية القنوات الجوفية (الفجارات Foggaras) للجرمانتيين وهم شعب مختلط، انظر: Danials, ch. 1970, p. 17. وهناك - مع هذا - تحفظات من Lhote, H. 1967, pp. 67-68. الذي يعتقد أن جمع الطعام استمر لوقت طويل المصدر الرئيسي لهؤلاء الأثيوبيين.

(٢٣) Chamla, M. CL. 1968, 248 p. and 8 pl. Paris.

(٢٤) Sattin F. and Gusmano, G. 1964, p. 8. Tripoli.

(٢٥) خلال الحملة الصقلية في ٤٨٠ ق.م.: Frontin, Strat. 1. 11. 18; Ptolémée C. Paris, 1901, p. 743 and 745; Riese, A. Leipzig, 1894, p. 155-156; Diodore, XX, 57.5.

(٢٦) Sergi, S. Rome, 1951.





١ : جمجمة انسان تشامبلين
٢ : جمجمة انسان قفصة (جفصة)، في الجانب الأيسر منظر الوجه، وفي الجانب الأيمن منظر الجانب الأيسر للجمجمة

مجموعتين من الهياكل العظمية البيضاء من بين أربع مجموعات تمثلان نسبة الجرمانتيين في العصور القديمة، هو من قبيل الاستنتاج التعسفي العشوائي.

ولا يبدو أن الشعب الملون ينتمي بأي درجة الى السكان المعاصرين على ضفتي نهري السنغال والنيجر. اننا معنيون هنا بجماعة عرقية أصلية طغت عليها - اليوم - أعداد متزايدة باطراد من الأفارقة الغربيين نجمت عن تجارة الرقيق في العصور الوسطى. ويقدم سانت جزيل(٢٧) (Gsell) - مقتفياً أثر كولينيون (Collignon) - الوصف التالي «للاثيوبي» في العصور القديمة كما يستدل عليه من الذرية التي يظن انها خلفت من بعده في واحات تونس الجنوبية: (فقامته اطول من المتوسط، وجمجمته طويلة وضيقة يميل اعلاها الى الخلف، وجبهته متحدرة، بارز الحاجبين، ويتميز ببروز عظم الوجنة الأسفل الذي يجعل الوجه مثلث الشكل، وأنفه مفرّض (محزز الأطراف) قصير وأفطس ولكنه ليس مفلطحاً، واسع الفم وغليظ الشفاه، ذقنه منسحبة، كتفاه عريضتان معتدلتان وتجويفه الصدري يشبه المخروط المقلوب، حوضه ضيق، جلده أدكن او لونه ضارب الى ما بين السمرة والاحمرار، والعينان والشعر المجعد فاحمة السواد.

وبالاجمال فان هذا النمط ليس بعيد الشبه ببعض النيليين (سكان وادي النيل)، ولكن بنية أجسام هؤلاء الرعاة، أسلاف الاثيوبيين الصحراويين ليست متماثلة وبعضهم - طبقاً لمقالة لهوت (Lhote) (٢٨) وكامبس (Camps) (٢٩) - يشبهون الفولانيين (Fulani) في الوقت الراهن، وبعضهم يشبه التوبو (Tooboos) ، ويزعم فليشهاكر (Fleischhacker)(٣٠) وجود الخويسانيين (Khoisanides)بينهم، وسلالة نوع غير مميز من «الانسان العاقل» (لا هي سوداء ولا هي بيضاء) ترجع الى أصل آسيوي.

كان البربر الليبيون (المؤريون Maurii) ، والنوميديون (Numidians)في الساحل، والجيتوليون (Getules) في السهول المرتفعة والصحرايون البيض أو الخلاسيون (الهجناء) على حدود الصحراء - مثل الفاروسيين (Pharusians) والنجريتيين (Nigrites)والجرمانتيين (Garamantes)، و«الاثيوبيون» المنتشرون من وادي السويس الى شط الجريد، هؤلاء جميعاً كانوا شعوب إفريقيا الصغرى في عصر الرحلات الفينيقية البحرية الأولى، وقد بقوا على هذا الحال طوال العصور القديمة.

علاقات البربر الأصليين مع المصريين «وشعوب البحر»

ان مصادر تاريخ ليبيا في الألف الثانية قبل الميلاد، سواء كانت نقوشاً أو رسوماً هي مصادر مصرية الطابع أساساً، وتتعلق بالسكان الليبيين المحتكين بمصر(٣١) الذين استطاعوا الاستيطان في الشمال الغربي من الدلتا قبل توحيد وادي النيل.

ومنذ عصر ما قبل الأسرات، حوالى منتصف الألف الرابعة، ربما يكون المقبض العاجي لسكين جبل العرق، قد صور الليبيين بشعور طويلة عراة إلا من حزام لستر العورة. ومع ذلك فإن هذا

(٢٧) Gsell, St. p. 294.

(٢٨) Lhote, H. p. 81. 1967.

(٢٩) Camps, G. 1970, pp. 39-41.

(٣٠) Fleischhacker, H. Von 1969, pp. 12-53.

(٣١) Gadallah, F.F. pp. 43-76, (كتب بالعربية وله ملخص بالانجليزية pp. 78-81) S.L.S.D. Benghazi, 1971.

التفسير مثار اعتراض وجدل، ولا سبيل الى التأكد من هوية الليبي في صورة مرسومة قبل ظهور الاسم الأول الذي أطلقه المصريون على الليبيين وهو «التحنو» (Tehenou) وطبقاً لما يذكره هولشر (Hölscher) [٣٢] فقد ظهر هذا الاسم على جزء من لوحة من الشست تنتمي الى الملك «العقرب»، ثم ظهرت بعد ذلك على اسطوانة عاجية (رأس دبوس) من هيراكونبوليس (الكوم الأحمر شمال ادفو) مؤرخة بعهد نعرمر (نارمر) (الألف الثالثة). وهذا الأثر الثاني يصور أقدام فرعون والأسرى. ولكن النقش الضئيل البروز على معبد ساحورع الجنائزي (الأسرة الخامسة عام ٢٥٠٠ ق.م.) يلقي لنا الأضواء على بنية «التحنو» الجسدية وملابسهم.

كان هؤلاء الرجال طوالاً، لهم ملامح جانبية (بروفيل) حادة، شفاههم غليظة، لحاهم كثة، ولهم شعر مميز ينمو كثيفاً على مؤخرة الرقبة تصل خصله الى الاكتاف، مع خصلة صغيرة من الشعر فوق الجبهة، والى جانب الحزام المثبت به ستر العورة - الذي سلف ذكره - كانوا يرتدون وشاحاً عريضاً مميزاً حول الكتفين يتقاطع طرفاه على الصدر، وعقداً تتدلى منه حليّ، وقد سكنوا الصحراء الليبية وواحاتها خلال الألف الثالثة.

وتشير مصادر الأسرة السادسة حوالى ٢٣٠٠ق.م. الى «التمحو» (Temehou)، ولم يكن هؤلاء فرعاً من «التحنو»، كما ذهب الى ذلك بيتس (Bates) [٣٣]، بل كانوا جماعة عرقية جديدة، لون بشرتها فاتح، وعيونها زرقاء، بينهم نسبة كبيرة على قدر من الشعر الأشقر[٣٤]، ويلبسون عباءة جلدية تغطي احدى الكتفين دون الأخرى، وطبقاً لوصف رحلة حرخوف الثالثة يبدو أن أرضهم كانت قريبة من النوبة السفلى وتضم «المجموعة ج» بواحة الخارجة[٣٥]، ويقال إنهم كانوا يشبهون شعب «المجموعة ج» الذين استوطنوا النوبة خلال الامبراطورية الوسطى وبداية الامبراطورية الحديثة[٣٦]. وهذا الفرض يدعمه تشابه فخار هذه المجموعة مع الفخار الذي عثر عليه في وادي حوّار على بعد ٤٠٠ كم من جنوب غرب الشلال الثالث[٣٧].

ويبدو أن هؤلاء «التمحو» كانوا محاربين أشداء وكثيراً ما اضطر فراعنة الامبراطورية الوسطى الى مطاردتهم، وقد رسمت صورهم أثناء عصر الامبراطورية الحديثة ومن السهل التعرف عليهم بضفائرهم التي تتدلى أمام الاذن ويطرحونها للخلف على الأكتاف. وكانوا عادة يضعون ريشاً في شعرهم، ويلبسون أحياناً العباءات. وكان سلاحهم هو القوس وأحياناً السيف أو العصي المعقوفة (البومورانج). وهذه الملامح ذكرها هيرودوت عن السيرتيين الليبيين في القرن الخامس قبل الميلاد. ومن هنا يمكن أن نستنتج أن «التمحو» هم حقيقة أجداد الليبيين الذين عرفهم الاغريق في برقة (Cyrenaica)، ومع ذلك، فإن هذا وحده لا يبرر نظرية موللر (möller)[٣٨] الجريئة بأنهم يشبهون الاديرماخيين (Adyrmachidäe)، أقرب الجيران للمصريين، طبقاً لما قاله هيرودوت (IV, 168)، حتى وإن كان سيليوس إتاليكوس (Silius Italicus)، (Punica. IX, verses 223-225) قد اعتبر هؤلاء

(٣٢) Hölscher, W. Glückstadt, Hamburg, New-York, 1955, p. 12.

(٣٣) Bates, O. London, 1914, p. 46.

(٣٤) Möller, G. 1924, p. 38, Hölscher, W, op. cit. p. 24.

(٣٥) Bates, O. op. cit. pp. 49-51.

(٣٦) Idem, Ibid, p. 249, note 3, p. 251 as regards vocabulary, cf. Vycichl, W. pp. 289-290.

(٣٧) Hölscher, W. pp. 54-57, Arkell, A.J. London, 1961, pp. 49-50. reservation by Trigger, B.G. Yale, 1965, pp. 88-90.

(٣٨) Möller, G. p. 48 a Philological refutation by Hölscher, N.W. p.50.

الأخيرين سكاناً لضفاف النيل - قريبي الشبه من النوبيين، وربما احتلوا - أحياناً - الواحات الجنوبية. وطبقاً لما قاله نفس المؤلف (Punica III, 268-269) فإن أجسادهم لفحتها الشمس بالسواد مثل القاطنين في النوبة، وبالتالي فهذا يجعلهم أقرباء للاديرماخيين في النوبة السفلى الذين يجاورون «التمحو»، ولكن هذا لا يتفق والمظهر العام «للتمحو». ووجودهم في كاوا افتراض قد طرحه بعض الباحثين(٣٩).

أصبحت غزوات «التمحو» أشد خطراً خلال الأسرة ١٩، فبعد أن طردهم سيتي الأول سنة ١٣١٧ق.م. ضم رمسيس الثاني الفرق الليبية الى الجيش المصري ونظم خطاً دفاعياً على امتداد ساحل البحر المتوسط حتى العلمين(٤٠)، ويؤكد النصب التذكاري في الموقع الأخير احتلال رمسيس الثاني للمنطقة، وهي أول مرة يشار فيها الى الليبو (Libou). ومن اسم هؤلاء الناس اشتق الاغريق اللفظ الجغرافي «ليبيا»، التي كانت عندئذ تنطبق - أولاً - على منطقة تحركهم، ثم تدريجياً على كل إفريقيا. وفي عهد مرنبتاح في سنة ١٢٢٧ق.م. ذكر اسم «المشوش Meshwesh» باعتبارهم الجيران الغربيين لليبو(٤١). ويبدو أن كلا من الليبو والمشوش كونوا جزءاً من جماعة حدود التمحو(٤٢) ولكن الرسوم تبين أن المشوش يلبسون الحزام الذي يستر العورة (لا شك أنهم كانوا مختونين)، بينما يرتدي الليبو الملابس الأيونية وعندما غزت القبائل المتحدة واحتي البحرية والفرافرة، مُنيت بالهزيمة على يد المصريين في غرب ممفيس (منف) - ويشير نقش على معبد الكرنك الى وجود عديد من الشعوب الشمالية الى جانب الليبيين مثل الأكيوشا (Akeiwesh) ، والتورشا (Toursha)والشردن (Shar-danes) ، والشكلش (Shakalesh)، والذين ينتمون الى مجموعة شعوب البحر التي كانت آنئذ تخرب أرض فلسطين، وكان ظهورهم على الجانب الغربي من مصر غير متوقع الى حد ما. وقد ظن أحياناً أن نقوش الكرنك خلطت بين غزوتين متعاصرتين حدثت احداهما من الشرق والأخرى من جهة غرب الدلتا(٤٣)، أو أن هذه الفرق الشمالية كانت ببساطة مرتزقة انشقوا عن الجيش المصري.

وتؤرخ أكثر حربين معروفتين دارتا بين مصر وليبيا بين ١١٩٤ق.م. الى ١١٨٨ق.م. في عهد رمسيس الثالث، وقد سجلتا في بردية هاريس الكبرى، وفي النقوش والنقوش البارزة على معبد هذا الفرعون الجنائزي في مدينة هابو. لقد حاول الليبو أولاً ثم المشوش دون جدوى أن يتغلبوا على المقاومة المصرية عند دلتا النيل، وهزموا المرة بعد الأخرى. وقد أرغم عديد من الأسرى على الانضمام لجيش فرعون، حيث كانت كفاءتهم العسكرية تحظى بتقدير عظيم لدرجة أن الضباط الليبيين - قرب نهاية

---

(٣٩) Laming Macadam, M.F. London, 1949, I, p. 100, fo, 20 and 21: ADRMKDE and ADRMLKD.

(٤٠) Brinton, J.Y. Vol. 35, 1942, pp. 78-81, 163-165 and pl. XX fig. 4, Rowe, A. Cairo, 1984, pp. 6-7, fig. 4. Supplement to Annales du Service des Antiquités de L'Egypte Nº 12). وعن النقش السادس الجديد الذي يبين مناظر انتصار رمسيس الثاني على الليبيين والذي عثر عليه لبيب حبشي في زاوية الركام، انظر: Leclant, J. Vol. 23, 1954, p. 75 and pl. XVIII.

(٤١) Wainright, G. A. 1962, pp. 89-99. وفيما يتعلق بأسماء زعماء الليبو والمشوش، انظر: Yoyotte, J.8, April 1958, p. 23. ويعتقد يويوت أن الليبيين كانوا ملاصقين للدلتا، أما Chamoux, f. Paris, 1953, p. 55 فحدد مواقعهم على العكس غرب «المشوش»، ولكن نعتقد أنه مخطىء، فإن ليبيا على ما يبدو ظلت بصورة قاطعة اقليماً ملاصقاً لمريوط، انظر: Ptolemy, Müller, pp. 696-698. وعلى هذا فلا بد أن الليبيين استوطنوا مكاناً قريباً جداً من مصر؛ وعن مصير هؤلاء الناس بعد ذلك، انظر: Yoyotte, J. pp. 122-151. Cairo, 1961.

(٤٢) Hölscher, W. op. cit. pp. 47-48 (cf. note 2, p. 8).

(٤٣) Chamoux, F. op. cit. p. 52.

الامبراطورية الحديثة - كان لهم نفوذ مسيطر فيها. وقد جاء ذكر الاسبت (Esbet) والبقن (Beken) بين الليبيين الذين شن عليهم رمسيس الثالث الحرب.

ولعل من الاغراء أن نربط هذه الجماعات العرقية بالاسبيتيين (Asbytes) (أو الاسبيستيين Asbystes) والبكاليين (Bakales) الذين ذكرهم هيرودوت (IV, 170, 171)، ولكن قراءة «الاسبت» هي مثار خلاف[٤٤]. وعلى هذا فإن الصلة تصبح هشة. على كل حال فإنه من الصعب تعليل تماثل المشوش والماكسيانيين (Maxyans) الذين ذكرهم هيرودوت (IV,191)، والذين كانوا قد استقروا منذ وقت طويل في تونس[٤٥].

وكان لاحدى نتائج انتصارات رمسيس الثالث أهمية خاصة في هذا الصدد، فقد تمكن من التحكم في الواحات الغربية، حيث كانت عبادة إله طيبة آمون منتشرة، وبصفة خاصة في واحة سيوة، حتى وصلت تدريجياً إقليم طرابلس على طول البقاع الجافة[٤٦]. وفي العصر البوني (Punic) كان له نفوذ لا شك فيه على عبادة الاله بعل آمون[٤٧] الذي يشبهه في الاسم.

وهذه هي أول أشتات الأدلة التي تخبرنا بعض الشيء عن الليبيين في أقصى الجزء الشرقي من منطقة استقرارهم الواسعة. ويجب ملاحظة أن «شعوب البحر» قد ذكرت مرة واحدة فقط في نقش بالكرنك، باعتبار أنها على اتصال بالليبيين خلال حكم مرنبتاح في سنة ١٢٢٧ق.م. وربما كان هذا النقش نفسه نتيجة لاختلاط عديد من الغارات[٤٨]. ولكن حتى اذا سلمنا بأنه كانت توجد قوات من شعوب البحر بين الليبيين، فهل يمكننا أن نزعم أن هذه الشعوب هي التي علمت الليبيين استخدام المركبات، أولاً على حدود مصر، ثم بعد ذلك عبر الصحراء؟

وهذا الافتراض يلقى تأييد بعض المتخصصين في الدراسات الصحراوية[٤٩] رغم أنه لا يوجد سوى قليل من التشابه بين صور المركبات الصحراوية والايجية، كما ثبت على يد علماء آثار التاريخ القديم مثل بيكار (Picard) [٥٠]، ومتخصص في دراسة الجياد مثل سبراط (Spruytte)[٥١]، فتشاهد العربات الصحراوية في منظر يمثل أحد الفرسان، وهو ليس منظراً جانبياً، ولا ترتفع منصتها، وتستقر

---

(٤٤) .Gauthier, H. Cairo, 1927, pp. 104 and 117; Leclant, J. Vol. 52, 1950, p. 338, Hölscher, W. op. cit. p. 65, note, 2. وعن الأسبيتيين، انظر: .Vycichl, W. Atlanten, Isebeten, Ihaggaren, in Vd. 31, 1956.

(٤٥) انظر التحفظات قوية الحجة التي أدلى بها: .Gsell, St. Paris, 1913, I, p. 354, Algiers, 1915, pp. 113-134

(٤٦) .Leclant, J. Vol. 49, 1950, pp. 193-253, Rebuffat, R. Vol. 3, 1970, pp. 1-20. وعن عبادة آمون في إقليم سيرت، انظر: .Gsell, St, IV, p. 286.

(٤٧) Leglay, M. Paris, 1966, pp. 428-341. ولا يعتقد هذا الكاتب أن آمون سيوه يقدم لنا رباطاً بين آمون طيبة وبعل آمون. وهو يعتقد أن البربر الليبيين في إفريقيا الصغرى حتى إقليم وهران (Oran) كانوا واقعين تحت التأثير المصري في وقت يسبق قيام هذا الدين في سيوه، ولا بد أن عبادة بعل آمون البوني أصبحت متفوقة على عبادة الكبش المحلية، والذي يتماثل وآمون المصري.

(٤٨) مثل الأشكال المرسومة في مدينة هابو التي تخلط الغارات الليبية في ١١٩٤ق.م.، ١١٨٨ق.م. بغزو «شعوب البحر» في ١١٩١ق.م. انظر: .Drioton E. and Vandier, J. Paris, 1962, pp. 434-436.

(٤٩) .Perret, R. 1936, pp. 50-51.

(٥٠) كان الليبيون يستخدمون العربات من سرت الى جنوب المغرب؛ .Picard, G. 1958, p. 46 ومع هذا يجب أن نلاحظ أنه بينما تتصف تعليقات المؤلف على أصل الصور الصحراوية للمركبات بالاتزان، فإن أدلته، والتي طبقاً لها تأثرت هذه التماثيل بفن الامبراطورية الرومانية، غير مقبولة، كما ذكر كامبس: .Camps, G. 1960, p. 21. nots 46, and Lhote, H. 1963, pp. 225-238. منذ زمن رمسيس الثالث الى الزمن الذي سجله ديودور (XX, 38, 2) وسترابون (XVII, 3, 7) ومصادر كليهما سابقة على الامبراطورية الرومانية، انظر .Bates, O. op. cit. p. 139 (cf. note 2, p. 9).

(٥١) .Spruytte, J. 1968, pp. 32-42.

على مركز المحور بعيداً عن العجلات وهذا من شأنه تقليل حمولتها فلا تزيد عن سائق واحد، يمسك بيديه نوعاً من سوط قصير وليس سلاحاً. والجياد أغلبها بربرية، ويتم كبح جماحها عن طريق ربط بعضها الى بعض وليس عن طريق وضع نير على رقابها. ورغم انها تظهر في وضع منبسط (الركض الطائر)، فإن عراقيبها وركبها لا تظهر. وفي الوثائق الايجية، زيادة على ذلك، يختلف «الركض الطائر» عن وضع الجياد المكبوحة باللجام، وبهذا فإن المركبات الصحراوية على ما يبدو تتميز بشكلها الخاص باعتبارها الى حد ما عربات «رياضة» سهلة الكسر.

وعلى هذا ينبغي أن نميِّز بين العربات الصحراوية والعربات الحربية في العصور القديمة، والتي امكن التعرف عليها لدى خصوم رمسيس الثالث، وفيها بعد لدى الجرمانتيين (وهي عربات تجرها أربعة جياد)، والاسبيتيين (Asbytes) والزويكيين (Zoexes)، والليبيين في خدمة أجاثوكليس في أرباض قرطاجنة، والفاروسيين (Pharusians)، والنجريتيين (Nigrites)، وبدلاً من أن نفترض اقتباس هذه العربات من «شعوب البحر»، فإننا سنكون أقرب الى الحقيقة اذا سلمنا مع هولشر(٥٢) بأن الليبيين اقتبسوا العربة من المصريين الذين استخدموها منذ الغزو الهكسوسي قبل ذلك بأربعة او خمسة قرون. ان أصل العربات الصحراوية ما زال سراً. وقد صنعت كلية من الخشب. وكان تصميمها بسيطاً جداً، وقد صنعت طبقاً لأصل فني ثابت(٥٣)، وزيادة على ذلك فإن الحصان البربري (أو المغولي)، وهو جواد صغير الحجم، له وجه محدب، وجبهة ضيقة، وعمود فقري غائر ينتهي بخمس فقارات قطنية، ومؤخرته مائلة، وهو بهذا لا يمكن أن يكون قد انحدر من سلالة الجواد العربي الشرقي الذي يتميز بصورته الجانبية السوية المعتدلة، كما ركبه كل من الهكسوس والايجيين(٥٤)، ولعله قد انتشر من شرق أفريقيا ومن السودان(٥٥)، ولكن هذا مجرد فرض. ويمكننا أن نلاحظ انه قلما تظهر في النقوش الصخرية الصحراوية، ونقوش العصر الروماني في مناطق الثغور (Limes) (الحدود) صور الجواد العربي الآسيوي، ولو أنها موجودة(٥٦). ومع هذا، وحتى لو افترضنا أننا لا نلتقي في هذه الحالات بصورة تقليدية دخيلة على الواقع الافريقي، فإنه يبقى صحيحاً - بالنسبة للعلاقات الافريقية - أنه حتى وصول العرب ظل الحصان البربري هو النوع السائد في إفريقيا الصغرى.

ورغم أننا قد نسلم بأن الليبيين الشرقيين اقتبسوا السيف الطويل من «شعوب البحر»، فإن استخدام هذا السلاح لم ينتشر انتشاراً واسعاً على ما يبدو(٥٧)، وبكل ما في الكلمة من معنى، فإنه لا يبدو أن «شعوب البحر» قد أثرت تأثيراً عظيماً في الحضارة الليبية كما يزعم كثير من الباحثين. ومن ناحية أخرى فإن التأثير المصري الذي دعمته في الدلتا اوجه الشبه والأواصر العرقية خلال عصر ما قبيل التاريخ - لا يمكن تجاهله حتى وإن كنا لا نعرف الا النزر اليسير عن نمط انتشاره.

---

(٥٢) Hölscher, W. op. cit. p. 40: Camps, G. Paris, 1961, p. 406, note 3. انه من المستحيل أن نميز صورة العربة الليبية في زمن رمسيس الثالث من صورة العربة المصرية، انظر: Müller, Washington, 1910, p. 121.

(٥٣) Spruytte, J. 1967, pp. 279-281. ولكن يفترض هوارد وليكلان Huard, P. and Leclant, J. Cairo, 1972, pp. 74-75. ان العربات الصحراوية المنتظمة ظهرت كتقليد للعربات المصرية، ولكنها سريعاً ما صارت عربات رياضة ولهو وترف وأبهة بعد أن طرأ على شكلها تطور لم يتضح لنا بعد.

(٥٤) Spruytte, J. 1968, pp. 32-33. ان تعليق المؤلف الحصيف يؤدي مع هذا (p. 95) الى ادعاء غير مرغوب فيه، فيذكر أن الجواد البربري جاء منذ فترة بعيدة من اسبانيا أو حتى من جنوب غرب فرنسا ودخل عبر مضيق جبل طارق.

(٥٥) Beck, p. and Gal Huard, p. Paris, 1969, p. 225.

(٥٦) Espérandieu. Algiers. 1957, p. 15.

(٥٧) Camps, G. 1960, pp. 112 and notes 371-373.

حياة البربر قبل تأسيس قرطاجة

وكما أكد كل من باسيت (Basset) (٥٨)، وكامبس(٥٩)، فإن البربر الليبيين لم يعرفوا الزراعة عن طريق الفينيقيين، ولكنهم مارسوها منذ نهاية العصور الحجرية الحديثة، والقول بأن الكنعانيين جلبوا الزراعة الى افريقيا الصغرى خلال الألف الثانية قبل الميلاد، هو افتراض جزافي غير مترو. ان النقوش والرسوم في عصر المعدن تصور محراثاً دوّاراً بشكل بياني تخطيطي في «الشفية» (منطقة شرق قسنطينة)، وجبال أطلس العليا(٦٠)، والى الغرب من تبسّة في اقليم دوار تازينت فإن طرازاً معمارياً واحداً في شكل مربعات هو الذي بقي الى اليوم من الانشاءات البدائية الخاصة بحفظ المياه، والتي تؤرخ بفترة سابقة جداً على عصر الممالك الوطنية. وكان لدى مستخدمي هذه الانشاءات معدات بعضها مصنوع من الحجر.

وفي الوقت الذي كان الفينيقيون فيه على وشك أن يستعملوا محراثاً حديدياً ذا ثلاثة اسلحة، كان البربر قد بدأوا فعلاً في استخدام شكل خاص من المحاريث يحتمل أنه كان أقل فعالية حيث كان يتكون من سلاح خشبي بسيط يُجرّ في التربة لشقها(٦١)، ولا بد أن هذا المحراث قد انهى الاقتصار على استخدام المعزقة، لأن الجوانشيين (Guanches) الذين استخدموا هذه المعزقة لم يعرفوا المحراث قطّ. ويبدو في بداية الأمر أن الليبيين غالباً ما كانوا يجرون المحراث بأنفسهم بواسطة حبال يربطونها بأكتفاهم، لكنهم كانوا قد عرفوا منذ وقت طويل طريقة شد الثيران الى النير التي صورت في كل من اللوحات الجصية المصرية، وفي الصور المحفورة الخاصة بالأطلس الأعلى. ومن ناحية أخرى فإنه يبدو أنهم لم يعرفوا أي طريقة ميكانيكية لدرس محاصيلهم قبل العصر البوني(٦٢)، واكتفوا بترك حبوبهم لتدرسها الماشية الثقيلة عن طريق المشي فوقها.

وقد بيّن علماء النبات أن القمح الجاف (ربما المجلوب من الحبشة) والشعير(٦٣) قد زُرعا في شمال إفريقيا قبل وصول الفينيقيين بكثير، وكذا الفول والحمص(٦٤)، رغم أن الأخير أعطى البربر اسم ايكيكر (Ikiker) من اللفظ اللاتيني كيكر (Cicer)(*).

وفي العلوم الخاصة بالغابات - على العكس مما سبق - كان التأثير الفينيقي - البوني حاسماً. ومع هذا فلا بد أن البربر عرفوا تطعيم شجر الزيتون البري قبل أن ينشر القرطاجيون زراعة الزيتون ومن ناحية أخرى فليس هناك دليل على أن الكرم - الذي كان موجوداً في اقليم الجزائر منذ بدء الزمن الجيولوجي الرابع - قد زرع قبل وصول الفينيقيين. وقد زرع بربر ما قبل الصحراء - مثل النسامونيين الذين ذكرهم هيرودوت (IV, 172, and 182) ، و«الاثيوبيين»، نخيل البلح الذي كان أقل انتشاراً على

(٥٨) Basset, H. 1921, p. 340 and seq.

(٥٩) Camps, G. 1960, p. 69 and seq.

(٦٠) Bobo, J. and Morel, J. 1955, pp. 163-181; Malhomme, J. 1953, pp. 373-365.

(٦١) Camps, G. Massinissa, pp. 82-83. مع ببليوجرافيا على صفحة: p. 62, note 287.

(٦٢) بخصوص العربة الصغيرة البونية (Plostellum Benicum) التي ابتدعت في فلسطين وفينيقيا، انظر احدث المؤلفات: Kolendo, J. Warsau, 1970, pp. 15-10.

(٦٣) Erroux, J. Vol. 48, 1957, pp. 236-253.

(٦٤) Camps, G. Massinissa, p. 80.

(*) بمعنى «حُمص».

حدود إفريقيا الصغرى مما هو عليه الآن. ولكن التين كان فاكهة البربر المفضلة(٦٥)، حتى وان كان «كاتو الاكبر» قد عرض ثمرة تين طازجة في روما، لكي يرمز الى مدى قرب مدينة منافسة (هي قرطاجة) وحتمية تدميرها.

ان البحث الأثري في الانصاب الجنائزية أثبت وجود جماعات كبيرة مستقرة كانت تمارس الزراعة في العصور القديمة بافريقيا الصغرى. حقيقة أنه من الصعب تأريخ آثار عصر ما قبيل التاريخ بصفة خاصة في هذا الاقليم نظراً لأن فخار البربر قلما يتغير شكله. على أي حال - طالما أنه تنقصنا الأدلة الأخرى التي يمكن ان نصل عن طريقها الى تأريخ صحيح فإننا سنتلمس حياة البربر قبل نشأة قرطاجة في المادة الأثرية المستمدة من مدافن الفترة السابقة على الرومان بزمن طويل، والتي لم تتعرض لأي تأثير قرطاجي.

ويدل أثاث المقابر - كما أثبت كامبس بوضوح(٦٦) - على مدى قدم الثقافة الريفية البربرية. ويمكن أن نوافق هذا الباحث في أن خريطة توزيع المدافن، في عصر ما قبيل التاريخ المشتملة على فخار تزودنا بمعلومات صحيحة عن الانتشار الجغرافي للزراعة. ومما هو جدير بالذكر أن ركام قبور جنوب إفريقيا الصغرى لا يحوي فخاراً، ولا يوجد أي فخار على تخوم الصحراء الواقعة بين زاهريز (Zahrez) والحضنة (Hodna)، ولا في مراكش الشرقية بين وادي الملوية (Muluya)والحدود الجزائرية. وقد مكنت دراسة أشكال الفخار كامبس من أن يلقي بعض الضوء على طريقة حياة بربر ليبيا في هذا الوقت. وتشبه النماذج (المصنفة حسب الطراز) الفخار المعاصر شبهاً شديداً، فالسلطانيات والطاسات والأقداح الخاصة بالسوائل والحساء، والأطباق المسطحة كثيراً أو قليلاً، والصحاف الكبيرة التي تشبه الى حد ما الصواني المستعملة في يومنا هذا في خَبْز الخبز غير المخمر، والكعك والفطائر.

وعثر كذلك على نوع من طبق الفاكهة له قاعدة على شكل الساق، من عصر ما قبيل التاريخ وحتى الآن. وتبين الثقوب أنه منذ أقدم العصور كان البربر يعلقون آنية الأكل على الحائط، ومن ناحية أخرى ليس هناك في العصر الحديث ما يناظر قدور الترشيح القديمة، ويتساءل كامبس عما اذا كانت قد استخدمت لفصل العسل أم لنقع السوائل.

وقد أثبت الأثريون كذلك أن بدو المواقع الجنوبية كانوا يحملون أسلحة للزينة ويلبسون أساور، ويعلقون عقوداً معدنية، أو خرزاً من العقيق الأحمر أكثر مما يفعل السكان المستقرون. وتشير بعض فضلات النسيج الى ارتدائهم أقمشة مخططة. وتظهر الملابس المصنوعة من الجلد على الرسوم الصخرية الصحراوية، وتؤكد أقوال هيرودوت (IV, 189)، - كما تؤكد النقوش الصخرية التي عثر عليها قرب سيجوس (Sigus) - وجود الدثار المسمى «البرنس Burnous»في الأزمنة القديمة، والتي ربما كانت أصل الأسطورة التي شاعت عن الرجال الذين لا رأس لهم، أو الرجال الذين توجد وجوههم في صدورهم. وهذا البرنس كان يلبسه أيضاً البليميون (Blemmues) في الصحراء العربية على حدود مصر العليا.

وكان النوميديون والموريون مسلحين برمح رفيع طويل، وسكين صيد، بينما المستوطنون المستقرون الذين يختلفون تماماً عن سكان الجنوب البعيد، فنادراً ما كانوا يدفنون معهم أسلحتهم. وكان «الأثيوبيون» والشعوب المخلطة: النجريتيون والفاروسيون بصفة خاصة يحملون الأقواس والسهام، كما يذكر سترابون (XVIII,3,7) . ويذكر بلينيوس الأكبر (Natural History, VI, 194)شعباً صحراوياً

(٦٥) Camps, Massinissa, p. 90.

(٦٦) Camps, G. Ibid, pp. 96, 97, 101-104 and 107-111.

«فوق» خليج سيرت الكبير يسمى «اللونجونبوريين Longonpori» ، وهو أسم مأخوذ عن اليونانية ويعني «حملة الرماح».

وكان المصدر الرئيسي لثروة البدو هو تربية الأغنام والمعيز والماشية. ويظهر أحد النقوش منظراً يمثل حَلْب اللبن عثر عليه في جرف توربة غرب (كولومب) بيشار(٦٧) في منطقة خالية تماماً الآن. وطبقاً لرواية ايليانوس (Elianus) ، (NA. VII. 10.1)فإن هؤلاء البدو لم يكن لديهم عبيد، ولكنهم استخدموا بدلاً منهم الكلاب. وقد جاء نفس التعليق بخصوص التروجلوديتيين سكان كهوف البحر الأحمر والاثيوبيين في مستنقعات النيل. ولكن ايليانوس (VII, 40) يقول إن أثيوبيين آخرين نصبوا كلباً ملكاً عليهم. (ويبدو أن أرسطو كريون (Aristocreon) هو مصدر هذه الرواية). وكان الصيد بطبيعة الحال مهنة شائعة، ويذكر بطليموس أن بعض الصيادين الأوريابيين (Oreipael) كانوا يعيشون جنوب تونس قرب الحدود الأثيوبية، ويجاورون الأثيوبيين النبجنتيين (Nybgenite Ethioplans) المنتشرين في المنطقة الواقعة جنوب الجريد(٦٨).

ونحن لا نعرف سوى القليل جداً عن التنظيم الاجتماعي للبربر الليبيين في الأزمنة السابقة على تلك التي وصفت في المصادر القديمة، على الأقل اذا تجاهلنا المحاولات المتكررة لاستعادة البناء - والتي تقوم على أدلة متأخرة زمنياً - إن ضخامة الأكوم والركمات في رحارب (Rharb) في المغرب، أو ضريح الميدراسين (Medracen) في منطقة قسنطينة يوحي بأنه في الأماكن الشرقية والغربية من المغرب، والتي كانت مستقلة عن قرطاجة، ظهرت دول ملكية على الأقل منذ أوائل القرن الرابع. ولا يمكن التأكد من شيء آخر أكثر من هذا، لأن الصورة المشرقة للتنظيم الاجتماعي الليبي التي رسمها جزيل تعتمد أساساً على الوثائق الرومانية في العصر الامبراطوري، وحتى على أساس ما قاله الشاعر كوريبوس (Corippus) الذي كان معاصراً لجستنيان.

المعتقدات الدينية لبربر ليبيا

من الصعب أن نتوصل الى صورة واضحة للمعتقدات الدينية لبربر ليبيا قبل وصول التأثيرات البونية الفينيقية، ثم فيها بعد الرومانية. ولا يوافينا الأثريون المتخصصون في عصور ما قبل التاريخ بما يسمح لنا بمعرفة أكثر من الطقوس، بل انه في حالة إفريقيا الصغرى تضيق معرفتنا فتقتصر على الطقوس الجنائزية(٦٩). وعلى هذا فيجب علينا أن نلجأ مرة اخرى الى الأدلة المأخوذة من المؤلفين القدامى، ونلتقط ما نستطيع من معلومات من نقوش العصر الروماني دون أن نكون متأكدين من أن العادات التي نتحدث عنها كانت موجودة في الفترة البعيدة التي يتحدث عنها هذا الفصل. ان هناك أكثر من سبب يدعونا الى أن نتذكر أنه من قبيل المصادفة دائماً أن نأخذ فكرة صحيحة عن بعض العادات الباقية من العصر الماضي، قبل الاسلام، والتي نعتقد أننا يمكننا ان نكتشفها في المجتمعات البربرية في العصور الوسطى والحديثة.

---

(٦٧) Camps, G. Massinissa, p. 115 and fig. 13, p. 116.

(٦٨) Desanges, J. Dakar, 1962, pp. 89-90, 129, 228-229. «الاوريبايون والاروبايون» ربما كانوا أسلاف الرباعية Rebāya ذوي البشرة الدكناء.

(٦٩) Camps, G. Paris, 1961, p. 461.

ويبدو أن شعور القداسة بين الليبيين يتبلور حول عدد كبير من الأشياء المختلفة، وكان يعتقد بظهور القوى الخارقة للطبيعة في المناطق المحيطة بالريف حيث تعبد جنيات الأنهار والجبال، كما يظهر في كتابات العصر الروماني(٧٠)، وكان يعتقد - اعتقاداً قوياً - بأن القوى الآلهية يمكنها أن تحل في الأشياء الشائعة العامة.

وكانت الصخور المستديرة أو المدببة مثل الحصى الجرانيتي الذي يرمز للوجه الانساني أو للأعضاء التناسلية من الأشياء التي تعبد(٧١)، ويشير بومبونيوس ميلا (Pomponius Mela) ، (Chor. I. 35) وبلينيوس (H.N.II,115) الى صخرة في برقة كان محرماً لمسها خوفاً من هبوب الرياح الجنوبية، وكانت مصادر المياه العذبة وبصفة خاصة العيون والآبار، كانت تعبد أيضاً. ويخبرنا القديس أوغسطين (٣٥٤ - ٤٣٠م) أنه في يوم ٢٤ أغسطس (آب) من كل عام (منتصف الصيف) كان النوميديون يمارسون طقوساً تقضي بالغطس في البحر. ولم تكن عبادة الأشجار مجهولة: فقد طالب مجمع ديني إفريقي في القرن الرابع الامبراطور أن يبطل عبادة الأوثان «حتى الأشجار والغابات». لقد كانت طقوس الاستحمام في البحر في الانقلاب الصيفي، وعبادة الماء والأشجار مظاهر لتقديس الخصب الذي عبر عنه بطريقة مباشرة جداً الدبسوليون (Dapsolibues) طبقاً لما ذكره نيقولاس الدمشقي - Fragm. 135) Müller, C. Fragmenta Hist. Graec. III, p. 462) المعاصر لأغسطس، وبمجرد أفول كوكب الثريا، وبحلول الليل، تنسحب النسوة، ويطفئن أنوارهن، ثم يلحق الرجال بهن، ليتزوج كل واحد منهم رفيقته التي جمعته الصدفة بها. وهناك ما يدعو للاعتقاد بأن هؤلاء الدابسوليين هم حقيقة الدابسو - ليبيون أو الليبيون الأغنياء، وهذا ما يفسر بوضوح ولعهم بطقوس الخصب في «ليلة الاخطاء».

والحيوانات التي ترمز بكل وضوح الى قوة التوالد وعلى وجه التحديد الثور والأسد والكبش، هي التي كان يقدسها الليبيون، ويخبرنا كوريبوس (Corippus) ، (Iohannis, IV. pp. 666-673)كيف أن اللجوانتانيين (Laguantan) (أولواته) في سيرت (Syrtis)يطلقون الثور الذي يمثل معبودهم الاله جورزيل (Gurzil) - ابن آمون - على أعدائهم. وقد زينت كل من المقبرة الملكية في قبور روميا قرب شرشال، والضريح الفخم في دجه (Dougga) بتماثيل أسود، ولكن الكباش كانت الهدف الرئيسي للعبادة(٧٢)، والتي يحتمل أنها انتشرت في إفريقيا قبل أن تصبح الصحراء جرداء، وقد أخبرنا أثناسيوس (Athănăsius) ، (Contra Gentes 24)بأن الكبش كان يعتبر إلهاً مقدساً لدى الليبيين تحت اسم آمون، ويجب أن نذكر أن شعائر عبادة الأسماك تميزت بها المنطقة التي هي الآن تونس: وهي تفسر الى حد ما وفرة الصور الخاصة بالأسماك التي عثر عليها على الفسيفساء التونسية. والسمك - وهو رمز للذكورة - يقي من العين الشريرة، ويظهر عضو تناسلي ذكر على شكل سمكة قاذفاً بلقاحه بين عضوي تناسل انثين على فسيفساء من سوسة. والى جانب السمك فإن المحار قد انتشر انتشاراً واسعاً كرمز للجنس المؤنث في كل من إفريقيا الصغرى، وهي تخدم الأحياء بما فيها من جمال، وتريح الموتى في قبورهم.

(٧٠) انظر الأبحاث الحديثة : Leglay, M. Paris, 1966. p. 420, and note 7, p. 421 and note I, Vycichl, W. Stuttgart, 1970, pp. 623-624.

(٧١) Gobert, E. 1946, pp. 24-110, Vycichl, W. p. 679.

(٧٢) Picard, G. Paris, 1954, Leglay, M. Vycichl, W. op. cit. pp. 695-697.



تماثيل أسود من «قبور روميا»



لوحة ليبية من أبي زار (جنوب شرقي تيجيزرت)

لوحة غير متناسقة من الحجر الرملي بارتفاع ١,٥٥ - ١,٣٥، وعرض ١,١٠ - ٠,٨٨، وسمك ٠,١٠، عثر عليها في بستان في أبي زار بمنطقة القبائل.

وتعتبر اللوحة التصويرية المنشورة هنا اول صورة فوتوغرافية تنشر لهذا الأثر التاريخي الذي اثار جدلاً بشأن الكتابة المنقوشة عليه. فقد رأى الجنرال هانوتو ان هذه الكتابة تعني: «في يوكاس (أو «يكار»)، أنوريس يقدم الولاء لسيده»، ورأى بيربروغر انه يتعين قراءة الأسم «ياكوس». ورأى أريستيد ليتورنو ان العبارة تعني بالأحرى: «بابا دجيديل بن كازروز رادجي». وفسرها السيد هاليفي على النحو التالي: «رافاي ماهانرادون باب بن لال». اما السيد ماسكيري الذي فسر العبارة على النحو التالي: «بابا او اديل بن كينرون رافاي» فقد قارب، بشيء من الشك في الواقع، بين الأسم بابا او اديل واسم بوعبديل، آخر ملوك غرناطة. غير ان العلماء لم يوافقوا على هذه الملاحظة نظراً لأن اسم بوعبديل هو، كما يعلم الجميع، مجرد تحريف اسباني للأسم العربي ابو عبدالله.

ويمثل النقش القليل البروز فارساً مسلحاً يحمل بيده اليسرى درعاً مستديراً وثلاثة رماح. ساعده الأيمن ممدود ويده مرفوعة في مستوى جبينه وهو يمسك بين الابهام والسبابة بشيء مستدير غير واضح. وجلس على مؤخرة الجواد شخص قصير القامة تلامس يده اليسرى جسم المحارب وأمسك بيده اليمنى المرفوعة ايضاً سلاحاً. وللفارس لحية مثلثة مدببة تتدلى على صدره. وقد رأى السيد ماسكيري ان هذا الشكل يمثل نقاب الطوارق المسمى باللثام. غير انه يبدو من الصعب قبول هذا التشبيه نظراً لأن الشارب منفصل عن اللحية على نحو يظهر الفم، وهو من قسمات الوجه التي يستخدم اللثام بالتحديد لاخفائها. ويحمل الجواد في عنقه تميمة رأى بيربروغر انها تمثل قضيباً (العضو التناسلي للذكر)[1]. وأمام الحصان يوجد حيوانان احدهما من ذوات الأربع، قد يكون كلباً حسب رأي ماسكيري، والآخر، الذي على ما يبدو انه طائر، قد يكون نعامة حسب رأي بيربورغر. وليس من الواضح ما ترمز اليه هذه الصور. وقد رأى بيربورغر انها تمثل صياداً «قد يكون إله الصيد، وأن الغلام الذي يتبعه، كما يعتقد، قد ضرب الدغل بعصاه فأطلق الحيوانين اللذين يمثلان نموذجين من الطرائد ذات الشعر وذات الريش». ولكن من غير المحتمل أن يكون هذا التفسير الطريف هو التفسير الصحيح.

وقد انجز هذا النقش عن طريق الحفر اكثر منه عن طريق النحت. ويمكن مقارنته بشيء من العناية بأثرين مماثلين اكتشفهما السيد ماسيكري عام ١٨٨١ في سواما عند بني بو شعيب. وهما مسلتان غير متقنتين تمثلان دون شك زعيمين محليين هما، حسب رأيه، الزعيمان اللذان سلمتهما روما ادارة القبائل الجبلية. وقد كان باداجيديل، الذي اصبح مشهوراً بفضل البحوث التي اثارتها هذه المسلة، شخصاً من هذا النوع.

وتعتبر مسلة ابي زار اثراً بالغ الأهمية فيما يخص تاريخ الفن المحلي القديم. فهي تمثل في العصر الروماني الأسلوب المباشر لأقدم نوع من انواع الفن البربري. كما ان الأساليب المتبعة في النحت وكذلك الأجزاء المأخوذة من الرسم الذي تمثله المسلة مستمدان مباشرة من الأسلوب المتبع في انجاز المنحوتات الصخرية العظيمة في حجر الخنقة، وكذلك منحوتات مغر، وتيوت، والحاج ميمون، وأماكن اخرى عديدة في منطقتي السوف والصحراء.

---

(١) أنظر الخيول الظاهرة في فسيفساء حضرموت، بجموعة علوى ص ٢٠، والرصائع التي عثر عليها في نفس المكان، ايبيد ص ٢٣ و٢٥، والتمائم التي ما زالت تعلق بنفس الشكل في اعناق الخيول والبغال عند العرب.

واعتبرت أجزاء أخرى من الجسم الانساني وعاء للقوى الخارقة للطبيعة، وبخاصة الشعر، وقد وجه بيكار(٧٣) النظر الى عادة انتشرت بين الليبيين وهي تجميع الشعر في ضفيرة واحدة تتجمع في خصلة (كالعرف او اللذؤابة) أعلى الرأس. وهذا ما يلاحظ بجلاء منذ وقت ظهور صور الجص الملونة (الافرسك) المصرية الى وقت ظهور تماثيل هرميس الليبية في حمامات عصر أسرة أنطونينوس؛ هذا دون أن تفوتنا الاشارة الى الماكاي (Macae) الذين ذكرهم هيرودوت (IV,175)، واذا صدقت رواية سترابون (XVII,3.7) فإن الموروسيين (Maurusians)كانوا يتجنبون الاقتراب جداً من بعضهم البعض خلال المشي حتى لا يفسدوا أناقة تصفيف شعورهم. وهذا لم يكن امارة دلال وغندرة بقدر ما كان يشير في أغلب الظن الى خوف عقائدي على رجولتهم ولعله لنفس السبب كان يصحب فَلْي الشعر عند نساء الأديرماخيين (Adyrmachidae) شعيرة معينة للانتقام (هيرودت IV, 168).

وكان الرجل يحاط بالعناية بعد الموت، والعامل العقائدي هو أظهر ما يجده الأثري لدى البربر الليبيين. ويزودنا بحث كامبس(٧٤) القيم بمادة لتقديم عرض موجز. كان الجسد عموماً يدفن على جانبه ثم تتم امالته أو ضمه، وقبل أن يتم هذا فإنه غالباً ما ينزع اللحم من العظم، وعادة تغطى العظام واللحم بتراب أحمر يعتقد أنه يعيد الحياة للجثة. ويتم تزويده بالطعام، كما توضع التمائم لحمايته في حياته الثانية. وكانت تقدم ذبائح حيوانية كجواد مثلاً، وأحياناً كانت ترتكب جريمة قتل طقوسي كي يتسنى للميت ان يحتفظ بخادم مخلص، ويلحق بالميت في قبره أفراد أسرته عند موتهم، وبين هؤلاء - في عديد من الحالات وبخاصة في منطقة وهران ومراكش - الزوجة، وهذا يبين أن نظام الزوجة الواحدة أو على الأقل تعدد الزوجات الانتقائي كان يمارس على نطاق واسع.

كان تقديم الأضاحي على شرف الأموات يتم أمام مقابرهم في منطقة مخصصة لذلك تواجه الشمس المشرقة، وأحياناً كان يرمز للقوة الحيوية للميت بنصب ضخم على هيئة مسلة أو لوحة تذكارية. ويخبرنا هيرودوت (IV, 172) أن النسامونيين كانوا يستشيرون أجدادهم حول المستقبل بالنوم فوق مقابرهم، ويعتقد كامبس أن هذه الشعيرة هي السبب في وجود ركام ترابي في شكل المنصة العالية فوق القبر؛ لكن يبدو أن الأضرحة الصحراوية التي تضم محراباً وغرفة كانت هي الأكثر توافقاً مع هذه العادة، ومن المحتمل أنها انتشرت انتشاراً واسعاً بين السكان الصحراويين، حيث انهم قد عبروا عن دهشتهم من أن الأطلنطيين (Atlantes) لم يروا قط أي رؤى في نومهم (هيرودوت IV, 184).

ويقرر هيرودوت كذلك (IV, 172) أن النسامونيين عندما كانوا يقسمون على شيء كانوا يضعون يداً على قبر أحد المشهود لهم بالعدل والخير، ويبدو أن هذا رمز لعبادة الموتى الناشئة. ويبين أثريو العصور قبل التاريخية أنه قد نشأت بالتدريج جبّانات كاملة حول قبور معينة. هكذا كان بوسع الأشخاص ذوي المكانة والاعتبار أثناء حياتهم أن يجمعوا حول مدافنهم عدداً كبيراً من قبور الآخرين، هذا بالطبع فضلاً عن جموع غفيرة من الأحياء. ويتساءل كامبس(٧٥) بحق عما اذا كانت عبادة مشاهير الموتى قد أدت الى قيام او تغيير بنية التجمعات السكانية التي توجد عليها أدلة في العصور البونية والرومانية. وكان من الطبيعي بمجرد قيام أي مملكة أن تنشأ فيها على الفور عبادة لملوكها الراحلين.

---

(٧٣) Picard, G. ch. op. cit. p. 14.

(٧٤) Camps, G. Paris, 1961, pp. 461-566. ولا يتسع المقام هنا إلا لتقديم ملخص مختصر جداً لهذا المسح الشامل للمادة الأثرية.

(٧٥) Camps, G. op. cit. 564 (cf. note 2, p. 20).

ويظهر أن الليبيين لم يعبدوا آلهة كبرى ممثلة في صورة بشرية أو شبه بشرية. وطبقاً لما يقوله هيرودوت (IV, 188) فإنهم كانوا لا يقدمون قرابين الا للشمس والقمر. ومع هذا فإن سكان منطقة الجريد كانوا أكثر ميلاً لتقديم القرابين الى أثينة (Athena) وتريتون (Triton)وبوسيدون (Poseidon)، بينما لعن الاطرانطيون (Atarantes) ، (ID, IV, 184)- وهم الجيران الغربيون للجرمانتيين - الشمس. ويحكي شيشرون (Cisero) ، (Rep. VI, 4)أن ماسينسا (Massinissa)قدم الشكر للشمس، وغيرها من الآلهة في السماء، وقد استمرت عبادة الشمس في عدة مدن في إفريقيا الرومانية مثل مكثر (Maktar) ، والثيبيروس (Althiburos) ودجّه (Thugga)، وسبيطلة (Sufetula)(*)، ولكن لا بد أنه كان هنا وهناك بعض التأثيرات البونية(٧٦).

والى جانب الكوكبين الكبيرين من الأجرام السماوية (الشمس والقمر) فإن المصادر المنقوشة والأدبية تكشف عن عدد وفير من المعبودات، ولا ترد اسماؤها غالباً الا مرة واحدة، بل يشار اليها أحياناً إشارة جماعية، مثل «الآلهة المورية Dii Mauri» (٧٧). وقد صوّر في نحت عثر عليه قرب البجة ما يشبه هيكلاً مكرساً لسبعة آلهة، ولكن هذا بلا شك يعكس نوعاً من الشرك دخل في ظل التأثير البوني، والذي أدى بالليبيين الى تجسيد القوى الالهية ورسمها في صور آدمية، واذا ترك الليبيون لانفسهم فإنهم كانوا يميلون دائماً الى «المقدس» (المكرس للعبادة) أكثر من ميلهم الى الآلهة(٧٨).

(*) مكثر وسبيطلة بلدتان معروفتان تقعان في الجمهورية التونسية. ولعل التيبيروس هو اسم احدى الضياع. اما توجا - وهي Thugga أو Tuccaفي اللاتينية - وهي دجة (Dougga)الحالية على ساحل الجزائر غربي بلدة جيجل مباشرة (شرق خليج بجاية) (المراجع).

(٧٦) Picard, G. ch. Ciuitas Mactaritana, 1957, pp. 33-39.

(٧٧) Camps, G. 1954, pp. 233-260.

(٧٨) بخصوص النظرية القائلة بأنه كان هناك إله كبير واحد للبربر الليبيين، انظر: Leglay, M. op. cit. pp. 425-431; Iolaos, Ballddir and Iush, يعبر المؤلف عن رأيه بأن الاله الطيبي آمون كان في طريقه لكي يصبح الاله السائد في إفريقيا الصحراوية وإفريقيا الصغرى عندما ظهر الفينيقيون في القارة، وهذه نظرية مثيرة لكننا لا نجد الأدلة الكاملة عليها.

الفصل الثامن عشر

العصر القرطاجي

بقلم: ب. هـ. وارمنجتون

يبدأ دخول المغرب في التاريخ المكتوب بوصول البحارة والمستوطنين من فينيقيا الى سواحله، ولكن اعادة البناء التاريخي لهذه الفترة أمر صعب، وذلك لأن المصادر كلها تقريباً يونانية ولاتينية، وكان الفينيقيون في الغرب بالنسبة للاغريق والرومان - وبخاصة تحت قيادة قرطاجة - أعداء ألداء. ومن هنا فإن الصورة في المصادر مشوبة بالتجني والتحامل. ولم يبق لنا الزمن أي مؤلفات قرطاجية[1]، كما أن العون الذي يقدمه علم الآثار محدود، ففي معظم الحالات أقيمت فوق المستوطنات الفينيقية مدن رومانية ضخمة، وعلى الرغم من ذلك حدث بعض التقدم في العقدين الأخيرين. وهناك عدد كبير من النقوش المدونة بمختلف صور اللغة الفينيقية، ولكنها كلها تقريباً نقوش مقبرية أو نذرية، ولا تقول لنا إلا القليل.

كذلك يكتنف تطور الحضارات الليبية المحلية، قبل القرن الثالث قبل الميلاد، بعض الغموض. وقد استمر تراث حضارة العصر الحجري الحديث القفصية في المغرب حتى الألف الأولى قبل الميلاد، ويوجد القليل الذي يمكن تمييزه بأنه من عصر البرونز. ان الصورة الأثرية للألف سنة الأولى تعكس لنا تطوراً بطيئاً مطرداً، وإن يكن مصحوباً بتأثيرات فينيقية فعّالة متزايدة منذ حوالى القرن الرابع،

(١) .S. Moscati (the World of the Phoenisians, London, 1968, p. 113) «ركز المؤلفون اليونان واللاتين انتباههم أساساً على الحروب أولاً بين قرطاجة وسرقوسة (Syracuse) ، ثم بين قرطاجة وروما، وهنا يكون الوصف شاملاً ومفصلاً، ويكتب عقب الأحداث مباشرة، وبالنسبة لباقي التاريخ القرطاجي فإن المعلومات متفرقة، فملاحظات أرسطو على الدستور البولي (Punic) ورواية بوليبيوس عن ثورة الجنود المرتزقة والترجمة الاغريقية لنقش حنون (Hanno)، وقائمة ممتلكات قرطاجة في إفريقيا في منتصف القرن الرابع ق.م. كما ذكرها سكيلاكس الزائف (Pseudo - Scylax) ، كلها أمثلة اخذت من وثائق متفرقة وغير منظمة، ومليئة بالفجوات، وغالباً يصعب تجميعها.

فظهرت - بصفة خاصة - المقابر ذات السطح الفسيح الضخم المبني من الحجر، والتي ليس لها علاقة - على ما يبدو - بمقابر حضارات ما قبل التاريخ الضخمة في شمال أوروبا، والتي يرجع تاريخها - على الأرجح الى الفترة التي نتحدث عنها. أما المقابر الأضخم منها، مثل المقبرة الركامية في مزورة ومقبرة المدرسين، فمن المحتمل أن لها علاقة بنشأة الوحدات القبلية الكبيرة في القرن الرابع أو الثالث، ويوجد قدر ملحوظ من التماثل في المغرب.

ويشير الكتّاب الاغريق والرومان الى عدد كبير من القبائل المختلفة بالاسم، ولكن في الفترة موضوع الدراسة ينقسم السكان غير الفينيقيين في المغرب الى ثلاث مجموعات رئيسية: ففي الغرب، بين الأطلنطي وملوكا (Mulucca) (وادي الملوية)، يعيش الموريون (Mauri)(المورطانيون)، وأطلق اسم موريتانيا، ومن قبل مَوروسيا (Maurousia) على اقليمهم، ولكن فيما بعد، امتد الاسم أكثر من ذلك شرقاً الى ما وراء وادي شلف. وبين الموريين وأقصى امتداد غربي للقرطاجيين كان يعيش في الاقليم الداخلي (انظر أدناه) النوميديون (Numidae) في إقليم نوميديا، ورغم أن الاغريق والرومان اشتقوا - خطأً - اسم النوميديين من كلمة يونانية تعني «الرعاة»، ويعنون بها وصف طريقتهم في الحياة، وهي حياة البدو الرحل (Nomadie) فلم يكن هناك - على ما يبدو - اختلافات أساسية بين السكان في المنطقتين، فالطابع الرعوي - شبه البدوي - كان يغلب على المنطقتين، ولو أنه كانت هناك بالفعل مناطق للحياة المستقرة والزراعة الدائمة، والتي استمرت في النمو والتطور. وبالاضافة الى ذلك كان هناك اتصال وثيق بين موريتانيا وجنوب أسبانيا، حيث كانت توجد ثقافات مشابهة. أما المجموعة الثالثة فهي الجيتوليون (Gaetuli) (الجدالة)، وهو الاسم الذي أطلق على الرعاة الحقيقيين على طول حواف الصحراء الشمالية. والأسماء القديمة لهذه المجموعات والوحدات القبلية الأخرى هي المستخدمة في هذا الفصل.

المستوطنات الفينيقية المبكرة

من الأخبار المتواترة في العالم القديم أن صور هي المدينة الفينيقية المسؤولة عن حملات الفينيقيين الى الغرب، والتي أدت الى إقامة العديد من المستوطنات، وتنص التوراة والمصادر الأخرى صراحة على تفوق صور على المدن الفينيقية في الشرق الأدنى في القرن الثالث عشر. وكانت صور والمدن الأخرى (مثل صيدا وبيبلوس) منذ حوالي سنة ١٠٠٠ق.م. من أنشط المدن التجارية في شرق البحر الايجي والشرق الأدنى، وان تأثرت قليلاً بنمو الامبراطورية الآشورية.

وكان الدافع وراء ارسال التجار الفينيقيين الى غربي البحر المتوسط هو البحث عن موارد معدنية وبصفة خاصة الذهب والفضة والنحاس والقصدير. وقد قادهم هذا البحث - في تاريخ مبكر - الى اسبانيا التي ظلت احد المصادر الرئيسية للفضة في عالم البحر المتوسط حتى في العصر الروماني. وقد لخص لنا الصورة العامة بصدق المؤرخ ديودور الصقلي (القرن الأول ق. م.) الذي قال: «ان الوطنيين (أي في اسبانيا) كانوا يجهلون استخدام الفضة حتى حصل عليها الفينيقيون في رحلاتهم التجارية مقابل كمية قليلة من السلع، وحملوها الى بلاد الاغريق وآسيا والبلاد الأخرى، وحصلوا بذلك على ثروات كبيرة، كما تزايدت قوتهم بفضل هذه التجارة التي مارسوها لوقت طويل، وكانوا قادرين على ارسال أعداد من المهاجرين الى صقلية، والجزر المجاورة، وإفريقيا، وسردينيا، والى أسبانيا ذاتها،

والمتعارف عليه أن أول مستعمرة فينيقية في الغرب كانت في موقع قادس (كاديز) الحالية، وقد أخذ الاسم من الكلمة الفينيقية «جادير Gadir» وتعني القلعة، وربما يوضح هذا أصلها كمركز تجاري.

كان الطريق البحري الطويل الى الأسواق الجديدة في اسبانيا بحاجة الى الحماية، وذلك نظراً لظروف الملاحة في العصور القديمة، اذ كان المتبع - بصفة عامة - أن تحاذي السفن الساحل وتلقي مراسيها او تسحب في الليل الى الشاطىء. وقد استخدم الفينيقيون طريقين: طريقاً شمالياً بمحاذاة الشواطىء الجنوبية لصقلية وسردينيا وجزر البليار، وطريقاً جنوبياً بمحاذاة ساحل شمال افريقيا، ويمكن أن نستنتج أنه بطول الساحل الأخير، يحتمل أنه كانت هناك مراس استخدمها الفينيقيون كل ثلاثين ميلاً او نحو ذلك، على الرغم من ان تطور مثل هذه المراسي الى مستوطنات دائمة كان يعتمد على عوامل مختلفة. وكانت المواقع القديمة جزراً قريبة من الساحل، أو ألسنة صخرية يمكن الرسو عليها على كلا الجانبين. ولم يكن انتفاع الفينيقيين بهذه المواقع أمراً صعباً نظراً لأن المستوى الثقافي ومن ثم السياسي والعسكري لسكان المغرب، ومثله في هذا الخصوص مستوى معظم سكان غربي البحر المتوسط، كان أدنى من مستوى الفينيقيين. وبالاضافة الى ذلك فإن العوامل الاستراتيجية العامة أدت الى تقدم بعض المواقع بالمقارنة بمواقع اخرى. ويسترعي الانتباه ان ثلاثة من أهمها وهي: قرطاجة وأوتيكا (Utica) في شمال إفريقيا، وموتيا (Motya - Mozia)في صقلية، كانت كلها تتمتع بمواقع ممتازة على الممرات الضيقة من شرق الى غرب البحر المتوسط، وتسيطر على كل من الطرق الشمالية والجنوبية.

تأسيس قرطاجة

اسم قرطاجة (Carthage) وباللاتينية (Carthago)هو صورة (محرفة) من الاسم الفينيقي «قرت حدشت» الذي يعني «المدينة الجديدة»، ويدل هذا ضمناً على أن المكان قدر له منذ البداية أن يكون المستوطنة الرئيسية للفينيقيين في الغرب، وإن كنا لا نعرف عن آثارها في أقدم فترات تاريخها سوى قدر ضئيل لا يسمح بالتأكد من هذا الأمر. والتاريخ المتعارف عليه لتأسيسها هو ٨١٤ق.م.، بعد فترة طويلة من التاريخ المتعارف عليه لقادس (١١١٠ق.م.) وأوتيكا (١١٠١ق.م.)، وهذان التاريخان الأخيران لهما طابع أسطوري. وبالنسبة لتاريخ قرطاجة فإن أوثق المواد الأثرية ترجع الى منتصف القرن الثامن قبل الميلاد، وهذا لا يبعد كثيراً عن التاريخ المتعارف عليه، ولا يمكن أن نستنتج شيئاً ذا قيمة تاريخية من أسطورة التأسيس التي وصلت الينا في مختلف كتابات المؤلفين الاغريق والرومان. وقد عثرنا على آثار ترجع الى حوالى التاريخ المذكور في اوتيكا، ومن القرن السابع أو السادس في لبدة (Lepcis Magna)، وفي سوسة (Hadrumatum)وتيفش (Tipasa)وراشجون (Siga)، والعرائش (Lixus) (على وادي لوكوس Loukkos)والصويرة (Mogador)، والأخيرة كانت أبعد المستوطنات الفينيقية المعروفة. وقد تمت كشوف ترجع الى تاريخ مماثل في موتيا (Motya) بصقلية، ونورا (Nora)- نوري (Nurri) وسولكيس (Sulcis)، وتاروس (Tharros)(برج القديس جيوفاني Torre di S. Giovanni) بسردينيا، وفي قادس (كاديز) و(المناصر) بأسبانيا. ويشير الترابط العام للشواهد الأثرية أنه بينما كانت الرحلات الفردية تتم في فترة مبكرة فإن المستوطنات الدائمة على ساحل المغرب لم تتم قبل سنة ٨٠٠ق.م. وانه لمن المؤكد انه على عكس المستوطنات التي أقامها الاغريق في صقلية وايطاليا

وغيرهما في القرنين الثامن والسابع، فإن كل المستوطنات الفينيقية - بما فيها قرطاجة نفسها - ظلت محدودة المساحة، وربما لم يسكنها - لبضعة أجيال - غير مئات قليلة من المستوطنين على الأكثر، وفضلاً عن ذلك فقد ظلت لفترة طويلة تابعة سياسياً لصور - كما هو متوقع - نظراً لوظيفتها الأساسية كمراس ونقاط امداد.

زعامة قرطاجة للفينيقيين الغربيين

كان لظهور قرطاجة كمدينة مستقلة، ثم زعامتها لسائر الفينيقيين في الغرب، ومن ثم نشأة امبراطورية قاعدتها في شمال افريقيا، نتائج تاريخية بالغة الأثر بالنسبة لكل منطقة غرب البحر المتوسط، وذلك في أوائل القرن السادس قبل الميلاد. وكان أحد العوامل ضعف قوة صور والوطن الفينيقي وخضوعهما للامبراطورية البابلية، والعامل الأكثر أهمية كان ازدياد الضغط من المستوطنات الاغريقية في صقلية مثل سرقوسة التي نمت ثروتها وسكانها بسرعة كبيرة، والتي تأسست أصلاً - هي وغيرها من المستوطنات هناك - نتيجة للضغط السكاني في بلاد اليونان ذاتها. وفي خلال القرن السابع لم يجر - على ما يبدو - صراع كبير بين الفينيقيين والاغريق، وكانت الواردات الاغريقية معروفة في أماكن عديدة في المغرب، ولكن في سنة ٥٨٠ق.م. حاولت مدينة سيلينوس (Selinus) (سيلينونت Selinunte) وغيرها من المدن الاغريقية في صقلية طرد الفينيقيين من مستوطناتهم في موتيا وبانورموس (Panormus) (باليرمو)، ويبدو أن قرطاجة قامت بدور قيادي في التصدي لهذا الهجوم، اذ لو قدر له النجاح لأدى الى تهديد الاغريق للمستوطنات الفينيقية في سردينيا، وفتح التجارة مع أسبانيا التي حرموا منها طويلاً، وتبع هذا النجاح توحيد المستوطنات الفينيقية في سردينيا. كذلك تم خلال هذا القرن التحالف بين قرطاجة والمدن الاترورية على الساحل الغربي لايطاليا، ومنع نصرهم المشترك سنة ٥٣٥ق.م. الاغريق من الاستقرار في كورسيكا، وكان النجاح الأخير في هذه الفترة في افريقيا ذاتها، فقد حاول اسبرطي يدعى دوريوس (Dorieus) تأسيس مستعمرة عند مصب نهر كنبس (Kinyps) (وادي وكيري) في ليبيا، واعتبرت قرطاجة هذا اعتداء، وتمكنت خلال ثلاثة أعوام وبمساعدة الوطنيين الليبيين من طرد الاغريق.

كان عبء قيادة الفينيقيين في الغرب - وكما يبدو - ثقيلاً على القوة البشرية المتاحة لقرطاجة، وحتى القرن السادس اعتمدت قرطاجة - كما فعلت المدن الحرة الاغريقية - على مواطنيها. ومنذ منتصف هذا القرن اتبعت قرطاجة بقيادة ماقون (ماجو) (Mago) - الذي أسس أسرة حاكمة في المدينة - سياسة استخدام القوات المرتزقة على نطاق واسع، وهي السياسة التي اتبعت خلال ما تبقى من التاريخ القرطاجي. فكان من بين العناصر غير القرطاجية، والتي جرى استخدامها، الليبيون الذين ساهموا بأكبر نصيب، والذي أصبح أكبر من المعتاد عندما استولت قرطاجة على الاقليم الداخلي، واضطرت بالتالي الى تجنيد القوات اجبارياً (انظر ما يلي)، وقد كانوا ذوي فائدة كبيرة بصفة خاصة كمشاة خفيفي الحركة، كما شارك الفرسان النوميديون والموريتانيون - من الأجزاء الشمالية للجزائر والمغرب المعاصرتين - بدور بارز في كل الجيوش القرطاجية سواء كمرتزقة أو كحلفاء طبقاً لمعاهدات التحالف التي عقدت في تاريخ لاحق، كما كان يوجد مرتزقة أسبان وغاليون وايطاليون وأخيراً اغريق في خدمة قرطاجة في تواريخ مختلفة. ونجحت هذه السياسة بصورة أكبر مما تسمح به طبيعة الأمور،

وانه لأمر بعيد الاحتمال أن قرطاجة كانت تستطيع - اعتماداً على سكانها المحدودي العدد - أن تتحمل الحروب الطويلة التي خاضتها.

شهد الجيل الذي أعقب احباط محاولة دوريوس تغييرات جوهرية في المدن الاغريقية في صقلية، أضرت بمصالح قرطاجة، إذ بدأ جيلون (Gelon) حاكم جيلا (Gela)، ومنذ سنة ٤٨٥ق.م. حاكم سرقوسة أيضاً، حرباً للثأر لدوريوس، وأعدت حملة لاحتلال المستوطنة الفينيقية حول خليج قابس. ونتيجة لذلك بحثت قرطاجة عن أصدقاء في صقلية من بين أعداء جيلون. وفي سنة ٤٨٠ق.م. وجهت للجزيرة جيشاً كبيراً من المرتزقة - ومن المحتمل أنها استغلت فرصة الغزو الفارسي لبلاد اليونان في نفس السنة - وقدر الأسطول القرطاجي في هذا التاريخ بمائتي سفينة، وهو ما يجعله على قدم المساواة مع أسطول سرقوسة، كما أنه لا يقل عن أسطول أثينا. ومع هذا انتهى التدخل بكارثة تحطيم الجيش القرطاجي والأسطول في معركة كبيرة في هيميرا (Himera)، ولم يكن جيلون قادراً أو راغباً في اتباع هذا الانتصار بعمل آخر، فعقد الصلح والهدنة الحربية بشروط معتدلة.

التوسع في شمال إفريقيا

تبع الهزيمة سبعون عاماً من السلام تجنبت خلالها قرطاجة الصراع مع الاغريق، ولكنها مع ذلك كانت قادرة على المحافظة على احتكارها التجاري. وأهم من هذا أنها اتجهت الى كسب أراض في إفريقيا ذاتها، وقد حدث هذا التغير في الوقت الذي كانت تزداد فيه عزلة قرطاجة بسبب الانتصار الاغريقي في كل مكان، أولاً ضد الفرس والذي خسر فيه الفينيقيون كثيراً، وثانياً ضد الاتروريين في ايطاليا. ومن المحتمل ان يكون نشاط القرطاجيين قد اقتصر على تجارتهم الخاصة مع العالم الاغريقي. وتؤكد محتويات قبور القرن الخامس مظهر الفقر والقسوة وقلة المواد المستوردة. ولا يعني هذا - مع ذلك - أن المجتمع برمته صار أفقر من ذي قبل ما دامت محتويات المقابر لا تعتبر في حد ذاتها دليل ثروة أو فقر.

توافقت هذه السياسة الجديدة مع أسرة آل ماقون، والتي تولى زعامتها في هذا الوقت حنون (Hanno) بن حملقرت (Hamilcar) الذي هزم في هيميرا، والذي يصفه الكاتب الاغريقي المتأخر ديو «فم الذهب» (Dio Chrysostom) وصفاً غير دقيق اذ يقول عنه بأنه حول القرطاجيين من صوريين الى أفارقة.

ورغم عدم التأكد من مساحة الأراضي التي غزتها قرطاجة في القرن الخامس وعدد المستوطنات التي تحولت حينذاك الى مدن - وان تكن صغيرة - فقد بدأت الفتوحات - التي قدر لقرطاجة ان تسيطر عليها في أي وقت - تقترب من اقصى اتساعها. وكان اكثرها أهمية غزو شبه جزيرة رأس بون ومساحة كبيرة من الأرض جنوب قرطاجة حتى دُجَّة (دقة)، على أقل تقدير وقد ضمت قرطاجة بذلك جزءاً من أخصب الأراضي في تونس، وهي المنطقة التي صارت فيها بعد مزدحمة بالمستوطنات الرومانية. وقد وفرت هذه المنطقة المؤن الضرورية من الطعام، وامكانية استيعاب عدد أكبر من السكان في المدينة وقد أقام العديد من القرطاجيين في رأس بون في تاريخ لاحق، واعتبرت الأرض في رأس بون كأرض المدينة، وربما وضع السكان في منزلة العبيد أو أشباههم، وأرغم أغلب سكان الأراضي المفتوحة على دفع الضرائب والانضمام للجيش.

وأضيف الى عدد المستوطنات الفينيقية على الساحل تلك المستوطنات التي اسستها قرطاجة نفسها، رغم أننا نجهل أسماء بعضها. ومثل المستوطنات الأصلية كانت المستوطنات الجديدة صغيرة المساحة

وبها مثات، وأقيمت حيث يأتي السكان الوطنيون للتجارة في بضائعهم، ويدل على حقيقة ذلك أن الاغريق اطلقوا عليها لفظ «امبوريا Emporia» أي الأسواق أو المحطات التجارية.

كانت الحدود بين الامبراطورية القرطاجية ومنطقة الاستعمار الاغريقي في اقليم برقة توجد في خليج سرت، ولكن المستوطنات على ساحل ليبيا كانت قليلة، وكان أهمها لبدة (الكبرى) حيث يحتمل أنها أصبحت مستوطنة دائمة عندما كانت حملة دوريوس بالقرب منها، فقد أصبح واضحاً أن هناك خطر عدوان اغريقي، وفي صبراتة كانت توجد مستوطنة منذ اوائل القرن الرابع، وصارت لبدة المركز الاداري للمستوطنات حول خليج قابس، وعرفت كمكان غني في أواخر العصر القرطاجي. وظلت ثقافتها القرطاجية سائدة طوال قرن تحت الحكم الروماني. ويرجع مصدر ثروتها الى كونها تتحكم بصفة عامة في تجارة الصحراء، حيث كانت المنطقة تقع عند نهاية أقصر الطرق الى النيجر، وهو طريق كيداموس (Cidamus) (غدامس). ومع هذا فنحن لا نعرف مما تتكون هذه التجارة سوى ما ذكر عن الأحجار شبه الكريمة، ويرجع أصل الثروة الزراعية للمنطقة في العصر الروماني للمستوطنين القرطاجيين.

وكانت المراكز الأخرى على خليج قابس هي زوخيس (Zouchis) التي اشتهرت بسمكها المملح وصبغتها الأرجوانية، وجيجتيس (Gigthis) (بوغرارة)، وتاكاباي (Tacapae)(قابس)، ومع الاستمرار في اتجاه الشمال نجد تايناي (Thaenae) (هنشير تينا - قرب صفاقس)، حيث يوجد الحد الجنوبي لأراضي المدينة الداخلية والتي تصل الى البحر، والشائع أن لبدة الصغرى (Lepcis Minor) (لمطه)، وهادروميتوم (Hadramatum) (سوسة) اسستها فينيقيا وليس قرطاجة، وصارت آخرهما أكبر مدينة على الساحل الشرقي لتونس، ومن نيابوليس (Neapolis) (نابل) امتد طريق عبر قاعدة رأس آذار الى قرطاجة.

وغرب قرطاجة توجد أوتيكا (Utica) - التي تلي قرطاجة في الأهمية - وهي كقرطاجة ميناء - رغم أنها تقع الآن على بعد سبعة أميال في الداخل - ، وقد ظلت مستقلة - على الأقل اسمياً - عن قرطاجة حتى مرحلة متأخرة. ووراءها على الساحل حتى مضيق جبل طارق عدة مواقع لمراسٍ، ولكن قلة منها هي التي تطورت الى نفس الدرجة التي وصلت اليها مراكز الساحل التونسي، وليس من شك أن ذلك يرجع أساساً الى الصعوبة الكبرى في الوصول الى الداخل.

والمراكز المعروفة او المحتملة هيبو اكرا (Hippo Acra) (بنزرت) وهيبو رجيوس (Hippo Regius) (عنابة)، وروسيكاد (Rusicade) (سكيكدة)، وتيبازة (Tipasa)(تيفش)، وايكوسيوم (Icosium) (مدينة الجزائر). وقد تضمن عدد من المراكز في العصر الروماني (الى جانب روسيكاد) المقطع الفينيقي «رس» بمعنى رأس (Cape) ومثال ذلك روسوكورو (Rusucurru)(دلس)، وروسجونياي (Rusgu-niae) (ماتيفو)، وقد أشير الى تنجيس (Tingis)(طنجة) في القرن الخامس، ولكن يعتقد أن الفينيقيين عرفوها بمجرد قيامهم برحلات منتظمة الى جاديس (Gades) (كاديز - قادس).

امبراطورية قرطاجة

تعرضت قرطاجة للنقد من قبل أعدائها بسبب المعاملة القاسية واستغلال رعاياها الذين كانوا بالتأكيد عدة طبقات، وكان أصحاب اكثر الامتيازات - بلا شك - هم سكان المستوطنات الفينيقية القديمة، والمستوطنات اللاحقة التي أقامتها قرطاجة بنفسها؛ وهؤلاء السكان هم من أطلق الاغريق عليهم

اسم «الفينيقيين الليبيين» (الفينيقيين الافريقيين» ويبدو أنه كان لهذه المستوطنات ادارة محلية ونظم حكم مشابهة لما كان لدى قرطاجة ذاتها (انظر أدناه)، مثلما كان (كما هو معروف) لقادس وثاروس والفينيقيين في مالطة. وكانوا يدفعون الرسوم على الواردات والصادرات، وأحياناً كان يتم تجنيد القوات من بينهم، ومن المرجح كذلك أنهم ورّدوا البحارة لسفن الاسطول القرطاجي. وبعد سنة ٣٤٨ق. م. يبدو أنه حرمت عليهم التجارة مع أي أحد عدا قرطاجة، وفي صقلية تأثر وضع الرعايا القرطاجيين هناك - بسبب مجاورتهم للمدن الاغريقية - فسمح لهم بأن تكون لهم مؤسساتهم الخاصة بهم، وأن يصدروا عملتهم الخاصة خلال القرن الخامس، في وقت لم تكن قرطاجة نفسها تصدر عملة. ويبدو أن تجارتهم لم تفرض عليها قيود، وعلى غرار ما قام به الرومان عندما سقطت صقلية في يد روما، فقد فرضت ضريبة مقدارها عشر الانتاج.

وكان أسوأ الجميع حالا هم الليبيون في الداخل، وإن كان - على ما يبدو - قد سمح لهم باقامة تنظيمات قبلية ويبدو أن الموظفين القرطاجيين اشرفوا بطريقة مباشرة على جباية الضريبة وتعبئة الجنود، وأن الضريبة العادية المفروضة كانت ربع المحصول، وزيدت الى ٥٠٪ عندما تأزم الموقف في الحرب البونية الأولى مع روما. وطبقاً لما ذكره المؤرخ الاغريقي بوليبيوس (القرن الثاني ق. م.) فإن عدداً من الليبيين شاركوا في ثورة المرتزقة التخريبية، التي أعقبت هزيمة قرطاجة في الحرب، بسبب كراهيتهم لهذا الوضع ولغيره من الأوضاع «ولم يكن القرطاجيون ينظرون بعين الاعجاب او الاحترام الى هؤلاء الحكام الذين يعاملون رعاياهم بالاعتدال والانسانية، وانما كانوا يعجبون بهؤلاء الذين ينتزعون أكبر قدر من المؤن ويعاملون السكان بلا رحمة». ويبدو أن هذا الانتقاد كان له ما يبرره، إذ نشب عدد من الثورات الليبية غير الثورة المذكورة، وعجز القرطاجيون - على ما يبدو - عن انتهاج سياسة من شأنها ان تدفع الشعوب المغلوبة الى قبول حكمهم.

التجارة القرطاجية والاستكشاف

غرب إفريقيا

كان هناك اتفاق عام بين اليونان والرومان على أن قرطاجة اعتمدت على التجارة أكثر من أي مدينة أخرى، وكانت الصورة المنطبعة في أذهانهم عن القرطاجي الأصيل هي انه تاجر بطبيعته. ويعتقد، زيادة على ذلك، أن قرطاجة كانت اغنى مدينة في عالم البحر المتوسط. ومع هذا فيجب أن يقال أن التجارة ذاتها والثروة المزعومة تركتا - بدرجة ملحوظة - قليلاً من الآثار للأثريين، وهي على سبيل المثال أقل بكثير من آثار المدن الكبرى الاغريقية والاترورية التي ترجع الى نفس الفترة. وليس من شك أن أحد الأسباب الرئيسية في حالة قرطاجة هو أن اغلب تجارتها كان في سلع لا تترك أثراً، فأغلبها معادن غير مصنعة - وهي الهدف الرئيسي من حركة الاستكشاف الفينيقية في المقام الأول - ثم المنسوجات والرقيق والمواد الغذائية التي تزايدت نتيجة لاستغلال اراضيها الخصبة. وكانت تجني الارباح من التجارة مع القبائل الداخلية التي جلبت منها الذهب والفضة والقصدير، ومن المحتمل أيضاً الحديد (إذ من المعروف ان قرطاجة كانت تصنع اسلحتها بنفسها)، كل هذا حصلت عليه

قرطاجة في مقابل مصنوعات رخيصة. وليس ادل على وفرة الارباح من تلك الجيوش الضخمة التي امكنها تجنيدها من المرتزقة في القرنين الرابع والثالث، وسك العملة من الذهب، على نحو تجاوز ما فعلته المدن المتقدمة الاخرى.

وتشير المصادر، وبخاصة تلك التي تهتم بغرب افريقيا، الى دور الدولة القيادي النشط في المشروعات التجارية الكبرى. وطبقاً لما ذكره هيرودوت (القرن الخامس ق.م.) فإن الملك المصري نخاو (حوالى ٦١٠ق.م. - ٥٩٤ق.م.) كلف الملاحين الفينيقيين بارتياد البحر الأحمر، ثم الطواف حول إفريقيا وقالوا انهم استغرقوا في رحلتهم عامين بسبب توقفهم مرتين لبذر وحصد القمح.

ويعتقد هيرودوت بأن الرحلة كانت ناجحة، وليس هذا بمستحيل - ولكن لم يكن لها أي انعكاس في هذا الوقت، ولو أنها حدثت فإن الحجم الضخم للقارة، الذي كشفت عنه الرحلة - كان كفيلاً باستبعاد اي افكار عن شق قناة من البحر الأحمر الى البحر المتوسط. ولا بد أن القرطاجيين الذين كانوا يعتقدون - والعهدة هنا أيضاً على هيرودوت - بامكان الدوران حول إفريقيا، لا بد أنه قد بلغتهم انباء هذه المغامرة، ومغامرة اخرى جرت في اوائل القرن الخامس. فقد حصل أمير فارسي على سفينة في مصر على أن يقوم بمحاولة للطواف حول افريقيا في الاتجاه العكسي، ويبدو أنه ابحر جنوب الساحل المراكشي مسافة كبيرة وراء رأس سبارتيل (Spartel) ولكنه اضطر للعودة.

ويحدثنا هيرودوت أيضاً عن التجارة القرطاجية على الساحل المراكشي، فكتب حوالى ٤٣٠ق.م. يقول: «أخبرنا القرطاجيون أيضاً عن جزء من إفريقيا وسكانها وراء مضيق جبل طارق، وعندما وصلوا هذا البلد أفرغوا بضائعهم ورتبوها على الشاطىء ثم عادوا الى سفنهم وأرسلوا إشارة بالدخان، وعندما رأى الوطنيون الدخان جاؤ وا الى البحر ووضعوا كمية من الذهب مقابل البضائع ثم قفلوا راجعين. عندئذ عاد القرطاجيون الى الساحل مرة أخرى وفحصوا الذهب الذي تركه الوطنيون، فإذا رأوا أنه يعادل قيمة البضائع أخذوه وأبحروا بعيداً، وإلا عادوا الى سفنهم وانتظروا حتى يضيف الوطنيون الذهب الكافي لارضائهم. ولا يخدع أي جانب الآخر، فلم يكن القرطاجيون يقربون الذهب حتى يساوي في قيمته ما أحضروه لبيعه، ولم يكن الوطنيون يقربون البضائع حتى يتم نقل الذهب من مكانه».

كان هذا هو الوصف المبكر - الذي لدينا - لطريقة المقايضة الصامتة القديمة، وتجارة الذهب هذه ترتبط عادة بمناقشة نص اغريقي، وقد يكون ترجمة لتقرير عن رحلة إلى جنوب الساحل المراكشي قام بها حنون (Hanno) الذي يعتبر زعيم أسرة ماقون في منتصف القرن الخامس، ورجل الدولة المسؤ ول كذلك عن التوسع القرطاجي في أماكن أخرى بإفريقيا. وتحول صعوبات التفسير دون اجراء مناقشة مستفيضة. ويمكن القول بصفة عامة ازاء ما هو معروف عن السياسة القرطاجية بابعاد جميع التجار الآخرين عن المنطقة، لأنه من غير المحتمل أن يذيع القرطاجيون على الملأ، تقريراً كان من شأنه - على أي حال - أن يكشف عن معلومات مفيدة لغيرهم. وأكثر من ذلك فإن الوثيقة لا تذكر أي هدف للرحلة. أما الجزء الواضح والمؤكد فيها فيتعلق بانشاء مستوطنات على الساحل المراكشي، ذلك أن وجود مثل هذه المستوطنات معروف، وكانت احداها ليكسوس، وعند مصب وادي لوكوس كانت توجد بالتأكيد مستوطنة، وهذه لم يذكرها حنون، ويبين التاريخ اللاحق لقبائل المنطقة (انظر أدناه) التأثير الثقافي لقرطاجة، وأبعد المستوطنات جنوباً، والتي ذكرت في التقرير تسمى قِرنة (Cerne)، وقد حددت بصفة عامة بجزيرة هرنة ((Hern(e)) عند مصب نهر ريو دي أورو (Rio de Oro)(وادي الذهب)، وقد ذكر هذا الاسم في مصدر جغرافي اغريقي آخر يعرف باسم سكيلاكس «الزائف»

(Pseudo - Scylax) حوالى سنة ٣٣٨ق.م. «في قرنة يرسي الفينيقيون (يعني القرطاجيين) سفنهم التجارية المعروفة باسم جاولوي (Gaulol) وينصبون خيامهم في الجزيرة وبعد أن يفرغوا بضائعهم ينقلونها الى البر في قوارب صغيرة، حيث يعيش الأثيوبيون الذين يتاجرون معهم. ومقابل بضائعهم يحصلون على جلود الغزلان والأسود والنمور وأسنان وجلود الفيلة... ويحضر الفينيقيون العطور والأحجار الكريمة المصرية (الخزف المزخرف او القاشاني) والفخار والجرار الأثينية». ومرة أخرى ليس هناك ذكر للذهب، وتظهر قرنة كمرسى أكثر منها مستوطنة، ويبدو ان البضائع التي احضرت من قرطاجة صحيحة، ولكن الحصول على جلود الحيوانات المفترسة مشكوك فيه على أساس انه كان يمكن الحصول عليها بالقرب من قرطاجة. وينتهي تقرير حنون بالحديث عن رحلتين توغلتا جنوباً بعد قرنة، مع تصوير حي لوحشية السكان، ففي الليل دقات الطبول وإضرام نيران هائلة ربما يكون القصد منها بث الذعر في قلوب أي منافسين محتملين. والحد الجنوبي للرحلة امتد الى مسافة بعيدة حتى جبل كميرون، ولكن يبدو أن هذا بعيد جداً، فأبعد المواقع الجنوبية التي تمدنا بأدلة أثرية على الزيارات القرطاجية هي موجادور (مغدور Mogador) (الصويرة)، ولكنها أدلة على الزيارات الموسمية التي ترجع الى القرن السادس فقط، ولا يمكن ربطها بأي مكان ذكر في التقرير.

واذا كان الذهب هو الهدف فمن الملاحظ أن كل معرفة بالتجارة اختفت بسقوط قرطاجة بالرغم من بقاء بعض المستوطنات على الساحل المراكشي. وقد أبحر المؤرخ الاغريقي بوليبيوس الى ما وراء قرنة بعد سنة ١٤٦ق.م. ولكنه لم يجد شيئاً ذا اهمية وفي القرن الأول الميلادي كتب الكاتب الروماني بلينيوس عن تقرير حنون بأن «عدداً من الاغريق والرومان يخبرون على أساسه بأشياء خرافية عديدة، وبقيام عدد من المدن لا يوجد عنها في الحقيقة أي ذكر أو أثر». ومن الغريب أن فلاحين من دولة موريتانيا التابعة (للنفوذ الروماني) بدأوا يترددون على مغدور من جديد (انظر أدناه) ولكن يبدو أن هدفهم كان صيد السمك لا البحث عن الذهب.

المحيط الأطلنطي

عرف في العصر القديم تقرير آخر عن رحلة لأحد معاصري حنون يدعى حملكون (Himilco)، ولكن لم يتبق منه سوى اشارات متفرقة وقد كشفت ساحل الأطلنطي لكل من أسبانيا وفرنسا، ووصلت بالتأكيد الى بريتاني (Bretagne) (شمال غرب فرنسا)، ومن المحتمل أن الهدف منها زيادة السيطرة المباشرة على تجارة القصدير، والذي كان يحصل عليه من مصادر مختلفة قريبة من سواحل الأطلنطي. وقد أثارت التجارة انتباه بعض الكتاب القدماء وفضولهم ويرجع ذلك بلا شك الى أن القرطاجيين لم يسمحوا إلا بتسرب معلومات طفيفة. وفي الحقيقة ان العصر القرطاجي كان آخر مرحلة في تجارة القصدير على طول هذا الساحل، تلك التجارة التي ترجع الى عصور ما قبل التاريخ مع جنوب غرب بريطانيا الذي كان واحداً من أهم مصادر هذه التجارة، ومع هذا فليس هناك دليل على أن أي فينيقي وصل الى بريطانيا، ولم يعثر قط على أثر فينيقي هناك (ولا في بريتاني فيما يتعلق بهذا الأمر)، واذا كان قد أمكن الحصول على قصدير من بريطانيا فمن المحتمل أن ذلك تم بواسطة نشاط القبائل في بريطانيا. وهناك احتمال بأن اغلب القصدير البريطاني المصدر كان ينقل عبر غالة (Gallia) الى وادي الرون والبحر المتوسط، وأن القرطاجيين حصلوا على معظم احتياجاتهم منه من شمال أسبانيا. وعلى أي حال

فإن أكبر انتاج معدني ذي قيمة في أسبانيا كان الفضة. ونحن نعرف أنه في القرن الثالث وصل الانتاج الى مستويات كبيرة، وليس من شك أنه كان أكثر أهمية من القصدير. ومنذ القرن الخامس تزايدت أهمية كاديز (قادس) بسرعة، وكانت المدينة القرطاجية الوحيدة التابعة في الغرب، بصرف النظر عن ابيزا (Ibiza)، التي تصدر عملتها الخاصة، وطبقاً لما ذكره الجغرافي الاغريقي سترابون فإن بناة السفن فيها تفوقوا على زملائهم في صناعة السفن التي بنوها سواء للملاحة في مياه البحر المتوسط أو المحيط الأطلسي.

تجارة البحر المتوسط

كما سبق أن ذكرنا، مارست قرطاجة احتكار التجارة داخل امبراطوريتها، سواء باغراق أي سفينة تخرق هذا الاحتكار، أو بعقد معاهدات تجارية مع المنافسين المحتملين مثل المدن الأترورية، وروما. وكان طبيعياً ألا يسمح للتجار الأجانب بالتجارة غربي قرطاجة، وهذا يعني أن السلع التي كانوا يحضرونها الى هذه المدينة كانت تنقل الى السفن القرطاجية للتجارة فيها؛ وبهذه الطريقة كانت المنتجات الواردة من اترووريا وكامبانيا ومصر ومختلف المدن الاغريقية تصل الى عدد كبير من الأماكن في شمال إفريقيا. وليس من السهل تمييز مصنوعات قرطاجة أثرياً، فليس لها طابع أو ميزة خاصة بها، ويبدو أن ذلك كان مصدر قوة اقتصادية في القرن الرابع، خاصة بعد التغييرات الاقتصادية والسياسية الضخمة التي حدثت في غربي البحر المتوسط بسبب فتوحات الاسكندر الاكبر، فقد اوجدت هذه الفتوحات أسواقاً كبرى عالية الطابع للمصنوعات الرخيصة التي كان القرطاجيون في موقع متميز يمكنهم من ترويجها وجني الارباح منها. وفي القرن الرابع فقط بدأت قرطاجة في اصدار عملتها الخاصة، حيث تزايدت تجارتها مع الدول المتقدمة، وحيث اصبح من الضروري نتيجة للتغير في الوضع الاقتصادي - أن تدفع للمرتزقة أجورهم نقداً.

التجارة الصحراوية

أن مشكلة اتصالات القرطاجيين بشعوب الصحراء والشعوب التي تعيش الى الجنوب منها عويصة غامضة، واذا كانت المواصلات أو الاتصالات قد وجدت، فلا بد أنها ارتكزت على لبدة وصبراتة، المدينتين الواقعتين في منطقة تكاد تخلو من عوائق التضاريس الوعرة. ويعتبر اهتمام قرطاجة بابعاد الاغريق عن المنطقة دليلاً على وجود تجارة على جانب من الأهمية مع الداخل، حيث أن الأرض الزراعية المناسبة للاستيطان نادرة. وفي القرن الخامس سمع هيرودوت عن مجموعتين قبليتين هما الجرمانتيون والناسامونيون في الأقاليم الواقعة جنوب خليج سرت، وقد قال أيضاً إن المسافة بين الساحل الى منطقة القبيلة الأولى، التي يحتمل أنها المركز السكاني لجرمة (Garama) تستغرق ثلاثين يوماً. وعن طريق هؤلاء الجرمانتيين حصل الرومان على مزيد من المعلومات عن المراكز الداخلية لأفريقيا في القرون التالية، وتذكر قصة متأخرة أن قرطاجياً يدعى ماقون عبر الصحراء ثلاث مرات. ولسوء الحظ فإن ممارسة هذه التجارة لم تترك أي أدلة أثرية، وفي المؤلفات يذكر فقط العقيق الأحمر

كأحدى السلع التجارية الصحراوية، وربما كانت هناك تجارة في الرقيق، فيقال ان الجرمانتيين كانوا يتعقبون الاثيوبيين (أي الشعوب الزنجية) بعربات تجرها أربعة جياد، ويقال انه كانت هناك تجارة في العاج والجلود، على الرغم من توافرها في المغرب. كما أن استيراد الذهب من السودان لا يزال مثار شك وجدل رغم أنه غير مستحيل الحدوث. ويبين دليل أثري حديث من جرمة أن النمو السكاني المبكر يرجع الى القرن الخامس أو الرابع، وأنه بتتابع القرون ازداد عدد السكان المستقرين والمعتمدين على الزراعة زيادة مطردة، ولعل هذا يرجع الى التأثير الثقافي الذي امتد من المراكز القرطاجية على الساحل. وبعد تدمير قرطاجة توغل الرومان الى كل من جرمة وغدامس، وأحياناً أبعد من ذلك جنوباً، وهناك بعض الآثار عن واردات من عالم البحر المتوسط في المناطق الداخلية، ولكن على نطاق متواضع.

ويفسر عدم وجود الجمال في شمال إفريقيا في هذا الوقت صعوبة السفر الى الصحراء وعدم انتظامه وحتى اذا لم تكن أحوال الصحراء قاسية في العصور القديمة كما هي في الأوقات الأحدث، فإن عدم وجود الجمل جعل من الصعب قيام التجارة على نطاق واسع. ان انضمام الأقاليم الصحراوية وشبه الصحراوية الى بيئة ثقافية أوسع يؤرخ على هذا بالعصر العربي المبكر.

مدينة قرطاجة

رغم السمعة التي نالتها قرطاجة بامتلاك ثروات ضخمة، فإن علم الآثار لا يؤكد لنا هذه الحقيقة حتى ولو سلمنا بالتدمير الكامل للمدينة على أيدي الرومان. ولسنا نقول بأنه لم تكن هناك منشآت هامة مماثلة لتلك الموجودة في المدن القديمة الأخرى والمماثلة لحجمها، لقد كان لقرطاجة ميناء صناعي مزدوج معد اعداداً جيداً؛ الخارجي لاستخدام السفن التجارية - وليس معروفاً كم سفينة كان يمكنها استخدامه في وقت واحد - والداخلي الذي كانت به أرصفة وأحواض تتسع لمائتين وعشرين سفينة حربية، ومبنى مراقبة مرتفع لدرجة تكفي للرؤية - رغم المباني المعترضة - الى مسافة بعيدة في البحر. وكانت أسوار المدينة هائلة الحجم، وصمدت لكل هجوم حتى الهجوم الروماني الأخير، وكان الطول الكلي لها (بما في ذلك المسافة المطلة على البحر) حوالى اثنين وعشرين ميلاً، وكان ارتفاع القطاع الحاسم - لمسافة ميلين ونصف الميل عبر برزخ قرطاجة - أربعين قدماً، وسمكه ثلاثين قدماً، ولا شك أن القلعة الداخلية كانت محصنة بسور طوله حوالى ميلين يطوق التل المعروف باسم بيرصة (Byrsa)، وهو بلا شك أقدم جزء في المدينة. وبين الميناء وبيرصة كانت توجد ساحة عامة مكشوفة تشابه الأجورا الاغريقية (Agoria)، لكن لا يبدو أنها قد خططت تخطيطاً منتظماً أو اتخذت مظهر الفخامة الذي تميزت به ميادين المدن الاغريقية. ويبدو أن المدينة نمت دون تخطيط، فكانت شوارعها ضيقة ملتوية، ونسمع عن مبان وصل ارتفاعها الى ستة طوابق، مثلما وجد في صور ذاتها وفي موتيا في صقلية. وبالنسبة للمعابد فرغم أنه يقال انها كانت متعددة، فليس محتملاً أنها كانت ضخمة حتى المراحل الأخيرة من التاريخ القرطاجي حين اتضح التأثير الثقافي الاغريقي، حيث أن معظم الأدلة تبين أن القرطاجيين كانوا محافظين أساساً في مسائل العقيدة، وظلوا طويلاً مخلصين لفكرة بساطة الأماكن المقدسة الخالية من أي أبنية أو أنصاب فخمة. وأعلى تعداد للسكان يمكن أن يتوقف فقط على الافتراضات المدروسة، فتقدير سترابون للسكان بـ ٧٠٠٠٠٠ (سبعمائة ألف) يعني كثافة سكانية مستحيلة، ولكن ربما كان يشير الى

المدينة وكل منطقة رأس آذار، والتقدير الأكثر قبولاً هو ٤٠٠٠٠٠ (أربعمائة ألف) بمن فيهم العبيد وهو ما يجعل عدد سكان قرطاجة مساوياً لعدد سكان أثينا في القرن الخامس ق.م.

النظم السياسية القرطاجية

كان المظهر الوحيد في قرطاجة الذي حظي باطراء الاغريق والرومان هو دستورها السياسي الذي يبدو أنه كان يكفل لها الاستقرار، وهو مطلب عزيز كانت تنشده المدن في العصور القديمة. ان التفاصيل غامضة وليس من المؤكد ان هؤلاء الكتاب قد ادركوا الحقائق كما ينبغي، ولكن الخطوط الرئيسية تبدو على النحو التالي: سادت المدن الفينيقية الملكية الوراثية حتى العصر الهلينستي، وكل مصادرنا تشير كذلك الى الملكية في قرطاجة، وعلى سبيل المثال يوصف بذلك حملكار (Hamilcar) الذي هزم في هيميرا، وحنون قائد التوسع الافريقي، ومن المحتمل أن الكتاب القدامى في تلقيبهم لهؤلاء بالملوك قد أخذوا في الاعتبار سلطاتهم الدينية والقضائية، فضلاً عن سلطاتهم السياسية والعسكرية. كان المنصب في البداية انتخابياً وليس وراثياً، ولكن أفراداً من سلالة آل ماقون تولوا المنصب فترة طويلة من الزمن، وخلال القرنين السادس والخامس يبدو أنهم كانوا أيضاً القادة العسكريين للدولة حينما تطلبت الظروف ذلك. وخلال القرن الخامس حدث تطور تناقصت خلاله قوة الملوك، ويبدو أن هذا التطور صاحب نشأة سلطة «الشفطان» (Sufetes)، وهو الاصطلاح السياسي القرطاجي الوحيد الذي نقله لنا الكتاب الرومان. والكلمة تتضمن معنى القاضي والحاكم، ومنذ القرن الثالث كان ينتخب منهم اثنان (وربما أكثر) سنوياً، ومن السهل مقارنتهم بالقناصل الرومان، وقد ظل اصطلاح «الشُفيط» (Sufes) مستخدماً في شمال إفريقيا في مناطق الثقافة القرطاجية لمدة قرن على الأقل بعد الغزو الروماني، ليشار به الى الحكام الرئيسيين للمدينة. وكان تقلص سلطة الملك شبيهاً بالتطورات في المدن الأغريقية وروما، وفي نفس الوقت ازدادت قوة الارستقراطية الثرية، فبالاضافة الى عضويتهم الجماعية في مجلس للدولة يشبه السناتو الروماني، فقد كون الارستقراطيون مجلساً من مائة عضو بهدف محدد هو التحكم في كل ادارات الحكومة. ورغم أن جماعة المواطنين كان لها بعض الرأي في انتخابات الملوك والشفطان وغيرهم من الموظفين، فإنه من المؤكد ان السياسات القرطاجية كانت تحكمها الثروة دائماً، ويعتبر أرسطو ان الدور الذي لعبته الثروة في قرطاجة كان مظهراً سيئاً. لقد كان شرف المولد وتوافر الثروة شرطين اساسيين للانتخاب. فكل الأمور يقررها الملوك أو الشفطان والمجلس بالتشاور معاً، وفي حالة اختلافهم فقط تتم استشارة الجمعيات الشعبية (الوطنية). وفي القرن الرابع أو الثالث فصلت قيادة القوات المسلحة فصلاً تاماً عن الوظائف الأخرى، وكان القواد يعينون فقط في حالة الحاجة والحملات محددة الجهة، حيث لم يكن للدولة جيش ثابت يتطلب قائداً دائماً، وانتهجت العديد من الأسر نهجاً عسكرياً مثل آل ماقون في اوائل التاريخ القرطاجي، وآل برقا (Barcids) (انظر ما يلي) فيما بعد ذلك. ومن الملاحظ أن قرطاجة لم تخضع لانقلاب عسكري يقوده قائد طموح، مثلما تكرر هذا المصير في المدن الاغريقية، وبخاصة في صقلية. ونفترض أن اجهزة الرقابة والسيطرة كانت فعالة. ولعل اعفاء المواطنين القرطاجيين من الخدمة العسكرية منذ بداية القرن الخامس - عدا فترات قليلة - قد حال دون تعميق الشعور بمدى قوتهم الذاتية التي كانت عاملاً فعالاً في تطور الاتجاهات الديمقراطية في بلاد الاغريق وروما.

العقيدة القرطاجية

بينما حظيت الأنظمة السياسية القرطاجية بالتقريظ فإن الحياة الدينية القرطاجية تعرضت لنقد قاس من جميع الكتاب القدامى، وبخاصة بسبب الاصرار على تقديم القرابين (الضحايا) البشرية. وتعرضت العقائد الدينية المتشددة بالمثل للنقد والتجريح. وطبيعي أن العبادات في قرطاجة تتشابه وعبادات فينيقيا حيث نشأت اصلاً. وكان الاله الأعلى في العالم الفينيقي يعرف في إفريقيا باسم بعل حمون، ومعنى اللقب حمون على ما يظهر هو الناري، ويعبر عنه بشكل الشمس، وقد شبِّه في العصور الرومانية بساتورن (Saturnus). وفي القرن الخامس برزت عليه، كمعبودة شعبية، الهة تدعى تانيت (Tanit)، ويبدو أن اسمها ليبي، وقد توافق انتشار عبادتها مع التوسع الروماني في إفريقيا، لأنها تبرز مظاهر الاخصاب، فهي تدين بالكثير للالهتين الاغريقيتين هيرا وديميتر، وقد مثلت في أشكال أنثوية تحمل أسلحة مع ارتفاع ذراعيها تمثيلاً بسيطاً على مئات من «الأنصاب Stelae» في قرطاجة وغيرها. وقد فاق هذان المعبودان الجميع رغم أننا نعرف أيضاً عشتر(ت)، وأشمون (المشبَّه بأسكولابيوس - إله الشفاء)، وملقرت حامي المدينة الأم صور. وقد ثبت نظام القرابين البشرية أثرياً لا في اكتشافات قرطاجة وسوسة فقط، بل ايضاً في قرطة (Cirta) (قسنطينة)، ولكن بتأثير من الثقافة القرطاجية، وكذلك في عدد من المستوطنات خارج إفريقيا. ومن بين المكتشفات أفنية دفن مقدسة تضم الجرار والعظام المتكلسة للأطفال، ومميزة غالباً بلوحات تذكارية إشارة الى تقديم القرابين عموماً الى بعل حمون، ولكن غالباً ما كانت تقدم الى تانيت أيضاً. وطبقاً لمصادرنا (التي يتطرق الشك اليها) فإن الضحايا كانت غالباً من الرجال، وكانت سنوية، واجبارية على العائلات البارزة. ومن المؤكد أن هذه العادة اندثرت، ولكن حادثة وقعت سنة ٣١٠ق.م. تبين أنه كان من الممكن احياؤها في أوقات الأزمات، عندما كان يعتبر تجاهلها سبباً لغضب الآلهة. وليس من شك أن العقائد الدينية القرطاجية كانت تؤكد على ضرورة تهدئة القوى الآلهية المتقلبة واسترضائها. وكانت الغالبية العظمى من الأسماء القرطاجية يدخل في تركيبها أسماء الآلهة (Theophoric)، وليس من شك أنها كانت لنفس القصد، فعلى سبيل المثال فإن حملقرت يعني «حبيب ملقرط»، وحنبعل يعني «حبيب بعل». والى جانب القرابين البشرية كان هناك نظام مفصل للقرابين يشمل مختلف الأضاحي. وكان نظام الكهانة يضم كهنة متفرغين وآخرين ممن ليسوا أعضاء في جماعة منفصلة. ورغم اتصالهم بمصر فإن القرطاجيين على ما يبدو لم يهتموا الا قليلاً بفكرة الحياة بعد الموت، وفي هذا الصدد كانوا مثل العبرانيين الأول. كان دفن الجثث كما هي العادة المتبعة، وكانت محتويات القبور متواضعة، وتضم العديد من المقابر أقنعة صغيرة غريبة من الفخار، والتي يبدو أن لها مغزى سحرياً - كالتمائم والرق - لدرء الأذى وطرد الأرواح الشريرة.

كان القرطاجيون حتى تاريخ متأخر أقل تأثراً الى حد كبير بالحضارة الاغريقية من الاتروريين والرومان، رغم أنهم لم يكونوا على الاطلاق بمنأى عن تأثيرها، فقد أقرت عبادة ديميتر (Demeter) وكوري (Kores) رسمياً في المدينة، ولكن العبادات المحلية لم تتأثر بالديانة الاغريقية على نطاق واسع. ومن الناحية الفنية لا يظهر في الحرف القرطاجية الصغيرة سوى أثر يوناني طفيف، ولكن القليل المتبقي من القرن الثاني، يتبين منه أنه عند هذا التاريخ، لم يعد التأثير المعماري القادم من العالم الاغريقي ملموساً فقط في موقع قرطاجي (دار الصافي في رأس أذار)، بل كذلك في الأراضي الليبية (دُجَّة = دُقَّة). وقد استخدمت الفينيقية كلغة أدب، ولكن لم يبق شيء من انتاجها. ونحن نعلم من رسالة عن

الزراعة كتبها المدعو ماقون، وترجمت الى اللاتينية، أن ماقون استفاد من الكتب اليونانية في الموضوع، ونسمع كذلك عن بعض القرطاجيين من أتباع المدارس الفلسفية اليونانية.

الصراع مع اغريق صقلية

انتهت فترة التوسع القرطاجي في افريقيا عام ٤١٠ق. م.، ومعها فترة السلام في بقية ممتلكاتها، والتي استمرت منذ كارثة هيميرا (٤٨٠ق. م.) فقد تورطت المدن الاغريقية في صقلية في الصراع الكبير على السيادة في بلاد اليونان بين أثينا واسبرطة، ورغم أن حملة أثينية على صقلية لقيت فشلاً ذريعاً، فإن نتيجتها النهائية أدت الى توريط قرطاجة. وكانت مدينة سيجستة (Segeste) – المدينة الصقلية الأصل وحليفة قرطاجة – مسؤولة إلى حد ما عن استقدام الأثينيين الى صقلية، وأصبحت الآن هدفاً لهجوم تأديبي من مدينة سيلينوس (Selinus) الاغريقية، فطلبت نجدة قرطاجة وأجيب نداؤها على أساس أنه من المحتمل لو هزمت سيجستة فإن السيطرة الاغريقية سوف تحول المستوطنات الفينيقية الى مجرد مواطىء قدم في غرب الجزيرة. وبالاضافة الى ذلك فإن القائد القرطاجي هانيبال (حنبعل) حول الحملة الى حرب للانتقام من هزيمة هيميرا التي هلك فيها جده. وفي سنة ٤٠٩ق. م. حاصر جيش من المرتزقة يقدر بحوالى خمسين ألف رجل مدينة سيلينوس واقتحمها عنوة بعد تسعة أيام. وبعد قليل تم الاستيلاء على هيميرا أيضاً وسويت بالأرض، وذبح كل السكان الذين لم يهربوا من قبل. وعندئذ عاد هانيبال وسرح الجيش، وهو ما يدعو للاعتقاد بأن قرطاجة لم تكن تفكر في توسيع أراضيها، وان يكن من الواضح: منذ هذا التاريخ أن الفينيقيين هنا وفي المناطق الأخرى من صقلية التي سيطروا عليها قد انشأوا في الواقع ولاية قرطاجية. ومع هذا ففي سنة ٤٠٦ق. م. تراءى لقرطاجة أن تحاول للمرة الأولى والوحيدة أن تغزو كل الجزيرة بعد أن هاجم أراضيها بعض السرقوسيين، ولذا أرسلت قوة أكبر الى أكراجاس، ثانية أكبر المدن الاغريقية، وتم الاستيلاء عليها في سنة ٤٠٦ق.م.، وفي سنة ٤٠٥ق.م. تم الاستيلاء على جيلا (Gela)، ولكن هانيبال لم يستطع أن يتوج انتصاراته باحتلال سرقوسة نفسها، ويبدو أن وباء دمر نصف جيشه. وكان حاكم سرقوسة الجديد سعيداً بعقد الصلح ليقوي مركزه، وأكدت الشروط الحكم القرطاجي على غرب صقلية بما فيه عدد من المجتمعات الصقلية الوطنية والمتبقية من سيلينوس وأكراجاس وهيميرا، وبهذا صارت قرطاجة تحكم مساحة من الأرض أكبر مما كان لها من قبل، وتجبي جزية اضخم، وزيادة على ذلك كسرت نطاق العزلة التي عاشت فيها معظم القرن الخامس. ومنذ هذا التاريخ نجد أن الواردات والتجارة عموماً مع العالم الاغريقي قد انتعشت على الرغم من فترات الحرب المتكررة. والحقيقة ان الاغريق لم يكونوا متحدين، وكانوا مقسمين بين عدة مدن مستقلة تماماً، وعلى الرغم من انه في عدة مناسبات وجهت نداءات لهم جميعاً في صقلية للاتحاد ولطرد القرطاجيين من الجزيرة، فإن هذه النداءات لم تنجح بتاتاً، حيث كانت هذه النداءات تحركات انتهازية لتحقيق مصالح خاصة لدول أو لشخصيات معينة. وكان هذا موقف ديونيسيوس عاهل سرقوسة الذي حاول في ثلاث مرات من سنة ٣٩٨ق. م. الى سنة ٣٩٢ق. م. ومن نة ٣٨٢ ق.م. الى سنة ٣٧٥ق.م، وفي سنة ٣٦٨ق.م. طرد القرطاجيين. وفي كل مرة كان كسه سوء الحظ بدرجة ملحوظة، ففي سنة ٣٩٨ق.م. على سبيل المثال تم الاستيلاء على مدينة يا الفينيقية وتدميرها، ولكن في العام التالي مباشرة تعرضت سرقوسة – في مقابل ذلك – للتهديد،

ولكن أنقذها للمرة الثانية انتشار الوباء، وفي أغلب الوقت كانت قرطاجة قادرة على الاحتفاظ بحدودها الشرقية عند نهر هاليكوس (بلاتاني Platani). لقد أثبتت جيوش القرطاجيين من المرتزقة المختلفي الأجناس، والتي يتم تكوينها على عجل، أنها تضارع فيالق المشاة الاغريقية كاملة العتاد، وكان أسطولهم متفوقاً بصفة عامة. وأهم من ذلك دلالة أن قرطاجة لم يعد بوسعها قط ان تنعزل عن العالم الاغريقي مرة اخرى. ولم يكن هناك وقتئذ اغريق يقيمون في قرطاجة، وأصبح الطريق مفتوحاً أمام قرطاجة للتدخل بدعوة من الساسة الاغريق أنفسهم، ولكي تكون - بصفة عامة - جزءاً معترفاً به من العالم الهلينستي. وفي العقد الذي بدأ بعام ٣٥٠ق.م. كانت قرطاجة في طريقها للسيادة على كل الجزيرة بالطرق السلمية، حيث كان النزاع السياسي الداخلي الذي أضعف المدن الاغريقية ما يزال محتدماً. ولم ينقذ الموقف الاغريقي سوى حملة الكورنثي(Corinthion)المدعو تيموليون،(Timoleon)، ويجب ملاحظة أن معركة نهر كريمسوس (Crimisos) (٣٤١ق.م.) دمرت قوة مختارة قوامها ثلاثة آلاف مواطن قرطاجي. ويقال ان هذه كانت أفدح خسارة مُنيت بها قرطاجة، والتي توضح الى أي مدى كانت تعتمد على المرتزقة.

كانت إفريقيا نفسها بطبيعة الحال آمنة من التدمير عدا ما سمعناه عن ثورة نشبت سنة ٣٦٨ - ٣٦٧ق.م. وتم اخمادها بسهولة. وفي العقد الذي بدأ بعام ٣٤٠ق.م. حاول حنون القيام بانقلاب، فطلب الى السكان الرقيق والرعايا الأفارقة والقبائل الموريتانية الانضمام اليه، ولكن يبدو أنه لم يكن هناك تهديد خطير. وكان الموقف مختلفاً تماماً فيما بين سنة ٣١٠ق.م. الى سنة ٣٠٧ ق.م عندما كانت قرطاجة تخوض حرباً أخرى ضد سرقوسة، التي أصبح يحكمها وقتئذ أجاثوكليس (Agathocles)، فعندما كانت مدينته تحت الحصار قام بمخاطرة ميؤوس منها، فأفلت من الأسطول القرطاجي، وأنزل أربعة عشر ألف رجل في رأس أذار، وأشعل النار في سفنه، وتقدم الى قرطاجة ولم تكن هناك - فيما عدا في قرطاجة - أي مراكز دفاع قوية أو حاميات، وتم تخريب مساحة واسعة في الأراضي القرطاجية في الأعوام الثلاثة السابقة على ارغامه على الرحيل من إفريقيا

الحرب الأولى مع روما

. ومع هذا فقد انحصرت الصراعات في نطاق ضيق، بالمقارنة بالتغيرات الثورية في الشرق خلال نفس الفترة، عندما أقام الاسكندر الأكبر امبراطورية تمتد بعيداً حتى الهند. ولكن قرطاجة لم تلبث أن تورطت نفسها في صراع له أهميته البالغة بالنسبة للتاريخ العالمي، أعني الصراع مع روما. وقد عقدت معاهدة بين الجانبين منذ وقت مبكر في سنة ٥٠٨ق.م. عندما كانت روما مجرد واحدة من عدة مدن ايطالية متوسطة الحجم. ثم وقعت معاهدة اخرى في سنة ٣٤٨ق.م. لتنظيم التجارة بين الدولتين للمرة الثانية، ورغم أن روما صارت الآن أقوى كثيراً، فإن المعاهدة كانت لصالح قرطاجة بدرجة كبيرة، وذلك ببساطة لأن مصالح روما التجارية كانت غير ذات بال. وفي العقود التالية اندفعت روما بسرعة مذهلة لكي تصبح القوة المسيطرة في ايطاليا. وتقلصت الثغرة الفاصلة بين المناطق التي تهتم بها كل من القوتين عندما بدأ عدو قرطاجة القديم أجاثوكليس في سنة ٢٩٣ق.م. يقوم بنشاط عسكري في جنوب إيطاليا. وبعد سنوات قليلة دُعِيَ الملك بيرّوس (Pyrrhus) ملك ابيروس (Epirus)الى ايطاليا ليعمل على تحرير المدن الاغريقية في جنوب ايطاليا، والتي تزعمتها تارنتوم (Tarentum)، من

السيادة الرومانية، ورغم أنه لم يحرز أي انتصار حاسم فقد اقترح عليه اغريق صقلية أن يكون حاميهم ضد قرطاجة. وحاولت قرطاجة منع هذا، فأرسلت أسطولاً قوياً الى روما لتشجيعها على الاستمرار في الحرب ضد بيروس، ونجحت قرطاجة، ولكن بيرّوس أبحر الى صقلية على أي حال، وحقق بعض الانتصارات الصغيرة غير الحاسمة وذلك قبل أن يعود الى اليونان في سنة ٢٧٦ق.م. وهكذا لم يكن هناك حتى هذا التاريخ تضارب في المصالح بين قرطاجة وروما. ولكن بعد عقد واحد دخلتا في صراع أنزل بكلا الجانبين خسائر فادحة، لم تعرفها أي حرب حتى ذلك الوقت. ورغم أن النتيجة كانت ذات أهمية في مجال توظيف العوامل الجغرافية لصالح السياسة، فليس هناك سوى شك ضئيل في أن سبب الحرب كان تافهاً نسبياً، وأن كلا الجانبين لم يكن له أهداف محددة ثابتة. وفي سنة ٢٦٤ق.م. قبلت روما استسلام مسانا (Messana) (مسينا Messina)، والتي كانت من قبل حليفاً لقرطاجة ضد سرقوسة. وكان الساسة الرومان وقتئذ على درجة كبيرة من الثقة بالنفس، ويبدو أنهم توقعوا أن قرطاجة لن تقاوم وأن هناك غنائم عظيمة سهلة يمكن الحصول عليها من المدن الاغريقية في صقلية. وتلاعبت أيضاً بالرومان المخاوف من أن قرطاجة اذا ما سيطرت على مسينا يمكنها أن تسيطر على ايطاليا، والتي في الحقيقة لم يكن لها فيها أية مصالح البتة. وصممت قرطاجة على مقاومة التدخل الروماني لأنه سيعني تغييراً كاملاً في ميزان القوى الذي كان قائماً في الجزيرة لمدة قرن ونصف القرن، وكذلك بلا شك لأنها شعرت أن السياسة الرومانية مغامرة خطيرة. وترتب على ذلك قيام «الحرب البونية الأولى» التي استمرت حتى سنة ٢٤٢ق.م. ومني فيها الجانبان بخسائر فادحة، وعلى عكس ما يتوقع الانسان فإن الاسطول القرطاجي لم يثبت انه الأقوى بالرغم من أن الرومان لم يملكوا أسطولاً من أي حجم حتى سنة ٢٦١ق.م. وانتصر الرومان في البحر مرتين، في معركة ميلاي (Mylae) سنة ٢٦٠ق.م. حيث خسر الأسطول القرطاجي عشرة آلاف رجل من مجذفي الأسطول، ومعركة رأس ايكنوموس (Ecnomus) سنة ٢٥٦ق.م.، ولكن في سنة ٢٥٥ق.م. خسرت روما أسطولها بسبب الزوابع قرب رأس كامارينا (Camarina)، وخسرت معه خمسة وعشرين ألف جندي، وسبعين ألف مجذف، وكانت هناك هزائم أخرى متوالية على الجانبين، ولعدة سنوات كان كلا الطرفين في حالة استنزاف، وأصبحت العمليات الحربية محدودة. وفي تناقض آخر فشلت الفرق الرومانية (Legiones) وهي أروع قوة مشاة معروفة آنئذ في طرد القرطاجيين من صقلية. وفي سنة ٢٥٦ ق.م. جرب الرومان خطة أجاثوكليس في المباغتة وأنزلوا جيشاً في إفريقيا، وهزم القرطاجيون في أديس (Adys) (وذنة Oudna). واستولى الرومان على بلدة تونس واتخذوها قاعدة للهجوم منها على قرطاجة، ومع هذا فشلوا في استغلال الثورات بين رعايا قرطاجة النوميديين. وفي سنة ٢٥٥ق.م. استخدمت قرطاجة مرتزقاً اغريقياً مقتدراً هو القائد كسانتيبوس (Xanthippus) وتم تدمير القوة الرومانية. وانتهت الحرب أخيراً في سنة ٢٤٢ق.م. عندما هُزِم الأسطول القرطاجي في جزر ايجاتيس (Aegates)، وكان معنى هذا أنه لم يعد ممكناً استمرار الامدادات الى صقلية، وأنه سيتبع ذلك سلام الاستنزاف، والذي تخلت فيه قرطاجة عن صقلية، ووافقت على دفع تعويضات مالية ضخمة.

انيبال (حنبعل) والحرب الثانية مع روما

يق الاقتصادي الذي سببته الحرب الى صعوبة دفع مستحقات المرتزقة الذين كان نصفهم وقامت ثورة في إفريقيا تميزت بالوحشية القاسية من الجانبين وتورط فيها حوالى عشرين ألفاً من

المرتزقة، وكان أحد قادتها المبرزين ليبياً يدعى ماثون (Matho)، وتعرضت قرطاجة نفسها للخطر، وسيطر المتمردون لبعض الوقت على أوتيكا وهيبو أكرا (بنزرت) وتونس، وكان المتمردون منظمين بدرجة جيدة تكفي لاصدار عملة خاصة عليها شعار «الليبيون» بالاغريقية. وترجع شدة الصراع الذي انتهى في سنة ٢٣٧ق.م. الى عنف المعاملة القرطاجية لليبيين. وفي نفس الوقت استولى الرومان على سردينيا عنوة، بينما كانت قرطاجة في موقف لا تستطيع فيه المقاومة. ولا شك أن الاستياء من هذا الوضع قد أخمد أي معارضة لمشروعات هميلكار (حملقرت) برقا (Hamilcar Barca) - وهو قائد كان قد أبلى حسناً في معارك صقلية - إذ خرج عاقداً العزم على توسيع نطاق سيطرة قرطاجة المباشرة في اسبانيا - بعد أن انحصر نفوذها هناك في بضع محطات ساحلية - وكان الهدف مزدوجاً: أولاً استغلال الموارد المعدنية مباشرة، مما يعوض ضياع موارد صقلية، وثانياً تعبئة القوى البشرية في اسبانيا في جيش يمكنه أن يكون نداً للرومان في الميدان. وخلال فترة تقل عن عشرين عاماً تمكن هو وصهره هسدروبال (عزربعل Hasdrubal) من احكام السيطرة على ما يزيد عن نصف شبه الجزيرة الأيبيرية، وتكوين جيش من حوالى خمسين ألف رجل. وفي سنة ٢٢١ق.م. تولى هانيبال بن هميلكار قيادة الجيش في الامبراطورية الجديدة في اسبانيا خلفاً لهسدروبال. ويوجد دليل ضعيف يؤيد وجهة النظر الرومانية المتأخرة بأن المغامرة كلها كانت مخططاً من تدبير آل برقا - وهو الاسم الذي عرفت به الأسرة - للانتقام من روما، وأنها لم تكن تحظى بتأييد حكومة قرطاجة. وفي سنة ٢٢٠ق.م. ساور روما القلق من النشاط القرطاجي، وأعدت خطة بارعة لمنع تدعيم أو امتداد النفوذ القرطاجي في اسبانيا.

رفض هانيبال (وحكومته) التهديدات الرومانية وقرر - في ضوء تهور الساسة الرومان في سنتي ٢٦٤ق.م. و٢٣٧ق.م. - أن الحرب حتمية. وفي سنة ٢١٨ق.م. عبر هانيبال نهر الابرو في طريقه الى الألب، ومن ثم شق طريقه الى داخل ايطاليا. وقامت استراتيجيته على اعتقاد بأن روما لا يمكن هزيمتها هزيمة حاسمة إلا في ايطاليا ذاتها، وعلى أية حال كان من الضروري توقع حدوث غزو روماني لافريقيا، اذ كان في استطاعة روما أن تقوم به لأنها كانت تتحكم وتتنذ في البحر. واستمرت هذه الحرب (الحرب البونية الثانية) حتى سنة ٢٠٢ق.م. مع تكبد الجانب الروماني مرة اخرى خسائر هائلة. وقد تلاحمت عبقرية هانيبال العسكرية مع قوة مقاتلة عظيمة، أغلبها من الأسبان، ولكنها ضمت كذلك كتائب غاليّة وإفريقية. وأحرز هانيبال انتصارين باهرين، عند بحيرة ترازيمينوس (Trasimenus) (٢١٧ق.م.)، وفي كنّاي (Cannae)(٢١٦ق.م.) التي كانت افدح هزيمة مفردة منيت بها روما، ومع ذلك لم يتمكن القائد القرطاجي من اخضاع ارادة مجلس الشيوخ والشعب الروماني، أو تحطيم قوة حلفاء روما الايطاليين الذين ظلوا - الى درجة كبيرة - موالين لروما رغم ما عانته بلادهم من ويلات منذ اندلاع الحرب، ووفروا للجيش الروماني معيناً لا ينضب من الاحتياطي البشري، والذي لم يكن هانيبال قادراً على أن يجاريه. وبينما تابعت روما سياسة فابيوس ماكسيموس (Fabius Maximus) الدفاعية في ايطاليا، وهي سياسة من شأنها ألا تتيح لهانيبال أن يستخدم عبقريته مرة أخرى في الميدان، كان القائد الشاب سكيبيو «الافريقي» (Scipie Africanus) قد نجح في كسب أسبانيا لروما في سنة ٢٠٦ق.م. وعندئذ استعدت روما للهجوم على إفريقيا. وساعدت على هذا الأوضاع في نوميديا، التي تعرضت قبائلها الأصلية لتيار الحضارة القرطاجية عدة قرون، وقامت فيها وحدات سياسية أكبر من ذي قبل، وزاد التحاق رجالها بالخدمة في حروب قرطاجة المتلاحقة من قوتهم وتجربتهم. لقد تخلى عن قرطاجة سنة ٢١٣ق.م. سيفاكس (Syphax) زعيم أكبر قبيلة نوميدية، وهي قبيلة المسايسولين (Masaesyli)، التي يمتد اقليمها من أمبساجا (Ampsaga)(الوادي الكبير) في

الشرق الى مولوكا (Mulucha) (نهر ملوية) في الغرب، ولكنه عاد وانضم اليها في سنة ٢٠٨ق.م. عندما تزوج ابنة أحد زعماء قرطاجة وعلى النقيض، ظل جايا (Gala) زعيم الماسوليين (Massyli) الواقعة بلادهم بين المسايسوليين والأراضي القرطاجية، مخلصاً لقرطاجة خلال فترة انشقاق سيفاكس، وقدم ابنه ماسينيسا (Masinissa) خدمات جليلة في أسبانيا. وعندما انتصرت روما قرر ماسينيسا أن يظاهر من يبدو أنه الجانب المنتصر، فسالم سكيبيو وعند عودته الى إفريقيا لم يستطع أن ينصّب نفسه زعيماً لقبيلته، ولكنه جمع قوة خاصة – وبعد عامين من المغامرات البطولية – بات ينتظر سكيبيو كي يقاتل في صفه عندما ينزل الى أرض إفريقيا، وقام بدور هام في الانتصارات الأولية في سنة ٢٠٣ق.م. قبل استدعاء هانيبال نهائياً من ايطاليا. ووقعت المعركة النهائية في زاما (Zama) (السبع بيار Sab' Biar) في سنة ٢٠٢ق.م. عندما لقي هانيبال هزيمة قاسية. أما ماسينيسا الذي قام في نفس الوقت باخراج سيفاكس من أرضه فقد جهز أربعة آلاف فارس اسهموا مساهمة فعّالة في احراز الرومان النصر الحاسم. ونصت شروط الصلح على أن تسلم قرطاجة أسطولها، وأن تحد أراضيها في إفريقيا بخط بحري – على وجه التقريب – من طبرقة (Thabraca) الى تينا (Thaenae)، وأن تعيد أيضاً الى ماسينيسا أي أراض كانت لأجداده يوماً ما، وهو ما كان سبب نزاع مستمر، كما منعت قرطاجة من أن تشن حرباً – خارج إفريقيا أو حتى داخلها – دون اذن من روما.

ماسينيسا ومملكة نوميديا

ظلت قرطاجة قائمة خمسين عاماً أخرى، ولكن هذه الفترة من تاريخ المغرب كانت بادىء ذي بدء فترة تقدم سريع في اقتصاد ومجتمع معظم القبائل القريبة من البحر المتوسط. وانه لمن تناقضات التاريخ أن العامل الرئيسي في هذا – والذي أدى الى انتشار سريع للحضارة القرطاجية أكثر من ذي قبل – هو عدو قرطاجة الكبير ماسينيسا. كان ماسينيسا شخصية بطولية قوية البنيان جمة النشاط متعددة المواهب، وكان قد تلقى تعليمه في قرطاجة، وقدر – تقديراً سليماً – أهمية الاستفادة بما يمكنه من الحضارة القرطاجية في اقليمه الخاص. كانت شخصيته فيما بعد أكبر من مجرد كونه رجلاً خارجاً على قومه وعميلاً مفيداً للرومان بعد سنة ٢٠٦ق.م.، فقد عقد أواصر صداقة متينة مع عدد من أبرز السياسيين الرومان، وقد كوفىء بعد معركة زاما بالأجزاء الشرقية، وهي اخصب أراضي سيفاكس، وهكذا امتد حكمه من قرطة (Cirta) (قسنطينة) في منطقة تمتد من غرب هذه المدينة الى الحدود القرطاجية الجديدة. (وتركت المنطقة الأقل تقدماً بين مملكة ماسينيسا ووادي ملوية لابن سيفاكس).
وقد أكد عدة كتّاب قدامى أن ماسينيسا هو الذي زاد الانتاج الزراعي في نوميديا زيادة كبيرة، ويذكر سترابون أنه حول الرعاة الى مزارعين. ومثل كل الأحكام العامة، فهذا مبالغ فيه، ولكن ليس هناك شك في أنه كانت هناك زيادة فعلية في المنطقة المزروعة بالحبوب، بحيث وجد فائض للتصدير، حتى وإن ظلت تربية الماشية سائدة. وكان هذا ينطوي على أهمية بالغة بالنسبة للمستقبل، ويبشر بمزيد من التطور في العصر الروماني. وكانت التجارة في المنتجات الأخرى محدودة. وقد سكت العملة الوحيدة من البرونز والنحاس، ويبدو أن قرطة، عاصمة ماسينيسا، أصبحت مدينة حقيقية (ولو أن تقدير عدد السكان بمائتي ألف نسمة في عهد ابن ماسينيسا مبالغ فيه كثيراً)، ولا نعرف آثارها جيداً، ولكن شكلها العمراني قرطاجي صميم، وقد عثر فيها على لوحات حجرية «بونية» أكثر مما عثر عليه في اي موقع

افريقي آخر عدا قرطاجة نفسها، ولا ريب أيضاً في أن لغة قرطاجة أصبحت مستخدمة بشكل متزايد في نوميديا وموريتانيا.

تدمير قرطاجة

في هذه الفترة كان معنى أن تكون حليفاً رومانياً أن تكون تابعاً رومانياً، وكان أول مطلب هو الطاعة للارادة الرومانية، وتجنب أي عمل قد يثير ريبة الرومان، حتى وان لم يكن هناك ما يبررها. وتظهر مهارة ماسينيسا السياسية في فهمه لهذه الحقائق وقد ظل لفترة تزيد عن خمسين عاماً يمارس ضغطاً متزايداً لانتزاع أراضي قرطاجة، وربما ساوره الأمل في أن تكون قرطاجة ذاتها في النهاية من نصيبه باذن الرومان. وفي بداية الأمر لم يكن لروما مصلحة في مزيد من اضعاف قرطاجة، التي كانت أيضاً خاضعة بصورة طبيعية. وحتى سنة ١٧٠ق.م. كانت مكاسب ماسينيسا في الأرض صغيرة. ومع هذا، ومنذ سنة ١٦٧ق.م. انتهجت روما - بشكل متزايد - سياسة تتسم بالخشونة والقسوة سواء في إفريقيا أو في خارجها، مع استمرار تعاطفها مع ماسينيسا الذي راح يغذي شكوكها في قرطاجة، وكان مثالياً في ارسال المؤن والرجال، متى طلبت منه روما ذلك. وبهذه الوسائل أضاف الى مملكته مراكز التجارة (Emporia) على خليج سرت الصغير (قابس)، وشطراً كبيراً من وادي مجردة (Bagradas). وبدأ مجلس الشيوخ الروماني - بالتدريج - يعود الى رأي كاتو الأكبر (Cato) بأنه يجب تدمير قرطاجة نهائياً، ورغم أن قرطاجة قد نهضت بالفعل من كبوتها بعد الحرب البونية الثانية على نحو مثير للدهشة، فإن الزعم بأنها باتت تشكل تهديداً لروما ثانية، انما هو زعم سخيف وباطل. كان على القرطاجيين أن يختاروا بين هجر مدينتهم والنزوح الى الداخل، أو مواجهة الحرب بكل آثارها، وعندما اضطروا الى اختيار الأمر الثاني أرسل جيش روماني الى إفريقيا سنة ١٤٩ق.م.، ورغم التفوق الساحق فإن قرطاجة صمدت حتى سنة ١٤٦ ق.م. وكان بعض الليبيين لا يزالون يؤيدونها، واستاء ماسينيسا نفسه عندما حرم من أمله الذي يحلم به، ولكنه أذعن، وانضمت معظم المستوطنات الفينيقية والقرطاجية القديمة مثل اوتيكا وهادوميتوم (سوسة) وتابسوس (رأس ديماس) وغيرها الى روما، وتجنبت بذلك التدمير المحتم، وسويت قرطاجة بالأرض، ولعن مكانها في احتفال طبقاً لتقليد روماني، وهو عمل رمزي يدل على مدى الخوف والحقد اللذين اختزنتهما روما زهاء قرن للدولة التي قاومت بضراوة سيادتها على عالم البحر المتوسط.

الدول التي خلفت قرطاجة

نوميديا

تطلب الأمر فترة تزيد على قرن آخر قبل أن تحل روما محل قرطاجة باعتبارها القوة السياسية والثقافية المسيطرة في المغرب. ولعدة أسباب (انظر فصل ٢٠) اخذت روما فقط جزءاً صغيراً من شمال شرق

تونس بعد تدمير قرطاجة، وحتى هذا الجزء تعرض معظمه للاهمال. وفي معظم شمال إفريقيا اعترفت روما بعدد من الممالك العميلة التي تركت - بصفة عامة - لتدارَ على يد بنيها. واستمر التأثير الثقافي القرطاجي في هذه الممالك، بل وتزايد حيث انتعشت المستوطنات الساحلية القديمة، والتي كان قد هرب اليها العديد من اللاجئين في سنوات الصراع القرطاجي الأخيرة، وانتشرت اللغة الفينيقية في صورتها الأخيرة، والتي عرفت باسم «البونية الجديدة» (Neo-Punic) على نطاق أوسع من ذي قبل. ولدينا ما يفيد بأن الرومان سلموا للملوك النوميديين المكتبات التي نجت من التخريب ساعة سقوط قرطاجة، وربما كانت لبعض الكتب قيمة عملية مثل بحوث الزراعة لماقون. ولم يكن أحد من الملوك الأواخر في مثل قوة ماسينيسا، ولكن ليس هناك شك في أن الخطوط الرئيسية للتطور في مملكتي النوميديين والموريتانيين قد استمرت. ويجب التأكيد على أن المملكتين الى حد ما كانتا مجرد اصطلاحين جغرافيين حيث أن عدداً كبيراً من القبائل فيهما ظل محتفظاً بشخصيته المميزة في العصر الروماني، وحتى بعد ذلك بالنسبة لبعضها، وظلت الوحدة السياسية هشة، وقد زاد من حدة التفكك تعدد الزيجات داخل الأسرات الملكية (يقال ان ماسينيسا كان لديه عشرة أولاد عاشوا بعده) وكذلك التدخل الروماني فيما بعد. وفي نوميديا مات ماسينيسا سنة ١٤٨ق.م. في سن التسعين، وخلفه ميسبسا (Micipsa) (١٤٨ق.م - ١١٨ق.م)، وخلال حكمه ازداد حجم التبادل التجاري بين النوميديين وروما وايطاليا، ونسمع عن العديد من التجار في قرطة. وعند موته حكمت المملكة حكماً مشتركاً بين اثنين من اخوته، واشترك معهما يوغرطة (Jugurtha) حفيد ماسينيسا الذي كان يحظى بتأييد رجل الدولة الروماني سكيبيو أيميليانوس (Scipio Ameilianus)، مثلما كان ماسينيسا يحظى بتأييد سكيبيو «قاهر افريقيا» الأكبر كان يوغرطة رجلاً ذا همة عالية، ويسعى ليجعل من نفسه الحاكم الأوحد، وعندئذ حاولت روما تقسيم المملكة رسمياً، ولكن عندما استولى يوغرطة على قرطة من أحد منافسيه، وقتل افراد الجالية الايطالية، اعلنت روما عليه الحرب. وقاوم يوغرطة مقاومة شديدة، وألحق بعض الهزائم العسكرية المشينة بالرومان. وأخيراً غرر به حموه بوخوس (Bocchus) - ملك موريتانيا - وسلمه للرومان. وعندئذ نصبت روما عضواً آخر من أسرة ماسينيسا ملكاً يدعى غودة (Gauda). وقد خلفه ابنه هيمبسال (Hiempsal)، الذي خلع لفترة قصيرة على يد أحد منافسيه، فيما بين ٨٨ق.م. - ٨٣ق.م.، ثم عاد الى الحكم حتى سنة ٦٠ق.م. ومن المعروف أنه ألّف كتاباً عن إفريقيا باللغة البونية، وفي أكبر الظن أنه استمر في الخط الحضاري الذي بدأته أسرته. تورطت نوميديا - في آخر أعوامها كدولة مستقلة - في الحروب الأهلية التي دمرت الجمهورية الرومانية، فنتيجة للاهانة العلنية التي تلقاها يوبا (Juba) بن هيمبسال (٦٠ق.م. - ٤٦ق.م.) على يد يوليوس قيصر، باعتباره فتى صغيراً، انضم يوبا الى معسكر بومبي (بومبيّوس) في سنة ٤٩ق.م. وقدم له قدراً كبيراً من المساعدة في إفريقيا، حتى لقد قيل أنه وعد بتولي الاقليم الروماني في إفريقيا اذا كسب أنصار بومبي. وقد أقدم يوبا على الانتحار بعد انتصار قيصر في ثابسوس، والذي أعقبه فرض الحكم الروماني المباشر على نوميديا.

موريتانيا

يعتبر تقدم المملكة الموريتانية - بصفة عامة - أكثر بطئاً من نوميديا، ولكن ربما يكون هذا التصور ناشئاً عن نقص المعلومات. ومن الواضح أن الجزء الرئيسي لجبال أطلس ظل حصناً للحضارة الفينيقية مثلما كان فيما بعد للحضارة الرومانية، ولكن كان هناك بعض التقدم في حياة الاستقرار في المناطق الخصبة

مثل وادي ملوية، وعلى طول ساحل الأطلنطي. وفي المناطق الجبلية احتفظت القبائل المستقلة بشخصيتها خلال العصر الروماني، وحتى بعد ذلك.

ويشار الى الموريين (Mauri) في الحملة المبكرة الى صقلية في سنة ٤٠٦ق.م، وفي ثورة حنون في العقد الذي بدأ بعام ٣٥٠ق.م، وفي الغزو الروماني لافريقيا في سنة ٢٥٦ق.م. وقد ساعد ملك الموريين ماسينيسا في موقف حرج - لحسن حظه - ، وكان هناك أيضاً موريون في جيش هانيبال في زاما. وفي تاريخ لاحق ساعد بوخوس الأول - في بادىء الأمر - يوغرطة ضد روما، ولكنه غدر به فيما بعد، ونال مكافأة له اقليماً كبيراً شرقي ملوية. وفي الجيل التالي يبدو أن المنطقة قسمت: فحكم بوخوس الثاني الجزء الشرقي من موريتانيا وقد اشترك مع المغامر الايطالي سيتيوس (Sittius) في القتال ضد يوبا لصالح قيصر، الذي أيده أيضاً بوغود (Bogud) حاكم الجزء الغربي (غرب ملوية). وقد كوفىء كلاهما، فوسع بوخوس اقليمه على حساب نوميديا، وبعد سنوات قليلة أيد بوغود ماركوس أنطونيوس ضد أوكتافيوس في الحرب الأهلية الرومانية، فطرده بوخوس من أرضه لصالح أوكتافيوس. ويموت بوخوس في سنة ٣٣ق.م. وقتل بوغود في سنة ٣١ق.م. صارت كل هذه المنطقة الشاسعة خلواً من حاكم ومع هذا قرر أوكتافيوس الذي صار امبراطوراً يحمل لقب «اغسطس» بأن الوقت غير مناسب لكي تتولى روما الحكم المباشر، ربما خوفاً من المشاكل العسكرية الكبيرة من جانب القبائل الجبلية. وفي سنة ٢٥ق.م. نصب يوبا ابن الملك النوميدي الأخير ملكاً، وهو الذي قضى طفولته منذ الرابعة في ايطاليا، والذي اعاد تنظيم المملكة النوميدية مؤقتاً منذ سنة ٣٠ق.م. الى ٢٥ق.م، واستمر حكم يوبا الثاني أكثر من أربعين سنة، كان خلالها ملكاً عميلاً مخلصاً تماماً، وقام يوبا - الى حد ما - في موريتانيا بنفس الدور الذي قام به ماسينيسا في نوميديا. لقد كان رجلاً مهتماً بالسلام لدرجة كبيرة، ثقافته هلّينية تماماً، ومؤلفاً لعدة كتب (غير موجودة حالياً) بالاغريقية. وليس من شك أن عاصمته إيول (Iol) التي أعاد تسميتها «قيصرية» (شرشال) - ومن المحتمل أيضاً العاصمة البديلة فولوبيليس (Volubilis) (وليلي) - قد صارتا متحضرتين تماماً في عصره. وقد خلفه ابنه بطليموس الذي حكم حتى سنة ٤٠ بعد الميلاد، عندما استدعاه الامبراطور جايوس (كاليجولا) (Gaius) وأعدمه، دون سبب معروف. وكانت هذه الحادثة بالنسبة لمواطني اقليمه البسطاء مؤشراً لبداية الثورة التي تم اخمادها بعد عدة سنوات. وفي عام ٤٤م قسمت موريتانيا الى ولايتين. وبهذا اكتمل تنظيم المغرب في ظل الحكم الروماني المباشر.

التراث الفينيقي في المغرب

شهدت - بصفة عامة - فترة الممالك النوميدية والموريتانية المستقلة، تطور ورسوخ ثقافة مزدوجة الطابع: ليبية وفينيقية. وكان العنصر الأخير هو السائد ثقافياً رغم أنه كان - بطبيعة الحال - يمثل فقط أقلية من السكان عامة. وقد حدث التطور الزراعي في نوميديا - الذي نوقش منذ قليل - في مساحات أكثر بعداً حيث كانت الظروف الجغرافية فيها ملائمة، ولم يمتد التطور المدني بعيداً خارج قرطة، وفيما بعد إيول - قيصرية - ولكنه كان كافياً - في بعض المناطق - لتمهيد الطريق لامتداد أكبر في العصر الروماني. وليس أدل على قوة تأثير الثقافة المزدوجة من أن استخدام «البونية الجديدة» في النقوش استمر

حتى القرن الثاني الميلادي، وانه طوال نفس الفترة ظل لقب «شفيط Sufet» مستخدماً على الأقل في ثلاثين مدينة مختلفة، منتشرة من أقصى المنطقة الى اقصاها، من وليلي في غربي مراكش الى لبدة في ليبيا، كما أن قوة العقيدة الفينيقية الليبية في العصر الروماني، كانت ايضاً حقيقة ترتبت عليها آثار بعيدة المدى لقد كان هناك قدر من الوحدة الثقافية الظاهرية في كل انحاء المغرب -ً في هذا الوقت - يؤكدها أيضاً الخط الليبي المبهم. لقد ظهر هذا الخط في القرن الثاني قبل الميلاد عندما استخدم في نقشين في دُجَّة (Deugga) ثم استخدم بعد ذلك في العصر الروماني على لوحات (ربما تقليداً للعادة البونية) عثر على عدد منها في مراكش، وعلى الحدود الجزائرية التونسية، وفي ليبيا. وقد استسلمت كُل من الليبية والبونية الجديدة - كلغتي كتابة - للاتينية في العصر الروماني، واستخدمت صيغة من البونية في الحديث ظلت واسعة الانتشار في العصر الروماني المتأخر، ولكن من الصعب أن نحدد وضع الليبية ومدى انتشارها كلغة تخاطب. وقد فشلت محاولة تفسير تشابه الخط الليبي مع ذلك الخط الذي يستخدمه «الطوارق» في الأزمنة الحديثة.

ومن الوجهة التاريخية العامة كان تأسيس المستوطنات الفينيقية في المغرب يشكل التوسع الوحيد في منطقة غربي البحر المتوسط لحضارات الشرق الأدنى والأوسط القديمة، والتي عمرت قرطاجة بعدها جميعاً. وكان هذا - مع انتشار الاغريق في الغرب - جزءاً من حركة أدخلت كل غربي البحر المتوسط، والى حد ما شمال غربي أوروبا - الذي كانت تسكنه حتى ذلك الوقت شعوب قبلية متباينة - داخل دائرة التأثير الحضاري لبحر ايجه والشرق. وبالنسبة لتاريخ إفريقيا فإن الفترة الفينيقية أدخلت المغرب في اطار التاريخ العام لعالم البحر المتوسط، مؤكدة ارتباطه بالسواحل الشمالية، مثلما هو مرتبط بالسواحل الشرقية، كما انها أكدت أهمية الظروف الجغرافية التي ربطت المغرب بعالم البحر المتوسط - على الأقل حتى الأزمنة الحديثة. ونظراً لقصور مصادرنا التاريخية، فلا سبيل الى زيادة معلوماتنا الدقيقة عن نشوء الثقافة الليبية الوطنية، وعن مدى استجابتها للحضارة الفينيقية إلاّ باجراء المزيد من أعمال الحفر على يد علماء الآثار.(*).

(*) من المزمع أن يدرج في الطبعة التالية بيان أكثر تفصيلاً عن تراث ليبيا ودورها خلال الفترة المشمولة بهذا المجلد. وهناك خطة لعقد ندوة حول موضوع إسهام ليبيا في العصر الكلاسيكي القديم، مع الاهتمام الخاص بدور برقة في العصر الاغريقي، وبليبيا في الفترة الفينيقية، وبحضارة الجرمانتيين.

الفصل التاسع عشر

العصر الروماني وما بعده في شمال إفريقيا

القسم الأول

العصر الروماني

بقلم ع. محجوبي

الاحتلال الروماني ومقاومة أهالي البلاد

بعد تدمير قرطاجة سنة ١٤٦ق. م، وتحول اقليمها الى مجرد ولاية رومانية، أصبح مصير شمال إفريقيا في أيدي الرومان والممالك الوطنية. ولعله كان من المستحسن افراد فصل خاص لدراسة هذه الأخيرة منذ ظهور الممالك النوميدية الى نهاية عهد آخر ملك موريتاني في عام ٤٠م، بعد ذلك أصبح كل شمال إفريقيا رومانياً وظل كذلك حتى الغزو الوندالي.

ومع هذا لم يكن من السهل تحقيق احتلال البلاد، أوما يسمى في لغة الاستعمار - تلطيفاً للعبارة - «بتهدئة البلاد»، فقد قوبل انتشار الرومان جنوباً وغرباً من اقليم قرطاجة السابق ومملكة يوبا الأول السابقة، بمقاومة عنيدة، ولسوء الحظ لدينا فقط سجلات عن أبرز حوادث المقاومة دون أية تفاصيل أخرى. وبعد أن فرضت روما سيطرتها ودعمتها فإن الوحدة الثقافية والاقتصادية التي عملت روما بجد لنقلها الى شمال إفريقيا تقوضت أخيراً بمقاومة لا تنتهي أخذت الطابع العسكري، وكان لها أيضاً مظاهرها السياسية والعرقية والاجتماعية والدينية. وكل ما نعرفه عن هذه المقاومة وهذه الثورات مأخوذ من المصادر الأدبية والنقوش التي تمثل وجهة النظر الرومانية، وتزداد صعوبات التحليل التاريخي بسبب بعض مناهج التفكير المتبعة في كتابة التاريخ حالياً. فمنذ بداية القرن وحتى الآن بصفة خاصة لم يستطع المؤرخون، أو لم تكن لديهم الرغبة في التخلي عن آراء معينة متأثرة - بدرجات متفاوتة - بالمفاهيم والمذاهب السياسية التي كانت سائدة في الفترة الاستعمارية[1].

---

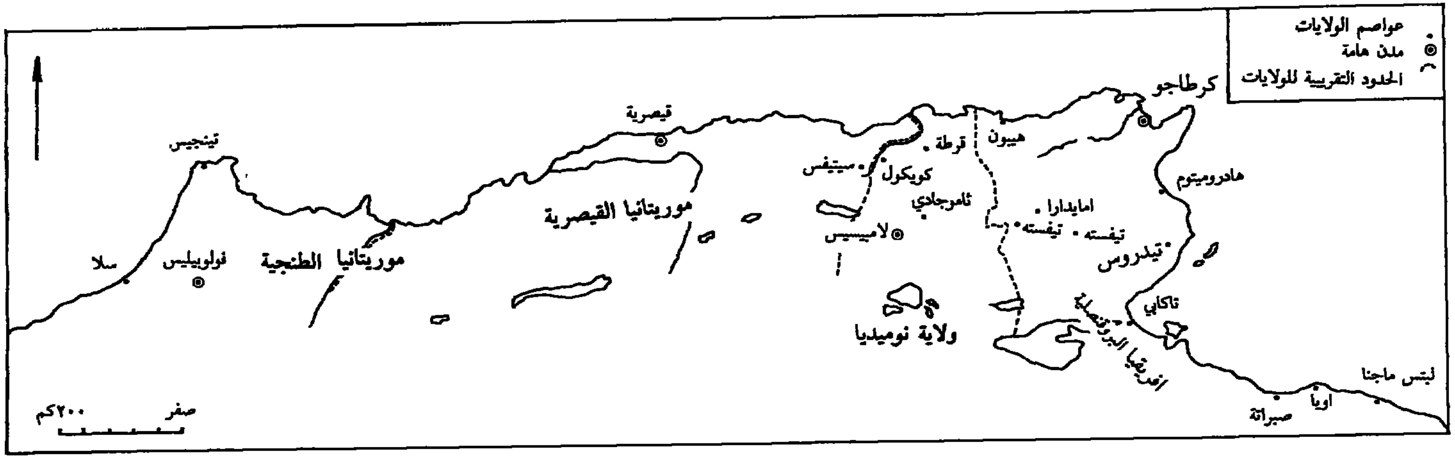
(١) انظر في هذا الشأن مقدمة كتاب M. Bénabou ، باريس ١٩٧٦، وبخاصة الصفحات من ٩ الى ١٥.

ان الطبيعة المميزة للحروب الافريقية تبرز بصفة خاصة من الروايات الخاصة بمظاهر الغزو، وخلال الربع الأخير من القرن الأول قبل الميلاد، فإن التتابع الطويل للانتصارات التي أحرزها القادة الرومان على الموريتانيين والموسولاميين (Musulamii) والكثوليينيين (Caetulians) والجرمانتيين ينهض دليلاً لا ينازع على أن السكان الوطنيين لم يخضعوا خضوعاً تاماً، رغم الانتصارات الرومانية(٢).

والحرب التي نعرفها أكثر من غيرها هي تلك الحرب التي خاضها الزعيم النوميدي تكفاريناس (Tacfarinas) ضد الرومان، والتي استمرت ثمانية أعوام في عهد تيبريوس (Tiberius)، وامتدت الى كل المناطق الجنوبية لشمال إفريقيا، من طرابلس حتى موريتانيا. وتعتبر هذه الحرب باختصار لدى أغلب المؤرخين المحدثين صراعاً بين الحضارة والعالم البربري (غير المتحضر)، ومحاولة من البدو وأشباه البدو من السكان المحليين لوقف التقدم الروماني وعملية الاستيطان، رافضين بذلك نمطاً حضارياً أرقى، ونظاماً اجتماعياً أفضل(٣). ومع هذا فإن المطالب التي نسبها تاكيتوس الى تكفاريناس تعطي فكرة واضحة عن الأسباب الأساسية لمقاومة السكان المحليين: فقد حمل القائد النوميدي السلاح لارغام أقوى امبراطور على الاعتراف بحق شعبه في الأرض؛ إذ تبع الغزو الروماني مصادرة كل الأرض الخصبة في الحال، وخربت حقول النوميديين المستقرين. وبطبيعة الحال فإن المناطق التي تعارف النوميديون على التجول فيها قد تقلصت وحددت، ووطد المحاربون القدماء وغيرهم من المستعمرين الايطاليين والرومان أقدامهم في كل مكان، بادئين بأغنى أجزاء البلاد، واقتطعت شركات التزام جباية الضرائب، وأعضاء الارستقراطية الرومانية، وأعضاء مجلس الشيوخ، والفرسان، ممتلكات ضخمة لأنفسهم. وبينما كانت بلادهم تستغل بهذه الطريقة، فإن الرعاة الأصليين، وكل السكان المقيمين الذين لم يسكنوا المدن القليلة الباقية بعد الحروب المتتابعة أو اجراءات مصادرة الملكية، فهم اما تحولوا الى فقر مدقع أو طردوا الى السهوب غير المشجرة والصحراء. وصار أملهم الوحيد في المقاومة المسلحة، وكان هدفهم الرئيسي من الحرب هو استعادة أرضهم.

استمرت العمليات الحربية خلال القرنين الأولين بعد الميلاد، واندفع الرومان الى الجنوب الغربي مثيرين القبائل التي تجمعت وانتشرت في المنطقة الممتدة من وادي ملوية الى جبال آمور والأوراس. واستقر الرومان بسهولة في الشريط الساحلي وفي الشمال الشرقي، ثم توغلوا بالتدريج في الجزء الجنوبي من تونس المعاصرة، وكذا في الهضبة العليا وأطلس الصحراء. وفي عهد أباطرة أسرة يوليوس – كلوديوس امتدت حدود المناطق المفتوحة من قرطة (Cirta) (قسنطينة) في الغرب الى تكابي (Tacape) (قابس) في الجنوب، وضمت أمايدارا (Ammaedara) (حيدرة) التي كانت مركز القيادة الرئيسي للفرقة الثالثة الأغسطية، وثيليبته (Thelepte) (فريانة) وقفصة (Capsa). وفي عهد الأباطرة الفلافيين استقرت الفرقة في تيفستة (Theveste) (تبسة)، ودفعت الحدود الى الأمام حتى سطيف (Sitifis)، وقد ضمت منطقة نيمنتشا (Nementcha) في عهد تراجان، وأسست مستعمرة تاموجادي (Thamugadi) (تمجاد) في عام ١٠٠م، وأخيراً في سنة ١٢٨م ترك الجيش حامية قوية في لمبايزيس (Lambaesis) (لامبيز)، وشقت الطرق خلال جبال أوراس التي كان يحميها من القبائل معسكر جيمللاي (Gemellae) (عين مليلة). وبين الولايات الرومانية والمناطق الصحراوية الواقعة الى الجنوب، والتي دفعت اليها القبائل، انشئت منطقة حدود دفاعية حصينة أي ثغور (Limes) تقدمت تدريجياً في اتجاه الجنوب الغربي، واعتبرت جزءاً من شبكة بعمق يتراوح بين ٥٠ و١٠٠كم من الخنادق والطرق التي

(٢) P. Romanelli, Roma, 1959, p. 175 et seq.
(٣) P. Romanelli, p. 227 and seq.



الولايات الرومانية في شمال إفريقيا في نهاية القرن الثاني الميلادي (عن ع. محجوبي ١٩٧٧)

يدافع عنها مجموعة من المراكز العسكرية والقلاع الصغيرة. وقد كشف البحث الأثري الذي أجراه براديه (J. Baradez) - بين ما كشف - عن أجزاء من خندق (Fossatum) يحفه جسر من الطين أو سور يقوم على حراسته أبراج مستطيلة أو مستديرة بينها مسافات غير منتظمة، ولكي تتم مراقبة تحركات القبائل البدوية، ولمنعها من نهب المناطق الزراعية والقوافل المتقدمة شمالاً الى المدن التجارية على خليجي قابس وسرت (سدرة) فقد أنشأ شعب السيرر (Serer) سلسلة من القلاع الصغيرة في مواجهة (الثغور)، وبالتحديد مثل ديميدي (Dimmidi) (مسعد)، وكيداموس (Cidamus)(غدامس) وجولاس (Golas) (بونجيم). وهكذا زودت الحدود الجنوبية للولايات الافريقية أخيراً، وبهذه الطريقة، بنظام دفاعي فعال خلال القرنين الأولين للميلاد.

ومع هذا فلم تكن روما بقادرة على اقتلاع جذور مقاومة البربر، ولم تنجح قط في كبح جماح البدو المستمر في الجنوب والغرب، فرغم جهود تراجان وهادريان، ورغم السياسة الحازمة التي انتهجها سبتميوس سفيروس على حدود طرابلس، فإن أزمة القرن الثالث وضعت نهاية مبكرة لهذا المشروع. لقد وفرت الصحراء، وقدرة البدو راكبي الجمال على التنقل بسرعة، والمواصلات التي كان يمكن فتحها بسهولة من الغرب الى الشرق - على امتداد سلسلة أطلس الصحراء، وفرت للبربر الذين لا يقهرون قدراً كبيراً من حرية الحركة والمناورة. وفي هذا الصدد فإن القبائل التي نجحت أخيراً في التخلص من سيادة روما وجدت ذخيرة من القوى البشرية في موريتانيا الطنجية (الغربية)، وأخيراً في الامتداد الواسع للصحراء في المناطق الداخلية لطرابلس. وحتى الربع الأول من القرن الثالث كانت الفرقة الثالثة الأغسطية، والتي كانت قوتها تتراوح - من الناحية النظرية - بين خمسة وستة آلاف جندي، والتي عززت بالضرورة بعدد كبير من القوات المساعدة (Auxilia)، كانت تدافع عن وسط وجنوب البلاد ضد الغزاة المحليين. ويمكن أن نقدر الحد الأقصى لعدد الجنود خلال القرن الثاني بأنه يتراوح بين ٢٥ و٣٠ ألف جندي، وليس هذا الرقم كبيراً بأي مقياس، رغم أنه من الضروري أن ندخل في اعتبارنا أن المحاربين القدامى الذين استوطنوا في الأرض التي مهدت للزراعة على طول «الثغور»، كانوا ما يزالون مستعدين للخدمة، وفي وقت الحاجة كانت القوات ايضاً تنقل من الفرق المرابطة في ولايات الامبراطورية الأخرى، وبخاصة تلك المتمركزة في أسبانيا، بغرض الدفاع عن موريتانيا الطنجية، وللمحافظة على القانون والنظام كما كان «بروقنصل» افريقيا يمكنه أن يستدعي أيضاً الكتيبة الثالثة عشرة المعسكرة في مدينة قرطاجة، وكذا فصائل صغيرة من الفرسان، بينما كانت مكافحة القرصنة وحراسة السواحل من واجبات «الأسطول الاسكندري». لقد كانت الفرقة الافريقية - تتكون في البداية - من عناصر مختلفة جداً، ولكن تدريجياً أصبحت تتألف من جنود كلهم تقريباً من السكان المحليين. ومع هذا فقد كانت هناك بعض الوحدات الشرقية - التي تكونت من السوريين الذين اعتادوا حرب الصحراء - مثل كتيبة الخالكيين (Cohors Chalcidenorum)، ورماة السهام البالميريين (التدمريين).

التنظيم الاداري والمشاكل العسكرية

في ١٣ يناير سنة ٢٧ق.م. قسم أكتافيانوس الذي منح لقب «أغسطس» بعد ذلك بثلاثة أيام ولايات الامبراطورية - طبقاً للتسوية التي تمت بينه وبين السناتو: (مجلس الشيوخ الروماني). وكانت إفريقيا -

التي فتحت واستقرت منذ زمن طويل، وارتبطت بطبقة اعضاء مجلس الشيوخ بالعديد من المظاهر ذات الطبيعة الاقتصادية والسياسية - كانت من بين الولايات التي يديرها مجلس الشيوخ، وقد امتدت حدودها الغربية عبر وادي امبساجا (Ampsaga) (الوادي الكبير) - كويكول (Culcul)(جميلة) - زاراي (Zaral) (زراية) - حضنة (Hodna)، وفي الجنوب الشرقي ضمت أرضها السهل الساحلي في طرابلس، الممتد حتى هياكل الفيلاينيين التي تميز الحدود مع قوريناثية (Cyrenaica) (إقليم برقة). هذه هي «ولاية إفريقيا»، التي أطلق عليها أيضاً لقب «البروقنصلية»، وضمت الولايتين اللتين كانت روما قد انشأتهما على التوالي في شمال إفريقيا: الأولى التي تكونت من الأراضي البونية التي فتحتها روما في سنة ١٤٦ق.م. وتعرف باسم «إفريقيا القديمة»، والثانية التي كونها قيصر بعد حملته الافريقية ضد أنصار بومبي وحليفهم الملك يوبا الأول ملك نوميديا، وعرفت باسم «إفريقيا الجديدة». وبالاضافة الى هاتين الولايتين كانت هناك مستعمرات قرطة الأربع (حول قسنطينة) التي تنازل عنها قيصر للمغامر الايطالي بوبليوس سيتيوس (P. Sittius) .

وكما كان الحال في العصر الجمهوري، استمر مجلس الشيوخ الروماني في العصر الامبراطوري يختار حاكم إفريقيا، وكان موظفاً من أصحاب الرتب العالية، لأنه كان واحداً من القنصلين السابقين القدامى في روما، في وقت سحب القرعة لاختيار حكام الولايات، وعلى هذا كان يحمل لقب «بروقنصل Proconsul» ، وكان يتولى منصبه في قرطاجة لمدة عام واحد، اذا لم تتم إطالة مدة منصبه كإجراء استثنائي. وبالاضافة الى سلطاته القضائية العليا، والتي كان بمقتضاها القاضي الأعلى للولاية في كل من القضايا المدنية والجنائية، كان يتولى السلطات الادارية والمالية، وكان يراقب السلطات الادارية والمحلية، رغم مبدأ الحكم الذاتي، ويبلغها بالقوانين والتنظيمات الامبراطورية وكان يشرف على تنفيذ المشروعات العامة الكبرى، ويعتمد الانفاق، وقد مارس السيطرة العليا على الادارة المسؤولة عن امداد روما بالقمح الافريقي، وعلى فاعلية النظام الضريبي الذي كانت حصيلته مخصصة لخزانة مجلس الشيوخ (Aerarium Saturni). وكان يساعده مندوبان من مرتبة البروبريتور (Propraetor) ، أحدهما يقيم في قرطاجة نفسها، والثاني في هيبو ريجيوس (بونة - عنابة)، وكذلك يعاونه كوايستور (Quaestor) أي مراقب للخزانة، الذي اختص بالادارة المالية. وزيادة على ذلك - كما ذكرنا - فانه كان مزوداً بقوة صغيرة من الجنود، حوالى ١٦٠٠ رجل، للمحافظة على القانون والنظام.

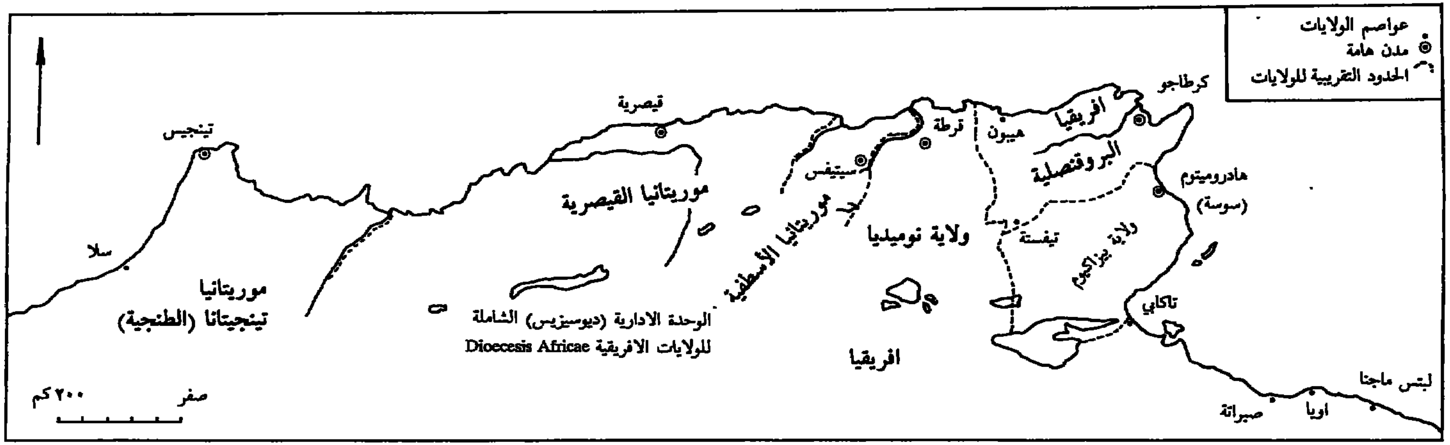
وكان يمكن للامبراطور أن يتدخل في شؤون الولايات السناتورية (التابعة لمجلس الشيوخ) سواء مباشرة، أو - كما كان الغالب في معظم الأحوال - عن طريق وكيل للامبراطور (Procurator) من طبقة «الفرسان» (رجال الأعمال)، وهو الموظف الامبراطوري المسؤول عن ادارة ضياع الامبراطور الواسعة (داخل الولايات السناتورية)، وعن بعض الضرائب غير المباشرة مثل ضريبة الخمسة بالمائة على التركات (Vicesima Rereditatium) والتي كانت تخصص للخزانة العسكرية (Aerarium Militare) التي يشرف عليها الامبراطور. وكان لوكيل الامبراطور كذلك قدر من السلطة القضائية محددة بصفة أساسية في تسوية المنازعات الضريبية. ومنذ عام ١٣٥ أصبح يساعده موظف أطلق عليه (Procurator Patrimonii) لادارة أملاك الامبراطور الشخصية (الموروثة)، وموظف آخر أطلق عليه (Procurator IIII Publicorum Africae) لادارة الايرادات العامة من الضرائب، وقد دخل هؤلاء الموظفون من رجال الادارة الامبراطورية غالباً في صراع مع البروقنصل، رغم أنه لا يوجد دليل على أنه كانت لديهم تعليمات بوضعه تحت المراقبة.

وفي نفس الوقت فإن ولاية إفريقيا البروقنصلية على عكس غالبية الولايات التابعة لمجلس الشيوخ، لم تكن تخلو من القوات، وبينما كان الجزء الشمالي الشرقي الذي يطابق الولاية القديمة «إفريقيا القديمة» هادئاً جداً، لم تكن هذه حالة الأقاليم الجنوبية، حيث احتاجت السلطات الرومانية الى حامية عسكرية لحراسة وتوسيع المنطقة - التي كان من المفترض أنها هادئة - تدريجياً، وكانت هذه القوات تتكون أساساً من الفرقة الثالثة الأغسطية، والتي كان يتولى قيادتها، في أول الأمر البروقنصل أي حاكم الولاية نفسه، الذي كان - على ذلك - في مركز يجعله قادراً على تأكيد سلطته العسكرية بوصفه حاكماً معيناً من قبَل مجلس الشيوخ ومسؤولاً أمامه. ومع هذا، فإن هذا الوضع لم يكن في الامكان ان يستمر دون اثارة ريبة الامبراطور. ولم يمض وقت طويل، قبل أن يقرر كاليجولا - استمراراً للسياسة العامة في تقييد سلطات الحكام المدنيين وتقليل سلطة واستقلال مجلس الشيوخ - إجراء تغيير سياسي - عسكري هام في تنظيم ولاية افريقيا البروقنصلية: فسحبت القيادة العسكرية من يد البروقنصل، الحاكم المدني للولاية، وقد أدى هذا - في واقع الأمر لا من الوجهة القانونية - الى جعل منطقة نوميديا العسكرية تحت سلطة قائد الفرقة الثالثة الأغسطية (Legatus Leg. III Aug.). ومنذ سنة ٣٩م. كان وضع الموظف الذي عهد اليه بهذه القيادة الخاصة يقع وسطاً بين وضع القادة الذين كانوا حكاماً لولايات إمبراطورية (Legati Augusti Propraetore) ووضع قواد الفرق (Legati Legionis) الذين كانوا خاضعين لقيادة عليا في يد حاكم ولاية ترابط فيها أكثر من فرقة واحدة[٤].

ومع هذا لم يكن الموقف واضحاً جداً، وأدى بالضرورة الى نشوب المنازعات بين «البروقنصل» وقائد الفرقة حول مجالات اختصاصهم في الموارد المالية والسلطة. وقد نظم سبتميوس سفيروس الموقف باقامة منطقة عسكرية في نفس مستوى الولاية، وكانت هذه هي ولاية نوميديا، التي يحتمل أنها أنشئت في سنة ١٩٨ - ١٩٩م[٥]، وكان يديرها قائد الفرقة، الذي يلقب أحياناً بالحاكم (Praeses)، ويعينه وينقله الامبراطور مباشرة، وكانت حدودها الغربية لا تزال تتبع الضفة اليسرى لوادي إمبساجا (الوادي الكبير) مارة بغرب كويكول (Cuicul) (جميلة)، وزاراي (Zarai) (زراية) قاطعة سهل الحضنة، وتنحدر جنوباً في اتجاه الأغواط (Laghouat). وأما الحدود الشرقية فكانت تجري من نقطة شمال غرب هيبو ريجيوس (Hippo Regius) (عنّابة) الى الغرب من كالاما (Calama) (قالمة)، متتبعة الضفة اليمنى لوادي شرف مارة الى غرب ماجيفا (Magifa) ومتقدمة نحو الحافة الشمالية الغربية من شط الجريد.

وبين «الوادي الكبير» والأطلنطي كانت توجد مملكة موريتانيا، التي أوصى الملك بوخوس الأصغر بها من قبل الى الامبراطورية الرومانية في سنة ٣٣ق. م.[٦] وقد قبل أكتافيانوس - أغسطس فيما بعد - الميراث، واستفاد هو نفسه من الفرصة لانشاء إحدى عشرة مستعمرة لقدامى المحاربين في البلاد. ولكن في سنة ٢٥ق. م. سلم أكتافيانوس المملكة الى يوبا الثاني، والذي خلفه ابنه بطلميوس سنة ٢٣م. ومن المحتمل أن اكتافيانوس المعروف بالحذر قد اعتقد أن البلاد لم تكن مستعدة للاحتلال الروماني، وأنه كان من الضروري التمهيد لذلك عن طريق تدخل الزعماء المحليين، وفي سنة ٤٠م رأى كاليجولا ان وقت الادارة المباشرة قد حان، ولهذا اغتيل بطلميوس[٧]. وأخيراً قرر كلوديوس في

(٤) M. Bénabou, 1972, VI, p. 129-136.
(٥) H.G. Pflaum, 1957, p. 61-75.
(٦) P. Romanelli, 1959, p. 156 and s.
(٧) J. Carcopino, Paris, 1958, p. 191 ff.; 1948, pp. 288-301; M.I. Rostovtzev, 1957 pp. 321 ff.; T. Kotula, 1964, pp. 76-92.



الولايات الرومانية في شمال افريقيا في القرن الرابع الميلادي (عن ع. محجوبي ١٩٧٧)

كانت افريقيا البروقنصلية، وولاية بيزاكيوم وولاية نوميديا، وموريتانيا القيصرية وموريتانيا الاسطيفية تتبع الوحدة الادارية المسماة Dioecesis Africae (ادارة ايطاليا)، وكانت ولاية موريتانيا الطنجية تتبع الوحدة الادارية المسماة Dioecesis Hispaniae (ادارة الغال) Gaul

نهاية عام ٤٢م تنظيم ولايتي موريتانيا: القيصرية الى الشرق، والطنجية الى الغرب، ويفصل بينهما نهر مولوكا (Mulucha) (نهر ملوية) ومثل نوميديا، خضعت ولايتا موريتانيا لسلطة الامبراطور المباشرة، وقد حكمهما اثنان من وكلاء الامبراطور العاديين من طبقة الفرسان (Procuratores Equestres) ، أحدهما يقيم في إيول - قيصرية (شرشال)، والثاني - على ما يرجح - في فولوبيليس (Volubilis) (وليلي)، حيث وضعت تحت امرتهما وحدات من «القوات المساعدة» (Auxilia) ، وفي نفس الوقت يتوليان سلطات عسكرية ومدنية محددة.

ولم تحدث تغييرات عامة بعد ذلك في التنظيم الاداري والعسكري في الولايات الافريقية حتى عهد دقلديانوس (Diocletianus). ورغم أن ولايات إفريقيا كانت أقل معاناة من الولايات الأخرى، فإنها لم تستطع تجنب مضاعفات الأزمة العامة التي أثرت في كل العالم الروماني من عدة نواح مختلفة: سياسية واقتصادية ودينية وخلقية. لقد غدت تنذر بالخطر في نهاية عصر أسرة انطونينوس ولم تنقشع الغيوم المتراكمة بالتغييرات التي تمت في عصر أسرة سفيروس. ومنذ سنة ٢٣٨م وما بعدها ساء الموقف حتى انفجرت ثورة مسلحة في نهاية القرن الثالث. وفي شمال إفريقيا كانت غارات القبائل الموريتانية نذيراً بانحسار المد الروماني، وقد استؤنفت بقوة متجددة فيما بين سنة ٢٥٣م وسنة ٢٦٢م، ومرة اخرى في عهد دقلديانوس[٨]. لقد تقوضت السلطة الامبراطورية تدريجياً بسبب الأزمات المالية والاقتصادية الطويلة في ولايات كانت مزدهرة حتى ذلك الحين (وكان لهذه الأزمات آثار عاجلة وآجلة على السواء في ولاية إفريقيا البروقنصلية ونوميديا خلال القرن الثاني والربع الأول من القرن الثالث) مع اتساع الهوة بين الطبقات الاجتماعية، ويضاف الى هذا ظروف اغتصاب السلطة والفوضى العسكرية، ولذا فإن سلطة روما تفتت الى عدة حكومات متعاقبة أو متزامنة.

ومع هذا فقد انتفضت الامبراطورية وقاومت هذه المخاطر التي أحدقت بها وقتئذ لتنقذ نفسها، ففي عهد جالينوس (Gallienus) اتخذت أولى الاجراءات في سلسلة من الاصلاحات التي انجزت خطوة خطوة في ضوء التجربة، والتي أثرت في كل مجالات العمل، وغيرت نظام الجيش والقيادة، واصلحت الحكومة، وادارة الولايات. وامتدت هذه الاصلاحات الى السياسة الاجتماعية والدينية والعبادة الامبراطورية. وكان هذا بداية مشروعات الاحياء واعادة البناء التي استمرت في عهد اوريليانوس (Aurelianus) ، وبروبوس (Probus)، وبلغت ذروتها في النظام الذي دعمته اصلاحات دقلديانوس البعيدة المدى، وأخيراً فإن تجديدات قنسطنطين التي اوجدت عالماً جديداً يمكن أن يقال عنها - في نفس الوقت - انها أدت الى تركيب متلاحم من نجاح وفشل هذه الاصلاحات، بالاضافة الى اتجاهات العصر الدينية.

ان فصل السلطتين المدنية والعسكرية كان أحد الملامح البارزة في ادارة الولايات في العصر الأخير للامبراطورية، لقد تحقق هذا تدريجياً فيما بين عهد جالينوس وعهد قنسطنطين الذي نظمه في شكله النهائي.

أصبح اعادة بناء النظام العسكري في شمال إفريقيا ضرورياً عندما سُرحت الفرقة الأغسطية الثالثة[٩] المرابطة في افريقيا في عهد جورديان الثالث، وعهد بالقيادة أخيراً الى كونت إفريقيا (Comes Africae) الذي اصبحت تحت سيطرته كل قوات الولايات الافريقية. وكان جيش القرن الرابع هذا

---

(٨) انظر: .M. Bénabou, La Résistance Africaine.., 218 and s. and p. 234 and s

(٩) .Id, p. 207 and s. وبالنسبة لاعادة تنظيم الفرقة العسكرية الرومانية (Legio) في عهد فاليريان .p. 214, and s

مختلفاً جداً عن جيش العصر المبكر للامبراطورية لقد جعلت هجمات القبائل الموريتانية من الضروري بناء جيش خفيف الحركة، ووجود قوة ضاربة مستعدة دائماً للقيام بعمل سريع في المناطق غير الآمنة. وكان هذا الجيش يتكون من وحدات مشاة الفرق الرومانية وفصائل فرسان جنودها أساساً من الفلاحين الذين اصطبغوا بالصبغة الرومانية ويعيشون بالقرب من المعسكرات. ومع هذا أصبحت الخدمة العسكرية تدريجياً وراثية واجبارية، وقد اضعف هذا من قدرة الوحدات العسكرية، وبالاضافة الى هذا الجيش الخفيف الحركة، والذي يعتبر جيشاً نظامياً، كان هناك «حرس الحدود Limitanei» ، وهم الجنود الفلاحون الذين خصصت لهم قطع من الأرض تقع على طول الحدود، وقد أعفوا من دفع الضرائب، ومقابل ذلك فرض عليهم حراسة الحدود وصد أي قبائل مغيرة. وعلى غرار حرس الحدود في الشرق كان حرس الحدود في موريتانيا الطنجية، منظماً في وحدات تقليدية – فصائل فرسان وكتائب مشاة – ، ولكن كل قوات حرس الحدود في الولايات الافريقية الأخرى، وزعت – بدلاً من ذلك – على قطاعات جغرافية، وتتلقى كل منها أوامرها من قائد حرس الحدود (Praepositus Limitis) . وتبين الأدلة الأثرية من مختلف الأنواع والتي عثر عليها بصفة خاصة في القطاع الشرقي من «الثغور» أن قوات حرس الحدود كانت تتجمع حول المزارع الخصبة، وتعيش على الأرض التي تستخدم غالباً الري بالقنوات، وهكذا دفعوا بعجلة التقدم الزراعي والاستيطان البشري الى تخوم الصحراء، وأصبحت «الثغور» داخلة في نطاق الاتصالات التجارية والثقافية أكثر من كونها خطاً فاصلاً بين الولايات الرومانية والجزء المستقل من البلاد والذي ظل بربرياً (غير متحضر). وهذا يوضح كيف أن الحضارة الرومانية الافريقية والمسيحية استطاعت الوصول الى المناطق الواقعة خارج نطاق الادارة الرومانية المباشرة. ويجب أن نضيف أن الحكومة الرومانية قد أبقت دائماً على العلاقات مع الزعماء القبليين الذين غالباً ما كانوا يوافقون – مقابل الاعانات المالية والانعام عليهم بالرتب الامبراطورية، والاعتراف بسلطاتهم المحلية – يوافقون على تجهيز وحدات من الرجال الذين كان يناط بهم واجبات الحراسة على طول «الثغور».

وقد واكبت الاصلاحات العسكرية تغييرات جوهرية في الادارة المحلية للولايات، فمن الثابت الآن أن اعادة التنظيم قد نفذت تدريجياً، وراعت الاحتياجات والأوضاع السائدة في كل ولاية. ولتدعيم السلطة الامبراطورية، وفي نفس الوقت تقليص سلطة «البروقنصل» الذي كانت سلطته غالباً العوبة في أيدي مغتصبي السلطة، ولزيادة الدخل من الضرائب للانفاق على الاجراءات الدفاعية ضد الغارات التي تهدد الحدود، فقد قسمت إفريقيا البروقنصلية الى ثلاث ولايات مستقلة: في الشمال ولاية زغوان (Zeugitana) ، أو الولاية «البروقنصلية» بأتم معنى للكلمة، وتمتد جنوباً عند خط يجري بين حيدرة (Ammaudera) وبوبوت (Pupput)قرب حمامات (Hammamat)، وغرباً تضم قالمة (Calama) وخميسة (Thubursicum Numidarum)وتبشة (Theveste)ومع هذا ظل «البروقنصل» في قرطاجة موظفاً مهماً، لقد كانت رتبته تخوله لقب (Clarissimus) وهو غالباً ما كان يصل – بعد انتهاء مدة منصبه – الى قمة الهيئة القنصلية ويندرج بين صفوف حملة لقب (Illustres) . كان هؤلاء الحكام من القناصل البدلاء في أحيان غير قليلة أثناء القرن الرابع من أصل افريقي. وكان يساعدهم دائماً نائبان (Legati) ، كانا – بصفة عامة – على ارتباط عائلي بهم. ويقيم أحدهما في قرطاجة، والآخر في هيبو (عنابة)، وقد احتفظ (البروقنصل) بامتيازاته القضائية والادارية، ولكن الاشراف على الشؤون المحلية كان يتم بطريقة استبدادية متزايدة، وصار العمل الاداري أكثر تعقيداً بسبب زيادة الادارات، ومسؤولية الموظفين أمام البروقنصل ونائبه.

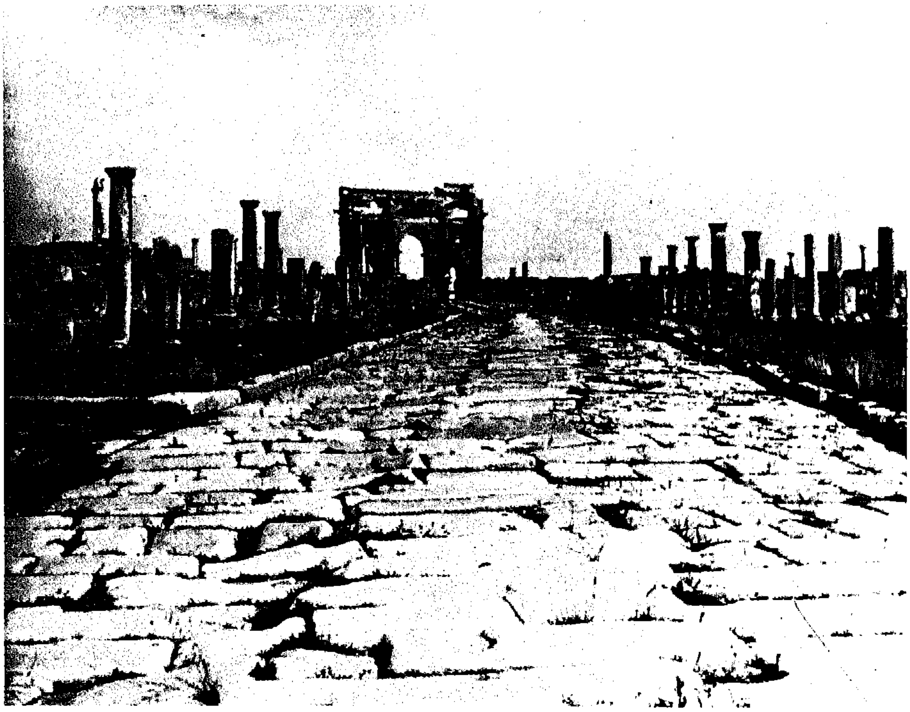
وكانت ولاية بيزاكيوم (Byzacium) (مزاق) جزءاً من ولاية «البروقنصلية»، وقد امتدت من خط أمايدارا - بوبوت الى أبواب تاكابي (قابس)، وفي اتجاه الغرب ضمت اقليم مكتار (Mactar) (مكثر)، وسوفيتولا (Sufetula) (سبيطلة)، ثليبتة (Thelepte - فريانة) وقفصة (Capsa)، ومع هذا ففي الجنوب لم تكن مراكز حراسة «الثغور» تحت سلطة حاكم ولاية بيزاكيوم، التي كانت - مثل ولاية البروقنصلية - بلا قوات. وكانت المراكز الواقعة قرب شط الجريد - على هذا - من مسؤ ولية ولاية نوميديا، بينما كانت تلك الواقعة في الجنوب الغربي تحت سلطة ولاية طرابلس. وكان حاكم بيزاكيوم - الذي يقيم في هادروميتوم (سوسة) - في البداية من سلك الفرسان، ويحمل لقب «رئيس Praeses»، ولكن يحتمل أنه في عهد قسطنطين - وعلى أي حال بعد سنة ٣٤٠م - ضُمَّ إلى الهيئة القنصلية.

وفي الجنوب الشرقي ضمت ولاية طرابلس الجديدة منطقتين مختلفتين: شريط ساحلي يمتد من تاكابي (قابس) الى هياكل الفيلاينيين، التي صارت خاضعة للبروقنصل - ومحتمل جداً لنائبه المقيم في قرطاجة -، وفي الداخل تم وضع منطقة «ثغور» ولاية طرابلس - وحتى القرن الثالث - تحت سلطة قائد الفرقة الأغسطية الثالثة، حاكم ولاية نوميديا. وقد ضم هذا الاقليم الجفرة، ومطمطة، وامتد حتى الحافة الشمالية لشط الجريد. وتبين البحوث الحديثة أنه - خلافاً للظنون السابقة - في حين أخلى الرومان عدة مواقع معينة متقدمة مثل جولاس (Golas) (بونجم)، فانهم حافظوا على مواقعهم جنوب الساحل خلال القرن الرابع وحتى بداية القرن الخامس(١٠)، وهذا يوضح سبب تمكن حكام طرابلس من القيام بدور عسكري هام في مناسبات مختلفة، وحتى سنة ٣٢٤ - ٣٢٦م حملوا لقب «الرؤ ساء Praeses» وتمتعوا بالسلطة العسكرية، وأقاموا في لبدة (Leptis Magna).وفيما بعد أسندت قيادة القوات المعسكرة في «الثغور» الى كونت إفريقيا الذي لم يحتفظ بها - مع هذا - دون انقطاع: وقبل سنة ٣٦٠م بقليل، وفي سنة ٣٦٥م سحبت قيادة «الثغور» في طرابلس - مؤقتاً - من كونت إفريقيا، وعهد بها الى رئيس (Praeses) ولاية طرابلس، ومن المحتمل أن ذلك كان بسبب عدم استقرار قبيلة الأوستوريين (Austuriani)، وإثارتها للشغب والقلاقل.

كان لولاية نوميديا منفذ ضيق على البحر بين جبال ايدوغ (Edough) في الشرق ومصب نهر «الوادي الكبير» في الغرب، ولكن أراضيها كانت متسعة في اتجاه الجنوب وتمتد من الطرف الشرقي من شط الحضنة الى أبواب تفيستة (تبسة). وكانت في بادىء الأمر مقسمة الى منطقتين اولاهما تشمل المنطقة الهادئة لمدن الاتحاد القديم حول العاصمة قرطة (Cirta) (قسنطينة)، والأخرى تتكون من إقليم جبلي مشاغب في الجنوب، وأهم مستوطناتها لامبيّس (Lambaesis) (لامبيز)، ولكن أعيد توحيدهما منذ وقت مبكر في سنة ٣١٤م. ومهما يكن من أمر فقد استمرت نوميديا تحكم عن طريق حاكم من طبقة «الفرسان»، يمارس السلطتين المدنية والعسكرية، ويحمل لقب «رئيس Praeses»، وذلك حتى سنة ٣١٦م. وفي هذه السنة عهد بالحكومة المدنية الى عضو من طبقة السناتو (مجلس الشيوخ) يحمل لقباً جديداً هو «الحاكم القنصلي للولاية» (Consularis Provinciae)، وعندئذ منح لقب (Clarissimus)، وكانت الغالبية العظمى تنتمي الى الارستقراطية الرومانية بسبب المصالح المتعلقة بالأرض التي تربط هذه الأخيرة بهذه الولاية الغنية. وصارت قرطة (Cirta) العاصمة الوحيدة، وسميت قسنطينة (قسنطينة الآن) تيمناً باسم الامبراطور قسنطين وتخليداً لذكراه.

---

(١٠) أكد الانسحاب من طرابلس الداخلية؛ C. Courtois, Paris, 1955, pp. 70-79. ولم يشارك في ذلك علم الآثار انظر: A. di Vita, 1964, pp. 65-98, and G. Clemente, 1968, pp. 318, 342.



١

٢



١ : تمجاد
(قديماً مدينة تاموجادي)،
الجزائر: طريق وقوس تراجان
٢ : مكثر
(قديماً مدينة مكتاريس)،
تونس: قوس
تراجان، مدخل الساحة العامة

إن مشكلة إعادة التنظيم الاداري في ولاية موريتانيا في القرن الرابع مرهونة بسؤال له أهمية قصوى، وهو: هل أُخْلِي الجزء الداخلي من موريتانيا الطنجية وكل الجزء الغربي من القيصرية على يد دقلديانوس قبيل توليه العرش؟. وفي ضوء البحوث الحديثة يبدو مشكوكاً فيه - الى درجة كبيرة - أن المنطقة الواقعة الى الغرب من موريتانيا القيصرية قد هجرت(١١). ومن ناحية أخرى فمن المتفق عليه أن دقلديانوس جلا عن كل المناطق جنوب وادي لوكوس في موريتانيا الطنجية في سنة ٢٨٥م، ومع هذا فيبدو أن روما أبقت على الاتصالات البحرية البحتة مع المدن الساحلية، وهذا يفسر كيف بقيت أماكن معينة مثل سلا (Sala) (قرب الرباط) في عهد قنسطنطين - داخل دائرة النفوذ الروماني(١٢). وزيادة على ذلك فإن دقلديانوس فصل الجزء الشرقي من موريتانيا القيصرية لينشيء ولاية جديدة وكانت هذه هي موريتانيا الاسطيفية (Mauretania Sitifensis) وعاصمتها سيتيفس (Sitifis)، وهي سطيف الحديثة. وأخيراً فصلت موريتانيا الطنجية - لأسباب ادارية - عن باقي إفريقيا، وألحقت بالوحدة الادارية الكبيرة (Diocesis) التي تكونت من الولايات الأسبانية.

ولتأكيد العلاقة بين الحكومة المركزية والولايات التي اصبحت بذلك أصغر وأكثر عدداً زاد دقلديانوس عدد الموظفين الكبار الذين اضطلعوا بمهام كانت من قبل استثنائية، ولكنها صارت وقتئذ دائمة هي وظائف نواب الحرس الامبراطوري. وطبقاً للمبدأ المعمول به كان هؤلاء النواب (Vicarii) من فئة الفرسان الذين يحملون لقب (Equites Perfectissimi)، ولكنهم كانوا يرقون الى رتبة (Clarissimi) عندما يعينون في مراكز أرفع من مناصب الحكام المنتمين إلى الطبقة السناتورية (طبقة مجلس الشيوخ). وكان كل نائب (Vicarius) من هؤلاء النواب مشرفاً على وحدة ادارية كبيرة (Diocesis) تتكون من عدد محدد من الولايات، وكانت «الادارة الافريقية» تشمل ولايات شمال إفريقيا باستثناء موريتانيا الطنجية، ووضع حكام هذه الولايات تحت سلطة نائب الحرس الامبراطوري (Vicarius) الذي يقيم في قرطاجة؛ وكان مسؤولاً أمام قائد الحرس البريتوري (أي الامبراطوري) (Praefectus Proetorio) المشرف على «ادارات» ايطاليا - إفريقيا - الليريا، ما عدا بروقنصل إفريقيا الذي كان مسؤولاً أمام الامبراطور مباشرة.

الاستعمار ونظام الحكم الذاتي (المحلي)

كانت الحضارة الرومانية - مثل الحضارة الاغريقية - مدنية الطابع بالضرورة، وكان مدى تحضر الولاية وصبغها بالطبع الروماني يحدّده درجة تقارب المدن(١٣). وقد تقدمت الحياة المدنية كثيراً في الولايات الافريقية، وبخاصة ولاية إفريقيا البروقنصلية. ويمكن احصاء خمسمائة مدينة على الأقل في شمال إفريقيا كافة، ووجد منها مائتان في ولاية البروقنصلية وحدها(١٤)، ولكن ليس واضحاً بدرجة

---

(١١) انظر: P. Salama, 1954, p. 224-229 Id. pp. 1292 - 1311.

(١٢) J. Boubbe, 1959 - 1960, pp. 141 - 145 and A. Jodin, Rabat, 1966.

(١٣) عن دور المدن وتطورها، انظر: M. Clavel and P. Levêque, Paris, 1971, pp. 7-94. وكما يقول كورتوا (Courtois) فإن كل شيء حدث «كما لو كان المعيار الوحيد للمشاركة الحقيقية في الحضارة هو مدى ما كانت تعكسه الحياة اليومية - قليلاً أو كثيراً - من مظاهر الحياة اليومية في روما». انظر: Les Vandales... p. 111.

(١٤) G.C. Picard, Paris, 1959, p. 45 et s.

كافية ما اذا كانت هذه الحضارة العمرانية موروثة أساساً من العصر البوني - النوميدي(١٥).

وفي العصر الجمهوري، لم يفسح المجال لمشاركة المدن في حقوق المواطنة الرومانية. كان هناك فقط سبع مدن فينيقية الأصل، تتمتع بقدر من الحكم الذاتي الذي لم يكن يصمد أمام التقلبات السياسية: وكانت هذه المدن هي التي وقفت بجانب روما خلال الحرب البونية الأخيرة. وقد اعترف رسمياً بدساتيرها المعتادة، كما أعفيت أيضاً من ضريبة الأرض (Stipendium). وفي نفس الوقت أجاز الحكم الروماني - وإن لم يتعهد قانونياً بأن يحمي - أنظمة المدن الافريقية الأخرى التي استمرت في تطبيق النظام الاداري الفينيقي، ويرأسها «الشفطان Suffetes» ومجالس الأعيان، وكانت تدفع ضريبة الأرض (Stipendium) (١٦). وقام جايوس جراكسو (G. gracchus)بأول محاولة رسمية للاستعمار طبقاً لمواد قانون روبريوس (Lex Rubria) في سنة ١٢٣ق.م، فخصص لستة آلاف مستوطن من الرومان واللاتين مساحة كبيرة من الأرض على أساس «٢٠٠ فدان روماني للفرد Ingera Per Capita» أي خمسين هكتاراً. ويستدل من جملة مساحة الحصص، التي يجب أن يضاف إليها الأراضي العامة (Ager Publicus) على توافر مساحات شاسعة صالحة للاستيطان. وهكذا فمن المعتقد أن الحصص الموزعة امتدت جنوباً من وادي بجراداس (مجردة) وحتى الخندق الملكي (Fossa Regia) عند حدود أول ولاية رومانية في إفريقيا، ذلك أن المستعمرين كانوا لا يستطيعون الحياة فقط في قرطاجة، ولا بد - على أي حال - أنهم انتشروا فيما بعد في عدد من المدن الصغيرة، ولا شك أنه كان من الضروري أيضاً مصادرة أراضي الملاك السابقين الذين طردوا الى أماكن أخرى. ومصير أول محاولة رومانية للاستعمار في إفريقيا معروف جيداً، فبسبب الدوافع السياسية الكامنة في الكراهية التي كان يكنها الارستقراطيون الرومان لجايوس جراكوس - المصلح وزعيم الحزب الشعبي -، وكذلك بسبب العوامل الاقتصادية الناشئة من أن المستوطنين كانوا يختارون من طبقة العامة البسيطة المعدمة ونادراً ما كانوا فلاحين من أصل ريفي، فقد فشلت المغامرة، وهكذا فإن مشروعه الاستعماري - في التحليل النهائي - قد اتخذه خصومه ذريعة للاطاحة بالحزب الديموقراطي وإتاحة الفرصة للاثرياء، وأعضاء مجلس الشيوخ، والفرسان لاقتطاع وتملك ضياع واسعة من الأراضي الافريقية التي فتحتها روما.

وبعد حرب يوغرطة في سنة ١٠٣ق.م. منح ماريوس (Marius) لجنوده المسرحين وأفراد قبيلة الجيتوليين (Gaetuli) (الجدالة) قطعاً من الأرض تمتد بطول الخندق الملكي (Fossa Regia)بين أكولا (Acholla) وثيناي (Thaenae) - وعلى أي حال - وبالتأكيد في الغرب، في وادي بجراداس (مجردة) الأوسط. ومن الأدلة المستمدة من النقوش يبدو أن هذه الحصص من الأرض قد سجلت في نقوش ثوبورنيكا (Thuburnica) التي تشير الى ماريوس باعتباره مؤسس (Conditor)هذه المستعمرة، وظهرت في اللقبين «ماريانا Mariana وماريانوم Marianum»اللذين اطلقا فيما بعد على مستعمرة أوكي مايوس (Uchi Maius)، وبلدة تيبار (Thibar)المتمتعة بالحكم الذاتي (Municipius).وكذلك في سنة ١٠٣ق.م.، يبدو أن المستوطنين استقروا في جزر قرقنة بزعامة والد يوليوس قيصر، ولكن حركة الاستعمار لم تأخذ مجراها الحقيقي الا باعادة بناء قرطاجة كمستعمرة باسم يوليوس (Colonia Julia Carthago) سواء على يد اكتافيانوس وحده، أو على يد الحكومة الثلاثية، في سنة ٤٢ق.م.، أو ربما أكثر احتمالاً في سنة ٤٤ق.م.، طبقاً للرأي السائد المقبول. وعلى هذا كان القرن الأول للاحتلال

(١٥) انظر، على سبيل المثال، مقالة: G. Camps, 1960, p. 52-54. حيث يورد قائمة المدن السابقة على الحرب البونية الثانية، وقائمة مدن المملكة النوميدية بين «الخندق الملكي» ووادي «ملوية» (ص ٢٧٥ - ٢٧٧).

(١٦) G.C. Picard, la Civilisation, p. 22 and s.

الروماني فترة تدهور لافريقيا، تتميز بصفة خاصة بالاستغلال البشع للأرض الخصبة، وكان التقدم البطيء للاستعمار يرجع اذاً الى جشع رجال الأعمال، وبخاصة الفرسان، وأعضاء مجلس الشيوخ، الذين أداروا شؤونهم عن طريق وسطاء عندما لم يكن في استطاعتهم الحصول على مهمات سياسية يذهبون من خلالها الى إفريقيا(١٧).

بدأ أكتافيانوس - أغسطس احياء لخطط أبيه بالتبني يوليوس قيصر - عهداً جديداً في تاريخ إفريقيا، وهو نظام سياسي جديد، وبرنامج اداري وعسكري وديني بعيد المدى. وطبقاً للقائمة التي أمدنا بها بلينيوس - الذي ما تزال مصادره تثير كثيراً من الجدل(١٨) - فقد كان هناك ست مستعمرات رومانية، وخمس عشرة مدينة رومانية «Oppida Civium Romanorum» ، ومدينةً واحدة لاتينية «Oppidum Latinum» ، ومدينة واحدة معفاة من الضرائب «Oppidum Immune»، وثلاثون مدينة حرة «Oppida Libera» ، وهناك نص منقوش في دُقة (Dougga)(١٩) يؤيد - على الأقل نظرية الباحث الألماني كورنيمان (Kornemann) حول بدايات الاستعمار ونظام الحكم المحلي الذاتي(٢٠). وفي سنة ٢٩ق.م. عندما استكملت مستعمرة يوليوس القرطاجية (Colonia Julia Carthago) شكلها النهائي بتدفق نشط للمستوطنين الى قرطاجة - وربما قبل ذلك - فإن المواطنين الرومان الذين وصلوا في جماعات - كبيرة أو صغيرة - من المهاجرين للاستقرار قرب المدن غير الرومانية، وتجمعوا في كُوَر (وحدات سكانية) تسمى (Pagi) ، وحصلوا على مزارع ريفية، وجدوا ممتلكاتهم مجاورة لحصص الأراضي (Pertica) المخصصة لمستعمرة قرطاجة. وقد أسس أغسطس أيضاً ما لا يقل عن ١٣ مستعمرة بين عامي ٣٣ق.م. و٢٥ق.م. في موريتانيا.

واستمر الأباطرة الذين خلفوا أغسطس في اتباع سياسته، ففي عهد ماركوس اوريليوس كان هناك أكثر من ٣٥ مستعمرة موزعة في الولايات الافريقية، وكقاعدة عامة فإن المهاجرين كانوا من المحاربين القدماء الذين خدموا في الفرق الرومانية التي سرحت نتيجة لاعادة تنظيم الجيش، وكان هناك أيضاً ايطاليون نزعت ملكياتهم أو حل بهم الخراب بسبب الأزمات الزراعية في شبه الجزيرة الايطالية، وعلى أي حال فإن عدد هؤلاء الأخيرين لم يكن كبيراً بحيث يؤدي الى تحويل الولايات الافريقية الى مناطق استيطان جديد، ولكن سياسة بناء هذه المستعمرات على أسس رشيدة كانت تأخذ في الاعتبار العوامل العسكرية والاقتصادية.

وقد اعطى الرومان للسكان المحليّين قدراً كبيراً من الحكم الذاتي الفعلي في شؤونهم البلدية، آخذين في الاعتبار خصائصهم اللغوية والقومية والدينية. ولم يكن هذا الموقف متناقضاً - على الاطلاق - مع سياسة الاستيعاب النهائي، لأن الفوائد الاقتصادية والسياسية والامتيازات التي تمتع بها المواطنون الرومان لم تفقد جاذبيتها بالنسبة للطبقات العليا من المجتمع الافريقي. وهؤلاء الأخيرون الذين ينتمون الى المجتمعات الريفية، والذين أسست وتطورت مستعمرات المهاجرين على حسابهم، نظروا الى المدن باعتبارها مراكز قمع أكثر من كونها مراكز تمدن وحضارة رومانية.

---

(١٧) عن استعمار ولايات إفريقيا في العصر الجمهوري - انظر: S. Gsell, Paris, 1913 — 1928. T.V. and Romanelli, P. Roma, 1959, p. 43-71.

(١٨) بالاضافة الى أن المعلومات التي أمدنا بها بلينيوس الأكبر (Plinius) في كتاب «التاريخ الطبيعي» (V, 22-30)حول حالة هذه المدن صعبة التفسير، وهناك رأي آخر في المشكلة قدمه L.A. Brunt, Italian Manpower, pp. 581 - 583.

(١٩) C. Poinssot, 1952, pp. 55-78.

(٢٠) E. Kornemann, 1901.

وتثير مسألة النظام البلدي مشكلات شديدة التعقيد يمكن هنا أن نلخصها فقط(٢١). ففي المقام الأول هناك المدن غير الرومانية، التي كانت متعددة، والتي لم يكن سكانها مواطنين رومانيين، وكان معظم هذه المدن يخضع لضريبة الأرض الثابتة القيمة (Stipendium) ولكن بعضها تمتع بالحرية وهو ما عرف باسم (Libertas) والتي تعني الاعتراف رسمياً باستقلالها الذاتي، وكانت قلة منها معفاة من الأعباء المالية (Immunes)، وبعبارة اخرى معفاة من ضريبة الأرض (Stipendium)وهي الضريبة التي فرضها الغزاة. ثانياً، كانت هناك المدن اللاتينية: وقد منحت هذه المدن - سواء بمقتضى دستور عام، أو لأنه يسكنها مستوطنون لاتينيون أو غالبيتهم لاتينيون، الحقوق اللاتينية المسماة بالكبرى (Ius Latii Mainoris)، والتي تخوّل الجنسية الرومانية لكل من الحكام المحليين، وأعضاء المجلس البلدي، أو الحقوق اللاتينية المسماة (Ius Latii Minoris)، والتي تقصر الجنسية الرومانية على الأفراد الذين يتولون منصباً مدنياً من مناصب الحكم المحلي (Honos)، ومع هذا تمتع السكان الآخرون بحقوق مدنية مماثلة تماماً لتلك التي منحت للمواطنين الرومان. ثالثاً، في المستعمرات ذات الحقوق الرومانية الكاملة (Coloniae Iuris Romani) والتي حدد وضعها بقانون قيصر - الذي نشر بعد وفاته - بأن كل السكان فيها هم مواطنون رومان - ما عدا، طبعاً، العبيد - والمستوطنين الأجانب (Incolae) والملحقين (Adtributi)، وهو الاسم الذي يطلق على السكان الوطنيين - في القطاعات التي ألحقت لأسباب ادارية - بهذه المستعمرات.

وبالاضافة الى مستعمرات المهاجرين نشأت اعداد متزايدة من المستعمرات غير الرسمية التي كانت من قبل مجتمعات محلية، والتي اكتسبت بفضل تطورها وأخذها بأسلوب الحياة الرومانية، الاعتراف الرسمي بها مستفيدة من القانون الروماني. وبالاضافة الى ذلك كانت هناك القرى (Vici)، والكور (Pagi) التي كانت عادة تشكل جزءاً من الأراضي المخصصة (Pertica)لكل مدينة.

وفي ضياع الامبراطورية الشاسعة نادراً ما كان يحدث أي اتصال بين المزارعين وسكان المدن، وكانت الادارة في يد الوكلاء الامبراطوريين. وأخيراً في جنوب الولايات الافريقية، وبخاصة في ولايات موريتانيا، وضعت الأقاليم غير المدنية الخاضعة للنظام القبلي تحت مراقبة وحدات عسكرية صغيرة يتولى قيادتها قواد كتائب أو فصائل (Prefecti).

ومع هذا فلا تزال عدة نقاط متعلقة بنظم الحكم الذاتي غامضة، مثل ما يتعلق بتعريف «البلديات» الرومانية أو بالأحرى مدن الحكم الذاتي الرومانية (Municipium Uris Romani) على سبيل المثال، فقد ساد الاعتقاد مدة طويلة - استناداً الى رأي مومسن (Mommsen) - أن مجتمعات المواطنين الرومان كانت تسمى (Municipia) أو (Coloniae)، وأن الفارق بين اللفظين كان أساساً مسألة وضعها النسبي، وكان اسم «مستعمرة» (Coloniae) هو الأعظم شرفاً. وعملياً لم يكن هناك فارق ملحوظ بين هذين النوعين من المجتمعات ويعتقد أن التفسير جاء من اختيار أنظمة متشابهة الصورة لهذه الكيانات المستقلة ذاتياً. وطبقاً للنظرية التي طرحها شارل سوماني (Ch. Saumagne)، والتي لم تحظ بالقبول المطلق من الباحثين، فهناك - مع هذا - ما يدعو للاعتقاد بأن مدن الحكم الذاتي الرومانية (Municipia Iuris Romani)قد وجدت فقط في ايطاليا، ويستتبع هذا أن كل مدن الحكم الذاتي في الولايات كانت تتمتع بالحقوق اللاتينية (Iuris Latini) وأنه على هذا لم تكن هناك مجتمعات متمتعة بالحقوق الرومانية

(٢١) إن مشكلة السياسة المحلية الرومانية في إفريقيا موضوع دراستين حديثتين تكملان الدراسات السابقة وتضيفان اليها كل ما استجد من معلومات عن الموضوع .Berlin, 1952.

(Iuris Romani) في إفريقيا، سوى المستعمرات والمراكز او التجمعات المدنية للمواطنين الرومان (Oppida Civium Romanorum) وسوف يساعد هذا على توضيح مشكلة التوسع في منح الجنسية الرومانية في الولايات، ومن هذا سوف يتبين ان الحقوق اللاتينية (Ius Latii) التي كانت تخوّل الجنسية الرومانية للموسرين والأغنياء، كانت تمثل خطوة ضرورية نحو دمج مجتمعات بأسرها في وحدة متكاملة متساوية الحقوق(٢٢).

وبالتجاوز عن هذه الفروق البسيطة يتضح ان المدن الافريقية قد صارت في وضع شبيه جداً بمدن الحكم الذاتي الايطالية (Municipia) ، ففي كل مكان نجد جمعية شعبية، ومجلس شيوخ، وحكاماً يعينون لمدة محددة بعام واحد مع مراعاة مبدأ الحكم الثنائي أو الجماعي، الذي كان يسند الى حاكمين (Duoviri) او أربعة حكام (Quattuorviri)أو هيئة من الايديليين (Aediles)(اي المشرفين على الشؤ ون البلدية) أو الكوايستوريين (Quaestires) (المشرفين على الخزانة). وقد لوحظ ان الجمعية الشعبية (Populus) عاشت طويلاً في مدن افريقيا، في حين عطلت الجمعية الشعبية في البلاد الأخرى. وكان المواطنون الذين يكونون المجتمع السياسي «بوبولوس Populus» يجتمعون في مجموعات أصغر تعرف باسم «كورياي Curiae» وفي رأي فريق من الباحثين ان هذه كانت أثراً متبقياً من منظمة قرطاجية قديمة، وعلى هذا فإن الكورياي (Curiae) الافريقية لم تكن تتشابه مع تلك الموجودة في الأجزاء الاخرى من الامبراطورية الا في الاسم. ومع هذا فإن السلطة الحقيقية لم تكن في أيدي الجمعية الشعبية، ولكن في أيدي مجلس الشيوخ المحلي الذي يتكون من حوالى مائة عضو يكونون مجلساً بلدياً من الأعيان (Ordo Decurionum) ، وهو صورة مصغرة من السناتو الروماني، على المستوى المحلي. وكان هؤلاء الاعضاء يختارون من بين الحكام السابقين، على ان تزيد سنهم عن الخامسة والعشرين، وكذلك - حسب الظروف - من بين المواطنين الاثرياء. وكانوا يديرون الشؤون المالية للمدينة، ويقررون النفقات الجديدة، ويديرون الأملاك المحلية. وكانوا يشكلون حكومة تقوم على المرتبة الاجتماعية، على رأسها الأعضاء الفخريون الذين يعهد اليهم بالدفاع عن مصالح المدينة: وكانوا عادة رجالاً من أبناء البلد تسلقوا السلم الاجتماعي حتى أتاح لهم نظام الترقية بالاختيار (Adlectio) دخول أعلى الطبقات الاجتماعية في الامبراطورية؛ كان الواحد منهم - على سبيل المثال - بوصفه فارساً، او عضو مجلس الشيوخ يحرز في روما نجاحاً ويندمج في الأوساط المقربة من الامبراطور، وبالتالي يكون في مركز يؤهله لتمثيل مصالح مدينته بالتقدم بالتماس شخصي الى الامبراطور لتحسين وضعها القانوني أو رفع الضرائب عنها، وكذلك للتوسط من أجل شاب من مواطنيه ما يزال في بداية السلم الوظيفي. ثم يأتي بعد ذلك على أساس الأولوية - رؤساء المدينة السابقون وهم: الحاكمان السابقان (Duumviri) ، والأيديليون السابقون (Aediles) والكوايستوريون السابقون (Quaestores)، وبعد هؤلاء جميعاً اعضاء المجلس البلدي العاديون (Decuriones) الذين لم يتولوا بعد منصباً من مناصب الحكم. وكان الشرط المؤهل بالنسبة للجميع امتلاك مبلغ من المال يحدده جهاز مختص بتقدير الثروات، والذي كان معتدلاً في المدن الصغيرة المتعددة، وباهظاً في المدن الكبيرة، وبخاصة في قرطاجة، حيث كان معادلاً للنصاب المؤهل للدخول في سلك الفرسان. وكان هذا يعني ان الرجال الأثرياء فقط هم الذين يستطيعون القيام بدور في المدينة حيث يرأس الحكام الجمعية الشعبية ومجلس الأعيان ويديرون الأعمال الجارية، ويحافظون على العلاقات مع السلطات الاقليمية، ويمارسون سلطات قضائية مقصورة على الفصل في الجنح والمنازعات البسيطة.

(٢٢) C. Saumagne, Paris, 1955. وقد فندت نظريته في كتاب: J. Desanges, 1972, pp. 253 - 273.

وللنهوض بأعباء الوظائف العامة، كان من الضروري أن تكون هناك وسائل متوفرة ووقت فراغ. ولم يكن الحكام يتقاضون أي رواتب بل كانوا على النقيض مطالبين - عند توليهم منصبهم - بأن يدفعوا للخزانة المحلية مبلغاً يختلف تبعاً لدرجة الوظيفة وحجم المدينة: وبالاضافة الى ذلك جرت العادة أن يظهر الكرم بمختلف السبل، باقامة الولائم، وتنظيم الالعاب، وتمويل بناء الانصاب التذكارية. وكان معظم المباني العامة (الحمامات، والأسواق، والنافورات، والمعابد، والمسارح) في المدن الافريقية، ترجع في وجودها الى روح المنافسة الحقيقية بين الأعيان. وكان أعلى المناصب المدنية - في أي مدينة - هو منصب «الحاكمين اللذين يتوليان منصبهما لمدة خمس سنوات» ولذا عرفا باسم (Duoviri Quinquennales)، واللذين ينتخبان لخمسة أعوام، وكانا مسؤولين عن التعداد العام، وهذا يعني أنّ عليهما احصاء العدد الكلي للسكان وللمواطنين الرومان، وتقويم الثروات، وبذلك يمكن تحديد مراكز الأفراد ودرجاتهم في السلم الاجتماعي، ومقدار الضريبة الواجبة على كل منهم.

وهذه المسؤولية المالية أصبحت عاملاً متزايد الأهمية لدرجة أرغمت السلطات المركزية على التدخل في الشؤون المحلية، وخضعت مالية المدينة - التي كانت تعاني احياناً من الاهتزاز وعدم الاستقرار - خضعت تدريجياً منذ القرن الثاني وما بعده لمراقبة من عرفوا باسم مراقبي المدينة (Curatores Civitatis) كاجراء لمعالجة الصعوبات الناجمة عن الاسراف وعن التبذير في الانفاق على مظاهر البذخ والأبهة. وكانت هذه هي الاشارة الأولى للاتجاه نحو المركزية وفرض نظام بيروقراطي لاحكام رقابة الدولة، والذي جرى العمل به منذ احتدام الأزمة الاقتصادية في القرن الثالث، وأصبح ثابتاً وراسخاً في القرن الرابع، وبذلك قضى على النزعة التحررية والحكم الذاتي المحلي.

الحياة الاقتصادية

السكان

ليس لدينا تقدير تقريبي معاصر لحجم السكان في العصر الروماني، ومن الضروري - بداهة - أنه كان يجري تعداد دوري لاغراض مالية، ولكن النتائج لم تصل الينا. وفي هذا المجال - إذن فنحن مجبرون - في اغلب الأحيان - على استخدام وسائل - قد تكون غير كافية - للوصول الى ارقام محتملة من بينها استخدام معدل الكثافة كعامل في حساب العدد الكلي للسكان، وبخاصة استخدام البراهين الطبوغرافية مع ربطها باعتبارات مختلفة في محاولة لتقدير عدد سكان المدن بصفة خاصة. لقد اخذ كورتوا (Chr. Courtois) - على سبيل المثال - سجلات الكنائس كنقطة بداية، وانتهى - بعد مناقشة - الى أنه كان هناك خمسمائة مدينة افريقية، وبعد ان عكف طويلاً على دراسة حجم الكثافة السكانية بالنسبة الى متوسط مساحة معينة من الأرض، استقر رأيه على متوسط خمسة آلاف نسمة في كل مدينة، وهو ما يعني وجود مليونين ونصف مليون من سكان المدن من بين المجموع الكلي للسكان، وهو أربعة ملايين نسمة في الولايات الافريقية ككل في بداية عصر الامبراطورية، بينما هبط الى ثلاثة ملايين في أواخر عصر الامبراطورية. ويعتمد الرقم الأخير على تقدير بيلوخ (J. Beloch) الذي احصى عدد السكان في الامبراطورية الرومانية، بناء على التعداد الذي اجراه اغسطس في ايطاليا. ومع هذا فان

كورتوا انتهى الى أن ستة عشر شخصاً في الكيلومتر المربع - الذي يعتبره الباحث الالماني محتملاً - هي كثافة مرتفعة بالنسبة لشمال افريقيا التي كان فيها حوالي ثمانية ملايين نسمة فقط في منتصف القرن التاسع عشر، وعلى هذا فقد أنقصها الى أحد عشر فرداً في الكيلومتر المربع، بينما يقدر كثافة المدن بمائتين وخمسين نسمة في الهكتار - مثل مدن فرنسا في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر[٢٣] - . وقد أثار شارل بيكار (G. Charles Picard) عدة اعتراضات على تقدير كورتوا، لعدة أسباب خلص منها الى نتيجتين هما: أن كثافة السكان الأفارقة تتجاوز مائة نسمة في الكيلومتر المربع في مناطق معينة، وأنه رغم هذا العدد الكبير من المدن، كان يعيش معظم السكان في هذا البلد الزراعي أساساً في مراكز تجارية صغيرة، وفي الضياع الفسيحة الملحقة بالفيلات او القصور الفاخرة (Villae) المتناثرة في انحاء الريف. أما ولاية إفريقيا البروقنصلية فيبدو أن مجموع سكانها قد بلغ ثلاثة ملايين ونصف مليون نسمة، وباضافة سكان ولايتي نوميديا وموريتانيا نصل الى رقم ستة ملايين ونصف مليون نسمة - في الفترة بين منتصف القرن الثاني والثلث الأول من القرن الثالث عندما كانت إفريقيا في قمة الرخاء والازدهار[٢٤].

ومنذ وقت قريب، قدم ليزين (Lézine) وجهة نظر بخصوص سكان المدن مخالفة لوجهة نظر شارل بيكار، مؤكداً مثل الأخير بأن ظروف المعيشة والكثافة السكانية في الساحل التونسي كانت - في العصور الوسطى - تشبه الى حد كبير ما كان سائداً في العصور القديمة، وحاول تقدير حجم سكان سوسة قرب نهاية القرن العاشر وحجم سكان قرطاجة فيما بين سنتي ١٥٠ و٢٣٨م، ووصل أخيراً الى رقم ١٣٠٠٠٠٠ من سكان المدن، واذا قبلنا هذا الرأي بينما نحتفظ بالرقم المقترح من كورتوا للمجموع الكلي للسكان، فإن تعداد سكان الريف سيبدو معقولاً وأقرب الى الصواب[٢٥]. ومع هذا فقد اقترح البعض نهجاً جديداً لمعالجة هذه المشكلات السكانية، فبدلاً من الركون فقط الى المعلومات المستقاة من احصاءات العصور القديمة، وكثافة السكان، والاعداد النسبية للمنازل (Domus)، والمجمّعات السكنية (Insulae)، وعدد الذين يتلقون اعانات القمح، فنحن الآن نأخذ في الحسبان عدد مقابر كل جيل، والمبالغ (Summae Ronorariae) التي كان يدفعها الحكام عندما يتقلدون مناصبهم بنسب تتفاوت بتفاوت رتبهم وحجم مدنهم[٢٦].

الزراعة

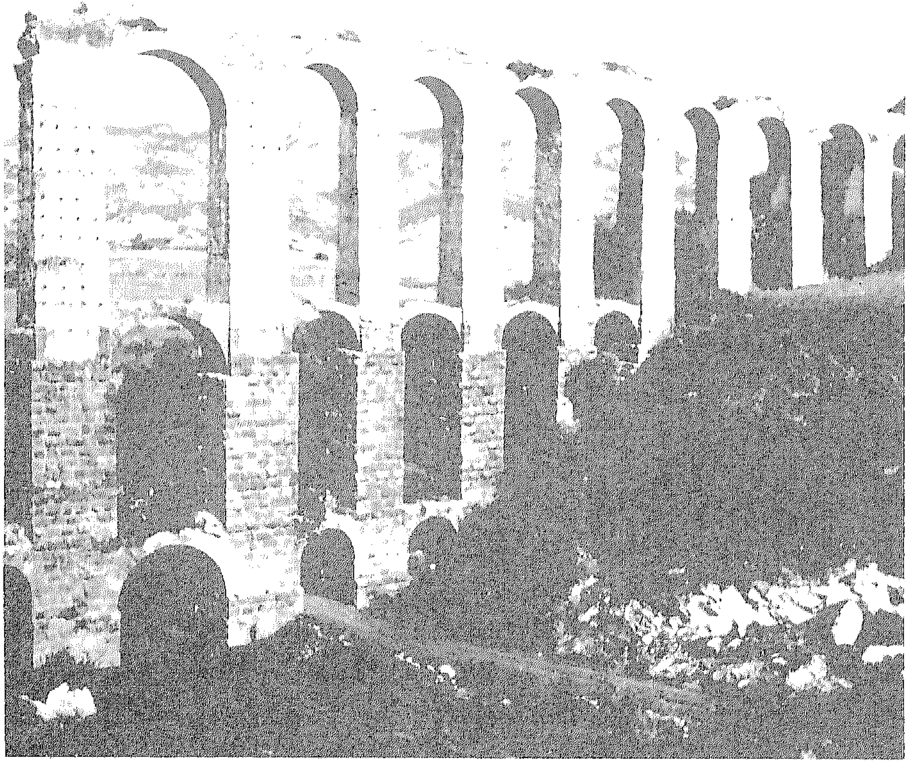
من المسلم به أن الزراعة كانت عماد الاقتصاد في العصور القديمة؛ وفي إفريقيا خلال العصر الروماني، كانت الأرض هي المصدر الرئيسي - وأقْيَم ما يُناضل من أجله - لكسب الثروة والتقدير الاجتماعي. وانه أيضاً لمن الخطأ أن يقال بأن افريقيا كانت مخزن غلال روما، فهذا التعبير يستخدم أحياناً للدلالة

(٢٣) C. Courtois, 1955, Les Vandales, p. 104 and s.

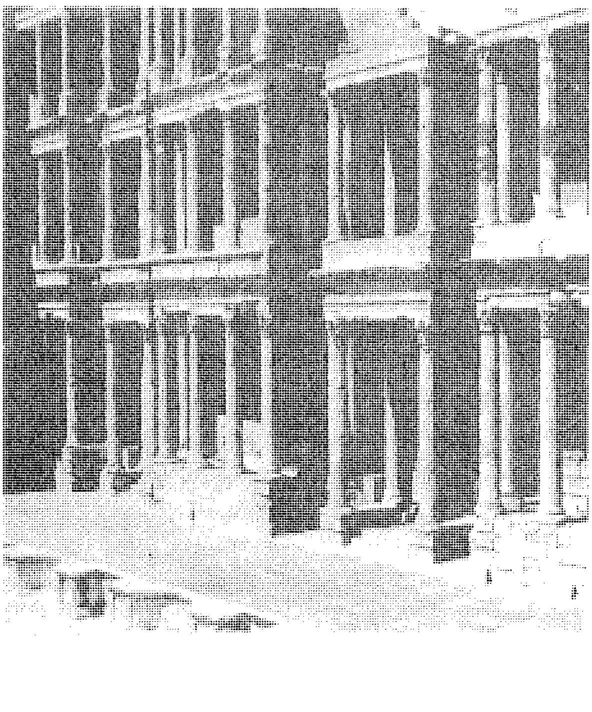
(٢٤) G.C. Picard, La Civilisation, p. 45, and s.

(٢٥) A. Lézine, 1960, pp. 69 - 82.

(٢٦) انظر بخصوص النقد الموجه لنظريات تقدير السكان في كتاب R.P. Duncan Jones, 53, p. 85 and seq.، ويستنتج من نقش في Siagu والذي يذكر ميراثا وزع على سكان المدينة، بأن عدد المواطنين كان أربعة آلاف من جملة عدد سكان المدينة الذي كان بين أربعة عشر ألفاً وسبعة عشر ألفاً. وعن معالجة مشكلات السكان، انظر: M. Benabou, La Résistance, p. 385 and s.



١



٢

١: قناة زغوان التي
كانت تمد قرطاجة بالماء
٢: صبراتة، ليبيا:
واجهة المسرح الروماني

على أنها كانت غنية جداً بالقمح على عكس فقرها في العصور الحديثة، ومن ثم اصدار حكم مستند إلى أساس واهٍ بخصوص انحلال السكان، والذي يتغاضى تماماً عن المشكلات المعقدة التي ادت الى الانحطاط والتخلف - ونحن في الواقع مضطرون هنا أن نكرر حقيقة لم يغفل عنها المؤرخون: حقيقة كانت إفريقيا تخزن غلال روما لكونها بلداً مقهوراً، فقد أرغمت على امداد الغزاة بالقمح، وذلك كضريبة، ففي عهد أغسطس، على سبيل المثال، تسلم ٢٠٠٠٠٠ روماني جراية من ٤٤ لتراً من القمح كل شهر، ويبلغ مجموعها الكلي مليون بوشل. وعلى أي حال فإن الباحث الجغرافي ديبوا (J. Despois) قضى على نظرية غنى إفريقيا الباهر، وضخامة انتاجها من القمح المغالى فيها أثناء العصر الروماني(٢٧).

في أول الأمر أدى الغزو الروماني في أعقابه الى تدهور في الزراعة، وفي الاقتصاد الافريقي ككل فالمنطقة الريفية المحيطة (Chora) بقرطاجة اصبحت خراباً وهجرت بساتينها، لأن ايطاليا كانت حينئذ تتحكم في سوق النبيذ والزيت، وحرصت على ألا يكون هناك منافس لها في زراعة الكرم والزيتون المربحة. وكان القمح هو المحصول الوحيد الذي لم يتوقف انتاجه. وفي عهد أغسطس بدأ التوسع في زراعته لسبب سياسي - ظل قائماً حتى نهاية الحكم الروماني - ألا وهو الحاجة لتأمين امداد العامة الرومان (Plebs) بالغذاء. وبعد ان دفعت روما بالحدود بعيداً الى الغرب والجنوب، وشرعت في سياسة حصر القبائل في مناطق محددة، بينما اتبعت سياسة نشطة لاستصلاح الأراضي، وبخاصة عن طريق التوسع في المشروعات المائية الضخمة، حدث ارتفاع حاد في معدل انتاج القمح، وحين اعتلى نيرون العرش، كانت افريقيا - كما نعرف - هي التي تمد عاصمة الامبراطورية بالقمح لمدة ثمانية أشهر في السنة. وقد قدر أن المساهمة الافريقية كانت ثمانية عشر مليون بوشل أو ١٢٦٠٠٠٠ قنطار.

وحيث أن هذا الرقم يمثل مقدار «الأنونا Annona» وهي حصيلة القمح السنوي من ممتلكات الامبراطور التي اتسعت آنئذ اتساعاً كبيراً نتيجة لمصادرة نيرون الضياع الفسيحة المملوكة لأعضاء مجلس الشيوخ الروماني - والتي يضاف اليها الضرائب النوعية المفروضة على الأراضي الأخرى - فإن شارل بيكار قدر بأن حصيلة القمح السنوية (Annona) المذكورة تمثل ما يزيد قليلاً على سُبع معدل انتاج مزارع القمح الافريقية. وعلى هذا، تكون جملة المحصول قد بلغت حوالى ١٢٦ مليون بوشل أو ٩ ملايين قنطار. وبذلك كانت كمية القمح التي تترك في إفريقيا صغيرة جداً لا تكفي حاجة السكان المحليين، بعد إدخار جزء منها لبذره في العام التالي». «واضطر كثير من الفلاحين الى العيش على الذرة أو الشعير، وكان القحط بالضرورة يجلب المجاعة في ركابه(٢٨)». وخلال فترة الازدهار الكبير في إفريقيا منذ منتصف القرن الثاني حتى سنة ٢٣٨م تحسن الموقف بصفة خاصة بسبب زراعة الأراضي البكر في نوميديا، وكذلك في ولايتي موريتانيا، ولكن كان على إفريقيا أن تواجه أعباء مالية جديدة، مثلما حدث عندما تحولت الضريبة العسكرية العينية (Annona Militaris) في عهد سبتميوس سفيروس الى ضريبة نقدية منتظمة. ومع هذا فمنذ القرن الثاني وما بعده، تشير الأموال الضخمة التي انفقت على المباني العامة الى وجود رخاء بين الطبقات العليا، وبخاصة بين الطبقة المتوسطة في المدينة، والحقيقة - في هذه الفترة - أن الحكومة الامبراطورية سمحت للولايات بمزيد من الحرية في العمل من أجل تنمية اقتصادها حيث كانت ايطاليا تعاني من أزمة اصبحت بالفعل معضلة في عهد الأباطرة الكلوديين وظلت دون حل وقد شجعت زراعة العنب والزيتون فقط في بداية الأمر، كوسيلة للافادة

(٢٧) J. Despois, p. 187 and s.

(٢٨) G. C. Picard, La Civilisation, p. 91.

من قطع الأرض الصغيرة التي عرفت باسم (Subsiciva) ، أو الأراضي غير الصالحة لزراعة القمح، ولكن أرباح التجارة في النبيذ والزيت شجعت على السير في هذا الاتجاه، وعلى هذا انتشرت بساتين الزيتون، وحقول العنب بمعدلات مذهلة، وكانت أولاهما بصفة خاصة مربحة حتى في المناطق التي لا شجر فيها.

وقد صورت الضياع الريفية والمناظر الطبيعية على الفسيفساء بين نهاية القرن الأول ومنتصف القرن الرابع وكان قصر صاحب الأرض (Villa) - بصفة عامة - يقع في وسط بستان أو منتزه فسيح، وهو محاط - أحياناً - بمبان ملحقة يعمل فيها الرقيق. وأحياناً كانت تصور الأملاك ولكن في الغالب يرمز اليها بصور تمثل نشاطات من صميم البيئة أو مناظر توحي بالمعالم الطبيعية للاقليم: التلال وعمليات الحرث والبذر والحصاد ونقل الغرس او جمع العنب، وقطعان الأغنام، والدواجن وخلايا النحل وما الى ذلك.

ومنذ البدايات الأولى للاحتلال كان الاستعمار الروماني يتميز بعمل وحدات زراعية مربعة (Centuriatio - Centuriae Quadratae) ، فقد قسمت الاراضي الزراعية في افريقيا الى مربعات طول كل منها ٧١٠ امتار، يتكون منها مربعات متناسقة كمربعات رقعة الشطرنج تماماً[٢٩]. وبما أن هذه الأرض صارت «من أملاك الشعب الروماني» (Ager Publicus Populi Romani) بحق الغزو، فقد صنفت هذه الأرض الى عدة فئات طبقاً لقوانين ملكية معقدة، كانت تتغير باستمرار. وفيما عدا موريتانيا - حيث لم توضع قيود على حق المرور في أراضي الغير - كانت الجماعات القبلية تحسر الأرض التي كان يمتد اليها احتلال المستوطنين. وخططت عملية ضخمة لاحتواء القبائل داخل مساحات محددة، وكانت تنفذ دون توقف أو انقطاع في العصر المبكر للامبراطورية، بل نفذت حتى في عهد أسرة سفيروس عندما دفعت «الثغور Limes» بعيداً في طرابلس ونوميديا وموريتانيا واقتضى ذلك اجراء عملية مصادرة صارخة لممتلكات القبائل التي طردت الى الصحراء ومع هذا فإن الملاك المحليين الذين كانوا يعيشون في المدن، والذين لم تصادر أراضيهم لصالح المستوطنين الرومان أو اللاتين احتفظوا - بصفة عامة - بملكياتهم على شرط دفع ضريبة الأرض (Stipendium) ، والتي أعفي منها قليل جداً من المدن غير الرومانية. وتكونت فئة اخرى من الملكية الثابتة من الأراضي التي وزعت على المواطنين الرومانيين: من المحاربين القدماء ومن المهاجرين محدودي الدخل من الرومان أو الايطاليين، والذين استقروا في المستعمرات ومدن المواطنين الرومان (Oppida Civium Romanorum) وفي وحدات ادارية ريفية أو «كُوَر Pagi» . لكن بمرور الوقت أصبح الوضع القانوني لأراضي المدن الأهلية لا يمكن تمييزه عن الوضع القانوني لممتلكات المدن الرومانية حيث صارت نظم الحكم المحلي تتجه الى دمج مجتمعات السكان الاصليين. وشملت فئة الأراضي الأخيرة الضياع الشاسعة التي تمكن أعضاء الارستقراطية الرومانية من حيازتها، وبصفة خاصة في نهاية العصر الجمهوري، حينما كانت إفريقيا ميداناً تتوافر فيه فرص هائلة لاستثمار الأموال في الملكية الزراعية. وفي القرن الأول قبل الميلاد - على سبيل المثال - امتلك ستة من أعضاء مجلس الشيوخ الروماني نصف أراضي الولايات الافريقية فيما بينهم، ولكن نيرون أعدمهم وضم مزارعهم (Fundi) الى أملاك الامبراطور الشخصية (Patrimonium). ومع هذا ففي عصر الامبراطورية الأخير كان لا يزال يوجد بالفعل عدد من الضياع الكبيرة الخاصة التي تمتلكها الارستقراطية الرومانية، وبخاصة في نوميديا، وكان هناك اتجاه عام لابتلاع الملكيات الكبيرة للصغيرة وبخاصة في عصر الامبراطورية الأخير.

(٢٩) انظر: .R. Chevallier and A. Caillemer, 1957, pp. 275-286

ان وضع وتنظيم الممتلكات الامبراطورية الكبيرة معروف لنا بفضل أربعة نقوش رئيسية هامة، وأدلة اخرى، مستقاة من مجموعة النقوش الافريقية الكبيرة[٣٠]. وقد أمدتنا بنصوص ذات أهمية قصوى، مثل قانون مانكيا (Lex Manciana)، وقانون هادريان (Lex Hadriana)، وهي ليست قوانين بالمعنى المفهوم للقانون الروماني العام، ولكنها تنظيمات عملية. وفي رأي كثير من الكتاب أن هذه القوانين قد طبقت على كل الأراضي العامة (Ager Publicus) التي وجدت في الامبراطورية، طبقاً لرأي ج. كركوبينو (J. Carcopino)، او في إفريقيا وحدها طبقاً لرأي م. روستفتزف (M. Rostovtzeff) ويعتقد آخرون انها تنظيمات طبقت على وجه الخصوص على الأقاليم التي تضم ضياع الامبراطور (Saltus) في الوادي الأوسط لنهر بجراداس (مجردة)، رغم ان هذا التفسير دحضته الكشوف الحالية، على أي حال، فلدينا معلومات مفصلة فقط عن طرق الادارة التي طبقت على ضياع الامبراطور، وقد أجرت هذه الضياع لمقاولين ومتعهدين أي ملتزمين (Conductores)، والذين كانوا يستخدمون وكلاء عنهم (Villici) لادارتها، وكان وكيل الضيعة هذا أو ناظرها (Villicus)يقوم بتنمية موارد جزء من الأرض بنفسه، وربما استخدم عبيداً وعمالاً زراعيين فضلاً عن الخدمات الالزامية التي كان المزارعون المؤاجرون مطالبين بها. وكان هؤلاء المزارعون (Coloni) رجالاً أحراراً يزرعون الجزء الأكبر من الأملاك كمستأجرين (من الباطن) من الملتزمين (Conductores). وكان الغرض الأساسي لقانون مانكيا وقانون هادريان هو تقرير حقوق وواجبات الملتزمين ووكلائهم من ناحية، وهؤلاء المزارعين المؤاجرين (Coloni) من ناحية أخرى، وكان المبدأ هو: في مقابل تسليم ثلث محصولهم السنوي وتخصيص عدد من الأيام للعمل في الأرض التي كانت تحت الاشراف المباشر للوكيل او ناظر الضيعة (Villicus)، في مقابل ذلك تمتع المزارعون - في قطع الأرض المخصصة لهم - بحق الانتفاع الذي يمكنهم أن يوصوا به لورثتهم بل وبيعه، بشرط ان يترك صاحب الحق الجديد دورة المحاصيل الزراعية على ما كانت عليه، مدة سنتين متتاليتين. وكان يشرف على ادارة الأملاك هيئة متدرجة السلطة من موظفي الديوان الامبراطوري: في القمة «الوكيل المالي لادارة أملاك الامبراطور الشخصية Procurator Patrimonii» والذي يقيم مع هيئته الادارية في روما، ويضع القواعد التنظيمية العامة والمذكرات التنفيذية، وكان عضواً عالي الرتبة من طبقة الفرسان. وفي كل ولاية كان هناك وكيل مالي مقيم وهو بالمثل عالي الرتبة ومن طبقة الفرسان أيضاً (Eques)، ويشرف على المديرين الماليين في المقاطعات الزراعية (Tractus)، والتي تتكون من عدد من الضياع (المعروفة باسم Saltus).. وفي أدنى مستوى كان مديرو الضياع - في أغلب الحالات - رجالاً أحراراً عاديين، وكانت واجبات مديري الضياع هؤلاء هي: ابرام العقود مع الملتزمين (Conductores)، والتأكد من اتباع القواعد، والقيام بدور المحكمين في المنازعات بين الملتزمين والمؤاجرين (Coloni) ومساعدة الأولين (الملتزمين) في تحصيل الايجارات. ويتبين من نقش سوق الخميس الذي يرجع إلى عهد كومودوس (Commodus) ان الملتزمين والمديرين المسؤولين عن الاشراف على طريقة ادارتهم للضياع، كانوا يتواطئون على سلب المزارعين المستأجرين حقوقهم القانونية، فكانوا يتخذون قرارات تعسفية لالقاء المزيد من الأعباء عليهم. وكان هؤلاء الملتزمون - في الحقيقة - رجالاً يعتمد عليهم، رأسماليين أقوياء، لا يستطيع المديرون تجاهل نفوذهم. ويعتقد عديد من الكتاب مثل أ. بيجانيول (A. Piganiol) بأن الحالة التي أصبح عليها المزارعون في عهد الامبراطورية البيزنطية كانت تنذر بها حالة المؤاجرين التي وصفتها

(٣٠) توجد قائمة بالمراجع الأساسية المتاحة عن هذا الموضوع - انظر: G.C. Picard, La Civilisation.. p. 61 and s. and note 31, pp. 371-372.

نقوش سوق الخميس. ومنذ القرن الرابع وما يليه كانت كلمة المؤاجرين أو المستأجرين (Coloni) تعني كل الفلاحين الذين يزرعون ضياع الامبراطور أو الضياع المملوكة لغيره من الشخصيات في أنحاء الامبراطورية. وكانوا - بوجه عام - رجالاً أحراراً، ولكن حريتهم كانت تتناقص بالتدريج بصدور قوانين تحرم عليهم ترك الأرض التي يعملون بها. وكان مالك الأرض مسؤولاً عن دفع الضرائب المفروضة على انتاج المستأجر، ولم يكن بوسعه الوفاء بالتزاماته اذا اضطرب نظام الدورة الزراعية: وهذا ما دفعه الى ربط الفلاح بالأرض حتى صار المركز القانوني للأخير شبيهاً بمركز العبد، وقد تمخض هذا الاتجاه عن نشأة ظاهرة «عبودية الأرض» (Serfdom) التي انتشرت في الغرب خلال العصور الوسطى، باعتباره المصير المشترك الذي لقيته سلالة هؤلاء الفلاحين وغيرهم من أرقاء المزارع الريفية.

ولا يزال نظام تنمية الزراعة في إفريقيا في عصر الامبراطورية المتأخر، مثار جدل مستمر بين الباحثين، فقد استرعى انتباه المؤرخين المحدثين العدد الكبير من الملكيات غير الخاضعة للضرائب، وعلى هذا كانت غير مزروعة، ومن هنا استنتجوا أنه كان هناك اتساع سريع في المساحات التي تحولت بالأهمال الى أراضي بور. وقد بين ليبيلي (G. Lepelley) حديثاً أن المشكلة أكثر تعقيداً، وأن الوضع لم يكن منذراً بالخطر كما يظن - على الأقل - في إفريقيا البروقنصلية وولاية بيزاكيوم (ميزاق) (Byzacium). ولا يمكن القول بأنه كان هناك هروب جماعي من الأرض، أو تدهور بالغ الخطورة في الانتاج الزراعي. وحتى الغزو الوندالي ظلت إفريقيا مصدر تموين روما بالغذاء، والتي حرمت - بعد تأسيس القسطنطينية - من حصة مصر من القمح، وزيادة على ذلك فإن رخاء إفريقية (Ifriqiya) في القرون الثامن والتاسع والعاشر الذي أكدته المصادر العربية، لا يمكن أن نفسره اذا سلمنا بالرأي القائل بوجود دلائل واضحة على الركود الاقتصادي(٣١). ومع هذا فإن نقص الطعام لم يكن ظاهرة غير معروفة - أساساً بسبب عوامل طبيعية، ويجب القول بأن الأهمية الاقتصادية للحبوب على ما يبدو تناقصت بينما زادت الأهمية الاقتصادية لاشجار الزيتون، ما عدا في نوميديا التي ظلت بلداً منتجاً للقمح.

الصناعة والتجارة

من الملاحظ بصفة عامة أن النقوش والرسوم المحفورة على الآثار تقدم معلومات عن إفريقيا أقل بكثير منها عن الولايات الغربية الأخرى، وذلك فيما يخص حياة الحرفيين والعمال الأجراء. لكن على الرغم من أن المصنوعات المعدنية تبدو أقل انتشاراً في الولايات الافريقية، فلا ينبغي ان ننساق وراء التعميمات المضللة، ويمكن أن نشير على سبيل المثال الى ان النقوش تتضمن اشارات قليلة جداً عن عمال البناء والمهندسين المعماريين، رغم أن أعمالهم تغطي مواقع أثرية لا تحصى في إفريقيا، وعلى أي حال، فإن الركود التكنولوجي في العصر الروماني لم يكن من شأنه أن يؤدي الى تقدم صناعات العصر القديم على نطاق واسع، وفي هذه الظروف فإن الصناعات الرئيسية كانت تهتم بعمليات الانتاج الزراعي وبخاصة تصنيع زيت الزيتون. ويتبين من بقايا معاصر الزيتون التي عثر عليها بوفرة في المنطقة الممتدة من سبيطلة (Sufetula) الى فريانة (Thelepte) وتبسة (Theveste) مدى أهمية الزيت في

(٣١) C. Lepelley, 1967, pp. 135-144.

اقتصاد العصور القديمة، ليس فقط كمصدر رئيسي للدهون للاستهلاك الانساني، بل باعتباره أيضاً الوقود الوحيد للمسارج، وأحد مستلزمات عطور الزينة(٣٢).

وكانت صناعة الفخار - التي ارتبطت بدرجة متغيرة بصناعة زيت الزيتون - تفي بحاجة السوق الى المصابيح والعُلَب، بالاضافة الى انتاج الأواني المنزلية. وفي العصر البوني تركزت الصناعة المحلية على انتاج أدوات الاستعمال اليومي. وكانت اجمل نماذج في الفخار مستوردة في البداية من اليونان واتروريا، وفيما بعد من جنوبي ايطاليا. وبعد الغزو الروماني أصبحت إفريقيا أكثر اعتماداً على مراكز الانتاج الأجنبية مثل: كامبانيا التي حلت محلها توسكانيا (اتروريا)، ثم مصانع غالة التي كانت تصدر بضائعها أساساً الى موريتانيا، ومع هذا فقد بدأت تنمو - وبصفة خاصة في الولاية البروقنصلية - صناعة فخار جديدة متواكبة مع انتعاش اقتصادي شامل عند بداية القرن الثاني الميلادي.

وقد تبين من كتاب موريل (J.P. Morel) الذي لاحظ تقليد المصنوعات الافريقية لفخار كمبانيا الأسود اللامع(٣٣)، وكتاب فيفريه (P.A. Févrler) وسالومونسون (J.W. Salomonson)عن الخزف المطلي بطلاء أحمر لامع (Terra Sigillata) وكذا الحفائر المتأخرة التي أجراها الباحثون بالمعهد الأثري التونسي، تبين أنه كان هناك تزايد مطرد في عدد وحجم المصانع الافريقية(٣٤). وبالاضافة الى الانتاج العادي من المواد، فقد انتجوا النوع الممتاز من الفخار الملون بلون برتقالي - احمر في اول الأمر، وبرتقالي فاتح فيما بعد، والذي شاع في أنحاء دول غربي البحر المتوسط، ومنذ النصف الأول من القرن الثالث زينوا الجرار الاسطوانية والزهريات ذات الشكل المخروطي المزدوج والمزخرفة بأشكال مستوحاة أساساً من ألعاب الملعب الروماني المدرج، وصنعوا المصابيح الممتازة والتماثيل الصغيرة التي كانت توضع في المقابر أو الأضرحة الخاصة. وشهد القرن الرابع انتاجاً واسعاً لنوع آخر من الفخار عرف عند المتخصصين باسم (Light Sigillate D) وسرعان ما اختفت الواردات الأجنبية في القطاع الاقتصادي الرئيسي بنشأة صناعة الفخار المحلي حتى في ولايتي موريتانيا. وكانت المبيعات من المصنوعات الافريقية والمواد الخام (الزيت والآنية الفخارية، والملابس ذات الصبغة الارجوانية، والادوات الزجاجية، والادوات الخشبية، وانتاج المحاجر مثل الرخام النوميدي) والتي يجب أن يضاف اليها - دون شك - القمح، والعبيد والأخشاب، والحيوانات المتوحشة لالعاب الملعب الروماني المدرج، تفوق بدرجة كبيرة المنتجات المستوردة التي من المحتمل أنها كانت تتكون من سلع مصنعة، وبصفة خاصة تلك المصنوعة من المعدن.

وبهذا نجحت إفريقيا في التحرر من تبعيتها الاقتصادية، واستعادت تجارتها الخارجية بعض الأهمية التي كانت لها في العصر البوني. وقد توافرت تسهيلات الموانىء لمسايرة التوسع في الثروات المصدرة من الأراضي الداخلية، ولتسليم كميات الحبوب والزيت للشحن الى ايطاليا، وكانت المعاملات الرئيسية مع ميناء أوستيا (Ostia) الذي كان منفذ روما على البحر. وفي موقع أوستيا وجد بين مكاتب (Scholae) شركات الملاحة - ما لا يقل عن تسعة مبان تخص الشركات الافريقية: موريتانيا القيصرية، وموزلوفيوم (Musluvlum) ، وهيبودياريتوس (Hippo Diarrhytus)(بنزرت) وقرطاجة، وكوروبيس (Curubis) (الخروب)، وميسوس (Missus)، وجومي (Gummi)، وسوليكتوم (Sullectum) (رأس سلاكتة)، وصبراتة، وكان اصحاب السفن (Domini Navium) او الربابنة المشتغلون

(٣٢) انظر: H. Camps - Faber, Algiers, 1953.

(٣٣) J.P. Morel, 1966 and 1962, 1965.

(٣٤) انظر على سبيل المثال: A. Ennabli, A. Mahjoubl and J.W. Salomonson, Tunis, 1970.



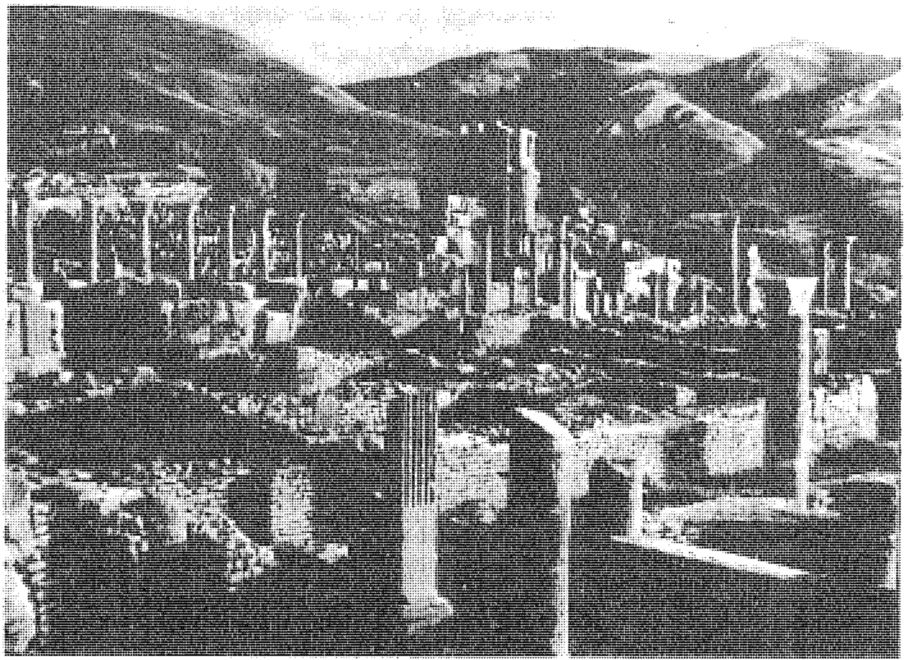
فسيفساء من سوسة: الشاعر فرجيل يكتب الاينيادة

بأعمال الشحن (Navicularii) الذين كونوا شركات، مسؤ ولين مسؤ ولية جماعية عن نقل السلع الى ايطاليا[٣٥]، وقد منحوا امتيازات خاصة منذ وقت مبكر في عهد كلوديوس، وقد جرى تنظيمهم حتى عهد سبتيموس سيفروس طبقاً لمبدأ المشاركة الحرة. لكن سرعان ما تدخلت الدولة للتحكم في هذا الميدان، كما حدث في ميادين الاقتصاد الأخرى، وبخاصة وأن تزويد روما بالمؤ ن كان أمراً بالغ الأهمية لا يجب تركه للقطاع الخاص كلية، وعلى هذا فقد كان نشاط شركات النقل البحري (Navicularii) يعتبر من الخدمات العامة، ومع هذا ظلت التجارة مع روما في أيد إفريقية. وبخصوص التجارة مع الشرق التي كانت من الأعمال المزدهرة في العصر القرطاجي فكانت بيد التجار الشرقيين في عهد الامبراطورية، وفي القرن الرابع كانوا لا يزالون يزورون الموانىء الافريقية لاجراء مفاوضاتهم، وبينما لا نعرف تماماً أي نوع من المنتجات كان يفرغها هؤ لاء التجار الذين كانوا يسمون «بالسوريين» فليس من الصعب أن نحزر أو نخمن تنوع ووفرة حمولات رحلتهم في العودة، استناداً الى العدد الضخم للعملات الذهبية التي تحمل صور الاباطرة الشرقيين والتي كشف عنها، والتي لا بد أنهم تركوها في إفريقيا لموازنة حساباتهم. وأخيراً فإن التجارة عبر الصحراء يجب أن تدخل في تقديرنا، ولكنها سوف تعالج فيما يلي في سياق الحديث عن العلاقات بين الولايات الافريقية وشعوب الصحراء.

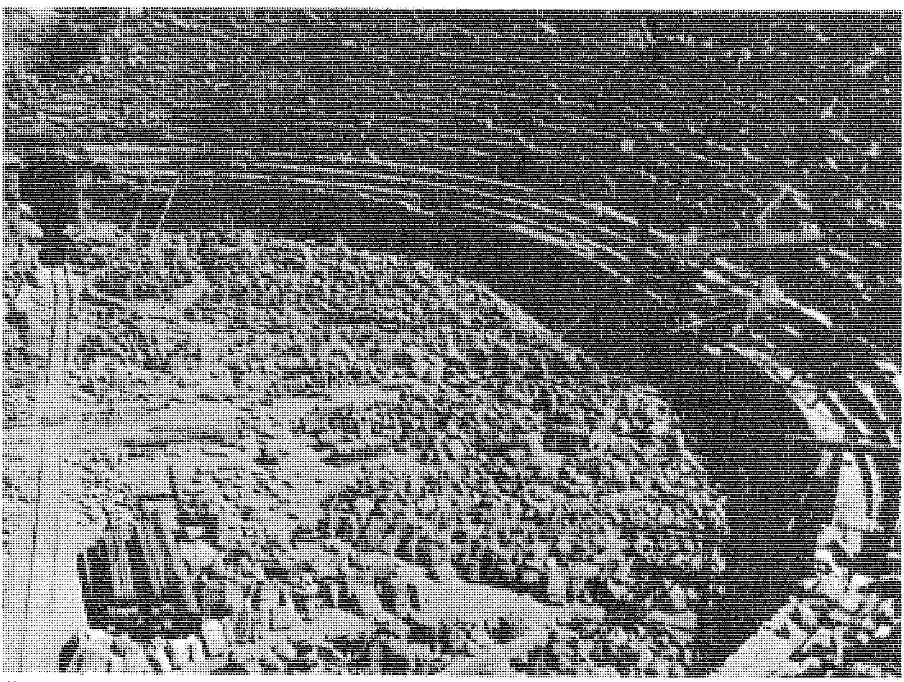
وللنصوص الباقية من العصور القديمة، وكذا المكتشفات الأثرية والنقشية أهمية كبرى في تزويدنا بمعلومات عن تجارة إفريقيا الداخلية، وقد علمنا من مثل هذه المصادر أن «النونديناي» (Nundinae) – وهي نوع من الأسواق – كانت تعقد في المراكز الريفية في مختلف أيام الأسبوع مثل أسواق الأيام الحالية. وفي القرى كانت تقام أسواق للسلع التموينية (Macella) في موقع يتكون من ميدان محاط بأروقة تنفتح عليها دكاكين مختلف التجار، وقد عثر على عدد من هذه المواقع وبخاصة في لمطة (Leptis Minor)، حيث اقيمت مجموعة من الأكشاك المجهزة بمقاييس وموازين ومكاييل موحدة والتي كان يقوم بفحصها المشرفون على شؤ ون التموين المحليون أو المحتسبون (Aediles). وكانت الصفقات التجارية والمعاملات الأخرى تعقد في الميدان العام (Forum) أو في الدكاكين، والأسواق المسقوفة بالمدن (التي تمتلىء بأصحاب البنوك والصيارفة وأصحاب الحانات وتجار الملابس وغير ذلك). وكان للطرق – التي صممت أساسا لخدمة أغراض الغزو والاستعمار – تأثير سريع على التجارة لانها – بلا شك – سهلت نقل البضائع. وفي عهد أغسطس وخلفائه ربط طريقان – لهما أهمية استراتيجية – قرطاجة بالجنوب الغربي عن طريق وادي مليانة، وبالجنوب الشرقي عن طريق الساحل. وكان الجانب الثالث من المثلث مشكلاً من طريق أمايدارا – تاكابي (حيدرة – قابس) الاستراتيجي، والذي كان أول طريق توضع عليه المعالم. وفي عهد الفلافيين وعهد الأنطونيين الأوائل امتدت شبكة الطرق بطريقة كبيرة، وبخاصة بانشاء طريق قرطاجة تيفستة (تبسة). وحول المراكز العسكرية السابقة في تيفستة ولمبايزيس (لامبيز) أحاطت شبكة طرق بجبال الأوراس ونمنتشا (Nementcha)، وامتدت شمالاً الى هيبو – ريجيوس (عنابة). ومن هناك انشىء عدد متزايد من الطرق في أنحاء إفريقيا «البروقنصلية» وموريتانيا، حيث ربطت القطاعات الحصينة في رابيدم (Rapidum) في اتجاه جيميللاي (Gemellae) لامبيس (لامبيز)، وفي اتجاه آخر بالمدينتين الساحليتين قيصرية (شرشال) وسلداي (بجاية). وبعد سنة ٢٣٥م، مع هذا، واجهت عملية صيانة واصلاح نظام الطرق – التي تهدمت وهجرت بسبب الأهمال – عدة مشكلات[٣٦].

(٣٥) G. Calza, 1916, p. 178 and s.

(٣٦) P. Salama, Algiers, 1951.



١



٢

١: جميلة (قديماً مدينة كويكل)، الجزائر: وسط المدينة
٢: لبدة (قديماً مدينة لبتوس ماجنا)، ليبيا: العمل الجاري في المدرج الروماني

وقد أجريت العديد من الأبحاث على المسائل الفنية المختلفة المتعلقة بالطرق الرومانية: تخطيطها، بنائها، جسورها، قناطرها، المباني المساعدة لاستخدام المسافرين. وقد أوضحت عملية المسح هذه - تماماً - أن الحكام الرومان كانوا مدركين للأهمية الاستراتيجية والاستعمارية للطرق العامة، ودورهم الاداري، كما يتضح من محطات الابدال والترحيل لخدمة البريد التي كانت تشرف عليها ادارة او مصلحة البريد العام (Cursus Publicus)، وكذلك دورهم الاقتصادي وفي هذا الصدد فقد وجهت عناية خاصة - على سبيل المثال - لطريق تجارة الرخام بين سيميتثو (شمتو) (Simitthu) وطبرقة (Thabraca)، وقد عقدت دراسة لمواقع صوامع أو أهراء الحبوب (Horrea)، ومحطات البريد التي استعملت كمستودعات (Mansiones)، والكائنة عند مفترق الطرق وفي نقاط مختلفة على طول الطرق لتخزين مقادير القمح والزيت التي كانت تسلم لجباة الضرائب.

العلاقات بين الولايات الافريقية وشعوب الصحراء

معروف منذ زمن طويل أن الرومان كان لهم ثلاثة حصون على حدود الصحراء، في جنوب طرابلس: كان هناك حصون بونجم، وغريا الغربية، وغدامس التي كانت تسمى كيداموس (Cidamus) في العصور القديمة. وحتى وقت قريب - الى حد ما - كانت تعتبر مجرد مخافر أمامية للثغور (Limes)، ولكن الآن توصلنا الى أنها كانت تقع على خط الحدود بين الصحراء ومنطقة تحت الحكم الروماني يسكنها زراع مستقرون يعيشون في مزارع محصنة، وهم يهتمون أساساً بزراعة أشجار الزيتون في أحواض صرف الأودية. وفي هذا الاقليم ظهر نمط أصيل من الحضارة يحمل علامات تقاليد محلية قوية يظهر فيها التأثير القرطاجي. وقد أثبتت التقاليد الأهلية والطابع البوني الذي يظهر بصفة خاصة في عديد من النقوش بالحروف المحلية، وفيها تبقى من اللغة البونية حتى عهد الفتح العربي، أثبتت - مع هذا - تكيفاً مع اسلوب الحياة الجديد الذي جاء به الرومان. وكانت الحصون تتحكم في الطرق الرئيسية التي تربط الساحل بفزان، أرض الجرمانتيين، وفيها قبل في سنة ١٩ق.م. هاجم كورنيلوس بالبوس (Cornelius Balbus) هؤلاء الجرمانتيين، وطبقاً لما ذكره بلينيوس فقد أخضع العديد من مدنهم وقلاعهم، بما فيها جرما وكيداموس. وفيما بعد - ربما في عهد دوميتيان (Domitianus) - قاد يوليوس ماتيرنوس (Julius Maternus) حملة خرجت من لبدة ووصلت جرما، وصحب ملك الجرمانتيين وجيشه، وسافرت الحملة بعيداً حتى بلاد الاثيوبيين وإقليم أجيسيمبا (Agisymba) حيث شاهدوا - كما علمنا - الخرتيت. وهذا يبين أن الرومان كانوا مهتمين في المقام الأول بفزان باعتبارها قاعدة مستديمة على طريق القوافل تمكنهم من الوصول الى أطراف إفريقيا وراء الصحراء، وهي أيضاً تشرح لماذا كانت الأزمات وتسوية المنازعات - التي سجلت في نصوص مقتضبة - مصدر قلق للرومان في علاقاتهم مع مملكة الجرمانتيين. وباضافة المكتشفات الى المعلومات المتناثرة التي جمعت من هذه النصوص، فإن المسح الأثري والحفائر في الأعوام القليلة الماضية قد وسعت بالتدريج معلوماتنا عن طرق القوافل التي تؤدي الى حدود إفريقيا السوداء، وأعطتنا فكرة أوضح عن التقدم الذي أحدثه الرومان في هذا الاتجاه، إذ زودتنا بتفاصيل وفيرة عن مظاهر الحياة العسكرية والمدنية والتجارية في اقليم الحدود هذا، وبصفة خاصة في بونجم[٣٧]. وفي المقام الأول كانت الأراضي وراء الصحراء

(٣٧) انظر بصفة خاصة في: The Comptes - Rendus de L'Académie des Inscriptions for 1969, 1972, 1975, the communications by R. Rebuffat concerning the excavation of Bu - Njem (Goleas).

تصدر الذهب، وبين الأزمنة البونية والعصر العربي الاسلامي، اتبع التجار عدة طرق مختلفة، ناقلين الذهب المستخلص من رواسب طمي الأنهار في غينيا (Guinea) الى سواحل البحر المتوسط، ولكن كل طريق منها ترك علامته المميزة على تاريخ شمال إفريقيا. كذلك جلبت تجارة القوافل من الصحراء الرقيق الأسود، وريش النعام، والحيوانات المتوحشة، والزمرد، والياقوت، وفي المقابل صدرت الولايات الرومانية الخمور، والمواد المعدنية، والفخار، والمنسوجات والآنية الزجاجية وذلك كما يظهر من الحفائر التي تمت وبخاصة في مقابر فزان.

ان الاستخدام واسع الانتشار للجمل العربي من القرنين الثاني والثالث في المنطقة الواقعة على تخوم الصحراء والتي تقطعها الطرق الممتدة جنوباً وشرقاً، ربما كان له تأثيره في تنشيط طريقة الحياة الرعوية بتسهيل السفر لدرجة قللت الصعوبة - أمام القبائل المتجولة - في العثور على مرعى لقطعانهم وأنعامهم، وفي نهب القوافل والمجتمعات المستقرة المتأثرة - بدرجات متفاوتة - بالحضارة الرومانية. وفي البداية فربما انقسمت نفس القبيلة الى جماعات مستقرة، تقيم بطول الطرق المنتظمة وعلى «الثغور Limes» ، وجماعات بدوية ترعى قطعان الابل في الجنوب. وعندئذ وقرب منتصف القرن الرابع اصبحت الحكومة الامبراطورية أقل قدرة على ضبط الأمن في الصحراء؛ ورغم أنها لم تتبع سياسة متعمدة للانسحاب، فإن المستوطنات الصغيرة على حدود الصحراء، والتي ازدهرت في القرن الثالث، وجدت انها لا تستطيع سوى مجرد البقاء، وبحلول القرن الخامس تعرضت لخطر الابادة والفناء. وعلى هذا فليس بسبب التدفق الفجائي لاعداد كبيرة من الجمال العربية في القرن الثالث، كما ذكر مراراً جوتيه (E.F. Gautier) ، أن البدو مستخدمي قطعان الجمال أصبحوا يهددون أمن الحدود الجنوبية، والأكثر احتمالاً أن هذه الحيوانات دخلت تدريجياً، وأن الميل المتزايد لاستخدامها كوسيلة نقل، في اول الأمر، خدم اغراض السياسة الرومانية التي نجحت في التكيّف مع ظروف البيئة، وهكذا انشئت مراكز حصينة لعمليات التوغل، ولكنها في النهاية كان لها تأثير عكسي بتمكين القبائل البدوية من القيام بالتحركات الضرورية للقيام بهجمات متتابعة على الأقاليم التي سبق أن طردوا منها(٣٨). وثمة سؤال آخر على جانب من الأهمية: أليس من الممكن تفسير السياسة الصحراوية الرشيدة لأباطرة آل سفيروس بأن مؤسس الاسرة ولد في لبدة، وأنهم بسبب هذا الاصل، ربما كانوا يحصلون على المعلومات من مصادرها الأولية عن الأحوال والموارد والطرق الموجودة في المناطق الداخلية القاحلة؟

قيام البربر الرومان ومشاكل المجتمع الافريقي

في عهد أغسطس وخلفائه كان سكان الولايات الافريقية يتكونون من ثلاث جماعات تختلف كل منها عن الاخرى في القوانين التي تحكمها، وكذا في لغاتها وعاداتها وهي: المهاجرون الرومان أو الايطاليون، والقرطاجيون والليبيون المستقرون، الذين دمجوا الانظمة والممارسات البونية في تقاليدهم الذاتية، وكان الأخيرون يمثلون الأغلبية، والليبيون البدو الذين حصروا تماماً في مناطق محددة أو أبعدوا من الأقاليم التي تحتوي على أرض صالحة بعد أن ارغموا على تسليمها.

وكثيراً ما قيل - وهذا صحيح - أن الولايات الافريقية لم تعد تعتبر مناطق استيطان جديد، ففي عهد هادريان توقفت عملية انشاء مستعمرات المحاربين القدماء في إفريقيا البروقنصلية، أما

(٣٨) E. Demougeot, mars - avril 1960, pp. 209 - 247.

مستعمرات نوميديا فقد اسست منذ ذلك الحين وما بعده لمصلحة الجنود الذين يتم تجنيدهم في المدن الافريقية. وكما رأينا فيما سبق، فإن الوضع القانوني للمستعمرات الأخيرة كان يتحسن باطراد حتى أصبحت رومانية من كل الوجوه: وفي الواقع فإن كل الأهالي الأصليين من سكان المدن قد تم صبغهم بالصبغة الرومانية، وبخاصة الأكثر غنى، الذين اتخذوا من «الرّومَنة» وسيلة للخلاص من حطتهم وضعة مركزهم الاجتماعي والاقتصادي والقانوني، والمفروض عليهم نتيجة للغزو الروماني، وذلك في الوقت الذي أعلن فيه الدستور الانطونيني (Constitutio Antonina) في سنة ٢١٢م، وقد منح هذا الدستور الجنسية الرومانية لكل السكان الاحرار في الامبراطورية، والذين لم يحصلوا عليها بعد، باستثناء «المستسلمين Dediticii» . وكان سبتميوس سفيروس قد سار على نهج سياسة أباطرة أسرة انطونينوس (Antonines) في رفع عدد كبير من المجتمعات إلى مستوى «مدن الحكم الذاتي Municipium» أو حتى «المستعمرات Coloniae»، وبهذا اصبح غير المواطنين من القلة بحيث لم يعد في الامكان تبرير وجود الحقوق الدنيا او المنقوصة نظراً لتناقضها مع الحاجة الى تبسيط الأنظمة الادارية والمالية، وعدم تمشيها مع الاتجاه السائد نحو تحقيق التوحيد السياسي والقانوني والاخلاقي والديني على مستوى العالم الروماني. ومع هذا فإن من لم يعش في مجتمع كبير أو صغير يمارس قدراً من الحكم الذاتي، وبخاصة أفراد القبائل، طرد الى المناطق القاحلة أو الجبلية واعتبر من بين «المستسلمين dediticii» الذين لم يعترف بمنظماتهم واستقلالهم الذاتي، ولا حتى بطريقة ضمنية عندما فرضت عليهم شروط الاستسلام، فقد ظلوا - على هذا - خارج دائرة المجتمع ذي الصبغة الرومانية.

هكذا أخذت الاختلافات العرقية طريقها الى الاختفاء في المدن فقط، والتي كانت - مع هذا - متعددة جداً، بخاصة في ولاية إفريقيا البروقنصلية. ووجدت الفوارق الاجتماعية في المجتمعات المدنية، وتمتعت أعلى طبقتين اجتماعيتين وهما طبقة أعضاء مجلس الشيوخ، وطبقة الفرسان، بمركز رفيع يتوقف على امتلاك نصاب معين من الثروة ويظهر في الأوسمة والألقاب. ومع أن امتلاك نصاب من الثروة كان مؤهلاً ضرورياً، فإنه لم يكن كافياً في حد ذاته، في حين كان يطبق دائماً مبدأ الوراثة، ومن لم يمنحه الامبراطور رتبة «عضو مجلس شيوخ» أو «فارس» كانعام خاص، لم يكن ليحصل عليها إلا بحق المولد. ومع هذا فمن الواضح - من دراسة سِيَر الأشخاص كما سجلتها النصوص المتاحة وبخاصة في النقوش - نجد أن هذه الارستقراطية كثيراً ما ضمت اعضاء جدداً، وكانت عائلات طبقة النبلاء الرومان القديمة (Nobilitas) - التي بددت ثرواتها في الحفاظ على مستواها المعيشي الرفيع الفاخر - راغبة أكثر وأكثر في أن تدرج بين صفوفها أولاً اعضاء من بين الوطنيين في الولايات الغربية من الامبراطورية، وأخيراً من بين الاغريق الشرقيين. وقد جاء أول «عضو مجلس شيوخ» من أصل افريقي من قرطة (Cirta) (قسنطينة)، وكان يعيش في عهد فيسباسيان، وبعد قرن، حوالى عام ١٧٠م، ارتفع عدد «أعضاء مجلس الشيوخ» الافريقيين الى حوالى مائة، مكونين ثاني أكبر مجموعة، بعد المجموعة المكونة من رجال ايطاليي المولد. وبالمثل فإن أول فارس أفريقي معروف لنا - وكان من موستي (Musti) (الكريب) - قد منحه تيبريوس الخاتم الذهبي وفي عهد هادريان كان هناك عدة آلاف من «الفرسان» في ولاية إفريقيا البروقنصلية ونوميديا، وفي عهد الامبراطورية المبكر كان يختار من بين طبقة الفرسان - أشباه النبلاء - الغالبية العظمى من هؤلاء الموظفين المكلفين بمهام وظيفة مزدوجة، انفصل فرعاها فيما بعد أحدهما عن الآخر، الأول يتعلق بالشؤون المدنية، والثاني بالشؤون العسكرية. وبحلول القرن الثالث أصبح السلم الوظيفي في السلك المدني من العسير تمييزه عن نظيره في السلك العسكري البحت. ونحن نرى - على هذا - أن قيام البربر الرومان كان علامة بارزة في

عصر أسرتي انطونينوس وسفيروس (١٣٨ - ٢٣٥م) عندما كان الافريقيون يلعبون دوراً هاماً في روما والامبراطورية.

وكانت القوة الاجتماعية الرئيسية - في عهد الامبراطورية المبكر - التي جعلت من الممكن - وفي مصلحة الاباطرة انفسهم - تطعيم الطبقة الارستقراطية بدم جديد، مؤكدة ان طبقة الفرسان - بصفة خاصة - قد حافظت على المستوى العالي من الكفاءة الوظيفية والكفايات الشخصية المطلوبة للقيام بمهامِّها المزدوجة، كانت هذه القوة بلا شك هي الطبقة الوسطى من سكان المدن، والتي يجب أن نسميها البرجوازية المحلية. وأدمج أعضاء هذه الطبقة البارزون، وهم أعضاء مجالس الأعيان المحلية في الارستقراطية الامبراطورية التي كان الأباطرة يختارون من بينها الموظفين لشغل المناصب الرئيسية. وكان أحد العوامل الحاسمة في الفوز بهذه المناصب هو روح التضامن والتماسك السائدة في روما بين الوطنيين المنتمين لنفس الولاية: وهذا يعلل غَلَبة الأسبان في بداية القرن الثاني، الذين تبعهم في ذلك الأفارقة، ثم حل محلهم السوريون، ثم بعد ذلك أهل بانونيا (Pannonia) (شمال البلقان).

وكانت الطبقة الوسطى المؤلفة أساساً من أعضاء مجلس الأعيان البلدي (Decuriones) - كما قيل مراراً - بمثابة العمود الفقري للمجتمعات ذات الصبغة الرومانية في إفريقيا، وفي عهد الامبراطورية المبكر، استمدت اعضاءها - كلية - من فئة معينة من ملاك الأراضي: وكان العضو يعيش في المدينة على دخل يأتيه من ممتلكاته، ولكنه لا يملك ضيعة كبيرة (Latifundium) وليس فلاحاً، حتى وإن أحس بالارتباط بأرضه، فقد كان يفضل أسلوب الحياة البرجوازي، وليته يكون غنياً جداً: فلكي يجعل له اسماً في المدينة، ويحصل على عرفان رجال مدينته بجميله، كان عليه أن يمنح الهدايا بسخاء،والتي كان يوزعها على نطاق ينمّ عن زهوه، تماماً مثلما ينم عن كرمه. وكان ينظم المباريات المحلية، ويقدم الصدقات من الطعام والأموال للفقراء، او يبني ويصون المباني العامة. وكان لهذا أثره البالغ حتى إن آثار أقل المدن شأناً تكشف عن ولع شديد بالزخرفة العمرانية، على نحو لا يتناسب اطلاقاً مع حجم هذه المدن. وكانت جميعها تصر على ان تكون لها ساحتها العامة (Forum) المكتملة بالتماثيل المنصوبة على قواعد، ومبنى لمجلس الأعيان، ودار لمحاكم العدالة، وحمامات، ومكتبات، وملاعب ضخمة ومكلفة للمباريات المحلية، وكذا معابد كثيرة على شرف الآلهة الرسمية او التقليدية. ورغم توفير مزايا معينة مثل الحماية القانونية التي تكفلها المؤسسات الدستورية المحلية، ومستوى اعلى للمعيشة، فإن نمو المدن - الصغير منها والكبير على السواء - مثله في ذلك مثل ثروة الأعيان في المدن - كان حتماً يقوم على استغلال المزارعين.

ومع أن نظرية تدهور المدن في القرن الرابع تحتاج الآن الى التعديل حيث ظهرت نقوش تدل على نشاط نسبي في البناء، كما كشف علم الآثار عن منازل فاخرة الزخرفة، حتى خلال القرن الثالث - مع هذا فإن النمط الاجتماعي للحياة المدنية كان مختلفاً جداً - في عصر الامبراطورية المتأخر - عما ساد في عصر الامبراطورية المبكر. وكانت الزراعة ما تزال هي المصدر الرئيسي للدخل عند خيرة الناس في المدن، ولكن الأعضاء - ممثلي الطبقة الوسطى التي حكمت حتى ذلك الحين من خلال مجالس المدن - حلت محلهم اقلية من كبار ملاك الأراضي وهم الوجهاء (Primates) او الزعماء والرؤساء (Principales) المحليون الذين جمعوا ثرواتهم بتصدير القمح والزيت من مزارعهم وتمكنوا بذلك من الانضمام الى طبقة النبلاء الامبراطورية، وتبوأ هؤلاء الرجال الأثرياء - الذين تمتعوا بمساندة الحكومة الامبراطورية - أعلى المناصب في البلديات وحكومة الولاية. وقد اعادوا بناء المباني العامة التي دُمِّرت في القرن الثالث، او اصلحوا المباني التي تهدم بعضها بمرور الزمن، وزخرفوا مدنهم، مدركين ان هذه

الأنشطة التي يتطوعون للقيام بها دون مقابل تفتح لهم أبواب الترقي. وقد كيّف الأباطرة سياستهم في المدن مع هذه التغييرات الاجتماعية، وكان الهدف هو تشجيع نمو المدن، ليس فقط لأن هذا كان أحد العوامل الرئيسية التي يقوم عليها نظام الضرائب الامبراطورية، ولكن - أساساً - لأن المدن كانت تشكل حاجزاً صلباً ضد خطر ما يسمى بالمتبربرين.

وبالنسبة لطائفة أعضاء المجلس البلدي او مجلس الأعيان (Curiales)، وهو الاسم الذي أطلق في عصر الامبراطورية الأخير على مجلس الأعيان (البلدي) (Ordo Decurioanum)، فقد كانت هذه الطائفة تزداد فقراً، وكانت مطالبة - على نحو جماعي - بتأدية واجبات مرهقة ومتزايدة. وحيث أنها قد أرغمت على أن تتولى مسؤولية القيام بالخدمات الالزامية (Munera) البلدية (توفير مؤن الطعام - الخدمات العامة - صيانة المباني العامة - الانفاق على شعائر العبادة، وغير ذلك)، فقد أصبح أعضاء المجلس البلدي (Curiales) في الواقع عبارة عن محصلين للضرائب الواجبة على المدينة، وكانت ممتلكاتهم تعتبر كضمان للديون المستحقة على الأهالي، وتطلع أعضاء المجالس البلدية الأغنياء للترقي للرتبة الأولى (Primates) وبذلك يَحْتمون وراء امتيازات الطبقتين النبيلتين: طبقة السناتو او طبقة الفرسان. وتجنب آخرون حمل الأعباء المحلية بالالتحاق بالجيش أو الادارات العسكرية (Militiae)، او بالتسلل في صفوف رجال الدين. ولجأت الحكومة الامبراطورية الى اجراءات مضادة عنيفة لمقاومة التهرب من عضوية المجالس المحلية (Curiae)، والذي كان يضر بالحياة البلدية، وبمعنى آخر يقوض أسس الحكم الروماني. وكان أعضاء المجالس البلدية (Curiales) مضطرين لفرض عضوية هيئتهم على أي شخص يمتلك ثروة ذات قدر مناسب، وهو ما يعني فعلياً كل الملاك (Possessores). وكان هؤلاء يشكلون طبقة وراثية حقيقية انعكس انحطاطها المستمر على أسلوب الحياة الرومانية. هكذا تكون الحكومة الامبراطورية - بمنح امتيازات لمجموعة صغيرة من الرؤساء (Principales) الذين اضطروا هم أيضاً إلى الهروب وهجر المدن في النهاية - قد سحقت طائفة اعضاء المجالس البلدية سحقاً، مما أدى الى تفاقم الأزمة الاجتماعية، التي انعكست آثارها الوخيمة على تنمية المدن نفسها.
وفي حين كان من الممكن - في صدر عصر الامبراطورية - لسكان المدن الذين صاروا أغنياء عن طريق التجارة، أن يتولوا مناصب الحكم المحلية ويصبحوا اعضاء في مجالس الأعيان (البلدية) (Ordo)، وبينما كان أرباب المهن مثل الأطباء والمهندسين المعماريين يتمتعون باحترام كبير، فإن هذا الحال لم يستمر طويلاً في عصر الامبراطورية الأخير، وهبطت كل طوائف سكان المدن - الأدنى منزلة من اعضاء المجالس البلدية - الى مستوى الدهماء او «العامة» (Plebs). واصبحت كل الوظائف الضرورية مثل تلك المتعلقة بتوفير الغذاء والنقل مهنة وراثية وسدت امامها كل السبل القانونية للتهرب.

وفي المناطق الريفية كان لا يزال من غير المعتاد خلال القرن الرابع أن يعيش كبار ملاك الأرض الافريقيين في ممتلكاتهم في عزلة عن باقي العالم، وكما رأينا فقد ظلوا يهتمون بعض الاهتمام بتزيين المدن وبالحياة البلدية. ولكن في نهاية القرن ظهرت بوادر الاتجاه نحو نمط اقطاعي من الزراعة، واخذ السيد الاقطاعي (Dominus) - الذي أصبح تدريجياً أكثر استقلالاً في أرضه - يغتصب رويداً رويداً مزيداً من حقوق الدولة الغائبة أو المتقاعسة عن اداء واجبها، وينظم قوة شرطة خاصة باقطاعه، بل ويمارس سلطة الفصل في القضايا البسيطة داخل حدود اقطاعه. ومع ادخال النظام الضريبي المسمى (Iugatio - Capitatio)، كان في مصلحة كل من الخزانة الامبراطورية وكبار ملاك الأراضي ألاّ يكون هناك تغيير - بالنسبة لأي ملكية زراعية - في وحدات انتاج العمل والأرض. وعلى هذا كان ملاك



فسيفساء من شيبة: انتصار نبتون

الأراضي العاديون والكنسيون قادرين - بمساعدة الادارات الامبراطورية - على منع الفلاحين المؤاجرين (Coloni) من محاولة تحسين احوالهم، ونجحوا في ربطهم بالأرض. وبالنسبة لملاك المزارع الصغيرة والمتوسطة الحجم الذين يعيشون في المدن فقد رأينا كيف سعوا بشتى السبل للتهرب من وضعهم كأعضاء في المجالس البلدية (Curiales)، وكان الخيار أمامهم واضحاً: فإما العودة للعيش وسط دهماء المدينة (Plebs)، أو قبول نوع من العلاقة الاقطاعية مع صاحب اكبر ضيعة بجوار مزارعهم. في الحق إنه كان هناك ما يدل على ظهور اتجاه عام، نحو تركيز الأرض في أيدي بضعة ملاك قبل ذلك بوقت طويل، فقد سجل كيبريان (Cyprian) في منتصف القرن الثالث ان «الأغنياء يحصلون على قطعة أرض تلو اخرى طاردين جيرانهم الفقراء، وليس هناك نهاية للتوسع الجامح لأراضيهم»(٣٩).

ولا يتسع المقام في هذا العرض الموجز لمناقشة حركة «المارقين circumcelliones» التي كانت دائماً موضع خلاف بين المتخصصين، وحسبنا الاشارة هنا الى ان هذه الطائفة المتمردة وجدت في نوميديا في القرن الرابع، وإن هذه الحركة التي تمت في المناطق الريفية - رغم أنها كانت مضادة للكاثوليكية - كان لها طابع اجتماعي واضح.

الحياة الدينية وظهور المسيحية

لم يكن للسيطرة الرومانية عملياً تأثير يؤدي الى منع عبادة الآلهة التقليدية التي قدسها السكان الوطنيون فظلت في الغالب عبادة الجن البربرية القديمة تمارس في معابد الريف المتواضعة، طبقاً للطقوس المتوارثة، ولكنهم عكفوا - في بعض الأحوال - على عبادة الآلهة اليونانية الرومانية: فعلى سبيل المثال كانت عبادة جنيات المياه واهبات الخصب والصحة تتستر، في بعض الأحيان، وراء عبادة نبتونوس (Neptunus)، وايسكولابيوس (Aesculapius)، أو سرابيس (Serapis)، وفي الأقاليم التي تنتمي للممالك النوميدية - حيث كان التأثير البوني عميقاً وراسخاً - توجد ايضاً دلائل طفيفة على تكريس معبد للآلهة الوطنية، ولكن غالبية سكان الولايات الافريقية مارست عبادة ساتورنوس (Saturnus)(٤٠)، والآلهة اليونانية الرومانية التي تماثل آلهة قرطاجة القديمة، وكانت عقيدة ساتورنوس الافريقي هذا مجرد استمرار لعقيدة بعل حمون، تماما مثل جونو - كايلستس (Juno - Caelestis) المعبودة الكبرى لقرطاجة الرومانية التي لم تكن سوى تانيت (Tanit) الآلهة الكبرى لقرطاجة البونية، كما عرفت عبادة آلهات الزراعة (Cereres) في الأزمنة البونية النوميدية. وغيرت عملية صبغ البلاد بالصبغة الرومانية الدين الافريقي الى حد ما، وبالطبع اختفت اللغة البونية من طقوس تقديم القرابين النذرية، وحلت أشكال تمثل الآلهة عموماً مأخوذة من الفن الاغريقي الروماني محل الرموز المنحوتة المنقوشة على الانصاب واللوحات (Stelae)، وتعكس أماكن العبادة تأثير العمارة الرومانية، ولكن فيما يتعلق بلب العقيدة وجوهرها فإن الدين الافريقي احتفظ بخصائصه المميزة، التي تعبر عنها الطقوس والأشكال المرسومة على اللوحات، وحتى العبارات المستخدمة في الاهداءات الدينية اللاتينية التي تحاكي الصيغ التقليدية المتعارف عليها منذ القدم محاكاة مثيرة.

---

(٣٩) عن هذه المسائل الاجتماعية انظر: J. Gagé, Paris, 1964.

(٤٠) M. Leglay, Paris, 1966 and Paris, 1967.

وبالنسبة لعبادة الامبراطور الرسمية، فلم يمر وقت طويل حتى حظيت شعائرها بالتقديس في المدن، وجرى التعبير عن الولاء لروما - عملياً عن طريق ممارسة الشعائر الدينية التي كانت جزءاً مكملاً للحضارة الرومانية. وتطلع اعضاء مجلس الأعيان (Ordo Decurionum)، الذين بلغوا قمة المناصب البلدية الى تقلد منصب الكهانة (Flamen) لمدى الحياة، والى أن يصبح كل منهم عضواً في جماعة الكهنة التي كانت تتمتع وحدها بحق اقامة الصلوات وتقديم النذور باسم المواطنين للزوجين الامبراطوريين المؤلّهين، وزيادة على ذلك فإن مجلس الولاية الذي كان يتكون من وفود من كل المجالس المحلية، كان يجتمع مرة في السنة في قرطاجة لاختيار كاهن الولاية - الكاهن الأعظم - والذي كان من واجبات منصبه أن يعظم الدين الرسمي باسم كل الولاية. وأخيراً كان في كل مدينة هيكل لعبادة الثالوث جوبيتر (Jupiter) وجونو (Juno)ومينرفا (Minerva)، وعبادة مارس (Mars) جد الشعب الروماني وحاميه وعبادة فينوس (Venus)، وكيريس (Ceres)، وأبوللو (Apollo)، وميركوريوس (Mercurius)، وهرقل (Hercules)، وباخوس (Bachus)، وغير ذلك من الأشكال الرسمية لعبادة الامبراطور، والحياة الروحية اليونانية الرومانية. ان المعابد والتماثيل والمذابح والقرابين كانت توجد في كل مكان على شرف هذه الآلهة، وآلهة عديدة أخرى غيرها مثل السلام (Pax)، والوئام (Concordia)، والحظ (Fortuna)، والروح الحارسة للامبراطورية (Genius)، والروح الحارسة لمجلس الشيوخ الروماني... وغير ذلك.

كذلك دخلت افريقيا آلهة الأقاليم الشرقية في الامبراطورية، والتي لقيت بمناداتها قبولاً سريعاً في روما ذاتها، وذلك عن طريق الموظفين والجنود والتجار الذين نشروا عبادة ايزيس (Isis) وميثرا (Mithra) أو كوبيلي (Cybele)، وقد شُبهت هذه أحياناً بالآلهة المحلية، مثلما شُبهت ايزيس بديميتر (Demeter)، أو كوبيلي بكايلستس (Caelestis)، وقد وصلت الى إفريقيا - بهذه الطريقة - موجة التصوف التي اجتاحت كل العالم الروماني، رغم أن الأديان الشرقية الباحثة عن الخلاص لم تكن تستهوي الصفوة الافريقية، مثلما استهوتهم جمعية (Chiasus) عبادة باخوس (ديونيسوس) وجمعية عبادة ديميتر (كيريس). وبالمثل فإن المذاهب الصوفية وبخاصة الافلاطونية الجديدة انتشرت في بعض الدوائر، بل وجرت عملية للتوفيق بينها وبين معتقدات بونية معينة: وتصور نقوش الشرفا (Chorfa Stelae) على سبيل المثال اتجاهات متأثرة بالافلاطونية الجديدة، ويعتقد كتاب معينون أن الفكرة التي عبرت عنها هذه الآثار تعني انه كان هناك موجود علوي اول يدير العالم السفلي بواسطة الأقاليم (Rypostases)، ومن المحتمل أنه مهد الطريق للايمان بإله واحد في ظل المسيحية.

هل يفسر هذا سبب انتشار المسيحية في إفريقيا قبل الولايات الغربية من الامبراطورية؟ لا ريب في أن العلاقات الوثيقة مع روما كانت عاملاً ساعد على سرعة انتشار العقيدة الجديدة، وربما أيضاً وجود أقليات يهودية تعيش في الموانىء وبخاصة في قرطاجة، ومن الملاحظ - مع هذا - أن اللاتينية نالت الاعتراف بها كلغة للكنيسة الافريقية من البداية، بينما كانت الكنيسة الرومانية لا تزال تستخدم اليونانية. وطبقاً لترتوليان (Tertullian)، الذي عاش في نهاية القرن الثاني وبداية القرن الثالث، فقد كان يوجد اعداد كبيرة من المسيحيين في إفريقيا في ذلك الوقت، ينتمون لكل الطبقات ويمارسون شتى المهن. ومن المحتمل أنه عقد مجمع من ٧١ أسقفاً في قرطاجة حوالى عام ٢٢٠م، وحضر ٩٠ أسقفاً مجمعاً آخر عقد حوالى سنة ٢٤٠م، وهذا يبين أن المجتمعات المسيحية الصغيرة كانت مبعثرة في عدة مدن إفريقية، مشكلة بذلك ما اعتبرته الامبراطورية - بلا شك - خطراً عظيماً، وكان صحيحاً أنه برفض الايديولوجية الامبراطورية، وبصفة خاصة برفض ممارسة عبادة الامبراطور، كان المسيحيون

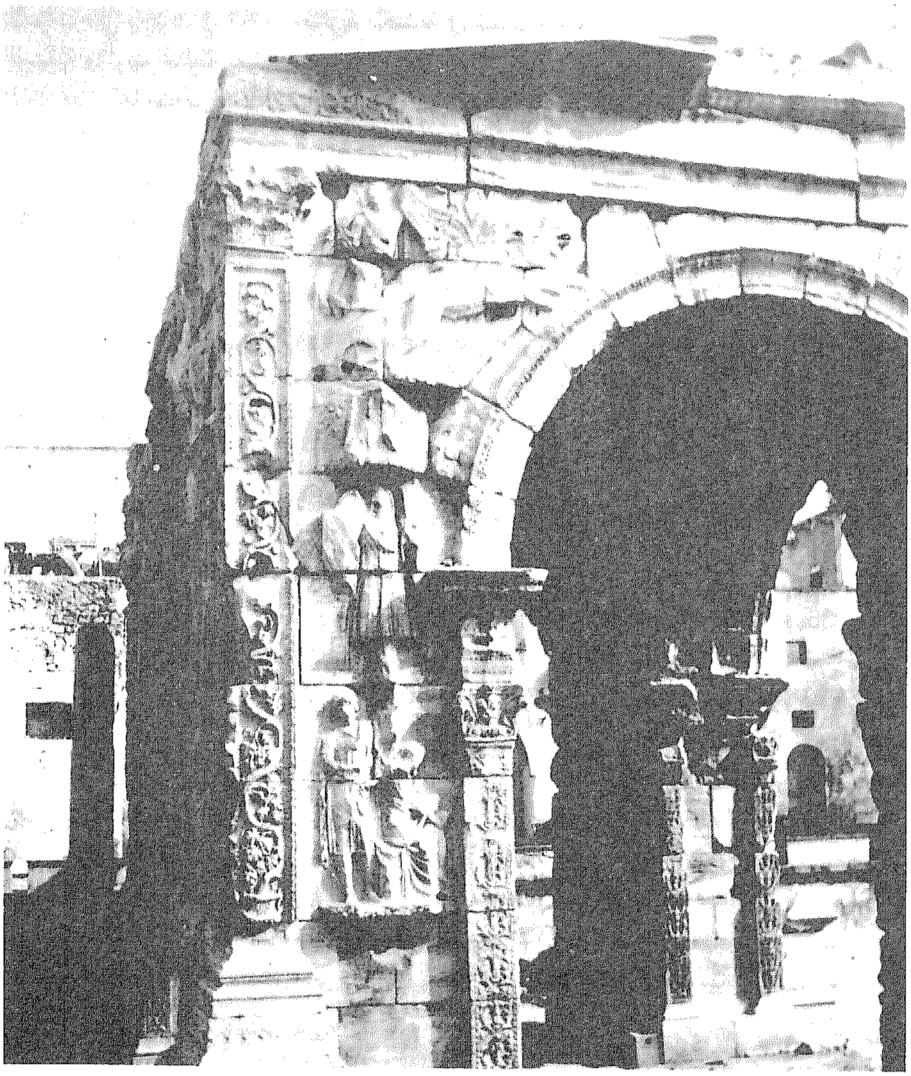
يتبنون - بثبات - موقف حركة معارضة. وبالرغم من نظرة روما المتفتحة وموقفها المتسامح المعتاد ازاء الأديان الجديدة، فإن روما لم يكن بوسعها أن تتساهل مع طائفة تهدف الى خلق شبكة واسعة من جماعات تجاهد من أجل مثل اعلى مختلف وخارج عن اطار الأنظمة الرسمية. وعلى هذا وقعت عقوبات صارمة على المسيحيين: ففي سنة ١٨٠م أطيح برؤ وس اثني عشر مسيحياً في مدينة سكلي (Sclllli) بأمر البروقنصل (حاكم ولاية إفريقيا)، وشهد عام ٢٠٣م استشهاد القديستين بيربيتوا (Perpetua)، وفيليستاس (Felicitas) ورفاقهما الذين ألقي بهم إلى الوحوش الكاسرة في ساحة ملعب قرطاجة. ولكن الاجراءات القمعية - التي يجب ألا يفوتنا انها كانت تنفذ على فترات متباعدة - فشلت في كبت فورة حماس المؤمنين الذين كان العديد منهم يميلون بشوق كبير الى الاستشهاد.

ولا يتسع المقام في هذا العرض الموجز لاستعراض تاريخ المسيحية الافريقية التي كانت في قمتها في الفترة بين ظفر الكنيسة بالأمن والسلام في القرن الرابع واستقرار العرب في شمال إفريقيا. ويجب عقد دراسة خاصة لهذه المسألة المعقدة، التي تستلزم وبصفة خاصة دراسة لمذهب دوناتوس (Donatism) وانشقاقه عن الكنيسة، وللأدب المسيحي من ترتوليان الى القديس أغسطس الذي كانت شخصيته وعمله آخر انتاج باهر لطريقة الحياة الرومانية في إفريقيا، والغرب مدين له بحفظ وتسليم تراث الثقافة اللاتينية للأجيال التالية، حيث ان المسيحية خلال العصور كانت ترعى ميراث مذهبه، الذي قلّما يوجد ما يقارن بغزارته.

الثقافة الافريقية

بعد طول اهمال من كتّاب التاريخ الروماني أصبح الآن فن الولايات والثقافات النائية مركز الاهتمام، ويرجع هذا الى فهم واضح لحدود عملية صبغ البلاد بالصبغة الرومانية، والأشكال المختلفة التي اتخذتها في علاقاتها مع المجتمعات الوطنية. وزيادة على ذلك فليس هناك من ينكر ان فن اقليم معين لا يمكن أن ينفصل عن حياته الاقتصادية والاجتماعية والدينية. وفي هذا الصدد أصبح من الضروري - لدراسة وتقدير قيمة الفن الذي نشأ في الولايات الافريقية في ظل الحكم الروماني - أن ندخل في الاعتبار بقاء الأساس البوني - الليبي الذي استمر - زيادة على ذلك - في اتباع نمطه الخاص في الحياة والتطور لعدة قرون.

ولا يمكن هنا مناقشة المسائل المعقدة التي يمكن أن يعالجها الأثريون أساساً. ونكتفي هنا بإحالة القارىء الى كتاب شارل بيكار (G. Charles Picard) بعنوان «حضارة إفريقيا الرومانية» (La Civilisation de L'Afrique Romaine) الذي عقد فصلاً هاماً للأدب والفن الافريقي، وحسبنا أن نلفت النظر الى عدة نقاط أولها أن هذه الثقافة الافريقية ليست مدينة فقط للفينيقيين والقرطاجيين بما استوحته من أفكار في أطوارها المبكرة، فعندما بدأ ملاحو الشعوب البحرية - القادمون من الشرق - في التردد على سواحل إفريقيا في بداية الألف الأولى قبل الميلاد، كانت البلاد قد استوعبت - من خلال اتصالاتها بجزر البحر المتوسط - عدة أساليب فنية، مثل ذلك الذي أدى الى ظهور الفخار المرسوم بالألوان المسمى القبلي او البربري، وقد ثبت الآن وجود سكان مستقرين مهيئين في ذلك الوقت لتقبل شكل أولي أو بدائي من أشكال الحياة المدنية المتحضرة، على نحو ما يتضح من مقابر ما قبل التاريخ الجزائرية التونسية (Dolmens)، والمقابر المستطيلة الشكل في شمال تونس (Haounets)، وكذا من



طرابلس (قديماً مدينة أويا)، ليبيا: قوس نصر ماركوس أوريليوس، تفاصيل النصر

الأدوات التي وجدت في الآثار الجنائزية المكتشفة في شمال غرب مراكش(٤١). وفيما بعد فإن الثقافة الفينيقية والبونية مختلطة بعناصر مصرية وشرقية مضافاً اليها التأثير الهلينستي بعد القرن الرابع قبل الميلاد قد تبناها وكيفها السكان الوطنيون قبل - وإن يكن على الأخص بعد - تدمير قرطاجة. وأخيراً فإن المساهمة الايطالية الرومانية - نظراً لكونها أكثر أهمية وفرضت بطريقة مباشرة أكثر وضوحاً - قد ولدت حتماً أشكالاً هجينة مختلفة من الصعب تحديدها. ومع هذا فقد جرت العادة على التمييز بين ثقافتين في إفريقيا، الأولى رسمية ورومانية، والثانية شعبية وأهلية وإقليمية. ولكن هناك - بلا ريب - آثاراً يلتقي فيها الاتجاهان، ويختلط احدهما بالآخر، لدرجة يفقد فيها كل منهما خصائصه الذاتية المميزة.

وتمثل الأعمال المعمارية الافريقية عموماً طرزاً من المباني العامة التي كانت منتشرة في كل أنحاء العالم الروماني، وعلى ذلك تكون قد استلهمت وتأثرت بالأسلوب الفني والنماذج الرومانية. ولم تكن المنحوتات المزخرفة والتماثيل الكبيرة للآلهة والأباطرة والرجال المبرزين مختلفة كثيراً في أسلوبها الفني عن نظائرها في ايطاليا أو في الولايات الأخرى. ومع هذا فإن المنشآت المعمارية والتماثيل المنحوتة المرتبطة بالعادات الدينية وتقاليد الدفن لدى السكان، وكذلك بعض أساليب فنية خاصة، معمارية وزخرفية، كانت تتسم بطابع الفن المحلي وخصائصه: ويتضح هذا من المعابد التي اقيمت للآلهة التي احتفظت بشخصيتها الوطنية رغم تماثلها الظاهري مع الآلهة الرومانية، كما يظهر في بعض الأضرحة، وفي أسلوب فني خاص ببناء الجدران يعرف بالبنيان أو طراز البناء الافريقي (Opus Africum)، وفي المعمار المنزلي، وأخيراً في لوحات (Stelae) النذور التي ظلت تحمل طابع مؤثرات ما قبل العصر الروماني. وفي عهد أسرة سفيروس تأثرت منحوتات لبدة، ومنحوتات المدن الأخرى في طرابلس وولاية إفريقيا البروقنصلية، تأثراً قوياً باتجاه هام، ربما نشأ أصلاً في آسيا الصغرى، وقد تم استيعابه بسرعة لأنه كان متوافقاً مع الاتجاهات القديمة - التي كانت لا تزال قوية - في الفن الافريقي.

ان الفسيفساء التي لا تحصى، والتي القي عليها الضوء منذ بداية هذا القرن تكشف أيضاً عن الاتجاهات والخصائص المحلية. وهنا ثانية يمكن فقط أن نحيل القارىء الى الدوريات المتخصصة، والى كتاب شارل - بيكار سابق الذكر الذي أنهى فصله «أسلوب الباروك في الفن الافريقي» (The African Baroque) بالكلمات الآتية: «خلاصة القول، على هذا، ان إفريقيا أوفت روما دينها، وأظهرت أنها قادرة على جني الفائدة مما اقتبسته وصبغه بروح ليست يونانية ولا شرقية هلينستية(٤٢)».

(٤١) هذا الكتاب الحديث غير تماماً الآراء التقليدية - انظر على سبيل المثال: G. Camps, Paris 1961 and 1960, E.G. Gobert, 1958, pp. 1-144; J. Tixeront, X, 1960, pp. 1-50, P.A. Février, Juin 1967, pp. 107-123.

(٤٢) G.C. Picard, La Civilisation, p. 353.

القسم الثاني

من روما إلى الاسلام

بقلم ب. سلامة

عندما انتهت السيادة الرومانية في شمال إفريقيا، بعد سيطرة استمرت أربعة قرون في بعض الأقاليم، وتصل الى خمسة في أقاليم أخرى، كانت صورة الوضع الداخلي شديدة التعقيد، فقد أدت الثورات الاقليمية والصراعات الدينية والاضطراب الاجتماعي الى تردي الأحوال، ولكن الخبرة الادارية العميقة، ونفوذ الثقافة اللاتينية اعطتا هذه الحضارة المستوردة عدة فرص طيبة للبقاء.

وبسبب الانقسام الى مناطق محتلة واخرى مستقلة طبقاً لتقلبات الغزو الأجنبي او المقاومة المحلية، فإن شمال إفريقيا بعد الرومان وقبل الاسلام عاش فترة من أبرز فترات تاريخه[٤٣].

الأقاليم التي خضعت للاحتلال الأجنبي

خلال فترة تزيد عن ثلاثة قرون، حدث غزوان أجنبيان تباعاً، واستولى فيهما الغزاة على مناطق نفوذ روما، دون أن تتمكن من اعادة تنظيم حدودها كلية.

الغزو الوندالي

لا شيء كان غير متوقع في شمال إفريقيا أكثر من هؤلاء الغزاة الجرمانيي الأصل، الذين كانت سيطرتهم غير ملائمة للظروف الفعلية للبلاد. لقد سبق الوندال الشعوب الجرمانية الأخرى التي

(٤٣) عنواننا «من روما الى الاسلام» مأخوذ من دراسة لها طابع ببليوجرافي أساساً، اعدها كورتوا C. Courtois, في مجلة: Revue Africaine, 1942, pp. 24-55.

اندفعت - مثلهم - نحو غرب أوروبا في سنة ٤٠٦م، واستقر الوندال قبل الجميع في جنوب شبه الجزيرة الأيبيرية، والتي - على ما يظهر - خلدت اسمهم (وندالوسيا = أندالوسيا = الأندلس Vandalusia — Andalusia) ، وسواء دعي الوندال أم لم يدعوا للتدخل في الصراعات الداخلية للسلطة الرومانية في شمال إفريقيا، فقد عبروا مضيق جبل طارق في قوة قوامها نحو ثمانين ألف رجل تحت قيادة ملكهم جزريك (Gaiseric) (جنزريك Genseric) في سنة ٤٢٩م، وحقق زحفهم تقدماً خاطفاً. وفي سنة ٤٣٠م حاصروا بالفعل مدينة هيبو ريجيوس (Hippo Regius) (عنّابة)، وعلم الرومان بسيطرتهم على منطقة قسنطينة في سنة ٤٣٥م، وبعد ثلاثة أعوام أخرى استولوا على قرطاجة، وبعد انسحاب قصير الأمد في سنة ٤٤٢، بدأوا في تنفيذ ثلاث عمليات واسعة النطاق في سنة ٤٥٥م: وهي الضم النهائي لكل المنطقة الشرقية من إفريقيا الرومانية، وغزو أغلب الجزر الكبيرة في البحر المتوسط الغربي وهي البليار وسردينيا وصقلية، وحملة جريئة لنهب روما نفسها. وكانت الامبراطورية الشرقية تأمل في طرد هؤلاء الغزاة، ولكنها منيت بهزيمة بحرية فادحة في سنة ٤٦٨م؛ واعترافاً منها بالأمر الواقع عقدت معاهدة في سنة ٤٧٤م لتقيم بصفة نهائية علاقات طيبة بين البيزنطيين والوندال الذين يمثلون قوة بحرية غالبة في غربي البحر المتوسط.

هل حقق هذا الاحتلال الجرماني لجزء من شمال إفريقيا مدة تزيد على القرن فائدة أو نفعاً؟ عندما يقرأ المرء المصادر الأدبية لذلك العصر - وهي تكشف عن العداء للغاصبين - تروعه وحشيتهم. لكن النقد الحديث نجح في أبعاد الموضوع عن السياق المثير. ان لفظ «الوندالية» كمرادف لروح التدمير، ابتكر فقط في نهاية القرن الثامن عشر، واليوم وفي ضوء أدلة اثرية كثيرة، يبدو واضحاً أن الوندال - ازاء ضعف ادارتهم للاقليم - اخطأوا من خلال الاهمال أكثر من تصميمهم على الخطأ.

ولدينا الآن فكرة - تزداد وضوحاً باستمرار - عن البناء القانوني لدولة الوندال: فالعائلة المالكة تنحدر من الارستقراطية العسكرية، وكل منها يتولى السلطة على الممتلكات الكبيرة، العامة والخاصة، في إفريقيا الرومانية القديمة، والمحافظة على الادارة الرومانية، الاقليمية والمحلية، بما فيها استخدام المجالس الاقليمية القديمة ذات التقاليد الامبراطورية في تدعيم عبادة الملوك الجدد. وبهذا اصبحت قرطاجة العاصمة الغنية للدولة الجديدة. وهذا الاهتمام نفسه بالتقاليد اللاتينية قد اثر في الكيان الزراعي، حيث حكمت القوانين الرومانية القديمة تنظيم حياة الفلاحين، وبخاصة قانون مانكيا (Lex Manciana) ، والتي حُرص على بقائها سارية بمهارة فائقة. ان ظاهرة نزوح السكان من المدن التي بدأت في إفريقيا، كما في كل مكان آخر، في عصر الامبراطورية الأخير ازدادت تفاقماً وحدة، مما أدى الى تدهور العديد من المدن واضطرارها الى خفض نفقاتها. ومن ناحية أخرى فقد مضت مدن معينة أخرى مثل أمايدارا (Ammaedara) (حيدرة) وثيفستة (Theveste) (تبسه) أو هيبو (Hippo Regius) (عنّابة)، مضت قدماً في البناء والتعمير، ويبدو في الواقع - وهو ما يؤكده الابقاء على الاقتصاد النقدي - انه خلال هذه الفترة لم تعان الزراعة ولا التجارة أي تدهور ملحوظ. ويبدو أن العلاقات الخارجية ازدهرت، وسميت كل مجموعة الممتلكات الوندالية «امبراطورية الحنطة»، ويرمز الى ثروة الطبقات الميسورة الحال تلك الحلى الجميلة، ذات الطراز الجرماني، التي عثر عليها في ازمنة مختلفة في هيبو وقرطاجة وتوبوربو مايوس (Thuburbo Malus) ، ومكتار (Mactar) (مكثر).

وفي الجانبين السياسي والديني تبدو الصورة أكثر حلكة وسوءاً. ففي الأجزاء الجنوبية والغربية من مملكة الوندال في شمال إفريقيا تعرض الوندال لمثل هذه الهجمات من «البربر» (Moors) ، وهو المصطلح العام الذي يطلق على متمردي شمال إفريقيا ذلك أنه من المستحيل عملياً تعيين حدود

واضحة للمنطقة التي يسيطرون عليها وليس من شك أنها كانت حدوداً مائجة، وربما لم تمتد في أي وقت غرباً وراء إقليم جميلة - كويكول.

وخيّم على البلاد من جراء الخلاف المذهبي جو من التوتر المستمر. لقد كان الوندال مسيحيين، ولكنهم آمنوا بالمذهب الآريوسي، وهو هرطقة لا يحتملها ولا يتسامح فيها رجال الدين الكاثوليك التقليديون. وأدى هذا الى القمع المنتظم للقساوسة على يد السلطة المركزية التي كانت قليلة الصبر لا تطيق المعارضة في مسائل العقيدة. ووصل العداء للكاثوليكية ذروته إثر انعقاد مجمع زائف في قرطاجة سنة ٤٨٤م.

هكذا أدى استحكام الأزمة الدينية والاجتماعية الى التفكك والانهيار، وهو انهيار عجّل بحدوثه - في الحقيقة - اسراف أو عدم كفاءة خلفاء جزريك. وفي سنة ٥٣٠م أدى قيام جليمار (Gelimer) بخلع الملك هيلدريك (Hilderic) حليف جستنيان - قيصر الامبراطورية الشرقية - الى بدء الغزو البيزنطي(٤٤).

الغزو البيزنطي

قرر بلاط القسطنطينية، الذي اعتبر نفسه الوريث الشرعي للامبراطورية الرومانية أن يطرد الدول الجرمانية الجديدة في الغرب من الأقاليم التي اغتصبتها. وفي شمال إفريقيا أثبتت هذه العملية فعاليتها وجدواها.

ففي سنة ٥٣٣م وبأوامر جستنيان سحقت حملة بقيادة بليزاريوس (Belisarius) القوات الوندالية في ثلاثة أشهر، وهكذا زالت سيادة هذا الشعب من الوجود. وكان أول اجراء بيزنطي هو اصدار مرسوم سنة ٥٣٤م الشهير الذي أعاد تنظيم الهيكل الاداري للبلاد ووضع النموذج الذي يجب ان يحتذى مقرراً سياسة عسكرية وقانونية الطابع، تقوم أساساً على السياسة الرومانية. ولكن الحكومة غفلت عن ادراك انه بعد انقضاء ما ينيف على قرن من التراخي وعدم الانضباط، فإن جمهرة سكان الريف لا

(٤٤) ترجع النصوص الادبية القديمة المتعلقة بالعصر الوندالي في شمال افريقيا الى ثلاثة مؤلفين مشايعين للكاثوليكية، والذين كان عداؤهم واضحاً: وأولهم الأسقف الكاثوليكي فكتور دي فيتا Victor de Vita وكتابه: (Histoire de la Persécution dans les provinces Africaines) and Fulgentius of Ruspe (Opera). والثاني المؤرخ البيزنطي بروكوبيوس Procopius في كتابه: «حرب الوندال» (The Vandal War). وآخر هذه الطبعات: Fraipont, J. 1968; Veh , Munich, Helmeran, 1971). والدراسة الأساسية الحديثة هي دراسة كريستيان كورتوا: Christian Courtois, (Paris, AMG, 1955). وهو كتاب هام يجري تصويبه واستكماله في نقاط معينة بعديد من المقالات الأثرية. وقد درس المسألة برمتها: H-J. Diesner in Vandalen, 1956, pp. 952-992 and (Leipzig, 1966). وقد وضحت مشكلة ملكية الأرض باكتشاف عقود قانونية منقوشة على لوحات خشبية وكسر فخارية (شقف): Courtois, C., Leschi, L. Miniconi, J., Perrat, C., Saumnagne, C., (Paris, AMG, 1952), Février, P.A., And Bonnal, J., Ostraka de Région de Bir Trouch (Bull. d'Archéologie Algérienne II, 1966 - 1967, pp. 239-259). وعن التوسع الاقليمي للمملكة الوندالية الى الجنوب والغرب من نوميديا؛ انظر: Février, P.A. (Bull. d'Arch. Alg. I, 1962-1965) pp. 214-222: cf. Ibid, II, 1966-1967, pp. 247-248, and 1965, pp. 88-91, Diesner, H-J., 1969, pp. 481-490). ويخصوص النظم: Chastagnol, A., (1967), pp. 130-134, Chastagnol A. and Duval, N., 1974, pp. 87-118. وعن حالة المملكة وتدهور المدن بصفة خاصة: Maurin, L., 1968, pp. 225-254). وفيما يتعلق بالمسألة الدينية: Lepelley, C., 1968, pp. 189 - 204). Courtois, C., (Algiers, 1954) ومؤلفات ديسنر Diesner العديدة التي يرد ذكرها في البيليوجرافيا التحليلية: Maier, J.-L., Desanges - Lancel, Analytical Bibliography, 1970, pp. 488-487;, Rome, 1973.

مصطلحات الخريطة
المنشآت العسكرية الرئيسية والقلاع في الاقليم البيزنطي

١) لبدة = لبتس ماجنا من قبل.
٢) طرابلس = أويا.
٣) سبراطة = صبراتة.
٤) بوغرارة = جيجتس.
٥) قابس = تاكابي.
٦) برج يونكا = ماكوماديس مينوريس.
٧) راس قبودية = جستينيانبوليس.
٨) راس سلاكتة = سوليكتوم.
٩) راس ديماس = ثابسوس.
١٠) لمطة = ليبتيمينوس (لبس مينور)
١١) سوسة = هادروميتوم يوستينيانوم.
١٢) هيرجلة = هرية كايليا.
١٣) هنشير فراتيس = أفروديسيوم.
١٤) عين تيبورنوك = توبيرنوك.
١٥) قرطاجة = كرطاجو يوستينيانا.
١٦) باجة = فاجا.
١٧) حمان درّاجي = بولّا ريجيا
١٨) برج هلال.
١٩) عين تبونجا = تيجنيكا.
٢٠) هنشير دير موليا = كوريفا.
٢١) هنشير تيمبرا = ثابورا.
٢٢) تبرسق = ثوبورسيكو.
٢٣) دُجّة (دقة) = ثوجا.
٢٤) عين هيجا = أجبيا.
٢٥) الكريب = موستيس.
٢٦) قرن الكبش = أونوباري.
٢٧) هنشير دوامس = أوكي مايوس.
٢٨) سيدي بلاوي.
٢٩) الكاف = سيكافينيريا.
٣٠) هنشير جزة = أوبوزا.
٣١) ايبا = أوبّا.
٣٢) لوربيوس = لاريبوس.
٣٣) سيدي عمارة.
٣٤) قصر ليمسا = ليمسا.
٣٥) هنشير سغيدام.
٣٦) الكسرا = كوسيرا.
٣٧ جلولة.
٣٨) هنشير أوجاب.
٣٩) سبيبا = سوفيس.
٤٠) حيدرة = أمايدارا.
٤١) جامستيل.
٤٢) تبسّة = تيفستة.
٤٣) هنشير بو بريس.
٤٤) سبيطلة = سوفيتولا.
٤٥) فريانة = ثلبتة.
٤٦) قفصة = كابسا.
٤٧) نيجرين = آدمايوريس.
٤٨) باديس = آذباذياس.
٤٩) ثودًا = ثابوديوس.
٥٠) بسكرة = فيسكيرا.
٥١) طولجة = تولجا.
٥٢) تونا = ثوبوناي.
٥٣) قصر بيليزما.
٥٤) عين زانا = ديانا فيترانوروم.
٥٥) عين القصر.
٥٦) لاميز = لامبيس.
٥٧) تمجاد = تاموجادي.
٥٨) هنشير غبسيس.
٥٩) باغاي = باجاي.
٦٠) خنشلة = ماسكولا.
٦١) هنشير أم كيف = كيدياس.
٦٢) قصر الكلب = فيجيسيلا؟
٦٣) هنشير شيراجريج.
٦٤) تاورا = ثاجورا.
٦٥) مداوروش = ماداروس.
٦٦) تيفش = تيباسا.
٦٧) خميسة = ثوبورسيكو نوميداروم.
٦٨) قالمة = كالاما.
٦٩) بمنونة = تبيليس.
٧٠) قصر أجليج.
٧١) قصر سباهي = جاديوفالا.
٧٢) عين البرج = تيجبيسيس.
٧٣) جبل فروخ.
٧٤) قسنطينة = قسطنطينة.
٧٥) فيج سيلا = سيلا.
٧٦) ميلة = ميليف.
٧٧) سطيف = سيتيفس.
٧٨) زراية = زاراي.
٧٩) خربة زعبيا = كيلاّس.
٨٠) عين توميلا - تامالّولا.
٨١) ود كسوب.
٨٢) بمشيلجة = زابي يوستينيانا.



المرحلة البيزنطية في شمال افريقيا: بيان الانشاءات العسكرية والحصون والمدن

أسماء أماكن ليس تحتها خط:
آخر الأدلة المؤرخة للمدن والآثار في افريقيا المستقلة:
سيدي فريج (سيدي فروش): نقش كنسي سنة ٥٣٨/٤٤٩
موزايفيل: نقش جنائزي (كذلك أشياء من القرن ٦) س ٤٩٥
بيرواغيا= زابا: نقش كنسي،س٤٧٤
عين توتا: نقش كنسي،س٤٦١
الأصنام = كاستيلوم تينجيتانوم: نقش كنسي، س ٤٧٥
غليزان = مينا: نص كنسي، س ٥٢٥
تيارات (تاهرت): نقوش جنائزية، س ٥٠٩
جدران فرندة: مقابر جنائزية من القرن ٥ الى ٧(؟)

السيق= تاساكورا: نقش جنائزي،س٤٥٠
اربال = ريجياي: نقش جنائزي، بعد س ٤٩٤
بوحنيفة = اكواي سيرينسيس: نقوش جنائزية، س ٥٧٧
بينان = الاميلياريا: نقوش جنائزية نهاية القرن الخامس.
عين تموشنت = البولاي (سفارا؟) نقش جنائزي، س ٥٤٤
اولاد ميمون = التافا: نقش جنائزي، س ٥٩٩
اولاد ميمون = التافا: نص مدون على الحجر س ٦٥٥
تلمسان = بوماريا: نقش جنائزي، س ٦٥١
جويتنا: نقش جنائزي، س ٥٢٤
مارنيا = نوميروس سيسرووم: نقش جنائزي، س ٤٦٠

ولكن الاحتلال يمكن مقارنته باحتلال تلمسان بالقرب من ودجه: عملات، النصف الأول من القرن السابع
فولوبيليس (وليلي): نقش جنائزي، يخص اصحاب المقام الرفيع في التافا، س٦٥٥
سوق الجور: نصب جنائزي، القرن السابع
سيدي سليمان دي زايرس: عملات، النصف الأول من القرن السابع
شلا (سلا)= سالا: وزن بيزنطي، القرن السادس
العرائش= ليكسوس: عملات، النصف الأول من القرن السابع
طنجة= تينجيس: عملات، النصف الأول من القرن السابع

أسماء الأماكن التي تحتها خط:
مدن احتلها البيزنطيون تقع خارج المناطق المحمية:
بجاية= سالداي، ربما تم احتلالها
أزفون= روزاسو (س)، ربما تم احتلالها.
تيجزيرت= اموبوم، منطقة استحكامات بيزنطية.
دلس= روسوكورو بها أشياء بيزنطية.
تامنتفوست= روسجونياي، بها نقوش بيزنطية.
تيامس (تيفش)= تيباسا، بها عملات بيزنطية.
شرشال= قيصرية، نصوص.
سبتة (سبوتا)= سبتم، نصوص.

الحدود الحالية بين مراكش والجزائر وتونس وليبيا.

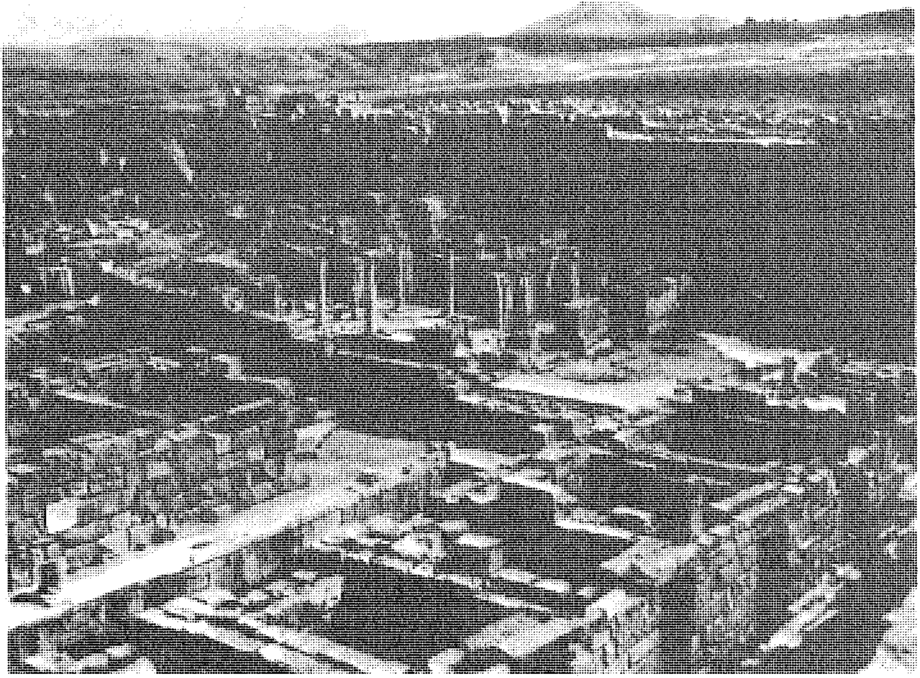
يمكن ان تنصاع أو تذعن لصرامة الادارة المحافظة. في الواقع أن ما تحقق خلال قرن ونصف من الاحتلال البيزنطي في شمال إفريقيا هو بعض المنجزات التي لا تنكر في ميدان البناء في مواجهة ما سبق من اضطراب دائم.

لقد كانت إعادة فتح البلاد - في حد ذاتها - عملية شاقة، وتبدو كأنها - الى حد ما - استباق للفتح العربي ثم الفرنسي في القرنين السابع والتاسع عشر على التوالي. فما ان أزيح شبح القوة الوندالية التي تقارن بالادارة التركية فيما بعد حتى واجه الغزاة مقاومة الزعماء الوطنيين، وكان التغلب عليهم عملاً شاقاً بطيئاً، تحقق سواء بالقوة أو بالحيلة. ومن سنة ٥٣٤م الى سنة ٥٣٩م، قُمعت حركة تمرد النبيل سولومون (سليمان) (Solomon) وهو قائد موهوب ولكنه عنيف، لم يلبث أن قتل على يد سكان الجبل من أتباع يفداس (Iavdas) في جبال الأوراس، والبدو من أتباع كوتزيناس (Coutzina) وآنطالاس (Antalas) في سهول تونس - طرابلس. وانتهج خلفه يوحنا تروجليتا (Johannes Troglita) اتجاهاً أكثر التواء في مواجهة امراء البربر، ففرق بينهم بالتآمر، او تخلص منهم بالاغتيال ولكن الهدوء الذي حصل عليه كان وهماً (٥٤٤-٥٤٨)، فقد استمر الاضطراب منذ ذلك الحين حتى نهاية القرن السابع. ولا يحتاج المرء الا لدراسة خريطة تبين حصون البيزنطيين في شمال إفريقيا ليفهم أن «استراتيجية القلاع» التي تسدّ طرق الغزو وتحتل كل نقط العبور وتدافع عن البلاد من اقصاها الى أقصاها، كانت دليلاً على استمرار حالة تيقظ وحذر من العدو الذي يكمن مهدداً بالانقضاض في كل مكان. وطبقاً لهذا حلت محل الروح الهجومية القديمة تكتيكات دفاعية تعكس حالة من القلق النفسي.

وفي نهاية القرن السادس وبداية السابع قام الامبراطور موريقيوس تيبريوس وبعده الامبراطور هرقل بمحاولة يائسة لتقصير خط الدفاع بتقليص مساحة الأراضي المحتلة. لكن المحاولة كانت غير مجدية وذهبت سدى. وذلك ان التوسع البيزنطي لم يكن قادراً على الامتداد غرباً وراء اقليم سطيف، ولم توضع حاميات الا في عدد قليل من المدن الساحلية البعيدة. ولكنها لما كانت محاصرة تماماً من «البربر» فقد كانت أيضاً بمثابة نذير بموقف عسكري شهير لاحق، هو موقف الحاميات الاسبانية (Presidios) في القرن السادس عشر.

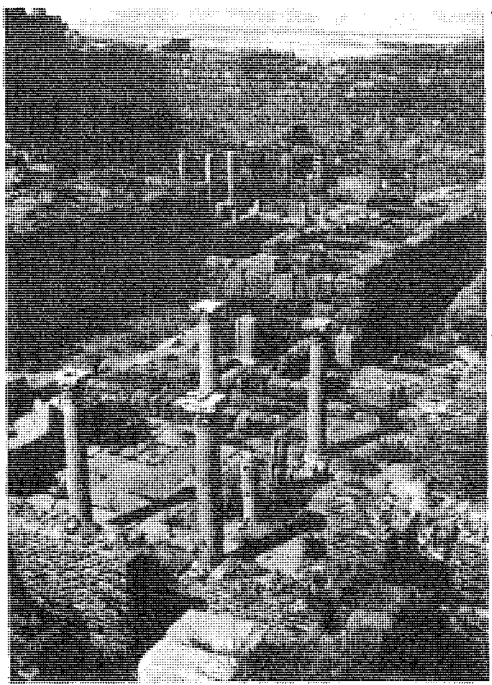
وبهذا الصدد فمن مفاخر البيزنطيين أنهم نجحوا في ممارسة سلطتهم في المجالين الاداري والاقتصادي. وقد استمرت المدن الرومانية القديمة في التدهور وتناقص سكانها في ظل الحصون القوية التي شكلت قلاعهم، مثل تبسة وحيدرا او تمجاد. وعين على الولايات القديمة - التي اعيد تنظيمها بطريقة متكلفة أحياناً - ولاة تحت سلطة حاكم بريتوري (Praetorian Prefect) يقيم في قرطاجة، ولكنها كانت منفصلة تماماً عن السلطة العسكرية. وفي نهاية القرن السادس تركزت كل السلطة فعلاً في يد حاكم أعلى يحمل لقب إكسرخوس (Exarchos) أو نبيل من الفئة الأولى (Patricius).

وكان من الطبيعي ان تسعى السياسة المحلية المنبثقة من الأنظمة الرومانية إلى استعادة ايراد الضرائب القديمة. وعلى ذلك فقد أعيد تحصيل ضريبة الأنونا (Annona) وهي الضريبة السنوية التي تدفع قمحاً. وبعد مصادرة الأراضي الملكية الوندالية اعيدت الممتلكات الخاصة الى أصحابها السابقين، وامتد البحث الى الجيل الثالث من الأحفاد اذا اقتضى الأمر. ويمكن للانسان ان يتصور عدد ما أثارته هذه العملية من منازعات قانونية واخرى حول مصالح مادية. في كل منطقة كانت الضرائب تعتبر عبئاً ساحقاً. ومع هذا كانت الحياة الاقتصادية مزدهرة نسبياً، وأدت المحافظة على الاقتصاد النقدي، في كل المعاملات المالية، وتسليم التجارة الخارجية لوكلاء رسميين، الى اكتساب



١

٢



١ : تمجاد، الجزائر:
حصن بيزنطي، القرن السادس،
السور الجنوبي - مساكن الضباط
والكنيسة الصغيرة الملحقة بها.

٢ : تمجاد، الجزائر،
حصن بيزنطي، القرن السادس

قرطاجة ومناطقها الداخلية شهرة بالثراء العريض في عالم البحر المتوسط، ولا سيما منذ أصبح جانبا مضيق صقلية تحت سيطرة البيزنطيين ويثور الشك حول ما اذا كان سكان ريف شمال إفريقيا قد استفادوا الى حد كبير من هذا الرواج العام.

وفيما يخص الشؤون الدينية أعاد السادة الجدد المذهب الديني التقليدي أي الكاثوليكية الصحيحة القويمة واجتثوا «الآريوسية» من جذورها. وتم القضاء على «الدوناتية» التي انتعشت مؤخراً، والتي كانت منتشرة من قبل في إفريقيا الرومانية، وقد اعتبرت - وهذا صحيح - مظهراً من مظاهر الصراع الاجتماعي. وانهمك البيزنطيون في جدل ديني حول مذهب الادارة الواحدة (Menothelitism) وهي مناقشات عقيمة حول الطبيعة الالهية والطبيعة الانسانية للمسيح، وحتى عند حدوث الفتح الاسلامي كان رجال الدين - في شمال إفريقيا - ممزقين أشتاتاً بسبب هذه المسألة.

ومنذ ذلك الوقت كان انتشار العصيان الاداري أو التمرد العسكري، وسوء استخدام السلطة، والفساد في المناصب العليا، رغم التهديد البربري الدائم، كان ذلك كله ينذر - عاجلاً أو آجلاً - بالانهيار المحتوم. وقد انقضى حوالى خمسين عاماً من ٦٤٧ - ٦٩٨م قبل أن يتمكن الزائر الجديد غير المنتظر، وهو الفاتح العربي، من إزالة آثار الحكم البيزنطي الى الأبد.

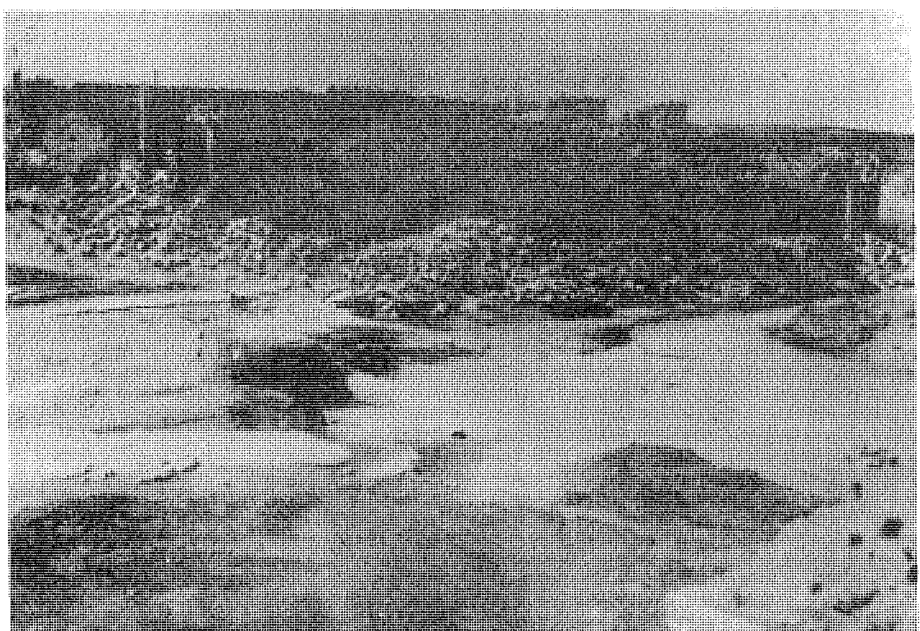
وبغض النظر عن الأهمية التاريخية لهذه الفترة فقد حفظ الزمن بعض آثارها الرائعة. وتكشف القلاع الضخمة البناء والكنائس المبتكرة العمارة او الزخرفة، والتي كانت احياناً ذات طراز فخم، مثلما هي في صبراتة او قليبية (Kelibia)، عن روح عالية من المثابرة والايمان(٤٥).

---

(٤٥) توجد المادة التاريخية من العصور القديمة المتعلقة بإفريقيا البيزنطية في مؤلفات المؤرخ الاغريقي بروكوبيوس Procopius الذي كان بحق «مراسلاً حربياً» خلال اعادة الغزو: كتاب: The Vandal War (انظر هامش ٤٤). وكتاب: The Buildings (Ed., Dewing, London, Loeb, 1954) وباللاتينية الشاعر كوريبوس Corippus الذي اهتم بسيرة يوحنا تروجليتا العسكرية ضد البربر (Moors)، The Iohannis (ed . Partsch, Leipzig, Teubner, 1879) and ed. Diggle - Goodyear (Cambridge — Univ, Press, 1970). ولا يزال المرجع النقدي الأساسي عن هذه الفترة هو كتاب ديل: Diehl, C., pp. 533-709. (Paris, Leroux, 1896). ومنذ ذلك الحين فإن الاكتشافات الأثرية والبحوث حول النقاط التفصيلية قد تعددت. ونحن نذكر فقط أحدث ما نشر. وفي التاريخ بمعنى الكلمة؛ انظر: Belkhodja, K., (Proceedings of the 2nd International Congress on North Africain Studies, Revue de L'Occident Musulman et de la Méditerranée, Aix - en - Provence, Special Issue, 1970, pp. 55-65). وعن الحدود الجغرافية للاحتلال؛ انظر: Desanges, J., Brussels, XXXIII, 1963, pp. 41-69. وقد درست التحصينات بتفصيل أكثر في: Goodchild, R-G., Ravenna, 1966, pp. 225-250; Jones, A.H.M., 1968, pp. 289-297; Lancel, S., and Pouthier, L., 1957, pp. 247-253; Lassus, J., Algiers, IV, 1956-2, pp. 232-239; Romanelli P. Rome, X-7, 1970, pp. 398-407; Lassus, J., Bucharest, 1971, 1975, pp. 463-474; وعن المسائل الدينية: Champetier, p., (revue Africaine, Algiers, 1951, pp. 103-120; Berthier, A., II, 1968, pp. 283-292; وبصفة خاصة: Duval, Y., and Février, P-A. 1969—1, pp. 257-260. أما العمارة الدينية والفسيفساء والنقوش خلال نفس الفترة فقد درست - فيما يتعلق بحيدرة (أمايدارا) وسبيطلة (سوفيتولا) - دراسة أساسية رصينة في كتاب: Duval N., (Paris, Bibl. Ecoles Françaises Athènes et Rome, 1971), cf. Duval, N., and Baratte, F., (Tunis. STD, 1973) and (Ibid, 1974), ويتضمن الكتابان المذكوران ثبتاً كاملاً بالمراجع. cf. Cintas , P. and Duval, N., (Karthago, IX, 1956, pp. 155-265; Fendri, M., (University of Tunis, 1961) Duval, N., Tunisie, VIII, 1974, pp. 157-173; De Angelis d'Ossat, G., and Farioli, R., Rome, 1975, pp. 29-56. وأصدر موريسون C. Morrisson كتالوجاً عن أكداس النقود المخبوءة والعملات البيزنطية التي صدرت عن دار سك العملة في قرطاجة: (Paris, 1970) وقد كشف حديثاً عن خبيئة من العملة الذهبية في الحفائر التي أجريت في روجة بالقرب من الجم في تونس، وليس من شك أنها اخفيت في عصر بداية الفتح العربي للاقليم في سنة ٦٤٧: Guery, R., Paris, 1972, pp. 318-319.



حيدرا، تونس: الحصن البيزنطي، القرن السادس: منظر جزئي



حيدرا، تونس: حصن بيزنطي، القرن السادس، منظر عام

الأقاليم المستقلة

اذا أخذنا بعين الاعتبار ان إفريقيا الرومانية، في عصر الامبراطورية الأخير، قد تعرضت لطائفة من المتغيرات السياسية والاجتماعية، أمكننا أن ندرك مدى استفادة البلاد من قدوم الوندال باعتباره عاملا ساعد على انطلاق النزعات القومية القديمة من عقالها.

لقد استعادت «إفريقيا الخالدة» حقوقها، ولم يعد الوجود الأجنبي - قريباً كان أو بعيداً - يعتبر عبئا ثقيلاً، قد يكون من الوهم إذاً أن نفرق - بمفهوم علم النفس - بين الأقاليم التي يحكمها أمراء البربر، وتدين بالولاء الاسمي للسيادة الوندالية أو البيزنطية، والأقاليم التي كانت مستقلة تماماً. فالأولى - وتقع على تخوم الأقاليم الواقعة تحت الاحتلال الأجنبي - استقلت بادارة شؤونها الداخلية الى حد انها أخذت تنفصل تماماً عن السلطة المركزية. وقد وافق الحكام البيزنطيون - في الواقع - على منح رتب واسناد مناصب رسمية الى يفداس (Ivadas) في الأوراس، والى جيونفان (Guenfan)، وأنطالاس (Antalas) وكوتزينا (Coutzina) في السهوب التونسية العليا، وإلى كاركازان (Carcazan) في طرابلس، وكان هؤلاء «الاتباع» جميعاً يديرون الأقاليم التابعة لهم بحرية، ولم يعد هناك سبيل في الواقع لانتزاع هذا الحق منهم.

وبخصوص المناطق التي كانت متحررة تماماً من التدخل الخارجي، فإن بعضاً منها، نظراً لوقوعه بعيداً عن السيطرة الوندالية أو البيزنطية، فيما عرف سابقاً باسم موريتانيا القيصرية وموريتانيا الطنجية، قد تمتع بالاستقلال الكامل من ٤٢٩م وما بعدها، ولم يتدخل حكامها في شؤون جيرانهم الا لنيل بعض مكاسب شخصية.

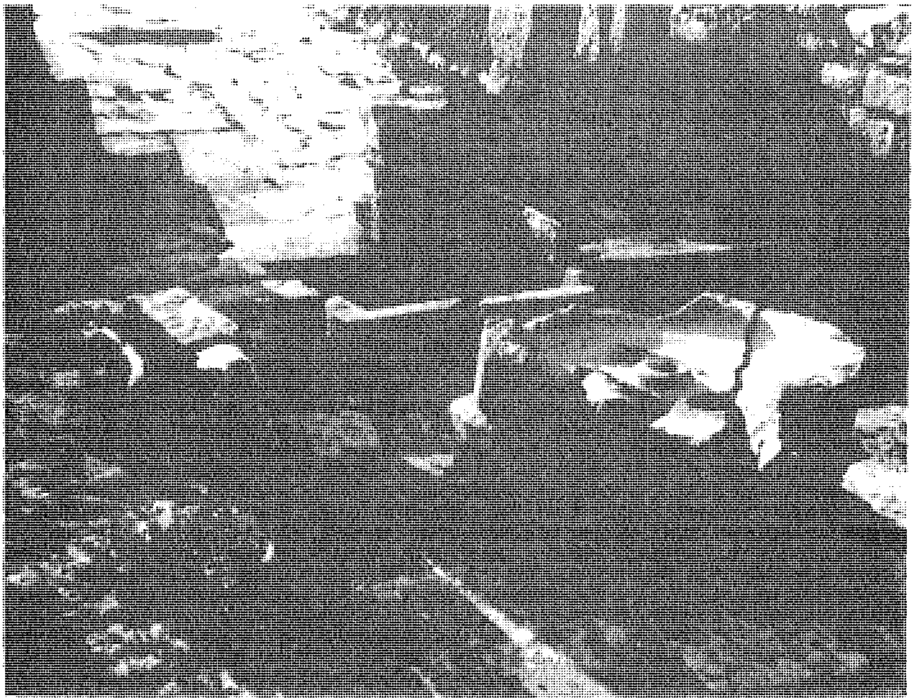
وهنا نلتقي ثانية بظاهرة رئيسية متكررة في التاريخ المغربي في العصور القديمة، وهي الميل نحو الانقسام والتنافس الاقليمي في لحظة اختفاء القوة المركزية وعندئذ تحكم الاعتبارات الجغرافية التقسيم السياسي.

ولسوء الحظ فإن المعروف عن صورة شمال إفريقيا المستقلة بعد الرومان قليل جداً، وقد تكونت بعض الممالك هناك باتحاد فيدرالي بين وحدات اجتماعية - سياسية كبيرة، ولم نستدل عليها الا باشارات طفيفة في المؤلفات، أو اكتشافات أثرية وليدة المصادفة. فكان هناك مثلاً - في بداية القرن السادس في اقليم التايا (Altaya) وتلمسان حكومة ماسونا (Masuna)«ملك البربر والرومان»، وبعد ذلك بقليل، في الأوراس منطقة المدعو ماستيس (Mastles) : القائد (Dux)لمدة ٦٧ عاماً والامبراطور (Imperator) لمدة ٤٠ عاماً، والذي لم ينكر ولاءه قط «سواء للرومان أو للبربر»، وكان فارتيا (Vartaia) حاكماً محلياً آخر يدفع الجزية، وربما كان حاكماً على منطقة الحضنة وليس من شك ان مدينة تيارات (تاهرت) وهي قلعة سابقة من قلاع «الثغور» الرومانية، ذات الموقع الممتاز عند التقاء عالمي البدو والحضر، كانت أيضاً منذ القرن الخامس عاصمة لأسرة ملكية ما زال يرمز لقوتها بـ«جدرات فرندا» وهي مقابر عظيمة بالغة الفخامة، وربما ينبغي ايضاً ان ننوه في هذا الصدد بملك موريتانيا القوي جرمول (Garmul) الذي دمر جيشاً بيزنطياً في سنة ٥٧١م. وأخيراً ففي القرنين السادس والسابع وجدت امارة محلية في تنجيتانا (Tingitana) (منطقة طنجة) البعيدة في الجزء الشمالي حيث مراكش الحالية، والتي تشهد على قوتها النقوش التي عثر عليها في فولوبيليس (Volubilis) (وليلي) وضريح سوق القور.

وفي أغلب الحالات يكشف التنظيم الاجتماعي - السياسي عن صورة لا هي تخطيطية ولا هي فوضوية الطابع، وتجمع المؤسسات الاصلية بين التقاليد البربرية والنموذج الاداري الروماني. لقد ارتبط البربر والرومان، وهو ارتباط يتضمن قطعاً معنى المشاركة بين أهل الريف، غير المصطبغين بالصبغة الرومانية وسكان المدن الذين عاشوا قروناً في ظل التأثير اللاتيني. ومن ثم لم تكن هناك - على ما يبدو - مقاومة او معارضة للتراث الاداري والثقافي الذي كان أجنبياً في الأصل، والذي كان - احياناً - مصدر بعض الاعتزاز. وتبين الخريطة التاريخية التي رسمناها لهذه الأقاليم بقاء مراكز مدنية صغيرة مثل تاهرت وألتايا (Altaya)، وتلمسان، ووليلي، التي ظلت مسيحية الطابع، حيث كانت اللاتينية لا تزال مستخدمة حتى القرن السابع.

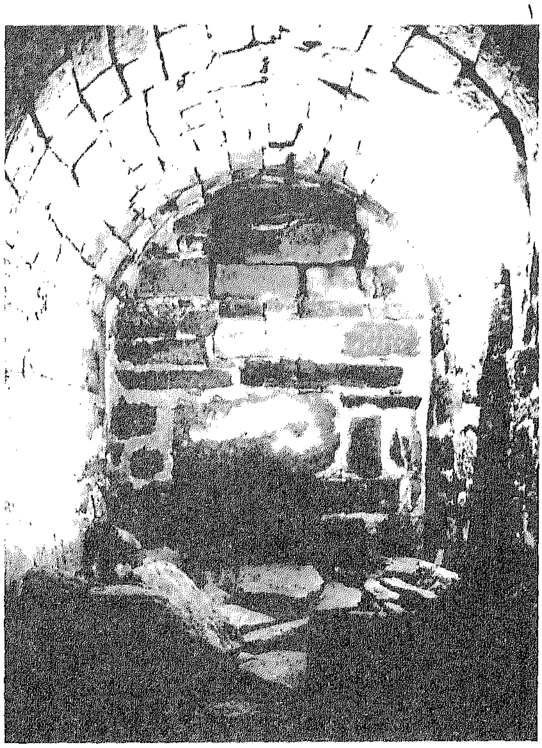
ولكن يجب ألا نخدع بوجود هذه التأثيرات المتبقية. فالمستقبل لم يكن بيد ملوك صغار يشدهم الى الماضي حنين لاستعادة هيبة زالت، ولكنه كان يكمن في كفاح مستميت من اجل الاستقلال والخلاص، ومن شأنه استثارة همم جمهرة أهالي الريف. لقد التزمت المنطقة كلها بالمضي قدماً - دون رجعة - في سبيل التخلص من التأثير الروماني، وحتى من الطابع المسيحي، وهي عملية اتخذت اشكالاً مختلفة، وتطلبت فترات مختلفة من الزمن حسب طبيعة الموقع. وقد ظهر هذا الاتجاه بشكل فوري وبدائي في الهجوم الذي شنه في كل مكان سكان الجبال والبدو على رمز الثروة التقليدي ألا وهو المدن والملكيات الزراعية. ونحن نعلم أن مدن جميلة (Cuicul)، وتمجاد (Thamugadi)، وفريانة (Thelepte)، وغيرها من المدن الشهيرة قد خربت قبل وصول الجيوش البيزنطية. ان فحص المصادر الاثرية والأدبية فحصاً دقيقاً، وبصفة خاصة اكتشاف العديد من خبايا النقود، قد أزاح النقاب عن وقوع اضطرابات انتهت بقيام ثورة عامة في آخر القرن الخامس. وفي نفس الوقت تبين العمليات التي قامت بها غالبية قبائل البدو في جنوب تونس وطرابلس مثل قبيلة الليفاث (Levathes) أو لواته تبين الدور الكبير الذي لعبته الابل في الاقتصاد العام، ومن تنظيم القوات العسكرية في القرنين الخامس والسادس. وللتغلب على هؤلاء البدو في البلاد المكشوفة كان على الجيش البيزنطي أن يواجه حلقة ثلاثية من الحيوانات، كل منها مربوط بالآخر وكان عليه أن يقطع طوق هذا البرج المتحرك بحد السيف. ومع هذا كانت هناك عمليات حربية ضد الأجانب: الوندال والبيزنطيين، بالاضافة الى ذلك، فقد عانت الأقاليم المستقلة ذاتها اضطرابات مشابهة، وحروباً داخلية في الأقليم، أو اشتباكات محلية.

ووراء أحداث الاضطرابات هذه والتي نشرت العنف لفترة طويلة حتى تم التوصل في النهاية الى نوع من التوازن يمكن ان نتصور خلفية اقتصادية واجتماعية أدت الى فقر تدريجي للشعب عموماً. وفي الاحصائيات التي لدينا - على سبيل المثال - عن عدد الاسقفيات في عام ٤٨٤م في موريتانيا القيصرية لا نزال نلتقي باسماء معظم مدن إفريقيا الرومانية القديمة. وحتى لو افترضنا أن العديد منها قد انخفضت مكانته الى وضع القرية، فإنها مع ذلك، كانت موجودة ويشير الاستمرار في تشييد الكنائس وتزيينها بالفسيفساء مثلما هو الحال في مدينة الأصنام، الى نشاط خلاق يقوم بصفة أساسية على مصادر الثروة الباقية. وليس من شك أنه كانت لا تزال تجني فائدة من القوة الدافعة للعهد السابق. ومع ذلك لم يكشف علم الآثار في الواقع عن شيء من هذا القبيل في القرنين السادس والسابع. هكذا استمرت ظاهرة هجر المدن في نفس الوقت الذي صار فيه هذا المجتمع الجديد - ذو النمط الريفي الواضح - وهو ما نصادفه في كل مكان في العصور الوسطى اللاحقة، مجتمعاً متماسكاً موحداً.



١

٢



١: سبيطلة، تونس: معصرة للزيت تقع في شارع قديم في المدينة الرومانية (القرن السادس - السابع)

٢: جدار في ترناتن، بالقرب من فرندة، الجزائر: القرن السادس، غرفة الدفن

ما هي الآثار الهامة التي خلفتها لنا هذه الفترة الأخيرة؟ ان الأقاليم القريبة من سواحل موريتانيا – حيث عاش البيزنطيون عيشة انزواء واستكانة كانت مفتوحة تماماً للتأثيرات، فعلى سبيل المثال عثر على شمعدان برونزي جميل مؤرخ بالقرن السادس في اطلال موزايفيل (البليدة) جنوب تيباسا (Tipasa). كما نال موقع كارتينا (Cartenna) (تنّس) الشهرة بكشف واحد من أكبر كنوز الجواهر الذهبية والآنية الفضية المعروفة في العالم القديم، ويضم بصفة خاصة الشعارات الرسمية لبعض ذوي المناصب العليا في الامبراطورية. وما زال وجوده في هذا المكان البعيد سراً غامضاً، ويعتقد المؤلف أن كل هذه الجواهر قد سرقت، وربما كان لها صلة بنهب روما الذي اقترفته، كما تخبرنا النصوص، في سنة ٤٥٥م القوات الوندالية، بالاشتراك مع قوات من البربر (Moors).

ولكن ما ان نبتعد عن المناطق الساحلية والأقاليم الواقعة تحت الاحتلال الأجنبي حتى نجد ان نشاط البناء قد توقف في نهاية القرن الخامس. ومع هذا فهناك استثناءان هامان من هذا التعميم، يتمثلان في المقابر الشهيرة التي في شكل الأنصاب الضخمة حيث يسترد فن البناء سابق روعته وتألقه دون ضرورة التأثر بأي مؤثر اجنبي، ففي مراكش يقوم ذلك الضريح الضخم في سوق القور الذي يمكن ان يؤرخ بالقرن السابع. وفي الجزائر جدران فرندا، التي يمتد تاريخ بنائها من القرن الخامس الى القرن السابع(؟) – وهي آثار تكشف عن نشاط معماري قد يكون من المتعذر تعليله لو أن هذا المكان أو ذاك كان يعاني من حالة فقر مدقع. ولا غرابة في أن اولى الممالك الاسلامية في المغرب الأوسط والغربي وهي دولة الرستميين في تاهَرْت، ثم بعد ذلك دولة الادارسة في وليلي (فولوبيليس)، قد نشأت اصلاً – وعلى وجه التحديد – في هذه الأماكن عينها.

وبهذا ينتهي العصر القديم في هذه الأقاليم، مختلطاً في احداثه، وفيه ادت التقلبات الاجتماعية والسياسية تدريجياً الى تلاشي التأثير اللاتيني، مظهرة الروح الاستقلالية التي لا تخمد، وروح العزم والتصميم على بلوغ الهدف، وهي السمة المميزة الثابتة لتاريخ شمال إفريقيا(٤٦).

---

(٤٦) هناك فقط اشارات متفرقة إلى الوضع في الأقاليم المستقلة في المصادر القديمة، وترد ضمن مؤلفات بروكوبيوس Procopius، وكوريبوس Corippus – على سبيل المثال – عندما يتعرض البربر للتدخل السياسي الوندالي والبيزنطي، كما تتضمن سيرة يوحنا تروجليتا المسماة: (Iohannis) (للشاعر اللاتيني كوريبوس، راجع هامش ٤٥) مئات من الملاحظات عن احوال المجتمع الوطني المحلي، ولكن أدلتنا الرئيسية مستقاة من الكشوف الأثرية، وهناك تحليل للوضع يتميز بعمق الادراك ونفاذ البصيرة بقلم: .Courtois, C., (pp. 325-352). وقد علق عدة كتّاب على النقش المسجل تكريماً لماستيس Mastles, والذي عثر عليه في سنة ١٩٤١ في أريس بإقليم الأوراس، انظر ما نشره Carcopino, J., 1956, pp. 339-348,– منذ عهد قريب – رداً على تعليقات كورتوا. وقد درست اطلال فولوبيلوس على يد كَرْكوبينو: Carcopino, J. (Paris, 1948, pp. 288-301). وعن أحدث الأدلة المستمدة من النقوش؛ انظر: Marcillet - Jaubert, J. (Aix en Provence, 1966) وحول الثورة الكبيرة في نهاية القرن الخامس؛ انظر: Salama, p. «Deux Trésors monétaires du V° Siecle - en Petite Kabylie» (Bull. Soc. Nat. Antiquaires de France, 1959, pp. 238-239, - Summary). وعن وصف الوضع الاقتصادي والمالي في الأقاليم المستقلة: Turcan, R., 1961, pp. 201-257, وكذلك أجرى هيرجون Heurgon, J. (Paris, 1958). دراسة ممتازة عن الحلي، خرج بنظرية مفادها أنها تخص أسرة غنية عاشت في تنسي (كارتينا) ولكن طابع الانتقاء في المجموعة يرجح أنها مسروقات جمعها أحد اللصوص. وبخصوص استمرار حركة البناء بعد ٤٢٩م، انظر على سبيل المثال: Février, P.A. (Paris, CNRS, 1965). وكانت المقابر الملكية الرومانية السابقة موضع دراسة تحليلية حديثة جداً أجراها: Camps, G., 1974, pp. 191-208, وبصفة خاصة Kadran F., (Algiers, In Press 1978). وبخصوص وجود مجتمعات مسيحية استمرت تتحدث اللاتينية خلال شطر كبير من العصور الوسطى الاسلامية، وبصفة خاصة في تلمسان (بوماريا) وبجاية (سالداي) والقيروان، وطرابلس، انظر: Courtois, C., Paris, 1945, pp. 97-122 and 193-226; Mahjoubi, A., Tunis, I, 1966, pp. 85-104.

الفصل العشرون

الصحراء في التاريخ القديم

بقلم: ب. سلامة

إن الفكرة التقليدية عن العصر اليوناني - الروماني القديم تبدو - بداهة - متعارضة مع دراسة مسائل الصحراء فهذه لها تقسيم دقيق خاص بها، ولنأخذ مثالاً واحداً: ففي علم آثار البحر المتوسط يستغرق العصر اليوناني - الروماني فترة ألف عام تقريباً، من القرن الخامس قبل الميلاد الى القرن الخامس بعد الميلاد، ولكن عصر ما قبيل أو فجر التاريخ (Protohistory) للصحراء يشمل الفترة من نهاية عصر الجياد (الحصان) وجزءاً من العصر الليبي - البربري، وهاتان الفترتان غير مؤرختين تأريخاً دقيقاً، وعلى هذا فإن أي ترتيب زمني يقيني للأحداث يبدو أمراً مستبعداً في هذه الحالة.

ومع هذا فخلال هذه الألف ذاتها شهد عالم الصحراء أحداثاً هامة جداً، تتعلق في جزء كبير منها بتاريخ العالم اليوناني - الروماني، وعلى هذا فلست بمتردد في استخدام مقاييس الزمن الكلاسيكية المسلم بصحتها لكل العالم المعروف وقتذاك.

كيف عالج المؤرخون مسألة الصحراء القديمة؟ أولاً يجب فحص النصوص الأصلية اليونانية - اللاتينية: وبينما نجد أن المعلومات المتوافرة غير موثوق بها دائماً ومدعاة للخطأ فإنها - بوجه عام - ذات قيمة. أما الخطوة التالية فهي استخدام طرق البحث الحديثة لتصحيح المعلومات الغثة شيئاً فشيئاً والقاء الضوء على المشكلة برمتها. واذا ما فعلنا ذلك فإن تاريخ الصحراء القديم لن يعود ليحكم عليه فقط من الخارج، انه سوف يكشف عن ذاتيته.

النصوص الأصلية المعاصرة والمغالاة في تفسيرها

نحن نعرف الطرق التحليلية للجغرافيين والمؤرخين القدماء، انهم لعدم قدرتهم على زيارة الأقاليم بأنفسهم جمعوا المعلومات المتداولة، والتي تحوي قدراً كبيراً من الخطأ والخرافة. كانت الصحراء الكبرى «أرضاً مجهولة» (Terra Incognita) ولم تعرف بأي اسم معين. ولم يطلق – حتى وصول العرب – اسم الصحراء (Sahara) على هذه المنطقة الشاسعة التي تشبه الحوض الهائل. ولم يتحدث الاغريق وبعدهم الرومان الا عن «ليبيا الداخلية» وهو اصطلاح جغرافي مبهم يشير الى ما يقع وراء أراضي شمال إفريقيا، أو عن «أثيوبيا الداخلية»، وهي منطقة تقع أبعد جنوباً وقد اشتق اسمها من الجلود السوداء لسكانها، وعلى هذا فقد امتلأ وصف هذه الأقاليم، التي اخافت المعاصرين بغموضها التام – بتفاصيل خرافية يظهر فيها الناس والحيوانات في أشكال غريبة مضحكة أو بشعة مفزعة.

ومع هذا، وحتى اذا لم يستطيعوا دائماً أن يتجنبوا سرد الأساطير، فإن الكتاب الجادين سجلوا معلومات قيمة، وبمرور الوقت نجد أن قيمة مؤلفاتهم تتزايد نسبياً، بلا شك، مع تقدم الاستعمار الاغريقي الروماني في إفريقيا الذي جعل الناس مدركين للحقائق.

ومنذ وقت مبكر نحو منتصف القرن الخامس قبل الميلاد حصل هيرودوت على معلومات من الدرجة الأولى – في مصر – عن وجود سكان الصحراء وعاداتهم على الحدود الجنوبية من طرابلس وبرقة، ونحن نجد في كتاباته حديثاً عن الجرمانتيين الصيادين من سكان الكهوف الذين يستخدمون عربات يجر كل منها أربعة جياد (التاريخ، ٤، ١٨٣) ونجد الناسامونيين (المصدر عينه، ٤، ١٧٢ – ١٧٥) الذين يندفعون وراء الرمال القفر الموحشة في بلاد الرجال ذوي الجلود السوداء لكشف نهر مليء بالتماسيح مثل النيل[1]. ونحن زيادة على ذلك نعلم (هيرودوت، ٤، ٤٣) عن الانجاز الرائع للبحارة الفينيقيين في الدوران حول القارة الافريقية من الشرق الى الغرب لحساب فرعون في حوالى ٦٠٠ق.م.، وفشل الفرس في فعل نفس الشيء ولكن في الاتجاه العكسي، بعد الاقدام على مغامرة الملاحة في الاطلنطي (نفس المصدر، ٤، ٤٣)، وأخيراً فنحن نعرف أن القرطاجيين كانوا يقايضون سلعهم التجارية بالتبر النفيس على ساحل غرب إفريقيا (المصدر ذاته، ٤، ١٩٦).

وعند هذه النقطة في مصادرنا نلتقي بوثيقة شهيرة يمكن ان تؤرخ بالنصف الأول من القرن الرابع قبل الميلاد، وهي «بريبلوس حنون (هانو) (Periplus of Hanno) وهي قصة رحلة قرطاجي عهد اليه بمهمة استكشاف واستعمار نفس الساحل (Geographi Graeci Minores, I) ، وتزخر بوصف المناظر، الخلابة، والمتوحشين والتماسيح وأفراس النهر. وتطلعنا برغم ايجازها على مَعْلَمين هامين: جزيرة كرنة (Cerne) التي عرفت من مصدر آخر كمحطة لتخزين العاج وجلود الحيوانات المفترسة (Periplus of Scylax – القرن الرابع قبل الميلاد، فقرة ١١٢)، وبركان كبير يسمى «عربة الآلهة» «Chariot of Gods» ، وهو المرحلة الأخيرة من رحلة حنون على طول الساحل الافريقي وقد تأكد وجود هذين الموقعين في القرن الثاني قبل الميلاد برحلة المؤرخ الاغريقي بوليبيوس (Polybius) رغم أن أخبار رحلته لم تصلنا بطريق مباشر بل عن طريق نص آخر (بليبوس الأكبر – التاريخ الطبيعي، ٥، ٩ – ١٠).

---

(١) حول موضوع هذه الحملة، انظر: R. Lonis. A propos de L'expédition des Nasamons à travers le Sahara (Hérodote, II, 32-33), 1974, pp. 165-179. وهناك من يؤكد نظرية جزيل (Gsell) عن طرق الناسامونيين في اتجاه وادي السَوْرة.

هذه هي المصادر الرئيسية لمعلوماتنا قبل الاستعمار الروماني في افريقيا ومن الغريب أن أقدم المصادر هو أقلها تعرضاً للنقد. وفيما عدا قصة الدوران حول إفريقيا التي تقتضي منا شيئاً من التحفظ، فإن كتابات هيرودوت صحيحة وأغلبها معتدل، ولا تتحمل أي شطط في التفسير(٢). وعلى العكس فإن «رحلة حنون» بتفصيلاتها الطبوغرافية المسرفة كانت مثار تعليقات زاهية براقة، ونسب المؤرخون التقليديون للقرطاجيين - دون تروٍ - معرفة الساحل الداخلي لغرب إفريقيا حتى الكاميرون(٣).

ومع الرومان اختلف الموقف، فلم يضيع الغزاة - الذين وطدوا أقدامهم تماماً في شمال إفريقيا ومصر المطلين على البحر المتوسط - لم يضيعوا الوقت للاتصال مباشرة بالأقاليم المجاورة. وتطلب هذا - دون روح استعمارية - حملات عسكرية للتخويف والارهاب، وللاستطلاع التجاري، وحتى للاستطلاع العلمي.

وعلى سبيل المثال، يخبرنا نص قيم جداً لبلينيوس الأكبر (التاريخ الطبيعي، ٥، ٥) عن غارة في سنة ١٩ق.م. قام بها بروقنصل (والي) إفريقيا كورنيليوس بالبوس (Cornelius Balbus) ضد مملكة الجرمانتيين شديدي المراس، في فزان، وعلى طول الحملة مواقع جغرافية قليلة متشابهة تماماً، مثل كابسا (Capsa) (قفصة)، وكيداموس (غدامس)، أوجراما (جرمة) وضمت قائمة انتصارات الرومان مجموعة اخرى غامضة تعيد الى الأذهان لدى سماعها اسماء اماكن حديثة في الصحراء الكبرى، وقد اعتبر هذا دليلاً كافياً على ان الرومان وصلوا النيجر(٤).

وأبلغ من ذلك وأكثر افصاحاً كانت - على ما يبدو - قصص الأدب في الفترة اللاتينية، التي تشير الى حملات كبيرة أنفذها الرومان الى داخل القارة الافريقية. ويقرر الكاتب مارينوس الصوري (آخر القرن الأول الميلادي) وشارحه الجغرافي الشهير كلوديوس بطليموس - الذي يرجع مبحثه في إفريقيا الى ما بين عامي ١١٠-١٢٠ يقرر أن الحاكم سبتميوس فلاكوس «قام بحملة من قاعدة في ليبيا قطعت المسافة بين بلاد الجرمانتيين الى بلاد الاثيوبيين في رحلة جنوبية استغرقت ثلاثة أشهر، بينما من ناحية أخرى وصل يوليوس ماتيرنوس - قادماً من ليبتس ماجنا (لبدة) وراحلاً من جراما (جرمة) بصحبة ملك الجرمانتيين - الذي كان يهاجم الاثيوبيين - ووصل أجيسيمبا (Agisymba) وهي أرض اثيوبية كانت تزخر بالكركدن، بعد سفر متصل في اتجاه الجنوب لمدة أربعة أشهر» (بطليموس، الجغرافيا ١، ٨، ٤). وكان لهذه القصة أهمية كبيرة إذ دعم بطليموس معرفته الواسعة عن الجغرافيا الافريقية بنظرية رياضية عن خطوط الطول وخطوط العرض مثبتاً وجود الأماكن المذكورة. وقد شملت خريطته للمنطقة الداخلية مئات من أسماء الجبال والأنهار، والقبائل والمدن، وهو ما أعطى انطباعاً - بمساعدة المتشابهات الصوتية - بأن الناس قد عادوا الى الاعتقاد بوجود دليل على أن الرومان كانوا يعرفون تماماً الأقاليم الاستوائية في إفريقيا وبصفة خاصة النيجر وتشاد(٥).

واليوم لم يعد هذا الرأي الفضفاض المغالى فيه صحيحاً او مقبولاً، وتحملنا طرق التحليل الحديثة على اعادة النظر في تاريخ الصحراء.

---

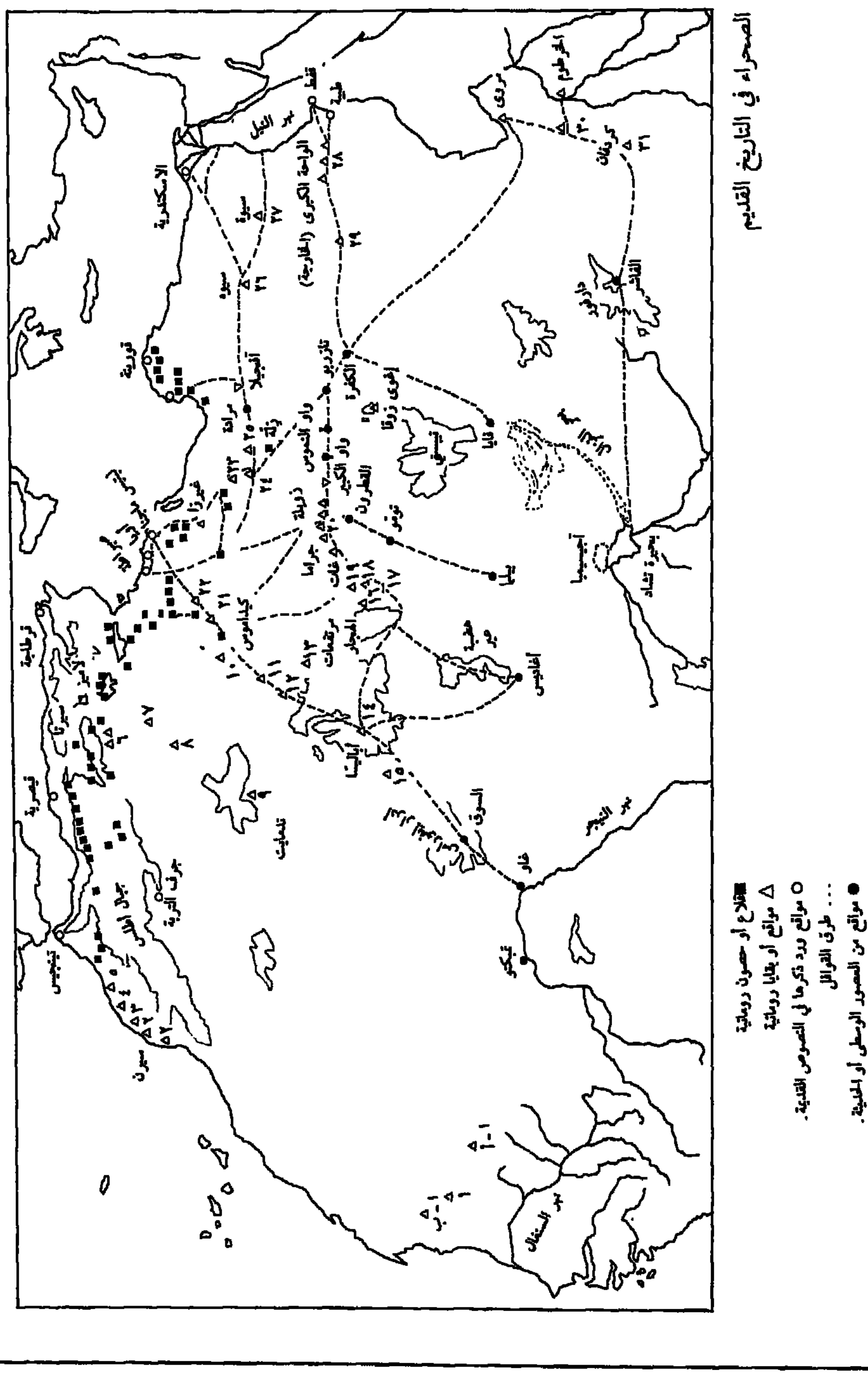
(٢) J. Leclant, Per Africae Sitientia: Cairo, 1950, pp. 193-253; R. Carpenter, 1956, pp. 231-242; and Pline: Ancient V.5.

(٣) S. Gsell, (Paris, 1918), pp. 272-519, J. Carcopino, (Paris, Gallimard, 1948), pp. 73-163; H. Deschamps - Paris. PUF, 1970, pp. 203-210.

(٤) H. Lhote, Algiers, 1954, pp. 41-83 (Paris, Arthaud, 1958).

(٥) الصحراء في التاريخ القديم A. Berthelot, Paris, 1931.

١ – غسرمت، قرب أكجوجت في موريتانيا: قطعتا عملة من عهد الجمهورية الرومانية (Mauny, 1956a, p. 225).
١–أ– تمكركرت في موريتانيا: قطعة عملة رومانية من القرن الثاني الميلادي (Notes Afeicaines, Nº. 115, 1967, p. 101).
١–ب– أكجوجت في موريتانيا: مشبك روماني من البرونز (Antiquités Africaines, 1970, pp. 51-4).
٢ – الصويرة – موغادور في المغرب: موادّ بونية ورومانية من القرن السابع قبل الميلاد حتى القرن الخامس الميلادي (Jodin, 1966).
٢–أ– رأس غير في المغرب: خزفيات بونية من القرن الثالث قبل الميلاد (Rebuffat, Antiquités Africaines, 1974, pp. 39-40).
٣ – أسفي في المغرب: كنز من المسكوكات الرومانية، من القرن الرابع (PSAM, 1934, p. 127).
جرف اليهودي (على مسافة ١٥ كم جنوب آسفي) قدم تمثال بوني (Antiquités Africaines, 1974, pp. 38-39).
٤ – أزمّور في المغرب: خزفيات بونيّة ومسكوكات رومانية من القرن الثاني الميلادي (Mauny, 1956a p. 250. Antiquités Africaines, 1974, p. 35).
الجديدة (مازغان) (على مسافة ١٥كم جنوب أزمّور) والمحاوزة (على مسافة ٣٠كم جنوب أزمّور): مسكوكات رومانية من القرنين الأول والثاني بعد الميلاد. (Antiquités Africaines, 1974, p. 36).
٥ – الدار البيضاء، الصخور السوداء: كنز من المسكوكات من عهد الجمهورية الرومانية عثر عليه في حطام قادس. (Mauny 1956a, p. 250)
فضالة، سيدي سليمان زعير، بوزنيقة، الصخيرات، الدشيرة، تمارة، دار السلطان (وتقع كلها على الساحل شرق الدار البيضاء على امتداد ٨٠ كم) خزفيات رومانية، مسكوكات وخزفيات بيزنطية (Antiquités Africaines, 1974, pp. 29-32).
٦ – واد ايتل – الجزائر: خزفيات رومانية في قبور السكان المحليين (CRAI, 1896, p. 10).
٧ – غورد الوصيف: كنز من المسكوكات من عهد الجمهورية الرومانية، من القرن الثاني بعد الميلاد (Mauny, 1956a, p. 252).
٨ – حاسي الحجّار في الجزائر: خزفيات ومسكوكات رومانية (غير منشور Favergeat).
٩ – قلعة ميريبال، الجزائر: جزء من مصباح ذي عنق طويل (بيزنطي؟) (H.J. Hugot).
١٠ – المنزهة في الجزائر: ناقوس من البرونز، خزفيات رومانية (J.P. Morel, Bull. Soc. Préhist. Française, 1946, p. 228).
١١ – العرق الوعر: قرب تيماسين (فور فلاترز سابقاً) – الجزائر: وردة رومانية من البرونز (غير منشور Spruytte).
١٢ – ايساون تفرنين، قرب تبلبلت – الجزائر: سواران من البرونز (غير منشور J. Spruytte).
١٣ – ايلازي (فور بولينياك سابقاً) في الجزائر: مسكوكات رومانية (Lhote, Bull. Liaison saharienne, Avril 1953, p. 57).
١٤ – أبالسّه – الجزائر: مجموعة آثار تين هنان: حلي وقطع أخرى رومانية من القرنين الثالث والرابع بعد الميلاد (Camps, 1965).
١٥ – تيميساو في الجزائر: مسكوكات رومانية (Mauny, 1956, p. 252).
١٦ – شعبة – أركويا – جنت – الجزائر: خزفيات رومانية وسوار من البرونز في تل مدفن (Lhote, Libyca A, 1971, p. 187).
١٧ – ديدر وتدروت، تاسيلي ناجر في الجزائر – مسكوكات رومانية من القرن الرابع بعد الميلاد (Mauny, 1956, p. 251) ؛ خزفيات رومانية (غير منشور J. Spruytte).
١٨ – تين ألكوم في الجزائر: خزفيات رومانية ومصنوعات زجاجية في قبور من القرن الرابع الميلادي (Leschi, 1945).
١٩ – غات في ليبيا – خزفيات رومانية ومصنوعات زجاجية في قبور من القرن الرابع الميلادي (Pace - Caputo. S).
٢٠ – المجموعة الجرامنتية: جرمة – زنككرة – تين أبونده – تاغيت – الشراقي – الأبيض في ليبيا: خزفيات من أواخر العهد البوني؛ خزفيات ومصنوعات زجاجية رومانية من القرن الأول حتى القرن الخامس بعد الميلاد. (M. Reygasse, H. Lhote, 1955; G. Camps, 1965; M. Gast, 1972).
٢١ – ماترس في ليبيا: موقع ليبي قديم متأثر بالرومان من القرن الثاني الميلادي (Rebuffat, 1972, pp. 322-6).
٢٢ – سيناون في ليبيا: (De La Tène II) مشبك من العهد السابق للرومان (Camps, Libyca A, 1963, pp. 169-74).موقع ليبي قديم متأثر بالرومان – من القرن الثاني الميلادي (Rebuffat, 1972).
٢٣ – واد نينه في ليبيا: موقع ليبي قديم متأثر بالرومان (Brogan, Libya antique, 1965, pp. 57-64).
٢٤ – وِدّان في ليبيا: موقع ليبي قديم متأثر بالرومان (Rebuffat, 1970).
٢٥ – تغرفت في ليبيا: موقع ليبي قديم متأثر بالرومان (Rbuffat, Ibid.).
٢٦ – واحة سيوة (واحة آمون) في مصر، موقع متأثر باليونان ثم بالرومان.
٢٧ – وادي الرّيان في مصر: موقع متأثر بالرومان (Caton Thompson, 1929-30).
٢٨ – واحات الداخلة والمحطة والخارجة في مصر: الواحة الكبرى عند القدماء: مواقع متأثرة باليونان ثم بالرومان.
٢٩ – أبو بلاّس في مصر: خزفيات من العهد الروماني المتأخر (Mitwally, Amer. «Journal of Arch», 1952, pp. 114-126).
٣٠ – كردفان في السودان: موقع قديم متأثر بالرومان (Arkell, 1951, p. 353).
٣١ – الأبيض في السودان: مسكوكات رومانية (Mauny, 1956a, p. 254).


الصحراء في التاريخ القديم
قلاع أو حصون رومانية
مواقع أو بقايا رومانية
مواقع ورد ذكرها في النصوص القديمة.
... طرق القوافل
مواقع من العصور الوسطى أو الحديثة.
مدينة
الإسكندرية
بحر النيل
سيوة
الواحة الكبرى (الخارجة)
بحيرة تشاد
نهر النيجر
نهر السنغال
جبال الأطلس
تمبكتو
غاو
أغاديس

منهج البحث العلمي الحديث

النقد الحديث للنصوص

يرى المؤرخون المحدثون بوضوح أن ثلاثة مؤلفات هامة هي موضع نقاش: بريبلوس حنون، وقصة كورنيليوس بالبوس، وكتاب بطليموس الجغرافي.

ولعدة سنوات كان «بريبلوس حنون» مثار شك مريب وطعن في صحته، أولاً لقد ثبت أن السفن القديمة التي اقدمت على المغامرة بالابحار وراء رأس جوبي (Juby) ثم تعرضت في رحلة العودة لهبوب الرياح التجارية العاتية، لم تستطع اطلاقاً العودة الى قواعدها(٦). وعلى هذا فإن ذلك يحصر المجال الجغرافي لرحلة حنون في ساحل الأطلنطي المراكشي، حيث حدد البحث الأثري الحديث جزيرة كرنة (Cerne) القديمة بأنها جزيرة الصويرة - مغدور(٧)، وزيادة على ذلك فان هناك طريقة صادقة قائمة على فقه اللغة المقارن تنحو الى اثبات أن قصة بريبلوس هي محض انتحال غير ماهر لفقرة من هيرودوت، وهذا تزييف بكل معنى الكلمة(٨).

الضحية الثانية: قصة بلينيوس عن غارة كورنيليوس بالبوس، ان الدراسة الفاحصة للمخطوطات تجعل من الممكن تفنيد - بطريقة منهجية - أي تناظر بين اسماء المواقع المذكورة وأسماء المناطق الوسطى والجنوبية للصحراء. وعلى هذا فان الفتح الروماني يشمل فقط - على هذا الأساس - جنوب المغرب وفزان(٩)، وزيادة على ذلك فإن البروقنصل الذي يظل في منصبه عاماً واحداً يندر أن يستطيع الذهاب الى أي مكان بعيد.

واخيراً فإن كتاب «الجغرافيا» لبطليموس، وهو عمل جليل، قد ثبت أنه لا يتناول بالوصف سوى عدد قليل جداً من الأقاليم. وقد حسبت خطوط طوله وعرضه على أساس ما كان متبعاً في العصر القديم، مثل الجبال والانهار والمدن والقبائل، فهذه تصل بنا الى الحدود الجنوبية للمغرب، فالنيجر الذي تحدث عنه - على سبيل المثال - ليس شيئاً سوى مجرى مائي في الجزائر الجنوبية. وفزان - على هذا - هي أقصى منطقة جنوبية كانت معروفة للرومان، وتظل دون حل مسألة اقليم اجيسيمبا (Agisymba) على حدود «الأرض المجهولة»(١٠).

ان نتيجة هذه التجارب الحديثة في نقد النصوص مثيرة جداً، ولكنها ما زالت واقفة في الجدول التاريخي العام عند بداية القرن الثاني الميلادي، ولم يصلنا أي مؤلف جغرافي مكتوب في تاريخ لاحق، والآن فإن هناك دليلاً أثرياً على انه في القرنين الثالث والرابع تغلغلت أدوات رومانية الصنع الى مناطق أكثر عمقاً في وسط الصحراء. ولا بد أن المعرفة الجغرافية القديمة قد ارتقت، ولا يخامرنا أي شك في أن الباحثين الرومان سرعان ما أحاطوا علماً بوجود مناطق رطبة وراء الصحراء الكبرى.

---

(٦) R. Mauny, Dakar, 1945, pp. 503-508, Mémoires IFAN. 1961, pp. 95-101.

(٧) A. Jodin, (Rabat, 1966).

(٨) G. Germain, Rabat, 1957, pp. 207-248. وما زالت معلومات الكتاب تحظى بتأييد: G. Ch. Picard, 1968, pp. 27-31.

(٩) J. Desanges, Alger, 1957, pp. 5-43.

(١٠) R. Mauny, Bissau, 1947, pp. 241-293. وبه خريطة جيدة. J. Desanges, Dakar, 1962.

والآن وقد تحررنا من قيود النصوص التي كانت احياناً مرهقة، يمكننا أن نحاول رؤ ية ماذا تظهر لنا صحراء العصر القديم.

ما هو اطارها البيئي والاجتماعي والأنثروبولوجي؟ ما هي البقايا الأثرية التي تكشفت عنها؟

مشكلة البيئة

من ناحية المناخ القديم، معروف أن الصحراء بلغت طورها الأخير من الجفاف في الفترة التي نحن بصددها(١١)، ولكن علينا أن نحدد؛ فمناطق المقاومة – وهي أساساً المناطق الجبلية والأودية الكبيرة – كانت لا تزال تحتفظ برطوبة تسمح بكثافة سكانية أشد مما هي عليه في العصر الراهن. وكانت هناك وفرة من الأماكن الصالحة للسكنى في الحجار (الأحجار) وفزان وتيبستي والصحراء الشمالية، ولعل هذا يفسر لنا بقاء الحيوانات المتوحشة التي اختفت الآن: التماسيح في الأودية، والحفر الوغائية (القلات Gueltas)، وحيوانات من فصيلة السنور (الهررة – الأسود – النمور... الخ) في مناطق التلال، ولكن هناك شك فيما اذا كانت الحيوانات الضخمة التي تعيش على الأعشاب مثل الفيل أو الكركدن قد استطاعت الحياة في هذا الجانب من تيبستي أو حتى من بلاد كوار (Kuar) على الطرف الشمالي من منطقة السافانا المدارية في تشاد، حيث كانت – بطبيعة الحال – كثيرة(١٣).

وكانت الحيوانات الأليفة عدا الجمل، الذي سأتحدث عنه فيما بعد، تعيش برفقة الانسان في مناطق لجوئه للسكن. كان هناك فصائل حديثة من الثيران وقطعان معيز وأغنام، ولكن من الشاذ أن نجد الحمار وهو حيوان نافع لكل أعمال واحات الصحراء، وهو فعلاً لم يرسم في صور الصخور.

المشكلة الانثروبولوجية

نظراً للافتقار الى معايير علمية، فإن المؤلفات المعاصرة عموماً تستخدم لفظ «الاثيوبيين» للدلالة على كل شعوب الداخل الافريقي، ولا يمكن أن يلام الكتّاب القدامى على هذا. فحتى الانثروبولوجيون والمؤرخون المحدثون لم يحللوا دائماً المشكلة تحليلاً جيداً حيث أن معيار الزنجية ما يزال قاصراً مبهماً غير محدد(١٣). ولوقت طويل ساد الاعتقاد بأن وجود سكان بيض في الصحراء كان أمراً حديثاً فقط، وغزواً منتظماً، نتيجة طرد الرومان لبربر السهوب من أراضي المغرب(١٤).

وهنا أيضاً أصبح الموقف أوضح في ضوء اعمال الحفر الحديثة في كل من فزان والصحراء الجزائرية. ويعتقد الآن انه خلال عصر ما قبيل التاريخ، والذي تعتبر العصور القديمة مجرد المرحلة النهائية منه،

(١١) .J. Dublef, Alger, 1963, R. Furon, (Paris, Vulbert, 1972).

(١٢) .R. Mauny, Dakar, 1956, A, pp. 246-279. وانظر: .pp. 124-145

(١٣) عادة ما تترجم الكلمة الاغريقية (Althiops) «بالرجل ذي الوجه المسفوع» أي الذي لفحته الشمس وسودته، وهناك مناقشة صريحة جداً في ندوة داكار من ١٩ – ٢٤ يناير (كانون الثاني) ١٩٧٦ عن «افريقيا السوداء وعالم البحر المتوسط في العصور القديمة» ولكن الآراء حول الموضوع لم تتغير تغييراً جوهرياً.

(١٤) .S. Gsell, Paris, 1926, pp. 149-166. وهناك تحليل علمي بارع لكل ما كتب في الموضوع، وللصور والرسوم والأشكال: .F.M. Snoden, Cambridge, Mass. 1970, 364, pp. cf. J. Desanges, 1970, pp. 87-95, L. Craco - Ruggini, Rome, 1972, 1974, pp. 141-193.

كان يسكن وسط وشمال الصحراء - اساساً - عناصر بيضاء: «طوال القامة، لهم ملامح البحر المتوسط. . . تتصف جمجمتهم بالضخامة. . . الوجه طويل نوعاً ما وضيق. . . الأطراف نحيلة»، وهي الصفات التركيبية (المورفولوجية) ذاتها (للطوارق) المحدثين. والآن يبدو ان أصل هذه الصفات الجسدية لن يبحث عنه في اتجاه المغرب، بل في اتجاه الشمال الشرقي من القارة الافريقية(١٥). وكما هو الحال بالنسبة للحراتيين المحدثين (Haratin) في الواحات الصحراوية، فقد كانوا - على ما يبدو - رغم وجود بعض الخلاسيين، سلالة محلية منحدرة من «الاثيوبيين» المقيمين، كما جاء في هيرودوت، وكانوا مستعبدين للجرمانتيين الأغنياء(١٦). ويجب ان نعرف المزيد عن هذا عندما نحصل على نتيجة محددة عن طريق دراسة فصائل الدم(١٧). ومن ناحية اخرى فمن المحتمل أن سكان الصحراء الجنوبية، على امتداد الرقعة التي كانت آهلة بعدد وفير من الناس، كانوا يتكونون فقط من شعب أسود البشرة من السفانا المدارية.

الحضارة

في غياب تاريخ صحيح موثوق به تماماً، يبدو من الصعب - بداهة - أن نقوّم مدى تقدم حضارة الصحراء في العصور القديمة، وبخاصة انه ليس مؤكداً ان المناطق المختلفة في هذه الفيافي المترامية الأطراف قد سارت في تطورها على منوال واحد. ولعل خير وسيلة لدراسة المشكلة ان نبدأ من الوضع الذي كانت عليه الصحراء عند نهاية العصر الحجري الحديث(١٨). وعلى هذا الأساس نتتبع خط التقدم في الميادين المختلفة:

اللغة والكتابة

لا جدال في أن العصور القديمة قد أمدتنا أولاً بدليل على حدث هام في تاريخ حضارة الصحراء، وهو ظهور لغة، وهذه اللغة ما تزال موجودة في الوقت الراهن، وتغيرت جذرياً عن صورتها الأصلية البعيدة. إن اللغة الأم التي كانت متعددة اللهجات، والتي من الملائم عملياً أن تسمى «البربرية» هذه اللغة تنتمي الى عائلة أكبر هي «الحامية السامية»، ولكنها تفرعت منها وانفصلت منذ زمن طويل، وقد ثبت أن صورتها القديمة «الليبية» وجدت في أقاليم البحر المتوسط الافريقية وفي جزر كناري عن طريق أمثلة مكتوبة(١٩)، وليس من شك في ان هذه اللغة دخلت الصحراء من الشمال أو الشمال الشرقي

---

(١٥) Pace - Caputo, Sergi, Rome 1951, pp. 433-501, L.G. Zöhrer, pp. 4-133, L.C. Briggs, Livingstone, 1955, pp. 195-199, M.C. Chamla, Alger, 1968, pp. 181-201. مع تحليل للهيكل العظمي للملكة «تين حينان» ص ١١٤ و انظر استخدام المصادر العربية في العصور الوسطى لتفسير اصل «الطوارق» في: Boubou Hama, Paris, 1967.

(١٦) G. Camps, Haratin, Algiers, 1969, pp. 11-17.

(١٧) R. Cabannes, Paris, 1964.

(١٨) يجد القارىء وصفاً دقيقاً واضحاً للحالة الحضارية في الكتاب الحديث التالي: G. Camps, (Paris, 1974) pp. 221-261, 320-341, 345-347.

(١٩) L. Galand, Paris, 1969, pp. 171-173, (General Bibliography), early Chronicles, by the sameauthor: University of Aix - en - Provence, 1965 - 1970), J.R. Applegate, (The Hague, 1970, pp. 586-661, J. Bynon, London, 1970, pp. 64-77), S. Chaker, Libyque: 1973; L. Galand, Paris, 1974, pp. 131-153.

مع المهاجرين من الشعوب البيضاء، ولا يمكن وضع تاريخ للحدث، ولكن ظهرت كتابة صحراوية في وقت متأخر يطلق عليها تيفيناغ (Tifinagh)، مشتقة من الأبجدية الليبية المستعملة في المغرب، ويبدو أنه لا يوجد دليل موثوق به، في الأقاليم الشمالية، على وجود كتابة ليبية قبل القرن الثالث أو الثاني قبل الميلاد، ومن المسلم به أن البربر بدأوا في كتابة لغتهم تحت التأثير الفينيقي. وكلمة تيفيناغ، وهي تيفينار (Tifinar) كما تكتب في الفرنسية - مشتقة من الجذر اللغوي فنغ (Fngh) الذي يشير في كل اللغات السامية الى الشعب الفينيقي.

وفي الصحراء أخذت كتابة التيفيناغ تبتعد تدريجياً عن صورتها الليبية الأولى، وظلت «التيفيناغ القديمة» مرتبطة بها، وعلى هذا فيجب أن نكون حريصين بصفة خاصة في التأريخ للرسوم الصخرية المسماة الليبية البربرية بشكل الحروف المكتوبة التي تظهر معها، اذ من الممكن الوقوع في اخطاء جسيمة. زيادة على ذلك فإن اللغة البربرية، وأبجديتها ربما استخدمهما أيضاً السكان السود.

التنظيم الاجتماعي السياسي

دفعت الظروف المناخية معظم سكان الصحراء الى أسلوب الحياة الرعوية مع وجود مراكز استقرار مثل تلك التي عرفها الفاتحون العرب الأوائل، وكان التنظيم القبلي - الذي كان لا يزال متأصلاً في مرحلة التحول هذه - هو قاعدة الحكم السياسي(٢٠)، ولكنه أدى الى قيام حروب متوالية، حدثنا عنها بدقة هيرودوت وبطليموس.

ان لدينا - مع هذا - معلومات وثيقة عن منطقتين: الحجار، ومنطقة فزان.

في الحجار في النصف الثاني من القرن الرابع الميلادي اعتلت قمة الهرم الاجتماعي السياسي سيدة، وعندما اكتشفت مقبرتها سليمة لم تمس في أباليسا (Abalessa) خطرت على البال فوراً القصة المحلية عن الملكة تين حينان (Tin Hinan) التي أتت من تافيلات بمراكش في أزمنة سابقة، وكانت جدة عليا لشعب الطوارق. وعلى هذا فإن تين حينان ستبقى مخلدة(٢١). وفي عالم البربر توجد عدة امثلة على اسناد السلطة العليا لسيدة مقدسة. على أي حال فإن نظرة المجتمع الى المرأة عند الطوارق كانت متحررة. وهذه التجهيزات الجنائزية لهذه «الأميرة»، وهي مكونة من سبعة أساور ذهبية وثمانية اساور فضية، وحلى كريمة أخرى عديدة يمكن ان تؤرخ على وجه التقريب بقطعة عملة رومانية ضربت في عهد الامبراطور قنسطنطين وترجع الى ٣١٣ - ٣٢٤م، وبالنسبة للسرير الخشبي الذي سُجّي عليه الجثمان فعندما فحص بطريقة الكربون المشع كشف عن تاريخ ٤٧٠ ميلادية (تزيد او تنقص ١٣٠ عاماً)، وكما سنرى فإن ثروة هذه السيدة الكبيرة يمكن أن تفسر فقط بمنزلتها الرفيعة في كل من الهرم الاجتماعي والتجارة عبر الصحراء.

وفي الوادي الضيق الخصيب بين عرق أوباري وعرق مرزق (Murzuq) تمتد سلسلة من الواحات بدءاً من الأبيض حتى تن أويندا. وكانت جاراما - جرمة الحالية - المدينة الرئيسية، ومن هذا المعقل الآمن سرعان ما بسط الجرمانتيون السيادة على كل فزان (فزانيا Phazania القديمة) وفرضوا الضرائب

---

(٢٠) R. Capot - Rey, (Paris, 1953), pp. 204-367.

(٢١) M. Reygasse, 1950, pp. 88-108, H. Lhote, Paris, 1955; G. Camps, Algiers, 1965, pp. 65-83, 1974, M. Gast, Aix-en-Provence, 1972, pp. 395-400.

على كثير من القبائل المجاورة، المقيم منها والرحل. ويظهر الكيان الاقليمي العظيم لما يسمى بمملكة الجرمانتيين في المؤلفات اليونانية – اللاتينية، باعتباره الدولة المنظمة الوحيدة في داخل افريقيا، جنوب الأراضي التي كانت مملوكة اولاً لقرطاجة ثم لروما. لقد احرزت بسلطانها وثروتها التي اثبتتها الكشوف الأثرية – شهرة في يومنا هذا، وفي مختلف الميادين تسمع عن الحضارة الجرمانتية وربما تطلبت هذه الحضارة تنظيماً كهنوتياً للقبائل، على نسق نظم البربر الاجتماعية السياسية، يتربّع على قمته اكليد (Aguellid) الأعلى. وقد تصدى الجرمانتيون – كما ذكر هيرودوت مبكراً في القرن الخامس قبل الميلاد – للتقدم الروماني على الحدود الجنوبية للمغرب، ولكنهم هزموا أمام البروقنصل كورنيليوس بالبوس (الأصغر) في سنة ١٩ق.م. ثم نهائياً أمام قائد الفرقة الافريقية فاليريوس فستوس في سنة ٦٩ بعد الميلاد، ويبدو أن المملكة تحولت الى دولة على شاكلة الدول التابعة للامبراطورية. لقد كشف البحث الأثري في جاراما وحولها عن حضارة عاشت قرابة عشرة قرون قائمة – الى حد ما – على أساس من العلاقات الخارجية، منذ نهاية العصر البوني (القرن الثاني قبل الميلاد) حتى قدوم العرب (في القرن السابع بعد الميلاد)[٢٢].

هذا في الحجار وفزان، ولكن أيضاً في الصحراء الشمالية في تاسيلي خلال فترة لاحقة، وربما حتى في «أدراس ادار الالفور (Adras des Iforas) فإن السلطة السياسية العليا في العصر القديم كانت بلا نزاع في أيدي أرستقراطية من جنس أبيض أو شبه أبيض، مسلحين بالرماح والخناجر والسيوف، ويلبسون زياً عسكرياً خاصاً، ويركبون عربات في المواكب، ويمارسون الصيد والقتال، مهددين بذلك أمن الجماعات الزنجية او القريبة من الزنجية، التي غلبت على أمرها وتم اخضاعها. ومن المستحيل في غياب الوثائق ان نقرر ما إذا كان هذا هو نفس الموقف على حواف الصحراء المجاورة للسافانا النيجيرية التشادية. ومن المحتمل أن النفوذ الأبيض لم يدخل هذه الأجزاء.

وبخصوص الدين فليس هناك شك في ان كل الصحراء الوسطى والجنوبية ظلت تعبد الطبيعة، وتحوّل سكان الصحراء الشمالية فقط – وهم على اتصال مباشر بعالم البحر المتوسط – عن عقيدتهم واعتنقوا المسيحية في أواخر العصر القديم. ويؤكد مؤلف كلاسيكي صراحة أن الجرمانتيين والماكوريتيين (Macuritae) تنصروا في نهاية القرن السادس[٢٣]، ولكن البحث الأثري لم يؤكد هذا بعد.

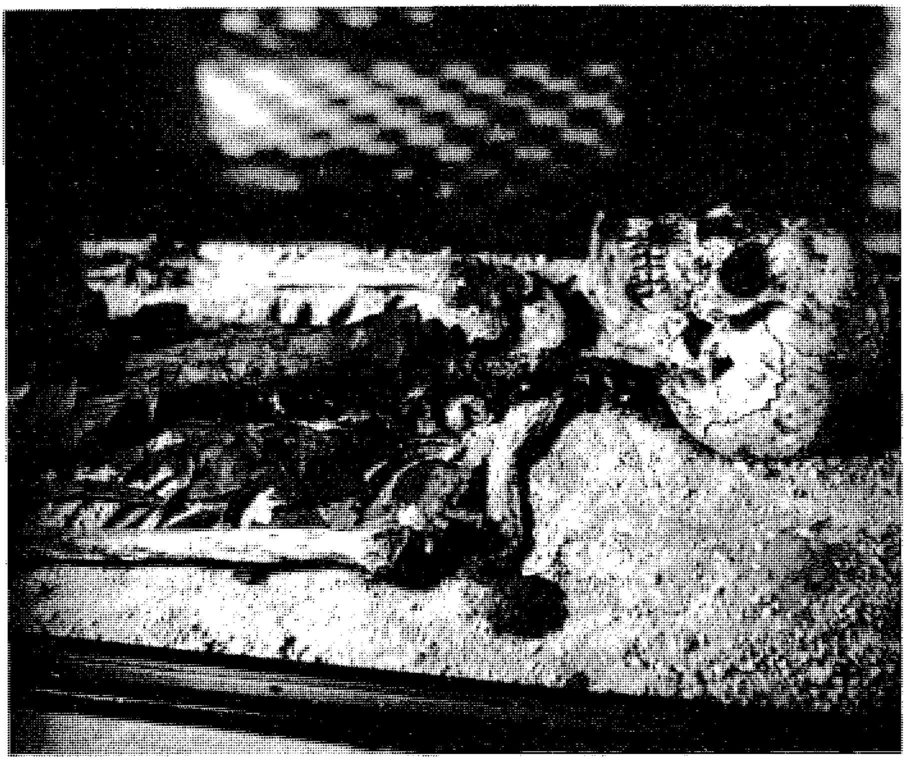
الفن الصحراوي في العصر القديم

أجمل آثار جرمة مقبرة كبيرة تبين التأثير الروماني الذي جردها – جزئياً – من أصالتها، ولكي نقدر الذاتية الصحراوية حق قدرها فعلينا أن نبحث في مكان آخر.

يرجع تاريخ عدد كبير من الآثار الجنائزية المعروف «بقبل الاسلامي» إلى العصر الميلادي. وفي الصرح الضخم في أباليسا (Abalessa) الذي حفظ في الحجار، نجد منقوشاً حول مقبرة تين حينان

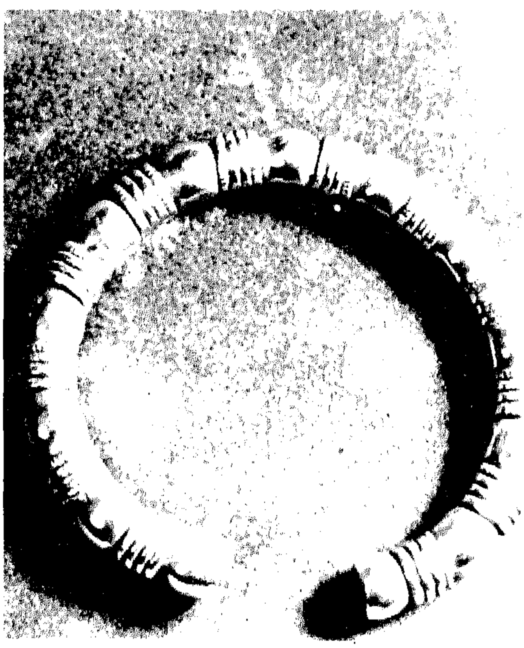
(٢٢) Pace - Caputo - Sergi (1951), S. Ayoub, 1962, 1967, Tripoli, 1966-1967, pp. 213-219; C.M. Daniels, (Ibid., 1968, pp. 113-194), H. Von Fleischacker, Frankfurt - am - Main, 1969, pp. 12-53, C.M. Dentels, 1966-1973, 1972-1973, pp. 35-40.

(٢٣) Desanges, op. cit, pp. 96 and 257.



١

٢



١ : الهيكل العظمي للملكة تين حينان
٢ : سوار ذهبي للملكة تين حينان

ممشى مسقوفاً يتميز بأنه إفريقي في فنه المعماري[٢٤]. وفي تين الكوم عند الفتحة الجنوبية لهضبة تاسيلي يمكن أن تؤرخ سلسلة من المقابر المستديرة ذات الطراز الصحراوي التقليدي - من خلال التجهيزات الجنائزية الرومانية - تؤرخ بالقرن الرابع مثلما الحال في مقابر مشابهة بجبانة غات القريبة[٢٥].

رغم أنه لا يمكن بدقة تأريخ التجهيزات الجنائزية أو الآثار الدينية المبنية من الطوب الجاف التي عثر عليها في صخور تاسيلي والأحجار الأرضيات، والأفنية المستديرة المسورة، والأحواض الزخرفية، و«ثقوب المفاتيح»، فهي ترجع زمنياً إلى كل الفترة السابقة على الاسلام، الذي استبدل بها مقابر مسطحة وشواهد بسيطة عادية من الزخرفة. وبالنسبة لأكثر هذه الآثار اصالة، وهي الموجودة في فدرون، ففي أكبر الظن ان طرزها المعمارية وأساليبها الزخرفية مستمدة أصلاً من فزان والمنطقة الممتدة على طول حدود مصر.

وفي شمال غربي الصحراء في مقابر جُرف تربة قرب بشار (Bechar) - التي لسوء الحظ نهبها السياح - يوجد داخل المقابر الضخمة نذور ذات رموز غريبة، وألواح مستوية سواء منقوشة او مرسومة، بعضها بكتابات ليبية أو رسوم جياد أو أشكال آدمية، بأسلوب فني شبيه بذلك الذي ظهر في أواخر العصر القديم في المغرب، وهو خال من العناصر الاسلامية.

وأكثر من ذلك صعوبة أن نعين تاريخاً لدوائر الأنصاب المونوليثية الموجودة بالحجار (هل من المحتمل انها اسلامية؟) وبصفة خاصة تلك الموجودة في جونا أوركا (Gona Orka) وانيري - موكتو (Enneri Mokto) الى الغرب من تيبستي. انه من غير الضروري في رأيي ان نبحث عن التأثيرات الأجنبية حيث ان تشييد الأنصاب الحجرية الطويلة الضخمة (Menhirs) شاع - في كل من طقوس الدفن والأغراض الدينية - في سائر الحضارات المبكرة. وفي هذا الصدد ليس هناك موقع في الصحراء يضاهي موقع تونديدارو (Tondidarou) قرب نيافونكي (Niafunke) على بعد ١٥٠ كم جنوب غرب تمبكتو[٢٦].

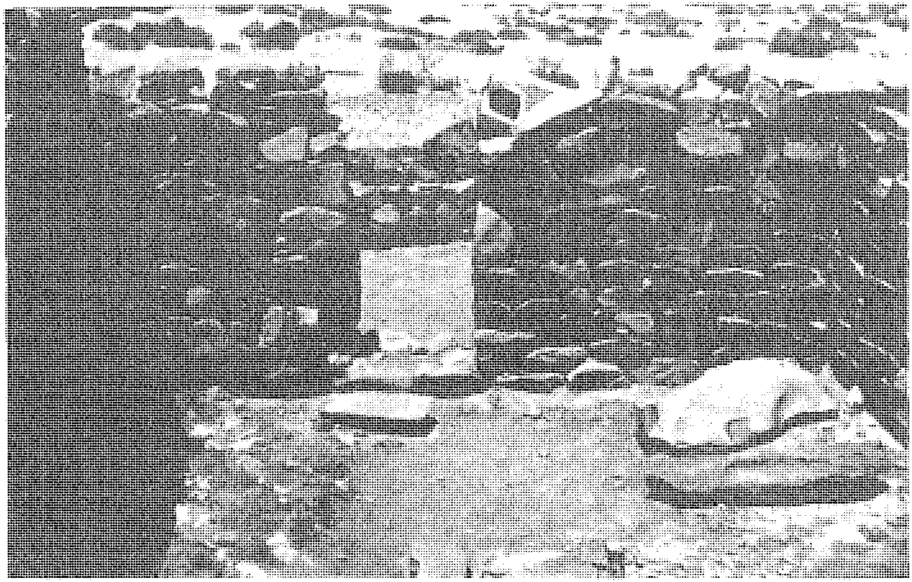
ولكن فيما يتعلق بأكثر فن صحراوي تعبيراً لا بد - قبل كل شيء - أن نفحص الرسوم الصخرية. وطبقاً للتقسيم التقليدي لباحثي ما قبل التاريخ فإن العصر القديم يقابل المرحلة قبل الأخيرة من الفن الصحراوي - العصر الليبي - البربري الذي تبع فترة معرفة الحصان وسبق العصر العربي - البربري[٢٧]. وبينما نجد أن هذه النتيجة صحيحة في حد ذاتها فإنها تفتقر إلى قواعد محكمة للتسلسل الزمني، وما زال التأريخ للعصر الليبي - البربري، بما بين ٢٠٠ قبل الميلاد و٧٠٠ بعد الميلاد غير ثابت. ولعل شكل حروف «التيفيناغ القديمة» هو أقل المقاييس تقلباً وأجدرها بالثقة، ولو أن هذا النوع من الكتابة ظل مستعملاً وانتقل الى العصر الاسلامي. وحيث أن الحصان كان لا يزال مستخدماً هو وعربات النقل ذات العجلات في آن واحد، فمن الصعب جداً أن تفصل بينهما زمنياً. هل تم مبكراً في نحو القرن السادس الحصول على العربات الحربية السريعة الانطلاق في فزان وتاسيلي ذات الطابع المصري التقليدي، والتي يمكن ارجاعها الى القرن الرابع عشر قبل الميلاد، أو ذات الطابع الاغريقي

(٢٤) Camps, G. 1965 (Paris, 1961), Passim.

(٢٥) L. Leschi, Algiers, 1945, pp. 183-186, Pace-Caputo - Sergi, pp. 120-440.

(٢٦) Savary, J.P. Algiers, Paris, AMG, 1966. ولم يكتب شيء بالفعل عن النصب التذكارية المنقوشة في جُرف تربة وانظر: Reygasse, (op. cit.) pp. 104 and 107-108. وهناك معلومات اضافها: L. Balout، وبخصوص الأنصاب الميجاليثية (الحجرية الضخمة غير المنحوتة) القائمة في تبيستي انظر: P. Huard and J.M. Massip; 1967, pp. 1-27, for Tondidarou: Mauny, R. pp. 133-137. Paris, 1970.

(٢٧) تبنى هذا التقسيم عموماً: (Breuil, Graziosi, Huard, Lhote, etc.) R. Mauny, Dakar, 1954, Contra: J.P. Maître 1976, pp 759-783.



١



٢

مقبرة الملكة تين حينان في أباليسا
١ : المدخل الرئيسي
٢ : الغطاء الحجري للّحد

البرقي التقليدي، والذي يرجع - في ابعد التقديرات - الى نحو القرن السادس ق.م.؟ ان رسوم الجمال تغطي تقريباً كل مناطق الصحراء، ولكن تقدير عمرها صعب، ويخشى أن لا يكون هناك سوى قلة منها داخلة في الاطار التاريخي لبحثنا هذا. وتثبت الرسوم الليبية - البربرية، وهي البقية الباقية من فن العصر الحجري الحديث الرائع، والتي رسمت طبقاً لتقاليده - تثبت كيف كان فن التصوير مزدهراً منتعشاً في الصحراء في اللحظة التي كان يذوي فيها ويحتضر في المناطق الشمالية.

الحياة الاقتصادية: المواصلات الداخلية والعلاقات الخارجية: ثورة الجمل

منذ زمن سحيق ارتبطت الحياة الاقتصادية في الصحراء بمشكلة المواصلات. وبالنسبة للعصور اليونانية - الرومانية فإن غنى أقاليم معينة مثل فزان المرتبط بمجال نفوذها، يقتضي ضمناً وجود حجم كبير من التجارة، ولما كانت التجارة الداخلية - كما نعرف - محدودة بالفعل، فمن المرجح أن سبب هذا الرخاء كان يرجع الى علاقاتها مع العالم الخارجي. كان هذا الوضع الجديد يختلف اختلافاً بيناً عن وضع الصحراء الرطبة في العصور قبل التاريخية.

ولكن ما هي الوسائل التي يمكن استخدامها لدراسة المشكلة ككل؟ نحن نملك - لتقويم الوضع الاقتصادي والنفوذ السياسي لأي اقليم - مقياساً واحداً موثوقاً به: علينا فقط ان نفحص المادة الأثرية التي كشفت في المناطق المجاورة، مثل العملات الرومانية التي عثر عليها بأعداد كبيرة في سكنديناقيا وشمال شرق أوروبا - على امتداد التخوم الشمالية للعالم اليوناني - الروماني، وكذلك في بقاع أبعد على ضفاف السند وفي فيتنام، شاهدة على أن مناطق شاسعة غطتها تجارة روما الخارجية. ولكن ماذا يمكن أن نعلم عن الاقليم الذي نعالجه؟ فكلما تحركنا بعيداً عن افريقيا الشمالية - بالمعنى الأصلي للكلمة - تناقصت كمية المادة الأثرية الرومانية (انظر الخريطة ص ٥٣١) حتى تختفي تماماً في الصحراء الجنوبية. ولا يوجد حتى الآن أي آثار على الاطلاق في السافانا النيجيرية التشادية[٢٨]، وهذا يشير الى انه لم تكن هناك صلات فعلية - في العصور القديمة - بين العالمين الروماني والافريقي الأسود. وهذا بالطبع ليس مؤكدا على نحو جازم. ان الحفائر الاثرية في المستقبل ربما تأتي بمعلومات جديدة، ولكن سيظل هناك دائماً قدر كبير من الابهام حول الموضوع.

ولم يشر كتاب العصر القديم - على سبيل المثال - سوى اشارات قليلة للمنتجات الصحراوية، وقد دعم علم الاثار أقوالهم. وتذكر بعض النصوص اليونانية أو اللاتينية الياقوت الأحمر، أو العقيق الابيض، والأحجار الكريمة من بلاد الجرمانتيين، والتروجلوديتين (Troglodites) والناسامونيين (Nasamones) وهي المناطق الواقعة الى الجنوب من ليبيا الحالية، ومن المحتمل أنه كان هناك احجار كريمة تسمى «أمازونيت Amazonite»، والتي عثر على رواسب منها في إقاوي زومة (Eguei Zumma) في سلسلة مرتفعات دهون (Dohone) شمال شرق تيبستي[٢٩].

---

(٢٨) J.P. Lebeuf, (Paris, 1970). مع تعليق علمي واف وثبت بالمراجع. وكان لأقاليم معينة في إفريقيا الاستوائية ثقافتها الخاصة لوقت طويل (ثقافة نوك Nok في شمال نيجيريا): Mauny, R. pp. 131-133, Ki-Zerbo, Histoire de L'Afrique Noire, pp. 89-90.

(٢٩) Monod, T. «Mission Scientifique au Fezzan, VI, Reconnaissance au Dohone» 1948, pp. 151-154. 1974, pp. 51-66. وتوجد أيضاً أحجار مماثلة في وادي النيل.

وفي رأيي أن صيد الحيوانات المتوحشة كان المصدر الرئيسي للكسب في الاقليم. ولا شك في أن شمال إفريقيا كان في ذلك الوقت ما يزال يعج بالأسود والنمور وبقر الوحش والنعام، ولكن إزاء ازدياد الطلب من قبل الرومان، بات من الضروري أن يمتد الصيد داخل إفريقيا. ولدينا احصاءات بليغة الدلالة في هذا الموضوع. ففي افتتاح ملعب فلافيوس المدرج في روما في نهاية القرن الأول تقاتل تسعة آلاف حيوان، واستعرض الامبراطور تراجان بمناسبة نصره في سنة ١٠٦م احد عشر ألفاً. وكان أغلب الحيوانات المتوحشة «ليبية» او «افريقية» وهذه تم استيرادها من شمال إفريقيا(٣٠). وقد شملت قوائمها الفيلة والكركدن والتي تم جلبها من أقصى الأجزاء الجنوبية للصحراء، اوحتى من تشاد وبحر الغزال(٣١). على كل حال لا بد أن العاج كان من بين السلع التي يتجر فيها عبر الصحراء، ففيل شمال إفريقيا اختفى كلية بحلول القرن الثاني الميلادي ولا ننسى – مع هذا أن النوبة كانت تمد روما بنسبة من الحيوانات المتوحشة.

وأرى انه من العسير التصديق بأنه كانت توجد تجارة مع أوروبا في الرقيق الأسود. ذلك أن العالم الروماني الغربي لم يسع للحصول على الرقيق الأسود، وكثيراً ما قيل أن شحنات التبر من مالي وخليج غينيا كانت تمون السوق الأوروبية، استباقاً لما أصبح عليه الوضع التجاري في العصور الوسطى(٣٢). ان هذا الرأي مجرد فرض، اذ لدينا قائمة بكل مناطق انتاج الذهب في العصرين الروماني والبيزنطي، وافريقيا ليست مدرجة في القائمة. لكن للمرء ان يشتبه في أن تجارة الذهب كانت تجري خفية بين السنغال وجنوب مراكش، وهو اقليم كان منتجاً للذهب بنفسه وكان منعزلاً جداً عن الحدود الرومانية، وسرعان ما أسس العرب علاقات مع هذه السوق مبكراً في سنة ٧٣٤م.

هذه العلاقات التجارية المحدودة التي لم تفهم جيداً بعد، تلقي ظلالاً من الشك على استخدام دروب وخطوط السفر الصحراوية. وهنا أيضاً يجب التروي والحذر، فالعناصر الوحيدة لاعادة بناء شبكة المواصلات هي نقاط محددة مثل غدامس او فزان حيث كان للطرق الطبيعية منافذها، وكذلك التوزيع الاقليمي للآثار الرومانية في الصحراء، واخيراً المقارنة مع طرق القوافل، قبل أو بعد الفترة التي نحن بصددها. وتكمن الصعوبة في العنصرين الأخيرين فقط.

ومن الطبيعي ان اكتشاف أثر روماني منعزل وبصفة خاصة قطعة من العملة ليس مقنعاً في حد ذاته، فقد كان سكان الصحراء الشمالية ما يزالون يستخدمون النقود الرومانية في القرن التاسع عشر(٣٣). ولكن عندما تكون مواقع اكتشاف هذه القطع الأثرية على أبعاد متساوية، مع احتمال قوي بأنها تقع على طريق من طرق القوافل، المعروفة لنا من مصادر أخرى، عندئذ يصبح لدينا من الأسباب ما يبرر أخذها بعين الاعتبار. ذلك أنه ليست العملة فقط هي موضع الاهتمام بل كذلك الفخار في المقابر. ان المساحة التي انتشرت فيها هذه الشبكة من الأدلة تبين طبقاً لذلك أن الحضارة الجرمانتية،

(٣٠) Jennison, Manchester University Press, 1937, J. Aymard, (Paris, De Boccard, 1951); J.M. Toynbee, 1973.

(٣١) R. Mauny, 1955. كان الفيل في الواقع هو الطوطم (الرمز المقدس) لمدينة لبتس ماجنا (لبدة) عاصمة وميناء اقليم طرابلس: Africa Italiana, Rome, 1940, pp. 67-88.; J. Desanges, Brussels, 1964, pp. 713-715. حيث تظهر على عملة الامبراطور دوميتيان، المعاصرة لملعب فلافيوس المدرج، صور خرتيت افريقي ذي قرنين، وقد اقترح ان اجيسيمبا Agisymba ربما تكون مرتبطة بكلمة آزبين Azbin – الأسم المحلي لهضبة العير Aïr Massif ولكن ليس مؤكداً أن الخرتيت كان ما يزال باقياً في هذا الوقت في هذا الجزء من الصحراء. ومن المحتمل – زيادة على هـذا – أن اسمـي Agisymba و Azbin قد اشتقت منها أسماء اماكن مشابهة انتشرت في نطاق جغرافي شاسع.

(٣٢) وفيه ثبت بالمراجع السابقة على نشره: Carcopino, 1948.

(٣٣) R. Mauny, Algiers, 1956, pp. 249-261.

وهي حضارة اعتمدت ذاتها على علاقاتها مع روما، امتد تأثيرها عبر مئات الكيلومترات، ويجب ان يكون واضحاً في الأذهان ان هذا تأثير جرامنتي محض وليس - بالمعنى الدقيق للكلمة - تأثيراً رومانياً، رغم أنه يوفر طريقاً ثانوي الأهمية لتوزيع القطع الأثرية الرومانية. وهنا نلتقي بأوضح سمات العصر الصحراوي القديم وأميزها. كانت الشعوب المحلية تعرف بعضها البعض بفضل صلات الجوار بين مختلف جماعاتها، أياً كان السبب الأصلي في قيام علاقات فيما بينها، والذي ربما كان هو البحث عن سلع لبيعها في روما. وفي هذا الصدد فإن الجهاز الجنائزي لتين حينان له دلالته إذ يمكن ان نعتبره طقماً من أدوات اجنبية جمعت لزعيمة محلية، كانت بلا شك تفرض ضرائب على المسافرين المارين بأراضيها، وكان للطوارق بالتأكيد - فيما بعد - مثل هذا النمط من السلوك.

ويبدو بصفة عامة أن اغلب خطوط مواصلات التجارة الخارجية للصحراء كانت تتجه نحو الشمال والشمال الشرقي، وكان الجرمانتيون وأتباعهم يضطلعون بمهمة تيسير انسياب ونقل التجارة نحو منطقة فزان، ومن هناك يقودها الأدلاء المهرة نحو الموانىء الكبيرة على خليج سرت (صبراتة) وأويا (طرابلس) ولبتس ماجنا (لبدة)، والتي كانت مدناً غنية منذ اوائل العصر البوني. ومن جراما (جرمة) يستطيع الانسان أن يصل أيضاً الى وادي النيل، سواء بالطريق الشمالي خلال واحات زويلة وزلة وأوجله وسيوه، وكلها مواقع معروفة لكتاب العصر القديم، أو عن طريق أبعد جنوباً حيث تقع «الكفرة» على مفترق الطرق[٣٤]. في هذه الأقاليم الشرقية من الصحراء، نعود - حتماً - للمشكلة القديمة الخاصة بمواصلات العصر الحجري الحديث، وعصر ما قبيل التاريخ، حيث كانت تيبستي محطة تجمع وانطلاق[٣٥]. ولكن يبدو أن العلاقات تدهورت أولاً مع مصر في العصر الهلينستي، ثم لما أصبحت هذه ولاية رومانية تحولت التجارة - على نحو متزايد - الى ساحل البحر المتوسط[٣٦].

ومن المرجح أن الصحراء الشرقية أيضاً هي المكان الذي ينبغي أن نبحث فيه عن حلقة الوصل في دخول الحديد الى العالم الأسود، حيث أن هذا الأمر لا يمكن ان يحدث تلقائياً دون واسطة. إن مشكلة الانتقال من العصر الحجري الى العصر المعدني في مناطق الصحراء والنيجر، والذي حدث بلا شك في الفترة قيد الدراسة، لهي مشكلة بالغة الأهمية. وهنا أيضاً نفتقد التوزيع الجغرافي المتناسق. ففي نفس الاقليم - كما في موريتانيا مثلاً - نجد أدلة على وجود أدوات حجرية وأدوات معدنية في آن واحد خلال القرون الأخيرة قبل الميلاد. لقد عثر على مواد حجرية في زميلة بركة وفي حاسي برنوس (Hassi Bernous)، وفي زقاق (يؤرخ الكربون المشع ١٤ للمواد المعدنية الثانوية والأدوات النحاسية بعصر (الحجوجت)[٣٧]، ولعل الأخيرة تأثرت بصناعة وادي السوس (جنوب مراكش)، والتي من المحتمل أنها وجدت في وقت سابق، ولكن ليس مستحيلاً أن يكون وجود الأدوات المعدنية - على الأقل المصنوعة من الذهب والنحاس - ظاهرة محلية.

ان مسألة صناعة الحديد مسألة مختلفة، فهي تتطلب استخدام درجات حرارة أعلى، ومهارة فنية، ويجب ان نتذكر أن تعدين الحديد استغرق قروناً عديدة للانتشار من القوقاز الى أوروبا الغربية. هذا وتثير مشكلة كيف ظهر تعدين الحديد في العالم الأسود جدلاً كثيراً، فيؤكد البعض أنها اختراع إفريقي محض، ويذهب البعض الآخر الى أنها ظهرت نتيجة لتدخل أجنبي. والمؤيدون للنظرية الثانية

(٣٤) J. Leclant, op. cit. R. C. law, London, 1967, pp. 181-200; R. Rebuffat, Naples, 1970, p. 1-20.

(٣٥) P. Beck and P. Huard, Paris, 1969, G. Camps, 1978.

(٣٦) Unesco, (Cairo, 1963 - 1967).

(٣٧) N. Lambert, (1970) pp. 43-62, Camps, 322-323 and 343; 1974 d.



أشخاص يتسمون بالنمط البدني الجرمانتي؛ فسيفساء رومانية من زليطن (منطقة طرابلس)- وبصفة عامة يفسر مشهد الأسرى الذين يلقى بهم الى الحيوانات المفترسة بأنه نتيجة الانتصار الساحق للرومان على الجرمانتيين في سنة ٦٩ ميلادية

ينقسمون على أنفسهم الى فريقين: فريق يدعي انه نتيجة تأثير قادم من البحر المتوسط عبر الصحراء الوسطى، بينما يرجع الفريق الآخر أصل هذا الفن الى أرض كوش، ويدعي انه سلك الطريق الطبيعي الذي يربط النيجر بوادي النيل عن طريق كردفان ودارفور. وأياً كان الرأي الصحيح، فإن تاريخ كربون ١٤ يشير الى أن تعدين الحديد كان معروفاً في منطقة تشاد وشمال نيجيريا في القرنين الثاني والأول قبل الميلاد. وليس لنا أن نستبعد فوراً احتمال نشأته محلياً، لكن اذا لم يكن الأمر كذلك فربما تم نقله عن طريق الحضارة المروية(٣٨)، ولهذا فإن طرق الصحراء الوسطى لا تدخل في هذا الموضوع.

ان دراسة وسائل النقل يمكنها كذلك أن تساعدنا بطريقة أفضل في تحديد الطرق الصحراوية والتحقق من بعض الفروض. نحن نعلم أن الصحراء الكبرى قد غزاها الحصان قبل أن يغزوها الجمل، وهنا كما في أماكن أخرى - كانت أولى نتائج عصر الحصان استخدام العربات ذات العجلات. نحن لا نعرف متى اختفت عربات نقل البضائع والمركبات، ولكن طبقاً لما ذكره هيرودوت فإن الجرمانتيين ظلوا يستخدمونها، ويؤيد علم الآثار هذه الشهادة، إذ أن أكثر رسوم العربات ذات العجلات تنوعاً توجد في الصحراء بوفرة. وقد جعلت قوائم الجرد التصنيفية للقطع الأثرية من الممكن اعادة رسم خريطة لطرق عربات النقل(٣٩). ورغم اننا يجب الا ننبهر انبهاراً شديداً بهذه الأدلة، فيجب ان نسلم بأنه، فيما عدا الطريق الغربي، المحاذي للساحل الأطلنطي - والذي ليس من الأهمية بمكان في مصادرنا القديمة - فإن كثيراً من طرق السفر التي تشهد عليها النصوص او تدل عليها الكشوف الأثرية، قد ثبت أنها تتطابق مع هذه الطرق الشهيرة في فجر التاريخ. وينبغي ان يضاف. أن أي درب أو طريق صحراوي تسلكه الجياد - سواء مطهمة أم لا - كان يتطلب اما نظام مراكز الامداد بالمياه الذي نعلم انه كان للجرمانتيين مثله، او غير ذلك مثل نقل كمية كبيرة من المؤن.

وبالنسبة للجمل - وبعبارة أدق - النوع السريع الوحيد السنام، وأصله من الشرق الأدنى - فإنه لم يظهر في الصحراء الافريقية الا بعد فترة طويلة، وقد نوقشت هذه المسألة مناقشة لانهائية(٤٠). وفي الواقع أن الجمل دخل إفريقيا ذاتها في وقت متأخر، فلم يوجد في مصر حتى العصرين الفارسي والهلينستي (في القرنين الخامس والرابع قبل الميلاد)، وانه لاحتمال قائم انه انتشر في الصحراء من وادي النيل الادنى، ولكن هذا الحدث صعب التأريخ. وكل ما يمكن ان نهتدي به هو الرسوم

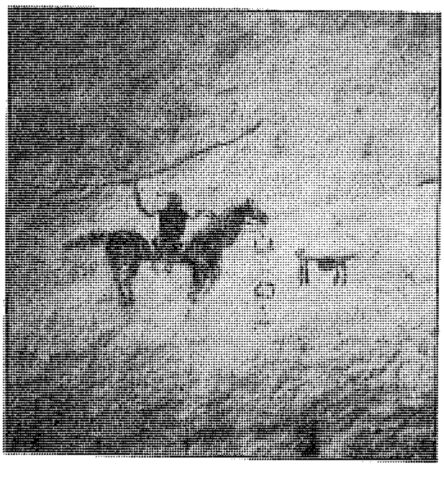
---

(٣٨) هناك دراسة عامة مع ثبت بالمراجع في كتاب: .Mauny, Siècles Obscurs, pp. 66-76, J. Leclant, Nancy, 1956, pp. 83-91; B. Davidson, Paris, 1962; pp. 62-67, P. Huard, London, 1966, pp. 377 - 404, R. Cornevin, Paris, 1967 pp.453 - 454.

(٣٩) انظر الببليوجرافيا العامة في: .Mauny, pp. 61-65, Add, H. Lhote, Dakar, 1970, pp. 83-85 وهذه الرسوم ليست واضحة بدرجة كافية، ولا هي مفصلة، ولا هي متجانسة بدرجة كافية بحيث تسمح باستخلاص نتائج أكيدة على أساسها. والنقطة الوحيدة المؤكدة التي تبرز بوضوح هي شكل عربات الجياد الجرمانتية المرسوم، والتي عثر عليها فقط في فزان وفي تاسيلي ازجر، ويبدو على هذه - زيادة على ذلك - أنها عربات احتفال موكبية صنعت من خشب وجلد. وطبقاً للشكل الذي أعاد تكوينه سبرويت Spruytte فإنها لا تزن أكثر من حوالى ثلاثين كيلوجراماً، وعلى هذا فهي لا تصلح لنقل البضائع (Camps, Civilisation Préhist. pp. 260-261) ولست مقتنعاً بأن نوع هذه العربات الجرمانتية يرجع الى تأثير الغزاة الكريتيين الذين ضلوا طريقهم في الصحراء الليبية في وقت ما عند نهاية الألف الأول قبل الميلاد. ان الطرق ذاتها مثار شك وجدل: ربما لم تكن شيئاً أكثر من اتجاهات عامة. ويغض النظر تماماً عن النظريات المتطرفة عن وصول الرومان في عرباتهم الى النيجر (Lhote, op. cit.)، فقد شكك بعض الكتاب حتى في وجودها كلية: Cornevin, Histoire de L'Afrique, p. 453, after Huard; Camps, Civilisation Préhist. pp. 346-347.

(٤٠) C. Courtois, (Paris, 1955). pp. 98-101, K. Schauenburg, 1955 - 1956, pp. 59-94, Demougeot, (Paris, 1960, pp. 209 - 247) H. Lhote, (Rabat, VII 1967, pp. 57-89), Kolendo, 1970, pp. 287 - 298.





يستند تقدير عمر الرسوم الصخرية الى معايير تتعلق بالأسلوب ومسحة القدم. ومع ذلك يصعب تأريخ ما يرجع الى العصور المتأخرة. مثال ذلك هذه الرسوم الثلاثة من منطقة صفار (تاسيلي) التي قيل انها ترجع الى العصر الليبي البربري، مع أن النقوش التي وردت فيها وان كانت بكتابة تيفينا الا انها قد تضمنت اسمي «حكيم» و«محمد» الاسلاميين.

الصخرية الليبية البربرية في الصحراء، والتي لا تفيدنا سوى فائدة طفيفة في تعيين التواريخ الدقيقة، وعدد ضخم من النقوش والتماثيل من شمال إفريقيا الرومانية، وكلها على ما يبدو لاحقة للقرن الثاني الميلادي. ومن ناحية أخرى فإن نصباً منقوشاً من اوستيا (Ostea) - ميناء روما - مؤ رخاً بالثلاثين عاماً الأخيرة من القرن الأول الميلادي يبين استخدام الفيل والجمل في الألعاب التي كانت تجري في ساحات الملاعب الرومانية. وقد غنم قيصر بالفعل سنة ٤٦ق.م. في إفريقيا ٢٢ جملاً من الملك النوميدي يوبا الأول، الذي امتدت دولته الى حدود الصحراء، ومن المحتمل أنها كانت لا تزال حيوانات نادرة. ولكن اذا كانت الجمال التي صدرت الى روما بعد ١٥٠ عاماً إفريقية حقاً، فلا بد أن الابل - نظراً لأنها لم تكن شائعة في الأراضي المغربية - كانت تعيش في الصحراء بأعداد وافرة، وكان يحصل عليها لأجل الألعاب.

هل لي أن أشير - في هذا الشأن - إشارة عابرة الى الرسم الرمزي للابل على العملة الرومانية الشهيرة والمعروفة باسم «سبينتريان (Spintrian) فهذه العملة يحتمل انها كانت تسك لكي تستخدمها الغواني والمومسات، اذ ساد الاعتقاد بين القدماء إن هذه الحيوانات المجترة ذات شهوة غريزية جامحة!

انني أميل الى الاتفاق مع هؤلاء المؤرخين الذين يعلقون أهمية بالغة على الاستخدام المتزايد للجمل في الصحراء، فهذا الحيوان ذو الخف اللين القابل للتكيف مع كل أرض، ذو القدرة المذهلة على تحمل الجوع والعطش بفضل ما يفرزه جهازه من ماء ويجتره من طعام مختزن في جوفه، كان بمثابة مبعوث العناية الالهية لكل البدو الذين كانت تعوق حركتهم عيوب الجياد في وقت كان فيه المناخ قد اخذ يتحول الى جفاف مهلك. لقد أتاح الجمل مزيداً من سرعة الحركة للأفراد والجماعات، وهي ميزة ادركها الناس، منذ وقت طويل في الجزيرة العربية، بل يعتقد ان تغيير طريقة تطهيمه وبخاصة بتعديل وضع الجلّ (السرج) قد جعل من الممكن تدريب «المهاري» لتجري في السباق وتشترك في القتال(٤١).

ولعدة قرون انتشر استخدام هذه الحيوانات ببطء ولكن بانتظام، وتشهد بهذا كثرة صور الابل في الرسوم المعروفة باسم «رسوم الجمل الصخرية» (Cameline) في كل مناطق الصحراء الكبرى وهذه الرسوم صعبة التأريخ للأسف، وان تكن - بلا ريب - احدث زمنياً بكثير من صور الجياد البديعة (Caballine) . ومع أن النصوص القديمة لا تشير إلى امتلاك الجرمانتيين ورعاياهم للجمال، فمن المؤكد انهم انتبهوا الى معرفتها والافادة منها إفادة لا تقدر بثمن؛ ولعل هذا هو السبب في انتظام علاقاتهم التجارية مع أبعد المناطق، وربما ليس من قبيل المصادفة أن كل القطع الأثرية الرومانية في إقليم غات وأباليسا هي من القرن الرابع. في هذه الفترة كانت الابل كذلك كثيرة في شمالي طرابلس، حيث كانت السلطات الرومانية تستطيع ان تلزم مدينة مثل لبتس ماجنا (لبدة) بأن تجمع لها على نفقتها بانتظام أربعة آلاف جمل، كما عززت وفرة الابل من قدرة البدو على شن الهجمات على الأراضي الرومانية.

سياسة روما الصحراوية

لنقص الوثائق لا نعرف هل كانت قرطاجة البونية تخشى وجود القبائل القوية على حدودها الجنوبية. لقد أثبتت حفائر جراما أنه على الأقل خلال القرنين الثاني والأول قبل الميلاد، كانت لموانىء ساحل سرت التي كانت تتبع مملكة نوميديا علاقات تجارية مع فزان وعلى هذه العلاقات كان يعتمد ثراؤ ها أساساً.

---

(٤١) T. Monod, Dakar, 1967.

ان التاريخ الروماني معروف معرفة جيدة، ويمكن تلخيص الخطوط الرئيسية في السياسة الرومانية باختصار كما يلي: كان احتلال الأراضي الزراعية في المغرب يتطلب غطاء استراتيجياً الى الجنوب. وفي هذه الأقاليم كان بدو الصحراء مصدر ازعاج. لقد جعلت هجراتهم الموسمية الى الأراضي المستعمرة، والتي كان لا مناص منها، لأنها ضرورية لحياتهم، جعلت منتجات السهوب والصحراء في متناول المستوطنين، ولكنها كانت تنذر دائماً بخطر نشوب الصراع مع القبائل المستقرة، ورغم البعد بدا ان الجرمانتيين كانوا يشكلون خطراً حيث انهم كانوا يستطيعون في أي وقت تدعيم الاتجاه العدواني للبدو. كانت قوتهم - في حد ذاتها - تعتبر وحدها تحدياً ودعوة للنزال.

ويمدنا التاريخ الروماني - عبر أربعة قرون وأكثر - وبخاصة في الفترة الأخيرة - بأمثلة كثيرة لسكان الصحراء عند الحدود الجنوبية لطرابلس وبرقة، فقد تسبب البدو من راكبي الجمال - مثل الأوستوريين (Austurians) والمرماريديين (Marmarides)، وقبل كل هؤلاء المازيقيين (Mazices)، في إثارة القلق في كل من الساحل الليبي والواحات المصرية(٤٢). وينهض هذا دليلاً على مقدرتهم على التحرك والتنقل وعلى اتساع نطاق غاراتهم.

ولتجنب هذا الخطر المزدوج كانت الخطوة الأولى في الاستراتيجية الرومانية هي قطع الطريق على البدو من قواعدهم الخلفية بالتدمير السريع لأقوى الدول الصحراوية، وبعلو شأن الامبراطورية تضاءل تماماً شأن الناسامونيين والجرمانتيين. ومنذ ذلك الحين، في القرنين الثاني والثالث كان كل المطلوب هو حماية الأراضي المستعمرة بالتنظيم الدقيق لشبكة مقتدرة من الحصون، والاستحكامات الأخرى كمنحدرات تعرية هجوم العدو وكشفه (Glacis)، وخطوط المواصلات، واختيرت مواقعها على أساس استغلال التضاريس الى اقصى حد. وهذا يفسر الشكل غير المنتظم لنقاط الحدود او الثغور (Limes) الرومانية التي تحمي كل ولايات البحر المتوسط الافريقية باستراتيجية ماهرة مذهلة(٤٣)، وعلى ما يبدو فقد عقد الرومان عليها آمالاً كبيرة في التمكن من السيطرة على بدو الصحراء الشمالية.

ومع هذا ثبت أن السلام المفروض كان مؤقتاً، ومنذ القرن الرابع وما بعده كان البدو بجمالهم يطرقون الأبواب بطريقة أكثر تهديداً من ذي قبل، وينهكون بهجماتهم المتوالية مقاومة حاميات نقاط الحدود.

ونحن نعرف النتيجة ففي الحركة التي انتهت بطرد الرومان - وهي عملية ترجع لأسباب متعددة - لعبت الصحراءفيها دوراً ملحوظاً.

وهكذا - كما رأينا - فنحن لسنا بلا معلومات عن الصحراء في العصور القديمة حتى وإن تكن معلوماتنا غير كاملة. فعديد من النقاط مؤكدة، ان قسوة المناخ لم تقتل الصحراء. اذ استمر النشاط الانساني. ونشأت لغات وكتابة وسهل استخدام الابل على نحو متزايد - مشكلة النقل والمواصلات، ولعبت المنطقة دورها الخاص في تاريخ دول البحر المتوسط العظمى - هل لنا أن نفترض أن نفس الشيء ينطبق أيضاً على إفريقيا المدارية؟ فمن واقع هذا التقدم المستمر استمدت النهضة في العصور الوسطى - بلا شك - أصولها الأولى.

---

(٤٢) جمع النصوص والنقوش: Desanges (Catalogue des Tribus Africaines de L'Antiquité Classique a L'Ouest du Nil, Université de Dakar), 1962 and Cracco - Ruggini (1972).

(٤٣) حول مسألة العلاقات الرومانية مع الصحراء من خلال الثغور (الليمس)، انظر: عن موريتانيا: P. Salama, Algiers, 1953, pp. 231-251; and 1955, pp. 329-367. Paris, pp. 339-349. وعن نوميديا: ...rades - Paris, AMG, 1949; وعن طرابلس: A. di Vita, Tripoli, 1964, pp. 65-98. R. Rebuffat, Paris, 1972, pp. 319-339.

الفصل الحادي والعشرون

مقدمة لافريقيا المجاورة للصحراء في عصر ما قبل التاريخ المتأخر

بقلم: م. بوسنانسكي

المعلومات المتحصلة من علم الآثار القديمة

ان أحد الانجازات الأساسية التي حققتها الأبحاث الأخيرة في الآثار القديمة لافريقيا فيما وراء الصحراء هو ادراك أن شعوباً في مراحل مختلفة من التطور التكنولوجي عاشت متعاصرة في مناطق مختلفة من إفريقيا. ولم تكن هناك نهاية واحدة للعصر الحجري، فقد اعتمدت الممارسات الزراعية في أزمنة مختلفة، وكثير من المجتمعات، التي سنتناولها في الفصول القليلة القادمة، كانت ما تزال على القنص وجمع الطعام، وتستعمل تكنولوجية العصر الحجري، حتى نهاية الألف سنة الأولى الميلادية. لكن المجتمعات لم تكن أبداً جامدة بل كثيراً ما كانت هناك اتصالات ثقافية نشطة عبر مسافات بعيدة. وعلى عكس ما كان يعتقد، فإن الاتصال كان على أشده عبر ما كان يعتقد أنه أعظم عائق يصعب اختراقه وهو الصحراء الكبرى، وأمدنا بأكبر قوة موحدة في التاريخ الافريقي. ومن المستحيل ان نعين تاريخاً دقيقاً لنهاية الفترة قيد المناقشة في منطقة ليس لدينا عنها أزمنة تاريخية محددة. والتواريخ التي لدينا محددة بوساطة المشع (الكربون ١٤) وهذه التواريخ التي تم الوصول اليها صحيحة نسبياً ولكن التغاير في المرحلة موضع المراجعة قد يمتد الى عدة قرون. وعليه فبدلاً من تحديد تاريخ حاسم لنهاية الفترة، فإن الفصول التي تتناول افريقيا فيما وراء الصحراء تعالج عموماً ما يعرف عادة بفترة «العصر الحجري الحديث» والعصر الحديدي المبكر. وبهذا ففترتنا هذه تنتهي حوالى عام ١٠٠٠ قبل الميلاد في معظم المناطق. وقد استخدم اصطلاح العصر الحجري الحديث في إفريقيا فيما وراء الصحراء بطرق متضاربة متعددة في الماضي أما لكي يدل على اقتصاد زراعي او لتمييز مجموعات من الأدوات وتشمل آلات قاطعة مصقولة ومسنونة وفخاراً، وفي حالات كثيرة حجارة الجرش او الطحن. وليس من الضروري

أن المجتمعات الزراعية المبكرة قد تميزت بنفس مجموعة الآلات. وقد اوضحت الأبحاث الأخيرة في كثير من أجزاء افريقيا أن للآلات طابع تخطي الحيز الزمني فمثلاً ظهرت الفأس الحجرية المسنونة لأول مرة في أجزاء من إفريقيا بين مجموعات آلات الصيادين وجامعي الطعام الذين عاشوا منذ ما بين سبعة وثمانية آلاف سنة مضت بينما أن آلات مشابهة ربما كانت لا تزال في بعض أجزاء من حوض الزائير (بوليان) ربما الى ما يقل عن ألف سنة مضت. وبالمثل، يبدو ان الفخار كان مستعملاً بوساطة الصيادين وجامعي الطعام، والذين كانوا على اتصال بجيرانهم المزارعين، قبل أن يصبح مستخدموه هم أنفسهم من المزارعين. ولأول مرة ظهرت أحجار الطحن بصورة منتظمة في مواقع العصر الحجري المتأخر في كثير من أجزاء إفريقيا، وهي تدل على تكثيف أكثر لاستخدام بقايا النبات. ونعني بالعصر الحديدي المبكر تلك الفترة التي شهدت استخداماً متصلاً لتكنولوجيا الحديد مقابل الاستعمال العرضي لأدوات مصنوعة من الحديد. وعلى العموم يمتاز العصر الحديدي المبكر في افريقيا فيما وراء الصحراء، بوجود مستوطنات صغيرة متفرقة نسبياً وليس بتطور الدول التي لم تظهر الا في العصر الحديدي المتأخر (بوسنانسكي، ١٩٧٢).

ومن المؤسف أن معلوماتنا عن الطبيعة الجسمانية لسكان إفريقيا فيما وراء الصحراء محدودة جداً. ومن المؤكد أنه في حوالى الألف العاشرة قبل الميلاد، عاشت شعوب في غرب إفريقيا، لها بعض الصفات الجسمانية شبيهة بصفات سكان نفس المنطقة الحاليين (الايو - الورو بنيجيريا) وقد أطلق عليهم اسم الزنوج الأول[١]. وقد وضعت كذلك بقايا هياكل بشرية زنجية في الصحراء وفي الأحزمة الساحلية على حد سواء يرجع تاريخها الى الألف سنة الخامسة قبل الميلاد[٢]. وفي الجنوب الافريقي كان أسلاف الصيادين وجامعي القوت والرعاة الخوسيين الحاليين في ناميبيا وبوتسانا (السان والخوي خوي) كانوا أضخم من احفادهم وكانوا يحتلون على وجه التأكيد مناطق تمتد شمالاً حتى زامبيا وربما امتدت حتى نهر سميليكي بشرق زائير. وقد جاء دليل ممتاز على ذلك من مواقع جويشو بزامبيا، حيث اوضحت لنا أطقم الأدوات والمستنتج من غذائهم ان هذه المجموعات المعنية هي السان لكن متوسط طول الجسم لهذه المجموعة التي عاشت منذ أربعة آلاف سنة مضت كان أكبر بكثير من طول السان الحاليين الذين يقطنون غرب بوتسوانا مباشرة[٣]. وقد فسر ليكي (١٩٣٦) بقايا الهياكل العظمية البشرية التي عثر عليها في مواقع تقع عموماً في الأخدود الافريقي بكينيا، والتي ترجع الى الألف السادسة قبل الميلاد وما بعدها، على أنها أقرب بكثير الى بعض الفصائل البدنية بالمنطقة الأثيوبية، عنها بالنسبة الى الشعوب الحالية التي تتحدث لغة البانتو واللغات النيلية، الا أن الهياكل قد تمّت دراستها منذ نحو نصف قرن مضى وقد حان الوقت لاعادة التقويم لهذه الدراسة.

وقد دلت دراسة المورثات البيولوجية التي أجراها سنجر وواينر[٤] على أن السان والزنوج أقرب الى بعضهم البعض أكثر من قربهم الى أي مجموعة خارجية مما يشير الى أنهما السلالتان الوراثيتان لسكان افريقيا الأصليين في العصر الحجري. كما بينا كذلك التجانس البيولوجي لسكان إفريقيا في المنطقة الممتدة من غرب إفريقيا حتى جنوبها. وأوضح التحليل الشامل المتعمق للمعلومات الوراثية المتوفرة التي قام بها هيرنو[٥] والتي تم الحصول عليها عن طريق مد نطاق البحوث الطبية الى إفريقيا، أوضح

(١) ي. و. بروثول، وت. شو ص ٢٢١ - ٢٢٧.
(٢) م. ك شاملا ١٩٦٨.
(٣) ك. جابل.
(٤) ر. سنجر وج. س. واينر، ١٩٦٣، ص ١٦٨ - ١٧٦.
(٥) هيرنيو ١٩٦٨ بروكسل.

الطبيعة المختلطة لأغلب سكان إفريقيا، والتي تفصح لنا عن المدى الطويل للاتصال الجسماني والحضاري الذي كان قائماً في المنطقة فيما وراء الصحراء. وفي الأماكن النائية فقط - مثل غابات زائير موطن الأقزام أو في كلهاري بيئة السان - نجد الاختلاف الواضح للسكان وهنا فان الاختلاف لا بد من تفسيره بوساطة العزلة الوراثية.

وفي مناطق كالحزام الساحلي وعلى مشارف شمال شرق إفريقيا وفي مدغشقر يوجد خليط بين سكان زنوج في الغالب الأعم وبين سكان تطوروا على نحو مستقل عمن هم يقعون جنوبهم مثل الملاويين البولينيزيين في حالة مدغشقر والذين ينتسبون الى سكان حوض البحر المتوسط وجنوب غرب آسيا في حالة شمال شرق إفريقيا والصحراء.

اسهام علم اللغة

من الأشياء الحاسمة لفهم العصر الحديدي المبكر في إفريقيا فيما وراء الصحراء تقدير قيمة الخلفية اللغوية. وقد اضطر أغلب علماء الآثار للاستشهاد بأدلة لغوية لتفسير معلوماتهم. وفي هذه الفترة التي نحن بصددها يهمنا معرفة مجموعتين رئيسيتين من الأحداث: الأولى تهشم العائلة اللغوية الكنغوكردفانية، حسب اصطلاح جرينبرج[٦]. والثانية تشتت الشعوب المتحدثة بلغة البانتو التي تشكل الآن أكثر من ٩٠٪ من الشعوب جنوب الخط الممتد من منعطف بيافرا الى ساحل شرق إفريقيا حول مالينديي، ولا نعرف إلا اليسير عن مجموعة الأحداث الأولى، وكل ما يمكن ان يقال عنها هو أن اللغات الكردفانية قديمة، متعددة نسبياً، يتحدث بها عادة مجموعات صغيرة من الناس، أحياناً ضئيلة، وأن كل لغة تتميز جاراتها وكلها تنحصر داخل محافظة كردفان الحديثة بجمهورية السودان، وتتمركز أساساً حول تلال النوبا. لقد تباعدت اللغات الكردفانية كثيراً عن اللغات النيجيرية الكنغولية وانعزلت من المجموعات اللغوية حولها. وليس لدينا ما يفيد قوله عن الحيز الزمني الذي استغرقه انفصال الكردفانية عن اللهجات النيجيرية والكنغولية من الأسرة الكردفانية الكنغولية الأولى سوى أن ذلك يرجع احتمالاً الى ما قبل ١٠٠٠٠ - ٨٠٠٠ سنة قبل الميلاد.

وقد ترتبط عملية تجزؤ اللغات النيجيرية الكنغولية بالتوسع التدريجي للسكان جنوب الساحل مع تزايد الجفاف في الصحراء. لقد وضع بينتر[٧] مقياساً زمنياً حوالى ٦٠٠٠ - ٣٠٠٠ق.م. لاتمام التجزؤ لكن هناك آراء اخرى. واقترح أرمسترنج[٨] أن للغات جنوب نيجيريا عمراً يقدر بنحو عشرة آلاف سنة مما يعني ضمناً أن التحرك جنوباً حدث في وقت مبكر. ومن المحتمل طبعاً أن كلا الرأيين يمكن أن يكون صحيحاً من انسلاخ بعض متحدثي اللغات النيجيرية والكنغولية من المجموعة الأصلية. وفي النهاية أصبحوا منعزلين في بيئة غابات وربما كانت هذه اللغات هي المناظرة للغات السكان الزنوج الأوائل الايو - الورو. بعد ذلك انتشرت مجموعات اخرى ممن يتحدثون اللغات النيجيرية الكنغولية من الساحل حينما توطد أسلوب الحياة الزراعية. والمشكلة المصاحبة لهذا التعليل

(٦) انظر المجلد الأول، الفصل ١٢.

(٧) س. بينتر، ص ٥٨ - ٦٦.

(٨) ر.ج. ارمسترونج.

هي أن منتجي القوت الأوائل في المنطقة الساحلية يبدو أنهم كانوا رعاة أكثر منهم مزارعين. وما أوحى به ساتن في الفصل الثالث والعشرين[٩] ربما يكون حلاً للمشكلة، حيث وجدت دلائل تشير الى الربط بين رعاة الساحل وحراب صيد السمك وبعض الاشياء الأخرى عرفت بأنها علاقة مميزة لحضارة مائية، ومع ذلك يظهر أن التباعد اللغوي الموجود داخل العائلة النيجيرية الكنغولية مرتبط بالانفصال الجغرافي لمجموعات مختلفة أغلبها زراع، وهو انفصال ضارب في القدم بحيث مكن للمكونات الفردية للأسرة النيجيرية الكنغولية من أن تصبح متمايزة للغاية من الناحية اللغوية.

واذا انتقلنا الى لغات البانتو فإنّا نواجه حالة مختلفة فهناك أكثر من ألفي لغة من لغات البانتو في شرق وجنوب ووسط افريقيا، لها مفردات وتكوين واطار هيكلي مشترك، وبذا تترابط فيما بينها. وقد لاحظ بيك ١٨٦٢ وجود هذه العلاقة مبكراً باستخدام كلمة بانتو للاشارة الى الفاس. منذ فترة طويلة ترجع الى عام ١٨٨٩ وجد ماينهوف أن لغات البانتو مرتبطة بلغات غرب افريقيا المعروفة حينذاك باللغات السودانية الغربية. والتباعد بين لغات البانتو المختلفة لم يكن في أي مكان بنفس قدر التباعد بين لغات غرب إفريقيا المختلفة وترجع معظم التقديرات هذا التباعد الى حوالى ألفين أو ثلاثة آلاف سنة. وعلى أية حال فهناك نظريات لغوية مختلفة حول كيفية انفصال البانتو من بقية لغات غرب افريقيا، منها نظريتان فقط أكثر قبولاً. وقد عالج جوزيف جرينبرج[١٠] المشكلة على المستوى الجمعي في دراسته للغات الافريقية ككل وقد استعمل في ذلك براهين من قواعد اللغة ومفرداتها مأخوذة من نحو ٨٠٠ لغة. ومن هذه اللغات عين متوسطاً قدره حوالى ٢٠٠ من جذور الكلمات أو الكلمات الأساسية اعتبرها كعناصر أساسية في معجم مفردات اللغة، كلمات كالتي يتعلمها الطفل من أمه مثل الأعداد الأولية، وأجزاء الجسم، والوظائف البسيطة للجسم كالنوم والأكل والتبول الخ، والمكونات الأساسية للعالم المادي حول الطفل كالأرض والماء والنار. وباستعماله لهذه الكلمات الأساسية اكتشف أن لغات البانتو أقرب الى لغات غرب افريقيا الأخرى أكثر من قرب اللغة الانجليزية من اللغة الألمانية الأولى مثلاً والتي يعتبر اللغويون أن العلاقة بينهما وثيقة، ووجد كذلك أن حوالى ٤٢٪ من مفردات البانتو موجودة في أقرب لغات غرب إفريقيا، بالمقارنة مع ٣٤٪ فقط من الكلمات الانجليزية في اللغة الألمانية الأولى. وخلص من ذلك الى أن البانتو لا يمثلون حتى أسرة فرعية وراثية واحدة بل ينتمون الى أحد فروع أسر بنوي - كروس أو شبه البانتو[١١]. وبذا حد منطقة أصول البانتو بصورة حازمة بمنطقة الحدود الكمرونية النيجيرية. وقد عمل جوثري[١٢] على المستوى الواحد بعد سنوات من الانغماس في الدراسات المقارنة للغات البانتو وحلل حوالى ٣٥٠ من لغات البانتو ولهجاتها. وقام بفصل جذور الكلمات المتقاربة التي تحمل نفس المعنى على الأقل في ثلاث لغات منفصلة. ومن بين ٢٤٠٠ مجموعة من الجذور التي قام بفصلها وجد أن ٢٣٪ منها (عامة) أي انها منتشرة على نطاق واسع في كل منطقة البانتو في حين أن ٦١٪ منها (خاصة) بمنطقة معينة. وباستعمال المجموعات العامة بعمل فهرس مشترك للبانتو يوضح النسبة المئوية للكلمات العامة في أي من لغات البانتو. وتبين الفواصل اللغوية (أو الخطوط التي تربط بين الدلالات المتماثلة في لغة البانتو) والتي تم الوصول اليها على هذا النحو،

---

(٩) قارن كذلك ج. ي. ج ستون ١٩٧٤، وهو يعتقد «أنه كان هناك انتشار سابق لطريقة الحياة المائية عندما بلغت الأمطار اقصى مداها وأن الأقوام المعينين كانوا هم النيليين الصحراويين الأصليين».

(١٠) ج. هـ. جرينبرج، ١٩٦٣، شرحه، ١٩٧٢، ص ١٨٩ - ٢١٦.

(١١) ج. هـ. جرينبرج، ١٩٦٣، شرحه، ص ٧.

(١٢) م. جوثري، ١٩٦٧ - ١٩٧١، ص ٢٠ - ٤٩.

تبين وجود منطقة مركزية يزيد فيها معدل الاستبقاء عن ٥٠٪ وتقع في منطقة الحشائش جنوب غابة الزائير بمنطقة مستجمع الامطار للزامبيزي - زائير. وفي منطقة النواة هذه افترض ان لغة البانتو الأولى قد تطورت وأن انتشار وتجزؤ لغة البانتو الأولى قد حدث من منطقة المصدر هذه للغة البانتو الأولى. وقام كذلك بتحديد لهجتين أوليين للبانتو، البانتو الشرقية والبانتو الغربية، تحتويان على أكثر من ٦٠٪ من الكلمات المتشابهة الخاصة، وباستعمال كلمات منفردة حاول أن يلقي الضوء على البيئة التي استخدمت فيها لغة البانتو الأولى. ووجد أن كلمات «صيد السمك بالخيط» و«الزورق» و«يجدف» و«يطرق الحديد» هي كلمات شائعة تماماً، بينما الكلمة المستخدمة في لغة البانتو الأولى كمقابل لكلمة الغابة تشير الى أدغال لا الى غابة كثيفة. وهو بهذا يشير الى أن شعب البانتو وأفراده الأوائل تمكنوا من صهر الحديد وعاشوا جنوب الغابات الحقيقية وأنهم كانوا يألفون المراكب والأنهار قبل انتشارهم. وفي مخطط جوثري تمثل لغات البانتو الشمالية الغربية (منطقة الأصل عند جرينبرج) ١١-١٨ فقط حسب فهرسه للبانتو وبهذا فهي سلالة بعيدة للغة البانتو الأولى، وليست سلفاً للغات البانتو، الا انه يوافق على أنه في الماضي البعيد عاش شعب ما قبل البانتو في منطقة شاري - تشاد[١٣] وقد رسم اوليفر رسماً بيانياً لنظرية جوثري وافترض وجود مجموعة من شعب ما قبل البانتو تستخدم المراكب شقت طريقها خلال الغابات نحو المراعي الجنوبية حيث تكاثرت ومن هناك انتشرت في النهاية في كل الاتجاهات.

وهكذا فهناك اتفاق على الأصل النهائي للغات البانتو في غرب افريقيا والاختلاف يدور حول مركز الانتشار المباشر. فقد أيد أهرت[١٤] وكثير من غيره من اللغويين، أيدوا جرينبرج بصفة عامة، حيث أنهم اعتقدوا اعتماداً على الأسس اللغوية، أن أكبر منطقة لتعدد لغوي (وهي في هذه الحالة المنطقة الشمالية الغربية لمنطقة البانتو الرئيسية)، يرجح أن تكون هي منطقة الاستيطان الأولى. وقد اقترح اهرت كذلك أن يتم تقدير أهمية جذور جوثري حيث أن البعض لا بد أن يكون أكبر من الآخرين وذلك بمحاولة تحديد منطقة أصل البانتو، واعتماداً على افتراض وجود مفردات رئيسية للمتحدثين الأول بلغة البانتو، بفضل وجود أصل في الغابة، تاريخه سابق لألف سنة قبل الميلاد، حيث فلح البانتو الأول الأرض وصادوا الأسماك. وقد طور دالبي[١٥] الذي يخالف بشدة جرينبرج في مسائل التفاصيل، نظرية وجود حزام التجزؤ في غرب افريقيا حيث استقر البانتو. ويوجد خارج هذا الحزام شيء من التناسق ولكن داخله يعج بالتنوع الدال على تحركات السكان التي أدت الى انتشار المتحدثين باللغة النيجيرية الكنغولية وبلغة البانتو على حد سواء. أما الخبراء الذين يريدون وضع ترتيب زمني فانهم يضعون توسع البانتو في وقت ما يقع بين ألفين أو ثلاثة آلاف سنة مضت ويوافقون على أن الحديد قد استخدم بوساطة اولئك الذين انتشروا، ويرتضون كلهم التوسع السريع للبانتو بل يذهب بعضهم الى القول بأنه توسع متفجر.

دور الزراعة

هناك عنصر آخر يجب أخذه في الاعتبار قبل عصر الحديد ذلك هو الزراعة. وسوف نتناول ذلك بشيء من التفصيل في الفصول القادمة على أساس المناطق الا أن هناك بعض السمات العامة التي يجب

(١٣) ر. اوليفر، ص ٣٦١ - ٣٧٦.
(١٤) س. اهيرت، ١٩٧٢، ص ١ - ١٢.
(١٥) د. دالبي، ١٩٧٠، ص ١٤٧ - ١٧١.

مناقشتها. وفي فصل تمهيدي بهذه الصورة نذكر التعميمات فقط، وللحصول على تفاصيل أوفر فإننا نحيل القارىء الى محاضر ندوة دراسية أقيمت عام ١٩٧٢ حول الزراعة المبكرة بافريقيا(١٦).

وتعني الزراعة نوعاً من تحكم الانسان في المعروض الغذائي كما أنها تعني وجوداً مستقراً نسبياً بالمقارنة مع التحرك المستمر للقنص وجمع القوت. لقد ازداد حجم المجموعة وتمكنت التنظيمات الاجتماعية الأكثر تعقيداً وفي النهاية التنظيمات السياسية من التطور. كما أن الزراعة خاصة الفلاحة والبستنة تتطلب بطبيعتها كثافة سكانية أعلى وزيادة في الرقم الاجمالي للسكان.

ويميز علماء الآثار القديمة المجتمعات الزراعية بوساطة أدلة مباشرة وغير مباشرة على حد سواء. وتشمل الأدلة المباشرة العثور على البذور والحبوب في حالة متفحمة في المواقع الأثرية القديمة أو تظهر هذه الأدلة باستخدامهم المتكرر تقنية متقدمة للاكتشافات الأثرية هي تحليل الطفو والبلينولوجيا (علم اللقح والأبواغ) التي تحقق حبوب اللقاح المتحجرة للنباتات المزروعة وتحديد بصمات البذور على الفخار. وتتضمن الأدلة غير المباشرة أو الأدلة العرضية اكتشاف معدات وأدوات يفترض انها استعملت للفلاحة والحصاد وتحضير الغذاء النباتي. ومن سوء الحظ تقف الأحوال المناخية في إفريقيا فيما وراء الصحراء حجر عثرة في طريق العثور على الأدلة المباشرة فالمادة العضوية تتحلل عادة خلال أيام قلائل من نقلها. والتربة في معظم المواقع الاستوائية حيوية هوائية ولا تسمح بحفظ حبوب اللقاح. واذا ما وجدت حبوب اللقاح، في المستنقعات والبحيرات الواقعة على ارتفاعات عالية، فإنها تكون في مواقع بعيدة جداً عن الأراضي الصالحة للزراعة مما يصعب أخذها كدليل للزراعة في الماضي(١٧).

وهناك مشكلة اخرى هي ان طبيعة كثير من الآلات والمعدات الزراعية غير قابلة للتحديد. فمثلاً السكين التي تستعمل في تقشير الخضر يمكن استعمالها لأشياء أخرى، والرحى يمكن أن تستعمل لسحق المغرة للتلوين أو لدق أو طحن المواد الغذائية غير المزروعة، وكلاهما يوجدان بكثرة في المواقع التي ترجع الى العصر الحجري الأخير. وكثير من المحصولات الغذائية الافريقية مثل الموز واليام (نوع من البطاطا) وغيرها من الدرنات ليس لها حبوب لقاح وكثير منها يزرع باستخدام عصي خشبية للحفر لتجنب الأضرار بالدرنات. والطعام المستخدم في الأكل فعلاً الذي يحضر من مثل هذه النباتات كثيراً يدق داخل هاونات خشبية باستخدام مدقات خشبية عمرها محدود وفرصها ضئيلة للبقاء داخل التربة في المناطق التي كانت تستعمل فيها. وهكذا اضطر علماء الآثار الى الاعتماد حتى على أدلة أكثر عرضية ليدللوا على وجود الزراعة، كوجود مواقع استيطان واسعة ووجود ما يبدو أنه منازل دائمة واستعمال الفخار أو وجود مقابر منتظمة. وكما سيظهر واضحاً في الفصل السادس والعشرين فإن جامعي القوت والقناصة في إفريقيا كانوا أحياناً يعيشون في جماعات كبيرة يستعملون الفخار عادة ولو نجح صيدهم للسمك او أنواع القنص الأخرى أو جمع القوت، فانهم كانوا يعكفون على اقامة مستوطنات دائمة نسبياً مثلما حدث في حالة الخرطوم الأولى او شانجو في العصر الحجري المتأخر، وهكذا فمن المؤسف أنه يمكن ان نخلص الى أنه حتى الآن فإن أدلتنا لفك عقدة قصة الزراعة المبكرة في إفريقيا شبه

---

(١٦) ر.ج. هارلان وآخرون.

(١٧) هناك حالات أمدتنا الدراسات البالينولوجية بمعلومات قيمة كما في العينة المأخوذة من بحيرة فيكتوريا والتي أشارت الى وجود تغيير في البيئة النباتية حدث ما بين ألفين الى ثلاثة آلاف سنة مضت، حيث تراجعت فصائل الغابات للأعشاب، الأمر الذي يشير الى عملية تقطيع واسعة للغابات تمت نتيجة لحلول السكان المزارعين (ر.ل. كينهال، د. أ. لفنجستون، ص ٣٨٦).

الصحراوية ضعيفة لحد ما وأن استنتاجاتنا لا بد أن تكون تخمينية فحسب، لكن بمرور الوقت وبازدياد تطور طرق الاسترجاع المتقدمة وبتكثيف البحوث النباتية والبلينولوجية في الخلفية الوراثية وتوزيع النباتات المزروعة في إفريقيا، لا بد أن يصبح في الامكان تقديم معلومات أكثر أهمية.

وحتى نهاية الخمسينات من هذا القرن كان الافتراض السائد هو أن الزراعة جاءت في تاريخ متأخر في أغلب جهات إفريقيا فيما وراء الصحراء، وفي الحقيقة أنها كانت الى حد كبير معاصرة لادخال تكنولوجيا الحديد في عموم غرب إفريقيا عدا أجزاء منه، وان انتشرت من جنوب غرب آسيا الى وادي النيل ومنه في النهاية الى بقية إفريقيا. ومع ذلك تشير الأدلة الجديدة من الصحراء ومن مناطق أخرى الى ان القصة ليست بهذه البساطة. ان أول تساؤلات اثيرت حول هذه النظرة التقليدية عن أصول الزراعة في إفريقيا أثارها ميردوك(١٨) الذي حدد منطقة أصل كثير من زراعة إفريقيا في القرب من غرب إفريقيا حول منابع نهر النيجر والسنغال وفي فوتاجالون ورغم أن أغلب فروض ميردوك لا يمكن الآن اثباتها بالتفصيل إلا أنه من الواضح مع ذلك أن اليام أحد أنواع الأرز (Oryza Glaberrina) والذرة الصيفية وزيت النخيل وحاصلات ثانوية كثيرة هي كلها حاصلات محلية في غرب إفريقيا. مع ذلك فالمسألة الرئيسية هي ما اذا كان وجود مثل هذه الحاصلات الزراعية بغرب إفريقيا يشير الى تطور مبكر للزراعة مستقل عنها في خارج إفريقيا. اذ يحاول بعض علماء الآثار القديمة(١٩) بشدة أن يبرهنوا على وجود زراعة خضرية تعتمد على زراعة اليام ولكن لا توجد حجج قاطعة ضد الأدلة المستنبطة حتى الآن(٢٠). ومن الواضح أن قرى، مثل أميكني قامت في الصحراء في تاريخ مبكر يرجع الى الألف سنة السادسة قبل الميلاد. وان مجتمعات العصر الحجري الجديد - استخدمت في الغابة زيت النخيل والبازلا، ومثلها من الحاصلات الأخرى وأن أنواعاً معينة من الذرة الرفيعة والدخن كانت ذات توزيع واسع تماماً في أحوالها البرية خلال حزام عريض من مناطق السافانا والمناطق النباتية الساحلية التي تمتد من الاطلنطي الى أثيوبيا. ومن الواضح أيضاً أنه توجد بأثيوبيا حاصلات زراعية مثل التف (Tef) وغيره من الحبوب بجانب نبات الموز غير المثمر البري (Musa Ensete) وأن الزراعة تطورت هناك في وقت مبكر، وربما على الأقل في حوالى الألف سنة الثالثة قبل الميلاد. على الرغم من وجود أدلة عريضة تشير الى قيام الزراعة السودانية في حوالى الألف سنة الرابعة قبل الميلاد، فإن الأدلة المباشرة المبكرة تأتي من مواقع ترجع الى الألف سنة الثانية مثل تشيت في موريتانيا وكنتامبو في شمال غانا(٢١).

واذا كانت الشواهد المستمدة من الرسومات على الصخر(٢٢) دليلاً معقولاً، فإن حرفة الرعي قد ترجع أصولها الى الألف سنة السادسة قبل الميلاد وان الماشية الباقية حالياً قد جاءت من مواقع ساحلية عديدة حددت تواريخها على نحو جيد بأنها ترجع الى بداية الألف سنة الرابعة قبل الميلاد.

وعلى الرغم من وجود اختلاف وتضارب في الآراء حول أصول وتاريخ وأسلوب تطور الزراعة في افريقيا الا أن المتفق عليه بصفة عامة أنه باستثناء وجود بعض المجتمعات المحلية المنتجة للدخن المستقرة تماماً في الأخدود الافريقي بكينيا فإن بداية الزراعة، على الأقل في أغلب المناطق الافريقية التي تتحدث لغة البانتو كانت معاصرة للظهور الأول لتكنولوجيا الحديد، كذلك من المتفق عليه بصورة

(١٨) ج.ب. ميردوك.
(١٩) و. ديفز، ١٩٦٢، ص ٢٩١ - ٣٠٢.
(٢٠) م. بوسنانسكي، ١٩٦٩، ص ١٠١ - ١٠٧.
(٢١) ب.ج. مونسون وس. فلايت في ج.ر. هارلان، ١٩٧٦.
(٢٢) موري، ١٩٧٢.

واسعة أن كثيراً من الحاصلات الزراعية المبكرة في مناطق إفريقيا التي تتحدث البانتو، مثل الموز المثمر والقلقاس والدخن والذرة قد أدخلت في النهاية اما من غرب إفريقيا، أو كما في حالة الموز من جنوب شرقي آسيا عن طريق غير مباشر. وترجع قطعان الماشية الأولى الى ما قبل العصر الحديدي وقد وجدت في شرق إفريقيا مع بداية الألف سنة الأولى قبل الميلاد، ويظهر من الدلائل التي أشار اليها باركنجتون في الفصل السادس والعشرين، أن الأغنام قد انتشرت الى مدى أبعد جنوباً حتى بلغت إلى جنوب إفريقيا منطقة الرأس (الكاب) في بداية الألف سنة الأولى الميلادية. ومن المحتمل أن انتشار الرعي لعب دوراً في انتشار الحضارة المائية التي وصفها ساتون في الفصل الثالث والعشرين - مثلما أشار اهريت بصورة مقنعة[٢٣] الى دلائل تبين التأثير الاجتماعي للغات السودان الأوسط على لغات البانتو. فقد وصف مثلاً كيف أن الكلمات التي تعني «بقرة» والمصطلحات التي تستخدم في أنشطة الحلب استعارتها البانتو من جيرانها في السودان الأوسط، ربما مع الماشية وممارسات حلب اللبن. وعلى أساس الاختلافات اللغوية بين متحدثي لغات السودان الأوسط الأول استنتج اهريت[٢٤] أن رعاة الماشية سبقوا زمناً من يشتغلون بالزراعة. ويرى أيضاً أن هذا التفاعل قد حدث أولاً نحو منتصف الألف سنة الأولى قبل الميلاد. وقد أشار[٢٥] كذلك الى أن المنطقة حول بحيرة تنجانيقا كانت هامة للانتشار النهائي للمجموعة الشرقية من البانتو الأول، فقد كانت منطقة مناسبة لزراعة الذرة والدخن وتربية الماشية. وقد اوضح اهريت[٢٦] أيضاً ان كلمات البانتو المقابلة لكلمات فأس وذرة مأخوذة من لغات السودان الأوسط وعليه فلا بد لنا من تصور تفاعل اجتماعي بين السكان النيليين - الصحراويين وبين أسلاف البانتو ومن ثم انتشار الزراعة بالفأس والذرة الصيفية نحو الجنوب خاصة الى عالم البانتو.

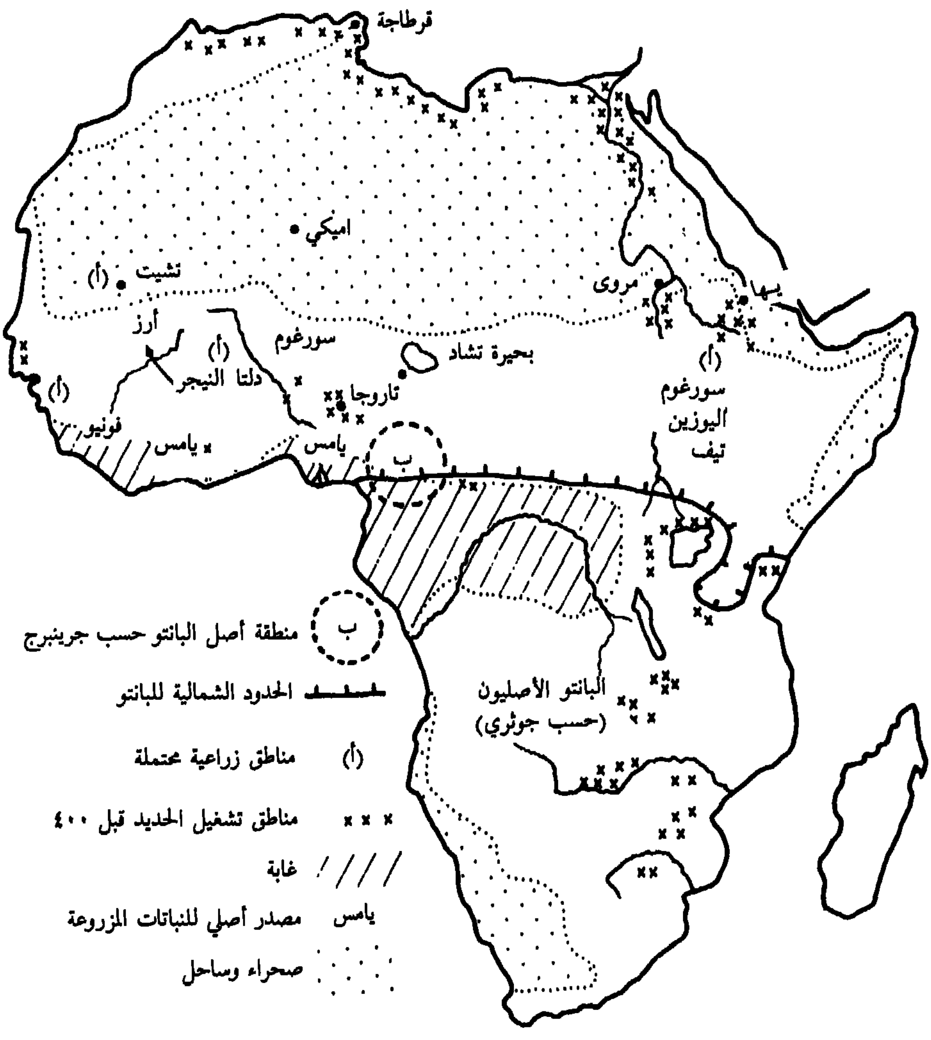
وعلى الرغم من أن بعض التوسع السكاني قد يكون قد حدث نتيجة التطورات في الألف سنة الأولى قبل الميلاد، فإن الدلائل الأثرية والقديمة المذكورة في الفصول الأخيرة تشير بوضوح الى أن التوسع الأساسي للمزراعين حدث في الألف سنة الميلادية الأولى في معظم افريقيا الخاصة بالبانتو.

الحديد

هناك سؤال هام في أي مناقشة للتوسع المبكر للمزارعين في النصف الجنوبي من إفريقيا يدور حول أصل انتشار صناعة الحديد. ذلك أنه لتطهير مناطق الأشجار الخفيفة والأدغال، تعد الآلة القاطعة أنسب أداة يمكن استعمالها. ولم توجد مثل هذه الآلات في العصر الحجري، ورغم أن الفأس الحجرية المشحوذة المصقولة والتي انتجتها صناعات «العصر الحجري الحديث» كان يمكن استعمالها لقطع الأشجار واحتمالاً لأعمال النجارة الأخرى، الا أنها لم تكن آلة تقطيع لكافة الأغراض، مثل القطلس (سيف قصير ثقيل) الحديدي الحالي أو البانجا، ولم يوجد عصر برونزي في افريقيا شبه الصحراوية. والدلائل الأولى لاستعمال النحاس تجيء من موريتانيا ويبدو أنها نتيجة لاستغلال الموارد المحدودة للنحاس حول أكجوجت، إما بوساطة مغاربة او بوساطة أقوام كانوا على صلة مع أقوام العصر

---

(٢٣) س. اهريت، ١٩٦٧، ص ١ - ١٧، ١٩٧٣، ص ١-٧١.
(٢٤) ١٩٧٣، ص ١٩.
(٢٥) ١٩٧٢، ص ١٤.
(٢٦) ١٩٧٣، ص ٥.



فروض تتعلق بأصل البانتو وبداية تشغيل الحديد

البرونزي في شمال غرب إفريقيا. وترجع صناعة النحاس الى الفترة الواقعة ما بين القرنين التاسع والخامس قبل الميلاد(٢٧). وهذا أقدم بقليل من أقدم صناعة ثابتة للحديد في غرب إفريقيا في طاروقة بهضبة جوس بنيجيريا التي ترجع الى القرن الخامس او الرابع قبل الميلاد.

وجرى تفكير مطول (ويجب ان نؤكد هنا أن الحجج المعروضة كلها افتراضية لأقصى حد والمعلومات المؤكدة عن الأنواع المبكرة لأفران الصهر والنفخ غير متوفرة) حولّ أصول صناعة الحديد الافريقية المبكرة. وهناك عدة مدارس مقبولة للتفكير في هذا المجال، لكن أياً منها لم يستطع حتى الآن أن يبرهن على صحته. وأقدم هذه المدارس هي تلك التي تقول بأن انتشار صناعة الحديد في إفريقيا بدءاً من وادي النيل خاصة من مروى التي سماها سايس(٢٨) «ببرمنجهام إفريقيا» وفي فترة أحدث بعد ذلك أوضح تريجر(٢٩) أن المصنوعات الحديدية كانت نادرة نسبياً بالنوبة قبل عام ٤٠٠ق.م. وحتى بعد ذلك التاريخ فالمعدات الصغيرة مثل الحلى الصغيرة كانت هي السائدة في الفترة المروية، في حين أكد تايلكوت(٣٠) على نحو ايجابي أنه لا يوجد أي أثر لصهر الحديد قبل عام ٢٠٠ق.م. وفي مصر رغم ان المصنوعات الحديدية وجدت بصورة عرضية في مستودعات مبكرة، وربما تم الحصول عليها بوساطة التجارة او صنعت من الحديد النيزكي، فإنها لم تكن ذات اهمية حتى القرن السابع قبل الميلاد(٣١). وقد صنعت المعدات من الحديد النيزكي بجهد شاق بالطرق المستعملة عادة في الصناعة الحجرية(٣٢). الا أنه لا يوجد دليل ثابت للانتشار المباشر لصناعة الحديد من وادي النيل سواء غرباً او جنوباً. أما الحديد في أثيوبيا، والذي يرجع تاريخه الى القرن الخامس في العديد من المراكز الأكسومية مثل «يها»، فربما جاء من جنوب الجزيرة العربية كما تشير اليه تصميمات وسم (كي) الماشية. والاحتمال المقابل هو ربما أنها جاءت من الموانىء البطلمية على البحر الأحمر (كعدول)، التي كانت هذه على اتصال بها. وعلى أساس وجود فرن صهر بمروى(٣٣) افترض وليامز أن فرن الصهر النموذجي يتكون من برج ضيق تماماً يغذى بالهواء بوساطة المنفاخ. اعتماداً على ذلك، يفسر التوزيع الواسع الحالي لأفران البرج ليدلل على أهمية وادي النيل كمصدر لهذه الصناعة. وفوق ذلك يوجد على مناطق المرتفعات في الصحراء، عند وانيدي وبركو رسوم وصور محفورة على الصخر لمحاربين مختلفين يحملون الدروع والرماح التي أطلق عليها لفظ: «ليبيكو - بربير» في حين أن أخرى لها بالتأكيد علاقة مع وادي النيل(٣٤). مع ذلك بالقليل للغاية من الرسوم التي لها هذا الطابع يمكن تحديد تاريخه، كما أن ما يقبل تحديد تاريخه يبدو أنه يلي تاريخ صناعة الحديد المبكرة بنيجيريا.

ان اكتشاف التواريخ المبكرة لصناعة الحديد بنيجيريا ركزت انتباه الباحثين على احتمالات وجود مصدر في شمال إفريقيا. فقد نشر الفينيقيون تكنولوجيا الحديد من المشرق الى أجزاء من سواحل شمال إفريقيا في الجزء الأول من الألف سنة الأولى قبل الميلاد.

---

(٢٧) ن. لامبرت، ١٩٧٠.
(٢٨) ي. أ. سايس، ١٩١٢، ص ٥٣-٦٥.
(٢٩) ب.ج. تريجر، ١٩٦٩، ص ٢٣-٥٠.
(٣٠) ر.ف. تايلكوت، ص ٦٧ - ٧٢.
(٣١) ويوجد رأي على النقيض من هذا على طول الخط في كتاب شيخ أنتا ديوب، ١٩٧٣. ص ٥٣٢ - ٥٤٧.
(٣٢) ر.ج، فوريس، ١٩٥٠، شرحه، ١٩٥٤، ص ٥٧٢ - ٥٩٩.
(٣٣) د. وليامز، ص ٦٢ - ٨٠.
(٣٤) ب. هوارد، ص ٣٧٧، ٤٠٤.

أن نمط توزيع الرسومات والصور المحفورة، للمركبات ذات العجلات التي تجرها الخيول، والتي تمتد من الساحل الطرابلسي الليبي مرورا بتسيلي الهجار والحجر الى النيل الأوسط، ومن الساحل المغربي حتى موريتانيا، يوضح وجود اتصال مؤكد ما بين شمال إفريقيا والصحراء في منتصف الألف سنة الأولى قبل الميلاد. ومن الواضح أن أصل المركبات والخيول ليس محلياً في الصحراء، بل يقول لهوت[٣٥] ان طريقة رسم الحصان وهو يعدو مقتبسة من فن جزر بحر إيجة. ويفترض كوناه[٣٦] أنه بما أن صناعة الحديد ظهرت متأخرة، حوالى سنة ٥٠٠ ميلادية عند «دايمة» بالقرب من بحيرة تشاد، والتي تقع على الطريق الذي يشبه الممر والممتد من وادي النيل، فإن الحديد لا بد أن يكون جاء من الشمال، والا كان للمرء أن يتوقع وجود أدلة عن ظهور تكنولوجيا الحديد في منطقة تشاد قبل ظهورها في منطقة جرس، وجاءتنا تواريخ أقدم نسبياً لصناعة الحديد بغانا وهاني (+ ٨٠ ميلادية) والسنغال. ومن الممكن كذلك طبعاً ان نفكر في احتمال أن صناعة الحديد جاءت من شمال إفريقيا عن طريق موريتانيا في أعقاب صناعة النحاس ومن ثم انتشرت عبر الحزام السوداني غرباً وجنوباً، رغم أن التواريخ في هذه الحالة من المفروض أن تكون أقدم في السنغال وموريتانيا عنها في نيجيريا. وبالطبع يمكن أيضاً القول بوجود عدة خطوط للتأثير جلبت صناعة الحديد الى إفريقيا الاستوائية منها خط الى موريتانيا من المغرب وآخر عبر الصحراء الى نيجيريا وثالث عبر البحر الأحمر الى أثيوبيا بجانب خطوط أخرى عبر الساحل الشرقي من منطقة البحر الأحمر والهند وجنوب شرق آسيا الى شرق إفريقيا.

وقد اقترح مؤخراً أن صناعة الحديد ربما قد تطورت محلياً في إفريقيا. ومن أقوى الداعين لهذه الفكرة ش. أ. ديوب[٣٧]. وقد أيده دكتور واي أند، في الفصل الرابع والعشرين من هذا المجلد. والحجة الأساسية المؤيدة للتطور المحلي هو أنه لفترة طويلة جداً بحث علماء الآثار القديمة عن أدلة لصناعة الحديد قائمة على نموذج البحر المتوسط، في حين أن الحديد في إفريقيا ربما جرى تصنيعه بطريقة مختلفة. فصهر الحديد يحتاج لحرارة عالية (يتحول خام الحديد عند ١١٥٠ درجة مئوية الى كتل الحديد بالمقارنة مع ١١٠٠ درجة هي نقطة انصهار النحاس فعلياً). ويتطلب كذلك معرفة بالكيمياء اذ أن الحديد هو نتاج خلط الأوكسجين والفحم مع الخام الذي يتم صهره. والذين ينادون بوجود أصل واحد لصناعة الحديد يحاجون بأن المعرفة المتخصصة تطورت نتيجة للخبرة وفي آتون حرق الفخار. ويقولون ان التقويم الزمني والتاريخي في جانبهم حيث أن الأدلة متوفرة على صناعة الحديد في الأناضول في بداية الألف سنة الثانية قبل الميلاد، بينما تندر هذه الأدلة خارج غرب آسيا حتى بداية الألف سنة الأولى قبل الميلاد، ومع ذلك فإن نظرية التطور المحلي ترى أن المعرفة بالصهر ربما قد تم الحصول عليها من خلال تجارب حرق الفخار في حفر، ثم ان خام اللطريط الموجود على سطح الأرض، بإفريقيا أسهل تصنيعاً من الخام الصخري الصلب بالشرق الأوسط، وقد قيل أيضاً إنه ما دام كثير من المواقع الأولى لتكنولوجيا الحديد في غرب إفريقيا، كتلك المرتبطة بحضارة نوك أو تلك التي وجدت في فولتا العليا قد ارتبطت بالأدوات الحجرية فلا بد أن يبقى وارداً احتمال أن صناعة الحديد قد قامت في مواقع يغلب عليها العصر الحجري المتأخر.

ان مواقع الأتون التي يبدو أنها حديثة العهد والتي يجري كشفها حالياً بالكنغو لم تضف للأسف جديداً لمعلوماتنا ومن المحتمل أنها لن تعطينا أي أدلة عن الفترة الأولى لاستعمالها ولكن بعد العثور

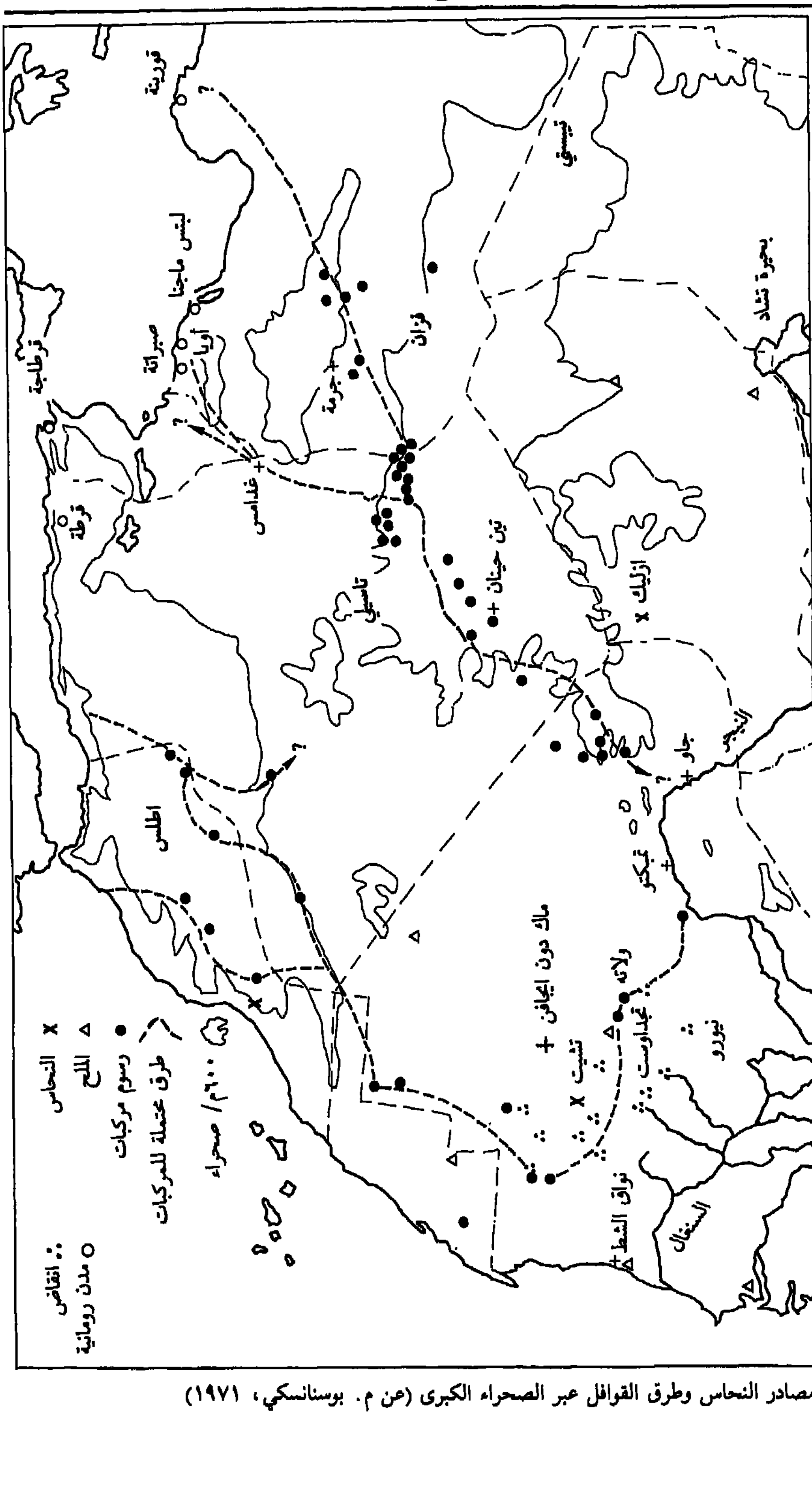
(٣٥) هـ. لهوت، ١٩٥٣أ، ص ١١٣٨ - ١٢٢٨.
(٣٦) ج. كوناه، ١٩٦٩، ص ٣٠ - ٣٢.
(٣٧) ش. أ. ديوب، ١٩٦٨، ص ١٠-٣٨.

عليها وتأريخها ربما تمدنا ببعض المعلومات عن الطريق الذي تبعته تجارة الحديد ما بين إقليم شابا والبحر وتمكننا من تحديد بعض التواريخ لهذا التطور المتأخر.

ولسوء الحظ لا يمكن اثبات أي نظرية حول صناعة الحديد المبكرة. فلا يمدنا أي من مواقع الأفران القديمة بمعلومات كافية عن طبيعة الأتون ولا عن نوع الكير الذي كان مستعملاً، ذلك أن ما اكتشف من مواقع الأتون قليل جداً. ومن الواضح ان الصورة لا بد أن تستمر مهزوزة المعالم الى أن نقوم باكتشاف وبحث المزيد. كما ان مساحات شاسعة ما زالت غير مستكشفة ومواقع صهر الحديد يتم عادة توطينها بعيداً عن أماكن السكن ومن ثم تظل مخبوءة حتى يتم اكتشافها بمحض الصدفة. ان استعمال جهاز قياس المغناطيسية الأولية (بروتو ماجينتوميتر) في التنقيب، ربما يعجل بعملية الكشف ولكن هناك سمة مميزة للعصر الحديدي المبكر في كل مكان هي أن وجود فرن يمكن اعادة تركيبه أمر استثنائي حتى الآن. ولا توجد الا تواريخ محدودة العدد للغاية لمواقع العصر الحديدي المبكر، لكن لا تكفي للتأكد من تاريخ دخول صناعة الحديد في الأجزاء المختلفة من افريقيا الاستوائية. فمثلاً في بداية الستينات من القرن الحالي كان الاعتقاد هو أن صناعة الحديد بدأت في شرق افريقيا نحو الألف سنة الميلادية الأولى. اما الآن فهذا التاريخ تم ارجاعه الى الوراء بحوالى سبعمائة وخمسين سنة. ونفس الشيء بالنسبة لغانا حيث كان التاريخ المفترض قبل اكتشاف فرن هاني الذي يرجع تاريخه الى القرن الثاني الميلادي، هو حوالى سنة ٢٠٠ ميلادية. مع ذلك فهناك بعض النتائج يمكن ان نستخلصها. . .
اولها، انه لا توجد أدلة كثيرة تؤيد الانتشار المباشر من وادي النيل الى غرب افريقيا بحيث ان فكرة الانتشار من مروى تحظى بأضعف الأدلة لتأييدها. وثانياً، لا توجد ادلة ايجابية عن وجود اتون فخار أو حفرة الحرق بغرب افريقيا في الفترة قبل بداية التاريخ الميلادي، والأدلة الاثنوغرافية عن التطور المحلي لصناعة الحديد ليست متوفرة على نطاق واسع وتشير في أحسن الأحوال الى حالات وجدت في الألف سنة الثانية الميلادية، وعليه يتوجب علينا أن نبحث بحذر وبعقلية متفتحة عن أصول صناعة الحديد.
فالأدلة الشحيحة المتواجدة تشير الى تواريخ لغرب افريقيا اكثر سابقة مما هو متوفر في شرق إفريقيا أو وسطها. مما قد يدعم الايحاء بالانتشار من غرب إفريقيا الى شرقها وجنوبها. وقد انتشرت صناعة الحديد بصورة سريعة على نحو ملحوظ، بحيث أن أقدم تواريخ لها في جنوب إفريقيا[٣٨] ترجع الى حوالى ٤٠٠ ميلادية يمكن أن ترجع الى بضعة قرون تالية لأغلب تواريخ غرب إفريقيا.

ان هذا الانتشار السريع لصناعة الحديد، والبعض يصفه بأنه فخار، يتفق مع الأدلة المستمدة من علم اللغويات. كما أن الأدلة الأثرية القديمة التي توحي بالانتشار من غرب افريقيا في الألف عام الأولى بعد الميلاد تظهر تشابهاً من شرق او وسط افريقيا قاطعاً في الشكل والزخرفة خلال مناطق واسعة من إفريقيا الاستوائية الأمر الذي لا يمكن تفسيره الا بافتراض أصل واحد لسلعة مختلفة (انظر سوبر ١٩٧١ لشرق إفريقيا وهوفمان ١٩٧٠ لجنوب إفريقيا). وبعد هذا التشابه الأولي ظهر تباين اقليمي قوي، وهذا الاتجاه ملحوظ جيداً في زامبيا[٣٩] حيث قد تكون الدراسة التي اجريت عن فخار العصر الحديدي أعمق منها في اي منطقة من إفريقيا الاستوائية بأسرها. وان الاستنتاج الذي توصل اليه اهريت[٤٠] الذي يعتقد على أساس أدلة لغوية بوجود «مجموعات فضفاضة» من المجتمعات المستقلة

(٣٨) ر.ج. ماسون، ١٩٧٤، ص ٢١١ - ٢١٦.
(٣٩) د. و. فيلبسون، ١٩٦٨أ.
(٤٠) س. اهريت، ١٩٧٣، ص ٢٤.



مصادر النحاس وطرق القوافل عبر الصحراء الكبرى (عن م. بوسنانسكي، ١٩٧١)

وان كانت متفاعلة على نحو متبادل، تتعايش مع مجموعات غير مستوعبة من القناصة وجامعي القوت، هذا الاستنتاج مقبول للغاية على أسس اثرية قديمة ايضاً. وعندما صارت مجتمعات البانتو هذه تتلاءم مع بيئات معينة عدا تعاملها مع المجتمعات البعيدة أقل واختلفت تبعاً لذلك لغاتها وحضارتها المادية.

التبادل بين مناطق القارة المختلفة

من الملامح الأخرى في تاريخ افريقيا المدارية في هذه المرحلة والتي تحتاج الى التأكيد - التأثير المستمر والمتعاظم لشمال إفريقيا على الحزام السوداني - وقد تكون كلمة «تأثير» مضللة اذا اخذنا في الحسبان أن تيار السلع التجارية والأفكار كان عملية تسير في اتجاهين. والصحراء، كما رأينا في الفصول الأولى، لم تكن عائقاً، أرضاً خالية، بل هي منطقة لها تاريخها الخاص المفصل الذي ما زال الكثير منه في حاجة الى حل الغازه. وبطبيعتها كصحراء، كان سكانها مبعثرين وبدواً رحلا، وفي الفترة التي نحن بصددها ربما كانوا في معظمهم رعاة يتحركون من الصحراء الى المناطق المرتفعة كالحجر وتاسيلي وتستي، ومن الحزام الساحلي شمالاً وجنوباً مع مرور فصول السنة. ومن الصعب للغاية أن نحدد بصورةٍ كميةٍ حجم الاتصال الفعلي الذي كان قائماً أو أن نصف آثاره على الرغم من أنه في السنوات الأخيرة أوضحت الأعمال الأثرية القديمة في منطقة الحزام السوداني بجلاء ان الاتصال كان على حد سواء غير مباشر كالذي تهيئه آثار البداوة ومباشراً مثل ذلك الذي ينشأ عن طريق الاتصال التجاري واستغلال المعادن(٤١). وتتألف معلوماتنا الحالية من مصادر أدبية كلاسيكية ومن الرسومات والصور المحفورة على الحجارة في الصحراء ومن الأدلة الأثرية القديمة. وقد تناولنا فيما قبل بعض الادلة في المجلد الأول، وفي الفصول الأولى، الا ان هناك ضرورة الى بعض التلخيص في هذه المرحلة.

وقبل أن نتطرق للأدلة الأدبية لتوضيح الاتصال عبر الصحراء من الضروري أن نذكر الاتصالين المباشرين - عبر البحر اللذين قيل انهما امتدا من البحر المتوسط الى غرب إفريقيا. وأولهما رحلة قيل انها استغرقت ثلاث سنوات قام بها البحارة الفينيقيون في خدمة نخاو. وقد شرحنا هذه في الفصل الرابع. وقد سجلها هيرودوت الذي يشك بعض الشيء في القصة بسبب حقيقة أن الشمس كانت على يمينهم. وفي الحقيقة فهذه واحدة من الأسباب التي تدعو لقبول القصة. والحقائق النادرة المقدمة من المصادر الأدبية تجعل من الصعب التحقق منها. ان رفض سترابو وكتّاب كلاسيكيين آخرين لهذه القصة له مغزى هام. ومن المؤكد أن رحلة حدثت فعلاً ولكن من غير المؤكد انها أبحرت حول إفريقيا. وقد قال موني (١٩٦٠)(٤٢) أنه من غير المحتمل أبداً أن تكون القوارب ذات المجاذيف والبطيئة السير والتي تذرع الطريق الى مصر، قادرة على مواجهة التيارات القوية سواء عند رأس الرجاء الصالح أو عند شاطىء شمال غرب إفريقيا، حيث لا بد أنها كانت ستجد أقصى صعوبة في الحصول على ماء كاف أو

(٤١) ولا شك أنه يجب علينا أن نقاوم إغراء المبالغة في أهمية النتائج القليلة التي تم الحصول عليها.

(٤٢) وفي ندوة عقدت في داكار في يناير (كانون الثاني) ١٩٧٦ (إفريقيا السوداء وعالم البحر المتوسط في العصر القديم) قدم المستر راؤ ول لونيز بحثاً هاماً في هذا المجال عن أحوال الملاحة حول ساحل إفريقيا المطل على إفريقيا في العصر القديم: مشكلة «العودة»؛ وقد برهن ليونز مستنداً الى قدر كبير من ادلة كتابية ورسومات على ان نظرية موني صيغت بطريقة مطلقة للغاية وفي نص العهد القديم كانت السفن من الناحية الفنية قادرة على الابحار من الجنوب الى الشمال على طول الشواطىء الافريقية.

طعام على طول الصحراء الممتدة على الساحل، والذي تتطلب شهوراً لا أسابيع للملاحة بامتداده في اتجاه الشمال. والأدلة العرضية التي تعارض هذه الرحلة قوية للغاية. أما الرحلة الثانية، فيقال ان هانو القرطاجي قام بها. والقصة التي وردت في كتاب «بريبلوس» فيها كثير من المبالغات وخيالية[٤٣]. وتفاصيلها الطبوغرافية مبهمة بل كثيراً ما تتسم بالتناقض. ومع ذلك فقد قبل كثير من الكتاب هذه القصة لمعناها الظاهري. وقد قالوا ان وصف الجبل المشتعل يشير اما الى جبل الكمرون البراكيني او الى حرائق الأدغال في سيراليون، بينما اعتبروا ما جاء في بريبلوس من ذكر قوم كثيفي الشعر يسمون الغوريللا، كأول وصف، بمعنى الكلمة للغوريللا[٤٤]. ان بحوث جيرمين (عام ١٩٥٧) حول المحتوى النصي والتفاصيل المضمنة في كتاب «بريبلوس» توحي رغم ذلك أنها غير أصيلة ومعظمها اختلافات كلاسيكية. ومع ذلك فإن فيرجسون[٤٥] الذي كان واعياً باعتراضات جرمين، عارفاً لجغرافية غرب إفريقيا، آمن بأن الرحلة قد حدثت فعلاً، وأن مصب نهر الجابون هو اقصى منطقة تم الوصول اليها. وقد اوضح موني (١٩٦٠) ان نفس الدلائل العارضة التي قيلت ضد حكم نخاو يمكن أن تطبق بنفس القدر بالنسبة لرحلة حنون وحتى اذا كانت هذه الرحلات قد حدثت فعلاً فانها لم تترك أي اثر على غرب افريقيا ولم يتم العثور على حقائق فنية غير مشكوك فيها وثابتة تماماً على طول ساحل غرب افريقيا ترجع الى تاريخ القرطاجيّين او الفينيقيين او المصريين.

ومن المؤكد ان القرطاجيّين حصلوا على الذهب من على ساحل المغرب المطل على الاطلنطي، كما تشير الى ذلك كتابات هيرودوت عن تجارة «المقايضة الصامتة» ولكن من المشكوك فيه أن يكون البحارة الكلاسيكيون قد تعدوا نهر السنغال والذي يعتقد دارمنجتون[٤٦] انه «بامبوتوم» الذي أشار اليه بوليبيوس، الكاتب الاغريقي من أواخر القرن الثاني الميلادي والذي كان في خدمة روما. وحتى هذه الاشارة لا يمكن قبولها من غير تحفظ. وتشير معظم المصادر المعاصرة عن القرطاجيين الى انهم كانوا أقواماً كتومين للغاية ومن المحتمل أنهم حتى اذا كانوا قد قاموا برحلات استكشافية او تجارية ناجحة، فما كانوا ليعلنوها للعالم لكي لا يستفيد منها منافسوهم التجاريون. ولا توجد دلائل تشير الى انهم جازفوا بالدخول نحو الجنوب أكثر مما فعله الرومان الذين يبدو أن علاقتهم النشطة قد امتدت حتى منطقة الهجار فحسب، وذلك فيما عدا حملات سبيتموس فلاكوس وجولوي ماترنوس عام ٧٠ ميلادية. وهناك اشارات كلاسيكية مختلفة عن تحريك الجرمانتيين ولكن يبدو أنهم لم يكن لهم تأثير على المنطقة الواقعة جنوب فزان.

وهناك أدلة أكثر على وجود الاتصال في فترات ما قبيل الاسلام تأتي من الرسومات والصور المحفورة على الصخور والأدلة الأثرية القديمة. ويشير فن الصخور الى أن خطوط المواصلات المنتظمة كانت مفتوحة على الحزام السوداني منذ حوالى ٥٠٠ق.م. ربما كانت قصة هيرودوت عن رحلة نسا مونيس الى ما يبدو أنه النيجر اشارة أدبية لرحلة فعلية. والأمر ذو الأهمية الخاصة في هذه القصة هو الاشارة الى وجود مدينة زنجية حدد فيرجسون[٤٧] انها في منطقة تمبكتو. والرسومات هي أساساً لمركبات أو

---

(٤٣) فمثلاً قيل ان اسطوله مكون من ستين سفينة عليها ثلاثون الفاً من الركاب والبحارة.

(٤٤) ذكر رينولدز أن الكتاب الكلاسيكيين عرفوا البابون، وأن هذه المخلوقات كانت قروداً ضخمة لم يألفوها، وأنه من المحتمل أن الغوريللا التي في طول الانسان بعكس الشمبانزي ربما كان لها توزيع سابق وأنها وصلت غرباً حتى سيراليون.

(٤٥) ص ٧.

(٤٦) ب. هـ. دارمنجتون، ١٩٦٩، ص ٧٩.

(٤٧) ص ١٠.

عربات بعضها تجره الخيول والآخر الأبقار(٤٨). وقد أوضح لهوت (١٩٥٣) انه لا توجد عربات سواء في عير او تبستي، الا بالقرب من فزان. ومعظم صور العربات التي تجرها الثيران وجدت بالقرب من الطريق الغربي. وربما يجدر بنا ألا نستخلص نتائج كثيرة من المركبات وقد قال دانيال(٤٩) «انها تشير الى استعمال واسع لنوع شائع من الحاصلات أكثر مما يشير الى نظام معقد للطرق الصحراوية». وعندما تكون هذه الرسومات قابلة لتحديد تاريخها كما في حالة تلك المرتبطة بقرى العصر الحجري الحديث(٥٠). فانها ترجع الى الفترة ١١٠٠ - ٤٠٠ق.م. ومن رسوم الصخور هذه نفترض أن الطرق عبر الصحراء كان يمكن قطعها بالحصان او الثور ومن المؤكد بالحمار المتعدد الاستخدامات. وللطريق الشرقي، تركيز قوي على منطقة تاسيلي وأشار لهوت الى احتمال نهاياتها على الساحل الطرابلسي عند مراكز مثل ليبتس، وأويا، وصبراتة، ويقول بوفيل(٥١) أن المدن الثلاث ذات الأصول القرطاجية أقرب الى بعضها البعض بصورة أقوى مما تبرره الموارد الطبيعية للساحل او للأراضي الداخلية الملاصقة ويقول انها كانت تسيطر على الطريق الجرمانتي الى فزان. ويفترض ان العقيق الأحمر، ربما شكل من العقيق للعقود، والزمرد والاحجار شبه الثمينة الأخرى(٥٢) كانت من اهداف هذه التجارة. وربما كان الرقيق على الرغم من أنه لم يكن له اهمية في هذه الفترة، أحد عناصر هذه التجارة. فقد عثر على الهياكل البشرية للزنوج بين المقابر البونية. ومن المؤكد أن كان يوجد جنود زنوج في الجيش القرطاجي. وأما المواد الأخرى فربما كانت منتجات استوائية مثل طيب الزباد وبيض النعام وريشه.

لقد تناولنا في أول هذا الفصل الأدلة على وجود صناعة النحاس بموريتانيا وتشير الأدلة الأثرية القديمة أن الطريق الغربي كان له أهمية مباشرة أكثر مما للطريق الشرقي الذي يمر بتسيلي. وربما وفر استغلال النحاس حافزاً لصناعة معاصرة لتشغيل الذهب في الجنوب. ووجود أحجار الميجاليت الضخمة، السنغالية الغامبية، والتي اشير اليها في الفصل الرابع والعشرين، يوضح انه قبل قيام دولة غانا القديمة كانت صناعتا الذهب والحديد مستقرة هناك وربما كانا عاملين هامين في قيام هذه المملكة. وقد نبه موني (١٩٥٢) الى أن كلمة ذهب في لغات الولوف والسرر والدبولا هي كلمة واحدة: (أورس) في السودان الغربي وتشبه «هرس» البونية ولها نفس المعنى وعليه فربما شجعت تجارة الذهب على الساحل الأطلنطي للمغرب الباحثين عن الذهب أن يندفعوا جنوباً لاستغلال المصادر الموريتانية المعروفة وهكذا نشروا مصطلحاتهم. ومما وجد في مقابر السنغال هناك أدلة وفيرة للنفوذ المغربي مما قد نخلص منه الى أن الصلات التجارية تزايدت ببطء منذ بدايتها في الألف سنة الثانية أو الأولى قبل الميلاد ومن المحتمل أن الجمال استخدمت في التجارة على هذا الطريق الغربي قبل وصول العرب في القرن الثامن الميلادي فقد عرف شمال افريقيا الجمال في القرن الأول قبل الميلاد على الأقل (فقد أشار قيصر الى استيلائه عليها عام ٤٦ق.م.) وكانت شائعة بحلول القرن الرابع الميلادي. ان الثراء الذي يعرضه لنا بناة المقابر والأحجار الضخمة في منطقة السنغال وغينيا ومنطقة أعالي النيجر (بوسنانسكي ١٩٧٣) حوالى ١٠٠٠ ميلادية ربما كان من أقوى الدلالات على وجود ونطاق - التجارة قبل الاسلام.

---

(٤٨) ب.ج. منسون، ج. فيرجسون، ١٩٦٩.
(٤٩) ١٩٧٠، ص ١٣
(٥٠) ب.ج. منسون، ١٩٦٩، ص ٦٢.
(٥١) ص ٢١.
(٥٢) ب.هـ. دارمنجتون، ١٩٦٩، ص ٦٦.

والى أن تتم أبحاث أثرية قديمة أكثر فإنه من الصعب أن نعرف عمر هذه التجارة او حتى ان ندرك مدى اهمية الاتصالات الخارجية.

والخلاصة هي أنه بالنسبة للاتصالات ما بين المناطق المختلفة فان معظم المعلومات المتيسرة لدينا تمكننا بصعوبة من التقدم الى ما وراء مرحلة الاستنتاج الحذر. فوجود الحجارة الضخمة في منطقة البوار في جمهورية افريقيا الوسطى ووجود حجارة أخرى قائمة في مناطق اخرى كثيرة من إفريقيا تشير مثلاً الى ضرورة القيام بالبحث المتأني بوساطة المتخصصين حول المباني بالأحجار الضخمة.

الفصل الثاني والعشرون

الساحل الافريقي الشرقي ودوره في التجارة البحرية

بقلم: أ. م. هـ. شريف

من السمات البارزة للساحل الافريقي الشرقي السهولة النسبية للوصول اليه ليس فقط من الداخل ولكن أيضاً من البحر. وقد كانت سهولة الوصول اليه من الداخل عاملاً حيوياً في تحركات السكان الى الحزام الساحلي كما أنها تيسر فهم التركيبة العرقية والثقافية. ومن جانب آخر كان البحر وسيلة الاتصال مع العالم الخارجي، من ثم لم يكن الانعزال بل كان التداخل بين تيارين ثقافيين لانتاج مزيج جديد هو الحضارة السواحيلية الساحلية، من السمات الأساسية لتاريخ الساحل الافريقي الشرقي عبر الألفي عام الأخيرة، وقد كانت التجارة هي أداة هذه العملية التي يسرت من انخراط الساحل الافريقي الشرقي في النظام الاقتصادي العالمي وما ترتب عليه من نتائج.

على أن ندرة المصادر التاريخية تجعل من الصعب اعادة صياغة تاريخ الساحل الافريقي الشرقي قبل القرن السابع الميلادي. فكل المصادر المتوفرة لدينا سواء تعلقت بالوثائقية أو بعلم النميات (دراسة وجمع القطع النقدية والميداليات والأوراق المالية. . . الخ). . . هي نتائج للتجارة العالمية ولدينا القليل من المواد عن تاريخ الساحل قبل قيام الصلات الدولية العالمية. وتقدم أولى المصادر الاغريقية الرومانية اشارات غير مباشرة فحسب الى الساحل الشرقي لافريقيا (رغم أن هذه الاشارات هي اشارات قيمة عادة). فاسترابو (من ٢٩ قبل الميلاد الى عام ١٩ بعد الميلاد) والذي شهد فترة التوسع الروماني تحت قيادة أغسطس لا يقدم فحسب تقارير معاصرة وأحياناً رؤ يا شاهد عيان عن التجارة في منطقة البحر الأحمر والمحيط الهندي، بل يضمن كتاباته بعض المقتطفات من كتب الجغرافيا السابقة التي لا نعرفها حالياً[1]. ويصف بليني (عام ٢٣ الى عام ٧٩ ميلادية) الامبراطورية الرومانية في أوج عظمتها وهو

(١) سترابو المجلد ٢، الصفحات ٢٠٩ - ٢١٣.

أشد قيمة بالنسبة لوصفه للتجارة والملاحة في المحيط الهندي وللأسلوب المترف والمتفسخ لروما الامبراطورية(٢).

وأهم مصدر عن المحيط الهندي خلال هذه الفترة وهو أول تقرير مباشر، وان كان هزيلاً عن ساحل افريقيا الشرقي هو مرشد الملاحة في بحر اريتريا(٣) والذي كتبه فيما يبدو وكيل تجاري غير معروف من الاغريق اتخذ من مصر قاعدة لنشاطه. والكتاب عبارة عن تقرير شاهد عيان. وقد أثار تحديد التاريخ هذا كثيراً من الجدل. ويذهب كثير من العلماء ومنهم سيكوف وميللر الى ان مرشد الملاحة يبدو أنه وصف التجارة الرومانية في المحيط الهندي التي كانت وما زالت مزدهرة في فترة عظمة الامبراطورية الرومانية وهو يكون بذلك معاصراً تقريباً لوصف بليني في النصف الثاني من القرن الأول الميلادي(٤). غير أن ج. بيرين ينفرد بارجاع تاريخ هذه الوثيقة الى صدر القرن الثالث الميلادي(٥). أما ماثيو فيقترح تاريخاً وسطاً يعود الى بداية القرن الثاني بعد الميلاد وحجته في ذلك أن هذه الوثيقة رغم أنها أقدم من كتاب الجغرافيا لبطليموس الا أن الجزء الأول يتناول شرق إفريقيا في هذا الأخير، أضيف الى الكتاب في تاريخ لاحق ولم يكتب مع بقية الكتاب في منتصف القرن الثاني بعد الميلاد(٦). وكما سنبين فيما بعد ليس ثمة ما يدعو الى قبول رأي ماثيو وعليه فإننا نجد أنفسنا مضطرين الى القول بأن تاريخ المرشد لا يمكن أن يعود الى ما بعد نهاية القرن الأول الميلادي.

ومما يلفت النظر أن كتاب الجغرافيا لبطليموس وقد كتب في حوالى عام ١٥٦ بعد الميلاد قد حوى الكثير من المعلومات عن المحيط الهندي عامة وعن شرق افريقيا بخاصة. ويعتقد ماثيو أن كتاب الجغرافيا قد حرر في وقت لاحق وأنه يبدو من الأسلم أن نعتبر أن الجزء الخاص بشرق إفريقيا فيه انما يعبر عن خاصة المعرفة التي توصل اليها عالم البحر الأبيض عند نهاية القرن الرابع الميلادي(٧). غير أن بطليموس يقر في شيء من الوضوح بفضل «مارنيس من بلدة صور» عليه - وهو من معاصريه بلا شك - فيما يتعلق بالمعلومات التي تخص شرق إفريقيا(٨).

ويعد كتاب الطبوغرافيا المسيحية الذي كتبه كوسماس اندكو بليستس في النصف الأول من القرن السادس الميلادي آخر المصادر الوثائقية المتعلقة بهذه الفترة وهو يعود بوضوح الى الوقت الذي بدأت فيه الامبراطورية الرومانية والتجارة الرومانية في المحيط الهندي تدخلان فترة الانهيار المندفع. وهذا

---

(٢) بليني، المجلد ٢، ص ٣٧١ - ٣٧٢.

(٣) الترجمات الانجليزية قام بها ج.و. مكريندال، و.هـ. سيكوف، ١٩١٢ (استخدمت ترجمته بصورة واسعة) ج.ي. ميلر، وأخيراً ج. بيرين ١٩٧٠ ب، وكذلك الفصل ١٦ من هذا المجلد وكان مصطلح البحر الاريتري هو الذي استخدمه الجغرافيون الرومانيون والاغريق على الأقل من عصر هيرودوت في القرن الخامس قبل الميلاد للاشارة الى المحيط الهندي. انظر و. هـ. سيكوف، ١٩١٢، ص ٥٠ - ٥١، ي.هـ. بونبوري، ١٩٥٩، المجلد ١ ص ٢١٩ - ٢٢١، انظر أيضاً ج. بيرين، ١٩٧٠.

(٤) و.هـ. سيكوف، ١٩١٢، ص ٨ - ١٥ عام ٦٠ م. لكنه ارجعه بعد ذلك الى ٧٠ - ٨٩ م. انظر سيكوف فيما يتعلق بتاريخ المرشد، ١٩١٧، ص ٨٢٧ - ٨٣٠، ي.هـ. ورمنجتون، ١٩٢٨، ص ٥٢ (٦٠م) ر.ي.م. هويلر، ١٩٥٤، ص ١٢٧ (الربع الثالث من القرن الأول الميلادي) م.ب شارلزورث، ١٩٦٦، ١٩٤٨ (٥٠-٦٥م) ج.ي. ميلر، ص ١٦ - ١٨ (٧٩ - ٨٤م).

(٥) ورد في ج. ماثيو، ور. ي. روتبرج ون. تشيتك، انظر أيضاً ج. بيرين، ١٩٧٠.

(٦) ج. ماثيو في ر. اوليفر و.ج. ماثيو، ١٩٦٣، ص ٩٤ - ٩٦، ج. ماثيو، ١٩٧٤، هنا وهناك. وقد عارض هذا الرأي ج. بيرين، ١٩٧٠.

(٧) ج. ماثيو، ١٩٦٣، ص ٩٦.

(٨) ي.ل. ستيفنسون، ١ - ٩، ١ - ١٧، وقد اعيد نشر المقاطع المتعلقة بذلك في ج. و.ت. الين، ص ٥٣ - ٥٥، ي.هـ. بونبوري، ص ٥١٩ - ٥٢٠، ٥٣٧، ٦١٠ - ٦١١.

الكتاب مفيد للغاية لما حواه من معلومات عن أثيوبيا وعن هيمنة الفرس على المحيط الهندي وعدم تعرضه لساحل افريقيا الشرقي جنوب رأس جاردامون[٩].

ومن سوء الطالع ما زلنا حتى الآن نفتقر الى الأدلة الأثرية الراسخة حول ساحل إفريقيا الشرقي خلال هذه الفترة، واللازمة لتأكيد واستكمال المصادر الوثائقية المتاحة. اذ لا نملك سوى بعض مجموعات من العملات التي اكتشفت في منطقة الساحل خلال ثلاثة أرباع القرن الأخيرة. على أنه ينبغي ان نذكر انه لم يوجد أي من هذه المجموعات قد كشف عنه في موقع اثري معروف، وتم التنقيب عنه، وأن الظروف التي تم فيها الكشف لم يتم تسجيلها بدقة لسوء الحظ، ويمكن القول على أحسن افتراض أن الدليل المستمد من النقود لا يتعارض مع المصادر الوثائقية المتوفرة حالياً وأن هذا الدليل قيم كمؤشر لمعدل التجارة الدولية على ساحل افريقيا الشرقي.

تتكون أقدم لقية في هذا المجال من ست قطع من العملات وجدت في كيموني شمال تانجا «في كومة تحت اشجار عمرها نحو ٢٠٠ سنة» ومن الواضح ان العملات بقيت مدفونة لوقت طويل. وتغطي هذه اللقية فترة زمنية تمتد من القرن الثالث الى القرن الثاني عشر الميلادي. ويبدو أنها لم تكتنز كذخيرة قبل ذلك التاريخ، لكن يبقى غير مؤكد حتى الآن ما اذا كانت العملات التي سبقتها قد جلبت الى شرق إفريقيا في ما قبل العصور الاسلامية[١٠]. أما اللقية الثانية فتتكون من قطعة ذهبية واحدة تخص بطليموس سوتر (١١٦ - ١٠٨ قبل الميلاد) وقد عرضها للبيع في عام ١٩٠١ بائع إفريقي متجول لتاجر ألماني في دار السلام. وربما جاءت من مكان ما على الساحل[١١].

وهناك عدد من المجموعات المجهولة المصدر عرضت في متحف زنجبار عام ١٩٥٥. وأولها عبارة عن ظرف كتب عليه أوتيسيفن (عاصمة امبراطورية البارثيين والساسانيين بالقرب من بغداد)، يحتوي على خمس عملات فارسية تمتد تاريخها من القرن الأول الى القرن الثالث الميلادي. ويقول فريمان جرينفيل انه عند فحصه لهذه العملات وجد عالقاً بها «نوع خاص من الأوساخ» تتميز به زنجبار. وهو لا شك أنه قد عثر عليها في مكان ما في زنجبار. وتوجد نفس الأوساخ عالقة بالمجموعتين الأخريين اللتين ربما عثر عليهما في زنجبار أو بمبا. وتغطي هذه المجموعات فترة زمنية طويلة تمتد من القرن الثاني قبل الميلاد الى القرن الرابع عشر الميلادي مما يرجح انها لم تكن مجموعات اكتناز وانما لقيات وليدة الصدفة[١٢]

وتثير اللقيتان الأخريان تساؤلات مماثلة في التفسير. ويدعي هايوود انه عثر على مجموعة كبيرة من العملات وجرة تشبه الجرة الاغريقية في بورجاو (ميناء دينفورد) في ١٩١٣. غير أن هذه الجرة تهشمت أثناء احدى العواصف، وتخلص هايوود من العملات، ولم ينشر أي شيء عن هذه العملات على مدى عشرين عاماً. ولم يرد ذكرها حتى في وصف هايوود لرحلته، والذي نشر عام ١٩٢٧. ويبدو أن هذه المجموعة تنقسم الى قسمين متميزين: أولهما وربما كان صلب المجموعة وهو يتكون من ٧٥ قطعة من العملة من مصر على عهد البطالمة ومن روما على عهد الامبراطورية وبيزنطة، وهذه المجموعة تغطي الفترة من القرن الثالث قبل الميلاد حتى منتصف النصف الأول من القرن الرابع بعد الميلاد. أما القسم الثاني من هذه فيحتوي على ثلاث عشرة قطعة من مصر المملوكية والعثمانية، ويعود تاريخها إلى القرن

(٩) ج. و. ماكريندل.
(١٠) ن. تشيتك، ١٩٦٦، ص ١٥٦ - ١٥٧، بل ان هذه العملات ربما دفنت في القرن السادس عشر فحسب.
(١١) ج.س.ب. فريمان - جرينفيل، ١٩٦٢أ، ص ٢٢.
(١٢) المرجع المذكور، ص ٢٣.

الثالث عشر الميلادي وما بعده ولم يوجد أي شيء على السطح خلال الزيارة القصيرة التي قام بها كل من هويلر وماثيو للموقع في عام ١٩٥٥، ولا أثناء زيارة تشتيك له عام ١٩٦٨، يمكن ارجاع تاريخه لما قبل القرن الخامس عشر الميلادي، رغم ان الحفريات الأثرية لم تنته بعد. ويرى تشتيك انه لو أن هذه العملات قد اكتشفت كمجموعة اكتناز فانها لا يمكن أن تكون قد كنزت قبل القرن السادس عشر، أما هويلر فيرى «أن اضافة العملات المصرية في وقت لاحق لا يقلل بالضرورة من قيمة هذا الكشف»[١٣]. وهو يعتقد ان هذه ربما اضيفت الى المجموعة في الفترة الطويلة التي مضت عليها قبل أن تصل ليد خبراء العملات. وعليه فربما تم كنز صلب المجموعة في وقت لاحق للنصف الأول من القرن الرابع الميلادي.

أما المجموعة الثانية فيقال انها اكتشفت في ديمباني في جنوب زنجبار، بوساطة مزارع عجوز يدعى ايدي يوي المتوفى الآن. ثم وصلت ليدِ هاوٍ لجمع العملة. وقد تم اثبات هوية هذه العملات بصورة تجريبية، ويبدو أن الجزء الأساسي منها يتكون من ٢٩ قطعة من العملات الرومانية وقطعة واحدة بارثيانية ويعود تاريخها الى الفترة من القرن الأول وحتى القرن الرابع الميلادي. كما تضم المجموعة أيضاً عملة صينية يعود تاريخها الى أواخر القرن الثاني عشر، وبعض العملات الاسلامية والأوروبية ترجع لتاريخ لاحق، وحتى بعض العملات الافريقية على عهد الاستعمار من الفترة التي تمتد حتى اواخر القرن التاسع عشر[١٤]. ويمكن القول بأن العملات الأقل قدماً - كما هو الحال في مجموعة هايوود - ربما أضيفت الى المجموعة في مرحلة لاحقة.

تلك هي المصادر الشحيحة لاعادة تاريخ ساحل افريقيا الشرقي قبل القرن السابع وتبعاً لذلك فإن محاولة الصياغة في الصفحات التالية وإن كانت تجيء على استحياء فانها تظل غير نهائية في كثير من جوانبها، حتى يتحقق بعض النجاح في الكشف الأثري فيما يتعلق بهذه الفترة المبكرة من تاريخ الساحل.

العامل القاري

تشكل منطقة الساحل الشرقي لافريقيا كياناً جغرافياً قائماً بذاته، يحدها في جبهة المغرب حزام من أرض الشجيرات الخفيفة المعروفة باسم (النيكا). وهي منطقة ضعيفة تقل فيها الأمطار، وتمتد بالقرب من ساحل كينيا وتتراجع الى منطقة ابعد داخل تنزانيا حيث تقطعها أحواض رواحة، ورفيجي، وبانجاني، كما يحدها الحافة الشرقية للجبال. ومن ثم فمن المحتمل ان حركة السكان قد سلكت ممرات بيئتها أكثر مؤاتاةً، حول او عبر منطقة النيكا، مثل الممر الذي يمر بمحاذاة تانا في كينيا، والبانجاني، وسلاسل الجبال المتاخمة في شمال شرق تنزانيا.

ويعد أول دليل عن سكان الساحل الشرقي لافريقيا من مرشد البحر الأحمر الذي يصف سكان الساحل (بأنهم ضخام القامة للغاية)[١٥]. ويقول أوليفر ان هؤلاء السكان من الكوشيين، الذين

(١٣) المرجع المذكور، ص ٢١ - ٢٢، ن. تشيتك، ١٩٦٩، ص ١١٥ - ١٣٠، ر.ي.م. هويلر ١٩٥٤، ص ١١٤.

(١٤) يفضل المالك الحالي للمجموعة ألا يكشف عن شخصيته، غير أني مدين له لتفضله بالسماح لي بالاطلاع على هذه المجموعة. وهناك محاولة لارجاع هذه العملات الى أصلها قامت بها السيدة س. اروين في خطاب بتاريخ ٢٣ اغسطس (آب) ١٩٧٢.

(١٥) المرشد ١٦.

يشبهون زراع العصر الحجري المتأخر، الذين سكنوا مرتفعات كينيا في حوالى سنة ١٠٠٠ قبل الميلاد. وقد تميزوا «بطول القامة» حسبما جاء في الأدلة الأثرية المتوافرة. ووجود الأدوات المصنوعة من الحديد ضمن الواردات يشير الى أن سكان الساحل لم يكونوا قد عرفوا بعد صناعة الحديد، كما كانت هناك عدة جيوب تتحدث اللغة الكوشية بالقرب من الساحل وفي داخل الممرات التي سبق ذكرها. ومن هذه الجيوب السكانية الشعب السانى بالقرب من تانا، والمبوجو أوسامبارة، الذين ربما كانوا من بقايا سكان الساحل الأول[١٦].

وتشير الأدلة الأثرية الى تسرب سريع للمجموعات السكانية التي عرفت باستعمال الحديد والتي ربما كانت تتحدث لغات البانتو، الى المناطق الداخلية، المتاخمة للساحل في القرون الأولى بعد الميلاد - وربما هاجرت هذه المجموعات السكانية من الجنوب على امتداد الحزام الساحلي وأقامت في مناطق جنوب بير وكويل خلف ممبسة. ويبدو أن هذه المجموعات اتجهت على طول الساحل حتى باروا وممر البانجاني الى بير الشمالية ومنطقة الكليمنجارو، عند منتصف الألف سنة الأولى بعد الميلاد، وربما امتصوا في توسعهم السكان السابق وجودهم في الحزام الساحلي[١٧].

من الصعب على ضوء الأدلة المتاحة الحصول على صورة متكاملة عن اقتصاد مجتمع الساحل قبل قيام الصلات التجارية الدولية معه. وربما كان السكان من المزارعين على نحو ما كان الكوشيون في الداخل في العصر الحجري المتأخر. ويتضح من المرشد أن صيد الأسماك لعب دوراً هاماً في الاقتصاد، وتوفر هذه الوثيقة وصفاً دقيقاً للغاية لعملية صيد الأسماك باستخدام «السلال المضفرة» وهي طريقة ما زالت شائعة على الساحل، لكن يبدو أن السكان كانوا أساساً مرتبطين بالساحل، فصنعوا الزوارق، والمراكب الصغيرة، ولم يقوموا، على ما يبدو بصناعة مراكب الدهو التي تسير في البحار العميقة. ويقول الادريسي أنه في فترة متأخرة ترجع الى القرن الثاني عشر الميلادي لم يكن للزنج سفنٌ يسافرون عليها، وانما كانوا يستعملون سفناً من عمان وغيرها من الأقطار[١٨]. وللأسف فإن المعلومات لا تتوفر عن التنظيم الاجتماعي والسياسي في تلك الفترة فرغم أن المرشد يتحدث عن الزعماء في كل المدن والأسواق، فإن التجارة الدولية ربما كانت عاملاً حاسماً في ظهور هؤلاء الزعماء وفي قيام المدن - الأسواق[١٩]. وهكذا يبدو أن سكان الساحل الشرقي الافريقي كانوا قبل قيام الصلات التجارية الدولية في مستوى منخفض من التطور التقني وربما أيضاً الاجتماعي والسياسي. ولعل المبادرة اتت من قبل الملاحين القادمين من الطرف الشمالي للمحيط الهندي، عند قيام الصلات التجارية، لكل النتائج التي ترتبت على هذا الوضع.

---

(١٦) أ. اوليفر، ص ٣٦٨، ج.ي.ج. سوتون، ١٩٦٦، ص ٤٢. لا يقدم المرشد اي دليل على وجود مهاجرين اندونيسيين على الساحل، ولم يقبل دليل جونز المستمد من علم الموسيقى على نطاق واسع: أ.هـ.م. جونز، ١٩٦٩، ص ١٣١ - ١٩٠.

(١٧) ر.س. سوبر، ١٩٧٢أ، ص ٣، ١٦، ٢٤، ٣٣، ٣٤، ن. تشيتك، ١٩٦٩، ص ١٢٢، ك. اودنر، ١٩٧١أ، ص ١٠٧، ١٩٧١ب، ص ١٤٥

(١٨) المرشد، ١٥، ١٦، ج.ف. هورانى، ١٩٦٣، ص ٩١ - ٩٣، ج.س.ب. فريمان - جرينفيل، ١٩٦٢ب، ص ١٩.

(١٩) المرشد، ١٦.

دور المحيط

واذا كانت سهولة الوصول من البر قد جعلت ساحل افريقيا الشرقي من الناحية التاريخية جزءاً لا يتجزأ من إفريقيا، فإن سهولة الوصول اليه عن طريق البحر، أخضعه لتاريخ طويل من الصلات التجارية والتأثير الثقافي، وحركات السكان من المناطق الواقعة عبر المحيط الهندي. وعليه فإن دراسة هذا التاريخ يحتم علينا أن ندرس كلاً من فرص الاتصال الفعلية، والمحتملة داخل المنطقة. ويحدد كيرك في عبارات عامة ثلاث بيئات جغرافية حول المحيط الهندي هي؛ منطقة «الغابات» الجنوبية الغربية، وتشمل الأراضي الساحلية في كينيا، وتنزانيا، وموزمبيق، ومدغشقر، ومنطقة «الصحراء» الوسطى، وتمتد من القرن الصومالي حتى حوض الهندوس منطقة «الغابات» الجنوبية الشرقية، التي تمتد من الهند الى اندونيسيا[٢٠]. ومن الواضح ان فرص التبادل المتاحة بين منطقتي «الغابات» كانت محدودة ولا تتجاوز البضائع الرئيسية، وربما اتسعت لو ادخلنا الكماليات والبضائع المصنعة التي يتوطن مصدرها بفعل الظروف الطبيعية، أو التاريخية. وعلى الجانب الآخر كانت فرص التبادل بين «الصحراء» ومنطقتي «الغابات» أكبر بكثير، فبالاضافة الى تبادل الكماليات، والبضائع المصنّعة. فإن منطقة «الصحراء» تعاني في معظم الأحيان من نقص في المواد الغذائية والأخشاب والتي يمكن الحصول عليها من منطقتي «الغابات» وفوق ذلك فإن منطقة «الصحراء» تحتل موقعاً استراتيجياً وسطاً بين منطقتي «الغابات» وكذلك بينهما وبين عالم البحر المتوسط، ومن ثم فإن تاريخ الجزء الغربي من المحيط الهندي حتى القرن السابع الميلادي، وهو الى حد كبير تاريخ التفاعل في اتجاهين واضحين، بين شرق افريقيا والشرق الأوسط من جهة وبين الأخير والهند من جهة اخرى، وهو أيضاً تاريخ دور الوسيط الذي لعبه الشرق الأوسط بين المحيط الهندي والبحر المتوسط.

وقد ساعد على مثل هذا التفاعل تطور تكنولوجيا بحرية ملائمة، وفن تسخير الرياح. والتيارات في المحيط الهندي. ومن أهم الخصائص الجغرافية للمحيط الهندي التغيير الموسمي العكسي للرياح الموسمية فخلال الشتاء الشمالي تسود الرياح الموسمية الشمالية الشرقية بانتظام حتى زنجبار لكن يتناقص استقرارها جنوباً، ويصبح نادراً الاعتماد عليها فيما وراء رأس دلجادو، ويقوى نمط التوزيع هذا بتأثير التيار الاستوائي الذي ينساب باتجاه الجنوب بعد ان يضرب الساحل الصومالي، مما يسهل من رحلة سفن الدهو القادمة من الشط العربي. وبهذا يمكن لسفن الدهو العربية ان تغادر موانيها الأصلية في اواخر نوفمبر (تشرين الثاني)، وان كان معظمها يبدأ الرحلة في اوائل يناير (كانون الثاني)، عندما تنتظم الرياح الموسمية، وتستغرق الرحلة من عشرين الى خمسة وعشرين يوماً. وعند حلول شهر مارس (آذار) تبدأ الرياح الموسمية الشمالية الشرقية في الانحسار لأن افريقيا الشرقية على حافة نظام الرياح الموسمية، فإنها تنحسر في وقت مبكر عن ذلك في الجنوب. وفي ابريل (نيسان) تنقلب هذه الرياح لتصبح رياحاً موسمية جنوبية غربية. اما التيار الأستوائي فيضرب في هذه الفترة الشاطىء قرب رأس دلجادو وينقسم الى التيار القوي المتدفق شمالاً والذي يسهل السفر الى الشمال، والتيار المتدفق جنوباً الذي يعوق الخروج من قناة موزمبيق وذلك هو موسم رحيل الدهو من شرق إفريقيا، لكن كانت هناك فترة انقطاع بين منتصف مايو ومنتصف أغسطس (آب) عندما يكون الجو عاصفاً بالنسبة للملاحة في المحيط الهندي، ولذلك تبحر سفن الدهو اما مع اشتداد الرياح الموسمية في أبريل

(٢٠) و. كيرك، ٢٦٥ - ٢٦٦.

(نيسان)، لو أمكن اتمام الصفقات التجارية في الوقت المحدد، او مع «نهاية» الرياح الموسمية في أغسطس (آب)، وهو ما يصبح أمراً ضرورياً لأن الرحلة كانت تمتد حتى جنوب زنجبار. ومن الواضح أنه بحلول عصر المسيحية كان ملاحو المحيط الهندي قد اعتادوا على الاستفادة من حركة الرياح الموسمية هذه[٢١]. كما أنهم تمكنوا أيضاً من حل مشكلة تشييد سفينة كبيرة الحجم بدرجة كافية في منطقة لا يتوفر فيها الحديد. وذلك عن طريق «خياطة» الالواح الخشبية مع بعضها البعض بالألياف النباتية[٢٢].

وهكذا فإن امتداد نطاق الرياح الموسمية التي يمكن الاعتماد عليها ومستوى التنظيم التجاري في شرق افريقيا، يساعد على تحديد رقعة نشاط سفن الدهو التي اعتمدت على الرياح الموسمية. ولو كان التنظيم التجاري ابسط بحيث يعتمد على المبادلات المباشرة بدرجة أكبر بين السفن الأجنبية والمدن التجارية - ويبدو أن ذلك كان هو الحال قبل القرن السابع الميلادي - لكان من غير المحتمل أن تتجاوز سفن الدهو القادمة من الشمال زنجبار جنوباً. كما أنه لم يتم قيام نظام متطور للتخزين في كيلوة بغرض استغلال أكفأ للمناطق الساحلية في الجنوب الا في العصور الوسطى.

تطور الحركة التجارية في غرب المحيط الهندي

تشير أقدم الأدلة التاريخية الخاصة بغرب المحيط الهندي الى أنه لم يكن هناك تبادل تجاري، سواء كان مباشراً او غير مباشر بين شرق افريقيا والهند قبل القرن السابع الميلادي - وذلك على النقيض من الرأي الشائع في الكتب الدراسية - وحتى التجارة بين الهند والشرق الأوسط في عصر المرشد يبدو أنها لم تتجاوز بعض الكماليات القليلة[٢٣]. ويبدو أنه من الراجح ان الهند - فيما عدا الذهب وبعض البضائع النفيسة - كانت مكتفية ذاتياً، خاصة فيما يتعلق بمنتجات «الغابة» الأساسية التي كان شرق افريقيا يستطيع ان يوردها، وأغلب الظن انه يبدو وكأن الهند كانت مصدراً نشطاً للعاج في ذلك الوقت، مما أخر احتمالات استغلال مصادر العاج في أفريقيا.

ويبدو أن استغلاله (أي العاج) قد نشط بسبب التنافس الحاد بين الدول الاغريقية التي توالت بعد موت الاسكندر. كما أن سيطرة السلاجقة على الطرق البرية الى الهند، دفع البطالمة في مصر الى البحث عن مصادر أخرى للعاج. وكان هم البطالمة الأول هو توفير الأفيال المحاربة، غير أنهم سعوا أيضاً الى كسر احتكار السلاجقة لتوريد العاج الهندي الى منطقة البحر المتوسط. لذا اتجهوا الى الساحل الافريقي للبحر الأحمر، وأسسوا عدداً من المراكز لصيد الأفيال، امتدت حتى مدخل البحر الأحمر. وأدت سياسة البطالمة هذه الى توسع عظيم في تجارة العاج[٢٤].

(٢١) المرجع المذكور، ص ٢٦٣ - ٢٦٥، ب. أ. داتو، ١٩٧٠أ، ص ١ - ١٠، د. ن. ماك ماستر، ص ١٣ - ٢٤، ب. داتو وأ. م. هـ. شريف، ص ١٠٢.

(٢٢) ج. ف. هوراني، ١٩٦٣، ص ٤-٦.

(٢٣) ر. ي. م. هويلر، ١٩٦٦، ص ٦٧، ج. ف. هوراني، ١٩٦٣، ص ٨-٩، أ. ل. باشام، ص ٢٣٠، المرشد ٤٩، ٥٦، ٦٢.

(٢٤) هـ. ف. توزر، ص ١٤٦ - ١٤٧، سترابو، المجلد ٧، ص ٣١٩ - ٣٣١، بليني المجلد ٢، ص ٤٦٥ - ٥٦٩، ج. ف. هوراني، ١٩٦٣، ص١٩ - ٢٠، و. تارن وج. ت. جريفث، ص ٢٤٥-٢٤٦، هـ. ج. رولنسون، ص ٩٠-٩٢.

ولقد أدى ضياع سوريا في عهد بطليموس الخامس (٢٠٤ - ١٨١ قبل الميلاد) وازدياد الطلب في ايطاليا على السلع العربية والهندية في وقت اضمحل فيه انتاج العاج، في المناطق الداخلة المتاخمة لساحل البحر الأحمر، دفع مصر الى التحول الى الطريق البحري الجنوبي سعياً وراء أقامة بعض العلاقات التجارية مع الهند. وفي نهاية القرن الثاني قبل الميلاد، كان يقطن سوقطرة التجار الأجانب بما فيهم اهل جزيرة كريت، واستغل ايدكسس ربان احدى السفن الهندية الغارقة في القيام بأول رحلة مباشرة الى الهند. وتطورت التجارة مع الهند لدرجة استدعت، في الفترة من عام ١١٠ الى عام ٥١ قبل الميلاد، تعيين ضابط «أوكل إليه امر البحر الأحمر والمحيط الهندي»(٢٥). غير أنه يبدو أن مبادرة ايدكسس هذه لم تتم متابعة لها بصورة منظمة. ويرى سترابو أن السبب في ذلك يعود الى الضعف والفوضى اللذين تميز بهما حكم البطالمة المتأخرين، عندما «لم يتجاوز عدد السفن التي تجرأت وعبرت الخليج العربي (البحر الأحمر) وتجاوزت المضايق العشرين سفينة(٢٦). ولهذا فإن قدراً كبيراً من التجارة بين مصر والهند في ذلك الوقت، كان يتم بطريق غير مباشر، عن طريق أماكن التخزين العربية في الجنوب الغربي. ويقول مرشد الملاحة في البحر الأحمر في حديثه عن عدن - «في الأيام الأولى وقبل قيام الرحلات من الهند الى مصر، عندما لم تكن السفن تجرؤ على الابحار من مصر الى الموانىء الموجودة عبر هذا المحيط، كانت تأتي جميعها لهذا المكان، الذي كان يتلقى شحنات البلدين(٢٧)». وهكذا شغل جنوب غرب شبه الجزيرة العربية موقعاً حاسماً كوسيط، فحصل على نصيبه من الربح التجاري، وصار مضرب الأمثال(٢٨). وفي عام ١١٥ قبل الميلاد حل الحميريون محل السبئيين الذين استطاعوا تدريجياً تركيز تجارة التخزين في ميناء موزة الذي كان تحت حكم دولة تابعة هي دولة معافر(٢٩).

ويبدو أن سكان الجزء الجنوبي الغربي من شبه الجزيرة العربية قد سيطروا أيضاً على الطريق الآخر للتجارة المؤدي الى الساحل الشرقي لافريقيا. وقد أشرنا فيما تقدم الى أن الاقبال على البضائع الشرقية النفيسة، بما في ذلك العاج كان من القوى المحركة للتوسع التجاري للبطالمة في البحر الأحمر جنوباً. ومن ثم فمن الممكن أن العرب مدوا أنشطتهم التجارية الى ساحل افريقيا الشرقي في ذلك الوقت لمقابلة الطلب المتزايد على العاج. ومما له دلالته أن ايدكسس عندما دفعته الرياح الموسمية في نهاية القرن الثاني قبل الميلاد الى مكان ما على الساحل الشرقي لافريقيا جنوب رأس جاردافون، فانه تمكن من الحصول على ربان - وربما كان عربياً - ليعيده الى البحر الأحمر(٣٠). ولا شك ان هذه الصلات التجارية سبقت السيطرة العربية على ساحل افريقيا التي يصفها مرشد الملاحة في النصف الثاني من

(٢٥) سترابو، المجلد الأول، ص ٣٧٧ - ٣٧٩، ديودوروس سينكولوس، ص ٢١٣ - ٢١٥، المرشد، ص ٣٠، و. تارن وج.ت. جريفث، ص ٢٤٧ - ٢٤٨، هـ.ج. رولنسون، ص ٩٤ - ٩٦، ي.هـ. بوينوري، المجلد الأول، ص ٦٤٩والمجلد ٢، ص ٧٤ - ٧٨، ي.هـ. ورمنجتون، ١٩٦٣، ص ٦١ - ٦٢، ج.ف. ١٩٦٣، ص ٩٤.

(٢٦) سترابو، المجلد ٣، ص ٥٣.

(٢٧) المرشد، ص ٢٦.

(٢٨) سترابو، المجلد ٧، ص ٣٤٩، المجلد ١، ص ١٤٣ - ١٤٥ - انظر أيضاً ديودوروس، المجلد ٢، ص ٢٣١، بليني، المجلد ٢، ص ٤٥٩. لم تكن كافة ثروات أهل الجنوب العربي مستمدة من التجارة، لأنهم طوروا أيضاً نظاماً راقياً للري، ج. و. فان بيك، ١٩٦٩، ص ٤٣.

(٢٩) المرشد، ٢١ - ٢٦، و.هـ. سيكوف، ١٩١٢، ص ٣٠ - ٣٢، ١٠٦ - ١٠٩، انسيكلوبيديا بريتانيكا، الطبعة ١١، المجلد ٢، ص ٢٦٤، المجلد ٣، ي.هـ. ورمنجتون، ١٩٢٨، ص ١١.

(٣٠) سترابو، المجلد ١، ص ٣٧٧ - ٣٧٩.

القرن الأول الميلادي «بأنها قديمة»[٣١]. ومن الصعب تحديد عدد نطاق هذه الصلات التجارية على الشاطىء قبل الفترة الرومانية نظراً لعدم وجود الأدلة المستمدة من علم الآثار. وحتى يومنا، قالوا انهم وجدوا عملة ذهبية واحدة من عهد البطالمة، ترجع الى أواخر القرن الثاني قبل الميلاد، بالقرب من دار السلام؛ في حين أن العملات البطلمية وعددها ٢٢ قطعة، والتي تشكل مجموعة هايوود، لا يمكن ان تكون قد اكتنزت قبل القرن الرابع الميلادي على أقصى تقدير[٣٢].

ومن ثم يمكن على ضوء الأدلة الراهنة، أن نحدد تاريخ التوسع التجاري العربي الى الساحل الشرقي لافريقيا في فترة مبكرة ترجع الى القرن الثاني قبل الميلاد، غير ان ميللر يعتقد أن الساحل الشرقي لافريقيا كان حلقة وصل حيوية في تجارة القرفة بين شرق إفريقيا (المصدر الطبيعي للتوابل)، وبين الساحل الشمالي للصومال حيث حصل الرومان والاغريق فقط، بل قدماء المصريين أيضاً على هذه السلعة منذ الألف الثانية قبل الميلاد. ويفترض ميللر استناداً على ما قاله بليني عن نقل القرفة «عبر البحار الكبيرة على الطوف» - وجود رحلات عبر المحيط قام بها الأندونيسيون الى مدغشقر والساحل الشرقي لافريقيا، تكملها طرق ساحلية وبرية كانت تمتد حتى الموانىء الصومالية[٣٣]. ومع أن هجرة الأندونيسيين الى مدغشقر ربما اتخذت هذا الشكل، فإنه من المسلم به حالياً أن تلك الهجرة تمت خلال الألف سنة الأولى قبل الميلاد وبالاضافة الى هذا، ليس هناك صلة لهذه الهجرة بطريق التجارة الذي يصفه بليني، والذي يبدو واضحاً تماماً أنه كان يسير بمحاذاة الشاطىء الشمالي للمحيط الهندي. وينتهي عند ميناء اوسيليا في جنوب الجزيرة العربية[٣٤]. وعليه فإن طريق تجارة القرفة الذي يقترحه ميللر ليس له ما يؤيده وكذلك الحال بالنسبة للفترة الزمنية الطويلة التي يقول ان شرق إفريقيا ارتبط فيها تجارياً بأراض عبر المحيط الهندي.

توسع التجارة في ظل الرومان

أدى قيام الامبراطورية الرومانية بقيادة أغسطس الى حدوث زيادة هائلة في الطلب على السلع الشرقية في منطقة البحر الأبيض. وتكامل تدريجياً عدد كبير من الاقتصاديات المنفصلة، داخل حدود الامبراطورية وخارجها في نظام واسع للتجارة الدولية ارتبط فيه منتجو المواد الخام والكماليات، ومستهلكوها في وسط الامبراطورية بعلاقة تجارية ثابتة وقاد هذا النظام الى توسيع السوق وسمح بانتقال الثروة الى وسط الامبراطورية[٣٥]؛ غير أن تركيز الثروة في يد الطبقة الحاكمة المولعة بالحرب، وترك التجارة، والصناعة، للطبقات المحكومة أدىّ الى المنافسة الحادة في التبذير. وكما يقول بليني:

---

(٣١) المرشد، ص ١٦، وقد تبنى ب. ل. داتو، ١٩٧٠أ، ص ٧٣، تاريخاً لاحقاً قائماً على أساس تحديد تاريخ لاحق للمرشد، ١٩٦٣، ويقترح ج. ماثيو، ١٩٦٣، ص ٩٨، القرن الثالث قبل الميلاد، لكن ذلك قائم على أساس مجموعة هايوود التي لا شك في أهميتها التاريخية. انظر ص ٥٥٣ فيما سبق.

(٣٢) انظر ص ٥٥٣ - ٥٥٤ فيما سبق.

(٣٣) ج.ي. ميلر، ص ٤٢ - ٤٣، ٥٣ - ٥٧، ١٥٣ - ١٧٢، وقد اعرب البروفسور ن. تشيتك عندما استشارته اللجنة، عن تحفظاته على وجود تجارة القرفة هذه.

(٣٤) ب. أ. داتو، ١٩٧٠أ، ص ٧١، بليني، المجلد ١٣، ص ٨٧-٨٨.

(٣٥) ف. اورتيل، ١٩٥٢، ص ٣٨١ - ٣٩١.

«على أقل تقدير كانت الهند والصين وشبه الجزيرة (العربية) تحصل من امبراطوريتنا على ١٠٠ مليون سستريس كل عام، وهو المبلغ الذي تحملناه بسبب الكماليات والنساء».[٣٦]

وتمخض توسع السوق على عهد أغسطس عن سياسة أكثر عدوانية في البحر الأحمر كان هدفها القضاء على الاحتكار العربي على التجارة الشرقية. وسعى الرومان الى انشاء طريق بحري مباشر الى الهند، والسيطرة على الطرف الجنوبي من «طريق البخور» بحملة قادها جالوس في عام ٢٤ قبل الميلاد. وعلى الرغم من فشل هذه الحملة الا أن التجارة الرومانية كانت قادرة على أن تندفع للأمام بسرعة، وربما كان ذلك يرجع جزئياً الى أن الطريق البحري المباشر تمكن من المنافسة الناجحة مع الطريق العربي. فقد نمي الى علم سترابو أنه في الفترة من عام ٢٦ الى عام ٢٤ قبل الميلاد «أبحرت حوالى ١٢٠ سفينة من مايوس هورموس الى الهند بينما في عهد البطالمة كان عدد قليل للغاية من السفن يغامر بالقيام بمثل هذه الرحلات للاتجار في البضائع الهندية[٣٧]. ولعله من المعقول أن نفترض أن هذه الحركة التجارية بحجمها الكبير هذا، كانت تقتضي استغلالاً منتظماً للرياح الموسمية للقيام برحلات مباشرة من مدخل البحر الأحمر الى شمال الهند. وخلال ثلاثة أرباع القرن التالية اتاحت المعرفة الأفضل بطريق الساحل الغربي للهند، للبحارة الرومان عبور البحر العربي رأساً الى ملبار، مصدر الفلفل وهو أهم الكماليات الهندية[٣٨].

ورغم مشاركة الرومان في الحركة التجارية عبر المحيط الهندي، الا أن هذه التجارة ظلت أساساً، كما يقول المرشد في يد الهنود والعرب، فقد تاجروا بنشاط في الخليج الفارسي والبحر الأحمر وان لم يتجاوزوا جنوب رأس جاردافون. كانوا يصدرون الفلفل من ساحل ملبار، والعاج من شمال غرب، وجنوب، وشرق الهند وكميات كبيرة من الأقمشة القطنية الى الأسواق الرومانية، وكذلك الحديد، والفولاذ والملابس والمواد الغذائية الى موانىء شمال الصومال وأثيوبيا. وأخذوا في مقابلها تشكيلة من المعادن، وأقمشة «من نوع أدنى جودة» والنبيذ «وكمية كبيرة من العملات»[٣٩]. ومن الناحية الأخرى قام العرب علاوة على تصدير البخور والمر بدور الوسطاء في التجارة بين المحيط الهندي والبحر المتوسط، كما تمتعوا أيضاً، فوق مشاركتهم للهند والرومان في التجارة الهندية، باحتكار الساحل الشرقي لافريقيا، وهي حقيقة يؤيدها جهل الرومان قبل صدور كتاب المرشد بساحل إفريقيا الشرقي جنوب رأس جاردافون. ومع أن الوثيقة الأخيرة هي بلا شك رؤيا شاهد عيان عن الساحل الافريقي الشرقي الا أن تخصيص أربع فقرات فيه فقط لهذا الساحل يشير الى أن هذه المنطقة كانت ما تزال تقع خارج النطاق الطبيعي لأنشطة الاغريق والرومان[٤٠].

---

(٣٦) بليني، المجلد ٤ ص ٦٣.
(٣٧) سترابو، المجلد ١، ص ٤١٥ - ٤١٩.
(٣٨) بليني، المجلد ٢، ص ٤١٥ - ٤١٩.
(٣٩) المرشد، ص ٦، ١٤، ٣٦، ٤٩، ٥٦، ٦٢، ج. أ. ميلر، ص ١٣٦ - ١٣٧.
(٤٠) سترابو، المجلد ٧، ص ٣٣٣، المرشد، ص ١٥، ١٨.

استيعاب ساحل إفريقيا الشرقي في النظام الاقتصادي الروماني

مهما بلغ حجم النشاط التجاري العربي في ساحل إفريقيا الشرقي في الفترة التي سبقت قيام الامبراطورية الرومانية، فمن المسلم به أن هذا النشاط تلقى دفعة جيدة إثر الوحدة الاقتصادية والثراء المتزايد للامبراطورية الرومانية. وكان أن اشتد الطلب على العاج بصورة كبيرة، اذ بدأ الرومان يستعملونه ليس فقط في صناعة التماثيل والأمشاط فحسب بل في صناعة الكراسي، وأقفاص الطيور، والحافلات، بل كان لحصان الامبراطور اسطبل من العاج[٤١]. وفي القرن الأول الميلادي كان يمكن الحصول على العاج فقط من داخل اقصى منطقة اعالي النيل جنوباً حتى ادوليس. ولهذا فإن المعروض من العاج القادم من الساحل الشرقي على الرغم من انه كان يعتبر أقل جودة من عاج منطقة ادوليس، الا أن له أهمية أكبر[٤٢]. فقد ساعد على تكامل المنطقة أكثر فأكثر في النظام التجاري الدولي، الذي كان مركزه البحر الأبيض المتوسط - عن طريق دولة حمير في جنوب غرب الجزيرة العربية، ويقول المرشد على الرغم من وجود زعيم في كل مدينة من المدن الاسواق على طول ساحل افريقيا الشرقي، الا أن مملكة حمير بسطت سلطانها عليها بوساطة زعيم معافر - وكان تحت نفوذها - والذي بسط نفوذه بدوره على سكان موزا. وقد قام هذا الزعيم «بارسال سفن كبيرة الى بعيد اسند امرها الى القباطنة والوكلاء العرب، ممن يألفون السكان الأصليين، والذين تزاوجوا معهم، ولهم معرفة تامة بالساحل كله ويجيدون لغته[٤٣]». ومن ثم فإن استيعاب ساحل إفريقيا الشرقي في النظام الدولي لم يقف عند حد التجارة، وانما شمل أيضاً السيطرة السياسية والتغلغل الاجتماعي. وربما أدى هذا الوضع الى نشوء طبقة من سكان الساحل الذين يجوبون البحار ويمارسون التجارة بنسبة مئوية مختلفة والذين لعبوا دور الوسيط المحلي لنظام التجارة العالمية.

وأغلب الظن أن أزانيا[٤٤] وهو الاسم الذي أطلقه الرومان على ساحل إفريقيا الشرقي جنوب رأس حفون، لم تكن موحدة اقتصادياً بل كانت تتكون من سلسلة من المدن التجارية لكل منها زعيم، ويعتمد كل منها على منطقة داخلية ضيقة متاخمة في الحصول على السلع التي تصدرها وكانت مراكب الدهو التي تعتمد على الرياح الموسمية تزور كلاً منها مباشرة، ويذكر المرشد عدداً من المواقع من بينها سرابيون، ويرجّح انها كانت على بعد اميال قليلة الى الشمال من مركة، ونيكون - وربما بوراجو (بورت دنفورد) وجزر البيرالين، التي عرفت أيضاً بأرخبيل لامو. وكان بامكان السفن ان ترسو في

---

(٤١) ي. هـ. ورمنجتون، ١٩٢٨، ص ١٦٣.
(٤٢) المرشد ص ٤، ١٧.
(٤٣) المرجع المذكور ص ١٦.
(٤٤) ورد المصطلح اولاً في بليني، المجلد ٦، ص ١٩٧٢، حيث يبدو انه يشير بصورة غامضة الى البحر الأحمر. ويشير المصطلح في المرشد ص١٥، ١٦، ١٨، وفي بطليموس المجلد ١، ص ١٧، ١٢١، بصورة محددة الى ساحل إفريقيا الشرقي. وقد قيل أنه تحريف لكلمة رنج التي استخدمها الجغرافيون العرب فيما بعد والتي تظهر بطليموس وكوزماس باعتبارها رنجيا ورنجيون على التوالي، ج. س. ب فريمان. جرينفيل ١٩٦٨، انظر أيضاً و. هـ. سيكوف، ١٩١٢، ص ٩٢. وقد استبعدت الأجزاء المتعلقة بخليج عدن الذي كان يشكل منطقة اقتصادية منفصلة كانت انشطتها الاقتصادية الرئيسية تتضمن تصدير البخور والمر واعادة تصدير القرفة من جنوب شرق آسيا ولم يكن اي منها سمة مميزة لساحل جنوب رأس حفون: انظر ب. أ. داتو، ١٩٧٠ب، ص ٧١-٧٢.

تلك المواقع غير انه ليس ثمة دليل على وجود نشاط تجاري بها. والواقع أن طبيعة الشط تتغير جنوب ارخبيل لامو، كما وصف ذلك المرشد بصورة دقيقة، وتقع جزيرة مينوثياس، على بعد ابحار يومين أي على بعد حوالى ٣٠٠ ستاديا (أي ما يقارب ٥٥ كيلومتراً) من البر الرئيسي المنخفض الذي تكسوه الأشجار(٤٥). وبما هي أول جزيرة كبيرة كان يقابلها بحارو الشمال، وربما كانت هي الوحيدة التي يمكن الوصول اليها من لاحو خلال يومين. والأكثر من هذا فإن بمبا تبعد حوالى ٥٠ كيلومتراً من البر الرئيسي، مقابل ٣٦ من الكيلومترات بالنسبة لزنجبار، وعلى كل لم تكن جزيرة مينوثياس ميناء تجارياً هاماً. وكانت هذه الجزيرة تقدم نوعاً من صدف السلاحف يكثر عليه الطلب بعد النوع الذي يجيء من الهند. غير أن صيد الأسماك الذي ورد وصفه في المرشد كان هو النشاط الاقتصادي الرئيسي الوحيد للجزيرة(٤٦).

وكانت مدينة ربطة هي المدينة التجارية الوحيدة على الساحل جنوب رأس حفون التي ورد ذكرها في المرشد. ووفق هذه الوثيقة يقع المركز التجاري على بعد ابحار يومين من مينوثياس. ويذكر بطليموس أنها تقع على نهر يحمل نفس الاسم «ولا يبعد كثيراً عن البحر»(٤٧). ويرى باكستر وآلن أن رحلة اليومين هذه لو بدأت من الطرف الشمالي لبمبا وانتهت عند نهر يبعد مسافة ما عن البحر فإن مدينة ربطة تقع على الأرجح في مكان ما على نهر البانجاني، وكان له مصب شمالي قبل ذلك. أما داتو فيرى أنه نظراً لظروف الملاحة في ذلك الوقت فمن المرجح ان يكون موقع ربطة بين بانجاني ودار السلام(٤٨). ويبدو أن ربطة كانت تحت حكم زعيم محلي، غير انها خضعت لسلطان الدولة التي قامت في جنوب غرب الجزيرة العربية. غير ان المرشد يوحي بأن هذا السلطان لم يتجاوز الا قليلاً احتكار التجارة الخارجية والذي مارسه القباطنة والوكلاء التجاريون العرب في موزا. وكانت أهم وظيفة تجارية لهذا الميناء تصدير «كميات ضخمة من العاج» وقرون وحيد القرن، وأصداف السلاحف عالية الجودة، وقليل من زيت جوز الهند. وكان يتم تبادل هذه البضائع في المحل الأول مقابل بعض المصنوعات الحديدية وعلى رأسها «الرماح التي كانت تصنع خصيصاً لهذه التجارة في موزا» والبليطات والخناجر، والمخارز، وأنواع مختلفة من الزجاج، وقليل من الخمور والقمح، ليس بغرض التجارة وانما لاستمالة المتوحشين(٤٩).

ويشير بطليموس في النصف الأول من القرن الثاني الى التطور المضطرد في مجال تلك التجارة خلال القرون الأولى بعد الميلاد. وظهر على شاطىء الصومال «مركز تجاري» جديد اطلق عليه اسم اسينا، ووُصِفت سرابيون ونيكون (تونيكي) بأنها «ميناء» ومركز تجاري على التوالي، غير أن ربطة شهدت التطور الأكثر لفتاً للنظر ووُصِفت في ذلك الوقت بأنها «عاصمة» (وهذه الكلمة تعني عند بطليموس عاصمة الدولة)، ولم يرد أي ذكر للنفوذ العربي، ومع أن هذا دليل سلبي، الا انه من المحتمل ان ازدهار التجارة مكن ربطة من الحصول على قدر كاف من الثروة والقوة مكنتاها من التخلص من السيطرة العربية واقامة دولة مستقلة سياسياً، وأغلب الظن ان اتساع رقعة المنطقة الداخلية لربطة على عهد بطليموس قد مهد لازدهار التجارة، هذا ويجعل بطليموس موقع جبال القمر التي يغطي الجليد

---

(٤٥) المرشد، ص ١٥، ب.أ. داتون، ١٩٧٠ب، ص ٦٨، ج. ماثيو، ١٩٦٣، ص ٩٥.
(٤٦) المرشد، ص ١٥.
(٤٧) المرجع المذكور، ص ١٦، بطليموس، المجلد ١، ص ١٧، اقتبسه ج. و. ت آلن، ص ٥٥.
(٤٨) هـ. س. باكستر، ص ١٧، ج.و.ت. آلن، ص ٥٥ - ٥٩، ب.أ. داتو، ١٩٧٠ب، ص ٦٨ - ٦٩.
(٤٩) المرشد، ص ١٦، ١٧.

قممها وكذلك جبل ميست بالقرب من أعالي النهر الذي أقيمت عليه ربطة، وجبال بيلي التي تقع في مكان ما الى الشمال الغربي منه، الى الغرب من ربطة(٥٠). ومن المؤكد ان المعلومات المتعلقة بهذه الجبال وصلت الى البحارة الاغريق والرومان عن طريق العرب الذين أقاموا في المنطقة، أو عن طريق الافريقيين، مما يوحي بوجود نوع من التغلغل التجاري من ربطة باتجاه منطقة العمق الداخلية، والممر الطبيعي خلال منطقة النيكا البحرية ابتداء من النصف الشمالي للساحل في تنزانيا، المنطقة الخلفية الطبيعية لاي ميناء كبير في المنطقة، يتكون من وادي بانجاني، وسلسلة الجبال من أسامبرا، وأوبير وكلمنجارو التي يغطي قممها الجليد، ومنها ينبع نهر البانجاني. وقد تم الحصول بفضل الحفريات التي تمت مؤخراً في تلال بير على بعض الأصداف البحرية والخرز في جونجا مما قد يوحي بوجود صلات تجارية مع الساحل رغم أن الأدلة المتوفرة حالياً لا يمكن ارجاعها الى ما قبل عام ٥٠٠ بعد الميلاد(٥١). وجميع الاعتبارات ترجح وقوع ربطة على نهر بانجاني(٥٢). ويبدو أيضاً ان التجارة قد امتدت جنوباً حتى رأس دلجادو. وفي حين كانت ربطة هي نهاية العالم المعروف بالنسبة لمؤلف كتاب المرشد، يورد بطليموس ما ذكره بحار اغريقي بشأن المسافة التي تمتد جنوباً حتى رأس براسون الذي يقع عند نهاية خليج ضحل من المحتمل أن يكون هو الشاطىء المقعر لجنوب تنزانيا الذي أقام حوله أكلة لحوم البشر من المتوحشين(٥٣).

وعند منتصف القرن الثاني بعد الميلاد انتظم جزء كبير من ساحل افريقيا الشرقي وجزء على الأقل من ممر بانجاني في انتظام الدولي للتجارة. غير ان قوة الدفع التي مدت الحدود التجارية الى مياه شرق افريقيا بدأت تضعف. حين بدأت الامبراطورية الرومانية تدخل في فترة التدهور الطويلة في القرن الثالث. فقد أدى تقلص ثروات الطبقة الحاكمة نتيجة تفكك التركز الاقتصادي للامبراطورية. ونتيجة للمصادرات التي قام بها الأباطرة، الى ضعف طبقة المستهلكين في المدن، والى افقار الطبقة البرجوازية الوسطى، مما ادى الى نقص كبير في السوق خاصة في مجال الكماليات والى العودة الى اقتصاد الاعاشة الريفي مرة اخرى. كما شهدت التجارة الدولية تحولاً عن البهارات، والأحجار الكريمة، والعاج، الى القطن والمنتجات المصنعة. ولعل التجارة المباشرة توقفت هي أيضاً، وهو أمر تؤيده الهوة الملحوظة في وجود الأدلة المتعلقة بالعملات، لكن كان هناك انتعاش قصير في نهاية القرن الثالث وبداية القرن الرابع، عند اعادة تدعيم الامبراطورية سياسياً. ان الأدلة المتعلقة بالعملات في شرق افريقيا غير كافية، وان كانت تشير الى تقلب مماثل، فمجموعة هايوود التي سبق ذكرها تضم ست عملات من الامبراطورية الرومانية يعود تاريخها الى منتصف القرن الثاني الميلادي وتعقبها هوة تمتد حتى نهاية القرنين الثالث والرابع، وهي الفترة التي تمثلها تسع وسبعون قطعة. اما مجموعة ديمباني ففيها، على ما يبدو، عملة واحدة يعود تاريخها الى القرن الأول، بينما يبدو ان تاريخ بقية مجموعة العملات الرومانية التي حققت يعود الى القرنين الثالث والرابع الميلاديين(٥٤).

---

(٥٠) بطليموس، المجلد ١، ص ١٧، ١٢١، المجلد ٤، ص ٧، ٣١، ي. هـ. ورمنجتون ١٩٦٣، ص ٦٦ – ٦٨.
(٥١) ر. س. سوير، ١٩٦٧، ص ٢٤، ٢٧ مكاتبة شخصية مؤرخة ١٩٧٢/١٠/٣.
(٥٢) لا يتفق الكتاب بأي حال على هذا المكان. وحتى اليوم فلم يتم الكشف عن أطلال قديمة بالقرب من بانجاني، وهناك محاولات تمت من وقت لآخر لتعريف ربطة.
(٥٣) المرشد، ص ١٦، ١٨، بطليموس، المجلد ١، ص ٩، ١ – ٣٠، المجلد ٢، ص ١٧، ١٢١.
(٥٤) ف. اورلي، ١٩٥٦، ص ٢٥٠، ٢٦٦ – ٢٦٧، ٢٧٣ – ٢٧٥، م. ب. شالزورث، ١٩٢٦، ص ٦١، ٧١. للاطلاع على ما يتعلق بالأدلة المتعلقة بالعملات في شرق إفريقيا، انظر ص ٥٣٣ – ٥٣٤ فيما سبق.

ما هي النتائج التي ترتبت على تحول شرق إفريقيا الى جزء من النظام التجاري الدولي؟ اولاً: ساعد هذا في ذروته على تنشيط النمو الاقتصادي عن طريق توفير البضائع المصنوعة من الحديد (على الرغم من ان معظمها كان فيما يبدو اسلحة للحرب) وربما ادى الى الالمام بصناعة الحديد التي كان لها اثرها البالغ في تاريخ شرق إفريقيا(٥٥). ثانياً: أدى الطلب على العاج، وقرون وحيد القرن وأصداف السلاحف الى ارتفاع قيمة هذه الموارد، التي ربما لم يكن لها من قبل سوى قيمة محلية محدودة، ونتج عن ذلك اتساع نطاق مصادر الثروة في شرق إفريقيا، في حين يشير تصدير جوز الهند من ناحية أخرى الى أن هذا النبات الهام دخل المنطقة من الشرق وقيام بعض النشاط الصناعي لاستخلاص الزيوت. وربما قادت التجارة الدولية هذه الى تعمير أولي لمركز التجارة التي غشاها التجار الأجانب وان كان قد قام فيها اولاً الافريقيون والطبقة الصاعدة من سكان الساحل المخلطين عنصرياً، الذين اتجهوا للعالم الخارجي، واعتمدوا على التجارة الخارجية والتي كانوا حلقة اتصال لها في المنطقة. واصبحت هذه المنطقة غنية بفضل الثروة التي حصلت عليها من التجارة، وربما قاد ذلك الى تركز قدر كاف من الثروة والقوة في ربطة مما مكنها من اعلان الاستقلال الذاتي. ولا يعني ذلك بأي حال أن ربطة حاولت الانسحاب من التجارة الدولية، التي ازدهرت بفضلها وبالقدر الذي اعتمدت فيه ربطة على التجارة الدولية، ربما اصبح اقتصادها مشوهاً وغير متوازن، مع اعتماد غير صحي على تصدير بعض الكماليات القليلة الى الامبراطورية الرومانية الغنية، وبذا اصبح عرضةً للتأثير بتطلبات التجارة الدولية. وعندما بدأ القوط يطبقون على روما (سقطت روما في عام ٤١٠ م.) خنقوا النظام الاقتصادي، الذي كانت روما مركزاً له، وتبع ذلك نتائج بعيدة المدى انعكست على كل المناطق التي اعتمدت عليه. ولعل ذبول ربطة البعيد كان نتيجة لذلك ولم يوجد أي أثر «للعاصمة» حتى الآن على ساحل إفريقيا الشرقي.

اعادة صياغة العلاقات الخارجية لشرق إفريقيا

ربما كان لتصدع التجارة الدولية أثر مدمر مماثل على دولة أخرى اعتمدت عليه: هي دولة حمير في جنوب غرب الجزيرة العربية، فلا شك ان انخفاض طلب الامبراطورية الرومانية على البخور الذي كانت تنتجه والكماليات الشرقية التي قامت بدور الوسيط فيها، أثر على الازدهار وجعلها فريسة سهلة للغزوات من الحبشة وفيما بعد من فارس، وفيما يخص التجارة البحرية فأغلب الظن انها فقدت دور الوسيط جزئياً لحساب الأثيوبيين الذين ظهر ميناؤ هم ادوليس كمركز لتصدير العاج من أعالي النيل ليس فقط لبلاد حوض البحر الأبيض فحسب وانما باتجاه الشرق أيضاً الى فارس وحتى الى الهند التي كانت من قبل مكتفية ذاتياً. مما أدى الى تحول هام في اتجاه تجارة العاج(٥٦).

غير أن الأثيوبيين لم يتمكنوا - فيما يبدو - من أن يحلوا محل العرب تماماً كعملة للتجارة في غرب المحيط الهندي، والى الشرق، بدأت فارس تبرز كقوة بحرية يحسب حسابها. فقد قام الساسانيون في القرن الثالث الميلادي، بتشجيع حركة الملاحة الفارسية واحتكروا التجارة في الهند في القرن السادس.

(٥٥) م. بوسنانسكي، ١٩٦٦، ص ٧٨، ٩٠.
(٥٦) ج. و. فان بيك، ١٩٦٩، ص ٤٦، ك.ب. بانكورست ص ٢٦ - ٢٧، كوسماس، ص ٣٧٢، ج.ف. حوراني، ١٩٦٩، ص ٤٢ - ٤٤.

ومدوا تجارتهم الى الصين في اواخر القرن السابع الميلادي، كما أنهم توسعوا غرباً سعياً الى بسط نفوذهم على الشريان الآخر للتجارة عبر البحر الأحمر، فاستولوا على كل من جنوب غرب الجزيرة العربية، ومصر عند مطلع القرن السابع. ومع أن الامبراطورية الفارسية سقطت تحت وطأة هجوم المسلمين في عام ٦٣٥ م. الا ان كثيراً من الأدلة تشير الى أن الملاحين الفرس استمروا يسيطرون على تجارة المحيط الهندي لفترة طويلة بعد ذلك وأدخلوا الكثير من المصطلحات البحرية والتجارية الى عالم المحيط الهندي بأسره(٥٧).

ان هيمنة الفرس هذه على غرب المحيط الهندي في القرنين السادس والسابع الميلاديين، خاصة في ظل تقلص النفوذ العربي، وعدم قدرة الاثيوبيين على أن يحلوا محلهم، يرجحان انه كان لهم نفوذ تجاري كبير على الساحل الشرقي لافريقيا. ومع أن الساحل لم يقع تحت الهيمنة السياسية للفرس، كما كان معتقداً، الا أنه ليس من المستبعد ان الروايات القوية عن هجرة الشيرازيين «الفرس» لساحل شرق إفريقيا قد بدأت في تلك الفترة. ولسوء الحظ هناك خلاف بين المصادر التاريخية للمؤلفين الاغريق - الرومان، والمؤلفين العرب التي تعود الى القرن التاسع، وحتى الآن لم تكتشف ادلة اثرية من الفترة السابقة لدخول الاسلام في ساحل افريقيا فيما عدا العملات البارثانية والساسانية الخمس التي يعود تاريخها للقرون الثلاثة الأولى بعد الميلاد والتي ربما تم كشفها في مكان ما بزنجبار. على ان الأدلة تتوفر على وجود صلات تجارية بين شرق إفريقيا وبين الخليج الفارسي على الأقل في فترة مبكرة ترجع الى القرن السابع. وظلت هذه الصلات قائمة في العصر الاسلامي، رغم أن جذورها ربما ترجع الى الفترة السابقة لظهور الاسلام. وهناك ادلة تشير الى استيراد العبيد «الزنج» من شرق إفريقيا وغيرها، للعمل كجنود وكخدم، وكعمال زراعيين لاستصلاح منطقة المستنقعات في جنوب العراق - وقد تزايد عددهم بنهاية القرن بدرجة كافية مكنتهم من الثورة لأول مرة، رغم أن ثورتهم الأكثر شهرة تمت بعد قرنين تقريباً من ذلك التاريخ، كما أن بعض التقارير تشير الى وصول العبيد الزنج الى الصين في فترة مبكرة كالقرن السابع(٥٨).

وأغلب الظن أن الفرس ومنطقة الخليج الفارسي لعبوا دوراً هاماً كوسطاء بين شرق إفريقيا، والهند، وحرم سقوط الامبراطورية الرومانية شرق إفريقيا من اهم سوق لشراء العاج في وقت كانت فيه الهند مكتفية ذاتياً الى حد كبير. وببداية القرن السادس فاق الطلب الهندي على العاج لصنع حلى العرائس العرض المحلي وكان طلب العاج في الهند يقوم بصورة مستقرة على تحطيم هذه الحلى حسب المعتقدات عند انتهاء الزواج بوفاة أي من طرفيه. وبحلول القرن العشرين صارت الهند والصين أهم سوقين للعاج القادم من شرق إفريقيا(٥٩).

ومن ثم، فبنهاية القرن السابع أعيدت الصلات التجارية الوطيدة بين ساحل شرق إفريقيا والطرف الشمالي للمحيط الهندي. وأتاح اشتداد طلب الهند على العاج آخر الأمر قيام الصلات التجارية بين

(٥٧) هـ. حسن، ج. ف. حوراني، ١٩٦٩، ص ٣٨ - ٤١، ٤٤ - ٦٥، بروكوبيوس اوف كايزاريا، المجلد ١، ص ١٩٣ - ١٩٥، ت. م. ريكس، ص ٣٤٢ - ٣٤٣. يتحدث مصدر صيني في القرن التاسع عن أنشطة فارس التجارية على ساحل الصومال، ج. ل. دويفنداك، ص ١٣.

(٥٨) ت. م. ريكس، ص ٣٣٩، ٣٤٣، س. أ. ريزفي، ص ٢٠٠ - ٢٠١، ج. ماثيو، ١٩٦٣، ص ١٠١، ١٠٧ - ١٠٨. وحول اكتشافات النقود، انظر ص ٥٥٤ فيما سبق.

(٥٩) كوسماس، ص ٣٧٢، ج. س. ب. فريمان - جرينفيل، ١٩٦٢أ، ص ٢٥، المسعودي، في ج. س. ب. جرينفيل، ١٩٦٢ب، ص ١٥ - ١٦.

منطقتي «الغابة» وظل السوق الهندي مفتوحاً لشرق إفريقيا حتى القرن التاسع عشر، وربما حصل سكان شرق إفريقيا في مقابل ذلك على عدد كبير من البضائع المصنعة بما فيها النسيج والخرز، هذا وقد اشتدت دويلات المدن التي قامت على الساحل على حركة التبادل هذه، وشهد ساحل إفريقيا الشرقي اثناء هذه المرحلة الثانية من تاريخه تحولاً واضحاً ليس في نوعية التجارة فحسب وانما في اتجاهها أيضاً اذ عمد الى تنويع الأسواق لانتاجه من العاج، وان لم يغير اتجاه اقتصاده الذي اعتمد على تبادل بعض المواد الخام، مقابل عدد من الكماليات المصنعة. وظلت تجارة الرقيق، وان بقيت محدودة ومتقطعة بعض الشيء، تشكل استنزافاً للمصادر البشرية لافريقيا ربما كان له اهميته الكبيرة في فترات وأماكن معيّنة في تاريخ شرق إفريقيا، حتى قبل القرن التاسع عشر. هذا وقد خضعت تجارة الرقيق لسيطرة طبقة من سكان الساحل كانوا هم أنفسهم نتاجاً للتجارة الدولية، واعتمد ثراؤ هم على استمرارها، وعليه فقد كان من العسير أن نتوقع أن تبادر هذه الطبقة باتخاذ ما من شأنه ان يخلص منطقة الساحل من هذه التبعية الاقتصادية ومن حالة التخلف التي عاشت فيها.

الفصل الثالث والعشرون

إفريقيا الشرقية قبل القرن السابع

بقلم: ج. ي. ج. سوتون

يسهل الحصول على معلومات عن حالة الشعوب والمجتمعات في إفريقيا الشرقية في فترة السنة المائة بعد الميلاد أكثر منها في الفترات السابقة. ويتم الآن قدر كبير من البحث حول هذه الفترات السابقة يؤدي الى مراجعة دائمة لكل او بعض النتائج السابقة.

فدراسة فترة الألفي سنة وهي فترة الألف عام قبل الميلاد والألف عام التي تليه تتسم بالصعوبة. فهي تتطلب أساليب معقدة وكمية كبيرة من المعلومات لم يتمكن علم الآثار من توفيرها في كليتها حتى الآن.

ولذلك فالدراسة التالية حدسية وافتراضية بل انها تستحث الذهن في أكثر من نقطة من أجل اثارة التأمل والبحث.

اذن فالمدخل الى التاريخ المبكر لشرق إفريقيا ثقافي في جوهره وهو محاولة لاعادة اسلوب أو أساليب الحياة بالقدر الذي تسمح به الأدلة الأثرية والانثروبولوجية واللغوية مجتمعة. وهناك اشارة متكررة الى المجموعات اللغوية. وهي في ذاتها ربما تكون أقل اهمية من الاعتبارات الثقافية والاقتصادية الأوسع منها، ولكن اللغة جزء من الثقافة، وهي «شيء تاريخي»، شيء يتناقل (وان كان يتغير باستمرار) من جيل الى جيل داخل المجتمع وهي وسيلة تتضح بها هوية الناس بوضوح كمجموعات ويتميزون بها عن الآخرين، وهؤلاء الآخرون قد يعترفون (وقد يسلمون بانتهاء هؤلاء الآخرين اليهم بشكل ما)، اذا كانت اللغة مفهومة بينهم بعض الشيء أو تشترك في بعض سماتها، وعلى العكس من ذلك، اذا لم تكن هناك أية رابطة واضحة، فقد يعتبرونهم غرباء تماماً، ولهذه الأسباب بصفة عامة فإن التعريفات والتصنيفات اللغوية للشعوب هي على وجه العموم - الأكثر وضوحاً وملاءمة للمؤرخين وعلماء

الأجناس. وقد تم توضيح التعريفات والتصنيفات المستخدمة في هذا الفصل في اللوحة والخريطة المرفقتين. وهي تتبع من الناحية العامة الخطة التي وضعت أساساً في مجلة «زماني» التي كتبها اوجوت وكيران ١٩٦٨، والتي ارتكزت على تصنيف جرينبرج للغات الافريقية.

تقاليد الصيد في السافانا الجنوبية

في أنحاء السافانا والغابات الخفيفة التي تغطي معظم القارة الافريقية الى الشرق والجنوب من حزام الغابات الاستوائي العظيم، كان السكان الأساسيون لعدة ألوف من السنين قبل العصر الحديدي يتكونون من الصيادين - الجماعيين، الذين يستخدمون الأقواس والسهام وأساليب متقدمة من تشكيل الحجارة (وهي أساساً من التقليد المنتشر الذي اطلق عليه علماء الآثار اسم ويلتون، انظر المجلد الأول). وكانت لهم صفات شكلية عامة تتمثل الآن في الأجناس التي يطلق عليها اسم سان وخوي التي تسكن صحراء كلهاري وأطرافها. ولعل لغتهم كانت من العائلة الخويسية، المعروفة بطقطقاتها الصوتية، وهذه اللغات قاصرة في الوقت الراهن على الخوي والسان الذين يعيشون في الجنوب والجنوب الغربي من إفريقيا وقاصرة في شرق إفريقيا على مجموعتين صغيرتين منفصلتين تعيشان في شمال ووسط تنزانيا هما الصنداو والهادزا[1].

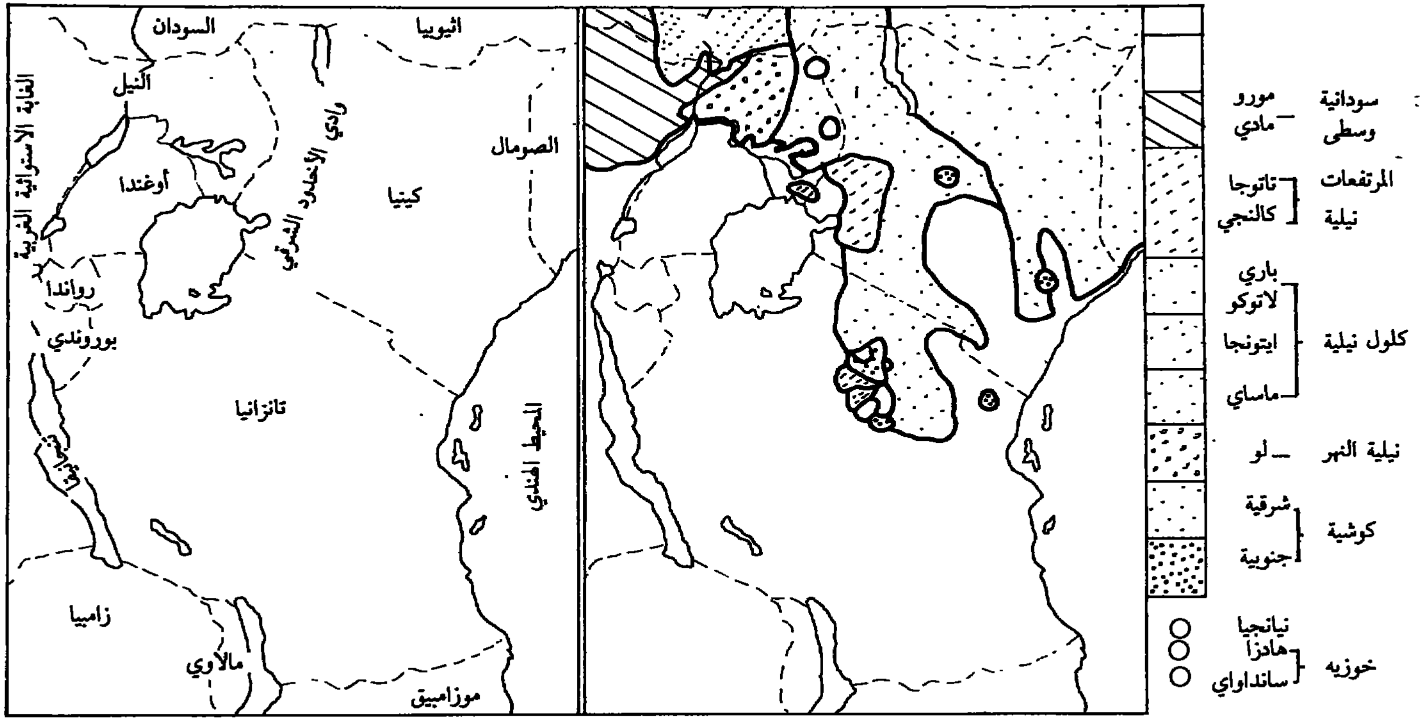
والهادزا ما زالوا حتى الآن صيادين وجماعيين، وهم قليلو العدد وينتقلون الى حد ما وهم خبراء في العثور على موارد الطعام النائية في أرضهم واستغلالها[2]. ومن الناحية الأخرى فإن الصانداوي يزرعون المحاصيل منذ فترة ويربون الماعز والماشية، ولكنهم ما زالوا يحتفظون بارتباط حضاري ملحوظ بالأدغال وبمعرفة فطرية بامكاناتها. وتنتمي هاتان القبيلتان، من الناحية البدنية، الى الزنوج، ولكن بعض الدارسين يتبينون لدى الصانداو وربما لدى الهادزا أيضاً آثاراً لأسلاف آخرين. ولعل تزاوجهم مع الشعوب الزنجية المجاورة يفسر تقارب الصفات بينهم.

ومما يثير الاهتمام ما نلاحظه من أن منطقة الهادزا والصانداو والمنطقة التي بينهما تحتوي على عكس بقية افريقيا الشرقية على نماذج عديدة للنقوش الصخرية عن موضوع الصيد، مرسومة على الجدران الداخلية للمآوي الطبيعية التي كانت تستعمل من وقت لآخر خلال العصر الحجري المتأخر كأماكن للتجمع والسكنى المؤقتة للعائلات. ولتلك الرسومات[3] دلالة اجتماعية وغالباً دينية لم تفهم بعد بالصورة الكافية، ولكنها توفر مع ذلك مؤشرات قيمة عن أساليب الصيد والطعام والحياة اليومية. ونصادف الآن رسومات الصيد من تلك الفترة ذاتها، مرسومة أيضاً على حوائط المآوي الصخرية، في أجزاء عديدة من إفريقيا الجنوبية، ورغم بعض الاختلافات الاقليمية الواضحة، نلاحظ بعض حالات التشابه في النمط والموضوع والأسلوب الفني بين نماذج إفريقيا الجنوبية ووسط تنزانيا. وتضاف الى هذه المتشابهات الفنية، العلاقة العامة بين أساليب نقش الحجر المعروفة باسم «ويلتون» والتي

(١) هؤلاء الهادزا كثيراً ما يطلق عليهم اسم «تنديجا». وقد ثار جدل حول تصنيف لغتهم كلغة (خوسية)، ولكن غالب الظن أنه تصنيف صحيح. وليست هناك شكوك تجدر الاشارة إليها حول تصنيف لغة السانداواي كإحدى اللغات الخوسية.

(٢) تحاول الحكومة التنزانية في الوقت الحاضر إقامة عدد من القرى ومشروع للتأهيل الزراعي في منطقة الهادزا.

(٣) انظر الجزء الأول، الفصل السادس والعشرين.



شكل ١ شرق إفريقيا: الخريطة السياسية والخريطة التي تبين توزيع اللغات ومناطق الشعوب

يستخدمها ساكنو المخابىء الصخرية في المنطقتين. ورغم أننا لا نعرف أن «الهادزا» أو « يرسمون بصورة جادة في أيامنا هذه - كما كف كلاهما عن صنع الأدوات الحجرية - فإننا نـ التشابه انه في وقت ما من العصر الحجري المتأخر كانت هذه المنطقة تشترك في التقاليد العرق مع البلاد الجنوبية.

ولقد تميز اسلوب العيش المنتشر في السافانا على الصيد والجمع برقي ثقافي وقدرة اقتد البقاء. واذا كان جانب الجني هو الذي يوفر معظم الطعام المستهلك (كما توضح لنا الدراسا عن «السان» ومجموعات أخرى)، فإن مهمة الحصول على اللحم، التي هي أكثر مشقة كانت أساسية من أجل الغذاء المتوازن واشباع الشهية. وكان كل ذلك يعتمد على درجة من ا التنقل، والتجمع الموسمي، دون أن يكون لذلك طابع الاستقرار الدائم، حيث كانت تتحرك وراء صيدها او استغلالها للموارد النباتية لأرض ما، وربما قيد ذلك من نمو الناس و التغيير وفي ذلك ما يساعد على ايضاح السبب في ان هؤلاء السكان القدامى للسافانا قد تم في معظم الأقاليم خلال الألوف الأخيرة من السنين في مجتمعات صيد السمك او الرعي او التي امكنها بما لها من أساليب تفوق غيرها كثافة وانتاجاً في الحصول على الطعام أن تكون دائمة وأن تزيد أعدادها وتتوسع في اراضيها.

وهكذا أصبح الجزء الأكبر من المنطقة الواسعة التي عاش فيها يوماً رجال القنص والجم للمزارعين «البانتو». وفي عدد من أقاليم البانتو هذه نسمع الحكايات عن مصادفة أشخاص بالغرابة لضآلة الجسم عاشوا في الأدغال والغابات ومارسوا القنص فيها. وهذه الروايات ليـ من الناحية التاريخية، لكن من الممكن جداً أن تكون انعكاساً لنواة ذكرى مبهمة غامضة تم تـ هذه الفترة منذ ألف سنة مضت وأكثر حين كان البانتو يستعمرون تلك المنطقة من جنـ إفريقيا، ويحصرون ويستوعبون تدريجياً مجموعات «السان» التي لها أساليب معيشية مختا والطريقة المقابلة التي تعكس هذا التقليد القديم في العصور الزراعية المتأخرة هي الأهمية التي مهارات القنص في أساطير البانتو. وكان مؤسس أي أسرة ملكية في هذه الأساطير قناصاً معظم الأحيان او قائداً لمجموعة، ويبدو أن مصدر ذلك هو اعتقاد قديم يمجد القوة و والحكمة والمثابرة لدى القناص الموفق الذي يعود الى مسكنه بغنيمة اللحم.

لكن لم تصبح إفريقيا الشرقية بأكملها جزءاً من عالم البانتو. فكما سيتضح فيما بعد احتل أوغندا وأجزاء كبيرة من كينيا وأجزاء من شمال وسط تنزانيا لوقت طويل جماعات سكانـ تتحدث اللغات الكوشية والنيلية وغيرها، استقر بعضها هناك خلال العصر الحديدي والبعـ قبل ذلك. وتوجد في هذا المكان وجنوبه دلائل اثنوغرافية وأثرية واضحة على وجود كثير مـ والجني في العصور الحديثة والقديمة. ولم يكن هؤلاء في الغالب يمثلون تقاليد الأدغال ا السافانا. وبالرغم من أنه يصعب تحديد الحدود الشمالية لتلك التقاليد، فليست هناك أسـ تدعونا للذهاب بها أبعد من بحيرة فكتوريا وخط الاستواء. وترى أحياناً بعض الكتابات أن «السان» امتدت في الماضي الى القرن الافريقي ووسط نهر النيل - لكن هذا الرأي مبني وافتراضات واهية - وعلى اكتشاف هياكل عظمية في حالات قليلة غير مكتملة لا تكفي للتـ تنتمي الى ازمنة أقدم بكثير تسبق التمايز بين الأنماط البدنية في إفريقيا؛ وكذلك على تراكيب حجرية من العصر الحجري المتأخر من شمال أوغندا وكينيا واثيوبيا والصومال، تكشف ـ التشابه العام مع الأدوات الصناعية من نوع ويلتون في البلدان التي تقع الى الجنوب، و

جماعات معاصرة من القناصين وساكني الغابات في عدة أماكن متفرقة. والمهم في حالة هذه الجماعات المعاصرة أن القليل منها مستقل بذاته من الناحية الاجتماعية والاقتصادية. فهم في الغالب يسكنون على مقربة أو في داخل مناطق الكوشيين والنيليين الذين يمارسون الزراعة والري، ويتحدثون لغتهم، ويزودونهم بمنتجات الادغال والغابات من عسل وجلود ولحم وما الى ذلك. وبعض هذه المجموعات – وبعضها من الدوروبو في مرتفعات كينيا على سبيل المثال – ليست بالضرورة من الممارسين للصيد والجني، بل نتيجة لفرص قريبة العهد أمام بعض الأفراد اما للتخصص أو التحول الى الغابة بعد فشلهم في الانخراط في المجتمع. وفي بعض الأقاليم التي لها لغة الكوشيين أو تأثيرهم القوي في كينيا واثيوبيا، تميل هذه المجموعات الى الاشتمال على طبقات اجتماعية متميزة من داخل الجماعات الرئيسية بدلاً من أناس لهم هوية مستقلة، وهم يزاولون عادة اعمالاً تسبب لهم الاتساخ مثل صناعة الفخار والحدادة لصالح الجماعة بأسرها. وكانت مثل هذه الحرف بطبيعة الحال غريبة تماماً عن التقاليد القديمة للقنص والجني في السافانا من شرق افريقيا.

ولعل هذه الأقاليم الشمالية قد شكلت خلال الجزء الأكبر من العصر الحجري المتأخر منطقة حدود متغيرة، تتسبب فيها جزئياً تقلبات المناخ في الفصل بين ثقافات المجموعات السانية في جنوب السافانا، والثقافات الأخرى في شمال شرق إفريقيا ووسطها. ما زلنا نجهل الكثير عن تلك المناطق. لكن يمكن التعرف هناك على الأقل على تراثين آخرين من الثقافة وكيانين عرقيين، يفتقران بدورهما الى الزراعة أو الثروة الحيوانية داخل إفريقيا الشرقية أو بالقرب منها في الآلاف الأخيرة. وهما موضوع الجزأين التاليين.

طرق الجني والقنص في الغابة الاستوائية

في غابات حوض الكونغو المطيرة، وخاصة في أطرافها الشرقية التي تنتهي عند رواندا، وجنوب غرب أوغندا، يسكن الزنوج الأقزام. وهم أقل انتشاراً وأقل عدداً مما كانوا في الأزمنة السابقة بسبب التوسع التدريجي للجماعات الزراعية المقيمة، أساساً من البانتو، الذين مهدوا أجزاء كبيرة من الغابة وقللوا الموارد الغذائية الطبيعية التي كان يعيش عليها «الأقزام». وقد تم استيعاب كثير منهم، لكن بعضهم الآخرين بقوا على قيد الحياة كجماعات مستقلة وان حافظوا على العلاقات مع جيرانهم من «البانتو» وتحدثوا بلغتهم.

وعلى الرغم من ان حياة الغابة عند الأقزام كانت كحياة «السان» تعتمد اقتصادياً على قنص الحيوانات المتوحشة وجني النباتات، فإنها كانت تتطلب نوعاً مختلفاً جداً من التكيف مع البيئة والتخصص في أساليب الممارسة. لذلك فإن وضع الأقزام والسان معاً تحت تسمية «قانصين – جامعين» فيه اغفال لطرائق معيشتهم وتفكيرهم المتميزة حيث انهم يختلفون عن بعضهم البعض اختلاف أي منهم عن «البانتو» الزراع. واسلوب حياة «الأقزام» شأنه في ذلك شأن اسلوب حياة «السان» لا بد أن يمثل تراثاً ثقافياً واقتصادياً قديماً يرتبط ببيئة معينة، هي في هذه الحالة الغابة الكثيفة التي تساعد طبيعتها على تفسير السمات البدنية المميزة، والقامة القصيرة لدى هؤلاء الناس.

وعلى أي حال فإن أي نوع من الأدلة التاريخية المتعلقة «بالأقزام» وامتدادهم الجغرافي السابق نادرة للغاية، وإن كانت بعض المحاولات المبدئية قد تمت في حوض الكونغو لايجاد علاقة بينهم وبين بعض

مخلفات العصر الحجري المتأخر والوسيط (مجموعة اللوبيميو - تشيتولي). على الأقل يدل توزيع هذه المجموعة وتاريخها على وجود تراث قديم لا يخلو من الأهمية بقي الى ازمنة حديثة نوعاً ما. أما المراحل المتأخرة لهذا التراث فليس هناك ما يمثلها جيداً في رواندا الشرقية وعليه، فإذا كان هذا التراث من صنع «الأقزام»، فلن تدعم وجهة النظر القائلة بامتداد منطقتهم الى داخل شرق إفريقيا خلال العصر الحجري المتأخر، حتى في الزمن الذي كانت فيه الامطار اغزر والغابات اكثف. صحيح ان هناك اشارة الى وجود «الأقزام» في انحاء متفرقة من شرق إفريقيا في بعض الكتابات التاريخية والاثنوغرافية؛ التي يبدو بعضها مستنداً على مفاهيم اثنوغرافية خاطئة، وبعضها الآخر على القصص الشعبي او على دلائل مبهمة من التراث الشفوي يتحدث عن قانصين - جامعين صغار الحجم في الماضي. واذا كانت هذه الكتابات تتعلق بأناس بعينهم، والى حقب من الزمان محددة نسبياً فإنها تشير على الأرجح في معظم الأحيان الى قانصين من نوع «السان» ينتمون الى تراث السافانا، او تشير في الجزء الشمالي من شرق إفريقيا الى جماعات منفصلة، تعرف بـ«دوروبو» او غيرها من ساكني الغابات، ممن تحدثنا عنهم فيما سبق.

ومن بين سكان الغابة هؤلاء الذين تتناولهم الروايات يستحق «الكومبا» الذين سكنوا في أرض «الكيكويو» في الجزء الشرقي من مرتفعات كينيا اهتماماً خاصاً. فهناك خلط كثير حول من يكون الكومبا وحول نوع الحياة التي كانوا يعيشونها. ويرجع ذلك في المقام الأول الى عدم التحديد المقترن بالأدلة وميل ناقل المعلومة الى استقائها من الأساطير، وثانياً الى خلط في التسجيل والتحليل على يد باحثي التاريخ. ومع ذلك يوجد دليل اثري واضح في أرض «الكيكويو» عن أناس كانوا يعيشون في وقت من الأوقات خلال الألفي سنة الأخيرة في الغابات الكثيفة حيث توجد مجموعات متقاربة من الحفر الدائرية الغريبة والتي يبدو انهم سكنوا فيها. وعلى الرغم من أن هؤلاء الناس كانوا ينحتون الحجر فالأرجح انهم لم يكونوا مجرد آثار محلية مندثرة من العصر الحجري. فالفخار الذي كانوا يصنعونه، واحتمال الصلة بينهم وبين الحديد، يوحيان بأنهم ارتبطوا حضارياً برابطة ما مع البانتو القدامى الذين عاشوا في المرتفعات وادوا لهم على الارجح بعض الوظائف الاقتصادية الخاصة. وقد تكون لهؤلاء الناس وقد لا تكون لهم بجماعات «الكومبا» المنقرضة التي تتحدث عنها الأساطير علاقة ولكنهم يبشرون بعد الدراسة الوافية، بأن نجد فيهم مثالاً قيماً لجماعة محددة، صنعت شكلاً من حضارة الغابة، وإن يكن ذلك في أزمنة حديثة، وبنوع من التعايش مع المزارعين المجاورين لها. وفي هذا المستوى العام من التكيف البيئي نجد مجالاً للمقارنة بين هؤلاء وبين أقزام حوض الكنغو. ولكن على الرغم من تخمينات بعض الكتاب لا يوجد أساس نفترض عليه ان هؤلاء السكان الأوائل لغابات الكيكويو من «الكومبا» أو غيرهم، كانوا أنفسهم من جماعات الأقزام.

التقاليد المائية في تراث إفريقيا الوسطى

هذا الموضوع الذي ظل مهملاً لوقت طويل، قد أثير في مجلد سابق عن هذا التاريخ(٤). ولذلك يكفي أن نتناول هنا آخر ما وصلت اليه هذه الطريقة الملفتة للحياة.

(٤) انظر المجلد الأول، الفصل ٢٠.

في حوالى عام ٥٠٠٠ قبل الميلاد، زاد جفاف المناخ بدرجة ملحوظة وهبط منسوب البحيرات كثيراً جداً عما كان حيث اصبحت تغذيها انهار أقل وأصغر. فتقوض التواصل الجغرافي، وفي بعض الأماكن تقوض الأساس الاقتصادي ايضاً لنمط الحياة على الماء ودالت أيام سيطرته الحضارية ؛ الا انه في حوالى عام ٣٠٠٠ قبل الميلاد زادت الظروف المناخية رطوبة مرة اخرى لبعض الوقت، وارتفع بالتالي منسوب البحيرات مرة اخرى (ولكن ليس كما كان في الألف السابقة). في هذا الوقت بعثت حضارة مائية مختلفة في الأخدود الشرقي في كينيا، ربما عن طريق هجرات جديدة او الاتصال بأواسط نهر النيل وأعاليه. وقد عثر على مخلفات من هذه المرحلة المائية المتأخرة مع أساليب فخارية غير مألوفة وأوان حجرية مسطحة نوعاً ما في اعالي بحيرة رودلف وناكورو وهي ترجع عموماً فيما يبدو، الى حوالى العام ٣٠٠٠ قبل الميلاد. وعلى الرغم من عدم العثور على خطافات في المناطق المنتمية لتلك الحقبة، فمن المؤكد ان هؤلاء الناس كانوا يصيدون السمك. ولكن الأرجح ان تغذيتهم تعتمد اساساً على ما يقدمه الماء كما كان يحدث في الحقبة الرئيسية الواقعة بين ثلاثة آلاف الى خمسة آلاف سنة قبلها. وبحلول عام ٢٠٠٠ قبل الميلاد وعودة الاتجاه الى الجفاف مرة اخرى تقوضت في النهاية واحدة من الحضارات المعتمدة على الماء في معظم الأخدود الشرقي.

ويبدو أن سكان تلك المرحلة المائية المتأخرة كانوا بدورهم من الزنوج أساساً. وتعوزنا المعلومات المباشرة عن لغتهم. الا أن أقرب الافتراض الى المنطق هو انهم كانوا ينتمون الى فرع أو آخر من العائلة النيلية - الشارية، (القسم الشرقي من النيليين - الصحراويين).

ويتوقع المرء ان تتمثل الحضارة المائية الكبيرة بطورها الرئيسي ما بين ٨٠٠٠ - ٥٠٠٠ قبل الميلاد، وانتعاشها مرة اخرى حوالى عام ٣٠٠٠ قبل الميلاد، في انهار الحوض العلوي للنيل ومستنقعاته، على طول الشواطىء القديمة لفكتوريا - نيازا اكبر بحيرة في إفريقيا الشرقية. ومن الغريب ألا نجد ما يشير الى ذلك بالنسبة لهذه الألوف من السنين. لكن حوالى الألف الأول منها عاش أناس على الجزر والمخابىء الصخرية والمواقع المكشوفة وبالقرب من البحيرة نفسها أو بالقرب من الأنهار التي تجري في المنطقة، وكان طعامهم يتكون من الأسماك والرخويات وكذلك من لحم حيوانات الأدغال وربما الأبقار والأغنام. الا اننا نشك كثيراً ان يكون بعضهم قد عرفوا الزراعة على الاطلاق، ولكن هناك ادلة ملفتة عن تعبيد الغابات حول بحيرة فكتوريا في ذلك العهد، وهذا في اضعف الايمان دليل على شكل جديد ومكثف نسبياً من استغلال اليابسة. وأعمال الفخار التي تنسب اليهم والمعروفة باسم فخار «كانسيور» تحمل بعض التشابه الملفت مع الأعمال الفخارية القديمة المنقطة ذات الخطوط المتموجة التي تنسب الى التراث المائي المبكر. وعلى قدر ما هو معروف فإن تلك الأنواع من الفخار قد بطلت في حوض نهر النيل قبل ذلك بكثير، لذلك من غير المحتمل أن تكون انواع «كانسيور» قد ادخلت ببساطة الى بحيرة فكتوريا في عهد يرجع الى الألف الأولى أو الثانية قبل الميلاد. والأرجح ان التراث المائي يرجع الى ألوف السنين قبل ذلك في تلك المنطقة وغيرها، ولكن كل ما أمكن التعرف عليه منه حتى الآن مرحلته الأخيرة، والتي تأتي قبل العصر الحديدي مباشرة. وفي هذه الحالة قد يتساءل المرء عما اذا كانت بوادر وعلاقات الحياة المائية القديمة تنتظر بدورها الكشف على الشواطىء الجنوبية لبحيرات شرق إفريقيا، ولا سيما على امتداد بحيرة تنجانيقا.

وبينما لا نجد آثاراً مباشرة للمجموعة اللغوية التي ينتمي اليها ساكنو بحيرة فكتوريا في الألف الأولى فمن الممكن ان تكون لغة السودان الوسيط (شق من المجموعة الشارية - النيلية). ومنذ بدء العصر الحديدي كان البانتو يعمرون هذا الاقليم والاقليم الذي يقع الى جنوبه، وطبقاً لاحدى المدارس

اللغوية والتي لها اعتبارها استوعب البانتو اثناء استيطانهم مجموعة أقدم منهم وأصغر عدداً من الناطقين بلغة السودان الأوسط، وتعلموا منهم تدجين الأبقار والأغنام وكيفية تربيتها. ونظراً لأن البانتو القدامى لم تكن لديهم الكلمات المقابلة لهذه الأشياء، فإنهم قد استعاروها من ساكني تلك المناطق السابقين الذين انقرضت لغتهم. لم يعثر بعد في جنوب بحيرة فكتوريا على أي سند أثري معقول لهذه النظرية، لكن حول البحيرة نفسها يمكن المطابقة بين المواقع التي تحتوي على فخار من نوع «كانسيور» وبين المجموعة الناطقة بلغة السودان الأوسط، خصوصاً اذا صح الربط في بعض هذه المناطق مع آثار الأبقار والأغنام من الألف الأول ولعل تراثاً مائياً معزولاً وضعيفاً قد انتعش في ذلك الوقت بالاتصال على حدوده الشرقية بتراث رعوي جديد نشأ في مرتفعات كينيا.

التقاليد الرعوية الكوشية

بحلول المناخ الأكثر جفافاً بصفة نهائية في الألف الثاني، لم ينحسر منسوب البحيرات الى مستواه الحالي تقريباً فحسب (انقرضت الأسماك في بعض الأحوال)، بل تراجعت الغابات تاركة في مكانها مراعي خفيفة في الأخدود الشرقي والسهول المتاخمة له. ورغم أنه لا يزال من الممكن صيد الأسماك والحفاظ على بعض عناصر الحياة القديمة حول بحيرة فكتوريا وبعض البحيرات والأنهار الأخرى، فإن تلك التقاليد قد فقدت استمراريتها الجغرافية الكبيرة والسند الحضاري الذي كان ملازماً لها. وكانت المكانة الجديدة في مناطق كثيرة من الحزام الافريقي الأوسط، وخاصة في طرفه الشرقي، هي تربية الماشية، وصار ينظر الى الاستمرار في العيش بالقرب من المياه والتعيش منها كنوع من التأخر والركود الذهني عامة. ولم يكن يعتبر أسلوباً حياتياً عفا عليه الزمن فحسب، بل كان ينظر اليه من قبل الجماعات الرعوية الأكثر نجاحاً كشيء غير لائق وغير نظيف. وكان الرعويون الأوائل في افريقيا الشرقية يتميزون ليس بلغتهم الكوشية واصرارهم على الختان فحسب، بل بتحريمهم أكل الأسماك كذلك.

ومنذ أزمان طويلة اصبحت تربية الأبقار في تلك المناطق من شرق إفريقيا التي تتوفر فيها الحشائش بكميات وانواع كافية وخالية من ذبابة التسي تسي والأمراض المتوطنة موضعاً للمكانة والجاه وعلامة على الثراء. ولكن من المهم أن نعرف ان ايديولوجية تربية الابقار تلك مبنية على حس اقتصادي محض، فالأبقار توفر اللحم، وأهم من ذلك اللبن، وحتى بالنسبة للناس الذين يعتمدون على حقولهم لانتاج الجزء الأكبر من غذائهم، فإن الماشية تمثل مورداً هاماً للبروتين، وهي كذلك ضمان ضد المجاعات التي تحدث من حين الى آخر نتيجة للجفاف او الأوبئة. وبالاضافة الى ذلك يجب الا ننسى الدور الهام الذي تلعبه الاغنام والماعز التي عادة ما تمثل المورد الرئيسي للحم للمجموعات البشرية التي تركز على تربية الماشية والزراعة سوياً.

ولقد أدخلت أول الأبقار من شرق إفريقيا الى المرتفعات ومنطقة الأخدود في كينيا منذ ثلاثة آلاف سنة على الأقل. وأغلب الظن انها كانت فصيلة ذات قرون طويلة وليس لها (قبب) «سنام». ولقد عثر على عظام ابقار واغنام (أو ضأن) في عدة مواقع أثرية من العصر السابق على العصر الحديدي وأرخ لها في الألف الأول وعلى الرغم من ان بعض تلك المواقع كانت مناطق للسكن فإن اكثرية تلك الاكتشافات كانت مدافن، سواء في الكهوف أو بين او تحت ركام من الحجارة (الروابي). ومن الجلي ان

صورة اكثر تكاملاً لاقتصاد هؤلاء الناس الذين عاشوا في الألف الأول لن تتضح، الا من الاكتشافات والدراسة الدقيقة لمزيد من مواقع سكنهم. ومهما يكن من أمر فإن الأشياء الموضوعة في القبور، وعلى الرغم من انها لا بد أن تكون اختيرت بعناية وذات دلالة دينية، فهي في الغالب الأعم محفوظة بصورة افضل، ولا بد ان تعكس بطريقة او بأخرى اسلوب حياتهم او نظرتهم الى الحياة. ومن الأشياء التي تم اكتشافها الرحى ومدقات وأوانٍ وآنية حجرية طويلة وأوانٍ وقرع وأوعية خشبية من المحتمل انها كانت تستعمل في شرب الحليب، وسلال، وخيوط، وفؤوس من الحجر المهذب وقطع مشغولة من العاج، وعقود مصنوعة من فصوص من أحجار مختلفة ومن العظام والأصداف ومواد بقولية صلبة. وكمجموعة ثقافية يمكن ان نعتبر هذه معادلة تقريباً لما كان يوصف من قبل «بحضارة الأواني الحجرية» (مرحلتها الرئيسية والمتأخرة)، ولكن من المحتمل ان يكتشف انها تضم في واقع الحال سلسلة من المجتمعات والمكونات الحضارية المختلفة.

ولم يكن الاقتصاد رعوياً فقط. وكان يتم صيد الظباء وبعض الحيوانات الأخرى، ربما خاصة بواسطة بعض المجتمعات الأكثر فقراً. ولا نعلم حتى الآن بصفة مؤكدة ما اذا كانت هنالك انواع من الذرة والدخن او اية مواد غذائية اخرى يزرعها هؤلاء الناس، ولكن الاحتمال كبير. وتشير في بداية الأمر كمية المصنوعات الفخارية التي عثر عليها في بعض المناطق الى انه كان هنالك جزء على الأقل من المجموعات البشرية اكثر استقراراً مما لو كان المجتمع رعوياً محضاً، بينما تشير أدوات الطحن الى وجود زراعة واعداد واستهلاك الحبوب. ومهما يكن من امر، فإن الرحى الكبيرة المسطحة والمدقات الملازمة لها ربما كانت تستخدم في طحن البقول البرية أو حتى اشياء لا صلة لها بالطعام. فعلى سبيل المثال، نجد ان بعض هذه الأدوات التي تركت في القبور عليها بقع من المغرة الحمراء التي زينت بها الجثث. الا ان هذه الملاحظة لا تستبعد بالضرورة أن تكون هذه الأدوات تستخدم لأغراض اخرى في الحياة اليومية. وهناك حجة اخرى أكثر اقناعاً على احتمال ممارسة هؤلاء الناس للزراعة هي انه بدون المقدرة على اللجوء الى مصادر بديلة للطعام في أوقات الأزمات الشديدة التي تعقب فترات القحط وأوبئة الماشية، لم تكن تلك المجتمعات تستطيع البقاء مدة طويلة وربما كفى القنص والجني كوسيلة مؤقتة لسد الرمق، وكمصدر أساسي للطعام لمجموعات صغيرة للغاية ومتفرقة[٥] وعلى الرغم من ذلك، فإن التأكيد الحضاري لاقتناء الأبقار، والاعتماد الاقتصادي الكلي على الماشية يتمثلان في التوزيع الجغرافي لهؤلاء الناس، اذ انهم يحصرون أنفسهم في المناطق التي توجد بها المراعي الشاسعة. وكانت مرتفعات «كريتر» في شمال تنزانيا، التي يوجد فيها وادي «نكورونكورو» الأخضر الذي يحتوي على مدافن من تلك الفترة، هي الحد الجنوبي لمنطقة المراعي الشاسعة تلك. واذا كان اولئك الناس اكثر التزاماً في الجمع بين تربية الماشية والزراعة لانتشروا بصورة أكثر في المناطق الخصبة التي تقع على الناحية الشرقية والناحية الغربية من منطقتهم، ولاستمروا في انتشارهم جنوباً.

---

(٥) انه لمن الصحيح أن بعض المجتمعات الرعوية قد استطاعت أن تتفادى الزراعة تماماً (وهي تحتقر الصيد كذلك). ولكن ذلك لم يتم إما لأنها اعتمدت في الحصول على الحبوب أو الخضر عن طريق المبادلة مع المجتمعات الزراعية المجاورة كما تستعين بها على قضاء موسم الجفاف، أو لأنها تقوم بغزو المجتمعات الأخرى التي تتمتع باقتصاد زراعي رعوي مختلط. وكان الأسلوب الأخير ضرورياً للماساي الوسيطين الذين كانوا رغماً من سيطرتهم على مساحات شاسعة من الأراضي يشعرون أن مواردهم من اللحوم غير كافية لاشباعهم، والأهم من ذلك هو أنهم كانوا يضطرون نتيجة للخسائر أو للسنوات العجاف للحصول على ثيران جديدة للتوليد، ولانعاش قطعانهم التي توفر لهم الألبان، والا فإن اسلوب حياتهم ومجتمعهم سيتهددهما الضياع والاندثار. ولم يكن أيٌ من هذه الحلول ممكناً لرعاة الأبقار الأصليين في إفريقيا الشرقية.

وتحمل أساليب صناعة الفخار وبعض السمات الأخرى من الحضارة المادية لأولئك الرعاة المبكرين الذين يقطنون مرتفعات كينيا وأخدودها وشمال تنزانيا آثاراً من اقليم النيل الأوسط ولكن الانعكاس ضعيف ومن المحتمل أن يكون التأثير غير مباشر. ولا يعني ذلك بالضرورة أن الأبقار ورعاتها قد أتوا من ذلك الاقليم، بل انهم ربما نتجوا عن احتكاكهم واستيعابهم للمجموعات البشرية المائية المتأخرة بروابطها النيلية القديمة والتي كانت تقطن على ضفاف بحيرات وادي الاخدود. ويدل على ذلك استمرارية الأواني الحجرية الغريبة في ذلك الاقليم لفترة الفي عام، من العهود المائية المتأخرة الى العهود الرعوية المبكرة.

والتناقضات الاقليمية ذات دلالة هي الأخرى. اذ انه منذ الألف الثانية قد نما فاصل ثقافي يجري من الشمال الى الجنوب بين مرتفعات اثيوبيا وكينيا (بما في ذلك السهول الجافة التي تقطعها) من الناحية الشرقية حيث استقر التقليد الرعوي، ومن ناحية الغرب، حوض النيل الأعلى وبحيرة فكتوريا، حيث ظل الاقتصاد المائي متيناً بالنسبة لمجموعة صغيرة من السكان. ولم يشكل هذا الخط في أي وقت ستاراً حديدياً او حاجزاً للناس والأفكار الذين كانوا يعبرونه في الاتجاهين قبل العصر الحديدي وخلاله ولكنه يشكل نقطة التلاقي لتقليدين ثقافيين عريضين ومتميزين عامة. ويتضح هذا من المقارنات والتحليلات اللغوية، وبقدر أقل، من الملاحظات البدنية الانثروبولوجية.

وعلى الرغم من أنه يصعب التعميم بناء على الأنماط البدنية الفسيولوجية فإن الانطباع الذي يتبادر الى الذهن هو أن الناس الذين كانوا على الغرب من هذا الخط زنجيون من نمطهم، والذين يقطنون المرتفعات والسهول التي تقع الى الشرق أقل منهم في هذه الصفة. وتشير الدراسات اللغوية الى وجود تأثيرات لغوية من أثيوبيا الى مرتفعات إفريقيا الشرقية، باقية دوماً شرق الفاصل الثقافي. وأثيوبيا هي الموطن القديم للعائلة اللغوية الكوشية. وتكشف غالبية اللغات البانتوية والنيلية الحالية في كينيا وشمال شرق وشمال وسط تنزانيا عن دلائل تأثيرها في الألسن الكوشية. وفي بعض الأماكن القليلة وخاصة عند الحد الجنوبي لهذه المنطقة لا زالت توجد حتى الآن بالفعل بعض اللغات الكوشية الجنوبية وان كانت في انماط تختلف بشدة عن الأنماط الكوشية القديمة. ومن أهم الأدلة الحضارية التاريخية التي تقدمها الاستعارات اللغوية، اسهام الجماعات الكوشية المبكرة بتقليد تربية الماشية في شرق إفريقيا.

ويبدو العنصر الثقافي الكوشي في تاريخ إفريقيا الشرقية في صور أخرى، والى حد ما في المؤسسات الاجتماعية والسياسية التي لا تعتمد على نظام الزعامة، بل على نظام الأعمار، عند سكان السهول والمرتفعات في كينيا، وأجزاء من شمال تنزانيا. لكن هذه الملاحظة شديدة العمومية، ولا يتأتى بالضرورة ان ترتد كل ظواهر هذه الأنظمة الى استيطان الكوشية في البداية[٦]. ويبدو من المؤكد أن عادة الختان عند بداية الترشيد عادة كوشية بالتحديد، يتوافق انتشارها مع الأماكن التي توجد فيها استعارات لغوية من الكوشية، والنفور من أكل الأسماك في ذات الاقليم العريض، الذي تحدثنا عن دلالته من قبل في التجربة التاريخية لشرق إفريقيا.

إذن فالصورة التي نحصل عليها هي صورة أناس رعويين يتحدثون الكوشية، طوال القامة، ذوي بشرة فاتحة اللون نسبياً، ينتشرون ناحية الجنوب ويبسطون سيادتهم على الأراضي الغنية بالحشائش،

---

(٦) ربما نجم بعضها عن الاحتكاكات اللاحقة مع الكوشيين الشرقيين في جنوب إثيوبيا وعلى الحدود الكينية، لا سيما إقليم بحيرة رودلف. وفي الألف الحالية انتشر بعض الكوشيين الشرقيين، خاصة جماعات من القالا والصوماليين الى مسافة طويلة داخل المناطق الشمالية والشرقية لكينيا ويجب التمييز بين هذه التحركات وانتشار الكوشيين الجنوبيين الذي سبقها بوقت طويل، وهو المقصود بهذه الدراسة.

والسهول، وخاصة الهضاب، في كينيا وشمال تنزانيا منذ حوالى ثلاثة آلاف سنة. كل ذلك يبدو وكأنه اعادة لصياغة اسطورة الجنس الحامي المرفوضة حالياً. والمسألة هي انه بينما نجد ان الجوانب اللامنطقية والرومانسية من النظريات الحامية الغامضة والمتعددة تنبثق عن مواقف الدارسين الأوروبيين المتحيزة والغريبة ضد إفريقيا والجنس الأسود، فإن الحقائق التي تشكل أساساً لهذه الآراء لم تكن زائفة في مجملها. اذ ان بعض الملاحظات كانت شديدة الدقة، وبعض التأويلات التاريخية موفقة تماماً. والخطأ الذي وقعت فيه المدرسة الحامية هو افتراضاتها المسبقة واستحواذ موضوع الناس والأفكار عليها. وعندما فشلت في تقييمها للساحة المحلية، ركزت على مجموعة معينة من المؤثرات الخارجية، اي العنصر الكوشي والجاه الرعوي بدلاً من ان ترى ذلك كجزء واحد من اجزاء كثيرة للتجربة التاريخية والثقافية لأفريقيا الشرقية - تجربة كانت فيها تقاليد القنص القديم في السافانا، والتقاليد المائية، التي نشأت خلال العصور المائية، وفي فترة متأخرة، ارتباط البانتو بالحديد والزراعة، مكونات متساوية في الأهمية.

تقاليد البانتو في الزراعة واستخدام الحديد

بينما كان الرعي وتحريم السمك المرتبط به يمثلان العلامة الحضارية والعرقية للكوشيين في منطقة من مناطق إفريقيا الشرقية خلال الألف سنة الأولى فإن العلامة المميزة للبانتو خلال الألف سنة التي تلتها كانت صنع واستخدام الحديد. أما عن كيف ومتى اكتسبت هذه المعرفة فإن ذلك ما زال غير واضح: تناقش هذه المسألة في الفصل الحادي والعشرين، على أن الأمر الأكثر اهمية من مسألة الأصل هذه هو الحقيقة الواضحة بأن البانتو المبكرين كانوا يعتمدون على الحديد وكانوا يعرفون بأنهم الناس الذين يملكون أسراره. وربما كان سكان إفريقيا الشرقية الأوائل لم يعتادوه، اذ انهم كانوا يستخدمون الحجارة المناسبة ويشكلونها بالأساليب الفنية القديمة كيما يصنعوا منها أدواتهم وأسلحتهم. وعلى سبيل المثال، فإن الاخدود الشرقي في منطقة الكوشيين قد انعم عليه بوجود مصادر لحجر غير عادي في نعومته يدعى أوبزيديان (وهو زجاج بركاني معتم)، كانت تصنع منه بسهولة شفرات ممتازة ذات احجام مختلفة وتستخدم في كل الأغراض، بما في ذلك رؤوس الرماح والشفرات التي تستخدم في الخفاض. وكانت المجموعات المعاصرة الأخرى التي تختلف عنهم والتي تعيش في المناطق المحيطة ببحيرة فكتوريا أقل حظاً من اولئك الذين يقطنون الاخدود فيما يتعلق بالحجارة التي توجد في منطقتهم، الا انهم نجحوا رغماً عن ذلك في صناعة ادوات معقدة من «الكوارتز» وحجر القرني وبعض الاحجار الأخرى الصالحة لصنع الشفرات التي لديها القدرة على «التشفير»، كما كان يفعل أيضاً صيادو السافانا في المناطق التي تقع الى الجنوب. ولا بد أن اول احتكاك لهذه الجماعات المتباينة والمتفرقة مع غرباء يمارسون صناعة الحديد كان تجربة ذهنية مذهلة.

وكان توسع البانتو الرئيسي سريعاً وعريضاً، ولم يتم في سلسلة من المراحل التدريجية كما زعم البعض. الا انه لم يكن ترحالاً بدوياً بلا هدف، ولا هو كان غزواً عسكرياً منظماً، بل كان (عملية) استعمار - بالمعنى الحقيقي للكلمة.- أي فتح أراض خالية أساساً. ولم يبتلع توسع البانتو هذا كل المنطقة التي نتحدث عنها هنا. اذ أن حوالى ثلث إفريقيا الشرقية لم يقع تحت سيطرة البانتو وذلك بسبب المرونة والمقدرة على التكييف لدى بعض الجماعات المبكرة خاصة في منطقة الاخدود الشرقية الطويلة،

بسكانها الكوشيين القدماء، الذين ازدادوا في العصر الحديدي بوصول بعض الفصائل النيلية (انظر الخريطة اللغوية والأجزاء التي تسبقها وتليها).

وليس معنى ذلك أنه لم يكن هنالك تفاعل بين البانتو والكوشيين والنيليين المختلفين في إفريقيا الشرقية خلال الألفي سنة سالفة الذكر. اذ أنه من حين لآخر لا بد أن يكون قد حدث تزاوج واستيعاب ثقافي في كلا الاتجاهين بالاضافة الى الاستعارات الثقافية والاثراء الاقتصادي المتعدد الأشكال. فقد بدأ البانتو على الفور في تكملة غذائهم الزراعي بلبن ولحم الأبقار التي كانت توجد في تلك الأقاليم ذات الحشائش المناسبة والخالية من ذبابة النوم. وتحظى الماشية بأهمية خاصة منذ زمن بعيد بين البانتو الذين يعيشون حول بحيرة فكتوريا والمراعي الجيدة التي توجد على المرتفعات الى الغرب. ومن الناحية المقابلة فإن زراعة الحبوب عند الكوشيين والنيليين في كينيا ومرتفعات شمال تنزانيا قد تمت وتطورت لمجرد الحاجة لاطعام اعداد متزايدة من البشر، بالاضافة الى أثر او نموذج البانتو المجاورين وأساليبهم الفنية. وقد اصبحت بعض اجزاء المرتفعات مناطق بانتوية من الناحية اللغوية، بينما تعكس في مميزاتها الثقافية والاجتماعية المختلفة استيعابها لأساس كوشي محسوس. وهذا الأمر ملاحظ بجلاء لدى «الكيكويو» الذين يتميزون بأعدادهم الكبيرة وبكثافتهم، فلغتهم هي البانتو، والزراعة المكثفة التي تمارس في المناطق التي مهدت في التلال الغنية ووسط الغابات، يمكن ان تعتبر تكييفاً محلياً لأساليب البانتو التقليدية غير أن نظام الكيكويو السياسي الذي تقوم دعائمه على تقسيم الأعمار والخفاض بالاضافة الى النفور من الأسماك، ينتمي أكثر الى العرف الكوشي القديم للمرتفعات.

وبينما حافظت المناطق الكوشية في المرتفعات والأخدود على طابعها الأصلي (بأن اصبحت خلال العصر الحديدي نيلية اكثر منها كوشية في تقسيماتها اللغوية) قد عانت اذن بعض التعديات من قبل البانتو خاصة في بعض مناطق الغابات التي فيها ماء بامكاناتها الزراعية الغنية للغاية (ومن ثم، فهي بطبيعة الحال الأكثر كثافة سكانية). ومن الناحية الأخرى، فإنه في بعض المناطق تراجع نطاق استخدام لغة البانتو وذلك في الألف الثانية من عصرنا هذا. وقد حدث هذا في اجزاء من الساحل والاقليم المتاخم له في جنوب الصومال وشمال شرق كينيا، ومرة ثانية في الأقاليم التي تم فيها توسع اللو في وسط وشرق أوغندا، وعلى الضفاف الكينية لبحيرة فكتوريا. هذه التحركات والعمليات الاستيعابية هي شديدة الأهمية بالنسبة للتاريخ المتأخر لهذه المناطق، وسوف تتم مناقشتها بقدر أكبر من التفصيل في المجلدات اللاحقة. ولكن هذه تكيفات صغيرة الحجم نسبياً. والشيء الأكثر اهمية هنا هو ملاحظة أن العناصر الرئيسية للخريطة اللغوية والتقاليد الثقافية الوليدة في افريقيا الشرقية كان قد تم تكوينها. فقد توقف توسع البانتو وتم تحديد الحد الشمالي لانتشار البانتو في افريقيا الشرقية بصورة تقريبية منذ ألف وخمسمائة عام. وعلى طول ذلك الخط المرن غير المنتظم احتوى نفوذ البانتو بواسطة الارساء السابق لنظم ثقافية واقتصادية متينة وقابلة للتكيف بشكل كاف. الا أن الوضع كان غير ذلك على ضفاف بحيرة فكتوريا والى الجنوب منها.

كانت المجتمعات البشرية التي تعيش على ضفاف بحيرة فكتوريا والأنهار التي تحيط بها عشية توسع البانتو كما قلنا من قبل سليلة الجماعات المائية القديمة. وفي وقت لاحق جمعت الى ذلك بعض القنص، وربما كذلك القليل من تربية الماشية، وحتى الزراعة بينما ظلت متميزة عن الرعاة الكوشيين الذين يقطنون المرتفعات التي تقع الى الشرق. ومهما كانت لهؤلاء الناس القدرة أو عدم القدرة على التكيف، فيبدو أنه قد تم استيعابهم سريعاً في مجتمعات البانتو المقيمة. وربما كانت الآثار التي خلفوها آثاراً

هامة، رغماً عن ذلك. ومن المحتمل خاصة أن ضروباً عديدة من أساليب صيد السمك والمعتقدات لدى البانتو على ضفاف وفي جزر بحيرة فكتوريا تأتي من هؤلاء السكان السابقين. ومن المؤكد ان معتقد «موقاسا»، إله البحيرة وخالق العواصف، الذي برضاه يكون الصيد موفقاً، ويغضبه يجلب الكارثة، معتقد قديم قطعاً.

ومن الجدير بالاهتمام كذلك الدرس الذي تقدمه لنا الاكتشافات والتواريخ الأثرية المتراكمة، التي تشير الى ان البانتو الشرقيين قد ركزوا انفسهم وطوروا طريقة حياتهم السافانية حول بحيرة فكتوريا وفي المرتفعات الى اعلى الاخدود الغربي. وهنا في منطقة تهطل فيها امطار غزيرة وتقع قرب حافة الغابة، ربما جربت زراعة السرغوم والدخن فيها لأول مرة (وهي صالحة للانتشار الشاسع في السافانا)، وهنا تم التعرف لأول مرة على تربية الماشية، وهنا تم اعطاء خزف البانتو سماته الخاصة وزخرفته المميزة (بقواعده ذات النقر. . . الخ)،وهنا تم اتقان فن صناعة التعدين، ان لم تكن قد عرفت من قبل. ومن الأشياء ذات المغزى في هذا الصدد، انه في شمال غرب تنزانيا ورواندا واقليم كيفو بزائير الذي تقع فيه الأقاليم الخصبة على طول الحد الشرقي للغابة المطيرة العظمى، تم العثور على مواقد لصهر الحديد صنعت من الآجر، وهي تدل على وجود صناعة شديدة الرقي، غزيرة الانتاج. واذا امكن البرهان على امكانية تمييز مرحلتين لانتشار البانتو الى ما وراء قاعدتهم الغابية الأصلية، فإن هذه المرحلة تكون المرحلة الأولى، او التكوينية، وربما قد بدأت منذ اكثر وليس أقل من ألفي عام[٧].

والى الجنوب، في تنزانيا وما وراءها، كان الوضع الذي واجهه انتشار البانتو في القرون المبكرة والوسيطة من الألف الأولى من هذا العصر اكثر قسوة، ولكنه ربما كان أكثر بساطة. فقد كان البانتو ينطلقون من قاعدة مأهولة في الاقليم الذي يقع في الجزء الغربي من شرق افريقيا، مسلحين بما يلزمهم من الأدوات، والمهارات والبذور ويتوغلون في الغابات ومناطق السافانا التي لم تكن تسكنها وتستغلها سوى اعداد متفرقة من ممارسي القنص والجني الذين ينتمون الى تقليد الدغل. ورغم انه امر قد لا يكون منطقياً فإن تأثيرهؤلاء القناصين على البانتو كان اقل من اثر المجموعات البشرية التي وجدوها في يوغندا وكينيا. ومهما يكن من امر، فإن المرونة والمقدرة على التكيف كانتا ضروريتين في كل منطقة يتم «استعمارها»، وكان ذلك يعتمد على التربة والارتفاع، والأمطار وتوزيعها السنوي[٨]. ومهما أوغل المرء في تلك المناطق فإنه يحمل معه ذلك الاحساس «ببانتويته» ويعني هذا أن يضرب على وجهه في الأرض بصفة مستمرة حاملاً جوالاً من البذور وبعض الأدوات التي ينظف بها الأرض ويزرع بها، وأن يحط الرحال الى حين، بدلاً من ان يقيم في قرى مستديمة. وهذه العملية لن تنتهي بوصول البانتو الى سواحل شبه القارة المقابلة، والى اطراف صحراء كلهاري اذ انه قد تبقى في الأقاليم التي يمر بها اراض شاسعة لا تستثمر، وعليه فإن تزايد السكان كان يمكن ان يستوعب لبعض الوقت دون اللجوء الى وسائل زراعية اكثر كثافة. ولذا فإنه دائماً ما نجد ان الموضوع الأساسي في تاريخ البانتو المحلي، هو ذلك الذي يركز على العشيرة الأقدم، التي جاء مؤسسها ومهد اول مرة تلك القطعة من الأرض التي تعيش عليها العشيرة.

---

(٧) ويجب اجراء المزيد من الدراسات لمعرفة اذا كانت هذه الظاهرة تقتصر على الجانب الشرقي من الغابة أم انها تخص كذلك الجانب الجنوبي الطويل الذي يقع بين بحيرة تنجانيقا ومصب نهر الكنغو. (انظر الفصل الخامس والعشرين).

(٨) في الأقاليم الشمالية وبالقرب من الساحل في إفريقيا الشمالية ربما كان من الممكن أن يكون هناك موسمان زراعيان في الأحوال العادية، أما الى الجنوب من ذلك فربما لم تسمح الأحوال المناخية السائدة الا بموسم واحد.

وأغلب الظن أن الصيادين لم يكونوا يطردون من أرض او يضطهدون بل كانوا يحترمون لمعرفتهم بالأرض ولمهارتهم باستخدام القوس والسهام. سوى انه كلما ازداد الاستيطان اصبح المجال ضيقاً للقنص والجني المنظم كوسيلة كاملة للتعيش والحياة في جماعات بشرية. وتم استيعاب اعداد كبيرة من ممارسي القنص عاجلاً او آجلاً في مجتمع البانتو. الا انهم ربما تم استيعابهم كأفراد، عن طريق الزواج او المزابنة. اذ لم يكن من الميسور لجماعة او قبيلة من الصائدين ان تحدث تغييراً ثقافياً، بأن تتبنى عادات وتقاليد البانتو بصورة جماعية.

وقد امكن للبانتو ان يبسطوا نفوذهم ويحققوا تفوقهم عن طريق الأساليب التكنولوجية الجديدة، والاستثمار السحري للتربة التي اخذت تعطي ثماراً من الغلال(٩) والقدور التي يتم طبخها فيها بطريقة شهية والأدوات ورؤوس السهام الحديدية (التي يمكن المتاجرة فيها مع الصائدين). وهكذا أمكنهم استيعاب الصيادين دون ان يخشوا فقدان ذاتيتهم او ذوبان ثقافتهم. ولم تكن هناك حاجة لاستخدام العلامات الاصطناعية المميزة او المحظورات. لذا فاننا لا نجد لدى البانتو اي نوع واضح من التشويهات الجسدية او المحظورات. ولغتهم الجديدة التي نظموا بها حياتهم تكفي. وكان الاقتصاد كما رأينا مرناً مجارياً للوضع المحلي، وهو ربما يشتمل على القنص وصيد الأسماك او تربية الماشية. وفي الأحوال التي لم تكن فيها هذه ممكنة او كافية للاحتياجات من البروتين، فإن تلك الحاجة كانت فيما يبدو تسد عن طريق تربية الماعز او زراعة بعض الحبوب. ولعل المحصول الرئيسي كان هو السرغوم: الذرة الرفيعة، هذا الافتراض مبني على ملاحظة ان هذه الغلة على تعدد فصائلها تناسب مختلف انواع التربة وهي ملاحظة قديمة وتقليدية في إفريقيا الشرقية وبلاد البانتو بينما تم التعرف في زامبيا على جذور سرغوم متفحمة في الحفريات الأثرية في مستوطنات العصر الحديدي المبكر(١٠).

هذا التفسير لتوسع واستيطان البانتو في افريقيا الشرقية (وفي البلاد التي تقع الى الجنوب والى الغرب) في بداية العصر الحديدي، مبني على تركيبة من الأدلة اللغوية والأثرية، بالاضافة الى اعتبارات اثنوغرافية عامة. والنقطة الواضحة في لغات البانتو العديدة، خاصة تلك التي تستعمل خارج غابة الكنغو، هي علاقتهم المشتركة الوثيقة التي تشير الى انها لم تنفصل عن بعضها وتتمايز الا في عهد قريب، قد يرجع الى ألف أو ألفي عام. والشيء الآخر الذي يتضح من اية دراسة مقارنة تجري على لغات البانتو هو المامها بالحديد وبمهارات صنعه منذ عهود مبكرة. وهذا احد الأسباب التي تدعونا لربط الحفريات الأثرية من العصر الحديدي المبكر، التي ترجع الى الأجزاء الأولى والوسيطة من الألف الأولى من عصرنا، هذا في مناطق عديدة من شرق وجنوب وسط إفريقيا بمستوطنات البانتو. اما السبب الذي يفرض يقيناً اعتبار هذه المواقع خاصة بالبانتو القدامى هو ببساطة ان توزيعها يتطابق بصورة تامة مع مواقع البانتو الحالية. وليس ثمة سبب معقول يدعونا الى ان نضع نظرية تقول ان سكاناً مختلفين تماماً كانوا يقيمون في تلك المنطقة العريضة واختفوا نهائياً منذ فترة لا تزيد على الألف عام.

---

(٩) وكان استنزال المطر ضرورياً ومألوفاً.

(١٠) في بعض الكتابات السابقة دار حديث حول الدور الذي لعبه الموز في انتشار البانتو، والموز محصول جاء الى إفريقيا من جنوب شرق آسيا، ومن غير المحتمل أن يكون قد وصل الى الساحل الشرقي لافريقيا قبل الألف الأول من هذا العصر. وبذا يكون البانتو قد عرفوه بعد نهاية انتشارهم الكبير. والموز بطبيعة الحال تعرفه الجماعات المستقرة فضلاً عن الجماعات «المستعمرة» وفي الأزمنة اللاحقة من تاريخ البانتو أصبحت مزارع الموز ذات أهمية كبيرة في المناطق المطرة التي توجد فيها أعداد كبيرة من المجموعات المستوطنة، لا سيما في المناطق الشمالية والغربية لبحيرة فكتوريا وفي مناطق عديدة من المرتفعات. وقد تم استخدام وتطوير الموز في شرق إفريقيا خلال الألف سنة الأخيرة بصورة ليس لها مثيل في باقي أنحاء العالم. ولم تعرف الأغذية النشوية الأمريكية كالذرة والكسافا في شرق إفريقيا الا حديثاً.

أما الأشياء الأكثر تكراراً وتمييزاً التي تم العثور عليها في مواقع البانتو المبكرة تلك، فليست ادوات حديدية أو أسلحة (اذ ان تلك المواد كانت قيمة لدرجة انهم لم يكونوا يلقونها ولو فعلوا ذلك لتآكلت نهائياً)، بل قطعاً متكسرة من القدور الفخارية، وقد اشرنا اليها فيها سبق ومنذ البدء لم تكن تلك الأدوات الفخارية تتشابه من اقليم الى اخر على الامتداد العريض لأرض البانتو. وما زال الأثريون يتعرفون من حين الى آخر على انواع جديدة منها. وربما كان النوع الأكثر شهرة منها هو المنقرة القاعدة (أوريوا) وهو يوجد على ضفاف بحيرة فكتوريا والى الغرب منها، ويمتد الى الطرف الشمالي من بحيرة تنجانيقا وأرض الغابات التي تقع الى الجنوب من غابات زائير. وبالاضافة الى النقر على قاعدة بعض تلك الأوعية فإن بعضها ذو حافة عريضة وزخارف في شكل مدارج وبعض الأشكال الأخرى. والى الجنوب والشرق من منطقة الفخار ذي القاعدة المنقرة يقع فخار العصر الحديدي المبكر في مجموعتين رئيسيتين. ففي شمال شرق تنزانيا وجنوب شرق كينيا، اي ما وراء النتوء الكوشي نجد فخار كوال، كما يطلق عليه في المنطقة الواقعة بين اطراف المرتفعات نزولاً الى السهل الساحلي وفي الطرف الجنوبي لبحيرة تنجانيقا، وفي البلدان التي تقع الى الجنوب، امكن التعرف على كمية كبيرة من الفخار الاقليمي. (وهي تشمل الفخار الموجود في زامبيا والذي كان يشار اليه باسم المخدد).

اما الشيء الذي لا اختلاف حوله فهو أن لكل هذه الأنواع من الفخار اواصر عائلية، وقد دار نقاش كثير حول ما يمكن استنباطه من ذلك بالنسبة لاتجاهات توسع البانتو. وليست القدور العادية والأكثر تمثيلاً للنوع هي الأكثر دلالة، بل هي القدور الأكثر اختلافاً والتي لها سمات أكثر تبايناً. وعند النظر الى مجموعة من الفخار من العصر الحديدي المبكر، من مواقع متفرقة تقع ما بين خط الاستواء واطراف جنوب افريقيا، فإن الانطباع الأول الذي يتبادر الى الذهن هو ان الفخار الشمالي، خاصة ذا القاع المنقر الذي يأتي من ضفاف وغرب بحيرة فكتوريا، يتميز بالأصالة، التي يقل اثرها كلما اتجهنا الى الجنوب. ويبدو كأنما تعمد صانعو الفخار الشماليون ختم فخارهم بختم البانتو عن وعي، بينما الصناع الجنوبيون الذين ابتعدوا عن الاتجاه العام للتقاليد تصوروا ان فخارهم متميز فعلاً، فأفسحوا المجال للتبسيط التدريجي في الأشكال، والحافات، والأنماط البانتوية الأصيلة. وكان هذا طبيعياً في المناطق التي تبدأ من اواسط تنزانيا وتمتد جنوباً حيث يبدو ان صناعة الفخار كانت فناً جديداً أدخله البانتو الوافدون. وكان يبدو على الفور على أية آنية في تلك المنطقة انها تنتمي الى البانتو. اما في مرتفعات كينيا وعلى ضفاف بحيرة فكتوريا فإن اناساً آخرين كانوا يصنعون فخارهم منذ امد بعيد. لذا فان فخار كوالي في الشرق، رغماً عن انه ربما كان اقل اصالة عن الفخار ذي القاع المنقر، كان في حاجة الى ان يحمل ويبرز سمات فخار البانتو. وفي واقع الحال، فإنه في بعض المناطق في شمال شرق تنزانيا حيث تلتقي التلال المكسوة بالأشجار بالسهول العارية، نجد جنباً الى جنب فخار كوالي، وفخاراً آخر من نفس الفترة يختلف عنه اختلافاً تاماً. أترى كان هذا هو المكان الذي التقى فيه الكوشيون والبانتو؟

ولا يمكن رسم خريطة مفصلة لتوسع البانتو استناداً الى دليل صناعة الفخار هذا، خاصة وان هنالك مناطق لا نكاد نعرف عنها شيئاً من الناحية الأثرية وتشتمل هذه على جنوب تنزانيا وموزمبيق. ومهما يكن من أمر فإن الصورة التي تتضح لنا هي صورة انتشاره خلال مناطق السافانا ابتداء من مركز يقع في مكان ما الى الغرب من بحيرة فكتوريا على مقربة من حافة الغابة. وترسم احدث الدراسات التي اجريت على العلاقات اللغوية لدى البانتو الحاليين الذين يقطنون خارج الغابة نمطاً مماثلاً في جوهره عن تطورهم وانتشارهم التاريخي خارج الغابة. ويبدو بصورة مؤكدة، انه اينما تم التوغل بصورة موفقة الى خارج الغابة، سواء أكان ذلك من ناحيتها الجنوبية او الشرقية فإن الحركة الأولى

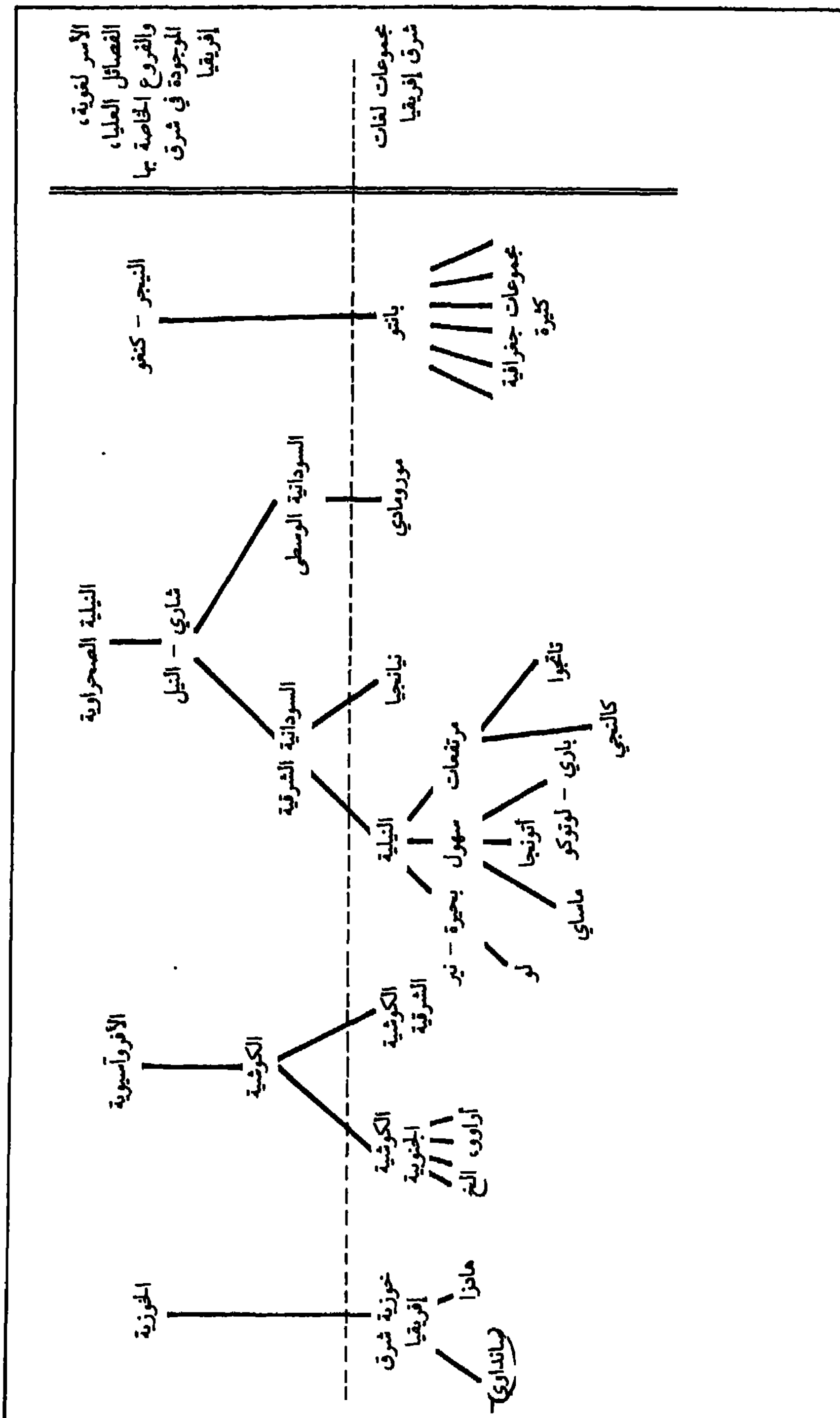
كانت الانتشار حول حافتها في أحد أو كلا الاتجاهين، والى داخل الاقليم الرطب الذي يحيط ببحيرة فكتوريا. ثم جاءت بعد ذلك الحركة الأكثر جرأة ناحية الجنوب والجنوب الشرقي الى داخل ارض السافانا الشاسعة.

ولعل الاقليم المحيط بالطرف الجنوبي لبحيرة تنجانيقا، او الممر الذي يقع بينه وبين بحيرة نياسا كان بمثابة مركز الانتشار الثانوي للبانتو الجنوبيين والبانتو الجنوبيين الشرقيين، أي لصانعي فخار كوالي، غير ان اعادة تكوين تاريخ هذا الاقليم الأخير بصورة مفيدة، يجب ان تنتظر المعلومات عما كان يجري في جنوب تنزانيا خلال الألف الأولى من هذا العصر. وتقول احدى النظريات في هذا الصدد بأن المتحدثين باللغة الكوشية قد توسعوا عبر الحزام الأوسط لتنزانيا من المرتفعات الشمالية الى المرتفعات الجنوبية.

ومهنة صناعة الفخار مهنة تنفرد بها النساء عند البانتو الحاليين في إفريقيا الشرقية. الا أن الآثار الاثنوغرافية في البلدان التي تقع الى الغرب والى الجنوب تشير الى ان صناعة الفخار عند البانتو نشرها الصناع من الرجال الذين يرافقون الجماعات المستعمرة، وهذا افتراض جريء، لكن يمكن استنباطه من الدلائل الأثرية والاثنوغرافية التي قام بجمعها د. و. فيليبسون في زامبيا[١١]. وفي هذه الحالة فإن الاحتمال الوارد هو ارتباطه الوثيق بالصناعة الأخرى الهامة لدى البانتو اي سبك خام الحديد وحدادة الأدوات الحديدية. ولم يكن من الممكن ان يكتب النجاح لمستوطنة جديدة ان لم يكن فيها اخصّائيون في صناعة الفخار وأعمال الحدادة. لكن من المحتمل انه قد كان هنالك ضرب من ضروب التجارة، مهما كان ذلك ضئيلاً في تلك المرحلة المبكرة. اذ ان خام الحديد رغماً عن انه لم يكن نادراً في حقيقة الأمر، الا انه ليس متوفراً في كل مكان، ذلك مع قلة الموارد الغنية حقاً. وربما اثر هذا التوزيع على طريقة استيطان البانتو الأولى. وقد اشرنا مسبقاً الى استغلال الخامات الجيدة وأفران السبك المتطورة في رواندا والجزء المتاخم لها في تنزانيا وربما تعكس المواقع الأثرية المبكرة في والى الجنوب من تلال بار في شمال شرق تنزانيا اهتماماً في وجود خام الحديد بكثرة في تلك المنطقة. وعلى مقربة من تلك المنطقة، في سفوح كلمنجارو حيث لم يعرف خام الحديد، توجد المزيد من المواقع الأثرية لتلك الفترة وربما كان النمط الحالي للتجارة، الذي يتمثل في الاتجار بقضبان من الحديد (والقدور كذلك) من بار الى كلمنجارو في مقابل الطعام والماشية يرجع الى ألف وخمسمائة سنة. ومهما يكن من أمر فإنه يجب الا نتصور ان جماعات البانتو المستقرة الأولى كانت تباشر التجارة باحجام كبيرة وفي مناطق بعيدة. فقد كان التركيز على الاستيطان والاعاشة. ولم تظهر علامات التطور التجاري الا في العهد الأوسط من تاريخ البانتو، اي منذ حوالى الف عام. اما فيما يخص الفترة المبكرة فانه حتى المواقع التي اكتشف فيها فخار كوالي والتي يقع بعضها على مقربة من المحيط الهندي، لم تظهر فيها أشياء مجلوبة من الساحل او من البلاد الأخرى.

وربما كان الملح هو الآخر من الضروريات المنزلية لتلك المجموعات الزراعية وكان يتم الحصول في الأزمنة القريبة على تلك السلعة من إفريقيا الشرقية بوسائل عدة. وتشتمل هذه على حرق بعض الأخشاب والأقصاب التي تمتص الملح من التربة. ثم يذوب الرماد في الماء ويصفى المحلول المالح الناتج ثم يبخر وتستعمل نفس أساليب الاستخلاص للتربة المالحة في بعض المناطق. ويتم الحصول على الصودا اللازمة لطبخ بعض الخضروات العسيرة الطبخ بوسائل مماثلة. وانتاجية هذه الوسائل عادة

(١١) انظر مجلة التاريخ الافريقي، العدد رقم ١٥ (١٩٧٤)، ص ١ - ٢٥. خاصة ص ١١ - ١٢.



شكل ٢: مجموعات لغات شرق إفريقيا وعلاقاتها

ما تكون منخفضة ونوعية الملح الذي تنتجه رديئة. وفي بعض الأقاليم لم تكن تمارس حتى هذه الأساليب، لذا فانها كانت تجلب الملح من أقاليم اخرى عن طريق التجارة. ومن هنا جاءت اهمية المصادر الغنية بالملح التي توجد في مناطق عديدة في إفريقيا الشرقية في شكل تربة مالحة شديدة التركيز، وينابيع مالحة وبحيرات الاخدود المعدنية. ومن كل هذا نعلم الآن ان ينابيع يوفينزا المالحة في غرب تنزانيا هي الوحيدة التي كانت تستثمر خلال العصر الحديدي المبكر. ولم تكشف الدراسات التي اجريت على بعض المصادر المالحة الأخرى مثل كيبيرو بالقرب من بحيرة البرت في أوغندا وايفونا في جنوب غرب تنزانيا عن اية ادلة تنبيء عن استغلالها ما قبل الألف الحالية. لكن ربما يسفر المزيد من البحث والدراسات في مثل تلك المواقع وخاصة في بحيرات كاسيني وكاتوي المالحة في جنوب غرب أوغندا عن المزيد من المعلومات عن تلك الفترة المبكرة. أما البانتو الشرقيون، فيمكن الجزم بأنهم كانوا يجلبون الملح من الخلجان الساحلية.

النيليون: التكيف والتنوع

الى جانب البانتو هنالك مجموعة لغوية أخرى - أو بالأحرى - سلسلة من المجموعات اللغوية التي توجد بينها صلة بعيدة - كانت تحتل غالبية أجزاء إفريقيا الشرقية خلال العصر الحديدي. هؤلاء هم النيليون وبينما نجد ان سماتهم البدنية تختلف في بعض التفاصيل العامة عن سمات البانتو فإن هؤلاء النيليين زنجيون بشكل واضح جداً. ومهما يكن من أمر فإنه من الصحيح ان اولئك الناطقين باللغات النيلية الذين توغلوا الى الشرق والى الجنوب الى داخل المنطقة الكوشية القديمة في كينيا وشمال تنزانيا، قد استوعبوا بعض المجموعات الأثيوبية السابقة، وهذا يفسر وجود الملامح الزنجية لدى الايتونجا والماساي والكالينجيين والتاتوجا الحاليين. وهذه الجماعات كانت تصنف فيما مضى على أنها من النيليين الحاميين ويتضح نسلهم الكوشي الجزئي بالاضافة الى ذلك - بعدة طرق في تلك الجماعات المختلفة - في تراثهم الثقافي. ويشتمل هذا على بعض الاستعارات اللغوية من الألسن الكوشية. ولكن لغاتهم أساساً نيلية(١٢).

ولا نعرف شيئاً ملموساً عن التاريخ المبكر للنيليين. ومهما يكن من أمر فإن توزيع شعبهم الثلاث والعلاقات الداخلية فيما بينها تشير الى أن أرض الحشائش المنخفضة والضفاف المائية لحوض نهر النيل الأعلى هي موطنهم الأصلي. ويمكننا ان نفترض ان بروزهم كالمجموعة الطاغية في الشق السوداني الشرقي للعائلة اللغوية الشارية - النيلية، وانتشارهم الدوري السريع، ان لم نقل المنهمر في اتجاهات عديدة ينتجان عن تبنيهم لتربية الماشية في ذلك الجزء من الاقليم المائي القديم منذ فترة ترجع الى ثلاثة آلاف عام أو ما يقرب من ذلك. وربما حصلوا على الماشية اما من الكوشيين في المرتفعات الأثيوبية الى الشرق أو من أناس يعيشون على ضفاف نهر النيل الأسفل وهذا هو الاحتمال الأكثر قوة. فهنا في حوض النيل الأبيض بقي صيد الأسماك في رواج جنباً الى جنب مع تربية الماشية بالاضافة الى تطوير

(١٢) ان الاستعمال الأصلي لكلمة نيلي كان طبعاً استعمالاً جغرافياً من «نهر النيل»، الا أن استعمالها هنا وفي الكتابات التاريخية عموماً في وقتنا الحاضر يشير الى مجموعة لغات تعرف بمقاييس لغوية صارمة، بصرف النظر عن الموقع. انظر الخريطة المرفقة.

زراعة الغلال. ولا زالت المجموعات الحالية التي تقيم على طوال النيل الأبيض وروافده تزاول هذا الاستغلال الاقتصادي الثلاثي للبيئة.

ان تقسيم اللغات النيلية - الى لغات المرتفعات والأنهار والبحيرات والسهول[١٣] تقسيم عميق ضارب في القدم (أقدم من التقسيم الذي يقابله لدى البانتو على سبيل المثال). وبينما نجد أنه من غير الممكن تحديد تاريخ صحيح لانقسام اللغة النيلية الأم، فإن هذا الانقسام لا يمكن أن يكون قد حدث منذ أقل من ألفي عام، ومن الممكن ان يكون قد حدث في مكان ما جنوبي السودان وربما ناحية الحدود الأثيوبية. ومن هذه المنطقة العامة انتقل ممثلو الأقسام الثلاثة الى الأجزاء الشمالية أو حتى الوسطى في شرقي إفريقيا خلال الألفي عام الأخيرة. الا أن انتشار نيليي السهول (لا سيا مجموعة الأيتونجا في شرق أوغندا وشمال غرب كينيا، والماساي في كينيا شمال تنزانيا) ونيليي الأنهار والبحيرات (اللاو) في أوغندا وعلى الضفاف الكينية للبحيرة) ينتمي الى الألف الحالية، وعليه فهي من اختصاص الأجزاء التالية لهذا التاريخ. واهتمامنا سينصب في هذا الجزء على ذلك القسم الذي يسمى باسم نيليي المرتفعات، الذي يمثله الآن الكالينجيون الذين يقطنون المرتفعات الغربية بكينيا، والتاتوقا الذين استوطنوا «في» أرض الحشائش في شمال تنزانيا.

ولا زلنا لا نعرف نيليي المرتفعات الأوائل من الناحية الأثرية، الا أن توزيعهم الحالي والمقارنة اللغوية الداخلية يشيران الى أنه لا بد أن يكونوا قد استوطنوا في كينيا منذ حوالى ألف عام. ومن المحتمل أن يكون ظهورهم كجماعة لها ذاتيتها وثقافتها ولغتها قد بدأ عند مجيء الحديد الى حوض النيل والمناطق المتاخمة لأثيوبيا ومن الممكن ان يكون التعرف على الحديد وفنون صناعته في تلك المناطق وفي المنطقة الكوشية قد اتى من الشمال[١٤]. وبذا يكون مستقلاً عن تبنيه بواسطة البانتو المبكرين، الذين صاحبت صناعة الحديد انتشارهم في الأجزاء الغربية والجنوبية من إفريقيا كما أسلفنا.

ومهما يكن تفسير نجاح نيليي المرتفعات المبكرين في الألف الأولى من هذا العصر فإنهم قد استولوا على اجزاء كبيرة الا انها بالتأكيد ليست كل الأخدود والمرتفعات والسهول المتاخمة له التي كانت جزءاً من أرض الكوشيين فيما مضى. وقد كانت تلك العملية عملية استيعاب وعملية غزو وطرد في ذلك الوقت ومن المحتمل انها قد استمرت في الألف الثانية أيضاً. وقد كان أولئك النيليون يرعون الأبقار ويزرعون الغلال بالفعل ورغماً عن ذلك فإنهم بلا شك قد تعلموا الكثير من الكوشيين عن كيفية مزاولة هذه الأنشطة بنجاح كبير في بيئتهم الجديدة أي بيئة المرتفعات. ونظامهم الاجتماعي الذي يقوم على تداول فصائل الأعمار، ويبدو انه مزيج من العناصر النيلية والكوشية، بينما عادة الخفاض كعلامة للترشيد داخل «مجموعة عمرية» معينة، هي عادة كوشية بالتحديد وعزوفهم عن أكل الأسماك هو الآخر كوشي. ان المرء بتسلقه للمرتفعات مع ماشيته قد أدار ظهره للبحيرات والمستنقعات والأنهار التي تقع الى الغرب.

لقد بقي معظم النيليين في حوض نهر النيل، وفي جنوب السودان على وجه الخصوص. وهنا لم يكونوا معرضين بصورة مباشرة للأثر الكوشي، وجمعوا بين تربية الماشية وزراعة الغلال وصيد

(١٣) تلك هي المصطلحات المستخدمة في كتاب ب. أ. أوجوت و ج. أ. كيران. وهي تتفق مع تقسيمات جرينبرج الى نيلية «جنوبية» و«غربية» و«شرقية» على التوالي. انظر قائمة المراجع.

(١٤) عرف الحديد في شمال اثيوبيا وفي النيل الأوسط في الألف الأولى الميلادية. وتشير الدراسات التاريخية الى أن الأدوات الحديدية كانت تستورد من الساحل الشرقي لافريقيا في القرون الأولى الميلادية. (انظر الفصل الثاني والعشرين). الا أنه ليس هنالك ما يدل على أن مهارات استخدام الحديد عرفت من مصادر خارجية أو أنها قد نقلت الى داخل القارة.

الأسماك، غير أن تقسيم السهول قد تفرع في نهاية الأمر الى شعب رئيسية ثلاث، ومن المفيد أن نتابع مدى تكييفاتها الثقافية والبيئية من الشمال الغربي الى الجنوب الشرقي. لقد كانت هناك حياة نيلية نموذجية بين مجموعة الباري - لوتوكو في جنوب السودان وحدود أوغندا الجنوبية. وفي التلال الجافة نسبياً بين شمال أوغندا وكينيا، التي ترعى فيها جماعات الأيتونجا (كاراموجو وتوركانا وتيسو. . الخ)، نلاحظ أن صيد الأسماك لا يزاول كثيراً، وربما يكون السبب في ذلك ندرة الأسماك او الحظر الحضاري. والى ما وراء منطقة الأيتونجا انتشر الماساي، الذين يمثلون الشعبة الثالثة لنيليي السهول في جزء كبير جداً من مرتفعات وهضاب كينيا وتنزانيا الشمالية المغطاة بالحشائش. وهناك وفي القرون المتأخرة استوعبوا وتأثروا تأثراً كبيراً بنيليي المرتفعات الذين سبقوهم في الاستيطان في تلك الأرجاء كما تأثروا، بصورة مباشرة أوغير مباشرة بالكوشيين الجنوبيين. وتبنوا، ليس تحريم الأسماك فحسب، بل الختان كذلك. وفي تلك المراعي الغنية، نجحت الأجزاء الوسيطة من الماساي مؤخراً في الوصول بالتقليد الرعوي الى منتهاه.

وليست تلك هي كل الأمثلة التي يمكن أن تساق للتوسع في الاستيعاب النيلي الذي يبدو عشوائياً في أحيان كثيرة - استيعاب بعض الشعب الصغيرة النيلية الأخرى، استيعاب غير النيليين في آن واحد، وعمليات التوسّع تتطلب في أحيان كثيرة تكيفاً بيئياً وثقافياً. ان التفاعل الذي حدث في جنوب السودان وفي شمال أوغندا وشرقها خلال الألف الحالية، وربما كذلك خلال الألف السابقة، بين بعض فروع نيليي السهول ونيليي البحيرات والأنهار قد كان معقداً كتعقيد تلك الامتزاجات التي أشرنا اليها بين النيليين والكوشيين، وبين النيليين القدماء والنيليين الجدد بمرتفعات كينيا وشمال تنزانيا. وقد غطت الدراسات التاريخية بصورة أفضل الضغوط التي مارسها اللاو، وهي فرع من فروع نيليي الأنهار والبحيرات على البانتو الشماليين في أوغندا وعلى الضفاف الكينية للبحيرة خلال القرون الستة أو السبعة الأخيرة. وقد أعير اهتمام أقل لمجموعتين غير نيليتين أخريين احداهما في شمال شرق أوغندا والثانية في شمال غرب أوغندا والبلاد المتاخمة، يعيشان الآن في منطقة محصورة الا أنهما كانتا منتشرتين ومهمتين أكثر من ذلك بكثير منذ ألف عام أو أكثر.

وتتكون أولاهما من الناطقين بلغة النيانجيا (الذين يشتملون على التيبيث والتوسو أو ايك الحاليين)، الذين يمارس بعضهم القنص والبعض الآخر الزراعة المكثفة في الجبال المعزولة بالقرب من الحدود الشمالية الشرقية لأوغندا. ومن المؤكد أن ذلك الاقليم كان إقليم تنوع ثقافي، ويعتقد أن بعض أساليب صنع الأدوات في العصر الحديدي المتأخر قد ظل يزاول فيه بين المجموعات التي تسكن التلال حتى حلول الألف الحالي. ويباشر الرعي في المناطق المحيطة، التي يغلب عليها الجفاف، نيليو السهول من الأيتونجا الذين أسهموا في حصر واستيعاب هؤلاء النيانجيا مثلهم في ذلك المجموعات النيلية الأخرى التي سبقتهم. ومن المحتمل أن تكون للغة النيانجيا صلة بعيدة باللغة النيلية (بالفرع السوداني الشرقي من العائلة الشارية - النيلية)[١٥] وربما كان النيانجيا يتكونون قبل التحركات النيلية من مجموعات زراعية ورعوية تعيش في جزء من المنطقة التي تقع بين المنطقة الكوشية الى الشرق، والمنطقة التي كانت تعيش فيها المجموعات المائية للنيل الأعلى.

---

(١٥) لقد دار جدل «حول هذا التصنيف» وكان أحد الآراء في ذلك أن للنيانجيا صلات بالعائلة الافريقية الآسيوية العليا (التي ينتمي اليها الكوشيون وغيرهم).

وربما يكون هؤلاء الممثلون المتأخرون للتقليد المائي القديم المتداعي، كما أسلفنا، ينتمون الى المجموعة اللغوية السودانية الوسيطة (وهي شق منفصل من العائلة اللغوية الشارية - النيلية). والمجموعة السودانية الوسيطة في أيامنا هذه وهي شبه عائلة لغوية تتكون من جماعات صغيرة متفرقة حول الطرف الشمالي الشرقي للغابة الاستوائية. واحدى هذه الجماعات (ما يسمى بالمورو - مادي) تتدفق عبر حدود أوغندا الشمالية الغربية. ومن المحتمل أنه قبل إنتشار البانتو الى داخل أوغندا الوسطى منذ حوالى ألفي عام، والتحركات النيلية من الشمال والشمال الشرقي، كان مثل هؤلاء المتحدثين باللغة السودانية الوسيطة أكثر انتشاراً في حوض النيل الأعلى وعلى ضفاف بحيرة فكتوريا، وبعض الأسس الحضارية لتلك المنطقة الآهلة جداً بالسكان في إفريقيا الشرقية أكثر قدماً من لغات البانتو و«اللاو» الحالية.

مشكلة الأحجار الجافة «المجاليثية» في إفريقيا الشرقية

في الكتابات القديمة عن شرق إفريقيا وتاريخها كان هنالك حديث كثيرعن حضارات متقدمة قامت في العهود القديمة. وقد حدد مكان نشأتها بمنطقة البحيرات، وعلى وجه الخصوص في مرتفعات كينيا وشمال تنزانيا (مما يثير الاهتمام أن هذه هي المنطقة الكوشية القديمة). وقد أسست تلك الآراء التاريخية على مزيج من السمات العرقية والأدلة الشفاهية المجموعة بطريقة غير علمية، والملاحظات الأثرية، وهذه الأخيرة تتكون من نقض بعض الأعمال الهندسية وبقايا المباني والمصاطب المبنية من الحجر الجاف (وهو المجاليث). ولسوء الحظ فإن العديد من الأدلة الأولية لم تدون بدقة، أوحتى عندما تم تدوينها بدقة، فسرت بطريقة غير منطقية أو قرنت بمادة لا صلة لها بها لارضاء النظرات التاريخية الخيالية التي كانت سائدة في ذلك الوقت، وعلى وجه الخصوص الأفكار الحامية الشهيرة. وقد تلقف هذا الاتجاه بتلهف شديد بعض الكتاب الثانويين، الذين قبلوا تلك الأدلة الأولية من غير أن ينظروا اليها نظرة نقدية، بل وفي بعض الحالات ضخموا هذه الأدلة وهولوها بصورة غير مسؤولة. وعلى نفس المستوى من المجافاة للمنطق كان الافتراض الذي ينسب السمات الأثرية المختلفة المنتشرة في منطقة من المناطق، سواء كانت أصيلة أو غير أصيلة، وسواء احتوت أم لم تحتو على أعمال حجرية، الى مجموعة واحدة من البشر أو الى ثقافة واحدة في زمن من الأزمنة الماضية. وهذا الافتراض يدعم نظرية هنتينغنورد التي تزعم وجود حضارة ازانية في كينيا وشمال تنزانيا، نسبها للحاميين، وبنفس القدر نظرية ميردوخ عن الكوشيين المغليثيين الذين يزعم أنهم قد سكنوا نفس الاقليم الكبير في وقت ما. (وبهذه المناسبة فإن ميردوخ كان مناهضاً للأفكار الحامية المسبقة التي تبناها الكتاب السابقون).

لهذا فكلمة مجاليثي كلمة مبالغ فيها ولا تخدم غرضاً ثقافياً أو تاريخياً في إفريقيا الشرقية. ومهما يكن من أمر فإنه من المفيد ان نعلق باختصار على السمات والملامح التي سيقت للتدليل على وجود ثقافات ميجاليثية قديمة، وليست تلك الملامح كلها مبانٍ من الحجر. في هذا الفصل تحدثنا عن ركام (أو أكوام من الحجر) كانت بمثابة قبور، كثيراً ما يشاهدها المرء في مراعي كينيا وشمال تنزانيا. وكثير منها، ان لم تكن أكثريتها يرجع الى العصر الحجري المتأخر أي الى ما بين اثنين او ثلاثة آلاف عام ومن المحتمل أن تكون من صنع الجماعات الناطقة باللغة الكوشية. ولكن ربما تكون بعضها أكثر حداثة، ومن الممكن ولكن ليس من المؤكد ان بعض الآبار المنحوتة في الصخر التي توجد في المراعي الجافة في بلاد الماساي

الجنوبية في تنزانيا وكذلك شرق كينيا وشمالها تعود هي الأخرى الى تلك الفترة ذاتها، عندما أدخلت فيها الماشية. وربما تعود كذلك الى تلك الفترة ذاتها ما تسمى بالطرق القديمة في المرتفعات، التي في الواقع ليست أكثر من مواطىء الأبقار، عراها مرور القطعان المتواصل عبر حافات الجبال وسفوحها الى مواضع الماء خلال فترات طويلة من الزمن. والعديد من هذه الممرات ما زال يجري توسيعه، وهناك اخرى جديدة بدأ انشاؤها. والاحتمال قليل في أن تمتد الى تلك المناطق الممارسات الزراعية المروية التي تزاول على وتحت العديد من المنحدرات وكتل الجبال في شمال تنزانيا وكينيا. ومن الناحية الأخرى فإنه من الممكن الاستدلال على أن يرجع تاريخها الى عدة قرون على الأقل في بعض المواقع. ورغماً عما كتب، فإن الزراعة على مصاطب على حافات الجبال، شديدة الندرة، وقليلة الأهمية بالنسبة للدليل التأريخي. ولم تكن هذه تبنى الا في بعض الحالات الخاصة والنادرة. وبعض الكتابات تتحدث عن أبنية من ذات الحجر الواحد والقضبان الحجرية في المناطق الداخلية من شرق إفريقيا: وانه لمن المستبعد جداً أن يكون أي شيء من هذا القبيل قد انتصب في فلك المكان في أي وقت.

الا أن هناك بعض الأشياء الأخرى القليلة عن المسألة المجاليثية في شرق إفريقيا، أكثر من ذلك، فالمرء يقرأ عن بيوت وحظائر من الحجر، وحفر تستخدم كمساكن. وزغم انه قد حدث بعض الوصف والتفسير الخاطىء في هذه الحالة كذلك فإن هنالك بعض الحقائق الأثرية التي تجب مواجهتها. والعناصر المشار اليها تتكون من أنواع من الجدران والكساءات الجدارية المصنوعة من الحجر الجاف، وهي تقع في منطقتين منفصلتين. ومن الناحية الثقافية كذلك نجد أن هذين المجمعين كانا منفصلين عن بعضهما البعض، رغماً عن أن الشيء المثير للاهتمام هو أنهما عاصرا بعضهما البعض وهما ينتميان الى نفس الحقبة من الزمان على وجه التقريب، اذ أن كلا منهما ينتمي الى القرون الوسيطة للألف الحالي (أي خارج نطاق الفترة التي يغطيها هذا الجزء).

يشتمل أول هذين المجمعين على ما يسمى بحفرات سيريكوا التي توجد بأعداد كبيرة في كافة أرجاء المرتفعات الغربية بكينيا. وهذه تمثل حظائر غائرة ومحمية كانت تستخدمها مجموعات الكالينجيين المبكرين لقطعانها: ولم تكن تلك مساكن غائرة، كما كان الاعتقاد السائد، فقد كانت المساكن ملتصقة بتلك الحظائر، وكانت مبنية من الأخشاب والسيقان، وليس من الحجر. وفي واقع الأمر، حتى الحظائر كانت عادة ما تكون خالية من الحجارة، اذ انها كانت تسور بالتراب والسياج: سوى أنه في الأماكن الحجرية كانت الألواح والقلاعات تستخدم لكسوة حيطان الحظائر والمداخل. وهذه الملاحظة تدل بصورة فعلية على الكيفية التي يمكن ان يعزى بها وجود اوغياب الأعمال الحجرية لأسباب بيئية، بنفس القدر الذي يمكن أن يعزى بها لأسباب حضارية.

والمجمع الثاني يقع هو الآخر على الجانب الغربي للأخدود العظيم، ولكن على مسافة ما الى الجنوب وراء الحدود التنزانية. ويتكون من عدة مواقع أهمها وأشهرها انقاروكا(١٦) – تقع على مقربة من الأنهار الصالحة للري لدن سفح مرتفعات كريتر. وفي ذلك الموضع كانت الأعمال الحجرية تستخدم لعدة أغراض منها أنواع مختلفة من الأعمال الدفاعية، لا سيما حيطان الحظائر والقرى. وفي تلك القرى المتراصة، المبنية على صفحة الجبل، كان كل بيت يقف بصورة جميلة على مصاطب حظيرية مكسوة بالحجارة ويمكن الدخول اليه عبر ممر على الحافة مكسو بالحجارة. ولم تكن المساكن ذاتها تبنى من الحجارة، بل من الأخشاب والعروق. ومما يلفت النظر في انقاروكا استخدام الحجارة لكساء جوانب

(١٦) عن التقويم الحالي للانقاروكا والمواقع المتعلقة بها، انظر مقالات ن. تشيتك، وج.أ.غ سوتون ١٩٧٦.

المئات من جداول الري، ولفصل وتسوية آلاف الحقول التي تغطي مساحة تبلغ عشرين كيلومتراً مربعاً.

ولم يتم بعد تحديد ماهية سكان اينقاروكا أو انتمائهم اللغوي بصورة نهائية. اذ انها كانت مجموعة تم تشتيتها واستيعابها في جماعات صغيرة منذ حوالى مائتي عام. ورغماً عن النوعية الممتازة والحجم الكبير للأعمال الحجرية الجافة، فإنه يبدو ان الناس الذين عاشوا وزرعوا هناك قد عاشوا في ركود وعزلة نسبية، لأنهم اضطروا لممارسة الاستغلال المكثف لموارد تربتهم ومصادر مياههم في مناطق محصورة. وكانت طريقة حياتهم طريقة تخصصت في مجال واحد لدرجة أنها فقدت قدرتها على التكيف.

هذه إذن هي الاجابة على المؤرخين ذوي الميول الرومانسية الذين أرادوا أن يصنعوا من اينقاروكا شيئاً هاماً وكبيراً. فهي لا يمكن أن تستخدم لسند نظريات تدور حول حضارات مغليثية عريضة. ولا هي كأي مدينة يبلغ عدد سكانها الثلاثين ألف نسمة أو يزيد، كما خمن أحدهم - وكما تردد في عدة كتب. بل هي مجتمع زراعي مكثف بشكل غير مألوف. وهي جديرة بالاهتمام، ولكن في حيزها المحلي، وكمثال على نمو وانهيار حضارة زراعية في ظروف خاصة للغاية. بالاضافة الى ذلك، يبدو الآن جلياً أنها تنتمي الى الألف الثانية من هذا العصر طبقاً للأبحاث واختبارات الاشعاع الكربوني. وقد دحض الآن الرأي الذي تردد في الستينيات بأن هذه البقايا ترجع الى الألف الأول، والذي بُنيَ على اختبار اشعاعي كربوني مبكر غير متوقع، اذ يعتقد الآن أنه تاريخ خاطىء أو على الأقل أنه يمثل الآثار التي تم العثور عليها في تلك المنطقة جميعاً.

الفصل الرابع والعشرون

غرب إفريقيا قبل القرن السابع

بقلم: ب. واي. آنداه

إن التقويم النقدي للمعلومات الأثرية والمعلومات الأخرى المتعلقة لا تعضد الرأي الشائع الذي يقول بأن التأثير الحضاري الخارجي هو المسؤول الرئيسي عن أصل وتطور الطابع المميز لمجتمعات العصر الحجري الحديث «والعصر الحديدي» بغرب إفريقيا. ومن الخطأ أن ندعي أن أفكاراً وأقواماً من الخارج، عادة من الشمال عبر الصحراء، هم الذين روجوا أو ولّدوا اغلب التطورات والتحولات المرتبطة بانتاج الغذاء أو أقدم صناعات الحديد والنحاس. تشير المعلومات بالأحرى الى أن عدة عناصر إقليمية مركبة أو شبه إقليمية أو محلية كانت ذات أهمية متفاوتة وأنه يمكن الى حد تفسير مواقع العصر الحجري الحديث والعصر الحديدي بغرب إفريقيا من خلال مجموعات مواقع متكاملة بقدر ما يمكن مع الحواجز الرئيسية البيئية المؤثرة.

أصول الزراعة وتربية الحيوان

لا يمكن المبالغة في التأكيد بأن الحصول على فهم صحيح لتاريخ استئناس الحيوان والنبات في المناطق المدارية يستدعي اما اعادة نظر جذرية في المفاهيم والكتابات التقليدية (الأوروبية) أو التخلي عنها كلية. ولا بد لنا من اجراء بعض التجارب لمعرفة كم من الزمن استغرقت عملية التوصل للمحاصيل الافريقية الحالية من أصولها البرية المختلفة وأمكنتها البيئية المتعددة. زد على ذلك أن على النشاط الأثري العام يحتاج الى التوسع. ان تعاقب النباتات ودراسات التربة في مواقع ما قبل التاريخ

(وهو ما ظل مهملاً حتى الآن) سوف يلعب دوراً بارزاً في فهم كيف ومتى كان التحول من صيد الحيوانات والجني في غرب إفريقيا خاصة حين ينعدم الدليل المباشر على ذلك.

إن الاستئناس في هذا المقام يعني عملية سحب الحيوان من عملية الاختيار الطبيعي وتوجيه عملية تكاثره وجعله في خدمة الانسان (سواء بعمله أو بانتاجه) والتعديل من صفاته بالتهجين الانتقائي حيث يفقد فيه بعض خواصه القديمة - كما ان فلاحة النباتات هنا يقصد بها الزراعة المتعمدة للدرنات، أو الغلال ورعاية أشجار الثمار والكروم بهدف استثمار بعضها لمصلحة الانسان، أما المصطلحات مثل «زراعة الخضر» أو «زراعة الأشجار» الشائعة في الكتابات فقد استبعدناها لأنها تنطوي على أقصى درجات التفوق في الزراعة وكذلك تعريف الزراعة (كما فعل سبنسر ١٩٦٨)[١]. بالمعنى التكنولوجي للكلمة، بأنها نظم انتاج الغذاء تنطوي على استعمال آلات متقدمة والطاقة الحيوانية أو الآلية ونظم متقدمة لزراعة الغلال ووسائل انتاج مكتملة. وقد وضعنا خطاً تحت بعض الكلمات لتبرز الطبيعة الذاتية لمثل هذا التعريف.

إن دراسات البيئة تشير أولاً الى أن استئناس الحيوان في مناطق السافانا شبه الجرداء المدارية أو ما دونها، أمر وارد الاحتمال (بونسوما ١٩٧٠)[٢]. اذ أن نسبة الهيدروجين في التربة عالية(٧±) وعليه فإن العناصر الجمعية النيتروجين والفوسفور يسهل امتصاصها نسبياً، كما أن المراعي تحتوي على كمية عالية نسبياً من البروتين.

ثانياً وعلى العكس فإن تلك الدراسات تشير الى أن الحيوان المستأنس لم يكن مظهراً أساسياً في انتاج الغذاء في المناطق المدارية الرطبة وذلك لأن نسبة الهيدروجين في التربة وامتصاص النيتروجين والفوسفور والكالسيوم منخفضة بصفة عامة وعليه فإن المرعى غني بالسليولوز والألياف النيئة وبه قيمة حرارية اضافية عالية. وهكذا يصبح انتاج الطاقة الحرارية وتبديدها بوساطة الحيوان مشكلة بالنسبة للماشية في المناطق الرطبة المدارية. وللتوازن الحراري في هذه المناطق تكون الأبقار عادة صغيرة الحجم؛ الشيء الذي يسمح لها بمساحات أوسع لكل وحدة من وزنها ويسهل عملية التخلص من الطاقة الحرارية وحيثما كان الاحتفاظ بالحيوانات المستأنسة اتضح أن مشكلة ارتفاع الحرارة يمكن التغلب عليها بالاحتفاظ بالحيوانات الصغيرة الحجم ذات المقدرة على التأقلم في الظروف المدارية.

ثالثاً تشير الدراسات البيئية الى أن النباتات الحولية التي تزرع في أغلب أجزاء غرب إفريقيا على النقيض تماماً من مثيلاتها في الشرق الأوسط، كانت ولا تزال مهيأة للنمو في موسم مرتفع في درجة الحرارة والرطوبة. ففي الشرق الأوسط خلاف المناطق الباردة والمرتفعة نسبياً، نجد أن المحاصيل تفشل تماماً لعجزها عن مقاومة الأمراض التي تنتشر مع درجة الحرارة العالية، وتشير الدراسات النباتية (بورتير ١٩٥٠، ١٩٥١، ١٩٦٢، دوجيه ١٩٦٥، هافندن، ١٩٧٠)[٣]. الى أن بعض محاصيل الحبوب كالدخن والأرز وبعض الخضروات كالفاصوليا والفول السوداني والدرنات مثل اليام ونخيل الزيت وحب العزيز هي نباتات محلية، وربما كان لها تاريخ طويل في الزراعة في مختلف أجزاء غرب إفريقيا[٤].

(١) ج.ي. سبنسر، ص ٥٠١ - ٥٠٢.
(٢) ج.س. بونساما، ص ١٦٩ - ١٧٢.
(٣) بورترز، ١٩٥٠، ص ٤٨٩ - ٥٠٧، ١٩٥١أ، ص ١٦ - ٢١، ١٩٥١ب، ص ٣٨ - ٤٢، ١٩٦٢، ص ١٩٥-٢١٠، هـ. دوجيه، ص ٥٠ - ٦٩، م. أ. هافندن، ص ٥٣٢ - ٥٥٥.
(٤) انظر المجلد الأول، الفصل الخامس والعشرون.

إن المعلومات المتوفرة من دراسات المخلفات النباتية والحيوانية القديمة وعلم النبات والبيئة وعلوم الأثنوغرافيا والآثار تشير مجتمعة الى أن انتاج الغذاء بدأ بالزراعة (زراعة المحاصيل) ثم الرعي ثم الفلاحة المختلطة، (وهو ائتلاف لتربية الحيوان والزراعة) وعند مستوى معين كانت هذه الطرق المركبة لانتاج الغذاء تتباين حسب أنواع المحاصيل المزروعة، والحيوانات التي تربى والطرق التي تربى بها، ونظم التوطن والنظم الاجتماعية.

وفي الحقيقة تشير المعلومات من علمي الآثار والأثنوغرافيا بغرب إفريقيا الى وجود: أولاً، ممارسة قديمة للرعي في شمال الصحراء الكبرى وشرقها - ثانياً، ممارسة قديمة لزراعة البذور وربما الزراعة في حقول دائمة في الهضاب الصحراوية الوسطى. ثالثاً، ممارسة قديمة للزراعة في شريط الساحل وشمال السافانا بتأثيرات من الشمال والجنوب (ويبدو في هذا المقام أن دلتا النيجر وأطراف مرتفعات فوتاجالون في أعلى حوض السنغال ونهري النيجر وناميبيا والبيئات السودانية بشكل عام كانت مناطق بؤرية لبعض المحاصيل كالأرز والدخن والقمح الغيني؛ رابعاً، مزارع مختلطة وممارسة لرعي الأبقار في وسط الساحل الشرقي وأجزاء من مناطق السافانا الشمالية حيث لعب جفاف الصحراء دوراً هاماً، خامساً، ممارسة زراعة نباتات الجذور والأشجار في اطراف منطقة الغابات الى الجنوب البعيد (الكسند وكورسي)[٥].

إن هذه المجموعات من حضارات العصر الحجري الحديث تتميز بنوعية مختلفة من المصنوعات ومن نوعية المواقع الاستيطانية والأنماط الاجتماعية وطرق استعمال التربة. ففي بعض المناطق (مثل تيماساس والسنغال وباراتومبيان وموريتانيا) التقى وتداخل تراثان وأكثر من هذا النوع.

وبشكل عام نجد أن مجتمعات القنص والرعي في الشمال لها صناعات حجرية ترتكز على الشفرات الحجرية وتحتوي على بعض القطع الحجرية الصغيرة ذات الأشكال الهندسية وعلى رؤوس السهام، مع قليل جداً أو لا شيء من الأدوات، وبعض النحت أو قشور بيض النعام، ومجموعة محدودة من الأنماط الفخارية السهلية. ومن ناحية اخرى نجد ان المجتمعات التي تمارس زراعة الحبوب من أواسط الصحراء وأراضي العشب الشمالية تستعمل آلات حجرية مصقولة، وأدوات مختلفة مصنوعة من الشقف، ومجموعة متنوعة من الفخار بأشكال مميزة الى جانب القليل جداً او لا شيء من رؤوس السهام وكذلك الحال بالنسبة للمجتمعات التي تمارس زراعة الحبوب من أواسط الصحراء وأراضي العشب الشمالية تستعمل آلات حجرية مصقولة، وأدوات مختلفة مصنوعة من الشقف، ومجموعة متنوعة من الفخار بأشكال مميزة الى جانب القليل جداً أو لا شيء من زراعة الجذوريات التي تعيش الى الجنوب تحتوي أيضاً على أدوات مصقولة ولكنها تتميز أساساً بمصنوعات لها قواعد من الشقف تحتوي على أدوات وقواطع من الشقف لها وجهتان. تبدو هذه الخواص التكنولوجية في الوقت الحاضر أيضاً في استعمال المعازق وعصي الحفر في الزراعة وفي طريقة حرث الأرض بعمق مختلف وتهيئتها للزراعة آخذين في الاعتبار نوعية المحصول وطبيعة التربة وموارد المياه المتاحة.

(٥) ج. الكسندر ود.ج. كورسي، ص ١٢٣ - ١٢٩.

مجتمعات الرعاة في العصر الحجري الحديث في الشمال

وجدت مخلفات من الأبقار قصيرة القرون في عين محاقيق في جنوب غربي ليبيا (موري ١٩٦٥) وفي ادرار باغوس عير (كلارك ١٩٧٢)(٦). وتشير التواريخ الى أن استئناس الأبقار قد عرف منذ حوالى عام ٥٥٩٠ق.م. (±٢٠٠) في الموقع السابق وعام ٣٨٣٠ق.م. - ٣٧٩٠ق.م. في الموقع الثاني. وفي عين محاقيق وجدت كذلك بعض مخلفات الماعز. ولا يبدو أن الأبقار ذات القرون القصيرة قد عاشت على النيل قبل الأسرة الحادية عشرة (٢٦٠٠ ق.م) على الرغم من وجود دليل بالنسبة للأبقار طويلة القرون في منطقة كوم أمبو في مصر منذ العصر الجليدي.

إن حقيقة وجود الأبقار ذات القرون القصيرة في أواسط الصحراء قبل ما لا يقل عن الألف والمائتي سنة من ظهورها في وادي النيل يستبعد أي احتمال لمجيئها من مصر او الشرق الأدنى. وليس ثمة دليل بعد أن كانت أصول هذه الأبقار قد جاءت من الصحراء أم من المغرب أم الاثنين معاً، إلا أن قياسات الحوافر التي أجريت على هذه الأبقار من المنطقتين (أ.ب. سميث، ١٩٧٣)(٧) تشير الى أن أحجام تلك الأبقار كان آخذاً في النقصان، وأن حيوانات العصر الجليدي كانت حوافرها أكبر.

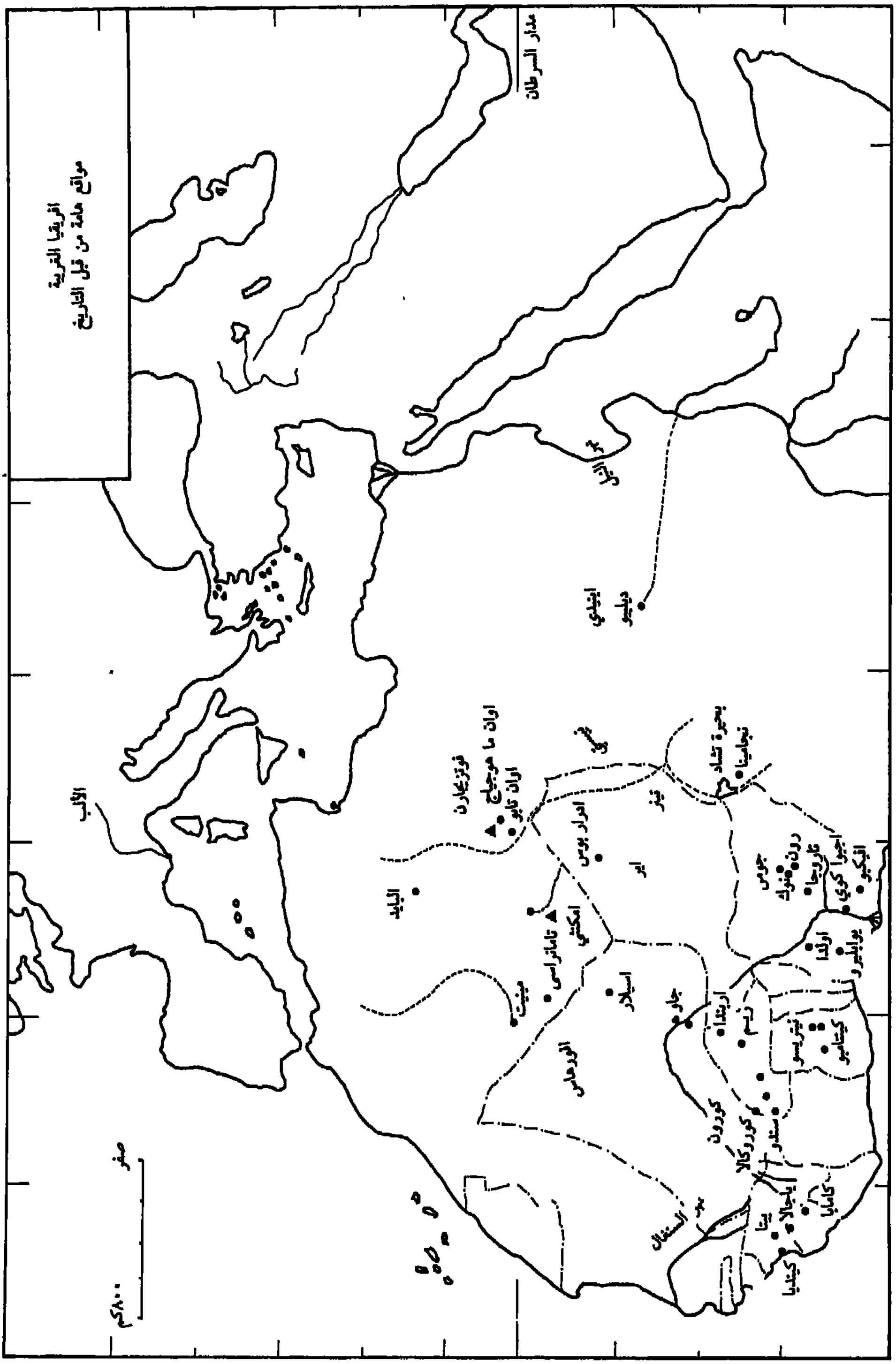
وتشير الدلائل الحضارية على كل الى احتمال وجود مرحلة تحول مبكرة في ليبيا من القنص وجني الثمار الى الرعي في المنطقة الممتدة جنوباً حتى ادرار بوس (تنراين ٤٠٠٠ - ٢٥٠٠) وتشيت في الجنوب الغربي (مرحلة خمية - بعد ١٥٠٠). يبدو أن الرعاة في هذه المناطق قد انحدروا مباشرة من سكان سابقين، كما أن طرق المعيشة الجديدة (خاصة في تشيت) قد جاءت بديلاً أو تكاملت مع حصد الثمار المعروف في العصر الحجري الحديث. ان صح هذا فقد يعني ان مفهوم استئناس الأبقار قد انتقل الى هذه المناطق أو أنهم كانوا على حافة بؤرة استئناس الأبقار. وتشير التواريخ التي استخلصت بالكربون المشع من بعض المواقع التي يقال انها استأنست الغابة الى احتمال وفود الأبقار المستأنسة من قلب الصحراء الى الصحراء الجنوبية ومناطق الساحل في غرب إفريقيا مع وجود صلة ما بجفاف المنطقة الصحراوية.

مجموعات زراعة الحبوب في العصر الحجري الحديث المبكر

مرتفعات وسط الصحراء

تشير مثل هذه الأدلة إلى أن زراعة الحبوب وليس أي شكل آخر من أشكال الزراعة ظهرت من وقت مبكر في وسط الصحراء قبل أي منطقة أخرى الى الجنوب، أقدم الدلائل على هذا الشكل من مظاهر العصر الحجري الحديث يأتي أساساً من مواقع المخابىء الصخرية عند أمكني ومنيت في الهجار. ففي أمكني وجد كامبس(٨) ضمن مخلفات ترجع الى عام ٦١٠٠ و٤٨٥٠ق.م. - نوعين من حبوب اللقاح

(٦) ف. موري، ١٩٦٥، ج.د. كلارك، ١٩٧٢.
(٧) أ.ب. سميث
(٨) ج. كامبس، ١٩٦٩أ، ص ١٨٦ - ١٨٨.


افريقيا الغربية
مواقع هامة من قبل التاريخ
مدار السرطان
نهر النيل
بحيرة تشاد
نهر السنغال
صفر
٨٠٠كم

يمثلان، بسبب الحجم والشكل، نوعاً مستأنساً من الدخن. ومن منيت تعرف بونز وكويزل[٩] على نوعين من حبوب اللقاح من طبقة يرجع تاريخها الى عام ٣٦٠٠ق.م. يعتقد أنها تنتمي الى نوع مستأنس من البذور. ويرى هوجو[١٠] أنها تنتمي للقمح.

وثمة إشارات أخرى وإن كان يصعب الجزم بها كدليل على زراعة الحبوب والمحاصيل تتمثل في نقش على جدار مخبأ صخري في صفار في منطقة تسيلي مؤرخ له بالكربون المشع بعام ٣١٠٠ق.م. ويبدو أن الرسوم في هذا المخبأ[١١] تصور عمليات الزراعة. كما أن الدلائل اللغوية تشير الى استئناس قديم للسرغوم في أواسط الصحراء[١٢]. والى جانب استيطان انسان ما قبل التاريخ للمخابىء الصخرية في هذه المناطق فقد قطن أيضاً القرى الكبيرة نسبياً على سفوح التلال وأطراف المنحدرات المطلة على البحيرات والأودية[١٣]. واستعمل صناعة غنية بالآلات الحجرية المصقولة والفؤوس وأحجار الرحى والطحين، والأحجار المنقرة وأحجار الصقل وأعمال الفخار وأدوات من الشقف.

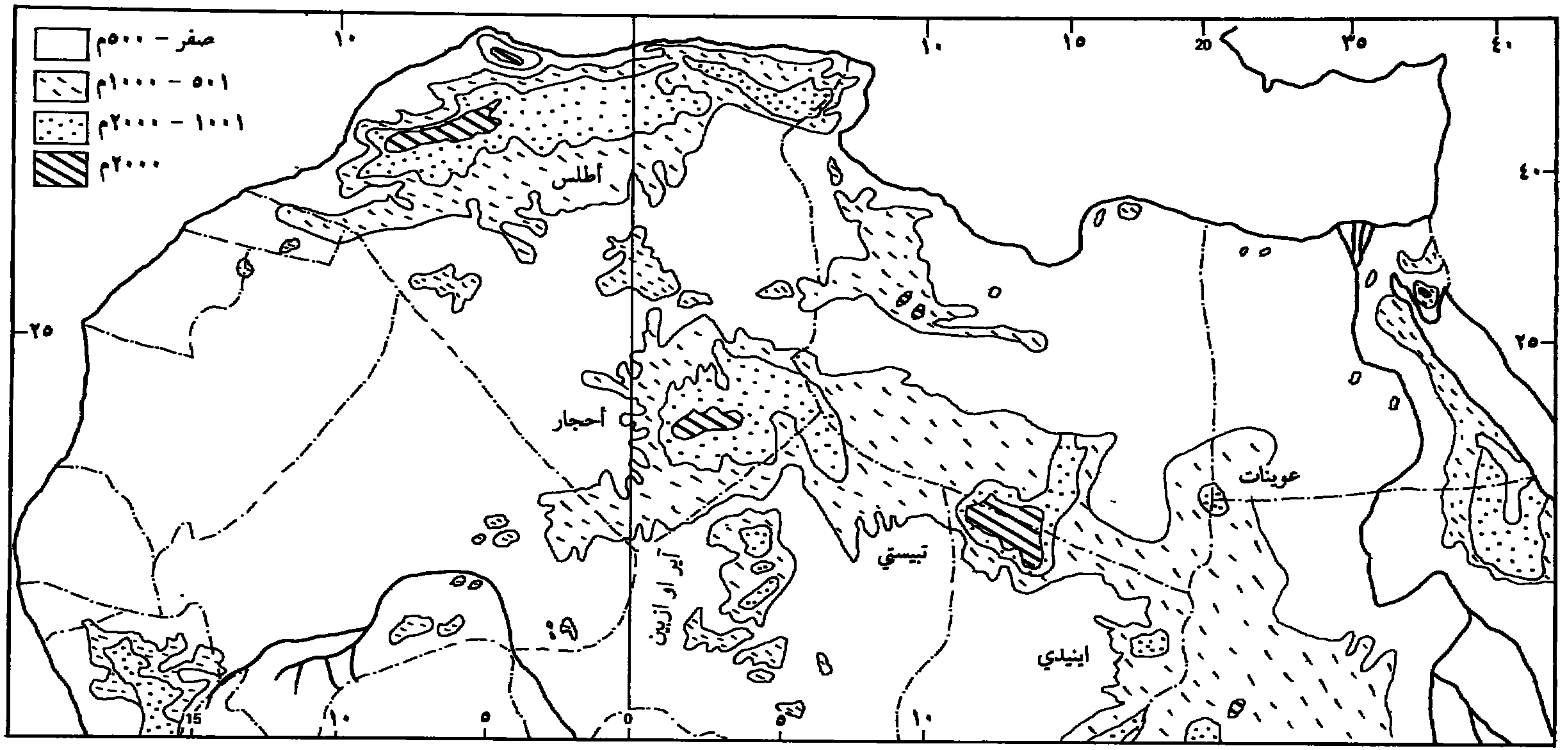
كثيراً ما قيل بلا مبررات أو بمبررات واهية[١٤] أن هذه المحاصيل تمثل حافزاً على الانتشار من الشرق الأدنى عن طريق مصر. ونلاحظ في المقام الأول أن التركيبة الزراعية المقترنة بمحاصيل البذور في أواسط الصحراء تختلف تماماً عن تلك التي وجدت في مصر والشرق الأدنى. ثانياً، أن تاريخ أسبق المحاصيل المزروعة في مصر من الناحية الأثرية يبدو أقرب تمهيداً من محاصيل أمكني. ثالثاً، نلاحظ عدم كفاية الشبه بين مجموعة احجار الرحى العديدة التي وجدت في أواسط الصحراء وبين تلك التي عثر عليها هوبلر وهستر ١٩٦٩[١٥] بالقرب من واحات دنقل وكركور في جنوب غرب ليبيا للدلالة على وجود صلة وثيقة فعلى عكس مجموعة الأحجار، نجد مثلاً أن المجموعة الليبية ترتكز على الشفرات الحجرية وليس على الشقف، وتحتوي على نسبة كبيرة من شفرات الحصاد وأنواع من رؤوس السهام وأدوات تشبه المخارز والسكاكين ذات الحدين. هذه التكوينة التي يرجع تاريخها الى عام ٦٠٠٠ قبل الميلاد أو ربما عام ٨٣٠٠ قبل الميلاد تحمل تشابهاً أكبر بحضارات شمال شرق إفريقيا ومنطقة النوبة على النيل. وهكذا فعلى الرغم من وجود المجموعة الليبية على الطرف الشمالي الشرقي للسهل شبه الدائري الكبير الذي يخترق وسط الصحراء، الا انها لا يمكن ان تكون البشير المباشر للعصر الحجري الحديث الذي نجده عند الطرف الجنوبي الغربي لنفس السهل. ولعله من الأفضل للأثريين الذين يعملون في هذه المنطقة أن يبحثوا عن اشارة لأصل هذه المجموعة في المنطقة الأخيرة (أي حجار).

الصحراء الجنوبية، والساحل، وأجزاء من السافانا في غرب إفريقيا

إن العصر الحجري الحديث في هذه الأجزاء من غرب إفريقيا كثيراً ما اعتبر نتاجاً لتأثيرات من الشمال وربما كانت هنالك تبريرات لهذا اذ أن بعض حضارات العصر الحجري الأخير قد اوضحت تشابهاً مع

---

(٩) أ. بونز وب. كوينزل، ص ٢٧ - ٣٥.
(١٠) هـ. جـ. هوجو، ١٩٦٨، ص ٤٨٥.
(١١) هـ. لهوت، ١٩٦٩، ص ١١٨.
(١٢) ج. كامبس، ١٩٦٠، ب، ص ٧٩.
(١٣) ج.ب. ميتر، ١٩٦٦، ص ٩٥ - ١٠٤.
(١٤) ب. ج. منسون، ١٩٧٢.
(١٥) ب.م. هوبلر، ج.ج. هستر، ص ١٢٠ - ١٣٠.



الشكل ٢ : الصحراء مع ابراز المرتفعات الطبوغرافية

تلك التي اعقبت العصر الحجري القديم في حجار وشرق الصحراء والمغرب، إلا أن أهم مظاهر العصر الحجري الحديث (العصر الحجري المتأخر) في هذه المنطقة تبرز معالم واضحة وبخاصة في الفخار ونوعية الأدوات وحجم ونمط مناطق السكن. إن معظم المواقع السكنية لتلك الفترة تتمركز على المنحدرات والأماكن المنبسطة المطلة على البحيرات والأودية القديمة. وهنالك ثلاثة تقاليد رئيسية ربما تعكس اختلافات في الأنماط الاقتصادية والاجتماعية.

(١) توجد مجموعة من الصناعات عند الأطراف الشمالية لهذه المنطقة مثل صناعات «تنرين وبل اير» في السنغال، تتميز بصناعة تقوم على الشفرات الحجرية وأنواع من الحجريات الصغيرة ذات الأشكال الهندسية ورؤوس السهام وقليل جداً أو لا شيء من الآلات المصقولة كما أن المواقع السكنية تحتل مساحات صغيرة نسبياً.

(٢) مجموعة صناعات في المنطقة الوسطى التي تحتلها «بوركو» و«انيدي» و«تلمساي» و«انترسو» و«دايمة» تفتقر الى الحجريات ذات الأشكال الهندسية، الا انها تحتوي على انواع من رؤوس السهام، وصنارات الصيد الصغيرة والكبيرة، وبعض الأحجار المصقولة، وهنا نجد أن المواقع السكنية تحتل مساحات أكبر نسبياً.

(٣) أما المجموعة الثالثة من الصناعات الى الجنوب والتي تمثلها أساساً «نوك» و«كنتامبو» فهي خالية تماماً من الشفرات الحجرية والأشكال الهندسية والسهام، الا انها غنية بالأدوات المصقولة وتتميز بشغل مواقع كبيرة يبدو أنها كانت أطول أمداً.

مجموعات وادي تلمساي

تشير الدلائل من مواقع «كاركرشنكات»[١٦] أنه خلال الجزء الأخير على الأقل من أقرب عصر ممطر شهدته الصحراء (من ٢٠٠٠ الى ١٣٠٠) ق.م. أقامت في هذه المنطقة جماعات رعوية تمارس حياة ليست مختلفة كثيراً عن حياة أشباه البدو مثل النوير في السودان[١٧] في عصرنا هذا والفولاني في غرب إفريقيا[١٨]. ان المواقع الجنوبية في كاركرشنكات تشبه معسكرات الرعي وصيد الأسماك كما يبدو من مخلفات الأصداف والمحار وعظام الأسماك وعظام البقر، مع القليل جداً من الصناعات الحجرية عدا صنارات صيد الأسماك. وعلى النقيض من ذلك نلاحظ ان مواقع كاركرشنكات الشمالية غنية بالفخار وتماثيل الحيوانات والآلات الحجرية (بخاصة تعدد نوعية رؤوس السهام) مشيرة الى تحول عن الماء ومزيد من الرعي والقنص وربما زراعة بعض النباتات.

إن المجموعات الحضارية التي قطنت شمال تلمساي حول اصلار كانت لديها صناعة شبيهة بصناعة «تنرين» في منطقة الصحراء، وتضاهيها قدماً (يشير تاريخ الهياكل البشرية المقترنة بهذه المواقع الى عام ٤٤٤٠ق.م) تحتوي المجموعتان على آلات حجرية للطحن وفؤوس حجرية مصقولة ومقاشط، أما الأحجار الصغيرة ذات الأشكال الهندسية فهي قليلة في أسفل التلمساي على الرغم من

(١٦) أ.ب. سميث، ص ٣٣ - ٥٥.
(١٧) ي.ي. ايفانز - بريتشارد، ١٩٤٠.
(١٨) م. دوبير، ١٩٦٢.

أن رؤوس السهام والفخار فيها يبدو مختلفة. في «اصلار» «كاركرشنكات» يبدو أن السكان قد مارسوا صيد الحيوانات (الغزلان، الزراف... الخ) وصيد الأسماك وجمع الرخويات من الماء وكذلك النبات الى جانب رعي الماشية. إن البيئة الحالية لهذه النباتات توحي بمعدل ٢٠٠ مليمتر من الأمطار أي ضعف ما يهطل في المنطقة اليوم في وادي التلمساي المنخفض. إن الدراسات التي أجراها كامبس[١٩] في «أدمر أرق» جنوب تسيلي تشير الى وجود مجموعات رعوية لها صناعات شبيهة بصناعات تنرين امتدت مثلها شمالاً وشغلت مدينة تسيلي وما حولها من السهول في الألف الرابع قبل الميلاد على أقل تقدير.

منطقة دار تشت

ان البحوث التي أجريت في هذا الجزء من جنوب موريتانيا قد كشفت عن وجود ثماني مراحل مؤرخة جيداً من حضارات العصر الحجري الحديث[٢٠] تحتوي على معلومات تلقي بعض الضوء على مسألة انتاج الغذاء مبكراً في هذه المنطقة بالتحديد وفي منابع نهري السنغال والنيجر بوجه عام.

ثمة تفسير معقول لمجريات الأمور في تشت، اذ يتوافق والدلائل الأثرية بصورة أفضل بكثير من غيره، وهو ممارسة نوع خاص من الرعي واستئناس نوع ما من النباتات ثنائي الزهرة من مرحلة «خمية» (١٥٠٠ق.م.) ثم تركيز وانتشار هذه الممارسة الأولية واستئناس أنواع أخرى من النبات في مرحلة «ناغيز» الجافة (١١٠٠ق.م). إن مانسون والكثير من الأثريين ينسون أن الشكل المستأنس من النبات يمثل نهاية وليس بداية مرحلة الترقي؛ أن زمن استئناس أي نبات يختلف باختلاف النبات ونوع الزراعة وعوامل البيئة المتعلقة، وأن كون الدخن و«البراشياريا» يمثلان وحدهما البوادر النهائية لجهد الانسان في عملية الاستئناس يشير الى أن الانسان كان ناجحاً مع هذين النباتين اكثر من غيرهما. الا أن ذلك لا يعني أنهما كانا النباتين الوحيدين المستأنسين. وتفسر هذه الحقيقة الزيادة الملحوظة في السرغوم ووجود البراشياريا في المراحل اللاحقة.

المنطقة جنوب بحيرة تشاد

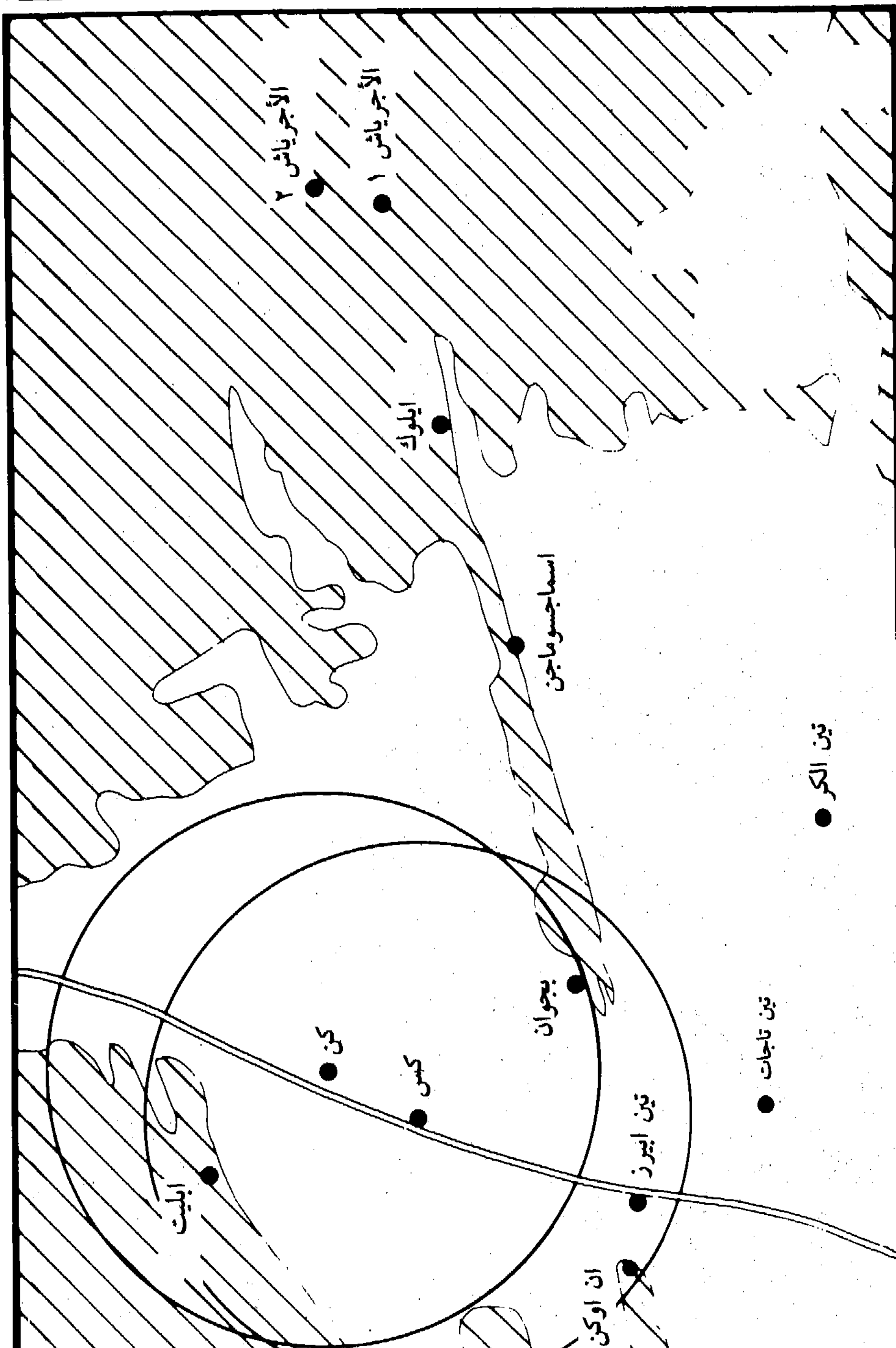
تحتوي هذه المنطقة المعروفة باسم «فركي» على سهول من الطين الداكن تمتد بعيداً عن جنوب أطراف بحيرة تشاد ويعتقد أنها تكونت نتاجاً لرسوبيات مستنقعية على طرف بحيرة أخرى أكبر منها[٢١]. وهي المنطقة التي يعتقد بورتيريس أنها شهدت بداية استئناس الذرة والدخن. ان هذا السهل خصب نسبياً كما أنه جيد الري. ورغم أن معدل هطول الأمطار سنوياً منخفض (٦٥٥ ملليمتراً في ميد وقوري) الى جانب طول فصل الجفاف وشدته (تصل درجة الحرارة الى ٤٣° مئوية) التي تؤدي الى جفاف معظم

---

(١٩) ج. كامبس، ١٩٦٩ أ.

(٢٠) ب.ج. مانسون، ١٩٦٧، ص ٩١، ١٩٦٨، ص ٦ - ٣١، ١٩٧٠، ص ٤٧ - ٤٨، ١٩٧٢، م. موني، ١٩٥٠، ص ٣٥ - ٤٣.

(٢١) ر.أ. بولان.



مجمع وادي تيلمس (حسب أ. ب. سميث ١٩٧٣)

الأنهار فالمنطقة تشهد فيضانات ويستحيل المرور فيها في موسم الأمطار، اولاً لأن سهولها المسطحة تماماً لا تسمح بأي تسرب للمياه، ومن ناحية اخرى فإن التربة لديها خاصية الاحتفاظ بالرطوبة متى امتصتها، وهذه الخاصية تزاد الآن بطرق صناعية ببناء حواجز منخفضة حول الحقول. إن الفيضانات الموسمية تعطي هذه المنطقة جاذبية خاصة للسكن لاستقرار كل من المزارعين والرعاة، الا أن هذه التباينات تقيد المواقع السكنية بدرجة كبيرة كما أدى الاستغلال المتصل لهذه الأراضي في الماضي الى تراكم التلال التي تمثل مواقع سكنية.

ان الحفريات التي أجريت في بعض هذه المواقع في شمال نيجيريا والكاميرون وتشاد قد أوضحت الاستيطان المتواصل لهذه المواقع ولفترات تصل أحياناً وتزيد عن الألفي عام. لقد وصل ليبوف[٢٢] الذي يعمل أساساً في تشاد الى قناعة أن هذه التلال تتصل بحضارة ساو السماعية. وحتى اذا كان لهذه العبارة قيمة حضارية أو عرقية فإن هذا الكاتب يشارك «كونه»[٢٣] تردده في استعمال الروايات السماعية للتميز بين المجموعات البشرية التي عاش بعضها قبل ٢٥٠٠ عام.

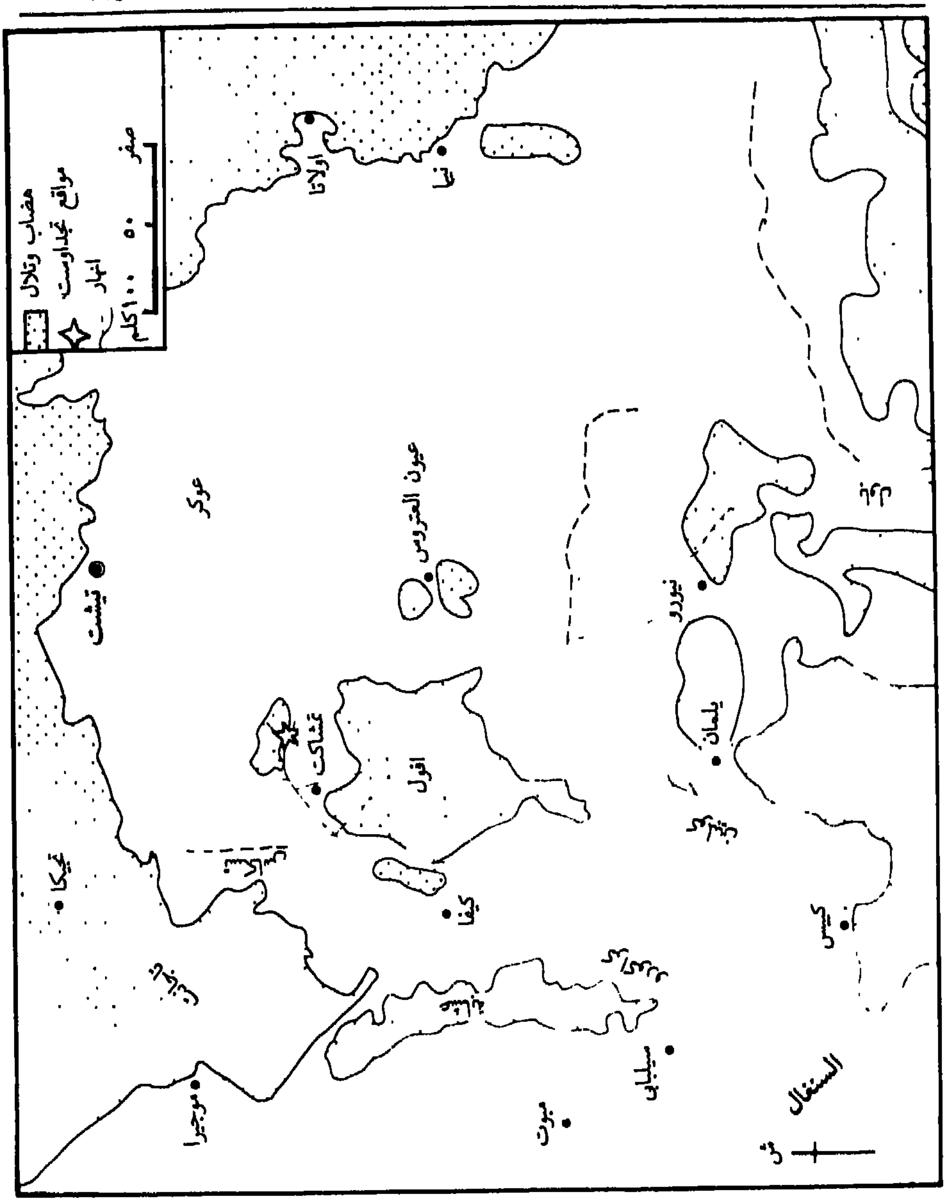
لقد قام «كونه»[٢٤] باجراء دراسات منهجية لواحد من أكبر هذه التلال في دايمة (خط العرض ١٤°-٣٠ الى الشرق وخط الطول ١٢° - ١٢,٠٥ الى الشمال) أشارت الى وجود جماعات رعوية تربي الأبقار والضأن أو الماعز وتستعمل آلات حجرية مصقولة جاؤوا بخاماتها من مسافات بعيدة الى هذه المنطقة الخالية تماماً من الحجر وصنعت أدوات وأسلحة من العظام المصقولة في القرن السادس قبل الميلاد. وكان من أهم ما عثر عليه في هذا الموقع كمية ضخمة من عظام الحيوانات تعكس العنصر الرعوي القوي، الى جانب أعداد كبيرة من تماثيل الحيوانات الأليفة على ما يبدو. ان المجموعات التي استقرت في هذا الموقع في البداية قد شيدت مساكنها فيما يبدو من فروع الأشجار والنباتات ولم تكن لديها معادن من أي نوع.

ان المخلفات التي عثر عليها في مواقع مثل روب[٢٥] ودوتسن كونجا[٢٦] تشير بقوة الى وجود حضارة عصر حجري حديث مباشرة قبل حضارة نوك التي تتبع للعصر الحديدي (قبل ٢٥٠٠ سنة قبل الميلاد) في منطقة السافانا من هضاب جرس. ان كان الحال كذلك فربما احتوت هذه الحضارة على صناعة حجرية صغيرة.

الى جانب الآلات المصقولة التي وجدت أيضاً عند مستويات العصر الحجري الحديث؛ فربما تاجر أهالي نوكا في هذه الآلات مع المجموعات التي تسكن المناطق الشمالية الخالية من الأحجار. وربما كان كذلك الحال بالنسبة للفخار الذي كثيراً ما نجده في دايمة ممثلاً بتشكيلة من الزخرفة ذات الوجه الأحمر المصقول والمشط أو الدولاب المسنن.

---

(٢٢) ج.ب. ليبوف، ١٩٦٢.
(٢٣) ج. كونه، ١٩٦٩ب، ص ٥٥.
(٢٤) ج. كونه، ١٩٦٧أ، ص ١٤٦ - ١٤٧.
(٢٥) ي. ايو، ١٩٦٤ - ١٩٦٥، ص ٥ - ١٣، ١٩٧٣، ص ١٣ - ١٦،
(٢٦) ر. يورك وآخرون.


هضاب وتلال
مواقع تجاوست
انهار
صفر ٥٠ ١٠٠ كلم
اولاتا
نما
عوكر
تيشيت
عيون العتروس
تيورو
يلمان
عشاك
افول
كيفا
تجيكا
موجيرا
سيليابي
كيس
السنغال

منطقة تشت

تكوينات نترسو - كنتامبو، أواسط غانا

تشير الدلائل الأثرية من أربع مناطق في غانا الى وجود مجموعات زنجية تمارس انتاج الغذاء منذ حوالى ١٣٠٠ او ١٤٠٠ ق.م. شرق مرتفعات بأندا، والأرض المرتفعة حول كنتامبو والمواقع النهرية المنتشرة حول غابات حوض فولتا الداخلي وسهول أكرا الى أقصى الجنوب.

ويمكن التمييز بين هذه المجموعات من المواقع بالاعتماد على الظروف البيئية أكثر من الدلائل الحضارية الملموسة. ان الطين المحروق متواجد بشكل عام في منطقة كنتامبو، ويشير الى اقامة مساكن مستقرة نوعاً ما؛ كما ان انتشار الفؤوس الحجرية المصقولة والمكاشط التي تسمى أيضاً «سيجار الطين المحروق» أو «تيراكوتا» في مناطق ينعدم فيها الحجر المناسب، يدل على ممارسة نوع من التجارة بين المناطق، وتشير الدلائل من ثلاثة مواقع تتبع الكنتامبو الى أن هذه التكوينة قد سبقت حضارة تميزت بنوع مختلف من الفخار والآلات الحجرية الى جانب مخلفات حيوانية تعكس حياة الصيد وجمع الثمار بكثافة، وربما زراعة بدائية.

تمثل نترسو أحد مواقع كنتامبو المتطرفة غرباً التي يصعب تحديد أهميتها، وهي تقع على حافة واطئة مطلة على موقع نهري به مصادر مائية كالصدف والأسماك التي لها اهمية كبيرة. ولعل وجود الخطاطيف والصنانير في هذه الصناعة يعكس تأقلماً مع الموقع النهري. وكانت هناك أيضاً انواع متباينة وجيدة الصنع من رؤوس السهام الفريدة في المنطقة ذات تشابه بمثيلاتها في الصحراء، والتواريخ التي اعتمدت على الكربون المشع (في المتوسط ١٣٠٠ ق.م) تضع هذا الموقع، تقريباً، في نفس العصر مع كنتامبو (أي بعد ١٤٥٠ق.م). أما عظام الحيوان التي وجدت فمعظمها لأنواع برية لا سيما الظباء، لكن أمكن التعرف أيضاً على وجود ماعز صغيرة الحجم[٢٧]. ويقول ديفز[٢٨] أيضاً ان سنابل الدخن استخدمت «بالدوران» في زخرفة بعض الفخاريات، لكن هذه الكشوف تظل غير حاسمة ما دمنا قد رأينا ان الهزهزة الخفيفة باستخدام مشط مسنن يمكن أن تعطي أثراً مشابهاً[٢٩].

مناطق أطراف الغابة

ثمة تركيبة صناعة تميز بها المكان، مختلفة في طابعها عن صناعات العصر الحجري المتأخر، اعقبت هذا الأخير مباشرة في مناطق اطراف الغابات بغرب افريقيا والمناطق العشبية المكشوفة شمال وسط فولتا العليا. وتتداخل نفس الصناعة مع تركيبة أخرى أقرب الى الشمال، من العصر الحجري الحديث، في أجزاء من السنغال ومالي وموريتانيا (باراتومبيان فوفري). أما الناس الأوائل في انتاج الطعام في منطقة الغابات (ما يسمى منطقة العصر الحجري الحديث بغينيا) فقد شغلوا المخابىء الصخرية والكهوف وكذلك المناطق المكشوفة في العراء. ومن الأمثلة على المخابىء مخبأ نيجيا[٣٠] وكاماباي وياجالا وكلها في سيراليون[٣١]، وكاكيمبو وبلاندي وكهوف فونكي في غينيا، ومخبأ بوسومبرا في غانا، وايوو ايليرو

(٢٧) ب.ل. كارتر وس. فلنت، ص ٢٧٧ - ٢٨٢.
(٢٨) أو. ديفز، ١٩٦٤.
(٢٩) س. فلايت.
(٣٠) س. اس. كون.
(٣١) ج. هـ. اثرتون، ص ٣٩ - ٧٤.

وأوكبا في نيجيريا. وفي أيوو أيضاً نجد دلائل توحي بأن اهل العصر الحجري الحديث وأسلافهم كانوا من الزنوج. والأماكن المكشوفة التي نعرفها أفضل من غيرها، تتضمن وادي ريم ومنحدر تلّة في شمال وسط فولتا العليا، ومواقع رارينو وتيماساس وكاب مانويل الساحلية في السنغال.

في كثير من مناطق «العصر الحجري الحديث في غينيا» شغل الناس أو إستغلوا الأراضي الصخرية المحتوية على النتوءات الصخرية من الكوارتز والبازلت ومخلفات الحمم البركانية. فضلاً عن انه في مواقع مثل ريم كانت منحدرات التل مستخدمة فيما يبدو لزراعة المصاطب. وأكثر المعالم شيوعاً في هذه التركيبة هي أدوات ثقيلة تشبه المعاول مشطوفة الوجهين وأدوات ثنائية النصل شبه مستديرة (معازق ديفيز) وغيرها من ثنائيات النصل غير المصقولة وعدد كبير وتنويعة من الفؤوس المصقولة، وأحجار الرحى وبعض المدقات وعناصر صغيرة من صخر الكوارتز لا سيما أدوات من شظايا العظام، وفخاريات مزخرفة بطريقة الدوران. أما ثنائيات النصل التي تشبه المعاول وشبه الدائرية فيبدو أنها مأخوذة من فؤوس ساجوان ومعاولها التي قيل[٣٢] انها كانت تستخدم على الأرجح لجمع الدرنات ونثرها وعمل الحفر لشباك الصيد. أما المدقات والهاونات (التي كان لها نماذج مقابلة من الخشب) فكانت تستخدم على الأرجح في دق الدرنات الاستوائية الليفية بطريقة تشبه كثيراً ما يحدث اليوم[٣٣].

وحيثما تقابلت هذه التركيبة مع النمط الشمالي من التقاليد والتراث كما هي الحال في باراتومبيان، ومالي وموريتانيا والسنغال (بين بوانت سران وتيماساس) نجد عادة الصناعات التي سبق ذكرها، مقترنة بأطراف مدببة مكسوة بالمعدن والأنصال المقوسة والأنصال ذات الحافة المحماة. وفي بعض المواقع مثل تيماساس نجد أن التركيبة المحلية (العصر الحجري الحديث في الجنوب) التي يرجع تاريخها استناداً الى علم الطبقات الى الفترة ما بين ٦٠٠٠ و٢٠٠٠ قبل الميلاد)[٣٤]، تسبق بوضوح العصر الحجري الحديث في الشمال (البل ايري) المتداخل معها، وتلي مباشرة تراث العصر الحجري المتأخر في المنطقة.

هذه الدلائل الأثرية الموجودة في مالي وموريتانيا والسنغال معاً تؤيد بقدر من الدلالة فرضية بورتيرس القائلة بأن انواع الأرز الافريقي ذات القشرة الحمراء قد تكون خضعت للاستئناس في البداية بنوع من الزراعة المحلية الرطبة ترجع الى ما لا يقل عن ٣٥٠٠ عام، في سهول الفيضات الممتدة لأعالي النيجر بين سيجو وتمبكتو في مالي، وهي منطقة يتفرع فيها نهر النيجر الى أكثر من مجرى وبحيرة (الدلتا الداخلية لنهر النيجر)، ويمكن ان تكون هذه الزراعة قد انتشرت من هناك نازلة مع نهري جامبيا وكازامانسي الى ساكني السواحل في سيتجامبيا. وجدير بالذكر أيضاً أن الدلائل النباتية تستبعد بوضوح الفكرة القائلة بأن زراعة الأرز نشأت بعد أن دخلت معرفة زراعة الحبوب. أشار بورتير[٣٥] الى انه في الوقت الذي اعطت فيه اسلاف القمح (أمر) حبوباً صالحة للطعام بحيث يمكن أن تكون الزراعة قد نشأت من جمع الحبوب، كان نفس الشيء مستحيلاً بالنسبة للأرز الافريقي ما دامت اسلافه لم تكن تعطي محصولاً يمكن جمعه.

اذا زدنا اقتراباً من الشرق لا سيما عند موقعي سيراليون، أيوو ايليرو وبوسومبران وجدنا أن كلا من دلائل التاريخ وطبيعة المراحل الأثرية في مناطق حافة الغابات يوحيان بأن التغيرات الكبيرة في

(٣٢) او. ديفز، ١٩٦٨، ص ٤٧٩ - ٤٨٢.
(٣٣) ت. شو، ١٩٧٢.
(٣٤) س. دو شامب، د. ديمولين وعبدالله، ص ١٣٠ - ١٣٢.
(٣٥) أ. بورتر، ١٩٦٢، ١٩٥ - ٢١٠.

الأساليب الفنية (أي الفخاريات والأدوات الحجرية المصقولة. . الخ)، كانت على الأرجح مقترنة بزراعة محلية بدائية لنباتات المنطقة مثل أنواع اليام وهي نوع من البطاطا، وانواع الجوز واليام وكذلك نخيل الزيت. ولعل مثل هذه التغيرات قد انتشرت الى الشمال انطلاقاً من هذا المكان.

اذن فالمعلومات، في جملتها، توحي بأن مناطق الصحراء الوسطى ومرتفعات الساحل المحاذية كانت هي المركز بالنسبة للزراعة الأولى والمستقلة لبعض محاصيل الحبوب لا سيما الدخن والسرغوم بينما شهدت مناطق حواف الغابات في نيجيريا الزراعة المحلية المبكرة لبعض الجذوريات مثل بطاطة اليام وبطاطة الجوز وكذلك الاشجار مثل نخيل الزيت. اما على الناحية الأخرى فكانت منطقة حافة الغابة عند الطرف الغربي هي بؤرة زراعة الأرز. لاحظ بورتير(٣٦)، وهو بصدد دراسة السرغوم بالذات ان غرب افريقيا كانت له دلالة خاصة بين المناطق الثلاث التي احتوت على كميات برية من السرغوم (وهي غرب إفريقيا وأثيوبيا وشرق إفريقيا)، لأنها على خلاف شرق إفريقيا (وآسيا) تحتوي على أنواع شائعة نقية ليست تهجينات بين الأشكال الثلاثة الأوائل. لكن في فترة أقرب عهداً، اقترح ستملر ومعاونوه(٣٧) أن تكون الذنيبة سلالة جديدة نسبياً من السرغوم، نشأت اولاً بعد ٣٥٠ ميلادية بقليل على يد المتكلمين باللغة التشارية النيلية في جمهورية السودان.

وفي حين تدل بيانات الكربون المشع على أن العصر الحجري (حوالى ٧٠٠٠ ق.م) الحديث في منطقة الصحراء الوسطى، أقدم مما عداه بالنسبة للزراعة الأولية في هذا العصر، ألا ان نفس الدلائل توضح ان التحول الى انتاج الغذاء في أطراف الغابات أقدم منه في المناطق السودانية الساحلية. ففي أيوو اليرو حدث هذا التحول بعد ٤٠٠٠ق.م - ٣٦٢٠ق.م(٣٨). واستمر حتى ١٥٠٠ق.م. وفي مخبأ أكبا الصخري بالقرب من أفيكبو (٥° : ٥٤ شمالاً و٧° : ٥٦ شرقاً شو، ١٩٦٩) يشير تاريخ الفخار ولؤوس عزق الأرض في العصر الحجري الحديث الى ٢٩٣٥ق.م. (±١٤٠) واستمرت حتى ٩٥ق.م.

ويجيء عصر غينيا الحجري الحديث متأخراً قليلاً في سيراليون الى الشرق وفي فولتا العليا الى الشمال. ففي كهف ينقيها تشير بعض التواريخ المعتمدة على الاشعاع والمستمدة من الفخار الى سيادة العصر الحجري الحديث بين ٢٥٠٠ق.م. - ١٥٠٠ ق.م. وفي كامابا يامتد العصر الحجري الحديث بين ٢٥٠٠ق.م. و٣٤٠م(±١٠٠) وفي شمال أواسط فولتا العليا (ريم). أرخ نفس النمط من الصناعة بين ١٦٥٠ق.م. - ١٠٠٠م.

ان الشخصية المميزة «لعصر غينيا الحجري الحديث» الذي نما في أطراف الغابات وتاريخه بالنسبة لحضارة انتاج الغذاء المبكرة في مناطق السافانا والساحل، يشير ليس فقط الى أن التحول الى انتاج الغذاء قد تم اولاً في مناطق الغابات بل انه قد تم مستقلاً عن اي تأثيرات من الشمال. ومثل هذه الدلائل تدعم فكرة ان استئناس الأرز (في الغرب) واليام ونخيل الزيت (في الشرق) هي انجاز قديم ومحلي، خاص بمنطقة الغابات وبوساطة عناصر محلية. والجدير بالملاحظة في هذا المقام ان التآكل على اسنان سكان موقع ايو اليروسكيلتون(٣٩) قد فسر على انه نتاج لأثر الرمل الملتصق بنباتات الجذور

---

(٣٦) أ. بورتر، ١٩٦٢.
(٣٧) أ.ب.ل. ستيملر، ج.ر. هارلان، ج.م.ج. ديوت، ص ١٦١ - ١٨٣.
(٣٨) ت. شو، ١٩٦٩.
(٣٩) ت. شو، ١٩٧١.

كاليام. وحقيقة أخرى هامة هي ان مواقع عصر غينيا الحجري الحديث واضحة اكثر في مناطق اطراف الغابة على طول الأنهار، والأراضي الخالية من الأشجار في الغابة وهي جميعها موطن طبيعي لليام.

ان حقيقة امتداد عصر غينيا الحجري الحديث حتى فولتا العليا شمالاً ووصوله لها متأخراً (وهنالك يتداخل مع مظاهر من الشمال في كل من مالي وموريتانيا والسنغال) تشير الى زحف التأثيرات الجنوبية شمالاً وعلى غرار كثير من المزارعين في الغابات الاستوائية في الوقت الحاضر - فإن زراع البذور واشجار المحاصيل في العصر الحجري الحديث كانوا يتحولون من منطقة الى اخرى وقد عاشوا كمجموعات صغيرة في مستوطنات صغيرة.

وعليه فكون مجتمعات العصر الحجري في غرب افريقيا لها ملامح مميزة يعكس معظمها تطوراً اقتصادياً واجتماعياً مستقلاً تحكمه ظروف بيئية فريدة ليس معناه انها عاشت في عزلة. ان مخلفات الهياكل البشرية القليلة المتواجدة تشير الى أن كل هذه العناصر كانت زنجية.

في الصحراء يبدو أن انسان العصر الحجري الحديث كان خليطاً من عنصر شمالي (البحر المتوسط) وعنصر زنجي وهو الخليط الذي استقر في مرتفعات تسيلي في العصر الحجري الحديث. ولعلهم في تحركهم جنوباً قد أدوا الى ظهور مجموعات ذات بشرة داكنة استقرت في المنطقة التي تعرف الآن بالسافانا.

أما أن أول عناصر العصر الحجري الحديث الزنجية لم تكن تعيش في عزلة حضارية فأمر تؤكده التشابهات الواضحة في الفخار مثلاً الزخرف (وسائل فصل المعادن بالاهتزاز، والتزيين باسنان المشط). واذا كانت التواريخ صحيحة فإن هذه المظاهر الفخارية قد انتشرت من أواسط الصحراء (مع معرفة زراعة الغلال) الى أجزاء من الساحل والسافانا. ومن ناحية اخرى كان الدولاب سمة خاصة بالجنوب. الا أن هنالك أنواعاً كالفخار ذي الخطوط المتصلة المموجة والمتقطعة المموجة التي تتميز بها المناطق النيلية غير ظاهرة تماماً في الجنوب الا أنها متواجدة بكميات ضئيلة في بعض مناطق شرق وأواسط الصحراء (الحجار، يورنو، تشاد، جنوب انيدي).

ومن المهم أن نؤكد ان التحول الى انتاج الغذاء لا يعني بالضرورة ظهور الآلات الحجرية الجديدة. ان الأمثلة الأثنوغرافية تؤكد لكاتب هذا المقال ان هذا التحول قد تصاحبه تغيرات في علاقات العمل ووسائل استغلال الأرض من غير أن تحدث بالضرورة تغيراً في الآلات، والأمثلة على هذه التغيرات تشمل بناء السدود وتخطيط السرابات وعزق الأرض وتسميد التربة وتسخير الحيوان وقطع النباتات الضارة وتنظيم الري والحفاظ على التربة. ان هذه التغيرات قد يلجأ اليها في مختلف الأزمنة والأمكنة عندما يعرف الناس شحّ الأراضي لسبب أو لآخر ولها أثر على التنظيمات الاجتماعية ومواقع المستوطنات، الا أننا لا نستطيع التعميم هنا اذ ان هذا العامل قد يعمل في تناسق مع عوامل اخرى تختلف نوعاً وطبعاً من منطقة الى اخرى.

يبدو الآن ان هنالك أربع مناطق اولية على الأقل شهدت تطور العصر الحجري الحديث؛ اثنتان في اقصى شمال غرب افريقيا. وبالتحديد في منطقة السهول الشمالية بدأت ممارسة الرعي في وقت مبكر. أما في منطقة البحيرات والأودية والتلال المحيطة بها فإن زراعة الغلال والزراعة المختلطة كانت هي السائدة. ومن ناحية اخرى فإن المناطق المنخفضة وأطراف الغابات في الجنوب شهدت بداية زراعة الجذور وجني الغلال والثمار.

ولقد تم تحديد منطقتين بؤرتين في غرب إفريقيا احداهما الى الشمال في المنطقة الفاصلة بين الساحل والسافانا والأخرى الى الجنوب عند أطراف الغابات. وهكذا تقع المنطقتان في مناطق تتباين

فيها الفصول ومنها فصل لا يسمح بالزراعة (الحرارة، الجفاف، أو البرد). ان النباتات في هذه المستوطنات تحتفظ بمخزون يمكنها من مواصلة نموها حين تتحسن الأحوال المناخية. ويتمثل هذا المخزون على شكل جذور ودرنات في الجنوب أما في الاقليم السوداني في الشمال فيتمثل في الغلال.

أما في منطقة الغابات والسافانا حيث تنعدم أو تكاد التقلبات المناخية فان النباتات تنمو بانتظام وبطء. وهي بالتالي لا تحتاج لأي صراع من أجل البقاء أو حفظ مخزون لمواصلة نموها – الشيء الذي ربما شجع من خلال محاكاتها على الاستئناس في المنطقتين. أما منطقة السافانا الوسطى والتي تقع بين الاثنتين فيبدو أنها كانت منطقة التقاء لتأثيرات من الاتجاهين. ومن المهم ملاحظة أن موسم نمو المحاصيل موسم طويل في مناطق الغابات الواطئة بينما نجد أن التربة في مناطق البحيرات والأنهار في الشمال أكثر خصوبة وأسهل استغلالاً. لهذه الأسباب فقد اختلفت معيشة الانسان الى حد ما، وكذلك تأثير نشاطاته. ففي المناطق الأخيرة كان يكفي ان تنظف منطقة صغيرة من الأشجار لتمارس الزراعة. اما في مناطق الغابات فإن النشاط الزراعي يعني تركيزاً أكثر كثافة في النظافة بالنسبة لأية مساحة من الغابة ولا يعني هذا بالضرورة زيادة في حجم المستوطنات الدائمة. بينما نجد في الحالة الأولى ان المنطقة المحددة – يمكن استغلالها باستمرار. نلاحظ انه في الحالة الثانية لا بد من التحول من أسلوب زراعي الى آخر، ان هذه الاختلافات العامة في نظم استغلال الأرض كان لها في الغالب نتائج بعيدة لحجم وشخصية المجتمعات في غرب إفريقيا. وكذلك طبيعة المستوطنات على امتداد فترات ما قبل التاريخ والفترات التاريخية؛ غير أن القوة المحركة لانتاج الغذاء ونتائجها اختلفت الى حد ما حسب البيئة، الا انه في كل المناطق الحضارية الرئيسية الثلاث نجد ان التحول من جمع الغذاء الى انتاجه عدل من علاقة الانسان بالبيئة من حوله وبالمجموعات البشرية بطرق شتى. فقد تحول من جامع للغذاء الى منتج له، ثم خازن وتبع ذلك تبادل بعض الموارد من خلال تجارة عبر مسافات بعيدة، التي تنقص جيرانه لانتاج السلع التي تحتاجها جماعته هو نفسه. وقد شجع التغير الاقتصادي تطور الصناعة اليدوية وظهور تقنيات جديدة (سيراميك وتصنيع المعادن) ثم تنشيط ومد شبكة التجارة، بالاضافة الى تغيرات اجتماعية عميقة، الا أن هذه التغيرات الاجتماعية تباينت درجة ونوعاً حسب نوعية القاعدة الزراعية القائمة.

عصر الحديد المبكر

لا يبدو أن التطورات المصاحبة للعصر الحديدي تختلف كثيراً عن تلك المصاحبة للعصر الحجري الحديث فيما عدا أن الأمثلة الأولى للفترة الانتقالية الى عصر المعادن والحديد في غرب إفريقيا ظهرت في كل من طرفي اقليم الساحل والسافانا بدلاً من مناطق الغابات الى الجنوب. وفي هذا المقام، كما هو الحال في المرحلة الأولى لانتاج الغذاء فان كل الادلة الحضارية والتاريخية تشير بقوة الى عنصر الأصالة في النقلة الى صناعة المعادن.

وكما أشير في مقام آخر بالتفصيل(٤٠)، فإن الأدلة من العصر الحديدي الأول في غرب إفريقيا يمكن تقسيمها الى مجموعات مصنّفة على أساس النماذج والى حد ما تدريجياً اعتماداً على طبقات الأرض بحيث تشمل المجموعات الآتية: (١) الفخار والحديد والآلات الحجرية المصقولة؛ (٢) الفخار

(٤٠) ب. و. أندا (سابقاً ب. واي – اوجوسو).

والحديد والمعادن الأخرى أو بدونها مما تكون لها صلة احياناً ببعض انواع الأوعية الفخارية المستخدمة لأغراض الدفن؛ (٣) الفخار فقط.

من أقدم المواقع الأثرية للعصر الحديدي تلك المواقع التي تختلط فيها آثار صناعة الحديد بقليل أو كثير من صناعات حجرية مزدهرة، ولربما تعكس لنا هذه المواقع الفترة الانتقالية من العصر الحجري الى عصر الحديد، وقد حددت عدة مواقع من هذه المواقع الانتقالية في كثير من مناطق غرب إفريقيا ومناطق أخرى (كمنطقة البحيرات العظمى في شرق إفريقيا). وتحوي مثل هذه الصناعات على خبث الحديد، وأنصال السكاكين، وبقايا من سهام ورؤ وس حراب وصنارات وأساور، ومضارب حجرية ومجموعة من أشكال الفأس والقدوم وأقراص حجرية (حلقات) ورحى، كما ان هنالك فوارق اقليمية واضحة. كمثال لذلك يبدو أن التماثيل الطينية المحروقة «تيراكوتا» هي الصفة المميزة لشمال نيجيريا وتتواجد كذلك في بعض المواقع بغانا.

وفي شمال نيجيريا أمكن التعرف على تجهيزات لصهر الحديد وبعض الأجزاء يبدو أنها حائط فرن. ومن ناحية أخرى وجد أن أكثر مميزات المواقع الأثرية في كامباباي وباجالا بسيراليون هي الشرائح ذات الأوجه المزدوجة المصنوعة بطريقة بدائية غير مهذبة. وفي فولتا العليا فقد ظهرت هذه الآلات الثقيلة ذات الأوجه المذوجة مع الفؤ وس - المطارق جنباً الى جنب مع أوعية الدفن الفخارية مما يشير الى وجود رابطة بينهما وبين سابقها عصر غينيا الحجري الحديث.

كما وضحت كذلك الاختلافات الاقليمية في الفخار خلال العصر الحديدي الأول. مثلاً مسلسل طراز بيلاود[٤١] من عنيدي لطرازين متقاربين، وتليمورو وتشيجو واللذان يغطيان الفترة الزمنية من اواخر العصر الحجري الحديث الى بواكير الانتقال الى عصر الحديد. ويبدو أن لها علاقة بنظام كوبن[٤٢] القماري من تشاد كما لها علاقة أيضاً بنمط تايمنجا من بوركو كما وضعه كورتن[٤٣]. يصاحب ظهور تليمورو أول المواقع الأثرية للقرى المفتوحة وقد ارخت مبدئياً إلى الألف الأولى ق. م. وقد اشار كل من بيلاود وكورتن الى تشابه هذه الأنماط من القماري بفخار المجموعة (ج) في النوبة بالرغم من أن تاريخ الأخيرة يرجع الى فترة أقدم (تبدأ بـ ٢٠٠٠ق. م تقريباً) في النوبة. معظم المميزات الزخرفية لهذه الأنماط من الفخار، التي تعتمد على استخدام مشط في وضع مائل، تؤدي الى زخرفة بالخطوط المقوسة والخطوط المحفورة المتقاطعة والخطوط المتداخلة والمثلثات المحفورة على شكل أرقام ٨، والشكل والخطوط المتوازنة وغيرها، وتعد كل هذه الأساليب الزخرفية للعصر الحديدي الأول في تاروقا الأولى ومواقع ليبوف في بحيرة تشاد والطبقة الحضارية الثانية والثالثة في سندور ونترسو هذا بالاضافة الى كهوف سيراليون ذات المخلفات الأثرية. كما يبدو أن هناك انماطاً معينة من تاروقا الأولى، تظل «مجموعة آيف» في صناعة الفخار والتماثيل.

على عكس ما ذكرنا سابقاً، فإن الأنماط في تاروقا الأخيرة تشبه الى حد كبير تلك المؤ رخة الى طبقات العصر الحجري الحديث والعصر الحديدي في ريم؛ حيث وجد في كل منها أمثلة متعددة من الأنماط الزخرفية فيما يبدو ان طريقة الدولاب الملتوي والمنحني هي السائدة فيها، هذا بالاضافة الى امثلة قليلة من نمط قوالح الذرة الدوارة، ولربما تكون أكثر معارفنا عن مجتمعات العصر الحديدي الأولى غرب

(٤١) جـ. بيلاود، ١٩٦٩ ص ٣١ - ٤٥.
(٤٢) ي.س. كوبن، ١٩٦٩، ص ١٢٩ - ١٤٦.
(٤٣) ج. كورتن، ١٩٦٦، ص ١٤٧ - ١٥٩، ١٩٦٩.

افريقيا هي معرفتنا «بالنوك» التي تعد من اوائل هذه المجتمعات واكثرها تأثيراً. ومما لا شك فيه أن أقوام هذه الحضارة من البشر كانوا يتقنون صناعة الحديد على الأقل سنة ٥٠٠ق. م. ان لم يكن قبل ذلك بفترة. وأكثر ما تعرف به هذه الحضارة هو تراثها الفني المميز خاصة في تشكيل التماثيل الطينية المحروقة المعروفة باسم «تيراكوتا»، ورغم المام اهل حضارة النوك بكل أساليب صناعة الحديد، فقد استمرت تستعمل الآلات الحجرية والتي كانت تعتبر ذات فاعلية اكثر. من امثلة هذه الآلات الحجرية التي لا تزال مستعملة نذكر الرحى والحجارة المحفورة هذا بالاضافة الى الآلات المصقولة وفؤوس الشقف. ليس هذا فحسب بل نجد ان المواقع الأثرية لحضارة «النوك» تتفاوت فيما بينها بميزات فنية فريدة مما يشير الى وجود اختلافات اقليمية بين هذه المواقع على الرغم من أنها من فترة زمنية واحدة. وكمثال لذلك نجد ان الآلات المصقولة معدومة كلية في تاروقا كما ان هناك اختلافات في الفخار الذي يستخدم في الأغراض المنزلية في كل من سامن، ودكيا، وتاروجا وكاتسيناآلا(٤٤).

لم تكن حضارة النوك تقتصر على أنها كانت ترتكز على دعائم قوية طيلة ما يزيد على الألفين والخمسمائة سنة فحسب، بل تعدت ذلك الى تأثيرها الواضح الذي وصل مدى بعيداً. مثلاً عثر على نظائر لنفس الأنماط التي اختصت بها حضارة النوك في التماثيل الطينية في مكان آخر هو ديما حيث بدأت صناعة الحديد هناك حوالى القرن الخامس إلى السادس الميلادي.

يعتقد كونه أن المجموعة الأصلية من سكان ديما قد استبدلت بهم في حوالى القرن الثامن الميلادي مجموعة اخرى كانت تستخدم الحديد وتعتمد عليه، كما أن هذه المجموعة تمارس زراعة الحبوب ولها اتصالات خارجية أوسع من سابقتها ولكنها داومت على استمرارية ممارسة عادة دفن الموتى محنيين وصناعة التماثيل الطينية. وبالرغم من العثور على عينات من الجرار الفخارية المسماة «سو» في الجزء الأعلى من التل الا انها لم تستخدم في أي مرحلة من مراحل هذه المجموعة لدفن الموتى بداخلها.

وجدت عدة مواقع هامة لقرى قديمة وصل طول بعضها الى نصف كيلومتر تقع على سفوح تلال طبيعية او صناعية على ضفاف الأنهار في الأجزاء السفلى لوادي تشاري بجمهورية تشاد وفي نطاق قطر يصل الى مائة كيلومتر من فورت لامي. وقد عثر في هذه المواقع على بعض الموجودات تماثل تلك التي وجدت في نوك وديما، وتشمل هذه الموجودات تماثيل طينية لكل من الانسان والحيوان وادوات حجرية للزينة واسلحة من البرونز والنحاس وآلافاً من شظايا الفخار. كما وجدت ايضاً اوعية فخار جنائزية كبيرة الحجم هذا بالاضافة الى الحوائط الدفاعية التي كانت تحيط بالقرى. وقد تمكن لبيف (١٩٦٩م) من الحصول على عينات من الكربون ١٤ المشع لتاريخ مواقع ساو وقد أعطيت العينات مدى تاريخياً يتراوح بين ٤٢٥ق.م. الى ١٧٠٠ ميلادية ويعتقد أن هذه التواريخ تشمل كل فترات «ساو» الأولى والثانية والثالثة. ويعتقد شو(٤٥) ان هذه التقسيمات غير محددة بصورة كافية من ناحية علم طبقات الأرض والمخلفات الحضارية. ولو حدد لنا التاريخ ٤٢٥ق.م. طبقة حضارية تحتوي على معدن الحديد فستكون له أهمية واضحة.

(٤٤) أ. فاج ص ٧٥ - ٧٩.
(٤٥) ت. شو ١٩٦٩ أ - ص ٢٢٦ و ٢٢٩.

جنوب نيجيريا

كتب ويلت(٤٦) ملاحظاً أن كثيراً من مميزات حضارة النوك وخاصة في فنها قد وجدت في الحضارات التالية في مناطق أخرى من غرب إفريقيا، لدرجة أنه من الصعب عدم الاعتقاد بأن حضارة النوك تمثل الأصل لكثير من الحضارات المميزة بالنحت في غرب إفريقيا. وسواء أكان ذلك حقيقياً أو لا - فإن هناك بالتأكيد عدة اوجه للشبه في الفن بين حضارة النوك وآيف مما يضعف عنصر المصادفة(٤٧). كما هو الحال في حضارة النوك فإن النزعة الطبيعية في النحت (والتي تؤرخ على الأقل في ٩٦٠م± ١٣٠) بالاضافة الى صناعة الحلي الواسعة قد وجدت في آيف وبنين وبحيز أضيق في بعض مدن يوروبا الأخرى.

يمثل فخار آيف المستخدم في الأغراض المنزلية طابعاً موسعاً آخر لحضارة النوك وخاصة في فن الزخرف المتسم بتعدد أنواعه شاملاً الحفر (الخطوط المستقيمة والمتعرجة وما يشبه الطعنات والمنحنيات وغيرها من التصميمات) والصقل والتلوين واستعمال الزخرفة بوسيلة دوارة (بوساطة الخشب المنحوت والخيط المبروم). كما كانت تضاف شرائح من الطين الى الزخرفة في حين أن شظايا الفخار كانت تستخدم في أرضية المنازل.

وتشير حفريات اجبويكوو(٤٨) الى أن صناعة الحديد في جنوب شرق نيجيريا ترجع على الأقل الى اوائل القرن التاسع الميلادي. ولكن ليس هناك ما يشير الى أنها لم تكن أقدم من ذلك. وبما أن صناعة الحديد تحتاج الى مهارة فائقة فقد ظلت حكراً لمجموعات وعشائر معينة. وأن أشهر حدادي أقبو هم القادمون من آوكا شرق أونيتشا، ويبدو أنهم كانوا أول من تحصلوا على خام الحديد من أقبو حيث كان يوجد حدادو أودي شرق أوكا، ولم تستخدم خامة الحديد المستورد من أوروبا حتى وقت متأخر جداً. ومن مراكز ايبو الأخرى لصناعة المعدن مجموعة ابيريبا لصهر الحديد على نهر الصليب شرق أقبو، ويوجد صهر الحديد والنحاس في المراكز القريبة من مرتفع أكجوي - اروتشوكو وفي جنوب الأقليم أيضاً حيث يوجد مصهر نكوري.

نسبة لصغر حجم العمل الأثري الذي نفذ حتى الآن في هذه المنطقة، فإنه من الصعب الافاضة في الحديث عن تطور صناعة الحديد. ولقرب الأوكا من المواقع الأثرية في أقبو أكوا، وللتشابه العام في عدة عناصر فمن المرجح وجود علاقة ما بينهما، ولكن الاختلاف الزمني بين الاثنين كبير، هذا الى أن مصاهر أوكا لم تعكس - على الأقل في أوقات حديثة - ميزات تراثية أو فنية بما في ذلك سباكة النحاس المميزة لصناعة أقبو أكوا.

وقد وجد في احدى الحفريات في منطقة أوكا(٤٩) خمسة عشر ناقوسا من الحديد وسيف حديدي تشبه تلك التي يصنعها اليوم حدّادو أوكا هذا بالاضافة الى أعداد كبيرة من الأجراس البرونزية المصبوبة وقطع أخرى يرجع تاريخها الى ١٤٩٥م(± ٩٥) لا يمكن نسبتها على الفور الى حدّادي أوكا.

كما أنه لم يتضح بعد نوع العلاقة الزمنية والحضارية بين آيف وأقبو أكوا بالرغم من أن ويليت يعتقد أن حضارة آيف أقدم كثيراً على عكس ما يفترض حالياً، ويرى أنها أقرب بكثير من حضارة النوك على

(٤٦) ف. ويلت، ص ١١٧.
(٤٧) المرجع المذكور، ١٢٠.
(٤٨) ت. شو ١٩٧٠ أ.
(٤٩) د. هارتل، ١٩٦٦، ص ٢٦، ١٩٦٨ ص ٧٣.

عكس ما يفهم من الدلائل الحالية (القرن الثالث عشر الى الرابع عشر الميلادي). واذا كانت الحلى المستخدمة في حضارة آيف وهي صورة طبق الأصل لحلى «أموري» في ساحل غينيا، كما يشير فريبينيوس والدليل الأثنوغرافي من جنوب نيجيريا، فسيكون متصوراً أن الحلى الزجاجية من أقبو أكوو قد صنعت في آيف. وهذا يعني أن يرجع تاريخ حضارة آيف الى تاريخ الموجودات من أقبوأكوا (القرن التاسع الميلادي). في هذا المقام قد يكون من المهم افتراض عدم استمرارية التراث في آيف فيما يتعلق بالنحت الحجري وصناعة الزجاج والتماثيل الطينية كما حدث الى حد كبير في دايما(٥٠). هذا بالاضافة الى أن عدم الاستمرارية الحضارية في ديما، يؤرخ من الفترة بين القرنين السادس والتاسع الميلادي. وكما تدل بعض سلع الدفن في دايما على وجود اتصالات تجارية بين آيف ودايما، فمن المرجح جداً أن تكون للتوازي الحضاري أهميته الزمنية. وعليه فهناك احتمال حقيقي أن تاريخ آيف يرجع الى القرن السادس الميلادي على الأقل.

العصر الحديدي في أقصى الغرب

ما يعرف عن العصبر الحديدي في قطاع أقصى الغرب يقل كثيراً عمّا يعرف عن النوك والمناطق المجاورة. على سبيل المثال، المعلومات المتوفرة من موريتانيا لا تشير الى عصر حديدي بل الى «عصر نحاسي» ولم يتحقق من أقليم أواسط النيجر وعلى وجه الخصوص سنقامبيا، الا تسلسل زمني جزئي(٥١). تشير الحفريات التي أجراها ن. لامبيرت في أكجوجت(٥٢) الى أن صناعة صهر النحاس في غربي الصحارى يرجع تاريخها الى الفترة من ٥٧٠ - ٤٠٠ق.م. ويحتمل ان يكون هذا التاريخ هو تاريخ تجارة النحاس عبر الصحراء الكبرى. وتشير التقديرات من أحد المواقع أن أربعين طناً من النحاس قد استخلصت منه، هذا الى جانب احتمال أن جزءاً من الكمية المستخلصة قد صدرت الى السودان عن طريق الصحراء الغربية وبالرغم من أن أهمية أكجوجت قد تضاءلت في بداية الفترة التاريخية نتيجة لاستنفاد عروق الخشب اللازمة للصهر (كما حدث في مروى)، فقد استمرت الحركة التجارية عبر الصحراء تفيض بامداداتها من النحاس وبضائع النحاس عبر السودان الأوسط.

إن الاعداد الكبيرة من المصنوعات النحاسية التي وجدت في المواقع الأثرية وتلك الموجودة في المتاحف بالاضافة الى ما ذكرته المصادر المكتوبة تشير الى كثرة استعمال هذا المعدن - بالرغم من ندرته - في أجزاء كبيرة من غرب إفريقيا لزمن طويل بالرغم من أن أهميته لم تصل إلى درجة الخشب والحديد أو الطين. عندما يستورد النحاس وسبائكه فإنه يأتي في أشكال متعددة لا تتغير الا قليلاً بمرور القرون مثل القضبان والخواتم والأسلاك والأجراس والأطباق... الخ. والأرجح ان هذه الأشكال كانت تستخدم دون تغيير كمادة خام في هذه المنطقة، وذلك للسبك بطريقة الشمع المعقود، ولأغراض الطرق والسحب والليّ... الخ.

وقد ميزت الشعوب الافريقية بين النحاس الأحمر وهو النحاس في أنقى صوره وبين البرونز والنحاس الأصفر. وللأسف ينعدم هذا التفصيل الدقيق فيما ترك من تراث كتابي. لهذا لا بد من

(٥٠) ج. كونه، ١٩٦٧أ، ص ١٤٦ - ١٤٧.
(٥١) أو. لينار دي سابير، ص ٢٣ - ٥٤.
(٥٢) أ. و. هيربرت. ص ١٧٠ - ١٩٤.

اللجوء الى التحليل الطيفي لمعرفة مقدار الكمية الحقيقية من المعدن في الشيء المصنوع، بالاضافة الى معرفة الأنواع التي كان يفضلها أول من استخدموا النحاس وسبائكه (البرونز).

إقليم النيجر الأوسط

ان التلال الترابية الصناعية - سواء كانت مواقع استيطان أو قبوراً - معروفة في ثلاث مناطق رئيسية في هذا الاقليم هي:

١ - التقاء نهري النيجر والباني في وادي الباني.
٢ - شمال وشمال شرق ماسينا وسيجو.
٣ - وفي أقصى شرق ثنية النيجر في فولتا العليا.

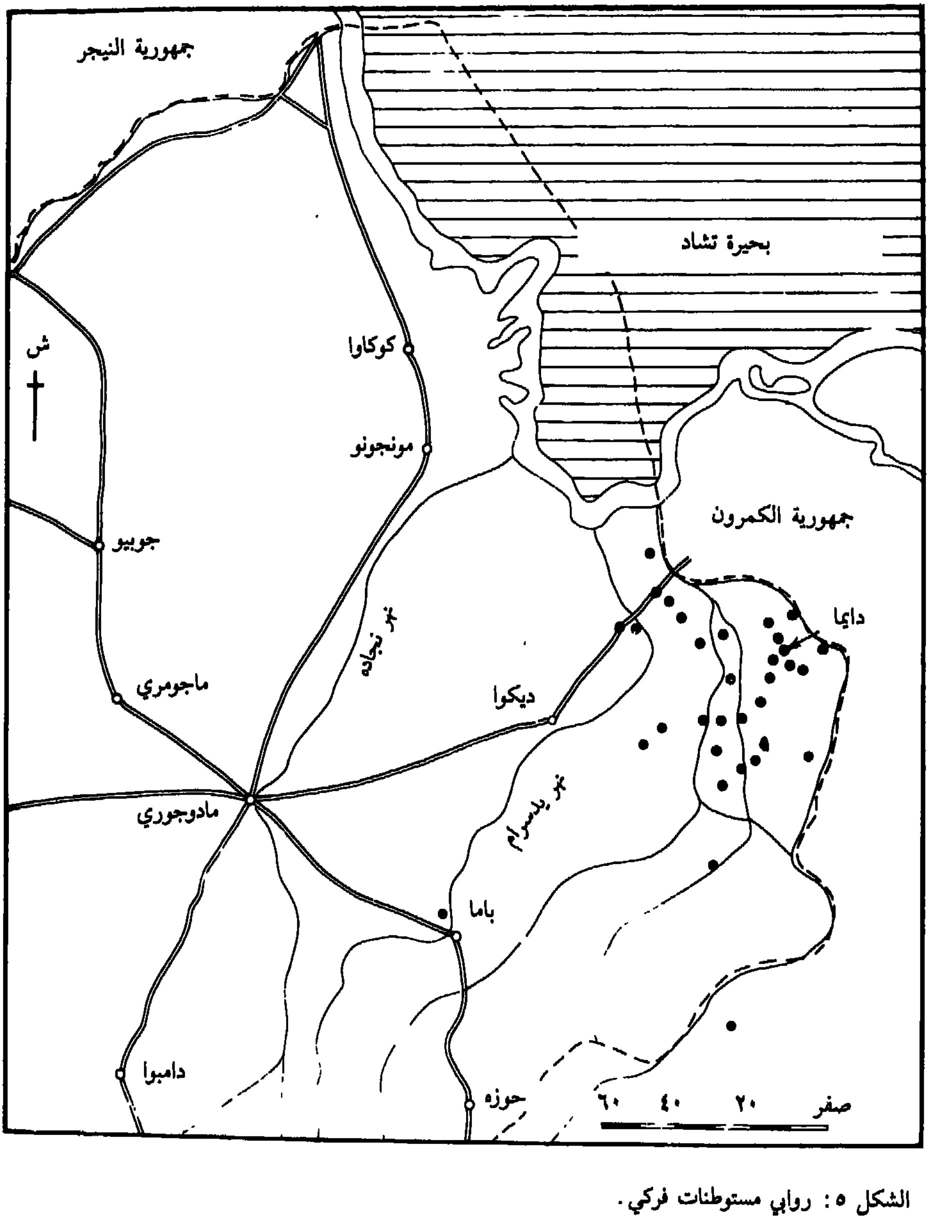
وقد ظهر بصورة واضحة ومستمرة في كل هذه المناطق الثلاث نوع من الفخار المميز بسمك جدرانه وزخرفته والتي تمت أساساً باستخدام «روليت» دوارة من الخيط المبروم ولربما استخدم هذا الفخار كأوعية للدفن، وقد ظهرت هذه الأوعية في بعض المناطق اثنين اثنين أو ثلاثة ثلاثة مصحوبة بآنية منزلية. وفي فولتا العليا (ريم) وجد أن الأدوات الأساسية المصاحبة هي الحديد والآلات المصقولة والفخار، كما وجدت بعض المصنوعات البرونزية والنحاسية في ثنية النيجر. وجدت كذلك في مناطق ماسينا وسيجو ولكن ليس في باتي أو ريم (فولتا العليا) في اقصى الشرق أعمال مميزة من الفخار ذي الأشكال الانسيابية المتعددة، والأقداح والأوعية ذات الجدران الرقيقة والصحون، بعضها له قاعدة أو قاع مسطح، والأكواب ذات الأرجل والجرار المخروطية(٥٣).

كانت هنالك بعض المجموعات من عصر الحديد في سيجو وتمبكتو تمارس أساساً زراعة الدخن والأرز كما كان البعض الآخر يعمل بصيد الأسماك مستخدمين شباكاً بأثقال من الطين المحروق بدلاً من الصنارة المصنوعة من العظم. هناك أيضاً بعض الأبنية الجميلة من فترة ما قبل الاسلام تتميز بحجارتها المنقوشة بطريقة فنية. وتغطي بعض هذه البقايا الأثرية عدة أفدنة، مما يشير الى وجود مناطق سكنية وكبيرة، ولكن ما تمت دراسته من هذه المواقع - على الرغم من ضحالة التحري فيها - قليل جداً، رغم أن الفرنسيين(٥٤) قد نهبوا عدة مواقع منها.

ونحن بحاجة لحفريات مكثفة لتحديد الحجم الحقيقي وطبيعة هذه المستوطنات ومعرفة نوع الاقتصاد الذي كان يمارسه ساكنوها، هذا بالاضافة الى ضرورة التسلسل التاريخي الذي لم يبحث حتى الآن. يعتقد مونود أن حضارات مدافن الأوعية الفخارية جزء من تكوينات أكبر منها هي تكوينات لهيم التي كانت تتمركز على ساحل البحر المتوسط ثم امتدت الى اقليم منعطف النيجر مما يشير الى أن حضارات العصر الحديدي دخلت غرب إفريقيا بعد حلول العرب (أي ١٠٠٠ - و١٤٠٠م). ولكن نتائج البحوث الأخيرة لا تؤيد هذا الرأي.

على سبيل المثال؛ أعطت الحفريات التي أجريت في قبور كوجا تاريخاً يرجع الى ٩٥٠ق.م(±١٢٠) وقد اجريت هذه الحفريات في طبقة أرضية ذات تاريخ متأخر اذا قورنت بما تحتها وكانت تحتوي على فخار مطلي بلون أبيض على احمر - كما عثر على آثار لبذور الدخن والقمح وما يحتمل أن يكون ذرة على

(٥٣) ج. زوموسكي ، ص ٢٢٥ - ٢٥٧.
(٥٤) أو. ديفز ١٩٦٧أ، ص ٢٦٠.



الشكل ٥: روابي مستوطنات فركي.

سطح الشظايا الفخارية المتناثرة على سطح القشرة، توصلت الدراسات التي اجريت على هذا الموقع ومواقع كثيرة أخرى في غرب إفريقيا الى وجود طبقة حضارية تحوي مميزات العصر الحديدي المبكر المميز بقطع فخاره المطبوعة أو غير المزخرفة، وآلاته المصنوعة من العظام والحجارة والأساور. وهنالك تقليد حضاري مشابه بفولتا العليا ولكن تاريخه يرجع الى القرن الخامس أو السادس الميلادي(٥٥).

إقليم سنغامبيا

اكتشفت أيضاً مقابر كبيرة للدفن في أجزاء من هذا الاقليم وخاصة في روا بالقرب من مصب نهر السنغال وفي شمال السنغال على طول النهر(٥٦). وبالرغم من أن معظم هذه الأشياء يحتاج الى مزيد من البحث، إلا أن الدراسة السطحية تشير الى أن المدافن قد صنعت من غرف خشبية مغطاة بتل ترابي يصل طوله الى أربعة أمتار على الأقل. إن هذه المدافن تحتوي على آلات حديدية وأساور نحاسية وحلى وذهب ومجوهرات وعدة أوعية فخارية ذات تصميمات بسيطة في شكل دوارق وأباريق وجرار غير مطلية ولكنها مزخرفة بتصميمات مبكرة وتخلو من الزخرف الممشط. وقد أرخت آخر الحفريات هذه المقابر إلى ٧٥٠م(٥٧). وبالتالي فهي تحتل فترة زمنية متأخرة لسنا بصددها في هذا الفصل.

من المواقع الأثرية التي تدخل في الفترة الزمنية التي نحن بصدد دراستها الآن تلك المواقع الساحلية في هذا الاقليم وتحتوي على تلال من المحار، وينمو البوبات عالياً على بعض هذه التلال بالقرب من مقاطعة سانت لويس في كاسامانس، ومن الدراسة التي أجراها جوار(٥٨) وآخرون على هذه الأكوام المحارية في مقاطعة سانت لويس، وجدت بعض قطع الفخار ذات الزخرف الممشط المطبوع وخاتم من النحاس والحديد، وفأس من العظم وقليل من الآلات الأخرى المصنوعة من العظام. من بين ما كانت تتاجر به المجموعة مع المناطق الداخلية صدف المحار الذي كانت تجمعه. أما المنطقة الساحلية بين سانت لويس وجوال التي لم توفر البيئة المناسبة لتوالد هذا الصدف(٥٩)، فكانت مأهولة بكثافة بشرية منذ العصر الحجري الحديث الى فترة العصر الحديدي .وفي بعض المواقع مثل داكار (تلال بل آير) وجدت بقايا أثرية من العصر الحديدي تعلو بقايا أثرية من العصر الحجري الحديث، ويظهر أن اشكال وزخرفة الفخار لم تختلف كثيراً عبر عدة قرون، وبالضرورة فإن ما ينتج عن عدم احتفاظ المواقع الأثرية بترتيب محتوياتها في طبقات يقف حائلاً دون تصنيفها تصنيفاً مرضياً.

بدراسة عدة أكوام من المحار في مساحة ٢٢×٦ كيلومترات في كاسا مانس، اتضح أنها تمثل تسلسلاً حضارياً يمتد من ٢٠٠ق.م الى ١٦٠٠م متداخلاً، من المخلفات الحضارية المادية الأولى لديولا الحديثة، ويعتقد سابير أن الفترة الأولى المعروفة حتى الآن (من ١٢٠٠ق.م الى ٧٠٠م) قد وجدت المواقع الأثرية بلوديا وكولوف وهي تمثل الفترة المتأخرة من العصر الحجري الحديث وليس الأولى. وتنعكس الاتصالات و/أو التأثير الحضاري في الفخار من هذه الحقبة – حيث يشابه في لمساته الفنية

(٥٥) ب. و. أندا.
(٥٦) ج. جوار، ١٩٥٥، ص ٢٤٩ – ٣٣٣.
(٥٧) س. ديشامب وج. تيلمان.
(٥٨) ج. جوار، ١٩٤٧، ص ١٧٠ و ٣٤٠.
(٥٩) أو. ديفز، ١٩٦٧أ، ١٩٦٧ب، ص ١١٥ – ١١٨.

الزخرفية مثل الخطوط المتعرجة المحفورة، فخار العصر الحجري الحديث الواسع الانتشار من الرأس الأخضر(٦٠) الى جنوب الجزائر(٦١)، بل وحتى إفريقيا الوسطى. ولم يعثر على آلات حجرية لكن الكتل الحديدية كانت شائعة مما يشير الى احتمال استخدام الحديد. وعلى أية حال فقد سجلت التقارير وجود المحار والفؤوس الحجرية والتي يفترض وجودها في أكوام المحار في المنطقة الواقعة حول بيقنونا.

إن المعلومات الأثرية عن هذه الفترة تعكس وجود مواقع سكنية مبعثرة في مخيمات على تلال رملية، من المحتمل أن تكون مغطاة بالحشائش ومحاطة بالغابات ولم تكن تمارس حرفة جمع المحار، والعظام الوحيدة التي تردد وجودها هي مجموعة قليلة من بقايا الثدييات، كما أن وسائل الاعاشة غير واضحة.

ان انعدام المحار وعظام الأسماك (من أربعة من هذه المواقع التي شغلت على مدى ٤٠٠ سنة) ووجود قطع فخارية بدلاً من الخلطات الطينية، يعتبرهما الباحث الأصلي دليلاً على أن مستوطني الساحل الأوائل لم يكونوا متأقلمين مع حياة السواحل، ويعتقد اوبرفيل(٦٢) ان الغابات الكثيفة كانت تغطي كل المنطقة المحيطة بهضبة كوسوي الى أن أميطت بالنار وتحولت مناطقها الى حقول للأرز. واذا صح ما سبق ذكره فهذا يعني أن مواطني الفترة الأولى كانوا زراعاً يعملون بزراعة أرز الجبال أو الأرز الجاف.

في فترات التعمير التالية (من الفترة الثانية الى الفترة الرابعة أي بعد ٣٠٠م) كان استغلال المصادر الحيوانية كبيراً، وربما كانوا يمارسون الزراعة وهذا يتطلب دراسة منتظمة لبقايا الأرز والبقايا النباتية الأخرى وقد وصف الباحثون الموجودات الأثرية من هذه الطبقات الحضارية بأنها تتوافق تاريخياً جيداً مع ممارسات ديولا الحديثة في حين أن سلسلة أنواع الفخار تربط الأكوام القديمة بالحديثة المجاورة.

وفي نظرتنا الحالية أن هذه السلسلة حديثة جداً، الأمر الذي يصعب معه دراسة أصول زراعة الأرز المبتل بالمنطقة. وربما يكون مفيداً في هذا المقام أن نذكر بورتير(٦٣) والذي يقول ان سنغامبيا كانت مركزاً ثانوياً لانتشار نوع من الأرز، اما المركز الرئيسي فقد كان في مكان ما بالقرب من النيجر الأوسط.

ويبدو أن المواقع السفلى لكاسامانس تمثل مرحلة متطورة في زراعة الأرز المبتل حيث ان استخدام المعدات الحديدية في هذا الوقت يمكن أن يؤدي الى استغلال كل المستنقعات والتربة الطميية وتحويلها الى حقول للأرز، ولربما تكون الفكرة صائبة ان نبحث عن مراكز زراعة هذا الأرز، مبتدئين اولاً بالأراضي الرخوة في المناطق الداخلية للوديان حيث كان يتوقع نجاح زراعة ارز المناطق الجبلية والجافة بطريقة النثر أو الغرس بعد ازالة الشجيرات البرية بالآلات الحجرية.

ومهما يكن من أمر فإن حقيقة ما حدث لا يمكن كشفه، اذا أمكن، الا اذا اتسع مجال التحري الأثري الكامل في المناطق الرئيسية. وفي كل الأحوال فإن المعروف أن الملامح الواضحة من حضارة دولا كانت موجودة في الفترة الثانية وما بعدها. فقد كانت هناك مجموعات من البشر تعيش على السفوح الرملية أو قرب الطميية. وكما هو الحال اليوم، يتخلصون من نفاياتهم في نقاط بعينها مما ادى الى تراكمها في شكل أكوام منتظمة تحتوي على بقايا صغيرة من الفخار وبعض النفايات الأخرى كالتي وجدت بحضارة دولا. وقد وجد في كل السلسلة تقليد صناعة الفخار من كاسامانس السفلى، انه

(٦٠) ر. موني، ١٩٥١، ص ١٦٥ - ١٨٠.
(٦١) هـ. ج. هوجوت، ١٩٦٣.
(٦٢) أوبريفيل، ص ١٣١.
(٦٣) أ. بورتر ١٩٥٠.

يتميز بالزخرفة بالقطع او التنقيط او الطبع وليس الطلاء وانه كان يستخدم لأغراض عملية أكثر منه لأغراض الزينة او الطقوس. ولا يعرف بالتحديد اذا كان أبناء كاسامانس يدفنون الأوعية الفخارية مع موتاهم ام لا وذلك لعدم العثور على قبور في هذه المواقع أو قربها.

ويعتقد بعض العلماء مثل أركل ان تقليد صناعة الحديد في غرب افريقيا، الذي وصفناه فيما سبق، قد انتشر الى هذه المنطقة من مصر أو النوبة بينما يفضل البعض الآخر مثل ماني منطقة قرطاجنة كمصدر لانتشار هذه الصناعة، ومهما يكن من أمر فقد عجز انصار مثل هذه الآراء عن أن يعرفوا الفوارق الأساسية في طريقة تعدين الحديد في كل من المنطقتين، وقد تم الانتقال الى العصر الحديدي في كل من مصر والنوبة عبر التصنيع واستخدام النحاس والذهب والفضة وحديد الشب في فترة ما قبل الأسر المصرية، ثم استخدام الحديد الأرضي. وعلى العكس فقد تطورت الصناعات القديمة للحديد في إفريقيا جنوب الصحراء، فيما يبدو، مباشرة من العصر الحجري الى العصر الحديدي مع كميات صغيرة من أعمال النحاس أو البرونز ربما باستثناء موريتانيا. وقد صنع النحاس والبرونز في فترات متأخرة بنفس طريقة تصنيع الحديد، وبينما نجد ان الطرق المستخدمة في كل من مصر والنوبة لتصنيع النحاس والبرونز تختلف بشدة عن تلك المستخدمة في تصنيع الحديد. أما الدلائل التاريخية المتاحة فلا تؤيد أي عنصر من عناصر نظرية انتشار صناعة الحديد أكثر مما تفعل الدلائل الحضارية المباشرة.

ويبدو على سبيل المثال أن الجرمانتيين من ليبيا والمرويين من السودان بدأوا استعمال عربات، ومن المحتمل أيضاً استعمال الآلات الحديدية في نفس الوقت (٥٠٠ق.م.) الذي بدأ فيه اقليم النوك او شمال نيجيريا استخدام الحديد – وفي الواقع فإن بعض التواريخ تشير الى ان صناعة الحديد قد بدأت في اقليم النوك قبل ذلك بفترة ترجع الى ١٠٠٠ق.م.

لم تعطِ النظرية القائلة بانتشار صناعة الحديد الى غرب إفريقيا الاعتبار المناسب الى كثير من المشكلات المتعلقة بهذه العملية والتي تشمل السؤال عن كيف ومتى وفي أي المناطق (ليس بالضرورة مكان معين) تمت عملية تحويل الكتل الصخرية او المواد الأرضية الى معدن جديد وقوي ذي فعالية وأكثر من الحجر في صناعة الأسلحة بالاضافة الى الأغراض المتعددة الأخرى التي كان يستخدم فيها.

وفي هذا الصدد لاحظ ديوب(٦٤) وتريجر(٦٥) بحق أن التواريخ الأولى لمواقع العصر الحديدي في غرب إفريقيا وجنوبها تذكرنا بامكانية ان تكون صناعة الحديد قد تطورت مستقلة في نقطة أو نقطتين في جنوب الصحراء. وهناك خلط كثير بين بداية تصنيع الحديد والأساليب الفنية المتقدمة لصناعة الحديد. والأسوأ من ذلك أن العلماء الذين يعتقدون ان صناعة الحديد قد انتقلت الى إفريقيا من الشرق الأدنى، قد استنتجوا خطأ أن ما لاحظوه من مراحل التعدين في الشرق الأدنى وأوروبا هو بالضرورة ما كان يستخدم في كل أجزاء إفريقيا.

(٦٤) س. أو. ديوب ١٩٦٨ ص ١٠ – ٣٨.
(٦٥) ب.ج. تريجر. ١٩٦٩، ص ٥.

التجارة في عهد ما قبل التاريخ والدول الأولى في غرب إفريقيا

تشير الأشياء التي عثر عليها في مقابر فزّان الى مصنوعات رومانية كانت تستورد بين القرنين الأول والرابع بعد الميلاد. ويبدو أنه بعد احلال القرطاجيين على الساحل الطرابلسي في أواخر القرن الثاني ق.م. جلب الرومان بدورهم العاج والعبيد من السودان حيث كان الجرمانتيون يلعبون دور الوسيط. كما تشير المصادر المكتوبة الى بعثات صيد وغزو الى الجنوب، وقد عثر على الموجودات الأثرية الرومانية على طول طريق العربات جنوب غرب فزّان. وقد تدهورت التجارة نتيجة لتدهور الحكم الروماني الا أنها انتعشت بدخول البيزنطيين بعد عام ٥٣٣م وقبل اجتياح العرب لفزّان[٦٦]. مما سبق يتضح أن البحث الأثري يعكس ادلة على عنصر هام من عناصر التجارة عبر مسافات بعيدة في فترة ما قبل التاريخ بين شعوب الصحارى وشمال إفريقيا، إلا أن هذا لا يبرر بأي حال ما ادعاه بوسنانسكي[٦٧] قائلاً انه لكي تكتشف أصول التجارة عبر المسافات الطويلة، في غرب إفريقيا لا بد من ان يبدأ بحثنا في رمال الصحارى، ومهما كانت سلامة النية في هذا الادعاء - فإن التأكيد خطأ كما ان اثاره البعيدة غير صحيحة، لسبب واحد هو انه قد تجاهل الشبكة الداخلية للتجارة عبر المسافات الطويلة في غرب إفريقيا، والتي سبقت بكثير تطور التجارة عبر الصحارى (بل جعلتها بالفعل ممكنة).

ومن وجهة نظر هذا الكاتب أن ما يتوفر الآن من أدلة يشير الى وجود شبكة عمل مكثفة للتجارة عبر المسافات الطويلة منذ أوائل العصر الحجري معتمدة على مقايضة الصناعات اليدوية المحلية مثل (الملح والأسماك) بين سكان الساحل والزراع في المناطق الداخلية من جهة، وأيضاً بين بعض الشعوب الى الجنوب، والمجتمعات الرعوية في الشمال من جهة اخرى. وتشمل اهم السلع المحلية في التجارة الحديد والحجر للأدوات والأسلحة والجلد والملح والمحاصيل والأسماك المجففة والأقمشة والفخار والأعمال الخشبية وجوز الكولا وبعض الحلى الشخصية المصنوعة من الحديد والحجارة.

وكما اعترف بوسنانسكي نفسه فقد وجدت كمية من الفؤوس الحجرية المصقولة ضمن موجودات المجموعات الزراعية الأولى في غرب إفريقيا وتعرف هذه الفؤوس في غانا باسم تيام آكوم، كما كانت تجارة الفخار تمتد الى مئات الأميال منذ العصر الحجري الحديث الى العصر الحديدي. أما المبارد الحجرية في حضارة كنتامبو والمؤرخة إلى ١٥٠٠ق.م. فقد ثبت انها صنعت من رخام كان يجلب تجارياً في مناطق متباعدة اذ انه وجد في سهول أكرا وشمال غانا. أما في ريم بالقرب من أواهيجويا، فقد وجد أن الطبقات الحضارية التي ترجع الى العصر الحجري الحديث الحديدي تناسب زمنياً مصانع الفؤوس الحجرية، ويقدّر أن الموقع كان مصدراً رئيسياً لتصدير الفؤوس الى المناطق التي تنعدم فيها المواد الخام.

هناك مزيد من الأدلة من العصر الحديدي فيما يختص بالمواد الخام قد تم التعرف عليها من أشكال الأوعية الطينية الغريبة على المنطقة التي وجدت فيها هذه الأوعية. ويحتمل أن يكون هذا النوع من التجارة المحلية موضحاً للتطور الاقتصادي والاجتماعي والسياسي الذي أرسى الدعائم الأساسية

(٦٦) ملحوظة من محرر المجلد: قدمت وجهة نظر معارضة في الفصول السابع عشر، والثامن عشر والعشرين من المجلد الحالي.

(٦٧) م. بوسنانسكي، ١٩٧١، ص ١١.

لدولة غانا القديمة الأولى. وان أهميتها تتعدى كونها مجرد الاشارة الى الاتصالات الحضارية على المستوى الاقليمي الى انها تثبت أن القليل من المجتمعات الزراعية كانت تكتفي ذاتياً.

وما تطور من أنماط تجارية داخلية وصناعات في غرب إفريقيا قد خلق الطرق التجارية بين غرب إفريقيا، والصحارى، كما أن هذا النوع من التجارة الداخلية قد غذى نمو القرى الكبيرة والمدن في اواخر العصر الحجري الحديث والعصر الحديدي، وما تجمع من معلومات أثرية حتى في مناطق الغابات في غرب إفريقيا - يشير باستمرار الى أن ارساء قواعد ممالك الأشانتي وبنين ويوروبا بالاضافة الى حضارة أقبو أكوو، قد اعتمدت في أساسها على الاستغلال الناجح لبيئتهم بواسطة مستخدمي الحديد الأوائل (وفي بعض الأحيان الشعوب التي لا تستخدم الحديد).

الفصل الخامس والعشرون

إفريقيا الوسطى

بقلم: ف. فان نوتن
بالتعاون مع د. كاهن وب. دو ماري

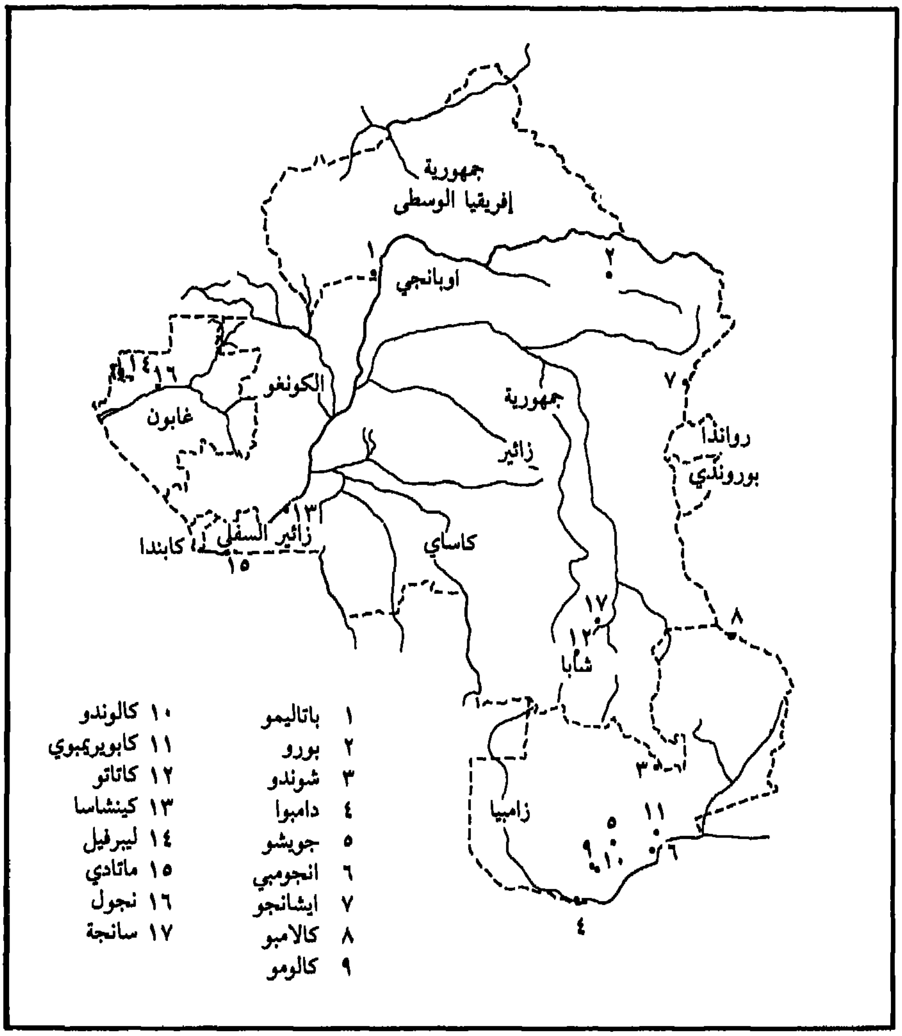
مقدمة

هناك مشكلتان أساسيتان بالنسبة لتاريخ إفريقيا وهما التوسع في صناعة استخراج المعادن والانتشار المثير للغات البانتو.

ولمدة طويلة كان هناك اتجاه واضح لربط المسألتين معاً وتفسير احداهما بالأخرى. واعتبر أن التوسع في صناعة المعادن جاء نتيجة لانتشار الشعوب الناطقة بالبانتو، وبالمقابل افترض أن هذا التوسع سهله كثيراً امتلاكهم للأدوات الحديدية التي مكنتهم من التعامل مع الغابات الاستوائية.

وكان اخصائيو اللغات هم أول من قدم النظرية التي تقول بأن لغات البانتو نشأت في الأصل على هضاب نيجيريا والكمرون، وقد تبعهم في ذلك علماء الآثار القديمة والمؤرخون وعلماء الأجناس البشرية الذين حاولوا جعل النتائج التي توصلوا اليها في مجالاتهم تتماشى مع هذه الفرضية. الا أن المجالات التي تتناولها هذه العلوم لا تتوافق تماماً، ومن المؤسف حقاً أن لفظ بانتو، وهو اصطلاح لغوي اصبح يستخدم للدلالة على المفهوم العرقي «الاثنولوجي» لقبائل البانتو ومجتمعاتهم وبالتالي للدلالة على مفهوم علم الآثار القديمة لعصر الحديد الخاص بالبانتو[1].

(١) في هذا الفصل سوف نستخدم لفظ «بانتو» بمعناه اللغوي فحسب.



الشكل ١ : خريطة إفريقيا الوسطى تبين الأماكن المذكورة في النص

خلفية جغرافية

ان المنطقة التي سوف نتعرض لها في هذا الفصل هي إفريقيا الوسطى والتي تشمل جمهورية زائير والبلدان المجاورة لها كالغابون والكنغو وجمهورية إفريقيا الوسطى ورواندا، وبوروندي الشمالية.
وهي تكون حوضاً كبيراً يبلغ ارتفاع سطحه في المتوسط خمسمائة متر فوق سطح البحر. وعلى أطراف هذا السهل الداخلي الشاسع ترتفع الأرض تدريجياً حتى تصير جبالاً او هضاباً مرتفعة.

وتتمتع المناطق القريبة من خط الاستواء بنصيب وافر من الأمطار على مدار العام. وعلى الجنوب والشمال من ذلك يوجد حزامان لهما فصلان مطيران يندمجان معاً، واعتباراً من خط عرض ٥ أو ٦ درجات تقريباً هناك فصل مطير واحد.
ومتوسط درجات الحرارة مرتفع نسبياً على مدار العام ويتسع المدى كلما بعدت المسافة عن خط الاستواء.
وتغطي السهل الأوسط غابات استوائية كثيفة تحدها حشائش السافانا. وتتغلب الحشائش في المناطق التي يسودها فصل جاف على نحو واضح، ومع ذلك تنمو شرائط الغابات حول الأنهار.

العصر الحجري الأخير

تزايد استعمال الأدوات المتخصصة بواسطة مجتمعات القناصة وقاطفي الثمار في العصر الحجري الأخير. وبصفة عامة يتم التمييز بين تقليدين متعارضين هما تقليد مجمع الصناعات التشيتولية وتقليد مجمع الصناعات الحجرية الصغيرة (الميكروليثية) وخير ما يمثلها صناعة ناشيكوفان وصناعة «ولتون».
وكثيراً ما تتم المقابلة بين العصر الحجري الأخير والعصر الحجري الحديث سواء من الناحية التكنولوجية (الأدوات المصقولة سواء ارتبطت بالفخار أم لا) او من الناحية الاجتماعية – الاقتصادية (تربية الحيوان والزراعة واستقرار البدو الرحل وما يتبعه من نمو محتمل للمدن). وفي الوقت الحاضر، فإن البيانات الاجتماعية الاقتصادية شحيحة بشكل يضطرنا معه أن نستنتج هذا التمايز اعتماداً على العوامل التكنولوجية وحدها، وهي عوامل باتت غير حاسمة. فالفؤوس الحجرية المصقولة والفخار اصبحت تظهر بالفعل في البيئات الأثرية (الأركيولوجية) القديمة للعصر الحجري الأخير.

تقف الصناعة التشيتولية متميزة تماماً عن بقية صناعات هذا العصر الحجري المتأخر في اواسط إفريقيا. ومن الناحية الجغرافية تنتمي هذه الصناعة الى الجزء الجنوبي وفي المحل الأول للأجزاء الجنوبية الشرقية لحوض زائير.
ويبدو أن التشيتولية هي استمرار لمجموعة الصناعات اللوبمبية حيث لا تتميز عنها الا بالاتجاه نحو تصغير حجم الأدوات وبظهور أشكال جديدة كرؤ وس السهام على شكل أوراق الشجر، ورؤ وس السهام التي تدخل في مقبض وتكتسي برقائق، والأدوات الحجرية الهندسية الصغيرة (كأجزاء الدائرة وشبه المنحرف). وخلال الفترة الأخيرة من التشيتولية ظهرت بعض الأدوات المصقولة.
ومن الناحية التاريخية يبدو أن التشيتولية قد امتدت تقريباً ما بين عامي ١٢٠٠٠ – ٤٠٠٠ او ٢٠٠٠ق.م. وفي بعض المناطق المحلية حتى بداية التقويم الميلادي.

أما الصناعة النشيكوفية فهي بصفة أساسية ميكروليثية توطدت على ما يبدو في شمال زامبيا منذ ما يزيد عن ١٦٠٠٠ عام مضت. وتنقسم الى ثلاث مراحل متتالية، انتج اقدمها أدوات ميكروليثية يصاحبها عدد كبير من الأحجار المثقوبة وأدوات الطحن. اما المرحلة الثانية والتي بدأت منذ حوالى ٨٠٠٠ سنة مضت فتتميز بوجود الأدوات المصقولة. اما آخر مراحل هذه الصناعة فتبدأ منذ حوالى ٢٠٠٠ عام مضى وتتميز بوفرة كبيرة من اجزاء الدوائر الصغيرة، والفخار وبعض الأدوات القليلة المصنوعة من الحديد وهذه الأخيرة ربما تكون قد جاءت من خلال التجارة. وعلى ما يظهر فإن التقاليد النشيكوفية عاشت حتى القرن التاسع عشر.

وثمة أدلة على وجود صناعة «ويلتون» الحجرية، وهي صناعة ميكروليثية خالصة، في جنوب زامبيا وفي جزء كبير من جنوب إفريقيا. وقد ظهرت أيضاً الأدوات المصقولة عند نهاية تطورها وهي تنسب بصفة عامة الى مجموعات السان الأول. وفي جويشو، بوسط زامبيا، حيث الأحوال البيئية مواتية بصورة استثنائية لحفظ المخلفات الأثرية، أمكن اعادة بناء الصورة التي عاش عليها البشر خلال الألف سنة الثانية قبل التقويم الميلادي.

فالمهارات كانت كاملة ومنتشرة على نطاق واسع، وتشمل صنع الأدوات من الحجر والخشب والعظام. وصممت الأدوات الميكروليثية بصفة خاصة لاستخدامها في تشغيل الخشب ولعمل رؤ وس السهام وحراب الصيد والسكاكين. وتضم الأدوات ضمن الأشياء الأخرى بعض الفؤ وس المصقولة والمطاحن والأسرة الحجرية. ومن بين الأدوات الخشبية التي عثر عليها عصي الحفر، ورؤ وس سهام شبيهة بما هو موجود الى اليوم عند السان. وتشمل الأدوات العظمية الابر والمثاقب ورؤ وس السهام.

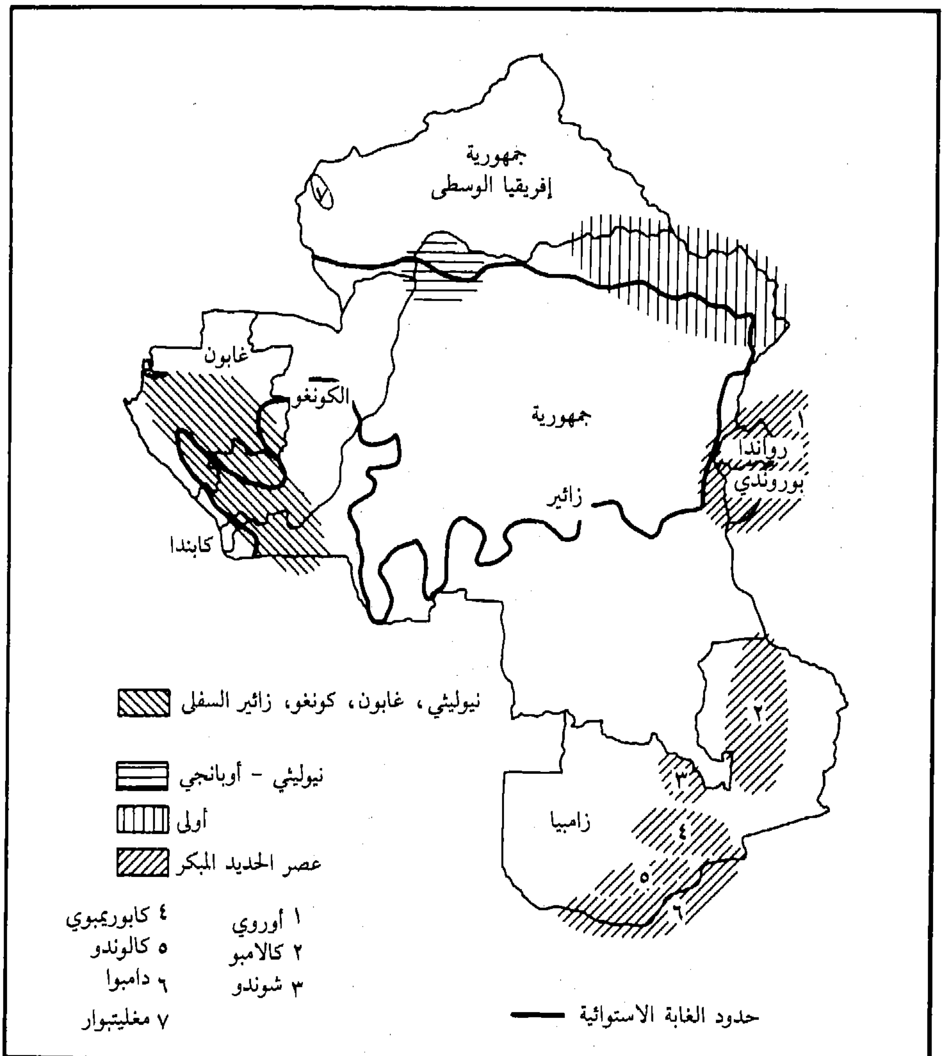
ويبدو أن مساكنهم كانت تتكون من أكواخ مصنوعة من فروع الشجر ومن الحشائش وتشبه مساكن السان بصحراء كلهاري. وكانوا يدفنون موتاهم حيثما يموتون بلا ادوات في قبورهم، ويوسدون الجثمان في اي اتجاه.

وكانوا يجهلون حرفتي الرعي والزراعة. وقد أثبتت الحفريات الأثرية ان طعامهم يشبه ما يتناوله الناس اليوم، وكان يتكون أساساً من أنواع مختلفة من الخضر التي يتم جمعها من بين النباتات البرية ويضاف الى ذلك صيد البر والبحر.

وكان سكان «جويشو» يعيشون على رقعة واسعة ويصطادون حيوانات السهل والغابة على حد سواء.

ويوجد في إفريقيا الوسطى عدد كبير من الصناعات الميكروليثية تم وصفها على نحو غير ملائم، وهي صناعات لا يمكن تصنيفها مع الصناعات المذكورة آنفاً. ولعله من المحتمل أن يكون بعضها بمثابة شكل محلي مختلف تكيف مع مواد او نشاطات خاصة.

وكما ذكرنا فالأدلة التي يحتاجها التمييز بين العصر الحجري الأخير والعصر الحجري الحديث قليلة. الا أن السمات التكنولوجية التي تنسب عادة الى العصر الحجري الحديث، تسود في بعض المناطق مثل ويلي، وأبانجي، وبدرجة أقل، في زائير السفلي. وقد أدى ذلك ببعض الأوائل من علماء الآثار القديمة في إفريقيا الوسطى الى أن يحددوا عصراً حجرياً حديثاً لويلي، وآخر لأبانجي، وثالثاً ليوبولدي. ولكن هذه الصناعات المزعومة غير معروفة عملياً بخلاف الأدوات المصقولة التي تم الحصول عليها بجمعها من على سطح الأرض أو بالشراء. وكلما أجريت ابحاث على نطاق اوسع ادى ذلك الى تعديل ملحوظ في الآراء السابقة. وبهذه الطريقة، فالويلية، التي عرفت بفؤ وسها المصقولة جيداً من حجر الهيماتيت (الشكل ٣)، يمكن نسبتها على الأقل جزئياً الى العصر الحديدي. وقد اكتشفت مؤخراً ورشة لتشكيل



الشكل ٢: خريطة إفريقيا الوسطى تبين مناطق المواقع النيوليثية والعصر الحديدي المبكر

الأدوات ببورو في ويلي. ويشير تاريخان مقومان بالكربون المشع الى أن هذه الورشة حيث تم العثور على بدايات الفؤوس جنباً الى جنب مع كسر من الأنابيب وخبث الحديد والفخار، تعود الى النصف الأول من القرن السابع عشر.

أما بالنسبة للأبانجية فيوجد الآن موقع محفور في باتاليمو، بجنوب بانجوي، بجمهورية إفريقيا الوسطى. وقد انتج هذا الموقع بليطات وقُدماً منحوتة، وفؤوساً سنها القاطعة مصقولة جزئياً وصناعات وفيرة غير ميكروليثية وفخاراً كثير الزينة، وجراراً كبيرة ذات رقاب واسعة (الشكل ٢) وأواني ودلاء مسطحة القاع.

وأمكن تحديد تاريخ الفخار باستعمال طريقة قياس الحرارة الضوئية، بحوالى عام ٣٨٠ بعد الميلاد (+٢٢٠). وقد يبدو هذا التاريخ حديثاً جداً للبعض ولكن بالنظر لعدم وجود دليل آخر فلا يمكننا تجاهله.

وفي زائير السفلى، من متادي وحتى كنشاسا، تم العثور على فؤوس حجرية بحافات مصقولة الى هذا الحد أو ذاك، تصحبها أحياناً أوان فخارية مسطحة القاع. وخلال حفر مجسات جوفية، في أحد الكهوف بهذه المنطقة مؤخراً، تم العثور على فأس مصقولة ومعها هذا الفخار ورماد خشب، وأمكن جمع عينة حدد تاريخها بوساطة الكربون المشع فوجد انها ترجع الى عام ٣٩٠ ق.م - ١٦٠ق.م. وأعطى مجس داخل أحد الكهوف الأخرى، الذي يقع على بعد ستة أميال، فأساً مصقولة ونفس هذا الفخار.

وفي الغابون، كشفت الطبقات الأثرية لمواقع عديدة، مثل طبقات نرجول - على بعد ١٢٠ ميلاً شرقي ليبرفيل، عن وجود طبقة من العصر الحجري الحديث تحتوي على فؤوس حوافها مصقولة وفخار وقطع من حجر الكوارتز.

العصر الحديدي المبكر

قامت صلات عديدة بين الأقوام الذين عاشوا إبان العصر الحجري الحديث، الذي شارف على نهايته وبين طليعة عمال المعادن، وهذه حقيقة ثابتة بصفة عامة. ولكننا لا ندري ما اذا كان هذا التحول التكنولوجي قد صاحبته تغييرات عميقة في المجتمعات المعنية. وبالنسبة لوسط إفريقيا فلا توجد لدينا مصادر تاريخية (مثل كتاب الابحار في البحر الأريتري) او مصادر انثروبولوجية كي تلقي ضوءاً على الفترة المقابلة للعصر الحديدي الأول، ولذلك فإننا نستقي دليلنا الوحيد من علم الآثار.

وعادة ما يصاحب العصر الحديدي الأول فخار تحمل قاعدته نقرة غير نافذة. ويعرف هذا الفخار (الشكل ٥أ)، الذي تم وصفه لأول مرة في سنة ١٩٤٨ باسم فخار أروى. وقد وجد بكينيا وأوغندا ومنطقة البحيرات (الشكل ٢). وهناك عينات وجدت في كساي، ويبدو أنها ترجع الى هذه المنطقة الواسعة. وأغلب تواريخ هذا الفخار تقع ما بين ٢٥٠ و٤٠٠ ميلادية. ولكنه، على الأقل في موقع واحد بكاتوركا، في بوهايا بتانزانيا، أمكن الحصول على تواريخ أقدم من ذلك بصورة ملحوظة. ومن سوء الحظ أنه من الصعب تقييم ما ينطوي عليه هذا الاكتشاف. ويتصف فخار أروى بمظهر موحد، وقد قيل ان لنماذجه المختلفة أصلاً مشتركاً، وإن الاختلافات الظاهرة عليه ما هي الا صيغ محلية، لمراحل زمنية مختلفة. ولعله من الثابت أن هذا الفخار لم يعثر عليه في طبقات أثرية متتالية الواحدة فوق الأخرى.

ومنذ البداية، واكبت صناعة الحديد خواص حضارية معينة كصناعة الفخار وبناء قرى من الطين والخشب، ومن المتفق عليه بصفة عامة أن الزراعة وتربية الحيوانات ظهرتا في نفس الوقت. وقد ثبت وجود فخار أروى في منطقة البحيرات (كينيا، وأوغندا، ورواندا، وبوروندي، وتانزانيا) وفي زائير في منطقة كيفو. ولمدة طويلة صنف الأثريون فخار زامبيا الذي يرجع الى العصر الحديدي المبكر (ما يعرف بالفخار المزخرف) ضمن الفخار الذي تحمل قاعدته نقرة غير نافذة. ولكن الحقيقة تشير الى أنه يمكننا تصنيفه تحت أنماط اقليمية مختلفة.

ويعتبر ج. هييرنو، وأ. ماكي من الناحية العملية الشخصين الوحيدين اللذين درسا العصر الحديدي المبكر في هذه المناطق. فقد نشرا وصفاً (١٩٥٧) لموقعين في كيفو. ووجدا في تشمفو فخار أروى النموذجي ومعه بقايا حديد وطوب مصنوع باليد دون قالب. وفي بيشانج تم التوصل خلال الحفر الى فرن لصهر الحديد، بني بوساطة طوب مصنوع يدوياً، وهو يحمل تجويفاً بسيطاً على جانبه ويحمل بصمات الأصابع كزخارف. وفخار بيشانج من نفس طراز أروى. وبعد ذلك (١٩٦٠) قاما بوصف عدة مواقع اكتشفت في رواندا وبوروندي وصنفا الفخار في ثلاث مجموعات: أ، ب، جـ. والمجموعة أ مطابقة لفخار أروى والاثنتان الباقيتان متأخرتان عن ذلك.

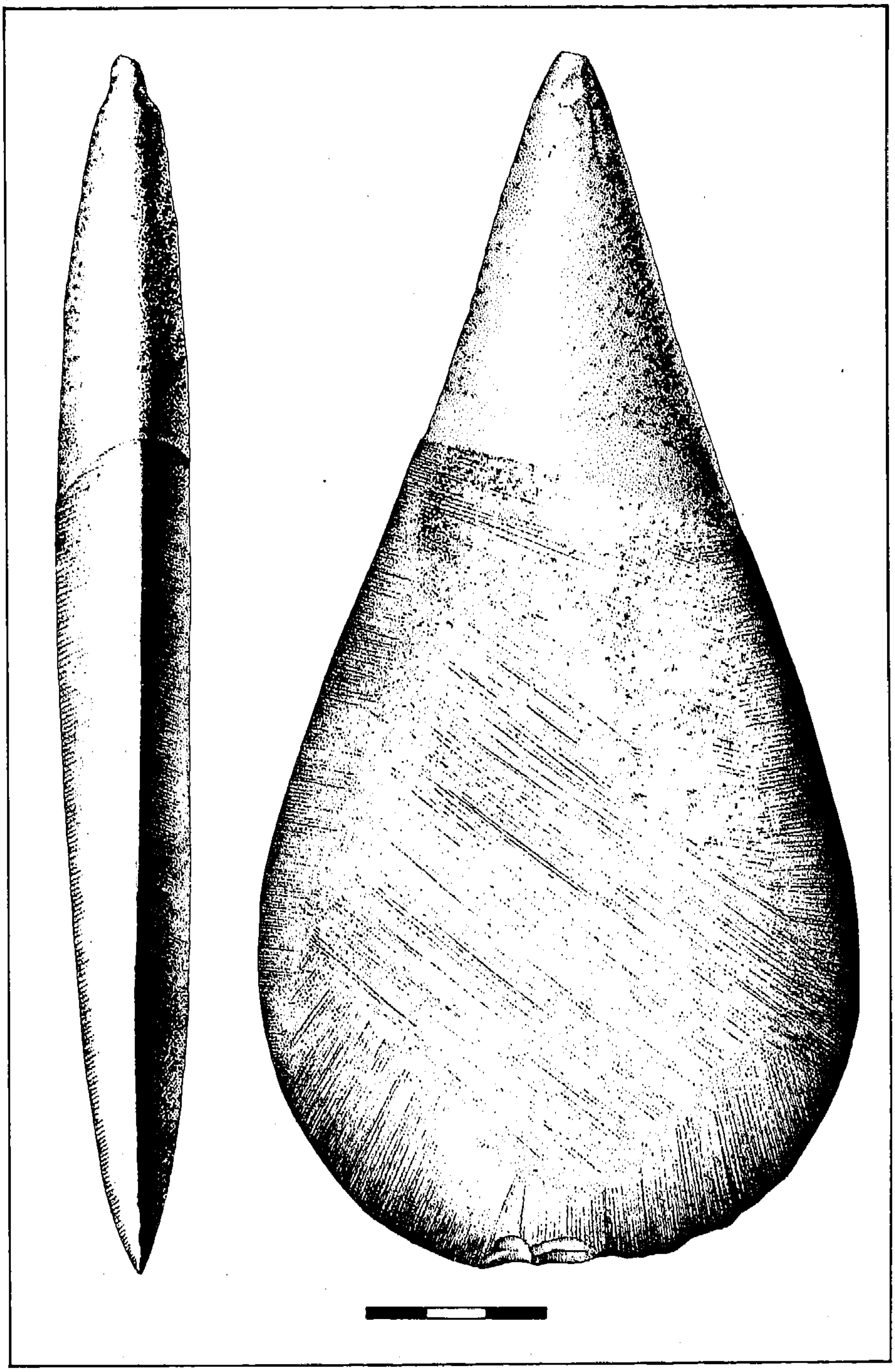
ويرتبط فخار المجموعة «أ» بخبث الحديد، وأنابيب، وطوب اللبن المصنوع يدوياً أحياناً والمزخرف أحياناً كما في كيفو، وفي موقعين على الأقل يرجع هذا الطوب الى أفران صهر الحديد. وقد نشر تاريخان أحدهما لموقع ندورا ١٢٥٠م (±١٠٠) والآخر كياماكوزا في مقاطعة ندورا، من مديرية بوتار وتاريخه ٣٨٠م (±٨٠).

وفي موكنانيرا، كان فخار طراز (أ) اما موجوداً في الطبقة العليا أو مختلطاً بصناعة حجرية من العصر الحجري الأخير. وبالمثل في ماسانجانو فان النوعين من المخلفات الأثرية من العصرين كانا مختلطين معاً. ويقودنا كل هذا الى استنتاج أن صناع فخار الطراز (أ) قد جلبوا معهم صناعة الحديد الى هذا الجزء من القارة في وقت كانت هذه المنطقة لا تزال مأهولة بالصيادين وجامعي الثمار من العصر الحجري الأخير، وقد ثبت تعايش مجموعات بشرية ذات مستوى تكنولوجي متفاوت، على نطاق واسع. وفي الوقت الحاضر لا يزال التوا يعيشون حياة الصيد داخل الغابات الاستوائية بنفس هذه المنطقة.

وقد كشفت الحفريات الأخيرة في أماكن، تقول عنها القصص والروايات المحلية انها مقابر ملوك الطوطسي، عن منشآت العصر الحديدي المبكر، فمثلاً في رورمبو وجدت حفرة محفورة في طبقة التربة الحمراء تحتوي على رماد خشب يرجع تاريخه الى عام ٢٣٠ق.م (±٥٠). ووجدت فوق هذه الحفرة جرة من عينة فخار الطراز (أ). وكشفت حفرة مماثلة في رامبورا عن خبث حديد وكسر من الأنابيب وبعض الفخار، الشبيه بفخار أروى، وبعض أدوات حجرية من العصر الحجري الأخير ورماد خشبي حدد تاريخه بعام ٢٩٥م (±٦٠). وتوافق هذه النتيجة الأخيرة تماماً ما اكتشفه قبلها ج. هييرنو.

ويبدو ان من يعملون بهذه الصناعة وصلوا الى وادي كالامبو حوالى عام ٣٠٠ ميلادية، ومكثوا فيه لما يقرب من الستمائة عام، وربما الألف. وعاش السكان (ربما كان تعدادهم كثيفاً نسبياً) حياة سلمية في قرى لم تكن محاطة بسياج او خنادق لحمايتها. وتقدر المساحة التي استغلت لأغراض السكن، حسب خطة لم تعرف بعد، بما بين عشرة الى اثنين وأربعين أكراً تقريباً.

وقد بقيت بعض آثار المنشآت التي استخدمت للسكن أو للتخزين حتى الآن. فهناك مجموعة من ثماني حفر، ذات حواف مستوية متوازية يبلغ قطرها أكثر من متر وعمقها حوالى مترين في المتوسط،



الشكل ٣: فأس أولي مصقول (هيماتيت)

وتحتوي على أوان فخارية، وكسر من القوالب ومعدات من الحديد، وخبثه. وكانت أربع من الحفر محاطة بخندق دائري قد يكون قد تخلف عن البناء العلوي. ولا توجد إلا أدلة غير مباشرة على قيام هؤلاء الأقوام بأنشطة زراعية كما لا يوجد أي دليل على تربيتهم للحيوانات.

وتوضح القطع الكثيرة لخبث الحديد وخاصة قطعة كبيرة أخذت من قاع فرن والكسر العديدة للأنابيب، أن عملية صهر الحديد كانت تتم داخل مناطق السكن او على الأقل بالقرب منها، ومن الأشياء التي عثر عليها داخل هذه الحفر يمكننا ان نذكر أسنة ورماحاً وسكاكين وسهاماً، وأساور وخلاخيل وخواتم لأصابع اليد والقدم، على ان بعض هذه الأسوار والخلاخيل وبعض ادوات الزينة الأخرى، كانت مصنوعة من النحاس أيضاً، واستمر استعمال الحجر كمادة خام، كما يستدل من العديد من حجارة الطحن والسحن والختم والمطارق (بما فيها مطرقة الحداد) والسندانات، ومعدات بدائية اخرى، للقشط والقطع والبرد. واستعمل الطَفْل الأبيض والمغرة الحمراء في الصباغة.

وفي أغلب الحالات كانت شفاه الأواني الفخارية مبرومة ومفلطحة وسميكة الحافة. وكانت قواعد جميع الأواني مستديرة ما عدا قاعدتي اناءين ظهرت عليهما نقرتان غير نافذتين، أحدثهما ضغط الأصابع على الطينة اللينة. وكثيراً ما تظهر الزخرفة وكانت في العادة تتم قبل عملية الحرق، على أو فوق كتف الاناء. وتتكون النماذج الزخرفية من أشرطة متوازية أفقية من الثُلَم التي تم نقشها بوساطة عظام أسماك الرنجة والحلزونيات. وكانت شبكات من الثُلَم المائلة والمتقاطعة من صفوف من المثلثات المطبوعة، أو علامات الترقيم، تكون من حين لآخر نماذج لرسومات بارزة بشكل خادع، تغطي رقبة الاناء وكتفه.

وقد وجدت عينات شبيهة لفخار شلالات كلامبو في أحد عشرَ موقعاً في المديرية الشمالية لزامبيا، منتشرة فوق رقعة تزيد عن ٣٧ ألف ميل مربع.

وباستثناء مقابر سانجا وكاتوتو (التي ستدفعنا أهميتها الى تناولها بشكل منفصل فيما بعد)، لم يكتشف العلماء بعد مواقع خاصة بالعصر الحجري المبكر في مقاطعة شابا. الا أن كافة المخلفات المكتشفة في المقبرتين المذكورتين متطورة بشكل كبير يغدو معه من الغريب حقاً الا يكون عصر حديدي مبكر قد سبقها في الوجود. وفوق ذلك تم اكتشاف العديد من أماكن السكن في العراء داخل منطقة النحاس، في شمال غرب زامبيا على الحدود الزائيرية، وبعضها يرجع الى القرن الرابع الميلادي.

ونظراً لغياب الحفريات الموسعة والتاريخ الدقيق، فإن المعلومات القليلة المتوفرة لدينا تقديرية الى حد كبير. وثمة أوان أربع من الفخار، اثنتان منها تحمل قاعدتها نقرة غير نافذة وجدت بالقرب من تشيكابا، ترجع الى طراز أروى. هذا من جهة ومن جهة اخرى فكثير من الجرار والكسر الفخارية الأخرى التي وجدت في أحد الكهوف بالقرب من مبوجي مابي تذكرنا بالفخار الذي انتجته شلالات كامبو.

وبغض النظر عن زامبيا ومنطقة البحيرات تعتبر زائير السفلى بمثابة المنطقة الوحيدة التي تحتفظ بمخلفات يمكن نسبتها الى العصر الحديدي المبكر. فاستناداً الى الشواهد التي تم جمعها من الكهوف، أمكن تمييز ستة أنواع من الفخار بصفة مبدئية بالاضافة الى بعض الأدوات الحديدية. وأثبتت الدراسات الاضافية للفخار وجود مجموعات كثيرة بعضها منتشر في رقعة واسعة، ولا تنتمي أي منها الى فخار أروى.

وطالما أن الحفريات لم تكن واسعة فلن نستطيع تحديد تاريخ لهذا الفخار أو للأشياء المعدنية المصاحبة له.

وفي كينشاسا، بالقرب من ينابيع الفونا، تم العثور على رماد خشب ومعه كسرة من فخار شاذ أرجع تاريخه الى ٢٧٠ ق.م(±٩٠). ومع أن هذا التاريخ يقع بالتأكيد داخل نطاق العصر الحديدي، الا أنه يستوجب النظر اليه في حذر حيث يتعذر اثبات اجتماع الرماد المؤرخ مع كسر الفخار، بصورة منهجية الا في تاريخ آخر يرجع الى كينشاسا - من جزيرة ميموساس في وسط النهر. فالرماد الذي عثر عليه جنباً الى جنب مع الفخار يعود الى عام ٤١٠م(±١٠٠). ومن المؤسف أن الفخار الذي تم تاريخه على هذا النحو لم يحظ بالنشر بعد.

ومع ذلك أمدتنا جزيرة ميموساس بفخار مطابق لفخار الطبقات العليا من جومب بوينت (التي أطلق عليها سابقاً كالينا بوينت) وهو الموقع الذي سمي باسم كالينيان والذي حفره ج. كولت عامي ١٩٢٥ و ١٩٢٧. وعندما أعيد حفر هذا الموقع مرة اخرى في عامي ١٩٧٣ و ١٩٧٤، كشف عن مستوى هام من الأعمار من العصر الحديدي وجدت بقاياه مبعثرة على المرتفع الجبلي. ووجد الرماد والفخار والحجار وطين محروق وبعض أجزاء الخبث وقطع من حجارة المطاحن في تشكيلات في الطبقات العليا من الحفريات ترقد على أرضية وموطن، توجد به بنى اثرية مختلفة، مواقد النار الكبيرة وخاصة حفر قد تبلغ أحياناً مترين عمقاً، وبعضها يحتوي على اوان فخارية كاملة. وهناك اثنتان منها احتونا على أدوات حديدية. وعليه نستطيع أن نرجح أن هذا الموقع يرجع الى عصر حديدي مبكر ونأمل أن نعرف المزيد في القريب العاجل عن هذا الموقع، بفضل عمليات تحديد التاريخ الجارية حالياً باستخدام الكربون المشع.

وفي منطقة بوار، من امبراطورية إفريقيا الوسطى، توجد عدة تلال مصطنعة دائرية باحجام مختلفة تعلوها مربعات من الحجر تبلغ أحياناً ثلاثة أمتار ارتفاعاً. وكثيراً ما توجد صفوف من الأقبية ويبدو أن هذه المعالم الحجرية كانت تستخدم للدفن. ومع ذلك فلم يعثر على أية عظام ولكن[٢] وجدت أشياء مصنوعة من الحديد. وتم اكتشاف ستة تواريخ بوساطة الكربون المشع، اثنان منها يرجعان الى الألف السادسة والخامسة قبل التقويم الميلادي وترجع الأربعة الأخرى الى فترة ما بين القرن السابع قبل الميلاد والقرن الأول الميلادي. ويبدو أن التاريخ الأول يرجع الى بناء التلال المصطنعة والثاني يشير الى الزمن الذي استخدمت فيه مرة اخرى ابان العصر الحديدي.

وتقع مقابر سانجة وكاتوتو في وادي زائير العليا وفي مدافن يوبمبا الجبلية وهما أفضل مواقع معروفة عن العصر الحديدي المبكر في جمهورية زائير.

وتقع سانجة على حافة بحيرة كيسالي بالقرب من كينكونجا، وتم العثور عليها منذ فترة طويلة مضت وخضعت للتنقيب المنظم في عامي ١٩٥٧ و١٩٥٨، وتجددت الحفريات أخيراً في عام ١٩٧٤. وتم التنقيب في ١٧٥ مقبرة. ولكن من الواضح أن جزءاً كبيراً من الجبانة ما زال في حاجة الى مزيد من عمليات الاستكشاف.

وبعد حفريات عام ١٩٥٨ أمكن تمييز ثلاثة مجموعات من الفخار وبدا في الامكان تكوين تسلسل زمني لها. ويبدو أن مجموعة كيسالي (وهي اغناها) هي أقدمها وتأتي بعدها مجموعة مولنجو (التي اكتسبت هذا الاسم من اسم مكان شمال شرق سانجة) وأخيراً تأتي مجموعة الفخار ذي الدهان الأحمر.

---

(٢) الا في حالات نادرة حيث أن حموضة التربة في إفريقيا الوسطى تدمر العظام بصورة سريعة في المقابر التي تقوم في العراء.

وقد اوضحت حفريات عام ١٩٥٨ أن هذه المجموعات الثلاث كانت جميعها أو بعضها على الأقل تنتمي الى عصر واحد.

ونظراً لعدم وجود تأريخ داخلي، فقد مكنتنا عمليتا تأريخ بالكربون المشع من تقرير عمر الجبانة وهما:

+ ٧١٠ (± ١٢٠)
+ ٨٨٠ (± ٢٠٠)

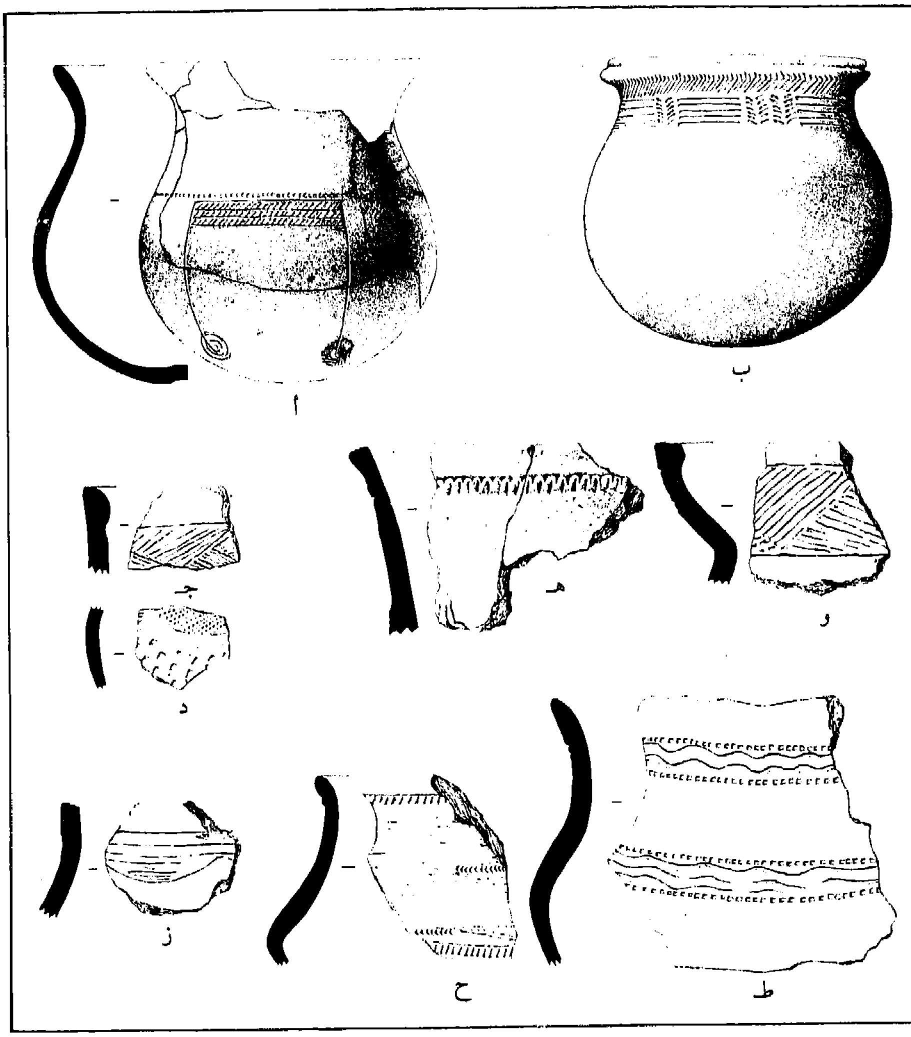
ولقد حصلنا على اقدم التأريخين من قبر كان الجسد موسداً فيه بطريقة غير عادية، والاناء الوحيد الذي عثر عليه، رغم أنه من فخار كيسالي، كان شاذاً. كذلك يأتي التأريخ الثاني من قبر خال من أي أدوات مميزة لأي من الحضارات الثلاث[٣]. وهكذا لا ندري بالتحديد ما الذي تحدد تأريخه. ثم ان الغموض الذي صاحب هذه التواريخ ليقلل من قيمتها كثيراً. وكل ما يمكننا أن نقول هنا هو أن بعض القبور بسانجة ربما تعود الى الفترة ما بين القرن السابع والقرن التاسع الميلادي. وتعطينا هذه الحفريات كذلك فكرة عن أسس الدفن وبالتالي تعطينا لمحة عن مجتمع سانجة القديم.

ورغم حقيقة أن المجموعات الثلاث من الفخار كانت متعاصرة، الا انه يبدو انها لا ترجع الى نفس السكان فالمقابر التي تضم فخار مولنجو والفخار ذا الدهان الأحمر هي فقط التي تحتوي على صلبان صغيرة من النحاس ينعدم وجودها فعلياً في مقابر كيسالي. ومن ناحية اخرى، كانت كل المقابر غنية بالأشياء الجيدة الصنع من الحديد والنحاس. وقد نفترض هنا ان الأقلية التي دفنت ومعها الصلبان كانت مختلفة عن سائر سكان «كيسالي» وربما كانت هي مصدر النحاس الذي يتواجد أقرب مناجمه على بعد مائة وثمانين ميلاً في اتجاه الشمال. ويبدو أن الشعائر الجنائزية كانت معقدة نوعاً ما. فأغلب المدافن كانت تتجه ناحية الشمال أو الشمال الشرقي (مولنجو)، بينما كانت الأخرى ذات الفخار الأحمر تتجه نحو الجنوب ويسجى الميت ممدّداً على ظهره مصحوباً بالأشياء التي تستهدف، على سبيل الافتراض أن تيسّر أموره في العالم الآخر. ولا تحمل الأواني أي دليل على البلى الذي ينجم عن الاستعمال، فضلاً عن أن التشابه الشديد بين أوانٍ معينة في مقبرة محدودة، ليشير الى أن هذه الفخاريات انما صنعت بخاصة للأغراض الجنائزية. ومن المحتمل أن هذه الجرار كانت تملأ بالطعام والماء، وكان الجثمان يزين بحلى النحاس والحديد والعاج. ويظهر أن الأطفال الرضع الذين لم يكتمل نموهم يدفنون أيضاً، وفي بعض الحالات حُمل الميت حزمة من الصلبان الصغيرة في يده. وهناك اتجاه واضح الى أن يتناسب حجم الجرار مع عمر المتوفى.

والصورة العامة التي يخرج بها المرء عن سانجة هي أنها حضارة كان فيها الناس يعلقون أهمية على صيد البر والبحر أكبر مما يعلقون على الزراعة، ومع ذلك، تم العثور في بعض القبور على فؤوس وحجارة الرحى السفلى، كما وجدت كذلك بقايا ماعز وطيور.

ولا يوجد قبر غني بمحتوياته الى الحد الذي يشير الى أن صاحبه شيخ قبيلة هام، ولكن دقة الصناعة التي تبدو على محتويات القبور تكشف عن المهارة الفائقة التي تمتع بها حرفيو سانجة الذين استخدموا العظم والحجر والخشب في صناعاتهم، كما صنعوا أسلاك الحديد والنحاس وصبوا السبائك في القوالب المفتوحة. وكان فخارهم اصيلاً غير مقلد.

(٣) وعلاوة على ذلك يبدو أن بعض العظام من أحد قبور مجموعة مولنجو قد أضيفت الى العينة خلال التحليل المعملي.



الشكل ٤ : أشياء وجدت في موقع باتاليمو، جنوب بانجوي (جمهورية إفريقيا الوسطى) (أ) قدر من طراز اليوري (وفق ليكي، اوين، ليكي). (ب) قدر من كالامبو. (جـ) و(د) كسر فخار من كانجونجا (موقع شوندو) (وفق فيلبسون ١٩٦٨)، (الشكل ٤) (هـ) فخار وجد في كابويريمبوي. (ز) كسر فخار من كالوندو (وفق فاجان، ١٩٦٧، شكل ١٢٢). (ح) كسر من دامبوا.

ونظراً لأن العظام لم تخضع بعد للتحليل، فإن كل ما يتوفر لدينا من بيانات انثروبولوجية لا تزيد عن دراسة لأسنان بشرية تم العثور عليها ضمن بعض العظام. وقد اظهرت هذه الدراسة بصفة خاصة كثرة تشوّه الاسنان. ولم نعرف المساحة الكلية التي تحتلها المقبرة، الأمر الذي كان يساعدنا – لو تم – في تحديد حجم السكان.

ومن ثم يبدو أن حضارة سانجة كانت بمثابة احدى الظواهر المتألقة رغم أن ما لدينا من معلومات حتى الآن يشير الى أنها كانت معزولة. وربما تغطي الاكتشافات بصفة عامة فترة اطول مما يشير اليه التأريخان اللذان حصلنا عليهما بوساطة الكربون المشع.

تم في عام ١٩٧٤ اجراء حفريات استهدفت بصفة رئيسية تحديد المدة التي استمر خلالها استخدام هذه المدافن، وايجاد تسلسل زمني داخلي وتعيين مساحتها ومحاولة الكشف عن الموقع السكني. وتم اكتشاف ثلاثين قبراً نأمل أن تمكننا من استكمال التسلسل الزمني وتكوين فكرة ما حول حجم الجبانة. ولكن نسبة لامتداد مساكن القرية الحديثة فإننا لم نستطيع العثور على موقع السكن. ومع ذلك ففي كاتونجو التي تبعد حوالى ستة أميال من سانجة كشفت الحفريات على ما يبدو موقع اعمار عند سفح احد التلال على بعد اقل من نصف ميل من احدى الجبانات، وكشفت الحفريات عن وجود مجموعات من الفخار معروفة في سانجة. وعلى الضفة اليمنى لنهر لوالايا، بالقرب من بوكاما على بعد ثمانين ميلاً من سانجة اعالي النهر جرى تنقيب جزئي في مدافن كاتوتو عام ١٩٥٩ عندما كشفت ٤٧ مقبرة عن محتوياتها.

وقد تم العثور على ثلاثة أنواع من الاكتشافات الأثرية المختلفة. اولها المقابر ثم حفر تحتوي على ادوات تختلف عن تلك التي وجدت بالمقابر واخيراً طبقة علوية تحوي فخاراً يتميز عن فخار المقابر والحفر.

ويتمثل الاختلاف الأول بين مقابر سانجة وكاتوتو في أن الثانية تضم مقابر تحتوي كل منها على عدة اشخاص قد يبلغون السبعة. وقد ضم بعضها أدوات أثرية كمطرقة الحداد وسندانه ورؤ وس حديدية كثيرة وفأس للقتال. ولا بد أن المقابر كانت لشخصيات هامة، حدادين غالباً تم تكريمهم بالتضحية بامرأتين وأربعة أطفال في حالة، وبأمرأتين وطفل في حالة أخرى.

وكانت الأدوات الجنائزية بالقبر فخمة كما هو الحال بقبور سانجة مما يشير كذلك الى وجود مجتمع مزدهر يتمتع بمستوى عال من التطور التكنولوجي. ويشير وجود العديد من الفؤوس وأحجار الرحى السفلية الى علو شأن الزراعة ولكن السكان كانوا يزاولون بالضرورة الصيد في البر والبحر الى جانب الزراعة. وقد استعصى تماماً في كاتوتو ظهور الصلبان النحاسية الصغيرة وفخار مولنجو والفخار ذي الدهان الأحمر. الا انه تم العثور على ثلاث سلطانيات كيسالية، تعتبر بمثابة الدليل الوحيد على قيام صلة ما بين سانجة وكاتوتو، ويشير الخرز الزجاجي والحلي المصنوعة من الأصداف البحرية المستخرجة سواء من المحيط الاطلنطي او الهندي الى وجود نشاطات تجارية واسعة نسبياً.

وفخار كاتوتو أصيل مثل فخار سانجة ويبدو أن وحداته أقل تكراراً نوعاً ما. ويذكرنا بعض الأنماط الزخرفية بفخار أروى، ولكن نظراً لأننا لم نعثر على أي نوع من انواع فخار أروى فإنه لا يمكننا اعتبار فخار كاتوتو بمثابة تطور أرويّ بدلاً من اعتباره بمثابة تقارب عابر بين الأنواع. وفي الحقيقة، فإن معظم الأشكال الزخرفية المشتركة بين هذين النوعين من الفخار مثل الخطوط الحلزونية والشرائط المشغولة والدوائر المشتركة المركز تعتبر شائعة الاستعمال.

والحفر المقابر احدث تاريخاً من القبور وقد أفسد بعضها نظام بعض القبور. وقد أمكن تحديد تاريخ احدى الحفر بوساطة الكربون المشع بعام ١١٩٠ (±٦٠).

وتم العثور على كسر فخارية قليلة في الحفر ولكن بعضاً من تلك التي ظهرت أثناء التنقيب كانت قاعدتها تحمل نقرة غير نافذة مما يعيد الى الاذهان فخار أروى.

وتكمل المدافن الحفر في كاتوتو الصورة التي توحي بها حفريات سانجة الا انه يبدو من المدهش ان مثل هذين المركزين الكبيرين القريبين الواحد من الآخر بل والمتعاصرين على ما يبدو لم تقم بينهما علاقة قوية.

ورغم وفرة الأدوات الجنائزية بالقبور فإننا لا نعرف الكثير عن القوم الذين دفنوا بهذه المقابر. فلا ندري من هم، ولا من أين أتوا ولا سبب وفاتهم وليس لدينا الا القدر اليسير من الوسائل التي تمكننا من تكوين صورة عن حياتهم. ويشير حجم الجبانتين وعدد ما بهما من قبور الى أن أواخر الألف الأولى الميلادي شهد على ضفاف نهر اللوالابا الأعلى وجود مراكز تجمعات سكانية كبيرة أنتجت حضارات زاهرة. ونأمل أن تكشف لنا الحفريات الجارية حالياً في عديد من الأماكن التي لم تخضع للتنقيب من قبل عن مزيد من الحقائق حول تلك الحضارات.

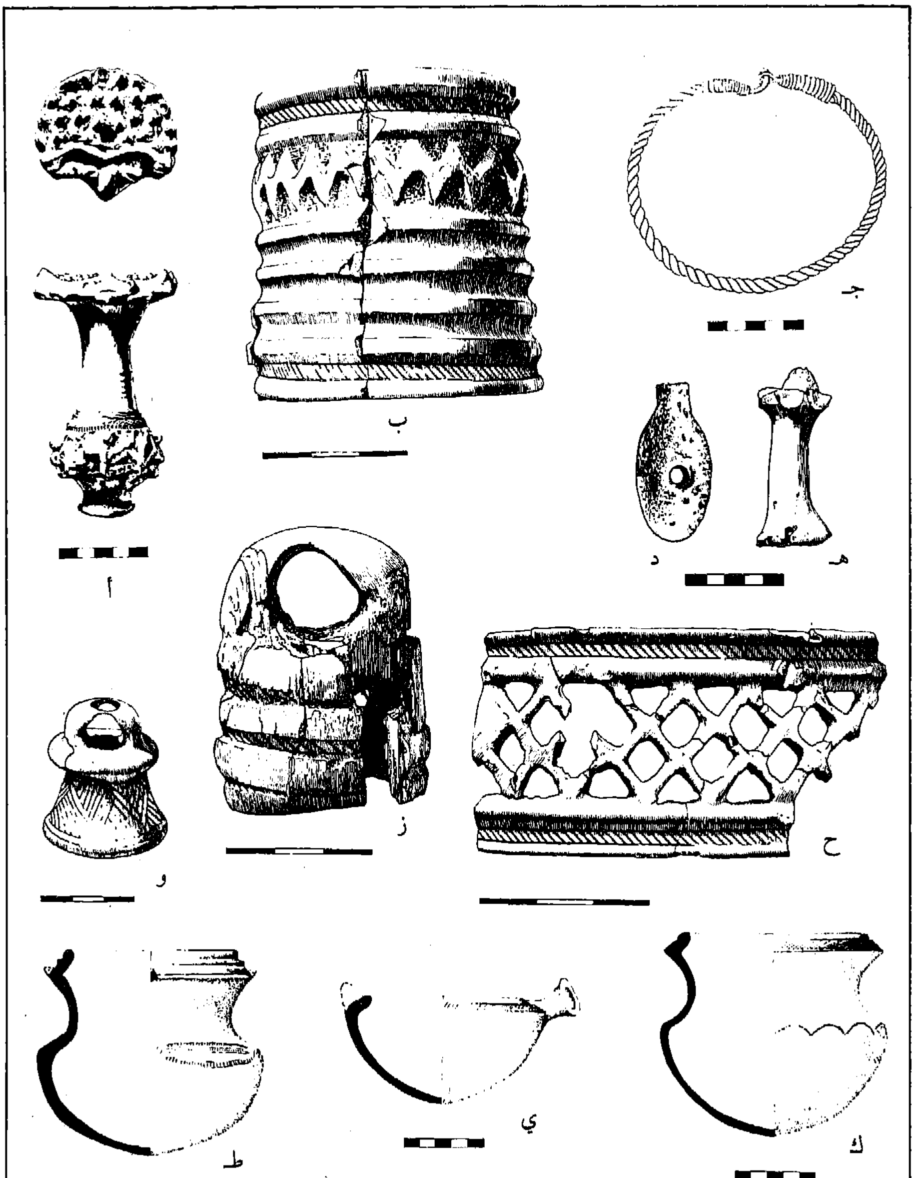
أصل البانتو

يطلق لفظ بانتو في المقام الأول، وكما ذكرنا آنفاً، على مجموعة معينة من اللغات ولكنه اكتسب تدريجياً مضامين اثنوغرافية بل وأنثروبولوجية، وفي الحقيقة استند الباحثون الى التصنيفات اللغوية كأساس للبحث في سائر المجالات.

ونظراً لغياب أي دليل مدون، لا يستطيع علم الآثار وحده اثبات وجود ارتباطات مباشرة بين الأدلة المتوفرة عن العصر الحديدي والمفهوم اللغوي للبانتو. وتكشف الحفريات عن الفخار والأدوات الحديدية والنحاسية، وبقايا عملية الطهو وبعض الهياكل البشرية. ولكن مثلما يستحيل علينا أن نجزم بأن أناء ما أكثر التصاقاً من غيره بالهندوأوربيين، يستحيل علينا أن نقول ان هذه الجرة او تلك من صنع قبائل «البانتو».

وعلم اللغويات هو الذي أمدنا حتى الآن بأغلب المعلومات عن أصل وانتشار البانتو. ويعتقد بعض اللغويين، ممن ينهجون بصفة أساسية نهج جرينبرج وجوثري، أن لغات البانتو التي تنتشر اليوم على رقعة تشمل نصف قارة افريقيا تقريباً قد نشأت في أواسط منطقة البنوي على الحدود ما بين نيجيريا والكمرون.

وجرت محاولات كثيرة لربط النجاح الذي حققته مجموعات البانتو بمعرفتهم لصناعة الحديد. ولكن المرء يلاحظ عند مقارنة مصطلحات التعدين في لغات البانتو ان هناك تبايناً شديداً في معجم ألفاظ طرق المعادن. ومع ذلك توحي تراكيب معينة باستعمال الحديد على مستوى «بانتوي أصلي» مثل تعبيرات الطرق والمطرقة وكير الحداد. فهل عرفت اللغة هذه الألفاظ قبل تشعب البانتو أم دخلتها كاصطلاحات مستعارة خلال مرحلة غير معروفة من عملية التشعب هذه؟. وليس من المستبعد أن تكون هذه الألفاظ التي ثبت وجودها بشتى الطرق، قد نتجت عن تحولات في المعنى من لغات البانتو الأصلية الى اللغات الحالية اليوم. وهكذا فلفظ «طرق الحديد» قد يكون استعمالاً خاصاً لكلمة



الشكل ٥ : أشياء وجدت في سانجة : (أ) زهرية عليها زخارف مجسمة، منظر من أعلى ومن الجانب (ب) سوار عاج (جـ) قلادة نحاس، (د) صفارة حديد، (هـ) نضد من طين محروق، (و) دلاية حجر، (ز) دلاية عاج (ح) جزء من نصف قلادة عاج، (ط)، (ي)، (ك) نماذج من الفخار. (متحف تيرفورن: ج. هيرنو، ي. دولونجري، وج. دويست، ١٩٧١).

«ضرب» في لغتهم. وأخيراً يبدو أن هناك أصلاً واحداً لمصطلحات التعدين في كل من اللغات البانتوي وفي اللغات غير البانتوية. مما يشير الى أن الأمر لا يعدو كونه مجرد استعارات، كل من الأخرى.

وعندما يتأمل المرء أهمية القدرة على تشكيل المعادن في المجتمعات الافريقية التقليدية، فإنه يصعب عليه أن يدرك الأسباب التي حالت دون اكتشافنا لأدلة لغوية واضحة على اشتغال البانتو بصناعة الحديد، اذا كانوا حقاً قد اشتغلوا بها قبل انتشارهم.

حالما يمعن المرء النظر في اعمال علماء الأجناس البشرية (الاثنولوجيون) يلاحظ انه على الرغم من امكانية تمييز مناطق حضارية معينة في عالم «البانتو» فانه يتعذر العثور على مجموعة من السمات المشتركة تجمع بين سائر قبائل «البانتو» وتميزهم عن بقية سكان إفريقيا.

وأخيراً لم يجر علم السلالات البشرية (الانثروبولوجيا الطبيعية) سوى قليل من الأبحاث على البانتو. ولا توجد الا مقالة واحدة تحتوي على بعض الحقائق نشرها ج. هييرنو عام ١٩٦٨، وأوضح فيها السمات البيولوجية المتشابهة بين الشعوب الناطقة بلغات البانتو. ولكنه بنى استنتاجه على أدلة مأخوذة من الشعوب القائمة في العصر الحاضر. والمجهود العلمي المبذول من زاوية علم الحفريات كان ضئيلاً حتى بات التفريق صعباً بين هيكل بشري كامل لأحد أبناء بانتو اليوم وهيكل آخر لأي آدمي من الافريقيين الآخرين او حتى من الأوروبيين. فما بالك بالهياكل المهشمة أو أجزاء الهياكل التي لا يستطيع علم الآثار عادة أن يقدم لنا سواها.

فالعظام البشرية المتحجرة، الوحيدة التي تناولتها الدراسات بعناية جاءت من اشانجو في حديقة فيرونجا بزائير. ولكنه من المؤسف أننا لا نستطيع تحديد عمر هذه البقايا على وجه الدقة كما استعصى علينا أن ننسبها الى أي نوع من أنواع السكان.

طبيعة المجتمعات خلال العصر الحديدي المبكر

معلوماتنا محدودة حول حياة السكان إبان بداية العصر الحديدي. والأدلة التي نملكها تختلف باختلاف الأبحاث التي تم اجراؤها، وتمدنا مواقع زامبيا ومدافن سانجة وكاتوتو، في شابا بأكثر المعلومات حسماً في هذا الصدد.

وتندر بقايا المَوَاطِن في أواسط إفريقيا. وما هو معروف لدينا الآن جاء من جومبي وشلالات كالمبو وربما كاتنجو.

ويتمثل الدليل الوحيد على وجود نشاط زراعي إبان بداية العصر الحديدي، في وجود فؤوس حديدية مطابقة تماماً في شكلها لمثيلاتها اليوم. وقد اعتبرت الحفر المحفورة في الأرض كمخازن للمحاصيل والمباني المصنوعة من الطين والقش كصوامع غلال. اما حقيقة وجود بقايا أحجار الرحى فهي اقل اقناعاً نظراً لأن كثيراً من المجتمعات التي اعتمدت على الصيد وجمع الغذاء امتلكت أيضاً أدوات للطحن.

وكما في حالة النباتات، فإن الحيوانات الأليفة تعتبر نادرة جداً في بواكير العصر الحديدي ويصعب تمييزها كذلك، ولا توجد لدينا أدلة محددة لافريقيا الوسطى بخلاف بقايا ارجل المعيز التي عثر عليها في بعض القبور في سانجة.

ووجود ذبابة التسي تسي في بعض المناطق كان حائلاً حقيقياً امام تربية الحيوانات. ولا بد أن هذه المناطق قد تباينت من وقت لآخر. وهذا ما يتعذر معه تحديد الأماكن الصالحة لتربية الحيوانات في مثل تلك الأزمنة البعيدة. وكان صيد البر والبحر لا يزال من أهم مصادر الغذاء.

لقد كشفت الحفريات عن رؤوس سهام ورماح يتعين علينا أن نرجح انها لكلاب صيد. وغالباً ما كانوا يستخدمون الشباك أيضاً.

أما أهمية صيد السمك فتوضحه السنانير التي تم العثور عليها في قبور سانجة وكاتوتو، أما الخطاطيف ذات الريشات الثلاث التي ترجع الى سانجة فتشبه كثيراً تلك التي يستعملها الآن النوتيون في زوارقهم في الجزء الاستوائي من زائير.

ويشير عدد معين من الأشياء التي تم العثور عليها أثناء التنقيب الى وجود شبكة من طرق التجارة المنتشرة ابان العصر الحديدي المبكر. ويبدو أن التجارة كانت قاصرة أساساً على المناطق القريبة من الأنهار الكبرى كالزائير والزامبيزي. ولم تعط المواقع التي تقع على بعد شاسع من الأنهار أو منطقة البحيرات الا ما ندر من الأدوات المستوردة. وعموماً يجب التفريق بين نوعين من التجارة: التجارة المحلية التي تشمل غالباً المعادن والفخار والسلال والسمك المجفف والملح، والتجارة البعيدة المدى التي تتناول اشياء كالأصداف (الودع وخلافه)، الخرز الزجاجي والمعادن كالنحاس. وجاءت كل الأصداف، التي وجدت في سانجة وكاتوتو بزائير من الساحل الشرقي ما عدا أصداف الكنوس التي عثر عليها في كاتوتو فجاءت من شاطىء الاطلنطي، على بعد تسعمائة ميل تقريباً. وعثر على صلبان نحاسية صغيرة، كانت تستعمل كنوع من العملات في مناطق بعيدة للغاية عن مناطق انتاج النحاس.

ويبدو رغم النقص الشديد في معلوماتنا أن اقتصاد سكان العصر الحديدي المبكر يختلف قليلاً عن اقتصاد المجتمعات التقليدية في عالم اليوم. وكان الاقتصاد يقوم على الزراعة وتربية الحيوان ولكنه كان يعتمد على وجه الاحتمال على الصيد البري وصيد السمك وبعض النباتات البرية. ومن الناحية الاقتصادية كانت هذه المجتمعات مكتفية ذاتياً تماماً.

ولا تختلف أقدم آثار التعدين المكتشفة من ناحية أساسية عن آثار المجتمعات التي وصفها لنا الاثنوغرافيون علماء الأجناس البشرية. ولكن داخل كل منطقة كانت هناك اختلافات متعاصرة في تكنيك ونوع الأدوات المنتجة. وبناء عليه فليس من الضروري ان ترجع الاختلافات في الأشياء المعدنية او الأدوات المطروقة الى فترات زمنية مختلفة. اذ أنها قد ترجع أيضاً الى الاختلاف الحضاري.

وقد تم العثور على أفران لصهر الحديد مصنوعة من الطوب يصاحبها فخار قاعدته تحمل نقرة غير نافذة في كيفو ورواندا وبوروندي وبهايا في شمال شرق تنزانيا. وتجدر الاشارة الى ان الوصف الوحيد لصهر النحاس في رواندا الذي وضعه بورجوا (١٩٥٧)، اشتمل على استخدام دائرة من الطوب المحروق في بناء فرن شبيه بالبقايا التي عثر عليها «هيبرنو» و«ماكي».

وحتى الآن لا يزال استخدام النحاس يظهر دائماً جنباً الى جنب مع الحديد وقد تم استخراج النحاس في شابا وفي شمال زامبيا، وربما في زائير السفلى أيضاً. وكما يتضح من الأشياء التي تم العثور عليها في سانجة وكاتوتو، فقد بلغت صناعة النحاس مستوى رفيعاً من الدقة. ويظهر أيضاً أن الرصاص قد استعمل هو الآخر خلال تلك الفترة، وقد ظل الكنغوليون يستخرجون الرصاص حتى بداية القرن الحالي.

لا يقوم الفخار كدليل حاسم على وجود العصر الحديدي، حيث أن الفخار يوجد مثلما رأينا آنفاً، داخل نطاق العصر الحجري المتأخر والعصر الحجري الحديث. ولعله من المستحيل، بصفة عامة تمييز

فخار العصر الحديدي بحد ذاته من فخار الفترات السابقة. ومع ذلك ففي منطقة البحيرات بزامبيا توجد بعض أنواع الفخار الخاصة بالعصر الحديدي مثل فخار أروى كلامبو وشندوي وكابوير يمبوي وكاندو ودامبوا.

وكانت الجرار تصنع عن طريق التبطيط والسحب في شرائح مطولة او شرائط مبرومة غالباً ما كانت ترص على هيئة لفة. ونظراً للتنوع الشديد في الأشكال والزخارف فسنكتفي هنا باستعراض بعض الأنواع المميزة.

وبقدر ما يسمح لنا علم الآثار ان نحكم، فإن مجتمعات العصر الحديدي المبكر لم تكن لتختلف في جوهرها عن المجتمعات الحالية. ولا بد أنها كانت تنطوي على نفس القدر من التباين. وعليه فالأساليب الزراعية التي كانت مستعملة آنذاك لم تكن مواتية لقيام مستوطنات كبيرة. بل انطوت تلك الأساليب على قدر من التغير المستمر. وتشذ مقابر سانجة وكاتوتو عن ذلك في انها جاءت نتيجة لاستقرار طويل الأمد او لتجمع سكاني كبير على ضفاف اللوالابا. والثراء الذي تتسم به الأدوات الموجودة في القبور خاصة في كاتوتو قد يقدم دليلاً على عدم التكافؤ الاجتماعي. كما أن المصنوعات الحديدية والنحاسية والحجرية والخشبية والعظمية والطينية لا تعكس فحسب مهارة الصناع بل تعكس التخصص كذلك.

وتكشف جميع القبور المكتشفة عن أدلة على وجود شعائر جنائزية متطورة. فالمتوفى يتزين بكثير من الحلى مثل الأساور والخواتم والعقود والأقراط وسلاسل من الخرز والأصداف. وربما كانت القواقع والودع والخرز الزجاجي تستخدم ضمن الأشياء الأخرى كعملات مثل الصلبان الصغيرة. وأخيراً فإن أقدم نحت خشبي مؤرخ من أواسط إفريقيا يأتي من أنغولا ويرجع الى سنة ٧٥٠ ميلادية.

الخلاصة

حذرت مرات عديدة من خطر استخدام النتائج الأولية لعلم من العلوم في تأييد استنتاجات علم آخر. ان التسرع في خلق علاقات بين الظواهر المختلفة يؤدي في معظم الأحوال الى صياغة نظريات عامة يصعب التمسك بها داخل الاطار الدقيق لعلومها الخاصة. ومع ذلك فإن اية محاولة لوصف طبيعة مجتمعات العصر الحديدي المبكر أو أصل الشعوب المتحدثة بلغة البانتو تتضمن مقارنة المعلومات الأثرية بغير الأثرية. ولقد طرحت بعض النظريات مثل نظرية جوثري، تفسيراً عاماً ومحكماً للغاية. وقد اثرت نظرية جوثري التاريخية والجغرافية - ربما دون قصد - على كثير من علماء الآثار وعلماء المجتمعات البشرية. ويتوافق التفسير اللغوي الأنثروبولوجي والأثري الذي ربط بين انتشار لغات البانتو وبين انتشار صناعة الحديد مع فكرة التطور بداية من الهلال الخصيب، في الوقت الذي يستبعد فيه هذا التفسير أن تكون إفريقيا قد حققت الاكتشافات بصورة مستقلة. وقد ادت التطورات الأخيرة الى اعادة النظر في هذه النظريات. ويبدي علماء اللغة ارتيابهم في مناهج ونتائج التسلسل الزمني. والتاريخ الجديد يلقي ضوءاً جديداً على اصل صناعة التعدين في وسط افريقيا. وقد تم تأريخ بقايا صناعات الحديد في موقع كاتوروكا واتضح انه يعود الى ٥٠٠ق.م، او ٤٠٠ق.م(٤).

(٤) حسبت التواريخ المعطاة هنا بسنوات الكربون المشع، وهي لا تتفق تماماً مع السنوات الشمسية. ويحتاج الأمر الى زيادة السنوات فيما قبل الميلاد بنسبة تختلف حسب الفترة المعنية.

وفي الحالة الراهنة لجهلنا، واذا أخذنا في الاعتبار الأدلة الحديثة، يتضح لنا جلياً أن المشكلات المتصلة بانتشار الحديد وأصل لغات البانتو لتنطوي على تعقيد أكبر مما ظننا في الماضي ولا يمكن أن نختصرها في تفسير مبسط ساذج تكتنفه التناقضات.

وبناء عليه يكون مما لا طائل وراءه ان نواصل تكوين الافتراضات الجديدة بشأن الهجرات والبحث حول أصل صناعة المعادن، كلما اسفرت عمليات التنقيب عن تواريخ جديدة. ولكننا نستطيع مع ذلك أن نحاول الربط بين حقائق معينة متصلة بالموضوع. وبالنسبة لمصدر صناعة الحديد فيبدو أن التاريخ الجديد المقترح لكاتوروكا ينطوي على وجود صلة مع التواريخ المتعاصرة المقترحة لمروى. وعليه فمن المحتمل أن نتصور انتشار صناعة الحديد جنوباً من مروى. ولكن في هذه الحالة يبدو أن ذلك قد حدث بسرعة كبيرة. وبالتالي لا يمكن للمرء الآن ان يستبعد امكانية وجود أصل آخر ولو كان مصدراً آخر محلياً.

ولعله من الصعب أن نتصور كيف تستمر في الوجود فكرة الارتباط الوثيق ما بين انتشار صناعة الحديد وانتشار الناطقين بالبانتو رغم أنه لم يثبت بعد أن الظاهرتين ليستا مرتبطتين تماماً. أفلا يمكننا أن نفترض أن «الناطقين بلغة البانتو» كانوا يجهلون الحديد عند بداية تكوينهم ولكنهم اكتشفوه خلال انتشارهم؟.

وكما لاحظ القارىء، فإن معلوماتنا عن عصر الحديد المبكر في أواسط إفريقيا تختلف قيمتها وهي ناقصة للغاية. وقد أدت الأبحاث المبكرة الى قيام نظريات اخذت تتداعى الآن نتيجة لتراكم المعلومات الجديدة. ولا بد من القيام بعمل أكثر اتساعاً؛ تنسيقياً وتنظيمياً، قبل أن نصل الى تفسير مقنع لأحداث تلك الفترة الحاسمة في تاريخ إفريقيا الوسطى.

الفصل السادس والعشرون

الجنوب الافريقي: الصيادون وجامعو الطعام

بقلم: ج. ي. باركنجتون*

لقد بين البحث الحديث أن شعوب العصر الحديدي انتقلوا الى جنوب لمبوبو، على أقصى تقدير في القرن الرابع أو الخامس من هذا العصر[1]. وعلى الرغم من أن كثيراً من التفصيلات لا تزال غير منشورة، فقد ظهر بجلاء أن سكان الترانسفال وسوازيلاند في العصر الحديدي كانوا مزارعين ورعاة وصناع فخار مشابه لذلك الذي عرف في زيمبابوي وزامبيا وملاوي[2] في نفس الفترة. ولم يعرف بعد ان كان الانتشار السريع لشعوب العصر الحديدي، قد استمر الى أقصى الجنوب بنفس السرعة. على أن اقدم تواريخ لتشغيل الحديد في ناتال كانت في أزمنة متأخرة نوعاً ما، حوالى ١٠٥٠ق.م[3]. وليس من الممكن بعد أن نحدد الزمن الذي وصلت فيه الجماعات التي تستخدم الحديد في انتشارها الى أقصى جهة في الجنوب، حول نهر السمك في الجزء الشرقي من الرأس الافريقي. وعلى الرغم من عدم التأكد هذا، والذي سيكون بلا شك محلاً لبحث لاحق فانه من المعروف ان سكان العصر الحديدي قد شتتوا وازاحوا مجموعات محلية من صائدي الحيوانات، وجامعي الثمار الذين كانوا يجهلون صناعة المعادن، وتربية الماشية، وتدجين النبات. وفي بعض الجهات فقط التي لم تكن تصلح

* ملاحظة من اللجنة العلمية الدولية: ان اللجنة العلمية الدولية تفضل ان تقدم هذا الفصل ـ مثل الفصول الأخرى من خلال الاطار التاريخي الذي حدد بدقة للمجلد الثاني. لذلك طلبت من المشرف على هذا المجلد ان يبين بوضوح هذه النقطة للمؤلف. لكن الأخير يرى انه في الامكان القيام بتغيير جذري في النص المقدم منه. وهذا ما حدا باللجنة الى نشره بالشكل المتفق عليه بعد النقاش مع المؤلف. ومع ذلك، فهي تحتفظ بتحفظات جادة حول المنهج المستخدم وبخاصة في الفقرة الأولى، وفيما يتعلق بالخلط الناجم الذي سيقتنع به القارىء الذي سيجد معلومات عن العصر الحجري القديم وعن الفترات المعاصرة في الوقت نفسه.

(١) ب. ب. بومون وج. س. فوجيل، ص ٦٦ - ٨٩، ر. ج. ماسون؛ ١٩٧٣، ص ٣٢٤؛ م. كلابويك، ١٩٧٤، ص ١٩ - ٢٣.

(٢) انظر الفصل السابع والعشرين من هذا المجلد.

(٣) أو. ديفز، ١٩٧١، ص ١٦٥ - ١٧٨.

لسكن خليط من المزارعين مثل خراف دراكنسبرج الوعر استطاع الصيادون البقاء على امتداد العصر الحديدي المبكر. ولم يكن حتى هذا الانسحاب فعالاً ضد عمليات التجريد من الأرض التي تجري هذه الأيام.

ويبدأ التوسع الثاني في السكان، وكان أكثر تدميراً من عدة زوايا من الكاب في أواسط القرن السادس عشر. كانت الاتصالات الأولى قد تمت بوساطة الرحالة البرتغاليين في نهاية القرن الخامس عشر، لكنها اشتدت نتيجة لقرار شركة شرق الهند الهولندية بانشاء محطة تموين في خليج تيبل في عام ١٦٥٢. وفي غضون ستين عاماً تخلى معظم سكان الرأس الافريقي (الكاب) في دائرة محيطها مائة كيلومتر حول هذه المحطة، عن نمط استيطانهم التقليدي، اما بالهجرة الى المستعمرة النامية للعمل كخدم أو بأن وقعوا ضحية للأمراض التي جاء بها المستعمرون[٤].

وقد صارت محطة التموين هذه مستعمرة قبل نهاية القرن السابع عشر، وحارب المستعمرون في معركتين كبيرتين على الأقل مع الأهالي الأصليين حول ملكية الأرض، وتكتل الأهالي المحليون في البداية تحت اسم «اوتنتو» أو «هوتنتوت» لكن التمييز أصبح معترفاً به ومستخدماً واضحاً بين الرعاة هوتنتوت (ومعظم أسماء قبائلهم معروفة) وبين الصيادين (من رجال البشمن أو بوزجسمن، وهم معروفون أيضاً بلقب «سنكوا هوتنتوت»). وكانت هذه الجماعات مرتبطة ارتباطاً وثيقاً واضحاً، حيث انها كانت تتحدث بلغات متشابهة، وتشترك في قدر كبير من تكنولوجيا انتاج مواد المعيشة والثقافة المادية، وان لم يكونوا متشابهين في التركيب الجسماني. وبما أنهم كانوا يختلفون في هذه النواحي عن غيرهم من مجموعة الأهالي المحليين، المزارعين الذين يستعملون الآلات الحديدية في أقصى الشمال والشرق، فقد اعتبروا بصفة عامة عنصراً منفصلاً، وهم الآن يعرفون باسم رعاة الخوي خوي وصيادي السان، ويدمجان معاً عادة في كلمة واحدة هي الخوسيّون[٥].

ويبدو مستحيلاً في هذه الحالة البقاء في اطار الحدود الزمنية التي ارسيت في هذا المجلد، لكن المؤلف حاول جهده ان يصف المظاهر المعمرة والمستقرة نسبياً لأسلوب الحياة تاركاً لمؤلفي المجلدات الأخرى التي تختص بهذه المناطق ان يلقوا الانتباه للتغييرات التي طرأت عبر القرون في حياة هذه الجماعات كنتيجة للاتصال بالعالم الخارجي، وللدور الذي لعبوه هم أنفسهم في التاريخ العام للجنوب الافريقي. وبهذه الطريقة يمكن تقليل خطر التداخل الى أقصى حد.

الخوسيّون (الخواسانيون)

سيصف هذا الفصل ما هو معروف من أسلوب حياة الصيادين والرعاة المحصورين بين المزارعين في العصر الحديدي وبين المستعمرين الأوروبيين في الجهات الجنوبية من الجنوب الافريقي، وبما أن المستعمرين كانوا متعلمين في حين لم يكن المزارعون كذلك، فإن المعلومات عن تقاليد حياة السان والخوي خوي وعلاقات الخوسيين مع غيرهم من الجماعات فيها شيء كثير من التحيز نحو الجهة الغربية من رأس إفريقيا. وبطريقة ما، زاد هذا التحيز بسبب ثراء الآثار في حزام جبال الكاب بالمقارنة

(٤) ر.هـ. الفيك، س. ماركس، ص ٥٥ - ٨٠.
(٥) أ. شابيرا، ١٩٣٠.

مع الجهات الأخرى للجنوب الافريقي. غير أن الأوصاف التي قدمت وان ارتبطت بمنطقتي الجنوب والغرب، تبين أساليب حياة الخوي خوي والسان عبر تلك المنطقة بالرغم من أن تفاصيل كثير من الأحوال المحلية ناقصة.

ولأسباب جمة، فإن لدينا كثيراً من الشواهد حول طريقة حياة الخوسيين. لقد ظلوا باقين على قيد الحياة حتى عهد قريب، وهناك الكثير من الأدلة الأثرية في شكل بقايا المصنوعات ومخلفات الطعام والحيوان والنبات. ونظراً لأنهم اتصلوا بمجتمعات متعلمة، فهناك قدر كبير من الوثائق التاريخية عن وسائل حياتهم المحلية. وزيادة على ذلك فإن بعض هذه الجماعات على الأقل تركت وثائق على شكل رسوم على الصخور ونحت، تعد مصدراً قيماً للمعلومات الاجتماعية والاقتصادية والتقنية وربما الدينية. وهناك حقيقة هامة هي أن البيئة في كثير من انحاء الجنوب الافريقي لم تتغير تغيراً جذرياً منذ الوقت الذي سكنها فيه الصيادون والرعاة. اذ انه في الامكان بعد مائتين وخمسين عاماً من النشاط الزراعي أن نوثق وأن نختبر العوامل المكانية والفصلية في البيئة التي لا شك انها قررت الى حد ما طبيعة الاستيطان في ما قبل التاريخ.

ان توفر موارد هامة للغذاء، والأماكن التي تظهر فيها فوق سطح الأرض المواد الخام، والتغييرات الدورية في المعروض من المرعي والمياه كلها عوامل تساعد في تحديد أنواع نماذج الاستيطان التي لجأ اليها الرعاة والصيادون. وأخيراً، فبالرغم من أنه لم يبق احد من الصيادين او الرعاة في الكاب، فهناك جماعات مرتبطة بهم عاشوا في ناميبيا وبتسوانا مدة طويلة تكفي لتمكين علماء الانسان في دراسة احوالهم دراسة منظمة، وتوفر دراسة أحوالهم في التكنولوجيا والاقتصاد والتنظيم الاجتماعي لعلماء الآثار نماذج عامة لا تقدر لتفسير مخلفات الشعوب المنقرضة في جهات اخرى.

وبما أن الرعاة من الخوي خوي والصيادين من السان لم يستخدموا المعادن في آلاتهم التي تستعمل في القطع أو الكشط أو الفرم، فإنهم يقعون في نطاق دراسات العصر الحجري، ونظر اليهم في الماضي في ضوء المصنوعات الحجرية التي انتجوها وهذا يعني أن المؤرخين وعلماء الآثار، يتعين عليهم حينما يرغبون في الاستفادة من المدونات الأثرية، أن يستخدموا استعمال قوائم المصنوعات وأن يراعوا الصناعات التي حددها ولتن وسميفيلد في الصورة التي يرسمونها عن الاستيطان قبل الاتصال بالأوروبيين. ومن أجل ما يعقب ذلك من مناقشات، تجدر الاشارة الى أن الخلافات الطفيفة في مجموعات المصنوعات بين موقع وموقع، لا يجب التركيز عليها أو استخدامها مقياساً في التقسيم الفرعي للرعاة او الصيادين الى مجموعات حضارية. وعلى خلاف ذلك سنفترض أن سكان الجنوب الافريقي في العصر الحجري المتأخر قد استخدموا بشكل أو بآخر المصنوعات الحجرية الميكرولية في شكل مكاشط، واسلات القذف والقدم وأدوات الحفر. ان تباين نسب هذه الآلات، من موقع لآخر والوجود العارض لأشكال اخرى من الأدوات يمكن تفسيره بأنه انعكاس لاختلاف حاجات السكان من أدوات بحسب اختلاف أعمالهم اليومية التي يؤدونها. فالناس الذين يعيشون في أمكنة متباعدة على نطاق واسع، ربما توافرت لهم مواد خام متباينة، او ربما كانوا يعملون في انشطة مختلفة بدرجة كبيرة مما يؤدي الى تصنيعهم لمجموعات غير متشابهة من الأدوات الحجرية ومع ذلك فقد كانوا مجتمعات متماثلة تربطها تكنولوجية متشابهة وعدد من الخصائص غير التكنولوجية مثل اللغة والهيئة الجسدية والاقتصاد.

الصيادون والجمّاعون السان (San)

بيَّنت الدراسات الحديثة في علم الأجناس لجماعة الصائدين الجامعين الأهمية القصوى للذي يلتقط من قوت الجماعات الواقعة في اطار هذه الفئة(٦). وواضح من تقارير كنج وجوي من كلهاري(٧) أن الأطعمة التي قام بجمعها النساء كانت تقيم أمد الجماعة يوماً بعد يوم، رغم أن الرجال والأطفال اشتركوا أيضاً في جمع مثل هذه الأطعمة «Veldkos» . ان أهمية جمع الطعام، وان كان معظمه وليس جميعه يتكون من النباتات، تتمثل في أنه يمكن التنبؤ بمواضعه ويمكن الاعتماد عليه على اساس يومي. كما أن الطعام من اللحم عالي البروتين الذي يتم اصطياده، او ايقاعه في الشرك بوساطة الرجال، له نصيب من الأهمية ولكنه لا يعد طعاماً مستقراً لكل يوم حيث لا يمكن التنبؤ بالحصول عليه. على أننا لا نخلص من ذلك الى أنه ينبغي اعادة تسمية الصائدين بجامعي الطعام، وانما الى أننا في حاجة للاعتراف بالتوازن بين مصادر الطعام المتاحة للصيادين ولجامعي الطعام، وقد حافظت هذه الجماعات على حياتها بجمعها للأطعمة ولكنها استفادت من وقت لآخر بنجاحها في الصيد.

ان انتشار هذا النمط من الحياة في مختلف انحاء الجنوب الافريقي واضح من البيانات التي استمدها من المصدر مباشرة الرحالة الأروبيون في القرنين السابع عشر والثامن عشر ومن السجلات الأثرية المتفرقة. فمثلاً كتب باترسون في ناماكوالاند في أغسطس (آب) من عام ١٧٧٨ عن هوتنتوت الادغال فقال: أنهم ليست لديهم ماشية . . . ويعيشون على النباتات التي تمضغ جذورها. وفي بعض الأحايين يقيمون مأدبة من لحم الظباء الذي كانوا يصيدونه أحياناً بسهامهم المسمومة(٨) أما طومسون الذي زار في أثناء تجواله منطقة كرادوك بالقرب من أعالي نهر أورنج في يونيو (حزيران) عام ١٨٢٣، كوخا للبشمن، وكتب عن سكانه يقول: تعيش تلك المخلوقات البائسة أساساً على بعض الجذور البرية التي تنمو في السهول، وأيضاً على الجراد والنمل الأبيض وغيره من الحشرات. . . هذا كل ما يملكون ليعيشوا عليه غير أنهم من وقت لآخر ينجحون في قتل صيد بسهامهم المسمومة(٩).

ومثل هذه المقتطفات، التي تشمل نطاقاً جغرافياً يمتد من مدينة الكاب الى أطراف مستعمرة (الكاب) في ذلك الوقت، تغطي فترة زمنية من خمسينات القرن السابع عشر الى عشرينات القرن التاسع عشر، تتفق بالاجماع في تقديرها لغذاء السان الذي تعيش عليه. وتذكر قلة من البيانات الوصفية الصيد من غير أن توضح «أنه يحدث أحياناً وكلها تذكر جذور النبات والدرنات كغذاء رئيسي مستمر، والواقع انه بينما يذكر المؤلفون كثيراً من الأطعمة النباتية، بما في ذلك العشب والتوت والنباتات التي تمضغ فان (Uyntjes) - أي البصل أو الجذور الدرنية هي التي تظهر على نحو شائع في الوثائق التاريخية. وهذه ليست في الحقيقة بصلاً على وجه الحصر ولكنها عبارة عن جذور بصلية لنباتات مختلفة من فصيلة السوسن، مثل السوسن نفسه وسيف الغراب والدبقية والفصيلة التوتية، وكلها مذكورة بالاسم. بجانب هذه الأطعمة النباتية هناك أشارات كثيرة لأطعمة حيوانية يمكن جمعها مثل الدود والنمل والجراد والسلاحف وعسل النحل ولكنها يجب ان تعتبر بالغة الأهمية في السعي اليوم من أجل الطعام.

---

(٦) ر. ب. لي، و. أ. ديفور.
(٧) ر. ب. لي، ١٩٧٢.
(٨) و. باترسون.
(٩) ج. طومسون.

بالطبع ان المدونة الأثرية تنحاز الى ذكر هذه الأطعمة التي حينها تؤكل تترك بقايا من الفضلات المعمرة. ولهذا السبب فإن علم الآثار عُنيَ كثيراً بصيد الطرائد الذي قامت به جماعات «سان» في الجنوب الافريقي. ولكن تتوفر الظروف المواتية للحفظ والتي تتيح جمع وتحليل المواد العضوية، فإن اهمية الأطعمة النباتية تظهر واضحة، لقد وجدت بقايا كثير من الأطعمة النباتية تحت السواتر الصخرية وفي الكهوف في ناميبيا[١٠] وفي الجزء الجنوبي الغربي من الكاب[١١] وفي الجزء الشرقي من الكاب[١٢] وفي ناتال[١٣] وفي ليسوتو[١٤]. ومن أشهر ما وجد منها سيقان النبات وأوراق الجذور البصلية ودرناتها منها، ونباتات السوسن بالطبع. تختلف أنواع الأغذية النباتية التي أمكن الحصول عليها باختلاف الجهات على حسب ما كان يزرع فيها، ولكن بوجه عام توجد منها عينات لعدد من جذور النبات مثل الكورمة أي البصلة المكتنزة، ودرنة البطاطس مضافاً اليها بذور ثمار الفواكه[١٥].

ان اغلبية البيانات التاريخية عن الجانب الحيواني في هذا الغذاء ما قبل التاريخ تتحدث عن الصيد عموماً، ويتضمن هذا ان أنواعاً كثيرة كانت تصاد، ولقد تأكد هذا من قائمة الحيوانات التي اكتشفت في الحفريات الكبيرة مثل تلك التي في داي كيلدر[١٦] وكهف خليج نلسن[١٧] حيث يمتد التنوع من حيوانات الذبابة الى الأفيال وحتى الحيتان كذلك، لكن الحيوانات في هذه المناطق تغلب عليها الحيوانات الصغيرة مثل السلحفاة والسحالي وخلد الكثبان والحيوانات المحلية الصغيرة آكلة النباتات، مثل الظبي الصخري، والظبي الافريقي الصغير. أما عظام الحيوانات آكلة اللحوم فنادرة، وقد يكون هذا دليلاً على انها كانت تقتل من آن لآخر للحصول على الجلود. هذا وأما الحيوانات الأكبر آكلة النباتات مثل التيتل الضخم والعلند والجاموس فكانت أندر من الحيوانات الصغيرة، ولم تكتشف آثار الفيل وفرس النهر ووحيد القرن، الا عرضاً وفي الوقت الذي تعكس فيه هذه النسب اتجاه مجموعات ما قبل التاريخ الى حمل الحيوانات الصغيرة الى أماكن سكنهم وذبح الحيوانات الكبيرة في مكان صيدها، فليس هناك شك في أن الصيد البري وآكلات النبات الصغيرة كانت هي الهدف الأول، أو الضحايا الأكثر تكراراً في الصيد.

واستغلت جماعات السان الموارد المائية استغلالاً كاملاً مما وضح من العدد الكبير من أكوام الأصداف الساحلية داخل الكهوف وخارجها على السواء. أما العلاقة بين جماعات «من يمتطون المياه» وبين السان والخوي خوي فستناقش فيما بعد، ولكن توجد دلائل مقنعة على أن جماعة السان قد سكنت في كهوف الشاطىء والمراكز التي تجمعت حولها الأصداف. وبالرغم من أن القواقع هي السمة الأكثر بروزاً في هذه المواقع فإن المجموعات الحيوانية تبين أن مجموعة كبيرة من الحيوانات البحرية كانت تؤكل، خاصة عجل البحر وجراد البحر والأسماك والطيور. وتندر بقايا الأطعمة النباتية في المواقع الساحلية. والى الداخل توجد دلائل من المناطق الشرقية والغربية من الكاب على جمع محار[١٨] المياه

(١٠) و.ي. ويندت، ص ١ – ٤٥.
(١١) ج.ي. باركنجتون، س. بوجينبول.
(١٢) هـ.ج. ديكون، ١٩٦٩، ص ١٤١ – ١٦٩؛ هـ.ج وج. ديكون، ١٩٦٣، ص ٩٦-١٢١.
(١٣) أو. ديفز، اتصال شخصي.
(١٤) ب.ل. كارتر، اتصال شخصي.
(١٥) هـ.ج. ديكون، ١٩٦٩؛ ج.ي. باركنجتون، ص ٢٢٣ – ٢٤٣.
(١٦) ف.ر. شفيتزر، ص ١٣٦ – ١٣٨، ف.ر. شفيتزر وك. سكوت، ص ٥٤٧.
(١٧) ر.ج. كلاين، ١٧٧ – ٢٠٨.
(١٨) هـ.ج. وج. ديكون، ١٩٧٢؛ ج. رودنر، ص ٤٤١ – ٦٦٣.

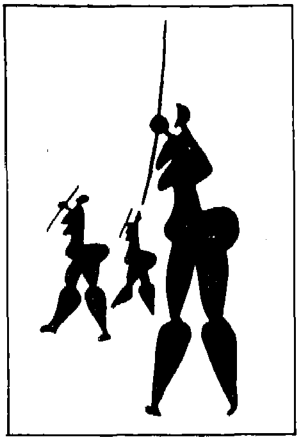
العذبة، كما كانت اسماك المياه العذبة معروفة في غرب الكاب وليسوتو(١٩). وقد صور صيد السمك في عدد من الرسومات على الصخور في ليسوتو وشرق جريكوالاند(٢٠).

وهكذا فإن غذاء جماعات «السان» موثق جيداً من الناحيتين، الأثرية والتاريخية، بالرغم من أن التنقيب عنها لم يكن موزعاً توزيعاً متكافئاً، وان بعض الجهات لم تنقب أبداً أو لم تفتقر الى المستودعات التي حفظت بصورة جيدة. وعلى وجه العموم كانت الضروريات اليومية هي مواد يمكن جمعها، وهي تشمل كميات من الجذور وغيرها من الأطعمة النباتية، والعسل والحشرات مثل الجراد والجندب والنمل الأبيض ويرقان الفراش. وكل هذه يضاف اليها الحيوانات الصغرى مثل السلاحف وخلد كثبان الرمال، وبعض الحيوانات الأصغر التي تعيش على الاعشاب، ويندر أن نجد فيها الحيوانات الأكبر. وكانت الجماعات التي تعيش على الساحل تصطاد الأسماك، وسرطان البحر الصخري وعجل البحر، وطيور البحر، وتجمع كميات من المحار، خاصة البطلينوس وبلح البحر، كما استغلت موارد الأنهار، بما في ذلك الحيوانات اللافقرية وأسماك الماء العذب، وهناك مصدر تاريخي واحد يشير الى وجود السمك المجفف(٢١). ويصف ثونبرج في ملاحظاته عن الجزء الغربي من الكاب في سبعينات القرن الثامن عشر شرابا صنعه اما الرعاة او الصائدون او كلاهما على النحو التالي:

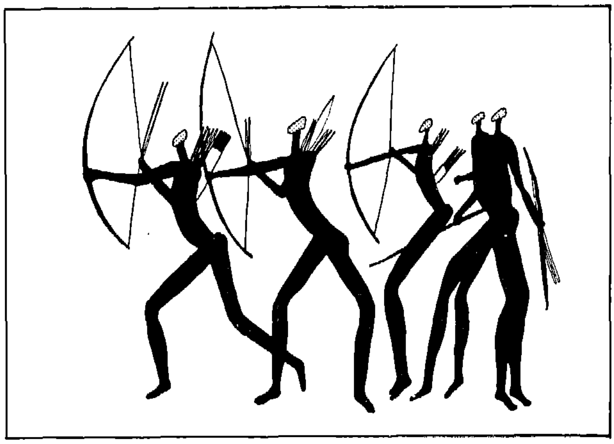
يطلق اسم «جلي» في لغة الهوتنتوت على نبات من الفصيلة الخيمية الازهرار، تجفف جذوره وتحول الى مسحوق وتخلط بالماء البارد مع العسل في حوض، ثم يترك حتى يتخمر لمدة ليلة واحدة، ويخرج منه أنواع من شراب الميد المخمر يشربونه ليلقوا بأنفسهم في حالة سكر(٢٢).

وتنعكس التكنولوجيا التي تم بها استغلال هذه الموارد في مجموعات الحجر والعظم والخشب والألياف التي جمعت من الكهوف والمخابىء المنتشرة في الجنوب الافريقي، وفي الأوصاف التي اوردها الرحالة الأول للمنطقة، فقد حفرت الأرض بعصي للحفر لاستخراج الجذور البصلية والدرنات، ثم شكلت ببريها وحرقها، ثم وضع لها ثقل بحجر وثقب، تم تثبيته على وسط العمود. وقد وصف هذه الآلات عدد من الرحالة(٢٣). وكشفت شظايا منها في دو هانجن وديكلوف في الجزء الغربي من الكاب(٢٤). وفي كهف سكوت في الجزء الجنوبي من الكاب(٢٥). وهناك كثير من الرسوم على الصخور تصور نسوة في أيديهم عصي ثقيلة تستعمل للحفر (انظر الشكل رقم ٢٦-١) ويحملن في الغالب أكياساً من الجلد لا شك ان فيها مواد غذائية لايصالها للرجال. وكانت صناعة الجلود شائعة تماماً في البيئات الجافة داخل الكهوف والمخابىء في الكاب، غير انه ليس من الواضح عادة ما اذا كانت هذه الأكياس مصنوعة من الكاروس او من قطع الجلد. وكان هناك نوعان معروفان من الأكياس المصنوعة من الخيوط او الشباك، النوع الأول يوجد في ملكهوثبوم ووندهك فارم كيف(٢٦) حيث تشابكت على نحو بديع، وربما استخدمت لحمل الجذور والدرنات (حجم خيط الشبكة نحو ١٠ ملليمترات). اما

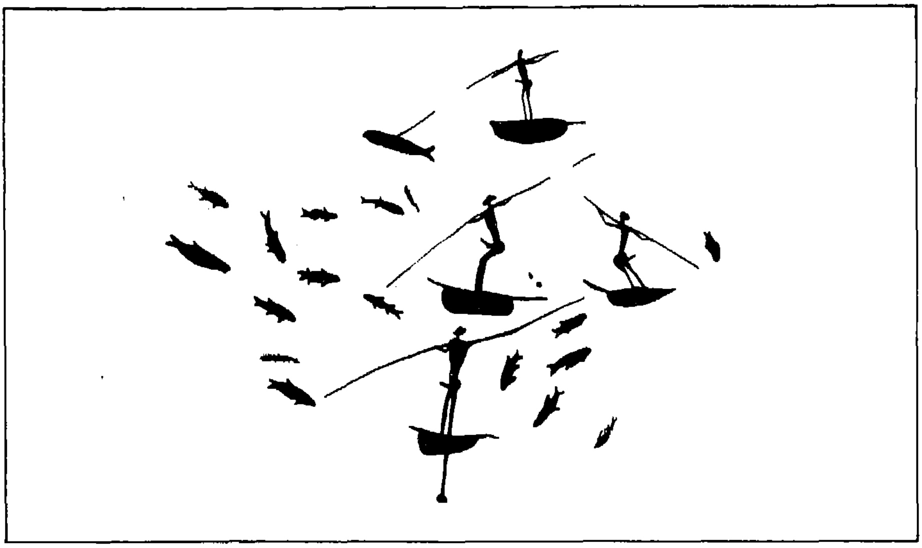
(١٩) ج.ي. باركنجتون وس. بوجينبول؛ ص ٦، ب.ل. كارتر، ١٩٦٩، ص ١-١١.
(٢٠) ل. سمطي، ص ٦٠ - ٦٧، ب. فينكومب، ١٩٦٥، ص ٥٧٨ - ٥٨١.
(٢١) هـ. ب. ثوم.
(٢٢) س.ب. ثونبرج.
(٢٣) أ. سبارمان، ص ٢١٩، ج. طومسون، المجلد الأول، ص ٥٧، انظرج.د. وجريفر بويك (اورد ان الطول ٣ أقدام)، شابيرا، ١٩٣٣.
(٢٤) ج.ي. باركنجتون وس. بوجينبول، ج.ي. باركنجتون، رسالة دكتوراه لم تنشر.
(٢٥) هـ.ج. وج. ديكون، ١٩٦٣.
(٢٦) هـ.ج. ديكون، ١٩٦٩، س.س. جروبيلار وأ.هـ.ج. جودوين، ص ٩٥-١٠١.



١



٢



٣

الشكل ١ : رسم على الصخور: النساء بعصي الحفر التي اثقلت بحجر مثقوب. كانت مهمة النساء هي جمع الدرنات والجذور البصلية وكذلك الأطعمة الأخرى التي يعول عليها، في رحلاتهن اليومية في المروج (المقياس ٣/٢، لون أحمر شاحب)

الشكل ٢ : مجموعة من الرجال بالأقواس والجعاب. كانت وظيفة الرجال هي صيد الحيوانات وايقاعها في الشراك لاكمال مساهمة النساء بالأطعمة النباتية.

الشكل ٣: مشهد لصيد الأسماك من تسيوليك، ليسوتو. كان صائدو الحيوانات الجامعون أيضاً صيادي اسماك، يصطادون الأنواع البرية وتلك التي تعيش في المياه العذبة ويستخدمون عدداً من التقنيات المختلفة، ومن الواضح ان الأسلوب المرسوم يتضمن قوارب وأطوافاً.

النوع الثاني فشبكة أكبر، أهتدي اليها فقط من جزء فيها وجد داخل كهف ديكلوف في الجزء الغربي من الكاب(٢٧) ومن رسم قصص باترسون(٢٨). واستناداً الى هذا الرسم الممتاز نحكم بأن هذا النوع ربما كان مستعملاً في حمل بيض النعام أو زجاج الماء. وكل العينات الأثرية، عملت من خيط صنع من ألياف سيقان نبات (Cyperus Textilis) ، أو نسيج قبرص. كما سماه ثنبرج في القرن الثامن عشر بسبب استعماله لهذا الغرض. هذا وان الحجارة المثقبة او المثقوبة من بين أكثر اللقيات على سطح الأرض شيوعاً عبر الجنوب الافريقي.

ويشير كل المعلقين تقريباً على موضوع الصيد لدى السان الى السهام والأقواس المسمومة باعتبارها السلاح الرئيسي. وقد زار بارو بعض اجزاء من شرق الكاب الحالية في عام ١٧٩٧ وكتب يقول:

«ان القوس عبارة عن قطعة من الخشب المستوي من الـ (Guerrie Bosch) وهو في الظاهر من فصيلة «السمان» (Rhus) والوتر يبلغ طوله ٣ أقدام، مصنوع من ألياف عضلات الظهر التي أخذت من ظهر لنوع من الظباء، جدلت حتى اصبحت حبلاً، ويستخدم ساق شجر الألوة لصناعة الجعبة أما السهم فيتكون من قصبة يتم ادخال نهاية أحد طرفيها في قطعة من عظم متين مصقول مأخوذ من ساق نعامة، ويبلغ طوله ما يقرب من خمس بوصات. وطول السهم كله يصل الى قدمين ويوضع عليه السم المأخوذ من رؤوس الثعابين والممزوج بعصارة بعض جذور النبات البصلية، وهذا هو ما يعتمدون عليه كثيراً(٢٩).

وعلى الرغم من أنه قلما عثر على الآلات الكاملة في الحفريات، الا أن هناك امثلة لكل اجزاء هذه المعدات في الكهوف في الجهات الغربية والشرقية من الكاب. فقد تم العثور على اجزاء من الأقواس، وقصب النبال، وأطوال مثلمة من القصب، وعظام حادة مصقولة، وأعمدة موصولة، ووتر معقود، وقطع الألوة المطلية، كل هذه اجزاء تمثل البقايا الأثرية المتفرقة من معدات الصيد التي تخص «السان» ووجود المصنوعات على شكل أهلة صغيرة او حجارة تشكلت في صورة قطاعات قد يدل على وجود طراز آخر من اسلحة القذف الموضوعة على ساق نبات لزج مثل الطرف القاطع من السهام كما عرضه أسرى البشمن في مدينة الكاب أثناء العشرينات في القرن الحالي(٣٠). وقد وضعت الأقواس والسهام والجعاب بشكل عام في فنون الجنوب الافريقي (انظر الشكل ٢).

ومع ذلك فإن كثيراً من الحيوانات لم يتم صيده بالقوس، ولكن تم قنصه بشراك الصيد المصنوعة من الخيوط النباتية المنصوبة في المروج. وقد رأى باترسون كثيراً من هذه الشراك المنصوبة للحيوانات المفترسة(٣١) اثناء تجواله بالقرب من نهر اورانج في عام ١٧٧٩، ولا شك أن كثيراً من الخيوط المجدولة من عقدتين التي اكتشفت في داخل كهوف دوهانجن(٣٢) وكهف وسكوت(٣٣) وملكهوتبوم(٣٤) تمثل بقايا أطوال كونت في الماضي شباك الصيد المجدولة من الحبال. ولا ريب في أن التقنية كانت أكثر فاعلية لصيد الحيوانات الاقليمية آكلة العشب مثل الظبي الصخري والتي تميل الى أن تسير في

(٢٧) ج.ي. باركنجتون، رسالة دكتوراه لم تنشر.
(٢٨) و. باترسون.
(٢٩) ج. بارو.
(٣٠) أ. ج. هـ. جودوين، ص ١٩٥
(٣١) و. باترسون، ص ١١٤.
(٣٢) ج.ي. باركنجتون وس. بوجينبول.
(٣٣) هـ. ج. وج. ديكون، ١٩٦٣.
(٣٤) هـ. ج. ديكون، ١٩٦٩.

الضروب المطروقة، ويمكن اجتذابها عن طريق اسوار اشجار صغيرة تقود الصيد الى الشراك التي نصبت له. وقد فسر وجود معدات خشبية كالشوكة في كهف مزرعة وندهوك(٣٥) وفي كهف سكوت(٣٦) بأنه عبارة عن زناد في شراك.

وقد ذكرت تقنيات اخرى في المدونات التاريخية، غير انها لم تؤيد بوساطة دلائل اثرية. ومثال ذلك ان عدداً من الرحالة في القرن الثامن عشر وصفوا حفراً كبيرة بالقرب من شواطىء النهر، بها عصي مدببة وضعت عمودياً بداخلها. وفسرت هذه عادة بأنها فخاخ نصبت لصيد كبير كالفيل ووحيد القرن، وفرس النهر، والجاموس، وقد انتشرت من الناحية الجغرافية من جنوب نهر أورانج وامتدت شرقاً الى جامتوس. ولما زار بارو الحدود الاستعمارية قرب جراف رينيت وصف أسلوباً تقنياً آخر للصيد، حيث بنى الصيادون من «السان» طرقاً تحيط بها أكوام من الحجارة بينها فجوات تفضي الى أماكن او خطوط من العصي معقود على رؤوسها ريش النعام، تساق اليها انواع الطرائد التي تعيش في جماعات في الهضبة الداخلية(٣٧).

ومن الواضح أن عدداً من تقنيات صيد الأسماك استخدمها الصيادون الجامعون، وأن معظمها موثق أثرياً، وربما كان أكثرها لفتاً للانظار هو فخاخ السلة المصنوعة من القصب ذات الشكل المخروطي، وتوجد في الجزء الأسفل من نهر أورانج كما وصفها ليشتنشتين وبارد، وقد نسباها الى «البسجزمان» وهم أغلب الظن من السان(٣٨). وكانت هذه الفخاخ توضع في مجرى النهر. وقد وصفت بانها كانت تصنع من صفصاف السلال ومن غصون الأشجار ومن القصب في شكل مسنن او مخروطي، وهي بلا شك شبيهة بتلك التي لا تزال تستعمل في نهري كافو وليمبوبو(٣٩). ومع انه لم يتم اكتشاف آثار لها، الا ان هناك الكثير من الرسوم على الصخور في ليسوتو وشرق جركولاند، تصف أطقماً من هذه الفخاخ متصلة باسوار من القصب أو أسوار خشبية لصيد كميات كبيرة من أسماك المياه العذبة، خاصة السمك الأصفر، الباربوس(٤٠) وقد وجدت عظام اسماك المياه العذبة في مواقع نائية مثل غرب الكاب وليسوتو. غير ان التقنيات المستخدمة لم تكن واضحة غالباً. وقد وصف كارتر عدداً من الصنارات الرفيعة من العظم على شكل حرف (V) ، بانها تصيد الأسماك الا انه اعترف بامكان وجود تفسيرات اخرى لها(٤١). هذا وقد تجلى في مناظر صيد الأسماك التي اخذت من تسولايك في ليسوتو أن صيادي السمك استعملوا الحراب الشائكة الطويلة، وهم واقفون في القوارب (انظر الشكل رقم ٢٦-٣) ربما يكون هذا هو السبب الذي جعل فنكومب يعتقد ان هذه المناظر ترجع لتاريخ احدث، غير ان تاريخها بقي لغزاً. ولم يظهر التنقيب شكلاً لأي قارب، وعلى كل حال فهذا أمر بعيد الاحتمال.

وفي الجزء الأسفل من نهر أورانج في نفس الموضع الذي ظهرت فيه فخاخ السلال، يروي ليشتنشتين عن البشمن فيقول «اذا كانوا يتوقعون علواً في مجرى النهر، حينما يكون الماء منخفضاً، فإنهم

(٣٥) س.س. جروبيلار، وأ.ج.هـ. جودوين.
(٣٦) هـ.ج. ديكون، ١٩٦٣.
(٣٧) ج. بارو، المجلد ١، ص ٢٨٤.
(٣٨) ليشتنشتين: مجلد ٢، ص ٤٤، ج. بارو.
(٣٩) ل. سمطي.
(٤٠) المراجع المذكورة، فينكومب، ١٩٦٠، ص ١٥-١٩، ١٩٦٥.
(٤١) ب.ل. كارتر، ١٩٦٩، ب.ل، كارتر، اتصال شخصي.

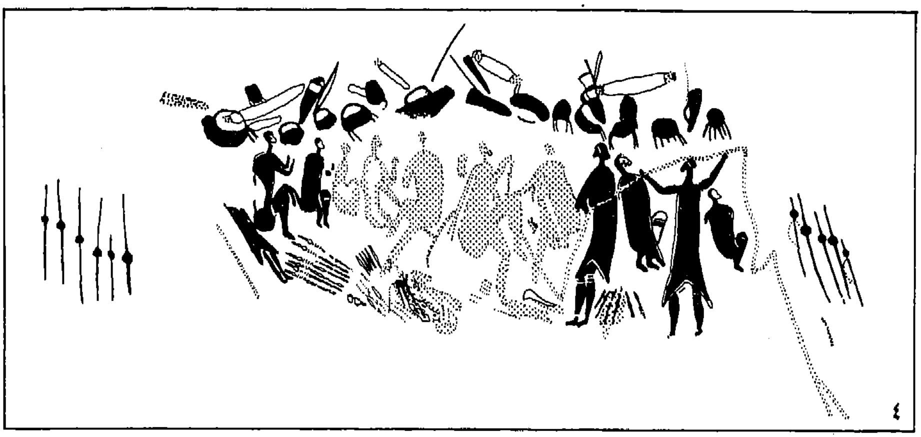
يعملون حوضاً واسعاً عند الشاطىء ثم يبنون حوله سوراً من الحجارة يستخدم كخزان، اذ ربما واتاهم الحظ ويقيت كمية من السمك في الماء الراسب(٤٢). لقد صمم هذا من مصايد السمك الذي يعيش بين الصخور على شكل يستفيد من علو وانخفاض ماء النهر على غرار مصايد السمك الذي يستفيد من المد والجزر حول ساحل الجنوب الافريقي من خليج سنت هيلانة الى خليج الجوا(٤٣). وبما أن هناك امثلة ساحلية كثيرة لا يزال العمل بها جارياً، (ويتم الاستفادة ببعضها) فيبدو من المعقول اذن أن نفترض أن سكان السواحل في العصر الحجري كانوا يستخدمونها حتى عهد قريب جداً. وهناك عدد كبير من الأسماك في المياه القريبة من الشاطىء، يوجد عادة في مواقع قريبة من مصايد السمك، الأمر الذي يشير الى عالية الكفاءة عندما يكون المد كافياً لتغطية الأسوار المقامة تغطية كاملة».

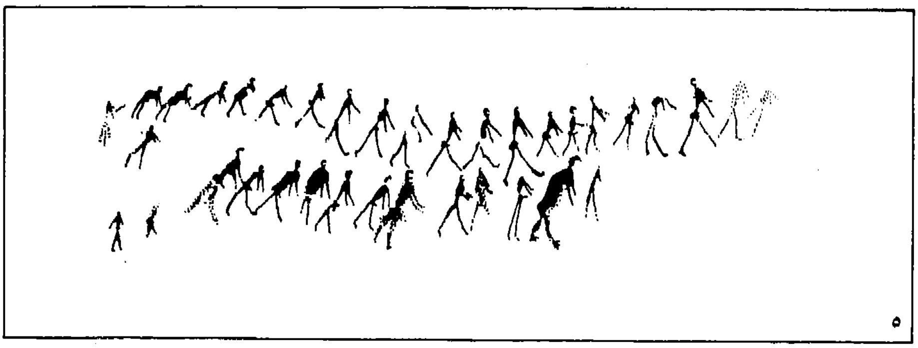
لقد أخبرني جدوين عن مصايد للأسماك من العظم الصغير متصلة في خط داخل سور الى إحدى مصايد الأسماك الصخرية ويوحي هذا بأن تقنيات اخرى لصيد السمك ربما كانت تستعمل في عصر ما قبل التاريخ مباشرة. وهناك شظايا من عظام يتراوح طول الواحد منها من اثنين الى ستة سنتميترات، وهي مسنونة من كلا الطرفين، وجدت في كهف خليج الاندز(٤٤) وكهف خليج نلسن(٤٥). غير أن هذه المصنوعات في كلا الحالين كانت متراكمة في طبقات يرجع عمرها الى مدة تتراوح ما بين ٧٠٠٠ ـ ١٠٠٠٠ سنة، وقد أصبح وجودها نادراً وإن لم يكن منعدماً في طبقات الأرض الأحدث عمراً. وربما كانت تستعمل كمصايد للأسماك بها طعم، غير انه يستحق التنويه أن «اونا» في تيراديل فوجو قد صنعت مصنوعات شبيهة بهذه من الخشب في القرن الأخير لصيد طيور الغاق البحرية التي كانت شائعة جداً في مواقع الكهفين المشار اليهما سابقاً.

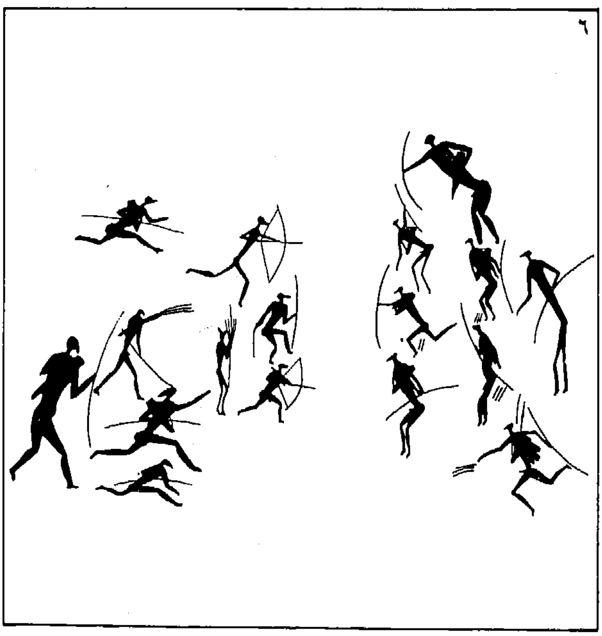
ولا توجد صنانير مؤكدة لصيد السمك في المواقع الساحلية في الجنوب الأفريقي كما لا توجد رؤوس حراب للصيد مقنعة. مع أن بارو ذكر وجود نسخ خشبية من هذه الأخيرة في الجهة السفلى لنهر أورانج(٤٦). وكان نص ما قاله هو: «لقد وجدنا حراباً كثيرة من الخشب تستخدم للصيد، بعضها له طرف حاد من عظم ومربوط بحبال مصنوعة كما يظهر من نوع خاص من الأعشاب». وهذه تتكون من عصي خشبية لها رؤوس حادة من العظم وإن كانت ليست شائكة بالضرورة وقد عثر على رأسين حادين شائكين من العظم في كثبان رمال في منطقة اجولهاس، غير ان السياق الذي وجدت لم ينشر عنه شيء على الرغم من أن احدهما وجد مخترقاً فقرة قطنية في هيكل عظمي لامرأة بالغة تنتمي صفاتها البدنية «للخوسيين»(٤٧). ان الخزف المثقوب والأشياء الحجرية التي عثر عليها في مواقع على الساحل الجنوبي للكاب، وصفت بأنها اثقال ترسب شبكة الصيد في الماء، ولو صح ذلك فسيكون سنداً للدلالة على وجود الصيد بالشباك على الساحل لدى «السان» ونظراً لكثرة الخيوط الليفية، والوجود المؤكد لصناعة الشباك في الأماكن الداخلية، فمن المحتمل الا يثير ذلك دهشة.

ان التقنيات المستخدمة لصيد أو جمع المصادر الأخرى الساحلية لم توثق جيداً، وقد تم العثور على مصنوعات ملوقية الشكل من العظم في بعض المواقع، وربما تكون هذه ادوات استعملت لفرز سمك

(٤٢) هـ. ليشتنشتين.
(٤٣) أ.ج. هـ. جودوين، ١٩٤٦.
(٤٤) ج.ي. باركنجتون، رسالة دكتوراه غير منشورة.
(٤٥) ر.ج. كلاين، غير منشور.
(٤٦) ج. بارو، ص ٣٠٠.
(٤٧) ج.ي. باركنجتون، رسالة دكتوراه غير منشورة.







الشكل ٤: رسم على الصخور بين مجموعة من الصيادين في كهفهم تحيط بهم مجموعة من عصي الحفر، والحقائب والجعب، والاقواس واثقال الاحجار المثقوبة في عصر الحفر واضحة بجلاء.

الشكل ٥: رسم على الصخر: مجموعة كبيرة من الأشخاص، يمكن التعرف على ان اكثرهم ذكور، فيما يمكن وصفه بأنه منظر حفل رقص. وتتضمن مثل هذه المناظر اعداداً كبيرة وربما ترتبط بالأنشطة غير الاقتصادية، وتشير الى ان المجموعة الصغيرة كانت تتجمع احياناً، ربما موسمياً للتبادل وللأنشطة الاحتفالات الأخرى.

الشكل ٦: عندما تتقابل المجموعات من حين لآخر، فتكون النتيجة هي الصدام بدلاً من التعاون. وهنا مشهد صدام بين مجموعتين متكافئتين، من الواضح انهما من الذكور.

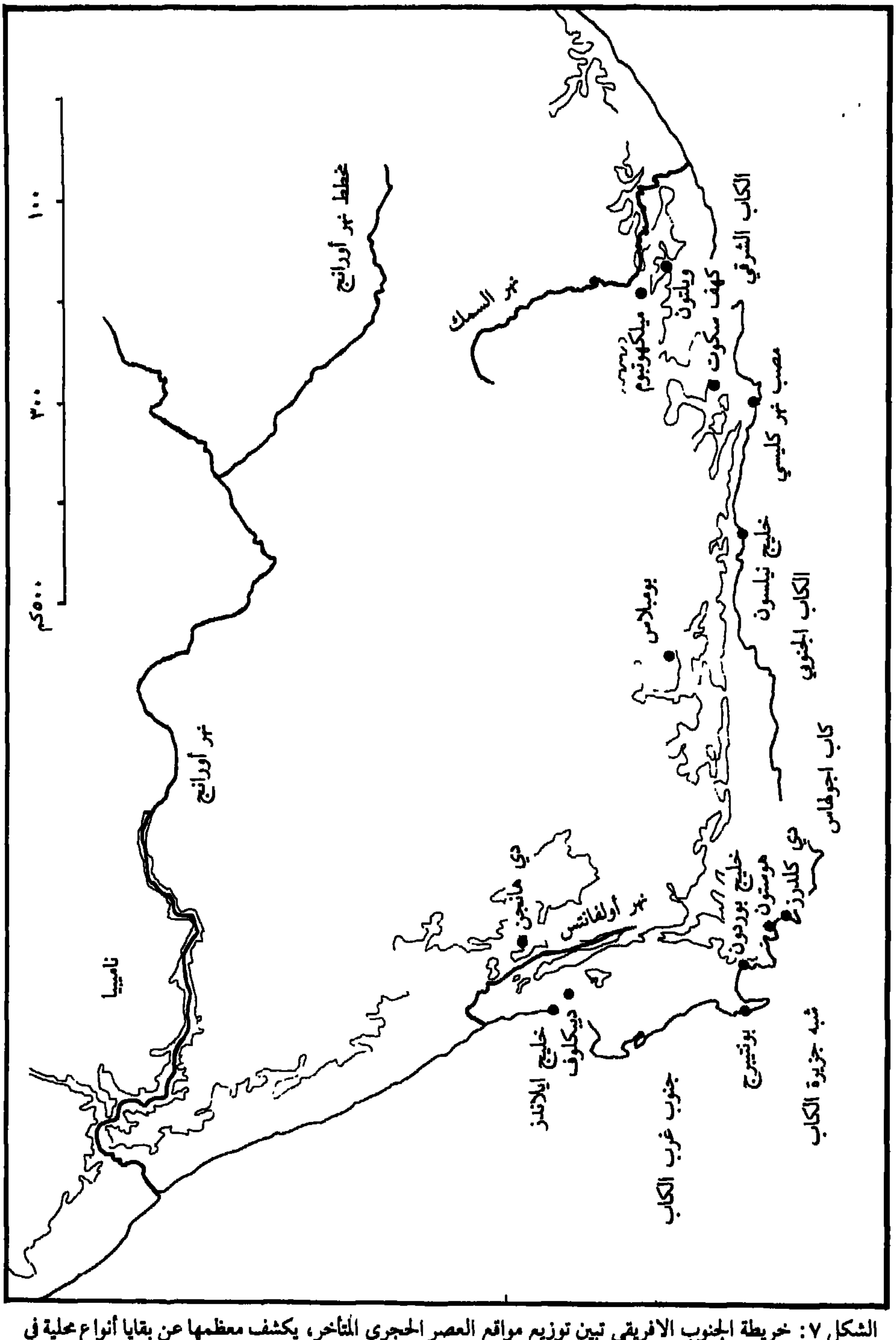
البطلينوس عن سمك الفرخ، غير أنه لا يوجد دليل حاسم. وليس هناك أيضاً ما يوضح كيف كان يتم صيد سرطان البحر وطيور أو عجول البحر، رغم وجود وثيقة تاريخية واحدة تثبت صيد عجول البحر بالقوس(٤٨). وأخرى تبين ضرب الخوي خوي لعجول البحر بالعصار حتى الموت في منطقة صخرية منعزلة بالقرب من خليج سلدانا(٤٩). وربما تعكس الطبيعة المجزأة لأجزاء الجمجمة التي وجدت في كهف خليج الأندز، وفي جهات اخرى هذه الممارسة الأخيرة.

وعلى الرغم من أن السان لم يكرسوا جهدهم لتدجين الحيوانات والزراعة فهناك بعض الدلائل التي تشير الى اقتنائهم الكلاب في القرن السابع عشر على الأقل. وقد اورد دابر (في عام ١٦٦٨)، الذي لم يزر الكاب أبداً، ولكنه مطلع جيداً على احوالها ممن زاروها، «ان سونكوا» احتفظت بكثير من كلاب الصيد، المدرّبة على صيد أرانب الصخور، وهي طعامهم الرئيسي(٥٠). وقد عثر على كميات كبيرة من عظام ارانب الصخور في المخابىء الصخرية التي نقبت في الجزء الغربي من الكاب. وهناك بعض الدلائل(٥١). على انه قد تكون هناك عظام كلب أليف بين المجموعة الأكبر لعظام الحيوانات التي وجدت.

وبالاضافة الى الطعام الذي يتم الحصول عليه بالصيد، هناك قليل من الشك في أن بقايا الحيوانات الميتة قد لعبت دوراً هاماً في توفير اسباب معيشة «السان» - فقد ورد ان السمك الميت او الحيتان الجانحة، بوجه خاص، كان يأكلها اولئك الذين يعيشون على الشاطىء. وهناك تقنية أخرى هامة على نحو واضح هي تشكيلة من الحاويات لحمل الماء، وقد وصف بيض النعام، وقدور المرينة في بعض الأحيان بشقوق، في التقارير التاريخية وتم كشفها بالرغم من أنها كانت عادة شظايا مأخوذة من مواقع متعددة، ان مجموعة كاملة من امثلة المخابىء لكثير من الأوعية التي دفنت بوضوح في مكان استراتيجي، معروفة واهتدى اليها بالطبع بعض الهواة، ومن ثم لم تدون تدويناً كاملاً. وقد استعملت قِرَب من جلد الحيوان لحمل الماء ولم يذكر أبداً أن الأواني الفخارية استعملت لهذا الغرض. وسنعرض لبحث صناعة الفخار بالتفصيل في الحديث عن القسم الخاص بالرعاة الخوي.

والخلاصة أن تقنية «سان» شملت فيما يبدو مجموعة كبيرة من تقنيات الصيد والجمع مستخدمة أدوات صنعت من مواد كالحجر والعظم والخشب والألياف والقصب والجلد والصدف والعاج والأوتار وأوراق الشجر(٥٢). وتحوي غالباً أدوات يجمع منها عدة مواد خام. ويظهر ان الحجر قد استعمل فقط في تكوين الأطراف والحواف القاطعة والكاشطة لأدوات أكثر تعقيداً، وان المصنوعات الحجرية ندر استخدامها بوضوح حتى في صنع المقابض الخشبية او العظمية(٥٣). وفي صناعة هذه المصنوعات الحجرية كانت تفضل الصخور ذات الحيثيات الناعمة المتجانسة مثل العقيق الأبيض والعقيق السلكريت او الصلصال المقسى، كما استخدم البلور الهش ايضاً والبلور الصخري وصخر الجلمود في سحن الأصباغ والمواد الغذائية. ومن المثير أن قليلاً من رحالة القرنين السابع عشر والثامن عشر قد ذكر او وصف بعناية خاصة صناعة المصنوعات الحجرية مبيناً الاحلال التدريجي لبعض المصنوعات من

(٤٨) و. باترسون.
(٤٩) هـ.ب. لوم.
(٥٠) ي. شابيرا، ١٩٣٣.
(٥١) ك. سكوت، اتصال شخصي.
(٥٢) ج.ي. باركنجتون وس. بوجينبول.
(٥٣) هـ. ج. ديكون، ١٩٦٦، ص ٨٧-٩٠، هـ.ج. ديكون، ١٩٦٩.



الشكل ٧: خريطة الجنوب الافريقي تبين توزيع مواقع العصر الحجري المتأخر، يكشف معظمها عن بقايا أنواع محلية في القرون الأولى بعد الميلاد.

العظم والخشب او المعدن محل مثيلاتها من الحجر، وتظهر آثار هذه الصورة لاستعمال المواد الخام بكثرة واضحة في أذهان الراغبين في تصنيف او تمييز المجموعات على اساس مقارنة المجموعات الحجرية وحدها.

ان الأبحاث الأثرية يتم توجيهها باضطرار وفق الظروف التي حكمت تنظيم مجموعات السان، ونتيجة لذلك فقد اصبح ممكناً وصف انماط الحاجة للصيادين الجامعين وصفاً بيئياً وهو ما لم يكن مألوفاً لدى الرحالة المبكرين، ومع ذلك، فإن المدونات التاريخية والمعلومات المستقاة من رسوم الصخر يمكنها بوضوح ان تدعم الأدلة التي توفرها الآن اعمال الحفر الواسعة والتحليلات المفصلة لعظام الحيوان وبقايا النبات.

وبالمقارنة مع الصيادين - الجامعين في كلهاري ومناطق اخرى، تظهر مجموعات السان كوحدات صغيرة ذات قدرة كبيرة على الحركة. وفي هذا الشأن فإنه لا يبدو مستغرباً أن نلاحظ أن البعثات المبكرة التي ارسلها فان ريبيك قد صادفت اعداداً هائلة من مصدات الرياح غير المأهولة - وهي الظاهرة التي سجلها باترسون بعد ذلك بمائة عام بالقرب من مصب نهر أورانج[٥٤]. وهذه الملاجىء عبارة عن حواجز من اشجار صغيرة لحماية السكان من العوامل الجوية، كانت تهجر عادة بعد الاستعمال لفترة تمتد لبضعة ايام على الأرجح. كما انه لا يبدو مستغرباً ان تعداد جماعات سان الكلي لم يتعد الا فيما ندر، عشرين شخصاً، تألفت في اغلب الأحيان هذه الجماعات اما من فرق عمل صغيرة، يقل عددها عن عشرة رجال او نساء وتضم كلا الجنسين والأطفال. ويستثنى من ذلك جماعات وصفها بارو تراوح تعدادها بين مائة وخمسين وخمسمائة من الناس، ومعسكر ذكره ثنيبرج ويضم خمسين كوخاً. وكل من الحالتين ينتمي الى اواخر القرن الثامن عشر عندما تجمع الصيادون بصورة غير عادية في اعداد كبيرة ليحموا أنفسهم من المغيرين الأوروبيين[٥٥] ويؤيد حجم الجماعات التي تبرزها الرسومات الصخرية - كما يظهر أن تعداد أكثر الوحدات الاجتماعية شيوعاً قل عن عشرين شخصاً، بالرغم من وجود الجماعات الكبيرة (انظر الشكل ٤).

ذكرت معظم المراجع أن رجال البشو أقاموا في كهوف وملاجىء صنعت من الحجر حيثما كانت متاحة لهم. وتبرز هذه المواقع بوضوح في المراجع الأثرية. وفي مخبأ الفيل الكبير عند جبال ايرونجو في ناميبيا تم رسم خرائط وكتابة وصف لثلاثة او ربما أربعة مصدات رياح، شبيهة بتلك التي وصفها الرحالة الأوائل في المناطق العشبية[٥٦]. وفي مواقع كثيرة في منطقة الكاب، هناك أدلة على أن جماعات «سان» استخدموا حزماً من العشب كحاشية يصنعونها حول ظهور وجنبات جدران الكهوف، فيتألف من ذلك مراتب اسفنجية. وفي حالتين على الأقل تم عمل حفرة غير عميقة في حجر الكهف أو الطبقات المتراكمة للوصول الى العشب، وفي المناطق الساحلية استعمل زوستيرا، وهو نوع من الحشائش[٥٧] التي تنمو عند مصب الأنهار، وكحاشية. ويظهر في هذه المواقع أن اماكن النوم والطبخ وايقاد النار والتخلص من النفايات مفصولة فصلاً تاماً.

وتوجد بينة متينة على وجود تخصص دقيق في مسؤوليات العمل بين جماعات سان ويظهر ذلك في فن الصخر في الربط بين النساء ومعاول الحفر والرجال والأقواس. وأيد هذه الحقيقة كثير من المراجع

---

(٥٤) هـ.ب. ثوم، و. باترسون، ص ١١٧.

(٥٥) ج. بارو، ص ٢٥٧، ٣٠٧، س.ب. ثونبرج ١٧٤.

(٥٦) ج.د. كلارك وج. والتون، ص ١-١٦.

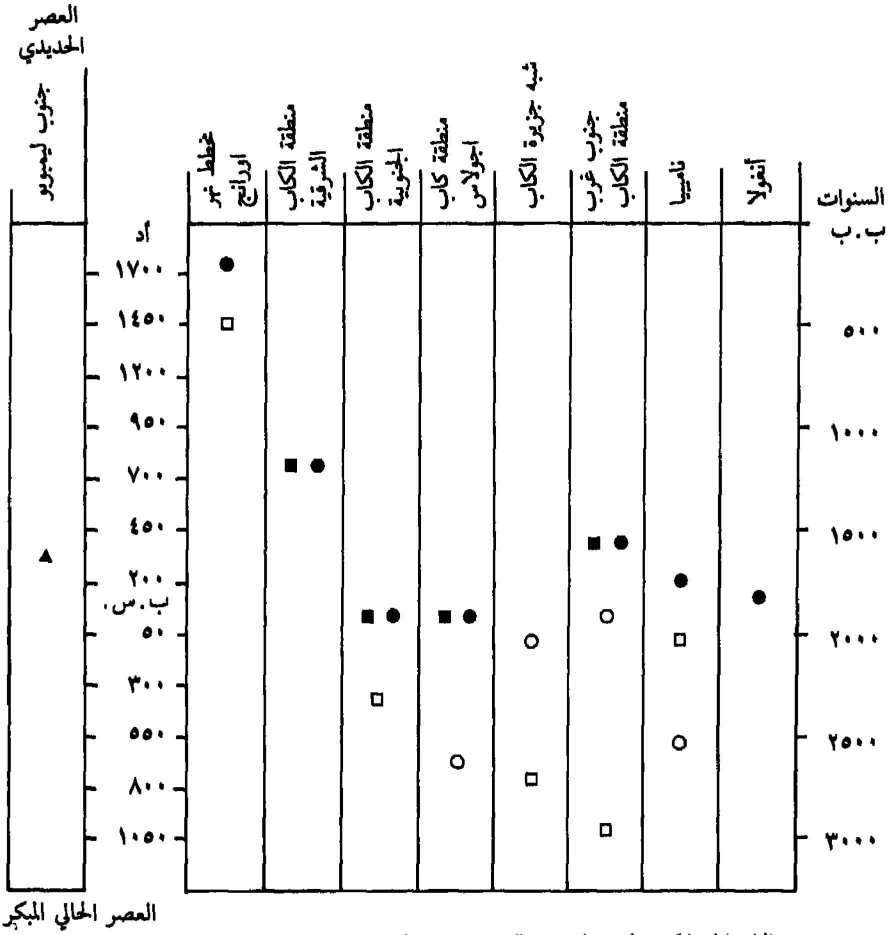
(٥٧) ج.ي. باركنجتون، س. بوجينبول.

التاريخية ونذكر مثلاً لذلك ما رآه تومبسن في عام ١٨٢٠م (أن عدداً من نساء البشو كن يحفرن السهول لنبش الجذور) وأيضاً دوبر الذي وصف نوعاً من الأبصال (وهو عبارة عن طعامهم اليومي الذي تخرج النساء يومياً في طلبه بالحفر في الأنهار)(٥٨). ومن غير شك فإن الرجال أيضاً قاموا بجمع الخضار للطعام أثناء رحلات الصيد، غير أن دور النساء الهام في كفالة الامداد اليومي بالطعام يحتاج الى مزيد من القاء الضوء عليه.

وهناك سبب وجيه للافتراض بأن امداد معظم المواد الغذائية التي تحصلت عليها جماعة السان سواء بالصيد أو الجمع بجانب احتياجاتهم من الماء، كان خاضعاً لتقلبات الفصول. فمثلاً كان الهطول الشتوي في الجنوب الغربي من منطقة الكاب ظاهرة موسمية هامة، حيث أن ٧٠-٨٠٪ من معدل الأمطار السنوي كان يسقط في الفترة بين شهر مايو (أيار) الى أكتوبر (تشرين الأول). وهي فترة توافق أكثر فترات السنة انخفاضاً في الحرارة وتراكم الثلوج الاقليمية. وتتمخض عن هذه الحالة نتائج هامة من حيث عنف الدورة الزراعية للمحاصيل الشتوية والتزهير في الربيع، ونضج الثمار في الصيف، وفترة السكون تمر بها الأجزاء النباتية المعمرة المخزونة في الأرض عبر صيف حار وجاف وربما يكون اكثر وضوحاً إثر التباين الواضح بين صيف جاف وشتاء رطب وعلى كميات المياه السطحية والعشب، بالاضافة الى التقلب الموسمي لموارد الثروة، هناك حقيقة انه ليست كل هذه المصادر موجودة في كل مكان. وبالاستعانة بمثال منطقة الكاب الغربية مرة اخرى نجد ان كثيراً من انواع النبات والحيوان موزعة توزيعاً غير متساو في منطقة جغرافية محدودة مثل الطرف الساحلي، واللسان الساحلي والحزام الجبلي واودية الأنهار بين الجبال والحوض الداخلي المجدب، ومن المؤكد ان جماعات سان التي قطنت هذا الاقليم او أي أقاليم اخرى في الجنوب الافريقي قد اتخذت نماذج من مستوطنات روعي في تصميمها غنى الاقليم وأن تؤمن إمداداً كافياً من الغذاء على مدار العام، وهناك بعض الشواهد في السجلات التاريخية لنتائج أعمال حفر أثرية وأيضاً في بيانات الفن الصخري ما يصور بعض هذه النماذج.

وكان لأهمية كورمات البصل في طعام جماعة السان وعدم توافرها المستمر تأثير كبير في تقرير نماذج المستوطنات. وهناك تلميح الى هذه التقلبات في بعض السجلات التاريخية، وهي عادة كنتيجة الدورة الزراعية التي سبقت الاشارة اليها. وبما ان كورمات البصل في الحقيقة تعتبر مخزناً للطعام الذي تحتفظ به النباتات اثناء فصل الصيف لتمد نمو وتزهير الموسم الجديد، خلال فصلي الشتاء والربيع - فهي منطقياً تختلف في الحجم والقدرة على تمييزها ومدى استساغة طعمها خلال الدورة وعلى وجه أدق، فإنه حينما يستهلك الطعام المخزون بوساطة النمو الخضري والزهري فان كورمات البصل تذبل ولا يحتمل اسهامها اسهاماً فعالاً في امداد الطعام. وقد أشار ليشتنشتين فيما كتب عن رجال البشو الى حدوث جدب في انتاج كورمات البصل فقال: سيعيش لعدة أشهر بأكملها على قليل من جذور كالبصل التي توجد في أوقات معينة من السنة في الجزء الأسفل من البلاد(٥٩). وفي حديثه عن نوع معين من الجذور قال: «هي غالباً ما تكون جاهزة للأكل حينما يذبل زهرها(٦٠)». ونجد تأييداً لهذا التفسير في النظام الفريد لقياس الزمن بين سكان الكاب (ينسب الى هوتنتوز) وربما استعمله كل من الخوي خوي

(٥٨) ج - طومسون، المجلد ١، ص ٥٨، أ. شابيرا، ١٩٣٣، ص ٥٥.
(٥٩) هـ - ليشتنشتين، ص ١٩٣.
(٦٠) المرجع المذكور.



● الارتباط المبكر والمؤكد لتاريخ الكربون ١٤ والفخار

○ الارتباط غير المؤكد لتاريخ الكربون ١٤ والفخار أو التواريخ المعتقد انها فيها قبل الفخار مباشرة

■ الارتباط المبكر والمؤكد لتاريخ الكربون ١٤ والماشية الداجنة

□ اخر تواريخ غير مؤكدة للعصر الحجري المتأخر لما قبل الفخار

شكل ٨: أقدم تواريخ متاحة لظهور الفخار والماشية الداجنة في مواقع العصر الحجري المتأخر في الجنوب الافريقي

والسان) كما سجله كل من سبارمان وبارو وثنبرج في آخر القرن الثامن عشر[٦١]. ويقول بارو «ان الموسم كان يحدد بتعاقب عدد من الأقمار قبل او بعد انتجيزتيد (Uyntjestyd) «ومعناه حرفياً زمن البصل» او الزمن الذي يظهر فيه جذور أحد أنواع زهور السوسن، وهو الزمن الذي يلاحظ فيه بوضوح ان هذه الابصال أصبحت تشكل جزءاً هاماً في غذائه الخضري، يلفت النظر اليه حينما يكون محصول البصل أو الجذور التي على شكل البصل جزءاً هاماً من طعام الخضار». وعند قراءة هذه التعليقات جنباً الى جنب مع نتائج المشاهدات الحديثة عن نمو الكورمة وتطورها فإنها توحي بوجود تقلبات هامة في المواد الغذائية الأساسية على الأقل في الحزام الجبلي الملتف لمنطقة الكاب.

وفي جهات أخرى من الجنوب الافريقي، حيثما يقل هطول المطر ويكون توزيعه مستوياً على مدار السنة، او حيثما يتوافق أقصى هطول للمطر مع ارتفاع درجة الحرارة في فصل الصيف، ربما يكون هناك نظام مختلف ولكن ليس أقل أهمية من فترات الوفرة والندرة في الغذاء. ان تحركات أسراب من الحيوانات ومن بينها العلند والظبي الصخري والقوفز الى داخل وخارج مناطق كارو أو بين المراعي التي تهطل عليها الأمطار في الصيف والشتاء، قد أثرت من غير شك على توزيع سكان «السان» وهناك ادلة على وجود نماذج متعددة قصد بها التصدي لهذه التغيرات في امداد الطعام وهي تشمل التحرك الموسمي، وخطر استعمال نوع معين من الأطعمة في ازمنة معينة، والتغيير في حجم الوحدة الاجتماعية، وتخزين المواد الغذائية، وانشاء شبكة واسعة من روابط القربى للحماية من النقص في المؤونة المحلية.

ان احتلال الأماكن الموسمي للمواقع كان أمراً مسلماً به في ليسوتو[٦٢] والجزء الجنوبي الغربي من الكاب[٦٣]، على أساس طاقة هذه الأماكن على سد الحاجة وتحليل بقايا النبات وعظام الحيوان. ومن المحتمل أن جماعات «السان» في غرب الكاب، انصرفت الى جمع أطعمة الساحل القابلة للجمع مثل المحار في الأزمنة التي تقل المؤونة فيها من الجذور البصلية والفاكهة الى الحد الأدنى، اي في اثناء الشتاء وبداية الربيع. وعلى الرغم من أن الأدلة أبعد ما تكون من الاكتمال فإن تحليل الأعمار عند الموت لبقايا عجول البحر والداسيز، يوفر بيانات قيمة. وهناك مزيد من الوثائق عن هذه الحركة الموسمية اتاحتها نتائج بحث شاكلتن عن اصداف كهف خليج نلسن في اقصى الجزء الجنوبي من الكاب[٦٤]. ان مقياس نسبة معدلات نظائر الأوكسيجين في مزيلة الصدف والمقارنة مع تقلبات درجة الحرارة على سطح المحيط حالياً اقنعت الدكتور شاكلتن بأن هذه الأكوام التي تم تحليلها قد تراكمت في الشتاء فقط. ويوجد عمل كثير ينبغي ان يؤدى كي يسجل تسجيلاً دقيقاً اجراءات «السان» لموازنة موارد السنة، غير أن بعض تعليقات ليشتنشتين، الذي يدرج اهمية البيئة توضح هذه النقطة. فهو يصف كيف أن أكثر الأشكال بؤساً وتعاسة في تصورها «يمكن أن تكون كائنات مختلفة جداً بسهولة «وذلك بتغيير أماكن اقامتها»[٦٥].

وقد حد كل من الكنج والجوي سكان كلهاري من استعمال موارد معينة في تلك الأوقات من السنة حينما تقل فرص الحصول على البديل. وكما يمكن ان نتوقع فإن قيمة المورد ترتبط بصورة وثيقة بعدد

(٦١) أ. سبارمان، ص ١٠٤؛ أ. بارو، ص ١٥٩؛ س.ب تونبرج، ص ١٩٧.
(٦٢) ب.ل. كارتر، ١٩٧٠، ص ٥٥ - ٥٨.
(٦٣) ج.ي. باركنجتون، ١٩٧٢، ص ٢٢٣ - ٢٤٣.
(٦٤) ن. ج. شاكلتون، ١٩٧٣، ص ١٣٣ - ١٤١.
(٦٥) هـ. ليشتنشتين، ص ٤٥.

البدائل المتاحة ومذاقها وقيمتها الغذائية، وسهولة جمعها. ويبدو من المحتمل ان جماعات «السان» في اقصى الجنوب قد استعملوا مواردهم بطريقة مشابهة لهذه فحددوا انواع الأطعمة التي يجمعونها كي يحافظوا على عرض سوي منها. وحتى الآن هناك امثلة قليلة على هذا دونت في السجل الأثري ولكن يمكن العثور على مثل واحد يستدل به على الاختلافات في المتاح من الصيد الصغير مثل السلاحف في مواقع الساحل والداخل في الجزء الغربي من الكاب. اما في المواقع الداخلية مثل دي هانجن فان السلاحف كانت هي الحيوانات الأكثر وجوداً، غير أنهما معا لم يكونا معروفين في الموقع الساحلي من كهف خليج الأنذز بالمقارنة مع الأماكن الأخرى[٦٦]. وربما يعكس هذا جزئياً التغيرات الموسمية في توافر هذه الأنواع خاصة في حالة السلاحف في بياتها الشتوي، ولكن من المحتمل ان ينتج هذا عن وجود تشكيلة من الأطعمة البديلة من الحيوانات الصغيرة على الساحل كالسمك والاربيان، وطيور البحر. وتبقى هناك امثلة اخرى من الأطعمة النباتية لم تكتشف رغم انها قد توجد في التكوين المختلف للبقايا النباتية في الأماكن الداخلية مثل دي هانجن وديكلوف في الجهة الغربية من الكاب[٦٧].

ولقد تأكد مراراً[٦٨] ان جماعات الصيد والجمع اتجهت الى التحرك في وحدات متباينة الحجم كي يزيدوا من كفاءة استغلالهم للموارد: الانقسام الى مجموعات اسرية صغيرة حينما يكون انتشار الموارد ضئيلاً، والاندماج في تجمعات أكبر حينما يقتضي نوع اقتصاد المعيشة استخدام قوة عاملة كبيرة، او حينما يكون هناك تركيز هائل في هذه الموارد، ومن ثم تستطيع اعاشة المجتمعات الكبيرة. واستخدم هذا الاسلوب للاحتفاظ بصلة الرحم بين الجماعات المتجاورة التي تستفيد من التجمعات الكبيرة العرضية لنقل الأخبار، وتبادل السلع، والابتكارات التكنولوجية، وربما للنساء اللاتي عن طريقهن يمكن تتبع الالتزامات الخاصة بصلة القربى. وفي أوقات النكبات، كانت هذه الالتزامات هي طريق النجاة الذي يسمح لاحدى الجماعات كي تعيش بأن تستخدم مؤقتاً موارد اخرى. أضف الى ذلك أن الصعوبات الشخصية كان يمكن حلها بان يترك طرف أو آخر جماعة ليلحق بجماعة أخرى له فيها قرابة، ذلك لفترة مؤقتة أو مستديمة. وعلى الرغم من أن الاعتراف بهذه الملامح يبقى هدفاً للبحث الأثري، فإن المعلومات الأكثر وضوحاً بخصوصها في الوقت الحاضر تأتي من المدونات التاريخية، وتأتي، ربما بطريقة مخالفة من الفن الحجري.

ان ليشتنشتين، وهو ربما كان أكثر المراقبين دقة بين الرحالة الأوائل للتنظيم الاجتماعي «للسان» ذكر «أن العائلات وحدها تكون اتحاداتها القوية من جماعات صغيرة مفردة. والصعاب التي تنشأ من اشباع أكثر ضرورات الحياة العاجلة تحول دون امكان تكوين مجتمعات أكبر بل ان هذه العائلات كانت في بعض الأحايين مضطرة الى الانفصال حيث لا يستطيع نفس المكان توفير القوت للكل[٦٩].

وأضاف مشيراً إلى جماعة من أهل الصيد والجمع قائلاً:

ان كانت الجماعة على وجه العموم تتألف من أعضاء مختلفين بنفس العائلة الواحدة فقط وليس لأي أحد أي سلطة او امتياز على الباقين... كان لكل واحد ان يغادر جماعته وينضم الى جماعة أخرى على حسب هواه... وكانت هناك معاملات قليلة للغاية بين الجماعات المنفصلة، وكانوا نادراً ما يتحدون الا للقيام بعمل غير عادي، يتطلب القيام به القوى المتحدة لاعداد كبيرة. وفيما عدا ذلك كانت

---

(٦٦) ج.ي. باركنجتون، ١٩٧٢.

(٦٧) ج.ي. باركنجتون ب، رسالة دكتوراه لم تنشر.

(٦٨) ر.ب. لي، و أ. ديفور.

(٦٩) ليشتنشتين، ص ١٩٣.

الجماعات تظل متباعدة عن بعضها كلما كان العدد صغيراً اصبح من السهل الحصول على امدادات الطعام[٧٠].

ومما تجدر ملاحظته ان هذه التعليقات على حجم الجماعة وتكوينها وانقسامها واندماجها، والتنظيمات الاقليمية والنظام المتسم بالمساواة، كلها ظواهر متطابقة جوهرياً مع التعليقات التي ادلى بها علماء التاريخ الطبيعي للانسان بعد ذلك بمائتي عام والمتعلقة بالجماعات الواضح انتسابها اليهم في كلهاري[٧١].

لقد تبين نتيجة دراسة لحجم الجماعات كما وصف في فن الصخور في غرب الكاب ان متوسط حجم الجماعة الحقيرة كان نحو أربعة عشر شخصاً، وهو رقم مشابه لذلك المدون في مذكرات الكوماندوز عن الجزء الأخير من القرن الثامن عشر[٧٢]. وربما يمثل هذا «جماعة» ليشتنشتين التي ربما تراوحت بين عشرة وثلاثين شخصاً، على حين أن الأعداد القليلة جداً التي كانت تقابل عرضاً، هي مجموعات عمل من رجال أو نساء يؤدون أعمالهم اليومية. وعلى كل حال توجد أمثلة من الرسومات على الصخر توضح في منظر واحد عدداً يقرب من ثلاثين أو أربعين رجلاً، الأمر الذي لا بد وأن يدل على وجود تجمع يصل عدده الى ما يقرب من مائة شخص أو أكثر (انظر الشكل رقم ٥). وفي هذا نجد ما يغري على تفسير مثل هذه الرسوم التي نجدها من حين الى آخر، على أنها تصوير للاندماج الدوري للجماعات في بعضها البعض كما سبقت الاشارة اليه. وسيكون من المفيد على نحو خاص لو تبين لنا أن الجماعات الكبيرة المصورة كانت مشغولة في الأنشطة غير الاقتصادية، مثل الرقص وانها تقطن في جهات من الممكن أن يكون لها انتاج وفير من الطعام الموسمي. ولكن للأسف لم تتوافر هذه المعلومات بعد ولا يزال توفيرها امكانية لم تتجسد بعد، وان الحزام الجبلي في غرب الكاب، يعد مثلا لذلك حيث أن المواد الغنية التي يمكن جمعها مثل العسل، ويرقات الفراش والفواكه، والجذور البصلية والسلاحف، ربما سمحت لهذه الجماعات بأن تعسكر بالقرب من بعضها البعض في أثناء شهور الصيف، من أجل الحفاظ على العلاقات القديمة، وتبادل الهدايا المادية. وتبدو الرزمة الصغيرة لمحار بلح البحر الملفوفة في ورق نبات التي وجدت في كهف دي هانجن سلعة لها قيمة تبادلية مكرسة للنقل للداخل[٧٣]. وبالتأكيد فإن الطاقات الشتوية لحوض كارو الشتوي أرض مروج الساحل تكمل طاقات الصيف لحزام الجبال الذي يقسمها.

ويتوقف ما اذا كان يمكن الاعتراف بمثل هذه النظم على النجاح في دراسة النبات والحيوان التي تجري الآن.

ان تخزين المواد الغذائية في أزمنة الوفرة الى أزمنة الندرة، ليس سمة مميزة لجماعات كلهاري الحديثة، التي نظرت للبيئة باعتبارها مخزناً طبيعياً للمأكولات، يوفر دائماً خليطاً ما من الأطعمة، التي تحتاج الى شيء قليل يضاف اليها. ويبدو أنه عن طريق العناية بالتخطيط والتجول السنوي حول الموارد المتاحة وحفظ مواد الطعام الأكثر توافراً لأوقات الشدة، قلت الحاجة الى التخزين للحد الأدنى. وكان الطعام عادة يجمع ويستهلك في نفس اليوم أو في بضعة أيام قليلة في حالة الحصول على محصول سخي كالصيد الكبير. ويبدو ان الحالة في الجنوب الأقصى كانت شبيهة بهذا، اذ أن الدلائل على وجود

(٧٠) المرجع المذكور، ص ٤٨ – ٤٩.
(٧١) ي.م. توماس.
(٧٢) ت.م. او. س. ماجز، ص ٤٩ – ٥٣.
(٧٣) ج.ي. باركنجتون وس. بوجينبول.

حفر التخزين نادرة في المدونة الأثرية، ولم يصف الرحالة الأوائل أبداً التخزين كجانب هام في حياة «السان» المعيشية. ان كولب الذي توصل الى معلومات عن كثيرين ممن شاهدوا حياة الخوي خوي والسان في آخر القرن السابع عشر، لاحظ انه «مع أن الحقول تكتظ بفواكه وجذور صحية ومغذية للغاية يمكن جمعها بكميات وافرة ليوم مطير، فإن من عادة النساء أن يجمعن فقط الكمية التي تستفيد منها عائلاتهم لمدة يوم»(٧٤). وهناك مصادر أخرى أسبق تذكر تخزين الجندب المجفف، ومسحوق جذور نبات القنا (نوع من الحرض) والمشمش الجاف الناشف، وأضاف أنه من المحتمل أن تكون غير مهمة اقتصادياً كالجذور «الدرنات» والجذور «البصلية» وفي جنوب الكاب يوجد دليل، لم ينشر بعد، عن وجود عدد كبير من حفر التخزين مقترنة بمواقع كهف «السان»(٧٥). وتشير تقارير، لم تتأكد بعد الى أن البذور التي اخرجت من هذه الحفر ربما جمعت للحصول على الزيت الذي تحتويه أكثر منها للاستفادة بها كطعام.

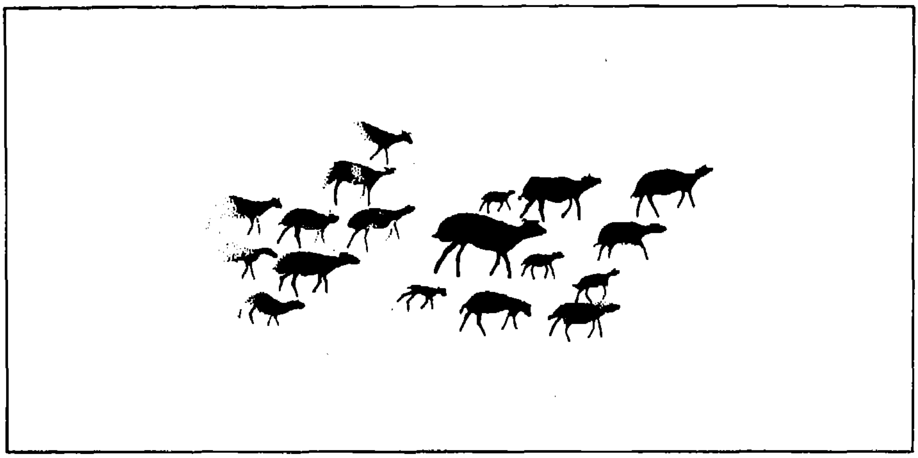
ومن الأدلة التي قدمت، ظهر بوضوح أن جماعات «السان» كانت منظمة تنظيماً رائعاً، في مجموعات صغيرة متنقلة لها معرفة وثيقة بالموارد المتاحة لها وعن اختلافها عبر الزمان والمكان. ان قاعدة اقتصاد المعيشة ومجال صيد الحيوانات، وصيد السمك وتقنيات الجمع وأنماط الاستقرار المستخدمة، اصبحت كلها أفضل توثيقاً بصورة متزايدة باستعمال المعلومات المستمدة من مصادر متباينة. وكما أشار «لي»، فإن الانطباع بأن الصيادين الجامعين كانوا يعيشون على شفا الكارثة، اتضح بشكل عام انه أبعد ما يكون عن الحقيقة، وقد استجوب بارو امرأة عجوزاً (لم يعرف ان كانت تنتمي الى الخوي خوي أو السان) استجوبها في بوكفلد في عام ١٧٩٨ ثم تحدث عنها قائلاً:

«حينما سألتها عما اذا كانت ذاكرتها يمكن ان ترجع الى الزمن الماضي عندما جاء المسيحيون اليهم لأول مرة - قالت وهي تهز رأسها، ان لديها أسباباً قوية لتذكر ذلك الذي حدث، لأنها قبل ان تسمع عن المسيحيين، لم تكن تعرف الحاجة لملء البطن، على حين أن من أصعب الأمور حالياً أن تحصل على ما يملأ الفم»(٧٦).

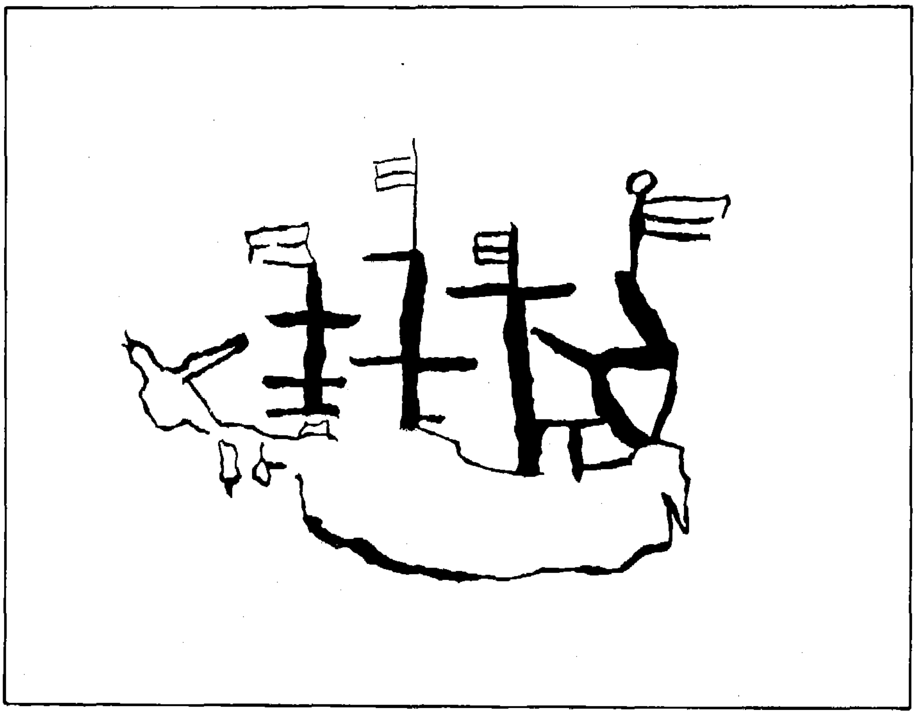
رعاة «الخوي خوي» (Khoi - Khoi)

وبالطبع، فان صورة الصيد والجمع في اطارات محدودة بيئياً تكون غير مكتملة بصورة جدية حينما نتعرض للفترة التي سبقت الاستيطان مباشرة، منذ عام ٢٠٠٠ق.م. ففي كل موقع موضح على الشكل (رقم ٢٦-٧) باستثناء بونتبرج وخليج غوردن (حيث لم يبحث عنهما بحثاً كاملا) توجد بقايا ماشية أليفة في اطار يرجع للعصر الحجري المتأخر. وبما أنه لم تكن هناك اغنام وماعز وماشية محلية، وحيث ان هذه المجموعات تسبق الاتصال مع الأوروبيين ومع الرعاة من الزنوج، فيجب حينئذ أن نفترض أن هذه تسجل ظهور الماشية التي يتم رعيها من مصدر آخر. ان أقدم التواريخ الكربونية المشعة التي ترتبط بالحيوانات الأليفة وكسر الفخار في المواقع الممتدة من انجولا الى الجهة الشرقية من

(٧٤) أ. شابيرا، ١٩٣٣، ص ٢٠٥.
(٧٥) هـ. ج. ديكون، اتصال شخصي.
(٧٦) ج. بارو، ص ٣٩٨ - ٣٩٩.



٩



١٠

الشكل ٩: قطيع من الأغنام ذات الذيل الغليظ وهو نوع الأغنام الذي رعاه رعاة الخوي وشاهده المستعمرون الأول في الكاب.

الشكل ١٠: غليون مرسوم في جبال الكاب الغربي، ربما نرى في خليج سالدانا او خليج تيبل حيث كانت قبل هذه السفن تتردد بانتظام من بداية القرن السابع عشر من عصرنا.

الكاب، موجزة في الشكل (٨) وهي تشمل أيضاً معلومات متفرقة عن هذه الأشياء من المناطق الداخلية، وأيضاً نجد - كمرجع - أقدم التواريخ المتاحة خالياً عن تسلل المزارعين المختلطين الذين يستخدمون الحديد ويتحدثون لغة البانتو للجنوب الافريقي. وبالرغم من أن النموذج الظاهر يمكن ان يتغير مع اجراء مزيد من البحوث، فانه يبدو أن هناك ما يستحق المخاطرة ببعض التفسيرات فيما يتعلق بأصل ولغات الرعاة من الخوي خوي (انظر الشكل ٩ و١٠).

وأبرز نقطة هي أن كسر الخزف تظهر لأول وهلة في المواقع الممتدة من أنجولا الى جنوب الكاب في أثناء الفترة التي تمتد من عام ٢٠٠٠ الى ١٦٠٠ق.م. وكلما كثرت الكسر المكتشفة، أصبح التاريخ أكثر دقة، وربما يشير أيضاً التاريخ بوساطة الكربون المشع في نهاية الأمر الى نفس التواريخ الخاص بظهور النماذج عبر المنطقة كلها وقد ورد ذكر أربعة تواريخ فقط منذ عام ٢٠٠٠ سنة ق.م، هناك أسباب للافتراض بأن كل هذه التواريخ هي أما تواريخ شابها اللبس(٧٧) أو انها ترجع لما قبل عصر الفخار(٧٨).

وهناك ملاحظة أخرى ليست أقل أهمية، وهي أن أي بحث يجري عن آثار الحيوانات الأليفة، سيظهر انها وجدت في وقت مبكر في السجل الأثري مثلها مثل كسر الفخار. وقد لا يكون هذا صحيحاً في كل موقع ولكن حينما تجمع التواريخ من المواقع المتجاورة لتؤلف تسلسلات محلية، يتضح انها متزامنة. وبالرغم من ان هذه النظرة قد تبدو غير مبررة الا انه يمكن الدفاع عنها بأنها تمهد المشاكل التي تثيرها ظواهر العينة. والمعنى المتضمن في هذا ان كسر الفخار والحيوانات الأليفة انتشرت بسرعة في نفس الزمن والمنطقة. وتبدو كلمة «انتشر» لا مفر منها، لأنه في حين ان الفخار يمكن اختراعه بصورة مستقلة فإن الحيوانات الأليفة لا يمكن معها ذلك وزيادة على ذلك فلا يظهر الفخار علامات دالة على وجود محاولات فجة، وغير فعالة مبكرة في الابداع التقني المتعلق به.

وهناك نقطة جديرة بالاعتبار، ولو أنها للآن لم تبلغ درجة عالية في الأهمية وهي أن تزامن التواريخ التي ترتبط بالحيوانات الأليفة المبكرة وصناعة الفخار يتعلق بالسهل الساحلي وسلاسل الجبال المجاورة على طول شواطىء المحيط الأطلسي وشواطىء المحيط الهندي الغربية. وعلى حين أن هذا يمكن ان ينشأ جزئياً من انشغال علماء الآثار، وهو امر يمكن فهمه، بتسلسل رواسب كهوف الحجارة الرملية في حزام الكاب فهناك مبرر لافتراض أن عدم وجود التواريخ الأولى للجهة الشرقية من نهر جامتوس من شمال الحزام(٧٩) أمر له دلالته. وعلى أي حال فإن الرابطة تتطابق جيداً مع الرعاة المدونة حياتهم تاريخياً والمعروفين جماعياً بالخوي خوي(٨٠).

وعلى الرغم من أن البحث مستمر حول انتشار الحديد وتدجين الحيوان في الجنوب الافريقي عبر طريق شرقي، فإن الأدلة الحاضرة توعز بأن القرن الرابع أو الخامس الميلادي كان هو زمن دخولهما الى جنوب لمبوبو(٨١). ولذا فإن مجموعة تواريخ العصر الحجري المتأخر المرتبطة بالفخار وتدجين الحيوان،

---

(٧٧) س.ج. سامبسون.
(٧٨) ف.ر. شفيتزر، ك. سكوت، ت.م.أو.س. ماجز، اتصال شخصي؛ وادلي، اتصال شخصي.
(٧٩) س.ج. سامبسون، ر.م، ديريكورت، ١٩٧٣أ، ص ٢٨٠ - ٢٨٤؛ ب.ل. كارتر، ١٩٦٩، ب.ل. كارتر وج.س. فوجيل.
(٨٠) ل.ف مينجريد، ص ٤٨٧ - ٥٠٤، ر.هـ. الفيك.
(٨١) م. كلابويك، ص ١٩ - ٢٣، ر.ج. ماسون، ١٩٧٣، ص ٣٢٤؛ ب.ب. بومون وج.س. فوجيل.

تسبق مجموعة العصر الحديدي في الشمال والشرق بزمن يتراوح ما بين مائتين وثلثمائة سنة، وهذه بالطبع فترة غير قابلة للحساب بواسطة التأريخ بالكربون المشع.

ويبدو أن المعنى المتضمن في هذا النمط القريني والتوزيعي والتاريخي، هو ان شعوب الرعاة التي لديها فخار انتشرت سريعاً في الكاب الجنوبي عبر طريق ساحلي غربي نحو عام ٢٠٠٠ق.م. ولا شك في ان مجموعات من الصيادين تكاملت في المجتمعات الرعوية ولا بد أنه حدثت بعض عمليات المواءمة الهامة في الأنماط الديمغرافية والاقتصادية، رغم ان هذه ما زالت غير موثقة الى حد كبير. ويبدو انه لا مهرب من التسليم بأن هؤلاء المقتحمين كانوا من رعاة الخوي خوي.

وبالطبع هناك أهمية كبيرة للتفكير في أصول وأسباب وظروف هذا الاقتحام، ولكن مثل هذا التفكير سيكون غير محدد للغاية بسبب قلة المعلومات. واتجهت البحوث في زامبيا وفي زيمبابوي الى التقسيم الصارم بين العصر الحديدي والعصر الحجري وكانت النتيجة هي ان الطبقات السطحية في مواقع الكهوف والملاجىء والمواقع المفتوحة التي تحوي الفخار، اعتبرت منتمية للعصر الحجري المتأثر بالعصر الحديدي. والحقيقة هي انه ربما عاش في هذه المناطق أناس لهم طابع العصر الحجري من الناحية التقنية وان كان اقتصادهم قد اشتمل على رعي بعض الماشية الأليفة، وقد قاموا بصناعة الفخار الذي تميز باختلافه، على نحو يمكن ادراكه، عن فخار المزارعين المحليين الذين يستخدمون الحديد. ففي زيمبابوي عرف الفخار الذي يسمى بامباتا كشيئ متميز عن فخار العصر الحديدي، وقد اكتشفه ولتون ووصفه بأنه من مصنوعات العصر الحجري المتأخر. وسواء عكس هذا انتشار الرعاة ما قبل العصر الحديدي أم لا، فانه بقي موضوعاً للنزاع، ولكن اثبات هذه الفكرة يمكن البحث عنه في توزيع صور الأغنام غليظة الذيل في زيمبابوي، والذي يعتقد بصفة عامة انها ترجع لمجموعات العصر الحجري. لقد كانت هذه هي الأغنام التي قام برعيها رعاة الخوي خوي في الكاب في القرون، الخامس عشر، والسادس عشر، والسابع عشر من عصرنا الحالي.

ان امكانية مد نطاق توزيع السكان رعاة الأغنام في العصر الحجري الى زيمبابوي وزامبيا، ينبع أصلها من شرق إفريقيا، حيث افترض وجود السوابق الثقافية واللغوية، بل البيولوجية لها. ان وجود شعوب الرعاة الذي صنعوا الفخار ذا المقابض وبقاء «اللغات المطقطقة» في هاتسا وساندوي، وادعاء الملامح «الحامية» للهوتنتوت، كلها امور قد ذكرت من وقت لآخر كدليل على الأصل الشمالي الشرقي للسكان الرعاة غير المستخدمين للحديد في الجنوب الافريقي. وفي حين ان هذه الصلات قد تكون محل شك او ترفض في بعض الأحوال، فإن استمرار سمات مثل الفخار، رعي الغنم، ثم انماط الأغنام والماشية، وتكنولوجيا المعادن غير الحديدية والمصنوعات الحجرية، بل واللغة، سيبرهن لو اقيم البرهان عليه، على وجود أصل إفريقي شرقي نهائي لرعاة الخوي خوي. ويشير هذا بدوره الى التمزقات التي سببت تحركات المتحدثين بلغة «البانتو» في موجة شرقية اساساً اتجهت نحو الجنوب، وربما حثت ايضاً موجة غربية، قد تكون أسبق قليلاً أو أسرع فحسب من شعوب الرعاة غير المزارعين جنوب الكاب. ان عدم وجود فخار الهوتنتوت او فخار «ساحل الكاب» في الترانسفال، وسوازيلاند، وناتال، واورانج فري ستيت، او ترانسكي، ربما عكس فحسب حقيقة ان الزراعة كثيراً ما كانت منتهية اكثر جدوى في هذه المناطق المروية جيداً بأمطار الصيف، وأن جماعات الرعاة التي كانت لها قدرة اكبر على التنقل من غير ان يحملوا محصولات اكثر قدرة على الانتشار عبر الأراضي الجافة في ناميبيا، والجزء الشمالي من الكاب، ومن ثم الى مراعي الجزء الغربي والجنوبي من الكاب. ويمكن تصور أن الأغنام احضرت عبر الطريق الغربي، اما الماشية فقد حصل عليها رعاة الخوي خوي من

الشرق، من السكان المتحدثين بلغة «البانتو» الذين كانوا يسكنون حينذاك في اقليم ترانسكي. وربما يجيء تأييد ذلك من وفرة الرسومات المفترض انها من العصر الحجري للأغنام غليظة الذيل في الجزء الغربي من الكاب، على الرغم من عدم وجود رسومات مشابهة للماشية، مع أن الماشية رسمت في المناطق التي يقطنها حالياً المتحدثون بلغة «البانتو». وزيادة على ذلك فإن وجود عظام الماشية في وقت مبكر لوجود عظام الأغنام التي وجدت في حفريات العصر الحجري المتأخر في الجزء الجنوبي من الكاب، لم تؤيده الوثائق للآن.

هكذا توجد أسس للافتراض أن رعاة الأغنام المرتبطين بالصيادين الذين يستخدمون الحجر والمتميزين جسمانياً عن المتحدثين بلغة «البانتو» قد حصلوا على الماشية والفخار من جيران في شرق إفريقيا، هاجروا الى الغرب، ثم الى الجنوب، بحثاً عن المرعى، ليصلوا في النهاية الى الكاب بعد عام ٢٠٠٠ سنة ق. م. ومثل هؤلاء السكان يحتمل أن اندمجوا او حاربوا او تعلموا أن يعيشوا مع الصيادين المقيمين محلياً، وبالتالي التقوا وتفاعلوا مع المتحدثين بلغة «البانتو» فيما نسميه اليوم ترانكسي. ان التوزيع المتفرق للفخار، والمصنوعات الحجرية، وعظام الحيوان على مدى الطريق الذي سبق وصفه قد لا يعني شيئاً أكثر من أنهم كانوا سريعي الحركة يتركون وراءهم بقايا مشتتة يصعب من الناحية العملية اعتبارها آثاراً.

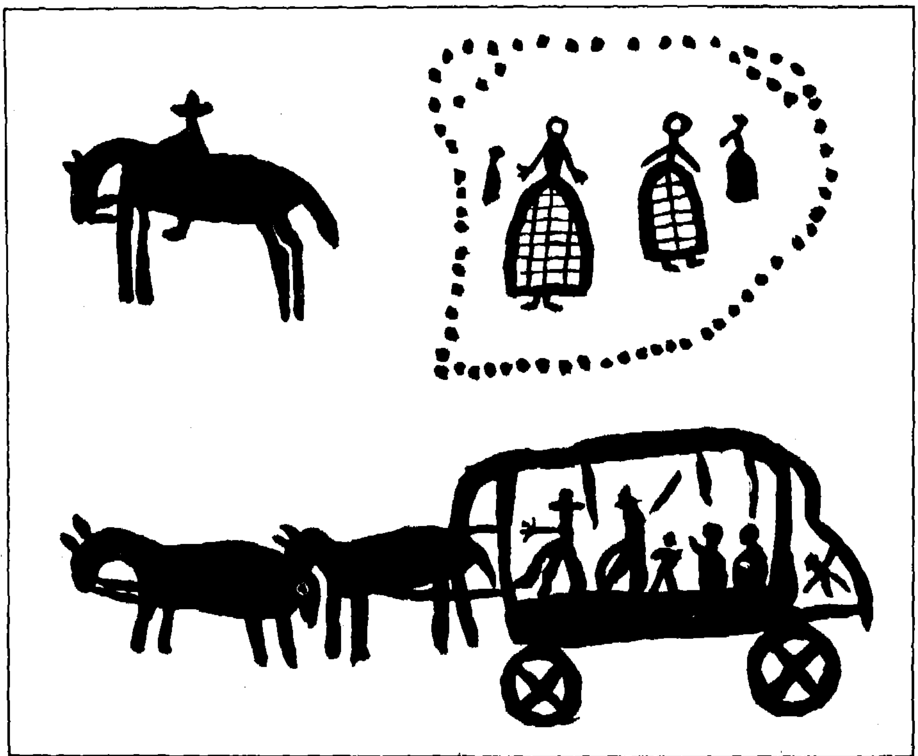
وللأسف فإن عدد مواقع الرعاة المؤكدة التي جرى التنقيب فيها ما زال قليلاً جداً، وما لم تُصَنَّف بعض مزابل المحار، والمصنوعات الحجرية المبعثرة على سطح الأرض، او المخابيء الصخرية التي كانت مواطن للسكن، باعتبارها من مخلفات الرعاة، فإن بيئة جماعات الخوي خوي ستبقى موضوعاً للبحث الأثري في المستقبل. وللحصول على المعلومات الخاصة بالطعام والتكنولوجيا والتنظيم، فإن من الضروري أن نعتمد اعتماداً كلياً على تقارير المستعمرين والرحالة الأوروبيين الأوائل، فمثلاً كتب وليم تن راين وهو عالم نبات وطبيب، كان يعمل في خدمة شركة الهند الشرقية الهولندية، حينما كان في زيارة قصيرة للكاب في عام ١٦٧٣م، وهو يشير الى الخوي خوي في الكاب يقول:

«ان طعامهم من الخضار - يجمع من المستنقعات والروابي التي تنبت فيها جذور السوسن. وهم يسقفون اكواخهم من أوراق هذا النبات ويصنعون خبزهم من جذورها. والامتناع الوحيد عن هذا النوع من التغذية يحدث في مناسبة زواج او ميلاد، حين يذبحون ثوراً او على الأقل شاة، يصنعون منها وليمة لأصدقائهم هذا اذا لم يحدث ان يقع بين ايديهم حيوان متوحش، وهم يشربون لبن الأبقار والأغنام(٨٢)».

وهناك مراجع اخرى مثل هذه تقول بأن الخوي خوي كانوا يشمئزون من ذبح مواشيهم فيما عدا المناسبات الخاصة، مما يوضح أن اللبن والخضروات كانت الأساس لطعامهم. والى حد كبير كان ذلك هو نفس ما ينطبق على السان حيث اعتمدوا على جمع جذور يستكملونها باللحم في المناسبات، سواء من الحيوان الأليف او المتوحش، بالاضافة الى امداد منظم باللبن. ويفسر هذا الأمر الأخير حقيقة ان الصيادين الذين كانوا لا يحصلون على اللبن ذي القيمة الغذائية، قد وصفهم الرحالة الأوائل دائماً بأنهم أقل حجماً من الرعاة(٨٣).

ونظراً الى أن الخوي خوي اعتمدوا كثيراً على الأطعمة الرئيسية المجموعة، وأنهم كانوا يكملونها باللحم الذي يتم صيده، فليس هناك ما يثير الدهشة ان نجد لديهم تقنية مشابهة لتلك التي لدى

(٨٢) أ. شابيرا، ص ١٢٩.
(٨٣) هـ.ب. توم، المجلد ١، ص ٣٠٥.



١١

١٢



الشكل ١١: عربات، جبل، ورحلات شوهدت تتحرك الى مراعي الجبال الداخلية في الكاب الغربي في بداية القرن الثامن عشر الميلادي.

الشكل ١٢: مجموعة من المغيرين على الماشية الصغيرة مسلحين بأقواس وأسهم يدافعون عن غنيمتهم ضد أشخاص يحملون دروعاً وحراباً وربما يعكس هذا التمييز الفارق بين صيادي السان وملاك القطعان الزنوج في المناطق الوسطى والشرق من الجنوب الافريقي.

«السان» بالرغم من أن الاعتماد النسبي على تقنيات خاصة يتوقع ان يكون مغايراً بسبب الاختلافات في اقتصادهم. وهكذا فان ذكر القوس والرمح اكثر تكراراً في الأعمال الوصفية المتعلقة بالسان. ولكن ليس هناك شك ان الناماكوا في آخر القرن السابع عشر وجوناكوا في آخر القرن الثامن عشر، استعملوا الأقواس والأسهم المسمومة والجعاب[٨٤]. وعلى كل حال فقد ذكر في كل هذه التقارير ان «الرماح النحيلة» ذات اهمية مساوية، في حين ان هذا ليس هو الحال في التقارير عن «السان». لقد سجل لو فايان ان جوناكوا كانت تستعمل الشراك والفخاخ التي كانوا يضعونها في أماكن مناسبة لاصطياد حيوانات كبيرة[٨٥]، وان فخاخ الحفر الكبيرة بالقرب من نهر براك في الجزء الجنوبي من الكاب وفي أماكن اخرى قد نسبت الى الهوتنتوت، وربما الى رعاة الخوي خوي[٨٦]. وبالمثل فإن بعض الرحالة الأوائل ذكروا ان جماعات الرعي كانوا يستعملون مصايد السلة لاصطياد السمك من نهر أورانج، كما كانوا يستعملون عصياً للحفر لاقتلاع الجذور البصلية والدرنات، ويستعملون أيضاً اكياساً لحمل الأطعمة، وهراوات من الخشب أيضاً لقتل عجول البحر. وكانت هذه التكنولوجيا شائعة عند الصيادين الجامعين من «السان».

وربما كانت السمات الثلاث التي لم تجمع بالضرورة الصيادين هي بناء مزيد من الأكواخ المتينة من نبات السمار، وصناعة الفخار والدراية بتشكيل المعادن وبما أن الخوي خوي طافوا بالمراعي في اعداد غير قليلة فهم لم يستعملوا الكهوف، والظاهر أنهم بنوا أكواخاً مقببة ذات طبيعة شجرية، غطوها بحصر من السمار وربما بجلد الحيوان. وقد انتظمت هذه الأكواخ عادة لتكوّن قرية ذات تخطيط دائري. وفي روايات كثيرة ان الحيوانات الأليفة كانت تحبس طوال الليل داخل دائرة القرية. وحينما يجيء وقت الرحيل لم يبقَ الا ان تحزم الأجزاء الشجيرية والحصر وتوضع على ظهور الثيران لتنقل الى الموقع الجديد[٨٧]. اما فيما يتعلق بأعمال الفخار والمعادن فلا يبدو الموقف واضحاً تماماً. ويذكر كثير من الكتاب الأوائل صناعة «آنية خزفية، هشة للغاية. . . متماثلة[٨٨]». ولكن لم تنسب هذه الأعمال الى السان بالذات أي من الروايات، وفي الحقيقة لاحظ تنراين أن «الأغنياء فقط بينهم يصنعون القدر الفخارية»، وان كان ما يعنيه يبدو غامضاً[٨٩]. ان كلا من «نماكوا» في القرن السابع عشر و«جوناكوا» في اواخر القرن الثامن عشر، صنعت الفخار، ومن المحتمل أن ملاحظات كولب وجريفنبروك وتنراين تشير الى الخوي خوي في الكاب في اواخر القرن السابع عشر[٩٠]. وهناك ما يحثنا على الافتراض ان ظهور الفخار في الملاجيء الصخرية والكهوف في الكاب في القرون الأولى لهذا العصر - يؤكد انتشار الرعاة صانعي القدر الفخارية في المنطقة. وربما تكوّن القدر ذات الرقاب المخروطية بما تتميز به من مقابض مقواة من الداخل النموذج القياسي الذي أشار اليه لوفايان. وهي احدى الصور المتكررة للقدر في المواقع الساحلية وقرب الساحلية في منطقة الكاب[٩١]. وهي في شكلها وشكل مقابضها ربما

(٨٤) هـ.ب. توم، المجلد ٣، ص ٣٥٠ - ٣٥٣، ف. لو فايان، ص ٣٠٦ - ٣٦٩.
(٨٥) ف. لوفايان، ٣٠٦.
(٨٦) س.ب. ثونبرج، ص ١٧٧.
(٨٧) أ. سابرمان، ص ١٣٨ - ١٣٩.
(٨٨) ف. لو فايان، ص ٣١١.
(٨٩) أ. شابيرا، ١٩٣٣.
(٩٠) ب. كولب، ص ٢٥١.

تعكس الحاجة الى أوان ذات مقابض لحمل اللبن واستعمالات أخرى من بينها صهر الشحم، وقد ذكرت في المراجع الأولى(٩١).

ولا يوجد بينة تثبت أن خوي خوي الكاب قد اعتادوا الاشتغال بالمعدن قبل وصول المستوطنين الأوروبيين، غير أن نماكوا تمكنوا بوضوح من صنع خرزات عقود وأقراص من النحاس في القرن السابع عشر. وحينما اتصل فان ميرهوف بنماكوا في مستعمرة الكاب لأول مرة في عام ١٦٦١ ذكر «أقراصاً من النحاس. . . وسلاسل من النحاس، وخرزات من الحديد(٩٣)» دون ما تعليق عن كيفية او مكان صناعتها. وفي تعليقه عن خوي خوي الكاب، يذهب الفيك مجادلاً الى ان نماكوا، على الأرجح، كانوا على دراية بتشغيل النحاس وأنهم استغلوا خام النحاس في نماكوالاند(٩٤) على نحو نشط. ويضيف ان هذا ينطبق على خوي خوي الكاب(٩٥) مع قدر يسير من الشك.

ان حجم جماعات الخوي خوي من الرعاة وان اختلف من موسم لآخر الا انهم بغير شك كانوا باستمرار أكثر عدداً من صيادي - جامعي «السان» ولاحظ بيترسون بين النماكوا قرى مكونة من ١٩، ١٨، ١١، ٦ أكواخ(٩٦). بينما وصف لوفايان قبيلة من الرحل من جوناكوا بالقرب من نهر السمك العظيم ضمت نحو أربعمائة شخص يعيشون «في أربعين كوخاً، بنيت على مساحة تبلغ نحو ٦٠٠ قدم مربع». واتخذت «شكل اهلة كثيرة وكان يربطها ببعضها أسيجة صغيرة تخص كلاً منها(٩٧)». وكانت كوتشكوا، كما يلاحظ دبر، تسكن على مقربة من أو في أودية خليج سلدانها على الأغلب. . . انهم يستقرون في ١٥ أو ١٦ قرية مختلفة، يفصل الواحدة منها عن الأخرى مسافة تبلغ مسيرة ربع ساعة، ويقال انهم جميعاً، يسكنون اربعمائة او اربعمائة وخمسين كوخاً. . . وتتألف كل قرية من ٣٠ و٣٦ و٤٠ او ٥٠ كوخاً، على وجه التقريب، وضعت في شكل دائري، وتنفصل كل منها عن الأخرى بمسافة قصيرة(٩٨). وقدر ما لديهم من الماشية بنحو ١٠٠٠٠٠ مائة ألف رأس من الأبقار ونحو ٢٠٠٠٠٠ مائتي ألف رأس من الضأن. ولأن الخوي خوي عاشوا في جماعات كبيرة الى حد ما، فقد كانت حاجتهم واضحة الى مواصلة الارتحال حتى يضمنوا امداداً من العشب لحيواناتهم ومن الأطعمة النباتية لأنفسهم. ان اربعين امرأة من الخوي خوي كن يستطعن الاتيان على خيرات الموقع بسرعة تفوق كثيراً سرعة خمسين من أقرانهن من السان. كما سجل لوفايان «تلك الهجرات التي اضطروا (جماعة الخوي خوي) لها على نحو لا يمكن تجنبه كنتيجة لاختلاف الفصول(٩٩)». وفي اشارته الى نماكوا ذكر الحاكم فان دير ستل «أنهم يصعدون الجبال ثم يهبطون الوديان والشاطىء مرة أخرى حسب الموسم سعياً وراء الكلأ الطيب(١٠٠)». ويتضح أنه في الأيام الأولى من استقرارهم في خليج تيبل استفاد رجال سلدانها الأقوياء من كلأ الخليج خلال الصيف الجاف، ولكنهم تحركوا شمالاً صوب خليج سلدانها في المواسم

(٩١) ج. رودنر.
(٩٢) ف. لو فايان، ص ٣١١.
(٩٣) هـ. ب. توم، ص ٣٥٣.
(٩٤) ر. هـ. الفيك.
(٩٥) ر. هـ. الفيك، ص ١١٥.
(٩٦) و. باترسون، ص ٥٧، ١٠٤، ١٢٢، ١٢٥.
(٩٧) ف. لو فايان، ص ٢٨٩.
(٩٨) أ. شابيرا، ١٩٣٣، ص ٢٣.
(٩٩) ف. لو فايان، ص ٣٢٨.
(١٠٠) ج. ووترهاوس.

الأخرى. لقد كان الخوي خوي، باختصار، دائمي الترحال وتوافرت لديهم قطع واسعة من أرض المرعى، وبخاصة السهل الساحلي والأودية بين الجبلية. . . ولقد ذكر سبارمان التحرك نحو مراعي كارو، على الأرجح بعد مطر الشتاء، حيث لاحظ «أن خبرة المستعمرين المستمرة الواضحة في هذا الشأن تتفق مع ما يمارسه الهوتنتوت»(١٠١).

وأثناء وجوده في لونج كلوف خلف سولندام في عام ١٧٧٥، اقترح سبارمان بعد ملاحظة مفصلة أن رعاة الخوي خوي كانوا يحرقون بانتظام حشائش الأرض ليشجعوا نمو كلأ الحيوان والنباتات الطبيعية. واتاحت هذه المعالجة لحشائش الأرض الاحتفاظ بنماذج نباتية غير تامة النمو فاق محتواها من العناصر النافعة مثيله تحت الظروف العادية. ويذكر في تعليقه «استعمل المستعمرون والهوتنتوت النار للتخلص من العشب الضار في أراضيهم». والأرض في الحقيقة بهذه الوسيلة كانت تبدو عادية جرداء، ولكن فقط لكي تبدو بعد ذلك في كساء أكثر بهاء، مزدانة بأنواع شتى من الحشائش الحولية والأعشاب وزهور السوسن الجميلة التي حالت الشجيرات والنباتات المعمرة دون تفتحها. وهكذا تؤلف بأغصانها وأوراقها الغضة، مرعى أخضر بهيجاً للتريض وللماشية(١٠٢). وعلى ما يبدو فإن هذا النشاط سبق المستوطنات الاستعمارية، فقد لاحظ كثير من الزوار الأوائل للكاب شيوع الحرائق في الأجمة، وتعلم القائد فان رايبيك ان يربط بين الحرائق في الجبال البعيدة، وبين الوصول الوشيك لجماعات الخوي خوي.

تميزت العلاقات بين السان والخوي خوي بالنزاع والتعاون. وفي السنوات الأولى بعد بناء المستوطنة في خليج تيبل، سمع رايبيك كثيراً عن «نوع من الناس لهم أجسام ضئيلة ويعيشون عيشاً زهيداً، وهم متوحشون جداً، وبلا اكواخ او بهائم او أي شيء في الدنيا»(١٠٣). وهؤلاء الناس، عرفوا حينئذ باسم سونكوا أو سواكوا، اعتمدوا في عيشهم الى حد ما على سرقة المواشي من الرعاة، وهناك جماعة تمركزت حول نهر بيرج عرفوا بالتحديد باسم أوبيكوا، التي تعني (اللصوص). ومع ذلك، فإنه مع تغلغل المستعمرين داخل البلاد وازدياد معرفتهم بالعلاقات بين الجماعات، ظهرت اشارات عرضية الى نوع من علاقات الاحتماء التي ربطت بين صيادي السان وجماعات الخوي خوي الأكبر حجماً. وقد كتب فان دير ستل «ان جماعة سونكوا تماثل تماماً الفقراء في أوروبا، وكانت كل قبيلة من الهوتنتوت تملك عدداً منهم تستخدمهم في رصد اقتراب القبائل الغريبة. وهم لا يسرقون شيئاً من حظائر مخدوميهم ولكن من حظائر الغير»(١٠٤). وكتب كولب مؤكداً، بعد ذلك بعشرين عاماً ان «جماعة سونكوا. . . من اجل الرزق احترف معظمهم القتال كمرتزقة لأمم الهوتنتوت الأخرى في حروبهم وذلك في مقابل القوت اليومي فقط»(١٠٥). وهؤلاء السونكوا هم السان اندمجوا في مجتمع الخوي خوي. ويجادل الفيك باقناع ان توسع جماعات الخوي خوي داخل أقاليم تخص السان اصلاً تضمن دورة تكامل بدءاً بالحرب ثم الاحتماء ثم الاندماج واخيراً الاستيعاب(١٠٦). ويبدو محتملاً أن

(١٠١) أ. سبارمان، ص ١٧٨.
(١٠٢) المصدر نفسه، ص ٢٦٤.
(١٠٣) هـ.ب، توم، ص ٣٠٥.
(١٠٤) ج. ووترهاوس، ص ١٢٢.
(١٠٥) ب. كولب، ص ٧٦.
(١٠٦) ر.هـ. الفيك

دخول الرعي الجنوب الأفريقي قد تضمن تحركات سكانية واستيعاب الصيادين الجامعين المحليين، كما يرى الفيك، ولكن توثيق هاتين العمليتين ما زال صعباً من الناحية الأثرية.

إن العلاقات ما بين السان والخوي خوي وغيرهما من الجماعات مثل المستعمرين المهاجرين او الزراعيين من مستخدمي الحديد ربما تميزت بنفس تنوع العلاقات بين السان والخوي خوي. ففي الغرب كان كل من السان والخوي خوي قد اقصيتا عن بلادهما، ثم ابيدتا، او تم استيعابهما في المجتمع الاستعماري. ويصور عدد من رسوم الحجر في منطقة غرب الكاب، عربات مقفلة، وفرساناً يمتطون الخيول، وأسلحة المزارعين الرحالة (انظر الشكل ٢٦ - ١١). وفي الشرق لم يدون النزاع بين المزارعين والصائدين في العصر الحديدي الى حد كبير، على أن الرسوم على الصخور ايضاً تصور سرقات المواشي، وفيها يظهر رجال صغار يحملون الأقواس وهم يسرقون من اشخاص اكبر يحملون الرماح والدروع (انظر الشكل رقم ٢٦ - ١٢). وان المراحل الأخيرة لهذا التفاعل مدونة حينما تحرك المستوطنون المتعلمون صوب الناتال وعلى منحدرات جبال دراكنسبرج. ويبدو أن الرعاة من الخوي خوي ربما كان ما يربطهم بالفلاحين المختلطين من المتحدثين بلغة «البانتو» اكبر مما يربط «السان». وقد اقاموا علاقات اكثر تناسقاً مع اكسوزا وتسوانا مثلاً. ان وصف لوفيان لجوناكوا يشير الى وجود تاريخ للروابط الوثيقة بينهم وبين اكسوزا المجاورين لهم، ويشمل ذلك التزاوج[١٠٧]. من المحتمل انه من الخطأ تصور وجود تمايزات اقتصادية ولغوية وجسدية أو ثقافية واضحة بين مختلف شعوب ما قبل التاريخ في الجنوب الافريقي. والأمر غير المحتمل بدرجة أكبر هو امكانية ان مثل هذه التمايزات قد تواكبت[١٠٨].

(١٠٧) لو فايان، ص ٢٦٤.
(١٠٨) ر.م. ديريكوت، ١٩٧٣ب، ص ٤٤٩ - ٤٥٥.

الفصل السابع والعشرون

بدايات العصر الحديدي في الجنوب الأفريقي

بقلم: د. و. فيليبسون

مقدمة

شهدت سلسلة الأحداث الحضارية في الجنوب الأفريقي[1]، والتي يعرفها علماء التاريخ ببداية العصر الحديدي، دخول أسلوب جديد للحياة يختلف اختلافاً حاداً عن الأساليب التي سبقته، وقد خلق هذا الأسلوب الطابع المميز لتطور الأحداث التاريخية المتتالية في مختلف انحاء المنطقة. ففي اوائل الألف عام الأولى في عصرنا هذا جاء تحرك سكاني ضخم، الى جنوب إفريقيا، بشعب زنجي مزارع يختلف اقتصاده ونمط استقراره وملامحه الجسمانية، ولغته عن السكان الأوائل. وأدخل هذا الشعب المعرفة بفنون التعدين وصناعة الفخار اللتين لم تعرفا من قبل في تلك المنطقة. ويتناول هذا الباب طبيعة مجتمعات بداية العصر الحديدي هذه وأصلها وتطورها.

ويعترف علماء الآثار الآن بوجود تشابه كبير بين المجتمعات التي ادخلت الثقافات المادية للعصر الحديدي الى جنوبي إفريقيا. وتنسب بقايا هذه المجتمعات الى تركيبة صناعية[2] إفريقية جنوبية تنتمي للعصر الحديدي المبكر تتميز عن صناعات العصر الحديدي المتأخر من حيث التكامل التاريخي ومن حيث الاشارة الواضحة لصناعة الفخار المصاحبة لها الى تقليد عام مشترك. إن انتشار صناعة بداية العصر الحديدي هذه يمتد الى ما بعد منطقة جنوبي إفريقيا التي نناقشها[3] هنا. إن تقسيمات اقليمية

(١) تضم المساحة الجغرافية التي يغطيها هذا الباب (انظر الخريطة، الواردة في الصفحة التالية) الشكل (٥٠) أنجولا، النصف الجنوبي لزامبيا، ملاوي، موزمبيق، بوتسوانا، روديسيا، سوازيلاند واجزاء من ناميبيا وجنوب إفريقيا. وسيلاحظ القراء أيضاً أن التواريخ كتبت بسني الكربون المشع غير المصححة.

(٢) ر. س. سوبر، ١٩٧١، ص ٥ - ٣٧.

(٣) لأحدث الأقوال انظر المرجع المذكور.



الجنوب الافريقي: مواقع

عديدة يمكن ان تلاحظ داخل هذا المجتمع الصناعي اولاً على أساس التباين في طراز صناعة الخزف، كما يمكن تأكيد هذه التجمعات في عدة مناطق عن طريق سمات ثقافية اخرى ليست ذات صلة بالموضوع. ويبدو ان تقليد صناعة الخزف في العصر الحديدي المبكر قد دخل نطاق منطقة انتشاره خلال القرون القليلة الأولى بعد الميلاد، ويبدو ايضاً انه عاش في اغلب المناطق حتى تم استبداله بتقاليد أكثر تنوعاً في العصر الحديدي المتأخر وفي الغالب حوالى بداية الألف عام الحالية. يختلف هذا التاريخ الختامي في بعض المناطق حيث ازيح العصر الحديدي الأول بمجيء القرن الثامن في بعض المناطق، بينما في مناطق اخرى تظهر درجة كبيرة من الاستمرارية المميزة بين بداية العصر الحديدي وصناعات الخزف التقليدية الحديثة(٤) وعلى سبيل التيسير وفي اطار العمل الحالي المكون من كثير من المجلدات فإنني اخذت على نفسي مهمة مناقشة ثقافات بداية العصر الحديدي اما الى وقت استبدالها أو الى القرن الحادي عشر من عصرنا أيهما أسبق في كل منطقة. لذلك فقد تركت ما بقي من حضارات العصر الحديدي الأول للمناقشة في مواضع اخرى مع مع ما عاصرها من أشياء في العصر الحديدي المتأخر.

ظهر ضمن مجموعة صناعات العصر الحديدي الأول، عدد من السمات الثقافية ذات الأهمية البالغة، في الجنوب الأفريقي لأول مرة(٥). تلك السمات كانت اولاً انتاج الطعام، وصناعة المعادن وصناعة الفخار، والاستقرار في قرى شبه دائمة ذات مساكن طينية لها هياكل من القضبان القصبية او الخشب (بالطول والعرض). وحسب ملاءمة الأرض وتوزيع مستودعات المعادن فإن هذه السمات الأربع تبدو في كل مكان في مواقع العصر الحديدي الأول في هذه المنطقة. ان الثقافة المادية لمجتمعات العصر الحديدي الأول تتباين بشدة مع ثقافة مجتمعات العصر الحجري المتأخر التي سبقتها او عاصرتها. في كلتا الحالتين لمكوناتها المختلفة وباعتبارها كياناً قابلاً للاستمرار فإنه يمكن اثبات ان هذه الثقافة أدخلت على الجنوب الأفريقي جاهزة مكتملة وانه لمن الواضح أن اصولها لا يجب البحث عنها في هذه المنطقة وانما بعيداً جداً الى الشمال. فمثلاً لم يخرج عن أي موقع أفريقي جنوبي فخار يمكن اعتباره سلفاً لخزف العصر الحديدي الأول، ويبدو أن فن التعدين ادخل كتقنية مكتملة النمو وفعالة الى منطقة كانت مبادىء هذه التقنيات مجهولة فيها من قبل. وكانت الحيوانات الداجنة والأليفة في بداية العصر الحديدي من انواع لم تكن تعرف في الجزء الجنوبي من شبه القارة. ونظراً لذلك ولشيوعه المتعاصر في مساحة كبيرة فانه لمن الصعب تفادي الاستنتاج بأن العصر الحديدي الأول ادخل على الجنوب الافريقي بواسطة حركة سكانية ضخمة وسريعة جاءت معها بثقافة مكتملة ولكنها اجنبية، وهي ثقافة تكونت في مكان آخر.

بذلك يتضح أن العصر الحديدي الأول لا يمثل الا قطاعاً من نشاط الانسان في إفريقيا الجنوبية خلال الألف سنة الأولى من عصرنا. ففي مناطق عديدة استمرت جماعات العصر الحجري المتأخر في ممارسة اسلوب حياتها التقليدية خلال هذه الفترة بينما تبنت بعض مثيلاتها في أقصى الجنوب، وراء اقصى ما وصل اليه العصر الحديدي الأول، تبنت بعض السمات الثقافية الجديدة التي يمكن ان تعتبر كنتيجة لاتصال مباشر وغير مباشر مع السكان المستقرين للعصر الحديدي الأول. ويناقش ج.ي. باركنجتون موضوع سكان العصر الحديدي الأخير في الفصل السادس والعشرين في هذا المجلد.

---

(٤) د. و. فيليبسون، ١٩٧٤، ص ١-٢٥، ١٩٧٥، ص ٣٢١ - ٣٤٢.
(٥) انتشرت بعض هذه السمات سريعاً متجاوزة منطقة ثقافة العصر الحديدي المبكر.

أن اعادة بناء صورة العصر الحديدي المبكر في الجنوب يجب ان تقوم اولاً وقبل كل شيء على الأدلة الأثرية. فعلى خلاف الفترات المتأخرة من العصر الحديدي فان احداث هذه الفترة - وهي توافق الى حد كبير الألف عام الأولى من عصرنا - تقع خارج نطاق الروايات الشفوية. وكما بينا في باب سابق فقد قامت محاولات لجعل أي عمليات اعادة بناء الصورة التاريخية لمجتمعات العصر الحديدي المبكر التي لم تكن تعرف الكتابة تقوم على دلائل لغوية خالصة. ولكن على ضوء معرفتنا الحالية فإنه يبدو من المفضل بصفة عامة ان نتقبل نتائج اللغويات التاريخية كأدلة ثانوية للمقارنة مع سلسلة متتابعة تأسست اولاً على علم الآثار القديمة.

مسرح اقليمي للأدلة الأثرية

جنوبي زامبيا، أنغولا، مالاوي

أجرى الكاتب مؤخراً مسحاً اقليمياً للعصر الحديدي المبكر في زامبيا وقد أمكن بالفعل التعرف على بعض المجموعات المتميزة أولاً على أساس دراسة رموز الفخار المقترن بها(٦) وفي هذه الحالة فإننا مهتمون بالأدلة المستمدة من جنوب البلاد فقط. وهنا يمكن تمييز مجموعتين مترابطتين بصورة وثيقة في منطقة حزام النحاس وعلى هضبة لوساكا. وتتميز مجموعة شوندوي في حزام النحاس بأوان فخارية ذات حواف سميكة وغير مميزة، والزخرفة البارزة الغالبة عليها هي صفوف من الطبعات المثلثة المتناوبة المواجهة لبعضها البعض التي تعطي شكل الحلية المتكرر بطريقة شبه بارزة، وتتكون أيضاً من مساحات منقوش عليها بأسنان المشط ومحاطة بخطوط غائرة. إن الأعداد الكبيرة من مواقع القرى التي ظهرت فيها حتى الآن أعمال فخار من هذا النوع موزعة على شواطىء انهار ونهيرات، وعادة بالقرب من خطوط أشجار الدامبوس التي تحيط بالأطراف العليا لروافد نهر الكافوي. إن تواريخ الكربون المشع لمواقع مجموعة شوندوي في كانجونجا وشوندوي، تغطي من القرن السادس الى القرن السابع لعصرنا هذا، ولكن دراسة لرموز الفخار توحي بأن مواقع أخرى قد تكون أقدم. إن تشكيل الحديد والنحاس واضح خلال النطاق الزمني للمواقع المعروفة ولكن يبدو أن استغلال مستودعات النحاس في المنطقة كان على نطاق ضيق في العصر الحديدي الأول، بالرغم من أنه جذب اتصالات تجارية واسعة النطاق(٧).

والى الجنوب توجد مواقع العصر الحديدي المبكر مركزة في هضبة لوزاكا وتنتسب الى مجموعة كابويريمبوي والتي كانت صناعة الخزف فيها تتميز عن صناعة شوندوي بدرجة وتكرار أكبر لزيادة سُمك الحواف وندرة الزخارف التي يستخدم المشط في عملها والتي احتلت مكانها تشكيلة من الرسوم الغائرة. وفي قرية كابويريمبوي التي تقع على بعد ١٣ كيلومتراً شرقي لوزاكا بدأ إعمار للمنطقة - والذي كان على ما يبدو قصيراً - منذ حوالى القرن الخامس لعصرنا. وكانت هنالك بقايا كثيرة للهياكل ذات القضبان والتي كان كثير منها على ما يبدو مصاهر للحديد. وقد أكدت كميات هائلة من خبث

(٦) د. و. فيليبسون، ١٩٦٨، ص ١٩١ - ٢١١.
(٧) أ.أ.س. ميلز و ن. ت. فيلمر، ص ١٢٩ - ١٤٥، د.و. فيليبسون، ١٩٧٢أ، ص ٩٣ - ١٢٨.



الجنوب الافريقي مناطق العصر الحديدي المبكر والمواقع المتصلة به المذكورة في الكتاب

الحديد وكتله ان تشغيل الحديد على نطاق واسع كان يجري في المنطقة المجاورة مباشرة. وكانت الأدوات الحديدية أكثر شيوعاً مما هو مألوف في مواقع زامبيا بينما يبدو أن النحاس لم يكن معروفاً. وتكشف بقايا العظام عن وجود قطعان داجنة[٨]. إن التطور الأخير لمجموعة كابويريمبوي يصوره على خير وجه موقع طريق تويكنهام في ضاحية شرقية من ضواحي لوساكا. وهناك جرت تربية الأغنام وصيد الحيوانات البرية. وكان تشغيل الحديد، كما في كابويريمبوي، يتم على نطاق واسع، ولكن لم يظهر النحاس الا في المرحلة الأخيرة من العصر الحديدي المبكر[٩]. إن توزيع مجموعة كابويريمبوي يمتد الى الجنوب الشرقي داخل وادي الزامبيزي بالقرب من شيروندو متجاوزاً الى هضبة ماشونالاند حول اورونجوي حيث يعرف جيداً من موقع ملاصق لكهف سينويا، والذي يرجع تاريخه الى النصف الثاني من أول ألف عام لعصرنا هذا[١٠].

وحتى الآن لم يكتشف الا القليل من مواقع العصر الحديدي الأول في غربي زامبيا. وفي ارسالية سيوما في اعالي نهر الزامبيزي هنالك مستوطنة يرجع تاريخها الى القرون الوسطى لأول ألف عام لعصرنا هذا[١١]. وهناك مستوطنة قرب نهر اللوبوسي غرب كاموا، تنتمي الى الربع الأخير من الألف عام هذه. لقد انتجت هذه المواقع أعمال فخار متميزة بالرغم من انتمائه القاطع للعصر الحديدي الأول، بصورة ملحوظة عن فخار المجموعات التي تم التعرف عليها الى الشرق من الموقع. وفي كلا الموقعين كان هنالك دليل على تشغيل الحديد[١٢]. ومن الناحية المادية فإن منطقة أعالي الزامبيزي تعتبر امتداداً لمنطقة كالاهاري سائد في انغولا. وهنا لا يتوفر الا القليل من المجموعات الأثرية من الفخار للمقارنة، ولكن تبين المجموعة الصغيرة من دوندو آير فيلد، التي يرجع تاريخها الى ما بين القرنين السابع والتاسع ولذا فهي معاصرة نظرياً لفخار لوبوسي، العديد من الصفات المشابهة للصفات المادية الثانية[١٣] ويبدو أن الفخار في منطقة دوندو، قد صنع منذ القرون الأولى لعصرنا هذا، اذا أمكن الاعتماد على دليل تاريخ الكربون المشع عن حصى نهير عند فيوري ماين[١٤]. ويمكننا الجزم الى حد ما بأن مجتمعات العصر الحديدي كانت موجودة في مناطق شاسعة في أماكن أخرى من أنغولا خلال أول ألف عام، ولكن التفاصيل المتوافرة عنها قليلة.

وعند هذا الحد من الملائم القول بأن مواقع العصر الحديدي، التي يرجع تاريخها الى أول ألف عام ميلادي، معروفة الآن من المناطق الأبعد جنوباً في أنغولا، كما في فيتي لاشويا حيث يرجع تاريخ أقدم توطن في العصر الحديدي الأول الى القرن السابع أو الثامن[١٥]. ان العلاقة بين هذا الموقع والمجمع الصناعي للعصر الحديدي الأول لا يمكن أن تحدد لأنه فيما عدا الحقيقة المجردة عن أن الحديد والفخار كانا موجودين، لم تتوفر الى الآن تفاصيل اكثر من أعمال الفنون المرتبطة بذلك[١٦]. ففي أقصى

(٨) د.و. فيليبسون، ١٩٦٨ب، ص ٨٧ - ١٠٥.
(٩) د.و. فيليبسون، ١٩٧٠أ، ص ٧٧ - ١١٨.
(١٠) ك.ر. روبنسون، ١٩٦٦أ، ص ١٣١ - ١٥٥، ب.س. جارليك، العدد ١٩٧٠أ، ص ٢٥ - ٤٤.
(١١) أو. فوجيل، ١٩٧٣.
(١٢) د.و. فيليبسون، ١٩٧١، ص ٥١ - ٥٧.
(١٣) ج.د. كلارك، ١٩٦٨ب، ص ١٨٩ - ٢٠٥.
(١٤) س.ج. فيرجسون و و.أ. ليبي، ص ١٧.
(١٥) ب.م. فاجان، ١٩٦٥، ص ١٠٧ - ١١٦.
(١٦) ج. فانسينا، ١٩٦٦.

شمال ناميبيا قدم موقع كاباكو أعمالاً للفخار وصفت بصفة مبدئية ومؤقتة بانها شبيهة بتلك التي وجدت في كابوريمبوي التي ترتبط بتاريخ حدد بواسطة الكربون المشع في آخر أول الف عام(١٧).

وقد اكتشفت حالياً في جنوب الكافو وفي مناطق الهضاب الخصبة في المحافظة الجنوبية لزامبيا، مواقع عديدة لقرى كبيرة من العصر الحديدي المبكر. ويبدو أن مواقع بعينها استقرت لفترات أطول من المعتاد في مناطق اخرى، وقد حدث اول استيطان من هذا النوع حوالى القرن الرابع. ويبدو ان مستوطنات العصر الحديدي الأول هذه كانت اكثر كثافة من السكان الآخرين الذين عاش قرناؤ هم في مناطق اخرى بعد مجيء الزراعة وصناعة المعادن(١٨). وتوجد العديد من أوجه التشابه بين الثقافة المادية لجماعة كالوندو من هضبة باتوكا وبين جماعة كابوريمبوي، ولكن الفخار متميز عن بعض أولاً بندرة طبعات الرسوم البارزة وكذلك بالسمك الزائد لحواف الزبديات. وتدل اصداف الودع على وجود صلات مع تجارة الشاطىء ولكن لا يوجد اي خرز. وقد انتجت اكثر الطبقات انخفاضاً لموقع كالوندو قرب كالومو مجموعة كبيرة من عظام الحيوانات، وكان أقل من خمسيها من عظام القطعان والمواشي الداجنة ويبدو واضحاً أن الصيد استمر يلعب دوراً هاماً في الاقتصاد. واستعمل الحديد لصناعة أشياء كالأمواس، ورؤوس السهام، وربما مفاتيح الآلات الموسيقية. وقد وجدت ايضاً بعض اجزاء من مشغولات النحاس(١٩). وقد استمر احتلال جماعة كالوندو للهضبة الى القرن التاسع(٢٠) وفي وادي كافو بالقرب من ناموالا يرجع تاريخ احتلال العصر الحديدي المبكر في باسانجا ونوانامايما الى ما بين القرنين الخامس والتاسع(٢١).

وربما كانت منطقة وادي الزامبيزي حول ليفينجستون هي أكثر المناطق تعرضاً للاستكشاف في إفريقيا الجنوبية من وجهة نظر علم الآثار للعصر الحديدي. وتشترك مجموعة دامبوا وهي من جماعات العصر الحديدي الأول في السمات مع كل من مجموعة كالوندو ومع مواقع جوكوميري في زيمبابوي(٢٢) وقد قيل انه بعد مرحلة اولية لا نعرف عنها الا القليل ويصورها على خير وجه مجموعات كسر الخزف من موقع سيتومبا قرب ماشيلي، ربما كان الازدهار الأساسي لمجموعة دامبوا مستمداً من مركز ثانوي لنشر ثقافة العصر الحديدي يقع جنوب الزامبيزي(٢٣). وقد وجد في كامود زولو بقايا منازل مصنوعة من القضبان والأعمدة شبه المستطيلة يرجع تاريخها الى ما بين القرن الخامس والقرن السابع. ويدل وجود قطعة صغيرة من الزجاج المستورد وجدت داخل احد هذه المنازل على ان الاتصال مع تجارة الشاطىء قد بدأ بحلول القرن السابع. وتظهر عادات الدفن لهذه الفترة على خير وجه في تشوندو حيث وجدت جثث مدفونة بصورة فردية في حفر، وقد دفنت الجثث في وضع انكماش حاد مع رفع الركبتين الى الذقن. ويبدو ان سلع القبور قد دفنت في حفر قريبة منفصلة، تحتوي عادة على ازواج من اواني

---

(١٧) ج.أ.ج. سوتون، ١٩٧٢، ص ١ - ٢٤.

(١٨) لمناقشة التفاعل بين سكان العصر الحديدي المبكر والعصر الحجري المتأخر، انظر د.و. فيليبسون، ١٩٦٨، ص ١٩١ - ٢١١ وس.ف. ميللر، ١٩٦٩، ص ٨١ - ٩٠.

(١٩) ب.م. فاجان، ١٩٦٧.

(٢٠) كما في جوندو على سبيل المثال ب.م. فاجان، ١٩٦٩ب، ص ١٤٩ - ١٦٩.

(٢١) قام بالحفر في باسانجا وموانامايما الدكتور ب.م. فاجان. وعن تواريخ الراديو المشع انظر د.و. فيليبسون، ١٩٧٠ب، ص ١ - ١٥.

(٢٢) س.ج. هـ. دانيلز ود.و. فيليبسون - المجلد الثاني.

(٢٣) يعتمد هذا البحث عن العصر الحديدي المبكر في منطقة شلالات فكتوريا اعتماداً كبيراً على بحث السيد ج. أو. فوجيل، الذي تشمل مقالاته المنشورة عن لوساكا، ١٩٧١ ومقالات اخرى.

الفخار تستخدم كحاويات للمخبوءات الجنائزية، وكانت تحتوي في هذا الموقع وباستمرار على معزقة حديدية بالاضافة الى أشياء اخرى كخلاخيل حديد او نحاس واصداف ودع وخرز. ولقد احتوى احد هذه المخابىء على بذرتين. وقد تم تحديدهما بصورة أولية بانهما حبتا قرع وفاصوليا(٢٤). وانتجت مستوطنات مجموعة دامبوا، مثل مستوطنات مجموعة كالوندو الى الشمال، ادلة من العظام بينت وجود تربية الماشية والأغنام والماعز، ولكن وفرة عظام الحيوانات البرية تؤكد الأهمية المستمرة للصيد. وقد شملت الأدوات الحديدية المصنوعة محلياً، الخناجر الصغيرة والسكاكين، والمعازق، والفؤوس، والخلاخيل ورؤوس الحراب والسهام ولم يتواجد النحاس في المنطقة ولا بد أنه جاء اليها بالتجارة، وأقرب موردين معروفين هما منطقة كافوي في زامبيا والمنطقة حول وانكي في زيمبابوي. وتشمل مصنوعات النحاس التي وجدت في موقع جماعة دامبو خلاخيل وقضباناً تجارية.

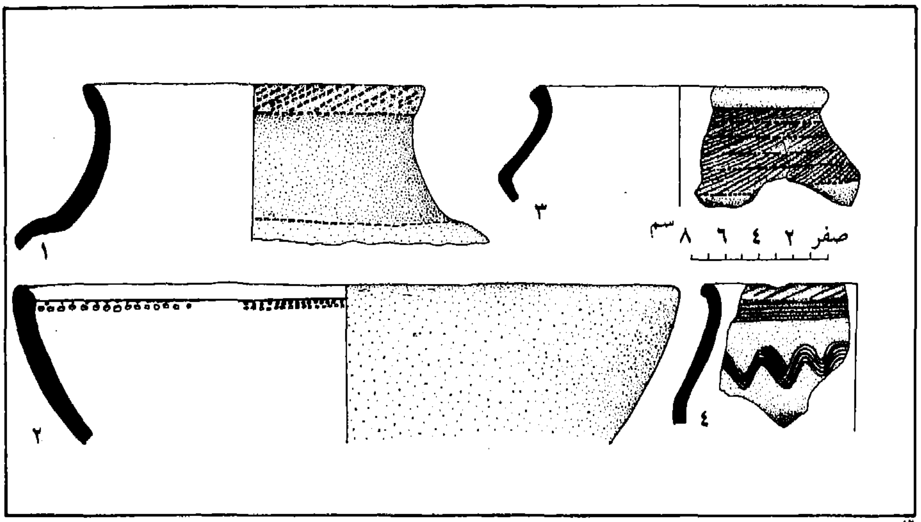
وخلال القرن الثامن أدى المعدل المتزايد لتغير ملامح الخزف الى ظهور تقليد فخار كالومو الذي يعتبر الآن كتطور محلي داخل منطقة شلالات فكتوريا من فخار مجموعة دامبوا في العصر الحديدي المبكر. وفي حوالى منتصف القرن التاسع ادخل صناع فخار كالومو التقليدي سلعتهم الى هضبة باتوكا ويبدو انهم احتلوا سريعاً مكان بقايا سكان جماعة كالوندو هناك(٢٥).

وفي المحافظة الشرقية لزامبيا، يبدو ان سكان العصر الحجري المبكر استقروا بحلول القرن الثالث بعد الميلاد، ولكنهم كانوا مبعثرين، ومن المرجح أن معظم سكان هذه المنطقة استبقوا طريقة الحياة في العصر الحجري المتأخر الى الألف عام الحالية، بعد ابتداء العصر الحديدي المتأخر(٢٦). ويرتبط خزف مواقع جماعة كامناما في شرقي زامبيا بصورة وثيقة بفخار مستوطنات معاصرة في مناطق متاخمة في ملاوي، حيث يتوافر حالياً موجز للتسلسل الأثري للعصر الحديدي بالنسبة للجزء الأعظم من البلاد الذي يقع غرب البحيرة.

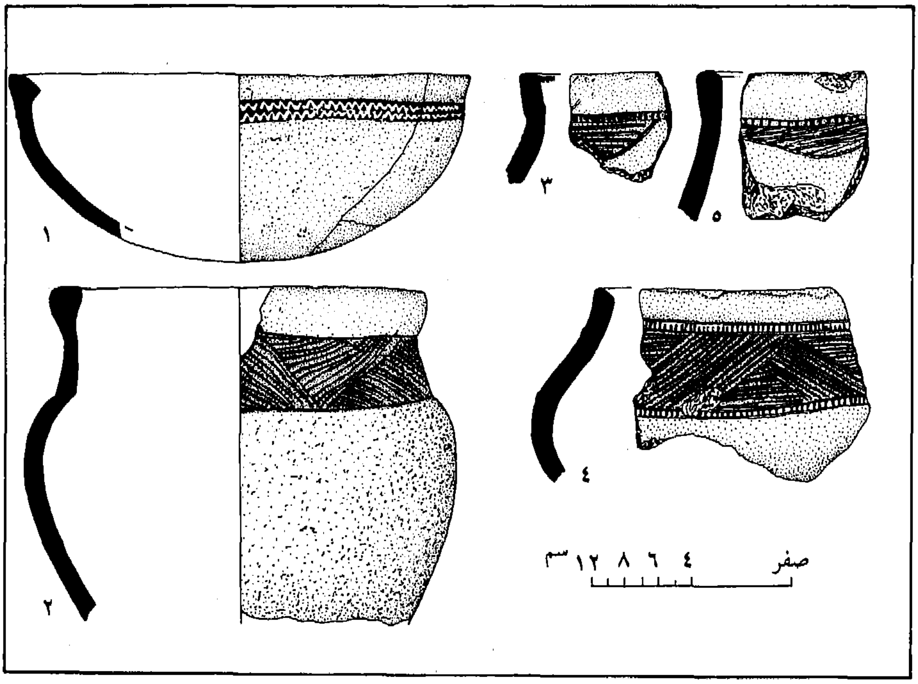
وفي شمال ملاوي، موقع على نهر روكورو الجنوبي قرب جبل فوبو، دَلَّ على وجود استيطان امتد لفترة طويلة في العصر الحديدي المبكر يرجع تاريخه الى ما بين القرنين الثاني والخامس بعد الميلاد. وقد وجدت قطع من الفخار وآثار عظام حيوانات برية ودلائل على صهر الحديد بالاضافة الى خرز القواقع، ولم يكتشف خرز من الزجاج. ومن الواضح ان الفخار مقارب لفخار كامناما، وأن هنالك صلة واضحة بين هذه المادة وبين مصنوعات العصر الحديدي المبكر في شرق إفريقيا، خاصة تلك الآتية من منطقة كوالي الداخلية من مومباسا(٢٧). وهناك أشياء مشابهة من جبل لومبولي قرب ليفينجستون يرجع تاريخها الى منتصف اول ألف عام ميلادية وفي شمال ملاوي يبدو أن موقع موافارامبو يمثل الشكل المحلي للعصر الحديدي المبكر، مظهراً بعض الصلة مع جماعة مالامبو في شمال زامبيا(٢٨). وحدد تاريخ موافارمبو من القرن الحادي عشر الى القرن الثالث عشر(٢٩). وفي جنوبي

---

(٢٤) ج.أو. فوجيل، ١٩٦٩، ص ٥٢٤؛ ج. أو. فوجيل، ١٩٧٢، ص ٥٨٣ - ٥٨٦.
(٢٥) ج.أو. فوجيل، ١٩٧٠، ص ٧٧ - ٨٨.
(٢٦) د.و. فيليبسون، ١٩٧٣، ص ٣ - ٢٤.
(٢٧) ر.س. سوير، ١٩٦٧أ، ص ١ - ١٧.
(٢٨) د.و. فيليبسون، ١٩٦٨أ، ص ١٩١ - ٢١١.
(٢٩) تستند هذه المعلومات عن العصر الحديدي المبكر في ملاوي، على بحث ك.ر. روبنسون، الذي وصفه في المطبوعات الآتية، ١٩٦٦، ص ١٦٩ - ١٨٨ مع ب. سانديلوفسكي ١٩٦٨ ص ١٠٧ - ١٤٦.



٣
٤



الشكل ٣ : أعمال خزف من مابفيني : رقم ١ ، ٢ حسب أبحاث ك. ر. روبنسون (١٩٦١) ودامبوا، ورقم ٣، ٤ حسب أبحاث س. ج. دانيلز، ود. و. فيليبسون (١٩٦٩).

الشكل ٤ : أشغال الخزف على طريق توكينهام : رقم ١ ، ٢ حسب أبحاث د. و. فيليبسون ١٩٧٠، وكاندو، ورقم ٣ - ٥ حسب أبحاث ب. م. فاجان، ١٩٦٧.

ملاوي تدل اكتشافات في مواقع عديدة تخص مجموعة نكوبي[٣٠] على استيطان مماثل في الفترة ما بين القرنين الرابع والحادي عشر.

تشكل أعمال الخزف خلال العصر الحديدي المبكر في ملاوي والمناطق المتاخمة في زامبيا حلقة وصل واضحة بين المصنوعات المعاصرة في شرق إفريقيا وتلك المصنوعة في زيمبابوي، ولكنها مميزة بصورة واضحة عن تلك الخاصة بمجموعات شوندوي، كابويريمبوي وكالوندو عبر مناطق لوانجوان في الغرب. ولسوء الحظ لا تتوافر أي معلومات عن مواقع العصر الحديدي المبكر، هذا اذا وجد اي منها اصلاً في المنطقة شرقي بحيرة ملاوي.

إفريقيا جنوبي الزامبيزي

في زيمبابوي تستمر نفس الصورة العامة لصناعات العصر الحديدي المبكر المتمايزة اقليمياً وان كانت تنتمي الى مجمع صناعي مشترك. وقد اشرنا بالفعل الى صناعات منطقتين شماليتين للبلاد ترتبط بصلة وثيقة بالجماعات الزامبية. وفي معظم الأجزاء المتبقية من زيمبابوي تظهر ثقافات العصر الحديدي المبكر تشابهاً اساسياً كبيراً فيما بينها. وهناك قبول عام لفكرة تقسيم ثلاثي للفخار الخاص بها. وتتمركز مصنوعات زيوا على المرتفعات الشرقية قرب اينانجا وتمتد غرباً نحو سالسبوري وجنوباً على منطقة حدود موزمبيق صوب لوفيلد. وتوجد مصنوعات زيسو التي كانت تعرف باسم كويجي ليوبارد[٣١] في الجنوب الغربي حول بولاوايو. وتتوزع مصنوعات جوكومبر بصورة واسعة في منطقة الجنوب الأوسط. ويظهر علم دراسة الرموز ان هنالك تقارباً وثيقاً بين الجماعات الثلاث، حيث ان بعض الأعمال الأخيرة دلت على انه يوجد تداخل كبير في الرموز بين الجماعات في مناطق كثيرة يوحي بانها لم تكن دوماً محددة تماماً، كما في بعض مجموعات العصر الحديدي المبكر في زامبيا[٣٢].

وتم الحصول على صورة واضحة لمستوطنات العصر الحديدي المبكر في زيمبابوي في مايفيني في مقاطعة شيبي، حيث تم البحث في بقايا ثلاثة هياكل على اعمدة بالطول والعرض، ولقد اعتبر احداها كمخزن كان اصلاً مرفوعاً عن الأرض على حجارة. اما بقايا الحوائط المصنوعة من الحجر الجاف فلا يمكن ان ترتبط بصورة قاطعة بمستوطنة العصر الحديدي المبكر، ولكنها مميزة معمارياً عن هياكل ذات تواريخ احدث. وتميز الفخار بأوان ذات اعناق، وزخرفة قطرية باشكال مشطية مطبوعة على الحافة السميكة، وتشكيلة من السلاطين المفتوحة. كما وجدت ايضاً تماثيل من الصلصال لخراف وأناس كما وجد خرز من الحديد والنحاس والقواقع. ويظهر الاتصال بالتجارة الساحلية من وجود قواقع بحرية وخرز زجاجي[٣٣]. وكانت الخراف هي الحيوانات الداجنة الوحيدة التي مثلت. يرجع تاريخ الموقع الى فترة ما في الثلثين الأولين للألف عام الأولى. وتأتي الأدلة المؤكدة لكثير مما ذكر اعلاه من ملتجأ صخري في ارسالية جوكوميري شمالي فورت فيكتوريا، حيث شملت عظام الحيوانات قرن جدي داجن. يرجع تاريخ مستوطنة العصر الحديدي المبكر في جوكوميري الى ما بين القرنين الخامس

(٣٠) ك.ر. روبنسون، زومبا، ١٩٧٣.
(٣١) عن ثقافة ليبورد كويجي انظر ك.ر. روبنسون، ١٩٦٦ب، ص ٥ - ٥١.
(٣٢) ت.ن. هوفمان، ١٩٧١أ، ص ٢٠ - ٤٤.
(٣٣) ك.ر. روبنسون، ١٩٦١ ب، ص ٧٥ - ١٠٢.

والسابع[٣٤]. ثم يأتي احتلال اوائل العصر الحديدي للاكروبوليس في زيمبابوي العظمى كمثال آخر لصناعة العصر الحديدي المبكر في جوكوميري، والتي يرجع تاريخ انتهائها الى ما بين القرنين الثالث والخامس[٣٥].

ولقد شوهدت مصنوعات زيوا الخاصة بالعصر الحديدي المبكر في شمال شرق زيمبابوي، في منطقة انيانجا[٣٦]. وتظهر مصنوعات زيوا الأولى من الفخار تشابهاً كبيراً مع مصنوعات جوكوميري، ولكنها تميل الى ان تكون اكثر زخرفة منها. وهذه الأعمال الفخارية معروفة حالياً على خير وجه من (مكان الهبات) وهو موقع كبير مفتوح غير مؤرخ يقع على جبال زيوا قرب انيانجا. وتشتمل الموجودات الخاصة على ادوات حديدية، وأشياء نحاسية، وخرز من القواقع بالاضافة الى اجزاء من صدف الودع المستورد. ويبدو أن بذور الدخن واليقطين متصلة بالاستيطان في العصر الحديدي المبكر.

وتظهر نسخ متأخرة من تقاليد فخار زيوا اعتدالاً عاماً في التقاطيع الأكثر تموجاً مع ادخال استعمال الهماتيت والجرافايت في اللمسات الأخيرة. تدل تواريخ الكربون المشع على أن اعمال زيوا تغطي الجزء الأكبر من أول ألف عام ميلادية ويعود تاريخ من القرن العاشر أو الحادي عشر للمستويات الدنيا لسياج مبني بالحجر في نياهوكوي قرب جبل زيوا، يعود الى مرحلة اخيرة لتقليد زيوا. وقد وجد العديد من الهياكل العظمية البشرية في مواقع العصر الحديدي المبكر في زيوا في هذه المنطقة وهي تظهر تقاطيع جسدية زنجية[٣٧].

ويظهر الفخار المتصل على نحو واضح بالمراحل الأخيرة من تقليد زيوا انتشاراً اوسع من قرينه السابق، حيث تم تسجيله في مناطق واسعة من شمال شرق زيمبابوي وغرباً حتى مقاطعة سالسبوري. ويبدو ان الفخار الذي وجد في منجم ذهب جولدن شور في اركتوروس يرجع الى شكل متأخر لتقليد زيوا وربما ينتمي الى الربع الأخير من اول ألف عام، ولكن هذا الانتماء والتأريخ يجب اعتبارهما مؤقتين انتظاراً الى المزيد من الأبحاث[٣٨]. ان ارتباط هذا النوع من الفخار بمناجم ما قبل التاريخ سيناقش باسهاب أكثر أدناه.

ويوجد أحسن تمثيل للمرحلة النهائية للعصر الحديدي المبكر في شمال ماشونالاند في مواقع شيتوبي، على بعد نحو ١٠٠ كيلومتر شمال الشمال الغربي لسالسبوري في ماكستون فارم قرب جبل شامفا[٣٩]. ويرجع هذان الموقعان الى حوالى القرن الحادي عشر ويعتقد انهما سبقا لفترة وجيزة ادخال مصنوعات موسينجيزي في العصر العصر الحديدي المتأخر الى المنطقة. يقع موقع ماكستون فارم على كوبجي، وتحاط قمته بحائط قصير مبني من كتل كبيرة ومترادفة وهي أيضاً غير مصففة ولا منتقاة ولا مصقولة[٤٠]. وقد اقيمت اعمدة في اعلى الحائط بينها فواصل متساوية على طول الحائط. وليس هناك ما يدعو الى الشك في ان الحائط مرتبط بالمستوطنة التي يحويها.

(٣٤) ت. جاردنر، ل.هـ. ويلز وج. ف. شوفيلد، ص ٢١٩ - ٢٥٣، ك.ر. روبنسون، ١٩٦٣، ص ١٥٥ - ١٧١.
(٣٥) ر. سومرز، ك.ر. روبنسون وأي. ويتي.
(٣٦) ر. سومرز، ١٩٥٨، عن «مكان الهبات» انظر أيضاً د. ر. ماكايفر، ١٩٠٦.
(٣٧) ف. أو. بيرنارد، ١٩٦١، ص ٨٤ - ١٩٢ هـ. دي فيليرس، ص ١٧ - ٢٨.
(٣٨) ج.ف. شوفيلد وت.ن. هوفمان، ١٩٧٤، ص ٢٣٨ - ٢٤٢.
(٣٩) ب.س. جارليك، ١٩٦٩.
(٤٠) ب.س. جارليك، ١٩٦٧، ص ٣، ١٩٦٩.

وفي هذا اشارة لنمو اقتصادي ملحوظ في هذه المنطقة خلال القرون الأخيرة من العصر الحديدي المبكر. وقد وجدت مصنوعات زيوا متصلة بخرز الزجاج المستورد في اشكالها الأخيرة فقط. كما وجد فخار مشابه في مواقع لها مصاطب بسيطة وحوائط من الحجارة كما وجدت عند مناجم للذهب والنحاس مما يدل على ان صانعيها كانوا مشتركين في استغلال المصادر الطبيعية لاقاليمهم وانهم كانوا على صلة بشبكة التجارة في المحيط الهندي.

وانه لفي هذه الفترة ايضاً ظهرت المواشي الداجنة لأول مرة في السجل الأثري لزيمبابوي. ان بقايا هذه الحيوانات غير موجودة في مواقع المرحلة الأولى لمستوطنة العصر الحديدي جنوب الزامبيزي، حيث كانت الأنواع الداجنة الوحيدة الموجودة هي الأغنام والماعز. ولقد سجلت الماشية لأول مرة في مواقع يرجع تاريخها الى القرن الثامن ولكنها لم تصبح شائعة الا بعد مجيء العصر الحديدي المتأخر[٤١].

هنالك العديد من اوجه التشابه بين المواقع التي تنتج فخاراً من طراز زيسو والتي تتمركز حول بولا وايو، وبين صناعات العصر الحديدي المبكر الموجودة الى الشرق. يبدو الآن ان هذا الفخار لا يمثل الاستيطان الأولي للمنطقة في العصر الحديدي المبكر، وهذا يمكن ان يرى في مواقع مثل مانداو وماديلييا نجوا في جبال ماتوبو، حيث تتشابه كسر الفخار بصورة وثيقة مع كل من المصنوعات الأولى لجوكوميري، ومع أقدم أعمال للفخار في العصر الحديدي المبكر لمجموعة دامبوا في منطقة شلالات فيكتوريا[٤٢]. ويبدو من المحتمل انه في كثير من انحاء جنوب غربي زيمبابوي ظل سكان العصر الحديدي المبكر قليلين حتى تطورت صناعة زيسو في اواخر الألف عام الأولى. وتدل دراسات فن الصخور على ان شعوب العصر الحجري المتأخر بقيت خلال هذه الفترة، لا سيما في جبال ماتوبو[٤٣].

أنتجت الحفريات على جبل زيسو في جبال الماتوبو شظايا هياكل ذات اعمدة طولية وعرضية وقواعد حجرية فسرت بأنها قواعد لمستودعات حفظ الحبوب، بالاضافة الى فخار مزخرف باشكال مطبوعات مشطية، ويرجع تاريخ هذه المواد الى ما بين القرنين التاسع والثاني عشر[٤٤].

وفي المواقع الأخرى التي انتجت فخار زيسو خاصة بومباجي ونجواباني، قد تكون احاطة المصاطب بالحجارة معاصرة، ولكن الارتباط بينهما غير مؤكد[٤٥]. يمثل أفق زيسو في القرن الثامن أو التاسع، أقدم استيطان في العصر الحديدي في موقع ليبوردس كوبجي، ويقع على بعد ٢٤ كيلومتراً غربي بولا وايو. وقد شملت الاكتشافات المرتبطة به قواقع وخرزاً من الزجاج وخبث الحديد، وأساور نحاسية، وأسنان أغنام او ماعز، بالاضافة الى بقايا عديدة لم يتأكد ارتباطها بالموقع من بقايا حبوب البازلا. ان عظام الماشية التي كانت مألوفة في المستودعات السفلى لصناعة ليبورد كوبجي (مرحلة مامبو) لم تكن ممثلة في المجمعات الحيوانية، الصغيرة نسبياً، من أفق زيسو الأسفل[٤٦].

وفي أقصى الجنوب الشرقي لزيمبابوي، تم تحديد تأريخ موقع قرية من العصر الحديدي المبكر، في مالاباتي على نهر ال نوانيتسي في الربع الأخير من الألف عام الأولى[٤٧]. وقد وجدت عظام للماشية،

---

(٤١) ت.ن. هوفمان، ١٩٧٣.
(٤٢) ن. جونز، ص ١ - ٤٤.
(٤٣) انظر الفصل ٢٦ فيما سبق.
(٤٤) ك.ر. روبنسون، ١٩٦٦ ب ص ٥ - ٥١.
(٤٥) ك.ر. روبنسون.
(٤٦) ت.ن. هوفمان، ١٩٧١ ب، ص ٨٥ - ٨٩.
(٤٧) ك.ر. روبنسون ١٩٦٣، ص ١٥٥ - ١٧١، ١٩٦١ أ.

ويظهر الفخار الذي وجد في هذا الموقع تقارباً مع كل من مصنوعات جوكوميري زيسو وأيضاً عن طريق الأخير، مع اشياء وجدت في شرقي بوتسوانا كما في جبل ماوكاجاني(٤٨).

ولقد اتضح الآن انتشار المجمع الصناعي للعصر الحديدي المبكر جنوب ليمبوبو خلال الألف عام الأولى. ولكن الأدلة قليلة وغير مكتملة. كما اكتشف فخار شبيه بفخار مالاباتي، في ماتاكوما في ساوتسبانسبرج في شمال الترانسفال، ولا توجد تواريخ محددة للموقع ولكن الشبه مع مجموعة مالاباتي التي حدد تاريخها، يجعل تحديد تاريخه في النصف الثاني من الألف سنة الأولى الأمر الأكثر احتمالاً(٤٩). وبالقرب من تزانين في الشمال الشرقي من الترانسفال يرجع تاريخ الفخار من طراز العصر الحديدي المبكر الى القرن الثالث او الرابع مما يبين ان امتداد هذا المجمع جنوبي نهر الليمبوبو، لم يتم بعد زمن طويل من ادخاله الى زيمبابوي(٥٠). وقد وجدت مؤخراً بقايا اكثر شمولاً في برويد ستروم غربي بريتوريا. هناك اخرج ر.ج. ماسون بقايا ثلاثة عشر كوخاً منهاراً بالاضافة الى آثار تشغيل الحديد. ان الفخار الخاص بالعصر الحديدي المبكر في هذا الموقع، والذي يرجع تاريخه الى حوالى القرن الخامس، مرتبط بعظام مواشي داجنة وأغنام وماعز(٥١).

وحتى الى الجنوب تم تحديد تاريخ ادخال كثير من فنون العصر الحديدي في الألف عام الأولى، ولكن انتماءها الى المجمع الصناعي للعصر الحديدي المبكر يظل غير مؤكد(٥٢). وفي كاستل بيك، في نجوينيا، في غرب سوازيلاند حدد تاريخ وجود العصر الحديدي بصورة مؤكدة في القرن الرابع او الخامس. وتشير المذكرات الأولية لمن قاموا بالحفر الى(٥٣) ان الفخار الذي وجد مرتبطاً بأدوات استخراج الاحجار وبعض الأدوات الحديدية وفنون من طراز العصر الحجري المتأخر، يمكن أن تنسب الى العصر الحديدي المبكر. ومن موقع معاصر الى حد كبير في ليدنبرج عثر على تمثال بالحجم الطبيعي للرأس البشري مصنوع من الطين مع طراز فخار حدده ج.ف. شوفيلد بانه (NC3)، ولم يتم بعد توضيح علاقته بالمجمع الصناعي للعصر الحديدي المبكر. ويمتد توزيع الفخار من هذا النوع جنوباً داخل ناتال حيث وجد في ميدون في موقع انتج ايضاً عظاماً لقطعان وماشية داجنة(٥٤).

التركيب الأثري

بالرغم من التوزيع والنوعية غير المتساويين للبحث الأثري في العصر الحديدي المبكر، والذي يبدو واضحاً من الخلاصة المتقدمة، فإنه يمكن تمييز العديد من الاتجاهات الشاملة العريضة. ففي نطاق المنطقة محل البحث، تفسح دراسة رموز الفخار المجال لمعرفة قسمين رئيسيين خلال العصر الحديدي

(٤٨) ج.ف. شوفيلد.
(٤٩) ج.ب. دي فال، ص ٣٠٣ - ٣١٨.
(٥٠) م. كلابويك، ١٩٧٣، ص ٣٢٤ - ٣٢٥.
(٥١) ر.ج. ماسون، ١٩٧٤، ص ٢١١ - ٢١٦.
(٥٢) انني استثني هنا من مجمع صناعات العصر الحديدي المبكر اكتشافات مثل تلك التي وجدت في اويتكومست وفالابوروا والتي تبدو قرابتها واضحة لمواد متأخرة. كما أنه ليس هنالك دليل على الارتباطات الحضارية مع فرن صهر الحديد في القرن السابع من شمال ناتال، الذي وصفه ت. ب. دوتون، ص ٣٧ - ٤٠.
(٥٣) ورد في: ب.م. فاجان، ١٩٦٧، ص ٥١٣ - ٥٢٧.
(٥٤) ج.ف. شوفيلد، ر.ر. انسكيب، وك.ل. فون بيزنج، ص ١٠٢؛ ر.ر. انسكيب، ص ٣٢٦.

المبكر. احدهما، وهو معروف جيداً في وسط وجنوب زامبيا حيث تمثله جماعات شوندوي وكابوريمبوي وكالوندو يمتد لمساحة كبيرة ولكن غير معروفة الى الغرب، ويحتل القسم الآخر ملاوي وشرق زامبيا ومنطقة مستوطنة العصر الحديدي المبكر المعروفة جنوب الزامبيزي(٥٥). وتشارك مجموعة دامبوا في منطقة شلالات فيكتوريا في وادي الزامبيزي القسمين سماتهما. وقد جاءت دراسة بعض النواحي الاقتصادية المختارة للعصر الحديدي المبكر والواردة أدناه تأكيداً لهذا التصنيف.

اقتصاد انتاج الطعام

من النادر ان كُشف عن الأدلة المفصلة لاقتصاديات انتاج الطعام في مجتمعات العصر الحديدي المبكر. بالطبع ان تواجد قرى كبيرة نسبياً شبه دائمة ليوحي بوجود اقتصاد قائم الى حد كبير على انتاج الطعام، بينما يأتي اكتشاف بعض المعازق الحديدية واعداد كبير من أحجار الرحى كمؤشر على وجود شكل ما من الزراعة. ولكن لم يأت غير القليل من المواقع المستكشفة بأدلة قاطعة عن نوعية الحيوانات الداجنة والمزروعات المرتبطة بها.

وفي نطاق المساحة والفترة الزمنية التي يغطيها هذا الفصل فإن مواقع العصر الحديدي المبكر الوحيدة التي انتجت بقايا مادية معروفة الهوية لنباتات مزروعة، هي شوندوي (حيث شخصت المكتشفات كبذور قرع وفاصوليا)، و«مكان الهبات» في انيانجا الذي انتج حبات دخن ويقطين، وليبوردس كوبجي (حيث وجدت بعض حبات البازلاء). ولقد عثر على حبوب ذرة في مستوى تقليد كالومو في كالوندو واساموباتي(٥٦) وانتج موقع انجومبي اليدي قرب كاريبا (وهو لم ينسب ثقافياً للعصر الحديدي المبكر)، انتج بقايا ذرة حدد تاريخها مباشرة بالقرن السابع او الثامن(٥٧). تبين هذه الأدلة القليلة وجود بعض المحاصيل التي كانت تزرع بواسطة مزارعي العصر الحديدي المبكر في جنوب إفريقيا، ولكن ليس هنالك ما يقطع الشك في ان القائمة شاملة.

وعندما نتجه الى دراسة البقايا المادية للحيوانات الداجنة فإن الأدلة تصبح اكثر وفرة. فقد سجلت بقايا الأغنام والماعز على طريق توكينهام وكالوندو وكوماد زولو ومابفين وجوكوميري وليبوردس كوبجي وماكورو وبروديرر ستروم. وتغطي هذه المواقع المتناثرة على نطاق واسع كل الحقبة الزمنية للعصر الحديدي المبكر في الجنوب الافريقي. ولكن عظام المواشي الداجنة تأتي من بينات اولى توجد فقط في مواقع جنوب زامبيا في كابوريمبوي وكالوندو وكاماد زولو. الى الجنوب من الزامبيزي لا يبدو ان الماشية وجدت الا بعد القرن الثامن، كما في كورونيشن بارك، وماكورو ومالاباتي(٥٨). ويمكن الاستدلال على أن الأغنام ادخلت على زيمبابوي قبل الماشية من دراسات رسوم الصخور في تلك البلاد، حيث كثر تمثيل الأغنام ذات الأذناب السمينة ولم تمثل قط أي مواش (٥٩). وبالرغم من ذلك فإن بعض الأدلة

(٥٥) د.و. فيليبسون، ١٩٧٥، ص ٣٢١ - ٣٤٢.
(٥٦) ب.م. فاجان، ١٩٦٧.
(٥٧) ب.م. فاجان، د. و. فيليبسون وس.ج.هـ. دانيلز.
(٥٨) ت.ن. هوفمان، ١٩٧٣.
(٥٩) ك. ك. كوك، ص ٧ - ١٠.

الحديثة من برودير ستروم توحي ان الماشية ربما تكون قد وجدت قبلاً في الترانسفال حيث يحتمل انها جاءت من مصدر غربي(٦٠).

وحتى في منطقة جنوب زامبيا، يبدو أن الماشية كانت غير شائعة نسبياً في العصر الحديدي المبكر، وذلك مقارنة بالأهمية التي اكتسبتها في اقتصاد الفترات اللاحقة. وخلال النصف الثاني من الألف عام الأولى بعد الميلاد حدث تحول تدريجي في اقتصاد العصر الحديدي المحلي. وفي كالوندو شهدت الفترة زيادة ثابتة في نسبة عظام الحيوانات الداجنة الى عظام الأنواع البرية في فترات متتالية مما يشير الى تحول تدريجي من الصيد الى تربية الحيوانات(٦١). وفي منطقة شلالات فيكتوريا كانت المعازق أقل عدداً بصورة ملحوظة في نفس الفترة تقريباً، ويبدو من المعقول افتراض تحول مماثل من التركيز على الزراعة الى رعي الحيوانات الداجنة(٦٢).

التعدين، وصناعة المعادن

ثلاثة معادن فحسب هي التي جرى تشغيلها على نطاق كبير خلال العصر الحديدي في الجنوب الافريقي وهي، حسب الأهمية، الحديد والنحاس والذهب(٦٣).

وينتشر خام الحديد بدرجة كبيرة في المنطقة في شكل او آخر، حيث لا تتوافر خامات أكثر غنى، يبدو ان خام الفيريكريت او حديد المستنقعات قد استعملا للصهر بالرغم من نتاجهما القليل نسبياً. ويبدو ان تشغيل الحديد ادخل الى المنطقة متعاصراً مع وصول السمات المميزة الأخرى التي تكون ثقافة العصر الحديدي كما حددت هنا. ولا توجد ادلة على ان استخراج الحديد كان يتم بطريقة اخرى غير حَفرْ حِفرْ غير عميقة، بل كثيراً ما كان يتم جمع الخام من على السطح. ان التفاصيل عن افران صهر الحديد في العصر الحديدي المبكر في الجنوب الافريقي غير معروفة(٦٤). ولكن من المثير أن نلاحظ ان صهر الحديد كان كثيراً ما يتم داخل حدود القرية، وكأن العمل لم يكن جارياً بالطقوس المحرمة التي كانت فيما بعد تحتم صهر الحديد بعيداً عن النساء ويبدو أن المنافخ كانت تستعمل في عملية الصهر، وهذا لا يثبت استعمال الكير لان المنافخ مستعملة أيضاً في الأفران ذات التهوية الطبيعية(٦٥). وكانت الأدوات المصنوعة من الحديد بصفة عامة ذات استخدام محلي كالسكاكين والسهام ورؤوس الحراب وما شابهها. ومن المحتمل انه كانت هناك تجارة قليلة في الحديد او المصنوعات مع المناطق البعيدة.

وكان انتشار مستودعات النحاس على نطاق أضيق من مستودعات الحديد. وكانت المناطق الرئيسية في الجنوب الافريقي التي توجد فيها هذه المستودعات تقع عند مستجمع مياه الزمبيزي – الكونغو ممتدة

(٦٠) ر.ج. ويلبورن، ص ٣٢٥. ربما يرجع وجود الماشية في العصر الحديدي المتأخر في جنوب إفريقيا الى الألف سنة الأولى من عصرنا، وربما يسبق تاريخ وصولها الى زيمبابوي. ومن ثم يبدو ادخالها الى جنوب إفريقيا عن طريق غربي امراً محتملاً. ويتفق هذا مع الأدلة اللغوية التي اوردها: س. اهريت، ١٩٦٧، ص ١-١٧، وأيضاً س. اهريت، ١٩٧٢، ص ٩-٢٧.

(٦١) ب.م. فاجان، ١٩٦٧.

(٦٢) من المحتمل أن هذه العملية تمت بصورة تدريجية على مدار عدة قرون.

(٦٣) تم أيضاً تشغيل القصدير على نطاق ضيق، على الأقل في القرن التاسع عشر في جنوب زامبيا.

(٦٤) لا يبدو واضحاً انتساب فرن اكتشفه بيرنارد في انيانجا الى اوائل العصر الحديدي.

(٦٥) مثل، د.و. فيليبسون، ١٩٦٨ج، ص ١٠٢ - ١١٣.

من حزام النحاس الحديث غرباً الى سولويزي في عقيفة منطقة الكافو وفي مناطق سينويا ووانكي في زيمبابوي، وفي شرق بوتسوانا بالقرب من الحدود الزيمبابوية، في وادي ليمبوبو قرب ميسينا وفي منطقة فالابوروا في شرق الترانسفال. وليس من الضروري أن نتناول هنا المصادر الواقعة غرباً في انغولا وناميبيا لعدم وجود ابحاث أثرية في هذه المناطق. من المحتمل ان تكون مصادر النحاس في كل المناطق التي ذكرت اعلاه قد استغلت في فترة العصر الحديدي ولكن هنالك صعوبة كبيرة في تحديد النشاط القديم، بالمقارنة مع ذلك الذي جاء فيها بعد. فقد دمر او حول تحويلاً كبيراً الكثير من اعمال ما قبل التاريخ من جراء عمليات التنقيب الحديثة. ومع ذلك فإن أعمال النحاس منتشرة انتشاراً واسعاً في مواقع العصر الحديدي المبكر، رغم انها ليست شائعة بنفس درجة شيوعها في فترات لاحقة. ولا يمكن اثبات أن تقنية تشغيل النحاس قد مورست في كافة المناطق في وقت مبكر كهذا في العصر الحديدي المبكر كما هو الحال بالنسبة لتقنيات الحديد المقابلة. فمثلاً في منطقة لوزاكا يبدو ان النحاس كان معروفاً حتى مرحلة اخيرة من العصر الحديدي المبكر.

ان معرفة النحاس كانت أقدم في المناطق الأقرب الى مصادر الخام، كما في مواقع مجموعة شونديوي وفي غالبية زيمبابوي. ومن الواضح ان النحاس كان يعتبر نسبياً سلعة ترف وكان استعماله مقتصراً على صناعة اشياء قليلة للزينة الشخصية كالعقود والخلاخيل المصنوعة من شرائط رفيعة مجدولة. وكان الاتجار في المعدن يتم في شكل قضبان تمثلها احسن تمثيل تلك التي وجدت في كومادزولو. ولم تكتشف اي افران لصهر النحاس ترجع الى العصر الحديدي المبكر. وبما ان كسر الفخار المميز لمصنوعات مناطق بعيدة قد سجل في مواقع من العصر الحديدي المبكر بالقرب من مناجم الحزام النحاسي لزامبيا، وبالتحديد في روان انتيلوب، فانه يمكن استنتاج ان الناس جاؤوا من مسافات بعيدة للحصول على النحاس من هذه المواقع، وقد استمر هذا حتى العصر الحديدي المتأخر(٦٦). ويمكن استنتاج انه في معظم الجنوب الافريقي، تم تشغيل النحاس في العصر الحديدي المبكر على نطاق ضيق لكن استغلاله على نطاق اوسع لم يتم الا في العصر الحديدي المتأخر(٦٧).

ويبدو ان التنقيب عن الذهب في العصر الحديدي في الجنوب الافريقي، قد اقتصر على حد كبير على زيمبابوي والمناطق المجاورة لها(٦٨) مباشرة. وقد تم التحقق من تشغيله على نطاق ضيق خلال ما قبل التاريخ في زامبيا وجنوب إفريقيا وغيرهما ولكن لم تجر اية استكشافات مفصلة. وعلى النقيض من ذلك تم تسجيل اكثر من الف منجم للذهب في زيمبابوي ومناطق الحدود القريبة في بوتسوانا والترانسفال(٦٩). ولقد دمرت غالبية الأشغال القديمة بمزيد من التنقيب خلال الثمانين عاماً الماضية ولا يتوافر لنا وصف تفصيلي عنها الا في حالات قليلة للغاية. وكذلك فإن تحديد تاريخ استغلال الذهب الزيمبابوي خلال ما قبل التاريخ امر صعب بالمثل. ان اقدم تواريخ الكربون المشع للمناجم القديمة في هذه المنطقة تجيء من مناجم ابوين وجيلونج، وكلاهما يرجعان الى حوالى القرن الثاني عشر. وهنالك اربعة تقارير عن اكتشاف فخار العصر الحديدي المبكر داخل او بالقرب من مناجم قديمة، في كل حالة من هذه فإن أعمال الفخار المعنية تنسب الى شكل متأخر لتقليد زيوا. ولقد سبقت الاشارة

---

(٦٦) د.و. فيليبسون، ١٩٧٢ب، ص ٩٣ - ١٢٨.

(٦٧) تجري الآن ابحاث حول الاشتغال بالنحاس في عصر ما قبل التاريخ في جنوب أواسط إفريقيا، خاصة زامبيا، من قبل السيد م.س. بيسون.

(٦٨) تستند المعلومات التالية الى حد كبير على مقال ر. سومرز.

(٦٩) العدد الحقيقي للمناجم كان اضعاف هذا العدد.

الى وجود فخار كهذا في منجم جولدن شور قرب أركتوروس، وتأتي مواد مماثلة في منطقة «ثري سكيدز». ويقع هذان الموقعان داخل منطقة وادي مازوي. وقد عثر الى الجنوب بالقرب من امكوندو وفي منطقة وادي سابي عثر على فخار مماثل من منطقة الينابيع الحارة. واخيراً يأتي فخار متأخر لزيوا من موقع لتصنيع الخام به حفر عميقة ومنخفضات واطئة في منطقة مياه الثلاثة أميال قرب كوكو، وهو اقرب هذه المواقع لمواقع الاشغال القديمة الواسعة عند مناجم جايكا وجلوبي وفينيكس. وكانت كل هذه المناجم تستغل في العصر القديم عن طريق الحفر، وهذا هو حقاً اكثر أشكال التشغيل شيوعاً في زيمبابوي. وكان لمنجمي جولدن شور والينابيع الحارة حفرة واحدة لكل منها، بينما كانت لمناجم الكوكو عدد أكبر بكثير، حيث وجد اكثر من ١٦٠ حفرة في منجم جاكا، ووصل عمق حفر فينيكس لأكثر من ٤٠ متراً. ولكنه يبدو واضحاً ان المواقع الأخيرة استغلت على مر العديد من القرون ولا يوجد دليل على أن التنقيب في العصر الحديدي المبكر، لم يكن على نطاق ضيق.

وبالرغم من العثور على كميات كبيرة من المصنوعات الذهبية في مواقع العصر الحديدي المبكر الزيمبابوي، الا أن الغالبية العظمى منها اخذها الباحثون عن الكنوز ابان السنين الأولى للاحتلال الأوروبي، لذا فقليلاً ما تتوافر معلومات تتعلق بمصدر هذه الاكتشافات وارتباطاتها الأثرية. واللقيات الذهبية القليلة التي وجدت اثناء الحفريات الأثرية المنظمة جاءت كلها من مواقع تنتمي للعصر الحديدي المتأخر(٧٠).

وفي ضوء الأدلة الهزيلة المتعلقة بالتواريخ والمتعلقة بمناجم الذهب القديمة، يمكن الوصول لاستنتاجات مؤقتة من أدلة المواقع الأربعة التي كشفت عن مصنوعات من العصر الحديدي المبكر. ولم يحدد تاريخ لأي من المواقع ولكن يبدو ان الفخار يشير الى تاريخ لا يسبق القرن التاسع وربما لا يتجاوز الحادي عشر(٧١). ولا توجد ادلة مقنعة على استغلال مناجم الذهب في زيمبابوي قبل هذا الوقت. ويتفق هذا الاستنتاج مع ادلة السجلات العربية المكتوبة والتي ورد فيها أول ذكر لشراء ذهب من هذه المنطقة على شاطىء افريقيا الشرقي في القرن العاشر(٧٢).

تقع المواقع الأربعة لمناجم الذهب التي اكتشف فيها فخار من العصر الحديدي المبكر كلها في الأجزاء الشرقية من زيمبابوي، في واديي مازوي وسابي. ويوفر هذان النهران سبلاً للمواصلات سهلة نسبياً بين الداخل والشاطىء. ولا تترك كتابات الجغرافيين العرب مجالاً للشك في أن المعدن كان يصدر منذ هذه الفترة المبكرة لاستخراج الذهب. أما استعماله محلياً خلال هذه الفترة فلا يبدو واضحاً بعد. وفي هذا الصدد فمها له دلالته ان بدء التنقيب عن الذهب وادخال الخرز الزجاجي المستورد كانا متوافقين زمنياً. واذا كان الحدثان مرتبطين حقاً فانه يبدو مؤكداً ان الدافع لتطور عمليات التنقيب عن الذهب كان دافعاً خارجياً. ومع ذلك فإن قول سومر(٧٣) ان الهند بالذات كانت مصدر التقنيات وبالتالي بعض المنقبين، هو أمر غير مقنع في المرحلة الراهنة من معارفنا. وبالرغم من أنه يمكن أن نسب بدء استخراج الذهب الزيمبابوي ونحن مطمئنون الى مرحلة متأخرة من العصر الحديدي المبكر، فإن التنقيب لم يتم على نطاق كبير الا في فترة متأخرة عن ذلك.

---

(٧٠) ان المدفونات في (انجومبي اليدي) والتي شملت اشياء ذهبية بين مدفونات القبر ثبت الآن عدم ارتباطها باحتلال اواخر الألف عام الأولى للموقع: د.و. فيليبسون و ب.م. فاجان، ص ١٩٩ - ٢٠٤.

(٧١) يقترح سومرز هوفمان احتمال وجود تاريخ أقدم.

(٧٢) «المسعودي» في ج.س.ب. فريمان - جرينفيل، ١٩٦٢ب، ص ١٥.

(٧٣) ر. سومرز.

الهندسة المعمارية

لم تُعْطِ الا مواقع قليلة المعلومات التي تتيح اعادة بناء صورة الخطط المعمارية والتفاصيل الهيكلية التي يمكن ان ننسبها الى العصر الحديدي المبكر في هذه المنطقة. ولا بد أن يكون هناك مجال للشك في المدى الذي تعتبر فيه هذه المواقع مميزة للجنوب الافريقي ككل خلال هذه الفترة. وقد انتج موقع كوماد زولو دلائل عن خطط احد عشر منزلاً من طراز المباني ذات الأعمدة الطولية والعرضية. وكانت هذه شبه مستطيلة على الاطار الخارجي وكثيرة الأعمدة الركنية، وكان أقصى طول للحوائط ٢,٣ متر فقط. ولم يعثر على أدلة مقارنة من مواقع العصر الحديدي المبكر الأخرى في الجنوب الافريقي، ولكن بعض آثار جزئية من عدد من المواقع الأخرى مثل دامبوا وشيتوبي، توحي بكثرة استعمال الأسلوب العام للبناء المصور في كومادزولو، بالرغم من أن الشكل شبه المستطيل لمنازل كوماد زولو لا يمكن ان يقلد في اماكن اخرى.

وكان البناء بالحجارة منتشراً في مناطق العصر الحديدي جنوب الزامبيزي، لكن يبدو ان هذا الأسلوب لم ينتشر في زامبيا الا على نطاق ضيق خلال القرون الأخيرة للعصر الحديدي المتأخر(٧٤).

ولكن كما ذكر اعلاه فإن هنالك بعض الأدلة على أن البناء بالحجارة كان منتشراً في زيمبابوي خلال العصر الحديدي المبكر ولكن على نطاق أضيق وأقل اتقاناً مما جاء مؤخراً. وكما اتضح فإن البناء بالحجارة ربما ارتبط بمواقع جوكوميري وفيما بعد بموقعي زيوا وزيسو. وكانت الحجارة غير المغطاة في هذا الوقت تستخدم اساساً لبناء حوائط المصاطب واسوار الحقول والاسيجة البسيطة. وربما كانت أكثر الأشكال اتقاناً التي توصل لها بناؤ و العصر الحديدي المبكر من الطراز الذي وصف اعلاه في ماكستون فارم. ولقد جاء العصر الحديدي المتأخر باتقان وتوسيع أكثر في تقاليد البناء بالحجارة الذي كان، على الرغم من ذلك، قد استقر قبل نهاية الألف عام الأولى بعد الميلاد. وينسب تسلسل البناء بالحجارة في زيمبابوي العظمى بالذات الى العصر الحديدي المتأخر(٧٥).

وقد استطاعت الخلاصة السابقة ان تغطي فقط بعض النواحي المختارة من اقتصاد وتقنية العصر الحديدي المبكر. ولكنها مع ذلك كانت كفيلة بتأكيد الحد الذي وفر به العصر الحديدي المبكر أساساً لما تلاه من التطور الحضاري في العصر الحديدي في منطقة الجنوب الافريقي.

خاتمة

هذا هو بايجاز الوضع الراهن لمعلوماتنا المتعلقة بالعصر الحديدي المبكر في الجنوب الافريقي. وقد نظرنا هنا الى عملية القاء الضوء على احداث هذا التسلسل الحضاري باعتبارها مهمة أثرية في المحل الأول. كذلك فإن البحوث اللغوية التاريخية تستطيع بوضوح ان تقوم باسهام كبير في دراسات العصر الحديدي المبكر، وقد نوقش هذا في فصل سابق.

---

(٧٤) في زامبيا سجل بناء حوائط حول المصاطب بالقرب من مازابوكا في هضبة المحافظة الجنوبية ومن المحتمل ان ينسب ذلك، بالاضافة الى بناء اسوار بالحجارة الخشنة وجد في مواقع دفاعية في منطقة لوساكا وفي الجزء الجنوبي من المحافظة الشرقية، الى القرن الثامن عشر أو التاسع عشر.

(٧٥) ر. سومرز، ك. ر. روبنسون وأ. ويتي، ١٩٧٣.

وفي نطاق منطقة الجنوب الافريقي التي تناقش هنا، يمكن ملاحظة تقسيمين اساسيين للعصر الحديدي المبكر في السجل الأثري. ويمكن النظر اليهما كتقسيمات اولية للمجمع الصناعي العام لأوائل العصر الحديدي ولكن يمكن تمييزها من بعضها عن طريق دراسة رموز الفخار المرتبط بهما. ويتضمن القسم الأول انتشاراً يمتد جنوباً بين وادي لوانجوا وبحيرة ملاوي الى زيمبابوي وشمالاً الترانسفال، وكان سكانه من رعاة الأغنام والماعز ولكنهم كانوا في البدء يفتقدون المواشي. ويبدأ التقسيم الثاني من اواسط وجنوب زامبيا ولكن هنالك مؤشرات الى امتداده عبر مساحة هائلة الى الغرب. ولقد كانت الماشية معروفة في هذه المنطقة في العصر الحديدي المبكر ومن المحتمل أن تكون قد انتقلت من هؤلاء الناس الى الرعاة الخوسيين في المناطق الواقعة أقصى جنوب القارة التي لم يتوغل فيها مجمع صناعات العصر الحديدي المبكر.

ان التوزيع غير المتكافىء للغاية للبحوث الأثرية يحول دون التوصل الى نظرة اكثر تفصيلاً للتقسيمات الفرعية الأوسع للعصر الحديدي المبكر. وبالذات فإن موزمبيق كلها غير محددة على خرائط التوزيع، وبذلك تظل الأحداث التي وقعت في المنطقة بين المحيط الهندي وبحيرة ملاوي مجهولة تماماً. إن معظم أنغولا والكثير من جنوب افريقيا قد استكشف استكشافاً غير واف. وعندما تعالج هذه النواقص فانه من المحتمل ان عملية مراجعة جوهرية سوف تكون ضرورية للتركيب المقترح هنا.

وقد بينا ان الثقافة التي ادخلت الى الجنوب الافريقي عن طريق شعوب العصر الحديدي المبكر كانت مسؤولة عن قيام العديد من الاتجاهات العامة في تاريخ تعاقب ثقافات المنطقة حتى وقت قريب. والأمر الذي يتسم بأهمية خاصة للمؤرخ في هذا الصدد هو الحد الذي اليه يمكن فيه تعقب الخواص المتمايزة اقليمياً في أزمان لاحقة، الى العصر الحديدي المبكر. فمثلاً تقليد البناء بالحجارة في زيمبابوي والترانسفال، والتنقيب عن الذهب، وتشغيل النحاس في منطقة حزام النحاس، كلها بدأت في اطار العصر الحديدي المبكر في مناطقها الخاصة بها، على الرغم من انها لم تبلغ قمة ازدهارها الا في أوقات لاحقة. لذا فإن الاستمرارية بين العصر الحديدي المبكر والعصر الحديدي المتأخر، اكثر وضوحاً مما كان معتقداً، لكنه لا يمكن تقييم الاسهام الكامل للعصر الحديدي المبكر في تاريخ الجنوب الافريقي، الا بعد القيام ببحوث أكثر شمولاً، خاصة في المناطق التي ما زال الأثريون لم ينقبوا فيها بعد.

الفصل الثامن والعشرون

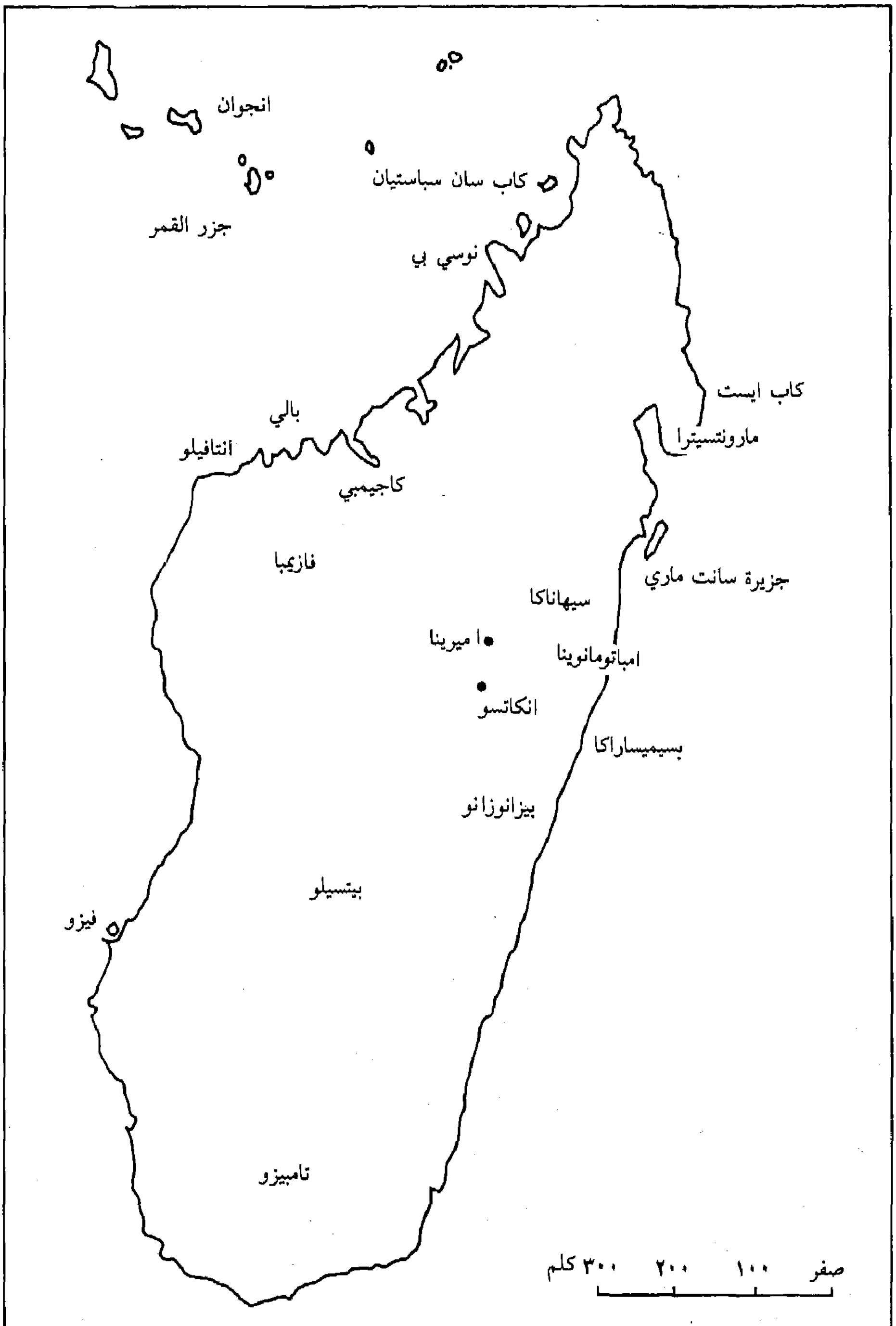
مدغشقر

بقلم: ب. فيرن

تحقيقات ثقافية

اخضع سكان مدغشقر لدراسات كثيرة، ومع ذلك فعلى الرغم من الفروض الكثيرة السليمة عادة، فإن أصولهم لا تزال يكتنفها الغموض. وفي حين أن معظم المؤلفين يتفقون على أنه في حين ان القارة الافريقية المجاورة أسهمت في التكوين العرقي لمدغشقر الا ان العناصر الملايوية البولينيزية، التي تبدو بوضوح خاصة في المرتفعات الوسطى، يجب ابرازها أيضاً. ان الأصل العرقي المزدوج للمدغشقريين، لا بد ان يفسر الفروق الجسمانية بين سكان الجزيرة الذين يتكلمون جميعاً لغة اندونيسية. ومع ان هذه اللغة تنقسم الى ثلاث لهجات الا أن وحدتها اللغوية ليست مجال نزاع.

وقد بدأ القيام بأولى الكشوفات الأثرية القديمة ذات الأهمية التاريخية منذ ١٩٦٢م. ولكن تم قبل ذلك الحصول على نتائج مهمة من البحوث في ميادين اللغويات المقارنة وعلم الأعراق البشرية وعلم الموسيقى وعلم الانسان الجسدي. ومن ثم يبدو من الأنسب ان نجمل بايجاز الدراسات التي تمت في تاريخ ملقاسي الثقافية في مجال هذه التحقيقات في التاريخ الثقافي المدغشقري التي أجريت في هذه العلوم المساعدة، وذلك قبل أن نفحص ما توفر لدينا من معلومات عن المستوطنات الأولى.



مدغشقر موضحاً عليها الأماكن المذكورة في النص

اللغويات

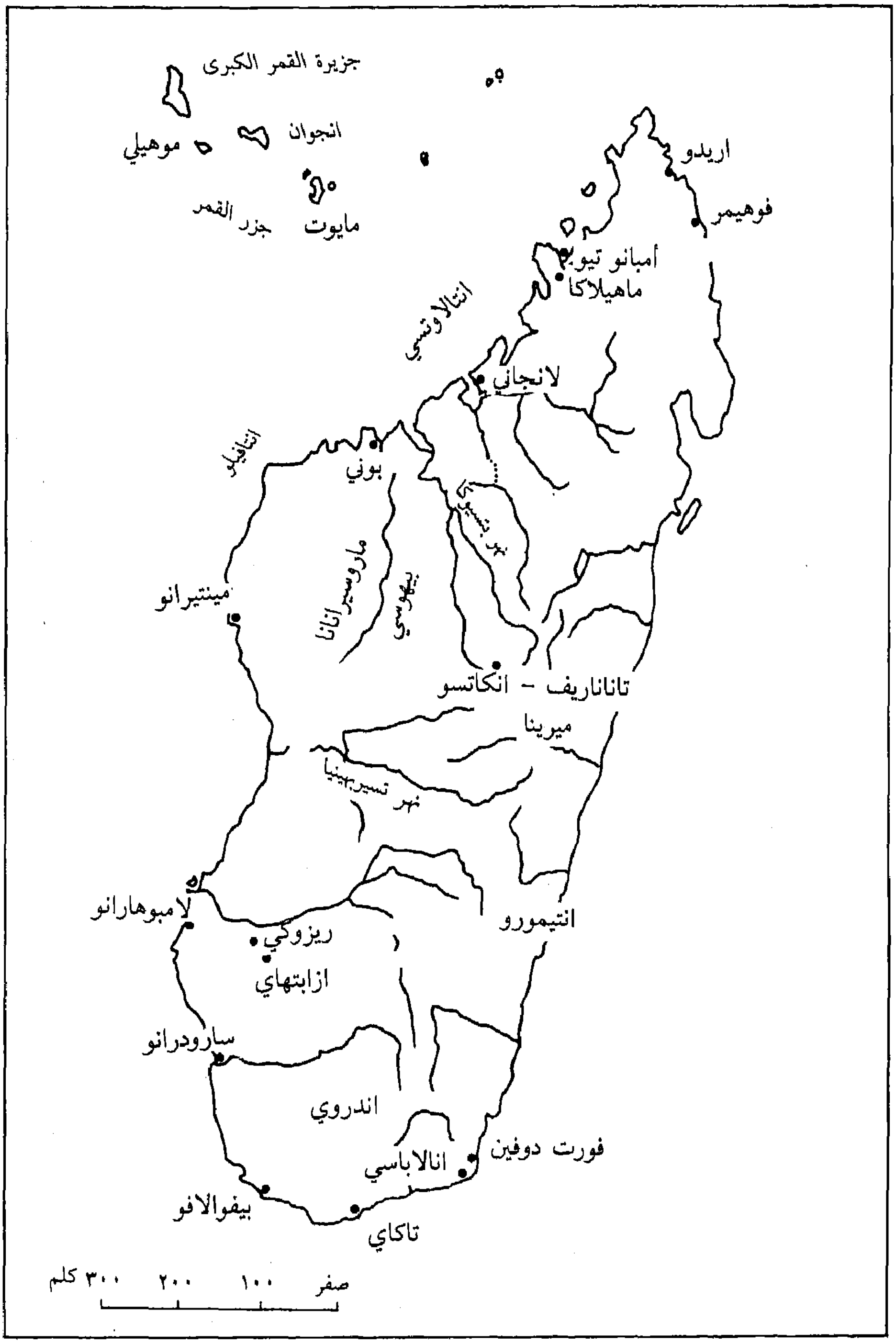
كان الهولندي دي هوتمان أول دارس يشير الى ان المدغشقرية تنتمي الى المجموعة اللغوية الملايوية - البولينيزية. وقد قام في عام ١٦٠٣ بنشر بعض المحاورات وقاموس للغتين الملايوية والمدغشقرية[١]. ولقد اكد نظريته هذه مجدداً لويس ماريانو الذي اعترف بعد سنوات قليلة من ذلك بوجود لغة «الكافر» (السواحيلية) في الشمال الغربي والتي يتحدثون بها في الساحل الشمالي الغربي كلغة متميزة عن لغة البوكي (المدغشقرية) التي تستخدم في كل مكان داخل الجزيرة وبقية الساحل... والتي تشبه كثيراً لغة الملايو.

وقد أثبت فان دير توك[٢] مؤخراً وبطريقة علمية العلاقة بين اللغة المدغشقرية وبين اللغات الأندونيسية. وتبعت دراسته دراسات لفافر وبراند ستيتر ومار وريتشاردسون وخاصة ديمبولف. وتبين عملية اعادة التركيب التي قام بها ديمبولف للغة الاندونيسية البدائية الأصلية، أن الميرينا التي يطلق عليها هوفا لا تختلف كثيراً عن اللغات الأخرى للعائلة الأندونيسية. كما أشار داهل بعد ذلك الى أثر البنتو في اللغة المدغشقرية ليس فقط من حيث المفردات وانما أيضاً من حيث علم الأصوات الكلامية. ولهذه الحقيقة أهمية بالغة لمناقشة التفاعلات الافريقية - الأندونيسية والتي سنتعرض لها مؤخراً. وقد اوضح هيبرت في كثير من اعماله ان هنالك دائماً تقسيماً ثنائياً في المصطلحات المدغشقرية مما يكشف عن تغاير عناصر اصولها الجنوب - شرق - آسيوية. ولقد قام ديز باجراء تحليل للمفردات ذات الأصل الاندونيسي يتيح لنا معرفة اي نوع من الحضارة انتقل الى مدغشقر بوساطة المهاجرين[٣]. واخيراً فقد اثبت علم تاريخ الأصوات الطبيعة الأندونيسية العميقة للمفردات الأساسية (٩٤ في المائة) ويمدنا بفكرة عن طول الفترة الزمنية التي تفصل اللغة المدغشقرية عن اللغة الأصلية البدائية[٤]. لكن على الرغم من ان العناصر الأساسية للجسم الرئيسي للغة المدغشقرية تنتمي الى المجموعة الفرعية الأندونيسية، فإنه يجب علينا ألا ننسى ان عناصر أخرى هندية وعربية وافريقية قد ادمجت في هذه اللغة. ان العلاقات التي تتضمنها هذه العناصر تساعدنا على فهم العلاقات وعمليات الامتزاج المترتبة على الشتات (الديسبورا) الأندونيسي في اتجاه الغرب.

علم الانسان الجسدي

أثبتت البحوث التي اجريت في هذا المجال انتماء المدغشقريين الى الأصول المنغولية والزنجية على حد سواء. وتوصل راكوتو - راتسمامانجا الى نتائج هامة حول طبيعة وتوزيع الخضاب الذي نجده غالباً بين سكان المرتفعات الوسطى. وهو يميز بين أربعة طرز تشكلية (مورفولوجية)، يتوزع بينها السكان بالنسبة التالية[٥]:

(١) ر. دروري، ص ٣٢٣ - ٣٩٢.
(٢) فان دير تووك.
(٣) ج. ديز، ص ١٩٧ - ٢١٤.
(٤) ب. فيرين، س. كوتاك وب. جورلين.
(٥) وقد تأثر راكوتو - راتسمامانجا في تحديده لهذه الأنواع بنظريات جرانديدير الأسيوية الجنوبية بدرجة كبيرة. وهو لا يحدد بوضوح المعالم المستخدمة في تحديد هذه الطرز.



مدغشقر موضحاً عليها المواقع الهامة

الطراز الأندونيسي – المنغولي ٣٧٪
الطراز الزنجي – المحيطي ٥٢٪
الطراز الزنجي – الأفريقي ٢٪
الطراز الأوروبي ٩٪.

ربما يتساءل المرء ان كانت مثل هذه النسبة العالية من العنصر الزنجي لها حقاً أصل محيطي. ولقد اقترحت السيدة شاملا مؤخراً (Musee de L'Homme) وبناء على مقاييس أخذت من جماجم محفوظة في متحف الانسان – انه يجب التمييز بين ثلاثة طرز مورفولوجية:

- الطراز الأسيوي الأسمر الفاتح الذي يشبه الأندونيسيين.
- الطراز الأسود الداكن وهو إفريقي اكثر منه ميلانيزياً.
- الطراز الخليط الذي يبدو عادة أنه الطراز الغالب.

ولقد اوضحت فحوص الدم التي اجراها بيجاش(٦) بوضوح تام ان زنوج مدغشقر لا ينتمون لأصل ميلانيزي وانما لأصل افريقي.

ان الطراز الجسدي الأندونيسي سائد في الأفراد المنحدرين من طبقات امرينا القديمة والمكونة من الأحرار. وعلى كل فان احفاد الأسرى السابقين، الذين جاؤوا من المناطق الساحلية أو من إفريقيا، ينتمون بوضوح الى الطراز الزنجي. ويبدو أن الأندونيسيين أيضاً قد اسهموا في التعقد البيولوجي لقبائل السهانكا والبزانوزانو وبعض قبائل بتسمساراكا وقبائل بتسيلر الشمالية. أما كونهم قد أسهموا في تكوين الأصل البيولوجي للمجموعات الساحلية الأخرى حيث الطراز الزنجي منتشر وعام بنسب متفاوتة، فأمر لا يزال موضوع مناقشة.

ولا بد أن تساعدنا دراسة بقايا الهياكل العظمية التي وجدت في مدغشقر على فهم عملية تطور اختلاط الأجناس ويجب على هذه الدراسة ان تحدد بالذات ما اذا كان الاندماج بين العناصر الافريقية والأندونيسية قد تم فعلاً في الجزيرة او في مكان آخر. وعلى كل فإن الافتقاد الكامل للهياكل العظمية التي توجد في الحفريات الأثرية حتى الآن قد عاق جمع مثل هذه البيانات(٧).

علم الأجناس البشرية وعلم الموسيقى

لقد كان ديشامب(٨) هو أول من سعى للتمييز بين الاسهامات الأندونيسية والافريقية في الحضارة المدغشقرية. اذ توجد ملامح ثقافية افريقية مثل عناصر مجمع الماشية وعبادة الثعبان، الموجهة الى الملوك المتوفين في الغرب وفي اقليم بتسيليو، كما نجد ايضاً بعض ملامح التنظيم الاجتماعي السياسي الافريقي في المناطق الساحلية. ومع ذلك فإن النظام الاجتماعي لأميرينا، أندونيسي في طابعه على نحو كامل.

تدين الحضارة المدغشقرية بالكثير للشرق بما في ذلك معظم أشكال المنازل وزراعة الأرز على الحياض المروية وبعض مظاهر عبادة الأسلاف ومجمع تكنولوجي متكامل يشمل الكثير ذا الصمام

(٦) ج.ب. بيجاش، ص ١٧٥ – ١٧٧.
(٧) فيما عدا دراسات بقايا الهياكل العظمية التي وجدت في فوهيمار وفي المواقع الشمالية الغربية وتنتمي الى فترة متأخرة (الفترة العربية) عن فترة المستوطنات الأولى.
(٨) هـ. ديشامب، ١٩٦٠.

المزدوج والكنو (زورق طويل خفيف) ذا المداد والفرن المبني تحت الأرض الذي يحتوي على صخور مسامية بركانية وأشياء اخرى اقل شهرة كالمنقاب القوسي الدوار والمبرد المثبت في حاضن جوز الهند، والتي استخدمت على الشاطىء الغربي لمدغشقر، كما وجدت في مناطق بعيدة مثل بولينيزيا الشرقية، وهي متماثلة في الشكل وتحمل اسم «هو» و«أنا» (في لهجة تاهيتي).

وقد درس هورنل وكلوبك أصداء الثقافة الأندونيسية في ساحل شرق إفريقيا ولقد أشارج. ب. مردوك مؤخراً الى «مجمع النباتات المالايوية» التي يعتبر أنها تضم تلك النباتات التي نقلت في الأزمنة الغابرة من جنوب شرق آسيا. ولقد ذكر من بين تلك النباتات الأرز (Oryza Sativa) والمرنطة (Tacca Pinnatifida) والقلقاس (Colocasia Antiquorum) واليام (نوع من البطاطا) (Discorea Alata, D. Bulbifera and D. Esculenta) والموز (Musa Paradisiaca and M. Sapientium) وشجرة ثمرة الخبز (Artocarpus Incisa) وشجرة جوز الهند (Coco Nufera) وقصب السكر (Saccharum Officina-lum) . . . الخ. ويعتقد مردوك أن الهجرات التي حملت هذه المجموعة من النباتات الى مدغشقر تمت خلال الألف سنة الأولى قبل التقويم الميلادي، وأن المهاجرين سافروا على طول السواحل الآسيوية الجنوبية قبل وصولهم الى ساحل شرق إفريقيا.

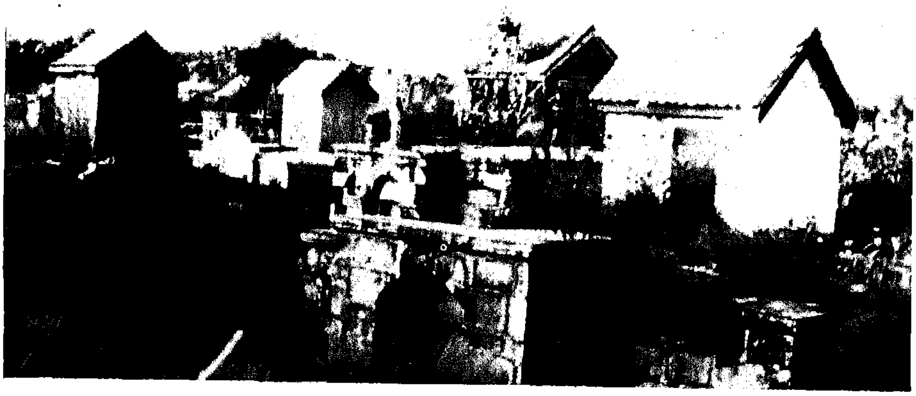
ولا شك أن مردوك على حق في استبعاده لفكرة الهجرة من غير توقف عبر المحيط الهندي دون تقطع والتاريخ الذي يقترحه لتلك الهجرات يبدو معقولاً تماماً. أما فيما يختص بالدليل العرقي - النباتي فقد اوضح ديشامب وهيبرت مؤخراً ان بعض النباتات التي استوردت الى مدغشقر منذ زمن بعيد، تحمل بعض الأحيان اسماء اندونيسية وتحمل في أحيان أخرى اسماء افريقية وفي بعض الأحيان كلا الاسمين في ذات الوقت. على ان هيبرت يؤكد أن «وجود تسميات متطابقة بين بلدان مختلفة لا يعد دليلاً على استعارة انتقال هذه النباتات» فواقعة ان الموز معروف في الساحل الغربي لمدغشقر باسم اندونيسي (Fontsy) لا تثبت أن النبات قد حمله المهاجرون الأندونيسيون وحدهم، لأن للموز في المرتفعات الوسطى اسماً بلغة البانتو (Akondro) . وعليه يمكن تقديم أي من النظريتين عن اصل الموز بحجج سليمة. ويدافع هيبرت عن وجهة نظره بالاقتباس عن هودركورت الذي يشرح رأيه بوضوح أكثر. ففي دراسته عن أصول المحاصيل المدغشقرية يكتب هودركورت «ان وجود اسم ذي أصل اندونيسي لنبات ما لا يعني بالتأكيد أن ذلك «النبات قد نشأ أصلاً في أندونيسيا، لأن المهاجرين تعرفوا بين النباتات المحلية على نباتات شبيهة بنباتات موطنهم الأصلي وأطلقوا عليها نفس الأسماء». ويجب ان نضيف أن نباتات جديدة او غير معروفة يمكن ان يطلق عليها المهاجرون أسماء من وحي مماثلتها لأنواع متواجدة في موطنهم الأصلي.

وتبين الحجج التي سقناها من قبل كيف يجب معالجة البراهين العرقية - النباتية بحذر بالغ. والأمر نفسه ينطبق على مجال علم الموسيقى. فقد اوضح ساكس ان هناك عدة مؤثرات مختلفة تمازجت في مدغشقر: اندونيسية وافريقية وعربية. لكن جونز مضى الى مدى أبعد، انه يعتقد ان الأثر الأندونيسي لم يمتد فقط الى مدغشقر وانما امتد رأساً الى داخل إفريقيا. واني أشعر انه في حين ان نظريات جونز لا يجب رفضها، فإن احتمال حدوث اكتشافات متشابهة على جانبي المحيط الهندي وعلى نحو مستقل، لا يجب استبعاده.

ويمكننا ان نستنتج من الادلة السابقة ان اسلاف سكان مدغشقر لهم اصل اندونيسي وافريقي في ذات الوقت، وان الطابع الأندونيسي المسيطر على اللغة لا يعني بالضرورة تقليل الدور الذي لعبته افريقيا في استيطان مدغشقر الى اقصى حد. لقد اسهمت القارة العظيمة المجاورة مادياً في تكوين



١



٢

١ قرية أندافادوكا في الجنوب الغربي، والأكواخ ذات الأسطح القش مطابقة للانشاءات الأولى التي اقيمت هنا
٢ مقبرة أمبوهيمالاز (اميرينا)، «المنازل الباردة» على المقابر تشبه اسلوب المنازل التقليدية

غالبية السكان وكذلك أعطت مدغشقر كثيراً من الملامح في ثقافتها وفي أنظمتها الاجتماعية - السياسية. هذا التزاوج لا نجده في جزر القمر أو على ساحل إفريقيا حيث يعتقد أن الهجرات الأندونيسية قد تمت هناك.

وتتأرجح النظريات عن اصل اهل مدغشقر في الحقيقة بين طرفي نقيض: إفريقيا وأندونيسيا، على الرغم من ان بعض المؤلفين مثل رازا فنتسالاما (الذي تمسك بأن الجزيرة الكبيرة قد استعمرها رهبان بوذيون) يتبنون وجهات نظر منحرفة تماماً. ويعزو جرانديدير اهمية مبالغاً فيها لآسيا معتقداً بأن من وصلوا حديثاً هم من الماكوا وأن كل أسلاف سكان مدغشقر قد قدموا من جنوب شرق آسيا، بما في ذلك الزنوج الذين يطلق عليهم الميلانيزيين - ايفاء بهذا الغرض. اما فيراند[٩] فقد قبل وجهة النظر هذه التي تتحدى الدليل الجغرافي، وان كان بدرجة أقل من عدم التعقل، ويركز أكثر على المظاهر الافريقية لأصول سكان مدغشقر. وقد ميز المراحل التاريخية التالية:

- مرحلة محتملة لما قبل التحدث بلغة البانتو.
- مرحلة التحدث بلغة البانتو وترجع الى ما قبل العهد المسيحي.
- المرحلة الأندونيسية لما قبل عهد ميرينا، وتمتد من القرن الثاني الى الرابع مع هجرات من سومطرة تمكن خلالها القادمون الجدد من فرض سيطرتهم على السكان المتحدثين بلغة البانتو.
- وصول العرب من القرن السابع الى القرن الحادي عشر.
- موجة جديدة من هجرات السومطريين في القرن العاشر، الذين نجد من بينهم راميني جد الزافيند رامينا وراكوبا جد الهوفا.

وأخيراً الفرس، وفي حوالى ١٥٠٠م الزافيكاسينامبو.

ولقد عزا ج. جوليان[١٠] الدور الأساسي لأفريقيا في حين أن مالزاك[١١] اعتقد أن الهوفا علموا لغتهم لكل البانتو في مدغشقر.

المستوطنات الأولى في مدغشقر

قبل أن نتعمق في الجذور الأندونيسية والافريقية لسكان مدغشقر، علينا أن نقوم النظريات التي تسعى الى أن تعزو لمدغشقر استقبال هجرات قديمة للغاية من إقليم البحر المتوسط.

فينيقيون وعبريون أم شعب بيريبلوس؟

عند معالجة تاريخ اقطار تقع خارج نطاق العالم القديم فإن الفينيقيين والمصريين وأهل سبأ - والاغريق والعبرانيين تعزى اليهم اسهامات مبالغ فيها بوضوح في تاريخ تلك الأقطار. مثل ذلك أن بنت (١٨٣٩) ينسب اكتشاف زيمبابوي للفينيقيين ويجعل س. بورير اقليم سوفالا هو نفس بلابنط واوفير.

(٩) ج. فيراند، ١٩٠٨، ص ٣٥٣ - ٥١٠.
(١٠) ج. جوليان، ص ٣٧٥ - ٦٤٤.
(١١) ف. مالزاك.

وحسب رأي بعض المؤلفين فإن قدماء الرحالة قد وصلوا حتى الى مدغشقر. ويعتقد ف. ماحي انه وجد آثاراً فينيقية في ماجونكا، ولكن قيراند وانا لسنا قادرين على تأكيد فروضه هذه ويذكر أ. جراندیدیر[١٢] في تقريره ان الاغريق والعرب طبعاً، زاروا مدغشقر وحسب رأيه «عرف الاغريق والعرب في هذه الجزيرة منذ قديم الزمان بأسماء مينوثياس وجافونا شيزابيزات التي اطلقوها. لكن وصفهم الدقيق البسيط للجزيرة الذي تركوه لنا وان كان موجزاً للغاية لم يلفت انتباه الجغرافيين الأوروبيين الذين علموا فقط بوجود الجزيرة من خلال البرتغاليين في عام ١٥٥٠».

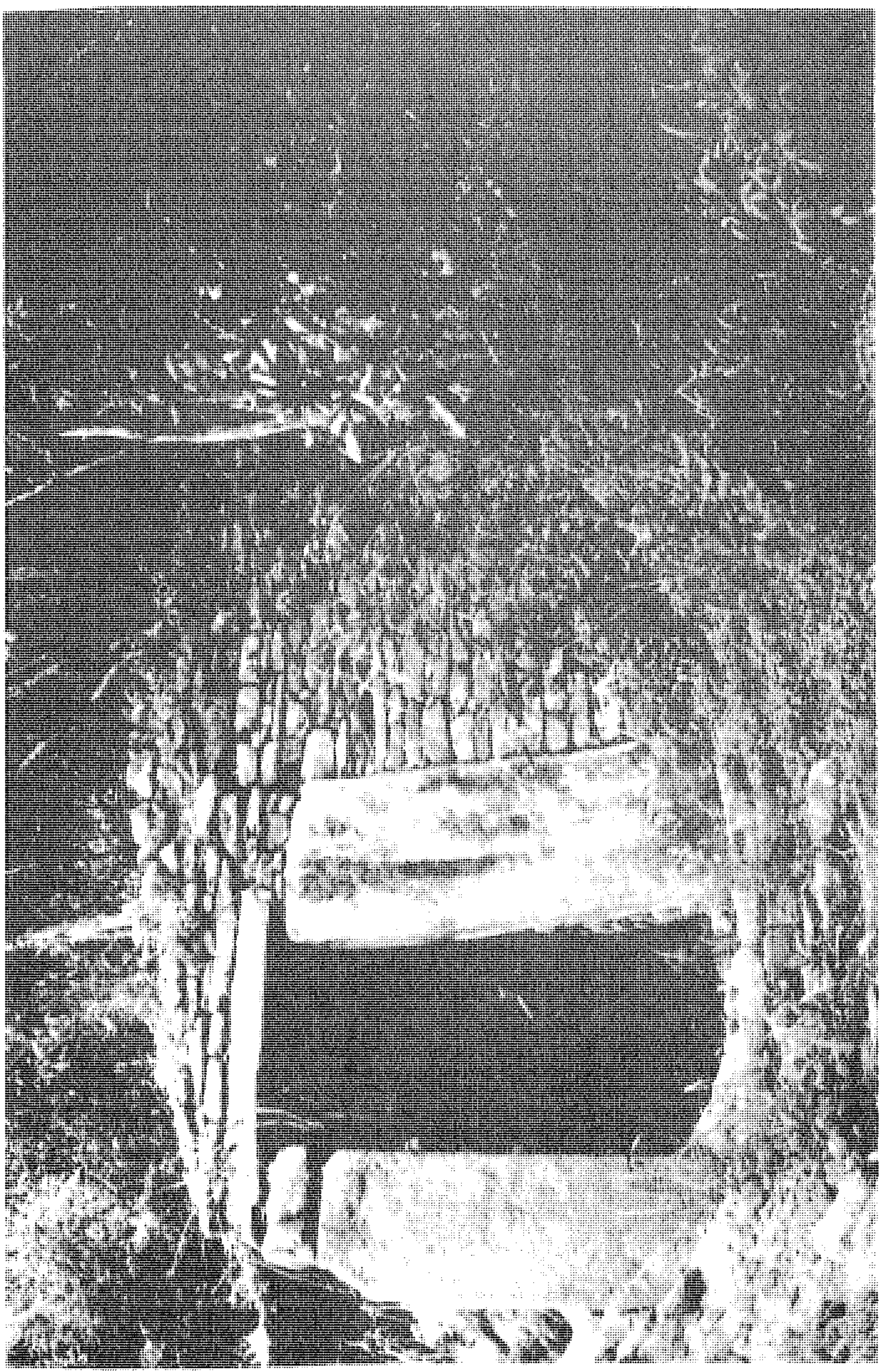
والواقع أن الاسم اليوناني الوحيد مينوثياس الذي ورد عند بطليموس[١٣] والبريبلوس كان يقصد به على الأرجح جزيرة بمبا أو زانزبار أو مافيا. وهنالك كاتب يدعى ف. دومسفيل[١٤] اختار لمؤلف يكتبه العنوان التالي: «مدغشقر، هوميروس والحضارة الايجية» ويعطي هذا العنوان صورة جلية لما يحتويه الكتاب من تخمينات.

ان استبعاد أساطير هجرة اليهود أكثر صعوبة. ويقتنع الأب جوزيف بريانت[١٥] في مجلده الصغير «العبريون في مدغشقر» بأنه لم تكن لليهود هجرة واحدة لمدغشقر وانما هجرتان. ويؤيد وجهة نظره بعدة مئات من المقارنات بين كلمات مدغشقرية وأخرى عبرية ولسوء الحظ فإن مثل هذه النظريات المعوجة مبنية على مقارنات لغوية سهلة بين كلمات ربما تكون متشابهة شائعة للغاية في مدغشقر فحسب، وقد طورها ج. آوبر في عدة أعمال مريبة قامت بطباعتها، مع ذلك، مطبعة الحكومة.

ترجع مثل هذه البحوث في الأصول اليهودية لبعض أهل مدغشقر الى فلاكورت الذي كان يعتقد أن أول اجانب قدموا للساحل الشرقي لمدغشقر كانوا (Zaffe - Hibrahim) سلالة ابراهيم أو سكان جزيرة مريم المباركة والأراضي المجاورة وفي مقدمته كتاب «تاريخ الجزيرة الكبرى: مدغشقر» يدافع فلاكورت[١٦] عن نظريته بالاشارة الى وجود أسماء من التوراة وممارسة الختان وحقيقة أن العمل محرم يوم السبت.

ينكر ج. فيراند احتمال حدوث تلك الهجرات ويعتقد أن وجود بعض الأسماء السامية القليلة بالجزيرة يمكن ان تعزى للمدغشقريين الذين اعتنقوا الاسلام[١٧]. وفيما يتعلق بحقيقة تحريم العمل يوم السبت، فإنها ترجع الى أن يوم السبت هو يوم «محرم». ويرجع الى بدعة تحريم بعض الأيام المنتشرة في مدغشقر: فما زال يوم الثلاثاء محرماً في شرق الجزيرة، ان تحريم يوم السبت أو الخميس يختلف حسب الأقاليم. اضف الى ذلك انه في القرن السابع عشر دفع وجود عادة الختان بين كثير من السكان الغرباء، الباحثين المسيحيين الفرنسيين لمحاولة ايجاد أصل يهودي لهم. وفي القرن السابع عشر هناك مثال آخر لمثل هذه البحوث عن اقليم يتمثل في القاموس الفرنسي - الكاريبي الذي قام بجمعه الأب رايموند بريتون - وقد قدمت مؤخراً نظرية مختلفة عن اصل المدغشقريين قبل الاسلام، عرضها بورابيه الذي يرى ثنائية في اسهامات المسلمين في مدغشقر وفي حين اعتقد سابقوه ان الممارسات الاسلامية الضعيفة التي استمرت في مدغشقر تشير الى أصل يهودي، فإن بوارييه يرى انها شكل بدائي

(١٢) أ. جراندیدیر، ص ١١.
(١٣) بتوليمايوس كلاوديوس.
(١٤) ف. دومسنيل.
(١٥) ج. براینت، ١٩٤٥.
(١٦) ي. فلاكورت.
(١٧) ج. فيراند، ١٨٩١ - ١٩٠٢.



باب قديم في مياندريفاهيني

من الدين جاء الى مدغشقر من الجزيرة العربية. ومع ذلك فإن ما تم جمعه من معلومات اثرية قديمة في شرق إفريقيا ومدغشقر لا يسند هذه النظرية. فعمليات التسلل العربية الضخمة التي اثرت الثقافة السواحيلية بدأت في القرن الثامن. ومع انه كانت توجد حركة على طول الساحل الشرقي لافريقيا في القرن الثاني الميلادي فإن آخر ميناء عرف بعد مينيوثباس (التي لا يمكن أن تكون مدغشقر) هي ميناء ربطة. بناء على ما ذكر مؤلف بريبلوس فان آخر مدينة تجارية في بلاد أزانيا كان يطلق عليها ربطة لأن المراكب فيها يتم صنعها عن طريق ربط أجزائها الى بعضها البعض. وهنالك كانت توجد كميات هائلة من العاج وصدف ظهر السلاحف.

ولم يحدد بعد موقع ربطة ولكن يعتقد انها يجب ان تكون في مكان ما بين بانجاني ودلتا نهر روفيجي. ومن المحتمل أن مدغشقر لم تكن مهتمة بهذه التجارة الساحلية ليس لمجرد أنها لم تمتد الى حيث ميناء ربطة وانما أيضاً لأن الجزيرة نفسها لم تكن مأهولة بالسكان.

وبناء على ما توفر من أدلة تاريخية وأثرية قديمة، فإنه من المعقول افتراض ان الأندونيسيين والأفارقة وصلوا مدغشقر في وقت ما فيما بين القرن الخامس والقرن الثامن وليس بأي حال من الأحوال بعد القرن التاسع. علينا اذن ان نفحص تقلبات ما عرف عن هذه المستوطنات الافريقية الآسيوية الأولى.

المهاجرون الأندونيسيون الأول

مع أنه من التهور محاولة تعيين تاريخ محدد لهجرة الأندونيسيين الأول لاسباب سنخوض فيها مؤخراً فاننا يمكن أن نخمن أن رحيلهم حدث ابتداء من القرن الخامس الميلادي. ولربما استمر تحركهم الى القرن الثاني عشر كما يظن ديشامب، وقد اطلق اسم الأندونيسيين القدماء على المهاجرين الأول الذين اتصلوا بالأفارقة والذين من المحتمل ان يكونوا قد عقدوا أحلافاً معهم. اما القادمون الأواخر الذين يعرفون بالأندونيسيين الجدد فهم أسلاف الميرينا. ولقد حافظت الموجة الأخيرة على هويتها البيولوجية الأصلية بطريقة أفضل ربما لأنها سلكت طريقاً مباشراً اكثر، ولكن من المحتمل ان ذلك يرجع الى انها نظراً لقلة عددها فانها تبنت لغة الاندونيسيين القدماء الذين وصلوا لمدغشقر في وقت مبكر.

ان الانقسام الى مجموعتين بين الأندونيسيين القدماء والأندونيسيين الجدد ليس انقساماً تاريخياً وبيولوجياً فحسب، وانما ينعكس ايضاً في تنظيمهم الاجتماعي. لقد اوضح اوتينو ان مجتمعات المرتفعات الوسطى نظمت ابتداء على نحو يشبه الى حد كبير تلك التي في اندونيسيا. ان الفوكو التي تمثل وحدة النسب لدى اميرينا والتي يطلق عليها بلوش اسم ديم (الديم وحدة للتقسيم الاداري في اليونان القديمة – المعرب) توجد في شكل مشابه للغاية في تيمور تحت اسم «فوكوم» غير ان للمجتمعات الساحلية المدغشقرية نقاطاً كثيرة مشتركة مع إفريقيا المتحدثة بلغة البانتو.

ولقد لاحظ هيبرت انقساماً شرقياً – غربياً لعدد من المصطلحات المدغشقرية ذات الأصل الأندونيسي، ويورد بعض الملاحظات الهامة على التقاويم السنوية (١٩٦٠). وتحتوي التقاويم السنوية لساكالافا على كلمات سانسكريتية قليلة في حين ان التقاويم السنوية لأحفاد الأندونيسيين الجدد تحتوي على عدد أكبر بكثير[١٨].

---

(١٨) هذه الحجة تبدو مثاراً للجدل خاصة من قبل اولئك الذين يؤكدون ان انتشار التقاويم السنوية يمكن ان يتم من غير وجود أي هجرة. بالاضافة الى انه من المحتمل أن الساكالفا عدلوا تقويمهم السنوي نتيجة لتأثير المسلمين.

ويبدو أن للأندونيسيين الجدد روايات، حتى وان كانت غامضة عن اصولهم الأندونيسية. فتشير «تانتاراني أندريانا» في «حوليات تاريخ المارينا، التي جمعها الأب كالي» الى الرسو على مكان ما على الساحل الشرقي فيما بين ماروانتسيترا ومانجورا. ويذكر راميلسون هذه الرواية في كتابه عن «تاريخ زافيمامي» ويعجل مكان النزول في ماروانتسيترا.

ان البلد الأصلي الذي هاجر منه الاندونيسيون غرباً عبر المحيط الهندي، سواء اولئك الذين هاجروا في الأزمنة الغابرة او الذين هاجروا بعد ذلك بزمن طويل، ما زال يكتنفه الغموض. من رأيي ان مقارنة تاريخية لصوتيات اللغة المدغشقرية (او اللهجات المختلفة لها) مع العدد الكبير للغات الأندونيسية في الأرخبيل وفي الوطن الأصلي، الهند الصينية، ستكون مثمرة للغاية، ذلك أن اللغة التي تشترك مع اللغة المدغشقرية في أكبر عدد من المصطلحات توضح الجذر الجنوب شرق آسيوي المشترك الذي تفرعت منه لغات متباينة. وقد اوضح أو. داهل العلاقة الوثيقة بين المدغشقرية ولغة المانجان في بورنيو وأكد ي. راين هذا باستخدام حسابات في تاريخ الصوتيات، موضحاً أن هناك استبقاء مشتركاً للكلمات المكونة من جزأين: مدغشقري ومانجاني، أكثر منه في الكلمات المكونة من جزأين مدغشقري ومالاوي. ولا يعني هذا بالضرورة أن لغة مدغشقر قد نشأت اصلاً في بورنيو لأن لغات اخرى قد تكون أقرب اليها. وقد أوضح فيراند في كتابه «مذكرات عن علم تصوير الصوتيات المدغشقرية» ان هنالك تشابهاً وثيقاً بين المدغشقرية والباتاك، وذهب الى اجراء مقارنات مع لغة الكاوي ولغة جاوه.

ان المدغشقريين الأول الذين خلقوا ملحمة للمحيط الهندي تعادل الملحمة البولينيزية يمكن ان يكونوا - كما يقول سولهيم[١٩] قد أهدوا حياة مشابهة الى الايبان في بورنيو - كانوا يقسمون سنتهم الى فترة من الاستقرار يمارسون فيها حياة الحصد والحرق وفترة للملاحة، بل وفي بعض الأحايين للقرصنة. ويتساءل هيبرت[٢٠] عما اذا كان هؤلاء الملاحون البواسل هم البوكي الذين حرف اسمهم مؤخراً لينطق مدغشقر في الكتابات العربية الى عصرنا الحاضر (في السواحيلية بوكي او بوكيني).

ولقد أذهلني الشبه بين قرى الأندونيسيين الجدد المحصنة بخنادق المياه (وقد حصر أ. ميل ١٦٠٠٠ موقع من هذا القبيل في أميرينا) وبين تلك الموجودة في الهند الصينية وتايلاند. وقد ظهرت هذه المواقع المحصنة في الهند الصينية مبكراً منذ العصر الحجري الجديد (لينوليثي) ولكن تاريخ بعضها يرجع الى منتصف الألف سنة الأولى من عصرنا. ويبدو على كل حال انه من المقبول عقلاً البحث عن اصل المدغشقريين الاندونيسيين في شمال جنوب شرق آسيا لأنه منذ الف وخمسمائة سنة مضت كانت الحضارة الأندونيسية تمتد الى شبه الجزيرة الهندية الصينية. ولربما انتهت الأجيال الأخيرة لهذه الحضارة الأولى غير النهائية في الجزر؛ بعضها في بورنيو وبعضها في مدغشقر.

وعلى الرغم من أننا لسنا قادرين على ان نحدد بالتأكيد قطر أو اقطاراً في أندونيسيا، كان باعثاً على نشأة الحضارة المدغشقرية الأولى، فان هذا لا يعني اننا نقتصر على مجرد التخمين. فمنذ القرن الخامس فصاعداً، وربما قبل ذلك قام الأندونيسيون بعدة رحلات بحرية خاصة إلى الهند. كما تطورت في أندونيسيا منذ القرن السابع الى الثاني عشر دول بحرية قوية، خاصة امبراطورية كريفاجايا الهندوسية في سومطرة (من القرن السابع الى الثالث عشر) والكايليندرا (في القرن الثامن) والماترام (من القرن

(١٩) و. سولهيم، ص ٣٣ - ٤٢.
(٢٠) ج.س. هيبرت، ١٩٧١، ص ٥٨٣ - ٦١٣.

التاسع الى الحادي عشر) وموجوباهيث (القرن الثالث عشر) في جاوة والجامبي في الملايو (القرن الثاني عشر).

وفي الوضع الراهن للمعلومات المتوفرة لدينا، فإن تحديد تاريخ الهجرات الأندونيسية ليس أسهل من تحديد أصلها الجغرافي. ولقد لاحظ فيراند وبعد ذلك داهل انه مع وجود عدد كبير من الكلمات السانسكريتية في لغة مدغشقر ألا أنها أقل بكثير من اللغات الأخرى المنتمية اليها بصورة وثيقة (كلغة الملايو أو الماجان) ويمكن ان نستخلص من هذا أن الهجرات الى مدغشقر لم تبدأ الا بعد ان بدأ انتشار السانسكريتية في أندونيسيا[٢١]. ان هذه العملية لانتشار السانسكريتية قد اصبحت اكثر وضوحاً في القرن الرابع من عصرنا فصاعداً وعليه فيجب ان تكون قد بدأت قبل ذلك ولكن اثرها أصبح محسوساً في بعض مناطق أندونيسيا وجنوب شرق آسيا بدرجة أكبر منها في مناطق أخرى.

تمدنا المقارنات الصوتية التاريخية بين الملاوية والمدغشقرية وبين مختلف اللهجات التي اشتقت من المدغشقرية الأولى، بسلسلة من الاحتمالات التاريخية تمتد من ما قبل الألف الأول لعصرنا بقليل الى[٢٢] ما بعد بدئه. ان اجدى جوانب دراسة اختلاف المفردات تكمن في التصنيف المحتمل لمختلف اللهجات وما يمكن ان يستنتج منها فيما يتعلق بالهجرات داخل مدغشقر ذاتها. ولقد لاحظ ديشامب ان طرق شرق الهند البحرية، كانت قد استقرت منذ وقت طويل في حين أن الطرق الواقعة الى غربها عرفت فحسب في القرون الأولى من عصرنا وهذا في رأيي، له قيمة أكبر من الأشياء غير المؤكدة لتاريخ علم الأصوات.

ولو كانت بعض المصنوعات الحجرية قد وجدت، لساعدتنا على أن نعرف أكثر عن المرحلة الأولى من تاريخ مدغشقر لكن لم يتم العثور على شيء حتى الآن، وهذا ما يدفعني الى الاعتقاد بأن المدغشقريين الأوائل الذين عاشوا في الجزيرة كانوا متمرسين على استعمال المعادن. اننا نعلم أنه في ساحل إفريقيا، حل عصر الحديد محل العصر الحجري بين القرنين الأول والرابع من عصرنا. وكان العصر البرونزي في أندونيسيا قبل ذلك بكثير[٢٣]. وأهم من ذلك أن حضارات مختلفة تعايشت هناك، بل لقد كانت هناك بعض المجتمعات المنعزلة في أندونيسيا استمرت تستعمل المعدات الحجرية بعد القرن العاشر.

وما زالت مسألة ما اذا كانت الأشياء الحجرية قد وجدت في مدغشقر أم لا، قضية تثير الجدل. وحتى الآن، وجدت قطعتان على شكل قدوم، وجد بلوش واحدة منها في إقليم أمباتومانوينا[٢٤]. والأخرى وجدها ماريماري كيلوم – أوتينو عند تامبازو بالقرب من ماليمباندي. ولا يمكن التوصل الى استنتاجات حاسمة الى الآن لأن هاتين القطعتين وجدتا في اماكن ربما كانت تصنع صوانات البندقية القديمة. ولكن اذا كان لأي تأكيد أن يبرز للوجود فإن هذا قد يجعل في الامكان تحديد وصول الأندونيسيين الأول على الأقل في منتصف الألف سنة الأولى لعصرنا الحاضر. وان اعلان جرانديدير[٢٥] عن وجود قطع حجرية مصنعة شبيهة بصوانات البندقية القديمة في الطبقة شبه

---

(٢١) او. ش. داهل، ص ٣٦٧.

(٢٢) ب. فيرين، س. كوتاك وب. جورلين، ص ٢٦ – ٨٣.

(٢٣) هـ. ر. فان هيكرن.

(٢٤) م. و بلوش وب. فيرين، ص ٢٤٠ – ٢٤١.

(٢٥) داين وأ. جرانديدير.

المتحجرة في لامبوارا يثير الاهتمام لأقصى حد لأنه عندما اصبحت هذه الطبقة خالدة لم تكن الأسلحة النارية قد ادخلت بعد الى مدغشقر ولربما كان الحجر حقاً من انتاج العصر الحجري.

يشبه الفخار المدغشقري الموجود في أواسط وشرق الجزيرة في كثير من النواحي الأشياء التي وجدت في مجمع باو - كالاني، لكن الفخار الذي وجد في إفريقيا ويرجع الى هذه الفترة القديمة لم تتوفر عنه بعد المعلومات الكافية لتمكيننا من التمييز بدقة بين الملامح الافريقية والأندونيسية.

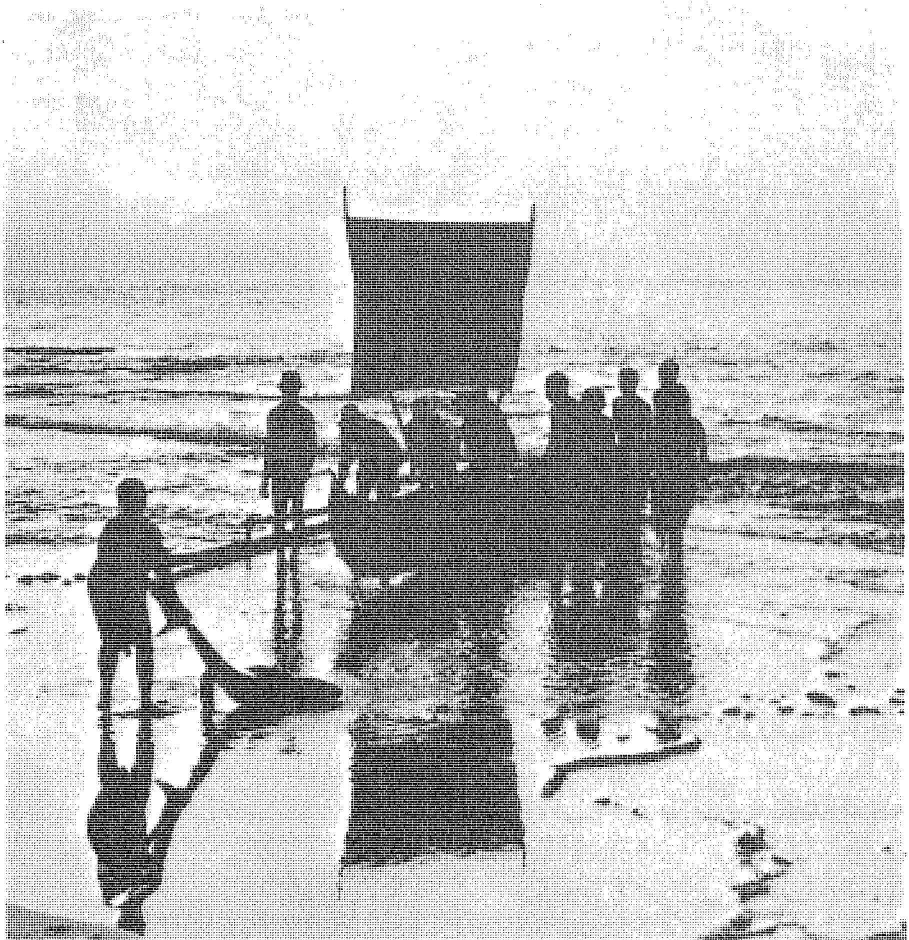
ان النصب الحجرية المقامة لديانة عبادة الأسلاف المدغشقرية تذكر بأندونيسيا بدرجة كبيرة. ويستعمل فيراند تقنيات اشتقاق الكلمات لربط الكلمة المستعملة للآلهة «زاناهاري» بنظيراتها في الملايو وشام النظيرتين.

أما فيما يختص بوسائل المواصلات فالسؤال الذي يطرح نفسه دائماً هو هل توفرت لدى الأندونيسيين في الألف سنة الأولى في عصرنا، السفن القادرة على قطع هذه المسافات الطويلة. اننا نعرف انه في تلك الفترة كانت القوارب المصنوعة عن طريق ربط الألواح «المتيب» مستعملة في غرب المحيط الهندي. ويبدو أن هذا المتيب كان احد أسلاف القوارب التي عرفت باسم الدهو (مركب شراعي عرف في شواطىء الجزيرة العربية وشرق إفريقيا - المعرب) الا أن بدن المتيب يتم ربطه بوساطة روابط في حين ان بدن الدهو يشبك معه. كما تختلف أيضاً أشرعة النوعين من السفن وقد وجدت في شرق المحيط الهندي، كما أوضح ديشامب، سفن يمكن ان تبحر في أعالي البحار. ويظهر أول رسم لها في تمثال معبد بوربودور (جاوة، القرن الثامن) يصور مركباً لها ذراع امتداد وساريتان وأشرعة.

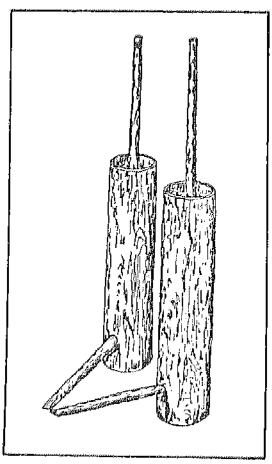
بعد أن تعرفنا على الاسهام الأندونيسي في الاستيطان بمدغشقر، يبقى علينا ان نكتشف الطرق التي سلكوها. أشار كثير من المؤرخين الى وجود الطريق الاستوائي الجنوبي الكبير الذي يمكن ان يوصل نظرياً من جاوة الى مدغشقر، وهذا التيار الاستوائي الجنوبي قوي بين سواحل جاوة الجنوبية وبين منطقة رأس العنبر المجاورة في شهري أغسطس (آب) وسبتمبر (أيلول). وأشار سيبري الى أن احجار الخفاف التي نجمت عن انفجار كاراكاتو انتقلت عبر هذا الطريق الذي حملها الى ساحل مدغشقر في نهاية المطاف.

ان فكرة وجود طريق مباشر بين أنسولينديا ومدغشقر وان كان الدفاع عنها ليس متعذراً بصورة مطلقة، فانها تظل بعيدة الاحتمال لأسباب شرحها دونك على نحو دقيق: مع القول مقدماً بأن وجود طريق مباشر بين جاوة ومدغشقر لا يلقى عوائق لا يمكن التغلب عليها في الشتاء الجنوبي حين تغيب الزوابع المدارية عن المنطقة، الا اننا يجب ان نلاحظ وجود عوامل قد تلغي مثل هذه النظرية وهي ان الرحلة المباشرة تقطع مسافة ٤٠٠٠ ميل تقريباً عبر صحراء تطل على البحر لا يوجد فيها ميناء واحد يمكن اللجوء اليه. ومن ثم، علينا ان نتصور طريقاً يتم الرسو عليه بجنوب الهند وسيلان. وقد لمح ديشامب الى الاشارات التي وردت عن هجمات القراصنة في هذه المنطقة في النصف الأول للألف سنة الأولى من عصرنا.

ولا تشكل الرحلة من جنوب الهند الى مدغشقر مشكلة كبير. فقد عرف الطريق على طول السواحل الجنوبية لافريقيا الغربية منذ عهد بريبلوس. كما ان وفرة العملة الصينية التي اكتشفت مؤخراً في سيراف تشهد على اهمية التجارة بحراً بين الشرق الأقصى والشرق الأوسط. فقد اتجه المسافرون من الشرق الأوسط بمحاذاة الساحل الافريقي كما فعلوا أيام ازدهار مدينة ربطة، ومن المحتمل ان يكون اكتشاف جزر القمر خطوة وسيطة في طريق اكتشاف مدغشقر. وكان يمكن للمرء من المياه الاقليمية



١



٢

١ قارب صيد أسماك (فيزو) من الطراز الأندونيسي المتوازن
٢ كير مزدوج الصمام من الطراز الذي وجد في أندونيسيا

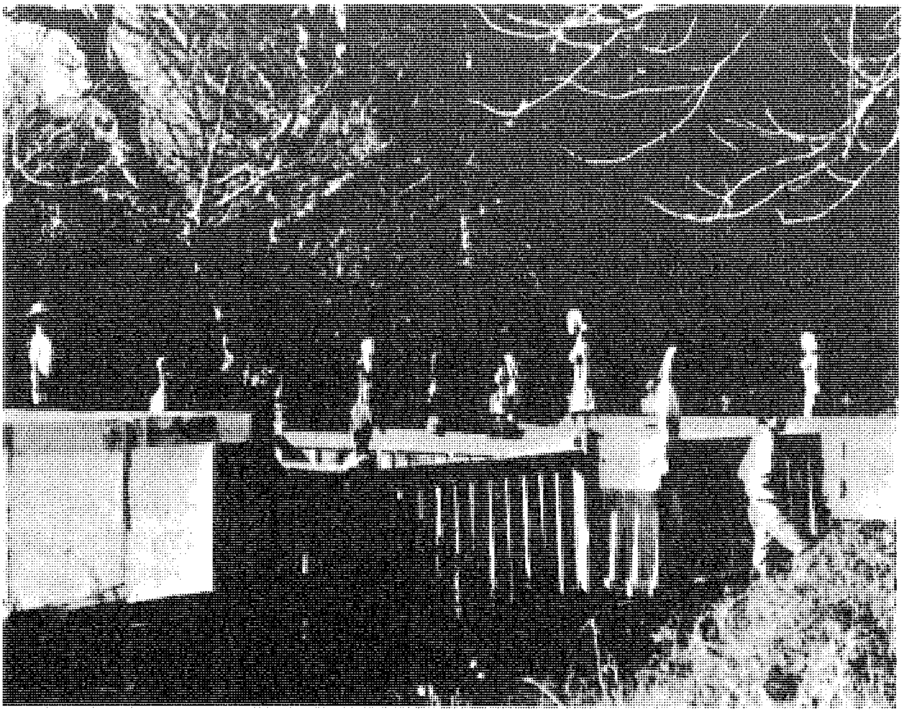
لساحل لكيب ديلجادو ان يرى صورة ظلية لكارتالا في جزيرة القمر الكبرى اذا كان الجو صافياً، كما كان يمكن رؤية محيط موهيلي من جزيرة القمر الكبرى، وهكذا على طول الطريق الى مايوط. ومن السهل تخيل ان مركبا كان في طريقه الى احدى الجزر في ارخبيل القمر قد ضل غايته وانتهى به المطاف الى نوزي بي او كيب سان سبيستيان كما حدث مراراً لقوارب الدهو التابعة لزنزبار التي ارغمها سوء الطقس في القرن التاسع على ان تغير مسارها.

والحقيقة انه من المرجح للغاية ان جزر القمر كانت قد استوطنت منذ زمن طويل. فتذكر حوليات الكتاب المحليين مثل سعيد علي وجود سكان وثنيين هناك في فترة البجة التي سبقت وصول المسلمين. ومع اننا لا نعلم ان كان هؤلاء افريقيين ام اندونيسيين الا ان هذه تمثل على الرغم من ذلك اشارة جديرة بالاهتمام. ووفق رأي بعض المؤلفين امثال ريبيكيه وروبينو[٢٦]، فإن سكان مرتفعات أنجوان المعروفين بالواماتسا يضمون نسبة معينة من نسل سكان البلاد قبل الاسلام. ولم يتم فحص هذه النظرية بصورة سليمة. ويمكن ان نسلم بامكانية ان المهاجرين المدغشقريين الأوائل يرجعون الى أصل أندونيسي استناداً على دليل تشابه أسماء المواقع (يمكن مقارنة انتساهي بانتساها المدغشقرية) او على دليل تشابه التكنولوجيا التقليدية. اذ ما يزال يوجد في منطقة «أواني» نوع تقليدي من الفخار تتسم قدور الطبخ منه بتشابه واضح في الشكل والزخرفة مع معدات الطبخ المدغشقرية المماثلة[٢٧]. كما أوضح هيبرت انه يوجد في انجوان نوع من التحريم على سمك الأنقليس الموجود في البحيرات الجبلية شبيه للغاية بالتحريم الذي يتمسك به بعض المدغشقريين تجاه نفس النوع من السمك، الذي يطلق عليه في مدغشقر كما في انجوان اسم ذو اشتقاق اندونيسي. ويشير بارو[٢٨] الى رواية يمكن أن تكون جذورها مالاوية - بولينيزية وجدت في فويني. وبالطبع فإن لحضارة جزر القمر، كحضارة ساحل شرق إفريقيا، أشياء من جنوب شرق آسيا كالزورق ذي الأذرع الممتدة لحفظ التوازن والمبرد المستخدم لفتح جوز الهند.

ان أعمال الحفر التي تجري الآن في منطقة سيما القديمة ربما تلقي الضوء على ما تحويه الطبقة السفلية الأندونيسية في انجوان. ويمر عبر هذا الموقع طريق، حيث ما زال يوجد مسجد يرجع للقرن الخامس عشر تقبع أسفله طبقة أثرية قديمة تحتوي على كسر أثرية من الفخار الأحمر المائل للاخضرار وكميات هائلة من أصداف البحر - بقايا المطبخ. وقد اوضح إختبار الكربون ١٤ الذي اجري على عينة مأخوذة من الطبقة السفلى، ان عمر الموقع يبلغ ١٥٥٠ عاماً بزيادة أو نقصان ٧٠ عاماً (معامل جاكوشيون) ويجب حفر هذا الموقع رغم صعوبة الوصول اليه، لأن الطبقة الأرضية لسيما ما قبل الاسلام ربما تحتوي على ما يكشف غموض أصل المدغشقريين الأول.

وكما يعتقد ديشامب (مثلما فعل «كنت» بطريقة مختلفة وان كانت نظرية ايضاً) فان الاندونيسيين الذين استقروا على الساحل الافريقي ربما كونوا نواة استيطان مدغشقر. لقد بولغ في اثر الأندونيسيين على الساحل الافريقي لأن وجود مجموعة من نباتات مالاوية مستوردة لافريقيا من جنوب شرق آسيا لا يعني بالضرورة انها مرتبطة بأندونيسيا: وبناء على ما جاء في كتاب بريبلوس فان قصب السكر وربما شجر جوز الهند وصلا منفصلين عن بعضهما.

(٢٦) س. روبينو، ص ١٧ - ٣٤.
(٢٧) ب. فيرين، ١٩٦٨، ص ١١١ - ١١٨.
(٢٨) م. بارو، ص ٩٣ - ٩٩.



١



٢

١ مقبرة مارو فواي قرب موروندافا
٢ تمثال انتساري: فن الانتانوسي قرب فورت - دوفين

وكما تحقق هورنل، فإن حقيقة وجود الزورق ذي الذراع الممتدة في المحيط الهندي كله دليل على اتساع التأثير الأندونيسي. ويعتقد ديشامب أن هذا يوضح الطريق الذي اتبعته الهجرة الى مدغشقر، فكرة مقنعة ولكنها مع ذلك تحتاج لمزيد من النقاش لأن الروابط الوثيقة بين الثقافة السواحيلية والمدغشقرية ربما شجعت مثل هذه الاقتباسات.

وعندما نحاول تقييم مدى التأثير الأندونيسي على الساحل الافريقي الشرقي ندرك انه كان ضعيفاً نسبياً. فلو كان هنالك أي استيطان أندونيسي على الساحل الشرقي، لوجدت آثار لذلك ولكن لم يكتشف شيء من ذلك حتى الآن. يقودنا ذلك الى الاعتقاد بأن التأثير الأندونيسي على الساحل - ان كان قد وجد اصلا - كان متمركزاً او محدوداً نسبياً، ولم يشكل مستعمرة ذات حجم معتبر. وفي هذا السياق يجب علينا مناقشة المعلومات التي قدمها لنا الجغرافيون العرب الأول. ولا شك أن اقدم نص وأكثرها اثارة للاهتمام في معالجة الموضوع هو ذلك الذي يرصد غارات شعب الواق واق على السواحل الافريقية في النصف الثاني للقرن العاشر. ولقد اتفق المؤرخون امثال ج، و.م. فوبليه[٢٩]، ور. موني[٣٠] وهم محقون في ذلك على اهمية هذا النص لأقصى حد، الا انهم اختلفوا في تفسيره. وقد اخذ النص التالي من «كتاب عجائب الهند» الذي الفه بوورك بن شامريار، وهو فارسي من رامهورموز[٣١] والاشارة المتصلة بالموضوع وردت على النحو التالي:

«اخبرني ابن لاكيس أن أهالي الواق واق شوهدوا وهم يعملون أشياء خارقة. ذلك انهم في سنة ٣٣٤هـ (٩٤٥ - ٩٤٦ الميلادية) وصلوا الى هناك في عدد ألف غزوة وقاتلوهم بقوة بالغة ولكن لم يتمكنوا من سحقهم لأن قانبالو كانت محاطة بسور حصين يمتد حوله مصب نهر يمتلىء بمياه البحر، وبذا كانت قانبالو تقع في وسط هذا المصب كقلعة متينة. وبعد ذلك عندما قدم قوم من الواق واق الى هناك وسألوهم لماذا جاؤوا الى مكان كهذا بدلاً من أن يذهبوا لغيره، أجابوا لأنهم يجدون فيه بضائع مطلوبة في بلادهم وفي الصين، كالعاج ودرق السلاحف وجلد الفهد والعنبر كما كانوا يسعون وراء الزنج لأنهم يتحملون الرق بكل سهولة لأنهم أقوياء - وقالوا انهم جاؤوا عبر رحلة بحرية استغرقت عاماً كاملاً وأنهم نهبوا جزراً تبعد مسافة ابحار ستة أيام من قانبالو، وجعلوا من أنفسهم أسياداً لعدد من القرى والمدن في أرض الزنج في منطقة سوفالا، ناهيك عن مدن أخرى لم تكن معروفة لديهم. واذا كان هؤلاء قد نطقوا بالصدق وما أوردوه هو الحقيقة، أي انهم جاؤوا عبر رحلة طولها عام كامل فإن هذا اذن يبرهن على صدق قول ابن لاكيس عن جزر الواق واق، انها تقع قبالة الصين[٣٢].».

ربما كانت قانبالو هي جزيرة بيمبا. ومن رواية هذه الغزوات يمكننا أن نستنتج ان القراصنة قدموا من جنوب شرق آسيا ربما عن طريق مدغشقر «التي تبعد مسافة ابحار ستة ايام» والحق أن الأندونيسيين كانوا موجودين في هذه المنطقة من المحيط الهندي خلال النصف الأول من القرن العاشر، الا انه في الوقت الحاضر ليس لدينا اية وسيلة للتأكد من أن وصولهم هذا حدث قبل بداية القرن العاشر.

واذا رجعنا الى نصوص عربية أخرى وجدها وترجمها فيراند، ظهر جلياً أن سكان الواق واق زنوج، ولكن ربما ضموا أندونيسيين، وأنه كانت لهم بالفعل البنية البيولوجية واللغوية المختلطة للمجمع

---

(٢٩) ج. وم. فوبليه.

(٣٠) ر. موني ١٩٦٥.

(٣١) ل.م. ديفيك، ١٨٧٨، فان دير ليث، ١٨٨٣ - ١٨٨٦، أورده ج. فيراند، ١٩١٣ - ١٩١٤، ص ٥٨٦ - ٥٨٧.

(٣٢) ج. سوفاجيه، مقتبس من كتاب ج. وم. فوبليه.

المدغشقري الأصلي. وعلى كل يبدو أن الرحلات الأندونيسية للساحل الافريقي استمرت الى القرن الثاني عشر كما توضح الفقرة التالية من الادريسي:

«لم يكن للزنوج سفن يستطيعون أن يبحروا عليها ولكن القوارب تأتي الى بلادهم من عُمان، كما كانت تفعل سفن أخرى متجهة الى جزر الزبدج (سومطرة) التي تنتمي لجزر الهند. ويبيع هؤلاء الغرباء بضائعهم ويشترون منتجات البلاد. كان اهالي الزبدج ينادون على الزنوج في السفن الصغيرة والكبيرة ويبيعون بضائعهم لهم حيث انهم كانوا يفهمون لغة بعضهم البعض»(٣٣).

ويذكر الادريسي في مقطع آخر من نفس المخطوط(٣٤) أن أهالي جزر القمر وتجار مهراجي (جافيجا) يتحدثون هناك (بالزنجية) مع الزنج ويرحبون بهم ويتاجرون معهم.

وفي بعض الأحيان تخلط الكتابات العربية بين الواق واق والقمر، لكن خرائط القرن الخامس عشر لابن ماجد وسليمان المهري توضح من غير ابهام ان المصطلح الجغرافي: القمر يعني مدغشقر، ويعني في أحيان اخرى جزر القمر ومدغشقر معاً. وهذا الخلط مثير للاهتمام لأنه ربما كان الواق واق هم الذين استقروا في أرض القمر.

نهاية الهجرة الأندونيسية الى الغرب

من المحتمل أن يكون تأثير الاسلام المتزايد منذ بداية الألف سنة الثانية قد وضع حداً لرحلات الأندونيسيين. وهناك فقرة في كتاب ابن المجاور (القرن الثالث عشر) تضم رواية عربية مثيرة للاهتمام في هذا الموضوع. وقد ترجم فيراند هذه الفقرة(٣٥) التي يعتبرها ديشامب بحق فقرة أساسية:

«كان صائدو الأسماك يقطنون عدن بعد سقوط امبراطورية الفراعنة (ربما الامبراطورية الرومانية بعاصمتها الشرقية الاسكندرية). وقد غزا سكان القمر عدن واستولوا عليها طاردين صائدي الأسماك منها ثم اقاموا مباني حجرية على الجبال وقد وصلوا كلهم في موسم رياح واحد للرياح الموسمية. أما الآن فقد مات هؤلاء الناس وانتهت هجراتهم. وبين عدن ومقديشيو تهب الرياح الموسمية مرة واحدة في العام وتهب رياح موسمية اخرى بين مقديشيو وكلوة وثالثة بين كلوة والقمر. وقد استفاد سكان القمر من هذه الرياح الموسمية الثلاث كريح واحدة، وبهذه الطريقة وصلت سفينة من القمر الى عدن في عام ٦٢٦هـ (١٢٢٨م) وكانت في طريقها الى كلوة الا انها وصلت الى عدن بطريق الخطأ. وقد كان لسفنهم اجنحة لحفظ التوازن لخطورة بحارهم وضحالتها. ولكن البربر طردوهم من عدن ولا احد الآن يعلم شيئاً عن رحلاتهم البحرية أو كيف عاشوا أو ماذا فعلوا».

لقد توقفت الرحلات الاندونيسية للساحل الافريقي مبكرة بعض الشيء الا ان ذلك لا يعني ان العلاقات قد انقطعت بين الشرق الأقصى وغرب المحيط الهندي. على النقيض من ذلك فهنالك ادلة عن توسع تجارة المحيط الهندي التي ربما كانت في ايدي المسلمين الذين ازدادوا ألفة بطرق التجارة. وتحدد خريطة ابن ماجد خطوط عرض دقيقة لمدن على الساحل الافريقي وللأقاليم الأندونيسية

---

(٣٣) مخطوط الادريسي ٢٢٢٢ في المكتبة القومية ورقة ١٦، مجلد ل، ١٢٠٩ وكذلك ج. فيراند، ١٩١٣ - ١٩١٤، ص ٥٥٢.

(٣٤) ورقة ٢١، مجلد ل، ١ - ١٢.

(٣٥) ج. فيراند، ١٩١٣ - ١٩١٤.

ومحطات التموين عبر المحيط الهندي الذي كان بالامكان عبوره في تلك الآونة في ثلاثين أو اربعين يوماً.

لا يستعصي على الفهم انه مع توقف تردد الأندونيسيين على الساحل الافريقي، فإنهم استمروا في الابحار رأساً الى مدغشقر ربما من مناطق الهند الجنوبية وربما اتبع الأندونيسيون الجدد هذا الطريق. ونحن نعلم الآن ان هذا ممكن عملياً لأنه في عام ١٩٣٠ تمكن بعض صائدي الأسماك من جزر لوكاديف من الوصول احياء سالمين الى الرأس الشرقي (كيب ايست) مبحرين رأساً من أرخبيلهم الى مدغشقر. وتعلم الأندونيسيون الجدد اللهجة المدغشقرية من سكان شرق الجزيرة وكانت لهم صلات بالمسلمين الذين كانوا يمتلكون في ذلك الوقت نقاط تموين على الساحل الشرقي.

يبدو أن الرواد الأوائل للأندونيسيين الجدد قد نزلوا عدة مرات على الساحل الشرقي، الا ان الموقع الذي استقر فيه الأندونوسيون الأول ما زال موضع نقاش. وقد اكتشف داهل ان اسماء نقاط البوصلة في اللغة المدغشقرية وتلك التي في اللغة الأندونيسية متقاربة للغاية الا انها تتطابقان فحسب اذا أدرنا البوصلة المدغشقرية ٩٠ درجة. وهكذا ففي لغة المانجان فإن كلمة «بارات» تعني الغرب و«تيمور» الشرق في حين ان الكلمتين المقابلتين في المدغشقرية وهما «افاراترا» و«واستيمو» تعنيان الشمال والجنوب على التوالي. ويمكن تفسير تبديل المواقع هذا بسهولة اذا ادركنا ان نقاط البوصلة بالنسبة للذين يرتادون البحار تحدد حسب الرياح. فالرياح الشمالية التي تحمل العواصف الرعدية لسواحل شمال غرب مدغشقر تطابق الرياح الغربية الرطبة في أندونيسيا في حين تطابق الرياح الجنوبية الجافة الرياح التجارية الشرقية الجافة في أندونيسيا. ويناسب تفسير داهل فقط الساحل الشمالي الغربي لمدغشقر حيث يعتقد ان المهاجرين نزلوا هناك اولاً – ولكن كما يعتقد هيبرت فإن هذه النظرية المرضية لا تصمد امام الفحص الدقيق. فاذا اولينا اهتماماً بالخصائص العامة للرياح (مثل الفصول الممطرة والجافة) أكثر من الاهتمام باتجاهها الحقيقي، نستطيع ان ندرك ان المدغشقريين الأوائل اعطوا اسم «بارات لوت» للرياح الغربية المحملة بالأمطار، في اندونيسيا كان لا بد ان يطلقوا اسم «افاراترا» على الشمال حيث تجيء الأمطار، معتمدين مقياساً مشتركاً بين الشرق والغرب في مدغشقر حيث تهطل الأمطار وتهب العواصف الرعدية في الواقع من اتجاه شمالي شرقي على الساحل الشرقي ومن اتجاه شمالي غربي على الساحل الغربي، وليس هنالك دليل واحد يجعلنا نفترض أن المدغشقريين استقروا أولاً في الساحل الشمالي الغربي[٣٦].

الهجرة الافريقية والسواحلية

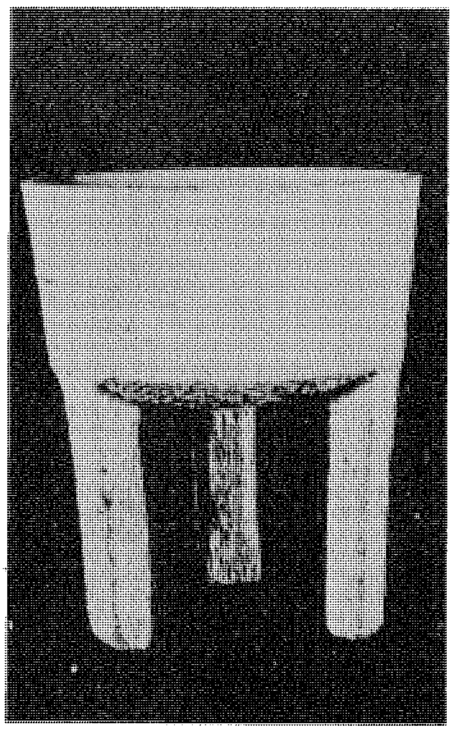
ان هذا النقاش لمختلف النظريات الخاصة بالأصول الأندونيسية للمدغشقريين يجب أن لا ينسينا أن اسهاماً هاماً ولربما أساسياً في استيطان مدغشقر جاء من إفريقيا. وقد صاغ ديشامب نظريتين لتفسير هذا التعايش الافريقي الآسيوي، فأولاً كان هنالك اختلاط ثقافي وعرقي على الساحل الافريقي الشرقي نفسه، وثانياً ربما أغار الأندونيسيون على الساحل المجاور من مدغشقر. ويرى كنت أيضاً هذا التعايش والتعاضد في ضوء النفوذ الاندونيسي القوي في إفريقيا الذي تلاه استعمار مدغشقر، وعلى

(٣٦) ج.س. هيبرت، ١٩٦٨أ، ص ٨٠٩ – ٨٢٠، ١٩٦٨ب، ص ١٥٩ – ٢٠٥، ١٩٧١، ص ٥٨٣ – ٦١٣.



١

٢



١ فخار صيني، حضارة فوهيمار
٢ وعاء فخار، حضارة فوهيمار

كل فإنه لا تتوفر لدينا الآن أية معلومات أثرية قديمة عن المواقع الساحلية الجنوبية لافريقيا (تنزانيا وموزمبيق) واني شخصياً أرفض اعتبار هذه النظريات أمراً يزيد عن مجرد افتراضات. ومن المحتمل تماماً أن يكون التعايش والتعاضد الأندونيسي الافريقي قد بدأ في جزر القمر أو شمال مدغشقر.

ان الفكرة التي تتردد عادة والقائلة بأن مدغشقر كان يسكنها أصلاً الأقزام تتحدى كل الأدلة الجيولوجية والملاحية اذ ان مدغشقر كانت جزيرة منعزلة منذ العهد الثالث ولم يكن الأقزام بحارة ولم يشاركوا في انتشار الحضارة السواحيلية البحرية. اضف الى ذلك أن قبائل مثل المايكا الذين كان يعتقد انهم آخر السكان الأقزام لم يكونوا صغيري الحجم الى ذلك الحد.

وفي رأيي ان المدغشقريين من الأصل الأفريقي هم قوم يتكلمون لغة البانتو وأنه من المحتمل أنهم بدأوا في الوصول الى الجزيرة على اقصى تقدير، من القرن التاسع فصاعداً، كما فعل الأندونيسيون. ولكن ليس من المرجح ان الهجرة الافريقية استمرت الى فجر العصر التاريخي الحالي (القرن السادس عشر). وبامكاننا ان نفترض ان معظم الافريقيين وصلوا في وقت واحد وبنفس الطريقة كما فعل السواحيليون المسلمون وغير المسلمين.

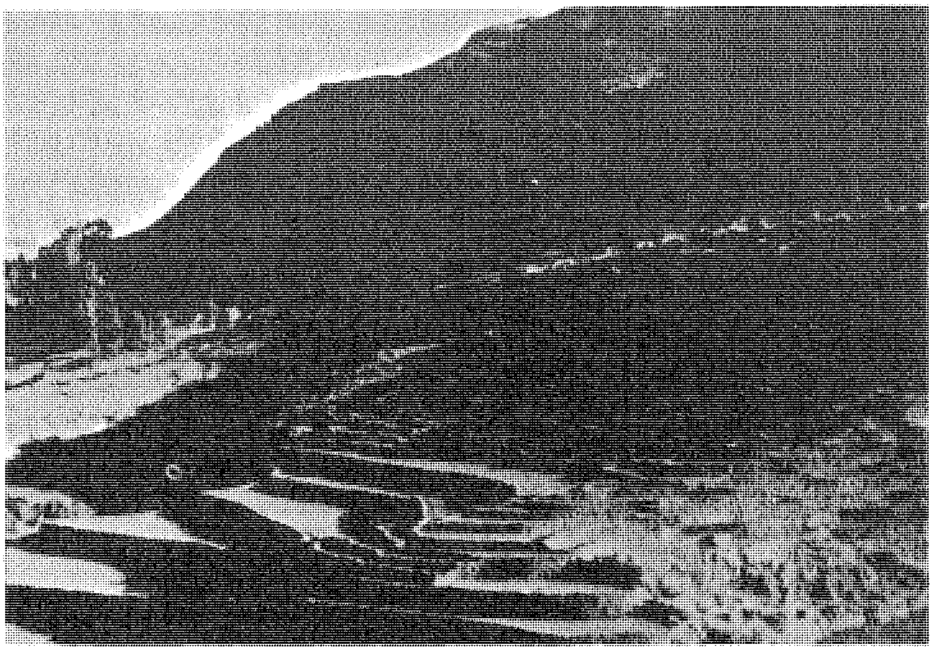
ومع أن مفردات اللغة المدغشقرية هي مفردات أندونيسية في غالبيتها، الا اننا لا يجب ان ننسى اسهام البانتو. وبالمثل فإن لغة الكريول المستعملة في جزر الأنتيل تتكون في ٩٥٪ منها من اللغة الفرنسية وبعض العناصر الافريقية. وقد تم الاسهام اللغوي للبانتو في اللغة المدغشقرية على درجتين، أساساً في المفردات، ولكن أيضاً في هيكل الكلمات. وتوضح واقعة وجود كلمات من لغة البانتو في كل لهجات مدغشقر، ان الاستيطان الافريقي في البلاد لم يقع متأخراً على نحو خاص وان اثره موجود في كل جذور الحضارة المدغشقرية وتحمل اللغة المدغشقرية آثاراً واضحة لتأثير البانتو، ولقد بلغ الأثر حداً واتسم بطابع لا يمكن تفسيرهما الا اذا افترض وجود اساس ينتمي للبانتو. اضف الى ذلك ان داهل برهن بوضوح على ان الانتقال من الانتهاء بالحرف الساكن (اللغة الأندونيسية) الى الانتهاء بالحرف المتحرك كان نتيجة للأساس المنتمي الى البانتو، واذا كان الأمر كذلك فإن هذا التغيير لا بد وانه قد حدث بعد فترة قصيرة من استقرار الأندونيسيين وسط السكان الذين كانوا يتحدثون لغة البانتو، خلال الفترة التي كان فيها الأخيرون يتكيفون مع اللغة الجديدة(٣٧).

ومن ثم فهنالك مبررات تجعلنا نبحث عن سبب تحول المدغشقرية الى لغة تنتهي بحروف متحركة ليس في اندونيسيا وانما في مدغشقر نفسها.

اذا كانت اللغة المستعملة في مدغشقر قبل وصول الأندونيسيين هي لغة البانتو فيسهل للغاية فهم هذا التفسير. ذلك أن وجود لغة من لغات البانتو تستعمل فيها النهايات الساكنة استثناء نادر، وأنا شخصياً لا اعرف وجود هذا في شرق إفريقيا. ويصعب على المتكلمين لغة، لا توجد فيها نهايات ساكنة، نطق النهايات الساكنة للغة اخرى اذا لم يوجد حرف متحرك مساند على الأقل. وكل الذين درسوا اللغة الفرنسية في مدغشقر اكتشفوا هذه الحقيقة في انفسهم.

وبناء على ذلك افترض ان الانتقال من النهايات الساكنة الى النهايات المتحركة حدث نتيجة لوجود أساس للبانتو. وان كان الأمر كذلك فان التغيير لا بد أن يكون قد حدث بعد استقرار الأندونيسيّين وسط المتحدثين بلغة البانتو مباشرة، خلال الفترة التي كان فيه الأخيرون يتكيفون مع اللغة الجديدة. وهكذا كان أول تغيير صوتي بعد الهجرة الى مدغشقر. ونحن نعلم القليل عن الكيفية التي تلاءمت بها

(٣٧) أو. ش، داهل، ص ١١٣ - ١١٤.



١

٢



١ حقل أرز قرب مصاطب أمبو سيترا، يمكن مقارنته بتلك التي في لوكون في الفليبين

٢ درس في الضرب بالرمل: أقصى الجنوب

مدغشقر مع الصورة العامة لتوسع حضارة الشعوب المتحدثة بلغة البانتو. ومن المعروف ان كثيرين منهم كانوا من جوابي البحار أمثال «الباجون» في الصومال الذين قام بدراستهم جروتانيللي، والمفيتا في كينيا والماكو القدماء في موزمبيق ولكن يصعب اقامة أي صلة بينهم وبين مدغشقر في غياب الدليل الأثري القديم. وقد اكتشف مؤخراً أن الأسس اللغوية للغة المستخدمة في جزيرة انجوان يمكن ربطها بلغة البوكومو في ساحل كينيا (في منطقة مصب نهر تانا) وهذه الجزيرة من جزر القمر ربما كانت محطة على الطريق، مثل جزيرة جوان دي نوفا التي يرتادها صائدو السلاحف البحرية بزوارق الدهو(٣٨). ولا بد أن المتحدثين بلغة البانتو قد مروا عبر جزر القمر ليصلوا الى مدغشقر. وعليه من الطبيعي ان نعتقد ان لغة البانتو أو اللغات التي كانت تستعمل في مدغشقر سابقاً، كانت ذات صلة بلغات القمر.

ان كلمات البانتو القديمة الموجودة في المدغشقرية تؤيد هذه النظرية. يخبرنا ابن بطوطة أنه من بداية القرن الرابع عشر كانت الحضارة السواحيلية التي لم تكن مسلمة كلية تتجه الى التوسع. وأنه في رأيي ان هؤلاء البحارة الأوائل من الحضارة السواحيلية البدائية، سواء كانوا مسلمين أم لا، لعبوا دوراً أساسياً في الهجرة الى مدغشقر.

ومع أنه من المستحيل حالياً ترتيب تعاقب الاسهامات الثقافية، فقد أدرك كثير من المؤلفين الطابع المتنافر للاستيطان في شمال وغرب مدغشقر. وقد أبرز نيلي في كتابه عن الشمال الغربي تأكيد الاختلاف بين سكان ساحل البحر (انتاندرانو) وبين سكان المناطق الداخلية (اولو بوكا انتيتي)، وينعكس هذا الاختلاف في بعض طقوسهم الجنائزية.

ويعترف بعض السكان الذين تغلب على أجسامهم السمات الافريقية بأنهم قدموا أصلاً من وراء البحر ويظهر هذا في عاداتهم. وهذا هو الحال بالنسبة لقبائل فازو- انتافيلو على طول الساحل الغربي والساحل الشمالي الغربي وبالنسبة الى الكاجبي لا يزالون يقيمون مقابرهم على تلال الساحل الرملية ويعترفون بأنهم ينتمون الى السودانجوتسي. ويعيش السودانجوتسي حالياً بالداخل بالقرب من بحيرة كينكوني لكن الأمر لم يكن دائماً كذلك لأن خرائط وتقارير البرتغاليين منذ بداية القرن السابع عشر توضح موقع سارانجاكو أو سانجاكو (تحريف لاسم سودانجوتسي) على اطراف خليج مارامبيتسي. ومع ذلك فإن السودانجوتسي أداروا ظهورهم الى البحر في الثلاثة القرون والنصف الأخيرة مع انه كان موطنهم الأول. ومن المحتمل ان الفازيمبا الذين يسكنون وسط غرب مدغشقر والمرتفعات الوسطى قد فعلوا مثل ذلك.

تعتبر تحركات سكان الساحل المتحدثين بلغة البانتو منذ القرن التاسع مسؤولة عن الاسهام الافريقي في استيطان مدغشقر ولكننا ما زلنا محتاجين لتفسير الأسباب التي جعلت اللغة الاندونيسية لغة البلاد الرسمية. لا بد وان بعض المتحدثين بلغة البانتو قد اتصلوا بالأندونيسيين ومن المحتمل ان يكون الافريقيون الذين كانوا يتحدثون بلغات او لهجات افريقية مختلفة قد وجدوا انه من الملائم ان يستعملوا اللغة الأندونيسية. ويبدو ان مدغشقر استمرت كلوحة شطرنج لغوية وعرقية لمدة طويلة، على الأقل على الساحل حول بالي ومينيترانو (بمبالا ماريانو) وفي تسير بيهينا (كما يقول درووري) وبين بعض قبائل الفازمبا في الداخل (كما يقول بيركلي وهيبرت). وقد عاش الفازمبا القدماء حياة بدائية اقتصادياً. اذ عاشوا كصائدي أسماك على السواحل، لكنهم ربما اعتمدوا في الداخل ولحد بعيد على استعمال غير ناضج للامكانيات الطبيعية الموجودة في متناولهم. وربما كان جمع الفواكه البرية والقنص

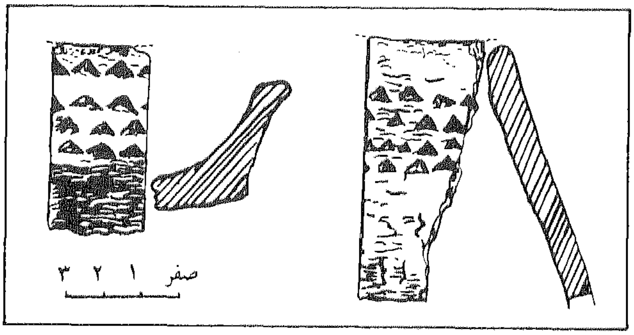
---

(٣٨) التعليمات البحرية، ١٩٦٩، ص ١٥٩.

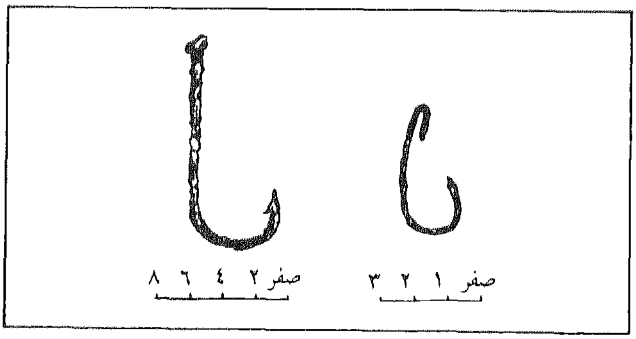


١

٢



٣



١ قبر انتالوتس في انتسوهيريبوري
٢ سيراميك من كينجاني
وراسوكي (القرن الخامس عشر)
٣ شص أسماك من تالاكي
(القرن الثاني عشر)

وجمع عسل النحل كافيةً لسد احتياجاتهم. وفي رأي درووري ان الفازمبا في تسير بيهينا كانوا صيادين لأسماك الأنهار، ولقد اوضحت الحفريات كميات هائلة من الأصداف التي أكل محتوياتها جامعو الفواكه البرية هؤلاء بالقرب من انكازوكا وانكاتسو.

بدأ التعايش والتعاضد بين الاندونيسيين والأفارقة منذ اللحظات الأولى لاستيطان مدغشقر. ومع بداية القرن العاشر لا بد أن بعض المتحدثين للبانتو من سكان السواحل قد اعتنقوا الاسلام. وتثير دهشتي حقيقة ان سكان مدغشقر المسلمين يشاركون كل السكان في الساحل الغربي والساحل الشمالي الغربي نفس الاسطورة فيما يتعلق بأصلهم، اسطورة موجومبي او «الجزيرة المفقودة»(٣٩). وقد قابلتني هذه الأسطورة في مكان آخر في شكل أدبي كما رواها لي انتالا وتسي في خليج بوينا. تقول الرواية ان سليماني سيباني وتونجا أسلاف الكاجمبي والأنتلاوتسي عاشوا معاً، في جزيرة بين الساحل الافريقي وجزر القمر، على التجارة ومارسوا الديانة الاسلامية ولكن عندما ظهر عدم التقوى والشقاق في الجزيرة قرر الله ان يعاقبهم: فغرقت الجزيرة تحت بحر هائج ونجت قلة الرجال الصالحين فحسب. يقول البعض انهم نجوا بمعجزة ويقول آخرون ان الله أرسل حوتاً حملهم بعيداً. والكاجمبي والأنتلاوتسي هم نسل الرجال الصالحين. ومن ثم يبدو محتملاً أن المسلمين لم يفرضوا ثقافتهم على مدغشقر بل لعبوا دوراً حافزاً بين الأفارقة الذين هاجروا الى هناك.

---

(٣٩) فيرين، ب، ١٩٧٠أ، ص ٢٥٦ - ٢٥٨.

الفصل التاسع والعشرون

المجتمعات الافريقية جنوب الصحراء الكبرى في العصر الحديدي المبكر

بقلم: م. بوسنانسكي

تعرضنا في الفصول القليلة السابقة لآثار حضارات مختلف الأقاليم في افريقيا شبه الصحراوية خلال الألف عام التي سبقت ميلاد المسيح والألف عام التي تلته. وهدفنا في هذا الفصل هو محاولة تقويم الاتجاهات الرئيسية التي يبدو أنها تطورت في التاريخ الأفريقي في هذه الحقبة قيد البحث. فالتغييرات التي طرأت على كل الأقاليم كانت تحمل طابعاً جوهرياً. , فقد تحول الاقتصاد فيها من اقتصاد طفيلي بصفة رئيسية يعتمد على ما تجود به الطبيعة الى اقتصاد يتحكم في وسائل انتاج الطعام من النباتات والحيوان على حد سواء. وتحولت التكنولوجيا فيها بنفس الدرجة من تكنولوجيا بسيطة قوامها في الغالب الحجارة والخشب الى تكنولوجيا أكثر تعقيداً تعتمد على مختلف ضروب المعادن بالاضافة الى الحجارة وفي هذه الحقبة وضعت الأسس التي قامت عليها المجتمعات الافريقية التي نعرفها اليوم - فتعدلت الحدود بين المجموعات اللغوية بعض الشيء، وانتشر السكان انتشاراً جذرياً وأصبحت التجمعات الاجتماعية والسياسية أكثر تعقيداً عندما بدأت تتبلور. وعلى وجه العموم فان كثيراً من المظاهر الأساسية السكانية والاقتصادية في افريقيا شبه الصحراوية كانت قد تحددت خلال الربع الأخير من الألف عام الأولى بعد الميلاد.

وتتمثل احدى المشكلات التي تحول دون محاولة تحديد الاتجاهات المنبثقة في عدم كفاية نتائج التغطية الأثرية القديمة. فهناك مساحات شاسعة لا تزال غير مستكشفة بعد من الناحية الأثرية خاصة في بعض البلاد الكبرى مثل أنجولا ، موزمبيق، زائير، جمهورية افريقيا الوسطى، الكمرون، داهومي، ساحل العاج، مالي، فولتا العليا، النيجر، سيراليون، مدغشقر. وحتى الأماكن التي خضعت لبحث ملحوظ فان البحث انحصر في أماكن محدودة للغاية كما حدث في السنغال وتشاد، ومما

تجدر الاشارة اليه انه بينما يرجع تاريخ الهيئات المعنية بالآثار القديمة الى القرن التاسع عشر في بعض أجزاء شمال افريقيا (في مصر منذ ١٨٥٨م) فان كثيراً من بلاد افريقيا شبه الصحراوية بدأ البحث فيها فقط مع الاستقلال وانشاء المتاحف القومية والجامعات. ومع كل هذا فان طريقة تحديد التواريخ باستخدام الكربون المشع المطبقة في السنوات العشر الأخيرة، اضفت طابعاً ثورياً على معلوماتنا عن العصر الحديدي المبكر مكنتنا من التوصل الى تعميمات عريضة عن المدى الزمني الخاص بمختلف التطورات الاقتصادية.

استغلال المعادن

استغلت، في هذه الحقبة، أربعة معادن تتجاوز أهميتها المدى المحلي وهي حسب الترتيب المحتمل لاستغلالها الأولي، النحاس والملح والحديد والذهب وطبعاً استمر استخدام الحجارة حتى بعد استخدام المعادن في المعدات والأسلحة الأكثر أهمية.

النحاس

تم استخراج النحاس لأول مرة في موريتانيا وربما في الربع الأول من الألف سنة التي سبقت الميلاد ويشير شكل الأدوات النحاسية المصنعة التي تم العثور عليها في المنطقة الى أن الدافع للتنقيب عن خام النحاس نشأ عن الاتصال بالمغرب ومعلوماتنا عن الشكل الذي اتخذته المناجم الأولى في هذه الحقبة ضئيلة جداً رغم سيادة الاعتقاد بأنها مشروعات سطحية[١] . ومناجم موريتانيا هي الوحيدة التي يُعْرَف على وجه اليقين انها كانت تعمل قبل الألف عام التي تلت الميلاد. وهناك مصادر أخرى للنحاس في مالي والنيجر في منطقتي نيورو وتاكيدا، كانت مستغلة على وجه التأكيد في الألف سنة الثانية بعد الميلاد ـ أما متى اكتشفت ومتى بدأ العمل فيها فأمور غير معروفة.

وهناك أدلة مستقاة من الكتاب العرب وبعض المصادر الكلاسيكية[٢] توحي بأن النحاس كان عنصراً من عناصر التجارة عبر الصحراء الكبرى وكان يصدر الى الجنوب خلال الألف عام الأولى بعد ميلاد المسيح ربما مقابل الذهب الذي يذهب شمالاً. إن وجود السبائك في «ماكون اجافن» في غرب الصحراء الكبرى يقوم شاهداً على ازدهار التجارة في وقت متأخر قليلاً: في القرن الحادي عشر أو الثاني عشر ق.م. ومن الأمور ذات الأهمية الحيوية لتقدير حجم هذه التجارة، المواد المكتشفة من «اجبواوكووا» في شرق نيجريا. واذا كان تاريخها يرجع حقاً الى القرن التاسع كما يذهب عالم الحفريات ثيرستون شو[٣] والدكتور واي آند أيضاً في الفصل ٢٤، فان هذا يدل دلالة واضحة على أن هذه التجارة اتسع نطاقها في القرن الثامن أو التاسع كي ينجم عنها كل هذا العدد الضخم من الأدوات النحاسية وما يتوقع الحصول عليه منها، وهو أكثر، خلال الحفريات في أماكن مشابهة مستقبلاً . غير

(١) ن. لامبرت، ١٩٧١ ص٩ ـ ٢١.
(٢) ن. بوسنانسكي، ١٩٧١ ص١١٠ـ ١٢٥.
(٣) ت. شو، ١٩٧٠ ص٥٠٣ـ ٥١٧.

ان كثيراً من العلماء(٤) الآخرين لا يميلون الى الأخذ بهذا التاريخ المبكر ويرجعون هذه الآثار الى تاريخ ما خلال الألف الثاني بعد ميلاد المسيح. وبما أن توزيع خام النحاس في افريقيا يقتصر على أماكن محدودة للغاية حسب العوامل الجيولوجية فليس هناك ما يفسر وفرة الأدوات النحاسية في «اجيو» غير التجارة. ويرى «شو» أن التكنولوجيا التي استعملت في صب المواد ذات صبغة شمالية وعلى الأرجح فهي عربية الأصل. والمدهش أنه باستثناء امكانية الوجود في «اجبواوكووا» يندر أن توجد أدوات نحاسية في غرب افريقيا يرجع تاريخها الى ما قبل الألف عام الأولى بعد ميلاد المسيح، اللهم الا في السنغال وموريتانيا- وهما قريبتان سواء من مناجم «اكجوفت» ومن الطريق التجاري غربي الصحراء الكبرى. وتتمثل احدى المناطق التي يمكن ارجاع تاريخ أدواتها النحاسية الى الألف الأول بعد ميلاد المسيح في منطقة النيجر شمال سجو حيث توجد ركاميات «الكولادجي وكيلي» المشهورة. والنحاس المستخدم في هذه الأدوات اما أن يكون قد تم الحصول عليه من المصادر الساحلية في مالي أو النيجر أو عن طريق التجارة. ومما يؤسف له أن اغلب هذه الأدوات التي تم العثور عليها في أوائل هذا القرن قد اختفت ولم يبق لها أثر الا في تقارير مكتشفيها. ويساعد التصوير الطيفي التحليلي في تحديد المكان الذي استخرج منه النحاس غير أن المشكلة في الأدوات النحاسية تتمثل في أنها تصنع من النحاس الجديد مخلوطاً بذوب النحاس الخردة. ومع ذلك فلا بد أن تظهر أخيراً بعض العناصر التي تشير الى ما اذا كان خام النحاس في «نيورو» وتاكيدا قد بدأ استغلاله في الزمن الذي بنيت فيه هذه الركاميات.

وهناك مصدر آخر من مصادر النحاس في تلك الفترة في اقليم «شابا» في زائير حيث كشفت الحفريات في «سانجا» و«كاتوتو» كميات وفيرة من الأدوات النحاسية غير انه تجدر الاشارة هنا الى أنه في التقسيم الثقافي الثلاثي الذي اقترحه عالم الحفريات ننكين(٥) وفي مرحلته الأولى والمعروفة باسم «الكيسالي» والذي تمثله ٢٧ قبراً، وجدت سبائك النحاس في قبرين اثنين منها فقط، وهذا يدل على أنه في العهد الكيسالي، والذي يمتد تاريخه من القرن السابع الى القرن التاسع كان النحاس مستخدماً وصنعت منه أدوات الزينة غير أنه لم يبلغ حد الوفرة بحال من الأحوال. وقد استغل حزام النحاس في شمال زامبيا في مثل هذا الوقت، وقدر استخراج النحاس من المناجم في تاريخ يتراوح بين ٤٠٠ سنة وبين ٩٠ بعد الميلاد كما جاء في تقرير من كنسانشي(٦). وقد كانت الأدوات النحاسية في هذا الوقت أكثر في جنوب زامبيا منها في شمال زامبيا. غير ان الأدوات النحاسية الأولى، والتي لم تتسم قط بالوفرة التي وجدت في جنوب زامبيا تم الحصول عليها، غالباً، من اقليم مينويا في زمبابوي ومصادر أخرى في شرقي زامبيا. وحتى هذا اليوم لا نعرف شيئاً عن الطريقة التي استغل بها هذا المعدن في أي من هذين الاقليمين. أما في بقية انحاء افريقيا الأخرى فقد كان النحاس نادر الوجود. اذ لم يكتشف في شرق افريقيا الا في وقت متأخر جداً من هذا التاريخ.

الملح

الملح معدن تزايد الطلب عليه بصفة خاصة بعد بداية النمط الزراعي للمياه في المجتمعات البشرية. ولربما تحصل الصيادون وجامعو الغذاء على احتياجهم من الملح من الحيوانات التي يصطادونها ومن

(٤) ب. لاوال، ١٩٧٣، ص ١-٨.
بوسنانسكي، ١٩٧٣ب. ص ٣٠٩ - ٣١١
(٥) ننكين. ج، ١٩٥٧- ١٩٦٣ ص، ٢٧٧.
(٦) م.س. بيسون، ١٩٧٥ ص٢٧٦ -٢٩٢.

الغذاء النباتي الطازج. ولا يصبح الملح عنصراً اضافياً ضروريا الا حيث يتعذر الحصول على الغذاء الطازج في المناطق الجافة وحيث يزيد عرق الجسم البشري عادة. وتزداد الرغبة بشدة في الملح، مع ذلك، بين المجتمعات ذات الوجبات الغذائية المقيدة نسبياً كما هو الحال مع الزرّاع المستقرين وليس لدينا فكرة عن بدائية استغلال موارد الملح في الصحراء الكبرى عند تاغورا وأوليل. أما كون هذه المصادر عنصراً من عناصر التجارة عبر الصحراء الكبرى بحلول الألف الأولى بعد ميلاد المسيح، فحقيقة تثبتها النصوص العربية للربع الأخير من هذه الألف الأولى. ومن المحتمل أن تكون بعض مناجم الملح قديمة قدم مناجم النحاس وتطور مستوطنات التيشت في موريتانيا حيث تكون حياة الاستقرار قد فرضت الحاجة الى امدادات الملح. وتتوفر لدينا معلومات كثيرة عن أنشطة التعدين في العصور الوسطى التي سنتعرض لها في أجزاء لاحقة ولكنها تفتقر الى أي معلومات حول تلك الأنشطة في هذه الفترة. ومن المحتمل أن تكون عمليات التعدين في هذه الفترة من نوع متميز بالبساطة التامة وأن الملح كان متوفراً كرواسب سطحية في عدة مواضع في الصحراء الكبرى نتيجة لعملية التجفيف بعد سنة ٢٥٠٠ق.م. ربما لاحظ الانسان أي أحواض البحيرات والبرك والمستنقعات الجافة تجذب الحيوانات المتوحشة. هذا فضلاً عن أن الأملاح السطحية غالباً ما تكون واضحة من لونها.

هناك مواقع عديدة معروفة لأعمال الملح المبكرة في شرق افريقيا في (افينزا)(٧) (شرق كيجوما في تانزانيا)، وكيبيرو(٨)، وعلى شواطىء بحيرة موبوتوسيسي سيكو في يوغندا، وعند (بسانجا) في زامبيا(٩) ولربما أيضاً عند سانجا(١٠) في زائير وفي وادي جومبي في زامبيا.

ويبدو أن استخراج الملح عند «افينزا» كان بدائياً لأن اكتشافات القرن الخامس والسادس عند ينابيع الملح لم تكن مرتبطة بأحواض الملح المبلطة بالحجر والتي تميزت بها صناعة الألف الثاني. كما كانت ينابيع الملح أيضاً مصدراً للملح في كيبيرو حيث نجد عملية متطورة للغلي والترشيح يمكن أن ترجع الى الألف الأولى بعد الميلاد والا لصعب ايجاد سبب آخر لتعليل وجود الصناعة في الموقع. أما طبقات الملح في (باسنجا) فقد كانت مشغولة منذ القرن الخامس مما يشير الى استغلال الملح عن طريق التبخير وان لم يثبت ذلك بصورة قاطعة الى الآن. ومن المحتمل أن الملح في مواقع اخرى كان يصنع بعدة طرق ظلت مستعملة الى القرن التاسع عشر وكانت تشمل حرق أو غلي الحشائش أو حتى روث الماعز في مناطق معروفة بارتفاع نسبة الملح في التربة ثم يبخر ويرشح المحلول المالح للتخلص من كل الشوائب الكبيرة. ان أواني التصفية المستعملة في مثل هذه العمليات شائعة في كل البيّنات خلال العصر الحجري ولكن للأسف فان مثل هذه الأواني المخرمة كانت مستعملة في عمليات اخرى لاعداد الطعام مما يجعل ارجاع صناعة الملح لها في الغالب مهمة صعبة.

الحديد

استخدم خام الحديد منذ وقت مبكر يرجع لمنتصف العصر الحجري في سوازيلاند(١١) لاستعماله في الصباغة ومن الواضح أن أصباغ الجسم البشري واكسيدات الحديد الحمراء لأصباغ الجسم البشري

(٧) ج.أ. ساتون، أ.د. روبرتس، ص ٤٥ - ٨٦.
(٨) ج. هيرنو، و أ. ماكيت، ١٩٦٨ ص٤٩.
(٩) أ.د. روبرتس، ص ٧٢٠.
(١٠) ب.م. فاجان، ١٩٦٩ أ، ص ٧.
(١١) أ. دارت، ر.ب. بومونت، ١٩٦٩ أ، ص ١٢٧ - ١٢٨.

ثم في وقت لاحق لتزيين أسطح الصخور كانت أشياء مطلوبة بشدة منذ بداية العصر الحجري، حتى أن قطعة بلون خام الحديد الأحمر (الهماتيت) تم احضارها الى حوض نهر أولد فاي بوساطة مستعملي الأدوات ـ الحجرية في العصر الحجري المبكر. وبحلول العصر الحجري المتأخر كان تعدين المنجنيز[١٢] والبلور العاكس [١٣] وخام الحديد عملية منتظمة في أقاليم زامبيا وسوازيلاند وفي الرأس الشمالي[١٤]. وأوضحت حفريات في بعض مناطق العمل عن دور وجود عمليات تعدينية تضم سراديب وغرف استخراج منها ما يصل الى ٤٥٠٠٠ طن متري من البلور العاكس، ربما بوساطة قوم يتحدثون لغة الخوسيان اعتباراً من القرن التاسع الميلادي وما تلاه. ومن المحتمل أن يكون وجود مثل هذه المناجم وما يتضمنه ذلك من معرفة بخامات المعادن وخصائصها قد ساعد على النمو السريع لتكنولوجيا الحديد في النصف الأول للألف الأول بعد ميلاد المسيح.

ولا تتوفر لدينا أدلة واضحة على التعدين في سبيل الحديد في مناطق أخرى في أفريقيا شبه الصحراوية ولكن يبدو أن القشرة «اللطريطية» في المناطق المدارية كانت مصدراً لخام الحديد. ومع كل فان الحديد (السفنجي المظهري) كان مستعملاً في وادي كاسامانكو الأسفل في السنغال[١٥] وفي ماشيلي في زامبيا[١٦]. ومن المرجح أن الحديد الذي تم التحصل عليه بهذه الطريقة كان يتم تكسيره الى قطع صغيرة يختار منها يدوياً ما يصلح للصهر. ويمكن أن يكون تعدين الحديد بعكس عملية جمع صخوره من على سطح الأرض قد مورس في اقليم يقع الى الشمال من نهر جامبيا في منطقة الصخور السنغالية ـ الجامبية التي كانت عبارة عن كتل ضخمة من الصخور الحديدية. ان استعمال هذه الصخور هنالك كهياكل طقوسية بالاضافة الى نمو ما لتكنولوجيا الحديد في المنطقة خلال الألف الأولى بعد الميلاد، يوضحان لنا أنه لم يكن هناك سوى خطوة صغيرة نحو استخراج صخور الحديد من المناجم بغية صهرها.

ومن الممكن أن يكون التوسع في صهر الصخور الحديدية بمثابة مقدمة ضرورية لفكرة اختيار هذه الصخور لأغراض البناء ـ ولربما تطورت طريقة مشابهة لهذه الطريقة في امبراطورية افريقيا الوسطى حيث توجد أيضاً الصخور الحديدية الضخمة. لقد اقترح (واي آندا) في الفصل الرابع والعشرين أن سهولة استخراج الصخور الحديدية عن طريق الحفر على عكس قطع صخور الهماتيت التي تحتوي على نسبة أعلى من خام الحديد ربما كانت دليلاً على زعم لم يتأكد بعد بشأن وجود تطور لتكنولوجيا الحديد في افريقيا. وتعد الصخور الحديدية هشة نسبياً كما يسهل الحفر خلالها ما دامت رطبة ومغطاة بطبقة رقيقة من التربة، وبصورة أكبر بكثير من الحفر خلال الصخر العادي.

وللأسف فانه باستثناء مناجم افريقيا الجنوبية لم يتم العثور على مناطق أخرى مؤكدة لتعدين الحديد أو تم تحديد تواريخها. ومن المحتمل أن تكون الفؤوس الأولى المصنوعة من صخور الهماتيت الحديدية في القطاع الشمالي ـ الشرقي لزائير ويوغندا ترجع الى العصر الحديدي وصنعت من صخور الهماتيت الحديدية تقليداً للحديد المصنع.

---

(١٢) المرجع نفسه من ٩١ ـ ٩٦.
(١٣) أ. بوشيار، ب. بومونت، ١٩٧٢، ص١-١٢.
(١٤) ب. بومونت، أ.ك. بوشيار، ص٤١-٥٩.
(١٥) أو. ليناريس دي سابير، ص٤٣.
(١٦) ج.د. كلارك، ب.م. فاجان، ص٣٥٤-٣٧١.

الذهب

تم استخراج معدن الذهب بصفة شبه مؤكدة في غرب افريقيا خلال الفترة موضع الدراسة كما كان يجري جمعه عن طريق فصله عن الطين الغرين بالغسيل. وعلى الرغم من اشارة المصادر العربية لذلك الا انه لم يتم اكتشاف أو تحديد مواقع مناجم الذهب أو تحديد تواريخها أو العثور على دليل على عمليات التنقية من الشوائب. ويبدو أن هذه العمليات كانت مشابهة للعمليات التي قام عليها دليل وثائقي لفترات لاحقة[١٧]. ان المناطق الرئيسية التي يقوم عليها دليل على استغلال الذهب ـ وذلك بالرجوع الى مصادر غير معاصر بعضها البعض الآخر ـ تقع قرب خط تقسيم المياه لكل من نهري النيجر والسنغال في مالي وغينيا الحاليتين ويعرفان باسم بامبوك وبوري. وهناك دليل أفضل قليلاً يناقشه فيليبسون في الفصل (٢٧) على تعدين الذهب عن طريق السرب أو الحفائر الأفقية الضحلة في شمال شرق زيمبابوي ولكن ليس هناك دليل ثابت على أن هذه العمليات ترجع الى ما قبل القرن الثامن أو التاسع الميلادي. ويبدو أن الخامات كان يتم سحقها باستخدام أحجار الطحن.

ومن المحتمل أن تكون التجارب على خامات معدنية مختلفة منذ العصر الحجري قد وضعت الأساس لاستخراج النحاس والذهب على نطاق أوسع في وقت لاحق. وفي حين أن اشياء نحاسية كثيرة تم اكتشافها، مما يساعدنا على تحديد تاريخ استعمال النحاس كمادة لصنع الأدوات والحلى، نجد أن هناك قليلاً من الذهب في بيئات الألف الأولى بعد الميلاد. ولقد كان الذهب قيّماً جداً الى حد يتعذر اهمال البحث عنه. ان الأشياء المصنوعة من الذهب التي ترجع الى تاريخ مبكر هي تلك التي وجدت في الركاميات السنغالية التي يعود تاريخها الى الجزء الأخير قبل نهاية الفترة.

الحجر

كان الحجر يستخرج لأغراض عديدة أهمها توفير المادة الخام لبناء الأرضيات وصناعة الأدوات الحجرية أو المصقولة ولصناعة المجارش. استعملت عدة مجتمعات مجارش ثابتة، كانوا يأخذون حبوبهم الى منطقة بروز صخري حيث يمكنهم نشر الطعام كي يجف، وحيث يمكنهم طحن الحبوب ودق الأغذية الخضرية. ولكن هذا البروز الصخري لا يتوفر في كل مكان ومن الثابت أن أحجار الطحن من كلا النوعين الأعلى والأسفل كان يتم البحث عنها ونقلها في الغالب الأعم عبر مسافات بعيدة بعض الشيء ومن المؤسف أن هذا النوع من الحفريات الأثرية لم يثر سوى اهتمام ضئيل في افريقيا الى الآن. وعندما يزيد عدد علماء الآثار والجيولوجيين في السنوات القادمة وترسم بدقة الخريطة الجيولوجية للقارة سيصبح تفصيل وتقسيم كل الصخور الغريبة والقيام بدراسة علمية لطبيعة هذه الصخور كوسيلة لارجاعها لمناطق أصولها الجيولوجية عملاً متواتراً. لقد وجدت عدة مصانع فؤوس حجرية كما في بوروبورو[١٨] في غانا، وفي ذات الوقت اكتشف مصنع للمجارش يرجع للقرن الأول قبل عصرنا في كنتامبو[١٩] في غانا أيضاً. وقد وجدت في هذا الموقع أعداد من المساحي لم يكتمل صنعها للطحن الى

---

(١٧) ن. لفتزيون، ص ٢٨٣.

(١٨) د. نونو، ص ٣٢١- ٣٣١

(١٩) ب.راتز، ك. فلايت، ص١-٣١.

جانب المجارش في ستر صخري تم صنعه الى درجة كبيرة بوساطة الانسان وذلك باشعال النار الضخمة لتفتيت الصخر. ان المبارد الخشبية ذات القطاع البيضاوي الغريب (يطلق ايضاً عليها اسم سيجار) والتي تتميز بها الآثار الثابتة تبدو بجزأيها وكأنها صنعت من نوع واحد من الصخور[٢٠]. ولقيت رواجاً تجارياً في منطقة واسعة. وتنتشر عبر افريقيا شبه الصحراوية أخاديد أبعادها عادة ١٠ - ١٢ سم عرضاً وحوالى ٥٠ سم طولاً تمثل المواقع التي تم فيها سحن القشرة الهشة للصخور التي صنعت منها الفؤوس والمقاشط والأزاميل ويحتمل أن تكون عملية التحجير والسحن والصقل والاتجار رغم صغر حجمها قد بدأت في الاضمحلال تدريجياً عندما بدأ الحديد في اتخاذ مكان الحجر. وقد استمر استعمال المعدات الحجرية مع ذلك الى الألف الثاني من عصرنا. ومن المدهش حقاً أن معدات حجرية قليلة وجدت في شرق وجنوب افريقيا مع أنها كانت متوفرة في غرب افريقيا.

ان حجراً لصنع الاقداح في كينيا، ومن المحتمل في تنزانيا ايضاً خلال الألف الأولى قبل عصرنا، كان يصنع من السائل البركاني المسامي الرمادي اللون الذي كان يسهل تشكيله مثل الصخر الحديدي الهش لحظة تعرضه للهواء. ولم تعرف اوجه استخدام هذه الأقداح ولكن اكثر الذي وجد منها ارتبط بالمدافن. وكانت لينة جداً بدرجة لا يمكن سحن أي شيء عليها الا الأغذية الخضرية الناعمة. وقد وجدت أقداح مشابهة في ناميبيا الا انها نادرة في الأماكن الأخرى.

وهناك نشاط لم يتم الكشف عنه نسبياً وان كان قد حدث بالفعل وهو البحث عن أحجار شبه قيمة لاستعمالها في صنع العقود. ومن بين هذه الأحجار العقيق وعدة أنواع من العقيق الأبيض كالحجر اليماني واليشب والبلور الصخري أو الكوارتز. توجد العقود المصنوعة من هذه الأحجار على امتداد افريقيا شبه الصحراوية - غالباً في المقابر كتلك الموجودة في موقع كهف نهر نجورو في كينيا الذي يرجع الى القرن العاشر قبل عصرنا وأيضاً في مواقع المساكن. ويوجد منجم لتعدين اليشب عند لانتانا في النيجر[٢١] ما زال مستعملاً للتصدير لنيجيريا، ويعتقد أنه قديم جداً الا أنه يصعب تحديد تاريخ أصله. ان العقود الحجرية مع ندرة توفرها تدل مع ذلك على سعي جاد للتحصل على أنواع معروفة جداً من الصخر. وقد صنعت أمثال هذه العقود بالطبع منذ عهود العصر الحجري واستمر صنعها عبر العصر الجديد الى أن استبدلت تدريجياً بالعقود الزجاجية التي كانت أرخص ويسهل صنعها أكثر وبالتأكيد أكثر وفرة.

التجارة[٢٢]

يحتمل وجود نوع من أشكال التبادل المستمر بين المجتمعات منذ مطلع العصر الحجري تقريباً. اذا جاز لنا استعمال نماذج مبنية على دراسة مجتمعات الصائدين وجامعي الغذاء الحالية كدليل فيمكننا أن نقول ان المجتمعات القديمة قد مارست تبادلاً للأحجار اللامعة أو المفيدة والعسل وفي بعض الأحيان النساء. مثل هذا التبادل الذي كان ذا اهمية اقتصادية ودينية كان لا بد أن يصبح عملاً منتظماً عندما بدأت المجتمعات في ممارسة الحياة الزراعية، مع أنه حتى في أزمنة العصر الحجري الأخير كان لا بد أن

---

(٢٠) م. بوسنانسكي، ١٩٥٩ - ١٩٧٠ ص ٢٠.
(٢١) ج.د. بوشين، ١٩٧٠، ص٦٣.
(٢٢) انظر الفصل ٢١. و.م. بوسنانسكي، ١٩٧١.

يكون صائدو الأسماك أو جامعو الغذاء من البحر أو الصيادون عامة قد مارسوا حياة مستقرة نوعاً ما وهكذا احتاجوا لحجارة لمعداتهم ومعدات أخرى لا تتوفر محلياً. ويحتمل أن يكون ما يتجر فيه هو المصنوعات العظمية ـ كحراب صيد الحيوان ـ التي تحتاج لخبرة متخصصة نسبياً. ولكن من الانصاف ان نستنتج أن الزراعة التي تعني الاستقرار أو الانتقال في مواسم أو فترات محدودة لا بد أن تكون قد تضمنت زيادة في التجارة. ويحتمل أن تكون اغلب هذه التجارة متحضرة في مجال بسيط نسبياً وذات أبعاد محلية ولكن لا بد أن تضم سلعاً مثل الملح وبعض المعدات الحجرية ومؤخراً المعدات الحديدية والعقود والمحاور ومن المحتمل كذلك أن تضم نباتات لأغراض طبية ودينية، واللحم للمجتمعات الزراعية، والحبوب والمحصولات الجذرية للتجمعات الرعوية، وأوعية أو مواد خاصة لصيد البر والبحر، والسمك المجفف وكل أنواع الأشياء النادرة مثل الحبوب الغريبة ومخالب الحيوانات والأسنان والأحجار الغريبة والعظام. . . الخ التي ربما كانت ذات اهمية سحرية والتي نجدها حتى اليوم بين البضائع المعروضة للبيع في أسواق غرب افريقيا. ولا يعرف شيء عن هذه التجارة بخلاف المعدات الحجرية المصقولة والمجارش والملح التي أشرنا اليها في القسم السابق.

الا أنه بظهور المعادن اتخذت التجارة سمة مختلفة تميز النحاس والذهب بانحصارهما في مناطق أضيق من الحجر وكان الطلب عليهما كبيراً في المجتمعات شمال الصحراء والى الشرق حول المحيط الهندي. إن وجود بعض الأصداف التي تنتمي للمحيط الهندي في مواقع حفريات أثرية في زامبيا مثل كالوندو وغوندو ترجع للفترة من القرن الرابع الى القرن السادس من عصرنا وفي مواقع غوكومر في زيمبابوي وعند سانقا في قلب القارة ـ يدلل على بداية تجارية لا تتصف بالمحلية فقط. حقيقة أن هذه الأشياء توجد في أغلب الأحيان منفردة ولربما كان هذا نتيجة تبادل من مجموعة الى أخرى بدافع حب الاستطلاع من الساحل الى الداخل، ولكن اهمية هذه الأشياء تكمن في أنها وجدت في مناطق غنية بموارد ذات قيمة للعالم الخارجي. ان وجود سبائك النحاس في مواقع وسط وجنوب افريقيا يدلل على التعقيد المتزايد في التجارة في حين أن توفر السلع وجودتها في الهضبة السنغالية وسانقا يشيران الى نجاح التجارة ونمو الهياكل الاجتماعية والسياسية التي استفادت من هذا الثراء الذي نتج. وليس هنالك سبب لنفترض أن التجارة في هذه المرحلة قد ازدهرت لدرجة كبيرة حتى عبر الصحراء ولكن شبكات الاتصال كانت قد انشئت. ولدينا أيضاً دليل ضعيف عن الأسواق أو مراكز التوزيع في افريقيا شبه الصحراوية وذلك على الرغم من ان المراجع العربية عن عاصمة غانا القديمة تشير الى احتمال وجود هذه الأسواق والمراكز قبل الازدياد الذي احدثه العرب باحتلالهم لشمال افريقيا. ولربما كانت مساكن زعماء القبائل تلعب دور مراكز التسويق، وهو اقتراح تؤيده الأشياء المختلفة التي وجدت في الهضبة الملاوية والسنغالية ولكن ويا للأسف لكي نؤرخ عن هذه الفترة علينا أن نتأمل حقائق قليلة مبعثرة.

ولقد جمعت عقود الزجاج من مواقع في زامبيا وشابا (زائير) وزيمبابوي من محتويات في النصف الأخير للألف الأولى وبالتأكيد فانها كانت مستوردة. وقد برهنت محاولة حديثة[٢٣] لتحديد تاريخ وأصل عقود «الرياح التجارية» في المحيط الهندي أنها مخيبة للآمال بعض الشيء. وقد وجدت هذه العقود في كل مكان حول المحيط الهندي من الفلبين الى الساحل الشرقي الافريقي. واقترحت عدة أماكن كمراكز تنشأ فيها صناعة هذه العقود في الشرق حيث كانت مدينة الخليل مركزاً لصناعة العقود قديماً وكذلك الهند والاسكندرية. وقد تميزت عقود «الرياح التجارية» بصغر الحجم وهي عادة عقود

(٢٣) ك. ديفيدسون، ج. د. كلارك، ص ٧٥ ـ ٨٦.

خيزران أعيد تجميعه في عدة ألوان منفردة. ورغم أن مصانع بعينها في الهند كانت تصدرها منذ القرن التاسع الا أنه يصعب ربط العقود بمصنع محدد بدون دراسة تحليلية مستوعبة. هنالك أكثر من ١٥٠٠٠٠ عقد مشابه أحضرت من أقبويوكوو واذا كان بالامكان قبول تاريخ مبكر لذلك الموقع فان ذلك يعني تجارة مزدهرة في العقود عبر الصحراء في أواخر الألف الأولى لعصرنا.

اقترح سمرز[٢٤] ان تجارة المحيط الهندي أدت الى تبني طرق البحث والتعدين الهندية في صناعة الذهب بزيمبابوي لكن هذه الآراء لاقت تأييداً ضعيفاً.

ربما كان تعدين الذهب مستمراً عند أو قبل تأثر اقليم زيمبابوي بتجارة شرق افريقيا. ان القليل الذي نعلمه عن طرق التعدين المبكرة أو تجارة الذهب في الألف الأولى، لا يسمح بربط أي منهما بالتأثير الخارجي. لقد عولجت تجارة شرق افريقيا في الفصل الثاني والعشرين وتتضح بجلاء الصلات المنتشرة حول المحيط الهندي والتي أثرت في افريقيا، ومع ان التجارة كانت منتشرة الا انها لم تكن مركزة. ولقد وجدت صعوبة في التأثير على داخل القارة قبل سنة ألف ميلادية فيما عدا وادي نهري مازوي ورافي في موزمبيق اللذين يعبران الى زيمبابوي

موضوعات بارزة في تاريخ افريقيا:

افريقيا شبه الصحراوية في الربع الأخير للألف الأولى من عصرنا

إنه من الضروري الآن أن نرى ان كان بالامكان الخروج باستنتاجات عن وضع المجتمع الأفريقي بنهاية العهد الحديدي المبكر وذلك من جملة المعلومات الوصفية التي عرضت في الفصول الثمانية الأخيرة. لقد شهدت الفترة تحول الاقتصاد الافريقي من اقتصاد صيد وجمع غذاء الى اقتصاد يعتمد اساساً على الزراعة وكانت النتيجة بالتأكيد زيادة السكان وظهور حياة الاستقرار في القرى وتوسيع الوحدات الاجتماعية. ويصعب تأكيد التراكيب الاجتماعية التي تكونت ولكن من المحتمل أنه في اغلب انحاء افريقيا فان المجتمعات كانت عبارة عن قرى صغيرة نسبياً مبنية على العلاقات القبلية ولا بد أن تكون نسب كثافة السكان صغيرة في اغلب المناطق، ولربما قبضة يد واحدة فقط لكل كيلو متر مربع. وقد استقرت المجتمعات بعد التحركات الأولية السريعة التي تلت ظهور الحديد والذي ادى الى تنظيف مناطق اشجار اكثر في افريقيا. ولدينا أدلة على انعزال هذه المجتمعات تتمثل في تشعب اعضاء مختلفين من نفس الأسر اللغوية وتزايد اختلاف أشكال الفخار والزينة التي كانت آخذة في التطور في الفترة ما بين ٦٠٠ و١٠٠٠ بعد الميلاد. ويقدر عدد سكان كل افريقيا شبه الصحراوية قبل سنة ١٠٠٠ بأقل بكثير من عشرة ملايين نسمة وذلك بناء على الدليل التاريخي الذي توفر في شمال افريقيا وعلى تخمينات مبنية على معلومات عن السكان والاحصاءات الاستعمارية. واذا كانت الاشارات في التقاليد الشفهية عن تغير المجتمعات من الانتماء الى الأم الى انتمائها الى الأب في الخمسمائة سنة

(٢٤) د. سومرز، ص ٢٥٦-٢٥٧

الأخيرة خاصة في شرق افريقيا تمثل أي دليل، فاننا نتعامل في اغلب الأحيان مع مجتمعات تنتمي الى الأم في أكثر مناطق افريقيا المدارية.

يبدو من توزيع المصنوعات الفنية الأثرية أن مناطق النباتات في غرب افريقيا شهدت استقراراً بشرياً ضعيفاً مع اختلاف وحيد محتمل هو اجزاء جنوب نيجيريا. إن المناطق قليلة السكان الآن لرقة تربتها وقلة معدل سقوط الأمطار فيها كهضبة جوس يبدو انها كانت أكثر اغراء في ذلك الوقت لأناس ذوي معرفة فنية أقل تطوراً. كانت أكثر المناطق كثافة بالسكان في الأغلب الأعم في ارض غابات السافانا والمناطق التي تسمى مناطق الغابات الجافة. ان العدد الكبير للمواقع في منطقة دلتا النيجر في مالي بين سيقو وتمبكتو حيث تغمر مياه الفيضان مساحة ١٠ ملايين كيلومتر مربع سنوياً حاملة المياه (ومزيداً من الخصب) الى الأرض التي لولا ذلك لكانت أرضاً جدبة، يدل على أن المنطقة أيضاً كانت موافقة للمزارعين والرعاة الأوائل جميعاً. في هذه المنطقة استمرت الأهمية لصيد الأسماك وتطورت التجارة سريعاً. ولقد تيسرت التجارة لسهولة النقل النهري والحاجة الى نقل بعض السلع الأساسية كحطب الحريق وخشب البناء أو الحشائش لمناطق ذات غطاء نباتي بسيط. يبدو ان هنالك أدلة قليلة على أن مناطق الغابات الجافة الأفريقية في أواسط تنزانيا وشمال يوغندا وكينيا قد احتلها مزارعون، ويصدق الشيء نفسه بالتأكيد على مناطق اكثر جفافاً والمناطق المرتفعة (مثل ليسوتو في جنوب افريقيا). ويبدو أن وديان الأنهار كالزامبيزي والكافوس وأعالي النيل وبعض شواطىء بحيرات نياسا وفيكتوريا وكيفو وكذلك البحيرات الصغيرة ـ يبدو أنها جميعاً جذبت الاستيطانات البشرية. ومع ذلك كانت أكثر المناطق المفضلة للاستقرار تلك المناطق التي توفر استغلالاً للطعام في بيئتين طبيعيتين أو اكثر (غابات وسافانا، سهل وسفوح جبال. . . الخ). كان هذا ملائماً بالذات في الطرف الجنوبي للسافانا في غرب افريقيا أو حول الغابة الزائيرية حيث يمكن منها قطع أطراف الغابات تدريجياً للحصول على الأرض للزراعة وفي ذات الوقت يغتنمون مواردها الطبيعية كصيد البر ومنتجات الأخشاب بما فيها ملابس لحاء الشجر والفواكه البرية. وقد شكلت الغابة حدوداً متحركة دخلتها مجموعات جديدة ببطء أولاً بغرض الصيد والجمع ومؤخراً بغرض الاستقرار. وعلى كل فنحن نتعامل مع مستوطنات زراعية في مناطق فيها معدل سقوط الأمطار بين ٦٠٠ ملم و١٤٠٠ ملم سنوياً. أما النشاط الرعوي والزراعة الموسمية فقد كانت بالطبع ممكنة في مناطق مثل الساحل حيث ينخفض معدل سقوط الأمطار الى ١٥٠ ملم ـ رغم وجود الضأن في مناطق تمتد جنوباً الى رأس الرجاء الصالح منذ بداية الألف، كما كانت هنالك قطعان أيضاً في أجزاء في الحزام الساحلي والحزام السوداني ـ الا ان هذه المناطق لم تكن مناطق سيطرة المجتمعات الرعوية فقط. وعندما توجد الحظائر تكون صغيرة. ويبدو أن الزراع الشماليين أكثر استعداداً للتكيف مع فترات قلة الأمطار من اولئك الذين في عالم البانتو والا فمن المحتمل أن تكون انعكاساً لأسلافهم من العصر الحجري الحديث وزراعتهم المبكرة لمحاصيل كالدخن والذرة. ولا توجد أماكن على الساحل يبدو أنها كانت كثيفة السكان وليست هنالك تقاليد قديمة للصيد الساحلي باستعمال القوارب ـ توجد تلال من بقايا المحار وعظام الأسماك وفي بعض المواقع عظام الحيوانات بامتداد نهر الكاسماني والفروع الأخرى في الاقليم السنغالي القامبي وبامتداد المستنقعات الى ساحل العاج وحول الرأس والشاطىء الشرقي لبحيرة فكتوريا (ولتون ج القديم ول. س. ب ليكي). وعلى كل فان التعرجات الساحلية هذه لم تكن كثيرة ولم يكن لها أثر يذكر على السكان في الداخل. وبناء على الوثائق التي نوقشت في الفصل الثاني والعشرين فانه لا بد أن يكون هنالك بعض مناطق الاستقرار المبعثرة على الساحل الشرقي لافريقيا ولكن ليس هنالك أي اشارات أثرية للاستيطان قبل القرن

الثامن لعصرنا حين بدأ وصول مستعمرين دائمين للساحل من منطقة الخليج الفارسي و/أو من ساحل بنادير في الصومال.

والغريب أنه من الصعب أكثر اكتشاف أي تفاصيل عن المعتقدات الدينية في هذه الفترة منه من اكتشاف تلك التي كان يعتنقها الصيادون وجامعو الغذاء السابقون لهذه الفترة في العصر الحجري الأخير. وذلك لأن هؤلاء خلفوا عدة اشارات في رسوماتهم التي تركوها على الصخور(٢٥). ويحتمل أن يكون المزارعون الأوائل قد رسموا على الصخور وقد يكونون مسؤ ولين عن الفن المنتظم الذي ظهر في أكثر مناطق شرق ووسط افريقيا خاصة في مناطق حول بحيرة فكتوريا(٢٦) وزامبيا(٢٧). ومع أننا نملك بعض الأفكار عن العهد الذي بدأ فيه هذا التقليد الفني في الانتهاء الا اننا لا نعرف من أين بدأ. ان عملية الدفن في حد ذاتها وفي كثير من الأحيان تعبير عن معتقدات دينية وان السلع التي تدفن مع الموتى تعبر في كثير من الحالات عن اعتقاد بالحاجة لهذه الأشياء في الحياة الآخرة. ليس هذا بالطبع التفسير الوحيد الممكن. ان حجم القبر وبهاء سلع القبر وسخاء الحفل المصاحب يمكن أن تستخدم في التدليل على الوضع السياسي أو الديني او الاقتصادي أو الاجتماعي لعائلة المتوفى. كما أن تدرج مراسم الدفن ربما تساعد في تحديد سلسلة النسب للمعزين الرئيسيين. الا أنه ينبغي ان يذكر، ولدينا أمثلة موازية لهذا النشاط في القرن العشرين، ان المجتمعات اللادينية تبني في كثير من الأحيان أضرحة رائعة. ولا يعني بالضرورة وجود مدافن مرتفعة مؤثرة أو نصب جنائزية اعتقاداً في إله أو مجموعة من الآلهة ولكنها تعني بالتأكيد إيماناً بالمستقبل من جانب جزء من المجتمع وتمثل اشارة سياسية بالاستمرار لفئة حاكمة أو لصفوة. إن المقابر عند بحيرة كيسالي في اقليم شابا في زائير والهضبة الضخمة في أواسط النيجر وان شواهد المقابر الضخمة لتلال المدافن في سينيقامبيا ـ لا تدل فقط على مناطق استقرار ولكن على أناس لهم الرغبة في استثمار بعض من ثروتهم ومن عملهم في النصب التذكارية للمقابر أو سلع المقابر. على أن التفسير الشامل لهذه الظواهر يجب أن ينتظر حفريات أثرية دقيقة وطباعة تقارير معتمدة على هذه المواقع.

إن نطاق بعض ممارسات الدفن فيما يختص بجهة وضع الجثة واصطفاف القبور تدلل على وجود قانون منتظم من المعتقدات. إن حجم هضبة المقابر الملاوية فقط يحتمل أن تدلل على تأسيس نظام العائلة التي إن لم تكن بالضرورة مقدسة فقد وهبت قوى الحاكم الأعلى. مثل هؤلاء كان بامكانهم الحصول أما اختياراً أو قهراً، ليس بامكاننا أن نحدد، على عمل أعداد كبيرة من الناس في منطقة محدودة السكان لتشييد هضبة طول وترها ٦٥ متراً وارتفاعها ١٢ متراً كمثل تلك التي عند الأولادزي(٢٨).

ويبدو أنه في الفترة التي نتحدث عنها، بدأت الدول في الظهور بشكل من الأشكال. كانت المنطقتان الرئيسيتان هما منطقة الحزام السوداني ومنطقة وسط افريقيا حول خطوط تقسيم المياه في لوالبا. ويحتمل أن يكون في الحزام السوداني ثلاث مناطق كانت نواة لهذه الدول، الأولى حول غانا في جنوب موريتانيا والسنغال والثانية في الأرض الداخلية لدلتا النيجر فوق سيقو، والثالثة حول بحيرة تشاد كانت كلها مناطق أصبحت فيها تجارة المسافات الطويلة ذات أهمية وكانت الزراعة قد تطورت

---

(٢٥) م. بوسنانسكي، ١٩٧٢أ، ص ٢٩-٤٤

(٢٦) ج. هـ. شابلين، ص ١-٥٠.

(٢٧) د.و. فيليبسون، ١٩٧٢أ.

(٢٨) ر. موني، ١٩٦١.

فيها قبل مناطق اخرى للجنوب. وقد قدمت عدة نظرياتٍ لتعليل ظهور الدول. واكثر النظريات انتشاراً تلك التي بنيت على أفكار صاغها أولاً فريزر(٢٩) في كتابه «الفرع الذهبي» قبل أكثر من ثمانين عاماً والتي يقول فيها ان الرباط المقدس الذي قد يزعم كثيرون أنه صفة مميزة لمجتمعات أواسط افريقيا، انتشر من مصر القديمة لربما عبر منصب صانع المطر. وهكذا كان الزعماء الأوائل قادة روحانيين ذوي جاذبية وكان مصدر الهامهم من مجتمعات مجاورة حيث يوجد نفس النوع من النظام الاجتماعي، وفي النهاية من مصدر واحد مشترك هو بالاسم مصر. ولقد هُذِبّت النظرية أخيراً بوساطة بومان(٣٠) الذي وصف خصائص الدولة السودانية ومؤخراً بوساطة أوليفر(٣١).

إن فكرة وجود «دول سودانية» التي توصلنا لها يؤيدها وصف شهود عيان من عرب العصور الوسطى لدولة غانا ودول غرب افريقيا، ومن وصف البرتغاليين من القرن السادس عشر لدول وسط افريقيا. كل هذه الروايات تركز على الغموض الذي كان يحيط بالملك واحترام رعاياه الشديد له وممارسة قتل الملك في حالة العجز أو ضعف الصحة. ويدعي أوليفر أن انتشار المحاربين الفرسان ذوي الأسلحة الحديدية أدى الى انتشار فكرة الدولة والى خلق صفوة حاكمة، طامحة الى السيطرة على الحدود وتوسيعها. وهناك عدة وجهات نظر مع ذلكِ ويعتقد أغلب دارسي الحضارة الأفريقية أن نظريات الانتشار هذه ترمي الى جلب عناصر حضارية متقدمة من الخارج من غير التحقق من احتمال حدوث تطور مستقل لهذه الدول. ويشعر نقاد نظريات الانتشار ومن بينهم الكاتب(٣٢)؛ أنه على الرغم من وجود تشابه بين احتفالات وطقوس كثير من الدول الأفريقية الا ان هنالك اختلافات اساسية. وربما كانت أكثر التشابهات نمو الالتحامات المتأخرة خاصة بعد التوسع الذي حدث للتجارة بعد انتشار الاسلام في افريقيا. وتضم بعض العوامل الأخرى المقترحة لتكوين الدولة آثار تجارة المسافات الطويلة وندرة استغلال المعادن، وهي من العوامل التي ربما ساعدت في ظهور غانا، وأيضاً المنافسة على الموارد النادرة في مناطق ذات خصوبة هامشية. هذا العامل الأخير قدمه كارنيرو(٣٣) لظهور مصر القديمة ولكن يمكن تطبيقه بذات الدرجة في البيئة السواحيلية. وبناء على هذه النظرية يمكن لجماعة بشرية بمساعدة تكنولوجيا عربية متفوقة أن تتوسع على حساب جيرانها الضعفاء الذين يصبحون هكذا اتباعاً وخدماً للمنتصرين. وبالزمن تضاف أراض اخرى وتلقائياً تصبح الجماعة المنتصرة مسيطرة على منطقة واسعة تكون هي فيها الأقلية. ولا بد أن تحتاج الى دعم سلطتها ليس فقط بالبسالة العسكرية ولكن أيضاً بخلق نظام اجتماعي تكون الصفوة العسكرية على قمته. وتزود التقاليد الشفهية وطقوس الطبقة الحاكمة الدولة بالدين الذي ربما يساعد هكذا على تأكيد وتعليل غموض سيطرتها. ولربما يصبح رئيس الصفوة، إن لم يكن كذلك في الحقيقة، السليل الوحيد أو التجسيد الثاني للفاتح الأول، ذا خصائص الهية محدودة. إن قدسية الحاكم في مثل هذا النظام ليست أصلية وانما هي مكتسبة في أغلب الأحيان ببطء وفي أكثر الأحايين عن قصد، ولكن لربما عن طريق الصدفة مراراً، كوسيلة دفاعية للحفاظ على نزاهة واستقامة الرئيس المتميزة.

---

(٢٩) ج. فريزر.
(٣٠) هـ. بومان، ويسترمان.
(٣١) ر. أوليفر، ب.م. فاجان.
(٣٢) م. بوسنانسكي، ١٩٦٦ب، ص ١-١٢.
(٣٣) ر.ل. كارنيرو، ص ٧٣٣ - ٧٣٨.

لقد نوقشت بتوسع النظرية التي تقول بأن تطور التجارة أدى لظهور الدول. وفي الأساس تؤدي التجارة الى مزيد من الثروة وان الثروة الفائضة تساعد على ظهور وتوضيح الطبقات في المجتمع. وتعطي الثروة قوى الرعاية والمقدرة على السيطرة على الأنشطة الأخرى، كاستغلال المعادن وصناعة البضائع الاستهلاكية أو انتاج الغذاء. كل هذه الأنشطة تقود الى مزيد من الثراء ولتركيز مزيد من السلطة يمكن لعلماء الآثار بالطبع اكتشاف عدد من هذه العناصر كتملك الثروة وظهور الطبقات في المجتمع اللذين يبدوان في منطقة سانقا في شابا. ويدعي بيسون[٣٤] مع ذلك أن الأدلة في منطقة سانقا عن القرن الثامن أو التاسع الميلادي تسبق دخول تجارة المسافات الطويلة للمنطقة. ومع الثراء الواضح في المنطقة فإن هنالك ندرة في الواردات ويشعر بيسون أن سبائك النحاس في شكل الصليب كانت تستعمل كعملة للأغراض العامة وانها عظمت هيبة ومنزلة الجماعة الحاكمة. وفي هذا الحال ربما تكون الجماعة الحاكمة قد استقر لها الأمر بخبرتها الزائدة في صناعة المعادن وبسيطرتها على الصناعات الرئيسية أو لأن المجتمع في حاجة للقيادة بناء على زيادة السكان في بيئة مرغوبة بالذات.

وبالتحول من النظرية الى الحقيقة، فان المنطقة الوحيدة التي يمكننا أن نؤكد عن اقتناع وجود مملكة فيها خلال الفترة التي نعالجها كانت منطقة السودان الغربي، حيث تأكد وجود مملكة غانا في حوالى ٧٠٠م وربما تكون قد تواجدت منذ ألف سنة خلت. وكان لا بد أن تكون عوامل نموها هي سيطرتها على موارد معادن قيمة (النحاس والحديد والذهب، مرتبة حسب احتمال استغلالها) وسيطرتها على تجارة الملح، ومن المحتمل أيضاً موقعها في منطقة تطور نوع اساسي من أنواع الزراعة كما يتمثل ذلك في ترتيب تيشيت. ويوجد وصف مفصل للدولة في المجلد التالي، ولكن من المحتمل أن نمو غانا القديمة لم يكن صدفة لأن بناء الأحجار الضخمة (المغلبش) السينيقامبي وتلال المدافن الغنية في السنغال كانا تطوراً معاصراً، وربما كانا جزءين منتسبين لنفس نمط النمو الاقتصادي.

وكما لاحظنا في الفصول السابقة فانه لا توجد نهاية متماثلة للفترة التي نعالجها كما هو الحال في شمال افريقيا. ومع ذلك فان وصول العرب الى شمال افريقيا كان لا بد أن يؤثر بطريقة مباشرة أو غير مباشرة على كثير من غرب افريقيا وشرقها. ولقد رأينا أنه بحلول سنة ٨٠٠م كان أغلب افريقيا ما زال في العصر الحديدي. كان حد الغابة يتآكل تدريجياً نتيجة لانتشار الزراعة في غرب افريقيا وفي جنوب وسط افريقيا. كان تعداد السكان في ازدياد. لقد اكتنف الطور الأول للثورة الزراعية توسعاً سريعاً لمجموعات صغيرة للزراع الباحثين عن أراضٍ صالحة للزراعة والذين تحصلوا على جزء كبير من غذائهم عن طريق استعمال الطرق القديمة التي سبق تجربتها والتي استعملها أسلافهم في العصر الحجري للصيد وجمع الغذاء. وكانت أغلب معدات صيدهم مثل معدات صيد أسلافهم: من شباك وسنارات من العظم أو القرن وحراب خشبية وسهام وربما ما زالت تصنع لها نصال في بعض الأحيان من الميكروليز أو الرؤوس الحادة لقرون الوعول أو مواد طبيعية مشابهة. وفي أحايين قليلة يضاف اليها لزيادة فعاليتها، وان كانت مكلفة، نصال سهام حديدية وسنارات لصيد السمك سريعة الصنع. ولزم كذلك أن تكون عقائدهم وأساطيرهم مشتقة من ديانة وأساطير أسلافهم ولكن كلما أصبحت الحياة اكثر استقراراً تطورت معتقدات جديدة مبنية على أسرار الزراعة وصناعة المعادن. ولربما كانت بعض هذه المعتقدات قد اصبحت ديانات لأولئك الناس الذين أوصلوا هذه المعتقدات الجديدة. لقد كان مزارعو العصر الحديدي أكثر ابداعاً، يصنعون الآنية، وينحتون الطبول، ويصنعون السلال،

(٣٤) م.س. بيسون، ص ٢٨٨ - ٢٨٩.

ويصهرون الحديد ويسبكون الآلات. كانت طقوسهم وموسيقاهم، كما يحتمل، اكثر اتقاناً وتراثهم المادي أكثر تنوعاً وشعورهم بالتقاليد وباستمرارية المجتمع أكثر رسوخاً وثباتاً. وقد حدثت تغيرات اساسية في المجتمع، أثرت بلا شك في كل الحقب التالية من تاريخ افريقيا.

ملحق:

تقرير عن ندوة «عمران مصر القديمة بالسكان وفك رموز الكتابة المروية».

القاهرة، ٢٨ يناير (كانون الثاني) - ٣ فبراير (شباط) ١٩٧٤: تقرير موجز (١)

عقدت الندوة على مرحلتين: الأولى في الفترة من ٢٨ الى ٣١ يناير (كانون الثاني) ١٩٧٤ واختصت «بعمران مصر القديمة بالسكان» وعقدت الثانية التي تعالج «فك رموز الكتابة المروية» في الفترة من أول فبراير (شباط) حتى ٣ فبراير (شباط) ١٩٧٤.

واشترك فيها كل من:

الأستاذ عبد القادر م. عبدالله	(السودان)
الاستاذ عبد المنعم أبو بكر	(جمهورية مصر العربية)
السيدة ن. بلان	(فرنسا)
الاستاذ ف. ديبونو	(مالطة)
الاستاذ ج. ديفيس	(فرنسا)
الاستاذ الشيخ انتا ديوب	(السنغال)
الاستاذ غلاب	(جمهورية مصر العربية)
الاستاذ لبيب حبشي	(جمهورية مصر العربية)
الاستاذ ر. هولتشر	(فنلندا)
السيدة ج. غوردون جاكيه	(الولايات المتحدة الأمريكية)
الاستاذ س. حسين	(جمهورية مصر العربية)
الاستاذ كايزر	(جمهورية المانيا الاتحادية)
الاستاذ ج. لكلان	(فرنسا)

(١) قام باعداد التقرير الحالي، وهو عبارة عن نسخة مختصرة من التقرير النهائي للندوة، مقرر اللجنة العلمية الدولية بناء على طلب اللجنة لكي يلحق بهذا المجلد. وقد نشرت أعمال الندوة في سلسلة «تاريخ افريقيا العام - دراسات ووثائق» رقم ١، اليونسكو، باريس ١٩٧٨.

الاستاذ جمال مختار (جمهورية مصر العربية)
الاستاذ رشيد الناضوري (جمهورية مصر العربية)
الاستاذ ث. أوبنجا (جمهورية الكونغو الشعبية)
الاستاذ س. سونيرون (فرنسا)
الاستاذ ت. ساف سودربرج (السويد)
الاستاذ ب.ل. شيني (كندا)
الاستاذ ج. فيركوتير (فرنسا)

ودعي الاستاذ هنتزا (جمهورية المانيا الديمقراطية)، والاستاذ كنوروسوف والاستاذ بيتروفسكي (اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفييتية) والاستاذ كي زيربو (فولتا العليا) للاشتراك في الندوة ولكنهم لم يتمكنوا من الحضور وأرسلوا اعتذاراتهم.

وطبقاً لقرارات اللجنة العلمية الدولية حضر الاستاذ ج. ديفيس مقرر اللجنة وأعد التقرير النهائي للندوة.

ومثل اليونسكو السيد موريس جليلي اخصائي البرامج بقسم الدراسات الثقافية ممثلاً للمدير العام والسيدة مونيك ميلسير الموظفة بقسم الدراسات الثقافية.

ـ ندوة عن «عمران مصر القديمة بالسكان»

اتخذ أساساً للمناقشة بحثان سبق أن كلفت اليونسكو باجرائهما كلاً من الاستاذ ج. فيركوتير والسيدة ن. بلان(١).

ويمكن تقسيم المناقشة الى ثلاث مراحل هامة:
ألف ـ تقديم ملخص للبحوث التمهيدية.
باء ـ البيانات الأولية التي ادلى بها معظم المشتركين.
جيم ـ المناقشة العامة.

ملخص البحوث التمهيدية

١ ـ استرعى الاستاذ فيركوتير الانتباه الى عدد من النقاط التي تناولها بمزيد من التفصيل في تقريره المكتوب، وأورد طائفة أخرى من الملاحظات التي تتحصل فيما يأتي:
(أ) على الرغم مما أحرز مؤخراً من تقدم في مجال الانثروبولوجيا الطبيعية فان ذلك العلم لم يزودنا حتى الآن الا بقدر ضئيل نسبياً من البيانات التي يمكن التعويل عليها، اللهم الا فيما يتعلق بالنوبة. فالمعلومات المتاحة لا تكفي لامكان استخلاص نتائج أولية بشأن سكان مصر القديمة والمراحل المتعاقبة التي مروا بها. وفضلاً عن ذلك فان هذه المعلومات تفتقر الى التجانس،

(١) أرفقت هاتان الوثيقتان بالتقرير الختامي، ١٩٧٤.

سواء فيما يتعلق بالزمان أو بالمكان، وكثيراً ما اختلف المؤرخون في كيفية تفسيرها. بل ان المناهج نفسها تثير بعض التساؤلات. ولكن هناك اتفاقاً عاماً في الوقت الراهن على أن علم قياس الجماجم لا يفي بما تتطلبه هذه البحوث.

ولا يزال هناك عدد من المناطق التي لم تدرس بعد دراسة متعمقة. وينطبق هذا على الدلتا بأسرها في عصري ما قبل الأسرات وبداية الأسرات، كما ينطبق على الوجه القبلي في العصور السابقة على العصر الحجري الحديث. وقد عرف قدر ضئيل من المعلومات عن المنطقة الواقعة بين الجندل الثاني والجندل السادس في العصر الحجري الحديث وعصر بداية الأسرات. كما لم تحظ الروابط التي كانت قائمة في الأزمنة القديمة بين الصحراء الكبرى ودارفور والنيل، الا بقدر ضئيل للغاية من الدراسة.

وما زالت البحوث التي اجريت في هذا الشأن متخلفة عن البحوث التي أجريت في شمال أفريقيا وفي منطقة سوريا وفلسطين. ولا تسمح الأدلة المتاحة في الوقت الحالي بالجزم بأن سكان شمال مصر كانوا يختلفون عن سكان جنوبها. كما ان الفجوة الموجودة بين العصر الحجري القديم والعصر الحجري الحديث ربما كان مرجعها عدم كفاية البحوث التي اجريت في هذا المجال حتى الآن.

(ب) لم تستخدم الرسوم والتماثيل استخداماً كافياً مرضياً، واعتمدت الدراسات التي اجريت اعتماداً اساسياً على معايير ثقافية، وذلك بالرغم من أن الرسوم والتماثيل تتسم بخصائص شديدة الأهمية ابتداء من الأسرة الثامنة عشرة وما بعدها.

(ج) تتلخص النظريتان المتعارضتان في اكثر اشكالها تطرفاً في:

(١) كان الشعب الذي يعيش في مصر منذ وقت مبكر يرجع الى عصر ما قبل الأسرات، شعباً «أبيض»، على الرغم من أن بشرته كانت داكنة أو حتى سوداء. ولم يظهر الزنوج في مصر الا ابتداء من عصر الأسرة الثامنة عشرة وما بعدها.

ويرى البعض أن السكان لم يتغيروا منذ عصر بداية الأسرات، في حين يرى البعض الآخر ان التغلغل الأجنبي في أفريقيا قد غير من ظروف الحياة الثقافية تغييراً عميقاً.

(٢) سكن الأفارقة السود مصر القديمة «منذ بداية العصر الحجري الحديث حتى نهاية عصر الأسرات الوطنية».

٢ ـ أوردت السيدة بلان ما توصلت اليه في بحوثها فيما يلي:

(أ) تدرك السيدة بلان أن عملية تدوين تاريخ وديان النيل كانت ترتكز، لأسباب هي في حد ذاتها تاريخية، على فرض مؤداه أنه كان يوجد واد مصري متحضر ينطوي على ثروة من الشواهد التاريخية، وواد آخر أبعد منه جنوباً يسكنه قوم من السود البدائيين ولا يهم الا علماء الانثروبولوجيا. وتأمل السيدة بلان ان تتسم البحوث التاريخية المتعلقة بالوادي في مجموعه بمزيد من التوازن في المستقبل. وهذا يعني التخلي عن الأساليب التاريخية التقليدية، وتوسيع مجال البحث بغية الأخذ بمنهجية جديدة. وقد رأت السيدة بلان ان العمل الذي كان يجري في النوبة طوال السنوات العشرين الأخيرة أو نحوها يمثل خطوة اولى نحو اعادة بحث الموضوع المطروح على الندوة.

(ب) رغبة من السيدة بلان في اجتناب النظرة التقليدية لوادي النيل التي تقوم على تتبع التطور التاريخي من الشمال الى الجنوب، ومن المناطق الأكثر تحضراً الى المناطق الأقل تحضراً،

استرعت الانتباه الى مناطق النيل الواقعة بين خط العرض الثالث والعشرين وبين منابع النيل في أوغندا. وراعت في التحليل الذي اجرته خط التقسيم الذي اعتبرته ذا اهمية اساسية من الناحية الايكولوجية والذي يتمثل في خط العرض العاشر حيث توقف تقدم الاسلام.

ومن الواضح انه كان من الممكن ان يلعب نهر النيل ، باعتباره طريقاً مائياً صالحاً للملاحة، في المنطقة الواقعة بين خطي العرض الثالث والعشرين والعاشر، دوراً مماثلاً للدور الذي لعبه في الشمال الأقصى في مصر. ولكن هذا لم يحدث. ولا ريب ان السبب الرئيسي في ذلك يرجع الى الأوضاع الايكولوجية في هذه المنطقة من النهر.

ومضت السيدة بلان فأجرت في ضوء هذه الحقيقة دراسة شاملة لما ساهم به كل من السكان المستقرين والرحل في جميع انحاء المنطقة التي تجري دراستها.

ولكنها بعد تتبعها لتاريخ التغييرات السكانية منذ وصول العرب المسلمين، ركزت بصفة خاصة على اعادة النظر في الافتراضات المتعلقة بسكان المنطقة قبل وصول العرب المسلمين اليها. وأكدت ان وادي النيل سهل الاتصال بغرب افريقيا وبالمنطقة الافريقية الواقعة جنوب الصحراء الكبرى، وان من المعقول افتراض ان الحضارات التي بزغت هناك ربما كانت حضارات أفريقية أصيلة وليست حضارات وسيطة بين عالم البحر المتوسط وافريقيا السوداء.

أما دارفور الواقعة في الغرب، فلا يعرف الا القليل عن نظامها الاجتماعي والسياسي قبل القرن السابع عشر، ومع ذلك فقد لعبت دوراً هاماً كمركز اقليمي للتطور الاقتصادي. أما في الشرق، فيقع اقليم سنار الذي سكنه «الفونج» والذي كان مركزاً «لسلطنة من السود» لم تكن اصلاً عربية ولا اسلامية.

اما المنطقة الواقعة بين نهر النيل والبحر الأحمر، والتي كانت تشغلها قبائل «البجة»، فقد كانت منطقة تكفي بالكاد للقيام بأود السكان المتوطنين بسبب ظروفها الايكولوجية القاسية.

والى الجنوب من خط العرض العاشر، كانت الظروف الايكولوجية تختلف اختلافاً تاماً. فلقد كان يقطن هذه المنطقة سكان منعزلون لا يعرف عنهم الا القليل، سواء عن طريق البحوث الأثرية أو عن طريق التراث المنقول. اما الافتراضات التي تقدم في الوقت الراهن بشأن سكان هذه المنطقة وتاريخها فلا ينهض لتأييدها الا عدد قليل من الأدلة، ولم تجر دراسات تاريخية بشيء من التعمق الا في المناطق الأبعد منها جنوباً، أي في منطقة ما بين البحيرات في شرق أفريقيا.

البيانات الأولية التي أدلى بها المشتركون

١ ـ تحدث الاستاذ ساف ـ سودربرج عن الحفائر الاسكندنافية في السودان في الفترة من ١٩٦٠ الى ١٩٦٤ . وقد أثبتت هذه الحفائر وجود صلات بين وادي النيل وشمال أفريقيا والصحراء الكبرى. واشتملت الموضوعات الواردة في المطبوعات [١] على ٧٠٠٠ رسم على الصخر وعلى

(١) انظر مطبوعات «البعثة الاسكندنافية المشتركة الى النوبة السودانية» (وبصفة خاصة المجلد ١ «الرسوم على الصخر» والمجلد ٢ «المواقع الخاصة بعصر ما قبل الأواني الفخارية» والمجلد ٣ «مواقع العصر الحجري الحديث والمجموعة أ»، والمجلد ٩ «الرفات الآدمي»).

نتائج تحليل رفات ١٥٤٦ شخصاً. وحدد فان نلسن (في المجلد ٩) العلاقات بين المجموعة (أ) والمجموعة (ج) ومجموعة الدولة الحديثة وهلم جراً. وتمخضت المقارنة عن نتائج متباينة تبعاً لما اذا كان قد اقتصر على استخدام علم قياس الجماجم وحده ام استخدمت الأساليب الانثروبولجية والتقنية في مجموعها. وقد جاءت دراسة الصور والتماثيل والدراسات الانثربولوجية الطبيعية مؤيدة للفكرة القائلة بأنه قد حدثت هجرة من جانب سكان الصحراء الكبرى ومجموعات قادمة من الجنوب، وانه قد كانت للمذكورين اتصالات واسعة بالمصريين القدماء ايضاً. وفيما يتعلق بالعصر الحجري الوسيط، كان لا بد من اجراء مقارنات على أساس فحص عدد يقل قليلاً عن ١٠٠ هيكل عظمي. وكان من المستحيل التوصل الى نتائج صحيحة فيما يتعلق بالنوبة. على انه امكن التوصل الى معلومات أدق عن العصر الحجري الحديث.

وعلى أي حال، يرى الاستاذ ساف ـ سودربرج أن من المتعذر الاستناد الى الفوارق العنصرية في دراسة سكان مصر في العصور القديمة أو في أية دراسة أخرى مماثلة. ولا بد في المستقبل من اتباع اساليب اخرى للبحث. فالثقافات المتباينة اذا كانت متعاصرة ولكنها منعزلة عن بعضها، فانها قد تنتمي رغم ذلك الى نفس المركّب التقني. وقد جاء هذا الاسلوب الجديد مؤكداً ان مصر كانت افريقية. ولكن اذا نظر المرء الى ما وراء هذه النتيجة بدا له ان هناك مشكلات اخرى كثيرة. فنقادة الأولى ونقادة الثانية لا تنتميان الى نفس المركب التقني للنوبة أو السودان المعاصر. وفي السودان، تشكل المنطقة الممتدة من كسلا الى تشاد ومن وادي حلفا الى الخرطوم وحدة تركيبية تقنية واحدة كبيرة. كما ان المجموعة «أ» تمثل مركباً تقنياً آخر احدث، في المنطقة الواقعة بين الجندلين الأول والثالث وربما فيما وراء هذه المنطقة.

٢ ـ وعرض الاستاذ الشيخ انتا ديوب آراءه بتوسع، ولخص بحثاً مكتوباً استخلص منه النقاط الرئيسية التالية:

(أ) أسفرت البحوث التي أجريت في مجال الأنثروبولوجيا منذ مكتشفات العلّامة ليكي عن نتيجة مؤداها أن الجنس البشري نشأ أولاً في أفريقيا في منطقة منابع النيل، أما قانون جلوجر الذي يفترض انه ينطبق على الجنس البشري كما ينطبق على غيره من الأجناس، فقد قرر أن الحيوانات ذوات الدم الحار التي تطورت في مناخ دافىء رطب تتسم ببشرة داكنة. ومن ثم، فان أقدم الكائنات البشرية على الأرض كانت زنجية ومتجانسة من الناحية الأثنية. وقد انتشر السكان من هذه المنطقة الأصلية ووصلوا الى سائر مناطق الأرض عن طريقين اثنين فقط هما وادي النيل والصحراء الكبرى.

وقد حدث هذا الانتشار في وادي النيل متجهاً من الجنوب الى الشمال في حركة تدريجية في الفترة ما بين بداية العصر الحجري القديم والمرحلة السابقة مباشرة على عصر التاريخ المدون.

وحتى الاستاذ ماسولار توصل الى نتيجة مؤداها ان سكان مصر القديمة ربما كانوا يتكونون من ثلاثة عناصر مختلفة على الأقل، وهي: الزنوج ويصل عددهم الى اكثر من ثلث مجموع السكان، وشعب البحر المتوسط والشعب ذو النمط الكرومانيوني. واستدل الاستاذ ديوب من هذا على ان سكان مصر كانوا اساساً من الزنوج خلال عصر ما قبل الأسرات. ويتعارض هذا الاستنتاج مع النظرية القائلة بأن العنصر الزنجي انتشر في مصر في عصور متأخرة.

وهناك هياكل عظمية بها بقايا ملتصقة من الجلد منذ ازمان قديمة جداً قبل ممارسة التحنيط، اكتشفها اليوم سميث، ويوجد بهذه البقايا كما يقول الاستاذ ديوب قدر كاف من الصبغة القاتمة يسمح بالقطع بأن جلودهم كانت زنجية اللون.

ورغبة في التماس دليل يؤكد هذه النتيجة، قام الاستاذ ديوب بدراسة عدد من العينات التي اجرى عليها اختباراً معملياً في دكار، وقوامها عيّنات من الجلد أخذت من مومياءات عثر عليها في حفائر ماريبت. وقد ثبت من فحصها جميعاً انها تحتوي على كمية كبيرة من الصبغة الداكنة بين البشرة والجلد (ودعا الاستاذ ديوب الخبراء الحاضرين لفحص هذه العينات). وقد ظلت الصبغة الداكنة التي لم يكن لها وجود في الجلد الأبيض، ملايين السنين (بغض النظر عما يتردد كثيراً من تأكيدات مناقضة)، وهو ما يتضح من فحص جلود الحيوانات الحفرية. ويأمل الاستاذ ديوب أن تتهيأ له فرصة اجراء أبحاث مماثلة على جلود الفراعنة الذين يضم المتحف المصري مجموعة مومياءاتهم.

واستطرد فقال ان اجراء دراسة انثروبولوجية حاسمة ينبغي ان يشمل أيضاً اجراء قياسات للعظام واختبار لفصائل الدم. ومن المدهش مثلاً ان المصريين في العصر الحاضر وخاصة في الصعيد ينتمون لنفس فصيلة الدم «B» التي ينتمي اليها سكان غرب أفريقيا وليس لفصيلة الدم «A2» التي هي من خصائص الجنس الأبيض.

(ب) الرسوم والتماثيل: رأى الاستاذ ديوب استناداً الى الرسوم والتماثيل الهامة والتعريفات التي أوردها بحثه، انه لا ضرورة للخوض في التفاصيل التي تفرق على سبيل المثال، بين الزنوج وغيرهم من الأشخاص ـ الأرستقراطيّين ـ في المقبرة الواحدة: اذ يرجع هذا الفارق في طريقة التصوير الى سبب اجتماعي. فعامة الناس يختلفون من حيث طريقة تصويرهم عن أفراد الطبقة الحاكمة.

(ج) ومضى الاستاذ ديوب فتحدث عن الدليل الذي ساقته المصادر القديمة المكتوبة مبيناً أن الكتاب الاغريق واللاتين وصفوا المصريين بأنهم زنوج. وأشار الى شهادة هيرودوت وأرسطو ولوسيان وأبوللو دورس واسخيلوس وأخيل تاتيوس وسترابو وديودور الصقلي وديوجين لارتيوس واميانوس مارسللينوس. وقال ان العلماء المحدثين رفضوا الأخذ بما ورد في هذه الكتابات. وعلى العكس من ذلك تحدث احد كتاب القرن الثامن عشر وهو «فولني» عن سكان مصر بوصفهم زنوجاً. يضاف الى ذلك ما درج عليه الكتاب المقدس من اعتبار سكان مصر منحدرين من نسل حام. ويرى الاستاذ ديوب ان علم المصريات نتاج استعماري، ويتعين عليه أن يقدّم تفسيراً لأمور كثيرة للغاية عندما ينكر الحقائق التي اشار اليها.

(د) واتجه الإستاذ ديوب بعد ذلك الى الاسلوب الذي به وصف المصريون أنفسهم. فهم لم يستخدموا لهذا الغرض الا لفظة واحدة هي «كمت» KMT[١] وهي تمثل في لغة الفراعنة أقوى كلمة تدل على السواد، وقد ترجمها الاستاذ ديوب بـ «الزنوج»، وعلى ذلك فان هذا اللفظ الهيروغليفي لم يكن يكتب بمادة الحراشف القرنية التي تغطي ظهر التمساح بل بقطعة من الفحم النباتي.

٣ ـ وقدم الاستاذ ديبونو استعراضاً ضافياً للمعلومات التي وردت في المجلد الأول.

(١) اشتقت من هذه الكلمة لفظة «حامي» التي إستخدمت كثيراً بعد ذلك. وقد وردت في الكتاب المقدس أيضاً مكتوبة على هذا النحو: «حام»

٤ ـ ويدأ الاستاذ لكلان بالتأكيد على الطابع الافريقي للحضارة المصرية. على انه كان من الضروري التفرقة بوضوح، كما فعل الاستاذ فيركوتير بين «العنصر» والثقافة.

والواقع ان علم الانثروبولوجيا الطبيعية كان ما زال في طور الطفولة في مصر، ومع ذلك فلم يكن هناك ما يسوغ الاستناد الى دراسات شانتر واليوت سميث، وسيرجي والدكتور ديري التي عفى عليها الدهر. يضاف الى ذلك انه قد تمت فعلاً اعمال هامة في مجال اعادة صياغة المعارف الجارية، كالأعمال التي اضطلع بها فريزنسكي(٢). كما أبدت المجموعات العاملة في النوبة اهتماماً كبيراً بعلم الانثروبولوجيا الطبيعية. وقد ترتب على ذلك نتيجة غريبة مؤداها ان اصبحت النوبة التي اشتهرت «بفقرها» في الآثار معروفة أكثر من مصر بكثير في هذا المجال(١). وتولي البعثات الأثرية دراسة العظام أهمية كبيرة الآن، وهذا أمر جديد يستحق الكثير من الترحيب(٢).

وفي مجال الدراسات الحضارية، يمكن القول أن النقوش على الأحجار، التي تبين وجود درجة هائلة من التشابه بينها من البحر الأحمر الى الأطلنطي، تستحق أن تدرس بعناية وقد تخلفت هذه النقوش عن جماعات ثقافية متعاقبة من صيادين أو رعاة أو سواهم.

وتعتبر مشكلة عمران مصر القديمة بالسكان مشكلة ضخمة، ومن السابق لأوانه جداً في هذه المرحلة اتباع نهج اجمالي لحلها. فلا بد من التصدي للمشكلة عن طريق دراسات مفصلة دقيقة. ولذلك فانه لا غنى عن تعاون اخصائيين في المجالات التي لم تمثل في هذه الندوة. ذلك ان كل المشتركين فيها هم من «المؤرخين العموميين» المؤهلين لتجميع المعلومات الواردة من المختصين والتأليف بينها. غير ان هذه المعلومات لم تعد كافية بالمرة في الوقت الحالي.

وعلى اي حال، فليس من المقبول ان نستند الى آراء علماء مضى اليوم زمانهم تماماً من أمثال لبسيوس أو بتري. فربما بقيت لهم أهمية «تاريخية»، ولكن علم المصريات قد تقدم تقدماً واسعاً منذ أن كتبوا بحوثهم.

اما فيما يتعلق بالأدلة المستمدة من الرسوم والتماثيل فلقد كانت المشكلة الوحيدة تتمثل في معرفة نظرة المصريين الى أنفسهم بالنسبة للشعوب الأخرى. فلقد سموا أنفسهم رمت RMT بمعنى أناس، بينما اعتبروا الشعوب الأخرى كتلة غير منتظمة الشكل ممتدة في جميع الاتجاهات التي تدل عليها الجهات الأصلية الأربع. ففي تماثيل الأسرى في سقارة مثلاً (الأسرة السادسة، ٢٣٠٠ق.م) يبدو قسم من هؤلاء الأسرى في صورة قوم شماليين (آسيويين وليبيين) ويبدو قسم آخر في صورة قوم جنوبيين (نوبيين وزنوج). ويؤكد تصوير أنماط الشماليين (البيض)، والجنوبيين، (الزنوج) تحت نعال فرعون هذا المعنى.

٥ ـ وتكلم الاستاذ غلاب عن العناصر المتتالية التي يمكن التعرف عليها بين سكان أفريقيا في الفترة من العصر الحجري القديم الى الألف الثالثة قبل الميلاد.

---

(٢) مجلة الجمعية الجغرافية المصرية العدد ٣١، ١٩٥٨، ص٧٣ ـ ٨٣ Bulletin of the Egyptian Geographical Society

(١) أشار الاستاذ لكلان لأعمال نلسن، وستروهال، وارميلاجوس، وزروجالسكي، وبرؤمينسكه، وشملا، وبللي.

(٢) انظر مقالة هامة حديثة لـ: D.P. Van Gerven, D.S. Carlson and J. Armelagos

التاريخ العنصري والتكيف الحيوي والحضاري لسكان النوبة القدماء.

Racial History and Bio-cultural Adaption of Nubian Archeological Populations.

في مجلة التاريخ الافريقي JAH, vol. XIV, No. 4, 1973, pp. 555-564 المجلد الرابع عشر، العدد رقم ٤، ١٩٧٣، ص ٥٥٥ ـ ٥٦٤.

ففي شمال شرق افريقيا، عثر في وادي النيل والواحات، على كمية كبيرة من الأدوات الحجرية التي ترجع الى العصر المطير الثاني، وتعرف الاستاذ غلاب على ما لا يقل عن ست فئات سلالية بين سكان مصر في خلال العصر الحجري الوسيط. وقد كانت تربط بين هذه السلالات مع ذلك ثقافة متجانسة. وهو يرى ان الجنس البشري كان يتسم في العصر الحجري القديم بدرجات متفاوتة من التجانس، كما انه كان «قوقازياً». وكان أول نوعين من الزنوج في أفريقيا هما «انسان اسلر» و«انسان ام درمان». وفي أواخر العصر الحجري القديم ظهر العنصر الأسود من المحيط الأطلسي حتى البحر الأحمر. ومع ذلك فقد وجدت بين المصريين الأوائل آثار «البوشمن» الذين تغيرت بعض خصائصهم نتيجة لتكيفهم مع الظروف البيئية للبحر المتوسط. وحتى يومنا هذا، توجد آثار هذا النوع من «البوشمن» بين سكان مصر. اما الحضارة الزنجية، فالواقع انها لم تظهر قبل العصر الحجري الحديث.

٦ ـ ولا يرى الاستاذ عبد القادر م. عبدالله أهمية لمحاولة اثبات ما اذا كان المصريون القدماء سوداً أو شبه زنوج، اما الأمر الرائع والجدير بالملاحظة حقاً فهو درجة ما بلغوه من حضارة. ولقد أوضحت الأدلة المستمدة من الرسوم والتماثيل ان اصحاب حضارة «نباتا» لم تكن تجمعهم بالمصريين اية صفات مشتركة، اذ ان خصائصهم التشريحية مختلفة تماماً. فاذا كان المصريون سوداً فماذا كان لون أصحاب حضارة نباتا؟

وعرج الاستاذ عبدالله على موضوع اللغة، فقال ان كلمة كم KM لا تعني «اسود» وأن مشتقاتها لا تشير الى لون الأشخاص. وساق بدوره أدلة لغوية ليوضح نظريته التي تختلف عن نظرية الاستاذ ديوب. وانتهى الى ان اللغة المصرية لم تكن لغة افريقية خالصة، بل تنتمي الى مجموعة اللغات السابقة على السامية، وهو ما يمكن اثباته بكثير من الأمثلة المؤيدة. ويرى الاستاذ عبدالله ان الأمثلة اللغوية التي ذكرها الاستاذ ديوب لم تكن مقنعة ولا حاسمة وأن من المجازفة محاولة اثبات وجود تلازم حتمي بين لغة معينة وبنية اثنية معينة أو افراد معينين. وأي مقارنة بين لغة ميتة ولغات حية،لا بد وأن تؤدي الى نتيجة غير قاطعة. اما اوجه الشبه التي جرت الاشارة اليها فهي وليدة الصدفة. ولم يعرف شيء حتى الآن عن تطور اللغات الأفريقية القديمة. والواقع ان الدليل الذي سيق تأييداً لنظرية القرابة هو أدعى بكثير الى تأييد نظرية انتشار اللغة المصرية القديمة في أفريقيا منه الى تأييد قرابتها للغات الأفريقية الحالية، فلماذا يفترض وجود ارتباط بين اللغة المصرية القديمة ولغة الولف، ولا يفترض وجود مثل هذا الارتباط بين اللغة المصرية القديمة واللغة المروية مثلاً؟ هذا مع العلم بأن لغة نباتا واللغة المروية كانتا على طرفي نقيض.

وأعرب الاستاذ عبدالله عن أمله في مواصلة البحث بأدق صورة ممكنة.

(أ) ورأى ان من المستحيل محاولة ايجاد اية رابطة تلقائية بين مجموعة اثنية معينة ونظام اجتماعي ـ اقتصادي ولغة معينين.

(ب) ومن المستحيل التوصل الى نتائج سليمة من وجهة النظر العلمية عن طريق عمل يجري «على نطاق واسع». فلا تكاد توجد أمثلة في التاريخ خالية من الغموض بشأن الهجرات الكبيرة التي صاحبت التغيرات الحضارية الهامة.

(ج) ويفتقر مفهوم «الزنجي» في الوقت الراهن الى التحديد الواضح من وجهة نظر علماء الانثروبولوجيا الطبيعية. ولا يدل أي هيكل عظمي على لون الجلد، وانما العنصران الهامان في هذا المقام هما الأنسجة والجلد نفسه دون غيرهما.

(د) ومن الضروري التعمق في دراسة علم الأمراض القديمة وكذا العادات الجنائزية دون ابطاء.

٧ ـ وتدخل الاستاذ سونيرون في المناقشة الحامية التي دارت حول المسائل اللغوية بين الاستاذين عبدالله وديوب، فقرر أن لفظة «كم» KM المصرية (ومؤنثها «كمت» KMT) تعني «أسود»، وان جمع المذكر لها هو «كمو» KMU وان جمع المؤنث هو «كمنت» KMNT.اما لفظة «كمتيو» KMTYWفلا تعني الا شيئين هما: الذين من «كمت»، اي سكان كمت (البلد الأسود). وهي صفة نسبة اشتقت من لفظة جغرافية وأصبحت اسم علم، وليس من الضروري بالمرة تفسيرها وفقاً لمعناها الأصلي (قارن: فرانك، فرنسا، فرنسي).

ولو أراد المصريون وصف «شعب اسود» لقالوا «كمت» KMT أو «كمو» KMUوليس «كمتيو» KMTYW. وهم، على أي حال، لم يستخدموا هذه الصفة أبداً للدلالة على السكان السود المقيمين في الأراضي الأفريقية النائية الذين سمعوا عنهم منذ عصر الدولة الحديثة وما بعدها، كما لم تجر العادة لديهم عموماً على استخدام أسماء الألوان للدلالة على الشعوب المختلفة.

٨ ـ وعاد الاستاذ أوبنجا بدوره الى موضوع الأدلة اللغوية الذي بدأه الاستاذ ديوب[١].

(أ) بعد أن انتقد الاستاذ أوبنجا نهج الاستاذ جرينبرج استناداً الى الأعمال الحديثة التي قام بها الاستاذ ايستفان فودور[٢]، وبعد أن اشار الى انه منذ قيام فرديناند دي سوسير بأبحاثه اصبح من الحقائق المقبولة استخدام الدليل اللغوي باعتباره أوضح الأساليب لاثبات وجود علاقة ثقافية بين شعبين أو اكثر؛ حاول الاستاذ اوبنجا أن يقيم البرهان على وجود علاقة لغوية عضوية بين اللغة المصرية (المصرية القديمة والقبطية) وبين اللغات الزنجية ـ الافريقية الحديثة.

فقال انه لا بد للمرء قبل اجراء أي مقارنة أن يتذرع بالحذر خشية الخلط بين العلاقة اللغوية الرمزية التي لا تقدم أي مفتاح يلقي الضوء على اللغة الأم السابقة المشتركة التي انبثقت منها اللغات التي تجري مقارنتها، وبين العلاقة العضوية. فعلى سبيل المثال، توجد أوجه شبه من الناحية الرمزية بين اللغة الانجليزية الحديثة وبين اللغة الصينية. أما من الناحية العضوية، فاللغتان تنتميان الى عائلتين لغويتين مستقلتين تماماً. كما رفض الاستاذ اوبنجا فكرة وجود لغة مختلطة قائلاً ان هذا هراء لغوي.

وتعتمد العلاقة العضوية على تحديد قوانين للصوتيات تكتشف عند اجراء مقارنة بين الأشكال والأصوات في اللغات المتشابهة. ويمكن على اساس هذا الأخذ والعطاء بين اللغات في الشكل واللفظ والصوت الوصول الى الأشكال المشتركة بينها والسابقة عليها. وقد أمكن بهذه الطريقة اعادة تركيب لغة هندية ـ أوروبية ـ من الناحية المجردة ـ استخدمت كنموذج عملي، فدلت على وجود تركيبات اجمالية حضارية عامة تشترك فيها اللغات التي تطورت بعد ذلك متخذة سبلاً مستقلة.

(ب) واسترعى الاستاذ أوبنجا الانتباه الى اوجه الشبه الرمزية الهامة في قواعد اللغة فصيغة المؤنث تنشأ باضافة لاحقة حرف التاء (T)، وجمع الأسماء يكون باضافة لاحقة حرف الواو W(ou,u). ثم حلل الأشكال الكاملة للكلمات وأشار الى اوجه الشبه بين ما تضمنته اللغة المصرية القديمة وعدد كبير من اللغات الافريقية. وكان التوافق بين اللغة المصرية ولغة الولف تاماً. وخلص الأستاذ اوبنجا من هذه السلسلة من الأدلة الى نتيجة مؤداها ان اوجه الشبه الشكلية واللفظية والتركيبية ترقى الى مرتبة

(١) أرفق النص الكامل الذي سلمه الاستاذ اوبنجا للمقرر كملحق «٢» بتقرير الندوة الختامي.

(٢) أ. فودور «المشكلات المتعلقة بتصنيف اللغات الأفريقية» (مركز الأبحاث الأفروآسيوية ـ الأكاديمية المجرية للعلوم (بودابست ١٩٦٦، ص١٥٨) I. Fodor, The problems in the Classification of the African Languages (Centre for Afro-Asian Research of the Hungarian Academy of Sciences, Budapest, 1966) p.158.

البرهان المقنع على وجود علاقة وثيقة بين اللغة المصرية القديمة واللغات الزنجية ـ الافريقية الحالية، في حين ان هذا النوع من التشابه غير موجود بالمرة بين اللغات السامية والبربرية والمصرية.

ثم تناول اجراء مقارنات بين طرق التعبير عن «الكينونة» في مزيج من الفعل والاسم: فوجد أن الشكل العام القديم في لغة البانتو هو نفس الشكل في أقدم أشكال اللغة المصرية القديمة في هذا الباب. وأدى تحليل صيغ النفي والمستقبل المؤكد وحروف الوصل الى نفس النتائج التي تم التوصل اليها عن طريق الأمثلة السابقة. ومن هنا ارتأى الاستاذ اوبنجا انه من الممكن الاهتداء الى وجود بنية عضوية مشتركة.

(ج) وأخيراً تحدث الاستاذ اوبنجا عما عده أهم جوانب هذه المقارنة، فأجرى مقارنةً بين أشكال مأخوذة من لغات شتى لألفاظ معينة مثل: نخلة، روح، شجرة، مكان، وكذلك بين كلمات متشابهة النطق مثل «كم» KM وتعني «أسود» بالمصرية القديمة، وقد أصبحت «كيم» و«كيمي» و«كم» في اللغة القبطية، ومثل «ايكاما» Ikama في لغة البانتو (وتعني التفحم بالتعرض للحرارة الشديدة)، و«كامي» Kame في لغة الآزر بمعنى «الرماد»، ومثل «رومي» Rome وتعني «رجل» في المصرية القديمة. فأصبحت «لومي» Lumi في لغة البانتو، ومن هذا يتضح ان نفس حروف التعبير الصوتي تؤدي نفس الوظائف في اللغات المختلفة التي تمت المقارنة بينها.

واستخلص الاستاذ اوبنجا من هذه المقارنات انه سيكون من المستطاع في المستقبل التعرف على لغة «زنجية ـ مصرية» على غرار اللغة «الهندية ـ الأوروبية». وفي هذا المقام، وبالنظر الى الخلفية الثقافية المشتركة بين جميع هذه اللغات، يمكن القول ان فكرة اجراء دراسات أخرى في المستقبل هي فكرة تستند الى أساس سليم.

٩ ـ وذكرت الاستاذة غوردن ـ جاكيه ان دراسة أسماء المواقع الجغرافية المصرية وأصلها ربما أمكن الاستناد اليها في تأكيد ان مصر لم تتعرض لهجرات كبيرة اليها أو لغزوات من سكان اجانب، منذ العصر الحجري الحديث على الأقل. ومن الظواهر المعروفة جيداً ان الأسماء الطوبوغرافية للأماكن استمرت فترات طويلةجداً، وان كل مجموعة تستخدم لغة معينة تعاقبت على سكنى منطقة معينة انما تترك بصمتها في هذه المنطقة في صورة أسماء عدد من الأماكن يزيد أو ينقص بحسب حجم السكان وطول مدة سيطرتهم على هذه المنطقة. ولو وفد على سكان مصر عدد كبير من السكان القادمين من الخارج وأقاموا فيها بصفة مستديمة لكانوا قد تركوا حتماً بصمتهم على أسماء مواقع البلاد الجغرافية وهو ما لم يحدث. اذ بقيت أسماء الأماكن المصرية شديدة التجانس، وهي أسماء يمكن، دون استثناء اي منها، شرح اصول معانيها باللغة المصرية نفسها، ولم يحدث الا في عصر البطالمة وما بعده عقب الغزو العربي أن اضيفت اسماء من أصل يوناني وعربي على التوالي الى الرصيد الأساسي للأسماء المصرية. ولم يعثر على أسماء يمكن رد مصدر اشتقاقها الى لغات اجنبية الا في المناطق المتطرفة وفي النوبة والواحات وشرق الدلتا ـ وهي الأماكن التي تتصل اتصالاً مباشراً بشعوب مجاورة تتكلم لغات أخرى.

١٠ ـ وتخلى الاستاذ ديفيس لفترة قصيرة عن عمله كمقرر لكي ينقل الى الندوة النتائج غير المتوقعة لدراسة بعض الرسوم(١).

---

(١) ستطبع هذه الدراسة الدولية الواسعة النطاق في ثلاثة مجلدات، اثنان منها تم طبعها فعلاً. واضطلعت بهذه الدراسة مؤسسة مينيل (هيوستون ـ الولايات المتحدة الأمريكية) Menil Foundation (Houston, United States of America) التي قام فرع لها في باريس، بتنسيق مجموعة تتضمن عدداً كبيراً من مواد الصور والرسوم.

فهناك ثلاثة مخطوطات[1] تتضمن رسوماً تستحق الانتباه لمصريين سود البشرة، وبعد استبعاد ما يمكن أن يعزى منها الى تقاليد التوراة (بخصوص نسل حام) وما تم رسمه عن وعي بطريقة مجازية قديمة (الجحيم ـ الليل)، تبقى نسبة متفاوتة من المصريين الذين صوروا ولهم ملامح الزنوج ولونهم. صحيح ان بعضهم من الخدم، ولكن ـ والمناظر المختارة حول هذه النقطة تبعث على الاهتمام الشديد ـ هناك غيرهم من المصريين الأحرار. وكان البعض منهم ويبلغون حوالى ثلث المشاركين في المأدبة، جالسين حول مائدة يوسف الذي كان يولم وليمة لاخوته الاسرائيليين الجالسين الى مائدة اخرى، وكان هناك آخرون يشتركون في عملية بيع يوسف لفوطيفار، الذي صور في الرسم ابيض السحنة. ولعل أهم جانب في هذه الصور التي كانت واقعية تماماً في دقائقها، يتمثل في تلك الملابس المميزة التي ارتداها اولئك المصريون السود (وبصفة خاصة لورودها في مخطوط اكتشف في القرن الحادي عشر للأسفار الثمانية الأولى من العهد القديم). اما الزنوج الذين اختلفوا اختلافاً واضحاً عن المصريين، فكانوا ملتحين يضعون على رؤوسهم عمائم وكانوا في حالات كثيرة يحملون الحراب ويلبسون «جلد الفهد» تاركين الكتف اليمنى عارية. ويرى الاستاذ ديفيس ان هذه الملاحظات تكتسب مزيداً من الأهمية بسبب الاتصالات الكثيرة التي قامت بين بيزنطة ومصر في العصر الفاطمي، ولأن الرسوم التي يرجع تاريخها الى تلك الفترة، كانت تتسم بقدر من الواقعية يفوق بكثير المخطوطات الأقدم عهداً منها.

ولقد كان من العسير للغاية تفسير هذه الوثائق، فهي تعكس كلاً من الخلفية الثقافية البيزنطية وتقاليد الكتاب المقدس، في آن واحد. وهي تعكس مع ذلك نظرة «احد الشماليين» الى المصريين، وهي نظرة لا تتفق مع نظرية «الجلد الأبيض» المستقرة.

المناقشة العامة:

تبين بجلاء من المناقشة العامة أن عدداً من المشتركين يرون ـ بدرجات متفاوتة ـ ان من المرغوب فيه في ظل الوضع الحالي للمعرفة، الاضطلاع بتحليل اجمالي يشمل تاريخ مصر القديمة ككل، أو القارة الأفريقية كلها في بعض الحالات. ومن الناحية الأخرى، رأى بعض المشتركين أن من الأفضل اجراء تحليل جغرافي جزئي دقيق يذهب الى مدى أبعد بكثير، وذلك استناداً الى تخصص واحد أو عدة تخصصات.

تحليل للنتائج التي تم الحصول عليها حسب التسلسل التاريخي

افتتح الاستاذ الشيخ انتا ديوب مناقشة هذه النقطة. فقال انه منذ بداية العصر الحجري القديم، أخذ التجانس الأصلي للجنس البشري يتضاءل شيئاً فشيئاً. ولم يكن سكان مصر، اكثر ولا أقل تجانساً

(١) باريس ـ دار الكتب الوطنية ـ المقتنيات الحديثة: Paris, Bibliotheque Nationale, New Acquisitions::
لاتيني ٢٣٣٤ (القرن السادس ـ السابع؟) Latin 2334 (VI-VIIe?)
يوناني الفاتيكان ٧٤٧ (القرن الحادي عشر) Vatican grec 747 (XIe)
يوناني الفاتيكان ٧٤٦ (القرن الثاني عشر) Vatican grec 746 (XIIe)

من سكان المناطق الأخرى في العالم. ويسود الاعتقاد في الوقت الحالي أن بدء ظهور الجنس البشري كان في أفريقيا منذ ٣٠٠ ٠٠٠ ٥ سنة، هكذا كانت الأصول افريقية.

وظهر الانسان العاقل منذ حوالى ١٥٠ ٠٠٠ سنة، وانتشر شيئاً فشيئاً في جميع الأجزاء التي كانت صالحة للسكنى من حوض النيل وقتذاك. وكان السكان الذين يعيشون في مصر في ذلك الوقت سوداً.

وقال الاستاذ ديوب في معرض دحض النظرية المضادة التي أوردها الاستاذ فيركوتير في تقريره عن سكان مصر في عصر ما قبل الأسرات، ان الـ ٣٣٪ من المصريين «البيض» ذوي البشرة الداكنة نوعاً ما أو حتى السوداء كانوا في حقيقة الأمر سوداً، كما كان ذلك هو حال الـ ٣٣٪ من المهجنين. وبعد أن اضاف الاستاذ ديوب نسبة الـ ٣٣٪ الأخيرة من السكان التي اشار اليها الدكتور ماسولار والمسلم بأنها كانت من السود، أعرب عن رأيه الذي مؤداه أن سكان مصر جميعاً كانوا من السود طوال عصر ما قبل الأسرات.

ومضى يؤكد من جديد النظرية العامة التي سبق أن اوضح معالمها بشأن سكان مصر السود الذين تهجنوا بالتدريج.

وقرر الاستاذ ديوب في معرض مناقشة نقطة اخرى ان السكان السود في الوجه القبلي لم يأخذوا في التراجع الا زمن الاحتلال الفارسي.

وختم كلامه بأن أبدى ملاحظتين عامتين: تتعلق احداهما باستخدام لفظة «شبه زنجي» (negroid) وهي لفظة اعتبرها محقرة ولا ضرورة لها. والأخرى خاصة بالحجج التي سيقت لمعارضة آرائه، وقد عدها سلبية، تفتقر الى الدقة في النقد ولا تستند الى الحقائق.

ورفض أحد المشتركين نظرية الاستاذ ديوب بأكملها.

ولم يبد أي من المشتركين تأييده الصريح للنظرية السابقة الخاصة بوجود سكان «بيض» لهم سحنة داكنة بل سوداء، ولم يعد الأمر اتفاقاً ضمنياً على التخلي عن هذه النظرية القديمة.

وأثيرت اعتراضات شتى على الآراء التي أدلى بها الاستاذ ديوب. وقد كشفت هذه الاعتراضات عن شقة الخلاف التي ظلت عميقة وان لم يتم الافضاء بذلك صراحة. وقد نشأت الانتقادات التي وجهت الى امور معينة وردت في السياق، عن الاتجاه الذي اتخذته الحجج التي سيقت في ذلك الصدد.

وفيما يتعلق بالعصور الموغلة في القدم، أي الأزمنة السابقة على ما لا يزال الفرنسيون يسمونه «بالعصر الحجري الحديث»، اتفق المشتركون على ان الاهتداء الى اجوبة مرضية بشأنها يشكل أمراً عسيراً للغاية.

وأشار الاستاذ ديبونو الى وجود قدر كبير من التشابه بين حضارات أدوات الحصى في المناطق المختلفة التي اكتشفت فيها (كينيا وأثيوبيا وأوغندا ومصر). ويصدق هذا أيضاً على العصر الأشولي الذي تشابهت فيه الأدوات الحجرية ذات الوجهين في عدد من المناطق في افريقيا.

ومن ناحية أخرى فان التجانس الذي اتسمت به صناعة سانجوان Sangoan التي وجدت في شرق افريقيا، يتناقص شيئاً فشيئاً كلما اتجه المرء نحو الشمال. وقد وجدت في خور أبو عنجة (جزيرة صاي في السودان) مجموعة كاملة نوعاً ما من الأدوات. وابتداء من وادي حلفا وما يليه شمالاً، يبدو بجلاء ان عدداً من هذه الأدوات قد فقد. اما في مصر، فلم يجر الاحتفاظ الا بخصيصة واحدة من الخصائص، المميزة لتلك الصناعة، وذلك في المنطقة الواقعة بين طيبة ودهشور بالقرب من القاهرة.

وفي منتصف العصر الحجري القديم كانت طريقة صنع الأدوات الحجرية، وخاصة الشظايا اللفلوزاية (Levallois) التي أدخلت عليها تحويرات وفقاً لطريقة الصناعة الموستيرية (Mousterian)

تختلف اختلافاً كبيراً في مصر عنها في المناطق الواقعة بعيداً عنها جنوباً وغرباً. وقد حدث في العصر الحجري القديم، لأسباب بقيت غامضة وان كانت ترجع في أغلب الظن الى الظروف المناخية والبيئية المتغيرة، ان اصبحت مصر منعزلة عن سائر أفريقيا فيما يتعلق بصناعة الأدوات الحجرية، ونشأت فيها صناعات أصيلة (صناعات السبيل، وما بعد اللفلوازية، أو الهوارية أو الخارجية).

يضاف الى ذلك انه حدثت في نفس الفترة محاولة للتغلغل الأجنبي أقدم عليها العاطريون من شمال شرق أفريقيا. وقد عثر على آثار لهم في أماكن نائية وصلت الى جنوبي الصحراء الكبرى. وبعد أن وصلوا الى واحة سيوة، والى الواحات الخارجة بأعداد كبيرة انتشروا في وادي النيل، وعثر على آثارهم في طيبة. وقد وجدت دلائل أخرى ترجع الى نفس العصر في وادي الحمامات (الصحراء الشرقية) وفي اسنا (مختلطة بآثار من الخارجة)، وفي دارة وفي الجبل الأحمر بالقرب من القاهرة، ووصلت الى وادي الطميلات في شرق الدلتا (مختلطة بآثار ما بعد اللفلوازية). ومن المحتمل أن يكون قد حدث في نفس الوقت اختلاط بعناصر أخرى على نطاق ضيق سرعان ما استوعبه السكان الأصليون.

ومن الشعوب الأجنبية التي دخلت مصر - وكان لدخولها نفس الأهمية - النطفيون القادمون من فلسطين الذين كان وجودهم في حلوان بالقرب من القاهرة حقيقة مقررة ثبتت من زمان بعيد. وقد دلت الحفريات الحديثة على أن هذا الشعب قد سكن منطقة واسعة. وقد عثر على أدوات حجرية منسوبة الى هؤلاء النطفيين في الفيوم وفي الصحراء الشرقية وبطول حزام يمتد من الشرق الى الغرب عبر وادي النيل عند هذه النقطة.

ويرى الاستاذ سونيرون انه يمكن الاستدلال من وجود أدوات مسنونة من الحصى في طبقات الأرض في عصر البلايستوسين القديم في تلال طيبة، على وجود كائنات بشرية سكنت وادي النيل منذ عصور قديمة جداً.

وقرر الاستاذ غلاب ان سكان مصر في العصر الحجري القديم كانوا من الجنس القوقازي ، ومضى فقال ان الحفريات الحديثة اثبتت وجود انسان من نوع «سان San» ضمن السكان في عصر ما قبل الأسرات.

ووافق الاستاذ شيني على ما يتعلق باستيطان الانسان العاقل، دون الاشارة الى لون جلده. ورد تاريخ أول سكان استوطنوا وادي النيل الى حوالى ٢٠ ٠٠٠ سنة مضت. وجاءت في اثر ذلك جماعات بشرية شتى من مناطق عدة، مما زاد عدد هؤلاء السكان وأحدث تغييراً في تكوينهم.

ولم تكن المناقشة الخاصة بالعصر الحجري الحديث وعصر ما قبل الأسرات بأقل حيوية. وقد اكد الأستاذ أبو بكر أن المصريين لم يكونوا ابداً منعزلين عن سائر الشعوب، ولم يألفوا أبداً عنصراً خالصاً نقياً. ومن المستحيل اقرار الرأي القائل ان سكان مصر في العصر الحجري الحديث كانوا جميعاً سوداً، اذ ان السكان في مصر في العصر الحجري الحديث، كانوا خليطاً من أقوام جاءوا من الغرب ومن الشرق وكان يطلق عليهم خطأ اسم «الحاميين».

وكانت تلك النظرية هي نفس نظرية الاستاذ الناضوري أيضاً. ففي العصر الحجري الحديث، تغلغل مهاجرون من جميع مناطق الصحراء الكبرى بين السكان المستقرين الذين استوطنوا القسم الشمالي الغربي من الدلتا، مما أدى الى امتزاج بين جماعات اثنية كثيرة. ومنذ ذلك الوقت لم يحدث أي انقطاع في استمرار السكان حتى عصر الأسرات. ودلت منطقة مرمدة - بما فيها من ثروة في المادة الأثرية ذات الطبقات الجيولوجية الواضحة المعالم - على أن عملية عمران هذه المنطقة بالسكان قد جرت بصورة تدريجية.

وأبدى الأستاذ فيركوتير بصورة جازمة رأيه بالنسبة لعمران مصر في الأزمنة القديمة، بالسكان، وهو أن سكان وادي النيل كانوا على الدوام خليطاً. فقد جاءت من الغرب ومن الشرق عناصر خارجية متعددة، ولا سيما في عصور ما قبل الأسرات.

وفي عصر ما قبل الأسرات وبداية عصر الأسرات أضيف الى السكان عنصر آخر جاء من الشمال الشرقي ووصف أفراده بأنهم «ساميون». ورأى الاستاذ الناضوري كما رأى الاستاذ ابو بكر أن هناك حقيقة بالغة الأهمية تتمثل في أنه قد شيدت في عصر الأسرة الأولى تحصينات في أبيدوس، وأغلب الظن، انها شيدت بغرض منع الهجرة من الجنوب صوب الشمال.

وأشار الأستاذ أبو بكر الى حالة زوجة خوفو الشقراء الشعر الزرقاء العينين باعتبارها مثلاً يدل على وجود أقوام «غير سود» في مصر. اما الأستاذ ديوب، فرأى ان هذه الحالة الفريدة تمثل الاستثناء الذي يؤكد القاعدة.

وأضاف الأستاذ أوبنجا بعض نقاط هامة أثناء المناقشة وأكد اهتمام المصادر القديمة المكتوبة بسكان مصر. ولقد حاول هيرودوت في فقرة كتبها عن «الكلخيين» ـ ولم ينازع في صحتها العلماء المحدثون ولم تطعن في سلامتها الدراسات النقدية المقارنة للمخطوطات ـ أن يدلل من خلال طائفة من الحجج النقدية على أن «الكلخيين» كانوا يشبهون المصريين. «فهم يتكلمون بنفس الطريقة، وهم والمصريون دون سواهم من الشعوب يمارسون عملية الختان، كما انهم ينسجون الكتان مثل المصريين». ويضاف الى اوجه الشبه المذكورة سمتان أخريان مشتركتان بينهما، هما سحنتهم السوداء وشعرهم الخشن.

ورأى الأستاذ لكلان أن الكتاب القدامى استخدموا عبارة «الوجه المحروق» (للأثيوبيين) لوصف النوبيين والزنوج دون المصريين. ورد الأستاذ أوبنجا قائلاً ان الاغريق استخدموا لفظة أسود (melas) لوصف المصريين. وسأل الأستاذ فيركوتير على وجه الخصوص عن السياق المحدد الذي ورد فيه تعريف هيرودوت للمصريين بأنهم زنوج فأجاب الأستاذ ديوب بأن هيرودوت أشار اليهم في ثلاث مناسبات: عند الكلام عن أصل الكلخيين، وعند الحديث عن أصل فيضان النيل وعند مناقشة نبوءة زيوس ـ آمون.

ويرى الأستاذ لكلان ان وحدة الشعب المصري لم تكن وحدة عنصرية بل كانت وحدة حضارية. فقد استمرت الحضارة المصرية مستقرة ثلاثة آلاف سنة. ووصف المصريون أنفسهم بأنهم «رمت» (REMET) («رومي» باللغة القبطية). وحرصوا في رسومهم بصفة خاصة على أن يجروا تفرقة بينهم وبين شعوب الشمال وشعوب الجنوب التي تختلف عنهم. ونفى الاستاذ أوبنجا أن يكون المصريون، باستخدامهم لفظة «رمت» قد أجروا تفرقة عنصرية بينهم وبين جيرانهم. وفي رأيه أن التفرقة التي اجريت شبيهة بتلك التي حدث بالاغريق الى أن يفرقوا بين انفسهم وبين الشعوب الأخرى التي نعتوها بالبرابرة.

وقال الأستاذ لكلان أن السمات الأفريقية ذات الأهمية في حياة مصر الحضارية خلال العصر الحجري القديم تمثل موضوعاً جديراً بالدراسة. وأشار على سبيل المثال، الى القرد الذي كان صفة من صفات الاله تحوت، والى كثرة ظهور جلد «الفهد» في الرسوم والصور باعتباره زياً خاصاً بالطقوس الدينية عند قيام حورس بعبادة أوزيريس. وعلى أي حال فهو يرى أن المصريين الذين استقرت حضارتهم استقراراً ثقافياً مدة ثلاثة آلاف سنة، لم يكونوا من البيض ولا من الزنوج.

ثم تشكك الأستاذ سونيرون في فكرة وجود سكان متجانسين، لا سيما اذا كان الزعم قد ذهب الى حد القول بأنهم وجدوا منذ أول ظهور للانسان في مصر حتى فترة ما قبل عصر الأسرات. وفي رأيه انه

لا يوجد بين الأدلة المتاحة حالياً ما يمكن الاستناد اليه للتشكيك في أن سكان مصر كانوا خليطاً.

أما النتائج التي انتهى اليها الخبراء الذين رفضوا قبول النظرية التي ساقها الأستاذان الشيخ انتا ديوب وأوبنجا والقائلة ان سكان وادي النيل كانوا متجانسين منذ أقدم العصور حتى الغزو الفارسي، فمؤداها أن السكان الأساسيين في مصر استقروا فيها في العصر الحجري الحديث، وان الجزء الأكبر منهم جاء من الصحراء الكبرى، وأنهم كانوا يضمون مجموعات من شمال الصحراء الكبرى ومجموعات من جنوبها تختلف عن بعضها من حيث اللون. وفي مقابل هذه النظرية، ساق الاستاذان ديوب وأوبنجا نظريتهما الخاصة، ومؤداها أن وادي النيل لم يكن يسكنه الا شعب واحد أسود. وأن حركة السكان كانت تتجه من الجنوب الى الشمال.

وجود أو عدم وجود هجرات ذات أهمية الى وادي النيل

ظلت أعمال الندوة شديدة الاضطراب فيما يتعلق بهذا البند، اذ دارت أكثر من مناقشة دون أن تنتهي الى نتيجة حاسمة.

وعلى العموم رأى المشتركون أن نظرية «الهجرات الواسعة النطاق»، لم تعد تصلح لتفسير عمران وادي النيل بالسكان حتى عصر الهكسوس على الأقل، عندما بدأت تجري مبادلات لغوية مع الشرق الأدنى (هولتشر). ومن ناحية أخرى، رأى عدة خبراء أن من الواضح انه قد حدثت مبادلات سكانية مع مناطق ملاصقة للوادي، وان كانت قد أبديت آراء متباينة بشأن الدور الذي اضطلعت به العوامل الجغرافية أو البيئية في خلق عوائق طبيعية أو صناعية أمام مثل هذه الحركات السكانية.

وعلى أية حال، فقد حدث اتفاق عام في الآراء على أن مصر قد استوعبت هذه الهجرات ذات الأصول الاثنية المختلفة. وترتب على ذلك ان المشتركين في الندوة اعترفوا ضمناً بأن القاعدة الأساسية لسكان وادي النيل ظلت مستقرة بوجه عام، ولم تتأثر بالهجرات خلال ثلاثة آلاف سنة الا الى حد محدود.

على أنه عندما جاء دور دراسة العصور التالية تبين انه من المستحيل التوصل الى هذا القدر العام الى حد كبير من الاتفاق النظري في الرأي.

وفيما يتعلق بالعصر الحجري القديم، ساق الاستاذ الشيخ انتا ديوب فرضاً مؤداه ان الانسان العاقل قد اخذ يستقر في الوادي بصورة تدريجية حتى وصل الى خط عرض ممفيس. وقال الاستاذ أبو بكر ان المعلومات المتاحة عن هذه الفترة قليلة جداً، وانه من المحتمل ان الجزء الشمالي من وادي النيل لم يكن مأهولاً على الاطلاق، ومن ناحية اخرى، رأى الاستاذ اوبنجا انه قد حدثت في الفترة بين اوائل العصر الحجري القديم والعصر الحجري الحديث حركة توطن مستمرة في مصر من جانب سكان متجانسين. وهذا ما اكده المصريون انفسهم في تراثهم المنقول، اذا اشاروا الى منطقة البحيرات العظمى باعتبارها موطنهم الأصلي، والى النوبة باعتبارها قطراً مماثلاً لقطرهم.

ويبدو أنه قد حدثت حركات سكانية كبيرة الى حد ما، من الصحراء الكبرى الى وادي النيل في الفترة ما بين نهاية العصر الحجري الوسيط وبداية العصر الحجري الحديث (الاستاذ فيركوتير) أو في خلال العصر الحجري الحديث (الأستاذان حبشي وغلاب). وقد أعرب الأستاذ فيركوتير عن الأمل في أن يوضع تأريخ دقيق لهذه الحركات، التي لا يعرف عنها في الوقت الحالي الا النزر القليل، وأن تجمع المادة الأثرية المتعلقة بها وتدرس.

وعرض الأستاذ الشيخ انتا ديوب بعض التفاصيل في معرض الرد على ما قيل. فقد اتضح من اختبارات الكربون المشع التي استخدمت في التأريخ لغرب الصحراء الكبرى ان هناك فترة من المناخ الرطب سادت من عام ٣٠٠٠٠ الى عام ٨٠٠٠ قبل الميلاد، تخللتها فترات متقطعة من الجفاف. كما ان تأريخ فترة الجفاف التالية أصبح أكثر وضوحاً. ولا بد من اجراء تأريخ مماثل لشرق الصحراء الكبرى. ويمكن عن طريق الجمع بين النتائج المستخلصة من أبحاث مناخ العصر الحجري القديم وبين الدراسات المتعلقة بالمقابر والنقوش، الحصول على المعلومات التي يبتغيها الأستاذ فيركوتير.

وأيد الأستاذ حبشي دون تحفظ النظرية القائلة بحدوث هجرات من الصحراء الكبرى، مستنداً في ذلك الى دراسات معروفة. ويعتقد الأستاذ ساف ـ سودربرج أن غالبية حضارات العصر الحجري الحديث في وادي النيل تنتمي الى المركب التقني لحضارات الصحراء الكبرى والسودان. ومع ذلك، فلعل حركات الهجرة كانت كثيفة، وبصفة خاصة في العصر السابق على العصر الحجري الحديث المطير الأدنى، وفي نهاية هذا العصر.

وساق الأستاذ ديوب الفرض القائل بأن السكان انتشروا من الجنوب الى الشمال كبديل للفرض القائل بحصول هجرات من الصحراء الكبرى حدث اكثرها في العصر الحجري الحديث. وأعاد ترديد الفكرة التي سلفت الاشارة اليها عدة مرات أثناء المناقشة، والتي تتمثل في أن هذه الحضارة كانت في أثناء العصر الكبسي (القفصي) تغطي مساحة واسعة تمتد من كينيا الى فلسطين.

وفيما يتعلق بموضوع عصر بداية الأسرات وعصر ما قبل الأسرات، اتفق الأستاذان ديوب وفيركوتير على أن سكان المناطق المصرية من وادي النيل كانوا متجانسين حتى أقصى الأطراف الجنوبية للدلتا. واتفق هذان الخبيران بصورة جزئية بشأن نظرية الهجرة من الشمال الى الجنوب، فقد رأى الأستاذ فيركوتير انه يصعب قبول هذه النظرية ورفضها الأستاذ ديوب تماماً. ونشأ خلاف في الرأي حول موضوع تحديد طبيعة هؤلاء الأقوام تحديداً أدق، فقال الأستاذ ديوب انهم «الآنو» Anu وتعرف عليهم في الصورة التي أشار اليها بتري في معبد أبيدوس.

وفي عصر الأسرات، يتمثل الدليل على استقرار السكان في المناطق المصرية من وادي النيل في استقرار حضارتها. وأوضح الأستاذ ديوب أن التقويم المصري جرى استخدامه من وقت مبكر يرجع الى عام ٤٢٣٦ق.م. وللتقويم منذ بدايته نمط دوري كل ١٤٦١ سنة. ورأى انه حتى وقوع الغزو الفارسي، لم يحدث ما يهدد الاستقرار الا زلزال شديد العنف حدث حوالى عام ١٤٥٠ ق.م.، ترتب عليه حدوث سلسلة من الهجرات أثرت في توازن جميع البلدان المتاخمة لشرق حوض البحر المتوسط، ثم قامت شعوب بحرية بمهاجمة الدلتا المصرية في فترة معاصرة لاختفاء الحيثيين وظهور أوائل البربر في شمال أفريقيا. وفيما عدا هذا الزلزال العنيف، كان الحدث الوحيد الهام في حياة الشعب المصري، وان لم تكن له صلة بالهجرة، هو قيام الفرعون الموحد نارمر بتوحيد مصر زاحفاً من الجنوب الى الشمال حوالى عام ٣٣٠٠ ق.م.

ولم تجر مناقشة لهذا التحليل، ولكن سيقت تحليلات أخرى. فقد أراد الأستاذ ساف ـ سود ربرج أن يحدد ـ استناداً الى حفائر النوبة ـ العصور والظروف التي انقطعت فيها الصلة بين مصر الفراعنة والجنوب. ففي النوبة، أخذت أقدم الحضارات في الاختفاء تدريجياً عند نهاية الأسرة الأولى وربما في بداية الثانية. أما المجموعة «ج» التي جاءت في اثرها، فلم تظهر قبل الأسرة السادسة. ومعنى هذا وجود «ثغرة في التسلسل التاريخي» تقدر بحوالى ٥٠٠ سنة بين عامي ٢٨٠٠ و٢٣٠٠ ق.م. ولا

توجد معلومات متاحة بشأنها اليوم. وواضح من هذا أن الاتصالات الايجابية بين مصر الفراعنة وبين الجنوب قد انقطعت أو توقفت.

وثمة مثال آخر لهذا الوضع عينه إذ لم يتسن العثور في الجزء الأدنى من النوبة على بقايا أثرية يرجع تاريخها الى الفترة بين سنة ١٠٠٠ ق.م. وبداية العصر المسيحي. أما أقدم آثار العصر المروي التي عثر عليها هناك، فيرجع تاريخها الى القرن الأول بعد الميلاد ومن ثم فقد حدثت تغييرات هامة في العلاقات بين مصر والجنوب بين عام ٢٨٠٠ ق.م. والعصر المروي.

ولاحظ الأستاذان فيركوتير ولكلان انه ظهر ابتداء من عصر الأسرة الثامنة عشرة وما بعدها نوع من رسومات الزنوج يختلف تمام الاختلاف عن كل ما ظهر قبل ذلك (مقبرة حوي أو مقبرة رخميرع مثلاً). فكيف ظهر هؤلاء السكان الجدد في الرسوم المصرية؟ هل كان ذلك نتيجة للعلاقات بين المصريين والجنوب، أو انه كان بسبب هجرات قام بها سكان يعيشون في أقصى الجنوب متجهين شمالاً الى النوبة؟ وقد اعترض الأستاذ شيني قائلاً ان هذه المعلومات لا تصلح أساساً يجوز الاستناد اليه في استنتاج حدوث هجرة من الجنوب الى الشمال أثرت في سكان مصر.

ورأى الأستاذ لكلان انه باستثناء المثال الخاص بالأسرة الثامنة عشرة الذي سبق ايراده، لم يطرأ أي تغيير هام قبل الأسرة الخامسة والعشرين، عندما ظهر في مصر أهل كوش قادمين من دنقلة. وهو، يميل الى رد هذه الظاهرة لا الى هجرة شعوب، بل الى زيادة عارضة في تأثير معين في حياة السكان المصريين.

وقد برزت من خلال المناقشة حقيقتان واضحتان لم ينازع فيهما أحد منازعة جدية، وهما:

(أ) وجود مشكلة ذات شقين فيما يتعلق بدلتا النيل[1] في عصور ما قبل التاريخ. فأولاً، يؤخذ مما اشار اليه الأستاذ ديبونو أن هذا الاقليم، على خلاف الوجه القبلي، لا يعرف عنه الا القليل للغاية، لأن الحفائر التي جرت في مرمدة والعمري والمعادي ـ مصر الجديدة لم تستكمل بعد.

أما البقايا البشرية التي اكتشفت حتى الآن والتي ترجع الى عصور ما قبل التاريخ والى العصر البدائي، فتختلف عما عثر عليه في الوجه القبلي.

وثانياً، يبدو من المؤكد ان العوامل البشرية المعنية التي كانت تؤثر على الحياة في الوجه البحري أو الدلتا تختلف، في حدود ما يمكن تمييزه منها قبل عصر الأسرات، عن العوامل التي كانت تؤثر على الحياة في الجزء الواقع جنوبي هذا الاقليم من الوادي.

(ب) أصبحت دراسة الطبقة الأساسية القديمة للسكان في الجزء الشمالي من النوبة ممكنة بفضل البحوث الأثرية المكثفة التي نظمت تحت رعاية اليونسكو. غير أن هذا لا يصدق على بقية الجزء المصري من وادي النيل لأسباب كثيرة بالغة التعدد، حيث لم تسفر الأبحاث التي تناولت عصور ما قبل الأسرات والحضارات المادية القديمة الا عن نتائج أقل بكثير من النتائج التي تحققت في شمال النوبة ولعل تحفظات بعض الخبراء وعزوفهم عن استخلاص نتائج نهائية يرجع في جانب منه الى هذه الحقيقة. ولا ريب في أن هناك عاملاً واحداً على الأقل زاد من تعقيد المناقشة التي

---

(١) استرعى الأستاذ هولتشر الانتباه الى المصنف الآتي: التطور الاقتصادي للوجه البحري (الدلتا) خلال العصر البدائي (القرنان الخامس والرابع قبل الميلاد) وهو عبارة عن مجموعة من المقالات التي ظهرت في مجلة مصر القديمة، ١٩٦٠، بقلم ج. د. ريدر

D.G. Reder, «The Economic Development of Lower Egypt (Delta) during the Archaic Period (V-IV (centuries) before our era), a collection of articles which appeared in the Journal of Ancient Egypt, 1960 (translation of the Russian title).

كثيراً ما اتخذت شكل مونولوجات متعاقبة متناقضة. وكان من الواضح ان هذا العامل قد جاء نتيجة عبارة قالها الأستاذ اوبنجا وان لم يرد عليها أي تعليق. ذلك ان الاستاذ أوبنجا يرى أن من الواضح ان وجود أساس حضاري متجانس يفيد بالضرورة وجود أساس اثنى متجانس.

وسواء أكان بحث هاتين الفكرتين قد جرى في وقت واحد أم لا، فيبدو أنه لم يكن هناك فاصل كاف بينهما أثناء المناقشات، مما ترتب عليه ان جاءت النتائج التي تم التوصل اليها أقل وضوحاً وتحديداً مما كان يمكن أن تكون عليه لولا ذلك. ومن المحتمل أن تكون هذه الحقيقة قد أثرت على امكانية الاهتداء الى نقاط للاتفاق.

ومع ذلك، فلو كان بحث الفكرتين قد جرى دون الاشارة الى المسائل العنصرية، لتبين وجود موضوعين اساسيين ظفرا في آخر المطاف باتفاق يكاد يكون اجماعياً، ولو باعتبارهما فرضين علميين لازمين للعمل.

فلعل العصر الحجري الحديث هو العصر الذي بلغ فيه تأثر سكان وادي النيل المصري بهجرات واسعة النطاق أقصى درجاته. وهناك نظريتان سائدتان في هذا الصدد: تقول احداهما ان المهاجرين جاءوا اساساً من المنطقة الشرقية بأكملها من الصحراء الكبرى متجهين من الشمال الى الجنوب، وتقول النظرية الأخرى ان هذه الحركات السكانية جاءت بطول النيل من الجنوب. وابتداء من عصر الأسرات اصبح سكان مصر مستقرين استقراراً راسخاً، فلم تتغير طبيعة العمران السكاني تغييراً جذرياً بتأثير حركات السكان المختلفة التي أثرت على الحياة السياسية في مصر وعلى وضعها العسكري، ولا بنتائج علاقات مصر التجارية، ولا بالجهود الداخلية الرامية الى الاستيطان الزراعي، ولا بحالات التسلل من المناطق القريبة. وقد صاحبت هذا الاستقرار الاثني درجة عالية من الاستقرار الحضاري.

على أنه قد تبين بجلاء وجود اختلاف كامل في الرأي عند مناقشة الفرض الخاص بوجود سكان متجانسين، وهو الفرض الذي أيده الأستاذ ديوب، والفرض الخاص بوجود سكان مختلطين، وهو الفرض الذي أيده عدة خبراء آخرين هناك.

نتائج البحوث الانثروبولوجية الطبيعية

تبين في نقاط شتى من المناقشة أن المصطلحات التي تستخدم حتى الآن لأغراض الوصف العنصري تحتاج الى مزيد من التحديد والوضوح.

وقد تدخل السيد جليلي، ممثل المدير العام لليونسكو، ليطمئن الخبراء الذين دعوا الى تجريم استخدام الفاظ «زنجي» و«اسود» و«شبه زنجي» استناداً الى أن مفهوم العنصر قد عفى عليه الدهر وأنه لا بد من بذل الجهود للتقريب بين الناس عن طريق رفض أي اشارة الى العنصر وذكّر الأستاذ جليلي المشتركين بأن اليونسكو ملتزمة بقضية تعزيز التفاهم والتعاون الدوليين في المجال الثقافي، وأنه لم يدر بخلد المنظمة وهي تقرر عقد هذه الندوة أن تثير توترات بين الشعوب أو الأجناس، بل أن تشرح وتوضح ـ بقدر ما يسمح به الوضع الراهن للمعرفة ـ مسألة من المسائل العديدة التي اكتنفها الشك، ألا وهي مسألة عمران مصر القديمة بالسكان من حيث الأصل الاثني ومن حيث العلاقات الانثروبولوجية. فالمطلوب اذن هو اجراء مقارنة بين النظريات المختلفة وتقييم الحجج العلمية التي استندت اليها، وتقدير الحقائق الخاصة بالوضع، واسترعاء الانتباه ـ حيثما كان ذلك مناسباً ـ الى أي

ثغرات قد توجد في هذا الشأن. وأكد ان عبارات «زنجي» و«شبه زنجي» و«أسود» قد جرى حتى الآن استخدامها على أي حال، وأنها وردت في جميع الدراسات العلمية، كما هو الشأن في كلمتي «حامي» و«سامي»، وان كانت هناك شكوك قد اثيرت حول سلامة هذه الألفاظ أثناء الندوة الحالية. كما قال ان مؤلفي كتاب «تاريخ أفريقيا العام» سيستخدمون هذه الألفاظ التي ألفها القراء فعلاً. وأياً كان الرأي العام الذي يدين به المرء، فواقع الأمر أن هذه الألفاظ عند استخدامها في المصنفات العلمية والشعبية لا تخلو من المعنى ولا تتجرد من أحكام القيمة، سواء أكان ذلك ضمناً أو صراحة. وأيد بياناً أدلى به أحد الخبراء في مطبوعات اليونسكو بشأن المشكلات العنصرية. فاليونسكو لم ترفض فكرة العنصر، وقد قامت المنظمة بوضع برنامج خاص لدراسة العلاقات العنصرية كما ضاعفت جهودها الرامية لمحاربة التمييز العنصري. وهناك عدة مطبوعات تتناول هذه المشكلة الهامة. فلا محل اذن، والندوة تدرس المشكلات المتعلقة بعمران مصر القديمة بالسكان، للاقدام ـ دون اقتراح أي نظام جديد ـ على رفض واطراح تصنيفات الشعوب المتفق عليها بوجه عام باعتبارها بيضاء وصفراء وسوداء ـ وهي الأنماط التي جرى علماء المصريات بصورة تقليدية على استخدامها في تصنيف شعب مصر. يضاف الى ذلك انه اذا كانت هناك حاجة الى تعديل المصطلحات التقليدية التي يجري المؤرخون على استخدامها في الوقت الحالي، فانه ينبغي الا تعدل بالنسبة لتاريخ أفريقيا وحده، بل بالنسبة للعالم كله. فان رأت الندوة أن لهذا الموضوع اهمية، فيمكن عرضه على مجتمع المؤرخين لبحثه على الصعيد الدولي. والى أن توضع مصطلحات جديدة، فلا بد من تعريف المصطلحات المتداولة حالياً وهي «أسود» و«زنجي» و«شبه زنجي» و«حامي» تعريفاً أوضح.

وافتتح الأستاذ فيركوتير المناقشة المتعلقة بهذه النقطة، فذكّر بأن هذه المشكلة اثيرت في كتابات يونكر عندما استخدم لفظة «زنجي» في الاشارة الى نوع الرسومات التي ظهرت في الأسرة الثامنة عشرة، وقام المصريون بعد ذلك بتصويرها تصويراً هزلياً (كاريكاتورياً) فقد استخدم يونكر لفظة زنجي في معرض الاشارة في المقام الأول الى غرب أفريقيا، مؤكداً على كل من اللون وبعض خصائص الوجه.

ويميل الأستاذ فيركوتير الى الاعتقاد بأنه عوضاً عن هذا الرأي القديم، تدعو الضرورة الى ايجاد معايير أكثر تحديداً لوضع تعريف علمي للعنصر الأسود. وذكر بصفة خاصة معيار فصيلة الدم وموضوع الدلالة الدقيقة لدرجة لون الجلد، وهل يتعين مثلاً اعتبار النوبيين زنوجاً.

وقد ظهرت اتجاهات متباينة بالنسبة لهذه الموضوعات. وأعرب عدد من المشتركين عن أملهم في التذرع بالحذر في استخدام لفظة «عنصر» التي أثارت في عدة مناسبات قريبة حساسية شديدة. ورد الأستاذ اوبنجا بأن فكرة العنصر معترف بسلامتها في البحوث العلمية، وان دراسة العنصر لا تنطوي بالضرورة على عنصرية مذهبية.

وأبرزت المناقشة صعوبة اعطاء مضمون علمي للمصطلحات التي يجري بحثها. ولعلها قد أبرزت فوق ذلك، ان هناك اكثر من واحد من الخبراء أحجموا ـ لأسباب جديرة باحترام كبير ـ عن استخدام هذه المصطلحات التي يمكن بحق اعتبارها منطوية على ظلال خطرة أو محقرة: فضلاً عن أن بعض الخبراء أشار الى أن الردود الأساسية على هذه النقاط لا يمكن توقع ورودها من المؤرخين والأثريين، بل من الاخصائيين في علم الانثروبولوجيا الطبيعية وحدهم.

وأيد الاستاذ ساف ـ سودربرج عددٌ كبير من المشتركين عندما اعرب عن امله في أن يقوم الاخصائيون في علم الانثروبولوجيا الطبيعية الحديث بدراسة المصطلحات الخاصة بالعنصر فمن المفيد

وضع تحديد علمي دقيق لا بالنسبة لافريقيا وحدها، بل كذلك وربما بصورة اكبر بالنسبة لآسيا. وبالمثل، فان مفاهيم الجماعات المختلطة من السكان والجماعات المركبة ومجموعات السكان تحتاج الى تعريف أدق ويوجد لدى اليونسكو فعلاً طلب في هذا الشأن يتصل ببحث يتم اجراؤه في النوبة.

وقال الأستاذ جليلي انه اذا كانت معايير تصنيف شخص ما بأنه اسود أو أبيض أو اصفر محلاً لهذا القدر من الخلاف، وأذا كانت المفاهيم التي نوقشت محلاً لهذا القدر من سوء التعريف وربما لهذا القدر من الذاتية والالتصاق بأنماط التفكير المعتادة، فهذا أمر ينبغي الاعراب عنه بصراحة، كما ينبغي اجراء مراجعة لجميع المصطلحات الخاصة بتاريخ العالم على ضوء المعايير العلمية الجديدة، بحيث تكون المفردات واحدة بالنسبة للجميع ، ويكون للألفاظ نفس المعنى، حتى يمكن تجنب المفاهيم الخاطئة، والتوصل الى التفاهم والاتفاق.

إلا أن الأستاذين ديوب وأوبنجا لم يكونا موفقين في الاشارة الى سلسلة المعايير التي وضعها علماء الانثروبولوجيا لوصف خصائص الزنجي، وهي: جلد أسود، وفكان بارزان، وشعر أجعد، وأنف أفطس (اذ ان مختلف علماء الانثروبولوجيا قد اختاروا علامات الوجه والأنف بطريقة اعتباطية للغاية) والهيكل العظمي الزنجي (النسبة بين الأطراف العليا والسفلى). ويرى مونتل ان للزنجي وجهاً مسطحاً و«افقياً». وقال الاستاذ أبو بكر: اذا كان هذا هو الحال فمن المؤكد ان المصريين لا يمكن اعتبارهم زنوجاً.

واستطرد الأستاذ ديوب فقال انه لم يحدث أبداً أن هيأت مقاييس الجماجم أي اساس احصائي للقول بأن حجماً معيناً للمخ هو خصيصة يستأثر بها هذا العنصر أو ذاك.

وفي رأيه ان هناك عنصرين أسودين، لأحدهما شعر ناعم وللآخر شعر مجعد. فان كان لون الجلد أسود، كان من غير المحتمل ألا تتوافر الخصائص الأساسية الأخرى التي سبق أن أشار اليها. وأخيراً، لئن كانت فصيلة الدم A2 هي من خصائص الشعوب البيضاء فانه يغلب ان تكون للشعوب السوداء فصيلة الدم B، وفي حالات محدودة جداً، فصيلة الدم C.

ورد الأستاذ شيني قائلاً ان الاخصائيين الأمريكيين الذين استشارهم وهو يتأهب لهذه الندوة أخبروه بأن للدراسات الخاصة بالهياكل العظمية شيئاً من الأهمية، ولكنها لا توفر في حد ذاتها اساساً لتحديد العنصر، وأن المعايير التي يعتبرها الأستاذ ديوب معايير كافية لم يعد الاخصائيون الأمريكيون يعتبرونها كذلك، سواء أكان ذلك صواباً أم خطأ.

وفي رأي الاستاذ أوبنجا أن هناك فئتين في العنصر الأسود الواحد، فئة لها شعر ناعم وأخرى لها شعر مجعد. وعاد الاستاذ أوبنجا الى السؤال العام المطروح على الندوة وهو: اذا قبلت فكرة العنصر باعتبارها فكرة صحيحة، واذا لم تطرح جانباً فكرة وجود عنصر أسود فما هو الرأي في العلاقة بين هذا العنصر وبين قدماء المصريين؟

ورأى الأستاذ ديوب أن النتائج التي تمخض عنها البحث الانثروبولوجي قد وفرت فعلاً أساساً كافياً يصلح للاستناد اليه في استخلاص النتائج. فانسان «جريمالدي» شبه الزنجي قد ظهر منذ حوالى ٣٢٠٠٠ سنة، وظهر انسان «كرومانيون» ـ وهو النموذج الأول للعنصر الأبيض ـ منذ حوالى ٢٠٠٠٠ سنة، وظهر انسان «شانسلاد» ـ وهو النموذج الأول للعنصر الأصفر، في العصر المجدليني منذ حوالى ١٥٠٠٠ سنة. أما العناصر السامية فقد كانت ظاهرة اجتماعية من خصائص بيئة حضرية، وكانت هجيناً من العنصرين الأسود والأبيض.

ولذلك فانه لا يخامره أدنى شك في أن السكان الأول لوادي النيل كانوا ينتمون الى العنصر الأسود طبقاً لما بينته نتائج البحوث التي يقرها الاخصائيون في الانثروبولوجيا وعلم ما قبل التاريخ في الوقت الراهن. ورأى الاستاذ ديوب أن العوامل النفسية والتربوية هي وحدها التي حالت دون تقبل هذه الحقيقة.

ولما كانت البحوث التي تجري في النوبة ترتكز على فرض ينطوي على الأخذ بالنظرة العالمية في هذا الصدد، فان النتائج المستخلصة من هذه البحوث تعتبر قليلة الجدوى في المناقشة الحالية. ولم يوافق الأستاذ ديوب على تأليف لجنة للاستيثاق من الحقائق الواضحة الجلية التي لا يعوزها في الوقت الحالي سوى مجرد اعتراف شكلي بها. ورأى أن جميع المعلومات المتاحة الآن، وحتى المعلومات المستمدة من الدراسات السطحية التي تمت في القرن التاسع عشر، تؤيد النظرية القائلة بأن المصريين كانوا في أقدم العصور سود البشرة، وأنهم ظلوا على هذا الحال الى أن فقدت مصر استقلالها في آخر الأمر. ورد الأستاذ ديوب على الأسئلة المختلفة التي وجهت اليه بقوله ان العينات التي توافرت فعلاً بفضل علم الآثار كافية لتأييد رأيه. كما قال انه لا يستطيع الموافقة على رأي الأستاذ فيركوتير الذي يذهب الى عدم جواز التعويل على الوثائق الانثروبولوجية التي ترجع الى تاريخ سابق على عام ١٩٣٩ لافتقارها الى الدقة العلمية.

وقد انتقد كثير من المشتركين تأكيدات الأستاذ ديوب القاطعة. وعبر الأستاذ سونيرون عن الانتقاد الرئيسي الموجه اليه بقوله إن اجمالي عدد السكان الذين اقاموا في وادي النيل منذ بداية الأزمنة التاريخية الى هذا اليوم يمكن منطقياً تقديرهم ببضع مئات من ملايين الأفراد، بينما لا يزيد عدد المواقع التي تم الكشف عنها على بضع مئات وعدد الجثث التي تم فحصها على حوالى ٢٠٠٠ جثة. وازاء ضآلة البيانات التي تم الحصول عليها على هذا النحو، فليس من الواقعي بالمرة استخلاص مثل هذه النتائج العامة الطموحة منها. ولما كانت العينات المتاحة لم تقدم ما يمكن أن يمثل صورة كاملة، فمن المستصوب الانتظار ريثما يسفر استقصاء دقيق وشامل شمولاً كافياً بشأن الملامح العامة عن أدلة تكون مقبولة على الصعيد العالمي.

صحة البحوث المرتكزة على دراسة الرسوم والتماثيل

وجدت نظريتان متعارضتان في هذا المجال. فقد رأى الاستاذ ديوب أنه ما دام المصريون كانوا سوداً، فان رسومهم الملونة ـ التي لم يقدم بالمناسبة شيئاً منها تأييداً لحجته ـ لا تصور الا قوماً سوداً. ورأى الاستاذ فيركوتير، ويؤيده في هذا الاستاذان غلاب ولكلان انه ظهرت في الرسوم المصرية ابتداء من الأسرة الثامنة عشرة وما بعدها رسوم متميزة لأشخاص سود لم يسبق تصويرهم من قبل. وبالتالي، فان هذه الرسوم تعني انه ابتداء من هذه الأسرة ـ على الأقل ـ أصبح المصريون على اتصال بشعوب تعتبر من الناحية الاثنية مغايرة لهم.

وقال الاستاذ ديوب أنه قدم في معرض بيانه التمهيدي مجموعة من الرسوم المستمدة من أعمال النحت وحدها، ورأى انها جميعاً تصور اشخاصاً سوداً أو تعكس ملامح تعتبر من الخصائص المميزة لاعضاء المجتمعات السوداء. وطلب توجيه انتقادات محددة الى هذه الوثائق، ودعا المشتركين الى تقديم رسوم مقابلة لها تمثل اشخاصاً من البيض في أوضاع تنم عن سمو المنزلة أو المراكز القيادية وترجع الى أقدم العصور الفرعونية. فرد عدة مشتركين بأنه لم يثر أبداً أي تساؤ ل عن احتمال اكتشاف رسوم

في مصر يمكن مقارنتها بالتماثيل الاغريقية مثلاً. وقال الاستاذ فيركوتير انه يمكن تقديم عدد كبير من الرسوم التي تصور اشخاصاً ملونين باللون الأحمر لا الأسود. ولكن الأستاذ ديوب سوف يرفض الاقرار بأنهم غير سود. أما الاستاذ الناضوري فلم ينكر وجود عناصر سوداء ضمن سكان مصر في عصر الدولة القديمة، ولكنه قال ان من العسير للغاية القول بأن جميع السكان كانوا سوداً.

وقال الأستاذ فيركوتير ان الصور الفوتوغرافية التي استنسخت للفرعون نامر قد تم تكبيرها كثيراً لدرجة ان الملامح ربما تكون قد شوّهت، وقال ان اعتبار الشخص الظاهر في الصور أسود انما ينطوي على تقييم غير موضوعي. وكان هذا أيضاً هو رأي الاستاذ ساف ـ سودربرج الذي قال ان الصورة يمكن أيضاً تأويلها بأنها تصور شخصاً من اقليم لابلاند.

ولم ينازع الأستاذ فيركوتير في صحة الرأي القائل باحتمال وجود عناصر سوداء في مصر عبر تاريخها، وأورد هو نفسه عدداً آخر من الأمثلة التي تم فيها تصوير هذه العناصر تصويراً تشكيلياً. غير انه اعترض على الصورة التي عرضت بها الوقائع من ناحيتين هما: أنها استخلصت بصورة عشوائية من العصر الفرعوني كله دون اشارة الى مراجع واضحة، وأن الاختيار انما تم بقصد تأييد نظرية معينة. ورد الأستاذ ديوب على هذه النقطة قائلاً انه حرص على الا يقدم الا أشكالاً مرسومة أو قطعاً منحوتة، رغبة منه في اجتناب احتمال قيام مناقشة حول دلالة الألوان، ولكنه كان مضطراً الى الاستعانة بالمادة المتاحة له في دكار. والقائمة شاملة، وهي تمتد من عصر الدولة القديمة الى نهاية العصر الفرعوني. والواقع ان الشواهد تؤيد نظريته فعلاً، ولا بد بالضرورة من تقديم رسوم لمصريين «غير سود» لتأييد أي نظرية مخالفة لنظريته.

وفي أثناء المناقشة المسهبة حول الألوان، عاد الخلاف في الرأي فظهر من جديد بين الأساتذة فيركوتير وسونيرون وساف ـ سودربرج من ناحية والاستاذ ديوب من ناحية اخرى ولم يتنازل أي طرف عن أي شيء من رأيه خلال المناقشة. وكانت النقطة الوحيدة الظاهرة التي اتفقوا عليها هي ان الموضوع يستدعي مزيداً من الدراسة، مع الاستعانة بصفة خاصة بالمختبرات المتخصصة.

واعترف الأستاذ فيركوتير بأن هناك تماثيل لأشخاص سود في فن النحت المصري في عصر الدولة القديمة، وأورد امثلة لتعزيز كلامه، غير أنه رأى انها لا تمثل كل السكان المصريين الذين جرى تصويرهم على أي حال في تماثيل معاصرة تحمل ملامح مختلفة اختلافاً تاماً.

وتساءل الأستاذ فيركوتير متعجباً: لو ان المصريين، كانوا يعدون أنفسهم سوداً، فلماذا ندر استخدامهم ـ أو انعدم تماماً ـ للكربون الأسود في رسومهم التي يصورون فيها أنفسهم، ولماذا استخدموا بدلاً منه اللون الأحمر؟ فقال الأستاذ ديوب انه يعد هذا اللون الأحمر دليلاً على أن العنصر المصري أسود، وان تلوين النساء باللون الأصفر يؤكد هذه الحقيقة التي وجه علماء السلالات الأمريكيون النظر اليها حين أوضحوا أن القاعدة في عدد من الجماعات العنصرية التي درست، هي أن النساء كن أشحب لوناً من الرجال.

التحليلات اللغوية

تبين وجود قدر كبير من الاتفاق بين المشتركين في الندوة بشأن هذا البند، خلافاً للبنود التي سبقت مناقشتها. واعتبر التقرير الاجمالي الذي قدمه الأستاذ ديوب وتقرير الأستاذ أوبنجا تقريرين بناءين للغاية. وقد جرت المناقشة على مستويين.

ففي معرض الرد على ما قرره الاستاذ ديوب من أن اللغة المصرية ليست لغة سامية، قال الاستاذ عبدالله أن الرأي العكسي هو الرأي الذي جرى الاعراب عنه في اغلب الأحوال.

وجرت مناقشة حول قواعد اللغة ودلالات الألفاظ بين الأستاذ ديوب والاستاذ عبدالله عن جذر الكلمة التي يقرأها الاستاذ ديوب «كمت» KMT المشتقة من «كم» KMبمعنى «أسود» والتي يعتقد أنها اسم جمع يعني «السود أي الزنوج» بينما يؤيد الاستاذ عبد القادر م. عبدالله القراءة المتعارف عليها للكلمة وهي «كمتيو» KMTYW وترجمتها «مصريون» وهي جمع للفظة «كمتي» KMTYأي «مصري» نسبة الى كمت«الأرض السوداء» أي «مصر» وقد صادق الأستاذ سونيرون على القراءة والترجمة الأخيرتين.

وانتقل الأستاذ سونيرون الى موضوعات أوسع، فاسترعى الانتباه الى الاهتمام بالأسلوب الذي اقترحه الأستاذ أوبنجا مقتفياً اثر الأستاذ ديوب. فلقد ظلت اللغة المصرية لغة مستقرة مدة لا تقل عن ٤٥٠٠ سنة وتقع مصر عند نقطة التقاء عدة مؤثرات خارجية، ولذلك فقد كان من المتوقع ان تقترض من اللغات الأجنبية. ولكن الجذور السامية لا تزيد على بضع مئات بالمقارنة مع العدد الاجمالي الذي يقدر ببضعة آلاف كلمة في اللغة. ولا سبيل الى عزل اللغة المصرية عن سياقها الافريقي، كما أن أصلها لا يستطاع شرحه شرحاً كاملاً باللغة السامية فكان من الطبيعي اذن توقع وجود لغات مرتبطة بها في افريقيا.

على أن المطلوب هو اتباع اسلوب منهجي دقيق لمواجهة المشكلة الصعبة المتمثلة في وجود ثغرة طولها ٥٠٠٠ عام، وهي الفترة التي تفصل اللغة المصرية القديمة عن اللغات الافريقية المعاصرة.

واسترعى الأستاذ أوبنجا الانتباه إلى الحقيقة القائلة ان اللغة التي لا تثبت على شكل مكتوب، والتي تتطور تطوراً طبيعياً قد تحتفظ ببعض الأشكال القديمة، واستشهد على ذلك بأمثلة وردت في الكلمة التي القاها في اليوم الأول من أيام الندوة.

ولاحظ الأستاذ سونيرون ان الطريقة التي اتبعت تبعث على كثير من الاهتمام، لأنه ليس من قبيل المصادفة المحضة وجود تشابه بين الضمائر المتصلة للمفرد الغائب في اللغة المصرية القديمة وفي لغة الولوف. وأعرب عن أمله في الاقدام على محاولة لاعادة تكوين لغة افريقية قديمة باستخدام اللغات المعاصرة كنقطة بداية. ومن شأن هذا أن ييسر اجراء المقارنة مع اللغة المصرية القديمة. ورأى الاستاذ أوبنجا ان هذا الأسلوب هو اسلوب مقبول أما الاستاذ ديوب، فقد رأى أن من الضروري استخلاص منهج للبحث من خلال المقارنات اللغوية التي تجري، وساق مثالاً محدداً لما يقصده. وقال انه يرى وجود ارتباط اثني وارتباط لغوي وان كان ذلك بصورة اضعف، بين جماعات ولغات الدنكا والنوير والشيلوك من ناحية وجماعة الولوف ولغتها من ناحية اخرى. وقد وردت أسماء أعلام سنغالية في المجموعات المذكورة على مستوى العشيرة. ويعتقد الأستاذ ديوب على الأخص انه عثر بين الكاو-كاو، في التلال النوبية، على أوضح صلة بين اللغة المصرية القديمة ولغة الولوف.

وأشار الأستاذ فيركوتير الى مسألة جديدة بالاهتمام تتمثل في احتواء مقبرة سبك حتب على رسوم لثلاثة من أهل النيل، يعتبرون دون شك اسلافاً للدنكا أو النوير.

وضع منهجية جامعة للتخصصات ومشتركة بين التخصصات

كان هناك اتفاق تام بشأن هذه النقطة، بخصوص ضرورة اجراء دراسة تفصيلية بقدر المستطاع لجميع المناطق المتاخمة لوادي النيل والتي يحتمل أن تزودنا بمعلومات جديدة عن الموضوع المقدم الى الندوة.

ورأى الأستاذ فيركوتير أن من الضروري ايلاء الاهتمام الواجب لدراسة البيئة القديمة في الدلتا وفي الاقليم الشاسع الذي اطلق عليه الاستاذ بالوت اسم الهلال الافريقي الخصيب.

ودعا الأستاذ الشيخ أنتا ديوب الى اقتفاء آثار الأقوام التي نزحت صوب الغرب من دارفور حتى بلغت شاطىء الأطلنطي من خلال مسالك متفرقة، وصوب الجنوب بطول وادي زائير، وصوب الشمال الى السنغال على كل من جانبي يوروبا. كما أشار الى علاقات مصر مع سائر أفريقيا وكم تكون دراستها جديرة بالعناية وبقدر من التفصيل يفوق ما جرى عليه العمل حتى الآن. وأشار الى اكتشاف تمثال صغير لأوزيريس في اقليم شابا (في زائير) يرجع تاريخه الى القرن السابع قبل الميلاد.

وعلى غرار ذلك، قد يمكن اجراء دراسة عامة للغرض الذي يستخدم كأداة عمل والذي مؤداه أن الأحداث الجسام التي أثرت في وادي النيل، مثل تخريب طيبة على أيدي الأشوريين أو غزو الفرس في عام ٥٢٥ ق.م. قد كانت لها عواقب بعيدة المدى بالنسبة للقارة الأفريقية بأسرها.

النتائج العامة

من المتوقع أن يختلف تقييم المشتركين للنتائج الاجمالية التي أسفرت عنها الندوة اختلافاً كبيراً للغاية.

ولئن كانت ورقة العمل التحضيرية التي بعثت بها اليونسكو قد أوردت بيانات مفصلة عما هو مطلوب، فلم يقم جميع المشتركين باعداد بحوث تضاهي البحوث المضنية التي اسهم بها الاستاذان الشيخ انتا ديوب وأوبنجا، مما ترتب عليه أن افتقرت المناقشات افتقاراً حقيقياً الى التوازن.

ومع ذلك فقد كانت المناقشات بنّاءة للغاية لعدة أسباب:

(١) فقد أوضحت المناقشات بجلاء في حالات كثيرة أهمية تبادل المعلومات العلمية الجديدة.

(٢) وكشفت المناقشات لجميع المشتركين تقريباً عن أوجه النقص في المعايير المنهجية التي جرى استخدامها في البحوث حتى الآن.

(٣) واسترعت الانتباه الى نماذج من الأساليب المنهجية الجديدة التي يمكن بالاستناد اليها دراسة الموضوع المطروح على الندوة دراسة تتسم بمزيد من الطابع العلمي.

(٤) وعلى أي حال ينبغي النظر الى هذا الاجتماع الأول على اعتبار انه يشكل اساساً لاجراء مزيد من المناقشات الدولية والجامعة لعدة تخصصات، واعتباره نقطة بدء لاجراء مزيد من البحوث التي اتضحت ضرورتها بكل جلاء. ويدل العدد الكبير من التوصيات على رغبة الندوة في اقتراح برنامج للبحوث خاص بالمستقبل.

(٥) وأخيراً، فان الندوة قد مكّنت المختصين الذين لم تتح لهم الفرصة مطلقاً من قبل لمقارنة وجهات نظرهم ومضاهاتها بغيرها، من اكتشاف اساليب جديدة لمعالجة المشكلات ومصادر أخرى للمعلومات واتجاهات أخرى في البحوث تغاير ما ألفوه من قبل ولا ريب أن الندوة قد برهنت من هذه الناحية على أنها كانت بنّاءة أيضاً.

التوصيات:

تسترعي الندوة انتباه اليونسكو وغيرها من الهيئات المختصة الى التوصيات الآتية:

في مجال الانثروبولوجيا

من المرغوب فيه القيام بما يأتي:

(أولاً) أن تقوم اليونسكو بتنظيم اجراء استقصاء دولي، اما عن طريق مشاورة الجامعات في عدد كاف من البلدان أو بمشاورة خبراء من ذوي الشهرة العالمية فرادى، أو عن طريق عقد ندوة بغية وضع معايير محددة للغاية استناداً الى ادق المبادىء العلمية لتعريف العناصر وتحديد الأنماط العنصرية للهياكل العظمية المستخرجة من المقابر.

(ثانياً) التماس العون من الهيئات الطبية في عدد من الدول الأعضاء في اليونسكو بقصد اعداد ملاحظات احصائية عن الخصائص العظمية للهياكل العظمية أثناء الكشوف الطبية التي تجريَ على الجثث عقب الوفاة.

(ثالثاً) اعادة فحص الرفات الآدمية التي في حوزة المتاحف في جميع انحاء العالم في الوقت الراهن، واجراء دراسة سريعة للرفات التي اكتشفت في أثناء الحفائر الأخيرة التي اجريت في مصر، وبصفة خاصة في الدلتا، بغية اضافة معلومات جديدة الى المعلومات المتوافرة.

(رابعاً) أن تبذل السلطات المصرية كل ما في وسعها لتسهيل اجراء الدراسات اللازمة لبقايا الجلد التي يمكن فحصها، وأن توافق هذه السلطات على انشاء ادارة مختصة بعلم الانثروبولوجيا الطبيعية.

في مجال دراسة الهجرات

من المرغوب فيه الاضطلاع بالدراسات الآتية:

(أولاً) اجراء دراسة أثرية منظمة لأقدم العصور التي كانت فيها الدلتا آهلة بالسكان. وقد يجدر أن يسبق هذه الدراسة اجراء تحليل لعينة مستخرجة من باطن التربة في الدلتا. ويمكن اجراء دراسة لهذه العينة الجيولوجية وتحديد تاريخها في القاهرة وفي دكار في وقت واحد.

(ثانياً) اجراء بحث مماثل في مناطق الصحراء الكبرى القريبة من مصر وفي الواحات. وينبغي أن يتضمن هذا الاستقصاء القيام في وقت واحد بدراسة الرسوم والصور الملوّنة التي على الأحجار وجميع المواد الأثرية المتاحة. وهنا أيضاً يجوز تحليل العينات الجيولوجية وتحديد تأريخها في نفس الوقت.

(ثالثاً) أن يجري في الوادي نفسه استقصاء مماثل لذلك الذي اجري في شمال النوبة، أي بالمقابر غير الفرعونية، مع دراسة المظاهر المادية للثقافات القديمة المعنية، كما يهتم بعصور ما قبل التاريخ في الوادي بأسره بصفة عامة.

(رابعاً) اجراء استقصاء للمؤثرات الافريقية القديمة التي انعكست على الرسوم المصرية والمغزى التاريخي لها. وقد سبقت فعلاً الاشارة في الندوة الى مثالي القرد وجلد الفهد، ولا ريب في أنه سيتسنى اكتشاف حالات أخرى.

في مجال اللغويات

توصي الندوة باجراء دراسة لغوية دون ابطاء للغات الأفريقية التي يتهددها خطر محدق بالاندثار. وقد اقترحت لغة الكاو ـ كاو باعتبارها حالة بالغة الأهمية في هذا الصدد.

وفي الوقت نفسه ينبغي تعبئة الجهود لتحقيق التعاون بين المختصين في الدراسات اللغوية المقارنة على الصعيد الدولي رغبة في تحديد جميع العلاقات المتبادلة بين اللغات الأفريقية واللغة المصرية القديمة.

منهجية الاشتراك بين التخصصات والجمع بينها

تعرب الندوة عن أملها الصادق في:

(أولاً) امكان القيام بدراسات اقليمية جامعة للتخصصات في عدة مناطق مع مراعاة الأولويات التالية:

دارفور

المنطقة الواقعة بين النيل والبحر الأحمر

الحافة الشرقية للصحراء الكبرى

المنطقة النيلية جنوب خط العرض العاشر

وادي النيل بين الجندلين الثاني والسادس.

(ثانياً) اجراء بحث جامع للتخصصات على وجه الاستعجال بشأن الكاو ـ كاو الذين يواجهون خطر الانقراض الوشيك.

فك رموز الكتابة المروية

التقرير التمهيدي

أعد الأستاذ ج. لكلان تقريراً تمهيدياً بناء على طلب اليونسكو[١].

(أ) إن اللغة المروية التي كان يستخدمها أصحاب حضارتي نباتا ومروى ما زالت غير مفهومة على الرغم من انه قد تم فعلاً فك رموز كتابتها.

---

(١) انظر هذا التقرير التمهيدي في الملحق الرابع المرفق بالتقرير الختامي للندوة (١٩٧٤)

وقد أوضح السجل التاريخي للدراسات التي اجريت بشأن اللغة المروية كيف أن البحث المنظم الذي أجري على الكتابات المنقوشة ـ التي جمعت تدريجياً بطريقة عشوائية في أثناء الحفريات ـ لم يبدأ الا في السنين الأخيرة. ومن المحتمل أن تؤدي البحوث الأثرية الى الكشف عن مزيد من الكتابات المنقوشة في المستقبل. ولم يتم حتى الآن اكتشاف شيء منها في المنطقة الواقعة بين الجندلين الثاني والرابع. ويصدق هذا على طرق السفر المتجهة الى البحر الأحمر والوديان الكبيرة في الغرب وكردفان ودارفور.

ومن المهم بصفة خاصة أن تستمر الأعمال الأثرية وتتصل، حيث يوجد قدر معقول من الأمل في العثور ذات يوم على كتابة منقوشة بلغتين.

(ب) تم نشر النتائج كاملة في «النشرة الاعلامية المروية Meroitic Newsletter التي ظهر منها حتى الآن ثلاثة عشر عدداً، وبفضلها أمكن الاسراع في نشر النتائج في الوقت الذي كانت لا تزال فيه مجرد نتائج اولية في بعض الأحيان وقد عقدت اجتماعات منتظمة للمختصين في الخرطوم في ديسمبر (كانون الأول) ١٩٧٠ وفي برلين الشرقية في سبتمبر (أيلول) ١٩٧١ وفي باريس في يونيو (حزيران) ١٩٧٢، ومرة أخرى في يوليو (تموز) ١٩٧٣ ووردت النتائج التي أسفر عنها الاجتماع الأخير في «مذكرة المعلومات رقم ٣٤» Information Note No 34 التي أصدرتها اللجنة العلمية الدولية لكتابة التاريخ العام لافريقيا في اليونسكو.

وقد استخدمت عمليات الحاسب الالكتروني عدة سنوات لتحليل اللغة المروية، وكان من نتيجة ذلك أن تحقق تقدم كبير وسريع في هذا الميدان.

وأمكن الشروع في تحليل بنية اللغة عن طريق تجميع قوائم من النصوص. وتحتوي فهارس الألفاظ المسجلة في الوقت الراهن على ١٣٤٠٥ وحدات، وقد تم الاهتداء الى وسيلة لتوجيه اسئلة الى الآلة.

وعلى هذا الأساس جرت محاولة لعقد مقارنة بين اللغة المروية واللغة المصرية أو النوبية عن طريق استخدام ألفاظ لها معنى معروف أو يمكن استنتاجه.

(ج) وأنهى الأستاذ لكلان عرضه ببيان عن اتجاهات البحوث الجارية في الوقت الحالي، فأوضح أن: الأستاذ هنتزا يعمل في مجال البنى اللغوية، والأستاذ شانيكل يعمل في مجال تحسين البيانات التي سيجري تسجيلها بالحاسب الالكتروني، والأستاذ عبد القادر م. عبدالله يمضي في اجراء بحث سيتحدث عنه بايجاز، وقد حقق نتائج تعزز النتائج التي توصل اليها الفريق الدولي.

وستشمل الجهود المقبلة اجراء مقارنة بين اللغة المروية واللغات الافريقية الأخرى، والكشف عن منزلتها بين مجموعة اللغات الأفريقية، وبصفة خاصة عن علاقتها باللغة النوبية وستجري مقارنات أخرى مع لغات الكلام في المناطق المتاخمة للمنطقة الأثيوبية. وأخيراً، فمن المرغوب فيه مقارنة اللغة المروية باللغات الأفريقية كلها.

المناقشة

١ ـ أكد الاستاذ عبدالله اقراره للطريقة التي اتبعت في تدوين اللغة المروية والطريقة التي استحدثت لتسجيل النصوص. واسترعى الانتباه الى ما في معرفتنا من ثغرات: فهناك جهل يكاد يكون تاماً

بنظام الضمائر، وباستخدام ضمائر الاشارة، وبطبيعة الضمائر البادئة prefixes واللاحقة suffixes ومن الضروري معرفة اللغات الأخرى التي تربطها ثمة روابط باللغة المروية.

وحبذ الاستاذ عبدالله اجراء ضرب من ضروب التشريح للغة لدراسة مكوناتها. واسترعى الانتباه الى حركية العناصر التي تتألف منها أسماء الأشخاص، حيث يكون لهذه العناصر دلالات اجتماعية. وتتكرر نفس العناصر المتحركة في أسماء عدة اشخاص في العائلة الواحدة. أما أسماء بعض الأطفال فتتألف من عناصر مأخوذة من أسماء امهاتهم وآبائهم، كما تشكل الأسماء ألقاباً، ويحتوي بعضها على أسماء أماكن.

٢ ـ وقال الأستاذ شيني ان هناك ثلاث طرق ممكنة لمعالجة هذا الأمر، وهي: اكتشاف نص مكتوب بلغتين، واجراء تحليل داخلي لبنية اللغة، واجراء مقارنة مع اللغات الافريقية الأخرى.

وقد اثبتت المقارنة المباشرة بين اللغتين غير العربيتين الأساسيتين في شمال السودان وبين مجموعة M عدم جدواها. وربما أثبتت اللغة المروية أنها يمكن أن تساعد في اجراء هذه المقارنة.

٣ ـ أكد الأستاذ كاكوسي ـ الذي كان حاضراً كمراقب ـ على ضرورة دراسة مصادر الوثائق، وقال انه توجد في بودابست أجزاء من موائد القرابين عثر عليها في موقع قريب من أبو سمبل، واقترح المبادرة بضم هذه الأجزاء الى مجموعة النقوش المروية.

٤ ـ أعرب الأستاذ الشيخ انتا ديوب عن اغتباطه الشديد بالتقدم الذي احرز. والى أن يتم التوصل في المستقبل الى اكتشاف نص مكتوب بلغتين، اقترح الافادة من الأساليب التي تعتمد على استخدام الحاسب الالكتروني والتي أمكن بفضلها فك رموز كتابة المايا الهيروغليفية جزئياً على يد فريق لننجراد برئاسة الأستاذ كنوروسوف. وقد فكت رموز معظم الكتابات بالاستعانة بنصوص مكتوبة بلغتين أو اكثر. والاجراء الصحيح في حالة اللغة المروية هو الجمع بين نصوص مكتوبة بلغات متعددة وبين امكانيات الحاسب الالكتروني على النحو التالي:

(أ) ينبغي، كاجراء منهجي محض، افتراض وجود علاقة بين المروية واللغات الزنجية ـ الافريقية، وبهذا يتسنى خلق وضع يقوم على تعدد اللغات.

(ب) بما انه اصبح من المستطاع في الوقت الراهن قراءة ٠٠٠ ٢٢ كلمة مروية بقدر من الثقة، لذلك ينبغي أن تعد مجموعة من المفردات الأساسية قوامها ٥٠٠ لفظة على بطاقات مثقوبة لكل لغة من المائة لغة افريقية التي يختارها فريق مناسب من اللغويين اختياراً دقيقاً. ومن الممكن أن تكون الألفاظ المختارة هي مثلاً الألفاظ الدالة على أجزاء الجسم، أو التعبيرات الدالة على صلات القرابة أو المصطلحات الدينية، أو الألفاظ المتعلقة بالحضارة المادية، وهلم جراً.

(ج) يتعين برمجة الحاسب الالكتروني بحيث يستطيع مثلاً أن يميز بين ثلاثة أحرف ساكنة متطابقة، أو حرفين ساكنين متطابقين، وهلم جراً.

(د) وينبغي القيام بناء على النتائج التي يتم الحصول عليها، باجراء مقارنة بين بنى اللغات محل البحث.

وتعد هذه الطريقة أفضل من طريقة المقارنة العشوائية بين البنى اللغوية. اذ لا يعرف حتى الآن سوى الشيء القليل عن قواعد اللغة المروية. كما تعد هذه الطريقة انجع من انتظار نتيجة اجراء دراسة غير مقارنة للبنية الداخلية للغة المروية.

وحبذ الأستاذ لكلان هذه الطريقة في البحث والعمل، على اعتبار أنها يمكن أن تتمخض عن معلومات قيمة جداً. وفي رأيه ان من المفيد عدم الاقتصار على ابراز أوجه الاتفاق من حيث السمات الموجودة فعلاً، بل ينبغي كذلك ابراز أوجه الاتفاق من حيث السمات السلبية غير الموجودة (مثل عدم وجود بعض التراكيب أو بعض صور تتابع عناصر الجملة) وتساءل السيد جليلي عن المدى الذي يستطاع في حدوده استخدام الأساليب التي استخدمت في فك رموز اللغات الأخرى، في تبديد الغموض المحيط باللغة المروية. وقرر أن الأستاذ كنوروسوف والأستاذ بتروفسكي قد دعيا الى الندوة، شأنهما شأن الأستاذ هولتشر والأستاذ هنتزا لتقديم المعلومات المطلوبة.

وقال الأستاذ لكلان انه قد اجريت دراسة واسعة النطاق للغاية لهذا الموضوع في اجتماعات عقدت في باريس ولندن خلال صيف عام ١٩٧٣. غير ان العمل لم يتجاوز حتى الآن مرحلة وضع فروض العمل في كل من كتابة «موهنجودارو» Mohenjodaro والمايا.

على أن الأستاذ ديوب أعرب عن أمله في عدم التخلي عن فكرة استخدام الطرق المقارنة جنباً الى جنب مع دراسة البنى ووافق الأستاذ سونيرون على اقتراحه وانتهز الفرصة ليؤكد اهمية العمل الذي اضطلع به فعلاً فريق الدراسات المروية.

أما المناقشة التي تلت ذلك، فقد انصبت على الأخص على لغات السودان. وأكد الأستاذ ساف ـ سودربرج أن دراستها مهمة على أي حال، لأن معرفة هذه اللغات ـ بغض النظر عن موضوع مقارنتها باللغة المروية ـ تساعد على تقدم علوم اللغات الافريقية. وعند هذه المرحلة، تقدم الأستاذ ساف ـ سودربرج بملخص لتوصية بهذا المعنى. كما أكد أن من الممكن ـ ولو بمبالغ ضئيلة ـ انشاء امانة تتسم بالكفاءة للاسراع بتجميع المواد ومعالجتها بالحاسب الالكتروني واعادة توزيع المعلومات.

وأخيراً، جرت مناقشة حول فحوى التوصيات، فأعرب الاستاذ ديوب عن امله في أن يستمر فريق الدراسات المروية في عمله الممتاز بمعاونة دولية كاملة، وأن تجري عملية تجميع منظمة للمفردات في السودان، وأن تجري عمليات تجميع مماثلة في مناطق اخرى من افريقيا بالتعاون مع الأستاذ أوبنجا. ووافق الأستاذ سونيرون على جميع هذه الاقتراحات. ولما كان الأثر النهائي لهذا العمل بالنسبة للتوصل الى فك رموز اللغـة المرويـة أمراً غير مؤكد فقد أعرب عن أمله في أن يجري تطوير دراسة اللغات الأفريقية على حدة كهدف مستقل مقصود لذاته، حتى ولو كان مندمجاً بصورة جزئية في المشروع الشامل. ومن المحتمل أن يستغرق هذا العمل وقتاً طويلاً للغاية، غير انه من الضروري وضع منهاج سليم جداً منذ البداية، بعد تقييمه تقييماً نقدياً دقيقاً. وحبذ الأستاذ اوبنجا هذه الفكرة، واقترح اعداد قوائم تسجل فيها السمات النحوية والصرفية المعروفة حالياً في اللغة المروية. ورأى الاستاذ لكلان أن هذا الاقتراح يمكن وضعه موضع التنفيذ على الفور. وأعرب الأستاذ حبشي عن أمله في عدم اغفال الحاجة الى اجراء بحوث أثرية.

وقال السيد جليلي في معرض الرد على الاقتراح المنهجي الذي قدمه الأستاذ أوبنجا انه سيتم البت في مسألة المناهج التي تتبع عند استكمال عضوية الفريق الدولي المسؤول. وأوضح ان اليونسكو تساعد الدراسات التي تجري في الخرطوم بخصوص اللغات السودانية، وانها تستطيع تقديم منح دراسية في هذا المجال طبقاً لاجراءاتها المعتادة. كما تقوم اليونسكو بتمويل وادارة برنامج خاص باللغات الافريقية، وقد اعتمدت منذ وقت قريب خطة مدتها عشر سنوات لهذا الغرض.

التوصيات

١ ـ (أ) يعرب الاجتماع عن ارتياحه للعمل الذي اضطلع به فريق دراسة اللغة المروية في باريس بالتعاون مع علماء من بلدان اخرى كثيرة، ويود أن يقرر أن العمل مبني على أساس متين، ويبشر بنتائج طيبة.

(بّ) قرر الاجتماع باجماع الآراء اقتراح التدابير الآتية لدفع عجلة العمل في هذا المشروع:

(١) سرعة انجاز عمليات الحاسب الالكتروني عن طريق توفير أموال اضافية وتوزيع المعلومات في صورة منقحة ومحسنة على المراكز الرئيسية للدراسات المروية.

(٢) اعداد قوائم كلما أمكن ذلك بالأسماء الشخصية المروية وأسماء الأماكن والألقاب وتصنيف التراكيب اللغوية، والمضي في التعاون مع الاخصائيين في العلوم اللغوية الأفريقية.

(٣) اعداد ونشر مجموعة كاملة من جميع النصوص المروية مع الببليوغرافيا (المراجع) والصور الفوتوغرافية والمستنسخة والمستخرجات من الملفات الموجودة (Répertoire D'Epig-raphie Méroïtique).

(ب) اعداد مجموعة كاملة من المفردات المروية.

(ج) وبما أن نتائج المشروع التي تم التوصل اليها حتى الآن هي نتائج سليمة علمية وتبشر بتطور موفق، وحيث ان الجزء الأكبر من نفقات المشروع بأسره قد تمت تغطيته فعلاً بأموال وردت من مصادر شتى، فان هذا الاجتماع يرى ان من الضروري كفالة استمرار المشروع وانجازه، وذلك بتوفير الأموال اللازمة لتحقيق الأغراض التالية:

(١) تكاليف السكرتارية والموظفين اللازمين للتوثيق والنشر العلمي للمواد.

(٢) تكاليف البحث في المجموعات والمتاحف.

(٣) تكاليف أسفار الاخصائيين.

(٤) تكاليف ثقب البطاقات واستخدام الحاسب الالكتروني.

٢ ـ وتتمثل الخطوة التالية من خطوات البحث في اجراء دراسات بنيوية ومعجمية مقارنة للغات الأفريقية، وفي طليعتها لغات السودان والمناطق المتاخمة لأثيوبيا. التي اصبح بعضها في طريقه الى الاندثار في الوقت الراهن. وتتمثل افضل طريقة لتحقيق هذه الغاية في تهيئة تدريب لغوي للطلبة السودانيين في جامعة الخرطوم، ويفضل منهم الطلبة الذين تعتبر هذه اللغات لغاتهم الأصلية.

وسيكون لمثل هذا التدريب جدواه في أغراض اخرى عديدة. ويحتاج مثل هذا المشروع، الذي من شأنه أن يكمل العمل القيم الذي يجري الآن فعلاً في السودان، الى التفاوض بشأنه مع جامعة الخرطوم، كما يحتاج الى توفير اعتمادات للمنح التعليمية اللازمة.

٣ ـ يضاف الى ذلك أن من المرغوب فيه اجراء استقصاء لغوي على نطاق أوسع يشمل جميع اللغات الأفريقية بغية جمع الألفاظ الرئيسية. وينبغي أن يتم هذا الاستقصاء بطريق التعاون مع فريق دراسة اللغة المروية، وأن يديره اخصائيون تختارهم اليونسكو بالتعاون مع اللجنة العلمية الدولية لتاريخ أفريقيا العام. ويتعين حصر الاختيار في نحو ٥٠٠ كلمة من فئات مختارة من قرابة ١٠٠ لغة.

وستشكل هذه المجموعة بعد معالجتها بالحاسب الالكتروني اداة ثمينة لا بالنسبة لفك رموز اللغة المروية فحسب، بل ولحل مشكلات لغوية كثيرة اخرى في افريقيا الحديثة.

الخاتمة

بقلم: ج. مختار

في هذا المجلد جرت محاولة بقدر الامكان، لتوضيح الاتجاهات الرئيسية في التاريخ المبكر لافريقيا، والتغييرات الرئيسية التي حدثت، والاتصالات الأساسية بين أقاليمها المختلفة، وحالة المجتمعات والمجموعات الافريقية في الفترة موضع البحث.

ويحدد المجلد اطاراً عاماً للبحث كما يحدد الخطوط العريضة التي يجب أن تسير عليها الدراسات. ومع ذلك فقد بدا واضحاً بالفعل أنه من الممكن التوصل الى بعض النتائج، وتبين بعض الفروض وذلك على الرغم من أنه ينبغي التأكيد بوضوح وقوة على أنه لا يزال هناك الكثير مما يجب تحقيقه ومن الدراسات العميقة الواجب اجراؤها.

والأبواب الخاصة بمصر القديمة توضح أنه في الفترة ما قبل الألف الثالثة من عصرنا، حققت مصر مستويات ثقافية واجتماعية ومادية عالية بالمقارنة بمعظم انحاء العالم الأخرى. ان الحضارة المصرية القديمة، بالاضافة الى أنها عريقة وأصيلة وغنية بمبادراتها عاشت لمدة تقارب الثلاثة آلاف سنة. ولم يكن ذلك راجعاً للعوامل البيئية المواتية فحسب بل كان راجعاً أيضاً للجهود التي بذلت للتحكم في هذه العوامل، واستخدامها على نحو مفيد. وليس هناك شك في أن العوامل الطبيعية قد لعبت دوراً هاماً وبارزاً في تطور الحضارة المصرية القديمة. الا ان هذا الدور من ناحية أخرى، قد اكتمل وازداد فعالية فقط من خلال كفاح المصريين لترويض بيئتهم والتغلب على الصعوبات والمشكلات التي فرضتها، وليجعلوها مفيدة لرخائهم.

وباختراع الكتابة في فترة عصر ما قبل الأسرات، حقق قدماء المصريين تقدماً ملحوظاً نحو الحضارة، فلقد زادت الكتابة من نطاق اتصالات الانسان، ونمت عقليته ووسعت مداركه، لقد كان

اختراع الكتابة أكثر أهمية وفعالية من أي معركة خاضها قدماء المصريين ومن أي انجاز حققوه. ولقد ظهرت أول كتابة نحو عام ٣٢٠٠ قبل الميلاد تقريباً وما زالت في مرحلتها الأخيرة ـ اللغة القبطية مستعملة حتى اليوم في الكنائس القبطية في مصر، وهكذا نستطيع ان نعتبر أن الحياة الغنية التي عاشتها اللغة المصرية القديمة على مدى خمسين قرناً هي أطول حياة عاشتها أي لغة أخرى في العالم. وأخيراً نستطيع القول ان اختراع الكتابة كان المرحلة الرئيسية التي خطاها المصريون في طريقهم الطويل نحو الحضارة والرخاء.

ويرجع الفضل في معرفتنا لمصر القديمة أساساً لاختراع الكتابة وانشاء نوع من التقويم الزمني على ان ذلك ليس نفس نظام التقويم الذي نستخدمه الآن لأن قدماء المصريين كانوا يؤرخون الأحداث التي يشاؤون تسجيلها حسب الملك الذي كان يحكم وقتها. ولكن بفضل هذا النظام نفسه استطاع المؤرخ «مانثين» من سيبينيتوس ترتيب حكام مصر من الملك مينا الى الاسكندر الأكبر في ثلاثين أسرة. كما أن العلماء المحدثين جمعوا عديداً من هذه الأسر وقسموها تحت اسماء مثل الامبراطورية القديمة والحديثة والجديدة.

وعلى الرغم من أن مصر كانت مفتوحة للتيارات الثقافية خاصة القادمة من الشرق فان هذا المجلد يوضح كيف أن الحضارة المصرية استندت الى حد كبير على قاعدة افريقية، وأن مصر، التي هي جزء من افريقيا، كانت من المراكز الرئيسية للحضارة العالمية في العصور القديمة وان القدر الكثير من المعرفة العلمية من الفن والأدب قد انبعث من تلك المنطقة وأثر على اليونان بالذات، وفي مجال الرياضيات (الهندسة والحساب. . . الخ) والفلك وقياس الزمن (التقويم) والطب، والهندسة المعمارية والموسيقى والأدب (الرواية والشعر والتراجيديا. . . الخ) فان اليونان تلقت وطورت ـ ومن ثم نشرت في الغرب جزءاً كبيراً من التراث المصري ـ من مصر الفرعونية والبطلمية. وعن طريق اليونان وفينيقيا لم تدخل الحضارة المصرية القديمة الى أوروبا فقط بل الى شمال افريقيا وحتى الى شبه القارة الهندية.

وهناك اختلافات شاسعة في الآراء حول تكوين شعب مصر وهو الامر الذي ما زال موضع دراسة جادة وعميقة. ومن المأمول ان التقدم الكبير في مناهج علم الأجناس البشرية الطبيعي سيمكن من الوصول الى استنتاجات محددة في هذا الموضوع في المستقبل القريب.

واستناداً الى السجلات المذكورة في هذا المجلد، فان بلاد النوبة كانت مرتبطة بمصر منذ أقدم الأزمان بصورة وثيقة نتيجة لعوامل مختلفة: عوامل طبيعية وبالأخص تشابه السمات الجغرافية خاصة بين النوبة وأقصى جنوب مصر العليا، وعوامل تاريخية وسياسية هامة في حد ذاتها وان عززتها العوامل الطبيعية فضلا عن عوامل اجتماعية انعكست على الثقافة والدين. لذا فمنذ بداية حكم الأسرة المصرية الأولى وخلال المملكة القديمة، أبدى المصريون قدراً كبيراً من الاهتمام بالمناطق الشمالية من النوبة التي اعتبروها جزءاً مكملا لبلادهم. ونظموا تدفق التجارة مع النوبيين، واستغلوا الموارد الطبيعية للنوبة، وعندما كان النوبيون يبدون مقاومة كانوا يرسلون حملات عسكرية لانهائها. ان الرحالة الأول ورواد الاستكشاف مثل أوني، ميخو، صابني وخويفير (حاركوف)، قادوا بعض حملات المملكة القديمة التي توغلت في الصحراء الكبرى وربما في داخل أواسط افريقيا.

وقد انعكس اهتمام المصريين ببلاد النوبة في تشييدهم للعديد من المعابد التي كانت، بجانب كونها مراكز دينية، تظهر حضارة مصر وقوّتها، وجبروت وقداسة ملكها. وكان السبب الرئيسي لمثل هذا الاهتمام هو ان بلاد النوبة كانت ومنذ أقدم العصور ممراً للتجارة بين البحر المتوسط وقلب افريقيا؛

لذلك حوت النوبة بقايا عدد من القلاع من الفترة الفرعونية والرومانية كانت قد بنيت لحماية التجارة واقرار السلام في تلك المناطق.

وعلى أي حال فقد مثلت النوبة وحدة جغرافية واجتماعية منذ عصر ما قبل التاريخ. فمنذ فجر التاريخ سكنها شعب له نفس ثقافة شمال وادي النيل. ولكن منذ حوالى عام ٣٢٠٠ قبل الميلاد، بدأ المصريون في التفوق على جيرانهم في الجنوب في ميدان الثقافة، وخطوا خطوات واسعة نحو الحضارة، بينما ظل النوبيون في مستوى ما قبل التاريخ لفترة طويلة.

وفي النصف الأول من الألف سنة الثانية قبل الميلاد، ازدهرت في النوبة ما يسمى حضارة كرمة وهي من الحضارات الغنية والزاهرة. وبالرغم من انها كانت متأثرة الى حد كبير بالثقافة المصرية الا انها كانت لها سماتها المحلية. وبعد بداية الالف سنة الاولى قبل الميلاد، وبعد ان اخذت قوة مصر في الانهيار، تأسست ملكية محلية واتخذت نبتة عاصمة لها، وهي التي حكمت مصر نفسها فيما بعد. وقد أدت سيطرة النوبة على مصر لمدة خمسين عاماً وخلال الفترة السابعة (المرحلة الأولى من حكم الأسرة الخامسة والعشرين) الى وحدة مصر والنوبة. وقد حققت تلك القوة الافريقية مجداً ملحوظاً كما أوضح الكتاب الكلاسيكيون.

وقد شهدت النوبة فترة رخاء وتقدم بعد نقل العاصمة الى مروى. واستأنفت اتصالاتها مع جاراتها حتى حوالى القرن التاسع، وما زال توسع المملكة المروية نحو الغرب والجنوب ودورها في نشر أفكارها وتقنياتها وبثها للتأثير الشرقي والغربي موضع دراسة ومناقشة. وحتى بعد نشر هذا المجلد فان دفعة أخرى يجب أن تعطى للجهود المبذولة لفك رموز المخطوطات المروية. وستكشف الوثائق التسعمائة الموجودة الآن النقاب عن معلومات من أصناف شتى. وستكشف أيضاً ـ جنباً الى جنب مع اللغة الفرعونية – عن وجود لغة كلاسيكية جديدة؛ لغة افريقية خالصة.

وابتداء من القرن الرابع من عصرنا، بدأت المسيحية في الانتشار في النوبة حيث حولت المعابد الى كنائس. وكان دور النوبة المسيحية أيضاً كبيراً، وانجازاتها متعددة، ونفوذها كبيراً على جيرانها.

كان عصر النوبة المسيحية الذهبي خلال القرن الثامن، حين تمتعت بفترة مبدئية من النمو والرخاء. وظلت النوبة تحت الحكم الملكي المسيحي حتى انتشر الاسلام في جميع أنحاء البلاد. ومنذ ذلك الوقت بدأت الثقافة العربية الاسلامية في اكتساح البلاد، التي فقدت طابعها التقليدي الى حد كبير.

وبسبب موقعها الجغرافي لعبت النوبة دوراً خاصاً وأحياناً دوراً غير تطوعي كوسيط بين وسط افريقيا والبحر المتوسط. وقد أكدت مملكة نبتة، وامبراطورية مروى، والمملكة المسيحية، ان النوبة حلقة وصل بين الشمال والجنوب. فعن طريقها شقت الثقافة والتقنيات والمواد طريقها الى المناطق المحيطة وعن طريق البحث المتواصل يمكننا ان نكشف ان الحضارة المصرية ـ النوبية لعبت دوراً في افريقيا مشابهاً لذلك الذي لعبته الحضارة الاغريقية الرومانية في أوروبا.

وقد بعث الاهتمام بتاريخ النوبة القديمة مؤخراً عندما تجسد المشروع المصري لبناء السد العالي في أسوان. ومنذ أول وهلة بدا انه من المؤكد أن بناء السد سيعني اغراق ستة عشر معبداً، وكل المذابح الكنيسية، والكنائس، والمقابر والمخطوطات على الصخور وبقية المواقع التاريخية في منطقة النوبة التي ستغمرها المياه، وكانت هذه الآثار قد بقيت سليمة على مر الزمان. وبناء على طلب مصر والسودان وجهت اليونسكو نداء عام ١٩٥٩ تناشد فيه كل الدول، والمنظمات وذوي النوايا الطيبة تقديم

المساعدات الفنية والعلمية والمالية لانقاذ آثار النوبة. وبدأت في التو حملة عالمية ناجحة أنقذت غالبية الآثار النوبية التي تمثل قروناً من التاريخ وتحمل المفاتيح لمعرفة ثقافات قديمة.

ان المزيد من الحفريات الأثرية حول موقع كرمة وحيث وجد ان الطقوس الجنائزية ولاسيما في منطقة دنقلة والواحات الجنوبية الغربية مشابهة للطقوس في (غانا) ستعطينا فكرة أفضل عن صلات القرابة الثقافية القديمة وقد تكشف النقاب عن حلقات أخرى في سلسلة الثقافات بين وادي النيل والمناطق الواقعة داخل افريقيا. وعلى أي حال فستعطينا فكرة أكثر وضوحاً عن خط الرحلة الذي أتبعه مستكشفو الامبراطورية القديمة مثل (حاركوف).

ومع أن أثيوبيا كانت في بادىء الأمر متأثرة بالعديد من الدوافع، الا انها أقامت وحدة ثقافية يمكن القول بأن جوهرها الأساسي جاء من جنوب الجزيرة العربية. وتدل مصادر مادية، يرجع تاريخها الى الفترة الثانية قبل الأسرة (الاكسومية)، على وجود ثقافة محلية استوعبت التأثيرات الأجنبية.

واتخذت مملكة أكسوم التي استمرت منذ القرن الأول لعصرنا هذا الألف عام شكلا مختلفاً تماماً عن أشكال الفترة الأكسومية. وكانت حضارة أكسوم مثل حضارة مصر القديمة، نتيجة لتطور ثقافي ترجع جذوره الى ما قبل التاريخ. كانت حضارة افريقية، انتجها شعبها بالرغم من ان بعض التأثير المروي يمكن ملاحظته في الآثار الفخارية التي تنتمي الى الفترة الثانية لما قبل الأكسومية.

وخلال القرنين الثاني والثالث، ساد التأثير المروي في أثيوبيا. وتظهر مسلة أكسوم التي اكتشفت مؤخراً والتي وجد عليها رمز الحياة للمصريين (عنخ)، وآثار ذات صلة بهاتور وتباح وحورس وكذلك الجعارين، تظهر كل هذه الأشياء تأثير الديانة المروية المصرية على المعتقدات الأكسومية.

لقد كانت المملكة الأكسومية قوة تجارية هامة على طريق العالم الروماني الى الهند وعلى طريق الجزيرة العربية الى شمال افريقيا، وكانت أيضاً مركزاً لنشر الثقافة ولم تتناول الأبحاث التي اجريت حتى الآن سوى جوانب قليلة من الثقافة الأكسومية وجذورها الافريقية بينما لا يزال هناك الكثير مما يجب عمله في هذا الصدد.

وقد أحدث وصول المسيحية الى أثيوبيا ـ كما حدث في مصر ومروى ـ تغييرات كبيرة في ثقافة وحياة شعبها. الا ان دور المسيحية، واستمرارها في أثيوبيا، وتأثيرها داخل وخارج تلك البلاد، هي موضوعات هامة تستحق الدراسة المتعمقة في المستقبل القريب.

وازاء قصور المصادر التاريخية المتاحة لنا، فان التوصل الى مزيد من المعرفة حول تطور الحضارة الليبية المحلية ورد فعلها ازاء ادخال الحضارة الفينيقة لا بد أن ينتظر حتى يقوم المؤرخون وعلماء الآثار بالمزيد من الدراسات.

ولذلك فانه يمكن في ضوء قدر المعرفة المتوفر حالياً، اعتبار ان دخول المغرب الى التاريخ المسجل يبدأ بوصول الفينيقيين الى شاطىء شمال افريقيا، وذلك بالرغم من أن الاتصالات القرطاجية مع شعوب الصحراء بل مع الشعوب التي تعيش في أقصى الجنوب تظل غامضة. وفي الوقت نفسه يجب توضيح أن ثقافة شمال افريقيا ليست مدينة للفينيقيين فقط فيما يتعلق بالهامها المبكر لأن ذلك كان وبصورة أساسية الهاماً افريقياً.

ولقد أدخلت الفترة الفينيقية المغرب في التاريخ العام لعالم البحر المتوسط لأن الثقافة الفينيقية اختلطت مع بعض العناصر المصرية والشرقية واعتمدت على علاقات تجارية مع بلاد البحر المتوسط الأخرى، ومع ذلك فان الفترة اللاحقة من الممالك النوميدية، والموريتانية شهدت تطور ثقافة لها طابع ليبي وفينيقي مختلط.

وعلى الرغم من الندرة البالغة وعدم اكتمال ما توفر لدينا من معرفة حول الصحراء الكبرى وثقافتها في قديم الزمان الا انه يمكن ذكر بعض النقاط. فمن المؤكد ان جفاف المناخ لم يقتل الصحراء وان النشاط الانساني استمر هناك، وان اللغات والكتابات قد تعززت، وأنه، بزيادة استعمال الجمال، تطورت وسائل المواصلات مما أدى الى ان تلعب الصحراء دوراً هاماً في المبادلات الثقافية بين المغرب وافريقيا الاستوائية.

لذا يمكننا ان نستنتج ان الصحراء الكبرى لم تكن حاجزاً ولا منطقة ميتة وانما كانت منطقة لها ثقافتها وتاريخها، الأمر الذي ما زال يحتاج للدراسة لاكتشاف التأثير المتزايد على الحزام السوداني. فقد كانت هنالك دائماً اتصالات ثقافية نشطة عبر الصحراء، مع افريقيا شبه الصحراوية وكان أثر ذلك كبيراً على تاريخ افريقيا[١].

وحتى الآن فانه من المعتاد تحديد بداية تاريخ المناطق الافريقية الواقعة جنوب الصحراء الكبرى بحوالى القرن الخامس عشر لعصرنا هذا[٢]، لسببين أساسيين هما ندرة الوثائق المكتوبة والتفرقة المذهبية القاطعة التي وضعها المؤرخون بين ذلك الجزء من القارة وبين مصر القديمة وشمال افريقيا.

لقد ساعد هذا المجلد، رغم الفجوات وعدم الاكتمال في البحوث التي أجريت حتى الآن، في اظهار امكانية الوحدة الثقافية لجميع أنحاء القارة في أكثر الحقول تنوعاً.

ولقد نوقشت نظرية القرابة الوراثية بين المصرية القديمة وبين اللغات الافريقية. واذا أكدت الأبحاث هذه النظرية فستثبت الوحدة اللغوية العميقة الجذور للقارة. وان تشابه الهياكل الملكية وعلاقات الطقوس ومعتقدات نشأة الكون (الختان والطوطمية والحيوية والتناسخية. . . الخ) وتقارب الثقافات المادية (مثل المحراث) كلها أمور يجب ان تدرس بتعمق في المستقبل.

ان التراث الثقافي الذي خلفته لنا المجتمعات التي عاشت في مصر وبلاد النوبة وأثيوبيا والمغرب يتسم بأهمية بالغة. ان فكرة التوحيد التي فرضها المسيحيون ومن قبلهم اليهود في تلك المناطق كانت قوية ومعبرة وقد مهدت، دون شك، لدخول الاسلام في افريقيا. وتعتبر هذه الحقائق المعروفة في جانب أصول الافريقيين، بينما يوجد هنالك في جانب الخصوم مجالات غير واضحة والتي ما زالت تتطلب عملا كبيراً يجب انجازه وذلك فضلا عن نقاط كثيرة غير مؤكدة يتعين ايضاحها.

وبالمثل فان الوفاء بالشرط الثالث لكتابة المجلدين الأول والثاني، أي اعادة تحديد شبكة الطرق الافريقية القديمة منذ عصور ما قبل التاريخ، وتحديد حجم المساحات المزروعة خلال نفس الفترة عن طريق تحليل الصورة الفوتوغرافية التي التقطت بالأقمار الصناعية لذلك الغرض، سيتيح وحده الفرصة لتوسيع وتعميق معلوماتنا عن العلاقات التجارية والثقافية بين دول القارة الافريقية في ذلك الزمان والمساحات التي شغلتها من الأرض.

وان اجراء المزيد من العمل المكثف في مجالات تحديد أسماء الاجناس البشرية والمواقع سيتيح لنا تحديد تيارات الهجرة والصلات بين أجناس غير معروفة من طرف القارة الى الطرف الآخر.

وانه ليحدوني الأمل في أن يغري هذا المجلد البلاد الافريقية على ابداء المزيد من الاهتمام واعطاء المزيد من المساعدة لدراسة الآثار الخاصة بافريقيا القديمة.

(١) انظر الفصل التاسع والعشرين «المجتمعات الافريقية جنوب الصحراء الكبرى في العصر الحديدي المبكر» للبروفيسير ميريك بوسنانسكي، وهو يتناول النتائج التي تم التوصل اليها في آخر عشرة أبواب في هذا المجلد والتي تخص افريقيا جنوب الصحراء.

(٢) أعطى بعض الكتاب في البلاد الافريقية الناطقة بالانجليزية والفرنسية على السواء قدراً كبيراً من الاهتمام بافريقيا شبه الصحراوية قبل القرن الخامس عشر.

أعضاء اللجنة العلمية الدولية لتحرير تاريخ أفريقيا العام

التواريخ الواردة بعد هي تواريخ بدء العضوية

الاستاذ/ج. ف. اجايي (نيجيريا)، ١٩٧١ - ١٩٧٩
المشرف على المجلد السادس

الاستاذ/ف. البوكويرك موراو (البرازيل)، ١٩٧٥ - ١٩٧٩

الاستاذ/أ. أ. بواهن (غانا)، ١٩٧١ - ١٩٧٩
المشرف على المجلد السابع

سعادة السيد/بوبوهما (النيجر)، ١٩٧١-١٩٧٨

سعادة السيدة/م. بول (زامبيا)، ١٩٧١ - ١٩٧٩

الاستاذ/د. تشانيوا (زيمبابوي)، ١٩٧٥ - ١٩٧٩

الاستاذ/ف. د. كورتن (الولايات المتحدة الامريكية)، ١٩٧٥ - ١٩٧٩

الاستاذ/ج. ديفيس (فرنسا)، ١٩٧١ - ١٩٧٩

الأستاذ/م. ديفولا (انجولا)، ١٩٧٨ - ١٩٧٩

الاستاذ/هـ. جعيط (تونس)، ١٩٧٥ - ١٩٧٩

الاستاذ/الشيخ انتا ديوب (السنغال)، ١٩٧١ - ١٩٧٩

الاستاذ/ج. د. فيدج (المملكة المتحدة)، ١٩٧١ - ١٩٧٩

سعادة السيد/م. الفاسي (المغرب)، ١٩٧١ - ١٩٧٩
المشرف على المجلد الثالث

الاستاذ/خ. ل. فرانكو (كوبا)، ١٩٧١ - ١٩٧٩

السيد /م. جلال (الصومال)، ١٩٧١ - ١٩٧٩

الاستاذ الدكتور/ف. ل. جروتّانللي (ايطاليا)، ١٩٧١ - ١٩٧٩

الاستاذ/أ. هابرلاند (جمهورية المانيا الاتحادية)، ١٩٧١ - ١٩٧٩

الدكتور/اكليلو هبتي (اثيوبيا)، ١٩٧١ - ١٩٧٩

سعادة السيد/أ. هامبات با (مالي)، ١٩٧١ ـ ١٩٧٨

الدكتور/أ. س. الحرير (ليبيا)، ١٩٧٨ - ١٩٧٩

الدكتور/أ. هربك (تشيكوسلوفاكيا)، ١٩٧١ - ١٩٧٩

الدكتور/أ. جونز (ليبيريا)، ١٩٧١ - ١٩٧٩

القس/أ. كاجامي (رواندا)، ١٩٧١ - ١٩٧٩

الاستاذ/أ. م. كيمانبو (تانزانيا)، ١٩٧١ - ١٩٧٩

الاستاذ/ج. كي - زيربو (فولتا العليا)، ١٩٧١ - ١٩٧٩
المشرف على المجلد الأول

الاستاذ/د. لايا (النيجر)، ١٩٧٩

الدكتور/أ. ليبتنف (اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية)، ١٩٧١ - ١٩٧٩

الدكتور/ج. مختار (مصر)، ١٩٧١ - ١٩٧٩
المشرف على المجلد الثاني

الاستاذ/ف. موتيبوا (اوغندا)، ١٩٧٥ - ١٩٧٩

الاستاذ/د. ت. نيان (السنغال)، ١٩٧١ - ١٩٧٩
المشرف على المجلد الرابع

الاستاذ/ل. ل. نجكونكو (بوتسوانا)، ١٩٧١ - ١٩٧٩

الاستاذ/ت. أوبينجا (جمهورية الكونغو الشعبية)، ١٩٧٥ - ١٩٧٩

الاستاذ/ب. أ. أوجوت (كينيا) ١٩٧١ - ١٩٧٩
المشرف على المجلد الخامس

الاستاذ/ش. رافواجانا هاري (مدغشقر)، ١٩٧١ - ١٩٧٩

السيد/و. رودني (غيانا)، ١٩٧٩، (متوفى)

الاستاذ/م. شبيكة (السودان)، ١٩٧١، (متوفى)

الاستاذ/ي. أ. طالب (سنغافورة)، ١٩٧٥ - ١٩٧٩

الاستاذ/أ. تكسيرا دا موتا (البرتغال)، ١٩٧٨، (متوفى)

المونسنيور/ت. تشيبانجو (زائير)، ١٩٧١ - ١٩٧٩

الاستاذ/ج. فانسينا (بلجيكا)، ١٩٧١ - ١٩٧٩

معالي الدكتور/أ. وليامز (ترينيداد وتوباجو)، ١٩٧٦ـ ١٩٧٨

الاستاذ/ع. أ. مزروعي (كينيا)
المشرف على المجلد الثامن،
ليس عضواً في اللجنة

سكرتارية اللجنة العلمية الدولية

السيد/ موريس جليلي، قسم دراسة الثقافات، اليونسكو، ١ شارع ميوليس، ٧٥٠١٥ باريس

نبذة عن حياة المؤلفين

المقدمة

جمال مختار (مصر) اخصائي في الآثار. كتب عدة مؤلفات عن تاريخ مصر القديم. رئيس سابق لهيئة الآثار.

الفصل ١

الشيخ انتا ديوب (السنغال) متخصص في العلوم الانسانية. كتب عدة مؤلفات ومقالات عن افريقيا وأصل الانسان. رئيس مختبر الكربون المشع بجامعة داكار.

الفصل ٢

عبد المنعم أبو بكر (مصر) اخصائي في تاريخ مصر القديم والنوبة. كتب عدة مؤلفات عن مصر القديمة. أستاذ بجامعة القاهرة. (متوفى)

الفصل ٣

جان يويوت (فرنسا) متخصص في علم المصريات. كتب عدة مؤلفات في علم المصريات. مدير دراسات في المدرسة التطبيقية للدراسات العليا. (Ecole Pratique des Hautes Etudes)

الفصل ٤

عبد الحميد زايد (مصر) اخصائي في علم المصريات والتاريخ القديم. كتب عدة مؤلفات ومقالات عن مصر القديمة. أستاذ في التاريخ القديم.

الفصل ٥

رشيد الناضوري (مصر) اخصائي في التاريخ القديم. كتب عدة مؤلفات ومقالات عن تاريخ المغرب ومصرب. أستاذ التاريخ القديم؛ عميد كلية الآداب بجامعة الاسكندرية (سابقاً).

الفصل ٦

هنري رياض (مصر) اخصائي في التاريخ والآثار. كتب عدة مؤلفات عن العصرين الفرعوني واليوناني الروماني. كبير أمناء المتحف المصري بالقاهرة (سابقاً).

الفصل ٧

سيرجيو دونادوني (ايطاليا) اخصائي في تاريخ مصر القديم. كتب عدة مؤلفات عن التاريخ الحضاري. استاذ بجامعة روما.

الفصل ٨

شحاته آدم (مصر) اخصائي في تاريخ مصر وآثارها. كتب عدة مؤلفات عن مصر القديمة. مدير مركز التسجيل ودراسات فن مصر القديمة وحضارتها (سابقاً).

الفصل ٩

نجم الدين الشريف (السودان) اخصائي في الآثار. كتب عدة مؤلفات عن آثار السودان. مدير ادارة الآثار السودانية (سابقاً).

الفصل ١٠

جان لكلان (فرنسا) اخصائي في علم المصريات. كتب عدة مؤلفات ومقالات عن مصر القديمة. استاذ بالسوربون. عضو في اكاديمية النقوش والآداب Academie des Inscriptions et Belles Lettres

الفصل ١١

علي حاكم (السودان) اخصائي في التاريخ القديم. كتب عدة مؤلفات عن السودان القديم. رئيس قسم التاريخ بجامعة الخرطوم.

الفصل ١٢

كازيميرز ميخالوفسكي (بولندا) اخصائي في آثار حوض البحر المتوسط. كتب عدة مؤلفات عن الفن في مصر القديمة. أستاذ الآثار ونائب مدير المتحف الوطني في وارسو. (متوفى)

الفصل ١٣

هنري دي كونتنسون (فرنسا) اخصائي في تاريخ افريقيا. كتب مؤلفات عن آثار الحبشة والنوبة المسيحية. باحث بالمركز الوطني للبحث العلمي (CNRS)

الفصل ١٤
فرنسي انفري (فرنسا) أخصائي في الآثار. كتب عدة مقالات عن البحوث الأثرية في أثيوبيا. رئيس البعثة الأثرية الفرنسية في أثيوبيا.

الفصل ١٥
يوري كوبيشانوف (الاتحاد السوفياتي) مؤرخ. كتب عدة مقالات عن الانتربولوجيا الافريقية. عضو أكاديمية العلوم بالاتحاد السوفياتي.

الفصل ١٦
تكلة تصادق مكوريا (أثيوبيا) مؤرخ. كاتب متخصص في التاريخ السياسي والاقتصادي والاجتماعي في أثيوبيا منذ نشأتها حتى القرن العشرين. متقاعد.

الفصل ١٧
جيان دسانج (فرنسا) اخصائي في تاريخ إفريقيا القديم. كتب عدة مؤلفات ومقالات عن إفريقيا القديمة. محاضر بجامعة نانت.

الفصل ١٨
بريان هـ. ورمنجتون (المملكة المتحدة) متخصص في تاريخ روما القديمة، كتب عدة مؤلفات عن شمال إفريقيا. محاضر في التاريخ القديم.

الفصل ١٩
عمار محجوبي (تونس) اخصائي في تاريخ شمال إفريقيا. كتب عدة مؤلفات ومقالات عن آثار تونس. أستاذ مساعد في جامعة تونس.

الفصل ٢٠
بيير سلامة (الجزائر) أثري اخصائي في تاريخ المؤسسات القديمة في المغرب؛ أستاذ بجامعة الجزائر.

الفصل ٢١
ميريك بوسنانسكي (المملكة المتحدة) مؤرخ وأثري. كتب عدة مؤلفات هامة عن التاريخ الأثري لشرق إفريقيا.

الفصل ٢٢
أ.م.ج. شريف (تنزانيا) اخصائي في تاريخ تجارة الرقيق في شرق إفريقيا. محاضر في جامعة دار السلام.

الفصل ٢٣

جون. أ. ج. ساتون (المملكة المتحدة) أخصائي في عصر ما قبل التاريخ. كتب عدة مؤلفات ومقالات عن تاريخ إفريقيا. رئيس سابق لقسم الآثار بجامعة اكسفورد.

الفصل ٢٤

باس واي انده (نيجيريا) اخصائي في الآثار، كتب عدة مؤلفات عن آثار غرب إفريقيا. محاضر بجامعة ايبادان.

الفصل ٢٥

فرنسيس فان نوتن (بلجيكا) اخصائي في عصر ما قبل التاريخ وآثاره. كتب عدة مؤلفات ومطبوعات عن عصر ما قبل التاريخ في أواسط إفريقيا. أمين المتحف الملكي لعصر ما قبل التاريخ وآثاره.

الفصل ٢٦

جون. أ. باركنجتون (المملكة المتحدة) أثري. كتب عدة مؤلفات عن عصر ما قبل التاريخ في جنوب إفريقيا. أستاذ في علم الآثار.

الفصل ٢٧

د. و. فيليبسون (المملكة المتحدة) أثري. كتب عدة مؤلفات عن آثار شرق إفريقيا وجنوبها.

الفصل ٢٨

بيير فيرين (فرنسا) اخصائي في التاريخ والآثار. كتب عدة مؤلفات عن مدغشقر وحضارات المحيط الهندي. يقوم بأبحاث عن مدغشقر.

الفصل ٢٩

ميريك بوسنانسكي

الخاتمة

جمال مختار.

ببليوغرافيا عامة

فحصت البيانات الخاصة بجميع المراجع بأكبر دقة ممكنة، ولكن، نظراً لتعقد المصنّف وطابعه الدولي، ربّما بقيت هناك بعض الأخطاء. (ملاحظة للمحرر).

ABEL (A.). — 1972. « L'Ethiopie et ses rapports avec l'Arabie pré-islamique jusqu'à l'émigration de Ca.615, *IV C.I.S.E.* (الفصل ١٤)

ABRAHAM (D.P.). — 1951. « The principality of Maungure », *N.A.D.A.* 28 (الفصل ٢٧)

— 1959. « The Monomotapa dynasty in Southern Rhodesia », *N.A.D.A.* 36 (الفصل ٢٧)

— 1961. « Maramuca, an exercise in the combined use of Portuguese records and oral tradition », *J.A.H.* II, 2 : 211-25 (الفصل ٢٧)

— 1962. « The early political history of the Kingdom of Mwene Mutapa, 850-1589 », *Historians in Tropical Africa*, Salisbury, Univ. Coll. of Rhodesia and Nyasaland (الفصل ٢٧)

— 1964. « The ethnohistory of the empire of Mutapa, problems and methods », *in* J. VANSINA, R. MAUNY et L.V. THOMAS (éd.), *The Historian in Tropical Africa*, Londres-Accra-Ibadan, Oxford Univ. Press for the International African Institute : 104-126 (الفصل ٢٧)

ABU SALCH. — 1969. *The Churches and Monasteries of Egypt and some neighbouring countries*, trad. B.T. EVETTS et A.J. BUTLER, Oxford, Clarendon Press (réimpression).

ADAMS (W.Y.). — 1962. « Pottery kiln excavations », *Kush* X : 62-75 (الفصل ١٢)

— 1962. « Pottery kiln excavations », *Kush* X : 62-75 (الفصل ١٢)

— 1962. « An introductory classification of Christian Nubian pottery », *Kush* X : 245-88 (الفصل ١٢)

— 1964. « Sudan antiquities service excavations at Meinarti, 1962-63 », *Kush* XII : 227-47 (الفصل ١٢)

— 1964. « Post-pharaonic Nubia in the light of archaeology I », *J.E.A.* 50 : 102-20 (الفصل١٢)
— 1965. « Sudan antiquities service excavations at Meinarti, 1963-64 », *Kush* XIII : 148-76 (الفصل١٢)
— 1965. « Architectural evolution of the Nubian Church 500-1400 A.D. », *J.A.R.C.E.* 4 : 87-139 (الفصل١٢)
— 1965. « Post pharaonic Nubia in the light of archaeology, II », *J.E.A.* 51 : 160-78 (الفصل١٢)
— 1966. « The Nubian campaign : retrospect », *Mélanges offerts à K. Michalowski*, Varsovie : 13-30 (الفصل١٢)
— 1966. « Post pharaonic Nubia in the light of archaeology », *J.E.A.* 52 : 147-62 (الفصل١٢)
— 1967. « Continuity and change in Nubian cultural history », *S.N.R.* XLVIII : 11-19 (الفصل١٢)
— 1968. « Invasion, diffusion, evolution ? », *Antiquity* XLII : 194-215 (الفصل١٢)
— 1970. « The Evolution of christian pottery », *Nubische Kunst*, pp. 111-123 (الفصل١٢)

ADAMS (W.Y.) et NORDSTRÖM (H.A.). — 1963. « The archaeological survey on the west bank of the Nile, third season 1961-62 », *Kush* XI : 10-46 (الفصل١٢)

ADAMS (W.Y.) et VERWERS (C.J.). — 1961. « Archaeological survey of Sudanese Nubia », *Kush* IX : 7-43 (الفصل١٢)

ADDISON (F.S.A.). — 1949. *Jebel Moya*, Londres, Oxford Univ. Press, 2 vol (الفصل١١)

ALBRIGHT (F.P.). — 1958. *Archaeological discoveries in South Arabia*, Baltimore (الفصل١٣)

ALBRIGHT (W.F.). — 1973. « The Amarna letters from Palestine », *Cambridge Ancient History*, Cambridge, Vol. II, part 2, chap. XX (الفصل٢)

ALFRED (C.). — 1952. *The Development of Ancient Egyptian Art from 3200 to 1315 BC.* Trois parties : *Old Kingdom Art in Ancient Egypt* (1949), *Middle Kingdom Art in Ancient Egypt 2300-1590 BC* (1950), *New Kingdom Art in Ancient Egypt during the Eighteenth Dynasty, 1590-1315 BC* (1951), Londres, Tiranti (الفصل٢)
— 1965. *Egypt to the end of the Old Kingdom*, Londres, Thames and Hudson (الفصل٥)
— 1968. *Akhenaten, pharaoh of Egypt : a new study*, Londres, Thames and Hudson (الفصل٢)

ALEXANDER (J.) et COURSEY (D.G.). — 1969. « The origins of yam cultivation », *in* P.H. UCKO et G.W. DIMBLEBY (éds.), *The domestication and exploitation of plants and animals*, Londres, Duckworth : 123-9 (الفصل٢٤)

ALI HAKEM (A.M.). — 1972. « The city of Meroe and the myth of Napata. A new perspective in Meroitic archaeology » *in* S. BUSHRA (éd.), *Urbanization in the Sudan*, proceedings of Annual Conference of the Philoso-

phical Society of the Sudan, Khartoum (الفصل١١)
— 1972. « Meroitic settlement of the Butana, Central Sudan », *in* Ph. UCKO, R. TRINGHAM et G.W. DIMBLEBY (éd.), *Man, Settlement and Urbanism*, Londres, Duckworth : 639-46 (الفصل١١)
ALLEN (J.W.T.). — 1949. « Rhapta », *T.N.R.* 27 : 52-9 (الفصل٢٢)
ALLEN (T.G.). — 1960. *The Egyptian Book of the Dead*, Documents in the Oriental Institute Museum at the University of Chicago, n° LXXXII, Chicago, University of Chicago Press (الفصلان٢،٢٠)
ALMAGRO-BASCH (A.). — 1963-1965. *Comite español de la Unesco para Nubia, Memorias de la Missión Arqueológica*, Madrid, 14 vol. (الفصل١٢)
AMBORN (H.). — 1970. « Die Problematik der Eisenverhüttung im Reiche Meroe », *Paideuma* XVI : 71-95 (الفصلان١٠ و١١)
AMELINEAU (E.). — 1908. *Prolégomènes à l'étude de la religion égyptienne*, Paris, Bibliothèque de l'Ecole pratique des Hautes Etudes (الفصل١)
AMMIEN MARCELLIN. — *Ammien Marcellin, ou les dix-huit livres de son Histoire qui nous sont restés*, trad. G. MOULINES, (1778), Lyon, J.M. BRUYSET, 3 vol. (الفصل١)
ANDAH (B.W.). — 1973. *Archaeological reconnaissance of Upper-Volta*, thesis, Berkeley, Univ. of California (الفصل٢٤)
ANFRAY (F.). — 1963. « Une campagne de fouilles à Yeha (fév. - mars 1960) », *A.E.* 5 : 171-92 (الفصل١٣)
— 1965. « Chronique archéologique (1960-64) », *A.E.* 6 : 3-48 (الفصل١٣)
— 1966. « La poterie de Matara », *R.S.E.* 22 : 1-74 (الفصل١٣)
— 1967. « Matara », *A.E.* 7 : 33-97 (الفصلان١٣و١٥)
— 1968. « Aspects de l'archéologie éthiopienne », *J.A.H.* 9 : 345-66 (الفصلان١٣ و١٤)
— 1970. « Matara », *Trav. R.C.P. 230* Fasc. 1, Paris, C.N.R.S. : 53-60 (الفصل١٣)
— 1971. « Les fouilles de Yeha en 1971 », *Trav. R.C.P.* 230, Fasc. 2, Paris, C.N.R.S. : 31-40 (الفصل١٣)
— 1972. « Les fouilles de Yeha (mai-juin 1972) », *Trav. R.C.P.* 230, Fasc. 3, Paris, C.N.R.S. : 57-64 (الفصل١٣)
— 1972. « L'archéologie d'Axoum en 1972 », *Paideuma* XVIII : 71 pl. VI (الفصل١٥)
— 1974. « Deux villes axoumites : Adoulis et Matara » *Atti IV Congr. Intern. Stud. Et.* 752-65 (الفصل١٥)
ANFRAY (F.) et ANNEQUIN (G.). — 1965. « Matara. Deuxième, troisième et quatrième campagnes de fouilles », *A.E.* 6 : 49-86 (الفصلان١٣و١٥)
ANFRAY (F.), CAQUOT (A.) et NAUTIN (P.). — 1970. « Une nouvelle inscription grecque d'Ezana, roi d'Axoum », *J.S.* 260-73 (الفصل١٤)
ANGELIS D'OSSAT (G. DE) et FARIOLI (R.). — 1975. « Il complesso paleocristiano di Brevigliere Elkhadra », *Q.A.L.* 29-56 (الفصل١٩)
APOLLODORE. — éd. 1921. *The Library*, trad. Sir J.G. FRAZER, Cambridge, Mass., Harvard Univ. Press ; Londres, Heinemann (الفصل١)
APPLEGATE (J.R.). — 1970. « The Berber languages », *C.T.L.* VI : 586-661

(الفصل ٢٠)
ARISTOTE. — 1908-52. *The Works of Aristotle*, trad. anglaise, J.A. SMITH et W.D. ROSS, éd., Oxford, Oxford Univ. Press, 12 vol. (الفصل ١)

— 1961-62. *Aristotelis opera*, Berlin, 5 vol. (الفصل ١)

— *Œuvres*, trad. française par B. SAINT-HILAIRE, Paris, 1837-1892 (35 vol.).

ARKELL (A.J.). — 1949. *Early Khartoum. An Account of the Excavations of an Early Occupation Site Carried Out by the Sudan Government Antiquities Service 1944-1945*, Oxford, Oxford Univ. Press (الفصل ٩)

— 1950. « Varia Sudanica », *J.E.A.* 36 : 27-30 (الفصل ٩)

— 1951. « Meroe and India, Aspects of archaeology in Britain and Beyond », essays presented to O.G.S. Crawford, Londres, Grimes (الفصل ١٠)

— 1961. *A History of the Sudan from the earliest times to 1821*, Londres, Univ. of London, Athlone Press, 2e édition (1re éd., 1955), 252 p. (الفصول ٦، ٩، ١٠، ١١، ١٧)

— 1966. « The iron age in the Sudan », *C.A.* 7, 4 : 451-78 (الفصل ١١)

ARMSTRONG (R.G.). — 1964. *The study of West African languages*, Ibadan, Ibadan Univ. Press (الفصل ٢١)

ASCHER (J.E.), 1970. « Graeco-roman nautical technology and modern sailing information. A confrontation between Pliny's account of the voyage to India and that of the Periplus Maris Erythraei in the light of modern knowledge », *J.T.G.* 31 : 10-26 (الفصل ٢٢)

ATHERTON (J.H.). — 1972. « Excavations at Kambamai and Yagala rock shelters, Sierra Leone », *W.A.J.A.* 2, pp. 39 ss. (الفصل ٢٤)

AUBER (J.). — 1958. *Français, Malgaches, Bretons, Arabes, Turcs, Chinois, Canaques : parlons-nous une même langue ?*, Tananarive, Impr. off., Paris, Maisonneuve (الفصل ٢٨)

AUBREVILLE (A.). — 1948. « Etude sur les forêts de l'Afrique équatoriale française et du Cameroun », *B.S.* 2 : 131 p. (الفصل ٢٤)

AURIGEMMA (S.). — 1940. « L'elefante di Leptis Magna », *A.I.* : 67-86 (الفصل ٢٠)

AVERY (G.). — 1974. « Discussion on the age and use of tidal fish traps » *S.A.A.B.* 30 (الفصل ٢٦)

AYMARD (J.). — 1951. *Essai sur les chasses romaines des origines à la fin du règne des Antonins*, Paris, de Brocard (الفصل ٢٠)

AYOUB (J.). — 1962. *Excavations at Germa, the capital of the Garamantes, Sheba, I* (الفصل ٢٠)

— 1967. *Excavations at Germa, the capital of the Garamantes, Sheba, II* (الفصل ٢٠)

— 1966-1967. « The royal cemetary of Germa », *Libya antiqua*, Tripoli, p. 213-9 (الفصل ٢٠)

BADAWY (A.). — 1965. « Le grotesque, invention égyptienne », *Gazette des Beaux Arts* : 189-98 (الفصل ٦)

— 1968. *A History of Egyptian Architecture (The New Kingdom) : from the eighteenth dynasty to the end of the twentieth dynasty 1580-1085 BC*, Berkeley-Los Angeles, University of California Press (الفصل ١١)

BAILLOUD (G.). — 1969. « L'évolution des styles céramiques en Ennedi (République du Tchad) », *Actes Ier Coll. Intern. Archéol. Afr.* : 31-45 (الفصل ٢٤)

BAKRY (H.S.K.). — 1967. « Psammetichus II and his newly-found stela at Shellae », *Oriens Antiquus* 6 : 225-44 (الفصل ١٠)

BALL (J.). — 1942. « Egypt in the classical geographers », Le Caire, Government Press, Bulaq (الفصل ٦)

BALOUT (L.). — 1955. *Préhistoire de l'Afrique du Nord*, Paris, A.M.G. : 435-57 (الفصل ١٧)

— 1967. « L'homme préhistorique et la Méditerranée occidentale », *R.O.M.M.* 3 (الفصل ١٧)

BARADES (J.). — 1949. *Vue aérienne de l'organisation romaine dans le Sud algérien. Fossatum Africae*, Paris, A.M.G. (الفصلان ١٩،٢٠)

BARGUET (P.). — 1967. *Le Livre des morts des anciens Egyptiens*, Paris, Le Cerf (Littératures anciennes du Proche-Orient) (الفصل ٢)

BARRAUX (M.). — 1959. « L'auge de Sima », *B.A.M.* N.S. XXXVII : 93-9 (الفصل ٢٨)

BARROW (J.). — 1801-1804. *Travels into the interior of the Southern Africa in the years 1797 and 1798*, 2 vol., Londres (الفصل ٢٦)

BASHAM (A.L.). — 1959. *The wonder that was India. A survey of the Indian sub-continent before the coming of the Muslims*. New York, Grove Press (الفصل ٢٢)

BASSET (H.). — 1921. « Les influences puniques chez les Berbères », *R.A.* 62 : 340 (الفصل ١٧)

BATES (O.). — 1914. *The Eastern Libyans*, Londres, Macmillan, pp. 46, 49-51, 249 ; 2e éd. : 1970 (الفصلان ٤،١٧)

BATES (O.) et DUNHAM (D.). — 1927. « Excavations at Gammai », *H.A.S.* 8 : 1-122 (الفصل ١١)

BAUMANN (H.) et WESTERMANN (D.). — 1962. *Les Peuples et les Civilisations de l'Afrique*, Paris, Payot (الفصل ٢٩)

BAXTER (H.C.). — 1944. « Pangani : The trade centre of ancient history », *T.N.R.* 17 : 15-26 (الفصل ٢٢)

BAYLE DES HERMENS (R. DE). — 1967. « Premier aperçu du paléolithique inférieur en R.C.A. », *Anthropologie* 71 : 135-66 (الفصل ٢١)

— 1971. « Quelques aspects de la préhistoire en R.C.A. », *J.A.H.* XII : 579-97 (الفصل ٢١)

— 1972. « Aspects de la recherche préhistorique en République centrafricaine », *Africa-Tervuren* XVIII, 3/4 : 90-103 (الفصل ٢٥)

— 1972. « La civilisation mégalithique de Bouar. Prospection et fouille 1962-66 par P. Vidal. Recension », *Africa-Tervuren* XLII, 1 : 78-9 (الفصل ٢٥)

BEAUCHENE (M.C. DE). — 1963. « La préhistoire du Gabon », *Objets et Mondes* III, 1 : 16 (الفصل ٢١)

— 1970. « The Lantana mine near the Rapoa/Niger confluence of Niger », *W.A.A.N.* 12 : 63 (الفصل ٢٩)

BEAUMONT (P.B.) et BOSHIER (A.K.). — 1974. « Report on test excavations in a prehistoric pigment mine near Postmasburg, Northern Cape »,

S.A.A.B. 29 : 41-59 (الفصل٢٩)
BEAUMONT (P.B.) et VOGEL (J.C.). — 1972. « On a new radiocarbon chronology for Africa South of the Equator », *A.S.* 31 : 66-89 (الفصل٢٦)
BECK (P.) et HUARD (P.). — 1969. *Tibesti, carrefour de la préhistoire saharienne*, Paris, Arthaud (الفصلان١٧،٢٠)
BECKERATH (J.V.). — 1965. « Untersuchungen zur politischen Geschichte der Zweiten Zwischenzeit in Ägypten », *Ä.F.U.* 23 (الفصل٢)
— 1971. *Abuss der Geschichte des alten Ägypten*, Munich, Oldenbourg (الفصل ٢)
BEEK (G.W. VAN). — 1967. « Monuments of Axum in the light of South Arabian archaeology », *J.A.O.S.* 87 : 113-22 (الفصل١٤)
— 1969. « The rise and fall of Arabia Felix », *S.A.* 221, 6 : 36-46 (الفصل٢٢)
BELKHODJA (K.). — 1970. « L'Afrique byzantine à la fin du VI[e] siècle et au début du VII[e] siècle », *R.O.M.M.* n° spécial : 55-65 (الفصل١٩)
BELL (H.I.). — 1948. *Egypt from Alexander the Great to the Arab Conquest. A Study in the Diffusion and Decay of Hellenism*, Oxford, Clarendon Press (الفصل٦)
— 1957. *Cults and Creeds in Graeco-Roman Egypt*, Liverpool, University Press, 2[e] éd. : 1966 (الفصل٦)
BENABOU (M.). — 1972. « Proconsul et légat. Le témoignage de Tacite », *Ant. Afr.* T. VI, pp. 61-75, Paris, C.N.R.S. (الفصل١٩)
— 1976. *La Résistance africaine à la romanisation*, Paris, Maspero (17) (19).
BERNAND (A.). — 1966. *Alexandrie la Grande*, Paris, Arthaud (الفصل٦)
BERNAND (E.). — 1969. *Inscriptions méroïtiques de l'Egypte gréco-romaine*, Besançon-Paris, Les Belles Lettres (الفصل٦)
BERNHARD (F.O.). — 1961. « The Ziwa ware of Inyanga », *N.A.D.A.* XXXVIII : 84-92 (الفصل٢٧)
— 1964. « Notes on the pre-ruin Ziwa culture of Inyanga », Rhodesiana XII (الفصل ٢٧)
BERTHELOT (A.). — 1931. « L'Afrique saharienne et soudanaise. Ce qu'en ont connu les Anciens », Paris, Les Arts et le Livre (الفصل٢٠)
BERTHIER (A.) et CHARLIER (R.). — 1955. *Le Sanctuaire punique d'El Hofra à Constantine*, Paris, Direction de l'Intérieur et des Beaux-Arts, Service des Antiquités, missions archéologiques (الفصل١٨)
— 1968. « La sépulture du lecteur Georges à Sila », *B.A.A.* II : 283-92 (الفصل ١٩)
BEVAN (E.). — 1968. *A History of Egypt under the Ptolemaic dynasty*, Chicago (الفصل٦)
BIEBER (M.). — 1955. *The sculpture of the Hellenistic age*, New York, Columbia Univ. Press ; 2[e] éd. : 1961 (الفصل٦)
BIERBRIER (M.). — 1975. *Late new Kingdom in Egypt (C. 1300-664 B.C.). A geneological and chronological investigation*, Warminster, Arris and Phillips (الفصلان٢،٣)
BIETAK (M.). — 1965. « Ausgrabungen in der Sayala District », *Nubien*

1961-65, Vienne : 1-82 (الفصل٩)

BION et NICOLAS DE DAMAS, *in* C. MÜLLER (éd.). — *Fragmenta Historicum Graecorum*, vol. 3, p. 463 ; vol. 4, p. 351 (الفصل١١)

BISSON (M.S.). — 1975. « Copper currency in Central Africa : the archaeological evidence », *W.A.* 6 : 276-92 (الفصل٢٩)

BLANKOFF (B.). — 1965. « La préhistoire au Gabon », *B.S.P.P.G.* 1 : 4-5 (الفصل٢٥)

BLOCH (M.) et VERIN (P.). — 1966. « Discovery of an apparently neolithic artefact in Madagascar », *Man* I, 2 : 240-1 (الفصل٢٨)

BOBO (J.) et MOREL (J.). — 1955. « Les peintures rupestres de l'abri du Mouflon et la station préhistorique du Hamman Sidi Djeballa dans la Cheffia (Est-Constantinois) », *Libyca* 3 : 163-81 (الفصل١٧)

BONSMA (J.C.). — 1970. « Livestock production in the sub-tropical and tropical African countries », *S.A.J.S.* 66, 5 : 169-72 (الفصل٢٤)

BORCHARDT (L.). — 1938. *Annales du Service des Antiquités de l'Egypte* 38 : 209-215 (الفصل٢)

BORGHOUTS (J.F.). — 1973. « The evil eye of Apopis », *J.E.A.* 59 : 114-50 (الفصل٣)

BOSHIER (A.) et BEAUMONT (P.). — 1972. « Mining in Southern Africa and the emergence of modern man », *Optima* 22 : 2-12 (الفصل٢٩)

BOUBBE (J.). — 1959-1960. « Découvertes récentes à Sala Colonia (Chellah) », *B.A.C.*, pp. 141-145 (الفصل١٩)

BOUBOU HAMA. — 1967. Recherches sur l'histoire des Touareg sahariens et soudanais, Paris, Présence africaine (الفصل٢٠)

BOURGEOIS (R.). — 1957. « Banyarwanda et Barundi, Tombe I - Ethnographie », *A.R.S.C.* XV : 536-49 (الفصل٢٥)

BOURGUET (P. DU). — 1964. *L'art copte*, Catalogue, Paris, Petit-Palais, 17 juin-15 sept. (الفصل١٢)

— 1964. « L'art copte pendant les cinq premiers siècles de l'Hégire », *Christentum am Nil*, Recklinghausen : 221 et ss. (الفصل١٢)

BOVILL (E.W.). — 1968. *The Golden trade of the Moors*, Oxford, 2e éd. (الفصل٢١)

BOWDICH (T.E.). — 1821. *An essay on the superstitions, customs and arts common to the Ancient Egyptians, Abyssinians and Ashantees*, Paris (الفصل٤)

BOWEN (R. Le Baron). — 1957. « The Dhow sailor » *American Neptune*, vol. II (الفصل٢٢)

BOWEN (R. Le Baron) et ALBRIGHT (F.P.). — 1958. *Archaeological discoveries in South Arabia*, Baltimore, John Hopkins Press.

BRABANT (H.). — 1965. « Contribution odontologique à l'étude des ossements trouvés dans la nécropole protohistorique de Sanga, République du Congo », *A.M.R.A.C.* 54 (الفصل٢٥)

BRAHIMI (C.). — 1970. *L'Ibéromaurusien littoral de la région d'Alger*, M.C.R.A.P.E. XIII, Paris, p. 77 (الفصل١٧)

BREASTED (J.H.). — 1906-7. *Ancient records of Egypt. Historical documents from the earliest times of the Persian conquest*, Chicago, University of

Chicago Press - Londres, Luzac and C° - Leipzig, O. Harrassowitz, 5 vol. (الفصول ٤، ٩، ١٠، ١١)

— 1930. *The Edwin Smith surgical papyrus*, Chicago, University of Chicago Press, 2 vol. (الفصل ٥)

— 1951. *A history of Egypt from the earliest times to the Persian conquest*, 2e éd. révisée, Londres, Hodder and Stoughton (الفصل ٢)

BRECCIA (W.). — 1922. *Alexandrea ad Aegyptum. A guide to the Ancient and Modern town and to its Graeco-Roman museum*, Bergamo, Instituto italiano d'artigraficho (الفصل ٦)

BRETON (R.). — 1892. *Dictionnaire caraïbe-français...*, Auxerre-Leipzig, Platzmann, Réimpr. (الفصل ٢٨)

BRIANT (R.P.). — 1945. *L'Hébreu à Madagascar*, Tananarive, Pitot de la Beaujardière (الفصل ٢٨)

BRIGGS (L.C.). — 1957. « Living tribes of the Sahara and the problem of their prehistoric origin », *Acts IIIrd P.P.S.Q.*, pp. 195-9 (الفصل ٢٠)

BRINTON (J.Y.). — 1942, *B.S.R.A.*, vol. 35, pp. 78-81, 163-165 et pl. XX, fig. 4 (الفصل ١٧)

BROTHWELL (D.) et SHAW (T.). — 1971. « A late Upper Pleistocene proto-west African negro from Nigeria », *Man* N. sp. 6, 2 : 221-27 (الفصل ٢١)

BROUGHTON (T.R.S.). — 1968. *The Romanization of Africa Proconsularis*, New York (الفصل ١٩)

BROWN (B.). — 1957. *Ptolemaic paintings and mosaics and the Alexandrian style*, Cambridge, Mass., Archaeological Institute of America (الفصل ٦)

BRUNNER (H.). — 1957. *Altägyptische Erziehung*, Wiesbaden, O. Harrassowitz (الفصل ٢)

— 1964. « Die Geburt des Gottkönigs. Studien zur Uberlieferung eines altägyptischen Mythos », *Ä.A.* 10 (الفصل ٣)

BRUNNER-TRAUT (E.). — 1974. *Die alten Ägypter Verborgens. Leben unter Pharaonen*, 2 durchgegehene Aufl., Stuttgart-Berlin-Köln-Mainz, W. Kohlhammer, 272 p. (الفصل ٢)

BRUNT (P.A.). — 1971, *Italian manpower 225 BC - AD 14*, Londres, Oxford University Press, pp. 581-583 (الفصل ١٩)

BÜCHELER (F.) et RIESE (A.) éd.. — 1894. *Anthologia latina*, Leipzig, n° 183 (الفصل ١٧)

BUCK (A. DE). — 1952. *Grammaire élémentaire du moyen égyptien*, trad. B. VAN DE WALLE et J. VERGOTE, Leyde, E.J. Brill (1).(الفصل ١)

— 1935-61. « The Egyptian coffin texts », *O.I.C.P.*, 34, 49, 64, 67, 73, 81, 87 (الفصلان ٢، ٢)

BUDGE (E.A.W.). — 1912. *Annals of Nubian Kings, with a sketch of the story of the Nubian kingdom of Napata*, Londres, Kegan Paul (الفصل ١١)

— 1928. *The book of the Saints of the Ethiopian church : a translation of the Ethiopic synaxrium made from the oriental manuscripts, n° 660 and 661 in the British museum*, Cambridge C.U.P. (الفصل ١٦)

— 1928. *A History of Ethiopia, Nubia and Abyssinia (according to the hieroglyphic inscriptions of Egypt and Nubia and the Ethiopian chronicles)...*, Londres, Methuen & C° (الفصل ١٦)

— 1966. *A History of Ethiopia*, Vol. I, Anthropological Publications, Costerhout N-B, The Netherlands (الفصل١٦)

BUNBURY (E.H.). — éd. 1959. *A history of ancient Geography among the Greeks and the Romans from the Earliest Ages to the fall of Roman Empire*, New York, Dover Publications (1re éd. 1883), 2 vol. (الفصل ٢٢)

BUSHRA (S.). — 1972. « Urbanization in the Sudan », *Actes Conf. Ann. Soc. Phil. Soudan* (الفصل١١)

BUTZER (K.W.). — 1961. « Les changements climatiques dans les régions arides depuis le pliocène », *Histoire de l'utilisation des terres arides*, Paris, Unesco : 31-56 (الفصل١٧)

BYNON (J.)—1970. « The contribution of linguistics to history in the field of Berber studies », *in* D. DALBY (éd.) : *Language and History in Africa*, Londres : 64-77 (الفصل٢٠)

CABANNES (R.). — 1964. *Les types hémoglobiniques des populations de la partie occidentale du continent africain : Maghreb, Sahara, Afrique noire occidentale*, Paris, C.N.R.S. (الفصل٢٠)

CALLET (F.). — 1908. *Tantaran'ny Andriana nanjaka teto Imeria*, Tananarive (الفصل٢٨)

— 1974. *Histoire des rois de Tantaran'ny Andriana*, trad. G.-S. CHAPUT et E. RATSIMBA, Tananarive, Librairie de Madagascar, 3 vol. (الفصل٢٨)

CALZA (G.). — 1916. « Il Piazzale delle Corporazioni », *Boll. Comm.*, p. 178 et seq. (الفصل١٩)

CAMINOS (R.A.). — 1954. *Late Egyptian Miscellanies*, Londres, Oxford Univ. Press (الفصل٢)

— 1964. « Surveying Semna Gharbi », *Kush* 12 : 82-6 (الفصل٩)

— 1964. « The Nitocris adoption Stela », *J.E.A.* 50 : 71-101 (الفصل١٠)

— 1974. *The New Kingdom temples of Buhen*, Londres, Egypt Exploration Society, 2 vol. (الفصل٢)

CAMPS (G.). — 1954. « L'inscription de Beja et le problème des Dii Mauri », *R.A.* 98 : 233-60 (الفصل١٧)

— 1960. « Les traces d'un âge du bronze en Afrique du Nord », *R.A.* 104 : 31-55 (الفصل١٧)

— 1960. « Aux origines de la Berbérie : Massinissa ou les débuts de l'histoire », *Libyca* 8, 1 (الفصول ١٧،١٩،٢٤)

— 1961. *Aux origines de la Berbérie. Monuments et rites funéraires protohistoriques*, Paris, A.M.G. (الفصلان ١٧،٢٠)

— 1965. « Le tombeau de Tin Hinan à Abalessa », *Trav. I.R.S.* vol. 24 : 65-83 (الفصلان١٧، ٢٠)

— 1969. « Amekini, néolithique ancien du Hoggar », *Mém. C.R.A.P.E.* 10 : 186-88 (الفصل ٢٤)

— 1969. « Haratin-Ethiopiens, réflexions sur les origines des négroïdes sahariens », *Coll. Intern. Biolog. Pop. Sahar.* : 11-17 (الفصل٢٠)

— 1970. « Recherches sur les origines des cultivateurs noirs du Sahara », *R.O.M.M.* 7 : 39-41 (الفصل١٧)

— 1974. « Le Gour, mausolée berbère du VIIe siècle », *A.A.* VIII : 191-208

(الفصل١٩)
— 1974. « Tableau chronologique de la préhistoire récente du nord de l'Afrique », *B.S.P.F.* 71, 1 : 262, 265 (الفصل١٧)
— 1974. « L'âge du tombeau de Tin Hinan, ancêtre des Touareg du Hoggar », *Zephyrus* XXV : 497-516 (الفصل٢٠)
— 1974. *Les Civilisations préhistoriques de l'Afrique du Nord et du Sahara*, Paris, Doin (الفصلان١٧، ٢٠)
— 1975. « Recherches sur les plus anciennes inscriptions libyques de l'Afrique du Nord et du Sahara », *Encyclopédie berbère* 24 (الفصل٢٠)
— 1978. *Les Relations du monde méditerranéen et du monde sud-saharien durant la préhistoire et la protohistoire*, Aix-en-Provence (الفصل٢٠)
CAMPS (G.), DELIBRIAS (G.) et THOMMERET (J.). — 1968. « Chronologie absolue et succession des civilisations préhistoriques dans le Nord de l'Afrique », *Libyca*, vol. XVI, p. 16 (الفصل١٧)
CAMPS-FABRER (H.). — 1953. *L'Olivier et l'huile dans l'Afrique romaine*, Alger, Impr. officielle, In-8°, 95 p., pl. cartes, plans (الفصل١٩)
— 1966. *Matière et art mobilier dans la préhistoire nord-africaine et saharienne*, Paris, Mém. CRAPE (الفصل١٧)
CAPOT-REY (R.). — 1953. *Le Sahara français*, Paris, P.U.F. (الفصل٢٠)
CAQUOT (A.). — 1965. « L'inscription éthiopienne à Marib », *A.E.* VI : 223-5 (الفصلان١٥، ١٦)
CAQUOT (A.) et DREWES (A.J.). — 1955. « Les monuments recueillis à Maqallé (Tigré) », *A.E.* I : 17-41 (الفصلان١٢، ١٥)
CAQUOT (A.) et LECLANT (J.). — 1956. « Rapport sur les récents travaux de la section d'archéologie », *C.R.A.I.* : 226-34 (الفصل١٥)
— 1959. Ethiopie et Cyrénaïque ? A propos d'un texte de Synésius. *A.E.* III : 173-7 (الفصل١٥)
CAQUOT (A.) et NAUTIN (P.). — 1970. « Une nouvelle inscription grecque d'Ezana, roi d'Axoum. Description et étude de l'inscription grecque », *J.S.* : 270-1 (الفصل١٥)
CARCOPINO (J.). — 1948. *Le Maroc antique*, Paris, Gallimard, La suite des temps n° 10, 337 p. (17) (الفصول ١٧، ١٩، ٢٠)
— 1956. « Encore Masties, l'empereur maure inconnu », *R.A.* : 339-348 (الفصل١٩)
— 1958. *La mort de Ptolémée, roi de Maurétanie*, Paris, p. 191 et seq. (الفصل١٩)
CARNEIRO (R.L.). — 1970. « A theory of the origin of the State ». *American Association for the Advancement of Science* 169, 3947 : 733-8 (الفصل٢٩)
CARPENTER (R.). — 1958. « The Phoenicians in the west », *A.J.A.* LXVII (الفصل١٥)
— 1965. « A trans-Saharan caravan route in Herodotus. *A.J.A.* : 231-42 (الفصل ٢٠)
CARTER (H.) et MACE (A.). — 1923-33. *The tomb of Tut-Ankh-Amen discovered by... Carnarvon and H. Carter*, Londres-New York-Toronto-Melbourne, Cassel and C°, 3 vol. (الفصل٢)

CARTER (P.L.). — 1969. « Moshebi's shelter : excavation and exploitation in Eastern Lesotho », *Lesotho* 8 : 1-23 (الفصل٢٦)

— 1970. « Late Stone Age exploitation patterns in Southern Natal », *S.A.A.B.* 25, 98 : 55-8 (الفصل٢٦)

CARTER (P.L.) et FLIGHT (C.). — 1972. « A report on the fauna from two neolithic sites in northern Ghana with evidence for the practice of animal husbandry during the 2nd m. B.C. », *Man* 7, 2 : 277-82 (الفصل٢٤)

CARTER (P.L.) et VOGEL (J.C.). — 1971. « The dating of industrial assemblages from stratified sites in Eastern Lesotho », *Man* (n° Sp.) 9 : 557-70 (الفصل٢٦)

CASTIGLIONE (L.). — 1967. « Abdallah Nirqi. En aval d'Abou Simbel, fouilles de sauvetage d'une ville de l'ancienne Nubie chrétienne », *Archéologia* 18 : 14-9 (الفصل١٢)

— 1970. « Diocletianus und die Blemmyes », *Z.Ä.S.* 96, 2 : 90-103 (الفصل١٠)

CATON-THOMPSON (G.). — 1929. « The Southern Rhodesian ruins : recent archaeological investigations », *Nature* 124 : 619-21 (الفصل٢٧)

— 1929-30. « Recent excavations at Zimbabwe and other ruins in Rhodesia », *J.R.A.S.* 29 : 132-8 (الفصل٢٧)

CENIVAL (J.L. DE). — 1973. « L'Egypte avant les pyramides, 4e millénaire », Grand-Palais, 29 mai-3 sept., Paris, Musées nationaux (الفصل٢)

CERNÝ (J.). — 1927. « Le culte d'Aménophis I chez les ouvriers de la nécropole thébaine », *B.I.F.A.O.* 27 : 159-203 (الفصل٢)

— 1942. « Le caractère des oushebtis d'après les idées du Nouvel Empire », *B.I.F.A.O.* 41 : 105-33 (الفصل٢)

— 1973. *A community of workmen at Thebes in the Ramesside period*, Le Caire, IFAO VI + 383 p. (الفصل٢)

CERULLI (E.). 1943. *Etiopi in Palestina ; storia della comunità etiopica di Gerusalemme*, vol. I, Rome, Libreria dello Stato (الفصل١٦)

— 1956. *Storia della litteratura etiopica*, Rome, Nuova accademica edit. (الفصل ١٦)

CHACE (A.B.) *et al.* — 1927-1929. *The Rhind mathematical Papyrus*, British Museum, 10057 et 10058, 2 vol., Oberlin (الفصل٥)

CHAKER (S.). — 1973. « Libyque : épigraphie et linguistique », *Encyclopédie berbère* 9 (الفصل٢٠)

CHAMLA (M.-C.). — 1958. « Recherches anthropologiques sur l'origine des malgaches », *Museum* (الفصل٢٨)

— 1968. « Les populations anciennes du Sahara et des régions limitrophes. Etude des restes osseux humains néolithiques et protohistoriques », *Mém. C.R.A.P.E.* IX (الفصول١٧،٢٠،٢١)

— 1970. « Les hommes épipaléolithiques de Columnata (Algérie occidentale) », *Mém. C.R.A.P.E.* XV : 113-4 (الفصل١٧)

CHAMOUX (F.). — 1953. *Cyrène sous la monarchie des Battiades*, Paris, De Broccard (الفصل١٧)

CHAMPETIER (P.). — 1951. « Les conciles africains durant la période byzantine », *R.A.* : 103-20 (الفصل١٩)

CHAMPOLLION-FIGEAC (J.J.). — 1839. *Egypte ancienne*, Paris, Didot (الفصل١)
CHAPLIN (J.H.). — 1974. « The prehistoric rock art of the lake Victoria region », *Azania* IX : 1-50 (الفصل٢٩)
CHARLES-PICARD (G.). — 1954. *Les Religions de l'Afrique antique*, Paris, Plon (الفصل١٨)
— 1956. *Le Monde de Carthage*, Paris, Corrêa.
— 1957. « Civitas Mactaritana », *Karthago* 8 : 33-39 (الفصل١٧)
— 1958. « Images de chars romains sur les rochers du Sahara », *CRAI* (الفصل١٧)
CHARLES-PICARD (G. et C.). — 1958. *La Vie quotidienne à Carthage au temps d'Hannibal*, Paris, Hachette (الفصل١٨)
— 1959. *La Civilisation de l'Afrique romaine*, Paris, Plon (الفصل ١٩)
— 1968. « Les Cahiers de Tunisie », *Mélanges Saumagne*, pp. 27-31 (الفصل ٢٠)
CHARLESWORTH (M.P.). — 1926. *Trade routes and commerce of the Roman Empire*, Cambridge, Cambridge Univ. Press (الفصل٢٢)
— 1951. « Roman trade with India : a resurvey », *in* A.C. JOHNSON, *Studies in Roman economic and social history in honour of Allen Chester Jonson*, Princeton (الفصل٢٢)
CHASTAGNOL (A.). — 1967. « Les gouverneurs de Byzacène et de Tripolitaine », *A.A.* I : 130-4 (الفصل١٩)
CHASTAGNOL (A.) et DUVAL (N.). — 1974. « Les survivances du culte impérial dans l'Afrique du Nord à l'époque vandale. Mélanges d'histoire ancienne offerts à W. Seston », *Publications de la Sorbonne, Etudes* IX : 87-118 (الفصل١٩)
CHEVALLIER (R.) et CAILLEMER (A.). — 1957. « Les centuriations romaines de Tunisie », *Annales*, n° 2, pp. 275-286, Paris, Armand-Colin (الفصل ١٩)
CHEVRIER (H.). — 1964-70-71. « Techniques de la construction dans l'ancienne Egypte », vol. I : « Murs en briques crues », *R.E.* 16 : 11-7 ; vol. II : « Problèmes posés par les obélisques », *R.E.* 22 : 15-39 ; vol. III : « Gros œuvre, maçonnerie », *R.E.* 23 : 67-111 (الفصل٢)
CHITTICK (N.). — 1966. « Six early coins from New Tanga », *Azania* I : 156-7 (الفصل٢٢)
— 1969. « An archaeological reconnaissance of the Southern Somali Coast », *Azania* IV : 115-130 (الفصل٢٢)
CINTAS (P.). — 1950. *Céramique punique*, Tunis (الفصل١٨)
— 1954. « Nouvelles recherches à Utique », *Karthago* V (الفصل١٨)
CINTAS (P.) et DUVAL (N.). — 1958. « L'église du prêtre Félix, région de Kélibia », *Karthago* IX : 155-265 (الفصل١٩)
CLARK (J.D.). — 1957. « Pre-European copper working in South Central Africa », *Roan Antelope* : 2-6 (الفصل٢٥).
— 1967. « The problem of Neolithic culture in Sub-Saharan Africa », *in* W.W. BISHOP et J.D. CLARK (éd.) : *Background to Evolution in Africa*, Chicago, Chicago Univ. Press : 601-27 (الفصل٢٥)

— 1968. « Some early Iron age pottery from Lunda », *in* J.D. CLARK (éd.). *Further palaeo-anthropological studies in Northern Lunda*, Lisbonne : 189-205 (الفصل٢٧)

— 1970. *The prehistory of Africa*, Londres, Thames and Hudson (الفصل٢٢)

— 1972. « Prehistoric populations and pressures favouring plant domestication in Africa », *B.W.S. 56* (الفصل٢٤)

— 1974. « Iron age occupation at the Kalambo Falls », J.D. CLARK (éd.), *Kalambo falls prehistoric site* II, Cambridge : 57-70 (الفصل٢٥)

CLARK (J.D.) et FAGAN (B.M.). — 1965. « Charcoal, sands and channel-decorated pottery from Northern Rhodesia », *A.A.* LXVII : 354-71 (الفصل ٢٩)

CLARK (J.D.) et WALTON (J.). — 1962. « A Late Stone Age site in the Erongo mountains, South West Africa », *Proc. P.S.* 28 : 1-16 (الفصل٢٦)

CLARKE (S.) et ENGELBACH (R.). — 1930. *Ancient Egyptian masonry, the building craft*, Oxford : Oxford Univ. Press, Londres : H. Milford, XII + 243 p. (الفصل٥)

CLAVEL (M.) et LÉVÊQUE (P.). — 1971. *Villes et structures urbaines dans l'Occident romain*, Paris, Armand Colin : 7-94 (الفصل١٩)

CLEMENTE (G.). — 1968. *La Noticia Dignitatum*, Cagliari : 318-342 (الفصل١٩)

CODEX THEODOSIANUS. — éd. 1905. *Theodosiani libri XVI cum constitutionibus sirmondianis et leges novellae ad Theodosianum pertinentes*, Th. MOMMSEN et P. MEYER (éd.), Berlin, Societas Regia Scientarum (الفصل١٥)

CODINE (J.). — 1868. *Mémoire géographique sur la mer des Indes*, Paris, Challamel (الفصل٢٨)

COHEN (D.) et MARET (P. DE). — 1974. « Recherches archéologiques récentes en République du Zaïre », *Forum U.L.B.* 39 : 33-7 (الفصل٢٥)

COHEN (D.) et MARTIN (Ph.). — 1972. « Classification formelle automatique et industrie lithiques ; interprétation des hachereaux de la Kamoa », *A.M.R.A.C.* 76 (الفصل٢١)

COHEN (D.) et MORTELMANS (G.). — 1973. « Un site tshitolien sur le plateau des Batéké », *A.M.R.A.C.* 81 (الفصل٢٥)

CONNAH (G.). — 1967. « Excavations at Daima, N.E. Nigeria », *Actes VIe cong. P.P.E.Q.* : 146-7 (الفصل٢٤)

— 1967. « Radiocarbon dates for Daima », *J.H.S.N.* 3 (الفصل٢٤)

— 1969. « The coming of iron : Nok and Daima », *in* Th. SHAW : *Lectures on Nigerian prehistory and archaeology*, Ibadan : 30-62 (الفصل٢١)

— 1969. « Settlement mounds of the Firki : the reconstruction of a lost society », *Ibadan* 26 (الفصل٢٤)

CONTENSON (H. DE). — 1960. « Les premiers rois d'Axoum d'après les découvertes récentes », *J.A.* 248 : 78-96

— 1961. « Les principales étapes de l'Ethiopie antique », *C.E.A.* 2, 5 : 12-23 (الفصلان ١٣، ١٤)

— 1962. « Les monuments d'art sud-arabes découverts sur le site Haoulti (Ethiopie) en 1959 », *Syria* 39 : 68-83 (13). (الفصل١٣)

— 1963. « Les subdivisions de l'archéologie éthiopienne. Etat de la question », *R. Arch.* : 189-91 (الفصل١٢)
— 1963. « Les fouilles de Haoulti en 1959. Rapport préliminaire », *A.E.* 5 : 41-86 (الفصول ١٢،١٤،١٥)
— 1963. « Les fouilles à Axoum en 1958. Rapport préliminaire », *A.E.* 5 : 3-39 (الفصل١٥)
— 1969. « Compte rendu bibliographique de "Annales d'Ethiopie" », vol. 7, *Syria* 46 : 161-7 (الفصل١٢)
CONTI-ROSSINI (C.). — 1903. « Documenti per l'archeologia d'Eritrea nella bassa valle dei Barca », *R.R.A.L.* 5, XII (الفصل١٥)
— 1928. « Storia d'Etiopia », Milan, 335 p., 70 pl. (الفصول ١٢،١٤،١٦)
— 1947. Ieha, Tsehuf Enni e Dera. *R.S.E.* 6 : 12-22 (الفصل١٢)
— 1947-48. Gad et il dio Luna in Etiopia, Studi e materiali di storia delle religione, Rome (الفصل١٥)
COOKE (C.K.). — 1971. « The rock art of Rhodesia », *S.A.J.S.*, n° sp. 2 : 7-10 (الفصل٢٧)
COON (C.S.). — 1968. *Yengema cave report*, Philadelphia, Univ. of Pennsylvania (الفصل٢٤)
COPPENS (Y.). — 1969. « Les cultures proto-historiques et historiques du Djourab », *Actes Iᵉʳ Coll. Intern. Archéol. Afr.* : 129-46 (الفصل٢٤)
CORNEVIN (R.). — 1967. *Histoire de l'Afrique. I - Des origines au XVIᵉ siècle*, Paris, Payot, 2ᵉ éd. (الفصل٢٠)
Corpus inscriptionum semiticarum ab academiae inscriptionum et litterarum Humaniorum contitum atque digestum (1881-1954), Paris, Académie des Inscriptions et Belles Lettres (الفصل١٥)
COSMAS INDICOPLEUSTES. *Topographie chrétienne, trad.* Wanda WALSCA, Paris, Le Cerf, pp. 77-78 (الفصل١٦)
— éd. 1897. *The Christian topography*, trad. J.W. MCCRINDLE, Londres, Hakluyt (22).
COULBEAUX (J.B.). — 1929. *Histoire politique et religieuse d'Abyssinie depuis les temps les plus reculés jusqu'à l'avènement de Menelik II*, tome I, Paris, Geuthner (الفصل١٦)
COURTIN (J.). — 1969. « Le néolithique du Borkou, Nord-Tchad », *Actes Iᵉʳ Coll. Intern. Archéol. Afr.* : 147-59 (الفصل٢٤)
COURTOIS (C.). — 1945. « Grégoire VII et l'Afrique du Nord. Remarques sur les communautés chrétiennes d'Afrique du XIᵉ siècle », *R.H.* CXCV : 97-122 ; 193-226 (19). (الفصل١٩)
— 1954. *Victor de Vita et son œuvre*, Alger, Impr. off. (الفصل١٩)
— 1955. *Les Vandales et l'Afrique*, Paris, A.M.G. (الفصلان١٩،٢٠)
COURTOIS (C.), LESCHI (L.), MINICONI (J.), FERRAT (C.) et SAUMAGNE (C.). — 1952. *Tablettes Albertini : Actes privés de l'époque vandale, fin du Vᵉ siècle*, Paris, A.M.G. (الفصل١٩)
CRACCO-RUGGINI (L.). — 1974. « Leggenda e realtà degli Etiopi nella cultura tardo imperiale », *Atti Congr. Intern. Stud. Et.* 191 : 141-93 (الفصل٢٠)
CROWFOOT (J.W.). — 1911. « The island of Meroe », *Archaeological survey*

of Egypt, mémoire n° 19 : 37, Londres (الفصل١١)
— 1927. « Christian Nubia », *J.E.A.* XIII : 141-50 (الفصل١٢)
CULWICK (A.I. et G.M.). — 1936. « Indonesian echoes in Central Tanganyika », *T.N.R.* 2 : 60-6 (28).(الفصل٢٨)
CURTO (S.). — 1965. *Nubia. Storia di una civiltà favolosa*, Novare, Instituto geografico, 371 p. (11).(الفصل١١)
— 1966. *Nubien. Geschichte einer rätselhaften Kultur*, Munich (الفصل٩)
CUVILLIER (A.). — 1967. *Introduction à la sociologie*, Paris, Armand Colin (الفصل١)
DAHL (O. Ch.). — 1951. « Malgache et Maanjan, une comparaison linguistique », *A.U.E.I.* 3 (الفصل٢٨)
DAHLE (L.). — 1889. « The Swahili element in the new Malagasy-English dictionary », *Antananarivo* III : 99-115 (الفصل٢٨)
DALBY (D.). — 1970. « Reflections on the classification of African languages », *A.L.S.* 11 : 147-71 (الفصل٢١)
— 1975. « The prehistorical implications of Guthrie's comparative Bantu, I. Problems of internal relationship », *J.A.H.* XVI : 481-501 (الفصل٢٢)
— 1976. « The prehistorical implications of Guthrie's comparative Bantu. Interpretation of cultural vocabulary », *J.A.H.* XVII : 1-27 (الفصل٢٢)
DANIELS (C.M.). — 1968. *Garamantian excavations : Zinchecra 1965-1967*, Tripoli, Department of Antiquities (الفصل٢٠)
— 1968. « The Garamantes of Fezzan », *Libya in History*, Beyrouth, (الفصل٤)
— 1970. *The Garamantes of Southern Libya*, Stroughton (Wisc.), Oleander Press (الفصلان١٧،٢١)
— 1972-73. « The Garamantes of Fezzan. An interim report of research, 1965-73 », *S.L.S.* IV : 35-40 (الفصل٢٠)
DANIELS (S.G.H.) et PHILLIPSON (D.W.). — 1969. « The early iron age site at Dambwa near Livingstone », *in* B.M. FAGAN, D.W. PHILLIPSON et S.G.H. DANIELS (éd.) : *Iron age cultures in Zambia*, II, Londres, Chatto and Windus : 1-54 (الفصل٢٧)
DARBY (W.J.), GHALIOUNGUI (P.) et GRIVETTI (L.). — 1977. *Food. The gift of Osiris*, Londres-New York-San Francisco, Academic Press, 2 vol. (3).
DARIS (S.). — 1961. *Documenti per la storia dell' esercito romano in Egitto*, Milan, Universita Cattolica del Sacrocuore (الفصل٧)
DART (R.A.) et BEAUMONT (P.). — 1969. « Evidence of Ore mining in Southern Africa in the Middle Stone Age », *C.A.* 10 : 127-8 (الفصل٢٩)
— 1969. « Rhodesian engravers, painters and pigment miners of the fifth millennium B.C. », *S.A.A.B.* 8 : 91-6 (الفصل٢٩)
DATOO (B.A.). — 1970. « Misconception about the use of Monsoons by dhows in East African waters », *E.A.G.R.* 8 : 1-10 (الفصل٢٢)
— 1970. Rhapta : the location and importance of East Africa's first port. *Azania* V : 65-75 (الفصلان٢٢،٢٨)
DATOO (B.A.) et SHERIFF (A.M.H.). — 1971. « Patterns of ports and trade routes in different periods, *in* L. BERRY : *Tanzania in maps*, Londres,

Univ. of London Press : 102-5 (الفصل ٢٢)
DAUMAS (F.). — 1967. « Ce que l'on peut entrevoir de l'histoire de Ouadi es-Sebua, Nubie », *C.H.E.* X : 40 et ss. (الفصل ١٢)
— 1976. *La Civilisation de l'Egypte pharaonique*, Paris, Arthaud, 2[e] éd. (الفصلان ٢ ، ٥)
DAVICO (A.). — 1946. « *Ritrovamenti sud-arabici nelle zona del Cascase* », *R.S.E.* 5 : 1-6 (الفصل ١٣)
DAVIDSON (B.). — 1962. *Découverte du passé oublié de l'Afrique*, Paris, P.U.F. (الفصلان ٤ ، ٢٠)
DAVIDSON (C.C.) et CLARK (J.D.). — 1974. « Trade wind beads : an interim report of chemical studies », *Azania* IX : 75-86 (الفصل ٢٩)
DAVIES (N.M.). — 1936. *Ancient Egyptian paintings*, 3 vol. Chicago, Univ. of Chicago Oriental Institute (الفصل ٥)
— 1958. *Picture writing in Ancient Egypt*, Londres, Oxford Univ. Press for Griffith Institute (الفصل ٥)
DAVIES (N.M.) et GARDINER (A.H.). — 1926. *The tomb of Huy, Viceroy of Nubia in the reign of Tutankhamun*, Londres, Egypt Exploration Society, 41 p. (الفصل ٩)
DAVIES (O.). — 1962. « Neolithic culture in Ghana », *Proc. 4[th] P.C.P.* 2 : 291-302 (الفصل ٢١)
— 1964. *The Quaternary in the Coast lands of Guinea*, Glasgow, Jackson and Son (الفصل ٢٤)
— 1967. *West Africa before the Europeans*, Londres, Methuen (الفصل ٢٤)
— 1967. « Timber construction and wood carving in west Africa in the 2[nd] millenium B.C. », *Man* (n° sp.) 2, 1 : 115-8 (الفصل ٢٤)
— 1968. « The origins of agriculture in West Africa », *C.A.* 9, 5 : 479-82 (24). (الفصل ٢٤)
— 1971. « Excavations at Blackburn », *S.A.A.B.* 26 : 165-78 (الفصل ٢٦)
DAWSON (R.A.). — 1938. « Pygmies and dwarfs in Ancient Egypt », *J.E.A.* 25 : 185-9 (الفصل ٢)
DEACON (H.J.). — 1966. « Note on the x-ray of two mounted implements from South Africa », *Man* 1 ; 87-90 (26).
— 1969. « Melkhoutboom Cave, Alexandra district, Cape Province : a report on the 1967 investigation », *A.C.P.M.* 6 : 141-69 (الفصل ٢٦)
DEACON (H.J. et J.). — 1963. « Scotts Cave ; a Late Stone Age site in the Gamtoos valley », *A.C.P.M.* 3 : 96-121 (الفصل ٢٦)
DEACON (J.). — 1972. *Archaeological evidence for demographic changes in the Eastern Cape during the last 2000 years*, Communication à l'A.G.M. de l'Association des archéologues de l'université de Witwatersrand, Johannesburg (الفصل ٢٦)
DEGRASSI (N.). — 1951. « Il mercato Romano di Leptis Magna », *Q.A.L.* pp. 37-70 (الفصلان ١١ ، ١٩)
DELIBRIAS (G.), HUGOT (H.J.) et QUEZEL (P.). — 1957. « Trois datations de sédiments sahariens récents par le radio-carbone », *Libyca* 5 : 267-70 (الفصل ١٧)

DEMOUGEOT (E.). — 1960. « Le chameau et l'Afrique du Nord romaine », *Annales*, pp. 205-247 (الفصلان١٩،٢٠)
DERCHAIN (Ph. J.). — 1962. *Le Sacrifice de l'oryx*, Bruxelles, Fondation égyptologique reine Elisabeth (الفصل٢)
DERRICOURT (R.M.). — 1973. « Radiocarbon chronology of the Late Stone Age and Iron Age in South Africa », *S.A.J.S.* 69 : 280-4 (الفصل٢٦)
— 1973. « Archaeological survey of the Transkei and Ciskei : interim report for 1972 », *F.H.P.* 5 : 449-55 (الفصل٢٦)
DESANGES (J.). — 1949. « Le statut et les limites de la Nubie romaine », *Chronique d'Egypte* 44 : 139-47 (الفصل١٠)
— 1957. « Le triomphe de Cornelius Balbus, 19 av. J.-C. », *R.A.* : 5-43 (الفصل ٢٠)
— 1962. *Catalogue des tribus africaines de l'Antiquité classique à l'Ouest du Nil*, Dakar (الفصلان١٧،٢٠)
— 1963. « Un témoignage peu connu de Procope sur la Numidie vandale et byzantine », *Byzantion* XXXIII : 41-69 (الفصل١٩)
— 1964. « Note sur la datation de l'expédition de Julius Maternus au pays d'Agisymba », *Latomus* : 713-25 (الفصل٢٠)
— 1967. « Une mention altérée d'Axoum dans l'exposition "Totius mundi et gentium" », *A.E.* VII : 141-58 (الفصل١٥)
— 1968. « Vues grecques sur quelques aspects de la monarchie méroïtique », *B.I.F.A.O.* LXVI : 89-104 (الفصلان١٠،١١)
— 1970. « L'Antiquité gréco-romaine et l'homme noir », *R.E.L.* XLVIII : 87-95 (الفصلان١٧،٢٠)
— 1971. « Un point de repère chronologique dans la période tardive du royaume de Méroé », *M.N.* 7 : 2-5 (الفصل١٠)
— 1972. « Le statut des municipes d'après les données africaines », *Revue historique de droit français et étranger*, Paris, Sirey : 253-273 (الفصل١٩)
— 1975. « L'Afrique noire et le Monde méditerranéen dans l'Antiquité. Ethiopiens et Gréco-romains », *R.F.H.O.M.* 228 : 391-414 (الفصل٢٠)
— 1976. « L'iconographie du Noir dans l'Afrique du Nord antique », *L'Image du Noir dans l'art occidental. I. Des pharaons à la chute de l'empire romain*, Fribourg, Menil Foundation : 246-68 (الفصل٢٠)
— 1977. « Aethiops », *Encyclopédie berbère* (الفصل٢٠)
DESANGES (J.) et LANCEL (S.). — 1962-74. « Bibliographie analytique de l'Afrique antique », *B.A.A.* 1 à 5 (الفصلان١٩،٢٠)
DESCAMPS (C.), DEMOULIN (D.) et ABDALLAH (A.). — 1967. « Données nouvelles sur la préhistoire du cap Manuel (Dakar) », *Actes VI^e Congr. P.P.E.Q.* : 130-2 (الفصل٢٤)
DESCAMPS (C.) et THILMANS (G.). — 1972. *Excavations at De Ndalane (Sine Saloum) 27 nov.-16 janv. 1972* (الفصل٢٤)
DESCHAMPS (H.). — 1960. *Histoire de Madagascar*, Paris, Berger-Levrault, 3^e éd. : 1965 (الفصل٢٨)
— 1970. (dir.). *Histoire générale de l'Afrique noire*, I. Des origines à 1800, Paris, P.U.F. : 203-10 (الفصل٢٠)

DESPOIS (J.). — « Rendements en grains du Byzacium », *Mélanges F. Gauthier* : 187 et sq. (19).(الفصل١٩)
DESROCHES-NOBLECOURT (Ch.). — 1962. *L'Art égyptien*, Paris, P.U.F. (الفصل٢)
— 1963. *Vie et mort d'un pharaon. Toutankhamon*, Paris, Hachette, 312 p. (الفصلان٢،٣)
DESROCHES-NOBLECOURT (Ch.) et KUENTZ (Ch.). — 1968. *Le Petit Temple d'Abou-Simbel « Nofretari pour qui se lève le soleil »*, Le Caire, 2 vol. (الفصل٢)
DEVIC (L.M.). — 1883. *Le Pays des Zendj d'après les écrivains arabes*, Paris (الفصل٢٨)
DEZ (J.). — 1965. « Quelques hypothèses formulées par la linguistique comparée à l'usage de l'archéologie », *Taloha* 2 : 197-214 (الفصل٢٨)
DICKE (B.H.). — 1931. « The lightning bird and other analogies and traditions connecting the Bantu with the Zimbabwe ruins », *S.A.J.S.* 28 : 505-11 (الفصل٢٧)
DIEHL (C.). — 1896. *L'Afrique byzantine. Histoire de la domination byzantine en Afrique*, Paris, Leroux (الفصل١٩)
DIESNER (H.J.). — 1965. *Vandalen*, Pauly-Wissowa, Real encyclopedie, Supp. X : 957-92 (الفصل١٩)
— 1966. *Das Vandalenreich, Aufstieg und Untergang*, Leipzig (الفصل١٩)
— 1969. *Grenzen und Grenzverteidigung des Vandalenreiches*, Studi in onore di E. Volterra III : 481-90 (الفصل ١٩)
DILLMAN (A.). — 1878. *Über die Anfange der axumitischen Reiches*, *A.A.W.* 223 (الفصل١٤)
— 1880. *Zur Geschichte des axumitischen Reiches in vierten bis sechsten Jahrhundert*, Berlin, K. Akademie der Wissenschaften (الفصل١٤)
DINDORFF (L.A.). — 1831. Ioannis Malalae chronographia. Ex recensione Ludovici Dindorfii (Corpus scriptorum historiae byzantinae. Ioannes Malalas), Bonn, Weber (الفصل١٥)
— 1870. *Historici graeci minores*, Leipzig, Tenbrerri (الفصل١٥)
DIODORE DE SICILE. — éd. 1933-67. *The library of History of Diodorus of Sicily*, trad. : C.H. OLDFATHER *et al.*, Cambridge, Mass. : Harvard Univ. Press, Londres : Heinemann, 12 vol. (الفصول١،٦،١٠،١١،٢٢)
DIOGENE LAËRCE. — éd. 1925. *Lives of eminent philosophers*, R.D. HICKS, trad., Cambridge, Mass. : Harvard Univ. Press, Londres : Heinemann, 2 vol. (الفصل١)
DIOP (Ch. A.). — 1955. *Nations nègres et culture*, Paris, Présence africaine (الفصل١)
— 1967. *Antériorité des civilisations nègres : Mythe ou vérité historique*, Paris, Présence africaine, 301 p. (الفصل١)
— 1968. « Métallurgie traditionnelle et âge du fer en Afrique. », *B.I.F.A.N.* B. XXX, 1 : 10-38 (الفصلان٢١،٢٤)
— 1973. « La métallurgie du fer sous l'Ancien Empire égyptien », *B.I.F.A.N.* B. XXXV : 532-47 (الفصلان٢١،٢٤)

— 1977. *Parenté génétique de l'égyptien pharaonique et des langues négro-africaines : processus de sémitisation*, I.F.A.N. (الفصل١)

— 1977. « La pigmentation des anciens Egyptiens, test par la mélanine », *B.I.F.A.N.* (الفصل١)

DITTEMBERGER (G.). — 1898-1905. *Sylloge inscriptionum graecarum*, 5 vol., Leipzig (الفصل٦)

DIXON (D.M.M.). — 1964. « The origin of the Kingdom of Kush (Napata-Meroe) », *J.E.A.* 50 : 121-32 (الفصل١١)

— 1969. « The transplantation of Punt incense trees in Egypt », *J.E.A.* 55 : 55 (الفصل٤)

DOGGET (H.). — 1965. « The development of the cultivated sorghums », *in* J. HUTCHINSON (éd.) : *Essays on crop plant evolution*, Cambridge : 50-69 (الفصل٢٤)

DONADONI (S.). — 1970. « Les fouilles à l'église de Sonqi Tino », *in* E. DINKLER (éd.) : *Kunst und Geschichte Nubiens in christlicher Zeit*, Recklinghausen, Verlag Aurel Bongers : 209-18 (الفصل١٢)

DONADONI (S.) et CURTO (S.). — 1965. « Le pitture murali della chiesa di sonqi nel Sudan », *La Nubia christiana*, Quaderno N° 2 del Museo eglizio di Torino, Turin, Fratelli Pozzo-Salvati (الفصل١٢)

DONADONI (S.) et VANTINI (G.). — 1967. « Gli Scavi nel Diff di Sonqi Tino (Nubia Sudanese) », *R.R.A.L.* 3, XL : 247-73 (الفصل١٢)

DORESSE (J.). — 1957. « Découvertes en Ethiopie et découverte de l'Ethiopie », *B.O.* 14 : 64-5 (الفصل١٣)

— 1960. « La découverte d'Asbi-Dera », *Atti conv. Intern. Stud. Et. 1959* : 229-48 (الفصل١٥)

DORNAN (S.S.). — 1915. « Rhodesian ruins and native tradition », *S.A.J.S.* 12 : 502-16 (الفصل٢٧)

DREWES (A.J.). — 1954. « The inscription from Dibbib in Eritrea », *B.O.* 11 : 185-6 (الفصل١٣)

— 1956. « Nouvelles inscriptions de l'Ethiopie », *B.O.* 13 : 179-82 (الفصل ١٣)

— 1959. « Les inscriptions de Mélazo », *A.E.* 3 : 83-99 (الفصل١٣)

— 1962. *Inscriptions de l'Ethiopie antique*, Leyde, Brill, 111 p. (الفصول ١٣،١٤،١٥)

DREWES (A.J.) et SCHNEIDER (R.). — 1967-70-72. « Documents épigraphiques de l'Ethiopie I, II, III », *A.E.* VII : 89-106 ; *A.E.* VIII : 57-72 ; *A.E.*, IX : 87-102 (الفصل١٣،١٤)

DRIOTON (E.) et VANDIER (J.). — 1962. *Les Peuples de l'Orient méditerranéen*, 4e éd. augmentée, I., *Introduction aux études historiques* ; II. *L'Egypte*, Paris, P.U.F., Clio (الفصلان٢،١٧)

DROUIN (E.A.). — 1882. « Les listes royales éthiopiennes et leur autorité historique », *R.A.* août-oct. (الفصل١٦)

DRURY (R.). — 1731. *The adventures of Robert Drury during fifteen years of captivity in the island of Madagascar*, Londres, 464 p. (الفصل٢٨)

DUBIEF (J.). — 1963. « Le climat du Sahara », *Mém. I.R.S.*, Alger (الفصل٢٠)

DUNBABIN (T.J.). — 1948. *The western Greeks*, Oxford, Clarendon

Press (الفصل١٨)

DUNCAN-JONES (R.P.). — « City population in Roman Africa », *J.R.S.* 53 : 85 (الفصل١٩)

DUNHAM (D.) et BATES (O.). — 1950-57. *Royal cemeteries of Kush*, I. *El-Kurru*, II. *Nuri*, III. *Royal tombs at Meroe and Barkal*, Cambridge, Mass. (10) (11).(الفصلان ١٠،١١)

DUPIRE (M.). — 1962. *Peuls nomades*, Institut d'ethnologie, Paris (الفصل٢٤)

— 1972. « Les facteurs humains de l'économie pastorale », *Etudes nigériennes* n° 6 (الفصل٢٢)

DUTTON (T.P.). — 1970. « Iron-smelting furnace date 630±50 years A.D. in the Ndumu Game Reserve », *Lammergeyer* XIII : 37-40 (الفصل٢٧)

DUVAL (N.). — 1971. *Recherches archéologiques à Sbeitla*, Paris, Bibl. Ecoles françaises d'Athènes et Rome (الفصل١٩)

— 1974. « Le dossier de l'église d'El-Monassat au sud-ouest de Sfax, Tunisie », *A.A.* VIII : 157-73 (الفصل١٩)

DUVAL (N.) et BARATTE (F.). — 1973. *Les Ruines de Sufetula-Sbeitla*, Tunis, S.T.D. (الفصل١٩)

— 1974. *Les Ruines d'Ammaedara-Haidra*, Tunis, S.T.D. (الفصل١٩)

DUVAL (Y.) et FEVRIER (P.A.). — 1969. « Procès-verbal de déposition des reliques de la région de Télerma, VIIe siècle », *Mélanges, Ecole française de Rome* : 257-320 (الفصل١٩)

DUYVENDAK (J.L.). — 1949. *China's discovery of Africa*, Londres, Probsthain (الفصل٢٢)

EBBELL (B.). — 1937. *The papyrus Ebers. The greatest Egyptian medical document*, Copenhague : Levin and Hunksgaard, Londres, H. Milford, 135 p. (الفصل٥)

EDKINS (Rev. J.). — 1885. « Ancient navigation in the Indian Ocean », *J.R.A.S.* XVIII : 1-27 (الفصل٢٢)

EDWARDS (I.E.S.). — 1961. *The pyramids of Egypt*, Londres, M. Parrish, 258 p. (الفصل٢)

EHRET (C.). — 1967. « Cattle-keeping and milking in eastern and southern African history : the linguistic evidence », *J.A.H.* VIII : 1-17 (الفصلان ٢١،٢٧)

— 1971. *Southern Nilotic history : linguistic approaches to the study of the past*, Evanston (الفصل٢٢)

— 1972. « Bantu origins and history : critique and interpretation », *T.J.H.* II : 1-19 (الفصل٢١)

— 1973. « Patterns of Bantu and Central Sudanic settlement in Central and Southern Africa (C. 1000 B.C.-500 A.D.) », *T.J.H.* III : 1-71 (الفصلان٢١،٢٢)

— 1974. *Ethiopians and East Africans, the problems of contacts*, Nairobi, East African Publishing House (الفصل٢٢)

EHRET (C.) *et al.*. — 1972. « Outling Southern African history : a re-evaluation A.D. 100-1500 », *Ufahamu* III : 9-27 (الفصل٢٧)

ELGOOD (P.G.). — 1951. *Later dynasties of Egypt*, Oxford, B. Blackwell (الفصل٢)

ELPHICK (R.H.). — 1972. *The Cape Khoi and the first phase of South African*

race relations, Yale, Thèse (الفصل ٢٦)

EMERY (W.B.). — 1960. « Preliminary report on the excavations of the Egypt Exploration Society at Buhen, 1958-59 », *Kush* 8 : 7-8 (الفصل ٩)

— 1961. *Archaic Egypt*, Edimbourg (الفصل ٢)

— 1963. « Preliminary report on the excavations at Buhen, 1962 », *Kush* 11 : 116-20 (الفصل ٩)

— 1965. *Egypt in Nubia*, Londres, Hutchinson (الفصل ٤،٩،١٢)

EMERY (W.B.) et KIRWAN (L.P.). — 1935. *The excavations and survey between Wadi es-Sebua and Adindan, 1929-31*, 2 vol., Le Caire, Government Press, 492 p. (الفصل ٩)

— 1938. *The royal tombs of Ballana and Qustul*, Service des antiquités de l'Egypte. Mission archéologique de Nubie, 1929-34, Le Caire, 2 vol. (الفصلان ١٠،١٢)

EMIN-BEY. — *Studii-storico-dogmatici sulla chiesa giacolina Roma Tip Caluneta Tarique Neguest... Manus*, déposé à la B.N. n° P.90 (الفصل ١٦)

EMPHOUX (J.P.). — 1970. « La grotte de Bitorri au Congo-Brazzaville », *Cah. O.R.S.T.O.M.* VII, 1 : 1-20 (الفصل ٢٥)

EPSTEIN (H.). — 1971. *The origin of the domestic animals in Africa*, New York, Africana Publishing (الفصل ٢١، الخاتمة)

ERMAN (A.). — 1927. *The literature of the Ancient Egyptians*, trad. A.M. BLACKMAN, Londres, Methuen (الفصل ٥)

— 1966. *The Ancient Egyptians. A source book of their writings*, trad. A.M. BLACKMAN, New York, Harper and Row (الفصل ٢)

ERROUX (J.). — 1957. « Essai d'une classification dichotomique des blés durs cultivés en Algérie », *B.S.H.N.A.N.* 48 : 239-53 (الفصل ١٧)

ESCHYLE. — éd. 1955. *Tragédies*, P. MAZON, trad., Paris (الفصل ١)

ESPERANDIEU (G.). — 1957. *De l'art animalier dans l'Afrique antique*, Alger, Imp. Officielle (الفصل ١٧)

EUSÈBE DE PAMPHILE. — *Vie de l'empereur Constantin*, traduction 1675, Paris (الفصل ١٦)

EUZENNAT (N.). — 1976. « Les recherches sur la frontière romaine d'Afrique, 1974-76 », *Akten XI inter. Limeskong* : 533-43 (الفصل ٢٠)

EVANS-PRITCHARD (E.E.). — 1940. *The Nuer. A description of the modes of Livelihood and political institutions of a Nilotic people*, Londres, Oxford Univ. Press (الفصل ٢٤)

EVETTS (B.T.A.) et BUTLER (A.J.). — 1895. *The churches and monasteries*, Oxford (الفصل ١٢)

EYO (E.). — 1964-5. « Excavations at Rop rock Shelter », *W.A.A.N.* 3 : 5-13 (الفصل ٢٤)

— 1972. « Excavations at Rop rock Shelter, 1964 », *W.A.J.A.* 2 : 13-6 (الفصل ٢٤)

FAGAN (B.M.). — 1961. « Pre-European Iron working in Central Africa with special reference to Northern Rhodesia », *J.A.H.* II, 2 : 199-210 (الفصل ٢٥)

— 1965. « Radiocarbon dates for sub-Saharan Africa. III », *J.A.H.* VI : 107-

16 (الفصل ٢٧)
— 1967. « Radiocarbon dates for sub-Saharan Africa. V », *J.A.H.* VIII : 513-27 (الفصل ٢٧)
— 1969. « Early trade and raw materials in South Central Africa », *J.A.H.* X, 1 : 1-13 (الفصلان ٢٥، ٢٩)
— 1969. « Radiocarbon dates for sub-Saharan Africa. VI », *J.A.H.* X : 149-69 (الفصل ٢٧)
FAGAN (B.M.) et NOTEN (F.L. VAN). — 1971. « The hunter-gatherers of Gwisho », *A.M.R.A.C.* 74, XXII + 230 p. (الفصل ٢٥)
•FAGAN (B.M.), PHILLIPSON (D.W.) et DANIELS (S.G.H.). — 1969. *Iron Age cultures in Zambia*, Londres (الفصلان ٢٥، ٢٧)
FAGG (A.). — 1972. « Excavations of an occupation site in the Nok Valley, Nigeria », *W.A.J.A.* 2 : 75-9 (الفصل ٢٤)
FAIRMAN (H.W.). — 1938. « Preliminary report on the excavations at Sesebi and Amarah West, Anglo-Egyptian Sudan, 1937-8 », *J.E.A.* XXIV : 151-6 (الفصل ٩)
— 1939. « Preliminary report on the excavations at Amarah West, Anglo-Egyptian Sudan, 1938-9 », *J.E.A.* XXV : 139-44 (الفصل ٩)
— 1948. « Preliminary report on the excavations at Amarah West, Anglo-Egyptian Sudan, 1947-8 », *J.E.A.* XXXIV : 1-11 (الفصل ٩)
FATTOVICH (R.). — 1972. « Sondaggi stratigrafici. Yeha », *A.E.* 9 : 65-86 (الفصل ١٢)
FAUBLEE (J. et M.). — 1964. « Madagascar vu par les auteurs arabes avant le XIX[e] siècle ». *Actes VII[e] Coll. Intern. Hist. Marit.*, et *Studia* n[o] 11, 1963 (الفصل ٢٨)
FAULKNER (R.O.). — 1962. *A concise dictionary of middle Egyptian*, Oxford, Griffith Institute, XVI + 328 p. (الفصل ١)
— 1969. *The ancient Egyptian pyramid texts*, Oxford, Clarendon Press (3). (الفصلان ٢، ٣)
— 1974-1978. *The ancient Egyptian coffin texts*, Warminster, Arris and Philips, 3 vol. (الفصل ٣)
— 1975. « Egypt from the inception of the nineteenth dynasty to the death of Rameses III », *The Cambridge Ancient History* II, 2, chap. XXIII, Cambridge (الفصل ٢)
FENDRI (M.). — 1961. *Basilique chrétienne de la Skhira*, Paris, P.U.F. (الفصل ١٩)
FERGUSON (J.). — 1969. « Classical contacts with West Africa » *in* L.A. THOMPSON et J. FERGUSSON (éd.) : *Africa in classical Antiquity*, Ibadan : 1-25 (الفصل ٢١)
FERGUSON (J.) et LIBBY (W.F.). — 1963. « Ugla radiocarbon dates. II », *Radiocarbon* V : 17 (الفصل ٢٧)
FERRAND (G.). — 1891-1902. *Les Musulmans à Madagascar et aux îles Comores*, Paris, Leroux, 2 vol. (الفصل ٢٨)
— 1904. « Madagascar et les îles Uaq-Uaq », *J.A.* : 489-509 (الفصل ٢٨)
— 1908. « L'origine africaine des Malgaches », *J.A.* : 353-500 (الفصل ٢٨)
— 1913-14. *Relation des voyages et textes géographiques arabes, persans et*

turcs relatifs à l'Extrême-Orient du VIIIe au XVIIIe siècle, Paris, Leroux, 2 vol. (الفصل ٢٨)

FEVRIER (P.A.). — 1962-7. « Inscriptions chrétiennes de Djemila-Cuicul », *B.A.A.* I : 214-22 ; *B.A.A.* II : 247-8 (الفصل ١٩)

— 1965. *Fouilles de Sétif. Les basiliques chrétiennes du quartier Nord-Ouest*, Paris, C.R.N.S. (الفصل ١٩)

FEVRIER (P.A.) et BONNAL (J.). — 1966-7. « Ostraka de la région de Bir Trouch », *B.A.A.* II : 239-50 (الفصل ١٩)

FIRTH (C.M.). — 1915. *Archaeological survey of Nubia. Report for 1907-1908-1910-1911*, Le Caire, National Print Dept. (الفصل ٩)

FLACOURT (E.). — 1661. *Histoire de la Grande Ile de Madagascar*, Paris, Gervais Clougier (الفصل ٢٨)

FLEISCHHACHER (H. VON). — 1969. « Zur Rassen -und Bevölkerungsgeschichte Nördafrikas unter besonderer Berüchsichtigung der Aethiopiden, der Libyer und der Garamanten », *Paideuma* 15 : 12-53 (الفصلان ١٧، ٢٠)

FLIGHT (C.). — 1972. « Kintampo and West African Neolithic civilizations », *B.W.S.* 56 (الفصل ٢٤)

FONTANE (M.E.). — 1882. « Les Egyptes (5000 à 715 av. J.-C.) », vol. III de l'*Histoire universelle*, 1838-1914, Paris, A. Lemerre (الفصل ١)

FORBES (R.J.). — 1950. *Metallurgy in Antiquity : a notebook for archaeologists and technologists*, Leyde, Brill (الفصل ٢١)

— 1954. « Extracting, smelting and alloying », *in* Ch. SINGER, E.J. HOLMYARD et A.R. HALL (éd.) : *History of technology*, Oxford, Clarendon Press : 572-599 (الفصل ٢١)

FRAIPONT (J.). — 1968. (trad.) *Sancti Fulgentii episcopi ruspensis opera. Corpus auctorum christianorum*, nos 91, 91 A (الفصل ١٩)

FRANCHINI (V.). — 1954. « Ritrovamenti archeologici in Eritrea », *R.S.E.* 12 : 5-28 (الفصل ١٣)

FRANKFORT (H.). — 1929. *The mural painting of El-Amarneh*, Londres, Egypt Exploration Society (الفصل ٥)

FRASER (P.W.). — 1967. « Current problems concerning the early history of the cult of Serapis », *O.A.* VII : 23-45 (الفصل ٦)

— 1972. *Ptolemaic Alexandria*, Oxford, Clarendon Press, 3 vol. (الفصل ٦)

FRAZER (J.G.). — 1941. *The golden Bough : A study of magic and religion*, New York-Londres : Macmillan (الفصل ٢٩)

FREEMAN-GRENVILLE (G.S.P.). — 1960. « East African coin finds and their historical significance », *J.A.H.* I : 31-43 (الفصل ٢٢)

— 1962. *The medieval history of the coast of Tanganyika*, Londres, Oxford Univ. Press (الفصل ٢٢)

— 1962. *The East african coast. Selected documents from the first to the earlier 19th century*, Oxford, Clarendon Press (الفصلان ٢٢، ٢٧)

— 1968. *A note on Zanj in the Greek authors*, Seminar on language and history in Africa, Londres (الفصل ٢٢)

FREND (W.H.C.). — 1968. « Nubia as an outpost of Byzantine cultural influence », *Byzantinoslavica* 2 : 319-26 (الفصل ١٢)

— 1972. « Coptic, Greek and Nubian at Qasr Ibrim », *Byzantinoslavica*

XXXIII : 224-9 (الفصل ١٢)

— 1972. *The rise of the monophysite movement : chapters in the history of the church in the fifth and sixth centuries*, Cambridge (الفصل ١٢)

FROBENIUS (L.). — 1931. *Erythräa Länder und Zeiten des Heiligen Königsmordes*, Berlin-Zurich : Atlantis (الفصل ١١)

FRONTIN (S.J.). — éd. 1888. *Strategemata*, I, 11, 18, éd. G. Gündermann (الفصل ١٧)

FURON (R.). — 1972. *Eléments de paléoclimatologie*, Paris, Vuibert (الفصل ٢٠)

GABEL (C.). — 1965. *Stone Age hunters of the Kafue*, Boston, Boston Univ. Press (الفصل ٢١)

GADALLAH (F.F.). — 1971. « Problems of pre-Herodotan sources in Libyan history », *Libya in History*, 2ᵉ partie : 43-75 (en arabe, avec résumé en anglais : 78-81), s.l.s.d. (Benghazi) (الفصل ١٧)

GAGE (J.). — 1964. *Les Classes sociales dans l'Empire romain*, Paris, Payot (الفصل ١٩)

GALAND (L.). — 1965-70. « Les études de linguistique berbère », *Ann. Afr.* (الفصل ٢٠)

— 1969. « Les Berbères ; la langue et les parlers », *Encyclopedia universalis*, Paris : 171-3 (الفصل ٢٠)

— 1974. « Libyque et berbère », *A.E.P.H.E.* : 131-53 (الفصل ٢٠)

GARDINER (A.H.). — 1909. *The Admonitions of an Egyptian sage. From a hieratic papyrus in Leiden*, Leipzig, J.C. Hinrichs, VIII + 116 p. (2).

— 1950. *Egyptian Grammar*, 2ᵉ édition, Londres, p. 512 (الفصل ٤)

— 1961. *Egypt of the pharaohs, an introduction*, Oxford, Clarendon Press, X + 461 p. (الفصلان ٢، ٩)

GARDNER (T.), WELLS (L.H.) et SCHOFIELD (J.F.). — 1940. « The recent archaeology of Gokomere, Southern Rhodesia », *T.R.S.S.A.* XVIII : 215-53 (الفصل ٢٧)

GARLAKE (P.S.). — 1967. « Excavations at Maxton Farm, near Shamwa Hill, Rhodesia », *Arnoldia* III, 9 (الفصل ٢٧)

— 1969. « Chiltope : an early iron age village in Northern Mashonaland », *Arnoldia* IV, 19 (الفصل ٢٧)

— 1970. « Iron age sites in the Urungwe district of Rhodesia », *S.A.A.B.* XXV : 25-44 (الفصل ٢٧)

— 1970. « Rhodesian ruins. A preliminary assessment of their styles and chronology », *J.A.H.* XI, 4 : 495-513 (الفصل ٢٧)

— 1973. *Great Zimbabwe*, Londres, Thames and Hudson (الفصل ٢٧)

GARSTANG (J. *et al.*). — 1911. *Meroe, the city of the Ethiopians. Account of a first season's excavations on the site 1909-10*, Liverpool (الفصل ١١)

GARTKIEWICZ (P.). — 1970-72. « *The central plan in Nubian church architecture* », *Nubian recent research* : 49-64 (الفصل ١٢)

GASCOU (J.). — 1972. *La Politique municipale de l'Empire romain en Afrique proconsulaire de Trajan à Septime-Sévère*, Rome, Ecole française de Rome (الفصلان ١١،١٩)

GAST (M.). — 1972. « Témoignages nouveaux sur Tin Hinan, ancêtre

légendaire des Touareg Ahaggar. Mélanges Le Tourneau », *R.O.M.M.* : 395-400 (الفصل ٢٠)

GAUCKLER (P.). — 1925. *Nécropoles puniques de Carthage*, Paris (الفصل ١٨)

GAUDIO (A.). — 1953. « Quattro ritrovamenti archeologici e paleografici in Eritrea », *Il Bolletino*, I : 4-5 (الفصل ١٥)

GAUTHIER (H.). — 1925-31. *Dictionnaire des noms géographiques contenus dans les textes hiéroglyphiques*, Le Caire, 7 vol. (الفصل ١٧)

GAUTIER (E.F.). — 1952. *Le Passé de l'Afrique du Nord*, Paris, Payot (الفصل ١٨)

GERMAIN (G.). — 1948. « Le culte du bélier en Afrique du Nord », *Hespéris* XXXV : 93-124 (الفصل ١٧)

— 1957. « Qu'est-ce que le périple d'Hannon ? Document, amplification littéraire ou faux intégral ? », *Hespéris* : 205-48 (الفصلان ٢٠، ٢١)

GHALIOUNGUI (P.). — 1963. *Magic and medical science in Ancient Egypt*, Londres, Hodder and Stoughton, 189 p. (الفصل ٢)

— 1973. *The house of Life. Per Ankh, magic and medical science in Ancient Egypt*, Amsterdam, B.M. Israël, XIV + 198 p. (الفصل ٥)

GILOT (E.), ANCIEN (N.) et CAPRON (P.C.). — 1965. « Louvain natural radiocarbon measurements. III », *Radiocarbon* II : 118-22 (الفصل ٢٥)

GIORGINI (M.S.). — 1965. « Première campagne de fouilles à Sedeinga 1963-64 », *Kush* XIII : 112-30 (الفصل ١٠)

GIRGIS (M.). — 1963. « The history of the shipwrecked sailor », texte et traduction, *Bull. Fac. Lettres*, Univ. du Caire, XXI, I : 1-10 (الفصلان ٤، ١١)

GLANVILLE (S.K.R.). — 1942. *The Legacy of Egypt*, Oxford, Clarendon Press, XX + 424 p. (الفصل ٢)

GLASER (E.). — 1895. *Die Abessiner in Arabien und Afrika auf grundneuentdecken Inschriften*, Munich (الفصل ١١)

GOBERT (E.). — 1948. « Essai sur la litholâtrie », *R.A.* 89 : 24-110 (الفصل ١٧)

GOLENISCHEFF (M.W.). — 1912. *Le Conte du naufragé*, Le Caire (الفصل ٤)

GOLGOWSKI (T.). — 1968. « Problems of the iconography of the Holy Virgin murals from Faras », *Etudes et travaux* II : 293-312 (الفصل ١٢)

GOMAA (F.). — 1973. « Chaemwese, Sohn Rameses II und hoher Priester von Memphis », *Ä.A.* 27 (الفصل ٢)

GOODCHILD (R.G.). — 1962. *Cyrene and Apollonia, an historical guide*, Department of antiquities of Cyrenaica (الفصل ٦)

— 1966. « Fortificazioni e palazzi bizantini in Tripolitania e Cirenaica, *C.C.* XIII : 225-50 (الفصل ١٩)

GOODWIN (A.J.H.). — 1946. « Prehistoric fishing methods in South Africa », *Antiquity* 20 : 134-9 (الفصل ٢٦)

GOSTYNSKI (T.). — 1975. « La Libye antique et ses relations avec l'Egypte », *B.I.F.A.N.* 37, 3 : 473-588 (الفصلان ١٠، ٢٠)

GOYON (G.). — 1957. *Nouvelles Inscriptions rupestres du Wadi-Hammamat*, Paris, Imprimerie Nationale (الفصل ٢)

— 1970. « Les navires de transport de la chaussée monumentale d'Ounas », *B.I.F.A.O.* LXIX : 11-41 (الفصل٣)
GOYON (J.C.). (trad.) — 1972. *Rituels funéraires de l'Ancienne Egypte* : « Le rituel de l'embaumement », « Le rituel de l'ouverture de la bouche », « Le livre des respirations », Paris, Le Cerf, 359 p.
GRANDIDIER (A.). — 1885. *Histoire de la géographie de Madagascar*, Paris, Imprimerie nationale (الفصل٢٨)
GRAPOW (H.). — 1954-63. *Grundriss der Medizin der alten Ägypter*, Berlin, Akademie Verlag, 9 vol. (الفصل٥)
GREENBERG (J.H.). — 1955. *Studies in African linguistic classification*, New Haven, Compass (الفصل٢٥)
— 1966. *The languages of Africa*, 2ᵉ éd. Bloomington, Univ. of Indiana Press (3ᵉ éd. 1970), VIII + 180 p. (الفصول ٢١،٢٢،٢٥)
— 1972. « Linguistic evidence regarding Bantu origins », *J.A.H.* XIII, 2 : 189-216 (الفصلان ٢١،٢٥)
GRIFFITH (F.L.). — 1911. *Karanog. The Meroitic inscriptions of Shablul and Karanag*, Philadelphie : 62 (الفصل١١)
— 1911-1912. *Meroitic inscriptions*, 2 vol., Londres, Archaeological Survey of Egypt (الفصل١١)
— 1913. *The Nubian texts of the christian period*, Berlin, Könige Akademie der Wissenschaften... 134 p. (الفصل١٢)
— 1917. « Meroitic studies. III-IV », *J.E.A.* 4 : 27 (الفصل١١)
— 1921-28. « Oxford excavations in Nubia », *L.A.A.A.* VIII.1 ; IX, 3-4 ; X, 3-4 ; XI, 3-4 ; XII, 3-4 ; XIII, 1-4 ; XIV, 3-4 ; XV, 3-4 (الفصلان ٩،١٢)
— 1925. « Pakhoras-Bakharas-Faras in geography and history », *J.E.A.* XI : 259-68 (الفصل١٢)
GRIFFITH (J.G.). — 1970. *Plutarch : De Iside et Osiride*, Cambridge (الفصل٢)
GROAG (E.). — 1929. *Hannibal als Politiker*, Vienne (الفصل١٨)
GROBBELAR (C.S.) et GOODWIN (A.J.H.). — 1952. « Report on the skeletons and implements in association with them from a cave near Bredasdorp, Cape Province », *S.A.A.B.* 7 : 95-101 (الفصل٢٦)
GROHMANN (A.). — 1914. *Göttersymbole und Symboltiere auf südarabische Denkmaler*, Vienne (الفصل١٣)
— 1915. « Über den Ursprung und die Entwicklung der äthiopischen Schrift », *Archiv für Schriftkunde* I, 2-3 : 57-87 (الفصل١٥)
— 1927. *in* D. NIELSON, *Handbuch des altarabische Altertumskunde*, vol. I, Copenhague (الفصل١٣)
— « Eine Alabasterlampe mit einer Ge'ezschrift », *W.Z.K.M.*, Bd XXV, pp. 410-422 (الفصل١٥)
GROSSMAN (P.). — 1971. « Zur Datierung der frühen Kirchenlagen aus Faras », *Byzantinische Zeitschrift* 64 : 330-50 (الفصل١٢)
GROSS-MERTZ (B.). — 1952. *Certain titles of the egyptian queens and their bearing on the hereditary right to the throne*, Dissert. Univ. of Chicago (الفصل٣)
GSELL (S.). — 1913-28. *Histoire ancienne de l'Afrique du Nord*, Paris, Hachette, 8 vol. (الفصول ١٧،١٩،٢٠)

— 1915. *Herodotus*, Alger, pp. 133-134 (الفصل١٧)
— 1926. « La Tripolitaine et le Sahara au IIIᵉ siècle de notre ère », *M.A.I.* XLIII : 149-66 (الفصل٢٠)
GUERY (R.). — 1972. *in Bulletin de la Société nationale des antiquaires de France*, Paris : 318-9 (الفصل١٩)
GUIDI (I.). — 1895. *Guelde Áregawi, Vita Ze-Mikael Aregawi*, Rome (الفصل١٦)
— 1906. *The life and miracles of Tekle Haymanot*, Londres, vol. II (الفصل١٦)
GUMPLOWICZ (L.). — 1883. *Der Rassenkampf, sociologische Untersuchungen*, Innsbrück (الفصل١)
GUTHRIE (M.). — 1962. Some developments in the pre-history of the Bantu languages, *J.A.H.* III, 2 : 273-82 (الفصل٢٥)
— 1967-71. *Comparative Bantu : an introduction to the comparative linguistics and prehistory of the Bantu languages*, 4 vol., Farnborough, Gregg International (الفصلان٢١،٢٥)
— 1970. « Contributions from comparative Bantu studies to the Prehistory of Africa », *in* D. DALBY (éd.), *Language and history in Africa*, Londres, Franck Cass : 20-49 (21) (25).
HABACHI (L.). — 1955. « Preliminary report on Kamose stela and other inscribed blocks found reused in the foundations of two statues at Karnak, *A.S.A.E.* 53 : 195-202 (الفصل٩)
HAILEMARIAM (G.). — 1955. « Objects found in the neighbourhood of Axum », *A.E.* I : 50-1 (الفصل١٢)
HALFF (G.). — 1963. « L'onomastique punique de Carthage », *Karthago* XIII (الفصل١٨
HAMY (E.T.). — 1969. *in* Geoffey PARRINDER : *African mythology*, 2ᵉ éd., Paul Hamlyn, Londres (الفصل٤)
HANI (J.). — 1976. *La Religion égyptienne dans la pensée de Plutarque*, Paris, les Belles Lettres (الفصل٢)
HARDEN (D.B.). — 1963. *The Phoenicians*, Londres, Thames and Hudson, éd. révisée (الفصل١٨)
HARDY (E.R.). — 1931. *The large estate of Byzantine Egypt*, New York, Ams Press ; éd. révisée : 1968 (الفصل٧)
HARLAN (J.R.), WET (J.M.J.) et STEAMLER (A. DE). — 1976. *The origin of African plant domestication*, Paris-La Haye, Mouton, World anthropology series (الفصل٢١)
HARRIS (J.R.). — 1966. *Egyptian art*, Londres, Spring Books, 44 p. (الفصل٥)
— 1971. *The legacy of Egypt*, 2ᵉ éd., Oxford, Clarendon Press (3) (5).
HARTLE (D.). — 1966. « Bronze objects from the Ifeka gardens site, Ezira », *W.A.A.N.* 4 : 26 (الفصل٢٤)
— 1968. Radiocarbon dates, *W.A.A.N.* 13 : 73 (الفصل٢٤)
HASAN (H.). — 1928. *A history of Persian navigation*, Londres (الفصل٢٢)
HAVINDEN (M.A.). — 1970. « The history of crop cultivation in West Africa :

A bibliographical guide », *E.H.R.*, 2e série, XXIII, 3 : 532-55 (24).
HAYCOCK (B.G.). — 1954. « The Kingship of Kush in the Sudan », *Comparative studies in society and history* VII, 4 : 461-80 (الفصلان ١٠،١١)
HAYES (W.C.). — 1955-59. *The sceptre of Egypt*, Part. I and II, Cambridge, U.S.A. (الفصلان ٢،٢٠)
— 1965. *Most ancient Egypt*, Chicago-Londres, Univ. of Chicago Press (الفصل ٢)
— 1971. « The Middle Kingdom in Egypt internal history », *The Cambridge ancient history*, I, 2, Cambridge (الفصل ٢)
— 1973. « Egypt, internal affairs from Thutmosis I to the death of Amenophis III », *The Cambridge ancient history*, II, 1 (الفصل ٢)
HAYWOOD (R.M.). — 1938. *An economic survey of ancient Rome*, vol. IV : « Roman Africa », Baltimore, John Hopkins Press (الفصل ١٩)
HEARST (P.A.). — 1905. « Medical Papyrus », *Egyptian archaeology*, vol. I, Berkeley, California, Univ. of California (الفصل ٥)
HEBERT (J.C.). — 1968. « Calendriers provinciaux malgaches », *B.M.* 172 : 809-20 (الفصل ٢٨)
— 1968. « La rose des vents malgache et les points cardinaux », *C.M.* 2 : 159-205 (الفصل ٢٨)
— 1971. « Madagascar et Malagasy, histoire d'un double nom de baptême », *B.M.* 302-3 : 583-613 (الفصل ٢٨)
HEEKEREN (H.R. VAN). — 1958. *The Bronze and Iron Age in Indonesia*, Amsterdam, Nartinus, Nijhoff (الفصل ٢٨)
HELCK (W.). — 1939. *Der Einfluss der Militärführer in der 18 ägyptischen Dynastie*, Leipzig, J.C. Hinrichs, VIII + 87 p. (الفصل ٥)
— 1958. « Zur Verwaltung des mittleren und neuen Reichs », *Probleme der Ägyptologie* 3, 3 A (الفصل ٢)
HELCK (W.) et OTTO (E.). — 1970. *Kleines Wörterbuch der Ägyptologie*, 2e éd. révisée, Wiesbaden, O. Harrassowitz, 428 p. (الفصل ٢)
— 1973. *Lexikon der Ägyptologie*, Wiesbaden, Harrassowitz (الفصل ٢)
HERBERT (E.W.). — 1973. « Aspects of the uses of copper in pre-colonial West Africa », *J.A.H.* XIV, 2 : 170-94 (الفصل ٢٤)
HERIN (A.). — 1973. *Studie van een Verzameling Keramiek uit de Bushimaie Vallei « Kasai-Zaire » in Het Koninklijk museum voor Midden Afrika te Tervuren*, Mém. Licence, Université de Gand (الفصل ٢٥)
HERODOTE. — *Histoires* (livres 1-9), texte établi et trad. par Ph. E. LEGRAND, 3e éd. rev. et corr. (1948-1961), Paris, les Belles lettres, 10 vol.(الفصلان ١،١٠)
HERZOG (R.). — 1957. *Die Nubier Untersuchungen und Beobachtungen zur Gruppengleiderung, Gesellschaftsform und Wirtschaftsweise*, Berlin, Akademie der Wissenschaften (الفصل ١١)
— 1968. « Punt », *Proceedings of the German Archaeological Institute of Cairo*, vol. 6, Glückstadt (الفصل ٤)
HEURGON (J.). — 1958: *Le Trésor de Ténès*, Paris, A.M.G. (الفصل ١٩)
— 1966. « The inscriptions of Pyrgi », *Journal of Roman Studies* LVI (الفصل ١٨)

HEUSS (A.). — 1949. « Der Erste Punische Krieg und das Problem des römischen Imperialismus », *Historische Zeitschrift* CLXIX (الفصل١٨)
HEYLER (A.) et LECLANT (J.). — 1966. *In Orientalistische Literaturzeitung* 61 : 552 (الفصل١٠)
HIERNAUX (J.). — 1968. *La Diversité humaine en Afrique subsaharienne*, Bruxelles, Institut de sociologie (الفصل٢١)
— 1968. « Bantu expansion : the evidence from physical anthropology confronted with linguistic and archaeological evidence », *J.A.H.* IX, 4 : 505-15 (الفصل٢٥)
HIERNAUX (J.), LONGREE (E. DE) et BUYST (J. DE). — 1971. « Fouilles archéologiques dans la vallée du Haut-Lualaba I, Sanga, 1958 », *A.M.R.A.C.* 73 : 148 (الفصل٢٥)
HIERNAUX (J.) et MAQUET (E.). — 1957. « Cultures préhistoriques de l'âge des métaux au Rwanda-Urundi et au Kivu (Congo belge) », 1re partie, *A.R.S.C.* : 1126-49 (الفصل٢٥)
— 1960 : 2e partie : *A.R.S.C.* X, 2 : 5-88 (الفصل٢٥)
— 1968. « L'âge du fer au Kibiro (Ouganda) », *A.M.R.A.C.* 63 : 49 (الفصل٢٩)
HIERNAUX (J.), MAQUET (E.) et BUYST (J. DE). — 1973. « Le cimetière protohistorique de Katoto (vallée du Lualaba, Congo-Kinshasa) », *Actes VIe Congr. P.P.E.Q.* : 148-58 (الفصل٢٥)
HINTZE (F.). — 1959. *Studien zur meroitischen Chronologie und zu den Opfertafeln aus den Pyramiden von Meroe*, Berlin, Akad. Verlag, 72 p. (الفصل١٠)
— 1959. « Preliminary report of the Butana expedition 1958 made by the Institute for Egyptology of the Humboldt university, Berlin », *Kush* VII : 171-96 (الفصل١١)
— 1962. *Die Inschriften des Löwentempels von Musawwarat es-Sufra*, Berlin, Akademie Verlag, 50 p. (الفصل١١)
— 1964. « Das Kerma-Problem », *Z.Ä.S.* 91 : 79-86 (الفصل٩)
— 1965. « Preliminary note on the epigraphic expedition to Sudanese Nubia, 1963 », *Kush* 13 : 13-6 (الفصل٩)
— 1968. *Civilizations of the Old Sudan*, Leipzig, 145 p. (الفصل٩)
— 1971. *Musawwarat es-Sufra (2). Der Löwentempel*, unter Mitwirkung von U. HINTZE, K.H. PRIESE, K. STARK, Berlin, Akad. Verlag (الفصل١١)
— 1971. *Stand und Aufgaben der chronologischen Forschung*, Internationale Tagung für meroitischen Forschungen, September 1971 in Berlin, Humboldt Universität zu Berlin, Bereich Ägyptologie und Sudanologie Meroitistik (الفصل١١)
— 1976. « Die Grabungen von Musawwarat es-Sufra », Bd. I, 2 : *Tafelband Löwentempel*, Berlin (الفصل١٠)
HINTZE (F. et U.). — 1967. *Alte Kulturen im Sudan*, Munich, G.D.W. Callwey, 148 p. (الفصلان١٢،٩)
— 1970. « Einige neue Ergebnisse der Ausgrabungen des Instituts für Ägyptologie der Humboldt Universität zu Berlin in Musawwarat es-Sufra », *in* E. DINCKLER : *Kunst und Geschichte Nubiens* in *Chrislicher*

Zeit, Recklinghausen, Verlag Aurel Bongers, 49-70 (الفصل١١)

HISTOIRE ET TRADITION ORALE. — 1975. « L'Empire du Mali » *Actes Coll. Bamako I*, Fondation SCOA (الفصل٢١)

HOBLER (P.M.) et HESTER (J.J.). — 1969. « Prehistory and environment in the Libyan desert », *S.A.A.J.* 23, 92 : 120-30 (الفصل٢٤)

HOFMANN (I.). — 1967. *Die Kulturen des Niltas von Aswan bis Sennar*, Hamburg (الفصل١٢)

— 1971. *Studien zum meroitischen Königtum* (MRE 2), Bruxelles (الفصل ١٠)

— 1971. « Bemerkungen zum Ende des meroitischen Reiches. Afrikanische Sprache und Kulturen, ein Querschnitt », Hambourg, Deutsches Institut für Afrika Forschung, 1971, *Hamburger Beiträge zur Afrika-Kunde* 14 : 342-52 (الفصل١٠)

— 1975. *Wege und Möglichkeiten eines indischen Hinflusses auf die meroitische Kultur*, Bonn, Verlag des Anthropos-Instituts (الفصل١٠)

HÖLSCHER (W.). — 1937. « Libyer und Ägypter, Beiträge zur Ethnologie und Geschichte libyscher Völkerschaften », *Ägyptischen Forschungen* 5 (الفصلان٢،١٧)

HORNELL. — 1934. « Indonesian influences on East African culture », *J.R.A.I.* (الفصل٢٨)

HORNUNG (E.). — 1965. *Grundzug der Ägyptischen Geschichte*, Darmstadt (الفصل٢)

— 1971. *Der Eine und die Vielen ägyptische Göttesvorstellungen*, Darmstadt, Wissenchaftliche Buchgesellchaft, VIII + 282 p. (3).

— 1972. *Ägyptische Unferwettbücher*, Zurich-Munich, Artemis Verlag, 526 p. (الفصل٣)

HOURANI (G.F.). — 1963. *Arab Seafaring in the Indian Ocean*, Beyrouth (الفصل٢٢)

HUARD (P.). — 1966. « Introduction et diffusion du fer au Tchad », *J.A.H.* VII : 377-404 (الفصلان٢٠،٢١)

HUARD (P.) et LECLANT (J.). — 1972. *Problèmes archéologiques entre le Nil et le Sahara*, Le Caire, 100 p. (الفصل١٧)

HUARD (P.) et MASSIP (J.M.). — 1967. « Monuments du Sahara nigéro-tchadien », *B.I.F.A.N.* B. 1-27 (الفصل٢٠)

HUBER (A.). — 1891. *Die Gedichte des Labib nach der wiener Ausgabe übersetzt und mit Anmerkungen versehen aus dem Nachlasse des A. Huber*, Leyde (الفصل١٥)

HUFFMAN (T.N.). — 1970. « The Early Iron Age and the Spread of the Bantu », *S.A.A.B.* XXV : 3-21 (الفصلان٢٥،٢٧)

— 1971. « A guide to the Iron Age of Mashonaland », *O.P.N.M.* IV : 20-44 (الفصل٢٧)

— 1971. « Excavations at Leopard's Kopje main Kraal : a preliminary report », *S.A.A.B.* XXVI : 85-9 (الفصل٢٧)

— 1973. « Test excavations at Makuru, Rhodesia », *Arnoldia* V, 39 (الفصل٢٧)

— 1974. « Ancient mining and Zimbabwe », *J.S.A.I.M.M.* LXXIV : 238-42 (الفصل٢٧)

HUGOT (H.J.). — 1963. « Recherches préhistoriques dans l'Ahaggar nord-occidental », 1950-7. *M.C.R.A.P.E.* 1 (الفصلان ١٧، ٢٤)

— 1968. « The origins of agriculture : Sahara », *C.A.* 9, 5 : 483-9 (الفصل ٢٤)

HUGOT (H.J.) et BRUGMANN (M.). — 1976. *Les Gens du matin. Sahara, dix mille ans d'art et d'histoire*, Paris, Bibliothèque des Arts (الفصل ٤)

HUNTINGFORD (G.W.B.). — 1963. *History of East Africa* (*in* R. OLIVER et G. MATHEW, dir.), vol. I : 88-89 (الفصل ٤)

INSKEEP (R.R.). — 1971. « Letter to the Editor », *S.A.J.S.* LXVII : 492-3 (الفصل ٢٧)

INSKEEP (R.R.) et BEZING (K.L. VON). — 1966. « Modelled terra-cotta head from Lydenburg, South Africa », *Man* (n° sp.) I : 102 (الفصل ٢٧)

IRFANN (S.). — 1971. *The martyrs of Najran. New documents*, Bruxelles, Société des Bollandistes (الفصلان ١٥، ١٦)

ISSERLIN (B.S.J.) *et al.* — 1962-3. « Motya, a Phoenician-Punic site near Marsala », *A.L.O.S.* IV : 84-131 (الفصل ١٨

JAFFEY (A.J.E.). — 1966. « A reappraisal of the Rhodesian Iron Age up to the fifteenth Century », *J.A.H.* VII, 2 : 189-95.

JAKOBIELSKI (S.). — 1966. « La liste des évêques de Pakhoras », *C.A.M.A.P.* III : 151-70 (الفصل ١٢)

— 1970. « Polish excavations at Old Dongola, 1969 », *in* E. DINKLER (éd.) : *Kunst und Geschichte Nubiens in christlicher Zeit*, Recklinghausen, Verlag Aurel Bongers : 171-80 (الفصل ١٢)

— 1972. *Faras III. A history of the Bishopric of Pachoras on the basis of coptic inscriptions*, Varsovie (الفصل ١٢)

— 1975. « Polish excavations at Old Dongola 1970-72 », *Actes Coll. Nubiol. Intern.* : 70-5 (الفصل ١٢)

— 1975. « Old Dongola, 1972-73 »,*Etudes et travaux*, VIII : 349-60(الفصل ١٢)

JAKOBIELSKI (S.) et KRZYZANIAK (L.). — 1967-8. « Polish excavations at Old Dongola, third season, dec.1966 - feb.1967 », *Kush* XV : 143-64 (الفصل ١٢)

JAKOBIELSKI (S.) et OSTRASZ (A.). — 1967. « Polish excavations at Old Dongola, second season, dec. 1965-feb. 1966 », *Kush* XV : 125-42 (الفصل ١٢)

JAMES (T.G.H.). — 1973. *Egypt from the expulsion of the Hyksos to Amenophis I*, Cambridge Ancient History, vol. II, partie I, chap. VIII et ss., Cambridge (الفصل ٢)

JAMME (A.). — 1956. « Les antiquités sud-arabes ddu Museo nazionale romano », *Ant. Pub. Acc. Naz. Lincei*, 43 : 1-120 (الفصل ١٢)

— 1957. « Ethiopia. Annales d'Ethiopie E.I. », *B.O.* 14 : 76-80 (الفصل ١٥)

— 1962. *Sabaean inscriptions from Mahram Bilqis (Mārib)*, Baltimore, John Hopkins Press XIX + 480 p. (الفصل ١٥)

— 1963. « Compte rendu bibliographique des Annales d'Ethiopie », vol. 3. *B.O.* 20 : 324-7 (الفصل ١٢)

JANSMA (N.) et GROOTH (M. DE). — 1971. « Zwei Beiträge zur Iconographie der nubischen Kunst », *N.K.J.* : 2-9 (الفصل ١٢)

JANSSEN (J.J.). — 1975. « Prolegomena to the study of Egypt's economic

history during the New Kingdom », *S.A.K.* 3 : 127-85 (الفصل٢)
JENKINS (G.K.) et LEWIS (R.B.). — 1963. *Carthaginian gold and electrum coins*, Londres, Royal Numismatic Society (الفصل١٨)
JENNISON (G.). — 1937. *Animals for show and pleasure in Ancient Rome*, Manchester, Manchester Univ. Press (الفصل٢٠)
JEQUIER (G.). — 1930. *Histoire de la civilisation égyptienne des origines à la conquête d'Alexandre*, Paris, Payot (الفصل٢)
JODIN (A.). — 1966. *Mogador, comptoir phénicien du Maroc atlantique*, Rabat, Direction des Antiquités (الفصلان ١٨،٢٠)
JOHNSON (A.C.). — 1936. *Roman Egypt to the reign of Diocletian. An economic survey of Ancient Rome*, Baltimore, John Hopkins Press (الفصل٧)
JOHNSON (A.C.). — 1951. « Egypt and the Roman empire », *Ann. Arbor.*, Univ. of Michigan Press (الفصل٧)
JOHNSON (A.C.) et WEST (L.C.). — 1949. *Byzantine Egypt. Economics studies*, Princeton, Princiton Univ. Press (الفصل٧)
JOIRE (J.). — 1947. « Amas de coquillages du littoral sénégalais dans la banlieue de Saint-Louis », *B.I.F.A.N.*, B, IX, 1-4 : 170-340 (الفصل٢٤)
— 1955. « Découvertes archéologiques dans la région de R.A.O. », *B.I.F.A.N.*, B XVII : 249-333 (الفصل٢٤)
JONES (A.H.M.). — 1937. *The cities of the Eastern Roman provinces*, Oxford, Clarendon Press (الفصل٦)
— 1964. *The Late Roman Empire 284-602*, Oxford, Blackwell (الفصل٧)
— 1968. « Frontier defence in Byzantine Libya », *Libya in History*, Benghazi, University of Benghazi : 289-97 (الفصل١٩)
— 1969. « The influence of Indonesia : the musicological evidence reconsidered », *Azania*, IV : 131-90 (الفصلان٢٢،٢٨)
JONES (N.). — 1933. « Excavations at Nswatugi and Madiliyangwa », *O.P.N.M.* I, 2 : 1-44 (الفصل٢٧
JOUGUET (P.). — 1947. *La Domination romaine en Egypte aux deux premiers siècles après J.-C.*, Alexandrie, Publications de la Société royale d'archéologie (الفصل٧)
JULIEN (C.A.). — 1964. *Histoire de l'Afrique du Nord*, « I. Des origines à la conquête arabe (647 après notre ère) », Paris, Payot, éd. révisée 1978 (الفصل١٩)
JULIEN (G.). — 1908. *Institutions politiques et sociales de Madagascar d'après des documents authentiques et inédits*, Paris, E. Guilmoto, 2 vol. (الفصل٢٨)
JUNKER (H.). — 1919-22. *Bericht über die Grabungen der Akademie der Wissenschaften in Wien auf den Friedhöfen von El-Kubanieh*, Vienne, A. Holder, VIII + 181 p. (الفصل٩)
— 1921. *Der nubische Ursprung der sogenannten Tell el-Jahudrye Vasen*, Vienne, Akad. der Wissenschaften, V + 136 p. (الفصل٩)
— 1933. *Die Ägypter (Völker des Antiken Orient)*, Freiburg in Breisgau, Herder (الفصل٢)

JUVENAL. — *Satires*, texte établi et trad. par Pierre DE LABRIOLLE et François VILLENEUVE, 5ᵉ éd. rev. et corr. (1951), Paris, les Belles Lettres, XXXII + 203 p. (الفصل١)

KADRA (F.). — 1978. *Les Djedars. monuments funéraires berbères de la région de Farenda*, Alger (الفصل١٩)

KATZNELSON (I.S.). — 1966. « La Candace et les survivances matrilinéaires au pays de Koush », *Palestinskij Sbornik*, XV, 78 : 35-40 (en russe) (الفصل١٠)

— 1970. *Napata i Meroe-drevniye tzarstva Sudana* (Napata et Meroe — Anciens royaumes du Soudan), Moscou : 289 sq (الفصل١١)

KEES (H.). — 1926. *Totenglauben und Jenseitsvorstellung en der alten Ägypter*, Leipzig ; 2ᵉ édition, Berlin, 1956 (الفصل٢،٣)

— 1933. *Kulturgeschichte des alten Orients*, I. « Ägypten » (Handbuch des Altertums III. Abt, 1. Teil, 3. Band), Munich (الفصل٣)

— 1941-1956. *Götterglaube im alten Ägypten*, Leipzig, 1941, Berlin, 1956 (الفصلان٢،٣)

— 1953. Das Priestertum im ägyptischen Staat (Probleme der Ägyptologie 1), Leyde (الفصل٣)

— 1958. *Das alte Ägypten. Eine kleine Landeskunde*, Berlin.

— 1961. *Ancient Egypt, a cultural topography*, T.G.H. James, Londres (الفصل٢)

KENDALL (R.L.) et LIVINGSTONE (D.A.). — 1972. « Paleo-ecological studies on the East African Plateau », *Actes VIᵉ P.P.E.Q.* (الفصل٢١)

KENT (R.). — 1970. *Early kingdoms in Madagascar, 1500-1700*, Holt, Rinhardt and Winston, New York (الفصل٢٨)

KIERAN (J.A.) et OGOT (B.A.). — 1968. *Zamani : a survey of the East African History*, Nairobi et Londres, éd. rév. 1974, ch. 4, 7, 10 (23).

KIRK (W.). — 1962. « The North-East Monsoon and some aspects of African history », *J.A.H.*, vol. III (الفصل٢٢)

KIRWAN (L.P.). — 1939. *Oxford University excavations at Firka*, Oxford ; *The Royal Tombs of Ballana and Qustul*, Le Caire (الفصل١٢)

— 1957. « Tanqasi and the Noba », *Kush* V (الفصل١٠)

— 1960. « The decline and fall of Meroe », *Kush* VIII (الفصلان١٠،١٢)

— 1963. « The X-group enigma. A little known people of Nubian Nile », *Vanished civilizations of the ancient world*, New York : 57-78 (12).

— 1966. « Prelude to Nubian Christianity » (Prélude à la chrétienté nubienne), *Mélanges K. Michalowski*, Varsovie, abr. Nubian Christianity (الفصل١٢)

— 1972. « The Christian Topography and the Kingdom of Axum », *The Geographical Journal*, Londres, vol. 138, 2ᵉ partie : 166-177 (الفصل١٤)

KITCHEN (K.A.). — 1971. Article *in Orientalia* (الفصل٤)

— 1973. *The Third Intermediate Period in Egypt*, Warminster (الفصلان٢،٥)

KI-ZERBO (J.). — 1972. *Histoire de l'Afrique noire*, Paris, Hatier (الفصلان ٢٠، ٢١)

KLAPWIJK (M.). — 1973. « An Early Iron Age site near Tzaneen, North-Eastern Transvaal », *S. Afr. Journ. Sc.* LXIX (الفصل٢٧)
— 1974. « A preliminary report on pottery from the North-Eastern Transvaal, South Africa », *S. Afr. Archaeol. Bull. 29* (الفصل٢٦)
KLASENS (A.). — 1964. « De Nederlandse opgravingen in Nubie. Tweede seizoen 1962-64 », *Phoenix*, X, 2 : 147-56 (الفصل١٢)
— 1967. « Dutch archaeological mission to Nubia. The excavations at Abu Simbel North 1962-64. Fouilles en Nubie (1961-63), Service des Antiquités de l'Egypte : 79-86 (الفصل١٢)
— 1970. « Die Wandmalereien der zentralen Kirche von Abdallah Nirqi », *Nubische Kunst* : 103-110 (الفصل١٢)
KLEIN (R.G.). — 1972. « Preliminary report on the July through September 1970 excavations at Nelson Bay Cave, Plettenberg Bay, Cape Province, South Africa », E.M. VAN ZINDEREN-BAKKER, *Palaeocology of Africa*, Cape Town, VI : 177-208 (الفصل٢٦)
KOBISCHANOV (Y.). — 1966. *Aksum*, Moscou, Nauka (الفصل١٤)
KOLB (P.). — 1731. *The present state of the Cape of Good Hope...*, Londres, Innys, 2 vol. (الفصل٢٦)
KOLENDO (J.). — 1970. « L'influence de Carthage sur la civilisation matérielle de Rome », *Archéologia* XXI, Varsovie (الفصل١٧)
— 1970. « Epigraphie et archéologie : le *praepositus camellorum* dans une inscription d'Ostie », *Klio* : 287-98 (الفصل٢٠)
KORNEMANN (E.). — 1901. in *Philologue* LX (الفصل١٩)
KÖRTE (A.). — 1929. *Hellenistic poetry*, traduit par J. HAMMER et M. HODAS, New York, Columbia University Press (الفصل٦)
KOTULA (T.). — 1964. « Encore sur la mort de Ptolémée, roi de Maurétanie », *Archéologia* XV (الفصل١٩)
KRAKLING (C.H.). — 1960. *Ptolemais, city of the Libyan Pentapolis*, Chicago (الفصل٦)
KRAUS (J.). — 1930. « Die Anfänge des Christentums in Nubien », *in* J. SCHMIDLIN, *Missionswissenschaftliche Studien*, Neue Reihe III (الفصل١٢)
KRENCKER (D.). — 1913. *Deutsche Aksum Expedition, ältere Denkmäler Nordabessiniens*, Band II, Berlin : 107-113 sq (الفصلان١٣،١٥)
KRENCKER (D.) et LITTMANN (E.). — 1913. *Deutsche Axum Expedition*, Band IV, Berlin : 4-35 (الفصل١٦)
KRZYZANIAK (L.) et JAKOBIELSKI (S.). — 1967. « Polish Excavation at Old Dongola, Third Season, 1966-1967 », *Kush* XV (الفصل١٢)
LAMBERT (N.). — 1970. « Medinet Sbat et la protohistoire de Mauritanie occidentale », *Ant. Afr.* IV : 43-62 (الفصلان٢٠،٢١)
— 1971. « Les industries sur cuivre dans l'Ouest saharien », *W.A.J.A.* I : 9-21 (الفصل٢٩)
LAMBERT (R.). — 1925. *Lexique hiéroglyphique*, Paris, Geuthner, IV + 445 p. (الفصل١)
LANCEL (S.) et POUTHIER (L.). — 1957. « Première campagne de fouilles à Tigisis », *Mélanges de l'école française de Rome* : 247-53 (الفصل١٩

LAPEYRE (G.G.) et PELLEGRIN (A.). — 1942. *Carthage punique (814-146 av. J.C.)*, Paris, Payot (الفصل ١٨)

LASSUS (J.). — 1956. Fouilles à Mila. Une tour de l'enceinte byzantine, *Libyca* IV, 2 : 232-9 (الفصل ١٩)

— 1975. « La forteresse byzantine de Thamugadi », *Actes XIV^{e} Congr. Intern. Et. Byz.* : 463-74 (الفصل ١٩)

LAUER (J.P.). — 1938. *La pyramide à degrés (Fouilles à Saqqarah)*, Le Caire, Impr. I.F.A.O., 5 vol. (الفصل ٥)

LAW (R.C.). — 1967. « The Garamantes and transsaharan entreprise in classical times », *J.C.H.* : 181-200 (الفصل ٢٠)

LAWAL (B.). — 1973. « Dating problems at Igbo Ukwu », *J.A.H.* XIV : 1-8 (الفصل ٢٩)

LEAKEY (M.D.), OWEN (W.E.) et LEAKEY (L.S.B.). — 1948. « Dimple-based pottery from central Kavirondo, Kenya », *Coryndon Mem. Mus. Occ. Papers* 2 : 43 (الفصل ٢٥)

LEBEUF (J.P.). — 1962. *Archéologie tchadienne ; les Sao du Cameroun et du Tchad*, Paris, Hermann, 147 p. (الفصلان ٢١،٢٤)

— 1970. *Cartes archéologiques des abords du lac Tchad au 1 : 300 000*, Paris, C.N.R.S. (الفصل ٢٠)

LEBEUF (J.P.) et GRIAULE (M.). — 1948. « Fouilles dans la région du Tchad », *J.S.A.* 18 : 1-116 (الفصل ٢١)

LECA (A.). — 1971. *La Médecine égyptienne au temps des pharaons*, Paris, R. Da Costa (الفصل ٥)

LECLANT (J.). — 1950. Voir ROWE Alan (الفصل ١٧)

— 1950. « Per Africae Sitientia, témoignage des sources classiques sur les pistes menant à l'oasis d'Ammon », *B.I.F.A.O.* 49 : 193-253 (الفصلان ١٧،٢٠)

— 1954. « Fouilles et travaux en Egypte, 1952-1953 », *Orientalia* 23, 1 : 64-79 (الفصلان ١٢،١٧)

— 1956. « Egypte-Afrique, quelques remarques sur la diffusion des monuments égyptiens en Afrique », *B.S.F.E.* 21 : 29-41 (الفصل ٤)

— 1956. « Le fer dans l'Egypte ancienne, le Soudan et l'Afrique », *Actes Coll. Intern. Fer* : 83-91 (10) (الفصل ٢٠)

— 1958-1974. Fouilles et travaux en Egypte et au Soudan, *Orientalia*, Rome (الفصل ١٢)

— 1959. « Les fouilles à Axoum en 1955-1956, Rapport préliminaire », *A.E.* 3 : 3-23 (الفصل ١٤)

— 1959. « Haoulti-Mélazo (1955-56) », *A.E.* 3 : 43-82 (الفصل ١٣)

— 1961. « Découverte de monuments égyptiens ou égyptisants hors de la vallée du Nil, 1955-60 », *Orientalia* 30 : 391-406 (الفصل ١٣)

— 1962. *in Bulletin de la Société d'archéologie copte*, vol. 16 : 295-8 (الفصل ١٣)

— 1964-67. « Au sujet des objets égyptiens découverts en Ethiopie », *Orientalia* 33 : 388-9 ; 34 : 220 ; 35 : 165 ; 36 : 216 (الفصل ١٤)

— 1965. « Le Musée des Antiquités à Addis-Abeba », *B.S.A.C.* 16 : 86-7 (الفصل ١٣)

— 1965. *Recherches sur les monuments thébains de la XXV^{e} dynastie, dite*

éthiopienne, Le Caire (الفصلان ١٠، ١١)
— 1965. « Note sur l'amulette en cornaline : J.E. 2832 », *A.E.* VI : 86-7 (الفصل ١٥)
— 1970. « L'art chrétien d'Ethiopie. Découvertes récentes et points de vue nouveaux », *in* E. DINKLER : *Kunst und Geschichte Nubiens in christlicher Zeit*, Recklinghausen, Verlag Aurel Bongers : 291-302 (الفصل ١٢)
— 1970. « La religion méroïtique », *Histoire des religions*, Paris, Encyclopédie de la Pléiade, I : 141-53 (الفصل ١١)
— 1973. « Glass from the meroitic necropolis of Sedeinga (Sudanese Nubia) », *J.G.S.* XV : 52-68 (الفصل ١٠)
— 1973. *Lexikon der Ägyptologie*, 1, 2, collection 196-9, Wiesbaden (الفصل ١٠)
— 1974. « Les textes des pyramides. Textes et langages de l'Egypte pharaonique II », *B.I.F.A.O.* 64, 2 : 37-52 (الفصل ١٠)
— 1975. « Les verreries de la nécropole méroïtique de l'ouest de Sedeinga (Nubie soudanaise) », *in* K. MICHALOWSKI (dir.) : *Nubie, récentes recherches*, Varsovie, Musée national : 85-7 (الفصل ١٠)
— 1976. « Koushites et méroïtes. L'iconographie des souverains africains du Haut-Nil antique », *l'Image du Noir dans l'art occidental*, tome I : *Des pharaons à la chute de l'Empire romain*, Paris, The Menil Foundation : 89-132 (الفصل ١١)
— 1976. « L'Egypte, terre d'Afrique dans le monde gréco-romain », *l'Image du Noir dans l'art occidental, tome I* : 269-85 (الفصل ٦)
LECLANT (J.) et LEROY (J.). — 1968. *« Nubien » in Propyläen Kunstgeschichte III, Byzanz und christlischen Osten*, Berlin (الفصل ١٢)
LECLANT (J.) et MIQUEL (A.). — 1959. « Reconnaissances dans l'Agamé : Goulo-Makeda et Sabéa (oct. 1955 et avr. 1956) », *A.E.* III : 107-30 (الفصل ١٣)
LEE (R.B.). — 1968. « What hunters do for a living : or how to make out on scarce ressources », *in* R.B. LEE et I. DE VORE : *Man the hunter*, Chicago, Aldine Press : 30-48 (الفصل ٢٦)
— 1972. « The Kung bushmen of Botswana », M.G. BICCHIERI : *Hunters and gatherers today*, Holt, Rinehart and Winston (الفصل ٢٦)
LEFEBVRE (G.). — 1949. *Romans et contes égyptiens de l'époque pharaonique*, Paris (الفصلان ٢، ٥)
— 1956. *La Médecine égyptienne de l'époque pharaonique* (الفصل ٥)
LEGLAY (M.). — 1966. *Saturne africain, Histoire*, Bibliothèque de l'Ecole française d'archéologie de Rome, fasc. 205, Paris (الفصلان ١٧، ١٩)
— 1967. *Saturne africain, Monuments*, Paris, 2 vol. (الفصل ١٩)
LEPELLEY (C.). — 1967. « L'agriculture africaine au Bas-Empire », *Antiquités Africaines* 1, pp. 135-144 (الفصل ١٩)
— 1968. « Saint Léon le Grand et l'église mauritanienne. Primauté romaine et autonomie africaine au V[e] siècle », *Mélanges Saumagne*, Tunis : 189-204 (الفصل ١٩)
LESCHI (L.). — 1945. « Mission au Fezzan », *Trav. I.R.S.* : 183-6 (الفصل ٢٠)

LESQUIER (J.). — 1918. *L'Armée romaine en Egypte d'Auguste à Dioclétien*, Le Caire, Imp. I.F.A.O. (الفصل ٧)

LEVAILLANT (F.). — 1790. *Voyage de Monsieur Le Vaillant dans l'intérieur de l'Afrique par le Cap de Bonne Espérance, dans les années 1780, 81, 82, 83, 84 et 85*, Paris, Le Roy, 2 vol., trad. angl. (الفصل ٢٦)

LEVTZION (N.). — 1973. *Ancient Ghana and Mali*, Londres, Methuen (الفصل ٢٩)

LEZINE (A.). — 1959. *Architecture punique : recueil de documents*, Paris, PUF (الفصل ١٨)

— 1960. « Sur la population des villes africaines », *Antiquités africaines* 3 : 69-82 (الفصل ١٩)

LHOTE (H.). — 1953. « Le cheval et le chameau dans les peintures et gravures rupestres du Sahara », *B.I.F.A.N.* XV (الفصلان ١٧، ٢١)

— 1954. « L'expédition de C. Balbus au Sahara en 19 av. J.-C. d'après le texte de Pline », *R.A.* : 41-83 (الفصل ٢٠)

— 1955. *Les Touareg du Hoggar*, 2e éd. Paris, Payot (الفصل ٢٠)

— 1958. *A la recherche des fresques du Tassili*, Paris, Arthaud (الفصل ٢٠)

— 1959. *A la découverte des fresques du Tassili*, Grenoble (الفصل ٢٤)

— 1963. « Chars rupestres au Sahara », *CRAI* : 225-38 (الفصل ١٧)

— 1967. « Problèmes sahariens : l'outre, la marmite, le chameau, le délou, l'agriculture, le nègre, le palmier », *B.A. Maroc* VII : 57-89 (الفصلان ١٧، ٢٠)

— 1970. « Découverte de chars de guerre en Aïr », *N.A.* : 83-5 (الفصل ٢٠)

LICHTENSTEIN (H.). — *Travels in southern Africa in the years 1803, 1804, 1805 and 1806*, trad. A Plumptre (1928-30), Cape Town, Van Riebeeck Society (الفصل ٢٦)

LIEBLEIN (J. VON). — 1886. « Der Handel des Landes Pun », *Z.Ä.S.* XXIV : 7-15 (الفصل ٤)

— 1886. *Handel und Schiffahrt auf dem Roten Meere in alten Zeiten*, Christiana (الفصل ٤)

LINARES DE SAPIR (O.). — 1971. « Shell middens of Lower Casamance and problems of Diola protohistory », *W.A.J.A.* 1 : 23-54 (الفصلان ٢٤، ٢٩)

LITTMANN (E.). — 1910. *Publications of the Princeton Expedition to Abyssinia*, 4 vol., Leyde, Brill (الفصل ١٥)

— 1950. *Ethiopische Inschriften*, Miscellanea academica Berlinensia, Berlin (الفصل ١١)

— 1954. « On the old Ethiopian inscription from the Berenice road », *J.R.A.S.* : 120-1 (الفصل ١٥)

LITTMANN (E.), KRENKER (D.) et LUPKE (TH. VON). — 1913. *Deutsche Aksum Expedition*, Berlin, 5 vol. (الفصول ١٣،١٤،١٥،١٦)

LONGPÉRIER (A. DE). — 1868. *Revue numismatique*, vol. I, Paris : 28 (الفصل ١٦)

LONIS (R.). — 1974. « A propos de l'expédition des Nasamons à travers le Sahara », *A.F.L.S.D.* 4 : 165-79 (الفصل ٢٠)

LOUIDINE (A.G.). — 1972. « Sur les rapports entre l'Ethiopie et le Himyar du VIe siècle », *Atti IV Congr. Intern. Stud. Et.* (الفصل ١٥)

LOUIDINE (A.G.) et RYCKMANS (G.). — 1964. « Nouvelles données sur la chronologie des rois de Saba et du Du-Raydan », *Le Muséon* LXXVII, 3-4 (الفصل ١٥)

LUCAS (A.). — 1962. *Ancient Egyptian building materials and industries*, Londres, E. Arnold, 4ᵉ éd. (الفصل ٢)

LUCIEN. — *Works*, trad. A. HARMAN, K. KILBURN et D. MACLEOD, (1913-67), 8 vol., Cambridge, Mass., Harvard Univ. Press ; Londres, Heinemann (الفصل ١)

MACADAM (M.F.L.). — 1949. *The temples of Kawa*, I. « The Inscriptions », In-fol., XVI + 143 p. et un vol. de pl. Xa - VIII b, Oxford University Press (الفصول ٩، ١٠، ١١)

— 1950. « Four Meroitic inscriptions », *J.E.A.* 36 : 43-7 (الفصل ١١)

— 1955. *The temples of Kawa*, II. « History and archaeology of the sites », Oxford, Griffith Institute, Ashmolean Museum, fig., cartes, pl., Oxford Univ. Press (الفصل ١١)

— 1966. « Queen Nawidemak », *Allen Memorial Art museum bulletin* XXIII : 46-7 (الفصلان ١٠،١١)

MCCRINDLE (J.W.). — éd. 1879. *The commerce and navigation of the Erythraean Sea*, Calcutta (الفصل ٢٢)

MACIVER (D.R.). — 1906. « The Rhodesian ruins, their probable origins and significance », *G.J.* 27, 4 : 325-47 (الفصل ٢٧)

— 1906. *Medieval Rhodesia*, Londres-New York, MacMillan (الفصل ٢٧)

MACIVER (D.R.) et WOLLEY (C.L.). — 1911. *Buhen*, Philadelphia, University Museum, 2 vol. (الفصل ٩)

MCMASTER (D.N.). — 1966. « The Ocean-going dhow trade to East Africa », *E.A.G.R.* 4 : 13-24 (الفصل ٢٢)

MAGGS (T.M.O'C.). — 1971. « Some observations on the size of human groups during the Late Stone Age », *S.A.J.S.* 2 : 49-53 (الفصل ٢٦)

— 1973. « The NC3 Iron Age tradition », *SAJS* LXIX : 326 (الفصل ٢٧)

MAHJOUBI (A.). — 1968. *Les Cités romaines de la Tunisie*, Tunis, STD (الفصل ١٩)

— 1966. « Nouveau témoignage épigraphique sur la communauté chrétienne de Kairouan au XIᵉ siècle », *Africa* I : 85-104 (الفصل ١٩)

MAHJOUBI (A.), ENNABLI (A.) et SALOMSON (J.W.). — 1970. *La Nécropole de Raqqada*, Tunis (الفصل ١٩)

MAHY (F. DE). — 1891. *Autour de l'île Bourbon et de Madagascar*, Paris, 290 p. (الفصل ٢٨)

MAIER (J.L.). — 1973. *L'Episcopat de l'Afrique romaine, vandale et byzantine*, Rome, Institut suisse de Rome (الفصل ١٩)

MAINGARD (L.F.). — 1931. « The lost tribes of the Cape », *S.A.J.S.* 28 : 487-504 (الفصل ٢٦)

MAÎTRE (J.P.). — 1966. « Etat des recherches sur le Néolithique de l'Ahaggar », *Trav. I.R.S.* : 95-104 (الفصل ٢٤)

— 1971. *Contribution à la préhistoire de l'Ahaggar*, Paris, AMG (الفصل ١٧)

— 1976. « Contribution à la préhistoire récente de l'Ahaggar dans son contexte saharien », *B.I.F.A.N.* 38 : 759-83 (الفصل ٢٠)

MALHOMME (J.). — 1953. « Les représentations anthropomorphes du Grand Atlas », *Libyca* I : 373-85 (الفصل ١٧)
MALLON (A.). — 1926. *Grammaire copte*, 3e éd., Beyrouth (الفصل ١)
MALZAC (R.P.). — 1912. *Histoire du royaume Hova depuis ses origines jusqu'à sa fin*, Tananarive, 2e éd. 1930, Impr. Catholique (الفصل ٢٨)
MARCILLET-JAUBERT (J.). — 1968. *Les Inscriptions d'Altava*, Aix-en-Provence, Gap, Ophrys (الفصل ١٩)
MARET (P. DE). — 1972. *Etude d'une collection de céramiques protohistoriques du Bas-Zaïre*, Mém. licence, Bruxelles, Univ. libre de Bruxelles (الفصل ٢٥)
— 1975. « A carbon-14 date from Zaïre », *Antiquity* XLIX, 2 : 133-7 (الفصل٢٥)
MARKS (S.). — 1972. « Khoisan resistance to the Dutch in the seventeenth and eighteenth centuries », *J.A.H.* XIII, 1 : 55-80 (الفصل ٢٦)
MARLIAC (A.). — 1973. *Etat des connaissances sur le Paléolithique et le Néolithique du Cameroun*, Yaoundé, O.R.S.T.O.M., 34 p. ronéo (الفصل٢١)
MARTENS (M.). — 1972. « Observations sur la composition du visage dans les peintures de Faras (VIIIe-IXe siècle) », *C.A.M.A.P.* VI : 207-50 (الفصل ١٢)
— 1973. « Observations sur la composition du visage dans les peintures de Faras (IXe-XIIe siècle) », *C.A.M.A.P.* VII (الفصل ١٢)
MASON (R.J.). — 1973. « First Early Iron Age Settlement in South Africa : Broederstroom 24/73, Brits District, Transvaal », *S.A.J.S.* LXIX : 324-5 (الفصلان ٢٦، ٢٧)
— 1974. « Background to the Transvaal Iron Age discoveries at Olifantspoort and Broederstroom », *J.S.A.I.M.M.* LXXXIV, 6 : 211-6 (الفصلان ٢١، ٢٧)
MASPERO (G.). — 1895. *Histoire ancienne des peuples de l'Orient classique*, 5e éd. 1904, Paris (الفصل ١١)
MASPERO (J.). — 1912. *L'Organisation militaire de l'Egypte byzantine*, Paris, Champion (الفصل٧)
— 1923. *Histoire des patriarches d'Alexandrie depuis la mort de l'empereur Anastase jusqu'à la réconciliation des églises jacobites 516-616*, Paris, bibliothèque de l'Ecole des Hautes Etudes (الفصل٧)
MASSOULARD (E.). — 1949. *Préhistoire et Protohistoire d'Egypte*, Paris, Institut d'ethnologie (الفصل ١)
MATHEW (G.). — 1963. « The East African Coast until the coming of the Portuguese », R. OLIVER et G. MATHEW : *History of East Africa*, Oxford, Clarendon Press, vol. I (الفصل ٢٢)
— 1975. « The dating and significance of the Periplus of the Erythraean Sea », R. ROTBERG et N. CHITTICK : *East Africa and the Orient*, New York, Africana publishing Co (الفصل ٢٢)
MAUNY (R.). — 1940. *Leptis Magna, capitale portuaire de la Tripolitaine*, Africa italiana, Rome (الفصل ٢٠)
— 1945. « Notes sur le Périple d'Hannon », *Actes Ire Conf. Intern. Afr.*

Ouest, II : 503-8 (الفصل ٢٠)
— 1947. « L'Ouest africain chez Ptolémée », *Actes II^e Conf. Intern. Afr. Ouest*, I : 241-93 (الفصل ٢٠)
— 1950. « Villages néolithiques de la falaise (dhar), Tichitt-Oualata », *N.A.* 50 : 35-43 (الفصل ٢٤)
— 1951. « Un âge de cuivre au Sahara occidental », *B.I.F.A.N.* XIII : 165-80 (الفصل ٢٤)
— 1952. « Essai sur l'histoire des métaux en Afrique Occidentale », *B.I.F.A.N.* XIV : 545-95 (الفصل ٢١)
— 1954. « Gravures, peintures et inscriptions de l'Ouest africain », *I.F.A.N.* XI (الفصل ٢٠)
— 1956. « Monnaies antiques trouvées en Afrique au sud du Limes romain », *Libyca* B : 249-61 (الفصل ٢٠)
— 1956. « Préhistoire et géologie : la grande faune éthiopienne du Nord-Ouest africain du Paléolithique à nos jours », *B.I.F.A.N.* A : 246-79 (الفصل ٢٠)
— 1960. *Les Navigations médiévales sur les côtes sahariennes antérieures à la découverte portugaise*, Lisbonne (الفصل ٢١)
— 1961. « Tableau géographique de l'Ouest africain au Moyen Age d'après les sources écrites, la tradition orale et l'archéologie », *Mém. I.F.A.N.* 61, 587 p. (الفصلان ٢٠، ٢٩)
— 1968. « Le périple de la mer Erythrée et le problème du commerce romain en Afrique au sud du Limes », *J.S.A.* 38, 1 : 19-34 (الفصل ٢٨)
— 1970. *Les Siècles obscurs de l'Afrique noire*, Paris, Fayard : 39-137 (الفصل ٢٠)
MAURIN (L.). — 1968. « Thuburbo Majus et la paix vandale », *Mélanges Ch. Saumagne*, Tunis : 225-54 (الفصل ١٩)
MEDIC (M.). — 1965. « Vadi es Sebua », *Z.Z.S.K.* XVI : 41-50 (الفصل ١٢)
MEILLASSOUX (C.). — 1960. « Essai d'interprétation du phénomène économique dans les sociétés traditionnelles d'auto-subsistance », *C.E.A.* 4 : 38-67 (الفصل ٢١)
MEKOURIA (Tekle Tsadik). — 1966. *Yeityopia Tarik Axum Zagoué*, vol. II, Brehanena Selam, Matemiya Bete (D. ETH) : 203-217 (الفصل ١٦)
— 1966. *Yeityopia Tarik Nubia (Napata-Méroé)* : 2-7 (الفصل ١٦)
— 1967. *L'Eglise d'Ethiopie*, Paris, Promotion et Edition (الفصل ١٦)
MELLIS (J.V.). — 1938. *Nord et Nord-Ouest de Madagascar « Volamena et Volafotsy », suivi d'un vocabulaire du Nord-Ouest expliqué, commenté et comparé au Merina*, Tananarive, Impr. moderne de l'Emyrne (28).
MELTZER (O.) et KAHRSTEDT (U.). — 1879-1913. *Geschichte der Karthager*, I-III, Berlin (الفصل ١٨)
MESGNIL (F. DE). — *Madayana, Homère et la tribu mycénienne*, Tananarive (الفصل ٢٨)
MEYER (E.). — 1931. *Geschichte des Altertums*, 5 vol., Berlin (الفصل ١١)
MEYEROWITZ (E.L.R.). — 1960. *The divine kingship in Ghana and Ancient Egypt*, Londres (الفصل ٤)

MICHALOWSKI (K.). — 1962. *Faras, fouilles polonaises, 1961*, Polish academy of Science, Varsovie (الفصل ١٢)
— 1964. *Die wichtigsten Entwicklungsetappen der Wandmalerei in Faras in Christentum am Nil*, Recklinghausen : 79-94 (الفصل ١٢)
— 1965. « La Nubie chrétienne », *Africana bulletin* 3 : 9-25 (الفصل ١٢)
— 1965. « Polish excavations at Faras, fourth season, 1963-64 », *Kush* XIII : 177-89 (الفصل ١٢)
— 1966. « Polish excavations at Old Dongola : First season (nov.-dec. 1964) », *Kush*, XIV : 289-99 (الفصل ١٢)
— 1966. *Faras. Centre artistique de la Nubie chrétienne*, Leyde (الفصل ١٢)
— 1967. « Pro-Prezhnemu-li ostayetya zagadkoy gruppa X ? », *Vestnik drevney Istoryi*, 2 : 104-211 (الفصل ١٢)
— 1967. *Faras. Die Kathedrale aus dem Wüstensand*, Zurich-Cologne, Benziger (الفصل ١٢)
— 1968. *L'Art de l'Ancienne Egypte*, Paris (الفصل ٥)
— 1970. *Open problems of Nubian art and culture in the light of the discoveries at Faras*, éd. E. DINCKLER, Recklingausen (الفصل ١٢)
— 1974. *Faras, Wall paintings in the collection of the National Museum in Warszawa*, Varsovie (الفصل ١٢)
— 1975. dir., « Nubia, récentes recherches », *Actes Coll. Nubiol. Intern.* (10) (12).(الفصل ١٢)
MIGNE (J.P.). — 1884. *Patrologia graeca*, t. XXV. *Athanasius. Apologia ad Constantinum imperatorem*, Paris : 635 (الفصل ١٥)
MILLER (J.I.). — 1969. *The spice trade of the roman empire*, Oxford, Clarendon Press (الفصل ٢٢)
MILLER (S.F.). — 1969. « Contacts between the Later Stone Age and the Early Iron Age in Southern Central Africa », *Azania* 4 : 81-90 (الفصلان ٢٥، ٢٧)
— 1971. « The age of Nachikufan industry in Zambia », *S.A.A.B.* 26 : 143-6 (الفصل ٢٥)
MILLS (E.A.C.) et FILMER (N.T.). — 1972. « Chondwe Iron Age site, Ndola, Zambia », *Azania* VII : 129-47 (الفصل ٢٧)
MILNE (J.G.). — 1924. *A history of Egypt under Roman rule*, 3e éd. rév., Londres, Methuen XXIV - 332 p. (الفصل ٧)
MØBERG (A.). — 1924. *The book of Himyarites. Fragments of a hitherto unknown Syriac work on the Himyarite martyrs*, Lund, Gleerup (15).
MÖLLER (G.). — 1924. « Die Ägypten und ihre libyschen Nachbaren », *Z.D.M.G.* 78 : 38 (الفصل ١٧)
MOMMSEN. — 1908. *Eusebius : Historia ecclesiastica*, t. II, 2. *Rufinus Turanius*, Leipzig, Tübner : 972-3 (الفصل ١٥)
MONNERET DE VILLARD (U.). — 1935-57. *La Nubia medioevale*, vol. 1-4, Le Caire (الفصل ١٢)
— 1938. « Storia della Nubia christiana », *O.C.A.* 118 (الفصل ١٢)
— 1941. *La Nubia romana*, Rome (الفصل ١١)
MONOD (T.). — 1948. *Mission de Fezzan*, « II. Reconnaissance au Dohone » (الفصل ٢٠)

— 1967. « Notes sur le harnachement chamelier », *B.I.F.A.N.* (الفصل ٢٠)

— 1974. « Le mythe de l'émeraude des Garamantes », *A.A.* VIII : 51-66 (الفصل ٢٠)

MONTAGU (M.F.A.). — 1960. *An introduction to physical anthropology*, 3e éd., Springfield (Illinois, USA), Ch. G. Thomas (الفصل ١)

MONTET (P.). — 1946. *La Vie quotidienne en Egypte au temps de Ramsès*, Paris (الفصلان ٢،٢)

— 1970. *l'Egypte éternelle*, L'aventure des civilisations, Paris (الفصلان ٤،٢)

MONTEVECCHI (O.). — 1973. *La papirologia*, Turin, Societa Editrice Internazionale (الفصل ٧)

MOORSEL (P. VAN). — 1966. « Une téophanie nubienne », *R.A.C.* XLII, 1-4 : 297-316 (الفصل ١٢)

— 1967. « Abdallah Nirqi », *Spiegel historiaeli* II : 388-92 (الفصل ١٢)

— 1970. « Die Wandmalereien der Zentralen Kirche von Abdallah Nirqi », *in* E. DINKLER (éd.) : *Kunst und Geschichte Nubiens in christlicher Zeit*, Recklinghausen, Verlag Aurel Bongers : 103-111 (الفصل ١٢)

— 1972. « Gli scavi olandesi in Nubia », *Actas VIII Congr. Inter. Arqueo. Christ.* : 349-95 (الفصل ١٢)

MOORSEL (P. VAN), JACQUET (J.) et SCHNEIDER (H.). — 1975. *The central church of Abdallah Nirqi*, Leyde, Brill (الفصل ١٢)

MORDINI (A.). — 1960. « Gli aurei Kushana del convento di Dabra-Dammo », *Atti. Conv. Inter. Stud. Et.* : 253 (الفصل ١٥)

MOREL (J.P.). — 1962-1965. « Céramique d'Hippone », *B.A.A.* I (الفصل ١٩)

— 1968. « Céramique à vernis noir du Maroc » *A.A.* 2 (الفصل ١٩)

MORET (A.). — 1926. *Le Nil et la civilisation égyptienne*, « VII. Evolution de l'humanité », Paris (الفصل ٢)

MORI (F.). — 1964. « Some aspects of the rock art of the Acacus (Fezzan, Sahara) and dating regarding it », L. PERICOT-GARCIA et E. RIPOLL-PARELLO : *Prehistoric art of the Western Mediterranean and the Sahara*, New York : 247-59 (الفصل ١٧)

— 1965. *Tadrart Acacus : Arte rupestre e culture del Sahara prehistorico*, Turin, Einaudi, 260 p. (الفصل ٢٤)

— 1972. *Rock art of the Tadrart Acacus*, Graz (الفصل ٢١)

MORRISSON (C.). — 1970. *Catalogue des monnaies byzantines de la bibliothèque nationale*, Paris (الفصل ١٩)

MORTELMANS (G.). — 1957. « La préhistoire du Congo belge », *R.U.B.* 2-3 (الفصل ٢٥)

— 1962. « Archéologie des grottes Dimba et Ngoro (région de Thysville, Bas-Congo) », *Actes IVe Congr. P.P.E.Q.* : 407-25 (الفصل ٢٥)

MOSCATI (S.). — 1971. *L'Epopée des phéniciens*, Paris, Fayard (18).

MÜLLER (W.M.). — 1910. *Egyptological researches*, II - « Results of a journey in 1906 », Washington, Carnegie Institution (الفصل ١٧)

MUNIER (H.). — 1943. *Recueil des listes épiscopales de l'Eglise copte*, Le Caire, X + 92 p. (الفصل ١٢)

MUNSON (P.J.). — 1967. « A survey of the neolithic villages of Dhar Tichitt.

(Mauretania) and some comments on the grain impressions found on the Tichitt pottery », *6ᵉ Congr. P.P.E.Q.* (الفصل ٢٤)
— 1968. « Recent archaeological research in the Dhar Tichitt region of South Central Mauretania », *W.A.A.N.* 10 : 6-13 (الفصل ٢٤)
— 1969. « Engravings of Ox-drawn chariots », *N.A.* 122 : 62-3 (الفصل ٢١)
— 1970. « Corrections and additional comments concerning the Tichitt tradition », *W.A.A.N.* 12 : 47-8 (الفصل ٢٤)
— 1972. « Archaeological data on the origin of cultivation in the South-Western Sahara and its implications for West Africa », *B.W.S.* 56 (24).
MURDOCK (G.P.). — 1959. *Africa : its peoples and their culture history*, New York (الفصلان ٢١، ٢٣)
NAVILLE (E.). — 1907-13. *The XI^th^ dynasty temple at Deir-el-Bahari*, The office of the Egypt exploration Fund, Londres, K. Paul Trench, 3 vol. (الفصل ٢).
NENQUIN (J.). — 1959. « Dimple-based pots from Kasai, Belgian Congo », *Man* 59, 242 : 153-5 (الفصل ٢٥)
— 1961. « Protohistorishc Metaaltechnick in Katanga », *Africà-Tervuren* VII, 4 : 97-101 (الفصل ٢٥)
— 1963. « Excavations at Sanga. 1957. The protohistoric necropolis », *A.M.R.A.C.* 45, 277 p. (25) (29).
NIBBI (A.). — 1975. *The Sea peoples and Egypt*, Park Ridge, New Jersey, Noyes Press, XIV-161 p. (الفصل ٢)
NICOLAUS (R.A.). — 1968. *Melanins*, Hermann, Paris (الفصل ١)
NOSHY (I.). — 1937. *The arts in Ptolemaic Egypt : A study of Greek and Egyptian influences in Ptolemaic architecture and sculpture*, Londres (الفصل ٦)
NOTEN (F. VAN). — 1968. « The Uelian. A culture with a neolithic aspect, Uele-Basin (N.-E. Congo Republic) », *A.M.R.A.C.* 64, XIV + 154 p. (الفصل ٢٥)
— 1972. « Les tombes du roi Cyitrima Rujugira et de la reine-mère Nyirayuhi Kanjogera », *A.M.R.A.C.* 77, XIV ± 82 p. (الفصل ٢٥)
— 1972. « La plus ancienne sculpture sur bois de l'Afrique centrale », *Africa-Tervuren*, XVIII, 3-4 : 133-5 (الفصل ٢٥)
NOTEN (F. VAN) et HET (E.). — 1974. « Ijzersmelten bij de Madi », *Africa-Tervuren* XX, 3-4 : 57-66 (الفصل ٢٥)
NOTEN (F. VAN) et HIERNAUX (J.). — 1967. « The Late Stone Age industry of Mukinanira, Rwanda », *S.A.A.B.* 22, IV : 151-4 (الفصل ٢٥)
NUNOO (R.). — 1969. « Buroburo factory excavations », *Actes Iᵉʳ Coll. Intern. Archéol. Afr.* : 321-33 (الفصل ٢٩)
OBENGA (Th.). — 1973. *L'Afrique dans l'Antiquité*, Paris, Présence africaine (الفصلان ٤، ٢١)
ODNER (K.). — 1971. « Usangi hospital and other archaeological sites in the North Parc Mountains, North-Eastern Tanzania », *Azania* VI : 89-130 (الفصل ٢٢)
— 1971. « A preliminary report of an archaeological survey on the slopes of

Kilimanjaro », *Azania*, VI : 131-50 (الفصل ٢٢)
OGOT (B.A.) et KIERAN (J.A.). — 1974. Zamani : a survey of the East African History (I^re éd. 1968), Nairobi-Londres (الفصل ٢٣)
OLDEROGGE (D.A.). — 1972. « L'Arménie et l'Ethiopie au IV^e siècle (à propos des sources de l'alphabet arménien) », *IV Congr. Intern. Stud. Et.* : 195-203 (الفصل ١٥)
OLIVER (R.). — 1963. « Discernible developments in the interior C. 1500-1840 », R. OLIVER et G. MATHEW : *The Oxford history of East Africa*, Londres, I : 169-211 (الفصل ٢٨)
— 1966. « The problem of the Bantu expansion », *J.A.H.* VI, 3 : 361-76 (الفصول ٢١،٢٢،٢٣،٢٥)
OLIVER (R.) et FAGAN (B.M.). — 1975. *Africa in the Iron Age C.500 B.C. to A.D. 1400*, Cambridge (الفصل ٢٩)
ORTEIL (F.). — 1952. « The economic unification of the Mediterranean region : industry, trade and commerce », S.A. COOK *et al.* : *The Cambridge Ancient history*, Cambridge, Cambridge Univ. Press (الفصل ٢٢)
— 1956. « The economic life of the Empire », S.A. COOK *et al.* : *The Cambridge Ancient history*, Cambridge, Cambridge Univ. Press (الفصل ٢٢)
OTTO (E.). — 1969. « Das Goldene Zeitalter in einem ägyptischen Text », *Religions en Egypte héllénistique et romaine* (Colloque de Strasbourg, 16-18 mai 1967), Paris : 93-100 (الفصل ٣)
PACE, CAPUTO et SERGI. — 1951. *Scavi Sahariani, Monumenti antichi*, Rome, Acad. dei Lincei (الفصل ٢٠)
PAINTER (C.). — 1966. « The Guang and west African historical reconstruction », *G.N.Q.* 9 : 58-66 (الفصل ٢١)
PALMER (J.A.B.). — 1947. « Periplus maris Erythraei ; the Indian evidence as to its date », *The classical quaterly*, XLI : 136-41 (الفصل ٢٢)
PANKHURST (R.K.P.). — 1961. *An introduction to the economic history of Ethiopia from early times to 1800*, Londres, Lalibela House (الفصل ٢٢)
PAPYRUS RHIND. — *The Rhind mathematical papyrus*, British museum 10057 and 10053 ; photographie facsimile, hieroglyphic transcription, literal translation, free translation, mathematical commentary and bibliography, Oberlin, O. Mathematical association of America (الفصل ٥)
PARIBENI (E.). — 1959. *Catalogo delle sculture de Cirene : statue e rilievi di carattere religioso*, Roma, Monografie die Archeologia libica n° 5 (الفصل ٦)
PARIBENI (R.). — 1908. *Richerche nel luogo dell' antica Adulis*, Ant. Pub. Ac. Naz. Lincei, 18 : 438-572 (الفصل ١٢،١٥)
PARKINTON (J.E.). — 1972. « Seasonal mobility in the Later Stone Age », *A.S.* 31 : 223-43 (الفصل ٢٦)
PARKINTON (J.E.) et POGGENPOEL (C.). — 1971. « Excavations at De Hangen 1968 », *S.A.A.B.* 26 : 3-36 (الفصل ٢٦)
PATERSON (W.). — 1789. *A narrative of four journeys into the country of the Hottentots and Caffraria in the years 1777, 1778 and 1779*, Londres (الفصل ٢٦)
PEDRALS (D.P. DE). — 1950. *Archéologie de l'Afrique noire*, Paris, Payot

(الفصل ١)
PERRET (R.). — 1936. « Recherches archéologiques et ethnographiques au Tassili des Ajjers », *J.S.A.* 6 : 50-1 (الفصل ١٧)
PERROT (J. *et al.*). — 1972. « Une statue de Darius découverte à Suse », *J.A.* : 235-66 (الفصل ١٠)
PERROY (L.). — 1969. *Gabon, cultures et techniques*, Libreville, O.R.S.T.O.M., Musée des arts et traditions, 275/195, 83 p. (الفصل ٢١)
PESCE (G.). — 1961. *Sardegna punica*, Cagliari (الفصل ١٨)
PETRIE (W.M.F.). — 1901. *Diospolis Parva, The cemeteries of Abadiyeh and Hu, 1898-9*, Londres-Boston, Mass., Egypt Exploration (الفصل ٩)
— 1939. *The making of Egypt*, Londres, Sheldon Press ; New York, Macmillan (الفصل ١)
PETTIGREW (T.J.). — 1834. *A History of Egyptian mummies, and an account of the worship and embalming of sacred animals by the Egyptians*, Londres, Longman (الفصل ١)
PFLAUM (H.G.). — 1957. « A propos de la date de la création de la province de Numidie », *Libyca* : 61-75 (الفصل ١٩)
PHILLIPSON (D.W.). — 1968. « The Early Iron Age in Zambia. Regional variants and some tentative conclusions », *J.A.H.* IX, 2 : 191-211 (الفصل ٢١، ٢٥، ٢٦، ٢٧)
— 1968. « The Early Iron Age Site at Kapwirimbwe, Lusaka », *Azania* III : 87-105 (الفصل ٢٧)
— 1968. « Cewa, Leya and Lala iron-smelting furnaces », *S.A.A.B.* XXIII : 102-13 (الفصل ٢٧)
— 1969. « Early Iron-using peoples of Southern Africa », *in* L. THOMPSON : *African societies in Southern Africa*, Londres, Heinemann : 24-49 (الفصل ٢٧)
— 1970. « Excavations at Twickenham Road, Lusaka », *Azania* V : 77-118 (الفصل ٢٧)
— 1970. « Notes on the later prehistoric radiocarbon chronology of Eastern and Southern Africa », *J.A.H.* XI : 1-15 (الفصل ٢٧)
— 1971. « An Early Iron Age site on the Lubusi river, Kaoma district, Zambia », *Z.M.J.* II : 51-7 (الفصل ٢٧)
— 1972. *Prehistoric rock paintings and rock engravings of Zambia*, Livingstone, Exhibition catalogue of Livingstone museum (الفصل ٢٩)
— 1972. « Early Iron Age sites on the Zambian copperbelt », *Azania* VII : 93-128 (الفصل ٢٧)
— 1973. « The prehistoric succession in Eastern Zambia : a preliminary report », *Azania*, VIII : 3-24 (الفصل ٢٧)
— 1974. « Iron Age history and archaeology in Zambia », *J.A.H.* XV : 1-25 (الفصل ٢٣، ٢٧)
— 1975. « The chronology of the Iron Age in Bantu Africa », *J.A.H.* XVI : 321-42 (الفصل ٢٣، ٢٧)
— 1977. *The later prehistory of Eastern and Southern Africa*, Londres, Heinemann (الفصل ٢٧)

PHILLIPSON (D.W.) et FAGAN (B.M.). — 1969. « The date of the Ingombe Ilede burials », *J.A.H.* X : 199-204 (الفصل ٢٧)

PIGACHE (J.P.). — 1970. « Le Problème anthropobiologique à Madagascar », *Taloha* 3 : 175-7 (الفصل ٢٨)

PIGULEVSKAYA (N.V.). — 1951. *Vizantiya na putyah V Indiyu*, Leningrad, Izdatelstvo akademii, Nauk (الفصل ١٥)

— 1969. *Byzanz auf den Wegen nach Indien*, Deutsche Akademie der Wissenschaften zu Berlin, Berliner Byzantinische Arbeiten, Bd. 36. Berlin (D.D.R.) Akademie Verlag (الفصل ١٦)

PIRENNE (J.). — 1955. *La Grèce et Saba : Une nouvelle base pour la chronologie sud-arabe*, Paris, Imprimerie Nationale (الفصل ١٣)

— 1956. *Paléographie des inscriptions sud-arabes*, Bruxelles, vol. I (الفصل ١٣)

— 1961. « Un problème clef pour la chronologie de l'Orient : la date du « Périple de la mer Erythrée », *J.A.* 249 : 441-59 (الفصل ١٣)

— 1961-63. *Histoire de la civilisation de l'Egypte ancienne*, Paris-Neuchâtel, 3 vol. (الفصلان ٢، ٥)

— 1965. « Arte Sabeo d'Ethiopia », *Encyclopedia dell'Arte antica*, Rome, vol VI (الفصل ١٣)

— 1967. « Haoulti et ses monuments. Nouvelle interprétation », *A.E.* 7 : 125-33 (الفصل ١٣)

— 1969. « Notes d'archéologie sud-arabe, VI », *Syria*, 46 : 308-13 (الفصل ١٣)

— 1970. « Haoulti, Gobochela (Mélazo) et le site antique », *A.E.* 8 : 117-27 (الفصل ١٣)

— 1970. « Le développement de la navigation Egypte-Inde dans l'Antiquité, sociétés et compagnies de commerce en Orient et dans l'océan Indien », *Actes 8ᵉ Coll. Intern. Hist. Marit.*, 101-19 (الفصل ٢٢)

PLINE. — éd. 1938-1963. *Natural history*, trad. H. RACKHAM *et al.*, Cambridge, Mass. : Harvard Univ. Press, Londres : Heinemann, 11 vol. (الفصول ١١، ١٣، ١٥، ١٧، ٢٢)

PLUMLEY (J.M.). — 1970. « Some examples of Christian Nubian art from the excavations at Qasr Ibrim », *in* E. DINCKLER : *Kunst und Geschichte Nubiens in christlicher Zeit*, Recklinghausen, Verlag Aurel Bongers : 129-40 (الفصل ١٢)

— 1971. « Pre-Christian Nubian (23 BC - 535 AD) Evidence from Qasr Ibrim », *Et. Trav.* 5 : 7-24 (الفصلان ١٠، ١٢)

PLUMLEY (J.M.) et ADAMS (W.A.). — 1974. « Qasr Ibrim, 1972 », *J.E.A.* 60 (الفصل ١٢)

POINSOT (L.) et LANTIER (R.). — 1923. « Un sanctuaire de Tamit à Carthage », *R.H.R.* LXXXVII (الفصل ١٨)

POINSSOT (C.). — 1962. « Immunitas Perticae Carthaginiensium », *C.R.A.I.*, pp. 55-76 (الفصل ١٩)

POIRIER (Ch.). — 1954. « Terre d'Islam en mer malgache », *B.A.M.* nº sp. Cinquantenaire : 71-115 (الفصل ٢٨)

— 1965. « Données écologiques et démographiques de la mise en place des

proto-malgaches », *Taloha* : 61-2 (الفصل ٢٨)

POMMERET (Y.). — 1965. *Civilisations préhistoriques au Gabon. Vallée du Moyen-Ogooné*, Libreville, Centre culturel français Saint-Exupéry, 2 vol., vol. II : « Notes préliminaires à propos du gisement lupembien et néolithique de Ndjolé » (الفصل ٢٥)

PONS (A.) et QUEZEL (P.). — 1957. « Première étude palynologique de quelques paléosols sahariens », *Trav. I.R.S.* 16, 2 : 27-35 (الفصلان ١٧،٢٤)

PORTER (B.) et MOSS (R.). — 1951. *Topographical bibliography of ancient Egyptian hieroglyphic texts, reliefs and paintings*, Oxford, Clarendon Press, vol. VII : 264 sq. (الفصل ١١)

PORTÈRES (R.). — 1950. « Vieilles agricultures de l'Afrique intertropicale : centre d'origine et de diversification variétale primaire et berceaux d'agriculture antérieure au XVI[e] siècle »,*A.T.* 5, 9-10 : 489-507 (الفصل ٢٤)

— 1951. « Géographie alimentaire, berceaux agricoles et migrations des plantes cultivées, en Afrique intertropicale », *C.R. Soc. Biogéograph.* 239 : 16-21 (الفصل ٢٤)

— 1951. « Une céréale mineure cultivée dans l'Ouest africain (Brachiarta deflexa C.E. Hubbard *var* sativa nov. var.) »,*A.T.* 6, 1-2 : 38-42(الفصل ٢٤)

— 1962. « Berceaux agricoles primaires sur le continent africain », *J.A.H.* 3, 2 : 195-210 (الفصل٢٤)

POSENER (G.). — 1936. « La première domination perse en Egypte. Recueil d'inscriptions hiéroglyphiques », *B.I.F.A.O.* XI, 241 p. (الفصل ٢)

— 1956. *Littérature et politique dans l'Egypte de la XII[e] dynastie*, Paris, H. Champion, XI + 172 p. (الفصلان٢،٣)

— 1958. « Pour une localisation du pays Koush au Moyen Empire », *Kush*, 6 : 39-65 (الفصلان ٤، ٩)

— 1960. « De la divinité de Pharaon », *C.S.A.* XV (الفصلان٢،٣)

POSENER (G.), SAUNERON (S.) et YOYOTTE (J.). — 1959. *Dictionnaire de la civilisation égyptienne*, Paris (الفصول ٢، ٣،٤)

POSNANSKY (M.). — 1966. « The origin of agriculture and iron-working in Southern Africa », *in* M. POSNANSKY (éd.), *Prelude to East African History*, Londres, Oxford Univ. Press : 82-94 (الفصل ٢٢)

— 1966. « Kingship, archaeology and historical myth », *U.J.* 30 : 1-12 (الفصل ٢٩)

— 1967. « The Iron-Age in East Africa », *in* W.W. BISHOP et J.D. CLARK : *Background to evolution in Africa* : 629-49 (الفصل٢٥)

— 1968. « Bantu genesis : archaeological reflexions », *J.A.H.* IX, 1 : 1-11 (الفصلان ٢٢،٢٥)

— 1969. Yams and the origins of West African agriculture », *Odu*, 1 : 101-7 (الفصل ٢١)

— 1969-70. « Discovering Ghana's past », *Annual Museum lectures*, p. 20 (الفصل ٢٩)

— 1971. « Ghana and the origins of West African trade », *A.Q.* XI : 110-25 (الفصلان ٢٤،٢٩)

— 1972. « Archaeology, ritual and religion », *in* T.O. RANGER et I. KIMAMBO : *The historical study of African religion*, Londres, Heinemann :

29-44 (الفصل ٢٩)
— 1972. « Terminology in the Early Iron Age of East Africa with particular reference to the dimple-based wares of Lolui Island, Uganda », *Actes VI[e] Congr. P.P.E.Q.* : 577-9 (الفصل ٢١)
— 1973. « Aspects of Early West African trade », *W.A.* 5 : 149-62 (الفصل ٢١)
— 1973. « Review of T. Shaw "Igbo Ukwu" », *Archaeology*, 25, 4 : 309-11 (الفصل ٢٩)
PRÉAUX (C.). — 1939. *L'Economie royale des Lagides*, Bruxelles, Fondation égyptologique Reine Elisabeth, 646 p. (الفصل ٦)
— 1943. « Les Egyptiens dans la civilisation hellénistique d'Egypte », *Chronique d'Egypte* XVIII : 148-60 (الفصل ٦)
— 1950. « La singularité de l'Egypte dans le monde gréco-romain », *Chronique d'Egypte* XXV : 110-23 (الفصل ٦)
— 1952. « Sur la communication de l'Ethiopie avec l'Egypte hellénistique », *Chronique d'Egypte* XXVII : 257-81 (الفصل ٦)
— 1954. « Sur les origines des monopoles lagides », *Chronique d'Egypte*, XXIX : 312-27 (الفصل ٦)
— 1957. « Les Grecs à la découverte de l'Afrique par l'Egypte », *Chronique d'Egypte*, XXXII : 284-312 (4) (الفصلان ٤، ٦)
PRIAULX (B.). — 1863. « On the Indian embassies to Rome, from the reign of Claudius to the death of Justinian », *J.R.A.* XX : 277-8 (الفصل ١٥)
PRIESE (K.H.). — 1968. « Nichtägyptische Namen und Wörter in den ägyptischen Inschriften der Könige von Kuoh », *M.I.O.D.* 14 : 165-91 (الفصل ١٠)
— 1970. Article dans *Z.Ä.S.*, 98, 1 : 16-32 (الفصل ١٠)
PRITCHARD (J.B.). — éd. 1969. *The Ancient Near East : supplementary texts and pictures relating to the Old Testament*, Princeton, Princeton Univ. Press, 274 p. (الفصل ٥)
PROCOPE. — éd. 1876. « De bello persico », Destunio, Spiridon et Gavriil (éd.), *Istoriya voyn rimlan Spersami*, Kniga I. S. Peterburgskago, Akad. Nauk : 274-7 (الفصل ١٥)
— éd. 1953 et 1961. *History of the wars, Secret history*, trad. B.H. DEWING *et al.* (1914-40), 7 vol., Cambridge, Mass. : Harvard Univ. Press, Londres : Heinemann (الفصل ٢٢)
PTOLÉMÉE. — éd. 1901. *Geographia*, éd. C. MILLER, Paris, Firmin-Didot, IV, 6, 5, 6 : 743-5 (17). (الفصل ١٧)
— éd. 1932. *The Geography*, trad. E.L. STEVENSON, New York (الفصول ١٣، ١٥، ٢٢)
PULLAN (R.A.). — 1965. « The recent geomorphological evolution of the south central part of the Chad basin », *J.A.S.A.*, 9, 2 (24). (الفصل ٢٤)
QUEZEL (P.) et MARTINEZ (C.). — 1958. « Le dernier interpluvial au Sahara central », *Libyca* 6-7 : 224 (الفصل ١)
QUIRING (H.). — 1946. *Geschichte des Goldes. Die Goldenen Zeitalter in ihren kulturellen und wirtschaftlichen Bedeutung*, Stuttgart (الفصل ١١)
RACHET (M.). — 1970. *Rome et les Berbères : un problème militaire d'Auguste à Dioclétien*, Bruxelles, Latomus, Revue d'études latines (الفصل ١٩)

RAKOTO-RATSIMAMANGA (A.). — 1940. « Tache pigmentaire et origine des malgaches », *R. Anth.* : 6-130 (الفصل ٢٨)
RAMILISONINA. — 1951-2. *Histoire du Zafimamy* (Ny loharon'ny Andriamamilaza), Tananarive, impr. Volamahitsy (الفصل ٢٨)
RANKE (H.). — 1933. *Medicine and surgery in Ancient Egypt*, History of Science, Philadelphia, Univ. of Pennsylvania (bicentennial conference) (الفصل ٥)
RAHTZ (P.A.) et FLIGHT (C.). — 1974. « A quern factory near Kintampo, Ghana », *W.A.J.A.* 4 : 131 (الفصل ٢٩)
RAUNING (W.). — 1964. *Die kulturellen Verhältnisse Nord und Ost Afrika im ersten nach christlichem Jahrhundert entworfen an Hand des Periplus des Erythraischen Meeres*, Vienne (الفصل ٢٢)
— 1965. « Die Bedeutung des Periplus des Erythraischen Meeres für Afrika », *M.A.G.W.* XCV : 55-60 (الفصل ٢٢)
RAWLINSON (H.G.). — 1926. *Intercourse between India and the Western world from the earliest times to the fall of Rome*, Cambridge, Cambridge Univ. Press (الفصل ٢٢)
REBUFFAT (R.). — 1969-70. « Zella et les routes d'Egypte », *Libya antiqua* VI-VII : 181-7 (الفصل ٢٠)
— 1970. « Route d'Egypte et de la Libye intérieure », *S.M.* 3 : 1-20 (الفصلان ١٧، ٢٠)
— 1972. « Nouvelles recherches dans le Sud de la Tripolitaine », *C.R.A.I.* : 319-39 (الفصل ٢٠)
— 1974. « Vestiges antiques sur la côte occidentale de l'Afrique au Sud de Rabat », *A.A.* VIII : 25-49 (الفصل ٢٠)
— 1975. « Trois nouvelles campagnes dans le sud de la Tripolitaine », *C.R.A.I.* : 495-505 (الفصل ٢٠)
— 1977. « Bu Ngem », *L.A.P.P.M.O.* Cah. n° 20 (الفصل ٢٠)
REDFORD (D.W.). — 1967. « History and chronology of the eighteenth dynasty of Egypt », *N.A.S.* (الفصل ٢)
REICHHOLD (W.). — 1978. « Les Noirs dans le livre du prophète Isaïe », *Afrique noire et monde méditerranéen dans l'Antiquité*, Colloque de Dakar 19-24 janv. 1976, Dakar-Abidjan, N.E.A. : 276-85 (الفصل ٤)
REINACH (A.). — 1913. *Egyptologie et histoire des religions*, Paris, 56 p. (الفصل ١)
REINAUD (J.T.). — 1863. « Relations politiques et commerciales de l'Empire romain avec l'Asie orientale », *J.A.* 6, 1 : 93-234 ; 297-441 (الفصل ٢٢)
REISNER (G.A. VON). — 1910. *The archaeological survey of Nubia, Report for 1907, 1908*, Le Caire, National printing department, vol I, V + 373 p. (الفصلان ١٠، ١٢)
— 1918. « The Barkal temples in 1916 », *J.E.A.* V (الفصل ١١)
— 1918-19. « Outline of the ancient history of the Sudan », *S.N.R.* I : 3-15, 57-79, 217-37 ; II : 35-67 (الفصل ١١)
— 1923. « Excavations at Kerma », *H.A.S.* V, VI (الفصلان ٩، ١١)
— 1923. « The Meroitic kingdom of Ethiopia : a chronological outline », *J.E.A.* 9 : 33-77 (الفصل ١١)

— 1929. « Excavations at Simna and Uronarti by the Harvard Boston expedition », *S.N.R.* XII : 143-61 (الفصل ١١)
— 1931. « Inscribed monuments from Gebel Barkal », *Z.Ä.S.* 66 : 100 (الفصل ١٠)
— 1936. *The development of the Egyptian tomb down to the accession of Cheops*, Cambridge, Mass. : Harvard Univ. Press (الفصل ٥)
— 1955. *A History of the Giza Necropolis* (Cambridge, Mass. : Harvard University Press), Vol. II (complété et rév. par W.S. Smith) *The tomb of Hetep-herès, the mother of Cheops* (الفصل ٢)
REPIQUET (J.). — 1902. *Le Sultanat d'Anjouan*, Paris (الفصل ٢٨)
RESCH (W.). — 1967. *Das Rind in den Felsbilddarstellungen Nordafrikas*, Wiesbaden, Franz Steiner Verlag (الفصل ١٧)
REUSCH (R.). — 1961. *History of East Africa*, New York, F. Ungar Pub. Co. (الفصل ٢٢)
REYGASSE (M.). — 1950. *Monuments funéraires pré-islamiques de l'Afrique du Nord*, Paris, A.M.G. (الفصل ٢٠)
REYNOLDS (V.). — 1967. *The apes : their history and their world*, New York, Dutton (الفصل ٢١)
RICCI (L.). — 1955-58. « Ritrovamenti archeologici in Eritrea », *R.S.E.* 14, 51-68 (الفصل ١٣)
— 1959-60. « Iscrizioni rupestre dell'Eritrea », *R.S.E.* 15 : 55-95 ; 16 : 77-119 (الفصل ١٣)
— 1960. « Notizie archeologiche », *R.S.E.* 16 : 120-23 (الفصل ١٣)
— 1960. « Iscrizioni rupestre dell'Eritrea », *Atti Conv. Intern. Stud. Et.* : 447-60 (الفصل ١٣)
— 1961. « Antichita nello Agame », *R.S.E.* 17 : 116-8 (الفصل ١٣)
RICKS (T.M.). — 1970. « Persian gulf seafaring and East Africa. Ninth-twelfth centuries », *A.H.S.* III : 339-58 (الفصل ٢٢)
RIESE (A.). — 1894. *Anthologia latina*, éd. F. BÜCHELER, Leipzig, Teubner, n° 183 : 155-156 (الفصل ١٧)
RIZVI (S.A.). — 1967. « Zanj : its first known use in Arabic literature », *Azania* II : 200-1 (الفصل ٢٢)
ROBERTS (A.D.). — 1974. « Precolonial trade in Zambia », *A.S.R.*, 10 : 720 (الفصل ٢٩)
ROBINEAU (C.). — 1966. « Une étude d'histoire culturelle de l'île d'Anjouan », *R.H.* 35 : 17-34 (الفصل ٢٨)
ROBINSON (E.S.G.). — 1956. « The Libyan hoard », *Numismatic chronicle* LVI : 94 (الفصل ١٨)
ROBINSON (K.R.). — 1961. *Archaeological report in Rhodesian school boys' exploration society expedition to Buffalo Bend*, Salisbury (الفصل ٢٧)
— 1961. « An Early Iron Age site from the Chibi district, Southern Rhodesia », *S.A.A.B.* XVI : 75-102 (الفصل ٢٧)
— 1963. « Further excavations in the Iron Age deposits at the tunnel site, Gokomere Hill, Southern Rhodesia », *S.A.A.B.* XVIII : 155-71 (الفصل ٢٧)
— 1966. « The Sinoia caves, Lomagundi district, Rhodesia », *Proc. Rhod. Sci. Assoc.* LI : 131-55 (27). (الفصل ٢٧)

— 1966. « The Leopard's Kopje culture : its position in the Iron Age in Southern Rhodesia », *S.A.A.B.* 21 : 81-5 (الفصل ٢٧)
— 1966. « A preliminary report on the recent archaeology of Ngonde, Northern Malawi », *J.A.H.* VII : 169-88 (الفصل ٢٧)
— 1966. « The Iron Age in Southern Rhodesia », *S.A.A.B.* XXI : 5-51 (الفصل ٢٧)
— 1970. « The Iron Age in The Southern Lake Area of Malawi », *M.A.D.P.* 8 (الفصل ٢٧)
— 1973. « The Iron Age of the Upper and Lower Shire Malawi », *M.A.D.P.* 13 (الفصل ٢٧)
ROBINSON (K.R.) et SANDELOWSKY (B.). — 1968. « The Iron Age in Northern Malawi : recent work », *Azania* III : 107-46 (الفصل ٢٧)
ROEDER (G.). — 1961. *Der Ausklang der ägyptischen Religion mit Reformation, Zauberei und Jenseitsglauben*, Zurich : Artemis Verlag, Stuttgart : die Bibliotek der alten Welt (الفصل ٢)
ROEDER (K.G.). — 1912. « Die christliche Zeit Nubiens und des Sudans », *Z.K.* XXXIII : 364-98 (الفصل ١٢)
— 1913. « Die Geschichte Nubiens », *Klio* XII : 51-82 (الفصل ١٢)
ROMANELLI (P.). — 1959. *Storia delle province romane dell'Africa*, Rome (17) (19). (الفصل ١٧، ١٩)
— 1970. « Mura e fortesse bizantine in topografia e archeologia dell'Africa romana », *Enciclopedia classica* X, 7 : 398-407 (الفصل ١٩)
ROSEMBAUM (E.). — 1960. *A catalogue of Cyrenaican portrait sculpture*, Londres, Oxford Univ. Press (الفصل ٦)
ROSTOVTZEFF (M.J.). — 1941. *The social and economic history of the hellenistic world*, 2e éd. : 1959, 3 vol. Oxford, Clarendon Press (الفصل ٦)
— 1957. The economic and social history of the Roman Empire, 2e éd., Oxford, pp. 321 et sq. (الفصل ١٩)
ROUILLARD (G.). — 1853. *La Vie rurale dans l'Egypte byzantine*, Paris, Adrien Maisonneuve (الفصل ٧)
— 1928. *L'Administration civile de l'Egypte byzantine*, 2e éd. rev., Paris, Geuthner (الفصل ٧)
ROWE (A.). — 1948. « A history of Ancient Cyrenaica. New light on Aegypto-cyrenaean relations. Two Ptolemaic statues found in Tolmeita ». *Supplément A.S.A.E.* no 12 ; compte rendu par J. LECLANT, *R.E.A.* 52, 1-2 : 337-9 (الفصل ١٧)
RUDNER (J.). — 1968. « Strandloper pottery from South and South-West Africa », *A.S.A.M.* 49 : 441-663 (الفصل ٢٦)
RUFINUS (T.). — 1908. *Historia ecclesiastica*, Leipzig, Teubner (الفصل ١٥)
— 1910. *Opera*, éd. A. Engelbrecht, Vienne (الفصل ١٥)
RYCKMANS (G.). — 1953, 1955, 1956. « Inscriptions sud-arabes », *Le Muséon*, X, LXVI, 3-4 ; XII, LXVIII, 4-4 ; XIV, LXIX, 1-2, 3-4 (الفصل ١٥)
— 1964. « Compte rendu de A. Jamme : Sabaean inscriptions from Mahram Bilqis (Marib) », *B.O.* XXI, 5-6 : 90 (الفصل ١٥)

SALAMA (P.). — 1951. *Les Voies romaines de l'Afrique du Nord*, Alger (الفصل ١٩)
— 1953-55. « Nouveaux témoignages de l'œuvre des Sévères dans la Maurétanie césarienne », *Libyca* B : 231-51 et 329-67 (الفصل ٢٠)
— 1954. « Hypothèse sur la situation de la Maurétanie occidentale au IVe siècle », *Libyca* II : 224-229 (الفصل ١٩)
— 1954. « L'occupation de la Maurétanie césarienne occidentale sous le Bas-Empire », *Mélanges Piganiol* : 1292-1311 (الفصل ١٩)
— 1959. « Deux trésors monétaires du Ve siècle en Petite Kabylie », *B.S.N.A.F.* : 238-9.
— 1973. *Un point d'eau du limes maurétanien (Maghreb et Sahara)*. Etudes géographiques offertes à J. Despois, Paris, Société de Géographie (الفصل ٢٠)
— 1976. « Les déplacements successifs du Limes en Maurétanie césarienne. Essai de synthèse », Akten XI Intern. Limeskong. : 577-95 (الفصل ٢٠)
SAMPSON (C.G.). — 1974. *The Stone Age Archaeology of Southern Africa*, New York, Academic Press (الفصل ٢٦)
SATTIN (F.) et GUSMANO (G.). — 1964. *La cosidetta "Mummia" infantile dell'Acacus : nel quadro delle costumanze funebri prehistoriche mediterranee e sahariane*, Tripoli, Direction générale des archives (الفصل ١٧)
SAUMAGNE (C.). — 1965. *Le droit latin et les cités romaines sous l'Empire*, Paris, Syrey (الفصل ١٩)
SAUNERON (S.). — 1957. *Les Prêtres de l'Ancienne Egypte*, Paris, Seuil, 192 p. (3). (الفصل ٣)
SAUNERON (S.) et STERLIN (H.). — 1975. Derniers temples d'Egypte : Edfou et Philae, Paris, Chêne (الفصل ٣)
SAUNERON (S.) et YOYOTTE (J.). — 1952. « La campagne nubienne de Psammétique II et sa signification historique », *B.I.F.A.O.* 50 : 57-207 (2) (10) (الفصل ٢، ١٠، ١٢)
— 1959. *La Naissance du monde selon l'Egypte ancienne*, Paris, Seuil, 72 p. (الفصل ٣)
SAVARY (J.P.). — 1966. « Monuments en pierres sèches du Fadnoun (Tassili N'Ajjer) », *Mém. C.R.A.P.E.* VI (الفصل ٢٠)
SÄVE-SÖDERBERGH (T.). — 1941. *Ägypten und Nubien. Ein Beitrag zur Geschichte Alt ägyptischer Aussenpolitik*, Lund, Hakan Ohlssons, VIII + 276 p. (4) (الفصل ٤، ٩)
— 1953. Article *in B.I.F.A.O.* 52, Le Caire, p. 177 (الفصل ٤)
— 1956. « The Nubian Kingdom of the second intermediate period », *Kush*, 4 : 54-61 (الفصل ٩)
— 1960. « The paintings in the tomb of Djehuty-Hetep at Debeira », *Kush*, 8 : 25-44 (الفصل ٩)
— 1963. « Preliminary report of the Scandinavian Joint expedition : Archaeological investigations between Faras and Gemai, nov. 1961-march 1962 ». *Kush* XI : 47-69 (الفصل ١٢)
— 1965. *The C. group, Nubia Abu-Simbel*, Stockholm, Kungl. (الفصل ٩)
— 1970. « Christian Nubia. The excavations carried out by the Scandinavian Joint expedition to Sudanese Nubia », *in* E. DINKLER, *Kunst und*

Geschichte Nubiens in christlicher Zeit, Recklinghausen, Verlag Aurel Bongers : 219-44 (الفصل ١٢)
— 1970. *Scandinavian Joint Expedition to Sudanese Nubia*, 9 vol., Oslo, Universitetsforlaget (الفصل ١٢)
— 1972. « The Twilight of Nubian Christianity », Nubia, Récentes Recherches, *Actes Coll. Nubiol. Intern.*, pp. 11-17 (الفصل ١٣)
SAYCE (A.H.). — 1909. « A greek inscription of a king of Axum found at Meroe », *Proceedings of the Society of biblical Archaeology*, t. XXXI, Londres (الفصل ١٥)
— 1911. « Second interim report on the excavations at Meroe in Ethiopia II. The historical results », *L.A.A.A.* IV : 53-65 (الفصلان ١١، ٢١)
SAYYD (Abd al-Halim). — 1976. *Mana'im*, Alexandrie, thèse (الفصل ٤)
SCHÄFER (H.). — 1901. *Die äthiopische Königinschrift des berlinen Museums*, Berlin (الفصل ١١)
— 1905-8. — *Urkunden der alteren Äthiopenkönige*, Lief 1-2, Leipzig, Hinrichs (الفصل ١١)
SCHAPERA (I.). — 1930. *The Khoisan peoples of South Africa : Bushmen and Hottentots*, 2e éd. 1951, Londres, Routledge and Kegan Paul ; New York, The Humanities Press (الفصل ٢٦)
— 1933. *The Early Cape Hottentots described in the writings of Dapper, 1668, W. Ten Rhyne, 1686, and J. de Grevenbroek*, 1695, Cape Town, Van Riebeeck society (الفصل ٢٦)
SCHARFF (A.) et MOORTGAT (A.). — 1950. *Ägypten und Vorderasien im Altertum*, Munich (الفصل ٥)
SCHAUENBURG (K.). — 1955-6. « Die Cameliden in Altertum », *Bonner Jahrbücher* : 59-94 (الفصل ٢٠)
SCHENKEL (W.). — 1973. *Lexikon der Ägyptologie* I, 5, Wiesbaden, O. Harrassowitz, coll. 775-82 (الفصل ٢)
SCHNEIDER (R.). — 1961. « Inscriptions d'Enda Cerqos », *A.E.* 4 : 61-5 (الفصل ١٣)
— 1965. « Notes épigraphiques sur les découvertes de Matara », *A.E.* 6 : 89-142 (الفصل ١٣)
— 1965. « Remarques sur les inscriptions d'Enda Cerqos », *A.E.* 6 : 221-2 (الفصل ١٣)
— 1974. « Trois nouvelles inscriptions royales d'Axoum », *IV Congr. Intern. Stud. Et.* I : 87-102 (الفصل ١٥)
SCHOFF (W.H.) (trad.). — 1912. *The periplus of the Erythraean sea*, New York (الفصلان: ١٦، ٢٢)
— 1917. « As to the date of the periplus », *J.R.A.S.* : 827-30 (الفصل ٢٢)
SCHOFIELD (J.F.). — 1948. *Primitive Pottery : an introduction to South African ceramics, prehistoric and protohistoric*, Cape Town, Rustica Press (الفصل ٢٧)
SCHÖNBÄCK (B.). — 1965. *The Late Stone Age and the A-Group, Nubia Abu Simbel*, Stockholm : Kungl. Boktryekeriet, P.A. Norstedt, Soner (الفصل ٩)
SCHUBART (W.). — 1918. *Einführung in die Papyrunskunde*, Berlin,

Weidmann (الفصل ٧)
SCHWEITZER (F.R.). — 1970. « A preliminary report of excavation of a cave at Die Kelders », *S.A.A.B.* 25 : 136-8 (الفصل ٢٦)
SCHWEITZER (F.R.) et SCOTT (K.). — 1973. « Early appearance of domestic sheep in Sub-Saharan Africa », *Nature*, 241 : 547-8 (الفصل ٢٦)
SÉNÈQUE. — éd. 1930. *Questions naturelles*. Texte établi et trad. par P.OLTRAMARE, Paris, Les Belles Lettres, 2 vol. (الفصل ١، ١١)
SERGEW HABLE SELLASSIE. — 1972. *Ancient and medieval Ethiopian history to 1270*, Addis Abeba, United Printers, 340 p. (الفصل ١٤)
SERGI (S.). — 1951. « Scavi Sahariani » (Sahara Excavations), *Monumenti Antichi*, 41, Academia dei Lincei XLI, Rome, Coll. 443-504 (17).
SETERS (J. VAN). — 1964. « A date for the admonitions in the Second Intermediate Period. *J.E.A.* 50 : 13-23 (الفصل ٢، ٩)
— 1966. The Hyksos, a new investigation. New Haven, Londres (الفصل ٢)
SETHE (K.). — 1930. « Urgeschichte und älteste Religion der Ägypter », *A.K.M.*, Leipzig, F.A. Brockhaus, XII + 196 p. (الفصل ٢)
SHACKLETON (N.J.). — 1973. « Oxygen isotope analysis as a means of determining season of occupation of prehistoric midden sites », *Archaeometry* 15, 1 : 133-41 (الفصل ٢٦)
SCHAHID (I.). — 1971. *The martyrs of Nagran*, new documents, Société des Bollandistes, Bruxelles : 242-76 (الفصل ١٦)
SHAW (T.). — 1969. « On radio chronology of the Iron Age in sub-Saharan Africa », *C.A.* 10 : 226-8 (الفصل ٢٤)
— 1969. « The Late Stone Age in the Nigerian forest », *Actes Ier Coll. Intern. Archéol. Afr.* : 364-73 (الفصل ٢٤)
— 1970. *Igbo Ukwu : an account of archaeological discoveries in Eastern Nigeria*, Londres, Faber and Faber, 2 vol. (الفصلان ٢٤، ٢٩)
— 1970. « Those Igbo Ukwu radiocarbon dates : Facts, fictions and probabilities », *J.A.H.* XVI : 503-17 (الفصل ٢٩)
— 1971. « Africa in Prehistory ; leader or laggard ? », *J.A.H.* XII, 1 : 143-53 (الفصل ٢٤)
— 1972. « Early crops in Africa : a review of evidence », *B.W.S.* 56 (الفصل ٢٤)
SHERIF (N.M.). — 1971. *A short guide to the Antiquities garden*, Khartoum, Antiquities Service (الفصل ٩)
SHIFERACU (A.). — 1955. « Rapport sur la découverte d'antiquités trouvées dans les locaux du gouvernement général de Magallé », *A.E.* 1 : 13-5 (الفصل ١٢)
SHINNIE (P.L.). — 1954. *Medieval Nubia*, Khartoum, Sudan Antiquities Service (الفصل ١٢)
— 1954. « Excavations at Tanqasi, 1953 », *Kush* II : 66-85 (الفصل ١٠)
— 1965. « New light on medieval Nubia », *J.A.H.*, VI, 3 : 263-73 (الفصل ١٢)
— 1967. *Meroe. A civilization of the Sudan*, New York : Praeger, Londres : Thames and Hudson (الفصول ٦، ٩، ١١)
— 1971. *The culture of medieval Nubia and its impact on Africa*, Khartoum

(الفصل ١٢)

— 1971. « The legacy to Africa », *in* J.R. HARRIS (éd.), *The legacy of Egypt*, Oxford : 434-55 (الفصل ٤)

SILBERBAUER (G.B.). — 1972. « The G/wi Bushmen », *in* M.G. BICCHIERI (éd.), *Hunters and gatherers today*, New York, Holt, Rinehart and Wiston (الفصل ٢٦)

SIMPSON (W.K.). — 1963. *Heka-Nefer and the dynastic material from Toshka and Armina*, New Haven-Philadelphie, The Peabody museum of natural history, Yale University XIV + 56 p. (الفصل ٤)

— éd. 1972. *The literature of Ancient Egypt. An anthology of stories, instructions and poetry*, trad. : E.H. et R.D. FAULKNER, E.F. WENTE and W.K. SIMPSON, New Haven-Londres (الفصلان ٢،٢)

SINGER (R.) et WEINER (J.A.). — 1963. « Biological aspects of some indigenous African populations », *S.J.A.* 19 : 168-76 (الفصل ٢١)

SLIM (H.), MAHJOUBI (A.) et BELKODJA (Kh.). — 1968. *Histoire de la Tunisie*, I. « L'Antiquité », Tunis (الفصل ١٩)

SMITH (A.B.). — 1974. « Preliminary report on excavations at Karkarichinkat North and South. Tilemsi valley, 1972 », *W.A.J.A.* 4 : 33-55 (الفصل ٢٤)

SMITH (Sir G.E.) et DAWSON (W.R.). — 1924. *Egyptian Mummies*, Londres, G. Allen et Unwin (الفصل ٥)

SMITH (H.S.). — 1966. « The Nubian B-group », *Kush* 14 : 69-124 (الفصل ٩)

— 1976. *The Fortress of Buhen ; the inscriptions*, Londres, Egypt Exploration Society (الفصل ٢)

SMITH (W.S.). — 1949. A history of Egyptian sculpture and painting in the old Kingdom, 2e éd., Boston Museum of Fine Arts, 212 p. (الفصل ٣)

— 1965. *Interconnections in the ancient Near East. A study of the relationships between the arts of Egypt, the Aegean and Western Asia*, New Haven-Londres, Yale University Press (الفصل ٥)

— 1965. The art and architecture of Ancient Egypt, Harmondworth-Baltimore, Penguin Books, Pelican History of Art (الفصلان ٢،٥)

— 1971. « The Old Kingdom in Egypt and the beginning of the First Intermediate Period », *Cambridge Ancient History*, I, 2, chap. XIV (3e éd.), Cambridge (الفصل ٢)

SMITS (L.). — 1967. « Fishing scenes from Botsabelo, Lesotho », *S.A.A.B.* 22 : 60-7 (الفصل ٢٦)

SNOWDEN (F.M.). — 1970. *Blacks in Antiquity, Ethiopians in the Greco-roman experience*, Cambridge, Mass., Harvard Univ. Press, XXII + 364 p. (الفصول ٦، ١٧، ٢٠)

SNOWDEN (F.M.Jr). — 1976. « Témoignages iconographiques sur les populations noires dans l'Antiquité gréco-romaine », *l'Image du Noir dans l'art occidental*, Paris, Menil Foundation, vol. I : « Des pharaons à la chute de l'Empire romain », pp. 135-245 (الفصل ٦)

SOLHEIM (W.). — 1965. « Indonesian culture and Malagasy origin », *Taloha*, Tananarive, I : 33-42 (الفصل ٢٨)

SOPER (R.C.). — 1967. « Kwale : an Early Iron Age site in Southeastern

Kenya », *Azania* II : 1-17 (الفصلان ٢٧، ٢٢)

— 1967. « Iron Age sites in North Eastern Tanzania », *Azania* II : 19-36 (الفصل ٢٢)

— 1971. « A general review of the Early Iron Age in the southern half of Africa », *Azania* VI : 5-37 (الفصول ٢١، ٢٥، ٢٧)

SOUVILLE (G.). — 1958-9. « La pêche et la vie maritime au Néolithique en Afrique du Nord », *B.A.M.* III : 315-44 (الفصل ١٧)

SPARRMAN (A.). — 1789. *A voyage to the Cape of Good Hope, towards the Antarctic Polar Circle, and round the world, but chiefly into the country of the Hottentots and Caffres, from the year 1772 to 1776*, Perth (الفصل ٢٦)

SPENCER (J.E.). — 1968. « Comments on the origins of agriculture in Africa », *C.A.* 9, 5 : 501-2 (الفصل ٢٤)

SPIEGEL (J.). — 1950. *Soziale und weltanschauliche Reformbewewungen im alten Ägypten*, Heidelberg, Kerle (الفصل ٢)

SPRUYTTE (J.). — 1967. « Un essai d'attelage protohistorique », *Plaisirs équestres*, 34 : 279-81 (الفصل ١٧)

— 1968. « Le cheval de l'Afrique ancienne », *Le Saharien*, 48 : 32-42 (الفصل ١٧)

— 1977. *Etudes expérimentales sur l'attelage*, Paris, Crepin-Leblond (الفصل ٢٠)

STEIN (A.). — 1915. *Untersuchungen zur Geschichte und Verwaltung Ägyptens unter römischer Herrschaft*, Stuttgart (الفصل ٧)

STEIN (E.). — 1949. *Histoire du Bas Empire*, vol. II « De la disparition de l'Empire de l'Occident à la mort de Justinien, 476-565 », Paris-Bruxelles-Amsterdam : de Brouwer (الفصل ٧)

STEINDORFF (G. VON). — éd. 1903-19. *Urkunden des ägyptischen Altertums*, Leipzig, Hinrichs (الفصل ١١)

STEMLER (A.B.L.), HARLAM (J.R.) et DEWET (J.M.J.). — 1975. « Caudatum sorghums and speakers of Shari-Nile languages in Africa », *J.A.H.* XVI, 2 : 161-83 (الفصل ٢٤)

STOCK (H.). — 1949. *Die Erste Zwischenzeit Ägyptens. Untergang der Pyramidenzeit, Zwischenreiche von Abydos und Herakleopolis, Aufstieg Thebens*, Roma, Pontificium Institutum Biblicum. XX + 110 p. (الفصل ٢)

STRABON. — 1917-32. *The geography of Strabo*, édité et traduit par H.L. JONES, Cambridge, Mass. ; Harvard Univ. Press, Londres : Heinemann Ltd. 8 vol (الفصول ١، ٦، ١١، ٢٢)

SUMMERS (R.). — 1958. *Inyanga prehistoric settlements in Southern Rhodesia*, Cambridge, Cambridge Univ. Press (الفصل ٢٧)

— 1969. « Ancient mining in Rhodesia », *M.M.* 3 : 256 (الفصل ٢٧، ٢٩)

SUMMERS (R.), ROBINSON (K.R.) et WHITTY (A.). — 1961. Zimbabwe excavations. *O.P.N.M.* III, 23a (الفصل ٢٧)

SUTTON (J.E.G.). — 1966. « The archaeology and early peoples of the Highlands of Kenya and Northern Tanzania », *Azania* I : 37-57 (الفصل ٢٢)

— 1971. « The interior of East Africa », P.L. SHINNIE (éd.), *The African*

Iron Age, Oxford, Clarendon Press (الفصل ٢٢)

— 1972. « New radiocarbon dates for Eastern and Southern Africa », *J.A.H.* XIII, 1 : 1-24 (الفصلان ٢٥، ٢٧)

— 1973. *The archaeology of the Western Highlands of Kenya*, Nairobi-Londres, British Institute of Eastern Africa (الفصل ٢٢)

— 1974. « The aquatic civilization of Middle Africa », *J.A.H.* XV : 527-46 (الفصلان ٢١، ٢٢)

SUTTON (J.E.G.) et ROBERTS (A.D.). — 1968. « Uvinza and its salt industry », *Azania* III : 45-86 (الفصل ٢٩)

SZUMOWSKI (G.). — 1957. « Fouilles du Nord du Macina et dans la région de Segou », *B.I.F.A.N.* B. 19 : 224-58 (الفصل ٢٤)

TADESSE TAMRAT. — 1972. *Church and state in Ethiopia 1270-1527*, Oxford, Clarendon Press (الفصل ١٦)

TAMIT. — 1967. *Missione archeologia in Egitto dell'universita di Roma*, Rome (الفصل ١٢)

TARN (W.W.). — 1966. *The greeks in Bactria and India*, Cambridge, Cambridge Univ. Press (الفصل ٢٢)

TARN (W.W.) et GRIFFITH (G.T.). — 1966. *Hellenistic civilization* (1re éd. 1930) 3e éd., Londres, E. Arnold (الفصلان ٦، ٢٢)

TEUTSCH (L.). — 1962. *Das Stadtewesen in Nordafrika in der Zeit von C. Gracchus bis zum Tode des Kaisers Augustus*, Berlin, De Gruyter(الفصل ١٩)

TE VELDE (H.). — 1967. *Seth, God of confusion. A study of his role in Egyptian mythology and religion*, Leyde, E.J. Brill, XII + 168 p. (الفصل ٣)

THABIT (H.T.). — 1957. « Tomb of Djehuty-Hetep (Tehuti-Hetep), Prince of Semna », *Kush* 5 : 81-6 (الفصل ٩)

THOM (H.B.). — éd. 1952-1958. *The journal of Jan Van Riebeeck*, Cape Town, Balkema, 3 vol. (الفصل ٢٦)

THOMAS (E.M.). — 1959. *The harmless people (on the Bushmen of the Kalari Desert)*, Londres, Secker and Warburg (الفصل ٢٦)

THOMAS (W.R.). — 1931. « Moscow mathematical papyrus n° 14 », *J.E.A.* XVII : 50-2 (الفصل ٥)

THOMPSON (G.). — 1827. *Travels and adventures in Southern Africa*, éd. V.S. Forbes (Cape Town, Van Riebeeck Society) (الفصل ٢٦)

THUNBERG (C.P.). — 1795. *Travels in Europe, Africa, and Asia performed between 1770 and 1779*, vol. II, Londres (الفصل ٢٦)

TIXERONT (J.). — 1960. « Réflexions sur l'implantation ancienne de l'agriculture en Tunisie », *Khartago* X : 1-50 (الفصل ١٩)

TÖRÖK (L.). — 1971 « Fragment eines spätantiken roten Tongefässe mit Stempelverzierung aus Nubien und dessen Problemkreis », *M.A.I.* 2 (الفصل ١٢)

TOUNY (A.D.) et WENIG (S.). — 1969. *Der Sport im alten Ägypten, Leipzig-Amsterdam* (الفصل ٣)

TOYNBEE (J.M.C.). — 1973. *Animals in Roman Life and art ; aspects of Greek and Roman life*, Londres, Thames and Hudson (الفصل ٢٠)

TOZER (H.F.). — 1964. *History of ancient geography*, 2e éd., Biblo and

Tannen, New York (الفصل ٢٢)
TRIGGER (B.G.). — 1965. *History and settlement in Lower Nubia*, New Haven, Yale Univ. Pub. in anthropology, 69, VIII + 224 p. (الفصول ٩، ١١، ١٢، ١٧)
— 1969. « The myth of Meroe and the African Iron Age », *I.J.A.H.S.* II, 1 : 23-50 (الفصول ١٠، ١١، ٢١، ٢٤)
— 1970. « The cultural ecology of christian Nubia », in E. DINKLER (éd.), *Kunst und Gechichte Nubiens in christlicher Zeit*, Recklinghausen, Verlag Aurel Bongers : 347-87 (الفصل ١٢)
TUFNELL (O.). — 1959. « Anklets in Western Asia », *B.I.A.* 37-54 (الفصل ١٢)
TURCAN (R.). — 1961. « Trésors monétaires trouvés à Tipasa. La circulation du bronze en Afrique romaine et vandale aux V^e et VI^e siècles ap. J.-C. », *Libyca* 201-57 (الفصل ١٩)
TWISSELMANN (F.). — 1958. *Les Ossements humains du site mésolithique d'Ishango*, Exploration du Parc national Albert, Mission J. de Heinzelin de Braucourt (1950), Fasc. 5, Bruxelles, 125 p. (الفصل ٢٥)
TYLECOTE (R.F.). — 1970. « Iron working at Meroe, Sudan », *B.H.M.* 4 : 67-72 (الفصل ١١، ٢١)
UNESCO. — 1963-1967. *Fouilles de Nubie, 1959-1963*, Le Caire (الفصل ٢٠)
VAAL (J.B. DE). — 1943. « Soutpansbergse Zimbabwe », *S.A.J.S.* XL : 303-18 (الفصل ٢٧)
VALBELLE (D.). — 1974. *Lexikon der Ägyptologie* I, Lief 7, Col. 1028-34 (الفصل ٢)
VANSINA (J.). — 1962. « Long-distance trade routes in Central Africa », *J.A.H.* III, 3 : 375-90 (الفصل ٢٥)
— 1966. *Kingdoms of the Savanna*, Madison, Univ. of Wisconsin Press (الفصل ٢٧)
VANTINI (G.). — 1970. *The excavations at Faras, a contribution to the history of Christian Nubia*, Bologne, Nigrizia (الفصل ١٢)
VASILYEV (A.A.). — éd. 1907. « Zhitiye grigentiya, yepiscopa Omiritskago (Vita Sancti Gregenti) », *Vizantiyskiy vremennik* XIV : 63-4 (الفصل ١٥)
VEH (O.) (éd.). — 1971. *Vandalenkriege von Procopius Caesariensis*, Munich, Heimeran (الفصل ١٩)
VERCOUTTER (J.). — 1945. *Les Objets égyptiens ou égyptisants du mobilier funéraire carthaginois*, vol. 40, Paris, Bibliothèque archéologique et historique (الفصل ٩)
— 1956. « New Egyptian inscriptions from the Sudan », *Kush*, 4 : 66-82 (الفصل ٩)
— 1957. *Kush* V, pp. 61-69 (الفصل ١٢)
— 1958. « Excavations at Sai 1955-57 », *Kush* VI : 144-69 (الفصل ٩)
— 1959. « The gold of Kush. Two gold-washing stations at Faras East », *Kush*, VII : 120-53 (الفصلان ٩، ١١)
— 1962. « Un palais des Candaces contemporain d'Auguste ; fouilles à Wad-ban-Naga, 1958-60 », *Syria*, 39 : 263-99 (الفصلان ١٠، ١١)

— 1964. « Excavations at Mirgissa I (oct.-déc. 1962) ». *Kush* XII : 57-62 (الفصلان ٢، ٩)
— 1970. « Les trouvailles chrétiennes françaises à Aksha, Mirgissa et Sai », in E. DINKLER (éd.), *Kunst und Geschichte Nubiens in christlicher Zeit*, Recklinghausen, Verlag Aurel Bongers : 155-62.
— 1976. *L'Egypte ancienne*, 8e éd., Paris, P.U.F., Que sais-je ? n° 247 (الفصل ٢)
VERCOUTTER (J.), LECLANT (J.) et SNOWDEN (F.). — 1976. *L'Image du Noir dans l'art occidental*. Vol. I : « Des pharaons à la chute de l'empire romain ». Fribourg, Menil Foundation.
VERIN (P.). — 1967. « Les antiquités de l'île d'Anjouan », *B.A.M.* XLV, 1 : 69-79 (الفصل ٢٨)
— 1968. « Several types of obsolete Madagascar pottery », *Asian perspectives* XI : 111-8 (الفصل ٢٨)
— 1970. « Un conte antalaotse, Mojomby, la ville disparue », *B.M.* 293-94 : 256-8 (الفصل ٢٨)
VERIN (P.), KOTTAK (C.) et GORLIN (P.). — 1970. « The glottochronology of Malagasy dialects », *Oceanic linguistics* VIII, 2 (الفصل ٢٨)
VIDAL (P.). — 1969. *La Civilisation mégalithique de Bouar, Prospections et fouilles 1962-66*, Paris, Didot, 132 p. (الفصل ٢٥)
VILLIERS (A.). — 1949. « Some aspects of the Dhow trade », *M.E.J.* : 399 : 416 (الفصل ٢٢)
VILLIERS (H. DE). — 1970. « Dieskettreste der Ziwa », *Homo* XXI : 17-28 (الفصل ٢٧)
VINCENT (W.). — 1807. *The commerce and navigation of the Ancients in the Indian Ocean*, Londres, 2 vol. (الفصل ٢٢)
— 1809. *The voyage of Nearchus and the periplus of the Erythraean Sea*, Oxford (الفصل ٢٢)
VINICOMBE (P.). — 1960. « A fishing scene from the Tsoelike, South Eastern Basutoland », *S.A.A.B.* 15 : 15-9 (الفصل ٢٦)
— 1965. « Bushmen fishing as depicted in rock paintings », *S.S.A.* 212 : 578-81 (الفصل ٢٦)
VILA (A.). — 1970. « L'armement de la forteresse de Mirgissa-Iken », *R.E.* 22 : 171-99 (الفصل ٣)
VITA (A. DI). — 1964. « Il limes romano di Tripolitania nella sua concretezza archeologica e nella sua realta storica », *Libya antiqua* : 65-98 (الفصل ١٩)
VITTMANN (G.). — 1974. « Zur Lesung des Königsnamens », *Orientalia* 43 : 12-6.
VOGEL (J.O.). — 1969. « On early evidence of agriculture in Southern Zambia », *C.A.* X : 524 (الفصل ٢٧)
— 1970. « The Kalomo culture of Southern Zambia : some notes towards a reassessment », *Z.M.J.* I : 77-88 (الفصل ٢٧)
— 1971. « Kamangoza : an introduction to the Iron Age cultures of the Victoria Falls region », *Z.M.P.* II (الفصل ٢٧)
— 1971. « Kumandzulo : an Early Iron Age village site in Southern Zambia », *Z.M.P.* III (الفصل ٢٧)

— 1972. « On early Iron Age funerary practice in Southern Zambia », *C.A.* XIII : 583-6 (الفصل ٢٧)
— 1973. « The Early Iron Age at Sioma mission, Western Zambia », *Z.M.J.* IV (الفصل ٢٧)
VOLNEY (M.C.F.). — 1787. *Voyages en Syrie et en Egypte pendant les années 1783, 1784 et 1785*, Paris, Volland, Desenne, 2 vol. (الفصل ١)
VUILLEMOT (G.). — 1955. « La nécropole punique du phare dans l'île de Rachgoum », *Libyca* III : 7-76 (الفصل ١٨)
VYCICHL (W.). — 1956. « Atlanten, Isebeten, Ihaggaren », *R.S.O.* 31 : 211-20 (الفصل ١٧)
— 1957. « Egzi'abeher "Dieu" », *A.E.* II : 249-50 (الفصل ١٥)
— 1961. « Berber words in Nubian », *Kush* IX : 289-90 (الفصل ١٧)
— 1972. *Die Mythologie der Berber*, Stuttgart, H.W. Haussig (الفصل ١٧)
WAINWRIGHT (G.A.). — 1945. « Iron in the Napatan and Meroitic ages », *S.N.R.* 26 : 5-36 (الفصل ١١)
— 1947. « Early foreign trade in East Africa », *Man*, XLVII : 143-8 (الفصل ٢٢)
— 1951. « The Egyptian origin of a ram-headed breast plate from Lagos », *Man* LI : 133-5 (الفصل ٤)
— 1962. « The Meshwesh », *J.E.A.* 48 : 89-99 (الفصل ١٧)
WALLACE (L.). — 1938. *Taxation in Egypt from Augustus to Diocletian*, Princeton (الفصل ٧)
WALLE (B. VAN DE). — 1953. « La cippe d'Horus découverte par J. Bruce à Axoum », *Chronique d'Egypte* 56 : 238-47 (الفصل ١٥)
WALLERT (I.). — 1962. *Die Palmen im alten Ägypten. Eine Untersuchung ihrer praktischen, symbolischen und religiösen Bedeutung*, Berlin, B. Hessling, 159 p. (الفصل ١٧)
WALSH (P.). — 1965. « Massinissa », *J.R.S.* LV (الفصل ١٨)
WARMINGTON (B.H.). — 1954. *The North African provinces from Diocletian to the Vandal conquest*, Cambridge (الفصل ١٩)
— 1969. *Carthage*, 1re éd. : 1964, Londres, Robert Hale (الفصلان ١٨، ٢١)
WARMINGTON (E.H.). — 1928. *The commerce between the Roman empire and India*, Cambridge, Cambridge Univ. Press, 2e éd. : 1974, Londres, Curzon Press (الفصل ٢٢)
— 1963. « Africa in ancient and medieval times », in E.A. WALKER (éd.), *Cambridge History of the British Empire*, Cambridge, Cambridge University Press, vol. VIII (الفصل ٢٢)
WATERHOUSE (G.) (éd.). — 1932. *Simon Van der Stel's journal of his expedition to Namaqualand, 1685-1686*, Dublin, Dublin Univ. Press. 162 p. (الفصل ٢٦)
WEBSTER (T.B.L.). — 1964. *Hellenistic poetry and art*, Londres, Methuen (الفصل ٦)
WEITZMANN (K.). — 1970. « Some remarks on the sources of the fresco paintings of the cathedral of Faras », *in* E. DINKLER (éd.), *Kunst und Geschichte Nubiens in christlicher Zeit*, Recklinghausen, Verlag Aurel Bongers : 325-46 (الفصل ١٢)

WELBOURNE (R.G.). — 1973. « Identification of animal remains from the Broederstroom 24/73 early iron age site », *S.A.J.S.* LXIX : 325 (الفصل ٢٧)

WENDT (W.E.). — 1972. « Preliminary report on an archaeological research programme in South West Africa », *Cimbebasia B.* 2, 1 : 1-45 (الفصل٢٦)

WENIG (S.). — 1967. « Bemerkungen zur meroitische Chronologie », *M.I.O.D.* 13 : 9-27 (الفصلان ١٠، ١١)

— 1967. *Die Frau im alten Ägypten*, Leipzig (الفصل ٢)

— 1974. Article *in Z.Ä.S.* 101 : 143-4 (الفصل ١٠)

WESSEL (K.). — 1963. *Koptische kunst. Die Spätantike in Ägypten*, Recklinghausen, A. Bongers (الفصلان ٧، ١٢)

— 1964. *Zur Ikonographie der koptischen Kunst, Christentum am Nil*, Recklinghausen, Verlag A. Bongers (الفصل ١٢)

WESTENDORF (W.). — 1968. *Das alte Agypten*, Stuttgart-Baden Baden, Holle (الفصل ٢)

WHEELER (R.E.M.). — 1954. *Rome beyond the imperial frontiers*, Londres, Bell (الفصل ٢٢)

— 1966. *Civilizations of the Indus Valleyand beyond*, Londres, Thames and Hudson (الفصل ٢٢)

WILCKEN (U.) et MITTEIS (L.). — 1912. *Grundzüge der Papyruskunde*, Leipzig (الفصل٧)

WILL (E.). — 1966. *Histoire politique du monde hellénistique, 323-30 av. J.-C.*, 2 vol., Nancy, Berger-Levrault (الفصل ٦)

WILLET (F.). — 1967. *Ife in the history of West African sculpture*, Londres, Thames and Hudson (الفصل ٢٤)

WILLIAMS (D.). — 1969. « African iron and the classical world », *in* L.A. THOMPSON et J. FERGUSON (éd.), *Africa in classical antiquity*, Ibadan : 62-80 (الفصل ٢١)

WILSON (J.A.). —1951. *The Burden of Egypt. An interpretation of ancient Egyptian culture*, Chicago, Univ. of Chicago Press, XX + 332 p (الفصل ٢)

— 1969. *Ancient Near East Texts*, in J.B. PRITCHARD, Princeton : 409 (الفصل ٤)

WINLOCK (H.E.). — 1947. *The rise and fall of the Middle Kingdom in Thebes*, New York, Macmillan (الفصل ٢)

— 1955. *Models of daily life in Ancient Egypt from the tomb of Meket-Rê at Thebes*, Cambridge, Harvard Univ. Press (الفصل٥)

WINSTEDT (E.O.). — 1909. *The christian topography of Cosmas Indicopleustes*, Cambridge, Cambridge University Press (الفصل ١٥)

WISSMANN (H. VON). — 1964. « Ancient history », *Le Muséon*, LXXVII, 3-4 (الفصل ١٥)

WISSMANN (H. VON) et RATHJENS (C.). — 1957. « De Mari Erythraeo : Sonderdruck aus der Lauten sich », *Festschrift stuttgarter geographische Studien*, 69 (الفصل ٢٤)

WOLDERING (I.). — 1963. *Egypt, the art of pharaohs*, Londres, Methuen (الفصل ٥)

WOLF (W.). — 1957. *Die Kunst Agyptens : Gestalt und Geschichte*, Stuttgart, Kohlhammer (الفصل ٢)

— 1971. *Das alte Ägypten*, Darmstadt-Munich, Deutscher Taschenbuch Verlag (الفصل ٢)

WOLSKA-CONUS (W.). — éd. 1968-70-73. *Cosmas Indicopleustes. Topographie chrétienne*, Paris, Le Cerf, 3 vol. (الفصول ١٤، ١٦، ٢٢)

WORD (W.). — 1965. *The spirit of Ancient Egypt*, Beyrouth (الفصل ٢)

Wörterbuch der ägyptischen Sprache, fünfter Band (1971), Berlin, Akademie Verlag (الفصل ١)

YORK (R.N.), BASSEY (F.) *et al.* — 1974. « Excavations at Dutsen Kongba », *N.A.S.* (الفصل ٢٤)

YOYOTTE (J.). — 1958. « Anthroponymes d'origine libyenne dans les documents égyptiens », *C.R.G.L.C.S.* 8 (الفصلان ٤، ١٧)

— 1958. *in Dictionnaire de la Bible*, supplément VI, I, Paris, Le Touzey et Ane : 370 (الفصل ٤)

— 1961. « Les principautés du delta au temps de l'anarchie libyenne », *Mélanges Maspero* 1, 4 : 122-51 (الفصلان ٢، ١٧)

— 1965. « Egypte ancienne », *Histoire universelle*, Paris, Gallimard, Encyclopédie de la Pléiade : 104-285 (الفصل ٢)

— 1975. « Les Sementiou et l'exploration des régions minières de l'Ancien Empire », *B.S.F.E.* 73 : 44-55 (الفصل ٢)

ZABA (Z.). — 1953. *L'Orientation astronomique dans l'Ancienne Egpyte et la précession de l'axe du monde*, Prague (الفصل ٥)

ZABKAR (L.W.). — 1975. *Apedemak, Lion god of Meroe*, Warminster (الفصلان ١٠، ١١)

ZAWADZKI (T.). — 1967. « Les fouilles de la mission archéologique polonaise à Faras leur importance pour l'histoire de l'art byzantin », *R.E.S.E.E.* V. (الفصل ١٢)

ZEISSL (H. VON). — 1944. *Äthiopen und Assyer in Ägypten*, Glückstadt-Hamburg, J.J. Augustin (الفصلان ٢، ١٠)

ZIBEUUS (K.). — 1972. *Afrikanische Arts und Volkernamen in hieroglyphischen und hieratischen Texten*, Wiesbaden (الفصل ٤)

ZÖHRER (L.G.). — 1952-3. « La population du Sahara antérieure à l'apparition du chameau », *B.S.N.G.* 51 : 3-133 (الفصل ٢٠)

كشّاف
أسماء الأماكن

أ

ب

ت

ث

ج

ح

خ

د

ذ

ر

ز

س

ش

ص

ط

ظ

ع

غ

ف

ق

ك

ل

م

أسماء الأشخاص

أ

ب

ت

ج

ح

خ

د

ص

ط

ع

غ

ف

ق

ك

المواضيع والمفاهيم والتصورات الهامة

أسماء السلالات والقبائل والمجموعات

أسماء الأسر الحاكمة

تمت طباعته في
الربع الأخير من عام ١٩٨٥
على مطابع كانالي
في تورينو (ايطاليا)

Achevé d'imprimer en Italie
par Tipolitografia G. Canale & C. S.p.A. - Turin

الايداع القانوني: الربع الأخير من ١٩٨٥
دار النشر: جون أفريك ـ ٣ شارع روكيين ـ ٧٥٠٠٨ باريس
رقم الناشر: ١/١٣٥٨

لقد ظلت الأساطير والآراء المسبقة بمختلف صورها تخفي عن العالم لزمن طويل التاريخ الحقيقي لأفريقيا. فقد اعتبرت المجتمعات الأفريقية مجتمعات لا يمكن أن يكون لها تاريخ. وعلى الرغم من البحوث الهامة التي اضطلع بها منذ العقود الأولى من هذا القرن رواد مثل ليوفروبينيوس، وموريس ديلافوس، وأرتورو لابريولا، فان عددا كبيرا من الأخصائيين غير الأفريقيين المتشبثين بمسلمات معينة قد ظلوا ينحازون الى القول بأن هذه المجتمعات لا يمكن أن تكون موضوعا للدراسة العلمية، مستندين في قولهم هذا بصفة خاصة الى نقص المصادر والوثائق المكتوبة. وقد كان ذلك في الواقع رفضا للاعتراف بأن الأفريقي مبدع لثقافات أصيلة ازدهرت واستمرت تسلك عبر القرون مسالك خاصة بها، لا يستطيع المؤرخ أن يدركها الا اذا تخلى عن بعض آرائه المسبقة، والا اذا جدد منهجه.

وقد تطوّر الوضع كثيرا منذ نهاية الحرب العالمية الثانية، وخاصة بعد أن أخذت البلاد الأفريقية، وقد نالت استقلالها، تشارك مشاركة فعالة في حياة المجتمع الدولي وفي العلاقات المتبادلة التي هي أساس حياة هذا المجتمع، فتزايد حرص المؤرخين على دراسة أفريقيا بمزيد من الدقة والموضوعية والتفتح الذهني، وأخذوا يستعينون بالمصادر الأفريقية ذاتها.

ومن هنا كانت أهمية «التاريخ العام لأفريقيا» ، الذي تبدأ اليونسكو اصداره في ثمانية مجلدات.

ولقد راعى الأخصائيون الذين جاءوا من بلاد عديدة وساهموا في المؤلف أن يرسوا أولا أسسه النظرية والمنهجية. ومن ثم حرصوا على أن يعيدوا النظر في التبسيطات المخلة التي نتجت عن تصور خطي ضيق للتاريخ العالمي، وعلى أن يبرزوا من جديد حقيقة الأحداث التي وقعت كلما كان ذلك ضروريا وممكنا. وجدّوا في استخلاص المعطيات التاريخية التي تيسر تقصي تطور مختلف الشعوب الأفريقية بما لها من خصوصية اجتماعية ثقافية.

ان هذا التاريخ العام يلقي الضوء في نفس الوقت على وحدة تاريخ أفريقيا وعلى علاقاتها بالقارات الأخرى ــ وخاصة الأمريكتين ومنطقة الكاريبي. فلقد دأب بعض المؤرخين لفترة طويلة على عزل مظاهر التعبير الابداعي لدى أحفاد الأفريقيين في الأمريكتين وتصنيفها تحت عبارة جامعة غريبة باسم الخصائص الأفريقية. أو «الأفريقيات». وغني عن الذكر أن مؤلفي الكتاب الذي نحن بصدده لا يعتنقون هذه النظرة. فلقد رأوا الرأي الصائب في مقاومة الرقيق الذين رحلوا الى أمريكا، وفي ظاهرة «التهجين» السياسي والثقافي، وفي اشتراك أحفاد الأفريقيين دوما وعلى نطاق ضخم في كفاح حركة الاستقلال الأمريكي الأولى وفي حركات التحرير الوطنية، وأدركوا هذه الأمور على حقيقتها باعتبارها محاولات قوية لتأكيد الذاتية أسهمت في صياغة المفهوم الشامل للانسانية.

كما يبرز هذا المؤلف على نحو واضح ما لأفريقيا من علاقات بجنوب آسيا عبر المحيط الهندي، وما قدمته من مساهمات أفريقية لغيرها من الحضارات عن طريق العلاقات المتبادلة.

ان لهذا الكتاب مزية كبرى، هي أنه يطلعنا على آخر تطورات معارفنا عن أفريقيا ويعرض الثقافات الأفريقية من وجهات نظر شتى، ويقدم رؤيا جديدة للتاريخ، فيبرز لنا بذلك مناطق النور والظل دون أن يخفي اختلاف الآراء بين العلماء.